طرق
التجارة القديمة

روائع آثار
المملكة العربية السعودية

دليل معرض «طرق التجارة القديمة، روائع آثار المملكة العربية السعودية»
باريس، متحف اللوفر
١٤ يوليو – ٢٧ سبتمبر ٢٠١٠

نظّم هذا المعرضَ متحفُ اللوفر
والهيئة العامة السعودية للسياحة والآثار





هذا المعرض قد حظي بمساعدة:
شركة الخطوط الجوية العربية السعودية، البنك السعودي الفرنسي،
طارق عبد الهادي القحطاني وإخوانه ورفعت مدحت شيخ الأرض






الرباعيات ومؤسسة توتال





الغلاف: دادان (العلا)
تصوير أومبرتو دا سيلفيرا (Humberto da Silveira)

www.louvre.fr
www.somogy.net

ISBN musée du Louvre : 978-2-35031-289-7
ISBN Somogy éditions d'art : 978-2-7572-0407-8

طرق التجارة القديمة

روائع آثار المملكة العربية السعودية

بإشراف كل من :
أ. د. علي بن إبراهيم الغبان، أ. د. بياتريس أندريه-سالفيني (Béatrice André-Salvini)،
د. فرانسواز ديمانج (Françoise Demange)، د. كارين جوفين (Carine Juvin)، د. ماريان كوتّي (Marianne Cotty)
عبدالعزيز الغزي، سعود الذياب، عبدالله السعود






طُرق التجارة القديمة - روائع آثار المملكة العربية السعودية
معرض يقام تحت رعاية

خادم الحرمين الشريفين
الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
عاهل المملكة العربية السعودية

السيد نيكولا ساركوزي
فخامة رئيس الجمهورية
الفرنسية

The exhibition *Roads of Arabia: Archaeology and History of the Kingdom of Saudi Arabia*
is under the patronage of

CUSTODIAN OF THE TWO HOLY MOSQUES
KING ABDULLAH
BIN ABDULAZIZ AL SAUD
KING OF SAUDI ARABIA

MONSIEUR NICOLAS SARKOZY
PRESIDENT OF
THE FRENCH REPUBLIC



خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود والرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي

تقديم بقلم هنري لـواريت

مدير عام متحف اللوڤر

يُسعد متحف اللوڤر ويشرّفه ان يستضيف المعرض الاول المخصّص بالماضي القديم والمضيء للمملكة العربية السعودية. يروي لنا الثقافات الغنية التي تعاقبت على ارضٍ فسيحة، ذات مناظر متنوعة، تتسع لاقوامٍ مختلفة، ولكنها موحّدة بفضل موقعها في صميم ملتقى الحضارات العظيمة منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا، فضلاً عن كونها مهد الإسلام.

إن معرض طُرق التجارة القديمة - روائع آثار المملكة العربية السعودية القائم في متحف اللوڤر، تحت رعاية فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية السيد نيكولا ساركوزي، وخادم الحرمين الشريفين صاحب الجلالة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود يمثل تتويجاً مشهوداً لاتفاق تعاون ثقافي موقّع في أبريل/ نيسان ٢٠٠٤ بين صاحب السمو الملكي الامير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، رئيس الهيئة العليا للسياحة والآثار في المملكة العربية السعودية، وبين متحف اللوڤر.

هذا الحدث هو استجابة مُثلى لإرسال «روائع من مجموعة الفنون الإسلامية في متحف اللوڤر» إلى المتحف الوطني في الرياض، وذلك كناية عن مبادرة أولى منظمة في مجال تعاوننا، الذي دشّنه في ربيع ٢٠٠٦ صاحب الجلالة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، بجانب فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك السيد جاك شيراك.

وإن الأسرة الملكية السعودية تُعرب عن اهتمام متواصل بمتحف اللوڤر، فالهبة السخية التي تبرّع بها صاحب السمو الملكي الامير الوليد بن طلال بن عبدالعزير آل سعود، بغية تشييد الصالات المستقبلية لقسم الفنون الاسلامية، لهي شاهد مبهر على ذلك. والحدث الآخر اليوم هو إعارة تشمل ما يزيد على أربع مئة تحفة، تتزايد بأهمية كبرى سواء على الصعيد التاريخي، الجمالي، الرمزي، ومعظمها يعرض لاول مرة على الجمهور وتطالع الغرب بعالمٍ كان يجهله من ناحية أخرى.

من جانب آخر، تجدر الاشادة بالتعاون الأمثل، إن يكن ذلك على مستوى المؤسسات الرسمي أو على مستوى البحث العلمي، الذي تنامى وتعزّز طوال مدة إعداد المشروع، مُحْدثاً بذلك صِلاتٍ دائمة بين بلدينا. وهذا البحث المشترك قد أتاح بخاصة ان يُجرى، في متحف اللوڤر، عمليات ترميمٍ مشهودة. وعلى هذا الوجه، فان التماثيل الضخمة لملوك لحيان القدماء، الذين حكموا شمالي البلد منذ اكثر من ألفي سنة، قد أتيح لها ان تستعيد اكتمالها الغابر.

أخيراً، إن انجاز هذا المعرض الطموح لَما كان يكلله النجاح، لولا العلاقات الودية المميزة، التي انتسجت طوال ثلاثة أعوامٍ تقريباً من العمل المشترك، ولولا المتبرعون الاسخياء السعوديون والفرنسيون، الذين أحرص على شكرهم.

FOREWORD BY HENRI LOYRETTE

President-Director of the Musée du Louvre

The Musée du Louvre is delighted and honoured to be hosting the first exhibition devoted to the ancient and prestigious history of the Kingdom of Saudi Arabia. It reveals the rich cultures which succeeded one another over a vast territory with diverse landscapes and peoples but unified by its role as a crossroads at the heart of great civilizations past and present and as the cradle of Islam.

The exhibition *Roads of Arabia: Archaeology and History of the Kingdom of Saudi Arabia*, presented at the Louvre under the patronage of the President of the French Republic, Monsieur Nicolas Sarkozy, and The Custodian of the Two Holy Mosques, His Majesty King Abdullah bin Abdulaziz Al Saud, is the spectacular culmination of the cultural collaboration agreement signed in April 2004 by His Royal Highness Prince Sultan bin Salman bin Abdulaziz Al Saud, President of the Saudi Commission for Tourism and Antiquities, and the Musée du Louvre.

This event is a magnificent response to the exhibition *Masterpieces from the Louvre's Islamic Arts Collection* at the National Museum in Riyadh. The first example of our cooperation, the exhibition was inaugurated by His Majesty King Abdullah bin Abdulaziz Al Saud and President Jacques Chirac in the spring of 2006.

The Saudi royal family has shown a constant interest in the Musée du Louvre, and the generous donations made by His Royal Highness Prince Alwaleed bin Talal bin Abdulaziz Al Saud for the construction of the new galleries of Islamic Arts are a dazzling example of this. The loan of more than three hundred works of immense historic, aesthetic and symbolic interest, most of them never before shown to the public, giving people an opportunity to see a world they never knew before, is another example.

I would like to pay tribute to the exemplary institutional and scientific collaboration which has developed and intensified during the course of this project, creating lasting bonds between our two countries. Just one example is the joint research that led to the spectacular restorations at the Louvre which enabled the colossal statues of the ancient kings of Lihyan, who reigned in the north of the country over two thousand years ago, to recover their former splendour.

The realization of this ambitious exhibition could not have been successfully achieved without the strong friendships which developed during almost three years of cooperation, or without the generous Saudi and French donors to whom we are so grateful.

تقديم صاحب السمو الملكي الامير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار

المملكة العربية السعودية مهد الإسلام وأرض العروبة وجسر التواصل الحضاري بين قارات العالم، حيث كانت أرض المملكة ممرا لطرق التجارة القديمة وتعاقبت فيها حضارات متعددة لا تزال آثارها باقية حتى الوقت الحاضر شاهداً حياً على البعد الحضاري للملكة الذي يمتد لآلاف السنين.

ويأتي تنظيم معرض روائع آثار المملكة العربية السعودية وحضارتها عبر العصور بمتحف اللوفر برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود وفخامة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي تجسيداً للعلاقات المتميزة بين المملكة العربية السعودية وجمهورية فرنسا وتفعيلاً لاتفاقية التعاون في مجال المتاحف التي وقعت في شهر إبريل عام ٢٠٠٤م بين الهيئة العامة للسياحة والآثار ومتحف اللوفر.

ويضم هذا المعرض ما يزيد على ٤٠٠ قطعة أثرية وتراثية من أنفس مقتنيات المتاحف السعودية تعرض لأول مرة خارج المملكة، وهي نتاج أعمال المسح والتنقيب الأثري التي تمت خلال الأربعين عاماً الماضية شملت جميع مناطق المملكة، وتمثل هذه القطع نموذجاً لما تزخر به أرض المملكة من ثراء في هذا المجال، وتهدف الهيئة العامة للساحة والآثار من إقامة هذا المعرض في متحف اللوفر الذي يُعَدُّ أحد أبرز متاحف العالم ويزوره ملايين الزوار سنوياً إلى التواصل الثقافي من خلال تمكين زوار اللوفر من التعرف على المنجزات الحضارية التي تمت على أرض المملكة ومساهمة سكانها في إثراء التراث الإنساني عبر العصور.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لمقام سيدي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ولفخامة الرئيس نيكولا ساركوزي على تفضلهما برعاية هذا المعرض ودعمه، كما أشكر القائمين على متحف اللوفر وفي مقدمتهم السيد هنري لواريت مدير عام المتحف الذين ساهموا في تطوير العلاقات في مجال العمل المتحفي بين البلدين وكان من ثمراته تنفيذ هذا المعرض بأعلى المستويات، كما أشكر جميع المؤسسات والشركات التي قدمت الدعم لتنفيذ هذا المعرض وفرق العمل التي ساهمت في تنظيم هذا المعرض من الجانبين السعودي والفرنسي.

والله الموفق،،،

FOREWORD BY HIS ROYAL HIGHNESS PRINCE SULTAN BIN SALMAN BIN ABDULAZIZ AL SAUD

President of the Saudi Commission for Tourism and Antiquities

The Kingdom of Saudi Arabia, cradle of Islam and land of the Arabian identity, has always acted as a bridge between the civilizations of several continents. Traversed by ancient trade roads, it has been successively peopled by diverse civilizations whose enduring remains bear testimony to a past stretching back several millennia.

This exhibition, presenting the archaeological masterpieces of the Kingdom of Saudi Arabia and exploring its history down the ages, is being shown at the Musée du Louvre under the patronage of the Custodian of the Two Holy Mosques His Majesty King Abdullah bin Abdulaziz Al Saud and His Excellency the President of the French Republic, Monsieur Nicolas Sarkozy. In fact, it is merely the concretization of the special relationships established between the Kingdom of Saudi Arabia and the French Republic and the practical application of a cooperation agreement between the Musée du Louvre and the Saudi Commission for Tourism and Antiquities signed in April 2004.

The exhibition provides the first opportunity outside Saudi Arabia to see more than four hundred of the kingdom's most precious archaeological treasures. They are the fruit of archaeological explorations and excavations carried out in all regions over the last forty years and a sample of the kingdom's riches in this field. For the Saudi Commission for Tourism and Antiquities, the presentation of this exhibition at the Musée du Louvre, one of the world's most eminent museums, visited yearly by millions, is an opportunity to encourage cultural exchanges. Visitors to the Louvre will have the possibility of discovering the kingdom's artistic achievements and the contribution of its ancient and more recent inhabitants to our world heritage.

I would like to express my gratitude to the Custodian of the Two Holy Mosques, His Majesty King Abdullah bin Abdulaziz Al Saud, and His Excellency the President of the French Republic, Monsieur Nicolas Sarkozy, for bestowing their patronage and supporting this exhibition. I would also like to thank the staff of the Musée du Louvre, especially its President-Director, Monsieur Henri Loyrette, who have actively worked to develop relations between our two countries in the museum field, one of the fruits of which is this exhibition. I would also like to thank all the institutions and companies who provided support for the realization of this exhibition, and the teams in Saudi Arabia and France who participated in its organization.

May God favour its success…

المعرض

متحف اللوفر
إدارة الانتاج الثقافي قسم المعارض
جهاز المعارض

ثريا كركش (Soraya Karkache)
رئيسة قسم المعارض

كلير شالفيه (Claire Chalvet)
منسقة المعرض

باسكال بيرينل (Pascal Périnel)
مدبّر المعرض

إدارة هندسة معمارية المتحفية والتقنيات

آلان بواسونيه (Alain Boissonnet)
مدير

ميشال أنطونبيتري (Michel Antonpietri)
مدير مساعد

كليو كاراجورجيس (Clio Karageorghis)
رئيس قسم
هندسة معمارية، تنظيم المتحف، وصف بياني

فيكتوريا غرتنباخ (Victoria Gertenbach)
جان- جوليان سيمونو (Jean-Julien Simonot)
إخراج متحفيّ

ديناتو دي نونو (Denato Di Nunno)
خطوط

كارول مانزانو (Carol Manzano)
وسيسيل غيلِرْمان (Cécile Guillermin)
تنسيق، قسم الهندسة المعمارية،
متحفية، وصف بياني

هِرفيه جاروسو (Hervé Jarousseau)
رئيس قسم أشغال المتحفية

كزافيه غيو (Xavier Guillot)
وفيليب لوكلير (Philippe Leclercq)
تنسيق،
قسم أشغال تنظيم المتحفية

النشر

متحف اللوفر
إدارة الانتاج الثقافي

فيولين بوفيه- لانسل (Violaine Bouvet-Lanselle)
رئيس قسم المنشورات

كريستين فوزو (Christine Fuzeau)
متابعة النشر

أريان غيرو- فريدر (Ariane Guéroult-Freyder)
جمع الصور واللوحات، قسم الصور
وموارد توثيقية

ترجمة
الألمانية
إيرين إيمارت (Irène Imart)

الإنكليزية
ليدي إيشاسيريو (Lydie Échasseriaud)
آن- ماري تيريل (Anne-Marie Terel)

سوموجي منشورات فنية

نيكولا نومان (Nicolas Neumann)
مدير

كليمنتين بتي (Clémentine Petit)
متابعة النشر

نيللي ريدل (Nelly Riedel)
ابتكار فنون تخطيطية

ميشال بروسيه (Michel Brousset)
بياتريس بورجيري (Béatrice Bourgerie)
ماتياس بريدان (Mathias Prudent)
تصنيع

طباعة عربية
دار الترجمة والتعريب (Arab Consultants)
باريس- فرنسا
فرانسواز بوطانوس (**Françoise Boutanos**)
تنسيق ومتابعة

ترجمة
العربية
نعيم بوطانوس (**Naïm Boutanos**) ومساعدوه
في دار الترجمة والتعريب – باريس (**Arab Consultants**):
سليم عـنتوري (**Salim Antoury**)،
إدي غاريوس (**Eddy Gharios**)،
إبراهيم يزبك (**Ibrahim Yazbeck**)،
سيلفانا حلبي (**Silvana Halabi**)، وغيرهم...

الهيئة السعودية العامة للسياحة والآثار

صاحب السمو الملكي الأمير
سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود
رئيساً

علي إبراهيم الغبان
نائب رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف

سعيد السعيد
عميد كلية السياحة والآثار
بجامعة الملك سعود

عبدالله السعود
مدير عام المتحف الوطني بالرياض

متحف اللوفر

هنري لواريت (Henri Loyrette)
الرئيس/ المدير

هرفيه برباريه (Hervé Barbaret)
المأمور العام

كاترين سوبور (Catherine Sueur)
المأمور العام المساعد

بياتريس أندريه- سالفيني (Béatrice André-Salvini)
مديرة قطاع
الآثار الشرقية

صوفي ماكاريو (Sophie Makariou)
مديرة قطاع الفنون الإسلامية

جوليات أرمان (Juliette Armand)
مديرة الانتاج الثقافي

مفوضية المعرض

المملكة العربية السعودية

علي إبراهيم الغبان
نائب رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف،
الهيئة السعودية العامة للسياحة والآثار، الرياض

عبدالله السعود
مدير عام المتحف الوطني بالرياض

فرنسا

بياتريس أندريه- سالفيني (Béatrice André-Salvini)
الأمينة العامة، مديرة قطاع
الآثار الشرقية في متحف اللوفر، باريس

فرانسواز ديمانج (Françoise Demange)
كبيرة الأمناء في قطاع
الآثار الشرقية بمتحف اللوفر، باريس

كارين جوفان (Carine Juvin)
المعاوِنة العلمية في قطاع
الفنون الإسلامية في متحف اللوفر، باريس

يعاونهن ماريان كوتي (Marianne Cotty)، المكلفة بالمعرض
في قطاع الآثار الشرقية في متحف اللوفر، باريس

صاحب السمو الملكي الامير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود
رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار

يشكر



طارق عبدالهادي عبدالله القحطاني وإخوانه

و



لدعمهم السخي الذي مكننا من اصدار هذه النسخة العربية

كلمات شكر

نرفع أسمى آيات الشكر والعرفان إلى خادم الحرميْن الشريفيْن الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، وإلى فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية، السيد نيكولا ساركوزي، اللذيْن منحا هذا المعرض رعايتَهما الكريمة.

ولم يكن هذا المشروع الطَموح ليُبصر النور، لولا إرادة وسخاء صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار في المملكة العربية السعودية.

ولولا الدعم الذي قدمه رئيس/ مدير متحف اللوفر هنري لواريت (Henri Loyrette). لم يكن ممكناً إقامة هذا المعرض، في متحف اللوفر، نُعرب عن امتناننا لأعضاء إدارة المتحف-، ديدييه سل (Didier Selles) ثم هرفيه برباريه (Hervé Barbaret)، المأمورين العاميْن، وكاترين سويور (Catherine Sueur) المأمور العام المساعد-، ومديري أقسام وإدارات اللوفر وأجهزته، ومساعديهم الذين كان عملهم أساسياً لتنظيم المعرض وإعداده، وترتيب التحف في مواضعها والإشراف عليها وحراستها.

نوجه شكرنا خصوصاً إلى:

جولييت أرمان (Juliette Armand) مديرة الانتاج الثقافي؛

وفي الإدارة، إلى بنوا دو سان- شاما (Benoît de Saint-Chamas)، لمؤازرته الودية ونصائحه، وسابين دولا روشفوكو (Sabine de la Rochefoucauld) وكارولين داماي (Caroline Damay)؛

في دائرة المعارض نشكر: ثريا كركش (Soraya Karkache) وكلير شالفيه (Claire Chalvet) وباسكال بيرينل (Pascal Périnel)، على ما تحلّوا به من صبرٍ وفعالية وتوفّرهم الدائم؛ لتنظيم التحف في المعرض وأوصافها، نشكر: آلان بواسونيه (Alain Boissonnet) وميشال انطونبيتري (Michel Antonpietri) وكليو كاراجورجيس (Clio Karageorghis) لكفاءتها المُطَمْئنة وصداقتها، وهرفيه جاروسو (Hervé Jarousseau) وكزافييه غيو (Xavier Guillot) وفيليب لوكلير (Philippe Leclercq) وكريستوف برسون (Christophe Personne)، وستيفاني دو فوميكور- هُوْي (Stéphanie de Vomécourt-Houille) وكارول مانزانو (Carol Manzano) وسيسيل غيلِرْمان (Cécile Guillermin) ودوناتو دي نونّو (Donato Di Nunno)، على عملهم الوصفي الصعب الذي أنجزوه بفعالية ولياقة؛ ونشكر كلَ مشاغل اللوفر- إعداد التحف الفنية، والرخام والتعدين والنجارة والتثبيت والتأطير والدعائم وتركيز التحف - التي أنجزت عملاً رائعاً. وأخيراً، تولى جان- جوليان سيمونو (Jean-Julien Simonot) وفيكتوريا غرتنباخ (Victoria Gertenbach) موضوع الإخراج المشهدي (سينوغرافيا)، ونحن نحرص على التعبير لهما عن امتناننا.

ونحرص أيضاً على التعبير عن كامل شكرنا، في إدارة الإتـصالات، لكلٍ من أغجي ليـرول (Aggy Lerolle) بشكل خاص، وصوفي غرانج (Sophie Grange)؛ وفي إدارة قاعة المحاضرات، أمـَّن جان- مارك تيراس (Jean-Marc Terrasse)، بلباقته المألوفة، وفي ظروف استثنائية، برمجةً لمواكبة المعرض؛ إننا نشكره، وكذلك جميع أعضاء فريق قاعة المحاضرات، لاسيما مونيكا بريتي- هامار (Monica Preti-Hamard) وصوفي بيكوش (Sophie Beckouche). وشارك في المشروع قسم «المولتيميديا»، حول إنياس ألفانداري (Agnès Alfandari) وماري – كلير غيار- لو بورديليه (Marie-Claire Guillard-Le Bourdellès)، وكذلك إدارة الزائرين حول كاترين غـيو (Catherine Guillou). ونـوجه شكراً خـاصاً في إدارة الإسـتقبال والـمراقبة، إلى سِرْج لوديك (Serge Leduc) وكريستين فينانس (Christine Finance)؛ وفي جهاز التخطيط SPSI، إلى الكابتن جان- فرانسوا دورات- بيكساو (Jean-François Durate-Paixao).

وان إدارة التطوير ورعاية الفنون، حول كريستوف مونين (Christophe Monin) قد برهنت على تفانيها، خصوصاً نيكول سالينجر (Nicole Salinger)، ثم غاييل أبيكاسيس (Gaële Abécassis) وصوفي كاميرير (Sophie Kammerer) وإليز مايار (Élise Maillard).

وقد بذل قسم المنشورات في اللوفر قصارى جهده، لكي تصدر النسخ الثلاث من هذا الدليل – بالفرنسية والإنكليزية والعربية- في الوقت الملائم، بالإشتراك مع منشورات سوموجي (Somogy). نوجه شكراً خاصاً إلى فيولين بوفيه-لانسل (Violaine Bouvet-Lanselle)، ونشكر خصيصاً كريستين فوزو (Christine Fuzeau) لدعمها الثابت وحضورها الودود ومساعدتها اليومية، وتوفّرها وهدوئها وفعاليتها وكفاءتها. وفي قسم الوسائل التوثيقية، فقد جمّعت أريان غيرو - فريدر (Ariane Guéroult-Freyder) التماثيل والرسوم الضرورية. ولا ننسى الذين قاموا بالترجمة في ظروف عاجلة. ونحرص أيضا على توجيهِ شكرٍ حارٍ إلى منشورات سوموجي (Somogy) ومديرها نيكولا نومان (Nicolas Neumann) وفلورنس جاكوبوفيتش (Florence Jakubowicz)، وخصوصا كليمنتين بتي (Clémentine Petit) ونيلي ريدل (Nelly Riedel) اللتيـْن عملتا بتفانٍ كبير لإنجاز المهمة الصعبة، المطلوبة منهما. ونشكر أخيراً فريق التدقيق، المؤلف من ميشالٍ بروسيه (Michel Brousset) وبياتريس بورجيري (Béatrice Bourgerie) وماتياس برودون (Mathias Prudent)، كما نوجه الشكر الخاص لدار الترجمة والتعريب، باريس (Arab Consultants)، والمتابعة الحثيثة من السيدة والسيد فرانسواز ونعيم بوطانوس والسيدة سيلفانا الحلبي.

ان مفوّضي المعرض يوجّهون شكرهم وامتنانهم أيضاً إلى جميع الذين أرادوا تقديم مؤازرتهم من أجل إنجازه الفعلي، ومنهم، المرمـِّمون الذين وضعوا لمساتِهم على التحف المعروضة، وخصوصا مركز سواسون (Soissons) لدراسات الرسوم الجدارية، وبياتريس أمادي (Béatrice Amadei). ونشكر بنوع خاص دانيال إيبلد (Daniel Ibled) وناتالي بروبير (Nathalie Bruhière) وباتريسيا دال بْرا (Patricia Dal Pra) وكلود غِمار (Claude Guémard) وسيسيل أرجنتون (Cécile Argenton) وإيمانويل بوجينو (Emmanuel Bougeneau) ولوران لالي (Laurent Laly)، الذين قاموا بتركيب التماثيل الكبيرة. ولا بد أيضاً من أن نشكر باتريك ديلوش (Patrick Delauche) مدير شركة شينو (Chenue) المسؤولة عن عمليات النقل.

وقد حظي هذا المعرض بالدعم الكبير من سفارة فرنسا في الرياض. ونحن ممتنون للسيد برتران بيزانسينو (Bertrand Besancenot) سفير فرنسا في المملكة العربية السعودية، ولسلفه السيد شارل- هنري داراغون (Charles-Henri d'Aragon) الذي شجّع المشروع في مفاوضاته الأولى.

ودانيال أوليفييه (Daniel Ollivier) مستشار التعاون والنشاط الثقافي في السفارة الفرنسية بالرياض، يستحق شكراً خاصاً على استعداده الدائم لإغداق نصائحه علينا وتلبية طلباتنا الكثيرة.

ولن ننسى أيضاً ميشال نيتو (Michel Nieto) المستشار الثقافي الفرنسي السابق في جدة، وكريستيان كوتورو (Christian Coutureau) السكرتير العام، والمترجمة زينة جيداي (Zena Geday). ونشكر لهم أيضا حفاوتهم خلال مختلف مهمات التحضير للمعرض.

وقدم لنا سفير المملكة العربية السعودية في فرنسا، الدكتور محمد بن اسماعيل آل الشيخ دعمه أيضاً ونحن نشكره جزيل الشكر، والسيدة مُنى فغالي، مُساعدتُه، التي أثبتت حرصها الكبير على المبادرة وتلبية كل ما نحتاج إليه، وكذلك المستشار الثقافي عبدالله الخطيب؛

وفي المملكة العربية السعودية، نعرب عن امتناننا أولاً لصاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز آل سعود، أمير منطقة تبوك الذي أسبغ علينا تشجيعه.

ونتقدم بالشكر ايضاً للمسؤولين عن المجموعات العامة في المملكة العربية السعودية الذين شاركوا مشاركة فعالة، واعارتهم لنا التحف، التي ساهمت في إنجاح المعرض:

وهم المتحف الوطني في الرياض، ودارة الملك عبدالعزيز، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ومتحف جامعة الملك سعود، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومركز الملك فيصل، ومتحف الآثار والتراث في تيماء، ومتحف آثار العلا، والمتحف الإقليمي في نجران والمتحف الإقليمي في الدمام ومتحف قصر خزام في جدة ومتحف مكة للآثار والتراث.

شكرنا الخاص لمعالي الأستاذ فيصل المعمر، نائب وزير التربية ومدير مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ؛

معالي الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز الدكتور فهد السماري ود. عبدالله السعود، المدير العام للمتحف الوطني؛

وعبد الكريم الزيد، المدير العام المساعد لمكتبة الملك عبدالعزيز الوطنية وفهد العبد الكريم مدير الشؤون الثقافية؛

ولا بد من تنويه خاص بسعيد السعيد، عميد كلية السياحة والآثار في جامعة الملك سعود وسعود الذياب رئيس قسم الآثار وحميد المزروع ومحمد الثنيان وفؤاد العامر ونايف العتيبي وسعيد الزهراني وكمال الغانم. ومحمد النجم، مدير متحف تيماء؛ ومطلق المطلق نائب مدير متحف العلا.

انّ ماجد الشدي الأمين العام للإعلام في الهيئة العامة السعودية للسياحة والآثار، يستحق شكراً خاصاً، ونحرص خصوصاً على ذكر خالد الدخيل مساعد نائب رئيس الهيئة العامة السعودية للسياحة والآثار، وعبد العزيز آل الشيخ للدعم الذي قدماه؛

وحسين أبو الحسن مستشار نائب رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف؛

عبد العزيز الغزي مدير مركز الدراسات والبحوث والحفريات الاثرية وفاروق الخزيم وفيصل الفاضل وعبد المحسن أبانمي وغالب الشريف وعلي العنبر وزيد الزيد وفهد العمار وعبد العزيز الغـُريـِّب ونايف المطيري وخليفة آل خليفة وعبدالله الهدلق وسلطان الجبر وعبدالرؤوف الصديقي وفيصل الزهراني وموسى القرني وسلطان الرشيد ومحمد الأحمري ورياض عسيري وعادل العبيد وعلي الحامد ومرضي الخملي وعبدالله البطيري.

ونوجه شكراً خاصاً إلى عبدالله ناصر عبدالعزيز الزيدان، مساعد نائب رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف ، وإلى السيد ممتاز الهليثي.

ولا بد لنا أيضاً أن نشكر المسؤولين وزملاءنا في المؤسسات الأخرى الفرنسية والأجنبية الذين قدموا إلينا مساعدتهم السخية:

في المكتبة الوطنية الفرنسية، نشكر رئيسَها برونو راسين (Bruno Racine) ومديرتها العامة جاكلين سانسون (Jacqueline Sanson)؛ وفي دائرة الخرائط والتخطيط، نشكر المديرين، إيلين ريشار (Hélène Richard) ثم جان- إيف سَرَزان (Jean-Yves Sarazin)، وكاترين هوفمن (Catherine Hofmann)؛ وفي دائرة المخطوطات، نشكر المدير تييري دلكور (Thierry Delcourt)، وآني فرناي- نوري (Annie Vernay–Nouri)، وبرونو بلاسيل (Bruno Blasselle) مدير مكتبة الأرسنال؛

وفي الإتحاد المركزي للفنون الزخرفية، متحف الفنون الزخرفية: المديرة بياتريس سالمون (Béatrice Salmon)، وفيرونيك بلوار (Véronique Belloir) وكارولين بينون Caroline (Pinon).

في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن (Royal Geographical Society)، نشكر، أوجين راي (Eugene Rae) وفريق المكتبة بأكمله.

على صعيد المساعدة التي حصلنا عليها في بحوثنا المتعلقة بالتحف والتماثيل، نشكر بنوع خاص، جان لوكلان (Jean Leclant)، أمين السر الدائم لأكاديمية النقوش والفنون الجميلة، الذي أتاح لنا الإطلاع على كنوز مكتبة معهد فرنسا، وميراي باستورو (Mireille Pastoureau) أمينة المكتبة؛ وأيضا آر. نيل هيويسون (R. Neil Hewison) من الجامعة الأميركية في Cairo Press. وكذلك السيد فريد قيومجي وروبرت غراهام (Robert Graham) وجيمس نيكولسون (James Nicholson) وفنشنزو ستريكا (Vincenzo Strika)؛ وأيضاً دومينيك فوندروس- ريسنر (Dominique Vondrus-Reissner) في محفوظات وزارة الشؤون الخارجية في باريس.

ولا يسعنا إلا أن نعبـِّر عن امتناننا الحار لجميع زملائنا وجميع الأشخاص الذين أغدقوا علينا أوقاتهم وكفاءاتهم. فضلاً عن مؤلفي الدليل الذين تصدرت أسماؤهم هذا الكتاب، وساعدوا بنصائحهم المستمرة وبمعارفهم، نخص بالذكر:

جوان أروز (Joan Aruz) وفيرونيك أرفييه (Véronique Arveiller) وميشال بوديه (Michel Beaudet) وعبدالله شيخ- موسى وإيلين دافيد (Hélène David) وصوفي ديكامب (Sophie Descamps) وريكاردو آيشمن (Ricardo Eichmann) وجيريمي فلوريس (Jérémie Florès) وجان-باتيست اومبير (Jean-Baptiste Humbert) ولودفيك كالوس (Ludvik Kalus) وفينيسيا بورتر (Venetia Porter) وفرنسيس ريشار (Francis Richard) ودافيد سلزبرغر (David Sulzberger) ودونالد وايتكومب (Donald Whitcomb).

ولم يكن ممكنا إقامة هذا المعرض لولا مشاركة جميع الأعضاء، الدائمين والموقتين، في دائرة الآثار الشرقية ولاسيما: محمود العبيسي ونورباي أويسي (Norbeil Aouici) ونورا بلقبلة (Nora Belkebla) ونيكولا بنوا (Nicolas Benoit) ونيكول شوفالييه (Nicole Chevalier) وكارولين فلوريمون (Caroline Florimont) وماري-لور غوشري (Marie-Laure Gauchery) ولورنس هَمْلان (Laurence Hamelin) وباتريسيا كالينسكي (Patricia Kalensky) وياروسلاف مانياشيك (Jaroslaw Maniaczyk) وآن ميتيتال-براند (Anne Mettetal-Brand) وإيفا فاسكيز- جنرال (Eva Vasquez-General)، وكذلك المتدربون لدينا، وخصوصا خزامة أبو جويدة. إننا نسديهم جزيل الشكر.

وفي دائرة الفنون الإسلامية، نوجه شكرنا الخاص إلى كل من صوفي ماكاريو (Sophie Makariou) وأنابيل كولينيه (Annabelle Collinet) وشارلوت موري (Charlotte Maury) وجينايل فلينغر (Gwenaelle Fellinger) وإيلين بنديجاك (Hélène Bendejacq) وإيزابل لوش (Isabelle Luche) وراشيل دو سوزا (Rachel De Souza) وكارين باولوس (Karine Paulus).

ولا بد أيضاً من توجيه الشكر إلى جميع انصار الآداب والفنون الذين أتاحوا إقامة هذا المعرض، وخصوصاً في مؤسسة توتال (Fondation Total):
تييري ديمارست (Thierry Desmarest) وكاترين فيران (Catherine Ferrant) وسيلفان غوديشون (Sylvain Gauduchon)، وكذلك ليونيل ماريه (Lionel Marais) مدير فرع هذه المؤسسة في السعودية.

ونحرص على أن نشكر أيضا رئيس الرباعيات (Al-Rubaiyat) عبدالله بن زقر على دعمه السخي وحماسته.

ونخص بالشكر أيضاً رفعت مدحت شيخ الأرض وطارق عبد الهادي القحطاني وأخوانه والبنك السعودي الفرنسي وشركة الخطوط الجوية السعودية، الذين ما توانوا في رعاية هذا المشروع لإقامته في أفضل الظروف.

وأخيراً، يُسرنا أن ننهي هذه اللائحة الطويلة بتوجيه شكر خاص إلى عدد من الأشخاص الذين مدوا يد المساعدة وأسدوا النصيحة، فكانوا شركاء أوفياء في هذه المغامرة الطويلة التي بدأت في ٢٠٠٧.

فقد أغدقت علينا نيكول سالينجر (Nicole Salinger) بنصائحها الثمينة وأمدتنا بدعمها وصداقتها، حتى خارج إطار مسؤولياتها في متحف اللوفر، عبر توفّرها الدائم لجعلنا نستفيد من تجربتها ومن علاقاتها الشخصية مع عدد كبير من الأشخاص الذين التقيناهم خلال الإعداد لهذا المعرض.

وأتاح لنا أومبرتو دا سيلفيرا (Humberto da Silveira) عرض الصور الرائعة التي التقطها خلال عدد كبير من الرحلات التصويرية والفنية والعلمية، التي قام بها في أراضي المملكة العربية السعودية، وتلك التي استقاها من المحفوظات. وبعض الوثائق المدرجة في جناح فن التصوير وفي الدليل، قد أتى من هذه الكنز؛ وأُعِدَّت صورٌ أخرى خصيصاً للمشروع. وأجرى أيضاً لحسابنا بحوثاً في محفوظات الصور، في كل من المملكة العربية السعودية وفرنسا وبريطانيا، ففتح بسخاء وكياسة أبواباً وأغدق بلا حساب موهبته ووقته من أجل إنجاح هذا المشروع.

ووضع جان- ميشال دو تاراغون (Jean-Michel de Tarragon) بسخاء في تصرفنا الوثائق الإستثنائية للصور الشمسية التي جلبها الكاهنان أ. جوسن (A. Jaussen) ور. سافينياك (R. Savignac) خلال رحلات علمية قاما بها في الحجاز في بداية القرن العشرين، والمحفوظة في المدرسة التوراتية والأثرية الفرنسية في القدس. ثم ان نصائحه الدائمة، وتبحّره في المعرفة قد جعلت امراً ممكناً مسألة تقديم المعرض/ الملف المواكب، في قاعة الشؤون المعاصرة بدائرة الآثار الشرقية القديمة، وقاعة العرض الكبرى في ردهة نابوليون، والمخصص لهؤلاء الرواد في الدراسات الأثرية التي أجريت في موقع مدائن صالح.

وأخيراً، نأمل إنهاء كلمات الشكر هذه بالإعراب عن امتناننا المطلق وعن عرفاننا العميق تجاه رفعت شيخ الأرض. فطوال مدة هذه المغامرة الجميلة، كان الصلة المميزة التي أتاحت لنا القيام بها على ما يُرام في ظروف مناسِبة.

فسخاؤه بصفته مناصراً للآداب والفنون، وتوفّره وكياسته وصداقته الراسخة ودور الوسيط الذي اضطلع به بلباقة كبيرة، أزالت من طريقنا كل الصعوبات التي يمكن أن تنجم عن أي تجربة جديدة. فهو يحتل فعلاً مكانة مميزة في تاريخ العلاقات بين متحف اللوفر والهيئة العامة السعودية للسياحة والآثار.

المعيرون

المملكة العربية السعودية

الدمام، المتحف الإقليمي
جدة، متحف قصر خزام
متحف مكة للآثار والتراث
الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز الوطنية
الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض، مركز الملك فيصل
الرياض، دارة الملك عبد العزيز
الرياض، المتحف الوطني
الرياض، متحف جامعة الملك سعود
تيماء، المتحف الإقليمي
العلا، المتحف الإقليمي

المؤلفون

د. حسين بن علي أبوالحسن
(Husayn bin Ali Abu Al-Hasan) مساعد نائب رئيس قسم الآثار والمتاحف، الهيئة السعودية للسياحة والآثار، الرياض

أ. د. بياتريس -أندريه-سالفيني
(Béatrice André-Salvini) أمين متحف عام، مدير قسم الآثار الشرقية، متحف اللوفر، باريس

أ. د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري
(Abdulrahman Muhammad Al-Tayeb Al-Ansari) أستاذ آثار فخري في شبه الجزيرة العربية، الرياض

د. ماريان كوتّي
(Marianne Cotty (M. C.)) مكلفة بالمعرض في قسم الآثار الشرقية، متحف اللوفر، باريس

د. باتريسيا دال بْرا
(Patricia Dal Pra) مُرممة تحف فنية (أنسجة)، باريس

د. فرانسواز ديمانج
(Françoise Demange (F. D.)) أمين متحف أول لقسم الآثار الشرقية، متحف اللوفر، باريس

د. جاكلين دانتزر فندي
(Jacqueline Dentzer-Fendy (J. D.-F.)) مديرة في المركز الوطني للبحث العلمي، باريس

د. فارس سابا
(Saba Farès (S. F.)) أستاذ محاضر في جامعة نانسي ٢

أ. د. علي بن إبراهيم الغبان
(Ali I. Al-Ghabban) نائب رئيس الهيئة للآثار والمتاحف، الهيئة السعودية للسياحة والآثار، الرياض

أ. د. عبدالعزيز بن سعود الغزي
(Abdel Aziz bin Saud Al-Ghazi) أستاذ في كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض

د. أرنولف هاوسليتر
(Arnulf Hausleiter (A. H.)) باحث في معهد الآثار الالماني، القسم الشرقي، برلين

د. ماري- لويز إينيزان
(Marie-Louise Inizan) مديرة بحث فخرية في المركز الوطني للبحث العلمي، باريس

د. أندريا إنتيليا
(Andrea Intilia (A. I.)) مكلّفة بالوثائق لمشروع «تيماء»، قسم الآثار الشرقية، برلين

د. كارين جوفين
(Carine Juvin (C. J.)) مساعدة علمية في قسم الفنون الاسلامية، متحف اللوفر، باريس

مجيد خان
(Abdul Majeed Khan) مستشار في قسم الآثار والمتاحف، الهيئة السعودية للسياحة والآثار، الرياض

د. حياة بنت عبدالله الكلابي
(Hayat bint ʻAbdullah Al-Kilabi) دكتور في علم الآثار الإسلامية، الرياض

د. جوليان لوازو
(Julien Loiseau) أستاذ محاضر في جامعة پول ڤاليري، مدينة مونپوليه ٣

أ. صالح المريح
(Saleh Al-Marih) مدير مكتب الآثار بمنطقة نجران

أ. د. غابريال مارتيناز غرو
(Gabriel Martinez-Gros) أستاذ في جامعة باريس ١٠، نانتير

د. شارلوت موري
(Charlotte Maury) مساعدة علمية في قسم الفنون الاسلامية، متحف اللوفر، باريس

د. ليلى نعمة
(Laïla Nehmé) مكلّفة بالبحث في المركز الوطني للبحث العلمي «الشرق والمتوسط» UMR، باريس

أ. د. دانيال تي. بوتس
(D. T. Potts) أستاذ في جامعة سيدني، قسم الآثار الشرقية

أ. د. سعد بن عبد العزيز الراشد
(Saʻd bin Abdulaziz Al-Rashid) أستاذ الآثار الاسلامية، مستشار لدى رئيس الهيئة السعودية للسياحة والآثار، الرياض

د. كلير ريلر
(Claire Reeler (C. R.)) مستشارة في الآثار لدى الهيئة السعودية للسياحة والآثار، الرياض

أ. د. كريستيان جوليان روبين
(Christian Julien Robin) مدير أبحاث في المركز الوطني للبحث العلمي، عضو في معهد باريس، باريس

أ. د. سعيد ف. السعيد
(Said F. Al-Said) عميد كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض

د. بول سانلافيل
(Paul Sanlaville) مدير أبحاث فخري في المركز الوطني للبحث العلمي، مدينة ليون

د. عبدالله بن سعود السعود
(Abdullah S. Al-Saud (S. S.)) المدير العام للمتحف الوطني في الرياض

أ. د. هانسبيتر شوديغ
(Hanspeter Schaudig (H. S.)) أستاذ في جامعة هايدِلْبِرغ، (لغات وثقافات الشعوب الشرقية - اشّوريات)

نبيل الشيخ
(Nabiel Al-Shaikh) باحث في المتحف الاقليمي في الدمام

الدكتور فهد بن عبدالله السماري
(Fahd A. Al-Simari) السكرتير العام لمؤسسة الملك عبدالعزيز للبحث والمحفوظات

د. عوض بن علي السبالي الزهراني
(ʻAwad bin Ali Al-Sibali Al-Zahrani) مدير عام المتاحف بالهيئة السعودية العامة للسياحة والآثار، الرياض

د. تارا ستايمر- إربيه
(Tara Steimer-Herbet) باحث آثار، باريس

ضيف الله الطلحي
(Daifallah Al-Talhi) أستاذ مساعد في جامعة حائل

أ. د. محمد بن عبدالرحمن راشد الثنيان
(Muhammad bin ʻAbdulrahman Rashid Al-Thanayan) أستاذ في كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض

د. عبدالله بن إبراهيم العمير
(Abdullah bin Ibrahim Al-ʻUmayr) أستاذ في الآثار الاسلامية بكلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض

أ. د. جيل فاينشتاين
(Gilles Veinstein) أستاذ في كوليج دو فرانس، باريس

أ. د. فرانسوا فيلنوف
(François Villeneuve (F. V.)) أستاذ في جامعة باريس ١، پانتيون-سوربون، باريس

أ .د. أحمد بن عمر الزيلعي
(Ahmad bin ʻUmar Al-Zaylaʻi) عضو المجلس الاستشاري، أستاذ فخري في جامعة الملك سعود، الرياض

الفهرس



آسيا الصغرى
بحر قزوين
البحر المتوسط
قبرص
سوريا
بلاد ما بين النهرين
باكتريان
صحراء لوط
زاغروس
العراق
الكويت
النفود
المملكة العربية السعودية
الأحساء
الخليج العربي
البحرين
قطر
الإمارات
خليج عمان
عمان
الربع الخالي
اليمن
حضرموت
ظفار
بحر العرب
خليج عدن
باب المندب
البحر الأحمر
مصر
النيل
سيناء
الحجاز
تهامة
عسير
جبل طويق
وادي الدواسر
الأردن
ديار بكر
قرقميش
عرفة/حران
حلب
أوغاريت
نينوى
آشور
تدمر
ماري
عانة
سور جرعة
صيدا
صور
دمشق
القدس
عمان
غزة
الإسكندرية
الفسطاط
بغداد
سيبار
بابل
كيش
نيبور
الكوفة
جرة
أوروك
تللو
العبيد
أور
إريدو
البصرة
شوش
الصبية
فيلكا
تيه سيلك
تيه هيصار
جيوكسيور
دشلي تيه
نمازغا
آلتين تيه
شورتغاي
مونديجاك
هرابة
كليبنغن
شهر سوخته
شداد
مهراجه
ميلان
برسيبوليس
حليليه
جيروفت
كونار صندال
تيه يحيى
بامبور
ماهي
موهنجو دارو
كوت ديجي
شنهو دارو
شاهي تمب
سوتكاجن دور
بلاكوت
لوثال
شمال
مليحة
أم النار
هيلي
دلما
رأس الحد
خور روري/ المخا
سقطرى
بئر علي/ قانا
عدن
المخا
ظفر
ذمار
تمناء
صرواح
مأرب
شبوة
صنعاء
معين/ قرنا
الجوف
نجران/ الاخدود
جبال كوكب
قرية الفاو
دائامي
الشرق
بيرحما
أبها
العكاظ
الطائف
مكة المكرمة
و. فاطمة
جدة
عيذاب
برنيقي
كوبتوس
قوص
القصير
ليوكوس ليمن
لوكي كوم
البدع
العقبة
آيلة
البتراء
وادي رم
القرية
تبوك
روافة
كاف
قلوة
الجوف
دومة الجندل
سكاكا
الشويحطية
الرجاجيل
قيدار
العسافية
جبة
تيماء
حائل
مدائن صالح/ الحجر
العلا
المابيات
دادان
شويمس
خيبر
الربذة
الحوراء
الحناكية
المدينة المنورة/يثرب
حفر الباطن
تهامة
الدرعية
الرياض
اليمامة
دوادمي
يبرين
جزر فرسان
جزر دهلك
أكسوم
أبو خميس
الخرسانية
الجرهاء
ثاج
الدوسرية
عين جاوان
القطيف
جزيرة تاروت
الظهران
الخبر
ديراز
قلعة البحرين
عين السيح
سار
العقير
البحرين
أبقيق
سبخة حمام
عين قناص
الهفوف
واحة الأحساء
قطر
شمال
صفر
٥٠٠ كلم
١٠٠ كلم
طرق الحج الى مكة المكرمة
ثابتة
مفترضة
طرق البخور (العصور القديمة)
برية
بحرية
الطرق التجارية في عهد البرونز
برية
بحرية
هيلين دافيد (Hélène David) ٢٠١٠
خريطة عامة لطرق التجارة القديمة

تحذير

إن بعض الوثائق، المتعلقة بالرسوم والتماثيل، تدين بنوعيتها لطابعها الفريد أو لِقِدَم عهدها. غير اننا رغبنا في نشرها لأسباب علمية.

أما في دليل المعرض هذا، باللغة العربية، فإن نصوصاً أصلية قد طرأ عليها تحوير وتغيير.

تمهيد

نظراً لموقعها الجغرافي في غرب آسيا وترامي أراضيها، تختزن المملكة العربية السعودية في باطن تربتها، آثارَ ثقافاتٍ ترقى إلى فترة ما قبل التاريخ. فبتوالي الزمن وتعاقُب الفصول التاريخية، وُلدت ثقافاتٌ وَنَـمَـت وتراجعت، مفسحةً في المجال لثقافات أخرى وحضارات، كانت تغتذي من إرث الحضارات التي سبقتها أو أضيفت إليها أو من بقاياها البسيطة أحيانا. وغالباً ما كان يحصل هذا الإنتقال بوتيرة الإتصالات بالحضارات المجاورة في بلاد ما بين النهرين وإيران ومصر والمشرق واليمن، ثم بالأمبراطوريات الكبيرة في نهاية العصور القديمة.

وإن قوافلَ التجار التي يرافقها باستمرار رجالٌ مزودون بالسلاح، وكتبةٌ أحياناً، قد جابت على مرّ الدهور، الجزيرةَ العربية من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها. فَـشَـقَّـتْ وسلكت الطرق المرسومة على هوى التضاريس الطبيعية، فاضطلعت طوال آلاف السنين بالدور المميز للمنطقة، باعتبارها تقاطعاً تجارياً وثقافياً، في صميم شبكات طرق البخور وتجارة المواد الثمينة. وعلى امتداد هذه الطرق، نشأ أبرزُ المراكز المأهولة، سواء كانت مجرد رَبْع لقبيلة أو عاصمة لدولة.

وإن هذا الترحالُ عبر امتداد المسافات المحددة المعروفة، أضفى على هذا الـبلد المؤلـَّف من أقوام ومناظر متنوعة، فرادتـَه ووحدتـَه. ووضع مناطق وقبائل ومعتقداتٍ وثقافات، على اتصال بعضها بالبعض الآخر، فمهّد بذلك الطريقَ لنشوء الإسلام وانتشاره السريع؛ هذا الإسلام الذي وُلد في المنطقة الساحلية من الحجاز، المنفتحةِ على مختلف التأثيرات. وتحولت طرقُ التجارة طرقاً لتأدية فريضة الحج، فربطت كبرى الحواضر الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة. وكانت طرق التوحيد السياسي للبلاد بفضل سلالة آل سعود.

فهذا الثراء الذي يتسم به الماضي القديم، والسلالاتُ الكبرى في الإسلام، والتاريخ الحديث للمملكة العربية السعودية؛ هذه كلها، مدار معرضٍ للمرة الأولى. وهو يتوقف عند فتح الملك عبد العزيز آل سعود، المملكةَ وأسّسها، وهو المعروف في الغرب باسم ابن سعود.

وحرصاً على إعادة تكوين تاريخ البلاد، كان لا بدَ من التطرّق إلى هذا الموضوع من الناحية الأثرية، مع الأخذ بالاعتبار التطورات الإقليمية التي أعيد وضعها في الإطار التاريخي الأوسع للشرق الأوسط. وقد شكلت السعودية الملتقى الحقيقي للحضارات حيث امتزجت اللغاتُ والكتاباتُ المتنوعة وتبادلت التأثيرَ، فأسفرت عن نشوء اللغة العربية المعروفة اليوم.

وقد سهـّلت هذا الأمرَ، إرادةُ الإنفتاح لدى السلطات السعودية، والتطور البالغ الأهمية لعلم الآثار الوطنية، والكشف عن مواقع منذ ما يناهز النصف قرن، وخصوصاً في السنوات الأخيرة.

واستفاد المعرضُ الذي كان بوتقةَ تعاونٍ متتابعٍ ومثمر بين المفوض السعودي ومفوضي متحف اللوفر وعدد كبير من الزملاء المؤرخين وعلماء الآثار، من قروض استثنائية أتت من المملكة العربية السعودية. وستتيح البحوث الضرورية لإنجاز مشروع علمي مماثل وعرض عدد كبير في التحف الجديدة في متحف اللوفر، التعرُّف بشكل أفضل إلى هذا البلد الكبير، الواقع في قلب تاريخ العالم.

المفوضية

مقدمة



نصف قرن من الاهتمام بالآثار في المملكة

أ. د. علي بن إبراهيم الغبان

(الصفحة المزدوجة السابقة)
كثيب رملي، من تصوير هومبرتو دا سيلفيرا

(الصفحة اليسرى)
ضريح صخري في مدائن صالح

بداية الاهتمام بالآثار:

إدراكاً من المملكة العربية السعودية لأهمية الآثار فقد صدر قرار مجلس الوزراء رقم ٧٢٧ في ١٣٨٣/١١/٨هـ/١٩٦٣م (بالموافقة على إيجاد دائرة للآثار ترتبط بوزارة المعارف)، ثم صدر المرسوم الملكي الكريم رقم م/٢٦ في ١٣٩٢/٦/٢٣هـ/١٩٧٢م بالموافقة على نظام الآثار وتشكيل المجلس الأعلى للآثار لتحديد ورسم الخطوط العريضة لنشاط الإدارة والإشراف على منجزاتها.

ومع بداية الخطط التنموية الشاملة للمملكة في أوائل التسعينيات الهجرية توسعت الإدارة في تسجيل المواقع الأثرية وحمايتها وإنشاء المتاحف، وكان من أولى إنجازاتها صدور كتاب (مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية) عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وهو أول كتاب مطبوع يصدر باللغة العربية والإنجليزية يعرف بآثار المملكة.

وكالة الآثار والمتاحف:

وفي عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م شرعت الإدارة – التي أصبحت فيما بعد وكالة مساعدة للآثار والمتاحف – في تنفيذ خطة طويلة المدى للمسح الأثري الشامل وإنشاء المتحف الوطني بالرياض، وإصدار حولية الآثار العربية السعودية (أطلال) التي صدر عددها الأول عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م وتم فيها نشر نتائج الدراسات والمسوحات الأثرية ويتوالى صدور الحولية حيث وصلت إلى العدد العشرين.

وعلى مدى ما يزيد على أربعين عاماً تم حصر ما يربو على عشرة آلاف موقعاً أثرياً في مختلف مناطق المملكة ومحافظاتها، ولعل أهم المواقع التي شملها المسح الأثري: آثار العلا ومدائن صالح، وتيماء، والجوف، وآثار ثاج، والظهران، والهفوف، ونجران، ومواقع متفرقة في منطقة الرياض والقصيم وجازان ومنطقة مكة المكرمة. وقد واكب عملية المسح الأثري إجراء بعض الحفريات والمجسات والحفر الاختبارية، ويجب التنويه في هذا المجال بالدور الذي قام به قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود لتطوير الدراسات والبحوث الأثرية والقيام بحفريات مميزة في كل من الفاو والربذة، كان لها المردود العلمي في تدريب الطلاب والنهوض بالبحث العلمي والدراسات العليا بالإضافة إلى الكشف عن معثورات ومواد أثرية متنوعة تشكل رافداً مهماً للعروض المتحفية في بلادنا.



ومن المهمات التي اضطلعت بها وكالة الآثار والمتاحف منذ إنشائها ترميم المباني التاريخية سواء كان ترميماً وقائياً أو شاملاً، كما تم إنشاء العديد من المتاحف المحلية والإقليمية في كل من نجران وجازان والعلا وتيماء ودومة الجندل والهفوف، وروعي أن تكون هذه المتاحف بالقرب من المواقع الأثرية في تلك الجهات، كما تم تحويل بعض المباني التاريخية بعد ترميمها لتصبح متاحف للآثار في كل من جدة، والطائف.

كما قامت الوكالة بتنفيذ بعض المشاريع الهادفة للمحافظة على المباني الأثرية المهمة، ومنها:

- ترميم قصر ناصر بن سعود (بالدرعية).
- ترميم قصر المصمك.
- تحسين بعض المواقع الأثرية بالعلا ومدائن صالح.
- ترميم قصر سعد وأبراج حي الطريف.
- ترميم بركة الجميمة والثليمة على درب زبيدة.
- ترميم قصر الإمارة بنجران.
- ترميم مبنى القشلة بحائل.
- ترميم برج برزان بحائل.
- ترميم مئذنة الجامع الكبير بعنيزة.
- ترميم سور وبرج الدلم بالخرج.
- ترميم أسوار وأبراج الدرعية.
- ترميم بيت البسام بعنيزة.
- ترميم بيت السبيعي بشقراء.
- ترميم قصر الملك عبدالعزيز بالمربع.
- ترميم مسجد عمر بالجوف.
- ترميم حمام حي الطريف.
- ترميم شامل لقصر شبرا بالطائف.
- ترميم محطة سكة حديد الحجاز بالمدينة المنورة.
- ترميم قصر الملك عبدالعزيز بالزاهر بمكة المكرمة.
- ترميم برج الشنانة بالرس.
- ترميم مدرسة الصانع بالمجمعة.

ضم قطاع الآثار والمتاحف إلى الهيئة العليا للسياحة:

بعد صدور قرار الدولة بتاريخ ١٤٢٤/٥/٢٨هـ (٢٠٠٣/٧/٢٨م) بضم قطاع الآثار والمتاحف في وزارة التربية والتعليم إلى الهيئة العليا للسياحة، وضعت الهيئة العليا للسياحة رؤية شاملة لضم قطاع الآثار والمتاحف، اعتماداً على منهجية حديثة ستسهم -بإذن الله- في إحداث نقلة نوعية في هذا القطاع المهم، ثم أعدت بعد ذلك إستراتيجية وخطة عمل خمسية لتطوير القطاع، وتغيير اسم الهيئة ليشمل الآثار وليصبح: الهيئة العامة للسياحة والآثار.

إستراتيجية تطوير قطاع الآثار والمتاحف:

هدفت الإستراتيجية إلى تطوير منهجية للتعامل مع الآثار والمتاحف بما يتوافق مع أفضل التجارب العالمية الحديثة، واقتراح السياسات والتوجيهات الإرشادية الخاصة بالمواقع التاريخية

والأثرية والتراث العمراني والمتاحف والقطع الأثرية، والحماية والترميم، والتوثيق وإدارة المواقع والمقتنيات.



مشروع نظام الآثار والمتاحف:

أعدت الهيئة مشروعاً لنظام الآثار والمتاحف بناء على قرار الدولة بتاريخ ١٤٢٤/٥/٢٨هـ المتضمن قيام الهيئة بإعادة النظر في نظام الآثار والتراث العمراني الوطني، والرفع بمشروع النظام المطور، ويعد مشروع النظام تطويراً لنظام الآثار الصادر بتاريخ ١٣٧٢/٦/٢٣هـ (١٩٧٢/٨/٣م)، وجزءاً من خطة تطوير قطاع الآثار والمتاحف.

المحافظة على التراث العمراني وتنميته:

تبنت الهيئة، بالتنسيق مع وزارتي الشؤون البلدية والقروية والداخلية، برنامجاً للمحافظة على مواقع التراث العمراني في المملكة وتنميتها، عملت بموجبه على إيقاف الإزالة العشوائية لمباني التراث العمراني، ووضع المعايير والأنظمة التي تحكم ذلك، وإعداد المعايير والأسس لمعالجة ملكية المواقع الأثرية ومواقع التراث العمراني المملوكة لمواطنين.

مسجد عمر، الجوف



برنامج تنمية القرى والمواقع التراثية:

تقوم الهيئة بتنفيذ برنامج لتنمية القرى التراثية بالتعاون مع وزارة الشؤون البلدية والقروية، وإمارات المناطق، ووزارة الشؤون الاجتماعية. وقد تم – في المرحلة الأولى من البرنامج – اختيار خمس قرى وبلدات لتطبيق البرنامج (البلدة القديمة بمحافظة الغاط، بلدة العلا القديمة بمنطقة المدينة المنورة، بلدة جبة بمنطقة حائل، قرية رجال ألمع بمنطقة عسير، قرية ذي عين بمنطقة الباحة).

برنامج تحسين مراكز المدن التاريخية:

تبنت الهيئة مع وزارة الشؤون البلدية والقروية، وبالتنسيق مع البلديات المعنية، مبادرة تحسين مراكز المدن التاريخية التي تحتوي على تراث عمراني ومفردات معمارية تقليدية متميزة. ويهدف البرنامج إلى تحفيز الجذب السياحي في المدن، والمحافظة على ما تبقى من هويتها المحلية الثقافية والتاريخية، والتوظيف الاقتصادي للتراث العمراني داخل المدن من خلال الأنشطة السياحية والفعاليات التراثية والأسواق الحرفية.

تأهيل مباني التراث العمراني في موانئ البحر الأحمر (ينبع، أملج، الوجه، ضبا)

إن أحد أهم برامج التراث العمراني التي حددتها إستراتيجية قطاع الآثار والمتاحف هو برنامج تأهيل التراث العمراني في موانئ البحر الأحمر والذي ركز في المرحلة الأولى منه على تأهيل المراكز التاريخية لكل من ينبع وأملج والوجه وضبا.

ويهدف هذا المشروع إلى البدء في تنفيذ أهداف الدراسات والمخططات التي تم إعدادها بمشاركة وزارة الشؤون البلدية والقروية والهيئة الملكية للجبيل وينبع, والتي تتلخص في :-

١- المحافظة على مباني التراث العمراني المتبقية في مراكز المدن التاريخية بشمال البحر الأحمر.

٢ - تطبيق المخطط الشامل لتأهيل المواقع والمباني والذي اشتمل على



جدة، المدينة القديمة

- تحديد حدود المراكز التاريخية ومناطق الحماية المحيطة بها وكيفية التعامل معها.
- تحديد نقاط القوة والضعف والفرص والمخاطر التي تواجه هذه المواقع.
- تسهيل الوصول إلى هذه المواقع والحركة حولها وداخلها.
- تفعيل الأماكن العامة المقترحة في هذه المواقع.
- تنفيذ التوصيات التي حددت الخطوات التنفيذية للحماية والتطوير المستقبلي.

٣- تطبيق خطة تطوير الأعمال السياحية.

٤- تطبيق خطط الحماية والإدارة وإرشادات التخطيط والحماية والتصميم.

تنفيذ المشاريع الرائدة المقترحة في كل من ينبع والوجه وأملج وضبا.

مشروع تطوير الأسواق الشعبية القائمة (المرحلة الأولى):

يهدف المشروع إلى المحافظة على الأسواق الشعبية وإعادة تأهيلها وتطويرها كمواقع تنمية اقتصادية وثقافية وسياحية، وتطوير وتحسين بيئة عدد من الأسواق الشعبية الحالية لتصبح نموذجاً يمكن الاحتذاء به عند تطوير الأسواق الشعبية المماثلة، وتشجيع إقامة الفعاليات التسويقية والسياحية والشعبية الأسبوعية والموسمية، ودعم الجانب السياحي والترفيهي والأنشطة الاجتماعية والثقافية في الأسواق الشعبية، وينفذ المشروع بالتعاون مع وزارة الشؤون البلدية والقروية.

دليل ترميم المباني التراثية الطينية والحجرية:

أعدت الهيئة بالتعاون مع وزارة الشؤون البلدية والقروية، والهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، دليلاً لترميم المباني التراثية الطينية والحجرية بالمملكة؛ بهدف مراقبة وضبط أداء كل من الاستشاريين والمقاولين والمشرفين على ترميم وتوظيف المباني الطينية والحجرية.

تهيئة المواقع الأثرية والتاريخية:

حددت إستراتيجية قطاع الآثار والمتاحف ٢٦ موقعاً أثرياً مهماً يمكن استثمارها باعتبارها عامل جذب للسياحة الثقافية وهي تتراوح ما بين مواقع كبيرة وظاهرة مثل مدائن صالح إلى مواقع مدن قديمة دفنت ثم تم التنقيب عنها مثل الفاو.

كما حددت الإستراتيجية ١٠ مواقع تاريخية لها أولوية العرض والتعريف بناء على أولويات الإستراتيجية السياحية ومعظم هذه المواقع يرتبط بالسيرة النبوية أو بالتراث الأدبي أو بتاريخ الدولة السعودية وكذلك بالملك عبدالعزيز طيب الله ثراه.

وقد صدرت موافقة المقام السامي على إرسال قائمة بالمواقع الأثرية والتاريخية المرشحة للتسجيل في قائمة التراث الثقافي العالمي والموافقة على تسجيل موقع مدائن صالح والدرعية وجدة التاريخية كمواقع تراث ثقافي عالمي.

وحيث أن العديد من هذه المواقع يزورها الآن سياح من داخل المملكة وخارجها، ومن المتوقع زيادة في عدد هؤلاء الزوار بعد توجه المملكة نحو تسجيل بعض هذه المواقع الأثرية والتاريخية المهمة كمواقع تراث ثقافي عالمي فان ذلك يتطلب عرضها وتهيئتها لاستقبال الزوار بما يكفل لهذه المواقع الحماية والمحافظة عليها، وهو ما تعمل الهيئة على تنفيذه من خلال برنامج مخصص لهذا الغرض يتضمن عدداً من المشاريع.

ويهدف المشروع لتهيئة مواقع التاريخ الإسلامي، وتزويدها بالبنية الأساسية والخدمات السياحية، ويشارك في المشروع مع الهيئة كل من: الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة المكرمة

والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة، وأمانة مكة المكرمة، وأمانة المدينة المنورة، ومركز أبحاث الحج.

تسجيل المواقع الأثرية والتاريخية في قائمة التراث العالمي (اليونسكو):

تدرج مواقع التراث الثقافي والطبيعي في قائمة التراث العالمي بموجب شروط اتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي الصادرة عن اليونسكو عام ١٩٧٢م، والمعروفة باسم اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، والتي انضمت إليها المملكة عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م). ومن هذا المنطلق تبنت الهيئة موضوع تسجيل المواقع الأثرية والتاريخية على قائمة التراث العالمي، وقدمت قائمة بثلاثة مواقع مرشحة للتسجيل، وقد تم تسجيل موقع مدائن صالح كأول موقع يسجل من المملكة في قائمة التراث العالمي وجاري العمل على تسجيل موقعين آخرين هما الدرعية التاريخية، وجدة التاريخية.

برنامج تأهيل المباني التاريخية للدولة في عهد الملك عبدالعزيز:

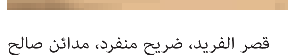
تتميز المباني التاريخية للدولة في عهد الملك عبدالعزيز باستخدام مواد البناء المحلية في عمارتها، ووقوع الكثير منها في مراكز المدن، مما يجعلها شواهد حضارية على الجهود التي بذلت لتوحيد البلاد وبناء الدولة، وعلامات مميزة للتراث العمراني في مواقعها، ويهدف البرنامج إلى إعادة تأهيل وتهيئة المباني التاريخية في عهد الملك عبدالعزيز، كمراكز حضارية وثقافية ومتحفية تبرز قصة بناء الدولة وتوحيدها في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، وتعرف بتاريخ الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة، وتاريخ المدن التي تقع فيها، والتعريف بتراثها الثقافي، ويجري تنفيذ البرنامج بالتعاون مع الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، ودارة الملك عبدالعزيز.

توظيف قصور الملك عبد العزيز:

أمر جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ببناء قصور في المناطق التي كان يقوم بزيارتها من حين لآخر ومنها: قصر الملك عبدالعزيز بالبديعة، قصر الملك عبد العزيز بالدوادمي، قصر الملك عبد العزيز بالخرج، قصر الزاهر بمكة المكرمة، قصر خزام بمدينة جدة، قصر شبرا بمدينة الطائف. ولأهمية هذه القصور والمقرات التاريخية اتجهت الأنظار إلى ترميمها وإعادة تأهيلها وتوظيفها، وقد قامت وكالة وزارة التربية والتعليم للآثار والمتاحف بترميم عدد من القصور والمقرات خلال السنوات الماضية، والقليل منها قد تم توظيفه والأخرى تتطلب وضع خطة تنفيذية لتوظيفها. وتتميز هذه القصور بأشكالها وأحجامها المميزة، واستخدام مواد البناء المحلية في عمارتها، ووقوع الكثير منها في مراكز المدن، مما يجعلها علامات مميزة لنشوء ووحدة الدولة، وعناصر بارزة للتراث العمراني في مواقعها، ومن هنا تأتي أهمية الاستفادة منها في إبراز تاريخ المؤسس والوطن من خلال إعادة تأهيلها وتوظيفها كمتاحف ومراكز حضارية وثقافية متعددة الاستخدام.

يهدف المشروع إلى :

- إعادة تأهيل وتهيئة وتوظيف المباني التاريخية في عهد الملك عبدالعزيز كمراكز حضارية وثقافية تبرز تاريخ بناء وتوحيد الدولة في عهد الملك عبدالعزيز – رحمه الله – وتعرف بتاريخ الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة.
- الاستفادة من المباني في عرض تاريخ المدينة الواقعة بها والتعريف بموروثها الثقافي.
- إبراز البعد العمراني للمباني التاريخية في عهد الملك عبدالعزيز كعناصر مميزة تعكس الهوية العمرانية للمملكة وخصائص العمارة المحلية.



قصر الفريد، ضريح منفرد، مدائن صالح



برنامج إنشاء وتطوير متاحف المناطق:

يهدف المشروع، إلى إنشاء سبعة متاحف إقليمية بحيث تكون معالم حضارية شاهدة على تراث هذه المناطق، وتعرض فيها آثارها وتاريخها، وفق تسلسلها التاريخي، إضافة إلى الحرف والصناعات التقليدية، من خلال البرامج والمعروضات الموجهة لمختلف فئات وأعمار ومستويات زوار المتحف، كما يهدف المشروع إلى تطوير ستة متاحف قائمة ليصبح هناك متحف إقليمي في كل منطقة من مناطق المملكة الثلاث عشرة.

تطوير المتاحف القائمة:

توجد ستة متاحف إقليمية ومحلية في كل من العلا وتيماء ودومة الجندل ونجران وصبيا والهفوف، وهي متشابهة في أحجامها وتصاميمها وتم إنشاؤها في بداية الثمانينات الميلادية، ونظرا لكون مقاييس المتاحف في العالم تطورت بشكل كبير خلال العشرين عاما الماضية فقد أصبحت هذه المتاحف بحالتها الراهنة قديمة وغير مناسبة وعروضها المتحفية لا تتلاءم مع الأساليب التقنية الحديثة في مجال المتاحف. والهدف الرئيس من تطوير هذه المتاحف هو إحداث تغييرات أو إضافات توفر حيزا للبرامج الجديدة المطروحة للجمهور بحيث تكون أكثر نشاطا وتربط بين البرامج التعليمية في المدارس والسياحة والمجتمع المحلي، وكذلك التوسع في العروض المتحفية حيث أن المساحة المخصصة لها في الوقت الراهن مساحتها صغيرة ولم تستوعب جميع المكتشفات الأثرية التي تمت في العشرين سنة الأخيرة، ولهذا فأن التوسع في صالات العرض وتجديد العروض المتحفية وزيادة المساحة للأنشطة الخاصة والبرامج التعليمية والعروض المؤقتة كل ذلك أصبح ضرورة ملحة لهذه المتاحف.

برنامج المتاحف النوعية المتخصصة:

توجد بعض المتاحف المتخصصة التابعة لجهات حكومية مثل متحف صقر الجزيرة التابع لوزارة الدفاع والطيران، ومتحف المسكوكات التابع لمؤسسة النقد العربي السعودي، ومعرض موجودات المسجد الحرام بمكة المكرمة، وتعمل الهيئة مع عدد من الجهات الحكومية لإنشاء بعض المتاحف المتخصصة ومنها:

- متحف القرآن الكريم بالمدينة المنورة.
- متحف التراث الإسلامي بجدة.
- متحف النخيل والتمور.
- متحف الخيل العربية.
- متحف الملابس الشعبية والحلي.
- متحف الصقور.
- معرض موجودات الحرم المدني.

برنامج دعم المتاحف الخاصة:

يوجد بالمملكة عدد كبير من المتاحف الخاصة يملكها مواطنون لديهم اهتمام بجمع قطع الآثار والتراث، وعرضها للناس ولخدمة هؤلاء الأفراد ومساندتهم اعتمدت الهيئة برنامجاً لدعم المتاحف الخاصة مثل التعريف بها وتقديم الدعم الفني فيما يتعلق بالعروض المتحفية وترميم القطع الأثرية المصنفة كتراث وطني والمحافظة عليها، ومتابعة تشغيلها.



آثار الدرعية

التسجيل الرقمي للآثار الوطنية:

يهدف هذا المشروع إلى إعداد سجل رقمي وطني شامل يوثق فيه جميع المواقع والقطع الأثرية والتراثية ومباني التراث العمراني في المملكة، ويكون مرتبطاً بخريطة رقمية حديثة بمقياس ١: ٢٥٠،٠٠٠، ويمكن من خلال هذا السجل إدارة قطاع الآثار والمتاحف وفق المعايير العالمية الخاصة بتسجيل وأرشفة المواقع والقطع الأثرية، ويكون هذا السجل حديثاً ومتوافقاً مع تقنية نظم المعلومات الجغرافية وقواعد البيانات الرقمية، ويشتمل السجل على معلومات تفصيلية وخرائط وصور ورسومات بحيث يغطي الأقسام التالية:

- المواقع الأثرية.
- المواقع التاريخية.
- مباني ومواقع التراث العمراني.
- القطع الأثرية.
- قطع التراث الشعبي.
- مواقع التراث الشعبي.

حماية الآثار:

تشمل عملية إدارة التراث والمحافظة عليه كافة الأحكام التي يطبقها قطاع الآثار والمتاحف ضمن نظام الآثار ولوائحه التي تخول القطاع حماية الموارد التراثية وتنميتها. وبحسب الأعراف الدولية، وغالباً ما تقوم الجهة المسئولة عن الآثار بضمان حماية موارد الدولة التراثية واستخدامها بطريقة تضمن لها البقاء مدة أطول للأجيال القادمة. وفي الآونة الأخيرة انتشرت ظاهرة نبش المواقع الأثرية وسرقة محتوياتها والاتجار بها، ويهدف هذا البرنامج إلى حماية المواقع الأثرية

في المملكة من التعديات بجميع أنواعها وتجهيز مراقبي وحراس الآثار بالمعدات والأدوات اللازمة، إضافة إلى استعادة الآثار الوطنية التي تمت حيازتها بطرق غير مشروعة سواء كانت داخل المملكة أم خارجها.

برنامج الترميم والمحافظة:

تتعرض بعض المواقع الأثرية ومباني التراث العمراني إلى أضرار مفاجئة نتيجة العوامل الطبيعية كالأمطار والرياح وتحتاج إلى تدخل سريع لمعالجة الأضرار التي تحدث والحد من تأثيراتها السلبية على هذه المواقع والمباني، كما توجد مجموعة من مباني التراث العمراني صنفت كتراث عمراني وطني وهي مملوكة لمواطنين تنقصهم الخبرة في ترميم هذه المباني وصيانتها وتوظفها التوظيف المناسب، ويهدف هذا البرنامج إلى إجراء ترميمات إنقاذية في المباني التي تتعرض لأضرار مباشرة، كما يهدف إلى تقديم الدعم الفني لمالكي المباني التراثية التي تم تصنيفها كمباني تراث عمراني وطني.

برنامج التوعية والتعريف بالآثار

يهدف هذا المشروع إلى نشر الوعي الثقافي بأهمية الآثار والتراث العمراني والمتاحف والقيم التاريخية والعادات والتقاليد الاجتماعية بين المواطنين والمقيمين على السواء، وكذلك الإسهام في زيادة دعم المجتمع للموارد التراثية والبرامج العامة التي تعتمد عليها إضافة إلى تغيير النظرة إلى الماضي بغرس مفاهيم الانتماء للهوية والقيم التقليدية السعودية وذلك من خلال إنتاج أفلام وثائقية عن التراث وبث رسائل توعية بأهميته وضرورة المحافظة عليه كتراث وطني عبر وسائل الإعلام المختلفة وطباعة كتيبات ونشرات تعريفية بالتراث وأهميته توزع في المناسبات الوطنية والمهرجانات.

التعاون العلمي في المسح والتنقيب الأثري مع البعثات والمراكز العالمية:

تهدف فكرة التعاون مع الهيئات والجامعات والمعاهد والمنظمات الأجنبية المختصة بالآثار إلى تطوير العمل الأثري والإطلاع على التجارب الموجودة لدى الدول المتقدمة.

ويشمل التعاون في الفترة الحالية دولاً متعددة: فرنسا، وايطاليا، وأمريكا، وبريطانيا، وألمانيا، واستراليا. ومن مشاريع التعاون الحالية مع البعثات الأجنبية ما يلي:

- مشروع البعثة السعودية الفرنسية للتنقيب في موقع مدائن صالح في العلا.
- مشروع البعثة السعودية الألمانية للتنقيب في موقع تيماء بمنطقة تبوك.
- مشروع البعثة السعودية الفرنسية لمسح المواقع الأثرية في كلوة بمنطقة تبوك.
- مشروع البعثة السعودية الأمريكية للتنقيب في موقع جرش بمنطقة عسير.
- مشروع البعثة السعودية الأمريكية للتنقيب في موقع تاروت بالمنطقة الشرقية.(قيد التنفذ)
- مشروع البعثة السعودية الأسترالية لمسح المواقع الأثرية في يبرين بالمنطقة الشرقية. (قيد التنفيذ)
- مشروع البعثة السعودية الفرنسية لمسح مواقع النقوش العربية القديمة في بئر حمى في منطقة نجران.
- مشروع البعثة السعودية البريطانية لمسح المواقع الأثرية في جزر فرسان في منطقة جازان.
- مشروع البعثة السعودية الإيطالية للتنقيب في موقع دومة الجندل بمنطقة الجوف.
- مشروع البعثة السعودية الألمانية للتنقيب في موقع عين قناص والدوسرية بالمنطقة الشرقية.

برنامج قطاع الآثار والمتاحف للمسح والتنقيب الأثري.

يقوم القطاع بمتابعة برامج الأبحاث العلمية وأعمال المسح والتنقيب في عدد من المواقع الأثرية في جميع مناطق المملكة العربية السعودية بهدف اكتشاف المواقع الأثرية وتسجيلها في سجل الآثار الوطني لتكون تحت حماية نظام الآثار ويلي تسجيل الموقع الأثري دراسته دراسة علمية وتوفير الحماية المناسبة له، والعمل على ترميمه والمحافظة عليه، وعرضه إذا كان من المواقع الصالحة لفتحها للزوار. وتكشف أعمال التنقيبات الأثرية عن عدد من المعثورات الأثرية والتي أيضاً يتم دراستها وترميمها ومن ثم عرضها في المتاحف المحلية والإقليمية، ومن أهم المسوحات والتنقيبات الحالية ما يلي:

- مشروع التنقيب في موقع الخريبة والمابيات بمحافظة العلا (بالتعاون مع كلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود).
- مشروع التنقيب في موقع الدفي والمردومة بالجبيل (بالتعاون مع الهيئة الملكية للجبيل وينبع).
- مشروع التنقيب في موقع الخبر (بالتعاون مع شركة ارامكو السعودية).
- مشروع التنقيب في موقع الأخدود بمنطقة نجران.
- مشروع التنقيب في موقع فيد بمنطقة حائل (بالتعاون مع هيئة تطوير حائل).
- مشروع مسح المواقع الأثرية في محافظة الدوادمي بمنطقة الرياض.
- مشروع مسح المواقع الأثرية في محافظة القويعية بمنطقة الرياض.
- مشروع مسح المواقع الأثرية في محافظة تثليث بمنطقة عسير.
- مشروع مسح المواقع الأثرية في محافظة النماص بمنطقة عسير.

تطوير وسائل وأوعية النشر

يصدر عن قطاع الآثار والمتاحف عدد كبير من المطبوعات على شكل كتب ودوريات وأفلام ونشرات وهي من نتائج الأعمال الميدانية والبحثية التي تمت في القطاع ولكن معظم هذه المطبوعات يتم إخراجها بصورة تقليدية على شكل مصورات ونشرات بسيطة مما يقلل الفائدة منها لعدم مناسبة توزيعها على المكتبات والمتخصصين والمهتمين وأيضاً عدم الاستفادة منها في تبادل المطبوعات مع المعاهد والمؤسسات العلمية المتخصصة في خارج المملكة، ويهدف هذا المشروع إلى تطوير وسائل وأوعية النشر والمعلومات المتوفرة لدى قطاع الآثار بحيث يمكن إخراجها بوسائل وأساليب وطرق متعددة وحديثة تشمل الآتي:

- تطوير الدوريات والمجلات العلمية والكتب المتخصصة من حيث الشكل والمضمون.
- تطوير الدراسات والكتيبات والخرائط الخاصة بالمواقع الأثرية والمتاحف.
- إيجاد موقع متخصص على شبكة الإنترنت.
- تطوير محتوى وشكل المواد التعليمية التي تقدم في المتاحف للأطفال وطلاب المدارس.
- إعداد مواد أثرية متخصصة على أقراص مدمجة (CD).

الفرنسيون وشبه الجزيرة العربية

تاريخ حافل بالاكتشافات والتعاون المعرفي

أ. د. بياتريس أندريه-سالفيني

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، طمحت أوروبا إلى اكتشاف أقاليم جديدة. وتستند معرفة شبه الجزيرة العربية إلى النصوص الوصفية التي خلّفها المؤلفون الكلاسيكيون[1] وكذلك إلى كتاب الجغرافية من تأليف بطليموس، الذي يعود إلى القرن الثاني الميلادي. وساهم فتح طرق التجارة إلى الهند في تحسين خريطة شبه الجزيرة العربية التي شكلت مرافئها محطات على طول الطريق البحري الذي وصل ما بين الهند وأوروبا عبر رأس الرجاء الصالح. وساد البحث عن المعلومات على الخرائط وفي سرد علماء الجغرافية والمؤرخين العرب، فيما أدّت أنسنة النهضة إلى تنمية الاهتمام باللغات الشرقية. وعام ١٥٣٨م، شرح المستعرب الفرنسي غليوم بوستل (Guillaume Postel)، في مقدّمة كتابه الخاص بالقواعد العربية، ضرورة استحداث منابر لتعليم هذه اللغة نظراً لاتساع رقعة المناطق التي تتكلم بها. وغالباً ما كانت هذه الجاذبية الفكرية مرتبطة، في ذلك الوقت، بمفهوم إرسالي سام؛ إذ كانت الفكرة السائدة هي أن دراسة اللغة العربية قد توسّع المعارف المتوافرة بشأن الجذور الساميّة وتساعد بالتالي على توضيح النصوص الغامضة في التوراة. ولكن، في بداية القرن السابع عشر، أعرب أهل العلم، وفي مقدّمتهم الفرنسي جوزيف جوستوس سكاليجيه (Joseph Justus Scaliger)، الأستاذ في جامعة لايدن، عن اهتمام أصيل بالثقافة العربية، الناشئة في قلب الجزيرة العربية، حيث قامت مملكة ملكة سبأ.

وشهد القرنان السادس عشر والسابع عشر ازدياداً في وتيرة أسفار الرحّالة، وبدأت المعلومات بشأن شبه الجزيرة العربية تصل إلى أوروبا بكثرة، على يد الملاحين البرتغاليين، وبعدهم الهولنديين والانكليز والفرنسيين، الذين حطّوا رحالهم في مرافئها، ممّا أتاح لعلماء الجغرافية تحسين دقة خرائط المنطقة. وساهمت فرنسا متأخرة في استكشاف بحور العرب وما يحيط بها من أقاليم. إذ أنشأ الملك لويس الرابع عشر شركة الهند الشرقية عام ١٦٦٤م، بعد وقت طويل من إنشاء الشركتين الإنكليزية (١٦٠٠م) والهولندية (١٦٠٢م). وتضمنت «خريطة بلاد العرب الثلاث» (الصورة ٢ التي نشرها عام ١٦٥٤م عالم الجغرافية الفرنسي نيكولا سانسون (Nicolas Sanson) في أطلسه، عدداً كبيراً من أسماء الأماكن المحلية التي حلّت محل تلك الموروثة من العصور القديمة الكلاسيكية؛ إذ أن الخريطة تذكر مراحل الحج إلى مكة المكرمة، بالإضافة إلى معلومات خاصة بالأنهر والجداول وبالبحر الأحمر المسمّى «بحر مكة». وتزايدت دقة الخرائط نتيجة لتوغّل الرحّالة في البلاد، ولا سيما أولئك الذين دفعهم فضولهم العلمي إلى الاستكشاف والتعمّق.



الصورة ١. أبريل/نيسان ١٩١٠، في خريبة (مدينة العلا سابقاً)
مجموعة قبور مينية A1. ركّب الأب سافينياك آلة التصوير الكبيرة ١٨ × ٢٤ سم في أعلى السلالم التي يمسكها البدو، كي يتمكن من التقاط صورة الزخارف المنحوتة (وحوش على شكل أسود مكشّرة) التي تحمي القبور.
أنظر جاوسن وسافينياك Jaussen & Savignac، ١٩١٤، أطلس، الصحيفة ٢٣.
بلاطة زجاجية ثنائية الطبقات من ب. جاوسن (inv. J١٢١٣-٠١١٩٦).

١. بالأخص هيرودوت (Hérodote) (تواريخ، المجلد الثالث، ص ص. ١٠٦-١١٣)؛ سترابون (Strabon) (الجغرافية، المجلد السادس عشر، ص ص. ٣-٤) يستوحي أعماله من إراتوستينوس، وهو عالم فلك يوناني، من مكتبة الإسكندرية (القرن الثالث قبل المسيح) ومن «اللوحة المنهجية التي رسمها عن شبه الجزيرة العربية»، والذي اعتبر أن شبه الجزيرة العربية مؤلفة من قسمين كبيرين: البلاد العربية السعيدة في الجنوب، والبلاد العربية الصحراوية في الشمال. بليني (التاريخ الطبيعي، المجلد الثاني عشر)، في القرن الأول، أورد قائمة بالقبائل وبأسماء المدن والقرى.

إلى جانب المعلومات الواردة من البحارة، أدّت السفارات أو البعثات أو الأسفار المدفوعة بالفضول الفكري إلى قيام علاقات شهدت نجاحاً عظيماً، إذ أتاحت للمثقفين من القرّاء أن يكتشفوا الأقاصي الغريبة والمجهولة. وكان داخل بلاد العرب يجتذب الرحالة، بيد أنه بقي مكتنفاً بالأسرار؛ فراح الجميع يحاول الحصول على معلومات بشأن المدن المقدّسة المحظورة على غير المسلمين. قلّة هم الأوروبيون الذين تمكّنوا من دخولها، وقد اشتهر سرد الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما (Ludovico di Varthema) الذي انطلق من مدينة البندقية عام ١٥٠٣م وانضم في القاهرة إلى إحدى القوافل المتوجّهة إلى المدينة المنوّرة ومكة المكرمة. وبعد دخوله شبه الجزيرة العربية من الشمال، عبر الرحّالة صحراء النفود ومرّ على مقربة من عدد من المدن المهجورة – ويرجّح أن هذه المدن شملت مدائن صالح، الحجر سابقاً، وخرائب العلا، دادان سابقاً – التي ظن أنها سدوم وعامورة؛ وقد أورد في سرده وصفاً للحج والأماكن المقدّسة، مكرّراً بكل موضوعية، إن لم يكن بروح تنم عن علم واسع، كل ما تراءى له وسمعه[٢].

واستخدم الفرنسيون، المتلهّفون الى المعلومات، هذه المصادر استخدامات مختلفة. ومن المرجّح ألا تكون مغامرات فنسان لو بلان (Vincent Le Blanc) – وهو ابن مجهّز سفن من مرسيليا انطلق عام ١٥٧٠م، في سنّ الرابعة عشر، في رحلة صوب الشرق، ويزعم أنه زار الحرمين وجنوب شبه الجزيرة العربية – كلها أو بعضها سوى سرد روائي طلع به كاتب مذكرات الرحّالة المزعوم، وهو الباريسي بيير برجيرون (Pierre Bergeron). ويتضمن الكتاب لمحة شاملة عن المعارف السائدة في تلك الحقبة بشأن بلاد العرب؛ وقد نُشر الكتاب المذكور في باريس عام ١٦٤٨م، ثم تُرجم إلى اللغة الإنكليزية (لو بلان، عام ١٦٤٨م). ويتوفر وصف أكثر واقعية ولكنه متحيّز عن الأماكن المقدّسة في المسارد الوصفية المتناقلة على الألسن، لا سيما تلك التي خطّها جان دو تيفنو (Jean de Thévenot) الذي جاب الشرق عام ١٦٥٥م وثم بين العامين ١٦٦٤م و١٦٦٧م؛ وأعاد معه البن إلى فرنسا. وإلى جانب أقواله التفصيلية بشأن نبات المنطقة وشعوبها، فإنه تطرّق إلى مكة المكرمة استناداً إلى ما سمعه عنها من أحد المسلمين. وقد تحدّث عن انهيار السلطنة العثمانية ملاحظاً أن «هذه الشعوب كلها لم يعد لديها ما تشتهر به سوى خرائبها وبقاياها». (تيفنو، عام ١٦٦٥م).

أما الدبلوماسي لوران دارفيو (Laurent d'Arvieux)، المستشرق الشهير و المبعوث الخاص للملك لويس الرابع عشر لدى الباب العالي بصفة قنصل فرنسا، فقد كان شاهداً مباشراً وصادقاً عن المجتمع العربي في أواسط القرن السابع عشر. وأخبار رحلته إلى فلسطين وإلى عرب الصحراء، التي قام بها بين العامين ١٦٦٤م و١٦٦٥م، لم تنشر سوى عام ١٧١٧م (أرفيو، عام ١٧١٧م و١٧٣٥م). وقد برهن في كتاباته عن فهم ذكي، يولي الاعتبار الواجب لعادات البدو الرحّل الذين يجوبون شمال الجزيرة، ويرعون مواشيهم في المناطق الواقعة خارج حدودها. وأعماله، التي اقتبس الكثيرون منها على مر السنين، تشكل مساهمة قيّمة طبقاً لمعرفة أصيلة مبنية على مبادئ الملاحظة الموضوعية التي تطوّرت في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر.

وهنا بدأ ينتشر الافتتان بالجزيرة العربية؛ وقد تواصل انتشاره وتوسّعه في فرنسا. وان تزايد اهتمام الأوساط الأكاديمية وتطوّر نظرة الأوروبيين إلى العرب تزامن مع حدث تاريخي مهم. ففي عام ١٦٨٣م، دُحرت جيوش السلطنة العثمانية على أبواب فيينا وبدأ نفوذها يتراجع. وتزايد التعاطف مع الشعوب العربية الساعية إلى التخلص من نير الطغيان. وأسفرت مؤلفات عديدة تطرقت إلى المجتمع العربي والثقافة العربية عن توجّه جامح نحو اكتشاف وسط شبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام. وللجامعيين الفرنسيين جزء كبير جداً من الفضل في هذا الاكتشاف، بالأخص المستشرق الكبير بارتيليمي ديه هيربلو (Barthélemy d'Herbelot)، الذي وضع قاموساً أبجدياً عن النواحي الثقافية والدينية والتاريخية للعالم الإسلامي. وقد وافته المنية قبل أن ينهي عمله البارز الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٦٩٧م، بفضل عمل أنطوان جالان (Antoine Galland)، مترجم ألف ليلة وليلة (هيربلو، ١٦٩٧م). وبقي هذا القاموس يشكل أفضل مصدر للمعارف بخصوص الإسلام، حتى صدور موسوعة الإسلام. أمّا أنطوان جالان، الذي

٢. انظر فارتيما (Varthema)، ١٨٨٨م، وأيضاً بيرين (Pirenne) ، ١٩٥٨م، ص. ٣٣ وما يليها.



الصورة ٢. «خريطة مناطق شبه الجزيرة العربية الثلاث: مأخوذة جزئياً عن العربي النوبي، وجزئياً عن مؤلفين آخرين / بواسطة سانسون دابفيل (Sanson d'Abbeville)، عالم الجغرافية الخاص بالملك؛ ج. سومر النحات»؛ ١٦٥٤، دار النشر بيار مارييت (Pierre Mariette)، باريس.
٣٩ × ٤٧ سم، مكتبة الكونغرس
قسم الجغرافية والخرائط، واشنطن.

تم تعيينه بصفة أستاذ للغة العربية في معهد «كولاج دو فرانس» عام ١٧٠٩م، فقد ساهم في تزكية شغف أوروبا بالحضارة الشرقية. وقد التقط، خلال أسفاره العديدة، حكايات ألف ليلة وليلة، معرّفاً الأدب العربي في الأوساط المثقفة ولدى عامة الجمهور أيضاً (جالان، ١٧٠٤م-١٧١٧م). ورسمت كتاباته عن الشرق العربي، التي سرعان ما ترجمت إلى أهم اللغات الأوروبية صورة عالم رومنسي شعري زاهٍ شبه عالق بفترة القرون الوسطى، ويختلف اختلافاً جذرياً عن العالم الأوروبي الدائم الحركة، عالمٌ فاتن يولّد جاذبية غامضة. أمّا هنري دو بولينفيلييه (Henri de Boulainvilliers)، في كتابه بعنوان «سيرة محمد» (١٧٣٠م)، فرسم للرسول صورة بطل أصيل التقوى بالمقارنة مع الرياء المسيحي، أي تماماً على عكس ما توصل إليه فولتير (Voltaire) في مسرحيته المعنونة «التعصب، أو محمد الرسول» (١٧٤١م). وكان لسيرة النبي، التي خطّها أبو الفدا في أوائل القرن الرابع عشر وترجمها جان غانييه (Jean Gagnier) عام ١٧٢٣م، أثر إيجابي على النظرة إلى الإسلام.

الصورة ٣. نظرة تفصيلية الى «القسم الأول من خريطة آسيا، يتضمن تركيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس
تم النشر برعاية سيادة دوق أورليان (Duc d'Orléans)، كبير امراء السلاسة المالكة، بواسطة السيد دانفيل، ١٧٥١. رسم غليوم دو لا هيه (Guille. De-la-Haye). باريس، لدى المؤلف، في معارض اللوفر...».
مستخرج من كتاب جان باتيست بورغينيون دانفيل (Jean-Baptiste Bourguignon d'Anville)،
الأطلس العام، ١٧٥١، ٧٤ × ٧٩ سم، مجموعة ديفيد رامسي (David Rumsey)

على مدى القرن الثامن عشر، عمدت فرنسا، في إطار منافستها للنفوذ الإنكليزي في البحار المحيطة ببلاد العرب، الى إنشاء قواعد ووكالات تجارية في المرافئ العربية والفارسية؛ كما أدّت دوراً بالغ الأهمية في تحسين خرائط المنطقة. فبعد خريطة البحر الأحمر التي رسمها بيير مورتييه (Pierre Mortier) عام ١٧٠٠م، صححت خريطة العالم التي وضعها غليوم دوليل (Guillaume Delisle) عام ١٧٠١م عدداً كبيراً من الأخطاء التي ترقى بتاريخها إلى بطليموس. وعلى الرغم من ما يشوب هذه الطريقة من ثغرات فيما يخص المعلومات فإنها مبنية على ملاحظات دقيقة وعلمية. وكان جنوب شبه الجزيرة العربية أول ما أثار اهتمام البعثات البحرية في القرن الثامن عشر. فقد قام جان دو لا روك، ابن تاجر من مرسيليا، بنشر العديد من التقارير الصادرة عن البحارة والتجار الفرنسيين في كتابه المعنون رحلة إلى بلاد العرب السعيدة الصادر عام ١٧١٦م، والذي تضمن خريطة لجنوب شبه الجزيرة العربية من وضع دوليل (لا روك (La Roque)، ١٧١٦م). ويتضمن الكتاب أيضاً خمس رسائل بعثها م. دو شامبلوريه (Champloret)، ربّان سفينة ووكيل شركة الهند، إلى الكاتب بين العامين ١٧٠٨م و١٧١٠م، خلال واحدة من بعثتين بحريتين فرنسيتين انطلقتا من مرسيليا عام ١٧٠٨م وعام ١٧١٣م لشراء البن من ميناء الموخا (الموكا) باليمن. ويأتي سرد لا روك مكمّلاً لأعمال هيربلو وجالان (Herbelot et de Galland) وقد ساهم في الاهتمام الذي توسّع في تلك الفترة ليشمل مجمل مناطق شبه الجزيرة العربية، التي كان العديد منها لا يزال غامضاً وغير محدد بوضوح على الخرائط.

وبعد عام ١٧٥٠م، بفضل مساهمة البحرية الفرنسية التي حاولت إنشاء منطقة نفوذ لها في البحر الأحمر، برز تحسّن ملحوظ في دقة الخرائط التي رسمت سواحل البحار المحيطة بالجزيرة العربية. واعتمد جان باتيست بورغينيون دانفيل (Jean-Baptiste Bourguignon d'Anville)، عالم الجغرافية لدى الملك لويس الخامس عشر، على روايات الرحّالة لتصحيح الخرائط السابقة. واطلع على أعمال علماء الجغرافية العرب، التي ترجمت في أواخر القرن السادس عشر، ومن بينهم الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر في بلاط ملك صقلية، وأبو الفدا الذي تابع مسار الحج وقد صدر كتابه المعنون وصف بلاد العرب مترجماً إلى اللغة الفرنسية، كملحق لسرد لوران دارفيو (Laurent d'Arvieux)، في الطبعة الصادرة عن لا روك في عام ١٧١٧م. وكانت خريطة بلاد العرب الأولى الصادرة عنه عام ١٧٥١م لا تزال تنطوي على عدد من الأخطاء، ولكنه أورد فيها بيانات متعلقة بالمناطق الداخلية التي يصعب الوصول إليها والمكفنة بغمار السرية[3] (الصورة ٣).

أولى الرحلات العلمية الحقيقية التي جابت شبه الجزيرة العربية كانت رحلة البعثة الدانمركية إلى اليمن. وكان قد أوفدها ملك الدانمرك فريديريك الخامس، عام ١٧٦١م، بناء على اقتراح الفيلسوف ميخائيليس (Michaélis) الذي دعا العلماء الأجانب إلى إرسال أسئلتهم للمساهمة في الإعداد للبعثة. وجاءت أكثر الطلبات وأشدّها تميّزاً من جانب الأكاديمية الملكية الفرنسية للنقوش والآداب. وكانت جميع الأسئلة مرتبطة بالمعارف التوراتية ولكن كانت تحدو بالجميع الرغبة في التوصل إلى معارف علمية أكثر انفتاحاً واكتمالاً في ميادين جغرافية المنطقة وتاريخها ونباتاتها ووحوشها: «ودأب المسافرون بشكل خاص على إيجاد الإجابات عن الأسئلة الخاصة [...]. وفيما يلي الأسئلة التي وصلتنا من أكاديمية باريس للنقوش والآداب، ومن مختلف العلماء الأجانب الآخرين [...][4].» ومنذ ذلك الوقت، كان لنمط المعارف العلمية هذا أثره الدائم على كافة المبادرات الفرنسية وعلى علاقات التعاون المستقبلية مع بلاد العرب. وفي إطار هذه البعثة، وصل كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)، المهندس الجغرافي والناجي الوحيد من بين أفراد البعثة كلهم، برفقة زملائه الأربعة، إلى اليمن في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٦٢م. وبعد عودته وحيداً إلى كوبنهاغن، جراء وفاة زملائه كلهم أثناء الرحلة، جمع وثائقهم ونشرها في كتابه المعنون «وصف بلاد العرب» المكوّن من ثلاثة مجلدات، والصادر باللغة الألمانية (١٧٧٤م) والفرنسية (١٧٧٣م-١٧٧٦م)، وقد أرفق بها مجلد رابع من إعداد ميخائيليس ضم مجموعة أسئلة العلماء (نيبور، ١٧٧٣م-١٧٧٦م). وشكلت نتائج هذه البعثة تقدّماً ملموساً في ميدان المعارف المتعلقة بكافة أنحاء شبه الجزيرة العربية. واستوحى نيبور نصوصه من روايات لوران دارفيو، كما أن الخريطة التي رسمها

٣. أنفيل (Anville)، ١٧٥١م؛ انظر أيضاً أنفيل، ١٧٧١م، الذي يشمل ملاحظات وصفية وإطاراً زخرفياً نفّذه غرافلو (Gravelot). (برزت عدة طبعات من خريطة المملكة العربية السعودية قبل نهاية القرن).

٤. «مجموعة الأسئلة المقترحة [...] بواسطة السيد ميخائيليس (Michaélis)»، في نيبور، ١٧٧٤م، المجلد الرابع، الصفحة ٢٧، الفقرة ١٤.

استوحيت من أعمال الفارس دانفيل (d'Anville) بعد تحسينها وإثرائها. ومع أن الأسفار تركّزت بشكل خاص على اليمن، فقد استطاع المسافرون جمع المعلومات بشأن أجزاء أخرى من بلاد العرب، ولا سيما منطقة الحجاز الواقعة على ساحل البحر الأحمر وفيها مكة المكرمة والمدينة المنوّرة. واهتم الرحّالة أيضاً بإقليم نجد الواقع وسط شبه الجزيرة العربية الوسطى، حيث سلّطت الأحداث السياسية والدينية الضوء على مدينة الدرعية، معقل محمد بن سعود، مؤسس الدولة السعودية الأولى، الذي تبنى إلى الإصلاح الديني الذي قام به محمد بن عبد الوهاب. وأشار نيبور إلى وجود نقوش قديمة ونَسَخَ العديد منها وأدرجها في كتابه، فأعدّ بذلك العدة لتزكية الاهتمام العلمي لدى المسافرين في القرن التاسع عشر. وسرد المهندس الدانمركي هو الذي أوحى لنابوليون الأول فكرة اصطحاب جماعة من أهل العلم خلال حملته على مصر بين العامين ١٧٩٨م و١٨٠١م.

وفي القرن التاسع عشر، أضحى وسط شبه الجزيرة العربية محط الاهتمامات السياسية الغربية، ومحط اهتمام المشاريع العلمية، مثلها مثل إقليم البتراء العربي الواقع إلى الشمال. وبرزت هذه المناطق على شكل بلاد تتسم بالأصالة والنبالة، ذات مناظر طبيعية رائعة الجمال. ولما كان الدخول إلى المدينة ومكة المكرمة محظوراً على غير المسلمين، فقد بقيت خريطتهما مشوبة بنواقص كثيرة. وأدى افتتان الأوروبيين بهذه الأماكن شبه المجهولة إلى قيام مسافرين كثر باعتناق الإسلام كي يتمكنوا من زيارة الأماكن المقدّسة وإتمام مراسم الحج، في حين تكفلت الجمعيات العلمية البريطانية والفرنسية بتمويل البعثات العلمية. وتلاشى الفصل بين العربية السعيدة وبين الصحراء العربية الذي كان معتمداً منذ العصور القديمة الكلاسيكية وراحت الأسماء العربية المعاصرة تملأ الخرائط. وتركّز اهتمام العلماء الفرنسيين على رسم خرائط المناطق غير المستكشفة من شبه الجزيرة العربية. وقام عالم الجغرافية آدم-فرانسوا جومار (Edme François Jomard)، الذي رافق حملة نابوليون إلى مصر، من ضمن رافقها برسم خريطة لبلاد العرب الوسطى معتمداً على العديد من المعلومات الواردة في الروايات والخرائط القديمة وفي كتابات الرحّالة القدماء، كما اعتمد أيضاً على المعلومات التي جمعها في القاهرة لدى أحد أحفاد محمد بن عبد الوهاب، الذي كان شيخاً في منطقة نجد، وقد قال فيه جومار إنه «رجل ثقافة يعرف بلاده حق المعرفة[5]». ورسم بعد ذلك خريطة لإقليم عسير الواقع بين الحجاز واليمن، على ضفاف البحر الأحمر، وفقاً لمعلومات وردته من موريس تاميزييه (Maurice Tamisier) وثلاثة ضباط فرنسيين آخرين من الفريق الصحي كانوا قد تبعوا جيش الباشا المصري محمد علي في عسير. وكان هؤلاء مدفوعين بشغفهم إلى تحسين معارفهم بجغرافية بلاد العرب وشعوبها.

حطّ تاميزييه رحاله في جدة عام ١٨٣٦م. واحتراماً للسكان المحليين، ارتدى بلباس محلي وعبر العديد من الأقاليم التي لم يكن سبق لأي من الأعاجم أن زاروها أو مروا بها. وفي كتابه المعنون «رحلة في بلاد العرب»، أورد وصفاً لمدينتي جدة والطائف ولمنطقة عسير (تاميزييه، ١٨٤٠م). وعلى الطريق إلى الطائف، بالقرب من زيمة، شاهد خرائب غير معرّفة إذ أنه لم يرَ عليها «أي نقش أو حفر». وقد حظي هذا الاهتمام الخجول في علم الآثار بالتشجيع من جانب قنصل فرنسا في جدة، فولغانس فريزنل (Fulgence Fresnel)، تلميذ المستشرق الكبير سيلفستر دو ساسي (Silvestre de Sacy) الذي كان منكباً على دراسة اللغات المحكية المحلية والنقوش الحميرية التي خلفتها شعوب بلاد العرب، والتي كان العديد من الكتاب الكلاسيكيين قد أوردوا ذكرها مشيرين إليها بأنها «هوميرية». بيد أن المنية وافته في بغداد عام ١٨٥٥م، لدى عودته من بعثة علمية فرنسية كان يقودها إلى بلاد ما بين النهرين توصلت إلى وضع الرسوم الأولية لأطلال بابل. وقد مهد فريزنل الطريق إلى دراسة الماضي القديم لبلاد العرب، إذ شجع ث.-ج. أرنود (Th. J. Arnaud) على زيارة اليمن لنسخ النقوش القديمة واكتشاف خرائب مأرب[6]، في حين قاد الفنلندي جيورج أوغسط فالين (Georg August Wallin)، في أربعينيات القرن التاسع عشر، ثلاث بعثات إلى الأقاليم الوسطى من بلاد العرب، في النفود ونجد. ونسخ نقوشاً محفورة في الصخر، كما كشف النقاب عن أولى الرسوم الجدارية، التي أشير إليها لاحقاً بأنها «ثمودية» وقد أتاحت له أعماله الحصول على جوائز من الجمعية الملكية للجغرافية في لندن ومن جمعية باريس للجغرافية.

٥. جومار (Jomard)، ١٨٢٣م، ص. ٧.

٦. انظر أرنو (Arnaud)، ١٨٤٥م. قام ألكسندر دوما (Alexandre Dumas) بنشر يوميات أرنو ورفيقه فيسيير (Vayssière) ضمن سلسلة روايات خيالية، على صفحات الصحيفة اليومية *L'Ordre*، ومن ثم تحت الاسم المستعار عبد الحميد بيه بعنوان يوميات رحلة إلى بلاد العرب بقلم ألكسندر دوما (١٨٥٦م) وعنوان عمرة الحج عبد الحميد بيه إلى المدينة المنوّرة ومكة المكرمة (١٨٥٦م-١٨٥٧م).

واضطلع معهد فرنسا بدور ملموس في اكتساب المعارف بشأن الحضارات القديمة في بلاد العرب، من خلال المشاركة بشكل ضخم ورائع، بدءاً من العام ١٧٦١م، في وضع قائمة بالأسئلة المقدّمة إلى علماء البعثة الدانمركية قبل رحيلها. وشهدت المساهمة العلمية الفرنسية في ميدان فقه اللغات الساميّة تطوراً في القرن التاسع عشر بفضل الدور الدولي والجامع الذي لعبته أكاديمية النقوش والآداب. وكان الهدف المنشود من «مجموعة النقوش السامية»[7]، وهو مشروع قدّمه إرنست رينان (Ernest Renan) إلى الأكاديمية عام ١٨٦٧م، استحداث منشور مخصص لجمع كافة «النصوص القديمة السامية المكتوبة بحروف سامية»، بواسطة شبكة من المراسلين الفرنسيين والأجانب المعنيين بجمع الوثائق المكتوبة وإرسالها إلى اللجنة على شكل نسخ أو بصمات ورقية من أجل ضمان دقة الاستنساخ، التي تضمن بدورها قيمة المنشور[8]. وتكوّن الفريق العلمي من أشهر العلماء؛ إذ شارك في إثراء المجموعة علماء فلسفة أو مسافرون أجانب أتوا إلى بلاد العرب في مهمات، ومنهم إنكليز مثل داوتي وفيلبي (Doughty et Philby)، وفرنسيون مثل هوبير (Huber)، وألمان مثل أويتينج (Euting). ويشكل هذا المؤلف اليوم أداة رائعة في ميدان البحوث.

سافر شارلز م. داوتي (Charles M. Doughty)، عام ١٨٧٦م، الى شمال بلاد العرب، حيث كان أول من وصف ورسم آثار مدائن صالح، وهي مدينة الحجر النبطية التي ورد ذكرها في وثائق الجغرافيين والمؤرخين العرب (داوتي، ١٨٨٨م). وأعاد معه طبعات نافرة للنقوش التي عثر عليها في الموقع وفي أماكن أخرى واقعة شمال شبه الجزيرة العربية، وقد عَهِدَ بهذه النقوش، مع دفاتر النصوص، إلى الأكاديمية الفرنسية للنقوش والآداب. وكان رينان مسؤولاً عن نشرها كلها (رينان (Renan)، ١٨٨٤م).

وبعد داوتي، بمدة قصيرة وصل العالم الفرنسي شارل أغوست هوبير (Charles Auguste Huber) الذي ساهم في توسيع المعارف المتعلقة بشمال شبه الجزيرة العربية ووسطها ففي كانون الثاني/يناير ١٨٧٩م، قام هوبير برحلته الأولى في وسط شبه الجزيرة العربية بتمويل من وزارة التعليم العام بغية إجراء عدد من البحوث العلمية والأنثروبولوجية والجغرافية (هوبير، ١٨٨٤م). وقام ببعثة ثانية في بلاد العرب ابتداءً من ١٨ آذار/مارس ١٨٨٣م، برفقة يوليوس أويتينج (Julius Euting)، وهو عضو مراسل في معهد فرنسا، لاستكشاف البلاد من «وجهة نظر جغرافية»؛ ولكن العالِمَيْن افترقا بسبب انعدام التفاهم بينهما[9]. وعام ١٨٨٤م، وصل هوبير واحة تيماء، الواقعة على تقاطع طرق القوافل التي تربط جنوب شبه الجزيرة العربية ببلاد الهلال الخصيب، ولكن، على طريق العودة من بعثته، لقي مصرعه على يد جماعة من البدو في ٢٩ تموز/يوليه ١٨٨٤م. فقام رينان بنشر يومياته بعد وفاته (هوبير، ١٨٩١م). وكان قد نسخ وحصل على عدد من النقوش التي أعيدت إلى فرنسا بعد وفاته وأودعت في متحف اللوفر عام ١٨٨٥م، حيث شكلت رُكناً بسيطاً أتاح إبراز اهتمام القرن التاسع عشر بالوثائق الخاصة بعلم الكتابات المنقوشة أكثر من الاهتمام بالتحف. وكان هؤلاء الرواد يهدفون إلى تحفيز البحوث، من منظور العلماء الفرنسيين، كما وصفها رينان في مؤلفه الضخم «بعثة في فينيقيا»: «سَعْينا إلى التألق كان أقل من سَعْينا إلى خدمة العلم. [...] وتفادينا بالأخص أن ندع انتباهنا يحيد عن المشاكل التاريخية الكبرى [...]. فرنسا [...] حافظت على المبدأ الحكيم القائل بأن هدف البعثات العلمية ليس لإرواء فضول الجمهور العبثي، بل لتحقيق تقدّم العلوم[10]». وقد أتاحت نسخ النقوش التي نفّذها هوبير وأعماله الموصوفة بدقة داخل يومياته تعريف العالم باللغات المحكية في شمال شبه الجزيرة العربية في عصر الجاهلية، مثل الآرامية أو الثمودية أو النبطية[11].

وفيما أعاد الملك عبد العزيز بن سعود تأسيس الدولة السعودية في وسط شبه الجزيرة العربية عام ١٩٠٢م، أُحرز تقدم سريع في فك رموز مختلف اللغات وقامت بعثات علمية أخرى بكشف النقاب عن آثار الحضارات العربية القديمة وبإثراء «مجموعة النقوش السامية». ففي بداية القرن العشرين، شهدت منطقة الحجاز، الواقعة في الشمال الغربي، بعثة جديدة لجمع النقوش المكتوبة واستكشاف الآثار أوفدتها مدرسة القدس للتوراة في رعاية الجمعية الفرنسية للحفريات الأثرية، وبعد ذلك برعاية



الصورة ٤. نص مأخوذ عن «مسلة تيماء» (متحف اللوفر، باريس، AO ١٥٠٥)، من تنفيذ ج. يوتينغ (J. Euting) في ١٧ فبراير/شباط ١٨٨٤. مأخوذ عن شارل هوبر (Charles Huber)، اليوميات، ١٨٩١، ص. ٣١٩

٧. هذه الملحوظة لا طائل تحتها للقارئ العربي.

٨. انظر ديباجة «التقرير بشأن مشروع مجموعة النقوش السامية»، باريس، المطبعة الإمبراطورية، ١٨٧٠م، ص. ١٠، وأيضاً بريكل-شاتونيه وفوفو-براسو (Briquel-Chatonnet et Fauveaud-Brassaud)، ٢٠٠٨م، ص. ٢١٥-٢٢٨.

٩. أويتينغ (Euting) نشر النسخ النافرة عن النقوش النبطية (أويتينغ، ١٨٨٥م) وقد أودع النسخ النافرة الأخرى لدى د. هـ. مولر (Müller) (مولر، ١٨٨٩م)؛ انظر لوزاكمور وبريكل-شاتونيه (Lozachmeur et Briquel-Chatonnet)، قيد الطباعة.

١٠. إرنست رينان (Ernest Renan)، بعثة في فينيقيا، باريس، المطبعة الإمبراطورية، ١٨٦٤م، ص. ٨١٥.

١١. نشر النقوش المنسوخة في مدائن صالح تم على يد برجيه (Berger)، ١٨٨٤م (*CRAI*).

معهد فرنسا. وقاد الراهبان الدومينيكيان أنطونان جوسن ورافائيل سافينياك (Jaussen et Savignac) ثلاث حملات في الأعوام ١٩٠٧م و١٩٠٩م و١٩١٠، إلى مدائن صالح والعلا وتيماء، في وضع سياسي عكس عدوانية الديار العربية تجاه العثمانيين. وبعد بناء خط السكك الحديدية في الحجاز، على طول طريق الحج التي تربط بين دمشق والمدينة، ازداد انعدام الاستقرار في المنطقة، على الرغم من التحسن الذي شهده قطاع النقل. واستخدمت البعثة التصوير الفوتوغرافي بشكل كبير كأداة علمية. وأرسلت صور النقوش الملتقطة، لا سيما خلال الزيارة الأولى في مدائن صالح عام ١٩٠٧م، إلى الأكاديمية، لعناية اللجنة المعنية بمجموعة النقوش السامية. وفي مقدمة المجلد الثاني من الكتاب الضخم الذي نشرت فيه نتائج هذه البعثة (جوسن وسافينياك، ١٩٠٩م و١٩١٤م)، عرّف جوسن وسافينياك عملهما بأنه يطابق معايير التشدد العلمي التي تشكل، حتى اليوم، أساس كل دراسة في هذه المنطقة من المملكة العربية السعودية؛ وربطا ما توصلا إليه من اكتشافات بالنقوش التي وصفها أسلافهما. ولكنهما كانا يدركان أن «الجزء المتعلق بالأثريات اتسم بالأصالة والابتكار؛ فإنه يتناول بشكل حصري الآثار الموجودة في مدائن صالح، من مقابر ودور عبادة. لقد [...] ضاعفنا عدد الصور التي التقطناها وعدد الرسوم والمخططات التي رسمناها[١٢]». وقد ساهما كثيراً في معرفة جذور الحضارة العربية. والصفائح الزجاجية التي أعادها الراهبان الدومينيكيان – والمحفوظة حالياً في مدرسة القدس الفرنسية للتوراة والآثار – تشكل مجموعة وثائقية استثنائية بشأن المنطقة الجنوبية والساحل الغربي للمملكة العربية السعودية، ولا سيما حول مدائن صالح والعلا وتيماء ودومة الجندل، فضلاً عن منطقة جدة وينبع والوجه.

ذكرى بعثات جوسن وسافينياك دامت طويلاً وساهمت في توطيد أواصر التعاون العلمي بين فرنسا والمملكة العربية السعودية. واستُهل برنامج لتحويل هذه الصور إلى ملفات رقمية بفضل مؤسسة التراث المكلّفة بإنشاء مؤسسة المحفوظات الوطنية السعودية للفوتوغرافيا التاريخية، من أجل اكتشاف ماضي الأمة. وقد استطاعت المؤسسة أن تضم إلى أصولها كافة الصور الفوتوغرافية التي التقطتها بعثة مدرسة التوراة لاكتشاف الآثار في شبه الجزيرة العربية. وفي فهرس معرض الصور الفوتوغرافية للمملكة العربية، الحجاز، ١٩٠٧–١٩١٧م، المعروضة في الرياض، خلال الاحتفالات الخاصة بالذكرى المئوية لإنشاء المملكة، وفي باريس، عام ١٩٩٩م، كتب عبدالرحمن الطيب الأنصاري: «يشهد العمل الذي اضطلع به العالمان على سعة ثقافتهما الوطنية ووسائلهما العلمية. وقد ساهم هذا العمل في إرساء الصلات بين شعبين عريقين، الشعب العربي في شبه الجزيرة العربية المتأصل في جذوره العميقة من جهة، والشعب الفرنسي النزّاع إلى التقدّم والرقي منذ النهضة وحتى الحقبة الحالية[١٣].»

بقي إثراء مجموعة النقوش السامية حاضراً في أذهان المسئولين عن البعثات الساعية إلى استكشاف النقوش المكتوبة التي شهدتها المملكة العربية السعودية فيما بعد. ولعب الملك عبد العزيز آل سعود دور الحامي المستنير للبحوث التاريخية المتعلقة بجذور بلاده. فالإنكليزي هاري سانت جون بريدجر فيلبي (Harry St. John Bridger Philby)، المعروف باسم الشيخ عبد الله، الذي اعتنق الإسلام والثقافة العربية وكان صديقاً للملك، قام بزيارة الحجاز بعد الحرب العالمية الثانية (فيلبي، ١٩٥٧م). ونسخ فيلبي النقوش والكتابات الجدارية وسلّمها إلى العلماء الفرنسيين والبلجيكيين العاملين ضمن مجموعة النقوش السامية (لا سيما فان دن براندن وفيلبي (Van den Branden et Philby)، ١٩٥٦م) واضطلع، تحت رعاية الملك، بتحضير بعثة استكشاف النقوش التي قام بها العالم البلجيكي غونزاك ريكمانز (Gonzague Ryckmans) الذي كان العضو المراسل لمعهد فرنسا، برفقة ابن أخيه، جاك ريكمانز (Jacques Ryckmans)، وقد قاما بهذه البعثة بين العامين ١٩٥١م–١٩٥٢م في الأقاليم الجنوبية للملكة العربية السعودية. وما زال جزء من النقوش التي تم العثور عليها خلال هذه البعثة قيد الدراسة حاليًا[١٤].

تطورت الأبحاث الأثرية في المملكة العربية السعودية بعد ذلك، إذ أن البلد يسعى إلى اكتشاف آثار ماضيه ويحرص على إعادة تكوين تاريخ الأمة السعودية. وقد استُحْدِث عام ١٩٧٥م قطاع الموروثات الأثرية؛ وشُيِّدت المتاحف لحفظ المكتشفات. وأتاح هذا البرنامج مشاركة مؤسسات أجنبية في حالات

١٢. جوسن وسافينياك (Jaussen et Savignac)، ١٩٠٩م، مقدمة.
١٣. الأنصاري، ١٩٩٩م، ص. ٣٧.
١٤. أعادت البعثة معها، بحسب أقوال ريكمانز (Ryckmans)، ١٩٥٢م، ص. ٥٠٨: «١٢٠٠٠ نقش، غالبيتها من النقوش الصخرية العائدة إلى فترة ما قبل الإسلام، وقد نسخناها والتقطنا صوراً لأجمل الأمثلة منها»؛ انظر أيضاً ليبنز (Lippens)، ١٩٥٦م، ص. ٢٠٠: «اثنا عشر ألف نقش حميري ستثري مجموعة النقوش السامية، مضاعفة بالتالي محتوى القسم الوارد في هذا الفهرس والمكرّس لبلاد العرب القديمة.»

معيّنة، في البداية. واستهل العمل على بحوث بشأن عصور ما قبل التاريخ في الإقليم الشرقي بالتعاون مع أخصائيين فرنسيين في علم المتحجرات؛ وعام ١٩٧٩م، اضطلعت بعثة أوفدها المعهد الجغرافي الوطني، بالتعاون مع إدارة الآثار والمتاحف، بمهمة ترقيم المعروضات المتعلقة بالنقش على الصخور[١٥]. وجرى تنفيذ برامج تنقيب منهجية، تَمَّ نشر نتائجها على أساس منتظم في مجلة أطلال، وهي المجلة الخاصة بالآثار في المملكة العربية السعودية (الراشد، ٢٠٠٥م؛ الغبان، أعلاه). وشكلت إعادة طباعة مؤلف جوسن وسافينياك عام ١٩٩٧م فرصة لتطوير التعاون العلمي بين المملكة العربية السعودية وفرنسا بمناسبة عقد حلقات دراسة تعنى بمسائل الأبحاث الجارية في المملكة وتبادل البعثات الدراسية[١٦]. وفي الوقت الراهن، تدأب ثلاث بعثات أثرية وفقهية لغوية فرنسية على التعاون مع المملكة العربية السعودية في الميدان؛ وهي مرتبطة بسياسة الانفتاح على السياحة التي تُوْليها الحكومة السعودية أولوية قصوى: ففي مدائن صالح، الحجر سابقاً، تجري أبحاث منهجية منذ العام ٢٠٠١م، وقد أضيف الموقع إلى قائمة التراث العالمي لليونسكو عام ٢٠٠٨م (انظر ل. نعمه، ود. الطالحي، وف. فيلنوف (F. Villeneuve)، أدناه) ؛ كما يجري تنفيذ برنامج للبحث بشأن النقوش القديمة في إقليم نجران، في بير حما، منذ العام ٢٠٠٦م؛[١٧] وفضلاً عن ذلك، جرى عام ٢٠٠٩م تنفيذ حملة لإجراء الدراسات الطوبوغرافية والتنقيب في موقع كلوة، الواقع في إقليم تبوك، شمال البلاد، على الحدود مع المملكة الأردنية، وقد كشفت هذه الحملة النقاب عن آثارٍ ترقى إلى عهد قديم[١٨].

ويأتي المعرض الكبير، الذي يُعيد رسم «علم الآثار وتاريخ المملكة العربية السعودية» المقام في متحف اللوفر، والمخصص لتعريف الجماهير العديدة التي تؤمّ هذا المتحف بحضارة ذات جذور راسخة في بدايات تاريخ العالم، تتويجاً لاهتمامٍ رأى النور في أوروبا، إبّان عصر النهضة، ببلد فسيحٍ شاسع ومذهل[١٩].

الصورة ٥. أبريل/نيسان ١٩٠٧، ركّب الأب سافينياك، على سُلَّميْن متقاطعين، إحدى آلات التصوير وحجابها الأسود ليلتقط صورة للنقش النبطي المنقوش على القبر C17، في مدائن صالح (مدينة الحجر). النقش الجنائزي يعود إلى سنة ١٦م. أنظر جاوسن وسافينياك (Jaussen et Savignac)، ١٩٠٩، المجلد ١، الصورة ١٢٢.
بلاطة زجاجية ثنائية الطبقات من قياس صغير جداً إنتاج ب. جاوسن (P. Jaussen) (رقم الجرد: ٠١٦٥٩-STN-٢٤٦).

١٥. انظر الراشد، ٢٠٠٥، ص. ٢١٠؛ أطلال، ١١، ١٩٨٨، ص. ٤٩.
١٦. انظر في «طوبوا»، ٢/٦، ١٩٩٦، مقالات م. سارتر (Sartre)، وج. و. باورسوك (G. W. Bowersock)، وج.-ف. سال (Salles)؛ الوهيبي، ١٩٧٣، ولاسيما فارس-درابو (Farès-Drappeau)، ٢٠٠٠.
١٧. البعثة، التي كانت في البدء مموّلة بواسطة السفارة الفرنسية لدى المملكة العربية السعودية فيما يخص الحملة الأولى، تحظى الآن بدعم مادي من هيئة التنقيب لدى وزارة الشؤون الخارجية. وتتكوّن البعثة الدائمة من شخصين (كريستيان روبان (Christian Robin) وغليوم شارلو (Guillaume Charloux)).
١٨. بعثة بقيادة صبا فارس (Saba Farès)، أستاذ محاضر في جامعة نانسي الثانية.
١٩. معرض طرقات بلاد العرب. أثريات المملكة العربية السعودية وتاريخها، المقام في متحف اللوفر، يأتي ضمن إطار الاتفاق الحكومي الموقع بين فرنسا والمملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٤م. وقد أرسى متحف اللوفر والهيئة العامة للسياحة والآثار برنامجاً للتبادلات شمل، في مرحلته الأولى، إرسال متحف اللوفر عدد من الأعمال إلى قسم الفنون الإسلامية لإقامة معرض لدى المتحف الوطني بالرياض عام ٢٠٠٦، بعنوان روائع مجموعة الفن الإسلامي المحفوظة في متحف اللوفر.

إكمالاً للببليوغرافية المذكورة في مرجع هذا الجزء، انظر بالأخص هاملتون (Hamilton)، ١٩٩٣م؛ كالفيه روبن (Calvet et Robin)، ١٩٩٧م؛ الأنقاري، ٢٠٠١م؛ مينوريه (Ménoret)، ٢٠٠٣م؛ مورلن (Morlin)، ٢٠٠٦م.

المصادر والمراجع :
الأنقاري، ٢٠٠١م ؛ الأنصاري، ١٩٩٩م، ص. ٣٥-٣٧ ؛ أنفيل (Anville)، ١٧٥١م ؛ أنفيل، ١٧٧١م ؛ أرنو (Arnaud)، ١٨٤٥م، ص. ٢٠٨-٢٤٥، و٣٠٩-٤٣٥ ؛ أرفيو (Arvieux)، ١٧١٧م ؛ أرفيو، ١٧٣٥م ؛ برجيه (Berger)، ١٨٨٤م، ص. ٣٧٧-٣٩٣ ؛ باورسوك (Bowersock)، ١٩٩٦م، ص. ٥٥٣-٥٦٣ ؛ بريكل-شاتونه وفوفو-براسو (Briquel-Chatonnet et Fauveaud-Brassaud)، ٢٠٠٨م، ص. ٢١٥-٢٢٨ ؛ كالفيه وروبن (Calvet et Robin)، ١٩٩٧م ؛ داوتي (Doughty)، ١٨٨٨م ؛ أويتينغ (Euting)، ١٨٨٥م ؛ فارس-درابو (Farès-Drappeau)، ٢٠٠٠م، ص. ٣٢٥-٣٣٠ ؛ غالان (Galland)، ١٧٠٤م-١٧١٧م ؛ هاملتون (Hamilton)، ١٩٩٣م ؛ هربيلو (Herbelot)، ١٦٩٧م ؛ هوبير (Huber)، ١٨٨٤م، ص. ٢٨٩-٣٦٣، و٤٦٨-٥٣١ ؛ هوبير، ١٨٩١م ؛ جوسن وسافينياك (Jaussen et Savignac)، ١٩٠٩م ؛ جوسن وسافينياك، ١٩١٤م ؛ جومار (Jomard)، ١٨٢٣م ؛ لا روك (La Roque)، ١٧١٦م ؛ لو بلان (Le Blanc)، ١٦٤٨م ؛ ليبنز (Lippens)، ١٩٥٦م ؛ لوزاكمور وبريكل-شاتونيه (Lozachmeur et Briquel- Chatonnet)، قيد الطباعة ؛ مينوريه (Ménoret)، ٢٠٠٣م ؛ مورلان (Morlin)، ٢٠٠٦م، ص. ١٥-٣٦ ؛ مولر (Müller)، ١٨٨٩م ؛ نيبهور (Niebuhr)، ١٧٧٣م-١٧٧٦م ؛ باريس (Paris)، ١٩٩٩م ؛ فيلبي (Philby)، ١٩٥٧م ؛ بيرين (Pirenne)، ١٩٥٨م ؛ الراشد، ٢٠٠٥م، ص. ٢٠٧-٢١٤ ؛ رينان، ١٨٨٤م ؛ ريكمانز (Ryckmans)، ١٩٥٢م، ص. ٥٠١-٥١٠ ؛ سال (Salles)، ١٩٩٦م، ص. ٥٦٤-٦٠٧ ؛ سارتر (Sartre)، ١٩٩٦م، ص. ٥٣٣-٥٥٢ ؛ تاميزييه (Tamisier)، ١٨٤٠م ؛ تاراغون (Tarrafon)، ١٩٩٩م، ص. ١١-٢٥ ؛ تيفنو (Thévenot)، ١٦٦٥م ؛ فان دن براندن وفيلبي (Van den Branden et Philby)، ١٩٥٦م ؛ فارتيما (Varthema)، ١٨٨٨م ؛ الوهيبي، ١٩٧٣م.



الإطار الجغرافي

د. بول سانلافيل

وادٍ ضيّق وعميق محفور في السفح الغربي من عسير وينحدر باتجاه البحر الأحمر (تهامة)

تتخذ الجزيرة العربية شكل كتلة مستطيلة ضخمة تقارب مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، تحتل منها المملكة العربية السعودية ثلثيها بينما تتقاسم ستّ دول أخرى (الكويت، البحرين، قطر، الإمارات العربية المتحدة، سلطنة عمان واليمن) الثلث الباقي. تحيط بالجزيرة العربية البحار من ثلاث جهات (الخليج العربي، بحر العرب، البحر الأحمر) ويحدها شمالا كل من الأردن والعراق. بما أنها تجتاز مدار السرطان في منطقة الضغوط الجوية المرتفعة شبه الاستوائية، تعاني الجزيرة العربية من مناخ شديد الجفاف، إلا أنها لا تفتقر إلى الموارد ولا إلى الإمكانيات.

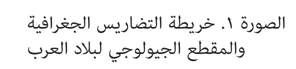
شبه جزيرة مائلة نحو الشرق

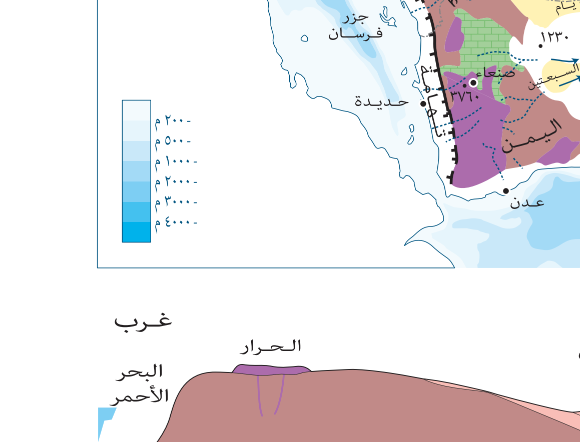
بينما تنتمي الجزيرة العربية إلى الدرع العربي النوبي، فقد انفصلت عن إفريقيا في عصر الميوسين، عندما خضع الدرع لعملية رفع قوية على امتداد موقع البحر الأحمر الحالي، ثم تكسّر ومال نحو الشرق، عندما شرع غور البحر الأحمر بالانشقاق، حوالي عشرين مليون سنة قبل يومنا هذا. وتتابع عملية الانفراج تطورها بمعدل سرعة تعادل ١,٦ سم سنويا. وينتج عن هذا التاريخ الجيولوجي شدة عدم تناسق الجزيرة العربية: فهي مرتفعة جداً في قسمها الغربي بينما تنخفض تدريجيا شرقا نحو السهول المتاخمة للخليج، حيث تغطس السطيحة العربية تحت السطيحة الإيرانية (الخريطة ١).

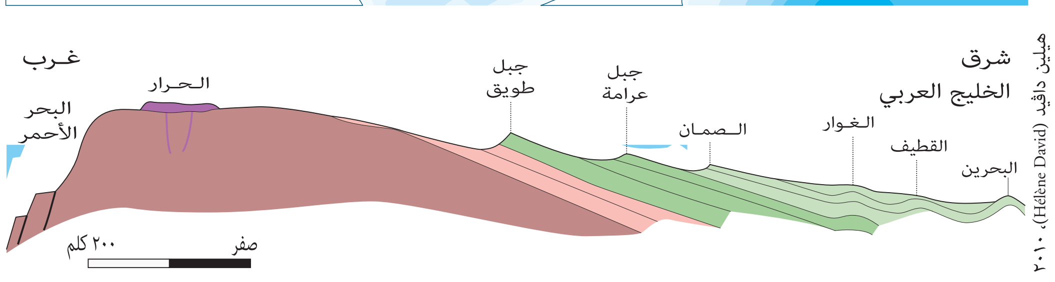
يبرز البحر الأحمر والخليج العربي عدم تناظر الجزيرة العربية. وبما أنه نشأ في القسم الغائر من الدرع، يتميز البحر الأحمر بعمقه، إذ يبلغ ما بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ متر في قسمه الأوسط. أما الخليج فهو، خلاف ذلك، ضحلا (يساوي معدل العمق ٣١ مترا، ولا تفوق القيعان ٨٠ متراً إلا نادراً) وتحده السهول المنخفضة.

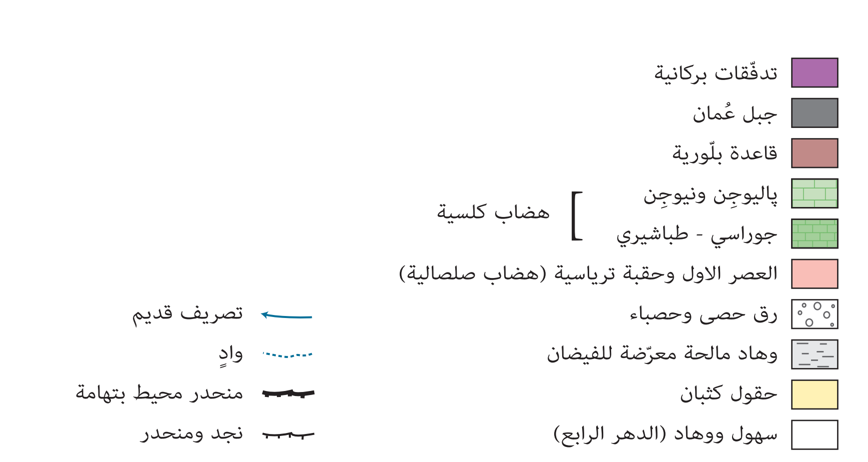
تتكون الجبال والهضاب العالية من الصخور البلورية المنتسبة للدرع العربي-النوبي، وغالباً ما يغطيها، في الحجاز واليمن، اندلاع حُمَم بركانية جبار (الحرات) يطل عليها العديد من القمم البركانية. كما اندلعت الحمم البركانية في منطقة المدينة المنورة عام ١٢٥٦م. على أن المنطقة الوسطى، أي نجد، أقل ارتفاعا ووعورة بينما تمتد أتساعا نحو الشرق. ويزداد الارتفاع شمالا وجنوبا: تصل المرتفعات إلى ٢٦٨١ متراً شمالا في جبل حسمى قريبا من خليج العقبة، إلا أن ارتفاعها يزداد

الصورة ١. خريطة التضاريس الجغرافية والمقطع الجيولوجي لبلاد العرب

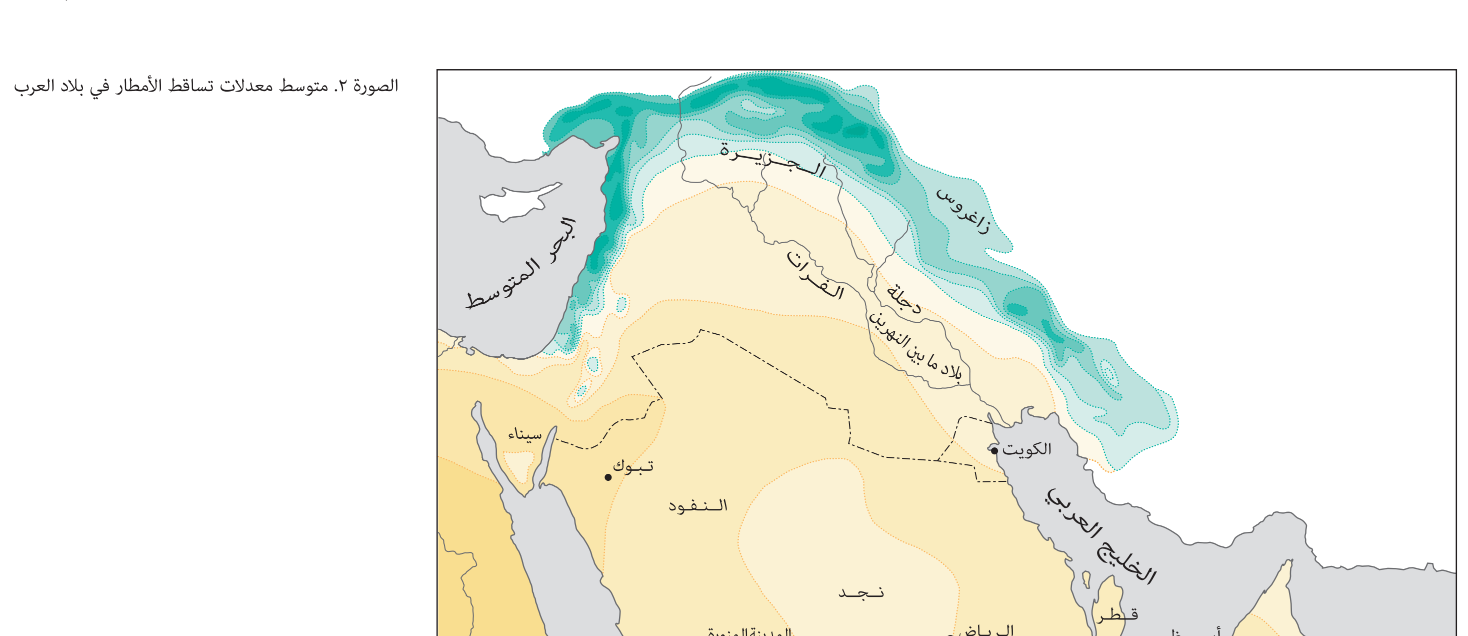


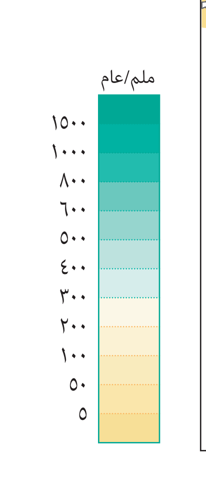






الصورة ٢. متوسط معدلات تساقط الأمطار في بلاد العرب



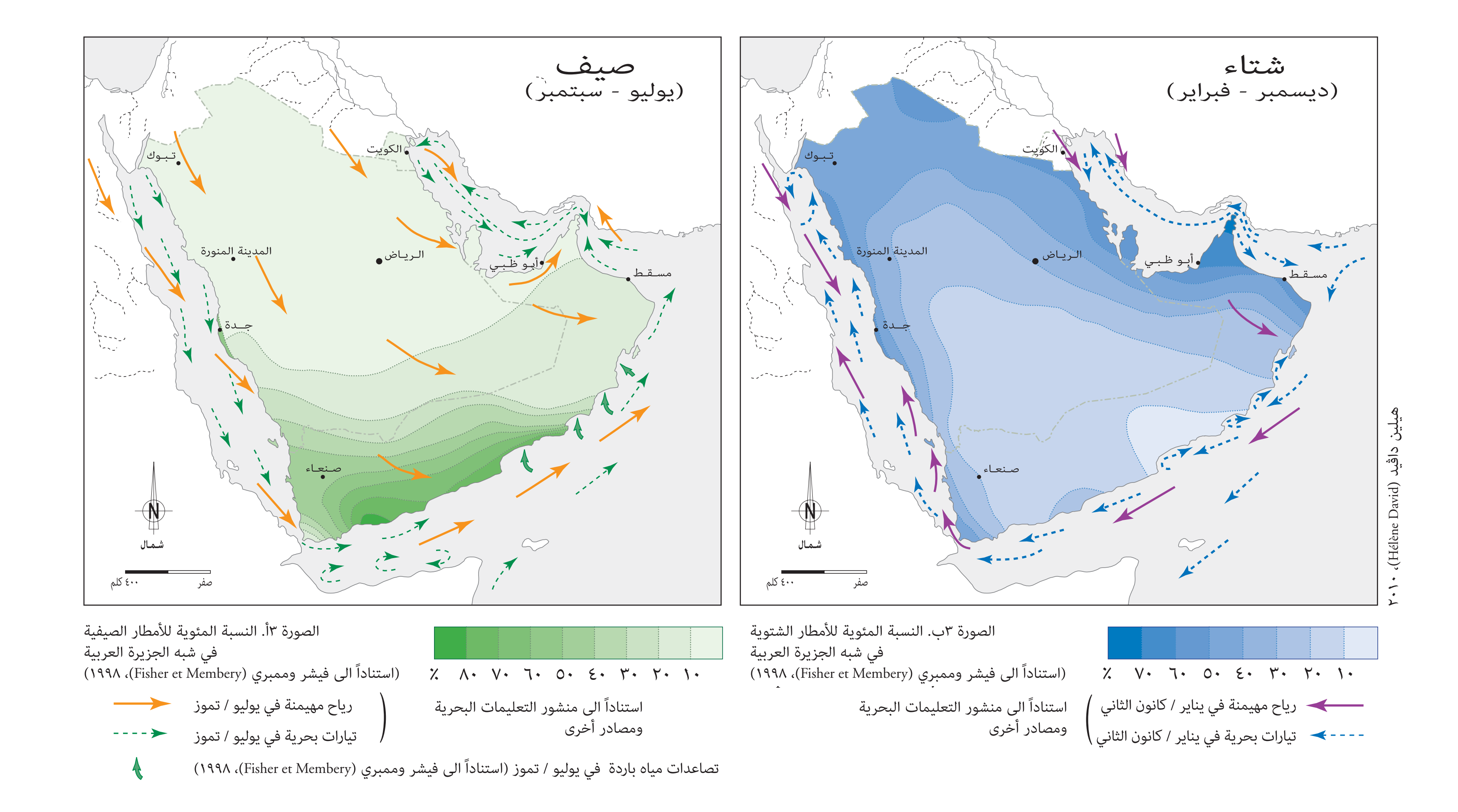


جنوبا فيبلغ ٢٠٠٠ متر في جوار الطائف، قريبا من مكة المكرمة في الحجاز، كما يبلغ ٣٠٠٠ متر في جوار أبها في عسير، وتفوق ذلك في اليمن، المكوّن من هضاب عالية يتراوح ارتفاعها بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ متر بينما تبلغ الجبال ٣٧٦٠ متراً في قمة النبي شعيب في جوار العاصمة صنعاء. تنحدر الجبال والهضاب بسرعة نحو البحر الأحمر، خاصة في عسير واليمن، حيث تحفر الوديان شِعاباً عميقة مبهرة. لا يوجد في الشمال إلا سهل ساحلي ضيق كثير التقطع بينما ينفسح السهل جنوبا، حيث تتسع تُهامة عرضا.

تتوالى الطبقات الرسوبية في النصف الشرقي من الجزيرة، وتزداد حداثتها من الغرب إلى الشرق بينما يصل بعضها إلى سماكات عالية. أظهر الحت في الصخور الطرية سلاسل من المنخفضات المتجهة جنوبا شمالا، مبرزا الجروف والهضاب المنحوتة في الصخور الصلبة، رمليةً كانت أم جيرية. ويرسم عندئذ جبل طويق، الذي يبلغ أقصى ارتفاعه حوالي ١٥٠٠ متر، قوسا مستديرا واسعا يفوق طوله ٨٠٠ كيلومتر، ويبدي غربا جرفا صخريا يفوق ارتفاعه ٢٠٠ متر.

في كافة الأنحاء، يعرّي الحت الصحراوي التضاريس الصخرية، بمنحدرات شديدة تهبط نحو صفحات العروق المنبسطة المحيطة والمؤلفة من الرمال الخشنة. ويلعب الحت الميكانيكي دورا هاما - الجليد في المناطق المرتفعة أو الشمالية، التفسخ الحراري العائد إلى الفوارق الحرارية الكبيرة، الحت الميكانيكي الناشئ عن احتكاك بلورات الملح والجص، الإنسيابات السيلية الفجائية الفعالة،





الصورة ٣ب. النسبة المئوية للأمطار الشتوية في شبه الجزيرة العربية
(استناداً الى فيشر وممبري (Fisher et Membery)، ١٩٩٨)

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٪

رياح مهيمنة في يناير / كانون الثاني
تيارات بحرية في يناير / كانون الثاني
استناداً الى منشور التعليمات البحرية ومصادر أخرى

الصورة ٣أ. النسبة المئوية للأمطار الصيفية في شبه الجزيرة العربية
(استناداً الى فيشر وممبري (Fisher et Membery)، ١٩٩٨)

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٪

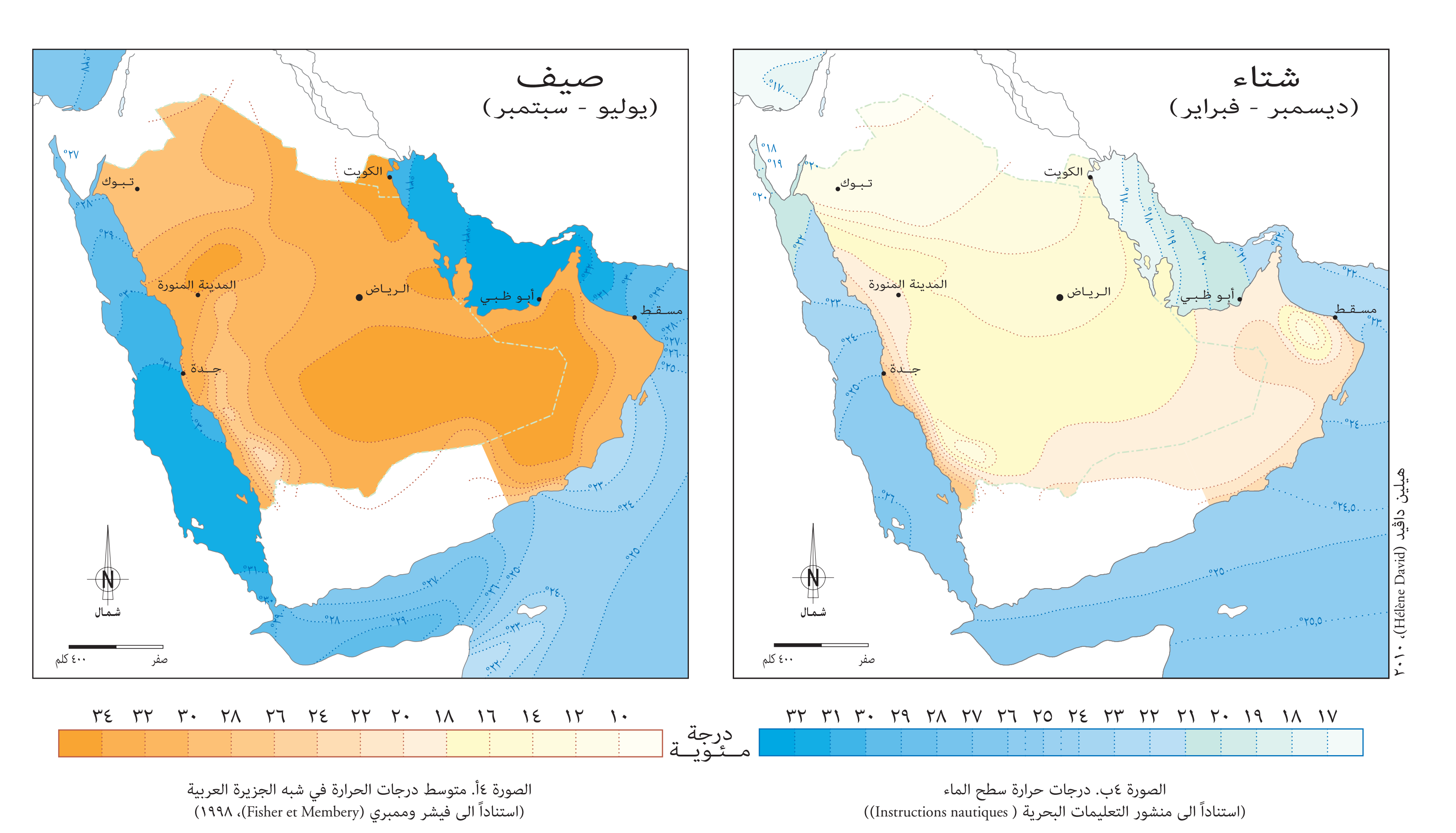
رياح مهيمنة في يوليو / تموز
تيارات بحرية في يوليو / تموز
استناداً الى منشور التعليمات البحرية ومصادر أخرى
تصاعدات مياه باردة في يوليو / تموز (استناداً الى فيشر وممبري (Fisher et Membery)، ١٩٩٨)

(الصفحة المزدوجة السابقة)
قرية وجلول زراعية على السفح الغربي من هضاب عسير المرتفعة

وأخيرا نشاط الرياح الحاملة للرمال - إذ يحتّت الصخور وينقل العناصر الدقيقة فيجمعها في شكل كثبان. إلا أن الظواهر الفيزيائية الكيميائية ليست غائبة أو قابلة للإهمال، إذ يؤدي تتابع الإمطار والتبخر السريع، على سبيل المثال، إلى إسراع تحريك الحديد والمنغنيز، وإلى تكوين طبقة رقيقة صقيلة على صفحة الصخور، داكنة اللون، مميزة لمناظر المناطق الصحراوية.

تنفتح المنخفضات المتجهة من الجنوب إلى الشمال، حيث تكثر الكثبان، جنوبا وشمالا على أحواض رملية واسعة، في النفود (٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) والربع الخالي (٦٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع). إذ تغطي الكثبان أكثر من ثلث الجزيرة العربية. وهي تتخذ أحيانا شكل حقول البرخانات شبه المستديرة المتوضعة على عرق من الرمال الخشنة، أو، كما في الربع الخالي، شكل كثبان ضخمة، حمراء الرمل، يتراوح ارتفاعها حوالي مئة متر وقد تصل إلى ٣٠٠ متر، تتتابع على مئات الكيلومترات، تفصل بينها ممرات منبسطة يقارب عرضها الكيلومتر ومكونة من الرمال الخشنة. ويتعدى هذا العرق المملكة العربية السعودية فيمتد في عمان والإمارات العربية المتحدة.

أخيرا، تمتد في جنوب الجزيرة هضاب حضرموت وظفار الواسعة، كما تمتد شرقا جبال عُمان العالية والمقوسة على طول ٧٠٠ كيلومتر وتبلغ أقصى ارتفاعها عند ٣٠٠٩ أمتار في جبل الشمس.



درجة مئوية

١٠ ١٢ ١٤ ١٦ ١٨ ٢٠ ٢٢ ٢٤ ٢٦ ٢٨ ٣٠ ٣٢ ٣٤

١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢

الصورة ٤أ. متوسط درجات الحرارة في شبه الجزيرة العربية
(استناداً الى فيشر وممبري (Fisher et Membery)، ١٩٩٨)

الصورة ٤ب. درجات حرارة سطح الماء
(استناداً الى منشور التعليمات البحرية (Instructions nautiques))

المناخ الصحراوي

على غرار الصحراء الإفريقية، يؤدي موقع الجزيرة العربية على خطوط العرض إلى تكوين مناخ قاس صحراوي، ذي أمطار قليلة غير منتظمة، عالي الحرارة صيفا، وذي فوارق حرارية مهمة، ومفرط الجفاف. غير أننا نشاهد فوارق جلية بين الشمال، وهو أكثر اعتدالا، وبين الجنوب، ذو الطابع الإستوائي، كما نشاهد فوارق مرتبطة بالارتفاع أو بالقرب المتفاوت إلى البحر (الخرائط ٢ و٣).

تتلقى معظم أقسام الجزيرة العربية أقل من ١٠٠ مليمتر من الأمطار سنويا (١٠١ مليمتر في الرياض، ٥٤ مليمتراً في جدة). وتهبط الأرقام إلى أقل من ٥٠ مليمتراً في الربع الخالي، بينما ترتفع خلاف ذلك في الكتل الجبلية، إلا أن معدل الهطول السنوي لا يتعدى ٢٠٠ مليمتر إلا على قمم جبل عمان وعلى المناطق المرتفعة من عسير واليمن، حيث تفوق محليا ٤٠٠ مليمتر.. علاوة عن ذلك تتفاوت كثيرا التبدلات السنوية في الهطول: سجلت الرياض ٩٩ مليمتراً في الشهر ديسمبر عام ١٩٩٥ بينما يساوي المعدل السنوي ٧٧ مليمتراً؛ وسجلت الظهران القيمة السنوية القصوى ٢٧٧ مليمتراً والقيمة الدنيا ٥ مليمترات. يتلقى شمال الجزيرة أمطار الشتاء والربيع المتوسطية الطابع، وقد تصل أيضا إلى كامل الخليج العربي العربي والإمارات، بينما يتلقى الجنوب صيفا الأمطار الموسمية (وتكثر في شهري يوليو/ أغسطس) ويشهد فترة هطول قوي للأمطار مرة ثانية في الربيع (أمطار ضعيفة في الشهرين مارس/ أبريل)، تنخفض نسبتها سريعا عندما نبتعد عن شاطئ بحر العرب.



(الصفحة المزدوجة السابقة)
كثبان ضخمة من الرمال الأمغرية اللون (الجهة اليسرى من وسط الصورة) على قاعدة من الحصى الرمادية اللون، التي يمكن العثور فيها على بعض الأدوات الحجرية المتفاوتة القدم

ولا توجد الأنهار الدائمة، الشديدة الشح الصيفي، إلا على المنحدرات الغربية في أعلى المناطق ارتفاعا. أما في سائر المناطق، لا نجد سوى إنسيابات متقطعة، محلية وفجائية عند الإمطار، بينما تتمتع الكتل الجبلية بإنسيابات فصلية. تطرح المياه إذن مسألة رئيسة ولم تتمكن الزراعة من الظهور إلا في الأماكن التي توفرت فيها العيون الكارستية (واحات الإحساء اليمن) أو إمكانيات جر طبقات الإنسياب الجوفي في الأودية بإستخدام تقنيات فنية مبتدعة كالقنوات الحارة الجوفية (أفلاج عمان).

يرتفع معدل درجات الحرارة الشتوية والربيعية بانتظام من الشمال الغربي (١٠ درجات مئوية لمعدل أشهر الشتاء الثلاثة) إلى الجنوب الشرقي (٢٠ درجة مئوية) ارتباطا بخطوط العرض. وتخفي هذه القيم المعدلة فوارق حرارية عالية القيمة. ولا تندر الليالي الباردة والجليد، خاصة في المناطق المرتفعة، أما أثناء الصيف فتتشابه درجات الحرارة على كامل الجزيرة، وتتراوح معدلات أشهر الصيف بين ٣٠ و٣٤ درجة مئوية في وسط الجزيرة وشرقها، وتفوق ذلك في حوض الربع الخالي، حيث تبلغ القيم القصوى ٤٨ درجة مئوية (٥٢ درجة في أبقيق وفي الكويت، في شهر يوليو). كما يجب ألا ننسى أن درجات الحرارة المذكورة قد أُخذت في الظل وأن الشمس أو الرمال أو الصخور تعكس درجات حرارة أعلى بكثير. بوجود الرياح الكثيرة ودرجات الحرارة المرتفعة يشتد جفاف الهواء ويصل النتح والتبخر إلى قيم هائلة في كافة المناطق، إذ يبلغ ٤٤٩٦ مليمتر سنويا في معقلة بينما لا يتجاوز الهطول ٩٣ مليمتر. على الشواطئ، يؤدي فرط الرطوبة الجوية إلى جعل الحرارة القوية الصيفية أصعب تحملا مما هي عليه داخل الأراضي وذلك رغم وجود النسيم البحري.

تفرض الظروف المناخية شديدة القسوة على النباتات درجة عالية من التأقلم، خاصة باعتماد جذور عميقة وأوراق صغيرة. يتركز الغطاء النباتي في قيعان الوديان ويتألف خاصة من الفصائل المستديمة بينما لا تظهر الفصائل السنوية إلا لفترات وجيزة بعد الأمطار. تفتقر العروق كثيرا إلى الفصائل النباتية، وخاصة منها عروق الربع الخالي، بينما تحمل المناطق المرتفعة في الجانب الغربي غطاءً نباتياً شجيرياً نسبي الكـثافة. تطغى في الجنوب الفصائل الاستوائية، وخاصة السنط (الأقاقيا) كما نجد الشجيرات المنتجة للبخور (بوسويلا ساكرا) والمرّ (كوميفورا ميرا). أما النخل المتمر فيقتصر على الواحات.

البحور الشاطئية

تؤدي البحور الثلاثة المحيطة بالجزيرة العربية دورا هاما، خاصة بالنسبة للمناخ والنشاطات الاقتصادية (الخرائط ١ و٢ و٣). ويتميز بحر العرب وملحقاه، خليج عمان وخليج عدن، بعمقه حيث سرعان ما نصل فيه إلى أعماق تفوق ١٠٠٠ متر وحيث يقارب فارق الارتفاع بين المد والجزر مترين أو ثلاثة أمتار. بينما يقل تـثغّر الشاطئ العربي، وتكثر صخوره والأرصفة المرجانية الموازية له، يبدي اتجاها عاما غربي جنوبي غربي إلى شرقي شمالي شرقي مما يحدد انتظام الرياح والتيارات المرتبطة بالتقلب الموسمي. إذ تنشط الرياح الموسمية الشتوية، وهي تأتي من الشمال الشرقي، خاصة من مطلع شهر نوفمبر إلى أواخر شهر فبراير، مما يعطي رياحاً مستديمةً معتدلةً فيكون الموسم مؤاتيا للملاحة. أما الرياح الموسمية الصيفية، الآتية من الجنوب الغربي، فهي أطول مدةً، وأكثر استمرارا وأعنف قوةً. بينما تجتلبها الضغوط الجوية الضعيفة التي تسود عندئذ على الهند، تغذيها الرياح المدارية القادمة من جنوب خط الاستواء والتي غيرت اتجاهها عند عبورها لخط الاستواء، فتأتي بالرطوبة والمطر على جنوب الجزيرة العربية، وخاصة على الجبل اليمني وعلى شاطئ ظفار. وتستـتب فعلا في شهر مايو وتهطل بقوة من شهر يونيو حتى شهر سبتمبر. ويكون البحر عندئذ شديد الهيجان فتضطر سفن الصيد للمكوث براً. كما تلفح هذا الشاطئ الأعاصير من حين لآخر، وتأتي عادةً في الشهرين مايو ويونيو وخاصة في شهري أكتوبر ونوفمبر، مسببةً الفيضانات والدمار. أخيرا، تسبب الرياح، وخاصةً الشمالية منها، صعود المياه الباردة العميقة، الغنية بالمواد الغذائية، على طول الشاطئ العربي، مما يؤمن له إمكانيات صيد بحري عالية.

أما البحر الأحمر، فهو شبه مغلق، إذ لا يحصل الاتصال ببحر العرب إلا عبر مضيق باب المندب، وهو ضيق (٢٠ كيلومتراً) وقليل العمق (١٣٧ متراً). بينما يخضع البحر الأحمر إلى تبخر قوي ولا يصبّ فيه أي نهر دائم، وتغذيه المياه القادمة من المحيط الهندي. تكثر الصخور على الشواطئ، وتحف بها الأرصفة المرجانية (الأرصفة المهدّبة) فيبقى بين الشاطئ والرصيف بحيرات شاطئية ضحلة يبلغ عرضها بضع مئات الأمتار، بينما يمتد في عُرض البحر الحاجزُ المرجاني المتقطع (الرصيف الحاجز): في عُرض شاطئ عسير، يمتد رصيف فرسان، المؤلف من آلاف الجزر الـضـئيلة المـرجانية، أكـثر من ٥٠٠ كيلومتر طولا ومائة كيلومتر عرضا. وتكون مياه البحر ساخنةً جداً في الصيف (بين ٢٧ درجة مئوية شمالا و٣١ درجة مئوية جنوباً) وشديدة الملوحة (بين ٣٧ من ألف جنوباً و٤١ من ألف شمالاً)، أما المد والجزر فلا يذكران. يتعقد نظام الرياح لكنه مرتبط ارتباطا عاماً بالرياح الموسمية في المحيط الهندي. من شهر مايو إلى شهر أكتوبر، تهب الرياح الشمالية على كامل البحر الأحمر بينما تحمل التيارات البحرية في الاتجاه عينه. وإن اتجه الريح والتيار جنوباً في شمال البحر الأحمر من نوفمبر إلى الشهر أبريل، فإنهما ينقلبان، دون خط العرض ٢٠، فيتخذان الاتجاه المعاكس، مما يضايق الملاحة الشراعية. ومن جراء تداخل الرياح المحلية، وقرب الأرصفة المرجانية من سطح البحر طوال الشواطئ، مما يشكل خطراً كبيراً على الملاحة، كانت المراكب الشراعية تضطر للمبيت ليلا ومالت التجارة إلى سلوك الطرق البرية.

بينما يقل طول الخليج العربي عن طول البحر الأحمر (٨٥٠ كيلومتراً) ويفوقه عرضا (بين ١٨٠ و٣٠٠ كيلومتر)، ودونه عمقا، يبدي بدوره مداً وجزراً نصف يومين كبيرَيْ المدى (متر واحد في دبي، ولكن ٢٫٥٠م في البحرين و٣٫٥٠ م في الكويت). بالرغم من المياه التي يأتي بها دجلة والفرات والأنهر الفارسية، فإن ميزانية الخليج العربي المائية سلبية من جراء التبخر الشديد، ويعدلها دخول المياه من خليج عمان، مما يولد تياراً متجها من الجنوب نحو الشمال على طول الشاطئ الإيراني يرافقه تيار عودة شمالي جنوبي على طول الشاطئ العربي وتدفعه الرياح الشمالية. الشاطئ عامةً منخفض ومنبسط، وتفرق فيه الرؤوس الصخرية غير المؤهلة بين مساحات واسعة خاضعة للمد والجزر فتكون طينية رملية التربة، حيث ينصب الصيادون فخاخاً سمكية واسعة. كما توجد هناك بحيرات مالحة شاسعة تدعى خور-أخوار. وتمتلئ هذه بدورها بالتربة لضحالتها فتتحول رويدا رويدا إلى سباخ، وهي مساحات غضارية يملأها الفيض دورياً، غنية بالجص والملح، وتبقى عارية أو تكتنفها النباتات الملحية. وهذا ما يحدث خاصةً على شاطئ الإمارات، كما يحصل بين البحرين والمملكة العربية السعودية. تحول هذه الترسبات الدقيقة دون تطور البنيات المرجانية، التي تقتصر على الشواطئ الصخرية الجيدة التعريض للشمس بينما يحول انخفاض درجة حرارة المياه دون ذلك في شمال الخليج العربي، بسبب انخفاضها دون ١٨ درجة مئوية شتاءً. أما في الجنوب فنشاهد، شأنها شأن شواطئ بحر العرب، مناطق شورى (منجروف) واسعة تكـثر فيها الأشجار الملحية المائية (أفيسينا مارينا) التي استثمرت بكثرة في الماضي لخشبها وورقها (للعلف) ولجمع القواقع. لا تصل الرياح الموسمية والأعـاصير الاسـتوائية للـخليج ولكن بـالرغـم من صبغة ريح الشمال الطاغية فإن الخليج العربي يشهد رياحاً مختلفة القوى والاتـجاه من شـأنها أن تولّد أمواجاً قـصيرة وقـاسية تتراكب مع تيـارات المد والجزر مما يـجعل الـملاحة عـسيرة، بل خـطـرة، خاصة في الجنوب.

دور التقلبات المناخية

تبدي الجزيرة العربية وجود عناصر صرف كبيرة هابطة من المناطق المرتفعة الغربية ومتجهة نحو الخليج العربي (الخريطة ١). وكان أحدها، الناشئ في جبال الحجاز ينصب في شط العرب بالقرب من البصرة حيث يعرف باسم وادي الباطن، بينما كان آخر، وهو ينشأ في عسير (وادي الدواسر) يجـتاز جبل طـويق ويـنصبّ في الـخليج الـعـربي جنـوبي قـطـر. في الـيمـن، تضـيع



(الصفحة المزدوجة السابقة)
صخور أثرية الصورة جرداء تطل على مساحة رملية تتوافر فيها مراعٍ متواضعة للهجن
(منطقة العلا، الحجاز)

وديـان السفح الشرقي في رمال رملة السبعتين بينما كانت تغذي سابقا وادي حضرموت. وكانت هذه الشبكات المائية، التي أصبحت اليوم مشتــتة، كثيف طوال فترات أكـثر إمطاراً من اليوم. إذ عرفت المنطقة فترة إمطار ممتاز بين ١١٠٠٠ و٧٠٠٠ سنة قبل اليوم[١]، كما حدثت فترات رطبة طويلة ومميزة بين المراحل الجليدية الرباعية، وكثر من ذلك في العصر البليو-ميوسيني. وتشهد على ذلك البحيرات القديمة التي نجد ترسباتها تحت رمال النفود والـربع الـخالي. في الـمدورة، في جنوب الأردن، أُرِّخَتْ الترسبات البحرية باستخدام الثوريوم ٢٣٠/يورانيوم ٢٣٤ U[٢] فنسبت إلى العصر البيجليدي الأخير (بين ١٢٠٠٠٠ و٨٥٠٠٠ عام قبل اليوم). وتراكمت الرمال التي نقلتـها هذه الأودية الكبيرة الهابطة من الكتل الغرانيتية أو الرملية فوصلت إلى المنخفضات، حيث أعادت نقلها الرياح أثناء فترات الجفاف فكونت عروق النفود والربع الخالي. وشحنت في تلك الفترات الحوامل المائية الجوفية العميقة التي نجدها في التكوينات الرسوبية في شمالي غربي الجزيرة وفي المناطق الشرقية وتحت الربع الخالي، على عمق يفوق عدة آلاف الأمتار، وهي أحيانا مرتبطة بالتوضعات النفطية. إلا أن معظم هذه الحوامل أحفوري وتعاني اليوم من فرط الاستغلال.

كما تجلّت التــقلبات المناخية الرباعية الكبرى في أهمية تغيرات مستوى البحر. إبان المرحلة الجليدية الأخيرة، أنخفض مستوى البحار بما يقارب ١٢٠ مترا. وجف عندئذ الخليج العربي العربي جفافا تاما وكان دجلة والفرات ينصبان سويةً على جـانب خـليج عـمان: أستـطاع الإنسان عـندئذ إن يستوطن الخليج العربي. وفي آخر المرحلة الـجليدية، عـاد وامـتلأ الخليج العربي مـاءً تدريجياً، ولكن حدثت حركات مـعقدة في تعـديل الارتفـاعات بالـتوازن، ممـا أدى إلى تـغييرات مـتفاوتة الأهـمية في خط السواحل.

لقد أمنت تلك الفترات الرطبة لإنسان ما قبل التاريخ ظروفاً معيشية مختلفة جدا عن الظروف الحالية، لأن الغطاء النباتي كان أكبر بكثير مما هو عليه الآن، كما كانت الموارد المائية أكثر عددا.



توافر الينابيع يؤدي، في أماكن مختلفة،
إلى ظهور واحات خضراء ذات مساحات متفاوتة (منطقة العلا، الحجاز)

الخلاصة

تقابل الجزيرة العربية الإنسان بظروف معيشية جمة الصعوبة: الأتساع والهيئة الكتلية، ووعورة التضاريس، ارتفاع الجبال والهضاب ووعورتها، وتقطيعها بالوديان العميقة، كبر مساحات الكثبان وطابعها الشرس، أخطار الملاحة على البحار المتاخمة بسبب الرياح والتيارات، ووجود الأرصفة المرجانية أو العتبات الرملية الضحلة، قساوة المناخ، ارتفاع درجة الحرارة، أهمية الفوارق الحرارية، وخاصة فرط الجفاف وندرة الموارد المائية.

إلا أن الإنسان تمكـّـن من الاستيطان فيها باكرا جدا وعاش فيها مستفيدا من بعض الظروف المؤاتية. ويُرجّح أن بعض المناطق كانت أكثر تأهيلا من غيرها: الشواطئ بمواردها السمكية والقوقعية، المناطق المرتفعة الغربية وسفوحها، المناطق المستفيدة من الينابيع الكارستية.

تنفتح الجزيرة انفتاحا واسعا تجاه سورية والعراق، بينما تسهل بحارها المتاخمة الثلاث الاتصال بالخارج. يتميز الخليج العربي بموقع ممتاز بين بلاد الرافدين وعمان، وبين الجزيرة العربية وإيران، كما يمتاز، عبر مضيق هرمز، بإمكانيات الإتصال والتبادل مع آسيا وإفريقيا عبر المحيط الهندي. بفضل باب المندب وبرزخ السويس، كان الإتصال بإفريقيا ممكنا وتم التبادل معها باكرا. علاوة عن ذلك، تمكن الإنسان من وجود المواد الأولية لصناعة أدواته: الصوان والكوارتزيت والمواد البركانية (زجاج الأوبسيديين، الأنديزيت، البازلت)، ثم في عصور لاحقة، الموارد المعدنية كالنحاس والحديد، أو الموارد النباتية كالبخور والمر. خُطّت عندئذ مسالك المواصلات وأتاح تدجين الحمير والجمال مضاعفة التحركات والتجارة.

١- قبل الحاضر (BP : « Before Present). ويمكننا أن نكتب «قبل ١٩٥٠». وفقا للإصطلاح العلمي، إن كافة عمليات التأريخ المُقاسة إعتمادا على الفحم ١٤، تُحسب إنطلاقا من عام ١٩٥٠، أي من تاريخ التجارب الأولى في التأريخ المعتمدة على الفحم ١٤. بعد تلك التجارب، تغيّرت كثيرا نسبة ثاني أوكسيد الفحم في الهواء.

٢- U/Th تقنية تأريخ مواد الكاربونات (مركّبات أكاسيد الفحم) قائمة على النسبة بين الثوريوم (Th ٢٣٠) والأورانيوم (U ٢٣٤)، إذ يتفكك الأورانيوم طبيعيا فيتحول إلى ثوريوم ٢٣٠.

المصادر والمراجع :

فيشر وممبري (Fisher et Membery)، ١٩٩٨م، ص. ٥-٣٨ ؛ فلتمان، بورنس، مانجيني وآل (Fleitmann, Burns, Mangini et al.)، ٢٠٠٧م، ص. ١٧٠-١٨٨ ؛ جادو وظُتل (Jado et Zötl)، ١٩٨٤م ؛ ليزين (Lézine)، سلياج (Saliège)، روبير وآل. (Robert et al.)، ١٩٩٨م، ص. ٢٩٠-٢٩٩ ؛ پوتي-مير، كاربونال، رايس وآل (Petit-Maire, Carbonel, Reyss et al.)، تحت الطبع ؛ سانلاڤيل (Sanlaville)، ٢٠٠٠م ٣٨ ؛ السيّاري وظُتل (Al-Sayari et Zötl)، ١٩٧٨م

تاريخ الاصول

أ. د. دانيال تي. بوتس



إفريز نقشت عليه صورة قبيلة عربية هاربة من الجنود الأشوريين. القصر الشمالي للملك آشور بانيبال في نينوى، لندن، المتحف البريطاني

من الصعب جداً تقديم سرد متواصل عن التاريخ القديم للمملكة العربية السعودية، لأن ترامیها وتنوعها الجغرافي، حمل كثيراً من الأقوام، على استيطانها. وربما وُجد تشابه أكثر مما كنا نظن آنذاك بين مختلف مجموعات الصيادين المقيمين الذين استقروا على طول السواحل الشرقية والغربية لشبه الجزيرة العربية. لكن تنظيمهم الاجتماعي واقتصادهم كان يختلف كثيراً على الأرجح، في الفترة نفسها، عن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعات الصيادين- القطافين ومربّي الحيوانات أو المزارعين في واحات الداخل. واختلف هذا التنظيم أيضاً عن مربي الجمال في المناطق الصحراوية[١]، بعد تدجين الجمل في الألف الثاني قبل الميلاد. وهؤلاء المستوطنون الأوائل للمملكة العربية السعودية لم يخلّفوا أي وثيقة مباشرة يمكن التعويل عليها لكتابة تاريخهم، لكن تتوافر في المناطق المتاخمة للمملكة مصادر معلومات تتيح إعادة تكوين الحقب الأولى لتاريخ هذه المنطقة.

في العام ٣٤٠٠ قبل الميلاد، كان السهل الغريني في جنوب بلاد ما بين النهرين، شمال شرق المملكة العربية السعودية، يضم عدداً من المدن التي شهدت نمواً كبيراً. اختُرعت الكتابة في أوروك، إحدى أكبر المستوطنات البشرية في المنطقة، في تلك الفترة تقريباً، ومن بين أولى النصوص ما قبل المسمارية التي وصلتنا، يذكر عدد منها اسم ديلمون[٢](Dilmun). وفي فترة لاحقة، ابتداءً من العام ٢٢٠٠ قبل الميلاد تقريباً، سيُطلق هذا الاسم على البحرين، لكن في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد، لم تكن قد أقيمت بعدُ مستوطنة كبيرة في البحرين، فيما يشهد عدد كبير من الأدوات التي عُثر عليها في المنطقة الشرقية على وجود علاقات مع بلاد ما بين النهرين[٣]. وهذا يشير على ما يبدو إلى أن الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية، حيث كانت ترسو منذ آلاف السنين زوارقُ آتية من بلاد ما بين النهرين، كان إلى حدٍّ ما على اتصال ثابت بالحضارة المكتوبة لجنوب العراق، حضارةِ السومريين القدامى.

وكانت المناطق الغربية للمملكة العربية السعودية، لاسيما عسير والحجاز، تسلك في الفترة نفسها اتجاهاً آخر على الأرجح. وطرح منذ أعوام عديدة، بحاثة كانوا يسعون إلى تحديد حجم علاقة مصر الفرعونية بأقوام غرب شبه الجزيرة العربية[٤]، فرضيات عدة منذ سنوات كثيرة، لكن لم تتوفر

١. أوربمن وأوربمن (Uerpmann et Uerpmann)، ٢٠٠٢.
٢. بوتس، (Potts) ١٩٨٦.
٣. أنظر دأن.تي. بوتس (D. T. Potts)، "العلاقات مع بلاد ما بين النهرين في حقبة عبيد (Obeid)، في الألف الثالث. جزيرة تاروت (ومواقع أخرى). حضارة ديلمون (Dilmun)، في الألف الثاني والألف الثالث قبل الميلاد".
٤. للتعرف إلى الوضع السياسي للمنطقة، أنظر فان دو ميروب (Van de Mieroop)، ٢٠٠٧.

أدلة قاطعة على ذلك. ويقول البعض منهم إن المصادر السبجيه (الحجر الزجاجي الأسود) في وادي جيزان والجبل الأبيض قرب خيبر، قدمت على الأرجح قسماً من الحجر السبجي الذي استُخـدم في مصر خلال حقبٍ سبقت السلالات الحاكمة والقديمة وكذلك إبان الإمبراطورية القديمة[5].

ولم يظهر أيُ موقع سعودي، على ما يبدو، في الحسابات المتصلة بتجارة مصر على امتداد البحر الأحمر حتى بلاد بونت[6] (Punt)، وغالباً ما يستند إلى مجرد تخمينات الجزء الأكبر من التأكيدات التي تحمل على الاعتقاد أن غرب المملكة العربية السعودية أقام علاقات تجارية مع مصر قبل الألف الأول قبل الميلاد.

لكن من الممكن أن نتبيّن في جزء من منطقة الحجاز الحالية، شمال غرب السعودية، الأرضَ التي احتلها شعبٌ ثبت وجودُه تاريخياً في العصر البرونزي الأخير. وقد أشارت التوراة مراراً إلى بلاد مِدْيَن وشعبها بني مِدْيَن (سفر التكوين، ٢٥، ٤؛ سفر الخروج، ٢، ١٥-١٨؛ سفر العدد، ٣١، ١- ١٠؛ سفر الملوك الأول، ١١، ١٧- ١٨، إلخ). وهذه البلاد التي لم تكن خاضعة لسيطرة مصر، كانت تقع جنوب مملكة موآب القريبة من ساحل البحر الأحمر. وتـُتيح مصادر تلت التوراة مثل التاريخ القديم لليهود (*Les Antiquités juives*) الذي كتبه فلافيوس جوزيف (Flavius Josèphe) والمقالة في الجغرافيا لكلودْ بطوليمه (Claude Ptolémée) والـقرآن الـكريم، على الاعـتقاد أن مـركز بلاد مِدْيَن الـقديمة كان في منطقة تبوك الحالية، وتمتد من الشمال إلى الجنوب، من مدخل وادي عربة إلى الوجه[7]. وأظهرت عملياتُ مسح سطح الأرض أجريت في قُريّة في ١٩٦٨[8] أن هذا الموقع هو أحـد أكـبر الـمواقع في المنطقة، بتلـِّهِ الكبير ومدينته المنخفضة وأفرانه الفخارية ومنظومات حقوله وأسواره الظاهرة للعيان على سطح الأرض[9] وأسلوبه الخاص في الفخار الملوَّن الذي كان يـُقال له «المديني» ويـُعرف اليوم بفخار قُريِّة.

وعلى الرغم من أن النصوص التوراتية يختلف الواحد منها عن الآخر في تفاصيلها، أو في التفسيرات التي أُعطيت لها، فقد ُذكـِرَ بني مِدْيَن مرتين على الأقل: وردت وقائعُ حربيـْن بين إسرائيل وبلاد مِدْيَن، سـواء في سـفر العدد (٢٥، ٦-١٨؛ ٣١، ١-١٢) أو في سـفر القضاة (٦،٩)، وقد وقعـتا عـلى الأرجـح في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. وعلى الصعيد السياسي، وُصفت بلاد مِدْيَن بأن نظامها السياسي يعتمد اللامركزية وتقاسمها خمسة ملوك (أوي وراقم وصور وحور ورابع) في فترة الحرب الأولى، واثنان (زبـَحُ وصلمُنـَّاع) خلال الحرب الثانية، ممّا يحمل على الاعتقاد بأنها اتحاد قبائل أو عشائر يتزعم كلَ واحدة منها رئيسُها الكبير. وطرح كناوف (Knauf) فكرة مفادها أن أسماء هؤلاء «الملوك» قد تكون في الواقع أسماء مواقع، أي أسماء مستوطنات مهمة أو مناطق مديانية[10]، على غرار ما قال ليفين (Levine) أيضاً، لكن مفسري التوراة لم يتفقوا على مواضعها الدقيقة[11]. وكان بنو مِدْيَن يمتلكون أعداداً كبيرة من البهائم والمواشي (سفر العدد، ٣١ ،٩)، لكن بلادهم كانت تضم أيضا معسكراتٍ ومدناً (سفر العدد، ٣١، ١٠) ربما مثل قُريِّة (انظر أدناه). والغنائم التي أخذها الإسرائيليون في الحرب الأولى، تضمنت القلائد والأساور والخواتم والأقراط والعقود (سفر العدد، ٥٠،٣١). وفي نهاية الحرب الثانية، تحصل جدعون ملك إسرائيل على الخواتم الـذهبية التي كانـت مع المديانيين القتلى – بلغ وزنُ هذه الغنيمة ألفا وسبع مئة مثقال ذهب-، ما عدا زينة الفضة والحـَلـَق والقلائد التي كانت في أعناق جمال المديانيين، وصنع منها صنما[12] ووضعه في مدينة عفرة (سفر القضاة، ٨، ٢٤-٢٧)[13].

والإشارة إلى الثياب الأرجوانية لملوك مِدْيَن التي استولى عليها جدعون (سفر القضاة، ٢٦، ٨)، تحمل على الاعتقاد بأن بلاد مِدْيَن، في نهاية العصر البرونزي، كانت تحصل مباشرة أو غير مباشرة على السلع الفاخرة من الساحل المشرقي. ونماذج الخزف الملوّن في قُريِّة (الحلزونيات والمعيـَّنات، أي الشكل المسطح المتساوي الأضلاع الأربعة المستقيمة، والشارات العسكرية على سبيل المثال)،

٥. زارينس (Zarins)، ١٩٨٩.
٦. فيليبس(Phillips)، ١٩٩٧.
٧. كونيغ (Koenig)، ١٩٧١؛ باين (Payne)، ١٩٨٣؛ بريغس (Briggs)، ٢٠٠٩.
٨. بار (Parr)، هاردينغ (Harding) ودايتون (Dayton)، ١٩٧٠ و١٩٧٢.
٩. للنقوش الأخرى في هذا الموقع، أنـظر أيضا إيـنغراهـام و أل. (Ingraham et *al*)، ١٩٨١.
١٠. كناوف (Knauf)، ١٩٨٨.
١١. ليفين (Levine)، ٢٠٠٠.
١٢. تمثال ليهوه (Yahvé)؟ منزل للكاهن المصطنع؟
١٣. بولينغ (Boling)، ١٩٧٥.



إفريز أشوري نقشت عليه أشكال نساء عربيات تم القبض عليهن خلال حملة الملك تيغلات فيلصر ضد الملك شمسي، لندن، المتحف البريطاني، ١١٨٩٠١

التي لفت النظرَ إليها بيتر بار (Peter Parr)، تـُظهر أن هذه الفرضية معقولة كما تدل على ما يبدو إلى صلات مع الإيجيين (Égéens). وعلى الرغم من أن بعض الباحثين اعتبروا بني مِدْيَن بدوا رُحـَّلا، فإن الإشارات البالغة الوضوح إلى مدنهم وإلى الثروات التي أخذت مـنهم، تـحمل على الاعـتقاد بأن مِدْيَن كانت بلداً يعيش فيه الناس الحضريون في مدن، أمثال قُرَيَّة التي ما زالت آثارها الهندسية المهمة باقية[١٤]. وقد يكون بعضُ بني مِدْيَن المتخصصين في تربية الجِمال[١٥] اتخذ بالتالي من هذه المدن محطّ رحال، ولم يعش بالضرورة حياة الترحال باستمرار. وأفادتنا بحوث حديثة تناولت تاريخ تدجين الجمل في شبه الجزيرة العربية أن بني مِدْيَن كانوا من أوائل الذين استغلوا هذه الوسيلة الاستثنائية. ولأن الجمل يـشتهر بقدرته على السير مسافات طويلة، فإن تجار بني مِدْيَن (سفر التكوين، ٢٥،٣٧) مع جمالهم المدجنة واستيطانهم الجغرافي في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، كانوا في وضعٍ مثالي ليتمكنوا من نقل وتوزيع الطيوب، كاللـُبان والمُرّ الآتي من اليمن الحالي أو ظفار الحالية[١٦].

وقد طرح بعضٌ من اتضحت هذه الصورة في ذهنه، الفكرة القائلة بأن الإشارات المصرية إلى (Shoshu) في عهد الإمبراطورية الجديدة، قد تُعيدنا إلى بني مديان[١٧]. وإذا كان بنو مِدْيَن، كما ظن بعضُ الباحثين، في عِداد ناقلي الطيوب إلى الإمبراطورية المصرية الجديدة في عهد الأسرتيْن التاسعة عشرة والعشرين، فإن مصدر تلك الطيوب كان على الأرجح جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت ظهور جِمال بني مِدْيَن الشهيرة وسيلة نقله. وطرح بار (Parr) من جهة أخرى الفكرة الذاهبة إلى أن تدهور المدن الكبرى مثل قُرَيَّة ثم زوال المدينيين قد يكون ناجماً عن الضعف التدريجي لمصر زمن الأسرة العشرين وانكفائها نهائياً من المنطقة بعد حكم رعمسيس الرابع، على الرغم من أن عوامل بيئية ومناخية كان لها تأثيرها أيضاً. وفي هذه الحالة أو تلك، اضطلع المدينيون على الأرجـح بـدور اقـتصادي مـهم في الـعصر البـرونزي الأخير، مستفيدين في آنٍ معاً من وضعهم الجغرافي ومن تفوّق وسائل النقل لديهم، أي الجمل المدجّن.

يوجد نص مسماري يؤرخ بمنتصف القرن الثامن قبل الميلاد، مصدره (Sur Jar'a) قرب (Anah) على متوسط مجرى الفرات غرب العراق، يقدم لنا دلالة مهمة. كتب النص نينورتا- كودوري- أوسور، حاكم سوهو وماري (منطقة كانت تمتد حسب متوسط مجرى نهر الفرات نحو الشمال ابتداءً من (Anah) حتى ماري على الأقل في سوريا الحالية)، يصف الهجوم على قافلة كانت متوجهة إلى واحة تيماء الكبيرة في الحجاز بالمملكة العربية السعودية، وإلى سبأ (إلى الجنوب من المملكة العربية السعودية)[١٨]. ويقول الكاتب إن مائتي جمل وحمولتها، المؤلفة من الصوف البنفسجي (takiltum) وأصواف أخرى وحديد ومن باباردیلو (pappardilu) أي أحجار متنوعة ومن «كل أنواع البضائع»، قد صودرت. وكما أشار إليه مايكل ماكدونالد (Michael Macdonald)، فإن البضائع التي كانت تنقلها تلك القافلة، تبين بوضوح أنها لم تأتِ من شمال تيماء، بل من الساحل المتوسطي أو المشرقي وكانت متوجهة إلى شبه الجزيرة العربية[١٩]. فالصوف البنفسجي المصبوغ بالصباغ المأخوذ من المُرَكسي (murex) صـُنع في المدن الفينيقية التي كان يطلبه منها الأشوروين مثل شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٤٢ قبل الميلاد) بمثابة جزية.

وفي العام ٧٣٣ قبل الميلاد، ورد ذكرُ التيمائيين في نقش لتغلات بلاسر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ قبل الميلاد) أحد الأقوام – منها مسأى وسبأ وخيابة وبطنة وخطي وأدبئيل - التي أرسلت له جزية بعد خضوع شمسي (Samsi) ملكة العرب للسلطة الأشورية. وظهر اسم تيماء في نسخة معدلة (أشورية جديدة) من الجغرافيا المسماة سرجونية، وهي نص يفترض أنه يصف إمبراطورية سرجون ملك أكاد الذي عاش في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. إلا أن تلك الإمبراطورية أعيد تنظيمها إبان حكم

١٤. بار (Parr)، ١٩٨٨ و١٩٩٦.

١٥. أنظر سفر القضاة، ٥،٦: "لا يـُعدّون هم ولا جمالهم".

١٦. ماكدونالد (Macdonald)، ١٩٩٧.

١٧. جيفيون (Giveon)، ١٩٧١؛ ورد (Ward)، ١٩٧٢؛ صالح (Saleh)، ١٩٧٣.

١٨. حول تيماء في الفترة الأشورية، أنظر وينيت وريد (Winnett et Reed)، ١٩٧٠؛ إيفايل (Eph'al)، ١٩٨٢؛ بوتس (Potts)، ١٩٩١. وللحفريات التي أجراها الألمان، أنظر إيخمن، شاودينغ وهاوسلايتر (Eichmann, Schaudig et Hausleiter)، ٢٠٠٦.

١٩. ماكدونالد (Macdonald)، ١٩٩٧.

سرجون الثاني الأشوري (٧٢١-٧٠٥ قبل الميلاد). وثبتت أهمية الموقع من جديد في العام ٦٩٤ قبل الميلاد عبر وثيقة تشهد على عبور الهدايا التي قدمها سكانها من باب صحراء نينوى (abul madbari) العاصمة الأشورية.

وكان شمال المملكة العربية السعودية، آنذاك، في قلب اهـتمامات أشـور التي رغـبت في السيطرة على سوريا والمشرق[٢٠] وقاتـلت بلا تـوقف تقريباً لإخضاع بابل وحـلفائها[٢١]، من دون أن تغيب عن ذهنها المنافعُ التي توفر لها السيطرةُ على التجارة عبر الطريق البرية الآنفة الذكر. وفي العام ٦٩١ قبل الميلاد، شن جيشُ سنحريب حملة على شمال شبه الجزيرة العربية، ولاحق تلخونو ملكة العرب وحزائيل ملك العرب (سُمي فيما بعد بطريقة عشوائية على الأرجح «ملك قيدار» في نقوش أشور بانيبال)، حتى أدومّاتو (Adummatu) «في وسط الصحراء». وهذه المرة الأولى التي يـُذكر فيها اسمُ واحة كبيرة أخرى في شمال شبه الجزيرة العربية، أي أدوماتو القديمة، دومة التوراتية، دومايتا (Dumaitha) اليونانية ودومة الجندل الإسلامية والجوف الحالي[٢٢]. وفيما أسِرت تلخونو مع آلاف الجِمال وتماثيل عدد من الآلهة العربية التي لم يتحدد اسمها، اسـتسلم حـزائيل وأرسـل إلى سـنحريبُ جـزيةً ضمت، في ما ضمت، مجموعة متنوعة من شبه الأحجار الكريمة، وخشب السرو والـطيوب. وفي قـصر نينوى، حـمل بـعضُ اللآلىء الحجرية نقشاً يفيد أنها كانت جزءاً من «غنيمة دومة/دوميتو» (kisitti uru Dumetti). وفي النص نفسه ورد اسم مدينة تـُدعى كابانو (Kapano) لعلاقتها مع تلخونو التي يمكن أن تقابلها، كما يعتقد إيكارت فراهم[٢٣] (Eckart Frahm) ربما «كاف» الحالية التي تقع إلى الـطرف الآخـر من وادي السرحان بالنسبة إلى أدوماتو. وأسفر تواجدٌ أشوري في وادي السرحان عن عواقب وخيمة على تجارة القوافل التي أكدها بعد حوالي نصف قرن بين جنوب شبه الجزيرة العربية وتيماء نصُ (نينورتا كودوري أسور) الذي عـُثر عليه في سور جعره. وقد دفع هذا التواجد في الواقع (كرب إيل وتار السبئي) على أن يـُرسل بنفسه هدية (namurtu) إلى سنحريب وهي عبارة عن أحجار شبه كريمة وطيوب في حوالى العام ٦٨٣ قبل الميلاد[٢٤]. ولا شك في أن هذه الأحداث تـُفسر لماذا أطلق هيرودوت[٢٥] (Hérodote) على سنحريب اللقب المزدوج «ملك العرب والأشوريين».

في العام ٦٧٨ قبل الميلاد، أعاد أسرحدون إلى أدوماتو في أعقاب زيارة حزائيل إلى نينوى، تماثيل العبادة التي صادرها سنحريب، والدُ أسرحدون بعد هزيمته[٢٦]. وقام أسرحدون بهذه الخطوة على الأرجح لترسيخ تبعية حزائيل، لكن الملك الأشوري زاد أيضاً الجزية (maddattu)، مطالباً إياه بخمسة وستين جملاً إضافياً في السنة. وفي الفترة نفسها، يُشار إلى أن أميرة عربية، تحمل اسم تبؤة، نشأت في البلاط الأشوري «من دون منافس في قصر سنحريب»، ونـُقلت إليه على الأرجح في وقت واحد مع تلخونو بعد أسـر هـذه الأخيرة في العام ٦٩١ قبل الميلاد، تـمكّنت من الـعودة إلى أدومـاتو حيث نـُصِّبت مـلكة على العرب. وليس ممكنا أن نحدد بـوضوح هـل كانـت إبنة تلخونو أم لا.

قبل العام ٦٧٧ قبل الميلاد، توفي حزائيل وخلفه ابنـُه يعوطة بالاتفاق مع أسرحدون الذي كان ثمن موافقته، حمولة عشرة أكيال من الذهب وألف من الأحجار شبه الكريمة وخمسين جملاً وألف جِراب جلد مليء بالطيوب. وعلى الرغم من أن أسرحدون قبض ثمن موافقته غالياً، بدت الجزية المدفوعة مؤاتية عندما ثار شخصٌ يدعى أوابو (Uabu) و«جميع العرب» على يعوطة بين عامي ٦٧٦ و٦٧٣ قبل الميلاد، لأن كتيبة أشورية قد أرسلت إلى المكان الذي وقع فيه التمرد. وأُسِـرَ قائد التمرد وعدد كبير من رجاله ونـُفيوا إلى أشور. وبعد سنوات، عندما حاول يعوطة التحرر من النير الأشوري، عامله أسرحدون بالطريقة نفسها الذي أرسل جيشاً للقبض عليه. وتمكن يعوطة من الفرار، لكن أنصاره هـُزموا، وصودرت تماثيلـُه المخصصة للعبادة ومنها تمثال الإلهة عطار شمايين التي غالباً ما تـُقارَن بفينوس.

٢٠. أنظر عموما، إيفايل (Eph'al)، ١٩٨٢.

٢١. للوضع في بابل، أنظر فراهم (Frame)، ١٩٩٢.

٢٢. لآثار الجوف، أنظر المويكل (al-Muaikel) ١٩٩٤. وللتاريخ، أنظر أيضا ماكدونالد (Macdonald)، ١٩٩٥.

٢٣. فراهم (Frahm)، ١٩٩٧ و١٩٩٩.

٢٤. فراهم (Frahm)، ١٩٩٩؛ بوتس (Potts) ٢٠٠٧.

٢٥. هيرودوت (Hérodote)، تواريخ، ٢، ١٤١.

٢٦. لوكو وفان بولايري (Luukko et Van Buylaere)، ٢٠٠٢.

وعندما خلف أشوربانيبال[٢٧] والده (أسرحدون)، عرض يعوطة مع ملك أشور «لمسألة آلهته» وتمكن من استعادة تمثال عطار شمايين. لكن يعوطه تمرد من جديد («حنث اتفاقي؛ لم يحافظ على معروفي؛ خلع نير هيمنتي»)، داعيا «شعب شبه الجزيرة العربية» إلى الثورة وإلى نهب بلاد الغرب (أمورو Amurru).

وتروي اللفيفة (ب) من حوليات أشوربانيبال التي تؤرخ بالعام ٦٤٩ قبل الميلاد، وقائع قمع هذا التمرد الذي حرّض عليه يعوطه، فتذكر تمركزَ القوات التي أرسلها ضدَّه «على أرض بلاده». وهذا ما يتيح الاستنتاج بأن حضوراً أشورياً حول أدوماتو كان قائماً في أواسط القرن السابع قبل الميلاد. وتفيد الحوليات أن التدمير كان شاملاً، وتزامن مع حرْق خيَم العرب ومساكنهم[٢٨] ومصادرة حيوانات – خراف وحمير وجمال وبقر - ومصادرة عبيد. وكانت الجِمال كثيرة بحيث أن الشعب الأشوري «تمكن من شراء جمال ب ١،٥ مثقال من الفضة بباب السوق». وضربت المجاعةُ عرب الشمال الذين جلبوا على أنفسهم، كما يُقال، غضبَ جميع كبار الآلهة الأشورية. وتتحدث رسالة بعث بها إلى أشوربانيبال الضابط نابو- شومو- ليسير (Nabû-shumu-lishir) المتمركز في بيراتي (Birati) عن انتصار على بني قيدار : «فيما يتعلق ببني قيدار الذين أصدر لي بصددهم أوامر سيدي الملك: بعدما ذهبتُ إلى الأماكن المرتفعة، (أنزلتُ بهم) هزيمة ساحقة حسب رغبة سيدي الملك» (س أ أ ١٨، الرقم ١٤٣). وفي إطار تمرّدٍ آخر على ما يبدو، أسرَتْ عاديا (Adiya) زوجة يعوطة في وقت واحد مع أسْر ملك آخر (شيخ) من بني قيدار يدعى أمولادي (Ammuladi) الذي كان تمرد وهاجم أراضي الغرب؛ وهنا أسره أحدُ أتباع أشور، كموش ملك موآب، ثم أرسله مخفوراً إلى نينوى. وذكرَتْ غزوةٌ شنها أمولادي (يُدعى أمي- ليتي النبيسي Ammi-leti de Napisu) في رسالة (ث ت ٥٣ ٢٨٩) وجهها على الأرجح إلى أسرحدون، إيتي- شَمَش- بالاتو (Itti-shamash-balatu) العميلُ الأشوري المتمركز في مكان ما من الأراضي الفينيقية[٢٩].

وهرباً من الأشوريين الزاحفين، دخل يعوطة الأراضي العربية وذهب يطلب اللجوء لدى ناتنو (Natnu) ملك نبايوت- نبأ أتي (Nebayot-Nabayyate) (قبيلة بالتأكيد حول تيماء، لأن نقشاً اكتُشف على صخرة في جبل غنيم الذي يبعد حوالى ١٤ كلم جنوب تيماء[٣٠]، يتحدث عن «حرب ضدّ بني نبايوت- نبأ أتي). لكن ناتنو الذي تخوَّف من أن يُصبح هدفاً للأشوريين إذا ما مَنح يعوطة اللجوءَ، رفض طلبه، وأرسل للمرة الأولى موفدين إلى أشور بانيبال وبات خاضعاً لأشور. وفي حادث منفصل على ما يبدو، وسابق على الأرجح، كتب نابو- شومو- ليسير ضابطُ أشوربانيبال المتمركز في بيراتي (Birati)، أن «ملك بابل» الذي لم يكن سوى شَمَش- شوم - أوكين (Shamash-shum-ukin) شقيق أشوربانيبال، استقبل موفدين أرسلهم ناتنو وأعطاهم مائة من قوم بيراتي (Birati) (بيراتي قد تكون هي نفسها مدينة بيرتون (Birthon) المحصنّة التي ذكرها المؤرخ بروكوب البيزنطي (Procope de Césarée) والتي تقع شرق أميدا (Amida)، أي ديار بكر الحالية)، وأسرَ خمسة أشوريين في كوتا (Cutha) ببابل. وكان شمش- شوم – أوكين الذي تمرد على شقيقه من عام ٦٥٢ إلى عام ٦٤٨ قبل الميلاد، أسر هؤلاء الرجال خلال معارك ضد أشور، كما سعى يعوطة وأمولادي فعلا إلى زعزعة نير القمع الأشوري لكنهما انضما بالتالي إلى شمش – شوم -أوكين.

ونعرف من جهة أخرى أن اثنيْن آخريْن من القادة العرب على الأقل، هما أبيياتا (Abiyatha) وشقيقه أيامو (Ayamu)، وكلاهما ابنا تعري (Te'ri)، لا علاقة لهما على ما يبدو بيعوطة، أرسلا جنوداً إلى بابل في العام ٦٥٠ قبل الميلاد، بينما كانت تحاصرها قواتٌ أشورية، فخانا بذلك قَسَم الوفاء الذي عاهدا به أشوربانيبال، بوقوفهما إلى جانب شمش- شوم- أوكين. وعلى الرغم من أن بابل كانت آنذاك محاصرة، تمكن بعضُ الجنود العرب من دخول المدينة، حتى لو أن مصادر أشـورية تـوضح أن عـدداً من العرب قد قُتلوا خلال تلك المحاولة. وقبل أن يتمكن أشوربانيبال في نهاية المطاف من التغلُّب على شقيقه، فإن المدعو نرغال- إيبني (Nergal-ibni) الموالي لـ (مدينة) سيبار(Sippar)، أبلغ

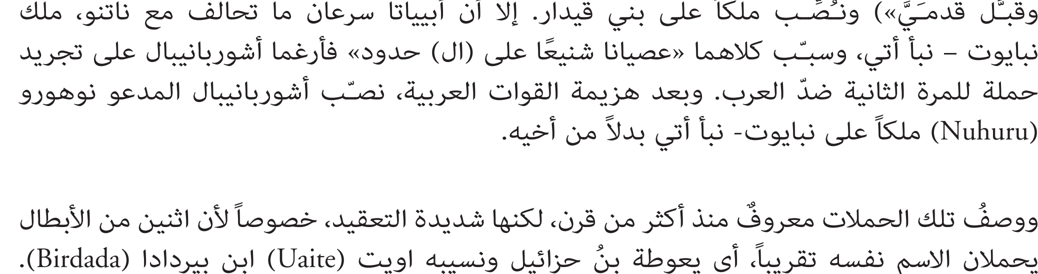
٢٧. لحملات أشوربانيبال (Assurbanipal) ضد العرب، أنظر جيراردي (Gerardi)، ١٩٩٢؛ ريستو (Retsö)، ٢٠٠٣.

٢٨. لتصاوير الحملات ضد العرب في النقوش الأشورية، أنظر ريد (Reade)، ١٩٩٨.

٢٩. رينولدز (Reynolds)، ٢٠٠٣.

٣٠. لعمليات التنقيب هنا، أنظر وينيت وريد (Winnett et Reed)، ١٩٧٠.

أشوربانيبال في رسالة أن أمّيني- إيلو (Ammini-ilu) «تاجر من تيما» قد أُوقِف على باب المدينة عندما غادر سيبار متوجها حيث يوجد شمش- شوم - اوكين. والسجين الذي كُبِّل بالحديد كان في دور- شاروكو (Dur-Sharruku)، والتمس نرغال-إيبني من الملك الأشوري إصدار أمر بنقله واستجوابه لأن القوم المحليين كانوا لا يعرفونه أبداً.



وبعد انتصار أشوربانيبال على أبيياتا وأيامو، خضَع هذا الأخير لسلطة المنتصر («جاء إلى نينوى وقبَّل قدميَّ») ونُصِّب ملكاً على بني قيدار. إلا أن أبيياتا سرعان ما تحالف مع ناتنو، ملك نبايوت – نبأ أتي، وسبّب كلاهما «عصيانا شنيعًا على (ال) حدود» فأرغما أشوربانيبال على تجريد حملة للمرة الثانية ضدّ العرب. وبعد هزيمة القوات العربية، نصّب أشوربانيبال المدعو نوهورو (Nuhuru) ملكاً على نبايوت- نبأ أتي بدلاً من أخيه.

ووصفُ تلك الحملات معروفٌ منذ أكثر من قرن، لكنها شديدة التعقيد، خصوصاً لأن اثنين من الأبطال يحملان الاسم نفسه تقريباً، أي يعوطة بنُ حزائيل ونسيبه اويت (Uaite) ابن بيردادا (Birdada). وتوضيح القصة كان بالتأكيد صعباً على النساخ الأشوريين الذين كتبوا النصوص بعد عـقد من الـزمن، وكـذلك على المؤرخين الجدد الذين اكتشفوها بعد حوالى ٢٨٠٠ سنة. وعمليات إعادة التكوين الدقيقة لتلك الحملات وهوية الأبطال التي أجراها كلٌّ من إسرايل إيفال (Israel Eph'al) وباميلا جيراردي[٣١] (Pamela Gerardi)، ساهمت في توضيح عدد كبير من النقاط المتعلقة بتسلسل الأحداث والهوية، والتي لا تزال حتى اليوم غير مفهومة.

وقد وقـعت تلـك الأحداث في شـمال وشـمال غرب المملكة العربية السعودية، لكن ماذا حـصل في مكان آخر؟ لا تتوافر لدينا معلومات عن هذا الموضوع. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الوثائق الأشورية الجديدة التي تتحدث عن علاقات مع ديلمون (Dilmun) (البحرين)، فإن شمال شرق المملكة السعودية لم يكن متوَرطًا على ما يبدو، إلا في حادثة واحدة. ففي الفترة بين عام ٦٦٨ وعام ٦٤٨ قبل الميلاد، أرسل ضابط أشوري كان مركزه في جنوب بابل إلى موظف آخر في أسّور، تقريرا أبلغه فيه أن أربعة رجال يحملون رسالة إلى ملك بابل قد اعتُقِّلوا في «هافيرو (Hafiru) في الصحراء». ولقد ظن الباحثون فترة طويلة أنها قد تكون الحـُفَـيْـر على طريق الحج الذي يوصل من البصرة إلى مكة، لكن يمكن أن تكون أيضاً حـفـْر، أي حفر الباطن الحالية التي تقع على مدخل وادي بطين، وهو محور مهم يربط جنوب العراق بقلب ما هو اليوم المملكة العربية السعودية[٣٢].

رأينا حتى الآن أن أدوماتو (الجوف) وكابانو (Kapanu) (الكاف) وتيماء تظهر جميعاً في الوثائق الأشورية باعتبارها أماكن مهمة في شمال شبه الجزيرة العربية في بداية الألف الأول قبل الميلاد. وتمّ التعرّف إلى بعض القبائل العربية في هذه المنطقة، على أنها جزء من بني قيدار، الـواردة أسـماؤهم في التوراة حيث تنبأ إرميا (٤٩، ٢٨-٣٣) بأنّ ملك بابل نبوخذنصر سيهاجمهما. وبمعزل عن ذلك، لا تتوافر لدينا أبداً مصادرُ تتيح لنا أن نثبت هل أدى تغيير الحكم في بلاد ما بين النهرين – سقوط أشور وبروز بابل- إلى عواقب مباشرة على عرب الشمال قبل حكم نبونيد آخر ملوك بابل (٥٥٦-٥٣٩ قبل الميلاد).

ونبونيد (Nabu-na'id) هو أحد أكثر الملوك غموضاً في تاريخ بلاد ما بين النهرين برمته، وأسالت غرابتـُه الظاهرة حبراً كثيراً [٣٣]. ففي السنة الثالثة من حكمه، عين نبونيد ابنه بيلشصر (Balthasar) وصياً على العرش وتوجه مع جيش إلى تيماء التي بقي فيها بضع سنين، ثم عـاد إلى بـابـل في الوقت المناسب ليشهد فتحها في العام ٥٣٩ قبل الميلاد على يد قورش الكبير مؤسس الإمبراطورية الفارسية. وفي نقش طويل اكتـُشف على مسلة في حران (سلطان تيبي) قرب أورفة جنوب شرق تركيا، يمجـّد نبونيد الإله لون سين (dieu-Lune Sin) (يـُعرِّفنا نقشٌ آخر أن والدة نبونيد، أداد- غوبي (Adad-guppi) كانت كاهنة سين)، ويروي أحد أحلامه. وفي هذا الحلم، يأمره الإله سين بأن يبني



قمّة مسلة الملك نابونيد (حران).

٣١. ايفال (Eph'al)، ١٩٨٢؛ جيراردي، ١٩٩٢.

٣٢. بوتس (Potts)، ١٩٩٠.

٣٣. حول نبونيد (Nabonide) وإقامته في تيماء، أنظر بوليو (Beaulieu)، ١٩٨٩؛ شاوديغ (Schaudig)، ٢٠٠١.

له معبداً في حران، ويجيز له الفرار من مدينة بابل للذهاب إلى تيما (تيماء)، ودادان (Dadanu) (العلا)[٣٤]، وباداكو (Padakku) (فدك)، هيبرا (Hibra) (خيبر)، يادبو (Yadi'u) (يادي) ويثريبو (يثرب، أي المدينة المنوّرة). ويسود الاعتقاد عموماً أن هدف نبونيد من الاستقرار في تيماء، كان السيطرة على تجارة القوافل المُربحة التي تنقل الطيـوب من جنوب شبه الجزيرة العربية، وأن مدن شمال شبه الجزيرة الواردة أسماؤها في النقش، هي تلك التي افتتحها أو ضمها خلال تلك العملية. وعلى غرار ما لاحظ مايكل ماكدونالد (Micheal Macdonald)، فإن يثرب هي النقطة التي يتفرع فيها طريق القوافل الآتية من الجنوب إلى فرعين، يتجه الأول نحو الشمال إلى تيماء، ويلتوي الثاني نحو الشمال الغربي في اتجاه ددان ثم إلى غزة. وفي تيماء، يتشعب الطريق من جديد، فيتابع فرعٌ نحو الشمال في اتجاه أدوماتو ثم يصعد منها إلى سوريا، ويتحوّل آخر نحو الشمال الشرقي في اتجاه بابل؛ ويـقود ثالث شـرقاً، إلى جنوب بابل. إذ سيطر نبونيد على كامـل هـذه المـنطقة، هـيمن على هذا الجزء من تجارة القوافل، ممّا يفسر على الأرجح لماذا أرسل إليه «ملك (ملوك؟) مصر وميديا والعرب، وجميع الملوك (الذين كانوا) أعداء» مبعوثين يطلبون منه السلام.

ويؤكد عدد كبير من النصوص الاقتصادية الآتية من أوروك الواقعة جنوب بلاد ما بين النهرين، وجـود نبـونيد في شـبه الـجزيرة العربية. وفي نـص يؤرخ بالسنة الخامسة من حـكمه، دُوِّن دفعُ ٥٠ مثقالاً من الفضة إلى نابو- مشتيك- أورا (Nabu-mushetiq-urra)، الجمّال الذي أُرسِـل لنـقل مؤن (حرفياً «الطحين») إلى تيماء، فيما كان الثاني الـذي يـؤرخ بالـسنة العـاشرة من حكم نبونيد، بمـثابة أمـر بالـدفع في مقابل نقل «قوت الملك» من أوروك إلى تيماء على ظهور الجِـمال. وبالإضافة إلى المصادر المسمارية التي تؤكد تواجد نبونيد في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، اكتشفنا على نتوءات صخرية بضعة نقوش تذكره، وقد كُتبت بلهجة شمال شبه الجزيرة العربية التي تسمّى اليوم «التيمائية». وأحدُ هذه النقوش التي عـُثر عليها في المُشَمْرخة البعيدة نحو عشرة كيلومترات جنوب غرب تيماء، كتبه ماريدان (مردن) (mrdn) (Maridan) خـِدْنُ نبونيد (نبند nbnd) ملـك بابـل (mlk bbl)، وأوضـح فـيه أنه جاء إلى هـنا مع قائده لشن هجوم على بدوي اسمه لعق (Bédouin de La'aq). وفي نقشٍ ثانٍ ندين به إلى "سكترسل، بن سرتن" (Sktrsl, fils de Srtn)، يشـرح بن سرتن أيضا أنه جاء مع قائده، فيما قدَّمَ الكاتبُ في نقشيْن آخريْن كتبهما أنداسو (Andasu) أو إنديوس (Endios) (nds')، مرةً على أنه خـِدْنٌ لنبونيد، وفي المرة الأخرى، على أنه حارس شخصي أو حاجب يتصدر موكب ملك بابل. وهذه النقوش مهمة لكونها شهادات مستقلة عن حضور نبونيد وجيش بابلي في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وأيضا بسبب أسماء الأشخاص التي تتضمنها. وفيما يتشابه ماريدان مع ماريد (Marid)، اسـمِ القلعةِ الشـهيرة في واحة الجوف (أدوماتو القديمة)، وتـتوافر أشكال مشابهة بالعبرية (Marad) والنبطية (mrdw) والتدمرية (mrd)، نَجِدُ في بضع لغات من آسيا الصغرى (اللوفية Louvite والليدية Lydien والليسية Lycien والقليقية cilicien)، أقربَ الصيغ من «سكترسل» و«سرتن»، فيما يبدو «أنداسو/انديوس» يونانياً على الأرجح. ونعرف بالتالي من مصادر أخرى، أن مرتزقة يونانيين خدموا في جيش نبونيد، منهم أنتيمندياس (Antimendias) شقيق الشاعر ألكايوس الميتيليني (Alkaios de Mytilène).

وأخيراً، تتحدث أربعة نقوش تيمائية مصدرها منطقة تيماء، عن «حرب على ددن». وعندما نقرِّبها من نقوش ذكرتُ أعلاه، وكتبها بالتأكيد ضباط في جيش نبونيد، ومن الإشارة إلى دادانو (Dadanu) (دادان، العلا في الوقت الراهن) في النقش المحفور على مسلة نبونيد في حران، يبدو واضحا أن ملك ما بين النهرين خاض معركة في المنطقة ولم يكتفِ باجتياز المدن التي عددها[٣٥]. وطرح بعضُ الباحثين فكرة تفيد بأن مجنـّدين يهوداً يتحدرون من بابل وكانوا يخدمون في جيش نبونيد، ربما كانوا نواة المجموعات اليهودية في تيماء والعلا وفدك وخيبر وتبوك، التي كانت موجودة أيام النبي (صلعم).



إفريز نقشت عليه صورة قبيلة عربية فارّة من الجنود الأشوريين. القصر الشمالي للملك آشور بانيبال في نينوى، لندن، المتحف البريطاني

٣٤. حول آثار هذه الواحة، أنظر ناصيف (Nasif)، ١٩٨٨.

٣٥. حول النقوش التي تذكر نبونيد في ضواحي تيماء، أنظر هايجنه (Hayjneh)، ٢٠٠١؛ مولر والسعيد (Müller et al-Said)، ٢٠٠٢.

العصور القديمة

أ. د. كريستيان جوليان روبان

منظر للحجاز

تبقى عوامل الوحدة في الجزيرة العربية قائمة منذ العصور القديمة أنها مترامية الأطراف، وتمثل تنوعاً سكانياً كبيراً وأنماط عيشٍ متعددة، فضلاً عن أن تخومها الشمالية والشرقية تتكامل تكاملاً طبيعياً مع شبكات للتبادل التجاري التي تنقل التأثيرات الأجنبية.

وإذا كنا نعتبر أن شعباً ما يدخل التاريخ عندما يبدأ التدوين وإنتاج النصوص، فإن تاريخ شبه الجزيرة العربية المكتوب يرقى على أقل تقدير إلى القرن الثامن قبل الميلاد. إذاك يمكن تمييز مرحلتين زمنيتين غير متساويتين إبان القرون الأربعة عشر من العصور القديمة وحتى تكوُّن الدولة الإسلامية في عام ٦٣٠م. وفي المرحلة الأولى، يشكّل جنوب شبه الجزيرة العربية ولاسيما سبأ كبرى ممالكه، النموذج الثقافي المهيمن، سواء على صعيد الكتابة وتأليف النصوص وفن العمارة أو مجموعة الشواهد والنقوش. وتتسم الثانية بالتبلور التدريجي لهوية عربية تشكلت ملامحُها منذ الفترة الهلينستية (من حكم الإسكندر الكبير حتى الفتح الروماني، من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد)، لكنها ترسخت على المستويين السياسي والثقافي، ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد.

مدن القوافل في شبه الجزيرة العربية (من القرن الثامن إلى القرن الأول قبل الميلاد)

ما زلنا لا نعرف بالضبط كيف ومتى تطورت المجتمعات الأولى المعقدة، التي تميزت بمهمات محددة وبإدارة الموارد التي تتيح تأسيس المدن. لكن هذا يرقى إلى أزمنة سحيقة، إلى الألف الثاني، وربما إلى الألف الثالث.

ويكشف أقدمُ النصوص العربية التي ترجع إلى عام ٧٥٠م قبل الميلاد تقريباً، عن وجود ثلاث حضارات كبيرة آنذاك تقع جميعاً في غرب شبه الجزيرة العربية: فإذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال، نجد حضارة سبأ (في اليمن) ودادان وتيماء (في السعودية). وتستخدم هذه الحضارات الثلاث الكتابة نفسها المقتبسة من حضارة أوغاريت في سوريا. لكننا لا نعرف كيف حصلت عملية انتقال الأبجدية من أوغاريت (التي اندثرت في مستهل القرن الثاني عشر قبل الميلاد) إلى ممالك شبه الجزيرة العربية. وهذه الكتابة العربية الأولى هي أبجدية تتألف من سبعة وعشرين حرفاً وقد اكتملت في دادان وسبأ بطريقة مستقلة. وشهدت تطوراً سريعاً بحيث نستطيع التمييز بين الأبجدية السبئية والددانية والتيمائية.



04 CP_p080-99_BAT AR4.indd 80-81 06/08/10 09:59

النموذج السبئي

كانت سبأ آنذاك القوة العظمى في شبه الجزيرة العربية. وقد ورد اسمها في عام ٧٥٠م قبل الميلاد، في سجلات أوائل الملوك المعروفين. واتخذت من مأرب عاصمة لها، وهي مدينة تقع على تخوم الصحراء الداخلية، على مشارف وادٍ تجري فيه مياه حوضٍ جبلي كبير. وتتميّز سبأ بلغتها (اللغة السبئية) وآلهتها وتقويمها ومنظومتها التأريخية.

وقد بسطت سبأ عام ٧٢٠م هيمنتها على جزء كبير من اليمن، أيام الملكين يثع أمر وكرب إيل، المعروفين في المصادر الأشورية باسم «إيتا أمر السبئي» (حوالى عام ٧١٦م) و«كريبليو ملك سبأ» (بين ٦٨٩م و٦٨١م). ولا يثير الدهشة عندئذ أن ينتشر النموذج الثقافي السبئي في كافة أنحاء اليمن، والحبشة والمناطق المجاورة لليمن (نجران) وغرب شبه الجزيرة العربية بين نجران والمشرق، وحتى سواحل الخليج حيث تُستخدم الأبجدية السبئية. وقد تجلى هذا النموذج في الطريقة المتبعة لكتابة المدونات (المفردات وأسلوب كتابة الجُمَل)، وفي استخدام الكتابة وسيلة زخرفية. ويتضح أيضاً في مجموعة النقوش التي تستخدم الأشكال الهندسية نفسها (المضرّسات والمضلعات والمثلثات المجوفة)، والحيوانات الرمزية نفسها (إيبكس والأرخ والثور وجمجمة الثور والنعامة)، والرموز نفسها (اليد والهلال والدائرة ...)، والتصاوير المسلية نفسها، على غرار «المسلات ذات العيون». وسيُعرف هذا النموذج على الأرجح في عدد من المجالات الأخرى (الخزف والعمارة والمنظومة الدفاعية وأعمال الري، إلخ).

ولا يتسم بالسهولة دائماً، التمييزُ بين ما ينجم عن تأثير ما وبين ما ينتمي إلى خلفية ثقافية مشتركة. فهذه الخلفية قائمة بالتأكيد. وسأعطي مثالاً واحداً على ذلك يتمثل في التحفظ الشديد ازاء تجسيد الآلهة تجسيداً بشرياً أو حيوانياً، كما يُلاحظ ذلك في شبه الجزيرة العربية، وفي كل مكان وفي كل الأزمنة.

ولم يبسط النموذج السبئي هيمنته الدائمة في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية. فمنذ الحقبة البابلية الجديدة (النصف الأول من القرن السادس)، شكل الآراميون البديل. فقد فضّلت أبجديتَهم في البداية، الشعوبُ المقيمة في تخوم الصحراء السورية، ثم في الخليج (الحقبة الهلينستية)، وأخيراً في واحات الحجاز (الحقبة الرومانية). وهذه هي الأبجدية التي ستفرض نفسها نهائياً مع نشوء الأبجدية العربية (المشتقة من الآرامية وليس من السبئية) في بداية القرن السادس بعد الميلاد، ثم مع اختيار المسلمين في المدينة المنوّرة هذه الأبجدية العربية بعد قرن وسيلة للكتابة.

حركات تنقل كثيفة تشرف عليها مملكة سبأ ثم مملكة معين

منذ انتهاء حقبة ما قبل التاريخ، انتقلت بعضُ السلع الثمينة مسافاتٍ بعيدة، لكن ليس من المؤكد أن الشعوب فعلت الشيء نفسه. وقد يكون ذلك نتيجة المبادلات التدريجية المتعاقبة.

ففي شبه الجزيرة العربية، كان النحاس (مصدّر) والقار (مستورد) أولى سلع التبادل مع شركاء في مناطق نائية؛ وانتقلت عبر البحر على ما يبدو بين عُمان وبلاد ما بين النهرين منذ بداية التاريخ. لكن الصفقات الكبيرة تمحورت حول الطيوب، كاللُبان والبخور والصمغ العربي الذي يُعتبر جنوب شبه الجزيرة العربية منتجها الأول. ومنذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، تبلورت حركة استيراد كثيفة في المشرق. وأجريت هذه التجارة مع المناطق البعيدة، فسلكت الطرق البرية عبر السهوب الشاسعة والمقفرة لجنوب شبه الجزيرة العربية. وقد جعل تلك التجارة ممكنة تدجينُ الجمل واستخدامه لنقل البضائع. وخلافاً لما يمكن أن نعتقده، فإن هذه الطريق البرية، على رغم مشكلة الماء والكلأ، أسرع وآمن من ركوب البحر الأحمر، الشاق بسبب هبوب الرياح وانعدام الأمن بسبب أعمال القرصنة. وقد تطرق إلى الشبكة التجارية الواسعة، التي كانت تشكلها مملكةُ سبأ في غرب شبه الجزيرة العربية، أنبياءُ العهد القديم (اشعيا، ٢١، ١٣-١٤، وارميا، ٢٥، ٢٣-٢٤، وحزقيال، ٢٧، ٢٠-٢٣، وأيوب ٦، ١٩)، والملوكُ الأشوريون الذين كانوا يتباهون بالقول إن المكوس

التي يجبونها هي بمثابة جزية. وتكمّل معلوماتِنا النقوشُ في اليمن، القليلة جداً، لأن الحركة التجارية لم تكن مدرجة في عداد الأنشطة القيِّمة. وقد كتب النصَ الأكثر تعبيراً عمّا سواه، والذي يرقى إلى النصف الأول من القرن السادس، مؤلفٌ سبئي كان يقود رحلة تجارية حتى قبرص، مروراً بدادان، ومدن فلسطينية وغزة أخيراً؛ ثم ترأس هذا السبئي في وقت لاحق، مهمة سياسية شملت أربعة من بلدان شبه الجزيرة العربية، هي دخر (لم يُحدد موقعها)، ولحيان (مملكة كانت دادان مركزها)، وأبي عوس (لم يتحدد موقعها)، والهنك. ويبدو على الأرجح أن هذه البلدان الأربعة كانت آنذاك أبرز الشركاء التجاريين لسبأ في صحراء شبه الجزيرة العربية.

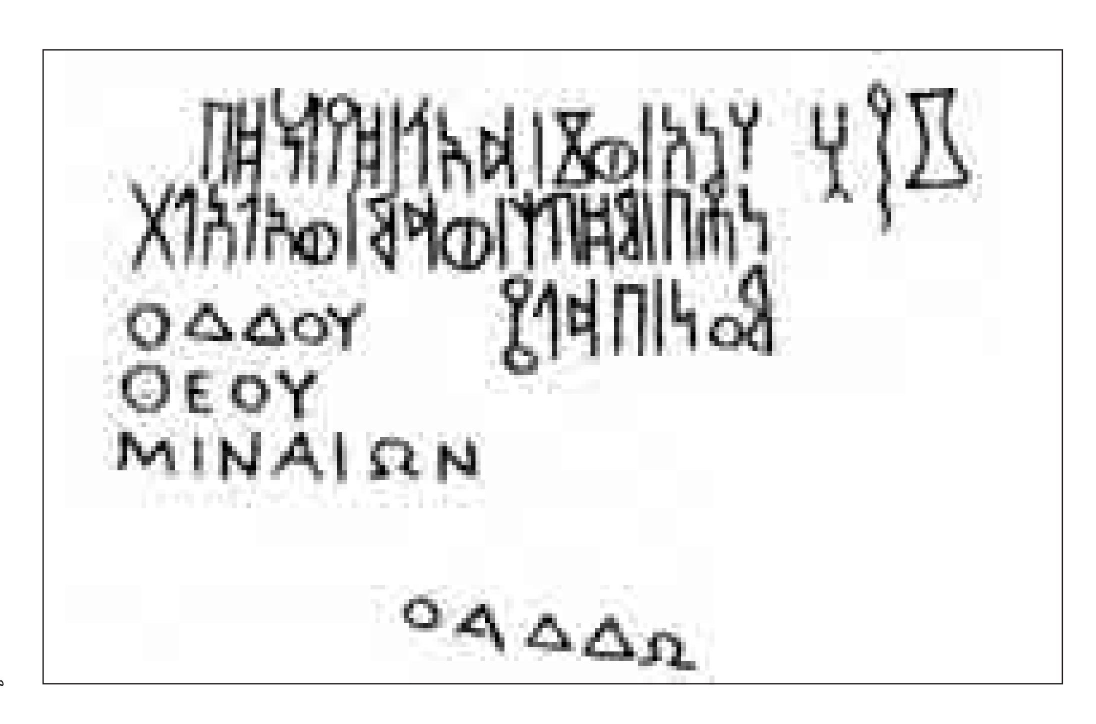
ويؤكد علمُ الآثار المعلومات الواردة في النصوص، فنلاحظ نشوء وثراء الحضارات المزدهرة في تيماء ودادان (العلا اليوم) وفي نجران.

وقد تحول تنظيم تجارة القوافل خلال القرن السادس قبل الميلاد. وتلاشت سبأ لمصلحة مملكة معين الصغيرة التي كانت تحت سيطرتها. ولا نعرف أسباب هذا التغيّر الذي قد يكون متصلاً بالاضطرابات في الشرق الأدنى، ولاسيما غزو نبونيد أحد ملوك الإمبراطورية البابلية الثانية، واحات الحجاز. واتخذت معين من قرنا عاصمة، في الجوف الذي يبعد زهاء المائة كيلومتر شمال غرب مأرب. ويتكلم المعينيون لهجة، هي المعينية الخاصة بهم، وقد أنشئوا مؤسسات وعبدوا آلهة خاصّة بهم أيضا، أما في الأمور الأخرى (الكتابة والعمارة والفنون الزخرفية، إلخ) فلم يتميزوا أبداً عن السبئيين.

إننا نعرف وجهة سير القوافل المعينية بفضل أربعة نصوص تذكر مصر وغزة وصور وصيدا، ومنطقة ما وراء الفرات (سوريا الحالية تقريباً) وأشور وبابل.

وتقضي الطريقة الأخرى لتحديد الطرق التي سلكتها القوافل المعينية بالبحث عن النقوش التي خلفوها في شبه الجزيرة العربية والشرق الأدنى. وقد عُثر في المملكة العربية السعودية على عدد كبير من تلك النقوش في العلا، وعلى مجموعة صغيرة في قرية الفاو وعلى بعضٍ منها في نجران. وهي ترقى إلى الحقبتين الفارسية الهلينستية من منتصف القرن السادس إلى القرنْ الأول الأول قبل الميلاد تقريبا). ويرقى اثنان آخران من هذه النقوش اللذان عُثر عليهما في مصر وفي جزيرة ديلوس اليونانية، إلى الحقبة الهلينستية.

وتؤمن النصوص التي تسجل «تجنيس» الزوجات الأجنبيات وسيلة أخيرة لمعرفة المناطق التي نشط فيها المعينيون. وهذه النصوص هي لوائح عن ملخصات من نوع «فلان، ابن فلان،



مذبح يحمل نقشاً ثنائي اللغة (اليونانية والنيمائية)

من (العائلة) أ، من العشيرة ي، قد أعطى ودفع ثمن فلانة المتحدرة من مكان كذا». ويُمكن استخدام تسعة وسبعبن ملخصاً. وهي تحيطنا علماً بأن قادة القوافل المعينية تزوجوا اثنتين وثلاثين امرأة من غزة، وست عشرة من شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وثماني من مصر، وامرأة واحدة من شرق شبه الجزيرة العربية. لذلك كانت غزة ومصر المقصد الأساسي للقوافل المعينية.

والأماكن والقبائل في صحراء شبه الجزيرة العربية المذكورة في هذه اللوائح هي: في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، قيدار ودادان ولحيان وقريان (عرب وادي القرى) ويثرب (المدينة اليوم)؛ وفي شرق شبه الجزيرة العربية، الهجر (الهفوف اليوم). وقد تعذر التحقق من سبعة أسماء لاسيما «تملا» المهم بالتأكيد لأنه ورد خمس مرات، و«يرفع» وهو باللغة الأشورية «يا- را- با». ونتبين غياب اثنتين من الواحات المهمة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، هما تيماء وخيبر اللتان أدرجتا على الأرجح في اسم «لحيان». ويُفسر غياب نجران وقريان في جنوب شبه الجزيرة العربية بأن هاتين الواحتين كانتا بالتأكيد معينيتين.

ولم تكن مملكة معين قوة عظمى سياسية وعسكرية. فالمدونات المعينية لا تخلّد ذكرى الانتصارات العسكرية. والملك الذي يعاونه مختلفُ المستشارين، يتمتع بسلطات تبدو محدودة. فهو لا يسك العملة. وليس هو مَن يُشيّد أسوار المدن الكبرى، بل كبرى العائلات. ويبدو أنه حتى لا يملك قصراً حقيقياً، رمز السلطة والشرعية، خلافاً لملوك الممالك الأخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية. وتشبه معين بالإجمال كثيرا «جمهورية تجارية» تقيم مختلف أنواع التحالفات، كما ستكون مكة عشية انتشار الدين الإسلامي.

نهاية احتكار تسيير القوافل في جنوب شبه الجزيرة العربية

بعيد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ذكر العالِم اليوناني اغاثارشيد الكنيدي (Agatharchide de Cnide) في كتابه بحث حول بحر الحبشة *Traité sur la mer Èrythrée*، أن «المعينيين والجراهيين Gerrhéens وجميع الأقوام المجاورة كانوا يرسلون إلى البتراء حمولات الأفاويه»[1]. وكانت البتراء، عاصمة النبطيين، حلت لتوها محل غزة بصفتها سوقاً رئيسية لإعادة توزيع الأفاويه الآتية من شبه الجزيرة العربية. لكن النبطيين لم يكتفوا بذلك. فقد أصبحوا عنصراً بالغ الأهمية في نقل البضائع بين اليمن والبتراء. واكتشف البحاثة الألمان مدونة رائعة باللغتين السبئية والنبطية في صيرواح باليمن. وهذه الوثيقة التي يستعد نوربرت نيبيس (Norbert Nebes) لنشرها، هي مُهداة إلى «ذو شرا» الذي يسبق العصر الميلادي بقليل. وعُثر على نقش نـبطي يرقى إلى ما قبل مائة سنة من الميلاد، في مكان غير بعيد من نجران.

واقتدت شعوب أخرى من شمال شبه الجزيرة العربية بالنبطيين وأرسلت قوافل إلى اليمن. وقد عُثر على نقوش باللغة الدادانية في قرية الفاو. من جهة أخرى يبدو أن هجريين قد كتبوا ثلاثة إهداءات إلى الإله شمس عـُثر عليها في مأرب باليمن.

وتفتح هذه التطورات الطريق لمنافسٍ شديد الخطورة. فبعدما احتل الرومان مصر التي كانت تتربع كليوباترا على عرشها (في العام ٣٠ قبل الميلاد)، سعوا إلى الإستفادة من خبرة النبطيين في طريق القوافل لينطلقوا إلى غزو بلاد اللـُبان. وتولى قيادةَ الحملة والي مصر إليوس غالوس (Aelius Gallus). وتألف الجيش من عشرة آلاف رجل بالإجمال، بما فيهم الوحدات اليهودية والنبطية؛ والفرقتان اللتان استُنفرتا هما سيرونايكا الثالثة (III Cyrenaica) وديوتاريانا الثانية والعشرون (XXII Deiotariana). ولأن اختيار الطريق الذي يتعين سلوكه يحتاج إلى معرفة عميقة بجغرافية المنطقة، طـُلب من الوزير النبطي سيلايوس (Syllaios) أن يرافق الحملة. وقد اجتاز الجيش البحر الأحمر على متن مائة وثلاثين سفينة وانطلق إلى شبه الجزيرة العربية من مرفأ لوكي كومي (مرفأ العينونة على الأرجح اليوم في شمال الحجاز). ووصف الطريق الذي وصل إلينا مقتضب جدا ويا للأسف. فبعد الإنطلاق من لوكي كومي «اجتاز (إليوس غالوس) مناطق على نحو

١. سترابون (Strabon)، جغرافيا، ١٦، ٤، ١٨.

اضطـُر معه إلى استخدام الجِمال لنقل الماء بسبب فساد أخلاق الأدلاء. وبعد بضعة أيام أيضاً وصل إلى أريتاس (Arétas) قريب أوبوداس (Obodas). وقد استقبله أريتاس استقبالاً ودياً وقدم له هدايا، لكن خيانة سيلايوس جعلت من الصعوبة بمكان المسير في هذه المنطقة (نظراً إلى انعدام طريق، إستلزم المسيرُ ثلاثين يوماً)؛ ولم تقدم لهم سوى الحنطة وبعض حلوى النخيل والسمن بدلاً من الزيت. وكانت المنطقة الثانية التي دخلها تنتمي إلى البدو الرحل، والقسم الأكبر منها مقفراً بالفعل؛ وكانت تـُسمى أراريني (Ararene). وكان ملكها يُدعى سابوس (Sabos). واجتازها أيضا من دون السير على طرق. وانقضى خمسون يوماً للوصول إلى مدينة نيغران (Négranes) (نجران) وإلى منطقة هادئة وخصبة. وفرّ الملكُ وسقطت المدينة».

ومن نجران، توجه الجيشُ إلى مأرب، ولم يواجه مقاومة عسكرية. وفي أعقاب حصار استمر أسبوعاً، تراجع أليوس غالوس وأمر بالانسحاب بسبب النقص في المياه. وبسبب اغتياظه الشديد، كان طريق الإياب أسرع بكثير من طريق الذهاب. وقد أمضى الجيشُ الروماني بالإجمال من إثني عشر إلى أربعة عشر شهراً في شبه الجزيرة العربية، في العامين ٢٦ و٢٥ قبل الميلاد على الأرجح.

ولدى عودته، اتهم أليوس غالوس، سيلايوس بالخيانة وأمر بإعدامه. ولا يمكننا استبعاد أي مسؤولية لسيلايوس عن الفشل: فلم يكن من مصلحة هذا النبطي الكشف عن طريق قوافله وتسهيل فتح اليمن. لكن من الواضح أيضا أن أليوس غالوس قد برّأ نفسه من الفشل وحمـّل شخصاً آخر المسؤولية. ومن فشل أليوس غالوس، عرف الرومان أن يستفيدوا. فقد عرفوا أين تقع بالضبط بلاد اللـُبان التي باتوا يتزودون منها حاجتهم عن طريق البحر. ونجم عن ذلك تخلٍ فوريٍ وتام تقريباً عن طريق القوافل.

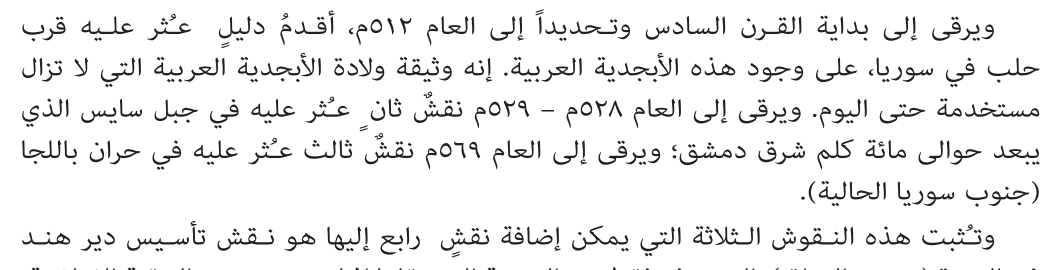
نشوء هوية عربية في شبه جزيرة عربية تسيطر عليها مملكة حمير (من القرن الثالث إلى السادس بعد الميلاد)

نشوء هوية عربية

في مستهل العصر الميلادي، يمكن الكشف عن بروز أولى المؤشرات إلى تشكـّل هوية عربية. وكان لفظ «عربي» ثابتاً بالتأكيد منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، لكنه كان يعني نمط عيش – الأقوام الرُحـّل التي تعيش من تربية المواشي في السهوب والصحراء – ولا يعني شعباً؛ من جهة أخرى، لم يظهر سوى في مصادر خارجية بلغات أجنبية (الأكادية والعبرية واليونانية، إلخ)، وليس أبداً في المدونات التي كتبتها أقوام شبه الجزيرة العربية.

ويبدو أن الطبقات المهيمنة لدى الأنباط كانت أول مـَن طالب بتسمية «عرب». إلا أن هذا اللفظ لم يرد في المدونات النبطية، لكنه ورد فقط لدى المؤلفين باللغة اليونانية. ويتعين انتظار نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث بعد الميلاد، حتى نجد في نهاية المطاف أقواماً في شبه الجزيرة العربية تقول إنها «عربية» بلغةٍ محلية، كمؤلفي المدونتين اللتين عـُثر عليهما في حضرموت. وبعد بضعة عقود، في العام ٣٢٨م، كان امرؤ القيس بن عمرو من بني نصر، أحد ملوك الصحراء السورية، هو الذي لقب نفسه بلقب «ملك العرب كلهم» (عـُثر على هذا النقش في النمارة جنوب سوريا، باللغة العربية وبكتابة نبطة متأخرة، أي أنها تلي زوال المملكة النبطية).

وارتكزت الهوية العربية التي بدأت تترسخ، على عنصري اللغة والثقافة في المقام الأول، بقدر ما نستطيع الحكم على هذا الأمر. لذلك نلاحظ أن لفظة «عربي» في القرآن تعني لغة أو وثيقة ولا تعني مجموعة عرقية. وإذا ما اعتمدنا على شيء من المنطق، نتبين أن اللغة العربية كـُتبت منذ بداية القرن السادس، بحروف أبجدية خاصة بها. وشكلت تنوعاً جديداً للكتابة الآرامية التي استعارت حروف الأبجدية النبطية المتأخرة (استخدمها العرب في الشرق الأدنى وشمال الحجاز) وجمعتها على طريقة الكتابة السريانية.



ويرقى إلى بداية القرن السادس وتحديداً إلى العام ٥١٢م، أقدمُ دليلٍ عُثر عليه قرب حلب في سوريا، على وجود هذه الأبجدية العربية. إنه وثيقة ولادة الأبجدية العربية التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم. ويرقى إلى العام ٥٢٨م – ٥٢٩م نقشٌ ثانٍ عُثر عليه في جبل سايس الذي يبعد حوالى مائة كلم شرق دمشق؛ ويرقى إلى العام ٥٦٩م نقشٌ ثالث عُثر عليه في حران باللجا (جنوب سوريا الحالية).

وتُثبت هذه النقوش الثلاثة التي يمكن إضافة نقشٍ رابع إليها هو نقش تأسيس دير هند في الحيرة (جنوب العراق)، المعروف فقط من النسخة التي نقلها اثنان من مؤرخي الحقبة الإسلامية، هما البكري وياقوت، أن الكتابة العربية في مرحلتها الأولية، ظهرت في سوريا وفي جنوب العراق.

وتجلى بروز هوية عربية أيضا في اشتقاق لغةٍ شعرية مشتركة لجميع القبائل، وقد احتفظ التراثُ العربي بنماذج معبِّرة منها. ولم يتضح بعدُ أصلُ هذه اللغة الشعرية. وقد يكون مفيداً البحث عنه في اليمن الذي أعطى حتى الآن ثلاث قصائد موزونة ومقفاة في الفترة ما بين ١٠٠ و٣٠٠ بعد الميلاد.

وتأسست الهوية العربية أيضاً على عملٍ مميز - بدأ عشية الإسلام وتواصل طوال بضعة قرون - بدأ فريدا في تاريخ البشرية: وقضى ذلك العمل بجمع كل الأنساب الخاصة – وفي طليعتها أنسابُ الوجهاء والأعيان الذين يستمدون شرعيتهم من قِدَمِ نسبهم – في شجرة موحدة تعطي صورة أمينة للأمة بأكملها. وأكثر المساهمات اكتمالاً في ذلك العمل، هي تلك التي أنجزها هشام بن محمد الكلبي (توفي حوالى ٨١٩): فكتابه جمهرة الانساب الذي يحتوي على ما يناهز خمسة وثلاثين ألف اسم، يحدد نهائياً معالم الأمة العربية وصلات «القربى» التي تجمع بين القبائل وأنساب الأشراف.

ولا شك في أن شجرة أنساب الأمة العربية التي تقسم هذه الأمة إلى فرعين، هما ذريّة عدنان في الشمال، وذريّة قحطان في الجنوب، هي صورة مجازية: فهي لا تسجل سوى نسبة ضئيلة من الشخصيات التي وُجدت فعلا، وتحدد «صلات قربى» تعكس بكل بساطة الجوار الجغرافي والتحالفات السياسية أواخر القرن الثامن بعد الميلاد. ولم يقل دورُ النسب أهمية عن سواه في الصراعات من أجل السلطة في القرون الأولى للإسلام، فأضفى على التحالفات شكلاً سهل الإدراك، وليس من النادر استحضارها في أيامنا هذه في الجزيرة العربية وفي الشرق الأدنى.

الوصاية الحميرية على صحراء شبه الجزيرة العربية

يُعتبر ترسيخ هوية عربية، في جزء منه على الأقل، رد فعلٍ على محاولات الهيمنة التي قام بها الحميريون للسيطرة على صحراء شبه الجزيرة العربية. وفيما كانت الجيوش السبئية لا تجازف إلى ما أبعد من قرية الفاو، بدأ ملوك حمير في غزو صحراء الجزيرة العربية ولاسيما الحجاز ونجد والإحساء، بعدما أنجزوا توحيد اليمن في حوالى العام ٣٠٠ بعد الميلاد.

وفي القرن التالي، أي في حوالى العام ٤٣٠م، ضم الملك الحميري أسعد أبي كرب أسعد (حوالى ٣٧٥م – ٤٤٥م) مناطق شاسعة في وسط الجزيرة العربية وغربها، وأضاف إلى لقبه «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت والجنوب» عنصراً جديداً هو «وعرب الطود (نجد) والساحل (تهامة، أي المناطق الساحلية للحجاز)». وتجدر الإشارة إلى أن العرب الذين كانوا من قبل مجرد ملحقين بات ذكرُهم الآن صريحاً.

وقد فرضت مملكة حمير سلطتها على أراضي معدّ التي تضم مجموعة قبائل في وسط جزيرة العرب، كما تذكّر بذلك النقوشُ الملكية الحميرية المحفورة على واجهات جبل مأسل في محافظة الدوادمي التي تبعد عن الرياض أربع مائة كيلومتراً تقريباً. ويعني ذكرُ « تهامة» في اللقب أن حمير تسيطر أيضا على المناطق الساحلية لغرب الجزيرة العربية، لكننا لا نستطيع القول هل كانت تلك السيطرة كاملة أم جزئية.

وإذا كان التوسع في وسط جزيرة العرب اتخذ في نظر ملوك حمير شكل الضم والسيطرة،



نقش جنائزي لامرئ القيس، ابن عمر، ملك جميع العرب؛ متحف اللوفر، قسم الأثريات الشرقية، (رقم الجرد ٤٠٨٣)

فإن للتقليد العربي رأياً آخر. فالتقليد العربي يفيد أن الحميريين أنشأوا مملكة إقطاعية خرج ملوكُها من قبيلة كندة العربية اليمنية. وسيتعاقب على عرش حجر بن عمرو «آكل المرار»، ابنُه عمرو وحفيدُه الحارث (قُتل عام ٥٢٨م). وتتيح كتابة عُثر عليها في ضواحي نجران حسمَ المسألة. كتبت عن حجر ابن عمرو الذي أطلق على نفسه لقب «ملك كندة» وليس لقب «ملك معدّ». ويمكن أن نستنتج من ذلك أن حجر لم يؤسس مملكة جديدة في وسط جزيرة العرب، لكنه تصرَّف في تلك المنطقة، تصرُّف مندوب لملك حمير، مستفيداً من هيبته المستمدة من كونه زعيماً قبلياً.

ومن الصعوبة بمكان أن نرسِّم ترسيماً دقيقاً حدود المناطق التي كان يسيطر عليها الكنديون إلى حدٍّ ما لحساب مملكة حمير. لكن ليس ثمة أدنى شك في أنهم كانوا يسيطرون على كامل صحراء الجزيرة العربية تقريباً. فعلى سبيل المثال، خضعت قبيلتا تغلب وبكر في المناطق المتاخمة للعراق لسلطة الحارث وشاركتا في الصراعات التي حدثت بين خلفائه.

وفي ما يتعلق بشمال غرب الجزيرة العربية، تتوافر لدينا معلومة دقيقة نقلها إلينا المؤرخ البيزنطي بروكوب (Procope)، الذي لاحظ أن الأراضي البيزنطية تمتد، في أواخر العام ٥٢٠م، حتى «بالميريا» (الواحات الكبرى لشمال الحجاز)، وبعد ذلك مباشرة «احتل ساراكينوس (شرقيون) آخرون، جيرانُ هؤلاء الناس، الساحلَ، يوصفون بأنهم معدّيين وهم من رعايا الحميريين»[٢].

لذلك يجمع الحميريون في إطار المجموعة نفسها لقبائل معدّ، عدداً كبيراً من قبائل صحراء الجزيرة العربية (خصوصاً في الوسط والشمال الشرقي والغرب) والتي أوكلوا إلى الكنديين مهمة إدارتها، وهم من نسب كندة العريق. وحصل التوسع الحميري في وسط الجزيرة العربية على حساب ملوك الحيرة النصريين، موالي الساسانيين. وفي بداية القرن الرابع، تباهى أحدهم وهو امرؤ القيس بن عمرو (توفي في ٣٢٨م) «ملك العرب كلهم» بالإغارة على قبيلة مُذحج والوصول إلى «نجران مدينة شمر» (الملك الحميري شمر يهرعش) وحكم معدّ (نقش النمارة؛ متحف اللوفر، القائمة أ.و ٤٠٨٣). وبعد قرن، اتخذ الحميريون موطئ قدم لهم في الجزيرة العربية. وإذ لم يحرِّك الساسانيون الحريصون مع ذلك جدا على شؤون الجزيرة العربية، ساكناً، فلأن الحميريين قدموا لهم بالتأكيد ضمانات ممتازة، ولاسيما اعتماد سياسة دينية تتصدى لانتشار المسيحية البيزنطية.

وفي ما يتعلق بغرب الجزيرة العربية، فإنّ نصاً حميرياً رسمياً غير مؤرخ لكنه يرقى، على الأرجح إلى الحقبة التي كان الحميريون خلالها يفرضون سيطرتهم على معدّ، يقولُ من «النعمان ومضر إلى مأسل جمحان». ومضر هي أكبر تحالف قبلي في غرب وشمال غرب الجزيرة العربية؛ والشخصية المذكورة قبلها، أي النعمان، هو ملكها أو رئيسها. وتوحي الإشارة إلى وجود النعمان في مأسل، وسط معدّ، أن هذه الشخصية أتت لتقديم واجب الولاء، في رأي الملوك الحميريون. وليس متعذراً اقتراح تعريف بهذا النعمان: فقد يكون النعمان بن عمرو بن مالك، أول ملوك بني صالح. ويفيد التقليد العربي الإسلامي أن البيزنطيين نصَّبوا على القبائل العربية التي تقيم صلاتٍ مع الأمبراطورية،

٢. پروكوب (Procope)، حروب، ١، ٧-١٤، ١٩.

(تنتمي خصوصا إلى قضاعة ومضر) سلالة من الملوك المسيحيين من بني سليح. ويقول إبن قتيبة إن هذه السلالة تألفت على ما يبدو من ثلاثة ملوك، هم النعمان وابنه مالك وحفيده عمرو. ومن الممكن أيضا إثبات وجود عمرو من بني سليح عبر الكتابات المنقوشة: فأحدُ النقوش النبطية المتأخرة في شمال الحجاز، ويرقى على ما يبدو إلى ٤٥٦م- ٤٥٧م ، يذكر ملكا بهذا الاسم. وكانت القبائل التي وُضعت تحت سلطة ملوك بني سليح، تخضع لقضاعة، كما يُفيد معظم المصادر العربية. لكن مصدراً يشير إلى مضر أيضاً: «كان ملوك بني سليح يجبون الضرائب للبيزنطيين من قبائل مضر وسواها التي كانت تقيم على أراضيها»[٣].

وقد قلصت السيطرة الحميرية على صحراء جزيرة العرب، الحكم الذاتي للقبائل الكبرى، على الأرجح. وذكرت النقوش السبئية والحميرية في اليمن، والنبطية في شمال-غرب الجزيرة العربية، في القرنين الثالث والرابع ، عدداً كبيراً من رؤساء القبائل الذين يتباهون بلقب «ملك»:

- قبيلة بني أسد: الملكان، الحارث بن كعب (حوالى ٢٣٠- ٢٥٥)، ومالك بن كعب (حوالى ٣٠٠م-٣١٠م)؛
- قبيلة الغساسنة: الحارثة بن زيد مناة (حوالى القرن الثالث- الرابع)؛
- قبيلة كندة: الملك مالك (حوالى ٢٣٠م- ٢٤٠م)؛
- قبيلتا كندة ومُذحج: الملكان مالك بن بضعة ... (حوالى ٢٣٠م- ٢٥٥م) ومالك بن معاوية (أواخر القرن الثالث- بداية القرن الرابع)؛
- قبيلتا كندة وقحطان: الملك ربيعة بن معاوية من بني ثور (حوالى ٢٢٠م)؛
- قبيلة الخصاصة: الملك مرعى القيس بن عوف (حوالى ٢٣٠م- ٢٤٠م)؛
- قبيلة نزار: لم يذكر اسم ملك؛
- قبيلتا قحطان ومُذحج: معاوية بن ربيعة (حوالى القرن الثاني).

لذلك انتهى كل شيء ابتداءً من القرن الرابع. وبات الملك الوحيد هو ملك حمير. وفي موازاة فتوحاتها، اعتمدت مملكة حمير على الصعيد الديني سياسة اتسمت بالحزم. فاختارت نبذ الشرك ودعم التوحيد.

وكان هذا النبذ للشِرك حاسماً ونهائياً. ولا يتوافر في كافة أنحاء اليمن أيُّ نقشٍ بعد العام ٣٨٠م تنطوي الكتابةُ فيه على شِرك صريح. وتوقف الناسُ عن ارتياد كبرى معابد الشرك بصورة رسمية. ولا يحتوي معبد مأرب، الذي أعطى حوالى ثماني مائة نقش يرقى إلى القرون الأربعة الأولى للعصر الميلادي، أيّ نقش يلي العام ٣٨٠م. وينطوي على معنى كبير، انعدامُ أي إشارة نقشية إلى الشِرك، بحيث لا يمكن تجاهل مجمل النقوش المتوافرة، عن الحقبة من ٣٨٠م إلى ٥٦٠م، والتي تناهز مائة وعشرين وثيقة. وهذا لا يعني بالتأكيد الزوال التام للشِرك، لكنه يعني فقط استبعاده من الحياة العامة. ومن المحتمل أن تكون العبادات الوثنية قد بقيت، في السر، منتشرة في كل مكانٍ تقريباً، باستثناء الأوساط القيادية.

ونلاحظ أيضاً أن نبذ الشِرك هذا لم يكن نتيجة تطور داخلي يحوّل بصورة تدريجية إلهاً وثنياً إلى إلهٍ عليّ ثم واحد. ثمة فترة انقطاع، كما يؤكد ذلك التخلي عن المصطلحات القديمة والاجتياح المفاجىء للتعابير الآرامية الأصل.

أزمة القرن السادس

في حوالى العام ٥٠٠م، باتت مملكة حمير تابعة لمملكة أكسوم (أثيوبيا اليوم) المسيحية. ونجهل جهلا تاما كيف حصل هذا الإنقلاب. وبات ملك حمير يعتنق المسيحية ويتحالف مع بيزنطية.

ولدى وفاة الملك معدي كرب يثأر، بين حزيران/يونيو ٥٢١ وحزيران/يونيو عام ٥٢٢م، نصّب شعبُ مملكة أكسوم على العرش ملكاً جديداً يدعى يوسف أسار يثأر؛ وسُمي بالعربية باسم ذو نواس. وبعد فترة وجيزة، في خريف عام ٥٢٢م، أعلن يوسف التمرد. وبعدما قتل الثلاث مائة رجل تقريباً في الحامية الأكسومية للعاصمة ظفار، وأحرق كنيستهم، قاد جيشاً اجتاح المناطق الساحلية للبحر الأحمر المواجهة للحبشة. ثم هاجم نجران التي رفضت الاعتراف به.

ووفر قتلُ المسيحيين في نجران ذريعةً للملك الأكسومي كاليب إيلا أصبيحا لحشد أعداد غفيرة من الجنود. وغادر جيشُ كاليب أكسوم بعد عيد العنصرة في عام ٥٢٥م. وأبحر على متن سبعين سفينة إلى أدوليس وعبرَ البحر الأحمر. وقتُل الملك يوسف بينما كان يتصدى لإنزاله. وأدت وفاته إلى هزيمة الجيش الحميري الذي سُحق. وما زالت هزيمة يوسف مثار جدل: فثمة مَن يقول إنها تلت عيد العنصرة في عام ٥٢٥م، وثمة مَن يقول إنها سبقت أيلول/سبتمبر عام ٥٣١م، لذلك يمكن وضعها في خريف عام ٥٢٢م أو في حوالي عام ٥٢٨م – ٥٣٠م، حسب المصدر المفضّل. ووضع قتلُ يوسف حداً نهائياً لاستقلال مملكة حمير التي ستعيش تحت الوصاية الأكسومية حوالي الخمسين عاماً قبل أن تزول.

واستولى الأكسوميون على العاصمة ظفار وصنعاء ومأرب والجوف ونجران. وأُبيد اليهود، وتأسست كنائس بأعداد كبيرة وأُقيمت تراتبية كنسية. لكن كاليب لم يغيِّر شيئاً في الهيئات السياسية: فقد حافظ على العرش الحميري الذي نصّب عليه أميراً حميرياً مسيحياً يدعى سميفع أشوع (يسميه بروكوب: اسيميفايوس)، وسارع في العودة إلى إفريقيا، لكنه ترك قسماً من جيشه في الجزيرة العربية للسيطرة على البلاد وضمان دفع الجزية السنوية.

لكن سميفع أشوع سرعان ما فقدَ السيطرة على الوضع. فقد أطاحه قائدُ الجيش الأكسومي المتمركز في الجزيرة العربية والذي يدعى أبرهة. وعلى الرغم من أن أبرهة حكم مدعوماً من هذا الجيش (المذكور سواء في النقوش أو في التراث العربي)، فقد كان يعتبر نفسه ملكاً حميرياً. وبهذه الصفة كتب نقوشه باللغة السبئية وتبنى اللقب الملكي التقليدي، آخذاً على عاتقه بالكامل إرث حمير السياسي والثقافي. والتغيرات الوحيدة شملت السياسة الخارجية والدين.

واستمر حكمُ أبرهة حوالي الثلاثين عاماً، من ٥٣٥م إلى ٥٦٥م تقريبا. ولا نعرف شيئاً عن السنوات العشر الأولى، إلا أنه اضطُر إلى صد محاولتين لاستعادة السيطرة على الوضع قررهما كاليب. وفي العام ٥٤٧م، انتصر على تمرد لقبيلة كندة، ثم باشر أعمالاً مهمة حول سد مأرب الذي كان انهارَ للتو.

ولدى وجوده في مأرب، طلب أبرهة تكريس كنيسة. وبعد فترة وجيزة، في خريف ٥٤٧م، عقد مؤتمراً ديبلوماسياً شاركت فيه وفودٌ تمثل كل قوى المنطقة. وقد صُنفت تلك الوفود في ثلاث فئات. وفود القوتين الإقطاعيتين (النجاشي و«ملك الرومان») سميت «سفارات»، فيما سُمي وفد ملك الفرس وبيزنطية «بعثة ديبلوماسية»، أما الأمراء العرب الثلاثة التابعون للفرس وبيزنطية فقد تمثلوا بـ «موفدين».

ولا نعرف السبب الذي حمل هذه الوفود على التوجه إلى مأرب. قد يكون السبب لمناقشة مسألة اقتسام مناطق النفوذ بين بيزنطية واكسوم وفارس في الجزيرة العربية، بعد النزاع الذي دار بين البيزنطيين والفرس من عام ٥٤٠م إلى ٥٤٦م. وحفل حكمُ أبرهة بحدث مهم آخر، أورده اثنان من نقوشه، وتمثل بحملة إلى وسط الجزيرة العربية في عام ٥٥٢م. وقد أتاحت له بسط سيطرة اسمية بالأقل على شرق الجزيرة العربية وشمالها، وخصوصاً على الخط والحائط ويثرب.

ولم تستمر طويلاً عودة الحكم الحميري في وسط الجزيرة العربية. ويُفترض أنه لا يتجاوز العشر سنوات. وسينتهي حكمُ أبرهة بحملة مشؤومة في غرب الجزيرة العربية ورد ذكرُها في القرآن الكريم والتراث العربي. ويُذكر أن أبرهة الذي وضع فيلاً في مقدمة جيشه، كان ينوي تدمير الكعبة في مكة، لتحريض المؤمنين على الحج الى صنعاء، في كنيسة كبيرة قد بناها لتوّه. لكن جيش أبرهة أبيد، ويذكر القرآن الكريم خبر هذا الفشل في سورة «الفيل» آية (١٠٥).

وحازت قريش بفضل انتصارها على أبرهة نفوذاً واسعاً، وبالتالي غير متوقع لقبيلة قليلة العدد تقيم في منطقة قاحلة. وباتت القبيلة تسمى أهل بيت الله، وباتت الكعبة موضوعاً لتكريم شامل.

مخطط قبر معاوية، قرية الفاو



قبر معاوية أثناء عملية تنقيب

٣. ابن حبيب، المحبّر (Ibn Habib, *al-Muhabbar*) ص ٣٧٠-٣٧١

وتأسس سوق قريش الكبير الذي يقام في عكاظ بعد خمسة عشر عاماً على «عام الفيل». والرابطة الشعائرية الحمس التي تربط أعضاء عدد كبير من قبائل غرب الجزيرة العربية بالحرم المكي، تلت الحملة أيضا. وليس مهماً أن تكون مقاومة قريش المظفرة – المنسوبة بطبيعة الحال إلى آلهة القبيلة- ناجمة على الأرجح عن وباء أباد جيش العدو.

وفي أعقاب وفاة أبرهة (حوالى ٥٦٥م)، تعاقب أبناؤه ياكسوم وأكسوم ومسروق فترات وجيزة على عرش حمير. لكن الإنشقاقات قوّضت سلطتهم. وعندما انهارت المملكة الأكسومية في الجزيرة العربية حوالى العام ٥٧٠م أو ٥٧٥م، خسرت بيزنطية آخر حلفائها في شبه الجزيرة العربية. وذلك كان لفشل سياسة بيزنطية «العربية» التي كانت تحلم بالسيطرة على البحر الأحمر.



نقش لأبرهة الحبشي يحتفي بذكرى ترسيخ مملكته (مأرب، اليمن)

نكبة الجزيرة العربية إبان السيطرة الساسانية (٥٧٥- ٦٣٠)

ابتداءً من العام ٥٥٠م بدأت الدول الثابتة والقومية التي كانت ما تزال تسيطر على القسم الأكبر من الجزيرة العربية، تتفتت ثم تختفي الواحدة تلو الأخرى في أقل من خمسين عاماً.

ففي الجنوب، كانت مملكة أبرهة هي الأولى التي انهارت. في حوالى العام ٥٦٠م، فقدت السيطرة على صحراء الجزيرة العربية، ثم واجهت بعد عشر سنوات، أزمة خلافة. ففيما كان اثنان من أبناء أبرهة (ياكسوم /أكسوم ومسروق) يتنازعان الإرث، ويسعيان بكل ما أوتيا من قوة، الواحد تلو الآخر، إلى فرض نفسيهما، تمرد أمير يمني يدعى سيف بن ذي يزن وأطاح بسهولة آخر ملك من أصل أكسومي، بمؤازرة من جيش ساساني قليل العدد (حوالى العام ٥٧٠م أو ٥٧٥م). واستعادت مملكة حمير بعضاً من النفوذ: ويقول الواقدي إن سيفاً بعث ابنه إلى مكة ليكون والياً عليها. لـكن سيفاً ما لبث أن اغتيل وعاد اليمنُ إقليماً ساسانياً يتولى إدارتـه حاكم يقيم في صنعاء. ولا نعرف أي أثرٍ ولا أي نقشٍ يـرقى إلى تـلك الحقبة، ما يـعني انـهيار الحضارة في جـنوب الجـزيرة العـربية بشكل تام.

وفي وسط شبه الجزيرة العربية، كانت سلطة آخر الأمراء من بني حجر افتراضية منذ فترة طويلة. وقد بدأ الأفول مع قتل الحارث في ربيع ٥٢٨م. ولا تذكر المصادر البيزنطية سوى خلفٍ واحد للحارث هو حفيده كايسوس (قيس) (حوالى ٥٣٠م-٥٤٥م) الذي أنهى حياته في فلسطين في خدمة بيزنطية. ويفيد التقليد العربي أن ولاية بني حجر قد توزعت بين أبناء الحارث ولكن ما لبث الصراع فيما بينهم أن ذرّ بقرنه؛ وتنقّل آخرُ ممثلي هذه الأسرة بين قبيلة وأخرى، كالشاعر الشهير أمرؤ القيس أحد أحفاد الحارث، وعادوا إلى حضرموت في نهاية المطاف. إذاك خلف ملوكُ بني نصر في الحيرة، وكلاءُ الفرس الساسانيين، بني حجر في صحراء الجزيرة العربية. ونعرف على سبيل المثال أن عمرو من بني نصر (٥٥٤م- ٥٦٩م) رعى معاهدة سلام بين بكر وتغلب في سوق ذو المجاز الذي يبعد ٣٥ كلم شرق مكة.

وفي الجزء الشرقي من الأمبراطورية الرومانية، ألغي في عام ٥٨٢م اللقبُ الملكي المعترف به للأمراء العرب من بني جفنة (يطلق عليهم أحيانا اسم «الغساسنة»). ولا شك أن في الأمر خطأ: فالمؤرخ السرياني ميخائيل السوري يقول إن «مملكة الطاي (= عرب) تقاسمها خمسة عشر أميراً؛ والتحق القسم الأكبر منهم بالفرس».

وفي الأمبراطورية الساسانية بالحيرة، قُضي في العام ٦٠٢م على مملكة بني نصر التي تأسست في أواخر القرن الثالث. وقد يكون ذلك على الأرجح نتيجة التراجع الروماني، وتعبيراً عن اللامبالاة المتزايدة بالجزيرة العربية التي لم تعد تشكـّل تهديدا جراء الأزمة الاقتصادية والسكانية التي عصفت بها.

إنها في الواقع حقبة تفشت فيها الفوضى. فسلامة طرق المواصلات لم تعد مضمونة. واضطرُ الملوك الساسانيون إلى التفاوض على سلامة رُسُلهم وقوافلهم، الواحدة تلو الأخرى، مع زعماء

القبائل الذين منحوهم ألقاباً وصلاحيات فخرية، كالحق في لبس التاج فوق العمامة. وهذا مرد تسمية ذو التاج. ويحصل أيضاً أن يعمد الذين يحرسون القوافل إلى سلبها.

إلا أن الفرس الذين كانوا متواجدين عسكرياً في اليمن وفي الخليج، احتفظوا ببعض النفوذ. فإليهم كان يلتجئ المطالبون بالسلطة.

وللتخفيف من النتائج المدمرة للفوضى، يتم اللجوء إلى حلول متنوعة، أبسطها إقامة أو إعادة إحياء الأشهر الحـُرم التي يـحرّم القتال فيها. وفي غضون هذه الأشهر الحـُرم، تمكن المشاركة في موسم الحج والأسواق، من غير التعرُّض لأخطار كبيرة. وأقام بنو مرة بن عوف (فرع من ذبيان، حوالى ٢٥٠ كلم شمال المدينة) هدنة تستمر ثمانية أشهر، فيما كانت قريش تدافع عن مبدأ الهدنتين السنويتين، اللتين تستمر أولاهما شهراً والثانية ثلاثة أشهر، أي أربعة أشهر بالإجمال. ويقضي احترام الهدنة القرشية في رأي قبيلة ما، بالإعتراف بالطابع المقدس للحرم المكي؛ والقبائل التي توافق على هذا المبدأ تُدعى «مُحْرِمون» خلافا لـ «مُحِلون» الذي ترفضه القبائل.

إنّ قريش التي عرضت على القبائل إئتلافاً مبنياً على التساوي تتميّز بحيويتها وقدرتها على الإبتكار. وهذا الإئتلاف الذي يسميه م.ج. كيستر (J. M. Kister) «كومنولث مكة» يمكن أن يتخذ أشكالاً عدة. فالأقل إلزاماً هو الإيلاف، الذي يعني ميثاقا أمنياً يربط قريش بقبيلة ما ويتيح حرية التنقل، من دون قيام حلف. ورابطة الحمس التي تجمع أفراداً وجماعاتٍ يتقاسمون العقائد نفسها ويمارسون الشعائر الدينية االمتشددة نفسها، هي في المقام الأول دينية، لكن تنجم عنها فوائد اقتصادية بالغة الأهمية: فهذه الرابطة التي تشكـّل بداية لمجموعة تتخطى الإنقسامات القبلية، تتيح للقرشيين إقامة علاقات ثقة مع شركاء يقيمون في مناطق نائية. وأخيراً، تـُشرك قريش بعض القبائل في شؤونها شراكة وثيقة: فهكذا مارس عدد كبير من بني تميم وظيفة قاضٍ في سوق عكاظ، وشاركت تميم في شرطة قبلية، واقترن عدد كبير من التميميات بقرشيين.

الشبكات التجارية المعقدة التي طوّرها المكّيون بعد انتصارهم على أبرهة حملت العالِم البلجيكي هنري لامنس (Henri Lammens) في بداية القرن العشرين، على وصف مكة بأنها «مدينة تجارة عالمية». وكانت آنذاك واحدة من أنشط المدن في شبه الجزيرة العربية، مع نجران وعدن، وبالتأكيد واحدة من أشدها ازدهاراً وأماناً لأنها، خلافاً لكثير من المدن المعاصرة (مثل نجران)، لم تكن مسوَّرة.

وإذا كانت الآراء قد أجمعت على اعتبار أن الجزيرة العربية في غضون السنوات الخمسين التي سبقت الهجرة، كانت خراباً يباباً، فلا يتوافر هذا الإجماع إذا ما أردنا تحديد أسباب تلك الكارثة. هل ترقى جذور الأزمة إلى بضعة قرون، أم هل ما حصل انهيارٌ مفاجئ ، على إثر حروب ومجازر وجوائح (كالطاعون الشهير الذي تحدث عنه جوستينيان)؟

فمن جهةٍ نـلاحظ جفافاً تدريجياً للـمناخ، يـتفاعل منـذ آلاف السـنين، لكنه بـدأ يـؤثر على الغطاء النباتي ويجعل الزراعة في كثير من مناطق صحراء الجزيرة العربية غير أكيدة.

ويمكن من جهة ثانية، أن تكون الأزمة البيئية قد اتسعت نتيجة كارثةٍ طبيعية، أو ثـَوَران بركاني كبير نجمت عنه اضطرابات مناخية خطرة، تلتها سنوات عديدة من المَحـْل والجدْب. وتذكر مصادر عدة أن الشمس قد احتجبت في السنة العاشرة من حكم جوستينيان (٦٣٥م)، حتى باتت تشبه القمر، وأن هذه الظاهرة استمرت من اثني عشر إلى ثمانية عشر شهراً.

خلاصة القول، إن الجزيرة العربية شهدت في النصف الثاني من القرن السادس، أزمةً مأسوية نتيجة أحداثٍ طارئة وقاسية، وبفعل جفاف مناخي أيضاً لا يزال واضح المعالم. إنه زمن الإضطرابات والبؤس والبلبلة والإنتظار الرؤيوي الذي تعكسه تسميةُ «العصر الجاهلي»، تلك التسمية التي اشتقها أوائل مؤرخي الحقبة الإسلامية.

التاريخ المميز لإمارات صحراء الجزيرة العربية وممالكها

الوقائع التاريخية المتصلة بكثيرٍ من الكيانات السياسية في الجزيرة العربية التي تذكرها المصادر، ليست معروفة بالتفصيل. إلا أن في حوزتنا معلومات وفيرة إلى حدٍّ كبيرٍ عن الإمارات التي استفادت من تجارة القوافل في الألف الأول قبل الميلاد، بفضل الجمع بين البقايا الأثرية المهمة والنصوص المنقوشة.

نجران

ينطوي اسمُ نجران على وقعٍ خاص في الجزيرة العربية. وتتسم الإقامة في هذه الواحة الشاسعة الغزيرة المياه، بمتعتها المتأتية من الارتفاع الذي يجعل الحرارة معتدلة نسبياً. وكانت نجران مراراً عبر التاريخ عنصراً سياسياً وتجارياً بالغ الأهمية. وقد أكسبها هذه الأهميةَ، غناها الزراعي وموقعها الذي جعل منها ممراً إلزامياً للقوافل المسافرة بين اليمن والشرق الأدنى. وليس مدهشاً أن يعبّر أصل لفظة نجران عن فكرة «المزلاج»: فنجران هي في الواقع «مزلاج» الباب الذي يوصِل إلى اليمن.

يبدأ التاريخ في نجران حوالى العام ٧٠٠ قبل الميلاد. فالواحة التي تسمى نجران، كانت تابعة آنذاك لمملكة صغيرة تسمى مهامر (Muha'mir). وتخطت شهرتُها حدود الجزيرة العربية، لأن رعمة عاصمتها مذكورة مرتين في التوراة باسم «رعمة». وهي في نظر النبي حزقيال (القرن السادس قبل الميلاد) قوة عظمى تجارية بالإشتراك مع شبأ (سبأ) :«دادانُ متّجرة معكِ بالنمارق للركوب. العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدِك بالحملان والكباش والتيوس. فإنهم بهذه اتجروا معك، تجار شبأ ورعمة متجرون معك، وبأقضى كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب اقاموا اسواقك حاران وكنّة وعادان وتجار شبأ وأشور وكِلمد متجرون معك»[٤].

في حوالى العام ٧٠٠م، حاول أحد ملوك سبأ الإستيلاء على مهامر، لكنه أخفق واكتفى بنهبها وسلبها وفرض الجزية عليها. وفي النقش الذي يخلّد انتصاراته، ادعى بأنه قتل خمسة آلاف رجل وأسر اثني عشر ألفا واستولى على مائتي ألف بهيمة (جمال وأبقار وحمير وماشية)، ما يشير إلى ثراء الواحة.

ولمهامر التي لم يُذكر اسمها سوى في النقوش التي عُثر عليها في نجران (حفريات عوض الزهراني) أو في اليمن، تاريخ طويل إلى حدٍّ ما لأن اسمها ورد أيضا في القرن الخامس قبل الميلاد. ونعرف ثلاثة من ملوكها.

وعلى غرار معظم القبائل، كان سكان نجران يكرمون معبوداتهم الخاصة. وأبرزها الإله ذو السماوي الذي خُصص له معبد يسمى «كأبة» فاستمر اسمها لدى المؤرخين العرب- المسلمين بصيغة «كعبة نجران». وتذكر النقوش أيضا الإله يغوث والآلهتين اللات والعزى، وقد ورد ذكر هذه الآلهات الثلاثة في القرآن الكريم.

وفي النقوش المكتوبة جميعاً بالأبجدية السبئية، استخدم النجرانيون اللغة السبئية، ونادراً ما استخدموا اللغة المعينية. لكن السكان المحليين لم يتكلموا هاتين اللغتين على ما يبدو، بل كانوا يستخدمون بالتأكيد مجموعة متنوعة من لغات شمال شبه الجزيرة العربية.

وفي مستهل الحقبة الهلينستية أو قبلها بقليل، فقدت مهامر السيطرة على واحة نجران لمصلحة قبيلة أمير الحليفة. وفي الحقبة نفسها -لا يمكننا تحديد مدى ارتباط الحدثين- أصبحت نجران خاضعة لمملكة معين اليمنية الصغيرة.

وفي العام ٢٦ أو ٢٥ قبل الميلاد، وصل إلى نجران جيشٌ روماني كان ينوي غزو بلاد اللبُان، ولم يواجه صعوبة في الاستيلاء عليها. وبعد قرنين، باتت نجران مُلكا لمملكة سبأ اليمنية، ثم لمملكة حمير (التي احتلت سبأ في حوالى العام ٢٧٥م). في هذا الوقت، أي في بداية القرن الثالث، بات

الحبشيون الذين اجتاحوا غرب شبه الجزيرة العربية أسياد الواحة واحتفظوا بالسيطرة عليها سنوات عديدة. وحينما استعادها السبئيون قبل العام ٢٥٠م، قتل ملوك سبأ «من أبناء نجران ٩٢٤ رجلاً وأخذوا ٥٦٢ أسيراً ونهبوا في الواديين المسمييَن نجران ٦٨ قرية». وهذا العدد «٦٨ قرية» لا يبعد كثيراً عن القرى الثلاث والسبعين في نجران حين دانت لمحمد بالولاء (٦٣٠).

لكن إذا كانت نجران تتمتع بشهرة كبيرة، فمردُّ ذلك في المقام الأول إلى الأحداث المأسوية التي وقعت في القرن السادس بعد الميلاد. فقد انتشرت المسيحية في الواحة حوالى منتصف القرن الخامس. وأزعج التبشير الذي تولاه أنصارُ الدين الجديد ملكَ اليمن الذي أمر بإعدام شخص يُدعى أزقير في حوالى العام ٤٧٥م. وكان ملوك اليمن الذين نبذوا الشِرك منذ العام ٣٨٠م، يتعاطفون مع اليهودية.

وبعد خمسين عاما، أي في العام ٥٢٣م، رفضت نجران الاعتراف بسلطة الملك الجديد الذي أعلن انتسابه رسميا إلى اليهودية. وهذا الملك الذي يُدعى يوسف، يُشتهر بكنيته العربية ذو نواس.

وأرسل يوسف جيشاً جرّاراً للاستيلاء على نجران. وقد قاومت الواحة في البداية، ثم انتهت بالاستسلام في مقابل ضمانة تقضي بالعفو عن المتمردين. لكن يوسف لم يفِ بوعده. وأحرق الكنيسة التي كان يجتمع فيها رجال الدين والمؤمنون، وأمر بقطع رؤوس الأعيان وقتل عدداً كبيراً من المسيحيين. وأشهر ضحاياه الحارث بن كعب الذائع الصيت الذي تُكرِّمه معظمُ الكنائس المسيحية ولا سيما تلك التي تستخدم اللغات السريانية واليونانية والأثيوبية. والحارث بن كعب هو جدُ القبيلة التي تحمل الاسم نفسه ولا تزال موجودة حتى اليوم. وتذرعت الحبشة المجاورة بالمجزرة حتى تتدخل. وفي أثناء الإنزال الحبشي، قُتل يوسف. واحتُل اليمن بالكامل، وعُهد بحكمه إلى ملك يمني مسيحي. إذاك تعاقب ملوك مسيحيون حتى حوالي ٥٧٠م- ٥٧٥م. وأشهرهم الحبشي أبرهة (حوالي ٥٣٥م- ٥٦٥م).

وعشية انتشار الإسلام، كانت نجران لا تزال مركزاً تجارياً ومالياً بالغ الأهمية، والأبرز على ما يبدو بعد مكة. وتبدو العلاقات الاقتصادية مع مكة كثيفة. ويُروى في هذا المجال أن المكي الوليد بن المغيرة طلب من أبنائه بينما كان يحتضر أن يدفعوا ١٠٠ أونصة – من الذهب بالتأكيد- إلى أسقف نجران من أجل تسوية دين تجاري. وهذا الوليد هو والد القائد الشهير خالد بن الوليد الذي فتح سوريا على رأس الجيوش الإسلامية.

كذلك كانت نجران مركزاً ثقافياً. وكانت الواحة الشرقية مع المدينة (كانت تُسمى يثرب) في الجزيرة العربية، واحدة من المدن القليلة التي افتتُحت فيها مدارس. وكان الشاعر الشهير المترحل ميمون بن قيس الأعشى (حوالي ٥٧٠م- ٦٢٩م) يرغب في زيارتها سنويا. وكان النجرانيون يجيدون فنون الاستقبال الباذخ. فقد كانوا يستقبلون الشاعر، كما يقال، بالخمور والأناشيد البيزنطية.

وأدى الفتحُ الإسلامي الذي أنشأ إمبراطورية شاسعة تمحورت حول سوريا، ثم العراق، إلى تهميش نجران التي باتت ناحية محلية متواضعة.

قرية

كانت واحةُ قرية (تسمى اليوم قرية الفاو) التي تبعد أقل من ٣٠٠ كلم عن نجران نحو الشمال- الشمال الشرقي، محطة مهمة بين اليمن والخليج. وتفيد النقوش المعينية، كما سبق القول، أن القوافل الآتية من جنوب الجزيرة العربية كانت تتوجه في البداية إلى المشرق ومصر. لكن هذه الوجهة لم تكن حصرية. ويثبت تنامي قرية أن القوافل قد سلكت طريق الخليج. وهذا ما حصل خصوصاً في القرن الثالث ومستهل القرن الثاني قبل الميلاد، فيما كان ورثة الإسكندر في آسيا، والسلاجقة في سوريا يسيطرون على الخليج.

وقد هُجرت قرية قبل نهاية العصور القديمة، بسبب نضوب الآبار على الأرجح. ونرى فيها اليوم آثار مدينة تتسم بأحجامها الكبيرة التي حُفظت بعناية، إذ لم يعمد أحد منذ ذلك الحين

٤. حزقيال (Ézéchiel)، ٢٧، ٢٠-٢٣

إلى سكناها من جديد، وهي ذات مقبرة كبيرة وحيّ للأعمال (مع خانه المخصص للقوافل ومعابده).

وقرية التي كانت قوافل اليمن تتوقف فيها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمملكة معين. وقد تبنت آلهتها التي تُكرّم إلى جانب إلهيها كهل واللات. ويبدو أنها لم تكن مجرد تابع لمعين، بل كانت حليفاً يتمتع ببعض الاستقلالية، كما يؤكد ذلك مختلفُ الاختصاصات.

وقد كُتب معظم النقوش التي ترقى إلى تلك الفترة باللغة المعينية. إلا أن بعضاً منها كُتب بلغة كانت سائدة في شمال الجزيرة العربية – على الأرجح تلك التي كان يتحدث بها السكان المحليون- والتي تُكتب كذلك بالأبجدية السبئية. ومن المنطقي أن تستقبل قرية أجانب نظراً إلى دورها في التجارة الدولية. وعلى ضريح الذين كانوا يُتوفَون فيها، عثُر على نُصُب تذكارية جنائزية كُتبت بلغاتهم لاسيما الدادانية والنبطية.

وفي بداية العصر الميلادي، استعادت قرية استقلالها وأصبحت مركزا لمملكة سيطرت عليها في البداية قبيلةُ مُذحج ثم قبيلة كندة. واستمر كهل إلهها. ووُجد اسمه على القطع النقدية البرونزية الصغيرة المسكوكة محلياً، وهذا ما يشير بالتأكيد إلى دور ما للمعبد في سك العملة أو في جباية الضرائب. ويُلاحظ أن قرية هي واحدة من الدول النادرة في شبه الجزيرة العربية، مع هجر التي تسك عملة. وأهمية كهل يمكن تلمسها أيضاً من الاسم الذي أطلقه السبئيون على الواحة "قرية ذات كهل" أي "قرية (الإله) كهل".

والملك الأول المعروف الذي كان لقبه "ملك مُذحج وقحطان"، حكم حوالى العام ١٠٠ بعد الميلاد. وكان يدعى معاوية بن ربيعة. ويبدو أن قحطان هو اسم قبيلة محلية، فيما يمكن أن يكون مُذحج اسم قبيلة معاوية التي احتلت الواحة. وعثر المنقبون السعوديون على ضريحه المؤلف من غرفة جنائزية واسعة محفورة في الأرض ومن نُصْب جميل من الحجر الكلسي.

ويتوافر ذكرٌ لملك ثانٍ في العام ٢٢٠م. وقد شن ملك سبأ، رداً بالتأكيد على غزوات استهدفت مملكته، غارة على قرية. ونهب الواحة وألقى القبض على ملكها ربيعة بن معاوية "ملك كندة وقحطان" واقتاده أسيراً إلى مأرب، عاصمته. وتقول النقوش إن ربيعة ينتمي إلى قبيلة ثور؛ لذا، فهذا هو بالتحديد الاسم الذي أطلقه النسابون العرب بعد خمسة عصور على كندة.

وإذا كانت قبيلة كندة عرفت بعد ذلك فترة ازدهار، وخصوصاً في وسط الجزيرة العربية، حيث أصبح ثلاثة من ملوكها حكام اتحاد عربي واسع يبدو أن قرية لم تعد عاصمته. ففي حضرموت باتت تقيم نُخَبُ القبيلة، بعد هجرة على ما يبدو يمكن تأريخها بنهاية العقد السادس من القرن السادس الميلادي.



نقش لمعاوية بن ربيعة

ولم يُعثر في قرية على أي دليل على انتشار المسيحية (خلافاً لمعلومة روّجها كاتب من القرن العاشر) أو اليهودية، مما يحمل على تحديد التخلي عن الواحة في القرن الرابع تقريباً.

هجر

كانت القوافل من جنوب الجزيرة العربية التي تريد الوصول إلى بلاد ما بين النهريـن، تسلك طريقين. الأول، وهو المحاذي للبحر الأحمر ويمر بتيماء ودومة الجندل، يؤدي إلى وادي الفرات في أعالي بابل. وعندما يتعذر سلوك هذه الطريق، ثمة طريق بديلة تنطلق من نجران وتصل إلى شاطئ الخليج، ومن هنا، تستخدم القوافل الطريق البحرية والنهرية. وفي هذه الحالة، تكون مملكة هجر (جرها Gerrha باليونانية) الوسيط الإلزامي، التي تتألف أراضيها إلى حد ما من منطقة الإحساء الحالية في السعودية.

وأعطت اسمَ هذه المملكة الصغيرة في البداية بعضُ العملات الفضية من الحقبة الهلينستية، والدراهمُ الذهبية التي تقلد دراهم الإسكندر، وقد سُكّت باسم «الحارث ملك هجر». وذكِرَ اسم هجر أيضاً في اثنين من نقوش جنوب شبه الجزيرة العربية. ويفيد الأول أن امرأة من هجر حصلت على جنسية معين؛ أما الثاني، فيشير إلى أن امرأتيـن من هجر قد دُفنتا في حرمٍ بالجوف.

إذا سلمنا جدلاً بما قاله العلماء اليونانيون من الحقبة الهلنستية، فإن مدينة - دولة قوية تدعى جرها كانت موجودة في الحقبة نفسها وفي المنطقة نفسها. ولا يزال موقعها الدقيق موضع نقاش. ويقول دانيال بوتس (Daniel Potts) إن جرها تتماثل مع موقع ثاج لأنه الموقع الأثري الوحيد المهم أثناء الحقبة الهلنستية في شرق الجزيرة العربية. ويمكن التفكير أيضا بالهفوف. في أي حال، ونظرًا إلى تشابه الأسماء (لأن هجر Hajar كانت تُلفظ آنذاك هاجار Hagar)، فمن المؤكد أن جرها هي الاسم اليوناني لهجر. ويبدو أن مصدراً ميـَّز بين هاجار وجرها. وإنّ إيراتوستين القوريني (Èratosthène de Cyrène) (توفي نحو ١٩٥ قبل الميلاد) كما نقل عنه سترابون (Strabon)، يذكر على التوالي الأغريين (Agréens) والغرهيين (Gerrhéens) كما لو كانا شعبين مختلفين. وهذا يُفسر أن الكاتب عمد بالتأكيد إلى وضع اقتباسات مستخرجة من مصادر مختلفة جنبا إلى جنب.

وتتبين أهمية هجر/جرها في إعادة توزيع المنتجات العطرية الآتية من جنوب شبه الجزيرة العربية، من التمييز آنذاك بين نوعين من اللبان، هما «المعيني» و«الجرهي» (المنتج في جرها). إلا أن أغاثرشيد الكنيدي (Agatharchide de Cnide) (كنيدوس مدينة يونانية تقع شمال جزيرة رودوس) يقول «لم يبدُ أيُّ شعب أكثر ازدهارا من السبئيين والجرهيين لأنهم كانوا يخزنون كل ما كان يصلهم من الأرباح من أوروبا وآسيا°».

ولا شك في أن هذا الثراء يُفسرالحملة التي قادها الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث حتى جرها (Gerrha) في العام ٢٠٥ قبل الميلاد. ولم يتمكن الملك من الإستيلاء على المدينة، لكنه وافق، على الإعتراف «بالسلام الأبدي والحرية» اللذين كانت تتمتع بهما المدينة في مقابل مرسوم صدر تكريماً له، ومرفق بهبة قدرها ٥٠٠ تالان من الفضة (تالان وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠ إلى ٢٧ كلغ، أي أكثر من ١٠ أطنان)، وألف تالان من اللبان و٢٠٠ تالان من المر المكاوي السائل.

واشتهر اثنان من تجار جرها في العالم المتوسطي. فقد قدم تيمالاتوس (Temallatos) عدداً كبيراً من القرابين في معابد ديلوس Delos) (في العام ١٤٠ قبل الميلاد، كما أنّ كسمايوس بن ابدايوس (Kasmaios, fils d'Abdaios) أهدى الاله هليوس (Helios) (الشمس) مذبحاً في جزيرة كوس (Cos) في الفترة نفسها.

والإله الكبير لِهجر هو الإله شمس بالتأكيد. وسُكّت مجموعات مختلفة من العملات باسمه الذي كُتب كاملا أو بالحرف الأول. وقد يكون سكان شبه الجزيرة العربية الذين يقدمون هباتٍ إلى الإله شمس في أحد معابد مأرب في اليمن، من هجر هم أيضاً. وقد جاءوا في أي حال من شرق شبه

الجزيرة العربية، كما أثبت ذلك نوربرت نيبيس، لأنهم يؤرخون نصوصهم ابتداءً من الملك السلوقي الأول على الطريقة البابلية. ويذكر أحد هذه النصوص أيضاً إلهة تدعى «تلك التي في السموات».

ويقدم سترابون ملاحظة مهمة تتعلق بسكان جرها، وهي أن كلدانيين هربوا من بابل قد سكنوا المدينة. وهذا يمكن أن يفسر لماذا حلت اللغة الآرامية تدريجياً محل لغة جنوب الجزيرة العربية في النقوش والكتابات والشروح المحفورة على العملات.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد، انتقل شرق الجزيرة العربية إلى السيطرة الفارسية الساسانية، وبات يُدعى البحرين مع عاصمتها حجر (الهفوف اليوم). وكان للمسيحية في شكلها «النسطوري» أتباع عديدون فيها. ويذكر كتاب المجامع النسطورية التي كُتبت بالآرامية السريانية الطابع، أسقفين على المنطقة وثلاثة أساقفة على الجزر القريبة من الساحل.

واحات شرق الحجاز

دائماً ما تمتعت واحات شرق الحجاز بأهمية سياسية واقتصادية كبيرة. ففي واحدة منها، أي يثرب (سُميت مدينة النبي = المدينة)، أطلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم الدعوة الإسلامية. وبالنسبة إلى القوافل التي تعبر بين اليمن ومنطقة المتوسط، كانت هذه الواحات المتناثرة في منطقة موحشة وقاحلة، نقطة عبور إلزامية؛ لذلك توافرت لها إمكانية التحكّم تحكماً وثيقاً بالمبادلات وتحقيق أرباح طائلة منها.

وأبرز الواحات التي يبلغ عددها أربعاً، بدءاً من الجنوب إلى الشمال، هي يثرب (المدينة اليوم)، وخيبر (التي ما زالت تحمل الاسم نفسه) ودادان (العلا) وتيماء (الاسم نفسه). والمسافات التي تفصل بينها هي:

يثرب – خيبر: ١٤٥ كلم؛

خيبر – دادان: ١٧٠ كلم؛

دادان- تيماء: ١٣٠ كلم.

لذلك تكون يثرب أبعَدُ الواحات الجنوبية على مسافة ٣٦٥ كلم من تيماء أقرب الواحات الشمالية. وتضم الواحات الأربع جميعاً الحدائق الغناء الشاسعة والبساتين والنخيل، التي يرويها دفقُ المياه الجوفية، وأعداداً كبيرة من العاملين في المجال الزراعي.

والمصالح المشتركة التي تجمع هذه الواحات، سواء تأمين الحماية من الأعمال العدائية أو الاستفادة من تجارة الترانزيت، حملتْها على الإتحاد، لكنها لم تشكـّل على ما يبدو مجموعة سياسية موحدة. ولا شك في هذا المجال، أن القواعد الناظمة للمجتمع القبلي هي التي كانت سائدة.

تيماء

يبدو أن واحة تيماء، التي نجد فيها مدينة مهمة مسوَّرة ترقى إلى الألف الثاني، تمتعت في مرحلة أولى من القرن الثامن الى القرن السادس قبل الميلاد، ببعض التفوّق.

وقد انتشرت أبجديتـُها حتى شمال سوريا، إذا ما وثقنا بنصٍ مثير للاهتمام كُتب بحروف هيروغليفية لوفية (louvite) (لغة كانت محكية في جنوب الأناضول في الألف الثاني قبل الميلاد)، آتية من كركميش (على الحدود السورية- التركية الحالية). ويتباهى كاتبُ هذه الوثيقة الذي يُدعى ياريريس (Yariris) الوصيُّ على المدينة بينما كان الملك قاصراً، في القرن الثامن، بإجادة اثنتي عشر لغة والكتابة بأشكال متنوعة. ومن الأبجديات الأربع التي صمدت أسماؤها، عـدَّد ياريـريس

٥. سترابون (Strabon)، جغرافيا، ١٦، ٤، ١٨.

"أبجدية المدينة، وأبجدية سورا (Sura) وأبجدية أشور وأبجدية تيمان". ولا شك في أن «أبجدية المدينة» تعني الهيروغليفية اللوفية، وأن «أبجدية أشور» هي الأكادية المسمارية. وسوراً يمكن أن توحي لنا صوربمعنى أن أبجديتها قد تكون الفينيقية. وتبقى «تيمان». والاحتمال الكبير في هذا المجال أنه يعني أبجدية تيماء، وبعبارة أخرى الأبجدية العربية التي يُستعمل نوع منها في شمال غرب الجزيرة العربية ونوع آخر في بقية أنحاء الجزيرة العربية.

وتيماء التي غالباً ما يُقرن اسمها بسبأ (أنظرْ خصوصا النص الأشوري لنينورتا كودوري وسور) أو دادان (سفر أيوب ٦، ١٩ وسفر أشعيا ٢١، ١٣-١٤)، هي مركز مهم لتجارة القوافل وهي أيضاً، إذا ما قرأنا النبي إرميا (بداية القرن السادس) قوة لا يُستهان بها في الجزيرة العربية: « وأجلب على تلك الأرض كل كلامي الذي تكلمت به عليها، كل ما كتب في هذا السفر الذي تنبأ به إرميا على كل الشعوب... وأدوم وموآب وبني عمون وكل ملوك صور، وكل ملوك صيدون، وملوك الجزائر التي في عبر البحر ودادان وتيماء وبوز، وكل مقصوصي الشعر مستديرا وكل ملوك العرب، وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية وكل ملوك زمري، وكل ملوك عيلام، وكل ملوك مادي[٦]».

ولا شك في أن غزو الملك البابلي نبونيد واحات الحجاز الكبرى شكـّل صدمة للناس الذين كانوا يظنون أن الصحراء توفر الحماية لهم. ولا يثير الدهشة أبداً أن يُذكر عدد كبير من النقوش الصخرية في ضواحي تيماء المكتوبة باللغة والأبجدية التيمائية «نبونيد ملك بابل» أو «ملك بابل». والنقوش المكتشفة في تيماء نفسها ترقى إلى حقبة نبونيد أو تليه. وكـُتب أبرزها باللغة الآرامية.

واستضافت واحة تيماء على الأرجح أعداداً كبيرة من اللاجئين بعد فشل المتمرّديـْن اليهود على الرومان من العام ٦٧م الى ٧٣م ومن العام ١٣٢م الى ١٣٥م بعد الميلاد.

دادان والحجر

ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، وطوال بضعة قرون، حلت واحة دادان على ما يبدو محل تيماء. وتورد التوراة ذكرها تسع مرات في الإجمال، مما يعكس الدور الكبير للواحة.

ويستند التطابق بين دادان والعلا على النقوش المحلية المكتوبة باللغة الدادانية وبالأبجدية العربـيـة التي تذكر دادان خـصوصاً في لقب «ملك دادان». وكـان مركز الـواحة قـائماً في البداية في الجزء الجنوبي وعلى تماس مع واحات النخيل؛ وتـجري فيها اليوم حفريات بعثةٍ من جامعة الملك سعود في الرياض. وانتقل إلى الحجر (Higra) باللغة الآرامـية وهي اليـوم مـدائن صالح) التي تبعد حوالى ثلاثـين كلم إلى الـشمال، في بداية العصر المـيـلادي.

والنقوش المكتشفة في العلا التي يناهز عددها الألف، تذكر، في حوالي القرن السابع قبل الميلاد، مملكة يحمل ملوكها لقب "ملك دادان". وفي وقت لاحق، في الحقبتين الفارسية والهلينستية، أطلقت مجموعة من الملوك على نفسها لقب ملك لحيان. ويبدو أن اللقب الملكي يستبدل باسم القبيلة اسمَ المكان. وربما سـيطرت مملكة لحيان على منطقـة أوسع من واحة دادان وتـضم تيماء على الأرجح.

وفي حقبة ملوك لحيان، استضافت دادان مجموعة معينية كبيرة لديها معبدها المقدس باسم الإله ودّ وسوقها. وترك اللحيانيون في المقابل نقوشا في قرية الفاو جنوب الجزيرة العربية. وفي مستهل العصر الميلادي، سيطر النبطيون على الواحة، واستـقروا في الحجر التي اتسعت كثيراً. وإلى هذه الحـقـبة ترجع المـقابر المنـحوتة في الواجهات الصخرية ذات الواجهات الرائعة على غرار واجهات البتراء.

٦. إرميا (Jérémie)، ٢٥، ١٣، ٢١-٢٥.



إناء فضي يحمل نقش تل المسخوطة

وفي العام ١٠٦ بعد الميلاد، احتلت روما المملكة النبطية. وامتد نفوذها إلى الحجر، كما يشير الى ذلك نقش لاتيني شهير يرجع إلى نهاية حكم مارك أوريل (Marc Aurel) (١٦١م-١٨٠م).

وقد هُجرت المدينة قبل الإسلام. ويوردها القرآن في الواقع على أنها منطقة عذاب (١٥، ٨٠-٨٤). وتنكبّ على دراستها بعثة فرنسية- سعودية منذ نحو عشر سنوات.

قيدار

في أقصى شمال غرب الجزيرة العربية، على تخوم سوريا، كانت واحة دومة (دومة الجندل اليوم) مركزاً مهماً أيضاً. فهي مكان إقامة ملوك قيدار «العرب» الذين حاول الأشوريون إخضاعهم. وبعد حوالي مائتين وخمسين سنة، قدّم قينو بن جشم ملك قيدار إناء من الفضة إلى الإلهة هان إيلات (شكل قديم للات) في معبد شرق الدلتا المصرية في تل المسخوطة؛ وبطريقة منطقية إلى حدٍّ ما، كُتب نقشها باللغة الآرامية، اللغة الإدارية في الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الفارسية.

وفي الحقبة نفسها، تورد قوائم النساء الأجنبيات اللواتي «حصلن على الجنسية» والتي عُثر عليها في معين، اسم قيدار ثلاث مرات. وأخيراً في الفترة بين ٤٤٥ و٤٤٣ قبل الميلاد، اشتكى نحميا ملك يهوذا من جاره «غشم (جشم) العربي[٧]».

وفي القرن الرابع، زالت مملكة قيدار من الوجود. ويبدوأن غزة التي كانت تابعة لها قد ألحقت بسوريا ، وأصبحت أدوم إقليماً مستقلاً. وأتاحت إعادة التنظيم المهمة هذه بروز قوة إقليمية جديدة هي النبط. وفي العام ٣٢١ قبل الميلاد، كانت هذه هي القبيلة التي واجهها الملك اليوناني انطيغوس (Antigone) في جنوب المشرق وليس قيدار.

٧. نحميا (Néhémie)، ٢ : ١٩ ؛ ٦ : ١.



واحة العلا

المصادر والمراجع : Abdul Nayeem، ٢٠٠٠ ؛ Anati، ١٩٦٨ أ ؛ Anati، ١٩٦٨ ب ؛ Anati، ١٩٧٢ ؛ Anati، ١٩٧٤ ؛ Al-Ansari، ١٩٨٢ ؛ Avanzini، ١٩٩٧ ؛ Beaulieu، ١٩٨٩ ؛ Beeston، ١٩٨٢، ص ١٧٨-١٨٦ ؛ Brock، ١٩٩٩، ص ٨٥-٩٦ ؛ Callot، ١٩٩٠، ص ٢٢١-٢٤٠ ؛ Calvet et Robin، ١٩٩٧ ؛ Caskel، ١٩٩٦ ؛ Caussin de Perceval، ١٨٤٧ ؛ Chabot، ١٩٠٢ ؛ Conti Rossini، ١٩١٠، ص ٧٠٥-٧٥٠ ؛ Crone، ١٩٨٧ ؛ Cuvigny et Robin، ١٩٩٦، ص ٦٩٧-٧٢٠ ؛ Detoraki et Beaucamp، ٢٠٠٧ ؛ Drewes، ١٩٨٦، ص ٧٦٧-٧٦٩ ؛ Edens et Bawden، ١٩٨٩، ص ٤٨-١٠٣ ؛ Eichmann, Schaudig et Hausleiter، ٢٠٠٦، ص ١٦٣-١٧٦ ؛ Eph'al، ١٩٨٢ ؛ Fabietti، ١٩٨٨، ص ٣٤٨-٣٥٦ ؛ Fahd، ١٩٨٧ ؛ Farès-Drappeau، ٢٠٠٥ ؛ Faure، ١٩٨٧ ؛ Gadd، ١٩٥٨، ص ٣٥-٩٢ ولوحة ١-١٦ ؛ Gagé، ١٩٥٠ ؛ Gajda، ١٩٩٦، ص ٦٥-٧٣ ولوحة ١ ؛ Galter، ١٩٩٣، ص ٢٩-٤٠ ؛ Gil، ١٩٨٤، ص ١٤٥-١٦٦ ؛ Groom، ١٩٨١ ؛ Hawting، ١٩٩٩ ؛ Hayajneh، ٢٠٠١ أ، ص ٢٢-٦٤ ؛ Hayajneh، ٢٠٠١ ب، ص ٨١-٩٥ ؛ Healey، ١٩٩٣ ؛ Hirschfeld، ٢٠٠٦، ص ١٩-٣٢ ؛ Hoyland، ٢٠٠١ ؛ Jameson، ١٩٦٨، ص ٧١-٨٤ ؛ Jaussen et Savignac، ١٩٠٩ ؛ Jaussen et Savignac، ١٩١٤ ؛ Kennedy، ١٩٩٧، ص ٥٣١-٥٤٤ ؛ Kennet، ٢٠٠٥، ص ١٠٧-١١٨ ؛ Kennet، ٢٠٠٧، ص ٨٦-١٢٢ ؛ King، ١٩٨٠، ص ٣٧-٤٣ ؛ Korotayev, Klimenko et Proussakov، ١٩٩٩، ص ٢٤٣-٢٧٦ ؛ Lammens، ١٩١١ ؛ Langfeldt، ١٩٩٤، ص ٣٢-٦٠ ؛ Liverani، ١٩٩٢، ص ١١١-١١٥ ؛ Macdonald، ١٩٩٤، ص ١٣٢-١٤١ ؛ Macdonald، ١٩٩٥ أ، ص ١٣٥١-١٣٥٥-١٣٦٩ ؛ Macdonald، ١٩٩٧، ص ٣٣٣-٣٤٩ ؛ Macdonald، ٢٠٠٩ ؛ Macdonald et King، ٢٠٠٠، ص ٤٦٧-٤٦٩ ؛ De Maigret، ١٩٩٧، ص ٣١٥-٣٣١ ؛ Marek، ١٩٩٣، ص ١٢١-١٥٦ ؛ Mollat et Desanges، ١٩٨٨ ؛ Morony، ١٩٩٥، ص ٧٣-٨٧ ؛ Müller، ١٩٧٨ ؛ Müller et Al-Said، ٢٠٠٢، ص ١٠٥-١٢٢ ؛ Al-Najem et Macdonald، ٢٠٠٩، ص ٢٠٨-٢١٧ ؛ Nehmé، ٢٠٠٤، ص ٦٣١-٦٨٢ ؛ Nehmé، ٢٠٠٥، ص ١٥٥-١٧٥ ؛ Nehmé، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ١٧٩-٢٢٥، ٣٤٥-٣٥٦ ؛ Nehmé, Arnoux, Bessac *et al*، ٢٠٠٦، ص ٤١-١٢٤ ؛ Newby، ١٩٨٦، ص ١٢١-١٣٨ ؛ Newby، ١٩٨٨ ؛ Noja، ١٩٧٩، ص ٢٨٣-٣١٦ ؛ Olinder، ١٩٢٧ ؛ Patrich، ١٩٩٠ ؛ Peters، ١٩٨٨، ص ٣-٢٦ ؛ Potts، ١٩٩٠ ؛ Potts، ١٩٩١ ؛ Potts، ١٩٩٤ ؛ Pritchard، ١٩٧٤ ؛ Retsö، ١٩٩١، ص ١٨٧-٢١٩ ؛ Retsö، ٢٠٠٣ ؛ Robin، ١٩٩١ ؛ Robin، ٢٠٠١ أ، ص ٢٠٦-٢١٧ ؛ Robin، ٢٠٠١ ب، ص ١١٣-١٩٢ ؛ Robin، ٢٠٠٣، ص ٩٧-١٧٢ ؛ Robin، ٢٠٠٤، ص ٨٣١-٩٠٦ ؛ Robin، ٢٠٠٦ ؛ Robin، ٢٠٠٨ أ، ص ١٦٧-٢٠٢ ؛ Robin، ٢٠٠٨ ب، ص ٢٣٣-٢٤٤ ؛ Rubin، ١٩٨٦، ص ٣١٣-٣٤٧ ؛ Ryckmans، ١٩٤٧، ص ٣٠٧-٣٣٢، ٥٢٦-٥٣٤ ؛ Ryckmans، ١٩٥١ ؛ Ryckmans، ١٩٥٦ ؛ Ryckmans، ١٩٦٤، ص ٤١٣-٤٥٤ ؛ Ryckmans، ١٩٨٦ أ، ص ٤٠٧-٤١٧ ؛ Ryckmans، ١٩٨٧، ص ٢٩٧-٣٠٥ ؛ Ryckmans، ١٩٨٩، ص ١١٣-١٣٣ ؛ Al-Sa'îd، ٢٠٠٠ ؛ Al-Sa'îd، ٢٠٠٢، ص ١١-٣٨ ؛ Salles، ١٩٨٨ ؛ Sanlaville، ١٩٩٢، ص ٥-٢٦ ؛ Sanlaville، ٢٠٠٠ ؛ Schiettecatte et Robin، ٢٠٠٩ ؛ Shahîd، ١٩٧١ ؛ *Silsilat âthâr al-Mamlaka al-'arabiyya al-sa'ûdiyya*، ٢٠٠٣ ؛ Sima، ١٩٩٩ ؛ Simon، ١٩٧٠ ؛ Simon، ١٩٨٩ ؛ Al-Talhi et al-Daire، ٢٠٠٥، ص ٢٠٥-٢١٧ ؛ Tardieu، ١٩٩٢، ص ١٥-٢٤ ؛ Tardieu، ١٩٩٤، ص ٥٩-٧٥.

الفتوحات العربية
(٦٣٠ - ٧٥٠)

أ. د. غابريال مارتيناز غرو

شهدت انطلاقة الإسلام ما ينوف على مئة عام من الفتوحات المذهلة، لا بل غير المسبوقة من حيث الضخامة والسرعة، وحتى من حيث ما توصل الإسلام إلى تحقيقه من رسوخ الدولة وديمومتها أولاً، ومن ثم حضارتها. وفي هذا السياق، تتعدّى الفتوحات العربية مجرد كونها نتيجة توسّع شعب ما. ولا شك أنها كانت في البدء عربية وأنها ساهمت في تأسيس دولة عربية. ولكن زمن العرب ولـّى كما ولـّى زمن الدولة أيضاً، بيد أن زمن الإسلام لم ينته بعد. وإذا أقمنا مقارنة بين مصير الفتوحات العربية مع ما يشبهها من فتوحات شهدها تاريخ منطقة البحر المتوسط، أي فتوحات الإسكندر، فإننا نلاحظ أن أطماع الفاتح اليوناني توقّفت شرقاً عند الحدود ذاتها التي توقفت عندها أطماع العرب في القرنين السابع والثامن، أي عند وادي الهندوس. ولكن بعد أقل من قرن على ما حققه اليونانيون من إنجازات، خسر ورثتهم بلاد فارس. ولا عجب في ذلك حقاً إذ أن عددهم كان، من دون شك، أقل من أن يمكّنهم، على الأمد البعيد، من السيطرة على المساحات الشاسعة التي وقعت في قبضتهم. بيد أن ذلك يصحّ أيضاً بالنسبة للعرب الذين حققوا قدراً أكبر من النجاح والذين تمكّنوا بالأخص من أن يتركوا لخلفائهم شعوراً بالاستمرارية يشار إليه باسم الإسلام.

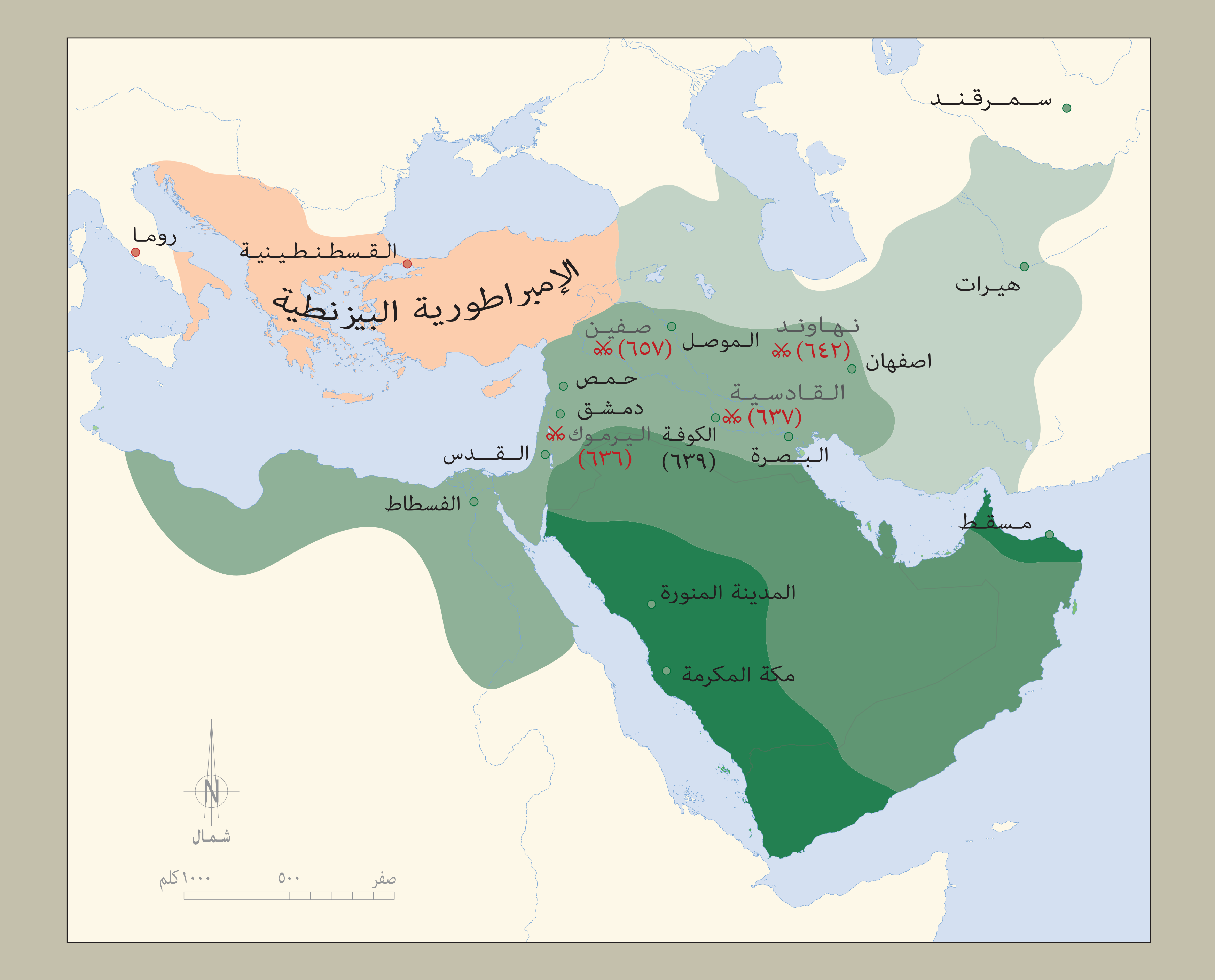
شهدت الغزوات البربرية في أوروبا، مثلها مثل الفتوحات المقدونية، ذوبانَ الشعوب المنتصرة وسطَ الشعوب المهزومة وتبنيها، على وجه الإجمال، اللغات الرومية والديانة المسيحية. وللوهلة الأولى، بدا العرب وكأنهم سيشهدون المصير ذاته، ولكن ذلك لم يحصل. فالعرب روّضوا مغلوبيهم وهَدَوْهم إلى دين جديد وحتى إلى حضارات جديدة. فهل لهذا التأكيد أساس من الصحة؟ وهل شكلت الفتوحات العربية نسقاً مبتكراً في التاريخ البشري لا بل حالة تاريخية فريدة؟

وقائع الفتح

ارتبطت حروب الفتح الإسلامي ارتباطاً وثيقاً بحياة النبي وببدايات الإسلام. ولا يمكن، في الواقع، الفصل إطلاقاً بين حروب النبي وبين الفتوحات الإسلامية التي تلت وفاته (٦٣٢م). فالبداية كانت في العام ٦٢٢م، عندما أجبر النبي محمد على الرحيل عن مدينته مكة حيث كان قد بدأ ينشر الكلمة قبل عشر سنوات خلت، ولكنه اصطدم فيها بمعارضة غالبية السكان، ممّا اضطره للـهجرة

خريطة الفتوحات العربية

- في زمن محمد
- في عهد أبو بكر (٦٣٢-٦٣٤)
- في عهد عمر (٦٣٤-٦٤٤)
- في عهد عثمان (٦٤٤-٦٥٦)
- معركة مصيرية



06 CP_p100-107 BAT AR2.indd 100-101 06/08/10 10:00

إلى المدينة، التي اعتنقت فيها القبيلتان الرئيستان الدين الجديد وفتحتا له أبواب المدينة. وسرعان ما حارب النبي محمد، بدعم من أهل المدينة وبمساعدة المهاجرين المكيّين الذين كانوا قد تبعوه، أهل مكة «الكافرة». وقد شهدت هذه الحرب إنزال جميع الآيات القرآنية الخاصة بالجهاد.

وبعد كرّ وفرّ، استطاع النبي محمد أن يكسب تلك الحرب، فاعتنق أهل مكة الإسلام واستمرت وجهة الحج، الذي بات إلزامياً مرة واحدة على الأقل في حياة كل مؤمن، كمركز للإيمان الجديد. وينبغي بالأخص الإحاطة بأن خصوم الرسول السابقين والبواسل من أهل مكة، ولا سيما جماعة الأمويين التي كانت قد قادت مقاومة المدينة في وجه الإسلام، تمكّنوا سريعًا من شغل مناصب قيادية مهمة على رأس الدولة الجديدة التي ضمت كلاً من مكة والمدينة وقبائل وسط شبه الجزيرة العربية وغربها. وهكذا، فقد اختتم الجهاد الأول بمصالحة وبتوسيع دولة الإسلام.

وفيما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينشر الدين الإسلامي على ما تبقّى من شبه الجزيرة العربية، بدأ في الوقت ذاته حملاته الأولى باتجاه الشمال. وعند وفاته في العام ٦٣٢م، لم تكن بعد الدولة الإسلامية، على الرغم من توسعها، قد تجاوزت حدود الشعوب العربية.

الفتوحات : الموجة الأولى

وافت المنية النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة صباح الثامن من حزيران/يونيه ٦٣٢م. وما من مبالغة في القول أن مصير الإسلام، ومعه مصير جزء من العالم، تقرّر ذلك اليوم. فما أن انتشر الخبر حتى اجتمع المسلمون، وتمخضت مناقشاتهم عن تعيين خليفة للرسول. وكان أول الخلفاء أحد المهاجرين المكّيين، وأعزّ أصدقاء الرسول، أي أبا بكر (٦٣٢م–٦٣٤م).

وأدى ذلك إلى إرساء تقليد أصبح فيما بعد قاعدة تنص على أن خليفة الرسول، رئيس دولة الإسلام، لا يمكنه أن يكون إلاّ من مكّة ومن قبيلة الرسول، قريش. وعلى مدى العصور الوسطى، لم يتمكن أي عربي آخر، والأهم من ذلك، أي من المسلمين غير العرب الذين تزايدت أعدادهم سريعاً ليصبحوا الأكثرية في الإسلام، من الارتقاء لهذا المنصب. وبالتالي، فإن أحداث ذلك اليوم ثبتت الإسلام في تربته العربية الأصيلة. ولكن الاستياء الناجم عن الهيمنة المكيّة تمخض عن ثورات موضعية شهدها شرق شبه الجزيرة العربية وجنوبها عند وفاة الرسول. وقاد بعض هذه الثورات «أنبياء كذبة»، ولكنها أجمعت كلها على قاسم مشترك واحد هو رفض الزكاة، أي رفض الدولة الإسلامية.

وبالعكس، فقد بقيت الحجاز والمدينة ومكة وفية لأبي بكر الذي لم يظهر ضعفاً في تحطيمه لتلك الثورات، التي تشير إليها النصوص بلفظ «الردّة». والفتوحات هي التي حوّلت خضوعَ جزء كبير من العرب إلى انخراطٍ حماسي في الديانة الجديدة.

عند وفاة أبي بكر، الذي خلفه عمر (٦٣٤م–٦٤٤م)، لم تكن وحدة العرب قد اكتملت. فخارج حدود شبه الجزيرة العربية، في المناطق الواقعة حالياً في الأردن وسوريا والعراق، تعيش شعوب عربية عدة. والشرق الأوسط الذي سعت الفتوحات العربية إلى التوسع فيه كان متقاسماً بين الإمبراطورية الرومية الشرقية وبلاد الفرس. وقد تأصلت جذورهما بشكل أدّى إلى سقوط الحضارات السابقة في غياهب النسيان. فلقرون خلت، ما عاد المرء يقرأ النصوص الهيروغليفية المحفورة في معابد مصر، أو الخطوط المسمارية المخطوطة على لوحات بلاد ما بين النهرين، أو النقوش الصخرية الإيرانية. إذ إن هاتين الإمبراطوريتين المتواجهتين على الدوام في حرب كامنة أو مفتوحة، كانتا، منذ القرن الرابع، تشغلان مواقع أمامية عربية. لذا فقد وضع الـفتح الإسـلامي نصب أعينه على هذه

الممالك العربية الحامية للحدود البيزنطية والفارسية، وذلك منذ العامين ٦٣٤م-٦٣٥م. وسرعان ما سقطت هذه الممالك في قبضة المسلمين من دون نزاع، وانضمت شعوبها سريعاً إلى المغامرة الكبرى التي جاءهم بها إخوانهم العرب الآتون من الجزيرة. وقد شـنت الـغزوات ضدّ العدوين في آن معاً، فشهـدت الـفـترة ٦٣٤م–٦٣٦م تـطورات مـصيرية، ففي اليـرموك، سـبق النـصر على البيزنطيين احتلال سوريا (٦٣٤م-٦٣٨م)؛ وفي القادسية احتل العرب العراق بعد نصر أكبر عظمة من النصر الأول، في عام ٦٣٦م. وإلى الغرب، تمكن عمر بن العاص من فتح مصر، بعد أن كان قد فتح سوريا (٦٤٠م–٦٤٢م). ووصلت أولى الغزوات العربية إلى قبرص وتونس في العام ذاته (٦٤٧م). أمّا إلى الشرق، فقد واصل العرب، أسياد العراق، تقدّمهم باتجاه السهوب الإيرانية بعد نصرهم في نهاوند (٦٤٢م). وسقط آخر الأباطرة الفرس الساسانيين عام ٦٥٢م في شمال شرق إيران.



مخيم عرفات، صورة التقطها صديق بيه، باريس، مكتبة المعهد الفرنسي، ركن شلمبرجيه

الموجة الأولى من الفتوحات

استقرت أعداد كبيرة من العرب المنتصرين في هذه الأراضي الجديدة التي وفّرت لهم الغذاء الوفير. وأياً كان عدد العرب النازحين من الجزيرة نتيجة للفتوحات – انخفض عدد سكان الجزيرة حينئذ بحوالي النصف في غضون جيلين من الزمن –، فالفاتحون بقوا، على الرغم من ذلك، يشكلون أقلية في وسط جحافل الشعوب الخاضعة لهم. فتجمّعوا ضمن خطط شاسعة أشير إليها باسم الأمصار، ليراقبوا ما يحصل في البلاد، ومن هذه الأمصار: الكوفة في وسط العراق، والبصرة في جنوبه، وحمص وقنسرين بحلب في سوريا، والفسطاط في مصر. ومن هذه الأمصار، تمخضت عدة مدن كبرى اشتهرت في الإسلام: فالكوفة مهدت الطريق إلى بغداد التي تأسست عام ٧٦٢م. وضمت الـقاهرة الـفسطاط إلـيها بعد الـعام ٩٧٠م، فيمـا جـاءت حلب لتحل مـحل قـنسرين في القرنين التاسع والعاشر.

بيد أن موجة التوسع الأولى هذه توقفت، على الأقل بين العامين ٦٥٦م و٦٦١م، نتيجة لأولى الحروب الأهلية المسلمة. فانضمام قريش إلى الدولة الإسلامية أهّلهم سريعاً للعب الدور الأساسي في إدارة شؤونها. وبفضل مواهبهم العسكرية واتساع نطاق تحالفاتهم، تمكنوا من قيادة الفتوحات، لا سيما في سوريا ومصر. وهكذا، فقد استطاع الأمويون، وهم الجماعة المهيمنة في قريش، أن يترأسوا مجتمعاً دينياً وإمبراطورية إسلامية بعد أن كانوا في البداية قد قاوموا نشأتها، مثيرين بالتالي سخط المهتدين الأوائل من أهل المدينة وشرق شبه الجزيرة العربية الذين دعموا، خلال الحرب الأهلية، ابن عم النبي وصهره، علي، ضدّ معاوية الأموي. وواصل مناصرو علي، قبل وفاته ولا سيما بعدها، يبايعون سلالته، التي هي أيضاً سلالة الرسول، فكانت تلك بداية الشيعة.

وسرعان ما تابع الأمويون الفتوحات واستكملوها. ففي العام ٦٧٠م، أسس معاوية مخيمين عسكريين في كل من القيروان شمال أفريقيا، وفي مرو الواقعة على ضفاف نهر أمودريا ليبدأ منهما حملتي ضم المغرب العربي ومنطقة ما وراء النهر، أي آسيا الوسطى. ولم يكن أي من الفتحين سهلاً. ففي المغرب، وبعد نجاحات عديدة، هُزم حاكم القيروان عقبة بن نافع، وقتل على يد البربر في العام ٦٨٣م. ولم يتمكن الشرق، حيث استعرت الحرب الأهلية بين الأمويين وأعدائهم، من إرسال التعزيزات سوى في العام ٦٩٥م. وعندئذ سقطت قرطاجة عام (٦٩٨م) وتلاشى الوجود البيزنطي؛ وفي العام ٧٠٢م، دُحر المقاومون البربر في الأوراس. وفي العام ٧١٠م، بلغت طلائع الجيش العربي ساحل الأطلسي. ونتيجة نشوب حرب أهلية في اسبانيا عام ٧١١م، عبر المسلمون المضيق واحتلوا شـبه الـجزيرة الأيـبـيـرية بعد أن هـزموا القوط الغربيين في معارك قليلة، وبلغوا مدينة نـاربون عام ٧٢١م.

وفي الشرق أيضاً، لم تبدأ حملة فتح بلاد ما بعد النهر سوى عام ٦٩٥م لتنتهي في الفترة ٧١١م-٧١٣م. ولكن هذه النجاحات كانت الأخيرة. والمثال الأنسب عن حدث يجسّد الانقلاب الأكبر في موازين القوى العسكرية هو توقف العرب على أبواب القسطنطينية في العامين ٧١٧م–٧١٨م. ولم يكن هذا أول هجوم ضد العاصمة البيزنطية، فمعاوية اختبر دفاعاتها كل عام بين العامين ٦٧٤م و٦٧٨م، ولكن هذا الهجوم كان الأخير الذي شنته جيوش مسلمة قبل هجوم العثمانيين عامي ١٤٥٢م-١٤٥٣م. وقد تكرر هذا الوضع في معركة تور وبواتييه. وقد شهد العام ٧٥٠م سقوط الأمويين. وقد تمكن خلفاؤهم العباسيون من رفع مكانة الإسلام الثقافية إلى أوجها، بيد أنهم لم يتمكنوا من توسيع حدودها بل اكتفوا بالدفاع عنها طوال ثلاثة قرون من الزمن. وبدافع من شعوب مسلمة جديدة، أي البربر في الغرب، ولا سيما الأتراك في الشرق، عـادت الفتوحات إلى الواجهة في أواسط القرن الحادي عشر.

بعض المشاكل

أول الأسئلة يتعلق، من دون شك، بأسباب النجاحات العسكرية الهائلة التي حققها الإسلام، وهي نجاحات يصعب تفسيرها من الناحية الشكلية. فالإمبراطورية البيزنطية (أو الرومية الشرقية)، الممتدة على جزء من إيطاليا وصقلية والبلقان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وتونس، كانت تعدّ ما بين ٢٠ و٢٥ مليون نسمة؛ وبلاد الفرس الساسانيين، أي العراق وإيران وآسيا الوسطى فكانت تضم حوالى ١٢ مليون نسمة. وهذا يعني أن ما يتراوح بين ٣٠ و٣٥ مليون شخص كان يواجه بضع مئات الآلاف من سكان شبه الجزيرة العربية – أقل بكثير من مليون شخص في أفضل الاحتمالات. فكيف استطاع الـفاتحون الـمسلمون أن يـقلبوا مـيزان القوى الديموغرافية هذا الـذي لم يكـن في صالحهم إطلاقاً؟

إمبراطوريات في طور الزوال

لنفهم ما حصل، حاولنا أن نسبر عدداً من التفسيرات: أياً كانت نسبة انعدام التوازن الديموغرافي، فقد كان الـعالم الذي هاجـمه الـمسلمون من دون شـك سقـيماً، وذلـك مـنذ قـرون عـدة. ففي الإمبراطورية البيزنطية، كان عدد السكان يشهد تراجعاً بطيئاً ومنتظماً، وقد تسارع هذا التراجع بشكل ملحوظ نتيجة للطاعون في القرنين السادس والثامن. وقد أدى تراجع المجتمعات الحضرية وانكماش التبادلات إلى نزوح نحو الأرياف في المجتمعات الغربية أثناء القرون الوسطى العالية. ولم يؤدّ هذا الانكماش إلى تخفيض الموارد البشرية في الإمبراطورية فحسب، بل إنه دفع الأقاليم التي تتكون منها الإمبراطورية إلى الانغلاق على ذاتها. وعلى الرغم من الشعور الراسخ بالانتماء إلى «روما»، فقد تسارعت الاستقلاليات الإقليمية بين القرنين الرابع والسابع، مما أدى إلى إضعاف أواصر التضامن بين المناطق في وجه خطر محتمل.

لا يتوافر الكثير من المعلومات بشأن التطورات الاقتصادية والديموغرافية التي شهدها العالم البيزنطي، أما تلك المتوافرة بالنسبة إلى الإمبراطورية الفارسية فأقل من الأولى. وعلى الأرجح، استناداً إلى موقع العاصمة الساسانية، تسيفون، على قاب قوسين من بغداد، وحتى في وقت لاحق – تاريخ إيران الإسلامي –، يتضح أن الإقليمين الأكثر ديناميكية في الإمبراطورية هما الطرف الغربي منها – أي العراق اليوم – وشمال شرق إيران : خراسان. وفي الحالتين، كان الإقليمان الأكثر ثراءً،

أي العراق وسوريا، هما الأقرب من شبه الجزيرة العربية والأكثر تشبعاً بجماعات سكانية عربية استقبلت بسرور الفاتحين المسلمين، كما كانـا أول من خـضع لـلمسلمين. ويمـكن لهـذا الـوضع أن يفسر نجاح الفتح، ولكنه يفسّر بالأخص صعوبة شن هجمات معاكسة انطلاقاً من الأقاليم التي بقيت خاضعة للفرس والبيزنطيين، والتي كانت تتسم بكثافة سكانية دنيا وازدهار أدنى.



قنطرة قصر طاق كسرى في قطسيفون (العراق)،
القرن السادس، من تصوير ديولافوا (Dieulafoy)، قبل العام ١٨٨٨

التفككات الدينية العرقية

جرى منذ وقت طويل تسليط الضوء على سبب آخر أدى إلى الفتح العربي، وهو المقاومة التي واجهها النظام الحاكم، فارسي كان أو رومي–بيزنطي، في الأقاليم التي كانت تستعد للخضوع للهيمنة العربية. ولطالما تفاقمت هذه المقاومة نتيجة للتراجع الديموغرافي في منطقة حوض البحر المتوسط، ولانكفاء المجتمع الريفي على ذاته. وتبرز هذه المقاومة في الناحيتين الدينية واللغوية. ففي الإمبراطورية الفارسية، وقفت بلاد ما بين النهرين، ذات اللغة السامية، في وجه الأقاليم الإيرانية التي تهيمن عليها اللغات الهندية–الأوروبية، أصل اللغات الكردية أو الفارسية اليوم. وترافق هذا الاختلاف اللغوي منذ القرن الثالث الميلادي مع خيارات دينية متميّزة. فلو بدا أن الأقاليم الإيرانية تميل إلى الوفاء، بشكل أكبر، للديانة الزردتشية القديمة والتي جعل منها الساسانيون دين دولتهم، فقد انتشر في بلاد ما بين النهرين الدين المسيحي، بصيغته النسطورية، والدين المانوي[1]. ولا يبدو، على أية حالة، أن الفاتحين المسلمين واجهوا أية مقاومة لدى شعوب بلاد ما بين النهرين.

وكان الوضع مماثلاً في الإمبراطورية البيزنطية، فمصر القبطية وسوريا ذات اللغة السامية قاومتا سيطرة اللغة الإغريقية التي أرادت القسطنطينية فرضها على العقيدة المسيحية، في إطار دعمها لمبدأ «الجوهر الواحد» أو النسطورية. ومجرد القدرة على الحديث عن كنيسة مصرية أو كنيسة سورية يتسم بدلالة راسخة حول إعادة تجدد اللغات، أو على الأقل حول كتابة اللغات المحلية، القبطية في مصر والسريانية في سوريا، وهي مرتبطة بتوسع المسيحية ونشرها على الصعيد الشعبي ابتداءً من القرنين الثالث والرابع. وجاءت هذه النهضة الثقافية على حساب اللغة الإغريقية، لغة الإمبراطورية، وساهمت في إضعاف التماسك بين شعوب الإمبراطورية البيزنطية. وتقترب اللغة العربية، وهي سامية، بشكل كبير من اللغة السريانية، وبالتالي فلا شك أن تعريب سوريا، منذ بدايات الإسلام، قد سبق نشر الإسلام في البلاد[2].

الضريبة والحروب

في النهاية، سنتطرق إلى سبب أخير قد يفسر نجاح الفتح، وحتى الاهتداء إلى الإسلام في الأجيال التي تلت، وهذا السبب هو الضريبة. فالشعوب كانت بلا شك أكثر استعداداً لمقايضة الهيمنة اليونانية والفارسية بالهيمنة العربية نظراً للانخفاض الحاد في الضرائب المفروضة. وفي الواقع، فإننا مع هذه الحجة الأخيرة نتطرق لاختصاصات التنظيم الإداري الإمبراطوري من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى، وبالتالي إلى الأسباب الجوهرية الكامنة وراء النجاح الذي حققه العرب. فالإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية دولتان، أي أنهما نظامان سياسيان يفرضان دفع الضرائب على شعوب خاضعة وغير مسلحة. فالضريبة هي التي تتيح تركيز الثروات في العاصمة، وبالتالي تقسيم العمل وتنويع الأنشطة الحضرية، التي تشكل مصدر مكاسب إنتاجية بطيئة وأحد أشكال

١. المانوية فلسفة ثنائية مستوحاة، في الوقت ذاته، من الزردتشية التي أخذت منها انقسام العالم بين نور وظلام، ومن المسيحية التي استوحت منها موضوع عذاب المرسلين وموتهم، فالنبي ماني توفي في سجن ساساني.

٢. تعريب البلاد بات اليوم شبه كامل: فالأقلية المسيحية المتواجدة في سوريا مكوّنة، في غالبيتها العظمى، من متحدثين باللغة العربية.

تجميع رؤوس المال البسيطة. ولكن، كما أثبته المؤرخ العظيم ابن خلدون، الذي كان بلا شك أول من استوعب هذه الآلية، فإن على الدولة أن تنزع السلاح من أيدي رعاياها لإجبارهم على سداد ضريبة قد يرفضون دفعها لو كانوا مسلحين. لذا، فإن جيوش الدولة تتكوّن، بطبيعتها، من مهنيين محترفين، أي من جنود ومحاربين يتقاضون أجرهم بفضل ما يجري جمعه من ضرائب. ومبدأ الدولة الإمبراطورية، سواء كانت رومانية أو فارسية أو بيزنطية أو، في وقت لاحق، إسلامية، يتناقض كلياً مع مبدأ جيش التجنيد.

وفي المقابل، كان عرب القرن السابع يجهلون مبدأ الدولة والضرائب والمدن وثروتها النسبية: فما من جيش أو شرطة أو عدالة أو إجراءات للحبوب. والضمانة الوحيدة ضدّ الاعتداءات أو ضدّ الجوع كانت تتمثل في التضامن الطبيعي بين العشائر والعائلات. وهذا التنظيم التضامني هو الذي حقق المستحيلات في ساحات المعارك، وذلك لسببين، أولهما أن الجميع حارب حتى ولو افتقروا إلى الأسلحة، في حين أن مهمة القتال، في عالم الدولة، منوطة بعدد قليل من الأخصائيين المكلفين والذين يكونون بالتالي من القلائل. فلحماية سكان الإمبراطورية البيزنطية الذين تراوحت أعدادهم بين ٢٠ و٢٥ مليون نسمة، لم يكن لـدى الإمبراطورية أكثر من ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف جندي[٣]. ويـقال إن الإمبراطورية الفارسية حشدت ثلاثين ألف رجل للقتال في معركة القادسية عام (٦٣٦م). أمّا العرب، فكانت لديهم قوات موازية عدداً: ما بين ثلاثين وأربعين ألف مقاتل في اليرموك، وما بين اثني عشر وخمسة عشر ألفاً في القادسية، أي بمجموع يناهز مئة ألف رجل من أصل عدد سكان قد يصل إلى ٥٠٠ ألف نسمة[٤].

وتؤدي أحكام التضامن العشائري التي تخضع لها المجتمعات البدوية إلى انغلاق هذه العشائر ضمن مجموعات صغيرة جداً لا يتجاوز عددها بضع مئات من الأفراد، فلا تشكل بالتالي أي خطر على العديد من الإمبراطوريات. وتلزم ظروف استثنائية – نداء ديني، أو قائد استثنائي، أو انعدام توازن ناتج عن أحداث ديموغرافية لصالح فريق، مما يتيح له فرض هيمنته على الآخرين – ليتسع نطاق هذه التضامنات المعدّة لبضع مئات من الأفراد (ما يشير إليه علماء الإنسان بكلمة القبيلة) فتشمل آلاف أو عشرات الآلاف من المقاتلين (العرب، والمغول قبلهم...).

نهاية الفتوحات

نشير أيضاً إلى أن نوعية الأسلحة وعلوم القتال تخدم مصالح الإمبراطوريات. فقد أدت هذه الأمور دوراً جـوهرياً في الفشل الكبير الذي شـهدته الـفتوحات العربية على أبـواب القسطنطينية في العامين ٧١٧م–٧١٨م. فأسوار المدينة، ولا سيما النار اليونانية وتألق البحرية البيزنطية، أفشلت الهجوم العربي. وفي تلك الحقبة، كانت الحرب البحرية تستلزم دراية تقنية متقدّمة لا يملكها العرب. لذا فإن المسلمين لم يهيمنوا على البحر المتوسط سوى لفترة قصيرة جداً بين القرنين التاسع والحادي عشر، ما بين نهاية السيطرة البيزنطية وبـداية الهيمنة الإيـطالية. وقد احـتاجوا إلى أكثر من قرنين من الزمن ليتمكنوا من منافسة بيزنطية في هذا الميدان.

وعلى أية حال، فقد كان ذلك أحد أسباب انهيار النظام الضريبي على مدى بضعة أجيال في الشرق الخاضع لهيمنة العرب. وقد أدى انعدام التنظيم دوراً في ذلك. فضريبة الدول ترتبط في الحقيقة وبشكل رئيسي بضرورة تغطية رواتب الجيش. بيد أن الجيش العربي لم يكن مأجوراً أو أنه كان على الأقل قادراً على تقاضي أجره بسهولة في البلدان المفتوحة. ولكن هذا الوضع ما كان ليدوم، ففي بداية القرن الثامن وحكم الخليفة الأموي عبدالمالك (٦٨٥م–٧٠٥م)، أعادت الإمبراطورية العربية الجديدة ترتيب النظام الضريبي بما يخدم مصالحها، نتيجة لتراجع شعبية التطوع العسكري في صفوف العرب، واضطرار الدولة بالتالي إلى الاستعانة بالجيوش المنظمة.

٣. كانوا منتشرين على الجبهة الشرقية وجبهة البلقان – التي انهارت أمام هجوم الشعوب السلافية في بداية القرن السابع.

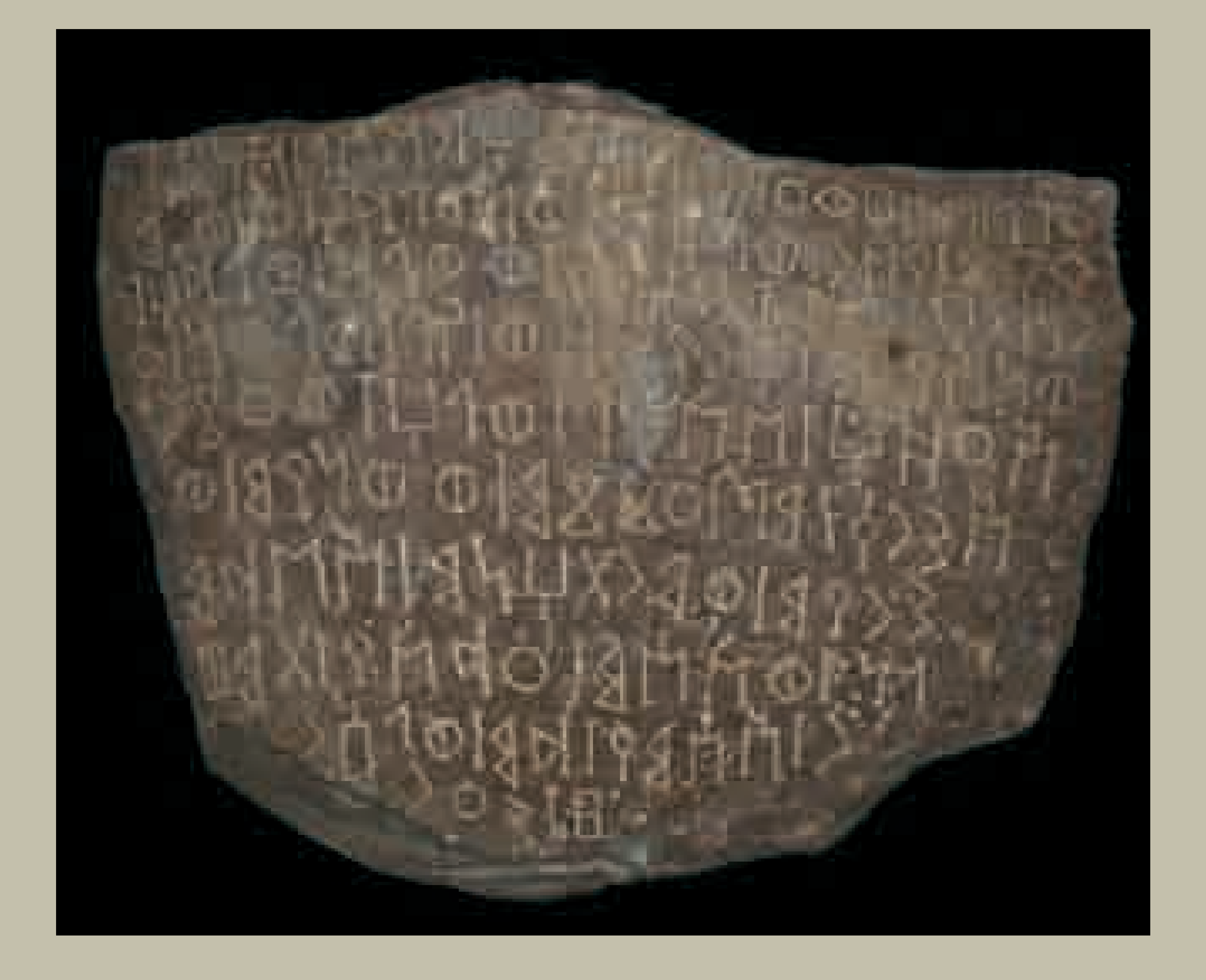
٤. للمعلومات بشأن عدد الجيوش العربية، وبوجه أكثر عموماً لتحليل دقيق ومتأنٍّ للفتوحات، أنظر «دونر»، ١٩٨١م.



صورة جوية للمسجد الأموي في دمشق، ٧٠٦–٧١٥

ويمثل ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى توقف الفتوحات. ويمكن للمرء أن يستذكر الأسباب الجلية لذلك: أي عدد العرب الإجمالي الضئيل جداً، والمسافات البعيدة التي تفصلهم عن مسارح العمليات في المغرب وإسبانيا وآسيا الوسطى. ويضاف إلى ذلك درجة مقاومة الخصوم، لا سيما عندما يعتمدون التنظيم المجتمعي ذاته كالعرب، أي غياب الدولة: كالأتراك في آسيا الوسطى، الذين فرضوا حداً للفتح العربي منذ أواسط القرن الثامن أو البربر في المغرب. وفي الواقع، فإن بُعد المسافة لا يشكل دائماً العنصر الأساسي: فاحتلال المغرب العربي كان أصعب (بين ٦٧٠م و٧١٠م) من احتلال إسبانيا، الذي استغرق عشر سنوات فقط (٧١١م–٧٢١م) – مع العلم أن خسارة المغرب كانت سريعة أيضاً.

بيد أنه ينبغي أن نضيف إلى هذه الأسباب كلها توطّن المجتمع العربي بحد ذاته. فبعد أن غزا العرب مملكتين، سارعوا إلى تبني عاداتهما، لا سيما بشأن الجيوش الفاتحة. ومنذ القرن الثامن، لم تعد الجيوش العربية «عربيةً» بحق، بل غلب فيها البربر أو الفرس مثلاً. وفضلاً عن ذلك، فإن الدولة الإسلامية شجعت هذا التطور في إطار سعيها إلى نزع السلاح من أيدي رعاياها، مثلها في ذلك مثل كافة الدول الأخرى.



اللغات والكتابات

أ. د. كريستيان جوليان روبين

نقش جنائزي
وبالخط العربي الجنوبي (نهاية القرن الاول قبل الميلاد)
قرية الفاو (د. المعرض ١٣٠)

تشتهر بلاد العرب القديمة أولاً بوثائقها المنقوشة، أي تلك النصوص المخطوطة على مواد دائمة كالحجر والبرونز وحتى الخشب، عند توافر الظروف المناخية الملائمة لذلك. ولهذه المنقوشات دائماً غرض عملي. فبعضها، المصنوع بعناية فائقة، مخصص للعرض، فهو يسجل في الذاكرة تنفيذ شعائر معيّنة أو استكمال عمل ما، أو يعيّن حقوقاً أو حدوداً، أو ينص على قواعد معمول بها، أو يستنسخ تعاويذ واقية، أو يذكر اسم شاغل أحد الأضرحة، وإلى ذلك من أغراض. أمّا بعضها الآخر، المستخدم لأغراض خاصة والمحفور على عيدان من الخشب، فهو كناية عن مراسلات وعقود وقوائم. ولم تصلنا أية مؤلفات أدبية (قصص تأسيسية، حوليات تاريخية، أناشيد دينية، حكايات ذات عبرة، مجموعات من القواعد، أشعار، إلخ)، أو تقنية (في ميدان الزراعة أو المعمار أو التعدين أو تدبير شؤون المياه، إلخ)، باستثناء أشعار الجاهلية المؤلفة في القرن السادس ميلادي. وبالتالي، فإننا نجهل كلياً نظرة العرب القدماء لأنفسهم. ومن غير المؤكد أن مثل تلك النصوص توافرت يوماً ما.

ولا تتضمن المصادر الخارجية المعاصرة (في اللغات الكلاسيكية الرئيسية والشرقية) أو السابقة لتلك الفترة سوى القليل من المعلومات بشأن اللغات والكتابات. وفي غالب الأحيان، لا يتعدّى الأمر مجرد ذكر لأحد التعابير التقنية أو مجرد إشارة ضمنية إلى استخدام لغة غير اعتيادية. وبهذا الشكل، سجّل الباحث الموسوعي الروماني «بلينوس» (الذي وافته المنية عام ٧٩ فيما كان يحاول نجدة أحد أصدقائه خلال انفجار البركان «فيزوف») التسمية المستخدمة للإشارة إلى مَوْسِمَيْ البخور باللغة السبئية كرفياتوم وداتياتوم، ومن الواضح أن هاتين الكلمتين مستمدّتان من كلمتي الخريف للدلالة على فصل الخريف (كرفي) ودثاء للدلالة على فصل الربيع. ويوفر لنا أحد المصادر السريانية العائدة إلى القرن السادس مثالاً آخر يستذكر وثيقة كتبت باللغة «النجرانية».

أمّا التقليد العربي الإسلامي فأغنى بقليل ممّا قبله، حتى ولو كان نطاق منظوره بالكاد يمتد ليشمل خمسينيات القرن السادس ميلادي. وهو يهتم قبل كل شيء باللغات المحكية العربية المنتشرة في غرب بلاد العرب ووسطها، لاسيما عندما يشوبها بعض الشذوذ. ولم تلفت الكتابات الأثرية القديمة انتباه المسلمين، سوى في اليمن حيث حاول فهم عدد من علماء القرنين التاسع والعاشر، الذين كانوا ما زالوا يجيدون قراءة الأبجدية السبئية، أن يفهموها.

بناء على ذلك، فإن الوثائق المنقوشة، التي تشكّل مصدرنا الوحيد تقريباً، تنطوي على مجموعة شديدة التنوع من الأشكال والمحتويات. ويمكننا أن نصنّفها ضمن فئتين رئيسيتين هما: «النصوص المتقنة»

و«الجداريات». ونقصد بعبارة «النصوص المتقنة» تلك النصوص المخطوطة بتأنٍّ والتي تعكس عملاً منهجياً ولو بدرجات متفاوتة في ميدان التقنين الإملائي والإعرابي والكلامي. فتكون هذه النصوص محرّرة ومنفّذة بواسطة محترفين يتبعون في الغالب لمؤسسات مستقرة وذات هيكل ثابت، مثل ديوان الحاكم أو المعابد الشديدة الأهمية، التي تكفل تدريب موظفيها. وفي المملكة العربية السعودية، يتوافر عدد مرتفع نسبياً من النصوص المتقنة في منطقتين هما: واحات الشمال الغربي (تيماء ومدائن صالح والعلا) وواحات الجنوب الغربي (نجران وقرية الفاو).

أمّا «الجداريات» فهي النصوص المنقوشة على أي نوع من السطوح الحرة – في الغالب على الصخور، بواسطة أفراد لا يملكون مهارات مميزة، لتخليد ذكرى حدث شخصي (لحظة المرور في مكان ما، سعادة الحظ في الحرب أو الصيد، إلخ) أو للتأكيد على تواجد مستديم وبالتالي على حق الملكية. وتتفاوت نوعية الجداريات بشكل ملموس بناء على الوسط الأصلي لكاتبها: فالبعض يكاد يوازي النصوص المتقنة فيما يبدو البعض الآخر وكأنه لا يتبع أية قاعدة. وتعكس هذه النقوش بشكل أكبر اللغة المحكية وتستخدم فيها كتابة قد تحيد عن المعايير السائدة. وتتسم هذه النصوص بالإيجاز والتلميح وتكاد لا تتضمن سوى أسماء أشخاص وآلهة، لا سيما في الشمال الشرقي. وتتواجد هذه الجداريات بأعداد كبيرة في المملكة العربية السعودية على طول بعض طرق القوافل وفي الأماكن المجاورة للواحات المذكورة أعلاه.

لغات شبه الجزيرة العربية القديمة
أكثر من عشر لغات

بغية وضع قائمة بلغات الجاهلية العربية ومحاولة تصنيفها، يرتكز عملنا بشكل رئيسي على النصوص الرسمية التي يكون محتواها أكثر أهمية من محتوى الجداريات. ولسوء الحظ، فحتى هذه النصوص لا تتيح استقصاءً لغوياً معمّقاً. فالكتابات السامية الأبجدية (وهي الوحيدة المستعملة في شبه الجزيرة العربية) لا تذكر علامات التشكيل ونادراً ما تتضمن أحرف العلة، بحيث أن كلمات شديدة الاختلاف (مثل كلمة مَلَكَ، أو مَلِكْ، أو مالك، أو ملاك، أو مُلْك) تُكتب بالطريقة ذاتها (أي ملك). ويأتي الحدّ الثاني نتيجة لكون كافة نصوصنا ملحقة ببعض الأنواع الأدبية الخاصة جداً (تخليد الذكريات واستذكار الماضي، والنصوص القانونية، والمراسلات)، بحيث أنها لا تقدّم سوى عدد قليل من الأشكال الإعرابية. لذا فإن تعيين السمات المشتركة وأوجه الاختلاف التي ترتكز عليها التصنيفات هو بالتالي عسير ويتضمن مساحات شاسعة من الغموض.

تم التعرف حتى الآن على ثماني لغات مختلفة: ثلاث منها خاصة بالمملكة العربية السعودية (الدادانية والهاجرية والعربية الفصيحة)، واثنتان خاصتان باليمن (القتبانية والحضرمية)، واثنتان يمنيتان انتشرتا في جنوب غرب العربية السعودية (السبئية والمعينية)، بالإضافة إلى لغة سورية عراقية انتشرت أيضاً في الخليج العربي وفي واحات شمال غرب شبه الجزيرة العربية (الآرامية بنوعيها، الآرامية الرسمية والنبطية). وتحمل هذه اللغات أسماء الاقوام التي كانت تتكلم بها.

وإلى هذه اللغات، يجب إضافة خليط من اللهجات المغمورة نظراً لشبه انعدام الوثائق المكتوبة. وتزداد صعوبة التمييز بينها وتحديد مناطق انتشارها نتيجة لكوننا، عند الانتقال من مكان إلى آخر، لا نلاحظ تغييرات مفاجئة في القواعد اللغوية وقواعد الخط، كما يحصل عند الانتقال من بلد إلى آخر، بل ما نشهده هو تواصل ثابت يشوبه عدد من التحوّلات التدريجية. وتعود، على وجه العموم، أسماء هذه اللغات إلى مناطق جغرافية كاللغة الصفائية (نسبة إلى تلول الصفا في سوريا)، والحسمائية (نسبة إلى جبال حسمى الأردنية)، والتيمائية (نسبة إلى واحة تيماء)، لأننا نجهل ما كان اسم الشعوب التي كانت تتكلم بها أو كيف كانت تدعى. والتسمية الثمودية وحدها، التي تشير إلى جداريات غير مصنفة، تشكل الاستثناء: فهي تعود إلى قبيلة ثمود التي عاشت في الجاهلية، والتي نسب إليها البعض، خطأً، جميع الجداريات التي تم اكتشافها بين جنوب سوريا وشمال اليمن. وتستخدم التسميات ذاتها للإشارة إلى الكتابات المطابقة لها.

وتعود لغات شبه الجزيرة العربية القديمة كلها إلى الفصيلة اللغوية ذاتها، أي السامية. وتتألف السامية من عدة فروع: فرع مشرقي في بلاد ما بين النهرين (اللغات الأكّدية والأشورية والبابلية) وقد زال هذا الفرع كلياً؛ وفرع غربي يشمل فئتين، أولاهما في الشمال (منطقة المشرق) مع كل من العبرية والآرامية، فيما انتشرت الفئة الثانية في الجنوب (شبه الجزيرة العربية) مع اللغة العربية؛ وأخيراً الفرع الجنوبي المنتشر جنوبي شبه الجزيرة العربية (لغات جنوب–عربية حديثة) وفي إثيوبيا (لغات سامية إثيوبية). وفي هذا التصنيف، القائم بشكل رئيسي على إعادة تشكيل تطوّر نَسَق الفعل، فيما لا تزال مسائل عديدة قيد المناقشة.

وكون لغات شبه الجزيرة العربية القديمة تنتمي إلى الفصيلة السامية ذاتها لا يعني أنها تتشابه جداً فيما بينها. ففي حين أن البعض منها متقارب بشكل وثيق، تبرز في بعضها الآخر أوجه فرادة عديدة. ويمكن للمرء أن يفترض أن الفهم المتبادل لم يكن عامّاً. ويرتكز هذا الرأي على تحليل هذه اللغات، كما يرتكز أيضاً على الوضع اللغوي المعاصر. ففي يومنا هذا، تحتوي شبه الجزيرة العربية على مجموعتين من اللهجات يستحيل التفاهم المتبادل فيما بينها: وهاتان المجموعتان هما، اللغة العربية ولهجاتها العامية من جهة، التي يمكن الاعتبار أنها صِيَغ متنوعة من اللغة عينها، حتى ولو ان بعض اللهجات المحلية تتضمن حروفاً شديدة الاختلاف؛ ونقصد من جهة ثانية اللغات الجنوب–عربية الحديثة المحكية في اليمن (السقطرية والمهرية والهبيوت) وفي عُمان (الجبالية والبثارية والحرصوصية). وتكمن عواقب الفهم المتبادل على الأخص في الصوتيات وعلم الصرف وعلم النحو والمصطلحات اللغوية. ويمكن لبعض الأمثلة أن تتيح فهماً أفضل لهذا الوضع.

ان لغات جنوب شبه الجزيرة العربية الحديثة تحتوي على أحرف صامتة جانبية غير معروفة في اللغة العربية. وتُلفظ الأحرف المفخّمة لفظاً مزردماً في حين أنها لهوية في اللغة العربية. ولا تتوافر فيها علامة التعريف فيما تنطوي اللغة العربية على «الـ» التعريف. ويتم تصريف الفعل في المضارع بإضافة حرف علة بعد الحرف الصامت الأول ('إكوتب' للضمير الغائب المذكر المفرد) فيما لا يضاف حرف العلة هذا إلى الفعل في اللغة العربية ('يكتب'). وأخيراً، فإن الكلمات الأكثر شيوعاً تتكوّن على أساس جذور مختلفة كلياً عن تلك التي تعتمدها اللغة العربية بل وجميع اللغات السامية الشرقية والغربية أيضاً، وعلى سبيل المثال ريهو للإشارة إلى الماء، وفرهين بدلاً من بنت.

وتنتمي مجموعة اللغات السامية إلى مجموعة أوسع نطاقاً تدعى «اللغات الحامية السامية» (أو «الأفريقية الآسيوية في علم المصطلحات الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية)، وتتضمن هذه المجموعة أيضاً اللغة المصرية القديمة، واللغة الكوشية (في القرن الأفريقي)، والبربرية في شمال أفريقيا، واللغات التشادية في أفريقيا الوسطى. وبالتالي، فلا علاقة لها واضحة مع اللغات الهندية الأوروبية المنتشرة من الهند إلى أوروبا الغربية والتي تشمل السنسكريتية والفارسية واليونانية واللغات السلتية واللغات الجرمانية واللغات السلافية وغيرها. وفي الشرق الأوسط، تتمثل اللغات الهندية الأوروبية باللغة الحثّية.

وحتى مع البيانات الضئيلة المتوافرة لدينا، فمن الواضح أن لغات شبه الجزيرة العربية القديمة تختلف فيما بينها إلى حدّ قد يكون كبيراً. وإذا اعتمدنا كمرجع لنا اللغة الأشيع استخداماً أي اللغة العربية السائدة في القرنين السادس والسابع ميلادي (القرآن وشعر الجاهلية والنقوش العربية في فترة ما قبل الإسلام، والنصوص العربية الإسلامية الأقدم)، والتي يمكننا أن نشير إليها بأنها اللغة العربية القديمة، يمكننا عندئذ أن نميّز أربع درجات من البعد.

لغات قريبة جداً من العربية العتيقة
العربية القديمة

العربية القديمة هي اللغة الأقرب من العربية العتيقة. كما أنها أصلُها المباشر نسبياً (د. المعرض رقم ١٣٠). وهي أحد الأشكال الغابرة للعربية، إذ سبقت ظهور الأبجدية العربية في بداية القرن السادس ميلادي. والعربية القديمة معروفة في عدد قليل من النقوش المكتوبة بالخط الداداني (العلا)، والسبأي (قرية الفاو) والأرامي (عين عفدات ومدائن صالح). والنقوش الأقدم، أي تلك التي عثر عليها في واحة العلا، فتعود بالتأكيد إلى ما قبل القرن

الثالث قبل الميلاد، وقد ترقى إلى القرن الخامس قبل الميلاد. وتتميّز العربية القديمة بأداة الـتعريف من نوع ʼالـʻ (الملتصق بأول الكلمة) وبالفعل المتعدي (وهو مشتق يعني «تنفيذ الفعل بواسطة آخرين») على شكل أفعل. وتتكوّن ضمائره المنفصلة الخاصة بالغائب من الحرف هاء /h/ (هو، هي، هما، هم، هنَّ). وأخيراً، لا تضم هذه اللغة سوى حرفين صافرين هما السين /s/ والشين /sh/. وʼالـʻ التعريف الواردة في العربية القديمة مشتقة من صيغة اساسية: «هان» ومن صفة وسيطة: «هال» (الثابت استخدامها في منطقة نجران وربما في العلا).

اللغة الدادانية

سميّت هذه اللغة بالدادانية نسبة إلى مملكة دادان (ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد) ومملكة لحيان التي تلتها (ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد) (د. المعرض ارقام ١١٩، ١٢٠). وكانت واحة العلا تشكل وسط مملكة دادان، أو ددن باللغة الدادانية، علماً بأنه يمكن تحريك هذا الاسم ليُلفظ دِدَن كما هي الحال في العبرية القديمة، أو دَدان كما هي الحال في اللغة الأكّدية. ومملكة لحيان، التي سمّيت باسم قبيلة شغلت مساحات شاسعة شملت العلا كما يمكن أن تكون قد شملت تيماء، كتبت باللغة ذاتها والخط ذاته: لذا فإنها، من وجهة النظر هذه، تكمّل مملكة دادان. واللغة الدادانية (التي عرفت سابقاً باسم «الددنية» أو «اللحيانية») معروفة بفضل ما يناهز ألفاً من النقوش والمخطوطات التي تم العثور عليها، بشكل رئيسي، في واحة العلا (قلب مملكة دادان القديمة)، وضواحيها. وتطوّرت أداة التعريف من الشكل «هان» إلى «هال» ومن ثَمَّ إلى «أن/أل». ولكن ان تكن الدادانية تنتمي إلى مجموعة اللغات التي ولدت منها العربية، فإنها لا تزال غير مفهومة كلياً.

اللغة الهاجرية

إن عشرات النقوش المكتشفة على الساحل الجنوبي من الخليج العربي، ولا سيما في إقليم الأحساء التابع للمملكة العربية السعودية، وأيضاً في جنوب العراق، تُعتبر على أنها تشكل مجموعة خاصة، لأنها مكتوبة بأحد الأشكال المميّزة من الأبجدية السبئية[١]. ويمكن أن نضيف إليها بعض القطع النقدية التي تحمل اسم «أبي يثأ» (د. المعرض رقم ٢٢٨). أما محتوى هذه النقوش، الواردة كلها على أضرحة، ففقير جداً إذ نجد فيها عدداً قليلاً من الكلمات والأسماء. وأداة التعريف غير ثابتة الا في أسماء الأشخاص وهي «هان».

ويشار إلى هذه النقوش بالأحسائية نسبة إلى اسم الإقليم السعودي التي تم اكتشافها فيه. ولكنه من المفضل تسميتها بالهاجرية نظراً لترجيح نقشها بواسطة سكان مملكة الجرعاء، التي اشتهرت باسمها اليوناني أي «جرها».

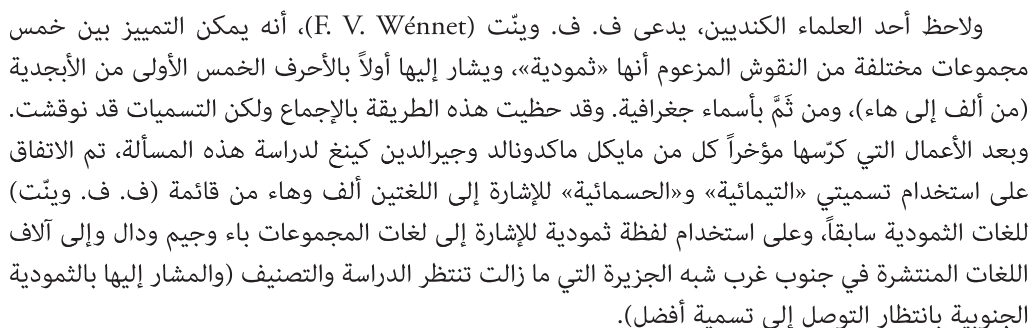
اللغات الصفائية والحسمائية والتيمائية، وسائر اللغات الثمودية

تُعرف لغات الصحراء العربية هذه بفضل وثائق قصيرة جداً وذات اللفظ غير الأكيد في غالب الأحيان، المكوّنة بشكل رئيسي من الأسماء العلم. ونظراً لفقر مضمونها، فقد صُنِّفت هذه الوثائق استناداً إلى مصدرها وإلى الأبجدية المستعملة في كتابتها بدلاً من أن تستند إلى لغة نكاد لا نعرف عنها شيئاً.

والمجموعة الأهمّ والمعروفة أكثر من غيرها هي المجموعة الصفائية، بفضل أكثر من عشرين ألف مخطوطة جدارية مستنسخة في السهول والبوادي بين الشام وشمال الحجاز؛ وتنسب هذه اللغة إلى سلسلة جبلية واقعة في وسط الصحراء السورية – تلول الصفا – التي تم العثور على أولى المخطوطات في مكان يقع إلى الشرق منها. والسمة الأكثر ابتكاراً في الصفائية هي أداة التعريف «ها–».

وتتكاثر أنواع مختلفة من النقوش الجدارية في غرب الجزيرة العربية، من الأردن إلى اليمن. وقد سمّاها عدد من العلماء «ثمودية» نظراً لأنهم اعتبروا أنه من الممكن أن تنسب إلى قبيلة ثمود التي كانت تجوب شمال الحجاز، وبالأخص في منطقة تبوك، في القرون الأولى من الزمن الميلادي. ويبدو أن هذه القبيلة اختفت عشية ظهور الإسلام: فالتقليد لا يعرف عنها شيئاً، ويعتبرها القرآن على أنها من الشعوب التي أبادها الله. وتثور حالياً الشكوك بشأن نسبة هذه النقوش إلى قوم ثمود في حال انعدام الإثباتات، حتى ولو جزئية، أنهم هم الذين نقشوها.

١- Potts، ١٩٩٠، المجلد الثاني، ص. ٦٩-٨٥.



حصاة صفائية مزخرفة برسم بعثة صيد،
القرن الاول الميلادي، باريس، منحف اللوفر، AO 4980

ولاحظ أحد العلماء الكنديين، يدعى ف. ف. وينّت (F. V. Wénnet)، أنه يمكن التمييز بين خمس مجموعات مختلفة من النقوش المزعوم أنها «ثمودية»، ويشار إليها أولاً بالأحرف الخمس الأولى من الأبجدية (من ألف إلى هاء)، ومن ثَمَّ بأسماء جغرافية. وقد حظيت هذه الطريقة بالإجماع ولكن التسميات قد نوقشت. وبعد الأعمال التي كرّسها مؤخراً كل من مايكل ماكدونالد وجيرالدين كينغ لدراسة هذه المسألة، تم الاتفاق على استخدام تسميتي «التيمائية» و«الحسمائية» للإشارة إلى اللغتين ألف وهاء من قائمة (ف. ف. وينّت) للغات الثمودية سابقاً، وعلى استخدام لفظة ثمودية للإشارة إلى لغات المجموعات باء وجيم ودال وإلى آلاف اللغات المنتشرة في جنوب غرب شبه الجزيرة التي ما زالت تنتظر الدراسة والتصنيف (والمشار إليها بالثمودية الجنوبية بانتظار التوصل إلى تسمية أفضل).

واستناداً إلى ما يتوافر من معلومات فإن اللغات الصفائية والحسمائية والتيمائية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللغتين الدادانية والهاجرية. فعندما تتوافر أداة التعريف في لغات الصحراء العربية هذه – يمكن ألاّ يكون متوفراً في بعض اللغات غير المعروفة جيداً –، يكون على شكل هـ (هنـ في اللغتين الدادانية والهاجرية). وتتكوّن ضمائر الغائب باستخدام حرف الهاء /h/ في بدايتها. ويكون الفعل المتعدّي على وزن «أفعل». وفي النهاية، لا تتضمن هذه اللغات سوى حرفين صافرين.

اللغة الحميرية

في اليمن، تبدو لغة قبيلة حمير قريبة جداً، هي أيضاً، من العربية العتيقة. ونحن نعرفها بالأخص بفضل أعمال النحويين العرب من الزمن الإسلامي الذين وصفوا عدداً من خصائصها الفريدة. وقبل الإسلام، لم تكن هذه اللغة مكتوبة ولكن مؤلفي النقوش الحميرية الأحدث (القرنان الخامس والسادس ميلادي) استخدموا العديد من تعابيرها وصيغها.

لغة قريبة نسبياً من العربية العتيقة : السبئية

تختلف اللغة السبئية عن اللغة العربية، ولكن لا شك أن فهمها كان في متناول المتحدثين باللغة العربية. وفي يومنا الحاضر، لا يحتاج الطالب المتحدث باللغة العربية الا لفترة قصيرة من الدرس حتى يتمكن من قراءة النصوص السبئية من الفترة المتوسطة أو الحديثة.

واللغة السبئية هي أقدم وأفخم لغة كانت شائعة في الجزيرة العربية القديمة. وأول نص ذو مضمون غنيّ، يتحدث عن انتصارات الملك يثع أمر وتار، ابن يكرب ملك، يعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. وهو يتضمن أكثر من خمسمئة كلمة.

وقد استخدمت اللغة السبئية كنموذج لجميع اللغات الشائعة في جنوب الجزيرة العربية التي تستخدم تركيب الجُمَل ذاته والأبجدية ذاتها، وإلى حدّ ما، للغات الحجاز وللغة الهاجرية السائدة في الخليج العربي.

والعدد الأكبر من النقوش المتوافرة لدينا مكتوب باللغة السبئية، ويبلغ عددها آلاف النقوش. كما أن آلاف الوثائق المحفوظة والمحفورة على ألواح الخشب هي باللغة السبئية أيضاً. ولهذا السبب، فإن السبئية هي اللغة الأوسع شهرة من لغات الجزيرة العربية القديمة. ويجدر القول إنها اللغة الوحيدة التي نعرفها جيداً.

اللفظ هو السمة الأهم التي تميّز اللغة السبئية عن اللغة العربية. فالسبئية تتضمن ثلاثة حروف صافرة وهي /s/، و/sh/، و/ś/ فيما لا تتضمن العربية سوى اثنين من هذه الأحرف وهما السين /s/ والشين /sh/. أمّا الحرف الثالث /ś/ غير الموجود في اللغة العربية فهو حرف جانبي، يلفظ بنفث الهواء من جانب واحد من اللسان (وليس من الوسط كغيره من الحروف الصامتة). وهذا الحرف ليس خاصاً باللغة السبئية فقط، بل إنه موجود أيضاً في غالبية اللغات الأخرى التي عرفتها مناطق اليمن القديمة، وفي لغة جنوب الجزيرة العربية الحديثة، واللغة العبرية القديمة. وتتألف الأبجدية السبئية مما مجموعه ٢٩ حرفاً من الحروف الصامتة، أي جميع حروف اللغة العربية بالإضافة إلى الحرف /ś/ الصافر المذكور أعلاه.

وفيما يخص علم الصرف وعلم المفردات، تعتبر اللغة السبئية قريبة من اللغة العربية، حتى ولو تميّزت بعدد من الخصائص، مثل موضع أداة التعريف (في السبئية تضاف لفظة «أن» إلى آخر الكلمة، فيما تضاف

«أل» إلى أول الكلمة في اللغة العربية) أو بادئة الفعل المتعدّي («هفعل» في اللغة السبئية، و«أفعل» في اللغة العربية).

وتسمى اللغة السبئية كذلك لأنها نشأت أولاً في المناطق التي شغلتها قبيلة سبأ، أي منطقتي مأرب وصرواح في اليمن. وبعد فتوحات الملكين يثع أمر وتار وكرب إيل وتار (نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع)، انتشرت هذه اللغة في مناطق عديدة، ثم راحت تتراجع أمام اللغات القتبانية والمعينية والحضرمية، إلى أن باتت مقصورة على شمال اليمن وجنوب غرب المملكة العربية السعودية (نجران وقرية الفاو؛ د. المعرض الأرقام ١٢٧، ١٢٨، و١٢٩). وخلال القرن الأول قبل الميلاد، اعتمدتها الجماعات التي قررت الانفصال عن مملكة قتبان، ولا سيما جماعة حمير. وأدّى توحيد جنوب الجزيرة العربية تحت راية حمير إلى جعلها، ابتداءً من العام ٣٠٠ ميلادي، اللغة الوحيدة المؤكدة الاستخدام في اليمن. أمّا في المملكة العربية السعودية، فقد كانت السبئية لغة المناطق الخاضعة لسلطة مملكة حمير، مثل نجد (مأسل)، أو عسير (مريغان) أو نجران.

وخلال هذه الحقبة الأخيرة (من القرن الرابع إلى القرن السادس ميلادي)، تطوّرت اللغة السبئية سريعاً، وشهدت تغييرات جذرية في نحوها ومفرداتها، كنتيجة واضحة لتأثير اللغة الحميرية واللغة العربية. ويبدو أن السبئية ماتت فعلاً، إذ أنها تقتصر فقط على استخدامات رسمية وعلمية لا يجيدها سوى عدد قليل من الأشخاص بدرجات متفاوتة.

لغات مختلفة عن العربية القديمة في جنوب شبه الجزيرة

اللغة المعينية

على طول وادي مذاب، في منطقة الجوف اليمنية، استعملت خمس ممالك صغيرة (نشان، وكمنهو، وهرم، وإنابة، وأهمها معين) اللغة المعينية, وخلـّفوا وراءهم آلاف الكتابات التي تعود إلى الفترة الممتدة من القرن الثامن قبل الميلاد (بداية حضارة جنوب الجزيرة) إلى القرن الأول قبل الميلاد.

وتبرز اللغة المعينية أيضاً في عشرات النصوص المكتشفة بالمملكة العربية السعودية ونجران وقرية الفاو (د. المعرض الرقمان ١٣٥ و١٣٦) والعلا. وفي قرية الفاو، بقيت اللغة المعينية طوال قرون عدة، من زمن الإغريق وربما حتى نهاية الحقبة الفارسية (نحو القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد)، هي لغة الواحة في تنافس مع العربية القديمة، قبل أن تحل محلها اللغة السبئية. ويمكن للمرء أن يفترض أن مملكة معين كانت ذات نفوذ واضح في التحالف التجاري الأهداف الذي كان يجمع بين العديد من قبائل غرب الجزيرة العربية. ويجوز أن يصح ذلك أيضاً بالنسبة الى نجران، حيث تم العثور على نقش خطّه أحد المعينيين.

ويختلف الوضع بالنسبة الى العلا، ففي الواحة التي كانت في ذلك الوقت عاصمة مملكة لحيان كانت تعيش جماعة صغيرة من المعينيين المتمتعين بدرجة عالية من الاستقلالية، إذ كان لهم معبدهم الخاص وقوانينهم الخاصة؛ ويبدو أن لحيان كانت في تلك الفترة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعين في ميدان تجارة القوافل.

واللغة المعينية التي تعود جذورها المؤكدة إلى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد كانت أولى لغات جنوب الجزيرة العربية التي زالت. فقد اختفت باختفاء مملكة معين، أي في النصف الأول من القرن الأول ميلادي.

وإذا استبعدنا الكتابات المجتزأة أو الموجزة، لا نجد تجسيداً لهذه اللغة سوى في بضع عشرات من الوثائق. ويشكل فهمها في الغالب صعوبة إلاّ في نصوص بسيطة ومتكررة في ما يخص تذكارات الإنشاءات. ويصح ذلك خاصة في حال نصوص الاعتراف العلني التي تسجل توبة المؤمنين الذين أخلوا بالقواعد التي فرضها الإله، ولا سيما تلك المتعلقة بتطبيق الشعائر.

وتتضمن اللغة المعينية، مثلها مثل السبئية، ثلاثة حروف صافرة وأداة التعريف الآتي في آخر الكلمة على شكل –عن. ولكنها تتميّز عنها بضمائر الغائب (التي تبدأ بحرف الشين /sh/ بدلاً من حرف الهاء /h/)، وبفعلها المتعدّي «شفعل»، وحرف «ك» للتعبير عن «لـ أو لأجل» (فيما تستخدم اللغات السبئية والقتبانية والعربية الحرف «ل») وخصائص أخرى عديدة على صعيد النحو والمفردات.

اللغتان القتبانية والحضرمية

نورد على سبيل التذكير فقط اللغة القتبانية، التي شغلت وضعاً مشابهاً للغة المعينية، والحضرمية، هي اللغة القديمة الأبعد عن العربية، لان مملكتي قتبان وحضرموت لم تمتدا حتى أراضي المملكة العربية السعودية المعاصرة.

هل استخدمت اللغة الآرامية في الجزيرة العربية؟

على الساحل العربي للخليج وفي شمال الحجاز، غالباً ما كانت النقوش مخطوطة باللغة والكتابة الآراميتين، أو على وجه أكثر تحديداً، بأحد أنماطها المتنوعة لهذه اللغة، ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد.

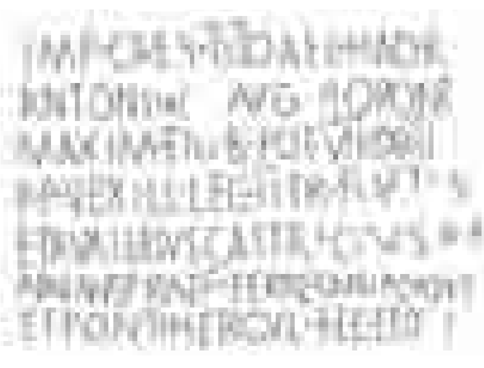
وفي تيماء، يبدو أن استخدام اللغة الآرامية، المنافسة للغة المحلية، بدأ مع الغزو البابلي في عام ٥٥٢. وقد دام هذا الاستخدام ما لا يقل عن ثمانية قرون من الزمن، على الرغم من التغيّرات السياسية التي طرأت (د. المعرض الأرقام ١٠٣، ١٠٥، ١٠٨ و١٠٩).

وفي مدائن صالح، تعود أولى النقوش الآرامية (بنمطها النبطي) إلى السنوات الأولى من القرن الأول ميلادي. وقد استمر استخدام الآرامية هناك حتى أواسط القرن الرابع، بعد فترة طويلة من اضمحلال مملكة الأنباط (العام ١٠٦ ميلادي).

وهذه النصوص الواضحة، التي تم العثور عليها في تيماء وفي مدائن صالح، ليست فريدة من نوعها، إذ تكمّلها مجموعات واسعة من الكتابات الجدارية، المخطوطة باللغة والكتابة الآراميتين، والتي تم العثور عليها في سيناء وشمال الحجاز. ولهذا السبب، يبدو أنه من المرجح أن جزءاً على الأقل من سكان هاتين المنطقتين – لا سيما النخبة – استخدم الآرامية كلغة الثقافة والتواصل، وحتى كلغة محكية.

وفي منطقة الخليج العربي، يبدو أن السكان وازنوا، خلال الحقبتين الفارسية والإغريقية، بين اللغة المحلية الهاجرية، المكتوبة بحروف سبئية (د. المعرض الرقم ٢٢٨)، وبين أحد أشكال اللغة الآرامية؛ وبعد بداية الحقبة الميلادية، بقيت اللغة الآرامية وحدها مؤكدة. ونحن نعرف أن الآرامية هي اللغة الليتورجية للمسيحيين النساطرة الذين كانوا قد قطنوا في الخليج العربي والذين زوّدوا كنيستهم بعدد كبير من رجال الدين والمؤلفين الدينيين.

من دون أن يكون ذلك أكيداً، يبدو أن الخليج العربي ضمّ أقواماً استخدمت اللغة الآرامية. وقد يكون هؤلاء الآراميو اللغة منحدرين من الكلدانيين الذين فرّوا من بابل، ثم تواجدوا في الجرهاء، بحسب ما ذكره سترابون[2].





نقش لاتيني عثر عليه في جزر فرسان (النص والصورة)

اللغات الأجنبية

القوى الأجنبية التي هيمنت على أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية غالباً ما خلّفت وراءها آثاراً مكتوبة عن وجودها. فدول بلاد الرافدين حطت رحالها، من دون شك، في جزيرتين واقعتين في الخليج العربي، وهما فيلكا والبحرين، حيث تم العثور على كتابات أكادية منقوشة على الحجارة أو حتى لوحات الخزف. وفي تيماء، اكتشفت البعثة السعودية الألمانية كتابة للملك نابونيد (٥٥٦–٥٣٩)، الذي يعتقد أنه استقر في الواحة طوال ما يقارب عشرة أعوام ابتداءً من العام ٥٥٢ (د. المعرض الرقمان ١٠٠ و١٠١). وأثناء الهيمنة الفارسية، كانت اللغة الآرامية إحدى اللغات الشائعة الاستخدام في شمال الحجاز وفي الخليج العربي، وقد عادت إلى الشيوع بعد سقوط الإمبراطورية السلوقية. وكتب خلفاء الاسكندر المقدوني نصوصاً باللغة اليونانية في مناطق الخليج العربي الواقعة تحت سيطرتهم، ولا سيما في فيلكا والبحرين، كما أن السكان المحليين استخدموا هذه اللغة في بعض الأحيان (د. المعرض الرقم ٢٢٧). أمّا الأنباط، فخلّفوا وراءهم كتابات كثيرة في شمال الحجاز، ولا سيما في مدائن صالح. وبعد أن احتل الرومان مملكة الأنباط، حطّوا رحالهم في مدائن صالح وفي جزر فرسان حيث تم العثور على كتابات لاتينية رسمية تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني (د. المعرض الرقم ١٢١)؛ وحوالى الفترة ذاتها، قامت كتيبة عسكرية رومانية مجنّدة في أرض قبيلة ثمود بتشييد معبد في روّافة يحمل نقشاً مكتوباً باللغة اليونانية (اللغة المستخدمة في الشرق الروماني) وباللغة النبطية. ويلزم أيضاً أن نذكر الأكسوميين الإثيوبيين الذين احتفلوا، في القرن السادس، بهيمنتهم على حمير عن طريق تحرير عدد من الكتابات.

٢- سترابون، الجغرافيا، المجلد السادس عشر، ٣، ٣.



نقش ثنائي اللغة من روافة

وقد خلّفت حركات المرور المختلفة، من حركة القوافل إلى المسافرين أو الحرفيين أو الفنانين أو رجال الدين، آثاراً عديدة. وقد تم العثور في الحجاز على كتابات جدارية باللغة اليونانية أو اللاتينية، كما عُثر على بعض النقوش باللغة اليونانية في منطقة نجران. وفي شرق الجزيرة العربية واليمن، اكتشفت جِرارٌ رودسية تحمل نقشاً باللغة اليونانية.

في الجنوب، ما زال في الإمكان ذكر نقشٍ نبطي واحد قرب نجران؛ أو نقش آخر ثنائي اللغة، بالسبئية والنبطية في قرية الفاو وآخر في صرواح؛ أو نص صغير باللغة اليونانية، منقوش على جدار صرح قائم في بير علي، موقع مدينة قنا القديمة؛ أو توقيع سابك يوناني على تمثال برونزي كبير يمثل أحد ملوك حمير؛ أو حتى في مخطوطات جدارية هندية وجدت داخل كهف في جزيرة سقطرى.

والجدير بالملاحظة هو الغياب الكامل لنصوص أو مخطوطات جدارية باللغات الإيرانية أو اللغات المصرية.

اللغات الشعائرية لمسيحيي شبه الجزيرة العربية

في الخليج العربي، كان المسيحيون، وغالبيتهم من النساطرة، يستعملون اللغة السريانية في شعائرهم الدينية. وفي الحقيقة، فإن الكنيسة النسطورية شملت عدداً كبيراً من أصحاب المقامات والعلماء. وأن مسيحيي نجران كانوا ينقسمون على الأرجح بين «المونوفيزيين» (أي المؤمنين بالطبيعة الواحدة (غير الخلقيدونيين) و«النساطرة». وكان المونوفيزيون، ذوو الصلات الوثيقة مع سوريا البيزنطية، يستعملون في طقوسهم الشعائرية إمّا السريانية أو اليونانية، مع تفضيل لا شك فيه للسريانية القريبة من اللغة العربية. أمّا النساطرة، فقد اعتمدوا طبعاً اللغة السريانية.

وبالنسبة إلى حمير، بعد الفتح الحبشي، تصعب الإجابة عن هذا السؤال أكثر بعد. ففي الكنائس، مثل كنيسة مأرب أو صنعاء، يمكن أن تكون اللغة المستخدمة هي اليونانية أو السريانية أو الجعزية.

الكتابة ذاتها، مع اختلافات عديدة

يمكن تصنيف الأبجديات العربية، بأشكالها المختلفة العديدة، ضمن مجموعتين: الأولى، التي شاعت في اليمن وجواره، يمكن تسميتها «عربية جنوبية» أو «سبئية»؛ والثانية، التي انتشرت بين سوريا واليمن، سنطلق عليها اسم «عربية شمالية».

وضمن المجموعة العربية الجنوبية، نجد بشكل رئيسي كتابة النقوش الرسمية لجنوب شبه الجزيرة العربية – ويشار إليها بـ«الأثرية» – وشكلها البديل المشبك، بالإضافة إلى أبجديات متنوعة ذات صلة وثيقة بها، مستخدمة في الكتابات الجدارية في اليمن وجنوب المملكة العربية السعودية. وتضاف إليها الكتابة المستخدمة في منطقة الخليج العربي لكتابة اللغة الهاجرية من دون أن نفهم السبب الذي دفع مملكة هجر إلى اختيارها. ويمكن تسمية الكتابة الأثرية العربية الجنوبية بالسبئية لأن مملكة سبأ هي التي ابتكرتها وطوّرتها.

أمّا المجموعة العربية الشمالية، فهي أكثر تعقيداً مع الأبجدية الأثرية الآتية من العلا (الددانية العتيقة) المسماة بالددانية، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة كبيرة من الأبجديات المستخدمة في الكتابات الجدارية.

ومن الواضح أن هاتين المجموعتين مشتقتان من النموذج ذاته، فالتشابه كبير بين الأشكال الأكثر قدماً من الأبجديتين السبئية والددانية. ولكن هذا النموذج غير مؤكد وأصوله غير واضحة من الناحيتين المكانية والزمنية. ويمكن أن نشير إلى المجموعتين معاً بتسمية «أبجدية الجزيرة العربية».

الأبجدية السبئية

استخدمت كافة الشعوب القاطنة جنوب الجزيرة العربية، من سبأيين وقتبانيين وحضرميين وحميريين إلى سكان نجران وقرية الفاو، كتابة واحدة موحّدة. وتظهر بوضوح الوحدة الثقافية بين هذه الشعوب. بعض الحروف، المستخدمة في الغالب بشكل نادر، كحرف الغين أو حرف الظاء، تتّسم في بعض الأحيان بأشكال محلية.

ولكن، على الرغم من التشابه في أشكال الحروف، فإن أنماط كتابتها قد تتفاوت قليلاً في الزمان والمكان (من مملكة إلى أخرى)، وفقاً لما أثبتته جاكلين بيرين. لذا، فإن أسلوب الخط المستخدم لكتابة نص ما يتيح تأريخه على وجه التقريب ومعرفة المنطقة التي انبثق منها.

وتتضمن الأبجدية السبئية تسعة وعشرين حرفاً، وهي كلها حروف . ويعود الفضل في معرفة تسلسل هذه الأحرف إلى توافر عدد قليل من القوائم الهجائية:

h l ḥ m q w s² r b t s¹ k n ẖ ṣ s³ f ʾ ʿ ḍ g d ġ ṭ z ḏ y ṯ ẓ

وتجدر الملاحظة أن تسلسل الحرفين ḏ و *z* معكوس في القائمة الهجائية الأقدم التي تعود إلى القرن السابع.

على وجه العموم، لا تكتب أحرف العلة. ولكن اثنين من الأحرف الصامتة، وهما الواو /w/ والياء /y/، يلفظان، في حال وجودهما في آخر الكلمة، وكأنهما حرفا علة بدلاً من لفظهما العادي كحرفين صامتين. وفي اللغتين المعينية والحضرمية، يلفظ حرف الهاء /h/ أحياناً كأنه حرف العلة ألف /a/.

وتتضمن الكتابة السبئية، بالإضافة إلى ذلك، ستة رموز رقمية لم تستعمل إلا قبل العصر الميلادي. أربعة من هذه الرموز تمثل الحرف الأول من العدد المذكور (ʾ للعدد ألف، و m̲ للعدد مئة، و ʿ للعدد عشرة، و ẖ للعدد خمسة)؛ والرمز الخامس مشتق من أحد هذه الحروف (نصف -*m* للتعبير عن العدد خمسين)؛ والرمز السادس هو خط عمودي بسيط لتعيين الوحدة. وتفادياً لأي التباس، انّ الحروف والرموز، المستخدمة للتعبير عن قيم رقمية توضع بين شكلين معيّنين (خط عمودي مزدوج تصل بين جزئيه عدة خطوط أفقية).

وفي النهاية، هناك رمز بياني سابع وثلاثون وأخير – الخط العمودي البسيط – المستخدم للفصل بين الكلمات.

يتخذ كل من الحروف شكلاً فريداً يميّزه بسهولة عن الحروف الأخرى؛ ولا يشوب الغموض سوى الحرفين *l* و*g*، اللذين باتا يكتبان غالباً بشكل متشابه ابتداءً من أول العصر الميلادي.

وحتى بداية القرن السابع قبل الميلاد، في عهد كريب ال وتر، يشوب بعض الغموض اتجاهَ كتابة عدد من الحروف (لا سيما *g* و s^3 و ṣ). وبدأ عندئذ الترسيخ النهائي، في موازاة تحديد القواعد الجمالية الصارمة. فبالنسبة إلى جاكلين بيرين، كانت النوعية الشكلية لآخر نقوش كريب ال وتر شبيهة بنوعية النقوش اليونانية التقليدية (النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد): فاستنتجت بالتالي أن كرب ال وتر نسخ أحد النماذج اليونانية، ولذا فإن عهده كان في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد؛ وفضلاً عن ذلك، لاحظت أن طريقة خط الكتابات العربية الجنوبية بدت، بعد انتهاء عهده، وكأنها تتطور على نحو مواز لتطور الكتابات اليونانية: توسيع ذيول الحروف، وظهور apices (أي النتوءات الصغيرة) عند أطراف هذه الذيول، الانحناء المتزايد للمقاطع المستقيمة، وأخيراً إضافة القضبان والمثلثات الزخرفية. وقد بات من المؤكد الآن أن نقوش جنوب الجزيرة العربية لم تقلّد تلك اليونانية لأن عهد كرب إيل وتار سبق حكم بيركليس بمئتين وخمسين سنة. وما يحتاج إلى تفسير الآن هو السبب وراء احتواء النقوش اليونانية على أوجه تشابه مع تلك التي عثر عليها في جنوب شبه الجزيرة العربية.

في الأصل، كان من الممكن كتابة النقوش من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، ولكن مع تفضيل واضح للاتجاه من اليمين إلى اليسار. وقد فرض هذا الاتجاه نفسه نهائي حتى قبل عهد كرب إيل وتار ولكن، في النصوص المكوّنة من عدة سطور، يجوز البدء بالاتجاه الطبيعي (من اليمين إلى اليسار) ومن ثم تغيير الاتجاه عند نهاية كل سطر من السطور. وهذا النسق، الذي يذكر بحركة ثور يحرث حقلاً زراعياً، سمّي لهذا السبب «قلباً». وتسهل هذه الطريقة قراءة النصوص المكوّنة من سطور طويلة نجدها أحياناً على بعض الصروح الأثرية؛ ولكن لا شيء يثبت أن هذا هو السبب وراء استخدامها. وتم التخلي عن كتابة «القلب» قبل عدة قرون من بداية العصر الميلادي. ومنذ ذلك الوقت، جرت العادة على الكتابة فقط من اليمين إلى اليسار، وهو الاتجاه المعتمد في كتابة اللغة العربية والسريانية والعبرية، ولكن ليس في كتابة اللغة الجعزية.

وإلى جانب السبئية التذكارية، تم في بداية سبعينيات القرن العشرين اكتشاف خط مشبك. وقد استخدم هذا الخط في المراسلات أو العقود أو القوائم. وهذا الخط المشبك ليس مخطوطاً بالحبر، كما جرت العادة، بل كان منقوشاً على قضبان خشبية بشكل سيجار أو مخروط. وقد استطاع الأردني محمود الغول أن يفك رموز هذا الخط. وتثير النصوص المشبكة اهتماماً خاصاً، فهي كناية عن وثائق عفوية حررها أفراد عاديون بصيغة المتكلم أو المخاطب. وقد ساهمت في إثراء المفردات المستعملة في الحياة اليومية، إذ تمخّضت مثلاً عن كلمات، مثل «سمسم» و«عدس»، لم يكن معترف بها في الماضي.

الأبجديات المشتقة من السبئية

في أنحاء مختلفة من اليمن ومن جنوب المملكة العربية السعودية، وبالأخص حول نجران وقرية الفاو، اكتشفت كتابات جدارية منقوشة في الصخور واستخدمت فيها أشكال مختلفة من أبجديات مشتقة مباشرة من السبئية ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة. ولا تشكل هذه الوثائق، على وجه العموم، أي صعوبات من حيث القراءة. ويصح ذلك بالنسبة للهاجرية أيضاً، إذ أن حرف الغين هو الحرف الوحيد من هذه اللغة الذي يختلف شكلاً عمّا كان عليه في النموذج السبأي.

وفي إثيوبيا، بدأ استعمال الأبجدية السبئية في تاريخ قديم جداً، يتراوح عند العام ٧٠٠ قبل الميلاد. ولم يكن يستخدمها السبأيون المقيمون في هذه البلاد فحسب، بل والسكان المحليون أيضاً. ومنذ ذلك الوقت، تطوّرت الأبجدية بشكل مستقل وولّدت مجموعة متنوعة من الكتابات المحلية، وكلها مكوّنة من أحرف صامتة فقط. ومن بين هذه الصيغ الجديدة، نشأت أبجدية مملكة أكسوم. وفي عهد عيزانا، إمبراطور الحبشة (أواسط القرن الرابع)، بدأ توسيم أحرف السبعة: وتم ذلك من خلال إدخال تعديلات متنوعة على شكل الحرف، مثل إطالة الذيل، وإحداث تفاوت في مستوى الأجزاء المستقيمة، وإضافة زوائد، وغيرها. فأصبحت الأبجدية السبئية عندئذ «هجائية» أي أنها كتابة تشكل فيها كل علامة حرفاً صامتاً وحرف علة. ويرجّح أن هذا التحسين نتج عن الرغبة في الحصول على كتابة أكثر دقة لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الجعزية.

ونتيجة لكون الكتابة الليتورجية للكنيسة الإثيوبية، تخطت الأبجدية الهجائية الجعزية على كافة التقلبات على مر العصور لتصبح اليوم اللغة الحية الوحيدة المتحدرة من الأبجدية السبئية.

الدادانية والأبجديات العربية الأخرى

مضاهاةً للأبجدية السبئية في جنوب الجزيرة العربية، نجد في شمال غرب الجزيرة، في العلا، التي كانت فيما مضى تعرف باسم «ددن»، شكل آخر من أشكال أبجدية شبه الجزيرة العربية وهي الأبجدية الدادانية التي تضم ثمانية وعشرين حرفاً صامتاً، جميع أحرف الأبجدية السبئية فيما عدا الحرف s^3. فكتاب الالفباء الوحيد المعروف، لا يتضمن سوى الأحرف الأحد عشر الأولى، ولكنه يؤكد أن تسلسل الحروف يتطابق مع تسلسل الأبجدية السبئية.

وفي البداية، كانت حروف الأبجديتين السبئية والدادانية تتشابه كثيراً. ويمكن بالتالي الاستنتاج بأنها مشتقة من النموذج ذاته أو بأن بعضها ولّد البعض الآخر (إمّا أن السبئية كانت النموذج الأولي للدادانية، وإمّا العكس). وسرعان ما ترسّخت الأبجدية السبئية بعد ذلك وكفّت عن التطور، في حين واصلت الأبجدية الدادانية ابتكارها. لذا فلا عجب أن خلال الحقبة الإغريقية، وبعد أن تطورت كلٌّ منهما مستقلة عن الأخرى، أضحى الاختلاف بين اللغتين كبيراً.

أمّا الكتابة التيمائية، فهي كتابة قريبة من الدادانية استخدمت في عدد من النقوش عثر عليها في واحة تيماء، والأهم أنها برزت في العديد من الكتابات الجدارية فهي ترقى بالاقل إلى القرن السادس قبل الميلاد، بما أن عدة كتابات جدارية ورد فيها ذكر الملك نابونيد (٥٥٦ – ٥٣٩ ق.م)، الذي عاش في تيماء لمدة عشر سنوات ابتداء من العام ٥٥٢ ق.م. ومن المحتمل أن تكون الكتابة التيمائية هي التي تبجح ملك كركميش (مملكة كانت واقعة على الحدود السورية التركية حالياً) بأنه يجيدها، ولكن لا تتوافر لدينا بعد أية نصوص مخطوطة باللغة التيمائية (الثمودية «ألف» سابقاً وفقا لـ ف. ف. وينت) وتعود إلى تلك الحقبة القديمة جداً.

ولا تزال هناك مجموعة كاملة من أبجديات الجزيرة العربية الأخرى القريبة من الدادانية: وهي الأبجديات الثمودية «باء» و«جيم» و«دال» في غرب الجزيرة العربية؛ والحسمائية (الثمودية «هاء» سابقاً أو الثمودية التبوكية «واو» سابقاً، حسب لـ ف. ف. وينت)، والصفائية؛ و«الثمودية الجنوبية» في جنوب غرب المملكة العربية السعودية. ومن الصعب جداً اكتشاف تاريخ هذه اللغات حتى ولو تقريبياً، نظراً للعدد القليل من النصوص المؤرخة.

وهذه الكتابات، على عكس سابقاتها، لم تستخدمها أقوام حضر أو ساكنوا مدن، عديدة وثابتة، تسوسها مؤسسات عامة مستديمة، ولكن استخدمها سكان السهول الجرداء والصحراء، الذين زاولوا، بدرجات متفاوتة، الزراعة وتربية المواشي على طريقة البدو الرحّل. ولم يجر تدريسها في الأماكن المخصصة للدراسة أو أثناء تعلم مهنة ما، بل جرى تدريسها على نحو غير رسمي، داخل الأسرة الواحدة أو عند التواصل مع أشخاص يجيدون الكتابة. والجدير بالملاحظة، مثلاً، هو أن كل قائمة من القوائم الهجائية الصفائية تحدد تسلسل الأحرف على طريقتها الخاصة، وكأنها المعيار الوحيد لهذا التسلسل. ويمكننا بالتالي أن نتخيّل أن تعليم الأبجدية كان يتم في المخيمات بواسطة قدماء يحددون تسلسل الأحرف على طريقتهم الخاصة بغية تسهيل حفظها.

ومن الجلي أن سكان السهول الجرداء والصحراء كانوا يكتفون بحد أدنى من معارف الكتابة والقراءة، اللتين كانتا تستخدمان لأغراض عملية وأغراض التسلية على حد سواء. وهذه المعارف، التي نشأت مع تطور تجارة القوافل على مسافات بعيدة، بدت وكأنها شهدت تراجعاً ابتداءً من القرن الثالث أو القرن الرابع ميلادي، نظراً لتراجع أعداد الكتابات الجدارية المخطوطة بالأبجدية العربية ومن ثم اختفائها كلياً. ويبدو أن الابتكارات الفوضوية التي يسّرها غياب التعليم المنظم أدت تدريجياً إلى تراجع أعداد القراء المحتملين وقادت إلى زوال ممارسة الكتابة.

منشأ الأبجديات العربية

تعود أقدم الأمثلة عن الأبجدية العربية – المتمثلة ببعض الأحرف المحفورة أو المطلية على قطع من الخزف تم اكتشافها باليمن، في مناطق يلا وهجر ابن حميد وريبون – إلى القرن التاسع قبل الميلاد على أبعد تقدير.

ويبدو إذ اً أن ظهور الأبجدية العربية جاء بعد ظهور الكتابات الأبجدية في الشرق الأدنى، أي الأبجدية السينائية الأولى والأبجدية الأوغاريتية (وهي الكتابة الخاصة بمملكة صغيرة كانت قائمة في سوريا، في منطقة اللاذقية) والأبجدية الفينيقية. لذا، فمن الممكن، لا بل من المرجح، أن تكون الكتابة السائدة في جنوب الجزيرة العربية منسوخة عن نموذج أجنبي.

وثمة حجتان تؤكدان فرضية الاستعارة من أبجديات أخرى. بادئ ذي بدء، تتضمن الأبجدية العربية نسبة مهمة من الحروف التي لها الشكل ذاته (أو شكل مماثل) والقيمة ذاتها كالحروف التي تتضمنها الأبجدية السينائية الأولى والأوغاريتية والفينيقية. ومن جهة أخرى، فإن تسلسل حروف الأبجديتين السبئية والددانية منسوخ عن الأبجدية الأوغاريتية، المؤكد وجودها في أوغاريت ذاتها (RS ٨٨,٢٢١٥) وفي بيت شيمش بفلسطين، بفضل وثيقتين (بلا شك بالنسبة إلى الوثيقة الأولى وعلى الأرجح بالنسبة إلى الوثيقة الثانية) سبقتا اختفاء مدينة أوغاريت في حوالى عام ١١٨٥ قبل الميلاد.

ويمكننا أن نقدّم حجة أخيرة، وهي أن أبجديتي «ددن» و«سبأ» تضمان حرفاً واحداً، هو الحرف/ ẓ/، ذا شكل مختلف. فباللغة السبئية، يشتق الحرف / ẓ/ من الحرف / ṣ/، في حين أنه ينشأ عن تعديل بسيط للحرف / ṭ/ باللغة الددانية. ومن الجلي أن هاتين الأبجديتين ابتكرتا هذا الحرف، كلٌّ منهما بالاستقلال عن الأخرى. ونتج عن ذلك أن نموذج الأبجديتين السبئية والدادانية كان يفتقر إلى الحرف / ẓ/. والجدير بالاهتمام هو أن ذلك يصح أيضاً بالنسبة إلى الأبجدية الأوغاريتية.

لذا، فمن المرجح أن الأبجدية العربية قامت على أساس النموذج الأوغاريتي. ولكن ثمة صعوبة إضافية وهي أن استخدام الأبجدية الأوغاريتية اختفت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد في حين أن النصوص الأبجدية الأولى التي برزت في شبه الجزيرة العربية تعود إلى القرن التاسع أو ما قبل ذلك بقليل. وبالتالي، فإن هذا الفارق الزمني، بين قرنين وثلاثة قرون، يفترض وجود أبجدية وسيطة غير معروفة، ربما ينبغي البحث عنها في تيماء.

أبجدية أوغاريت، القرن الثالث عشر قبل الميلاد،
باريس، متحف اللوفر، AO 19992

الأبجدية العربية الحديثة

لم تبدأ كتابة اللغة العربية باستخدام أبجدية خاصة بها الا في بداية القرن السادس ميلادي. وشكلت هذه الكتابة شكلاً جديداً منبثقاً من الكتابة الآرامية المستوحاة، في آن معاً، من الكتابة النبطية المتأخرة، التي استعملها العرب في المناطق الواقعة بين سوريا والحجاز، ومن الكتابة السريانية. وأتى أول استخدام معروف لهذه الأبجدية من زبد الواقعة على مسافة تناهز ستين كيلومتراً جنوبي شرقي حلب. فقد أتى نص قصير، يتضمن عدداً من أسماء الأشخاص، ليكمّل نقشاً طويلاً ثنائي اللغة، باللغتين اليونانية والسريانية، يستذكر الانتهاء، في العام ٥١٢، من تشييد صرح نصراني تكريماً للقديس سركيس.

أمّا النص الثاني، بالتسلسل الزمني، فكان منقوشاً على صخر في جبل أسيس (على بعد حوالى مئة كيلومتر شرقي دمشق) بواسطة شخص أُرسل إلى هناك بمهمة من قبل الحارث الملك. ويعود تاريخ هذا النص إلى العامين ٥٢٨–٥٢٩.

ويستذكر النص الثالث، باللغتين العربية واليونانية، تشييد صرح نصراني تكريماً للقديس يوحنا في حرّان، بمنطقة اللجع، جنوبي سوريا. وقد ألّف هذا النص، المؤرخ في العامين ٥٦٨–٥٦٩، قائد عربي مغمور.

وإلى هذه النقوش الثلاثة يمكننا أن نضيف نقشاً رابعاً غير معروف سوى من خلال نسخة وافانا بها كاتبان عربيان عاشا في القرون الوسطى، وهما البكري وياقوت. ويستذكر هذا النص تأسيس دير هند بالحيرة (وهي عاصمة مملكة عربية صغيرة تقع على ضفاف نهر الفرات في العراق). وتُظهر هذه الأمثلة كلها أن الكتابة العربية نشأت في سوريا والعراق،. وكانت هذه الكتابة لا تزال في تلك الحقبة بدائية: إذ أنها، على رغم احتوائها على حرفي العلة الصائتين الطويلين «ي» و«و»، فقد كانت تفتقر إلى حرف العلة «ا» (الذي لم يكتب على شكل حرف الألف سوى في زمن الإسلام، في مابعد الهجرة إلى المدينة؛ أمّا الأحرف الصامتة، فكان عددها خمسة عشر حرفاً استعملت لكتابة الأصوات اللغوية العربية البالغ عددها ثمانية وعشرين صوتاً، أي أن كل حرف من الحروف كان يلفظ بما يتراوح بين شكلين وخمسة أشكال مختلفة. وتنقيط الحروف الذي أتاح التمييز بين الأحرف الصامتة المشار إليها بالحرف ذاته (للتمييز بين الباء والتاء والثاء والنون والياء، أو بين الراء والزاي، وغيرها) لم يظهر سوى في عهد الخلافة المدينية، إذ أن أقدم استخدام مؤكّد لهذه النقاط يعود إلى السنة ٢٢ هجرية/٦٤٣ ميلادية.

وبحسب التقاليد العربية الإسلامية، فإن الكتابة العربية ابتُكرت في وادي الفرات، وانتشرت منه سريعاً في كافة أنحاء الحيرة. وتوفر هذه التقاليد عدداً من المعالم الزمنية. فعلى سبيل المثال، يقال إن زيد بن حمّاد تعلّم أولاً اللغة والكتابة العربيتين قبل أن يتعلم الفارسية؛ وبما أنه كان مسؤولاً عن محطات البريد في عهد خُسْرُوس (خوسرو الأول، ٥٣٢–٥٧٩) ووصياً على عرش مملكة الحيرة في حوالى العام ٥٧٥، بين عهد قابوس (٥٦٩–٥٧٤) وعهد المنذر الرابع (٥٧٦–٥٨٠)، فيمكننا أن نعيد تاريخ عملية التعلم هذه إلى الربع الثاني من القرن السادس.

وقد مارس ابنه، عدي بن زيد، وهو الشاعر الشهير من الحيرة، مهام أمين سر خوسرو الأول وبقي في منصبه حتى بداية عهد خوسرو الثاني (٥٩٠–٦٢٨)؛ وقد كان أول من استخدم الكتابة العربية في ديوان خوسرو؛ وقد توفي حوالى العام ٥٩٠، عندما أعدمه النعمان الثالث (٥٨٠–٦٠٢). وقد خلفه ابنه زيد بن عدي في منصب أمين السر للشؤون التجارية مع «الملوك العرب». ومن الحيرة، انتشرت الكتابة العربية لتصل إلى مختلف أوساط المناطق الشمالية والغربية من شبه الجزيرة العربية، ولا سيما دومة الجندل ومكة. وفي هذه المدينة الأخيرة، برزت الكتابة العربية فيما كان محمد صلى الله عليه وسلم لا يزال شاباً، ولم يستخدمها سوى أناس قلائل عند مجيء الإسلام (عدّد البلاذري أسماء سبعة عشر رجلاً وبعض النساء).

وثمة دلالة كبرى على اختيار محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الكتابة في المدينة، مفضلاً إياها على الكتابة العربية القديمة (التي كانت مستخدمة سابقاً في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية زمن الجاهلية والتي كانت لا تزال حيّة في اليمن) وعلى الأشكال المختلفة للكتابة الآرامية التي استخدمها النصارى واليهود. والسبب يعزى، من دون شك، إلى الطابع الأكثر «عربية» الذي اتسمت به هذه الكتابة الجديدة وللقطيعة التي تجسدها مع اللغات الليتورجية للأديان القائمة.

المصادر والمراجع :
Brock، ١٩٩٩، ص. ٨٥-٩٦ ؛ Contini، ٢٠٠٣، ص. ١٧٣-١٨١ ؛ Gatier, Lombard et al-Sindi، ٢٠٠٢، ص. ٢٢٣-٢٣٣ ؛ Lemaire، ١٩٩٣، ص. ٥٩-٧٢ ؛ Macdonald، ١٩٨٦، ص. ١٠١-١٦٨ ؛ Macdonald، ١٩٩٥ b، ص. ٧٨٥-٧٨٧ ؛ Macdonald، ٢٠٠٠، ص. ٢٨-٧٩ ؛ Macdonald، ٢٠٠٤، ص. ٤٨٨-٥٣٣ ؛ Macdonald، ٢٠٠٨، ص. ٤٦٤-٤٧٧ ؛ Macdonald et King، ٢٠٠٠، ص. ٤٦٧-٤٦٩ ؛ Puech، ١٩٩٨، ص. ٣١-٥٥ ؛ Robin، ١٩٧٤، ص. ٨٣-١٢٥ et Iص l. ؛ Robin، ٢٠٠٥، ص. ١-٥١ ؛ Robin، ٢٠٠٦، ص. ١٥٧-٢٠٢ ؛ Ryckmans، ١٩٨١، ص. ٦٩٨-٧٠٦ ؛ Ryckmans، ١٩٨٥، ص. ٣٤٣-٣٥٩ ؛ Ryckmans، ١٩٨٦ b، ص. ١٨٥-١٩٩ ؛ Ryckmans، ١٩٨٨، ص. ٢١٩-٢٣١ ؛ Ryckmans, Müller et Abdallah، ١٩٩٤ ؛ Sass، ٢٠٠٥ ؛ Al-Talhi et al-Daire، ٢٠٠٥، ص. ٢٠٥-٢١٧ ؛ Villeneuve, Phillips et Facey، ٢٠٠٤، ص. ١٤٣-١٩٠ وصورة ٦٣-٦٧ (ص. ٢٢٩-٢٣٢).

قوافل البخور

د. فرانسواز ديمانج

«إن آخر المناطق المأهولة من ناحية ميديا، هي الجزيرة العربية؛ إنها البلد الوحيد في العالم الذي ينتج البخور واللبان والصمغ العربي والقِرفة والكافور والصمغ الراتنجي (الذي يستخدم في صنع العطور)» (هيرودوت، ٣، ١٠٧)

كان الصمغ العربي والبخور واللبان، طوال فترة العصور القديمة بكاملها، منتجاتٍ يكثر الطلب عليها، وثمينة جداً، بحيث كانت تعادل الذهبَ بين الهدايا التي قدمها الملوك المجوس إلى الطفل الإلهي. وكان التجار العرب الذين يحتكرون هذه السلع يرسلونها من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى المناطق التي تستهلكها بوفرة أي مصر وبلاد ما بين النهرين ومنطقة البحر المتوسط. وكانوا يرسلون أيضاً إلى تلك الأسواق، الموادَ الغذائية التي غالباً ما تكون نادرة وباهظة الثمن، والتي كانت السفن الآتية من الهند أو من بلاد القرن الإفريقي، تفرغها في الموانئ العربية للبحر الأحمر.

ومن القرن الثامن قبل الميلاد، تاريخ أولى الحروب العربية-الأشورية[١] التي تظهر الأهمية التي أولتها كبرى أمبراطوريات بلاد ما بين النهرين لهذه التجارة العابرة للجزيرة العربية، حتى بزوغ فجر الإسلام، أي طوال ما يفوق الألف عام، كانت قوافل من مئات الجمال تسير على المسالك الطويلة العابرة للجزيرة العربية ناقلةً الأفاويه الثمينة والحمولات الثقيلة على طول الطريق الاسطوري للبخور واللبان، وبقيت الوسائل العملية لتلك التجارة غير معروفة نسبياً.

فالمصادر المحلية المكتوبة تقدِّم، لدى توافرها، إماً سرداً حربياً أو تخلد ذكرى تشييد مبانٍ أو أنظمة ريّ، أو إطراءات طويلة موجهة إلى الآلهة، تشهد على ورع المؤمنين، لكننا لا نستطيع أن نستشف منها سوى معلوماتٍ ضئيلة عن تنظيم القوافل التجارية التي كان نشاطها لا يعتبر عملاً نبيلاً، على الرغم من الأرباح الطائلة التي كان يؤمنها.

فالمعلومات الأساسية تأتي من مصادر أجنبية، أشورية وتوراتية، وخصوصاً مرويات كُتّاب قدامى؛ وتتيح كل هذه المعلومات، التي تقابل بنتائج البحوث الأثرية، التعرّف إلى تنظيم تلك المبادلات على مسافات بعيدة، التي أنتجت واحدة من أربح الرحلات التجارية في العالم الشرق أوسطي لفترة ما قبل الإسلام.

ابتداءً من القرن الثاني عشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد، تكوّنت على ما يبدو مبادلات تجارية منتظمة بين جنوب شبه الجزيرة العربية



منظر من الحجاز



شاهدة قبر أحد الجمّالين، مصنوعة من المرمر، اليمن، القرنان الثاني والثالث بعد الميلاد،
باريس، متحف اللوفر، قسم الأثريات الشرقية، رقم الجرد: AO ١١٢٨

وشمالها، لكن الازدهار التجاري عبر الجزيرة العربية لم يشهد فعلا انطلاقتـه إلا ابتداءً من القرن الثامن. وكان اعتماد الجمل حيواناً للنقل، عاملاً حاسماً في تطوره: ففي الألف الرابع، كان الجمل طريدة قـنصٍ في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، ولم يدجن تدريجياً إلا ابتـداءً من الألف الثـالث، ثم انتشر رويداً رويداً في كافة أنحاء المنطقة[٢]. وكان الرعاة الرُحّل يربّونه قطعانًا من أجل لبنه وصوفه، وفي بداية لألف الثانية فقط، بدأ استخدامه حيواناً زاملاً (يحمل عليه). واتضح أن أداءه فاق أداء الحمير أو صغار الخيليات التي كانت تنقل البضائع حتى ذلك الحين؛ وقد أتاح له تحمله العطش وسرعة تنقله وتكوينه الجسماني أيضاً في اجتياز مسافات كبيرة عبر السهوب الوعرة بالجزيرة العربية. وبات في الإمكان المباشرة بعمليات عبور طويلة للمناطق القاحلة التي كان يتعذر اجتيازها حتى ذلك الحين، مع توسيع المحطات الضرورية للراحة.

ويورد بليني الأكبر (Pline L' Ancien) (٢٣-٧٩ ق. م) معلوماتٍ كثيرة عن مسالك القوافل التي كانت تصعد من جنوب شبه الجزيرة العربية نحو أسواق الشمال. وبصفته عالماً نباتياً، اهتم مؤلف "كتاب التاريخ الطبيعي" (*Histoire naturelle*) بالبخور واللبان[٣]، ويصف شجرة البخور (*Boswellia sacra*) وهي جنبة شائكة تنبت حصريًا في جنوب الجزيرة العربية بمنطقة حضرموت (اليمن الحالي) وظفار (سلطنة عمان). ويشير بدقة إلى طريقة حزّ الجذوع لجمع الصمغ الذي يسيل منها؛ وينقسم عندما يجف، حباتٍ كبيرة تميل إلى اللون الأبيض، ثم تتلاشى لدى وضعها على قطع فحم من الخشب الملتهب، ويخرج منها دخان أبيض ذكي الرائحة يصعد نحو السماء حيث تستقبله الآلهة بانشراح.

ومنذ الحقبة الأشـورية، فـضل الناسُ في بـلاد مـا بـين النـهرين وفي المشرق استنشاقَ البخور على استنشاق أعشاب الأفاوية المحلية. وكانوا يستخدمون كميات كبيرة منه في المعابد خلال الطقوس الدينية. وكان مرغوباً فيه أيضاً في الحياة اليومية من أجل تعطير المنازل والقصور. ثم ازدهرت الأسواق المتوسطية وبات الطلب أشد إلحاحاً. وفي ما بعد، استهلكت في روما كميات مفرطة. فالأمبراطور نيرون (Néron) أثناء جنازة زوجته بوبيه (Poppée)، أحرق كميات من البخور تفوق ما تنتجه الجزيرة العربية خلال سنة.

ويذكر بليني أن المحصول كان يـُجنى مرتين في السنة، وتـُجمع الغلالُ في معـبد شـبوة الكبير بحضرموت؛ وكان يـتعين الـحصول من الكهنة على حق التصدير، وهي جزية أولى ستـُضاف إليها جزياتٌ أخرى طوال الرحلة.

وبعد وسق (تحميل) الجمال، تتحرك القافلة في اتجاه الغرب، متجنبةٍ صحراء الربع الخالي الرهيبة، وتسلك سفوح الجبال على حدود المناطق الصحراوية. وتعبرُ الطريقُ عبر تمنعَ عاصمةَ مملكة قتبان، حيث كانت القوافل التي تنقل المُرّ[٤] وهو صمغ عطري مُجتنى من شجرة (*Gommiphora myrrha*) تنمو في هذه المنطقة، تلتحق بقوافل البخور واللبان. وبعد دفع ضرائب جديدة إلى مـلك قـتبان، تتـجه الـقافلة نـحو الشمال حتى تـصل إلى غزة في نهاية رحلة «من ٤٤٣٦٠٠٠ خطوة ، [...] مُقسّمة على ٥٦ محطة للجـمال»[٥]. وكانت البهائم المثقلة بالحمولة، تجتاز في اليوم حوالى ٣٨ كلم، وبين محطة وأخرى، كانت القافلة تسير ست ساعات على الأقل. ويعدِّد بليني، بين بلاد السبئيين في الجنوب ومملكة الأنباط، ما لا يقل عن ثمانية وعشرين قوماً ومدينة تجتازها القوافل.

ويجب ألا نتخيل تلك الطريقَ مسلكاً وحيداً يربط نقطة بأخرى، بل هي شبكة من الطرق والدروب التي تلتقي خطوطها وتتقاطع وتتحاذى. وكانت الظروف المناخية وتحرّك الريح على كثبان الرمل مغيرًا لحدودها، والمرتفعاتُ الصخرية، عقباتٍ يتعين تجاوزها والالتفاف عليها، مما يجعل التقدم صعباً. وكانت القوافل تختار مسالك مختلفة طبقاً للفترة الزمنية خلال السنة، وخبرةِ الدليل والظروفِ الأمنية المرهونةِ بالتحالفات التي غالباً ما كانت سريعة الزوال بين القبائل المسيطرة على هذه المنطقة أو تلك. وكان التوقف عند آبار المياه أمراً مُستحبّاً، لكن كان يبدو محفوفاً بالمخاطر أيضاً. فقد اشتهرت الآبار باجتذاب قطاع الطرق الذين كانوا يعتبرون القافلة التي تنقل حمولات ثقيلة طريدة سهلة. وكانت القوافل تبحث أيضا عن برك المياه المؤقتة التي تتكوّن في الشتاء في أعقاب الأمطار النادرة، لأنها كانت تكفي أحياناً لإرواء قافلة وتمكينها من تجنب سلوك منطقة خطرة.

وبمرور الوقت، باتت الواحات الكبرى التي كانت محطات الزامية متناثرة على طول خط القوافل، مدنًا مهمة، وعواصمَ ممالك مزدهرة ومراكز تجارية نشطة يتقاطر إليها التجارُ. فقد كانت تؤمن، كما تثبت آثار قرية الفاو، خاناتٍ للقوافل حيث كان في وسع التجار القيام باستراحة لاستعادة أنفسهم وتجديد قواهم.

وقد عرفت تلك المدن بثرائها ورخائها الاستثنائيين، الذين يثبتهما بعضُ الـمكتشفات الأثـرية، والـمكوس الكـثيرة التي كانـت تـُجبى من القوافل، كانت واحداً من أبرز عناصر ازدهارها. وكتب بليني الأكبر: «قد كانت حصص ثابتة يتعين إعطاؤها للكهنة وكتَبة الملوك؛ وبالتالي، يحصل الحراسُ والجنود والبوابون والموظفون، على حصصهم، وفي أي مكان مررنا به، تعين علينا أن ندفع، هنا للماء وهناك للعلف، والمحطات، ولمختلف أنواع رسوم المرور [...]»[٦].

ويروي الحسن بن احمد الهمداني، المؤلف اليمني الشهير لكتاب صفة جزيرة العرب وصول القوافل إلى محطاتها[٧]، وعلى رغم أنه يكتب في القرن العاشر يمكننا أن نفكّر بواقعيةٍ أن ظروف السفر لم تكن قد تغيّرت. وعندما كان الطريق صعباً، كانت القوافل التي تعد مئات الجمال، تتمطّى على مسافة كيلومترات عديدة، «فإذا صبح الأولُ المنزلَ، أتاه الآخر مُظهراً (عند الظهر)، وإن مساه، أتاه الآخرُ مُعتماً، فلا يلحق من المياه إلا الرنّق ولا من العلوف إلا الحفيل، وربما لا يلحق له شيئا من ذلك مع ما يناله من مقاساة سرّاق الطريق وعماريطها وسباريت العرب الذين يهتبلون الغدوة في أعقاب الرفاق وساقتها». ويتحدث أيضاً عن الحياة اليومية الصعبة للتجار والجمالين، ويقول «كان الحاج يأكلون سفرهم طرية الخبز ويابسة غير متغيرة من صنعاء إلى كتنة، وإلى أبعد، وكنتُ أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة يأكلون سفرهم طرية إلى نصف الطريق ويابسة تدق وتطرأ إلى مكة، وكنا نحن نستعمل في أسفارنا خبز الملة والسن واللحم والكشك والمهاد».

وكانت الطريق الغربية واحدة من أشد الطرق المسلوكة، لكن كان ثمة طرق أخرى عبر الجزيرة العربية: فابتداءً من نجران، مرورا بقرية الفاو، تصل القوافل إلى شمال شرق الجزيرة العربية وجرها (Gerrha) لتتوجه منها نحو جنوب بلاد ما بين النهرين. وفي تيماء، يفترق قسم من الطريق الغربي أيضاً نحو الشرق ليصل إلى واحة دومة الجندل ووادي الفرات[٨]. وتسعى الأعمال الميدانية الراهنة إلى إعادة الكشف عن مسارات مختلف لتلك الطرق والتعرّف بمعزل عن المحطات الرئيسية، إلى المحطات الصغيرة حيث غالباً ما ترك قادة القوافل نقوشاً وكتابات.

وإذا كان اللُبان والصمغ وأنواع الأفاويه الأخرى تُعدُ من بين أبرز سلع هذه التجارة، كانت البضائع التي تصـل إلى مـرافئ البحر الأحمر تمر أيضاً في هذه المسالك. فمن القرن الإفريقي، كان يأتي تبر الذهب والعاج وفرو الفهد وأتراس السلاحف. ومن الهند، كان يستورد البهار والقاقلّة (الهال) وكبوش القرنفل والتوابل الأخرى العطرة. كـذلك كان خشب الصندل والأحجار الكريمة وأقمشة الحرير المنسوجة في الصين، جزءاً من شحنات السفن الـتي كانت ترسو على الساحل الشرقي للجزيرة العربية.

وكانت هذه التجارة الكبيرة في أيدي مختلف الشعوب والقبائل[٩]، حسب الحقب وتقلبات التنظيم السياسي للجزيرة العربية، لكننا دائماً ما نلاحظ النوعَ نفسه من التنظيم الذي يتضمن مشاركة الرُحّل ومشاركة المقيمين: فسكان الواحات كانوا يقدمون «خدمات»: المأوى والماء والعلف؛ والتجار الذين كانوا ينظمون المبادلات، كانوا يقيمون فيها ويشكلون مجموعة ثرية وقوية، ومنفتحة بالتأكيد على التأثيرات الأجنبية؛ وكان مربو المواشي الرحل الذين اكتسبوا بمرور الوقت أهمية متزايدة، «ممولين» ضروريين أيضاً لحسن سير هذه التجارة، لأنهم كانوا يؤمّنون الدواب، ويتطوعون بصفة جمالين أو قادة قوافل ويوفرون عند الضرورة للقوافل مواكب الحماية.

لكن هذا النظام المصقول قد تراجع ابتداءً من القرن الأول بعد الميلاد، لأن الطريق البحري عبر البحر الأحمر حلت تدريجياً محل الطرق البرية عبر الجزيرة العربية. وإذا كانت حركة المرور أقل كثافة، فهي لم تختف ِ وانضم مسافرون آخرون إلى التجار، هم الحجاج المتوجهون إلى الأماكن المقدسة، الذين سلكوا بدورهم طرق الجزيرة العربية.

١. انظر، في الكتاب الراهن، Potts، ص. ٧١-٧٩.
٢. Jasmin، ٢٠٠٥، ص. ٤٩-٦٢.
٣. Pline l'Ancien، XII، ٣٠-٣٢، ترجمة É.Littré.
٤. كان الصمغ يـُستخدم لصنع المراهم والعطور والأدوية؛ وكان الطلب عليه كثيراً في مصر لأنه كان أحد المكونات الضرورية لعملية التحنيط.
٥. Pline l'Ancien، *Histoire naturelle*، XII، ٣٢ (٥)، ترجمة É.Littré.
٦. المصدر السابق.
٧. Jâzim et Leclerq-Neveu، ٢٠٠١.
٨. انظر، في الكتاب الراهن، Potts، ص. ٧١-٧٩ ؛ Potts، ١٩٨٨، ص. ١٢٧-١٦٢ ؛ De Maigret، ٢٠٠٣.
٩. انظر، في الكتاب الراهن، Potts، ص. ٧١-٧٩ وRobin، ص. ٨١-٩٩.



شبه الجزيرة العربية
قبل التاريخ

أقوام
ما قبل التاريخ

د. ماري- لويس إينيزان

طالما أن المملكة العربية السعودية بصحرائَيْها، النفود في الشمال والربع الخالي في الجنوب الذي يُعد اكبر امتداد رملي في العالم، اعتبرت أرضا يصعب تخيـّل أيِّ عيش ممكن فيها. لذلك لم يكن مطروحا إعادة تكوين الماضي المتعلق بفترة سحيقة منذ ما قبل التاريخ.

وباتت السعودية التي يحدها البحر الأحمر من الغرب، تحتل موقعا جغرافيا مميزا، لأنها قريبة من إفريقيا الشرقية، المهد الثابت للبشرية. وقد بينت اكتشافات حديثة في الواقع أن جنساً واحداً من النوع البشري هو الإنسان المنتصب (Homo erectus) غادر إفريقيا الشرقية متوجها إلى أوراسيا (قارة مؤلفة من أوروبا وآسيا)، قبل حوالي مليوني سنة، فبدأت عمليات البحث عن الطرق التي سلكها أجدادُنا الأولون لينطلقوا من إفريقيا ويغزوا كوكب الأرض.

وقد فضـّل العلماء فترة طويلة، سيناريو معيناً : هي الطريق البرية الإفريقية المحاذية لنهر النيل. لكن سيناريو آخر بات مطروحاً منذ بضع سنوات، وهي طريق شبه الجزيرة العربية (الصورة ١). هل يمكن أن تكون السعودية جسرا جغرافيا حقيقيا بين إفريقيا الشرقية وآسيا التي لا يفصلها عنها سوى البحر الأحمر؟ ومن نافل القول إن إفريقيا الشرقية هي أيضا مهد الإنسان العاقل (Homo sapiens)، قبل مائتي ألف سنة على الأرجح، وإن هذا الإنسان ربما هاجر أيضا نحو أوراسيا عبر البحر الأحمر.

وأخيرا، لا يزال ثمة لغز يتعلق بكل أنحاء شبه الجزيرة العربية: ماذا حصل إبان العصر الحجري القديم (بين أربعين ألف واثنتي عشرة ألف سنة)؟ لا يتوافر لدينا أيُّ موقع من فترة ما قبل التاريخ يرقى إلى تلك الحقبة، لا على اليابسة ولا في أعماق البحار.

وفي المقابل، ابتداء من آخر ارتفاع لحرارة الأرض، خلال «الفترة العربية الرطبة» (Période humide arabe) قبل عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف سنة تقريبا، أمكن التعرفُ بفضل الآثار المحفوظة جيدا، والبحوثُ الأثرية، إلى ثقافات مميزة أصلية في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. وأخيراً، بفضل الرسوم المحفورة على الصخور، توفـّر لنا هذه العادةُ المتواصلة بلا انقطاع منذ تجلياتها الأولى قبل ثمانية آلاف إلى تسعة آلاف سنة على الأقل، وسيلةً بالغة الأهمية في مجالي الرموز والفنون، للتطرّق إلى التاريخ الطويل للأقوام الرُحل في شبه الجزيرة العربية.

(صفحة مزدوجة سابقة)
منظر للحجاز، تصوير
اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silvera)

(صفحة اليسار)
أدوات من حقبة ما قبل التاريخ





(صفحة مزدوجة سابقة)
منظر كثبان الرمل

نبذة تاريخية عن الاكتشافات ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية

يُعتبر ما قبل التاريخ علماً حديثا تتأرجح حدودُه الزمنية تبعا للاكتشافات ودقة التواريخ المحضة التي أحرزت تقدما كبيرا منذ حوالي العشرين عاما. لذلك يقول المؤلفون إن الحد الأدنى للعصر الرابع، وهو أحدثِ العصور الجيولوجية الذي يُعنى بنشوء الإنسان المنتصب، يتفاوت بين ١،٨ و٢،٦ مليون سنة. وطوال العصر الرابع، تعرّض المناخ في أوراسيا لتعاقب الفترات الجليدية والـفترات ما بين جليدية. وهي تتناسب مع المناخات الاستوائية، وتعاقب فترات الجفاف المصحوبة بنشاط هوائي كثيف، وفترات الرطوبة، الملائمة للنشاط البشري. وتشكلت إذّاك بحيراتٌ في الصحارى الكبرى الحالية في إفريقيا وشبه الجزيرة العربية.

وهذه التغيرات العنيفة للظروف المناخية، والجفاف الشديد الراهن الذي ينتاب معظم أراضي المملكة العربية السعودية، طالما شكلت عائقا للبحث المنهجي عن عمليات الاستيطان التي حصلت في فترة ما قبل التاريخ، والمحافظة على آثارها. وابتداء من العام ١٩٧٠ بدأنا فعلاً نشهد ولادة ما قبل التاريخ في مجمل أراضي المملكة العربية السعودية.

وحتى عام ١٩٢٠م[1]، لا تذكر كتاباتُ الرحالة والمؤرخين القدامى، سوى بقايا أثرية عظيمة الحجم، على الطريق الأسطورية للقوافل المحمّلة بالتوابل والمر المكاوي واللـُبان. وقد أشار بعضُ الرحالة أو العسكريين من حين لآخر إلى وجود الصوان المسنون ورؤوس السهام الشهيرة التي اكتشفها بين كثبان الرمل. ويتحدث جون فيلبي (John Philby) في عام ١٩٣٣م عن وجود أدوات صوانية تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ويشير إلى انعدام الآثار من العصر الحجري القديم في صحراء الربع الخالي (أنظر سانلافيل (ص ٦٢-٦٣)، صورة الربع الخالي).

وفي بداية الخمسينات، تكثفت عمليات الـتنقيب الأجنبية عن النفط، بـوصول عـدد كبير من العلماء، ومنهم علماء جيولوجيا سيشكلون أولى مجموعات الأدوات المصنوعة من الحجر منذ ما قبل التاريخ. وقد استكشفوا أراضي غير معروفة، ولفتوا الانتباه إلى أهـمية الاسـتيطان منذ ما قبل التاريخ، عبر جمْع رؤوس سهام وقطع مزدوجة الوجه، تشكـّل دليلاً لا يُدحض على وجود مجموعات من الصيادين.

إلا أن قلة نادرة من علماء ما قبل التاريخ، أي الرواد، سيجرون عمليات تنقيب منهجية ويضعون أولى معالم تاريخ متسلسل لفترة ما قبل التاريخ في هذه المنطقة المُهملة. لذلك نشر هنري فيلد (Henry Field)[2] بصورة منتظمة ابتداء من عام ١٩٢٩م اكتشافاته في كل أنحاء المملكة العربية السعودية، فيما كشف هولغر كابل (Holger Kapel)[3] بصورة منهجية آثار ما قبل التاريخ في المنطقة الشرقية على امتداد الخليج وفي إمارة قطر. وقد وضع كابل أول دراسة تصنيفية typologie استخدمها علماءُ الآثار مرجعا لفترة طويلة. أما هــ ماكلور (H. McClure)[4] رائد الدراسات المناخية للعهد الجيولوجي القديم في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، فاكتشفف وأرّخ ظهور البـحيرات القديمة في وادي مندفان وفي صحراء الربع الخالي.

وابتداء من العام ١٩٧٠م، قامت الإدارة العامة للآثار والمتاحف بدور كبير في تطوير كل عمليات البحث عن الآثار، عبر وضع خطة تنقيب لخمس سنوات (١٩٧٦م- ١٩٨١م) وإصدار مجلة أطلال الوطنية للآثار التي تعنى بكل الحقب الأثرية. وقد قـُسمت البلاد إلى ست مناطق (الشرقية والشمالية والشمالية الشرقية والغربية والجنوبية الغربية والوسطى).

إن عمليات الاستيطان أثناء فترة ما قبل التاريخ، في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الأخير، التي أحـصيت في غـضون سنوات، بلغت بضع مئات من المواضع التي اكتـُشفت جميعها تقريبا على سطح الأرض، على الرغم من جدارة الفرق المتعددة الإختصاصات التي تشكلت.

ونظراً إلى عدم وجود مواقع مؤرخة من الـعصر الحجري الـقديم، وبقايا بـشرية وحـيوانية في العصر الرابع، فمن الصعوبة بمكان، ويا للأسف، تـحديد جذور عـمليات الاسـتقرار وتعاقبهـا في فترة ما قبل التاريخ. وبالتالي، تشكـّل الصناعة الحجرية المنحوتة، الشاهد الوحيد على تلك الثقافات حتى آخر ارتفاع لحرارة الأرض (هولوسيني (Holocène)، أي أحدث عصور الحقبة الرباعية).

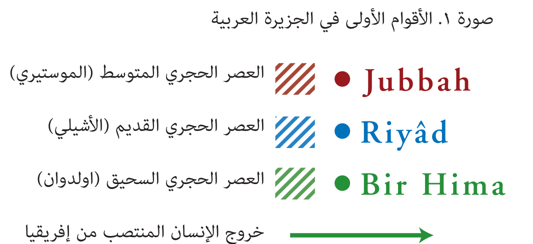
١. Alsharekh، ٢٠٠٦، ص. ١٢- ٣٩.
٢. Field، ١٩٧١.
٣. Kapel، ١٩٦٧.
٤. McClure، ١٩٧٦.

وصنف تلك الثقافات ورتبها طبقا لدراسة تصنيفية محددة منذ خمسين عاما، كلّ من ف. بورديس (F. Bordes) في أوروبا، و م. ليكي[5] (M. Leakey) في مواقع أولدفادي (Olduvai) في تنزاليا بإفريقيا.

وقد وُضع التسلسل الزمني من الأقدم إلى الأحدث (الصورة ٢): الأولدووان أو العصر الحجري السحيق (وجود السواطير، الزلط المنحوت)، العصر الحجري القديم (العصر الأشيلي (Acheuléen)، وجود الأدوات المزدوجة الوجه)، العصر الحجري المتوسط، والموستيري (Moustérien) (الأدوات المسننة) التي غالبا ما يتوافر دليل على تقصيبها حسب طريقة لوفالوا (Levallois). ويـجري التقصيب بقادح الحجارة على مواد أولية متنوعة: الحثّ الصواني والحجر البركاني والصوان، إلخ. ويـُلاحظ على كافة الأراضي عدمُ وجود أدوات نصلية كانت تميّز العصر الحجري الأعلى طبقا لدراسة تصنيفية تقليدية، من التقليد الأوروبي والشرق الأوسط.

وفي المقابل، ابتداء من العصر الهولوسيني المتوسط، قبل عشرة آلاف سنة، تتوافر مواقع تحتوي على تنوع أثري على صعيدي الموقع والتأريخ المطلقين، لشرح ثقافات لم تعد الأسهم

صورة ١. الأقوام الأولى في الجزيرة العربية





هيلين دافيد (Hélène David) ٢٠١٠

٥. Leakey، ١٩٧١.

صورة. ٢ . صناعة حجرية من العصر الحجري
١، ٢، ٣ : اولدوان
١، ٢ : حصى منحوتة، أو سواطير من الحث الصواني
٣ : مِكشطة من الحث الصواني (الشويحطية)
٤، ٥، ٦ : الأشيلي
٤، ٥ : حجر بركاني مزدوج الوجه (صفاقة)
٦ : حجر صواني مزدوج الوجه (المنطقة الشمالية الشرقية)
٧، ٨، ٩ : موستيري
٧، ٨ : مكشط وحجر بركاني مزدوج الوجه (بير حيما)
٩ : حجر بركاني مزدوج الوجه (وادي فاطمة)

المسننة مرجعها الوحيد.

تشتّت أجدادنا من نوع الإنسان المنتصب خارج إفريقيا

يعتقد علماء الإناسان بأن الإنسان المنتصب القديم قد غادر إفريقيا للمرة الأولى قبل مليوني سنة، طبقا لظاهرة التـشتّت وليس الـهجرة، لأن انتقال أجدادنا السحيقي القدم نحو أوراسـيا قد حصـل في الحقيقة على موجات متتالية وملائمة، وقد سلكوا بالتأكيد طرقا مختلفة.

الخروج الأول للإنسان المنتصب من إفريقيا

يفـيد التاريخ التـطوري للكائنات الحية، أن صنفا واحدا غـادر إفـريقيا هو الإنسان الـمنتصب، وأن بقايا هذه الكائنات البشرية في خارج إفريقيا، مجزأة واستثنائية (الصورة ١): فبقايا أقدم الكائنات المضافة إلى الحيوان والأدوات الحجرية المسنونة، قد عـثُر عليها في العُبَيْدية بالممر الـمشرقي (١،٥ مليون سنة)، وفي مـوقع دمـانيسي (Dmanissi) الإستثنائي من حـيث عدد الأفراد في القوقاز الجورجي (١،٧٧ مليون سنة). وفي شمال الصين، نتخذ من الإنتاج الحجري المسنون الذي صنعه الإنسان المستقر (in situ) (١،٦٦ مليون سنة) دليلا على هجرة الإنسان المنتصب[٦].

ما هي الطرق التي سلكها الإنسان الأول لمغادرة إفـريقيا؟ هل كان ثمة عـوائق جغرافية و/أو بيئية؟ يدور النقاش في الوقت الراهن حول فرضيتين.

في الفرضية الأولى، تـُطرح مسألة سلوك طريق برية، صعوداً نحو الشمال عبر وادي النيل أو على طول الساحل الإفريقي للبحر الأحمر حتى الممر المشرقي، لكن لا يتوافر أيّ شـاهد أثري على ذلك. وتستند الحجة الأساسية إلى نقص القدرات الإدراكية والتقنية المنسوبة إلى الإنسان المنتصب لمواجهة عبور بحري كعبور البحر الأحمر، فيما كان قادرا بصورة تدريجية على الوصول عبر البر إلى ملاجئ ايكولوجية خلال صعوده نحو شمال إفريقيا. ولإسناد هذه الفرضية، نلاحظ عدم توافر أي دليل قبل ظهور الإنسان الحديث، جدِنا المباشر، على أن الجنس البشري غادر إفريقيا باجتياز البحر عبر المضايق، سواء كانت جبل طارق أو مسين (Messine) أو باب المندب. وتتعلق أولى الهجرات الثابتة بأقوام سكنت أستراليا وغينيا الجديدة قبل حوالي ستين ألف سنة على الأكثر[٧].

وتتضمن الفرضية الثانية الأحدث، عبورا مبكرا جدا للبحر الأحمر ومضيق باب المندب: إنها نموذج هجرة عبر شبه الجزيرة العربية ابتداء من العصر البليستوسيني (Pléistocène) المتوسط (مليون سنة) للـوصول إلى إيـران والهند والصين، إلخ[٨]. والجـدير ذكـره في الواقع، هو أن عدداً من المواقع الإفريقية التي ترقى إلى العصر البليستوسيني القديم والمتوسط، قريبة من شواطئ البحر الأحمر، كمنخفض داناكيل (Danakil) في إريتريا (الصورة ١). وجاءت هذه المواقع التي تعود إلى حوالي مليون سنة، عن مصنوعات حجرية وتربية حيوانات وعـثُر فيها على بقايا بشرية. وينطبق الأمر نفسه على حوض غوباد (Gobaad) في جيبوتي، حيث توجد أيضا مستوطنات بشرية ترقى إلى العصر البليستوسيني القديم[٩].

وفي المملكة العربية السعودية، عـثُر على مصنوعات حجرية قديمة في الشويحيطية بالمنطقة الشمالية: فقد انكشفت ست عشرة محلة عن أدوات مشغولة وأحجارٍ متعددة الوجوه (polyèdre) (الصورتان ١و٢). وترقى إلى ١،٣ مليون سنة مقارنةً مع مصنوعات أولدوفاي (Olduvai) في تنزانيا. وفي بير حيما بمنطقة نجران في الجنوب الغربي، عـثُر على مجموعات مماثلة فوق سطح الأرض، وكذلك في جنوب شرق باب المندب باليمن وفي الشرق بحضرموت. وقد حملت هذه الاكتشافات بضعة مؤلفين على القول إن مجموعات بشرية استوطنت جنوب وشمال شبه الجزيرة العربية منذ العصر البليستوسيني القديم (صورة ١)[١٠].

هل نستطيع في الوقت الراهن، أن نؤرخ بفضل مقارنة نموذجية مع مصنوعات إفريقية، وما هي تلك المصنوعات؟ فمنذ ثلاثين عاما، ازداد اكتشاف المواقع التي ترقى في الواقع إلى العصر البليوسيني (العصر القريب الحديث) والعصر البليستوسيني القديم في إفريقيا الشرقية، وبفضل

٦. Part، ٢٠٠٨، ص. ٣٤-٤٤.
٧. Derricourt، ٢٠٠٥.
٨. Petraglia، ٢٠٠٣.
٩. Harmand, De Gusta, Slimak، وآخرون. ٢٠٠٩.
١٠. Whalen و Schatte ، ١٩٩٧.





صورة ٣. منظر لموقع وادي فاطمة

تقنية إعادة التركيب على معدات حجرية مسنونة في موقع بكينيا يرقى إلى نهاية العصر البليوسيني (٢،٣ مليون سنة)، تبين وجود تنظيم للمعارف، ولاسيما تبدّلية في النقش عبر تعبيرات من العصر الحجري القديم، مع أو بدون أحجار منحوتة[١١]. وينطبق الأمر نفسه بعد مئات الآلاف من السنين، على تشكيل الأحجار المزدوجة الوجه، الذي يبدأ قبل حوالي ١،٧ مليون سنة في إفريقيا ثم يكتمل خلال أكثر من مليون سنة!

ونسبة الأحجار إلى العصر الحجري القديم، تستند إلى وجودِ صناعةِ أحجار مصقولة الوجهين، كما في صفاقة وفي وادي فاطمة صوب الغرب (الصورة ٣).

والوجود البشري منذ العصر الحجري القديم في المملكة العربية السعودية، معقول تماما، لكن ما زال من الصعب تأريخه وتحديد مصدره[١٢].

هل غادر الإنسان العاقل (Homo sapiens) إفريقيا أيضا قبل مائة وخمسين ألف سنة؟

لأن من المسلّم به أن لدى الإنسان الحديث القدرات الجسدية والتكنولوجية والمعرفية لصنع زوارق واجتياز البحر، بات طريق شبه الجزيرة العربية سالكاً أمامه عبر البحر الأحمر، شرط أن تكون الظروف المناخية مؤاتية من جانب سواحل شبه الجزيرة.

لذلك اكتشف ماشياريللي (Macchiarelli) وفريقه في تهامة اليمنية عام ٢٠٠٦ أول موقع يرقى إلى العصر الحجري القديم في كل أنحاء الجزيرة العربية. ويتميز موقع شعبة يحيى الذي يعود إلى حوالي ثمانين ألف/ سبعين ألف سنة، بمصنوعات حجرية مقصبة على طريقة لوفالوا[١٣]. إن عمليات إعادة التركيب التي حصلت، والأهمية العددية لمادة غير مزنجرة تتيح تقويم المعارف التقنية لسكانه. لذلك يمكننا أن نفكر بربطه ببضعة أماكن في تهامة السعودية التي قدمت قبل عشرين عاما أدوات مع شظايا لوفالوا وكتل صوانية كان بعض منها موتّداً في المصطبة المرجانية الواقعة على ارتفاع مترين فوق مستوى البحر. وبدأت عمليات تنقيب في الفترة الأخيرة على ساحل تهامة وخصوصا في جزر فرسان، مصحوبة بعمليات بحث في أعماق البحر لتحديد

١١. Delagnes و Roche، ٢٠٠٥.

١٢. Crassard، ٢٠٠٨.

١٣. أوجه بالغ الشكر إلى البروفسور R. Macchiarelli الذي أطلعني شفهيا على هذه النتائج التي عرضها في Vancouver في ٢٠٠٨، خلال ندوة *Meetings of the Paleoanthropology Society* والتي لم تُنشر بعد.

١٤. Bailey, AlSharekh, Flemming، وآخرون. ٢٠٠٧.

صورة ٤. آخر ثقافات ما قبل التاريخ

انتشار حجر السبَج (حجر زجاجي أسود)

منطقة مصدر حجر السبج

• Jubbah موقع من العصر الحجري الأخير

تقصيب رقيق من نوع شرق أوسطي

هيلين داڤيد (Hélène David)، ٢٠١٠

مستويات جيولوجية قديمة تحت المياه في الوقت الراهن[١٤]. وما عدا الأكوام العديدة جداً لمجموعات الأصداف التي ترقى إلى العصر الهولوسيني المتوسط، حدد موقع مصطبة مرجانية أقدم، تجعلنا نأمل في اكتشاف مواقع من العصر الحجري القديم من فترة ما قبل التاريخ. وتُنسب في الواقع إلى العصر الحجري القديم المتوسط المصنوعات المقصبة والمترافقة مع مصنوعات مزدوجة الوجه وأدوات غليظة (مكاشط ومجارف ومسننات) مكتشفة ويمكن مقارنتها بالأدوات التي جُمعت من حوض جبة في الشمال (الصورة ٤).

آخر ثقافات ما قبل التاريخ

لا يزال لغزٌ قائما في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية: فلم يُكشف عن أي حضور بشري يرقى إلى العصر الحجري القديم الأعلى (بين أربعين ألف واثني عشر ألف سنة). ولا تبرر اليبوسة الفائقة الغياب التام للاستيطان في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية، لكن مردّ هذا الغياب على ما يبدو إلى ثغرة في عمليات البحث[١٥]. ومن الضروري أن نأخذ بالاعتبار، في المنطقة الشرقية، أراضي شاسعة انحسرت عنها المياه لدى تدني المستويات البحرية في الخليج، ورافقت خسف الصفيحة العربية، والبحث عن مواطن سكن مختفية. وبالتالي فإن وجود مناطق جبلية في الغرب والجنوب الغربي ملائم للحفاظ على النبيت والوحيش كما يمكن أن نلاحظه في الوقت الراهن.

١٥. Uerpmann و Uerpmann, Potts، ٢٠٠٩.

صورة ٥. صناعة حجرية منحوتة من الصوان في المنطقة الشرقية
١، ٢ : قطعة منحوتة مزدوجة الوجه ليِّنة القادح
٣ : مِكشط
٤، ٥، ٦ : رؤوس سهام معنقة ومزعنفة منمقة بالضغط
٧، ٨، ٩، ١٠ : نصيلات من الصوان (عين قناص)

العصر الحجري الأخير ونماذج الانتشار

خلال الحقبة الأخيرة لارتفاع حرارة الأرض، قبل عشرة آلاف سنة، ازدادت عمليات الاستيطان الموجودة التي ترقى إلى فترة ما قبل التاريخ في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية.

وبصورة عامة، شهد العالم تغيراً كبيراً، هو العصر النيوليتي (الحجري الأخير) الذي ترافق مع تدجين الحيوانات والنباتات في عدد كبير من المراكز المستقلة: فالشرق الأوسط هو أقدم بؤرة تدجين معروفة حتى اليوم، وتُقدر بعشرة آلاف سنة على الأقل. وغالبا ما يرافق الاستقرار هذه الظاهرة.

لذلك استمر نموذجُ الصياد الذي يقتات مما تنتجه الأرض، آلاف السنين في شبه الجزيرة العربية لأسباب مناخية في المقام الأول.

وحصل تدجين (الأبقار والخراف والماعز) ذات الأصول الشرقية قبل أكثر من ستة آلاف سنة. إلا أن شبه الجزيرة العربية تمكنت من الاضطلاع بدور في تدجين الحمير والحيوانات المبردعة، القنوعة جداً، إذا ما ثبت الأصل الإفريقي لهذا التدجين، لأن أهمية صيد الحمير في كافة أنحاء تهامة في الألف السابع قبل الميلاد، هي ملاحظة متواترة الذكر[١٦].

إلا أن أقوام شبه الجزيرة العربية لم ينحصروا في نمط عيش عتيق. فقد ارتسمت ملامحُ أقاليم ما قبل التاريخ، التي تقيم صلاتٍ بالبلدان المجاورة، وعلى مسافات بعيدة أحياناً، وسيساهم فنُ النحت على الصخور في شرحها وتفسيرها. وهذا الفن سيتطور ابتداء من الألف السابع قبل الميلاد، وخصوصا في الأراضي العالية غرباً، وسيكون شاهدا لا مثيل له ليس فقط على الصيد وطقوسه، والحيوانات المنقرضة (الجاموس والسنوريات)، بل أيضا على صلات القربى مع إفريقيا والشرق الأوسط[١٧].

وهيمنت على الثقافة المادية صناعةُ الحجر المنحوت الذي غالبا ما كان الصامد الوحيد، والشاهد على أهمية الصيد في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية. وكان الصوان الصخر المميز لصنع أسلحة الصيد، التي كان القسم الأكبر منها مزدوج الوجه[١٨]. وقد تنوعت تقنيات التقصيب، من الاستخدام المنتشر جدا لقادح الحجر إلى التنميق بالضغط (الصورة ٥). وقد تأخرت تكنولوجيا صناعة الفخار.

وفي المنطقة الشرقية ندين لعبدالله مصري[١٩] في السبعينات، بنشر أول معلومات عن عمليات تنقيب شملت الطبقات الجيولوجية في واحة يبرين وعلى طول ساحل الخليج، مع التشديد على دور المبادلات الإقليمية مع بلاد ما بين النهرين شمالاً والشرق الأوسط غرباً (الصورة ٥). وستنجلي عين قناص عن بضع طبقات استيطانية، ترافقت مع وجود أسلحة صيد نصلية، في واحد من المستويات القديمة، التي كانت تميز أسنّة أموك (Amuq) في جنوبي المشرق والتي تنتمي إلى ثقافة ما قبل العصر الحجري الأخير الخالي من الخزف في الألف السابع قبل الميلاد: التقصيب الرقيق المتتالي نفسه، الذي يخضع لعملية تطريق مزدوجة، وهي الطريقة نفسها لنحت الأسلحة النصلية[٢٠] (الصورة ٦). وتُعتبر هذه الطريقة الموجودة في بضع مناطق والمتناثرة على طول الخليج، حتى في سلطنة عُمان، وبضع مشاغل لنحت النصول في إمارة قطر، طريقةً فريدة. ولن تتبنى طريقةَ التقصيب هذه، الأقوامُ المحلية التي تمارس تقصيبا يعتمد النحت على الوجهين لأسلحة الصيد (الصورة ٥). ولا شك في أن مجموعات الصيادين هذه قد أتت من المشرق واستقرت على ضفاف الخليج (الصورة ٤).

فضلاً عن صيد الحيوانات، تطور صيد السمك في السواحل على متن زوارق، في الألف السابع والألف السادس قبل الميلاد، في مناطق الخليج. ولا شك في أن الصيادين قد برعوا في «حفظ» الأسماك، كما يتبين من بقايا الرؤوس المتروكة في الحقول الأثرية.

وفي منطقة ساحلية أخرى إلى الغرب، على طول البحر الأحمر، تختلف الحقول الأثرية عن الحقول الشرقية. فقد كُشفت على شكل أكوام صدفية أطلق عليها جميعا اسمُ (*shell – middens*)[٢١]. ويناهز عددُها المئات في جزر فرسان، وتتخذ شكل ربوات صغيرة قليلة الارتفاع[٢٢]. وتشهد البقايا الحيوانية، في آنٍ معاً، على ممارسة صيد السمك وجمْع الأصداف وصيد الحمار الإفريقي المتوحش، (*asinus africanus*)، ابتداء من الألف السابع قبل الميلاد، في كافة أنحاء تهامة، أما الغزلان والطرائد الأخرى، فكانت نادرة جداً.

١٦. Inizan و Rachad، ٢٠٠٧.
١٧. انظر في الكتاب الراهن، M. Khan، ص. ١٥٩-١٦٥.
١٨. Edens، ١٩٨٢.
١٩. مصري، ١٩٧٤.
٢٠. Inizan، ١٩٨٨، ص. ٤٠-٤٨.
٢١. Zarins, Murad، و al-Yaish، ١٩٨١.
٢٢. Bailey, Alsharekh, Flemming، ٢٠٠٧.

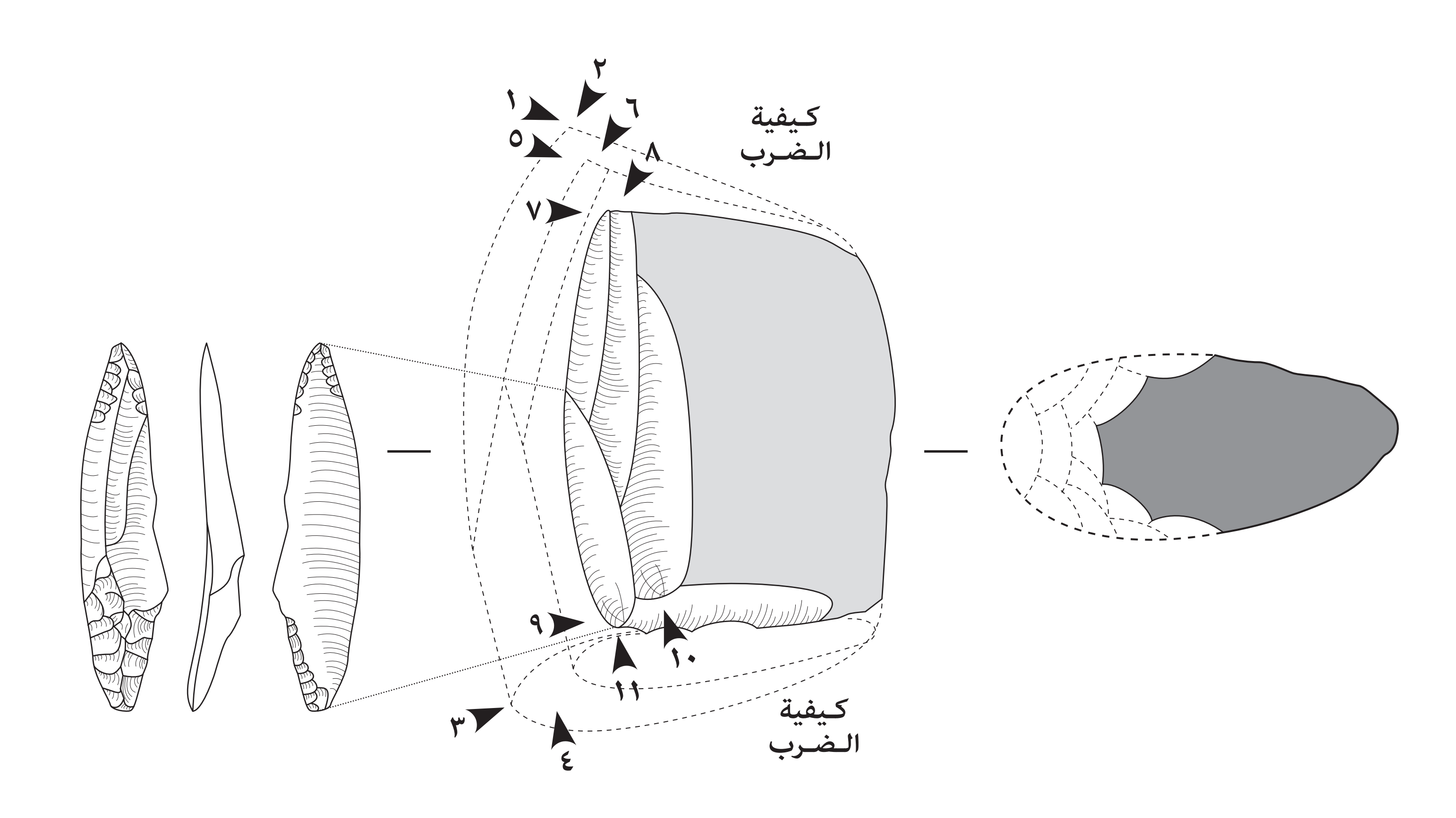
العصر الحجري الأخير

المنطقة الشرقية

٣ ٢ ١

صفر ٥ سم

١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤



(أعلاه)
صورة ٦. صورة كبيرة لسهم معنق على نصيلة

(إلى الجانب)
صورة ٧. صناعة حجرية منحوتة من الصوان في المنطقة الوسطى
١، ٢، ٣ : رؤوس سهام (ثمامة)
٤ : مِكشط
٥ : رأس سهم بيضوي ورقي الشكل
٦ : مثقب أو معنـّق مكسور أصلح بمهارة بواسطة الضغط
٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ : أنواع مختلقة من رؤوس السهام

وكان السبج (حجر زجاجي أسود) المنحوت موجودا ابتداء من العصر الحجري الأخير حتى الحقب التاريخية. وعـُثر على هذا الحجر الزجاجي البركاني الذي يـُنحت بسهولة، في تدفقات البراكين التي توافرت حول البحر الأحمر في المملكة العربية السعودية، وفي اليمن من ناحية السعودية، وفي أثيوبيا وإريتريا من الجانب الإفريقي (الصورة ٤). وجعل الطابع الفيزيائي- الكيميائي من السبج معـْلما ممـتـازا لطُرُق المواصلات والـتـبادل، كما أثبت ذلك جي. زاريـنس (J. Zarins) في الثمانينات[٢٣].

وما زال السبج، المنحوت بالطرْق وليس بالضغط، كما درجت العادة في الشرق الأوسط والبحر المتوسط، متداولا بكميات قليلة؛ ويـُلاحظ وجوده في أراض شاسعة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، باعتباره دليلا على مجموعات ثقافية حول البحر الأحمر[٢٤] (الصورة ٤).

وفي المناطق الوسطى والربع الخالي الصحراوية، تبدو ممارسة الصيد النشاط الأبرز الـمعترف به عبر الثقافة المادية التي تمثل القسم الأكبر منها أدواتُ الصيد (الصورة ٧).

وخلاصة القول، على الرغم من المناخ الفائق الجفاف، والذي تتخلله أحيانا فتراتٌ أشد رطوبة، استوطن الإنسان شبه الجزيرة العربية منذ العصر الحجري القديم. متى وما هي الطرق التي سلكها؟ ما زال من المبكر تحديد طرق الهجرة. إلا أن العثور في تهامة اليمنية على أول موقع منضد ومؤرخ يرقى إلى العصر الحجري، والنتائج الأولية للبحوث التي أجريت على الساحل السعودي، توفر لنا وسائل لفهم الاستيطان الإنساني في شبه الجزيرة العربية.

وفي المقابل، في نهاية فترة ما قبل التاريخ، خلال قبل حوالي عشرة آلاف سنة، كشفت بحوث حديثة من جهة تطورَ ثقافات مختلفة وديناميكية في مجال الصيد والملاحة على سـبيل المـثال، ومن جهة ثانية، دورَ شبه الجزيرة في المبادلات مع إفريقيا غرباً، والمناطق الشاطئية للخليج شرقاً وبلاد ما بين النهرين في الشمال.

٢٣. Zarins، ١٩٩٠.
٢٣. Zarins، ٢٠٠٩.

العصر الحجري الأخير

المنطقة الوسطى

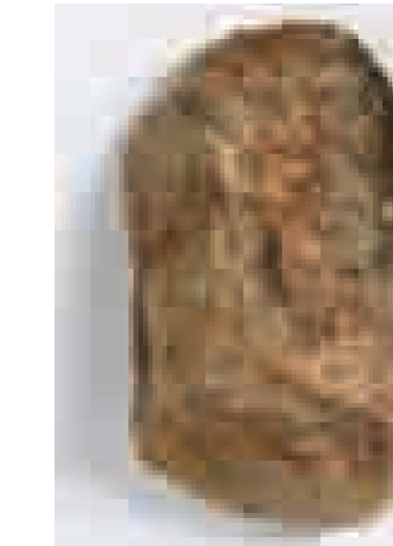


أولدواين



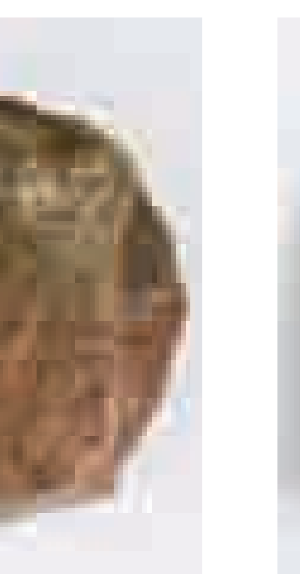
١. حجر منحوت (شوبّر)
أولدواين، (العصر الحجري القديم)
حجر رملي
١٤ x ١٠،٣ x ٨ سم
الشويحطية
الرياض، المتحف الوطني، ١٠/١٩

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.

٢. حجر منحوت (شوبّر)
أولدواين، (العصر الحجري القديم)
حجر رملي
١٠،٦ x ٦،٣ سم
الشويحطية
الرياض، المتحف الوطني، ١٢

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.




٣. حجر منحوت (شوبّر)
أولدواين (العصر الحجري القديم)
حجر رملي
٩،٥ x ٧،٨ x ٦،٢ سم
الشويحطية
الرياض، المتحف الوطني، ١/٣

الأشيلي

٤. حجر منحوت (شوبّر)
أشيلي، (العصر الحجري القديم)
حجر بركاني
١١ x ٥،٥ x ٤،٧ سم
وادي فاطمة
الرياض، المتحف الوطني، ١/٨٤



٥. مزدوج الوجه
أشيلي، (العصر الحجري القديم)
حجر بركاني
٩،١ x ٥،٦ x ٣،٧ سم
صفّاقة
الرياض، المتحف الوطني، ١/٤٩٠

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.



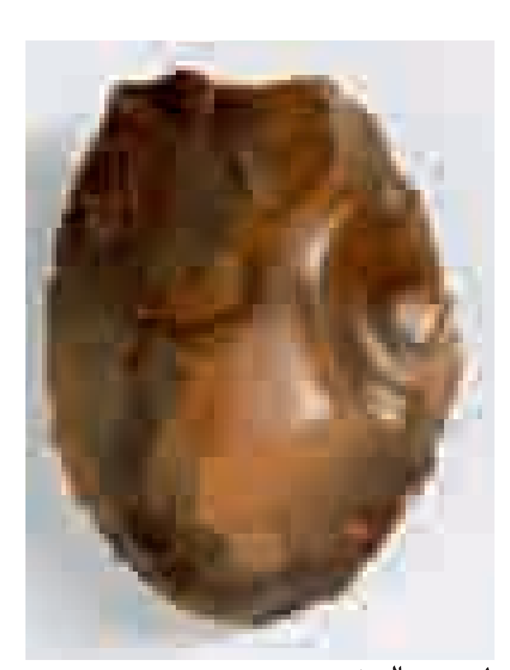
٦. مزدوج الوجه
أشيلي، (العصر الحجري القديم)
١٣،٢x ٦،٨ x ٥،٢ سم
صفاقة
الرياض، المتحف الوطني، ٢/٥٠٢

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.



٧. مزدوج الوجه
أشيلي (العصر الحجري القديم)
حجر بركاني
١٤ x ٨ x ٣،٨ سم
صفاّقة
الرياض، المتحف الوطني، ١/٤٩٣

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.



٨. مزدوج الوجه
أشيلي (العصر الحجري القديم)
صوان
١٤،١ x ١٠،٥ x ٣،٨ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٢/٣٠٦

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.



٩. مجرفة
أشيلي (العصر الحجري القديم)
صوان
٩،٨ x ٩،٢ x ٣ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٣/٣٠٣

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٠.

الموستيري



١٠. مجرفة
الموستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١٢ x ٥،٤ x ٢،٣ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ١/١٢١.

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦١.



١١. مزدوج الوجه
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
٩،٨ x ٧،٤ x ٤،٤ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ١/١١٣

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦١.



١٢. سكين مطرّقة الحدّ
موستيري، (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١٢،١ x ٧،٦ x ٦ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ١/١٧٥

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٢.



١٣. مزدوج الوجه
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
٧٫٣ x ٥٫٤ x ٢٫٨ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ١/١٦٤

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦١.



١٤. سكين مطرّقة الحدّ
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١١ x ٤٫٥ x ٣٫٣ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ٤/١٠٤

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦١.



١٥. مثقب
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١٢٫٥ x ٩٫٥ x ٥٫٨ سم
وادي فاطمة
الرياض، المتحف الوطني، ٦/١٠٨

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص.١٦١.



١٦. مِكشط
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١٠٫٣ x ٦٫٥ x ٣٫١ سم
بير حيما
الرياض، المتحف الوطني، ١/١١٥

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٢.

١٧. مزدوج الوجه
موستيري (العصر الحجري المتوسط)
حجر بركاني
١٠ x ٧٫٥ x ٣٫٨ سم
وادي فاطمة
الرياض، المتحف الوطني، ٦٤٨

العصر الحجري الأخير في المنطقة الشرقية



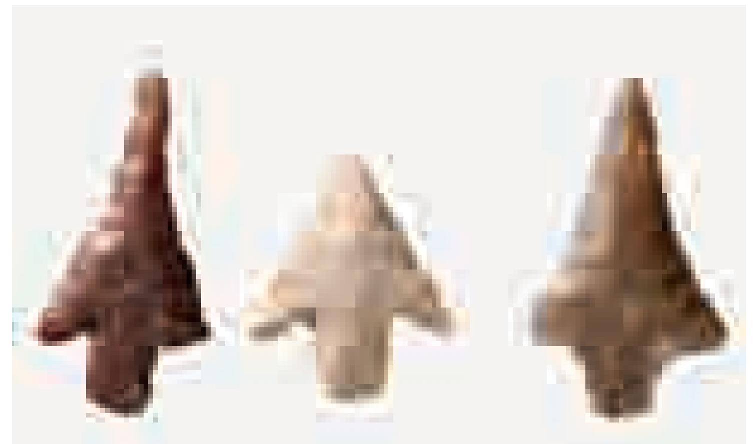


١٨. قطعتان مزدوجتا الوجه
العصر الحجري الأخير
صوان
٨ إلى ٨٫٩ x ٢ x ٠٫٤ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٠ ٠٠١ t.t (٢)

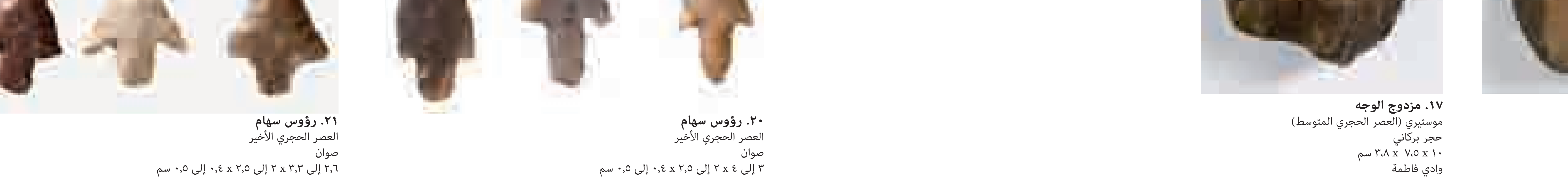
١٩. مجرفة
العصر الحجري الأخير
صوان
٩٫٨ x ٤٫٢ x ١٫٤ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٠ ٠٠٨ t.t (١)



٢٠. رؤوس سهام
العصر الحجري الأخير
صوان
٣ إلى ٤ x ٢ إلى ٢٫٥ x ٠٫٤ إلى ٠٫٥ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٠ ٠١٤ t.t (٣)



٢١. رؤوس سهام
العصر الحجري الأخير
صوان
٢٫٦ إلى ٣٫٣ x ٢ إلى ٢٫٥ x ٠٫٤ إلى ٠٫٥ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٠ ٠١٢ t.t (٣)



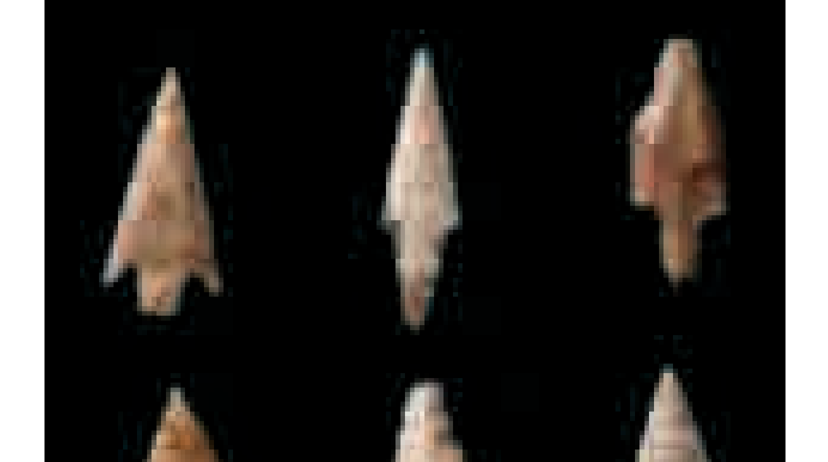


٢٢. نُصَيْلات
العصر الحجري الأخير
صوان
٣٫١ إلى ٤٫٤ x ٠٫٩ إلى ١٫٤ x ٠٫٣ إلى ٠٫٧ سم
المنطقة الشرقية
الرياض، المتحف الوطني، ٠٠٢ ٠١٦ t.t (١١)

العصر الحجري في المنطقة الوسطى



٢٣. رؤوس سهام
العصر الحجري الأخير
صوان
٦٫٦ إلى ٦٫٨ x ٣٫٦ إلى ٤ x ٠٫٣ إلى ٠٫٥ سم
ثمامة
الرياض، المتحف الوطني، ٠٠٢ ٠٠٣ t.t (٣)



٢٤. رؤوس سهام
العصر الحجري الأخير
صوان
٣٫٤ إلى ٣٫٩ x ١٫٣ إلى ٢٫١ x ٠٫٤ إلى ٠٫٦ سم
المنطقة الوسطى
الرياض، المتحف الوطني، ٠٠٢ ٠١٠ t.t (٦)



٢٥. قطع مزدوجة الوجه
العصر الحجري الأخير
صوان
٣٫٣ إلى ٣٫٨ x ٢ x ٠٫٥ سم
المنطقة الوسطى
الرياض، المتحف الوطني، ٠٠٢ ٠٠٦ t.t (٣)



٢٦. قطع مزدوجة الوجه
العصر الحجري الأخير
صوان
طول من ٢ الى ٤ سم
المنطقة الوسطى
الرياض، المتحف الوطني، H٦-٤٣٥

من فنّ ما قبل التاريخ إلى فن الرُّحّل :

بعض الأفكار عن تاريخ الفن على الصخر وتطوره في المملكة العربية السعودية

مجيد خان

(صفحة اليسار)
تفصيلة جدار مزيَّن، تصوير Humberto da Silvera

إن وصول الإنسان إلى الجزيرة العربية يرجع إلى أكثر من مليون عام، كما يثبت ذلك عدد من الأدوات الحجرية المكتشفة في مواقع مثل الشويحيطية في شمال المملكة العربية السعودية، والدوادمي في الوسط، وبير حما في الجنوب، أو وادي فاطمة في الغرب[١].

قبل عشرة آلاف سنة، في الجزيرة العربية، كان الإنسان لا يزال يعيش من الصيد ومن الجني، ولكن، بين ١٠٠٠٠ و٨٠٠٠ قبل الميلاد، أُضيف إلى الصيد بعض النشاط الرعوي، كما أضيفت بدايات الزراعة في الأودية والسهول المعرّضة للفيضانات. قبل خمسة آلاف سنة، كان معظم الناس متنقلين، ولكن يبدو أن بعض المنشآت الحجرية المستديرة وبعض الآثار المتبقية تشير إلى أن عدداً من التجمعات البشرية الصغيرة المستقرة شرعت بالتشكّل في تلك الفترة. تركت لنا مختلف هذه التجمعات، في شكل النقوش الحجرية أو الرسوم[٢]، شواهد ثمينة عن حياتها اليومية: الصيد، والقتال، والنشاطات الاجتماعية والدينية.



الصورة ٢. الشخص الملقّب بالملك، جبّة





الصورة ١. مجموعة أشكال شبيهة بالإنسان، جبّة.

١. والن وآل.، ١٩٨٣م.
٢. خان، ١٩٩٣م.





الصورة ٣ والصورة ٤. راقصون مقنعون، جبّة.



الصورة ٥. إله المطر والعاصفة، جبّة
حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

تمتاز المملكة العربية السعودية بتراث ثقافي غني: سُجّلت فيها أكثر من عشرة آلاف موقع أثري، منها ألف وخمس مئة مواقع للرسوم الصخرية، فيما نترقب العديد من المكتشفات الجديدة. يبدأ استيطان الجزيرة العربية في الفترة الألدوانية (قبل ما يقارب مليون سنة)، إلا أن أوائل شواهد الفن الصخري تعود إلى العصر الحجري الحديث، حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وسيستمر هذا الفن حتى مجيء الفترة الإسلامية، حوالي ٦٢٢ بعد الميلاد.

تعود مصادر ثقافة العرب الرُّحّل، ويطلق عليهم محلياً البدو، إلى ما قبل التاريخ، وخاصة منها النظام القَبَلي الذي يؤمّن منذ القِدَم بتقاليد اجتماعية وثقافية قوية.

تشهد بعض الرقصات العربية اليوم على صلات مع فنٍّ قَبَلي عريق في القِدَم.

على اللوحة الصخرية الكبيرة المنقوشة في جُبّة (الصورة ٣ والصورة ٤)، نرى رجالاً ونساءً مقنّعين، ويظهر في الصورة أنهم يرقصون؛ كما يمكن أن تمثل هذه الرسمات شخصيات أسطورية ذات جسم بشري ورأس شبيه برأس الحمار. والجدير بالذكر هو أن نسجّل الوجود المستمر، في الوقت الحالي، لرقصة تقليدية تُدعى العرضة، يرقصها الرجال جماعياً، يمكن تشبيهها برسمات صخور جبّة، والمليحية، وجانين وتبوك في شمال المملكة العربية السعودية. عند معاينة الرسمات الصخرية ودراستها قدر الإمكان، نرى أن طريقة تجمّع الراقصين، ووضع أرجلهم وسواعدهم وأيديهم (يمسك كل منهم بيد الآخر)، وحركاتهم المتناظرة، توافق الطريقة التي تؤدّى بها الرقصة القَبَلية المدعوة عرضة.

من المغري إذاً أن نرى، في تمسّك البدو الحاليين بالروابط القَبَلية وبالقيم الثقافية والاجتماعية الخاصة بمختلف قبائلهم، كالرقصات على سبيل المثال، إستمرار تقاليد ثقافية تعود إلى ما قبل التاريخ [٣].

٣. خان، ١٩٩٠م و٢٠٠١م.

الصورة ٦. رجال ونساء في رقص جماعي، الشويميس، حوالي ١٠٠٠٠-٨٠٠٠ قبل الوقت الحاضر.

فيما يقارب كافة التشكيلات التي يسعنا أن ننسبها إلى العصر الحجري الحديث، حوالي ١٠٠٠٠-٧٥٠٠ قبل الميلاد، نجد الحيوانات، وخاصة منها الثيران والكلاب، مع رسمات البشر. نستنتج إذاً أن هذه الحيوانات كانت مدجّنة منذ تلك الفترة وأنها كانت جزءاً من الحياة اليومية ومن نشاطات البشر الاجتماعية والثقافية.

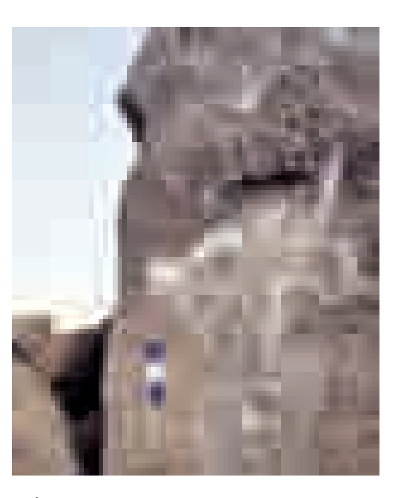
تمثل الصورة ٤ حدثاً اجتماعياً أو دينياً: يبدو أن بعض الرجال (وأجسامهم رقيقة وممشوقة) والنساء (نتعرّف عليهن بأحواضهن العريضة)، وكلهم يرتدون الثياب الطويلة وينتعلون أنواعاً من الأحذية، يرقصون رقصاً جماعياً. هل تمثل الصورة بَشَراً مقنّعين أم شخصيات أسطورية ذات جسم بشري ورأس حيواني؟

تمثل الصورة سبعة شخصاً قد يكون إله المطر والعاصفة.

بعد استقرار البشر، أنهم شيّدوا المعابد ونحتوا أشخاص في الحجر أو صبوا في المعادن صور آلهتهم، إلا أنهم تابعوا نقشها على أوجه الصخور.

إن هذه الصورة الأنثوية، المنحوتة على واجهة حجر رملي قاس، موجودة على قمة أكمة يبلغ ارتفاعها ٢٠٠م، ومنقوشة على صخرة تواجه الشرق. تسقط أشعة الشمس المشرقة مباشرةً على هذه الصورة المرئية من بعيد. ويمكن أن نتعرّف فيها على الآلهة الأم، إلهة الحب والخصب. في منطقة نجران، يكثر تمثيل الآلهات كما نراها هنا، ذات حوض واسع، مرفوعة اليدين جزئياً، مبسوطة الكفين وممدودة الأصابع (الصورة ٧).

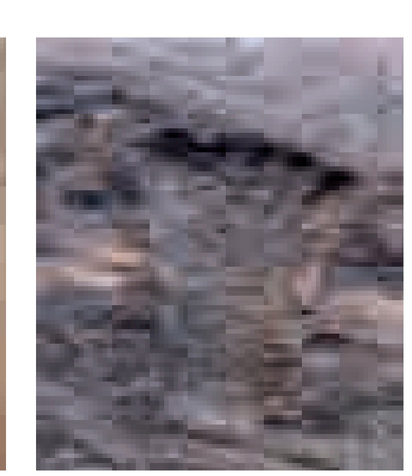
إن مشاهد الصيد رمزية ولا نرى فيها أبداً حيوانات مجروحة أو مصابة بالسهام. هل تشير إلى ممارسة سحرية؟ هل تمثّل حَدَثاً خاصاً أو طقوساً أنجزت لتأمين وفرة الصيد؟ من الممكن ألا تكون كافة هذه المعاني سوى افتراضات نشأت عن تخيلاتنا المعاصرة.

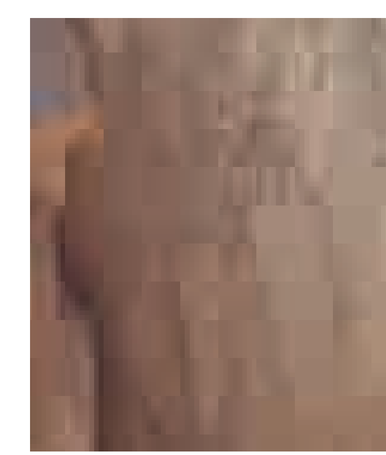


الصورة ٧. صورة آلهة



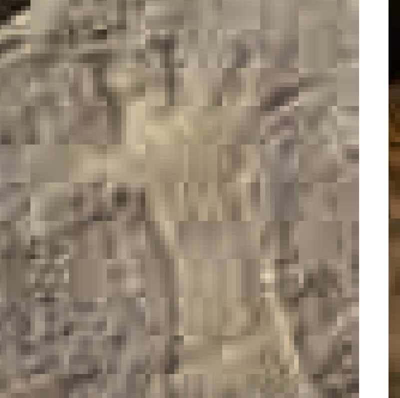
الصورة ٨. مشهد صيد. الرجال مسلّحون بالأقواس والسهام وعصي الرمي؛ ويظهر الكلب دائماً في هذه المشاهد، جبّة.


الصورة ٩. بصمات أقدام في جنوب الجزيرة العربية


الصورة ١٠. بصمات أقدام في شمال الجزيرة العربية



الصورة ١١. بصمات أيادٍ



الصورة ١٢. بصمات أيادٍ

تمثيل بصمات الأقدام والأيدي

إن تمثيل بصمة القدم البشرية (الصورة ١٠)، المحفورة بعمق في الواجهة الأفقية لصخرة من الحجر الرملي في الشويميس، شمالي الجزيرة العربية، تكاد تقارب أبعادها المقياس الطبيعي، يُعَدُّ بين أوائل الشواهد على وجود الإنسان في جزيرة العرب. ترجع بصمة القدم المذكورة، وهي الأقدم من نوعها في جزيرة العرب، إلى حوالي ١٠٠٠٠-٨٠٠٠ قبل الميلاد.

كما رُسِمت بعض الأيدي مفتوحة الراحة وممدودة الأصابع، على إحدى الأوجه العمودية لأكمة في منطقة تبوك، في الشمال الغربي (الصورة ١١). ويبقى تاريخها مجهولاً. أما الضبع والكلب فأضيفا لاحقاً.

ترافق النصوص المنقوشة بعض الرسمات الصخرية: تبدي الصورة ١٣ إمرأتين تتقاتلان بضراوة، وإمرأة أخرى تنظر إليهن، رافعةً يديها وكأنها تحكم بينهن وتدفعهن لاتباع قواعد القتال. ويشير كل نص منقوش إلى اسم شخص: يسعنا أن نقرأ، في الأعلى، «ب ج ء ض»، أي بجاض، وفي الأسفل، «ب ل ب ح»، أي بلابح. وقد يشير ذلك إلى اسْمَيْ المرأتين المتقاتلتين.

استمرت ممارسة فن الحفر على الصخر بعد اختراع الكتابة في الجزيرة العربية. إن الكتابة «الثمودية»، هي كتابة بدائية لا نجد في الكتابات المحفورة على الصخور، سوى أسماء الأشخاص والقبائل، ولم يتم اكتشاف أي نص طويل إلى الآن.


الصورة ١٣. معركة بين إمرأتين

لقد تم تثبيت التغيّر التدريجي في النمط والفحوى والسياق والمفاهيم بين فنّ ما قبل التاريخ وبين الفنّ القَبَلي أو البدوي، اعتماداً على صور الحيوانات والرموز القبلية والتطورات اللاحقة للكتابة البدوية في مطلع العصر الحديدي. تبدي رسمات الرقصات البدوية الفولكلورية، ورسمات الجمال الموسومة بالحديد الأحمر، كما تبدي أسماء الأشخاص أو القبائل المنقوشة في جوار بعض الصور الصخرية، أن الفن الصخري أدّى دوراً هاماً في وصف الكيانات الاجتماعية والثقافية والدينية في الجزيرة العربية، من فترة ما قبل التاريخ حتى مطلع الفترة الإسلامية.

مع استقرار تجمعات بشرية كبيرة، وتطور القبائل والعشائر، وتدجين الجَمَل على نطاق واسع، ظهرت على الحيوانات العلامات المدموغة بالحديد الحامي، وهي تدعى محليا الوسوم. كانت كل قبيلة تستخدم وسماً خاصاً بها لتحديد أراضيها والتوقيع على وثائقها وتمييز قبورها، وللدلالة أيضاً على خيامها وعلى مواقع التخييم التي تمتلكها[٤]. إن وسم الحيوانات بالحديد الحامي ظاهرة عامة، لا تزال مستعملة على الأحصنة والأنعام، لأنها عادة قديمة في الجزيرة العربية، عميقة الجذور في التقاليد. يعتمد الأعراب الرُّحَّل، الذين يعيشون اليوم في البادية، أي البدو، أشكالاً هندسية أو غير مشخَّصة، للدلالة على قبائلهم المختلفة. لم يخرجوا من أراضيهم منذ القِدَم وما زالت قيمهم الاجتماعية والثقافية على حالها.

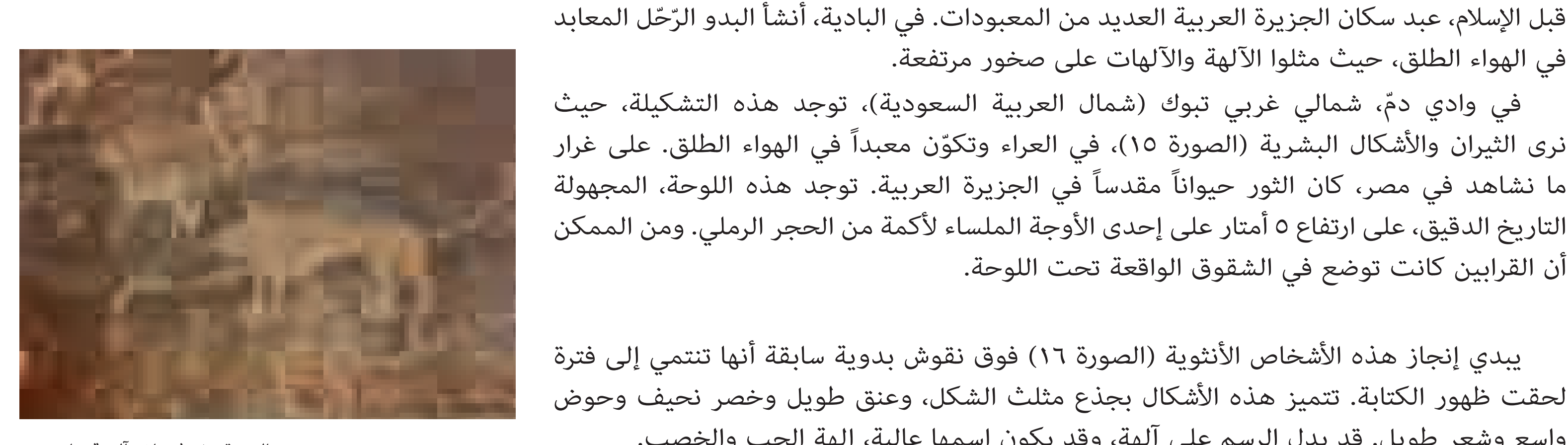
يعتمد نظام «الوسوم» على تركيب معقد من العلامات غير الصوتية. وهو نظام رموز محدود الاستعمال. إن هذه الوسوم رموز متعلقة باللغة أو بالكتابة إلا أنها فورية الدلالة، على غرار لوحات تأشير الطرقات، ولا تتطلب أية معرفة لغوية ويسع الجميع أن يفهمها.

الصورة ١٤. ثلاثة دوائر تَسِمُ كتف الجمل.

المعابد في الهواء الطلق

قبل الإسلام، عبد سكان الجزيرة العربية العديد من المعبودات. في البادية، أنشأ البدو الرّحّل المعابد في الهواء الطلق، حيث مثلوا الآلهة والآلهات على صخور مرتفعة.

في وادي دمّ، شمالي غربي تبوك (شمال العربية السعودية)، توجد هذه التشكيلة، حيث نرى الثيران والأشكال البشرية (الصورة ١٥)، في العراء وتكوّن معبداً في الهواء الطلق. على غرار ما نشاهد في مصر، كان الثور حيواناً مقدساً في الجزيرة العربية. توجد هذه اللوحة، المجهولة التاريخ الدقيق، على ارتفاع ٥ أمتار على إحدى الأوجة الملساء لأكمة من الحجر الرملي. ومن الممكن أن القرابين كانت توضع في الشقوق الواقعة تحت اللوحة.


الصورة ١٥. ثيران وآلهة، وادي دم.

يبدي إنجاز هذه الأشخاص الأنثوية (الصورة ١٦) فوق نقوش بدوية سابقة أنها تنتمي إلى فترة لحقت ظهور الكتابة. تتميز هذه الأشكال بجذع مثلث الشكل، وعنق طويل وخصر نحيف وحوض واسع وشعر طويل. قد يدل الرسم على آلهة، وقد يكون اسمها عالية، إلهة الحب والخصب.


الصورة ١٦. مصليات، جبل ثائر

نرى عدة رسوم تمثل الآلهة عالية بوضع عمودي، في موقع نسبي الارتفاع ومرئي على أكمة (الصورة ١٧). يقرب الموقع من نقطة ماء نضبت مؤخراً، ومن الممكن أنها كانت نبعاً أو صهريجاً يجمع مياه الأمطار. تساهم بضعة ملاجئ صخرية، مع وجود الماء والقليل من النباتات، لتجعل من هذا المكان موقعاً ممتازاً للتجمعات الاجتماعية أو الدينية. من الممكن أن سبق وأقيمت هنا طقوس، وأن صورة الإلهة كانت تُستحدث كل مرة، سنوياً أو وفق دورات زمنية أخرى. واستخدم الموقع لفترات طويلة للتجمعات: نرى فيه مئات النصوص العربية القديمة المحزوزة حول مصادر المياه. وتؤرّخ حوالي ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد.

تبدي صور الآلهة المذكورة أن الفنان، أو الفنانين، كان يعمل (أو يعملون) ضمن إطار دقيق، معيداً (أو معيدين) كل مرّة الفكرة العامة عينها، والموضوع عينه والأسلوب عينه من دون أن يتمتع (أو يتمتعوا) بحرّية الخيار. والأرجح أن بعض الفنانين كانوا متخصّصين في المواضيع الدينية: كانوا يعيدون شكل الآلهة من دون إدخال أي تغيير في الأسلوب أو في الشكل أو في الموضوع. لذلك وجدنا في كافة المواقع تقريباً رسوم مطابقة للإلهة عالية. ويرجح وجود فنانين محترفين، يحترمون الحدود الثقافية والدينية الملزمة، لا يرسمون سوى الأشكال التي يسمح بها المجتمع ويتبعون القواعد المسنونة بحذافيرها، مما يفسّر غياب المبتكرات الفنية المغايرة وانعدام التنوّع في النشاط الفني.

٤. فيلد، ١٩٥٢م؛ ديكسون، ١٩٤٩م؛ الجودي والغازي، ١٩٩٥م؛ خان، ١٩٩٣م.



الصورة ١٧. مصلّون، جبل كوكب

في منطقة نجران، في جنوب المملكة العربية السعودية، أبتدع أحد فناني ما قبل التاريخ، على واجهة ملساء من صخرة ضخمة، إحدى أعلى اللوحات الفنية فتنةً وروعةً (الصورة ١٨). تـواجه هذه اللوحة جهة الشرق، وعندما تسقط عليها أشـعة الشمس، إبـان الشروق، تـصبح أشـكالها بـرّاقة وتعكس الشمس.

يظهر أنه لم يوجد على الصخرة، بادئ الأمر، سوى رجال ونساء والوعل المرسوم في أقصى اليمين، وكل هذه الأشكال منفّذه بتقنية الحفر النقطي وتبدي تشطيبات مطابقة لما نراه على الأشكال الرئيسة. مع الوقت، فقدت هذه الصخرة شيئاً من أهميتها. لم يعد الموقع مقدّساً، ونسي الناس ماضيهم. فكتب الزوار أسماءهم وغير ذلك من النصوص على الصخرة وعلى الأشكال. رغم ذلك، حافظت تلك الأشكال على حالها واحتفظت بكامل جـمالها وبسِمَتِها الخيالية. نـجهل تاريخ ابتكار هذه اللوحة، إلا أنها سبقت الكتابة بأكثر من ثلاثة آلاف سنة.

طالما خمّن علماء الآثار أن البدو، الرّعاة الرّحّل، لم يتركوا إلا القليل من الشواهد على وجودهم. إلا أن الدراسات الأثرية الحديثة أثبتت، وخاصة منها تلك المكرّسة للفن الصخري، أن الأمور مغايرة لتلك الـفرضية، إذ أنـها أتاحت اكتشاف كـمية لا بأس بها من الأوابد الـثـقافـية في بوادي المملكة العربية السعودية.

توافق الحيوانات المرسومة الحيوانات المحلية: ثيران، وجمال، ووعول، وغزلان، وكلاب، وأفاعٍ، وجرذان، وماعز... والعجيب هو غياب النباتات من هذه اللوحات (باستثناء بعض المواقع التي نرى فيها صور النخيل) وغياب الطيور باستثناء النعام. نستنتج إذاً أن الفنانين انتقوا بعض الحيوانات



الصورة ١٨. جدار، في منطقة نجران

من بيئتهم لتصويرها في لوحاتهم الصخرية، على حساب البعض الآخر الموجود بأعداد مماثلة. ونرى هذه الظاهرة بالذات سواء في أوروبا أو في إفريقيا وأستراليا وآسيا. ويعني هذا أن الفنانين انتهجوا، في مختلف أنحاء المعمورة، نهجاً مماثلاً على صعيد المنطق والتفكير والمذهب[٥].

يبدي تطور الفن الصخري، من العصر الحجر الحديث إلى الفترة الإسلامية، أن البحث الفني لا يقتصر على الحضارات المعاصرة لنا بل أنه كان اهتماماً عميق الجذور في تفكير أسلافنا.



الصورة ١٩. صراع الفوارس. الخيول العربية شهيرة في العالم بأسره. تبوك.

٥. خان، ١٩٩٣م.

المصادر والمراجع :
أناتي Anati، ١٩٧٢م؛ أناتي Anati، ١٩٩٩م؛ بدناريك Bednarik، ١٩٩٤م؛ بدناريك وخان Bednarik et Khan، ٢٠٠٢م؛ بدناريك وخان، ٢٠٠٥م؛ كلارك Clarke، ١٩٧٩م؛ فيلد Field، ١٩٥٢م؛ جرار وستانلي برايس Garrard et Stanley Price، ١٩٨١م؛ هورسفيلد Horsefield، ١٩٨٣م؛ هوو Howe، ١٩٥٠م؛ جوسن وسافينياك Jaussen et Savignac، ١٩١٤م؛ الجودي وآل *.Al-Jodi et al*، ١٩٩٥م؛ خان Khan، ١٩٨٥م؛ خان، ١٩٨٨م؛ خان، ١٩٨٨م؛ خان، ١٩٩٠م؛ خان، ١٩٩١م؛ خان، ١٩٩١م؛ خان، ١٩٩٣م؛ خان، ١٩٩٣م؛ خان، ١٩٩٣م؛ خان، ١٩٩٦م؛ خان، ١٩٩٨م؛ خان، ١٩٩٩م؛ خان، ٢٠٠٠م؛ خان، ٢٠٠٠م؛ خان، ٢٠٠٤م _ ٢٠٠٥م؛ خان، ٢٠٠٧م؛ خان، ٢٠٠٧م؛ خان، ٢٠٠٨م؛ خان، قبوي والزهراني Khan, Kabawi et Al-Zhrani، ١٩٨٦م؛ زارينس Zarins، ١٩٨٢م.

ثلاثة نصب جنائزية من الألف الرابع قبل الميلاد

د. تارا ستايمر - إربيه

في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد، دخلت مجتمعات شبه الجزيرة العربية عصر البرونز بعد مرورها بتحوّلات جذرية: فقد انتشر استعمال المعادن على نطاق واسع، وباتت المناظر الطبيعية مزدانة بنمط معماري يستخدم الحجر الخام، وانتشرت آلاف المدافن القائمة على ارتفاع يفوق مترين فوق سطح الأرض. وترافق انتشار هذا النوع من المقابر، نشأة فكرة مبتكرة كُتِبَ لها ان تدوم طويلاً: وهي المعابد. ويبدو أن التشخيص البشري ظهر لأول مرة في هذه المعابد من خلال التماثيل-الكتلية (اوالتماثيل المنهرية - والمنهير: نُصُبٌ حجري مختلف الاحجام عمودي، يكثر في بعض المناطق الفرنسية) والمسلات بشرية الشكل.

ويمكن إثبات الصلة بين المسلات الثلاث التي عُثر عليها في المملكة العربية السعودية وبين مجموعة من عشرات المسلات تم العثور على سِتَّ عشرة منها في اليمن، وعلى أكثر من خمسين في موقع «رقصه» في حسماء، جنوب الأردن، حيث كانت منصوبة على محيط معبد مفتوح ودائري الشكل يعود إلى نهاية الألفية الرابعة[1]. وفي روق باليمن، ثبت ارتباط إحدى المسلات الخمس المكتشفة في الموقع بوديعة جنائزية[2]. وكانت المسلات بأجمعها موضوعة على مستوى أساسِ حجرٍ منصوب يعود إلى معبد ما. وتم تأريخ بقايا جمجمة شخص بالغ والهيكل العظمي لرضيع ما بين ٣٤٩٩ و٣١٩٨ قبل الميلاد (في 1σ)[3]. وهذه الأمثلة عن منحوتات بشرية الشكل، على نسق نقش ناتئ او نافر، والتي يفصل بينها مسافة ٢٣٠٠ كلم، تتسم بالسياق الأثري المشترك ذاته والإطار الزمني عينه. بيد أن المسلات المكتشفة في رقصه كانت معروضة علانية فيما أن تلك التي عُثِر عليها في روق كانت مدفونة قرب الأموات عند أسفل بلاطات منتصبة عامودياً. والمجال الجغرافي الشاسع والوظائف المختلفة والعدد الضئيل من عمليات التنقيب أدت إلى عدم التمكن من الكلام عن «ثقافة المسلات». بيد أنه يمكن وصف البيان المواضيعي لهذه المسلات الثلاث ومقارنتها مع تلك الخاصة بالمسلات المكتشفة في شبه الجزيرة العربية على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة.



صورة ١. رسم جدار في وادي ضم

المسلة (رقم ٢٧ في د. المعرض) التي تم العثور عليها في العلا تُمَثّل رجلاً واقفاً يبلغ طوله متراً واحداً. وقد جرى نحت الوجهين المسطحين مع التشديد على الجزء الأمامي، ولاسيما الوجه والصدر والوركين. أمّا الرأس المنحوت على شكل مربع منحرف، فيستند إلى الكتفين المومى إليهما بواسطة نتوء. وأسفل الرأس ضيق وغير منتظم الشكل. أمّا محيط الوجه فيبدو على شكل خط بارز دقيق يحيط بعينين متقاربتين وبأنف طويل أفطس. وتتدلى على الصدر قلادة وحبلان ثُبّت عليهما ما يشبه المخرز. ويزين الخصر خنجر ذو نصلين يتدلى من حزام عريض. ويتواصل الحبلان والحزام في الجهة الخلفية من التمثال وارتفاع هذه المسلة استثنائي مقارنة بتلك التي عُثر عليها في جنوب الجزيرة العربية والتي لا يتعدّى ارتفاعها ٤٠ سم. وتبيّن لنا خريطة التوزيع الجغرافي (صورة ٢) أن التماثيل الآدمية في المناطق الشمالية (حائل والعلا ورقصه) أكثر ارتفاعاً منها في الجنوب. بيد أنّ ثمة قاسماً مشتركاً. ففي الجزء الأسفل من التمثال، يشكل غياب التفاصيل سمةً من سمات المجموعة التي تمّ العثور عليها في روق باليمن. أمّا بالنسبة للخنجر، فهناك أوجه شبه بين التماثيل الكتلية التي تبرز على الكثير منها، في هذه الأقاليم، أوجه الشبه المذكورة. ولكن موقع رقصه، الأقرب جغرافياً، يتضمن مسلة مكسورة يمكن أن نشاهد عليها خنجراً ذا نصلين ومخرزاً. وفي تبوك (وادي ضم) [صورة ١]، على أحد الجوانب سُجِّل وجود شكلين بشريّين من العصر الحجري الأخير لهما السمات ذاتها.

المسلة (رقم ٢٨ في د. المعرض)، التي تم العثور عليها في حائل، تمثل رجلاً واقفاً يبلغ ارتفاعه ٩٢ سم. ويظهر الرأس والعنق بشكل واضح، أمّا قسمات الوجه فدقيقة جداً. فالعينان نافرتان يعلوهما حاجبان كثيفان يلتقيان عند أعلى أنف مستقيم وكبير. قلادة وحدها تزيّن الجسم الذي يبدو أنه عارٍ بما أن الفنان أظهر عظمتي الكتف (الترقوتان) بارزتين. ويتخذ شخص التمثال وضعية كهنوتية لأن ذراعيه منطويتان على بطنه، ويظهر نحت الأصابع واضحاً. كما أن الرجل يضع حزاماً تتدلى منه تحفة مستديرة الشكل، وتبرز الساقان والركبتان واضحة. والوضعية العامة وشكل الرأس والقلادة القريبة من العنق والحزام هي كناية عن عناصر تذكّرنا بأمثلة معروفة في اليمن. ولكن وضعية الذراعين تبدو وكأنها ميزة خاصة بمناطق الشمال، وفي روق، يمكن تمييز درجات عدّة من الدراية التقنية في فن النحت (صور ٣ و٤)، فنظراً لدقة التناظر التي تميّز هذه المسلة التي عُثر عليها في حائل، يمكن الجزم بأن مَنْ نحتها فنان ذو موهبة عالية. أما التحفة المستديرة الشكل، فلا مثيل لها في مجموعة المسلات، وقد تم العثور على بعض الأمثلة من التماثيل الكتلية[4] حيث تمّ الجمع بين الخناجر والدوائر؛ بيد أن التمثيل الأهم هو ذاك الذي يَرِدُ على النقوش الصخرية في منطقة السعداء[5]، حيث يبدو خطم بقرة مربوطاً بحلقة دائرية. ويشار هنا إلى أن الإنسان في الألفية الرابعة قبل الميلاد كان بدأ ينتقل من حالة الترحل إلى حالة الإقامة وبدأ يمارس تربية الماشية.

صورة ٣ و٤. نصب في روق

صورة ٢. خريطة توزيع النُصب (T. Steimer-Herbet)

المسلة (رقم ٢٩ في د. المعرض) وقد تمّ العثور عليها في حائل أيضاً، تتميّز عن الكتلتين الأخريين بكونها لا تمثل سوى صدر رجل ورأسه. وهي كبيرة نسبياً: ٥٧ سم، والرأس المستدير يبدو أكبر نسبياً من بقية التمثال، وهو يستند إلى عنق غليظة. ويشكل رسم الأذنين والفم الواضح المعالم إحدى خاصيات المنطقة، وقد أُفيد عن تمثال نصفي آخر موجود في متحف حائل (صورة ٢ الى اليسار) والجذع مستطيل الشكل يميل إلى الانكماش في الأسفل، مع قاعدة مسطحة ويختلف أسلوب نحت الرأس اختلافاً كبيراً عن أسلوب نحت الجذع؛ ففي قمة الرأس تبرز التضاريس بشكل خطوط منحنية، في حين أنّ الجذع والذراعين تبدو متصلبة، والتماثيل الأكثر شبهاً بهذا التمثال هي تلك التي وجدت في رقصه ففي ذلك الموقع، تتوافر تماثيل آدمية منتصبة أو تماثيل نصفية أو مجرد رؤوس.



صورة ٥. آثار صباغ أحمر في روق

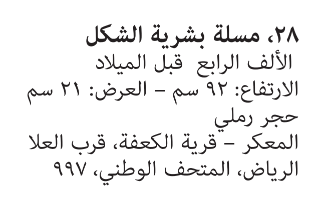
هذه المسلات، سواء معروضة أم مدفونة، كانت في الماضي مطلية بصباغ أحمر اللون (صورة ٥). وجودة العمل وتعبيره وتفاصيل التزيّن والخصائص كلها تعطي فكرة دقيقة عن أشكال القدامى في تلك الحقبة، وعن تقاليدهم في ما يخص الملابس، ونظراً لاختلاف الخصائص بين منطقة وأخرى، ليس من المستحيل أن نراعي وجود مجموعات قبلية نظراً لكون هذه العناصر لا تزال حتى يومنا هذا، تمثّل منطقة ما أو قرية ما أو قبيلة ما. كما أن وجود عدد من التأثيرات الأسلوبية أو وجود مواد خارجية المنشأ يؤكد الرأي القائل بحصول تداول وتبادل لهذه السلع ضمن حدود مناطق شاسعة. ونظراً للتشابه بين التماثيل والواقع وللصغر الذي اتسمت به التماثيل النسائية، يمكننا أن نستخلص أن المجتمع السائد في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد كان يسوده النظام الأبوي وقد تأكّدت فيه الهويات الشخصية.

١. Kirkbride (كيركبرايد)، ١٩٦٩م، ص. ١١٦-١٢١، و١٨٨-١٩٥.
٢. Steimer-Herbet *et al.* (ستايمر-إربيه وآخرون)، ٢٠٠٧م، ص. ٢٨١-٢٩٤.
٣. Pa ٢٣٨٨ وPa ٢٣٨٩، تواريخ أجراها ج. ف. (ساليج J.-F. Saliège) (مهندس باحث، جامعة بيار وماري كوري، باريس).
٤. Newton et Zarins (نيوتن وزارنس)، ٢٠٠٠م.
٥. Inizan et Rachad (إينيزان ورشاد)، ٢٠٠٧م.



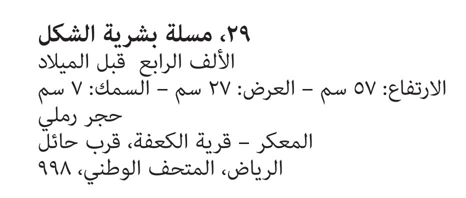
٢٧، مسلة بشرية الشكل
الألف الرابع قبل الميلاد
الارتفاع: ١٠٠ سم – العرض: ٣٦سم – السمك: ٩سم
مشكلة الحجر الرملي
حائل، ومدائن صالح، وتيماء
الرياض، المتحف الوطني، ٩٩٦





٢٨، مسلة بشرية الشكل
الألف الرابع قبل الميلاد
الارتفاع: ٩٢ سم – العرض: ٢١ سم
حجر رملي
المعكر – قرية الكعفة، قرب العلا
الرياض، المتحف الوطني، ٩٩٧

المراجع: الرشيد، ١٩٧٥م، ص. ٥٧؛ پيرين، ١٩٩٠م، ص. ٣٠، الشكل ١٠



٢٩، مسلة بشرية الشكل
الألف الرابع قبل الميلاد
الارتفاع: ٥٧ سم – العرض: ٢٧ سم – السمك: ٧ سم
حجر رملي
المعكر – قرية الكعفة، قرب حائل
الرياض، المتحف الوطني، ٩٩٨



المنطقة الشرقية

حضارات ومبادلات

من الألف الخامس حتى الألف الثاني قبل الميلاد

شمال شرق شبه الجزيرة العربية

من ٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ تقريبا قبل الميلاد

أ. د. دانيال تي. بوتس

(صفحة مزدوجة سابقة)
واحة الأحساء، تصوير Humberto da Silvera

(صفحة اليسار)
قطعة إناء من الكلوريت، تاروت
النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد
الرياض، المتحف الوطني، (د. المعرض رقم ٥١)

إن الصناعة الحجرية التي اكتُشفت في كل أنحاء المنطقة الشرقية (د. المعرض ٢٩٣ و٢٩٥)، في مستهل الحقبة الهولوسينية (Holocène) ومنتصفها، تشكّل الدليلَ الأوضح على وجود قوم أصليين في هذه المنطقة خلال العصر الحجري الحديث. وتشهد آلافٌ من نِصال السهام المنحوتة بإتقان وأدواتٌ أخرى اكتُشفت في يبرين، بالجنوب، حتى الحدود مع الكويت في الشمال، على وجود قوم يتسمون من حيث العدد بأهمية نسبية من مُربّي الحيوانات، وكانوا يعيشون أيضاً على الصيد وجني الثمار. وربما كان هؤلاء القوم يتحدرون من جنوب المشرق، إذا ما استندنا إلى التشابه بين المعدّات المتميّزة على امتداد العصر الحجري الأخير الذي سبق اكتشاف الفخار (بي.بي. أند بي.) في هذه المنطقة، وإلى أقدم المعدّات المصنوعة من الحجر في الفترة التالية للعصر الحجري القديم في المنطقة الشرقية وقطر والإمارات العربية المتحدة[١]. وعلى الرغم من أن التنقيب في كثير من المواقع أتاح التوصل إلى وجود استيطان فيها قصير الأجل أو بالتالي وجيز، استُخدمت مواقعُ أخرى فترة أطول. وهكذا فإن عين قناص القريبة من الهفوف هي تلٌّ يناهز قطره ٢٥٠ متراً مع ٣,٨٠ أمتار تقريباً من المستويات الأثرية. وعلى الساحل، في الدوسرية جنوب الجبيل، تبلغ ٣,٥٠ أمتار سماكةُ التراكم الأثري الذي يقع في منطقة من كثبان الرمل ويمتد على ما يفوق المائة متر. ومن كل المواقع المعروفة حتى اليوم من تلك الحقبة، تبلغ مساحة أكبرها المسمى أبو خميس ٣٥٠ متراً على ٨٥٠، وتُقدّر سماكةُ التراكم بعشرة أمتار. وحتى لو أن تلك المواقع استُوطِنت موسمياً، فمن الواضح أنها كانت كذلك بصورة متكررة وطوال قرون على الأرجح. وبمعزل عن أحجار الرحى والمدقات التي يمكن الاعتقاد أنها كانت تُستخدم لسحق الحبوب المزروعة أو النبات البري، عُثر في بعض هذه المواقع على بقايا جِص تشكّل الطبعات التي تظهر عليها دليلاً على وجود قصب يوحي أن ساكنيها كانوا يعيشون في منازل من الخشب وسعف النخيل[٢].

وبفضل الحفريات التي أجريت بإشراف عبدالله مصري عام ١٩٧٢م، وفّرت لنا تلك المستوطنات معلومات عن الجوانب التكنولوجية للأدوات المصنوعة من الحجر، وأيضاً عن النمط الاقتصادي الذي كان قائماً. ومع أن وجود عدد كبير من نصال الأسهم المنحوتة بدقة والمسننة والمعنَّقة، يحمل على الاعتقاد أن ساكنيها يعتمدون على الصيد في معيشتهم، فإن هذا الاعتقاد في غير محله على الأرجح. ووفَّر بعضُ تلك المواقع الساحلية، كموقع أبو خميس، أدلةً كثيرة تؤكد أن ساكني تلك



المستوطنات كانوا يمارسون صيد السمك، ويجمعون المحار ويصطادون السلاحف. وبالتالي، قدّمت جميعُ المواقع التي أجرى عبدالله مصري حفرياتٍ فيها، أدلةً على وجـود قـطعان من المـاشية. وفي استطاعتنا التأكيد على أن أبقاراً ومعز، ربما ضأناً، كانت موجودة في كلٍ من تلـك المواقع. وحتى لو لم نتمكن عام ١٩٧٢، من أن نحدد بدقةٍ هل كانت حيوانات داجنة أم برية، يشير مجردُ العثور على بقاياها في مكان بعيد عن موطنها الطبيعي، الواقع إلى الشمال، إلى أنـها حيوانات أليفة وبالتالي مدجنة.

فالخراف والماعز خصوصاً مفيدة جداً في بيئة قاحلة إلى هذا الحد كبيئة المنطقة الشرقية، لأن أجسامها تحتمل الماء الأجاج (شديد الملوحة والمرارة) وتؤمن حليباً يستطيع الإنسان شربه أو تحويله جُـبناً أو لبناً. وشعر الماعز وصوف الغنم منتجات مهمة أيضاً. لذلك فالحيوانات التي كانت تُـربى في أبو خميس والدوسرية وعين قناص، كانت بالتأكيد نفيسة في نظر السكان، سواء لنتاجاتها المشتقة الأخرى وباعتبارها مصدراً للبروتيين، حتى لو كانت تُذبح على الأرجح لاستهلاكها، ما أن تبلغ سناً متقدمة. وكان السكان حتى يحصلوا على اللحم، يصطادون حمار الوحش والظبي، والسلحفاة على الشاطىء. ومن المهم أن نلاحظ أننا لم نعثر في أيٍ من المواقع التي أجرى عبدالله مصري حفريات فيهاٍ، على أدنى دليل على وجود الجمل المتوحش، فيما قدمت هذا الدليلَ الحفرياتُ التي أُجريت في مواقع أخرى في شرق شبه الجزيرة.

وبقايا الحيوانات في تلك المواقع ليست الوحيدة التي تتيح أن نستنتج وجود اتصالات بين المنطقة الشرقية والمناطق المجاورة الواقعة في الشمال. وقد يكون الأكثر إثارة للدهشة، العثورُ فوق سطح الأرض في الدوسرية على عـدد من شـرائح الـزجاج البـركاني أو السَـبَـجي (حجر زجاجي أسود) (د. المعرض ٣٤). ويحمل تحليلـُها عبر التحفيز النتروني على الاعتقاد أن مصدرها منطقة بحيرة ڤان (Van) شرق تركيا، وأذربيجان وأرمينيا أيضاً.

إلا أن أهمية اكتشاف الحجر السبجي، تعادل اكتشافَ نوع خاص من الفخار الملوّن في تلك المواقع، ولم يعثر عليه في مرحلة أولى علماءُ آثار محترفون، بل آخرون، منهم مهندسون نفطيون كانوا يعملون في الظهران. ومع توسُّع الصناعة النفطية في المملكة العربية السعودية في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، وشركة الزيت العربية السعودية (ارامكو) في المنطقة الشرقية، جاء آلافُ الأميركيين للعيش فيما كان آنذاك منطقة عذراء نسبياً في شبه الـجزيرة العـربية. وعلى غرار زملائهم البريطانيين في الهند وأفغانستان خلال القرن التاسع عشر، أخذ عددٌ كـبير من موظفي ارامكو يهتمون اهتماماً بالغاً، بآثار وماضي المنطقة التي كانوا يعيشون فيها، فجابوها في أوقات الفراغ لديهم، إما مشياً أو على متن سيارات، آملين في العثور على آثار قديمة. وخلال عمليات الاستكشاف تلك، عثرت الباحثة جريس بورخولدر (Grace Burkholder)، المدرِّسة في مدرسة ارامكو، على أكثر من الف شَـقَـفَـة من الفخار الملوّن في الدوسرية في آذار/مارس ١٩٦٨م، ثم وضعت فهرساً لقطع فخار مماثلة في تسعة وثلاثين موقعاً (د. المعرض ٣٠، ٣١ و٣٢). وعندما عرضت تلك الشـقَـف على تي.جي. بيبي (G. T. Bibby) الذي كان يقود في تلك الفترة أعمالَ فريق دنماركي لإجراء حفريات في المنطقة الشرقية، سرعان ما أدرك أنها فخاريات مستوردة من الحقبة العُـبيدية. وغيـَّرت هذه المعلومة إلى الأبد مفهوم فـترة ما قبل الـتاريخ في شبه الجزيرة العربية.

فالفخار المسمى «العُبيد» يدين باسمه إلى موقع اكتـُشف قرب أور في جنوب العراق. وفي تل العُـبـيد، أجرى ش.ر. هـال (H. R. Hall) والسـيد ليونـارد وولي (Sir Leonard Wooley) حـفريـاتٍ في العشرينات، وعثرا على نوع من الفخار الملوّن الذي غالباً ما كان زخرفه باللون الأسود ذو الشكل الهندسي، ينكشف عن قعر أصفر فاتح ملوّن بالأخضر مع آثار شواءٍ مُفرط أحياناً. ثم عُـثر على قطع مماثلة في مواقع أمثال أريدو وحجي محمد، وطُـرحت الفكرة القائلة بتعاقب أربع مراحل من التطور الاسلوبي – العُبيد ١ إلى ٤-. إلا أن عالِـم الآثار الفرنسي أندريه بارو (André Parrot) اكتشف عام ١٩٦٧م موقع تل العويلي قرب العرصة، حيث أثبت علماء آثار فرنسـيون (جان- لوي إيو (Louis Huot Jean) وجان- دانيال فورست (Jean Daniel Forest) وإيف كالفيه (Calvet Yves) وجودَ مرحلة سابقة أيضاً أطلقوا عليها اسم العُبيد صفر ووضعوها في بداية الألف السادس تقريباً قبل الميلاد.



إناء «عبيد»، تلّو (بلاد ما بين النهرين)
باريس، متحف اللوفر، AO ٢٥١٣٨

وعندما عُـثر على الشـَقـَف العُـبيدية في الدوسرية، لم تكن معروفة بعدُ كل المراحل الأسلوبية ولا أيضاً جذور الثقافة العُبيدية، أقدم ثقافة حضرية في جنوب بلاد ما بين النهرين. وكانت احد ردود الفعل بعد العثور على فخار العُبيد في المنطقة الشرقية، اعتبارُ هذه المنطقة منبتَ أوائل سكان بلاد ما بين النهرين، وبالتالي، منبت السومريين على الارجح. لكن الفرصة توافرت لخبراء أمثال جون أوتس (Joan Oates) في جامعة كمبريدج، ليروا تنوّع زخرف التجميع من نوع العُبيد الآتي من المنطقة الشرقية، وأدركوا عندئذ أن المواقع في السعودية التي لم تكن تمثل جذور ثقافة العُـبيد، ما زالت ترقى تقريباً إلى المرحلتين الأخيرتين، وهما العُـبيد ٣ و٤، حتى لو أن بعض الحوافز تتناسب مع مرحلة العُـبيد الثانية أو الثالثة. ولم يُـعثر في تلك المواقع على أي قطعة من نوع العُـبيد ١ أو أقدم، أي من نوع العُـبيد صفر. لذلك سقطت الفكرة الذاهبة إلى أن مستوطنين يتحدرون من شرق السعودية، هاجروا على ما يبدو إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، وأنشأوا فيه أول ثقافة حضرية في المنطقة. ومورِسَ التأثير بوضوح شديد في الإتجاه المعاكس. فكل الخزفيات كشفت عن حركة من جنوب بلاد ما بين النهرين في اتجاه المنطقة الشرقية. وبالتالي، دلّ وجودُ فخاريات غير متقنة حمراء، على أن تقنية الفخار ظهرت أيضاً على ما يبدو في المنطقة آنذاك.



وأتاحت حفريات حديثة في الكويت الكشف في آنٍ واحد مع خزف العُبيد، عن قـطع من الحـُمـَر (الزفت) التي تحمل بصمات القصب، وكذلك عن شـَقـَفـَة تمثل زينتـُها البسيطة الملوّنة سفينةً مع صارية وحِـبال. واعتـُبر أن ذلك يشهد في تلك الفترة على وجود ملاحة في أعالي البحار. ويحظى هذا الرأي باجماع تام. وحتى لو كانت الكويت أقرب إلى جنوب العراق منه الى المنطقة الشرقية، يدل توزّع فخار العُبيد على طول ساحل السعودية، من جزيرة مـُسلمية في الشمال حتى الظهران، على أن سفناً بدلاً من وسيلة نقل برية، كانت تؤمن على ما يبدو انتشار منتجات ما بين النهرين في تلك المنطقة. وبالتالي عُـثر على فخار العُـبيد في البحرين وعلى ساحل قطر وساحل الإمارات العربية المتحدة، ممّا يتيح الاعتقاد بأن الاتصالات كانت تَـجْري عبر المسالك البحرية وليس البرية. إلا أننا ما زلنا لا نعرف بالضبط كيف. وقد طـُرحت تفسيراتٌ عدة. فالبعض طرح فكرة تقول إن صيادين من بلاد ما بين النهرين اقتربوا على ما يبدو من ساحل السعودية على منوال موسمي. وإذا كان ممكناً أنهم حملوا على متن سفنهم أواني فخارية لاستخدامهم الشخصي، فليس من المستبعد أيضاً أن يكونوا قد عرضوها في مقابل منتجات أخرى على جماعات مربي الحيوانات أو الصيادين الذين كانوا يعيشون على طول الساحل، وكان الفخار في نظرهم ابتكاراً مدهشاً. وفي مقابل الفخار، لعلّ صيادي بلاد ما بين النهرين العابرين، الذين لم يواجهوا بالتأكيد أي صعوبة في التزود بما يكفي من الأسماك لتأمين قوتهم، قد حصلوا على الحليب والجبن واللبن والجلود والصوف والتمر، على سبيل المثال. ويشير وجودُ أدوات حجرية محلية الصنع في المواقع التي عُـُثر فيها على فخار العُـبيد، إلى أنها مواقع استوطنها على ما يبدو أقـوام عربٌ مـحليون، اقـتنوا بعضاً من فخار العُبيد، وليس أقوام تثقفت بثقافة العُبيد قد استقرّت في المنطقة.

ومن المحتمل أيضاً ألا يكون صيادو سمك قد نقلوا فخار العُبَيْد الذي اكتـُشف في المنطقة الشرقية، بل تجار يبحثون عن منتجات ذات قيمة. وقد عُـُثر في المواقع المعاصرة بالإمارات العربية المـتـحدة، وعلى الساحل كما في الداخل، على عدد كـبـيـر من اللآلـىء. لذلك بات صيـدُ اللآلىء في وقت لاحقٍ بالتأكيد، نشاطاً مهمّاً حول البحرين وقطر وأبو ظبي. ممّا يحمل على الاعتقاد أن اللآلىء كانت مطلوبة جداً حتى في تلك الفترة. ولأن اللآلىء الطبيعية غالباً ما كانت مع ذلك تتفتت، فليس مدهشاً أن يـُعثر على عدد ضئيل منها في بلاد ما بين النهرين. وكانت أعداد منها على الأرجح متداولة أكثر مما نتصور. ومن المهم أن نلاحظ أن فخار العُـبيد دخل أيضاً الأراضي السعودية. فقد اكتـُشفت في الواقع شـَقـَفٌ غرب الظهران، وتحديداً قرب الـميدرى الـجنوبي، وفي أبقيق وعين دار وجو الغار وجوده، وكذلك في بعض المواقع حول الهفوف. ولعل ما يثير أشدّ



جرة من بلاد ما بين النهرين / منطقة الظهران
حقبة السلالات القديمة



شقفة مع صورة سفينة، الصبية، الكويت

الدهشة، هو العثور على شقف في موقع بواحة يبرين التي تبعد حوالى ٢٥٠ كلم جنوب الهفوف. ومن المحتمل جداً أن يكون أقوام من بلاد ما بين النهرين قد تغلغلوا بعيداً في داخل الأراضي، ولكن من الممكن جداً أن تكون مجموعات من السكان تعيش في المنطقة الشرقية قد تبادلت تلك الفخاريات الغريبة الملوّنة.

ومن الصعب وضعُ تسلسل زمني دقيق للمواقع المرتبطة بثقافة العُبيد في المنطقة الشرقية. وتتوفر لدينا ثلاثة تواريخ تحددت عبر تقنية الكربون لعين قناص، واثنان للدوسرية وواحد للخرسانية واثنان لأبو خميس، لكن الفوارق النوعية تنطوي على شيء من الأهمية. ويمكن القول إن تلك المواقع قد استُوطِنَت من منتصف الألف السادس حتى نهاية الألف الخامس على الأقل أو في بداية الألف الرابع قبل الميلاد. لكن من المهم الإشارة إلى أن مرحلة الاتصال بثقافة العُبيد لم تكن على ما يبدو سببَ أي تغيير كبير في المنظومة الاجتماعية المحلية. وبِغَضِّ النظر عن الفخاريات الحمراء غير المتقنة المصنوعة محلياً، لا تتوافر على ما يبدو إشاراتٌ إلى أن فخار العُبيد، الذي كان سكان تلك المواقع يرونه ويستعملونه، قد ألهمهم وأدى إلى تطوير صناعة فخارية أصيلة.

وتزامنت الاتصالات بين ثقافة العُبيد والمنطقة الشرقية مع أفضل الأجواء المناخية في منتصف العصر الهولوسيني (Holocène). بتعبير آخر اتسمت تلك الأجواء بزيادة الأمطار الناجمة عن انتقال الرياح الموسمية الصيفية نحو الشمال. وربما أنهى مرحلةَ الاستقرار في المنطقة الشرقية، تغيُّرٌ مناخي جعل المنطقة قاحلة، لأن الآثار القليلة المتبقية ترقى إلى الألف التالي. وأن عنق إناء فخاري ورأس مسمار من الصلصال، عُثر عليهما قرب الظهران، يعتبر أن المعثورات الوحيدةَ المصنوعة الآتية من المنطقة الشرقية التي يمكن أن ترقى إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

لكن يمكننا أن نقتفي من جديد تاريخ الاستطيان في هذه المنطقة ابتداءً من الألف الثالث قبل الميلاد [٣]، وذلك بفضل عدة مواقع منها: أم النصي في واحة يبرين وأم الرمضة شمال واحة الهفوف، وفي جبانة سبخة الحمام التي تبعد حوالى ١٣ كلم جنوب أبقيق.

وتشهد هذه المواقع على وجود قرى مبنية في تلك الحقبة من الآجر الصلب، وتعتاش على الأرجح من تربية الحيوانات ومن زراعة مرتبطة بمياه الآبار؛ لكنها تقدم أيضاً دليلاً صريحاً على استئناف الاتصالات مع جنوب بلاد ما بين النهرين. فلقد عُثر فيها على جِرار لتخزين المؤن (د. المعرض ٣٦ و٣٧) من نمط معروف في جنوب بلاد ما بين النهرين وفي منطقة ديالى شمال شرق بغداد، إبان الفترتين الأولى والثانية من زمن السلالات القديمة (Dynasties Archaïques) (من ٢٩٠٠ إلى ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً). وتدل على تحركات للسلع قد تكون الزيت، لكن من الممكن أيضاً أن تشير إلى تحركات أشخاص، نظراً إلى الأشكال الفخارية المتعددة المكتشفة. وعُثر أيضاً في المدافن على لازَوَرد ولآلىء من العقيق الأحمر. وقد جاء اللازوردُ من منطقة بداخشان الإفغانية عبر شرق إيران على الأرجح، والعقيق الأحمر من غوجارات في الهند الغربية [٤].

إلا أن مجموعة المعثورات التي قد تكون الأكثر إثارة للدهشة، أتت من جزيرة تاروت. وتاروت التي تبعد بضعة كيلومترات فقط شمال شرق القطيف، وهي إحدى أكبر واحات النخيل في المنطقة الشرقية، لم يكن ممكناً بلوغها في السابق إلا إذا انخفض المدُّ، لكنها رُبطت ببقية أنحاء المنطقة الشرقية عبر طريق حديث مرتفع انشيء في الستينات. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت تاروت مركزاً لصيد اللؤلؤ وزراعة التمر الذي شجّع عليه وجودُ نبعين طبيعييْن، هما عين أم الفرسان وعين الحمام، اللتان تتدفق منهما بغزارة مياه ممتازة النوعية. وفي ١٩٦٤م، توجه بي. في. غلوب (P. V. Glob) وتي. جي. بيبي (T. G. Bibby) عضوا البعثة الأثرية الدنماركية في البحرين، إلى تاروت ولاحظا أن كمية كبيرة من الرمل قد أزيلت من موقع يحتوي على عدد كبير من الأكمات المنخفضة. وفي ١٩٦٦م، عُثر على عدد كبير من الآثار في واحدة من تلك الأكمات القريبة من قرية الرفيعة التي تبعد ١,٥ كلم جنوب شرق كبرى مدن تاروت. وذكر شهود أن طولها ٢٠ متراً وعرضها ١٠٠ متر وارتفاعها يتراوح بين متر ومترين، وأنها استُثمرت. فقد أزيل رملُها الخشن والأصداف التي كانت متناثرة على سطحها ثم نُقلت على ظهور

٣- حول طول الفترة التاريخية لهذا الموقع، انظر، بوتس، ٢٠٠٩

٤- أنظر حول التنقلات والمبادلات، انظر Amiet (أمييه)، ١٩٨٦.



إناء من تاروت يمثل دربانياً (حيوان ثديي)
نيويورك، Metropolitan Museum
Of Art، L. ١٩٧٨-٣١

الحمير. واستُخدمت تلك المواد في بناء الطريق المخصص لربط تاروت باليابسة. وكمية الآنية المصنوعة من الحجر الأملس (حجر الطَّلْق stéatites وحجر الكلورايت chlorites) والمرمر، والآنية وشَقَف الفخار المكتشفة، حملت على الاعتقاد أن الأرض تستبطن عدداً كبيراً من المدافن.

وعلى الرغم من أن بعضاً من الآنية المكتشفة قد بيعت في سوق الأثريات وباتت موجودة في مجموعات خارج السعودية (متحف المتروبوليتان للفنون Metropolitan Museum of Art)، وجد القسمَ الأكبر من تلك الآثار موظفون في ارامكو، وقدموها هبة في نهاية المطاف إلى المتحف الوطني في الرياض. وعلى صعيد التسلسل الزمني، تتيح تلك الآثار الاعتقاد أن مقبرة تاروت قد استُخدمت طوال ألف سنة تقريباً، ثم استُخدمت مجدداً في الحقبة الهلينستية[٥]. وإذا كانت مجموعة تاروت مميزة بشكل خاص، فبسبب العدد الكبير للقطع المستوردة التي تتألف منها. وهذا ما يجعل في الواقع التحقق من انتمائها الثقافي ومن هويتها، أمراً سهلاً نسبياً، لكن وضعاً مماثلاً يستدعي تقديم بعض الشروحات.

فبين القطع السحيقة القِدم المكتشفة في تاروت، جرة فخارية مزدوجة الشكل المخروطي من نوع كان معروفاً في بلاد ما بين النهرين حوالى ٢٩٠٠ قبل الميلاد، إبان الفترة الأولى من السلالات القديمة. ويفوقها قِدماً بفارق طفيف، عددٌ من الأواني الحجرية الملساء غير المزخرفة (د. المعرض ٤٠ و٤١) القريبة من النماذج المكتشفة في المقبرة المسماة «جمدة نصر» في أور. وترقى هذه الأواني إلى الفترة الثانية من السلالات القديمة. ويسود الاعتقاد أن تمثالاً إنساني الشكل من الجير يناهز ارتفاعه المتر، لرجل عارٍ، يرقى أيضاً إلى تلك الفترة (د. المعرض ٣٨). وان هذا الشخص ذا الرأس الأصلع ويرتدي الحزام المثلث، يشبه كثيراً الأبطالَ العراة المحفورين على أختام بلاد ما بين النهرين زمن السلالات القديمة. ذراعاه قرب الجسم وساعداه مكتوفتان على الصدر، ويده اليمنى مطوية على اليسرى. ويُذكّر هذا الوضعُ من نواحٍ كثيرة بتماثيل منطقة ديالى ذات الجسم البارز التقاطيع التي ترقى إلى الفترة الثانية من السلالات القديمة. وكان الحزام المثلث شائع الاستعمال في بلاد ما بين النهرين. أما الشكل المستطيل للساقين، فليس من بلاد ما بين النهرين بالتأكيد، وقرَّب بعض الباحثين رأسَ هذا التمثال من تمثال نصفي ذائع الصيت من موهينجو- دارو (Mohenjo Daro) ، أحد أبرز مواقع الحضارة في وادي السند (harappéenne) في باكستان. ونظراً إلى الطبيعة الهجينة على ما يبدو لهذه القطعة، فمن الضروري الملاحظة إنها قد تكون نتاجاً محلياً يعكس مختلف التأثيرات الأجنبية.

والجدير ذكره أن عدداً من الأقداح المصنوعة من المرمر (د. المعرض ٤٤ و٤٥) وطاسة من الجير الصلصالي تحتوي على رسوم مرجانية (د. المعرض ٤٢)، معاصرة لهذه القِطَع أو أقدم منها بفارق زمني ضئيل، إذا ما استندنا إلى المقارنات الممكنة مع قطع آتية من مقبرة جمدة نصر والمدفن الملكي في أور. وبسبب التشابه الذي تمثله هذه الأقداح البسيطة جداً، المصنوعة من المرمر، مع قطع آتية من مدفن يعود إلى نهاية الألف الثالث في تل أبرق بالإمارات العربية المتحدة، يمكن أن ترقى أيضاً إلى ٢٠٠٠ قبل الميلاد. ويمكن أيضاً مقارنة قدح على شكل جرس (د. المعرض ٤٣) مع بعض الأواني من المدفن الملكي.

وإن أكبر مجموعة من التحف الفنيّة على الاطلاق، والأشهر في تاروت، هي مجموعة الآنية وقطع الحجارة الملساء المنحوتة والمزينة بصور ناتئة، والمحفورة عليها تجويفاتٍ صغيرةً تتناسب مع ترصيعات قديمة من العجائن الملوّنة والأحجار الكريمة والصَدَف. وتتضمن هذه المجموعة كثيراً من القطع المزينة لمخلوقات منقوشة بطريقة لافتة جداً: سنوريات وأفاعٍ مرقطة (بتجويفاتٍ صغيرةً دائرية كان يفترض أن تُحشى بالترصيعات)، ومشبوكة على مستوى العنق ومقرونة بصور بشرية (د. المعرض ٥١ والصورة ١، ص ١٨٤)، وأُسُود (د. المعرض ٤٩) وعِقبان (د. المعرض ٤٨) وعِقبان أسدية الرأس (الطائر الأسدي الرأس، الصورة ٢، ص ١٨٤) ووجوه بشرية مع حيوانات (د. المعرض ٥٠ و٤٧). واستُخدم النضيدُ (صخر بركاني) المتبلّر أيضاً (د. المعرض ٦٠) لصنع أوانٍ تزينها الأفاعي المجدولة. وتظهر جبال وعمائر مؤسلية على إحدى القِطع (د. المعرض ٥٨)، فيما زُيِّن عددٌ

٥- دان تي. بوتس، «نهضة شمال شرق الجزيرة العربية في الحقبة الهلينستية»، ص. ٣٧٥-٣٨١





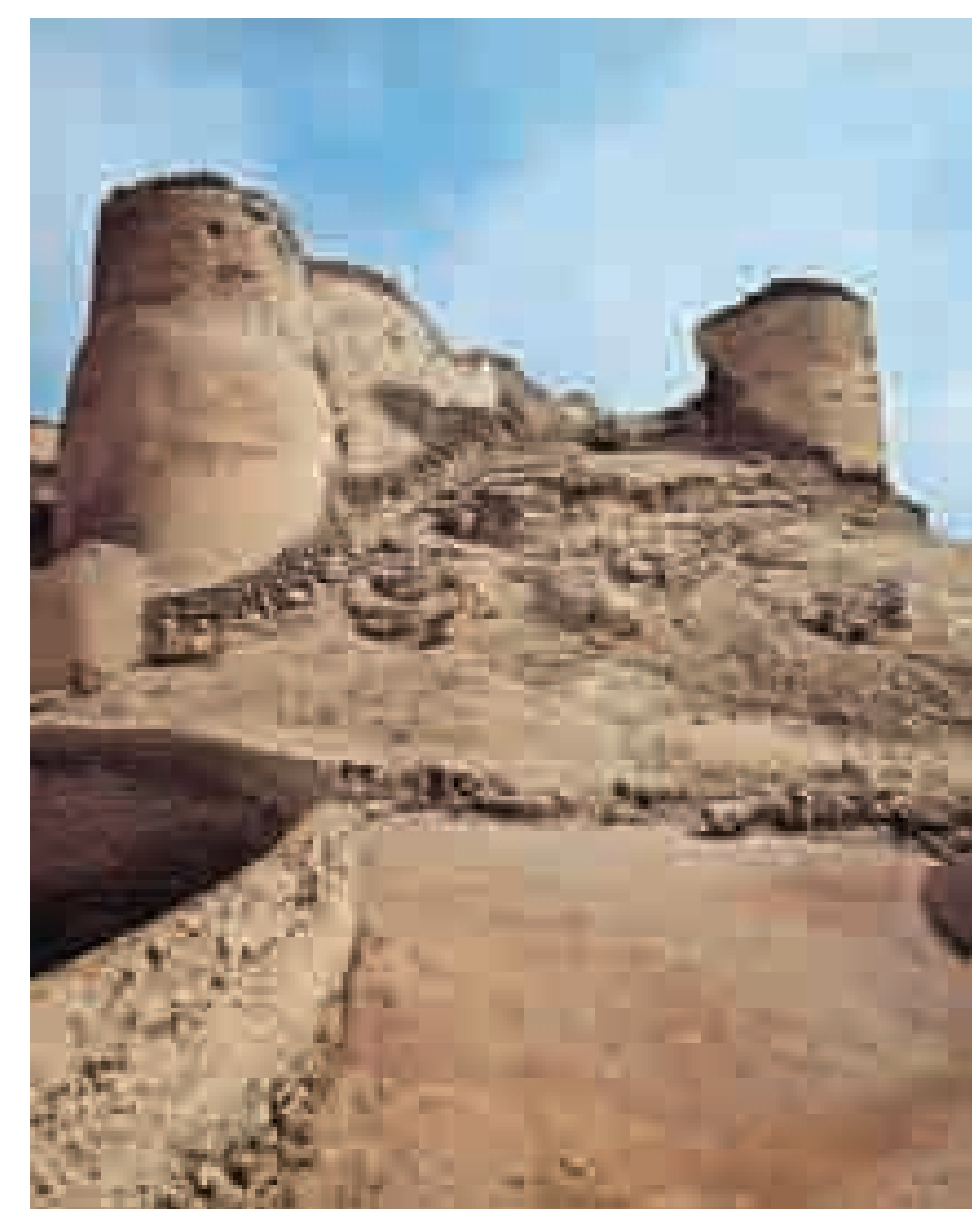
إناء منقوش باسم «ريموش، ملك كيش»، مزيّن بأفعى وسنوري، برلين، VA ٥٢٩٨ Vorderasiatisches Museum

آخر من القطع بصور سِلال (الصورة ٥، ص ١٨٥) ونقوش متناسقة (د. المعرض ٦٣)، تشابك (د. المعرض ٥٤ و٥٧) ونجوم (د. المعرض ٥٥ والصورة ٤، ص ١٨٥) على سبيل المثال.

والأبحاث الأولى المخصصة لهذه المواد بدأت بالظهور في مستهل السبعينات، وسرعان ما أدركنا أن قطعاً كثيرة من تاروت وجدت قطعاً مشابهة لها في بلاد ما بين النهرين ترقى إلى الحقبتين الثانية والثالثة للسلالات القديمة، وكانت قريبة حتى من قطع عُثر عليها في أمكنة أخرى، بمواقع مثل ماري في سوريا. وفي الفترة نفسها، أتاحت حفريات أجريت في تيبي يحيى (Tepe Yahya) جنوب شرق إيران التأكد من أن هذا النوع من الحجر الأملس قد نُحت فيها. وفي الفترة الأخيرة، عُثر على النماذج نفسها من الأواني، كاملةً وبالمئات، في سهل جيروفت (Jiroft) الذي يبعد أقل من ١٠٠ كلم شرق تيبي يحيى. وعُثر على القسم الأكبر منها في مقبرة – خلال حفريات غير نظامية -، وبنسبة أقل أيضاً في موقع كونار صندل (Konar Sandal) الذي أجرى حفرياتٍ فيه مجيد زاده. والتحاليل عبر انحراف الأشعة إكس التي أجراها بي. ل. كول (P. L. Kohl) وإي. في. ساير (Sayre E.V) وجي. هاربانّل (Harbottle G) في بداية السبعينات، تشير على ما يبدو إلى وجود مجموعات فرعية في داخل هذه المجموعة من القطع، تتطابق كلُّ واحدة منها مع تركيب معدني مختلف. وتألفت واحدة من هذه المجموعات الفرعية من معدّات آتية من سوسه (Suse) وأدب (Adab) جنوب بلاد ما بين النهرين ومن تاروت، وساد الاعتقاد في السابق أن أواني تاروت قد صُنعت بالجزيرة نفسها، في مشاغل كانت تستخدم حجراً مستورداً من أجزاء أخرى من المملكة العربية السعودية. لكن الاكتشافات التي حصلت في جيروفت وقورنت بأدلة إنتاج هذه الأواني في موقع تيبي يحيى، أظهرت اليوم أن هذا السيناريو معقول إلى حدٍّ ما. فزينة «وأيقنة» هذه المجموعة من القطع متماسكة بحيث تبدو بوضوح أنها صُنعت جميعاً في جنوب شرق إيران. وبات من الواضح أيضاً، أن أسلوب ما سماه بيار دو ميروشيدجي (Pierre de Miroschedji) في ١٩٧٣م «المجموعة القديمة»، كان كل شيء ما عدا التبادل الثقافي، على الرغم من أن بعض الباحثين كان يعتبره «أسلوباً تبادلياً ثقافياً» (Interculturel). فهو بالأحرى أسلوب خاص بجنوب شرق إيران، من حيث أتت الأواني المصنوعة من الحجر الأملس، والمنحوتة بدقة، وتم تبادلها حتى على مسافات بعيدة من بلد المنشأ، فوصلت إلى تدمر وماري في سوريا، وتاروت في السعودية والإمارات العربية المتحدة وسوش (Soch) في وادي فرغانا بأوزبكيستان.

وتحمل شقفة من هذا النوع مزخرفة بزينة رمزية منحوتة، حصل عليها في ١٩١٣م متحف برغامون في برلين (Berlin Pergamon Museum de) نقشاً يعني «ريموش، ملك كيش، قاتل إيلام ومرهاشي». وتتألف الزينة من حيوانٍ سنّوري أو أفعى مرقطة، ويعتبر تشابهها بالغ الوضوح مع آنية تاروت المصوّرة، والمرقمة من ٥١ و٦٠. ويتيح هذا النقش الاعتقاد أن مرهاشي كان على الأرجح اسم بلد منشأ الشقفة المحفوظة في متحف برغامون. ومن المهم بالتالي أن نشير إلى أحد نقوش الملك ريموش (٢٢٧٨- ٢٢٧٠ قبل الميلاد) الذي يفيد أنه حصل على حجر دوهشيا (duhshia) من مرهاشي. ويقول بيوتر شتينكيلر (Piotr Steinkeller) إن هذه الكلمة كانت تُستخدم على الأرجح للإشارة إلى الحجر الأملس، المادة المفضلة في مرهاشي، لصنع الأواني المنحوتة من النوع نفسه لتلك التي عُثر عليها في تاروت.

لذلك يتوافر لدينا الدليل الصريح على وجود مبادلات تجارية أو اتصالات مهمة ابتداءً من منتصف وحتى نهايته، الألف الثالث قبل الميلاد، بين جنوب شرق إيران، ومرهاشي القديمة، وجزيرة تاروت. والعثور على بعض الشقف من الحجر الأملس الشبيهة بتلك الموجودة في المجموعة القديمة، في مواقع مثل شرم وأم النار في الإمارات العربية المتحدة والبحرين، يشير على ما يبدو إلى أن المواد التي استُخرجت منها كانت تُنقل عبر البحر. وفي ١٩٨٦م، طرح بيار أَمِييت (Pierre Amiet) فكرة مفادها أن حِرفيين من جنوب شرق إيران هاجروا على ما يبدو إلى تاروت واستقروا فيها، حيث صنعوا تلك الأواني. وعلى الرغم من الشبه الكبير بين الأواني المصنوعة في تيبي يحيى وتلك المصنوعة في تاروت، لم تكن هذه الفرضية معقولة إلا بقدر الاعتقاد أن المعدّات المستوردة



منظر لقلعة تاروت

من سوسه وأدب وتاروت كانت مصنوعة من الحجر المستورد من بعض أجزاء من المملكة العربية السعودية، كما كان يسود الاعتقاد آنذاك. لكن يبدو من الواضح الآن أن القطع الآتية من هذه المواقع لا تقدم لنا معلوماتٍ عن منشأها الأصلي، حتى لو كانت تجمعها مميزاتٌ معدنية مشتركة. ونظراً إلى الأدلة التي تؤكد أن جنوب شرق إيران كان مركز إنتاج كبير، يبدو من المعقول جداً أن كل القطع التي عـُثر عليها في تاروت، ربما باستثناء «النسخة» من النضيد المتبلّر (د. المعرض ٦٠)، قد استُوردَت من مرهاشي ولم تُصنع محلياً[٦].

ووجود هذه المواد في جزيرة تاروت وَوَضْعُها مع أوانٍ من المرمر والخزفيات المستوردة (د. المعرض ٦٨ و٦٩) وتمثال صغير على شكل إنسان من اللازورد (د. المعرض ٣٩)، يشهد على وجود مجتمع كان يرغب في اقتناء هذه الرموز التي تدل على أوضاع اجتماعية. هل من الممكن إطلاق اسم؟ في الواقع ان المصادر المسمارية في جنوب بلاد ما بين النهرين تتيح التفكير في الأمر.

٦- بوتس، ٢٠٠٥م؛ Steinkeller (شتينكلر)، ٢٠٠٦م.

وتشير أقدم الوثائق المكتوبة – نهاية الألف الرابع قبل الميلاد - الآتية من اوروك جنوب بلاد ما بين النهرين، إلى إله يُدعى دِلمون (Dilmun) غالباً ما يُقرن بإشارات إلى النحاس. ثم في حقبة السلالات القديمة، كان دلمون بالنسبة إلى مدينة لجش (Lagash) مصدراً للـتـزود بالأخشاب. وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني، من الواضح أن البحرين كانت تقع في وسط بلاد دلمون. واسم هذا البلد الذي كان «تلمون» (Tilmun) باللغة الأكادية، أصبح تيلوس (Tylos) في الحقبة الهلينستية، ويتبين بوضوح من الأوصاف الجغرافية اليونانية، أن تيلوس كان الاسم الذي أطلِق على جزيرة البحرين الكبرى، وأن أرادوس (Arados) التي تُقرن بها، كانت جزيرة المحرّق الصغرى (حيث يقع مطار البحرين في الوقت الراهن).

لكن لا يتوافر في جزيرة البحرين أيُّ دليل على وجود مجتمع متطور، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد ومنتصفه، أو منشأة كبيرة من شأنها أن تطابق دلمون السلالات القديمة. لذلك ظن بعضُ الباحثين أن هذا الاسم كان يعني في الأصل على الأرجح، المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، مع منشآتها في أم النصي وأم الرمضة في الداخل، وتاروت على الساحل. وفي خارج المقبرة التي عُثر فيها على الادوات الموصوفة أعلاه، تتمتع تاروت بربوة كبيرة يتوّجها حصنٌ سحيق في القِدم. ونظراً إلى ثراء الـمرفقات الـجنائزية الـتي عُـثر عـليها في الـمـقابر، من الـممكن جداً أن تكون تاروت المرفأ الأساسي، أو حتى عاصمة بلاد دلمون القديمة.

والتحف الرائعة التي عُثر عليها في مقابر تاروت مهمة ٌ، لأنها من بين أمور أخرى، يمكن أن تساعدنا على أن نضع رسالة في إطارها التاريخي ترقى إلى زمن السلالات القديمة ومحفوظة في متحف برغامون (ف أ ت ٤٨٤٥) [٧]. وهذه الرسالة التي حرِّرت على ما يبدو إبان حكم لوغالندا (Lugalanda) (د أ ٣، حوالى ٢٤٠٠ قبل الميلاد)، كتبها باللغة السومرية كاتب كبير يدعى نيغينمود (Niginmud)، إلى شخص اختفى اسمُه وأسفاه. ونقرأ في هذه الرسالة أن اثنتي عشرة سلة من التمر، وثلاث سلال من التمر المنزوع النواة، وثلاثة أثواب من الكتّان و١٢٠ كيْلاً (حوالى ٦٠ كيلو) من النحاس، قد أرسلتها ملكة دلمون إلى ملكة لجش. والإشارة إلى ملكة دلمون في فترة سحيقة على الرغم من أننا لا يمكن أن نتأكد من المعنى الذي ضمّنه الكاتبُ السومري هذه اللفظة، تدل على ما يبدو إلى وجود نوع من التنظيم السياسي التراتبي في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية.

ولأسباب مجهولة، انتقل مركزُ الثقل في دلمون، في تاريخ أقصاه ٢٢٠٠ قبل الميلاد، من تاروت والبر السعودي إلى جزيرة البحرين. وفي وقت قصير، ظهرت في الجزيرة منشآتٌ كبيرة مثل قلعة البحرين وسار، وكذلك مجمّع معبد بربارا الرائع وآلاف المقابر الركامية. لماذا حصل الانتقال؟ رداً على هذا السؤال الذي غالباً ما يُطرح، لم يُعطَ فعلاً أيُّ جواب مرضٍ. ويُمكن في الواقع إجراء مقارنة مع انتقال عاصمة أخرى في القرون الوسطى من اليابسة السعودية إلى إحدى الجزر. فمن ١١٠٠م إلى ١٣٠٠م، كانت إمارة شبه مستقلة تتولى حكمَ مدينة هرمز التي تبعد حوالى ١٠ كلم جنوب غرب المندب في جنوب إيران، قرب مضيق هرمز. وكانت مركزاً تجارياً مهماً، مزوداً بمستودعات كبيرة ويُعتبر المنفذ البحري الوحيد لمدينة كرمن. وعلى الصعيد السياسي، كان أمراؤها يخضعون بالتناوب لأتابك (قادة) فارس وحكام كرمن. ويقول ماركو بولو (Marco Polo) الذي زارها عام ١٢٧٢م وعام ١٢٩٣م، إن هرمز كانت مزدهرة آنذاك. إلا أن هرمز باتت بعد غزو المغول لإيران هدفاً للأتراك الشَغَطاي (البيض). لذلك قرر أمير هرمز بهاء الدين عياز عام ١٣٠٠م نقلَ رعاياه وجميع كبار تجار المدينة في القارة إلى جزيرة جرون (Djarun) في مضيق هرمز. ومدينة جرون البعيدة حوالى ٦٠ كلم غرب مدينة هرمز القديمة، والتي سُميت هرمز الجديدة، ثم هرمز فقط في نهاية المطاف، كانت تحتاج إلى أمور كثيرة ولاسيما المياه العذبة والنباتات، لكن كان من الصعوبة القصوى الاستيلاء عليها، وبقيت مركزاً تجارياً مُهِمّاً حتى فتحها المغول عام ١٥٠١م.

هل يمكن أن تكون ظروف مماثلة تسببت في نقل مركز دلمون من تاروت، أو من مكان آخر على الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية، إلى البحرين؟ لا تتوافر لدينا أيُّ وثيقة تُثبت ذلك،

٧- Selz (سلز)، ١٩٨٩م؛ Kienast et Volk (كيناست وفولك)، ١٩٩٥م؛ Marchesi (مارشيسي)، ٢٠٠٤م، ص ص. ١٧٨-١٧٩.

ضريح الظهران ١٣ B

لكن قد تكون منافسات مع مجموعات أخرى في القارة، واعتراض أمير منافس على سلطة الأسرة الحاكمة، أو نزاعات داخل الأسرة الحاكمة نفسها، أدت بالتأكيد إلى نقل كرسي الحكم من دلمون اليابسة إلى البحرين. وبالاستناد إلى القطع الأثرية التي عُثر عليها في البحرين، كان عدد سكان الجزيرة قليلاً حتى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. وفي وسعنا أن نتخيل حاكماً طَموحا قد اغتنم الفرصة ليؤسس على الجزيرة مملكة منافِسة في قلعة البحرين التي تُـعَدُّ تجمُّعاً كبيراً يسهل الدفاع عنه. وان جزيرة البحرين بفضل توافر مصادر عدة لديها وتمتُّعها بموقع ممتاز على الطرق البحرية التي تربط بلاد ما بين النهرين بالشرق كانت مطمعاً لاقامة مشروع كهذا. إنه مجرّد تكهن، ولا شك. لكن مثال هرمز يمكن أن يساعدنا على فهم كيف أمكن على ما يبدو، نقلُ ثقافة راسخة الجذور في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، إلى جزيرة تبعد مسافة ضئيلة عنها.

وإن انتقالُ مركز ثقل اليابسة إلى البحرين، لم يُسفر عن افراغ المنطقة الشرقية من سكانها، كما تؤكد ذلك مئاتُ المقابر الركامية في الظهران. ولم ينهِ أيضاً اتصالاتِ هذه المنطقة بالعالم الخارجي، خصوصاً شبه جزيرة عـُمان وإيران والبحرين. فقد عُثر في تاروت (د. المعرض ٦٥ و٦٧) وفي مدافن بمقبرة كبيرة في الظهران (د. المعرض ٦٦)، على أوانٍ من الحجر الصابوني المنحوت، من شبه جزيرة عـُمان، التي تميِّزُ نهاية ثقافة أم النار (حوالى ٢٣٠٠- ٢٠٠٠ قبل الميلاد). والأواني الفخارية المزينة بالأسود والرمادي، والأيائل (capridés) الطويلة القرون المرسومة برهافة (د. المعرض ٦٨) التي عـُثر عليها في تاروت، قد استورِدَت من كرمن أو بالوتشيستان.

واعتُبر إناء من الفخار المزيَّن بالأسود الرمادي على خلفية من الأصفر الفاتح (د. المعرض ٦٩)، استيراداً لحضارة وادي السند بسبب زينته النباتية من أوراق شجر الباغود، لكنه قريبٌ بشكله وزينته من الخطوط المتعرجة وقِطَع التجميع من الحقبة المسماة «كفتاري» (حوالى ٢٢٠٠- ١٨٠٠ قبل الميلاد)، الآتية من مواقع في بلاد فارس مثل تل- إي ماليان، وتول- إي سبيد، وتول- إي نوراباد. وعـُثر في مقبرة ترقى إلى حوالى ٢٠٠٠- ١٨٠٠ قبل الميلاد [٨]، في دار كُـليب بجزيرة البحرين، على إناء آخر يجمع على ما يبدو بين شكل خاص بثقافة كفتاري وبين نماذج نباتية من وادي السند. ونظراً إلى شكل هذه الأواني وعجينتها، فمن المحتمل أن تكون من وادي السند؛ ومن المرجح جداً أنها صـُنعت في جنوب غرب إيران. لكن الزينة النباتية تدل على ما يبدو على تأثير النموذج السِندي.

٨- Petrie et al. (بيتري وال.)، ٢٠٠٥م.

وان ختماً (د. المعرض ٧٧) من نوع خاص ببداية حقبة دلمون في جزيرة البحرين (حوالى ٢٢٠٠- ٢٠٠٠ قبل الميلاد)، يُشكّل واحداً من أقدم الأدلة على وجود صِلات مستمرة بين الجزيرة والقارة. وتتميز الأختام في تلك الحقبة بأنها تتألف فقط من حيوانات ولا تتضمن أي رسم بشري. ثم تنوّعت زخرفة الأختام في دلمون في السنوات ٢٠٠٠ إلى ١٧٠٠ قبل الميلاد. وقد عُثر على مئات الأختام في البحرين وفي جزيرة فيلكة في الكويت، حيث تُكوّن تجمّعٌ دلموني يؤرخ بعام ٢٠٠٠ قبل الميلاد. وعُثُر على ثلاثة أختام من النوع الدلموني في المملكة العربية السعودية (د. المعرض ٧٨). وإذا كان يتعين توقّع وجود أختام من هذا النوع في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية – عـُثر على ختم في مدفن بالظهران – فمن المدهش فعلاً العثور على واحد في موقع قرية الفاو الأقدم. وكان يُفترض بالتأكيد أن هذا الختم قديم، وساد الاعتقاد على الأرجح أنه نادر وثمين، عندما نُقل إلى مدينة قرية الفاو البعيدة عن بلد منشأه.

وتدل الفخاريات أيضاً على وجود صلات وثيقة بين البحرين والساحل السعودي أواخر الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. وتُعتبر جرةٌ ملوّنة (د. المعرض ٧٤) زيِّن بطنُها وعنقها بمثلثات مظللة مقلوبة وأشرطة متعرجة، قريبة الشبه جداً لجرة كاملة عُثر عليها في مدفن بمدينة حمد في البحرين، ومن شقفة فخار عُثُر عليها في تل أبرق في الإمارات العربية المتحدة، في إطار زمني يرقى إلى حوالى ٢١٠٠ قبل الميلاد. وبالنظر إلى الزينة الوحيدة لهذه الأواني، يتبين بسهولة أنها قد تكون من منشأ واحد. لكن من العسير أن نحدد هل كان بلد المنشأ هذا، المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية أو البحرين أو الإمارات العربية المتحدة. وبما أن عدداً من الأواني المماثلة قد عثُر عليها في مدفن بالظهران، فمن الممكن جداً أن تكون جميعاً من هذه المنطقة.

وأن خزفيات أخرى عثُر عليها في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، تتشابه تشابهاً قوياً مع بعض الخزفيات المكتشفة في البحرين، وقد تكون مستوردة على الأرجح. وينطبق هذا الأمر على جرة تخزين حمراء «مضلّعة» من نوع الخزف المشترك الذي كان يميّز البحرين في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وثمة أوانٍ أخرى تمثل دِهاناً فخارياً بنفسجي اللون خاصاً جداً (د. المعرض ٧٠ و٧١) ، هي من نوع غالباً ما نجده في مدافن البحرين، ويمكن حتى أن تكون جنائزية بصورة حصرية. ويجد إناء للشرب مقعر القائمة (د. المعرض ٧٢) نماذج مشابهة في البحرين، لكن مدفن الظهران قدّم ما يكفي من النماذج حتى نفكّر أنها محلية الصنع. وأن آنية أخرى أيضاً، ككأس قليل العمق بزينة متعرجة، تحمل مميزات حقبة وادي سوق (حوالى ٢٠٠٠- ١٥٠٠ قبل الميلاد) في الإمارات العربية المتحدة وعُمان. وبالنسبة إلى إناء واحد على الأقل، يسود الاعتقاد أنه مستورَد من بلاد ما بين النهرين ويرقى إلى الحقبة الأكادية أو حقبة أور الثالثة (حوالى ٢٣٥٠- ٢٠٠٠ قبل الميلاد). فالعجينة مختلفة تمام الاختلاف عن عجينة الخزفيات المصنوعة في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية أو في البحرين، حيث اكتُشِف أيضاً في مدافن بعض من هذه الأواني المستورَدة من بلاد ما بين النهرين. واستمر إنتاج الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني عنصراً مهماً في جنوب شرق الجزيرة العربية في الألف الثاني قبل الميلاد، ووصلت نماذجُ من هذه الأواني التي تنتمي إلى المجموعة المسماة «متأخرة» في البحرين وتاروت والظهران (د. المعرض ٦٦) .

ونرى في كل هذه المواد الأثرية تأكيداً على وجود شبكة من الصِلات البحرية بين المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية وجنوب بلاد ما بين النهرين والبحرين وساحل الإمارات العربية المتحدة وجنوب شرق إيران ووادي السند، في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. وحتى لو نُقل مركز دلمون من اليابسة إلى البحرين، كانت مواقع مثل تاروت والظهران ما تزال تحصل على سلع أجنبية – خزفيات وأوانٍ مصنوعة من الحجر وأختام وخشب بناء على الأرجح أيضاً ونحاس، تصل من أماكن تقع في أقصى الشرق. ولا تشير المصادر المسمارية في بلاد ما بين النهرين مباشرة إلى القطاع الجغرافي المعروف هنا بعد منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، لكنها تذكر بعض

Petrie et al.-٨ (بيتري وآل.)، ٢٠٠٥م.



Red-ridged ware خزف



منظر لتاروت

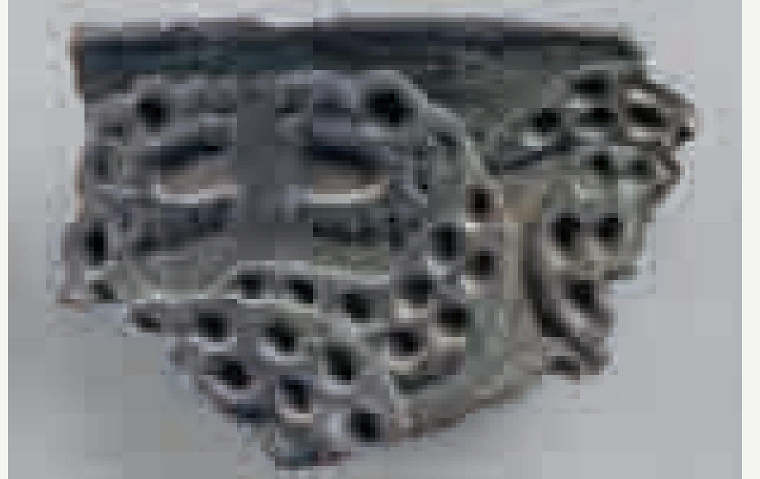
المناطق الواقعة في أقصى الجنوب، التي كانت بلاد ما بين النهرين تقيم معها علاقات تجارية. وقد اندفع تجارٌ من وادي السند بالتأكيد نحو الغرب، متوجهين حتى بلاد ما بين النهرين، مع توقّف في دلمون (البحرين). لكنهم كانوا يتوقفون أيضا في جنوب شرق الجزيرة العربية، حيث كانت بلاد ماجان (Magan) القديمة تمتد على الموقع الحالي لسلطنة عـُمان والإمارات العربية المتحدة. وكما رأينا، تؤكد خزفيات ومعثورات مصنوعة من الحجر الصابوني، وجودَ صلات بين مغان والمنطقة الشرقية. ومن المهم ألا يغيب عن بالنا أن بداية الألف الثاني قبل الميلاد، كانت حقبة باع خلالها تجارُ دلمون كمياتٍ كبيرة من النحاس خصوصاً، وزودوا بالسبائك مدنَ جنوب بلاد ما بين النهرين، مثل أور. وكان هذا النحاس يأتي من جبال عـُمان ويصل إلى دلمون عبر البحر قبل نقله إلى السفن وإعادة إرساله إلى جنوب بلاد ما بين النهرين. ويشير توزّع السلع الأجنبية المكتشفة في مواقع بالمنطقة الشرقية بوضوح، إلى أن هذه المنطقة استفادت أيضاً من هذه التجارة البعيدة، وبالتالي لم تُستبعد عنها.

وعلى الصعيد الثقافي، يمكننا حتى الاعتقاد أن المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، التي لم تعد على الأرجح مركز دلمون، استمرت مع ذلك جزءا منها. ومن المواقع السكنية التي تمت زيارتها خلال عمليات التنقيب عام ١٩٧٦م وعام ١٩٧٧م، كثيرةٌ كانت المواقع التي قدمت خزفاً أحمر «مضلعاً» يميز إنتاج البحرين. وتقدم معثورات المدافن في الظهران تشابهاتٍ مع مدافن البحرين، بحيث نستطيع أن نعتبر بحق أن هاتين المنطقتين كانتا في تلك الفترة تنتميان إلى ثقافة واحدة.

أواني الكلوريت من جزيرة تاروت

د. ماريان كوتّي

في ستينيات القرن العشرين، وخلال عملية شق طريق يصل جزيرة تاروت باليابسة، تم اكتشاف مقابر احتوت على آنية غنية بالزخارف ومصنوعة من حجر طري. في وقت لاحق، ان بعض سكان الجزيرة الراغبين في توسيع مساحاتهم المزروعة اكتشفوا أعداداً كبيرة من هذه الأواني. وانتقل جزء من هذه الغنيمة إلى كل من م. غولدينغ M Golding وج. بوركهولدر G. Burkholder، من شركة آرامكو التي نشرت عدداً من الموجودات[١] وتبرّعت بها إلى المتحف الوطني في الرياض. ومن ثَمّ، أتاح التنقيب الذي اضطلع به ت. ج. بيبي T. G. Bibby في العام ١٩٦٨ [٢] والاستطلاع الذي أجراه أ. ح. مصري A. H. Masry في العام ١٩٧٥ [٣] التأكيد على أن الجزيرة كانت مأهولة حتى في القرن الثالث قبل الميلاد، خلال الحقبة الإغريقية. بعد ذلك، قام ج. زارنس[٤] J. Zarins بتأليف فهرس تضمّن مجموع كسرات الأواني الستمائة المحفوظة في المتحف الوطني. والغالبية العظمى من محتويات هذا السجل تتألف من آنية غير مزخرفة (د. المعرض رقم ٤٠ و٤١) أو أنها مزيّنة فقط بدوائر مدببة (د. المعرض رقم ٦٤ و٦٥ و٦٧). وتتكوّن بقية المجموعة من آنية غنية بالزخارف تنتمي إلى الأسلوب المتعدد **الثقافات**[٥] المشار إليه أيضاً باسم **المجموعة القديمة** [٦] أو الأسلوب **المجازي** [٧]. ويشمل هذا الأسلوب مجموعة واسعة من الأشكال، من تركيبات الأشكال الهندسية المتكررة إلى الرسوم الآدمية و/أو الحيوانات. وتكثر الآنية المزخرفة بهذا الأسلوب في تاروت كما تنتشر أيضاً في مناطق عديدة من الشرق الأوسط، بما يشمل جنوب شرق إيران (تبه يحيى وجيرفت)، الذي يتضمن أعلى نسبة من هذه المصنوعات والذي يبدو أنه كان من أكبر مراكز إنتاج هذه الأواني. وشدة رواج الأواني ذات الأسلوب المتعدد الثقافات في مناطق متباعدة، مثل بلاد ما بين النهرين وآسيا الوسطى وإيران وجزيرة تاروت الصغيرة، توحي بأن جميع سكان هذه المناطق كانوا يدركون المغزى الكامن وراء تلك الرسوم. وهذه الرسوم التي شكلت معياراً واسع الانتشار تجد مصدرها في مختلف أوساط التأثير من إيران إلى بلاد ما بين النهرين.



الصورة ١- كسرة من إناء تاروتي مزخرف بثعبانين متواجهين، الرياض، المتحف الوطني، ٢٦٦٢

الصورة ٢- رسم للإناء كاملاً.

سم

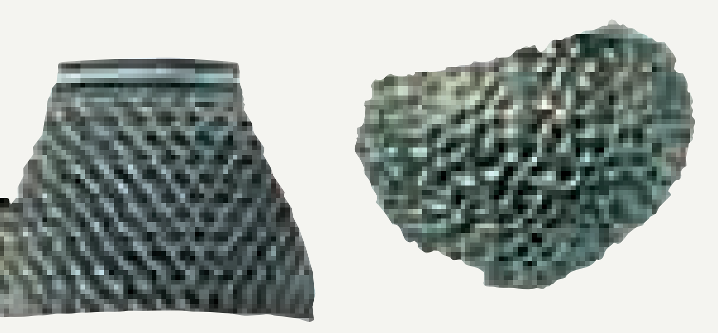
ها هي كسرة مزينة برسم الجني الملتحي لحمو (د. المعرض رقم ٤٧) ذي الحزام الثلاثي، المرسوم صدره من الناحية الأمامية وساقيه من الناحية الجانبية وهو يسيطر على ثور، وهذا الرسم منتشر على الآنية الحجرية في بلاد ما بين النهرين منذ بداية الالف الثالث[٨]. وفي ميثولوجيا بلاد ما بين النهرين، غالباً ما يرتبط هذا الجني بالماء وهو يمثل حامي القطعان. والنسر ذو رأس أسد إيمدوغود/أنزو IMDUGUD/Anzu (د. المعرض رقم ٤٦ والصورة ٢) يبرز في الرسوم، وفقاً لعادات بلاد ما بين النهرين، وهو يمسك ماعزاً بين براثنه. وينتشر استخدام هذا المشهد في بلاد ما بين النهرين على لوحات مثقوبة، وعلى آنية من الفضة، وكذلك على إناء مصنوع من الحجر الطري تم اكتشافه في منطقة مري[٩]. ولكن، في بعض الأحيان، يتم التعامل مع النسر بشكل طبعاني مثلما هي الحال على غطاء علبة ما (د. المعرض رقم ٤٨). ويكثر استخدام هذا الموضوع على الآنية المكتشفة في تاروت [١٠]، وفي جيرفت الواقعة في جنوب شرق إيران، ولكن أيضاً على الأوزان ذات المقابض والجداريات [١١] التي غالباً ما يرتبط فيها النسر بالثعابين، مما يجسد بالتالي الصراع بين قوى الجحيم والقوى السماوية.

الثعابين هي أكثر الحيوانات بروزاً في الرسوم التي تم العثور عليـها في تاروت (د. المعرض رقم ٥١ و٦٠، الصورتان ١ و٣)، وتظهر الثعابين في الرسوم متشابكة وهي تتواجه في ما بينها وفمها مفتوح. ويأتي رسم قشورها الجلدية على شكل ثقوب لوزية الشكل كانت، مثلها مثل العيون، مرصعة بمواد مضافة ؛ أمّا آذانها فهي، دائماً، على شكل فاصلتين مقلوبتين. ورسم الثعابين المتشابكة والمتواجهة شائع الانتشار على الآنية والأوزان ذات المقابض في جنوب شرق إيران[١٢]، ولكنها برزت أيضاً على أحد الأمثـلة



الصورة ٣- كسرة إناء تاروتي مزخرف برأس رجل يخرج من جرة وثعبان، الرياض، المتحف الوطني، ٢٦٦٠

المكتشفة في وادي فرغانـة، في آسيا الوسطى[١٣]. وأحياناً ترسم هذه الزواحف وهي في قبضة رجال طويلي الشعر وذوي أنوف ضخمة، يعتقد أنهم على صلة بـ»سيّد الحيوانات» (د. المعرض رقم ٥١). وغالباً تظهر هذه المشاهد على آنية من الحجر الطري في جنوب شرق إيران وبلاد ما بين النهرين[١٤]، حيث يظهر الرجل راكعاً أو واقفاً، وهو يسيطر على مجموعة من الثيران أو الحيوانات السنّورية[١٥]. والرجل ذو الشعر بشكل عقيصة الذي يمدّ رأسه خارج الإناء محاطاً بالثعابين (الصورة ٣) ربما يمثل أسطورةً ذات صلة بالحمّام أو بالتزكية. ويرد رسم هذا الرجل ذاته على كسرة إناء تم اكتشافها في مدينة أوروك [١٦]. وعلى العكس من ذلك، فإن الرجل المرسوم على الإناء المعروض تحت الرقم ٤٩ و٥٠، فقد أبرز بشكل مختلف عمّا ورد في الصورة ٣، وهو يعيد إلى الذاكرة الرجل المعروف في فيلكة [١٧]. والأسد الظاهر بمعيته، ذو الفرو المكوّن من رسوم متداخلة وشرارات عديدة، يختلف هو أيضاً عن الحيوانات السنّورية المعروفة عادة في تاروت [١٨]. والرسوم المعمارية، بشكل سلال أو رسوم متداخلة، تبرز دائماً في مجموعة الرسوم المنقوشة على الآنية المصنوعة من الكلوريت (الحجر الصابوني). فرسم أعلى الباب المنحني (د. المعرض رقم ٥٨)، الذي شاع انتشاره على الآنية في تاروت، والبحرين[١٩]، وبلاد ما بين النهرين، وسوريا، وإيران[٢٠]، يعيد إلى الذاكرة الإنشاءات الخفيفة المصنوعة من سعف النخيل والتي كانت تشكل، بلا شك، أكثر المساكن شيوعاً في تلك الحقبة. أمّا الرسوم المتداخلة والمرتبطة أحياناً بالعناصر المعمارية، فستستذكر الأنواع المختلفة من الأسيجة وتقلّد السلال المستخدمة في المنازل (د. المعرض رقم ٥٢ إلى ٥٤ و٥٦ إلى ٥٩، الصورة ٣٣). ومن بين الزخرفات الهندسية، يمكننا أن نذكر



(إلى اليسار) الصورة ٤- كسرة إناء تاروتي مزخرف بوريدات، الرياض، المتحف الوطني، ٢٦٤٨
(إلى اليمين) الصورة ٥- كسرة إناء تاروتي مزخرف برسم سلال متكررة، الرياض، المتحف الوطني، ٢٦٣٩

النقوش المتناسقة التي ترمز إلى الأمواج على المياه (د. المعرض رقم ٦٣) وكذلك الورديات المرصعة (د. المعرض رقم ٥٥ والصورة ٤).

تتناقض ألوان هذه الترصيعات، المصنوعة من الطين والحجارة الملوّنة، مع لون الكلوريتيت أو الكلوريت الذي قد يتفاوت بين الرمادي المخضرّ والأسود المخضرّ. وقد برهنت التحاليل أن الحجارة المستخدمة في تاروت[٢١] أتت من مصادر مختلفة، ويرجّح أنها نقلت بشكلها الخام و/أو نصف المنتهي، أي أن الجزيرة ربما كانت محطة مرور أو موقعاً للإنتاج يتضمن عدداً من الحرفيين المتنقلين الآتين من جنوب شرق إيران أو ربما أنها كانت وثيقة الصلة بأولئك الحرفيين. وطوال عدة قرون، على مدى الالف الثالث، عكف أولئك على صنع آنية مخصصة لنخبة سكان المراكز الحضرية في بلاد ما بين النهرين ومعابدها، وقد يكون ذلك في إطار تبادل الهدايا بين الملوك والأسياد المحليين[٢٢].

١. بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١.
٢. بيبي Bibby، ١٩٧٣.
٣. المصري، ١٩٩٧، ص. ٩٧-١٠٣.
٤. زارنس Zarins، ١٩٧٨، ص. ٦٥-٩٣.
٥. كول، Kohl، ١٩٧٤.
٦. ميروشيجي Miroschedji، ١٩٧٣.
٧. ديفيد David، ١٩٩٦.
٨. نيويورك، ٢٠٠٣، العدد ١٦أ و ب، وبغداد، متحف العراق، رقم ٦٦٠٧١.
٩. مارغيرون Margueron، ٢٠٠٤، ص. ٢٨٩، الصورة ٢٧٦.
١٠. زارنس Zarins، ١٩٧٨، الرقمان ١٤٠ و١٥٩.
١١. مجيدزاده Madjidzadeh، ٢٠٠٣، د. المعرض رقم ٩٢ و٩٦ و٩٧ و١٢٦ و١٣٠ إلى ١٣٣.
١٢. لامبرغ-كارلوفسكي Lamberg-Karlovsky، ١٩٨٨، ص. ٧٩، دال و واو؛ ميروشيجيMiroschedji، ١٩٧٣، ص. ١٢، الصورة طاء، ز-ح؛ مجيدزاده Madjidzadeh، ٢٠٠٣، ص. ٩٨-١٠٧، ص. ١٢٣؛ ومتحف اللوفر، قسم الأثريات الشرقية، ٢٩١٤٢.
١٣. نيويورك، ٢٠٠٣، رقم ٢٣٦.
١٤. نيويورك، ٢٠٠٣، رقم ٢٢٧ و٢٣٥؛ أمييت Amiet، ١٩٨٦، الصورة ٧٣؛ بورادا Porada، ١٩٦٢؛ الصورة ١٢؛ وولي Woolley، ١٩٥٥، اللوحة ٣٦.
١٥. مجيدزاده Madjidzadeh مثلاً، ٢٠٠٣، ص. ١٣ و١٥ و٤٥.
١٦. ليندميار ومارتن Lindemeyer et Martin، ١٩٩٣، رقم ٦٩٠.
١٧. ديفيد David، ١٩٩٠، الصورة ٥.
١٨. أنظر زارنس Zarins، ١٩٧٨، الأرقام ١٣ و٢٢ و٦٩ و١٣٤.
١٩. كروفورد Crawford والسندي Al-Sindi، ١٩٩٦، الصورة ١.
٢٠. نيويورك، ٢٠٠٣، ص. ٣٤١، الملحوظة ٢.
٢١. كلوريت صرف، طلق أو حجر صابوني، مزيج من الطلق والكلوريت، من الكلوريت والكوارتز، من الكلوريت والأندراتيت، فلوغوبيت، وموسكوفيت شيست (د. المعرض رقم ٦٠)؛ كول وآخرون Kohl et al.، ١٩٧٩.
٢٢. كول Kohl، ٢٠٠٤، ص. ٢٨٧.



٣٠. كوب
ما بين ٥٣٠٠ و٤٧٠٠ ق. م. (حقبة عبيد الثالثة)
خزف مطلي
ارتفاع: ١٠ سم؛ قطر: ٤ سم؛ سمك: ٠,٣ سم
خورسانية
الرياض، المتحف الوطني، ١١٣٧

المرجع الببليوغرافي: المصري، ١٩٩٧، الصحيفة ٣٠، الرقم ٣؛ بوتس Potts، الصورة ٤/ك؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٤.

يبرهن هذا الكوب الصغير وهذه الكسرات الخزفية المطلية على وجود الخزف المعروف بأنه من العبيد[١] على سواحل الخليج العربي، حيث تم العثور على مئات الكسرات من النوع ذاته فوق سطح الأرض، في ما يناهز ستين موقعاً منتشرة بشكل رئيسي على طول الساحل، سواء في المملكة العربية السعودية أو البحرين أو قطر. ويرتبط هذا الخزف ارتباطاً وثيقاً بالحضارة الحجرية الأخيرة في عبيد والتي تطوّرت في سهول بلاد ما بين النهرين منذ أواسط الالف السابع قبل الميلاد ودامت أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وما بين ٥٣٠٠ و٤٧٠٠ ق.م. (حقبة عبيد الثالثة)، انتشرت هذه الثقافة، المتميّزة بقدر كبير من الديناميكية، بشكل كبير نحو الشمال، بيد أن العبيديين غامروا أيضاً وانطلقوا جنوباً ليقيموا علاقات مع جماعات العصر الحجري الأخير المقيمة على سواحل الخليج العربي. والمصنوعات الخزفية العبيدية، ذات الطين الناعم واللون الأسمر المائل إلى الأخضر والمطلية سريعاً برسوم ذات لون بني داكن، كانت أجود صنعاً من الخزف المحلي (د. المعرض رقم ٣٣): فهل كانت تستخدم على شكل هدايا تكفل التفاهم الجيد مع السكان المحليين بغية تمكين صيادي بلاد ما بين النهرين من إرساء سفنهم على الساحل، أو هل كانت عملية تبادل مقابل سلع مستوردة من بلاد ما بين النهرين[٢]؟ من المرجّح أن السكان المحليين كانوا يعتبرون هذه الآنية بمثابة سلع غريبة غير اعتيادية ترمز إلى الفخامة والمنزلة الرفيعة.
F. D.

١. باسم الموقع الكائن في بلاد ما بين النهرين الذي تم العثور فيه على هذه المصنوعات للمرة الأولى.
٢. أوتس وآخرون Oates et al، ١٩٧٧.



٣١. كسرة إناء
ما بين ٥٣٠٠ و٤٧٠٠ ق. م. (حقبة عبيد الثالثة)
خزف مطلي
حوالى ٢٥ سم
بقيق (الموقع ٢٣)
الرياض، المتحف الوطني، ١٩٤٣

المرجع الببليوغرافي: المصري، ١٩٩٧، الصحيفة ١٩، الرقم ٣؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٤.



٣٢. كسرات
ما بين ٥٣٠٠ و٤٧٠٠ ق. م. (حقبة عبيد الثالثة)
خزف مطلي
حوالى ٥ سم لكل منها
الدوسرية وعين قناص
الرياض، المتحف الوطني، ١١٤١/١٣، و١١٤١/٨، و١١٤١/٣، و١١٤٤/٨

المرجع الببليوغرافي: الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٤١ الجزء الأعلى؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٤.



٣٣. إناء مخروطي الشكل
الالف الخامس قبل الميلاد
خزف، قار، أصداف
ارتفاع: ١٢ سم؛ قطر: ٩ سم
عين السيح
الدمام، المتحف الإقليمي، ٤٦٤٨

المرجع الببليوغرافي: ماكلور والشيخ McClure & Al-Shaikh، ١٩٩٣، ص. ١٠٧، الصورة ١٣.

هذا الإناء، المصنوع من الصلصال الغليظ المصفّى بالنباتات، هو مثال عن المصنوعات الخزفية المحلية. وتواجد الأصداف داخل الإناء يدلّ على أن مستوى مياه الخليج العربي ارتفع في النصف الثاني من الالف الخامس قبل الميلاد[١]. والقار الذي علقت عليه الأصداف مستورد من جنوب العراق، تماماً مثل الخزف المطلي الآتي من عبيد (د. المعرض رقم ٣٠ و٣١ و٣٢). والملاحة البحرية، المؤكّدة منذ الالف الرابع قبل الميلاد، كانت تتيح على الأرجح نقل هذه السلع والمنتجات بحراً[٢].
M. C.

١. ماكلور والشيخ McClure & Al-Shaikh، ١٩٩٣، ص. ١٠٧-١٢٥.
٢. كارتر Carter، ٢٠٠٦.

٣٤. نصل
الالف الخامس قبل الميلاد
سبج (حجر زجاجي أسود)
الطول الأقصى: ٥ سم
منطقة الدوسرية
الرياض، المتحف الوطني، ٢/١١٨٢/٢

خلال الالف السادس، تكثّفت التبادلات بين المناطق المتباعدة: الخزف والقار من بلاد ما بين النهرين، وأيضاً السبج الآتي من تركيا أو من جنوب القوقاز. وكان السعي يشتد للحصول على هذا الزجاج الطبيعي البركاني المنشأ من أجل صنع النصال، التي كانت تستعمل كمنجل بعد ربطها بمقبض. وعلى الرغم من الانعدام شبه التام لآثار الزراعة في المنطقة، فإن اكتشاف نصال المناجل والمجرفات وحجارة الرحى يؤكد وجود زراعة هامشية. وكان سكان شرق بلاد العرب يقتاتون، بشكل رئيسي، بفضل صيد الأسماك وجمع الأصداف والقنص، بالإضافة إلى تربية الماعز والأبقار.
M.C.



٣٥. جرة (الصفحة اليسرى)
النصف الأول من الالف الثالث قبل الميلاد
خزف
ارتفاع: ٢١ سم؛ القطر الأقصى: ١٤ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١١٤٤

المرجع البيبليوغرافي: بوركهولدر Burkholde، ١٩٨٤، الصورة ١٧أ و ص. ١٩٠؛ زارنس Zarins، ١٩٨٩، الصورة ٩/٦.

في شرق بلاد العرب، تكاد تنعدم الآثار العائدة إلى الالف الرابع، ويلزم انتظار الالف الثالث لتشهد المنطقة عودة المنتجات الفخارية [١]. وهذه المنتجات كناية عن خزفيات من بلاد الرافدين كانت تستخدم لنقل السلع الغذائية كالزيت والحبوب. وأتاح التنقيب في منطقة الرفيح، بجزيرة تاروت، اكتشاف جرتين تعودان إلى تلك الحقبة الزمنية: إحداهما أنبوبية الشكل ذات شفة مدببة وجرة مخروطية الشكل (أدناه)، وتنسب هاتان الجرتان إلى حقبة جمدة نصر – السلالة القديمة الأولى في بلاد الرافدين.

M. C.

١. بشأن الجَدَل القائم حيال وجود مواد من أوروك في شرق بلاد العرب، أنظر كلوزيو Cleuziou، ١٩٨٨، ص. ٣١-٣٢.

جرة مخروطية الشكل عثر عليها في الرفيح، تاروت.



٣٦. جرة (أعلاه، جهة اليسار)
النصف الأول من الالف الثالث قبل الميلاد (السلالتان القديمتان الأولى والثانية)
خزف
ارتفاع: ٣٧ سم؛ القطر الأقصى: ٢٧ سم
بقيق، سبخة الحمام
الدمام، المتحف الإقليمي، ١١٩٠

المرجع البيبليوغرافي: الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٥٠ يسار؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٦.

٣٧. جرة (أعلاه، جهة اليمين)
النصف الأول من الالف الثالث قبل الميلاد (السلالتان القديمتان الأولى والثانية)
خزف
ارتفاع: ٣٦ سم؛ القطر الأقصى: ٢٧,٥ سم
بقيق، سبخة الحمام
الدمام، المتحف الإقليمي، ١١٩٢

المرجع البيبليوغرافي: الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٥٠ يمين.

تم اكتشاف العديد من المصنوعات الخزفية الرافدية في مقابر بقيق وفي ضواحي الهفوف. وجرّات التخزين الكبيرة هذه تشبه تلك التي شاعت في بلاد ما بين النهرين، والتي عثر عليها في مقبرة أور[١]، وفي خفدجة [٢].

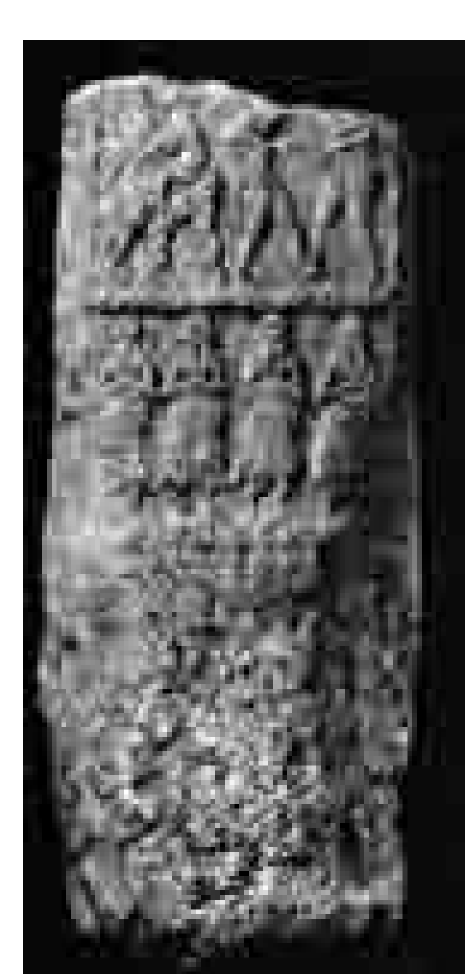
M. C.

١. وولي Wooley، ١٩٥٦، الصحيفتان ٥٧ و٦٤.
٢. ديلوغاز Delougaz، ١٩٥٢، الصحيفتان ١٨٠ و١٩٥.

٣٨. تمثال آدمي الشكل
منتصف الالف الثالث قبل الميلاد
حجر كلسي
ارتفاع: ٩٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٠٠٠

المرجع البيبليوغرافي: الراشد، ١٩٧٠؛ إيبوليتوني-ستريكا Ippolitoni-Strika، ١٩٨٦، ص. ٣١١-٣٢٤؛ نيويورك، ٢٠٠٣، رقم ٢٢٢؛ بوتس Potts، ١٩٩٠أ، ص. ٦٧-٦٨.

يدخل هذا التمثال المذهل في عداد مجموعة من المصنوعات الأثرية المكتشفة في عام ١٩٦٦ في الرفيح، جنوب شرق جزيرة تاروت، خلال أعمال حفريات أدّت إلى بقر منطقة قديمة تكثر فيها الأضرحة (أنظر، في هذا الكتاب، بوتس Potts، ص. ١٧٧). بالتالي، فإن السياق الأثري لهذا الاكتشاف لا يتيح أية مؤشرات تسمح بتأريخ الموقع، ولكن هذا التمثال الكبير الحجم لرجل عارٍ يذكّر، في عديد من النقاط، بتماثيل بلاد ما بين النهرين التي يعود تاريخها إلى أوائل الالف الثالث. والوضعية التي يتّخذها التمثال، أي الوقوف ويداه مكتوفتان على صدره، تعيد إلى الذاكرة وضعية تماثيل المصلّين التي كان المؤمنون، في بلاد ما بين النهرين، يضعونها في المعابد إعراباً عن تبجيلهم للإله المعبود. وهذه الطريقة المعتمدة لتكتيف اليدين، أي وضع اليد اليمنى على اليسرى، هي تجسيد دقيق للحركة التي كان هؤلاء المصلّون ينفّذونها.


الصورة ١- شاهدة طقسية، دير، بغداد، المتحف العراقي، ٧٥٢٠٨


الصورة ٢- رأس رجل، تلو، باريس، متحف اللوفر، قسم الأثريات الشرقية ٤١١١

ولا يرتدي شخص التمثال سوى حزام ثلاثي، يشبه ذاك الذي يضعه الأبطال العراة المنقوشة رسومهم على الأختام المكتشفة في بلاد ما بين النهرين. ويذكّر جسمه بأجسام حاملي القرابين، أو المصارعين ذوي الصلة بالمراسم الدينية، أو الكهنة التي ترد نقوش مراسمهم الدينية على العديد من الأفاريز الحجرية (الصورة ١): فالصدر قصير مقارنة بالساقين، وحجم مؤخرته ضخم، وفخذاه مليئتان ورضفتاه مرسومتان دائماً بدقة، وهذه كلها سمات واردة بشكل اغلظ في تمثال تاروت. فرأسه مستدير وهو امرد، وعيناه جاحظتان والبشرة تحتهما منتفخة، أمّا شفتاه فغليظتان، وشكل أذنيه الضخمتين يذكّر بشكل الأذنين في تماثيل بلاد الرافدين، كما هو ثابت من رأس صغير خشن لرجل تم العثور عليه في موقع تلو حيث كانت تقوم مدينة جرسو القديمة (الصورة ٢). وهذه الخصائص تسلط الضوء على تأثير قوي من جانب فن النحت في بلاد ما بين النهرين خلال حقبة السلالات القديمة (نهاية السلالة القديمة الثانية وبداية السلالة القديمة الثالثة)، أي ما بين عامي ٢٦٠٠ و٢٥٠٠ قبل الميلاد، وهي حقبة شهدت تكثف التبادلات مع بلاد ما بين النهرين. ويرى بعض الباحثين أن هذه الصفات تشبه أيضاً تلك الخاصة بحضارة وادي السند، ولكن هذا التمثال، الذي تتمازج فيه على الأرجح تأثيرات متنوّعة، يبقى أصيلاً كل الأصالة. فعلى الأرجح أنه من صنع محلي ويبرهن على شجاعة هذا النحات واحترافه، إذ أنه استطاع أن يستخدم كتلة ضخمة من الحجر الكلسي لينحت فيها تمثالاً ينوف ارتفاعه على متر واحد – إذا أعيد إليه كاحلاه وقدماه –، أي أنه أكبر بكثير من النماذج الممكنة الآتية من بلاد ما بين النهرين أو من وادي السند. وفي الوقت الحاضر، لا تزال هذه التحفة فريدة من نوعها ولكن الأبحاث المقبلة قد تكشف النقاب عن تحف أخرى من النوع ذاته، مشيرة بالتالي إلى وجود مدرسة نحت محلية حقة.
F. D.





٣٩. تمثال صغير آدمي الشكل
النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد
لازورد
ارتفاع: ٥ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١١٧٧

المرجع الببليوغرافي: نيويورك، ٢٠٠٣، رقم ٢٢٣؛ بوتس Potts، ١٩٩٠أ، ص. ٦٦-٦٧؛ الراشد، ١٩٧٠، ص. ١٦٠؛ رايس Rice، ١٩٩٤، ص. ٢٢١، الصورة ٨-٦.

تم اكتشاف هذا التمثال الصغير صدفة أثناء أعمال الحفريات، بالتزامن مع مجموعة كاملة من المفردات الأثرية، بما فيها تمثال آدمي الشكل (د. المعرض رقم ٣٨). وقد يكون هذا التمثال الجزء الأيمن من قطعة أثرية أضخم: ففي الواقع، فيما أن جهته اليسرى منحوتة بشكل جيد ومصقولة تماماً، تظهر على الجهة اليمنى مؤشرات كسر. والشخص الذي يظهر متدّثراً بثوب واسع، يبدو جالساً، ورأسه وجذعه منحوتان وجاهياً فيما يظهر جسمه جانبياً نحو اليسار؛ وهذا الشخص ملتحٍ وشعره طويل – قورنت هذه التسريحة بتلك التي برزت على التماثيل الأولى للمصلّين الرافديين من حقبة السلالات القديمة. ويمكن الاعتقاد أن شخصاً ثانياً يجلس في مواجهته، وقد يكون امرأة: فهذه التماثيل الثنائية كانت شائعة الانتشار في الألف الثالث. وكثيراً ما لجأ النحاتون إلى استعمال الحجر اللازوردي الذي نحت فيه هذا التمثال. فهذا الحجر الفاخر، المطلوب جداً، كان يستورد من أقاصي إقليم بادكشان، في أفغانستان، مما يثبت أن جزيرة تاروت كانت في صلب دوائر التبادلات الجارية عبر مسافات طويلة. ولكن، في غياب أي قطعة أخرى من الأسلوب ذاته للمقارنة، يصعب علينا أن ننسب هذا التمثال الصغير إلى أي مصدر معيّن. F. D.



٤٠. إناء
ما بين ٢٦٥٠ و٢٥٥٠ ق. م. (حقبة السلالة القديمة الثانية)
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ١٠,٤ سم؛ قطر: ما بين ٨,٢ و١٢ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٢٠

المرجع الببليوغرافي: غولدينغ Golding، الصورة ٤ ٣-٦، ٩، ١٠؛ الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٤٨؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٧٦ و٢١، اللوحة ٧٢ب؛ بوتس Potts، ١٩٨٦، اللوحة ٢ب؛ بوتس Potts، ١٩٨٩، ص. ١٥ (الأعلى).

هذه الآنية المصنوعة من الكلوريت الداكن اللون، غير المزخرفة والمصقولة صقلاً ناعماً، تتسم بأشكال بسيطة ورثتها عن فن صناعة السلال. ويمكن مقارنتها بالآنية المماثلة التي تم العثور عليها في أضرحة مقبرة جمدة نصر في أور، الواقعة جنوب بلاد ما بين النهرين[١]. M. C.

١. وولي Wooley، ١٩٥٦، اللوحة ٦٦.



٤١. إناء
ما بين ٢٦٥٠ و٢٥٥٠ ق. م. (حقبة السلالة القديمة الثانية)
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ٩ سم؛ قطر: ٩,١ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١١٦٨



٤٢. إناء أسطواني الشكل
ما بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي تشوبه بقايا الطحالب
ارتفاع: ٨,٧ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١١٦٨

هذا النوع من الآنية الأسطوانية الشكل منحوت في حجر نادر، ناتج عن تحجر المرجان، وتقع أقرب مكامن هذه الحجارة في عُمان، على طول الساحل. وقد تم العثور على آنية مماثلة في المستويات العائدة إلى النصف الثاني من الالف الرابع في تبه يحيى، الواقعة جنوب شرق إيران[١]. M. C.

١. لامبرغ-كارلوفسكي Lamberg-Karlovsky وبيل Beale، ١٩٨٦، الصورة ٧-١٩-ج.



٤٣. إناء أسطواني الشكل
ما بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي تشوبه بقايا الطحالب
ارتفاع: ٨,٧ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١١٦٨

هذا النوع من الآنية الأسطوانية الشكل منحوت في حجر نادر، ناتج عن تحجر المرجان، وتقع أقرب مكامن هذه الحجارة في عُمان، على طول الساحل. وقد تم العثور على آنية مماثلة في المستويات العائدة إلى النصف الثاني من الالف الرابع في تبه يحيى، الواقعة جنوب شرق إيران[1].
M. C.

١. لامبرغ-كارلوفسكي Lamberg-Karlovsky وبيل Beale، ١٩٨٦، الصورة ٧-١٩-ج.





٤٤. قصعة
الالف الثالث قبل الميلاد
مرمر
ارتفاع: حوالى ٥,٥ سم؛ قطر: ١٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٨٨

المرجع البيليوغرافي: بوتس Potts، ١٩٨٩، ص. ٢١ (في الأعلى جهة اليسار).

كانت المصنوعات الفخمة من المرمر محط سعي النخبة الحضرية، إذ أنها كانت ترمز إلى ارتفاع الشأن على الصعيد الاجتماعي. وهذا الحجر لم يكن مستساغاً لخصائصه الوظيفية إذ أنه لم يكن صالحاً لاحتواء السوائل بفعل مساميته. وتنتمي هذه القصعة إلى نوع شاع انتشاره في كافة أنحاء الشرق الأدنى والأوسط خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد.
M. C.



٤٥. قصعة
الالف الثالث قبل الميلاد
مرمر ذو عروق
حوالى ١٠ × ١٠ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٩٩٧

المرجع البيليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٦.

الثقوب التي خلـّفتها البرشامات تعني أن هذا الإناء تعرّض للترميم في العصور القديمة، ممّا يشير بوضوح إلى القيمة المعطاة لهذا المصنوع الفاخر. وقد شاع انتشار هذا الشكل من القصعات في بلاد ما بين النهرين وفي إيران (أور، كيش، تبه موسيان، وشهر سوخته)[1].
M. C.

١. أنظر كازانوفا Casanova، ١٩٩١، المجموعة ١٢، ص. ٣٦.



٤٦. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٤٢

المرجع البيليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٦٩؛ بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٥، رقم ١٣ أ-ب-ج، وص. ٣١١، الصورة ٢أ-ج.



٤٧. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ٦ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٢٤

المرجع البيليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٤٢، ٢٦٣٧؛ غولدينغ Golding، ١٩٧٤، الصورة ٤، ١٣.

٤٨. كسرة غطاء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٦,٥ × ٧ × ٠,٥ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٢٧

المرجع البيليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٤، رقم ١٢؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٢٦٤٥، و٦٩٩-١٣-٥، رقم ٦٢.



٤٩. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٩ × ٤,٨ × ٠,٩ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٤٠

المرجع البيليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٦، رقم ١٥أ؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، ٢٦٥٢، و٦٩-١٢أ، رقم ٤٧؛ الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٤٨.



٥٠. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ٧ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٢/١٢٥٤

المرجع البيليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٦، رقم ١٦؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٢٦٤٧، و٧٠-٦أ، رقم ٤٨.



٥١. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٧,٥ × ١٠,٨ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٣٤

المرجع البيليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، ٢٦٣٢، و٧١-٧ب، رقم ٥٤٦.



٥٢. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
١٣ × ٨ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٢/١٢٤٨



٥٣. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
١١ × ٩ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٢/١٢٥٥

المرجع الببليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٣، رقم ٢.



٥٤. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
حوالى ٥ × ٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٣٤

المرجع الببليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٥٦٩.

٥٥. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٥٠

المرجع الببليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٤، رقم ١٠.



٥٦. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ١١ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١/١٢٥٣

المرجع الببليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٣، رقم ٥؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٦٤.



٥٧. إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: حوالى ٩,٥ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٤٦

المرجع الببليوغرافي: بوركهولدر Burkholder، ١٩٧١، اللوحة ٢، رقم ٤؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٥٧؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٦.



٥٨. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٦ × ٥ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٤/٣١٣٤

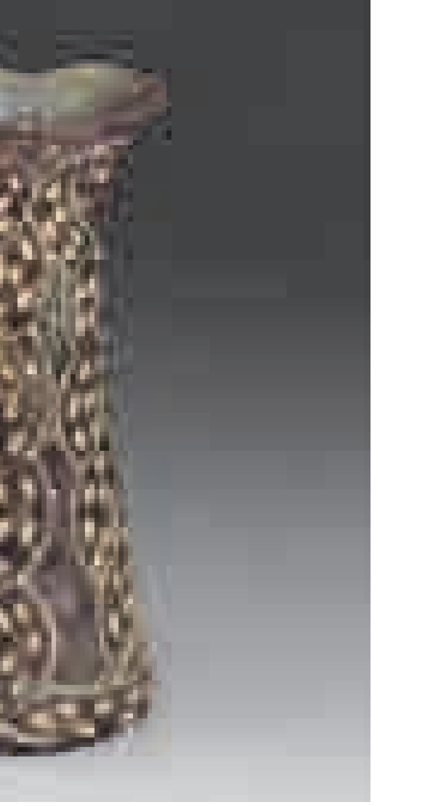


٥٩. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٥ × ٤ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١/٣١٣٥



٦٠. كسرة إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
موسكوفيت شيست
ارتفاع: ١٥,٥ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١١٧٣

المرجع الببليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٢٦٥٧-٢ و٧٠-٢-أ، رقم ٥٤٥.



٦١. إناء مخروطي الشكل مزخرف بأفاعٍ متشابكة
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ١٩,٥ سم؛ قطر: ٩ سم
تاروت ؟
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٧٠



٦٢. إناء اسطواني الشكل مزخرف بسعف النخيل
نهاية الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ١١,٥ سم؛ قطر: ٧,٥ سم
تاروت ؟
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٧١

٦٣. إناء
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
٧,٧ سم
تاروت، الرفيح
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٤٧

المرجع الببليوغرافي: نيويورك، ٢٠٠٣، د. المعرض رقم ٢٢٤ف.



٦٤. قصعة نصف كروية
نهاية الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ٥ سم؛ قطر: ١١ سم.
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٣١



٦٥. إناء كروي ذو مقبضين للتعليق
النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ٩,٥ سم؛ القطر الأقصى: ١١,٥ سم؛ سمك: ٠,٥ سم
تاروت، «فريق الأكرش»
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٢٦

المرجع الببليوغرافي: بيبي Bibby، ١٩٧٣، ص. ٣٧، الصورة ٣٣؛ الراشد، ١٩٧٥، ص. ١٤٨؛ زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٤٠، اللوحة ٧٠.

الآنية المصنوعة من الكلوريت المزخرفة بدوائر متراكزة منقّطة استوردت من شبه جزيرة عمان خلال حقبة أم النار. وقد شهد هذا النوع من المصنوعات انتشاراً واسعاً جداً: فنجده على مدى الفترة الأخيرة من الألف الثالث في جنوب بلاد ما بين النهرين وفي إيران (تبه يحيى[1]، وشهد، وسوس[2])، وفي آسيا الوسطى، وفي وادي السند، وعلى طول سواحل الخليج العربي. وقد أتاحت عمليات السبر والتنقيب المختلفة التي أجريت في تاروت العثور على حوالى ستين كسرة آنية من هذا النوع[3]. وتتفاوت أشكال هذه الأواني، من قصعات وآنية أسطوانية الشكل، وعلب ذات خانات لها في بعض الأحيان أغطية. وقد اكتشفت هذه الآنية المصنوعة من الكلوريت في القبور التي كانت قد وضعت فيها على شكل قرابين؛ إذ أنها كانت مخصصة لاحتواء منتجات غذائية أو مواد تبرّج عالية القيمة. M. C .

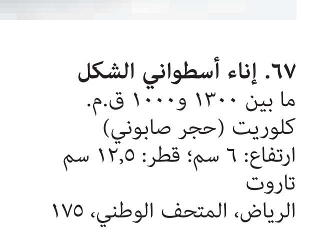
١. لامبرغ-كارلوفسكي Lamberg-Karlovsky، ١٩٨٨، الصورتان ٤/ج ج و٤/د د.
٢. ميروشيجي Miroschedji، ١٩٧٣، الصورتان ٨ و٩.
٣. أنظر بوتس Potts، ١٩٩٠أ، ص. ١٨٠، الملحوظة رقم ١٣٣.



٦٦. إناء مخروطي الشكل
ما بين ١٦٠٠ و١٢٥٠ ق.م.
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ١٢ سم؛ قطر: ما بين ٤,٤ و٨,٢ سم
الظهران، المقبرة A٦
الرياض، المتحف الوطني، ١٩٦٩

المرجع الببليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٧.

هذا الإناء الكبير المخروطي الشكل يحمل زخارف كثيفة من التظليل والخطوط الأفقية وصفوفاً من الدوائر المنقطة. وقد استورد من شبه جزيرة عمان حيث كان، في نهاية العصر البرونزي (حقبة وادي سوق)، يتم إنتاج آنية منحوتة في حجر رديء النوعية أحياناً وذات زخارف أقل إتقاناً من تلك المنتجة في الحقبات السابقة. M. C .



٦٧. إناء أسطواني الشكل
ما بين ١٣٠٠ و١٠٠٠ ق.م.
كلوريت (حجر صابوني)
ارتفاع: ٦ سم؛ قطر: ١٢,٥ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٧٥

هذا الإناء الأسطواني الشكل ذو القعر المسطح هو على الأرجح جزء من سلسلة آنية عمانية أنتجت في الفترة الانتقالية بين وادي سوق/وعصر الحديد. وزخرفته غير متقنة على شكل شريط من الدوائر المنقطة تنطلق منه خطوط وتظليلات وتعرجات. ويذكر شكل الزخرفة وتنظيمها بعدد من الآنية المكتشفة في الإمارات وفي عمان[1]. M. C .

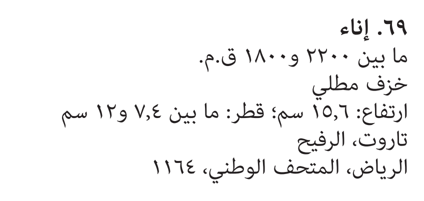
١. زوترمان Zutterman، ٢٠٠٤، ص. ١٠٩؛ هاكل Huckle، ٢٠٠٣، ص. ٦٠، الصورة ٧.



٦٨. جرة كروية الشكل
ما بين ٣٠٠٠ و٢٢٥٠ ق.م.
خزف مطلي
ارتفاع: ١٠ سم؛ قطر: ما بين ٤٫٥ و١١٫٥ سم
بقيق، المقبرة AGM١٣
الرياض، المتحف الوطني، ١١٩٩

المرجع البيبليوغرافي: بيزينغر Piesinger، ١٩٨٣، الصورة ٦١؛ زارنس Zarins، ١٩٨٩، الصورة ١١، رقم ٦.

هذا الإناء الخزفي، المطلي بإفريز من الماعز المرسوم بشكل واضح، مستورد من جنوب شرق إيران. فهذا النوع من الآنية يتواجد بكثرة في بمبور، ودامين، وخراب، وميري قلعة، وتبه يحيى، وغيرها من المواقع في بالوشستان. وكان الطلب شديداً على هذه الخزفيات المطلية بزخارف متقنة التنفيذ في شرق الجزيرة العربية حيث تم العثور على أمثلة عديدة منها. واكتشاف إناء مماثل لهذا في قلعة جزيرة تاروت (الصفحة المقابلة) يوحي بأن عدداً من النماذج كان ينتج على نحو متسلسل. M. C.



جرة كروية ذات زخارف على شكل وعل، تاروت.
الدمام، المتحف الإقليمي، ١١٦٢



٦٩. إناء
ما بين ٢٢٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
خزف مطلي
ارتفاع: ١٥٫٦ سم؛ قطر: ما بين ٧٫٤ و١٢ سم
تاروت، الرفيع
الرياض، المتحف الوطني، ١١٦٤

المرجع البيبليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٨٩، الصورة ٦، رقم ٢٠؛ بوركهولدر Burkholder، ١٩٨٤، الصورة ٣٠ وص. ١٩٧.



٧٠. جرة اسطوانية الشكل
ما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
خزف مطلي باللون الأحمر
ارتفاع: ٢٢٫٥ سم؛ قطر: ١٤ سم (قطر الحافة: ١٠٫٥ سم)
الظهران، المقبرة B٢٨
الرياض، المتحف الوطني، ١٩٦

المرجع البيبليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٧٢؛ المغنّم ووورويك Warwick، ١٩٨٦، ص. ٢٤، اللوحة ٢٠.

يتواجد هذا النوع من الآنية بوفرة في مواقع أخرى على الساحل السعودي وكذلك في مقابر البحرين التي ترقى إلى زمن دلمون. ويعتقد أن هذه الأوعية الكبيرة كانت معدّة لاحتواء سائل يستخدم أثناء الطقوس الجنائزية. وكانت هذه الخزفيات تصدّر نحو مناطق شبه جزيرة عمان، مثل شمال، وصور، والمناي، وتل أبرق، وكلباء[1]، وأيضاً إلى جنوب بلاد ما بين النهرين (أور ولارسا المعروفة محلياً باسم السنكرة)[2]. M. C.

١. ميري وآخرون Mery et al، ١٩٩٨، ص. ١٦٩ و١٧٨.
٢. وولي وآخرون Wooley et al.، ١٩٧٤، اللوحة ٥٢، ١٢.

٧١. إناء هرمي الشكل
ما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
خزف مطلي باللون الأحمر
ارتفاع: ٢٤ سم؛ القطر الأقصى: ١٧ سم
الظهران
الرياض، المتحف الوطني، ١٨١

المرجع البيبليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٠٤.

يكثر تواجد هذا النوع من الآنية في مقابر دلمون ولكنه لا يتوافر إطلاقاً في المساكن، ممّا يوحي بأنه كان يستخدم حصراً لأغراض جنائزية [1]. وقد استمر استخدام الطلاء الأحمر، الذي تتميّز به هذه الآنية، حتى الخزفيات من النوع الكيشي الذي انتشر في أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد. M. C.

١. باريس، ١٩٩٩، د. المعرض رقم ١٣، ص. ٥٩.



٧٢. كوب ذو قاعدة
ما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
خزف مطلي
ارتفاع: ٧٫٨ سم؛ قطر: ٨ سم
الظهران، المقبرة DGM ٣
الرياض، المتحف الوطني، ١٢١٠

المرجع الببليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٥؛ بيزينغر Piesinger، ١٩٨٣، الصورة ٣/١٣٩؛ زارنس Zarins، ١٩٨٩، الصورة ١٣، رقم ١٢؛ دورينغ كاسبرز During Caspers، ١٩٩٤، الصورة ٤.

هذا الكوب المزخرف بخطوط عمودية وخطوط قصيرة أفقية كان مزوداً بقاعدة جوفاء لم تعد موجودة الآن. وهذا النوع من الكؤوس، التي شاع انتشارها في الظهران [١] وفي بقية أنحاء الخليج العربي، كثير الانتشار في الأماكن الواقعة جنوب شرق إيران، مثل مهرغره وتبه يحيى. وربما أتت هذه الأكواب من آسيا الوسطى حيث تكثر البراهين على تواجد هذا الشكل من الأكواب [٢]. ومن المرجح أن تكون هذه الآنية البعيدة المنشأ وصلت إلى بلاد دلمون من دون زخارف، وكانت تطلى محلياً وفقاً للطراز المحلي. M. C.

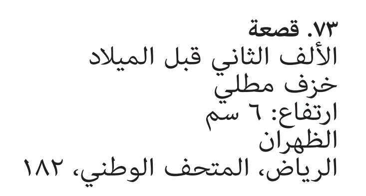
١. زارنس Zarins، ١٩٨٩، الأشكال ١٣-٦ و١٣-١٢ و١٣-١٨.
٢. بوتس Potts، ٢٠٠١، ص. ٨١-٨٢.



٧٣. قصعة
الألف الثاني قبل الميلاد
خزف مطلي
ارتفاع: ٦ سم
الظهران
الرياض، المتحف الوطني، ١٨٢

تمت زخرفة هذه القصعة الكروية الصغيرة، ذات الشفة الرقيقة، بشكل غير متقن باستخدام خط متعرج يذكّر بزخرفات الخزف العماني من حقبة وادي سوق. ولكن يبدو أنها من إنتاج محلي نظراً لاكتشاف أمثلة عديدة شبه مماثلة في مقابر واقعة في منطقة الظهران[١]. M. C.

١. فروليش وآخرون Frohlich et al.، ١٩٨٥، اللوحتان ٢٥أ و٢٨أ.



٧٤. إناء هرمي الشكل
حوالى ٢١٠٠ ق.م.
خزف فاخر برتقالي اللون، مطلي باللون الأسود
ارتفاع: ٢٧ سم؛ قطر: ٢٦ سم
الظهران، المقبرة B٢٥
الرياض، المتحف الوطني، ١٩٤٦

المرجع الببليوغرافي: فروليش Frohlich ومغنّم، ١٩٨٥، اللوحة ٢٩أ؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٩.





٧٥. إناء جنائزي صغير الحجم
ما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
خزف مطلي
ارتفاع: ٨ سم؛ قطر: ٩ سم
الظهران، المقبرة B٢٩
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٠٩

المرجع الببليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٦؛ مغنّم ووورويك Warwick، ١٩٨٦، رقم VB٢٩، ص. ٢٤، اللوحة ٢٠.



٧٦. جرة
القرن السادس قبل الميلاد
خزف
ارتفاع: ٢٠،٥ سم؛ القطر الأقصى: ١٢،٥ سم
تاروت، تم الحصول عليه في قطيف
الرياض، المتحف الوطني، ١١٦٥

المرجع الببليوغرافي: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٦٥.

هذا النوع من الجرار «البربرية الكاذبة» تشكل جزءاً من المقتنيات الجنائزية التي تتميز بها المقابر ذات النواويس-الأحواض التي انتشرت في البحرين في نهاية الحقبة الدلمونية الحديثة. وفي قلعة البحرين، تم العثور على جرة من نوع شبيه بهذا وكانت قد استخدمت لإخفاء كنز معدني تضمّن أكثر من ٣٥٠ قطعة مجوهرات أو كسرات فضية [١].
M. C.

١. باريس، ١٩٩٩، د. المعرض رقم ٢١٢.

٧٧. ختم خليجي
ما بين ٢٢٠٠ و٢٠٠٠ ق.م.
كلوريت (حجر صابوني)
قطر: ١،٥ سم تقريباً
تاروت، الرفيع
الرياض، المتحف الوطني، ٢/٢٦٦٩

المرجع الببليوغرافي: زارنس Zarins، ١٩٧٨، رقم ٥٨٣.

يحمل هذا الختم نقش بقرة وطائر، وهو من نوع «الأختام الخليجية» الذي يعتبر أقدم الأنواع المصنوعة في دلمون. وعادة ما تكون هذه الدمغات صغيرة الحجم وذات ظهر محدّب جداً، عليه أخدود مستعرض. وغالباً ما تقتصر زخرفتها على أشكال الثيران أو الظباء أو الماعز، ويضاف إليها أحياناً أشكال طيور أو عقارب؛ وغالباً ما تستخدم صورة القَدَم لملء المساحات الفارغة.
M. C.



٧٨. ختم دلموني
ما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق.م.
حجر صابوني مسخّن
قطر: ٢،٨ سم؛ سمك: ١،٥ سم
الظهران، المقبرة ١٠/A
الدمام، المتحف الإقليمي، ٤٦١٤

المرجع الببليوغرافي: المغنم وآخرون، ١٩٨٦، اللوحة ١٨أ؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٨١.

مع مرور الوقت، أصبح شكل أختام دلمون معيارياً، فبات ظهرها أقل تحديباً، وتمت زخرفتها بأربع دوائر منقطة تظهر على جانبي خطوط متوازية. وفي المقابل، باتت مجموعة الرسوم المستخدمة أكثر تنوّعاً مع الوقت، إذ ظهرت على الدمغات مشاهد طقسية أو أخرى إباحية، كما برزت عليها رسوم «أسياد الحيوانات»، وأشكال حيوانية متعددة... وهذا الختم – الذي يحمل رسم ثمانية رؤوس حيوانية (ماعز أو غزال أو ظبي) عنقها محاط بحلقات ورؤوسها واضحة المعالم – تتلاءم مع التقاليد الإيقونوغرافية الخاصة بأختام دلمون.
M. C.

٨٠. جعل
الألف الثاني قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي
١،٤ × ١،٢ سم
الظهران، المقبرة B٢
الدمام، المتحف الإقليمي، ٤٦١٤



اكتشاف هذا الجعل هو برهان على وجود تبادلات واتصالات مع منطقة البحر الأبيض المتوسط. والرسوم ذات المعالم الواضحة جداً والظهر الأملس والخالي من الزخارف هما علامتان مميزتان للدمغات المصنوعة في منطقة سوريا وفلسطين. وهذا يعني أن الرسوم المشرقية كانت تصل إذاً إلى سواحل الخليج العربي واستطاعت بالتالي، وفقاً لما يظنه البعض١، أن تؤثر بشكل كبير على أنماط رسوم «الدمغات الدلمونية».
M. C.

١. Kjærum، ١٩٨٦.



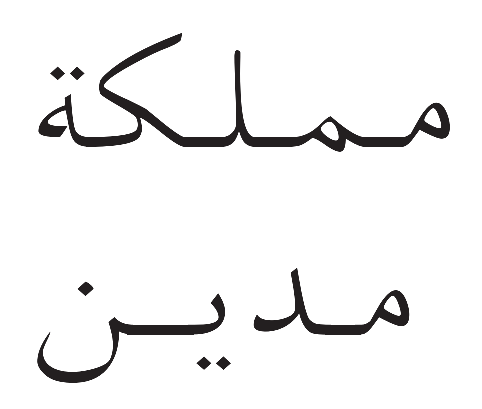
٧٩. ختم
نهاية الألف الثالث قبل الميلاد
فخار أو حجر صابوني مسخّن (؟)
قطر: ١،٥ سم تقريباً
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ٣/٢٦٦٩

كانت الأختام تعبّر عن الشخصية المميّزة لمالكها الذي كان يحملها معلّقة بالحزام أو حول العنق لوقايته من الشرور. وكانت تستخدم أيضاً لضمان أصالة الوثائق أو الحاجيات المدموغة بهذا الختم. ولكن مواقع الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية لم تتمخض عن أية علامات وتمخضت فقط عن عدد قليل من الأختام١ مقارنة بما تم العثور عليه في جزيرة البحرين القريبة. وهذا الختم، ذو الظهر المحدّب والمثقوب بشكل مستعرض، يحمل زخرفة يصعب تمييزها؛ وربما كان يستعمل على شكل قلادة.
M. C.

١. أنظر غولدينغ Golding، ١٩٧٤، الصورة ٥، ٤-٥-٦؛ بارجر Barger، ١٩٦٩، ص. ١٣٩؛ بيزينغر Piesinger، ١٩٨٣، الصورة ١٨٦-١١؛ الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٨١. يحفظ متحف جامعة الملك سعود، بالرياض، ختماً مزخرفاً بشخص محاط بخمسة ظباء، تم العثور عليه في قرية الفاو.

في الشمال - الغربي من شبه الجزيرة العربية
واحات الحجاز الكبرى





أ. د. عبدالعزيز بن سعود الغزي

(صفحة مزدوجة سابقة)
منظر من الحجاز،
تصوير اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silvera)

(صفحة اليسار)
سور صخري في موقع قُريّة

تعتمد دراسة حضارة وتاريخ أمة مدين على مصدرين. المصدر الأول هو ما جاء في الكتب المقدسة مثل القرآن الكريم والتوراة، وما يتصل بهما من تفاسير. أما المصدر الثاني فهو الدراسات الآثارية الميدانية في المواقع المدينية. ولا شك أن الأعمال الآثارية في مواقع مدين تسهم بشكل كبير في الكشف عن تاريخ تلك الأمة وإسهاماتها الحضارية إلا أن العمل الأثري في هذا الجانب قليل جداً. ولذا نحن بحاجة واضحة لإجراء الأعمال الميدانية في الأراضي المدينية وبخاصة موقع قُريّة الذي يقع في منطقة تبوك والذي يُعَدُّ عاصمة أمة مدين والمركز الرئيس لنشاطها. وسوف أبدأ في هذا البحث بالجانب التاريخي ثم أتي على الجانب الأثري، وسوف أختصر في الجانين نظراً لضيق المساحة المخصصة لهذا العمل.

الجانب التاريخي لأمة مدين

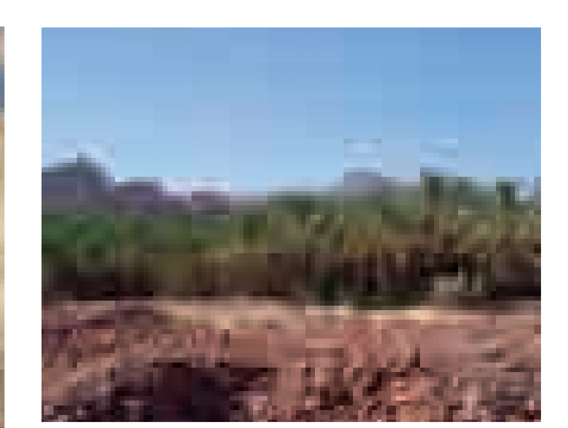
قال تعالى: (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) (سورة هود، الآية ٨٩).

قال تعالى: (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١٨٣)) (سورة الشعراء، الآيات ٨١-٨٣).

قال تعال: ألم يأتِهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٧٠) (سورة التوبة الآية ٧٠).

قال تعالى: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود (٤٢) وقوم إبراهيم وقوم لوط (٤٣) وأصحاب مدين وكُذِب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير(٤٤) (سورة الحج، الآيات ٤٢ – ٤٤).

يذكر القرآن الكريم ما يفيد بأن أمة مدين ورسولها شعيب جاءت إلى الحدث التاريخي بعد أمة إبراهيم وأمة لوط، وقبل أمة موسى عليهم السلام. وهذا يعني لنا أنها أمة عاشت بين ١٧٠٠ق.م. و١٢٠٠ق.م تقريباً. فالزمن الأول هو زمن نهاية أمة إبراهيم وأمة لوط، والزمن الثاني هو زمن موسى عليه السلام. ويوافق هذا الزمن في التقسيم الأثري العصر البرونزي المتأخر. ويرد في القران الكريم تسلسل الأمم ومنه يتضح أن مدين ظهرت كقوة منحرفة عن شريعة الله بعد أمة لوط وأمة إبراهيم مما أدى إلى إرسال شعيب إليهم ليدعوهم إلى إتباع العقيدة الصحيحة.



موقع دادان وغابات النخيل





منظر عام لموقع دادان

يلاحظ من هذا التتابع أن قوم شعيب (مدين) كانوا في التسلسل الزمني بعد قوم لوط، ولوط معاصر لإبراهيم عليه السلام، وإبراهيم بعد صالح، كما أن إبراهيم قريب عهد من الملك البابلي حامورابي الذي حكم بابل خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ومن الناحية الأخرى نجد أن قوم شعيب قبل قوم موسى عليه السلام. ويؤرخ الباحثون لخروج موسى ببني إسرائيل واجتيازهم للأراضي التي كانت تنتشر فيها قبائل مدين بنهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وعليه فتأريخ أمة مدين يتراوح بين ١٧٠٠ق.م و ١٢٠٠ق.م.، ثم بدأ فيها التدهور السريع.

الانتشار الجغرافي لمدين

من حيث الرواية التاريخية، يقول ابن كثير: كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض مُعان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز. ومن الناحية الأثرية، وطبقاً لانتشار المادة الآثارية المميزة لحضارة مدين، امتدت أرض مدين من منطقة تبوك إلى جنوب الأردن إلى سيناء حيث كانت تسيطر على حاضرة وبادية تلك النواحي، ومن أهم مدن مدين قُريَّة وتيماء ودادان والبدع وتمنع في وادي عربه. والأرض التي عاشت فيها مدين هي الأراضي التي كانت تنتشر فيها ثمود، ثم من بعد مدين جاء الدادنيون، ومن بعدهم جاء اللحيانيون والأنباط.

نشاط أهل مدين

جاء ذكر مدين ونبيها وأهلها وأرضها ومائها في عدة مواضع في القرآن الكريم ترد في احدى عشرة سورة. كشفت المعلومات الواردة في القرآن الكريم عن الثراء الفاحش الذي كان المجتمع المديني ينعم به، بل تحدث القرآن الكريم عن أنهم كانوا لا يوفون المكيال والميزان، وأنهم كانوا يبخسون الناس أشياءهم، ويفسدون في الأرض. فما جاء في القرآن يدل على أن هناك أسواقاً وأن هناك بيعاً وشراء. وهناك قطع طريق وإفساد واستغلال للمشتري وبخس للبائع. وتذكر التوراة أن أرض مدين من أهم مراكز استخراج المعادن من المناجم العديدة التي تحتضنها أراضيها. ومن أهم تلك المعادن الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحديد. كما اشتهرت أرضهم بالأحجار الثمينة مثل الفيروز والكوارتز والصوان.

ومن أشهر صناعات مدين صناعة الأواني الفخارية التي أبدع فخاري مدين في صناعتها وزخرفتها بزخارف تدل على سعة ثقافة مجتمعه، وأنه مجتمع على اتصال بالعالم الخارجي. فتظهر على تلك

الأواني المدينية رسوم للطاؤوس بنماذج عديدة، ورسوم للوعول، والطيور والوز، والجمال، ورسوم هندسية معقدة التركيبات. كما تظهر الرسوم على سطوح الأواني الخارجية وعلى السطوح الداخلية، وعلى السطوح الداخلية والخارجية معاً.

حرب اليهود مع المديانيين

لقد أثبتت الروايات التاريخية أن لمدين نظاماً سياسياً ملكياً يعرف في التاريخ باسم دويلة المدينة، أي أن لكل مدينة ملكاً يحكمها، كما كان الحال مع المدن السومرية في بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد، ودويلات المدن في بلاد الشام إبان الفترة الآرامية في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ودويلات المدن في بلاد اليونان إبان العصر السابقة للعصر المقدوني. بل أن هذا النظام استمر في الظهور خلال العصور الزمنية المتتالية، فظهرت دويلات المدن في بلاد الشام خلال العصر الإسلامي، وفي بلاد الأندلس خلال القرون الإسلامية المتوسطة. ونجد النظام نفسه في جنوب شبه الجزيرة العربية فيما قبيل الإسلام. بل نجده مسيطراً قبيل العصر الحديث عندما كانت كل بلدة تحكمها أسرة من أهلها في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

فتذكر كُتب التاريخ أن لمدين ملوك مدن إبان زمن النبي موسى عليه السلام، هم: أوى، ورقم، وصور، وحور، ورابع، وزبح، وصلمناع. كما ذكر لهم أمراء منهم: غراب وذئب.

وجدت أمة مدين في أماكنها في شمال غربي المملكة العربية السعودية في زمن يعقوب عليه السلام حفيد نبي الله إبراهيم عليه السلام، إذ ارتبطت تجارتهم إبان ذلك الزمن مع مصر عبر الأراضي التي كان اليهود فيها قبل نزوحهم إلى مصر. كما أن قوافل مدين هي التي أخرجت يوسف عليه السلام من البئر بعد أن رماه إخوته فيها للتخلص منه، ثم نقلته إلى مصر قبل خروج بني إسرائيل منها بقيادة موسى عليه السلام إبان القرن الثاني عشر قبل الميلاد بأربعمائة سنة، وخاضوا حروباً عديدة قبل أن يحلوا في الأرض المباركة، كانت مدين خلال هجرة اليهود من الأمم القوية التي كان على اليهود أن يجتازوا أراضيهم فدخلوا معها في حروب عديدة كبدوها خسائر فادحة. ومن ضمن تلك الحروب حرب وقعت بين اليهود وجزء من أمة مدين انتصر فيها اليهود، كما تقول رواية التوراة.

ويذكر المؤرخون أن المدنيين حكموا بني إسرائيل في حدود ١١٥٠ق.م لبضع سنين بسبب انحرافهم عن دين الرب، فيذكر الطبري وابن خلدون أنهم خضعوا لحكم الملوك: عريب، وربيب، وبرسونا، ودارع، وصلنا.

الجانب الأثري

تاريخ العمل الميداني في مواقع مدين

الموقع الأثري الوحيد في المملكة العربية السعودية الذي اقترن بأمة مدين من خلال الدراسات الآثارية، بل حدد كعاصمة لها هو موقع قُريَّة. ومع ذلك فإن المواقع: تيماء ودادان واالبدع ومواقع أخرى جاء ذكرها في تقارير المسح الأثري الشامل لآثار المملكة العربية السعودية تعود إلى تلك الفترة في مرحلة من مراحل استيطانها. وحيث إن المسألة لا تزال قيد البحث سوف اقتصر هنا على ما جاء عن موقع قُريَّة في التقارير والأبحاث الآثارية نظراً لكونه الموقع الأثري الوحيد في المملكة العربية السعودية الذي خضعت مادته الآثارية المدينية وبخاصة الأواني الفخارية للبحث.

طبقاً لما ذكر هاري سنت جون فيلبي فإن موقع قُريَّة ذُكر لأول مرة عام ١٨٤٨م بواسطة الرحالة السويدي ج.أ. والين الذي ذكر الموقع، ولكنه لم يزره بسبب عدم وجود من يرافقه إليه من سكان تبوك آنذاك. الأوربي الثاني الذي ذكر الموقع هو تشارلز داوتي في نوفمبر عام ١٨٧٦م الذي اخبره مرافقه عندما كان يجتاز خط القطار بين محطتي حسمي ومادبا إلى الشمال من تبوك عن مستوطنة قُريَّة الواقعة على بعد عشرة أميال باتجاه الغرب. وفي عام ١٨٧٨م مرّ من حولها ريتشارد بورتن. وفي عام ١٨٨٤م زار تبوك الرحالان الغربيان المشهوران الفرنسي تشارلز هوبر والألماني يوليوس أويتنج ولكنهما لم يذكرا أنهما زارا قُريَّة.

وفي عام ١٩١٠م زار تبوك دوقلاس كروثز، وأشار تقريره المنشور عام ١٩٣٥م إلى موقع قُريَّة على أنه موقع مهجور في تلال حسمي شمال تبوك، وأنه في أيامه لم يكتشف بعد. وفي نفس العام قام الأبوان الفرنسيان جوسن وسافنياك بزيارة تبوك إلا أنهما لم يذكرا موقع قُريَّة فيما كتبا عن رحلتهما.

وفي السنة نفسها عبر الرحالة النمساوي الويس موزل من الساق إلى تبوك واكتشف معبد روافه، ولكن لم يرد فيما كتب ما يفيد أنه زار موقع قُريَّة. وبقي الموقع حتى جاء هاري سنت جون فيلبي في فبراير عام ١٩٥١م، ليزيح الستار عن آثاره ويعرّف العالم الغربي به، ومن هنا يبدأ البحث الأثري في آثار مدين من خلال البحث في آثار موقع قُريَّة التي يرى أغلب الباحثين أنها عاصمة أمة مدين.

والعمل الأثري الميداني الآخر الذي قدم قُريَّة ومادتها الآثارية للباحثين وربطها بأمة مدين من خلال دراسة فخارها هو عمل البعثة الإنجليزية المكونة من بيتر بار ولنكستر هاردنج وجون دايتون عام ١٩٦٨م والذي نشروا عنه تقريراً عام ١٩٧٠م. ثم جاء العمل الثالث عن طريق فريق مسح من وكالة الآثار والمتاحف عام ١٩٨٠م، ونشر عنه تقريراً عام ١٩٨١م. وبقي الموقع دون دراسة حتى عام ١٤٢٨هـ عندما قام طالب دراسات عليا في قسم الآثار في كلية السياحة والآثار في جامعة الملك سعود بأول حفريات في المنطقة السكنية في الموقع.

ووفقاً لما جاء في تلك الدراسات يمكن أن نقدم المادة الآثارية لأمة مدين كالآتي:

الآثار الثابتة

يشغل موقع قُريَّة مساحة كبيرة جداً تشغلها منشآت معمارية متهدمة وتوجد في مجموعات متباعدة، ويوجد فيها العديد من المظاهر الحضارية، ومنها:

١- المستوطنة السكنية. ٢- القلعة على السلسلة الجبلية. ٣- المنطقة الزراعية إلى الشمال.
٤- المباني خارج المستوطنة في شمال المضخة والجنوب الغربي (القصر). ٥- الأسوار.
٦- السدود. ٧- المقابر. ٨- الأفران.

المستوطنة:

تشغل المستوطنة السكنية مساحة واسعة تغطيها ركامات حجرية تبرز من بينها خطوط الجدران مرتفعة عمّا يحيط بها. يذكر فيلبي أن مساحة المنطقة التي تحصرها الجدران ٥٠,٠٠٠م تقريباً أو ١٢,٥٠هكتاراً تقريباً. ولذا فهي مستوطنة بمساحة مترامية الأطراف وبقايا تدل على زمن بعيد. يحيط بالمستوطنة ثلاثة أسوار مشيدة بالحجار. السور الأكبر هو السور الخارجي الذي يحيط بالمستوطنة بمحيط يتجاوز الخمسة عشر كيلومتراً، ويتصل بالهضبة الواقعة إلى الغرب من المستوطنة، ثم يصعد أعلى الهضبة من كلا طرفيها الجنوبي والشمالي وبارتفاع لا يزال يصل في بعض المواضع إلى الستة أمتار مشيدة بقطع من الحجارة المحلية مستطيلة الشكل ومتفاوتة الأحجام رصت بطريقة منتظمة يبدو عليها تأثير الزمن واضحاً في تحللها إلى فتات (لوحة ٥: أ). وزود السور في بعض المواضع بدعامات خارجية وبعضها استخدم كأبراج مراقبة. ثم يأتي السور الثاني الذي يحيط بالمستوطنة والمنشآت القائمة حولها ومشيد بالحجارة غير المهذبة وما بقي منه تغطيه الأتربة (لوحة ٥: ب، الخلفية البعيدة). ثم سور المستوطنة السكنية الذي يحيط بالتلال الأثرية المتكونة نتيجة لانهيارات مساكن ومنشآت المستوطنة (لوحة ٥: ب، وسط الصورة) وكل سور من هذه الأسوار مزود ببوابات وأبراج مراقبة. وظاهرة تعدد الأسوار ظاهرة موجودة في مواقع المملكة العربية السعودية واستمرت حتى وقت قريب. فعلى سبيل المثال يحيط بمستوطنة تيماء القديمة ثلاثة أسوار، ويحيط بمستوطنة دومة الجندل ثلاثة أسوار. ومن المواقع القريبة منا وبأسوار متعددة مدينة قفار في منطقة حائل، وبلدة الزلفي في منطقة الرياض.

القصر:

يقع القصر وما يتصل به من مبانٍ خارج زاوية المدينة الجنوبية الشرقية وأسفل رافد السد الشرقي مباشرة، لا يزال بحالة جيدة أكثر من غيره إذ يبلغ ارتفاع أحجار المبنى ١٥ قدماً (عشرة مداميك). طولها من الشمال إلى الجنوب ٢٤ متراً، وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٥ متراً، ويُرجح أنها احتوت على صالة صغيرة وغرفتين أو ثلاث غرف. يفصلها عن جدار المدينة ممر عرضه عشرة أمتار، ويوجد نصف درزن من أكوام الأطلال توجد باتجاه الشمال الشرقي يُرجح أنه مركز للخدم وأشباههم.

الأسوار:

يوجد في مستوطنة قُريَّة ثلاثة أسوار. السور الأكبر هو سور الموقع وما حوله والذي يطوق الموقع



جزء من سور تيماء (الزاوية الجنوبية - الشرقية)

والمرتفعات المحيطة به. والسور الثاني أصغر من الأول في محيطه ويقتصر على تطويق المستوطنة السكنية والمنشآت المتناثرة حولها. أما السور الثالث فهو سور المستوطنة السكنية نفسها. وجميع تلك الأسوار مشيدة بألواح حجرية مختلفة الأحجام وملئت الفراغات بشظايا حجرية واستخدمت مادة الطين في ربط الأحجار بعضها ببعض علاوة على التداخل.

السدود:

يوجد في الموقع وحوله عدد من السدود منها سد يربط المنحدرات على جانبي الوادي بركني المدينة: الجنوبي الغربي والجنوبي الشرقي، مشيد بالأحجار والدبش. يبلغ جانبه الشرقي ٧١٥م، فيما يبلغ السد الغربي أقل من ٢٠٠م تقريباً. كما يوجد سد آخر طوله ٩٤٠م.

وهناك عدة آبار وقنوات المياه التي تزود المدينة السكنية بحاجتها من المياه عبر قنوات سطحية مشيدة بالكتل الحجرية ولا تزال باقية إلى اليوم وإن كانت مدفونة بالأتربة إلا أنها مرئية من على سطح الموقع، كما تسقي تلك الآبار الحقول الزراعية بالماء عبر قنوات سطحية أيضاً.

ويوجد في الجانب الشمالي من المستوطنة أساسات قوية لمعبد أو قصر ومبانٍ ثانوية عديدة ربما أنها منضحة الماء المحلية. تبلغ أبعاد المبنى الرئيس ٢١×٢٧م، ويبلغ عرضٌ قسمه الشرقي ٨ أمتار يتكون من ثلاث أو أربع غرف، بطول يختلف، وممر سعته متران يقود إلى قاعة غربية مساحتها ١٨ متراً مربعاً تقريباً. أما المعبد الحقيقي فهو بقية البناية في الركن الشمالي الشرقي بمحيط يبلغ ٤م×٢٣م. ويوجد في المحور الشمالي منشأة مقسمة إلى غرفتين، تبلغ أبعاد الأولى ٦م×١٥م، وأبعاد الثانية ١٢م×١٥م. كما يوجد في الركن الجنوبي بناية أخرى تبلغ أبعادها ١٦م×١٣م. ولم يبق من تلك المنشآت إلا أساساتها.

وجد في هذه الوحدات أدوات صوانية قديمة، وقليل من شظايا الزجاج المائل إلى الزرقة، وعدد من الأصداف، وكمية قليلة أغلبها من كسر الفخار العادي، الذي يختلف عن الفخار الأكثر تطوراً.

المقابر:

على الرغم من أن المقابر ذات الصلة بالمستوطنة السكنية لم تكتشف بعد بسبب قلة العمل الأثري، إلا أن فيلبي ذكر وجود مائة مقبرة شبهها بالمقابر السبئية. ويوجد على الهضبة المشرفة على الموقع والتي هي جزء منه عدد من المقابر الركامية شبيهة بمقابر الألفين الثالث والثاني ق.م.

الأفران:

يوجد في موقع قُريَّة عدد من الأفران التي أشارت إليها بعثة جامعة لندن في تقريرها المنشور عام

منظر من المستوطنة السكنية في قُريّة



١٩٧٠م. وفي عام ١٩٨٠م قام فريق من قطاع الآثار والمتاحف (وكالة الآثار والمتاحف) بحفر واحد من تلك الأفران فاستخرج الكثير من الكسر الفخارية وكميات من الرماد. وفي عام ١٤٢٨هـ عثر أحد الباحثين على عدد من الأفران مدمرة بجرف الآلات الحديثة، ومن حولها جمع كميات كبيرة من الكسر الفخارية.

ويوجد في الموقع منشآت زراعية تشمل الآبار والقنوات والأحواض والسدود في الأودية المجاورة، كما عُثر على منشآت معمارية فردية يُعتقد أنها متأخرة عن أمة مدين، ويرى البعض أنها تؤرخ بالفترتين النبطية والرومانية. وحسبما جاء عند فيلبي، عُثر على الروابي المتناثرة حول المستوطنة على عدد من الرسوم الصخرية والمخربشات والقليل من الكتابة القصيرة.

المادة الآثارية المنقولة:

إن المادة الأثرية المنقولة العائدة إلى أمة مدين التي تم التعامل معها ودراستها بشكل جيد هي مادة كسر الأواني الفخارية والتي بدأت منذ عام ١٩٦٩م والبحث العلمي مستمر فيها، فظهر على إثر ذلك عددٌ كبيرٌ من المقالات صيّرت البحث في الفترة المعنية من أهم المجالات البحثية في التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية على وجه العموم والمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص. وسوف أورد أهم المقالات التي ظهرت في هذا الجانب برصد تسلسلي وفقاً لتاريخ الظهور، ثم سوف أورد أهم الأفكار التي تناولتها تلك المقالات مع الإشارة إلى أهم الأفكار الواردة فيها.

ونوجز نتائج تلك الأبحاث بالآتي:

١- مقالات الرحالة المبكرين التي أشارت إلى الموقع مما جعل الباحثين يتنبهون إليه.

٢- المقالات المبكرة مثل مقالات بيتر بار التي قدمت المادة العلمية وبخاصة مجموعة كسر الأواني الفخارية من موقع قُريّة وجاءت بمقارنات لها من مواقع عديدة في فلسطين.

٣- المقالات التي تلت، وبخاصة مقالات كل من جيمس ميولي وجارث بودن، ركزت على مناقشة مصداقية ما طرح بيتر بار من خلال مناقشة المعايير التي استند إليها في تأريخه وتشخيصه للمادة الفخارية التي هي الأساس في التعرف على المواقع العائدة إلى فترة مدين.

٤- المقالات التي تلت، مثل: مقالات روثنبرج وجلاس ولندن وبيتر بار، ركزت على تقديم مقارنات لفخار مدين بهدف معرفة انتشاره الجغرافي ودرجة كثافته في المواقع الأثرية والتي تبين منها أنه وجد في عدة مواقع في فلسطين ولكن بأعداد قليلة تنم عن أنه مستورد إليها، كما تبين أن موقع قُريّة من المواقع المهمة التي وجد فيها هذا الفخار بأعداد كبيرة جداً مما جعل الباحثين يعتقدون أنه مصدر منها مستندين إلى عدة اعتبارات، منها: وجود مخلفات صناعة، ووجود أفران عديدة داخل





مغائر شعيب

سور المستوطنة وخارجه، ووفرة وتنوع الكسر الفخارية التي عُثر عليها على سطح الموقع.

٥- المقالات التي تلت مثل مقالات عبدالعزير بن سعود الغزي، ركزت على إيجاد مقارنات للفخار من خارج بلاد فلسطين، وحاولت أن تجذب إليه مقارنات من فترتي العُبيد وهيلي من بعدها بهدف معرفة جذوره التاريخية، كما قدمت ما استجد من أعمال ميدانية.

٦- المقالات التي تلت، وهي عبارة عن نتائج الأعمال الميدانية في المواقع ذات العلاقة، مثل: موقع تيماء القديمة، ومقابر المنطقة الصناعية، حيث وجد الفخار المعني بأعداد كبيرة داخل المقابر وبحالات سليمة. والتقطت من بعض تلك المقابر مادة عضوية حللت بواسطة كربون ١٤، وأعطت تواريخ أقدمها ١٤٠٠ق.م.، وأحدثها ٧٥٠ق.م.

٧- ومن ناحية تأريخ الفخار بالعصر البرونزي ومن ثم نسبه إلى أمة مدين من قِبَل بيتر بار، فقد أبدت الدراسات المقارنة التي أجراها روثنبرج وجلاس، والتحاليل التي أجرتها إدارة الآثار والمتاحف السعودية بواسطة كربون ١٤ لمادة عظام من مقابر الصناعية في تيماء تأييداً له مباشراً.

٨- ثبت أن مكان إنتاج فخار مدين المميز هو موقع قُريّة أو أن موقع قُريّة أحد أهم مراكز إنتاجه. واستند ذلك إلى نتائج التحاليل التي أجريت على المكونات المعدنية لمادة الصلصال كما ذكر روثنبرج وجلاس في مقالِهما المنشور عام ١٩٨٣م؛ وتحاليل أخرى أجرتها، كما ذكر بيتر بار في مقاله المنشور عام ١٩٨٧م، باحثة إنجليزية؛ ونتائج حفريات المنطقة الصناعية في تيماء للموسمين الأول والثاني والتي دلت على وجود أفران لشواء وإنتاج الآنية الفخارية، بالإضافة إلى اكتشاف آنية أُستبعد أن تكون منقولة من مكان آخر نظراً لعدم صلابتها وضعف قدرتها على تحمل النقل، واكتشاف عدد من الأفران في موقع قُريّة.

نهاية أمة مدين

ذكر القران الكريم في أكثر من آية أن بعض أهل مدين لم يستجيبوا لدعوة شعيب، ولم يتبعوه فغضب الله جل شأنه عليهم وأهلكهم بالصيحة ونجا شعيب والذين آمنوا معه.

قال تعالى: ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٩٤)، كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود (٩٥) (سورة هود الآيتان ٩٤ و٩٥).

قال تعالى: ويأقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب(٩٣) ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين ءامنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين(٩٤) (سورة هود الآيتان ٩٣-٩٤).

ومن ملاحظة أطلال المواقع التي يرجح أنها مدن مدين الرئيسة نجد أنها مدمرة. فأول المواقع وربما أنه أكبرها موقع قُريّة الذي تظهر أطلاله مدمرة فبقايا المدينة السكنية على سطح الأرض ليست إلا أكوام أحجار بعضها فوق بعض (لوحة ٥: أ-ب)، أما ما تحت السطح فيحتفظ بمداميك جدران ربما يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثة أمتار. أما المدينة الثانية فهي تيماء التي كشفت التنقيبات الحديثة في المستوطنة عن بقايا شبيهة بما عُثر عليه في قُريّة، فسطح الموقع تغطيه أكوام الحجارة التي تحتها تقوم بقايا الجدران إلى أعماق تصل إلى الأربعة أمتار (لوحة ٢: أ-ب). أما الموقع الثالث فهو الخريبة في ددان الذي تمثل فيه التدمير بشكل واضح، فسطح الموقع عبارة عن أكوام حجارة مردومة فوق بعضها البعض (لوحة ١: أ-ب)، وتحتها تقوم بقايا الجدران السليمة إلى حدٍّ ما باستثناء المساحات داخلها التي تظهر ممتلئة بالأنقاض والحجارة والأتربة المتساقطة من كل جهة.

كل هذه الشواهد تدل على أن المنطقة تعرضت في فترة من فتراتها الزمنية لهزات أرضية قوضت مبانيها وجعلت عاليها سافلها. ويعتقد بيتر بار أن نهاية أمة مدين كانت بحدود عام ١٠٥٠ق.م، وأنها كانت كارثية الطابع مما أدى إلى حدوث رجوع إلى حياة البادية التي استمر نمطها لما يقرب من القرنيين بعدها تكونت المدن من جديد والمشيخات ثم الممالك في شمال غربي المملكة العربية السعودية من جديد.





مغائر في موقع قُريّة

المصادر والمراجع :

نواف بن صالح الحليسي، **المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام**، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. د.ن. ؛ الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي ٧٠١-٧٧٤هـ **قصص الأنبياء**، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. ؛ عواطف بنت أديب بن علي سلامة، **أهل مدين: دراسة للخصائص والعلاقات**، ١٣٥٠-١١٠٠ ق. م.، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢/٢٠٠١م.؛ هاري سنت جون فيلبي "عبدالله فيلبي"، **أرض مدين**، ترجمة يوسف مختار الأمين، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. ؛ عبدالرحمن الطيب الأنصاري وآخرون، **البدع: تاريخها آثارها**، وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف.

المصادر والمراجع الأجنبية :

J. F. A Sawyer and D. J. A. Clines, (eds.), Midian, Moab and Edom. Sheffield: Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, 1983 ; Ernst A. Knauf, Midianites and Ishmaelites: J. F. A Sawyer and D. J. A. Clines, (eds.), Midian, Moab and Edom. Sheffield: Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, 1983, PP. 147-163 ; Elizabeth, J. Payne, the Midianite Arc in Joshua and Judges.. F. A Sawyer and D. J. A. Clines, (eds.), Midian, Moab and Edom. Sheffield: Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, 1983, PP. 163-172.



واحة تيماء

د. أرنولف هاوسليتر

وتيماءَ لم يَترك بها جذعَ نخلةٍ
ولا أُطُماً إلا مَشيداً بِجَنْدل
معلقة امرؤ القيس

حائط السور في تيماء (الجهة الشرقية)

مقدمة

إنّ واحةً تيماء، الواقعة داخل أراضي الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، على مستوى الجزء الجنوبي من سيناء، بين جبال الحجاز وصحراء النفود الكبيرة، تُعدُ حالياً من أهم المواقع الأثرية في المنطقة وفي المملكة العربية السعودية. وكانت تيماء قائمةً على جزء من «طريق اللبّان» الأسطوري، احد أبرز طرق الشبكة التجارية لشبه الجزيرة العربية التي كانت تربط جنوب شبه الجزيرة بمنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. ويؤخذ في المرتبة الاولى من المصادرُ المكتوبة في الألف الأول قبل الميلاد، ومن كل الاكتشافات الأثرية الأخيرة أيضاً، انّ هذا الموقع كان يتميز، حتى قبل الحقبة الإسلامية، بتواصله مع كل مناطق الشرق الأوسط، سواء كان ذلك على الصعيد الإقتصادي، اوالسياسيّ او الدينيّ. فعلى المستوى الجغرافي، تقع تيماء على ملتقى طُرُق جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والمشرق ومصر. إلا أن الفرع الرئيسي لطريق اللبّان كان يمر غربَ تيماء. قد جعل منها إمدادُها الدائم بالمياه الجوفية مكانَ إقامةٍ وسكنٍ جذابين. وهذا ما عرّضها (مع ذلك) لاعتداءات القوى الخارجية، لكنها لم تقدر دائما، ولا سيما في بداية من الألف الأول قبل الميلاد، على مقاومة هذه الاعتداءات والوقوف بوجهها. وتثبت آخرُ الاكتشافات الأثرية والعلمية أن أقواماً حضرية كانت أول مَن استقر في تيماء في الألف الثالث قبل الميلاد. لذلك يغطي تاريخ تيماء حقبة تفوق الأربعة آلاف وخمس مائة سنة اضطلعت خلالها مجموعاتٌ مترحلة على الدوام بدور حاسم. وتفيد النقوش الصخرية العديدة التي عُثر عليها في المنطقة، أنهم رعاةٌ رُحّل كانت قطعانهم تتألف من أصناف عدة بينها الأبقار. وفي وقت لاحق، أي ابتداء من نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، أعطى الواحةَ جمالاً ودوراً اجتماعياً واقتصادياً بارزاً، في إطار اتحادٍ سياسي- ديني على الأرجح[1].

١. Bawden و Edens، ١٩٨٩، ص. ٦٦.

ولا يكتفي نصّ عثُر عليه قبل حوالى خمسة وعشرين عاما في سور جراع على الفرات الاوسط العراقي، بتقديم أقدم دليل باللغة المسمارية على اسم واحة تيماء، لكنه يوفر أيضا، مزيداً من التفاصيل عن ظروف تجارة القوافل بين بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية في الألف الأول قبل الميلاد[٢]. وفي بداية القرن الثامن قبل الميلاد، شن نينورتا- كودوري أوسور (Ninurta-Kudurri-usur) «حاكم سوهو وماري» هجوما مباغتاً على قافلة تضم أشخاصا من «تيماء وسبأ»، كانت تحاول التملص من دفع الضريبة. وضمت الغنيمة الدسمة، في ما ضمته مئتي جمل وصوفاً وحديداً (؟) وأحجاراً كريمة، اي بوجيز العبارة، «كل ما يمكن أن يتمناه المرء». ووقع في الاسر مئة من رجال القافلة. وتذكّر البضائعُ المذكورة هنا، بالبضائع التي قدمتْها بعد عقود من ذلك، بضعُ مدن في شمال شبه الجزيرة العربية، كان أخضعها الملك الأشوري تغلاتفلاسر الثالث (٧٤٤- ٧٢٧ قبل الميلاد) ومنها تيماء، بمثابة جزية له. وبذلك سيطر الملكُ على المنطقة، لفترة من الوقت على الأقل، لكنه لم يُلحقها بمملكته[٣]. ويبدو أن المنطقة الواقعة حول هندانو (Hendanu) على الفرات الاوسط، كانت، ابتداء من القرن التاسع قبل الميلاد، ملتقى تجاريا لإعادة توزيع البضائع الآتية من شبه الجزيرة العربية[٤]. وقد سلكت تلك البضائع على الأرجح طريق الجوف الشمالي- الشرقي.

وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، ثم تدجين الجمل (Camelus dromedaries) واستخدامه حيواناً زاملاً (يحُمل عليه) علماً بأنه يتسم بإنتاجيته وضآلة كلفته، شكّل شرطاً أساسياً لتطور التجارة الدولية. وتفيد حجج أ. دو ميغري (A. De Maigret) أن تجارة القوافل لم تتطور تطوراً منهجيا قبل القرن الثامن قبل الميلاد. لكن من الممكن أن تكون هذه التجارة قد بدأت قبل ذلك بقليل، أي ابتداء من النصف الثاني للقرن العاشر قبل الميلاد[٥]. ويبدو أن الأشوريين اعترفوا أيضا بالدور الإقتصادي للجمل (والرعاة الجمّالين)، لأن تغلاتفلاسر الثالث أخذ من الملكة العربية سمسي (Samsi) ثلاثين ألفاً من هذه الحيوانات، ولأن عدداً من الذين خلفوه (سنحريب وأشوربانيبال)، أمنوا هم أيضا السيطرة على آلاف الجمال.

والمجموعات التي تحددها إبتداء من القرن التاسع قبل الميلاد لفظةُ «عرب» في المصادر الأشورية، تعني أعضاء تحالفاً من المدن السورية التي تمردت على الملك الاشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨- ٨٢٤ قبل الميلاد). وبعده، خاض ملوك أشوريون آخرون، أمثال تغلاتفلاسر الثالث، وسرجون الثاني (٧٢١- ٧٠٥ قبل الميلاد)، وسنحريب (٧٠٥- ٦٨١ قبل الميلاد) وأشوربانيبال (٦٨١- ٦٢٧ قبل الميلاد) أيضا، صراعات ضد العرب. وظهر محاربون عرب يمتطون الجِمال على أعمدة القصر الشمالي لأشوربانيبال في نينوى. لكن يتوافر نقش يمثل عرباً يدفعون جزية إبان حكم تغلاتفلاسر الثالث، وبينهم على الأرجح، كما يقول آي.أم. باغ (A.M. Bagg) الملكة سمسي التي تقدم فروض الطاعة والخضوع. وعلى غرار ما حصل مع سمسي، لم تتضح بعدُ العلاقة بين تيماء والملكات العربيات الأخريات اللواتي ذكرهنّ الأشوريون وحاربوهنّ. إلا أن الكلمة التي كتبها الملك الأشوري سنحريب على أحد أبواب نينوى «هدايا قوم صوموئيل (Sumu'il) وتيما (Tēma) وصلت إلى هنا»، تشير في المقابل إلى الجانب الإقتصادي للعلاقات بين أشور وشمال غرب شبه الجزيرة العربية.

ويشهد أيضا على الإتصال الوثيق بين تيماء وبلاد ما بين النهرين، قرارُ نبونيد (٥٥٦-٥٣٩ قبل الميلاد) آخرُ ملك بابلي، بجعل الواحة مقر إقامته، خلال حملته ضد شمال غرب شبه الجزيرة العربية، في السنة الثالثة من حكمه على الأرجح. ومنها بدأ «الذهاب والإياب» بين كبرى واحات المنطقة[٦]. وكما يتضّح من النصوص، فقد وصل نبونيد على الأرجح إلى شمال غرب شبه الجزيرة العربية؛ ويمكن أن يسير في هذا الإتجاه أيضا، صخرٌ منحوت للملك في سلا (الأردن)، لكن نقوشه، باستثناء بعض الحروف، لم تُحفظ. وعزمه على مغادرة العاصمة بابل، مهملاً واجباته الدينية والإجتماعية، حيث أقام ابنه بلتسار (Balthasar) وصياً على العرش، غالباً ما تُفسر بالعبادة التي كان يخص بها الإله لون سين (Lune Sin) بدلا من الإله مردوك (Marduk) الذي يحمي بابل. وكانت والدة نبونيد، هاداد- هاب (Hadad-hape) (اداد غوبي Adad-guppi)، نشطة في حران، أحد أبرز أماكن العبادة المخصصة للإله سين في شمال بلاد ما بين النهرين. إلا أن الإعتبارات الإقتصادية اضطلعت بدور حاسم أيضا. فسيطرته على الواحات التي يذكرها، في الحجاز حتى يثرب (المدينة في الوقت الراهن)، وفرت له إمكانية الإستفادة من الحركة التجارية النشطة بين جنوب شبه الجزيرة العربية والمشرق، وسوريا وبلاد ما بين النهرين. وتؤكد هذه الفرضيةَ نصوصٌ من أوروك تتحدث عن عمليات تسليم بضائع آتية من تيماء في حقبة نبونيد[٧]. وفي المقابل، ما زال من غير الممكن أن نعرف هل كان المرضُ الذي ذكره الملك، سببَ إقامته بالفعل في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، التي غالبا ما توصف بأنها «منفى».

لكن الجدير ذكره أن مقتطفات «الحكاية الشعرية» التي غالبا ما تُذكر لدعم نشاط نبونيد باعتباره باني تيماء، مقتبسة من نص هجائي موجه ضد الملك وقد كُتب بعد حكمه؛ لذلك لا يمكن استخدامها حججاً مباشرة. وبالإضافة إلى النصوص المسمارية التي كشفتها الحفرياتُ الأخيرة في تيماء، لا بد من الإشارة إلى بعض النقوش الصخرية التيمائية- الثمودية في أطراف الواحة التي تذكر «ملك بابل» وتشكّل تضامناً مرسلاً إلى الملك[٨]. وعلى مقربة من احد هذه النقوش، ثمة صورة منحوتة لحصان هائج، تمثل تشابهاتٍ مع نقوش بارزة للقصور الأشورية في نهاية الحقبة الأشورية الجديدة. إلا أن هذا الرسم يعود إلى حقبة تلت حكم نبونيد[٩].

بعد سقوط الأمبراطورية البابلية، حاز الملوك الأخمينيون السلطة والنفوذ على مناطق واسعة من الشرق الأدنى. ونظراً إلى معلوماتنا الراهنة، من الصعوبة بمكان، الفصل في التأثير الحقيقي لهذه الهيمنة على الإدارة السياسية لتيماء إبان حكمِ كلٍ من قورش (Cyrus) وقمبيز (Cambyse)[١٠]، لكن أغلبية النُصب التي تتضمن نقوشا كُتب جزءٌ منها باللغة الآرامية، مصدرها معابد ترقى إلى تلك الفترة. ومن تلك النُصب، لا بد من ذكرِ نصب تيماء (د. المعرض رقم ٣١١) الذي لا يمكن أن ننسب نقشها، بسبب سنوات الحكم الإثنتين والعشرين التي تذكرها، إلا لداريوس الأول، أو أردشير الأول أو أردشير الثاني[١١]، أي في بداية الحقبة الفارسية. وإلى هذا النصب، لا بد من أن نضيف مكعب الحمراء (د. المعرض رقم ١٠٢) ونصبا شعائريا عليه نقوش آرامية لقصر الحمراء (د. المعرض رقم ١٠٣)، ترتبط، على غرار نصب تيماء، بإله تيماء الأساسي، سلم (SLM). وخلال الحقبة الأخمينية، كانت تيماء للمرة الأخيرة، تدور في فلك أمبراطورية كبيرة. واستمرت الواحة بعد ذلك تحتل موقعا مركزيا على صعيد السياسة الإقليمية للسلالة اللحيانية في دادان (Dédân) (إبان الحقبة الهلنستية)، ثم أثناء حقبة النبطيين الذين خلفوهم. وعلى رغم أن تيماء لا تضطلع بأي دور في النقوش الرومانية المكتشفة حديثا في المنطقة (د. المعرض رقم ١٢١)[١٢]، إلا أنها احتفظت بأهميتها حتى العصور القديمة المتأخرة، قبل أن تندمج نهائيا في العالم الإسلامي.

ويدين الاسم القديم للواحة ببقائه للتقليد التوراتي في المقام الأول. فتيماء ذكِرَتْ في الواقع مرات عدة في العهد القديم (أيوب، ٦، ١٩؛ إشعيا، **٢١**، ١٤؛ إرميا، **٢٥**، ٢٣؛ التكوين، **٢٥**، ١٥؛ أخبار الأيام الأول، **١**، ٣٠)، في وقت واحد مع أسماء مواقع وأسماء قبائل في المنطقة، مثل دومة ومسا وقيدار وسبأ، إلخ، أكدتها أيضا مصادرُ أخرى قبل المسيحية.

ويُعتبر الشاعر الجاهلي امرؤ القيس (حوالى ٥٤٠) أول كاتب باللغة العربية يذكر هذه الواحة[١٣]. وحتى الآن، كان احتلال تيماء في تلك الفترة يرتبط أساساً باسم الشاعر اليهودي العربي السموأل بن عاديا الذي يُشتهر بأنه ضحى بحياة ابنه للإيفاء بوعدٍ، والذي كان يقيم، كما يقول الشاعر الأعشى في الأبلق الفرد. ولا يزال الموقع الدقيق لهذا المجمَّع في تيماء، المعروف أيضا باسم قصر الأبلق، موضع تكهنات. وثبُت في المقابل وجودُ أسماء يهودية لسكان من تيماء في بداية القرن الثالث، ما يشهد على ذلك الاكتشاف الأخير لشاهدة قبر تحمل نقشا نبطيا يسمي حاكم تيماء[١٤]. وقد اضطُر آخرُ اليهود لمغادرة تيماء في عهد الخليفة عمر، على الرغم من أنهم حاولوا التفاوض للحصول على إذن بالبقاء.

٢. Cavigneaux وخليل اسماعيل، ١٩٩٠، النص رقم ٢ - المجموعة الرابعة، ١. ٢٦-٤٠، أنظر أيضاً Dossin، ١٩٧٠.

٣. أنظر Tadmor، ١٩٩٤، ص. ١٤٢-١٤٣، Summary Inscription، ٤، ’٢٧-٣٣، ص. ١٦٨-١٦٩، Summary Inscription، ٧، ’٣ ’٥ ؛ للدوافع أنظر Edens وBawden، ١٩٨٩، ص. ٨٠-٨١.

٤. Edens و Bawden، ١٩٨٩، ص. ٩١.

٥. Liverani، ١٩٩٢، ص. ١١٣-١١٤ ؛ De Maigret، ١٩٩٩.

٦. Schaudig، ٢٠٠١، ص. ٤٩٧-٤٩٨، النص ٣,١، المجموعة ١,١. ٢٢-٢٧ (نصب حران).

٧. Edens وBawden، ١٩٨٩، ص. ٧٧.

٨. Müller والسعيد، ٢٠٠٢.

٩. الغبان، ٢٠٠٨، Jacobs وMacdonald، ٢٠٠٩ ؛ السعيد، ٢٠٠٩.

١٠. Graf، ١٩٩٩، أنظر أيضاً Knauf، ١٩٩٩.

١١. Briquel-Chatonnet وRobin، ١٩٩٧، ص. ٢٦١-٢٦٣ ؛ Stein ، قيد الطبع.

١٢. الطلحي والداير، ٢٠٠٥.

١٣. في هذا الموضوع وما يليه، أنظر Buhl وBosworth، ١٩٩٩.

١٤. النجم وMacdonald، ٢٠٠٩.

وتشهد على التقليد الثري باللغة العربية المتعلق بالواحة، كتاباتُ المؤرخين والجغرافيين في الحقبة الإسلامية، التي خلدت ذكرى هذا المكان في العالم العربي. وان المعلومات المتوفرة تُبرز اهمية هذه الواحة في بدايات الحقبة الاسلامية وتقول المصادر إن تيماء تبعد سفرَ أربعة أيام عن دومة الجندل؛ ويذكر المقدسي سفرَ ثلاثة أيام بين تيماء والحِجر وأربعة أيام بين تيماء وتبوك. ويقول إبن حوقل إن عدد سكان المدينة في القرن الرابع الهجري كان يفوق عدد سكان تبوك، وتضطلع بدور مركزي للبدو في الضواحي باعتبارها مركزا لإعادة توزيع البضائع. وفي القرن الخامس من الهجري، كان الازدهار في تيماء وعظمتها معطيات ثابتة في التقليد. ويشير المقدسي إلى تزويدها بالمياه من نبع وبضع آبار، وإلى أشجار النخيل الخصبة التي تثمر أفضل أنواع التمر. ووصف ازدهارَ هذه الواحة أيضا في وقت لاحق، البكريُّ الذي يذكر أيضا أسوار المدينة. ولا تزال هذه الأسوار ماثلة للعيان حتى يومنا هذا، وتُضفي على الآثار ظلالَها المميزة. وذكرها أيضا ياقوتُ باعتبارها آثارا محتملة من قصر الأبلق. ثم أصبحت واحة تيماء محطة استراحة على طريق الحج الذي يربط سوريا بالاماكن المقدسة.

تاريخ البحوث

في منتصف القرن التاسع عشر، دخلت واحة تيماء مجال اهتمام المستكشفين الأوروبيين[١٥]. وتلتِ الزياراتِ السريعة لكل من جي. آي. (G. A. Wallin) (١٨٤٨) وسي. جورماني (C. Guarmini) (١٨٦٤)، إقامةٌ أطول للبريطاني شارلز. دوتي (Ch. Doughty) (١٨٧٦) الذي نشر مخططا للموقع وتحدث عن نقوش وشقف الخزف. وفي ١٨٨٠، زار تيماءَ كلٌ من شي. آي. هوبر Ch. A. Huber وجي. أويتنج (J. Euting) في البداية كلٌ على حدة، ثم سوية، فتمكنا في الواقع من الإكتشاف النهائي لمسلة تيماء، المعروضة اليوم في متحف اللوفر (د. المعرض رقم ٣١١). لكن الزيارة انتهت بوفاة هابرالمأسوية.

وفي ١٩٠٩، زار آي. جوسين (A. Jaussen) وار. سافينياك (R. Savignac) بدورهما تيماء ولم يمكثا فيها فترة طويلة. ومن الضروري الإحتفاظ مما نشراه، ببعض الصور عن تيماء وبستان النخيل (صورة ١). ومنذ ذلك الحين، ازدادت مساحة هذا البستان بنسبة أربع مرات.

الصورة ١. وصول قافلة آي. جوسين وار. سافينياك إلى تيماء (١٩٠٩).

١٥. أنظر Bawden وEdens وMiller، ١٩٩٠.

وبعد نصف قرن، في العام ١٩٥١، زار أيضا تيماء هاري سانت جون فيلبي (H. St. J. Philby)، وكان أول مـَن قدم تقريرا مفصلا عن الواحة وجوارها وآثارها القديمة. وفي العام ١٩٦٢، أجرى أف. في. وينيت (F. V. Winnet) ودبليو. ال. ريد (W. L. Reed) عمليات بحث وتقصٍّ في تيماء في إطار تنقيبهما عن النقوش في شمال غرب شبه الجزيرة العربية. وتـمحورت عمليات الـتنقيب تـلك في المقام الأول حول النقوش التيمائية والثمودية والنبطية في جبل غنيم. فـكانا أول مـَن كشف عن شقـَف نموذجية للخزف الملوّن وغير الملوّن في تيماء.

إلا أن الدراسة المنهجية للموقع لم تبدأ إلا مع مهمات الإستطلاع التي قامت بها الهيئة العامة للسياحة والآثار المنبثقة من اللجنة السعودية للسياحة والآثار، التي شملت ابتداء من أواسط سنوات ١٩٧٠ كل أرجاء المملكة. وفي العام ١٩٧٩، أدى ذلك في تيماء إلى أولى الحفريات العلمية التي أجراها جي. باودن (J. Bawden) وسي. إدينز (Ch. Edens) وار. ميلر (R. Miller) لحساب الهيئة العامة للآثار[١٦]. وقبل ذلك، كان بي. جي. بار(P. J. Parr) وجي.ال. هاردينغ (G. L. Harding) وجي. دايتون(J. Dayton) استكشفوا برج منطار بني عطية الواقع شمال غرب تيماء وقالوا إنه ينتمي إلى منظومة شاسعة من التحصينات المحيطة بالواحة[١٧]. وأجرى علماء سعوديون طوال عشرين عاما حفريات، كانت في البداية بقيادة ش.ي. أبو درك (H. I. Abû Duruk) في قصر الحمراء وقصر الرضم وسور المدينة[١٨]. وأسفر تمددُ المدينة الحديثة إلى مناطق أثرية عن إجراء حفريات جديدة في «منطقة الصناعية» حيث يقع عدد كبير من المقابر ذات المدافن المتنوعة[١٩]. أما نتائج الحفريات التي أجريت في منطقة رجوم صعصع جنوب غرب الواحة، فنشرت في الفترة الأخيرة [٢٠].

بحوث حديثة

منذ العام ٢٠٠٤م، كانت واحة تيماء في قلب مشروع بحوث جديدة، بوشر بالتعاون مع الهيئة العامة السعودية للسياحة والآثار ومؤسسة الآثار الألمانية (Institut archéologique allemande) وبتمويل أساسي من المؤسسة الألمانية للبحوث (Deutsche Forschungsgemeinschaft). ويتضمن هذا المشروع دراسات منهجية في الآثار والنقوش والبيواركيولوجيا (bioarchéologie) والجيواركيولوجيا (géoarchéologie) وعلم المياه، لوصف تطور الظروف الحياتية في واحة تيماء وانعكاساتها على تطور الواحة[٢١].

وحتى قبل البدء بهذا المشروع، تطلب التمدد المستمر لمدينة تيماء الحديثة حماية آثارها من تقدم الحضارة الحديثة. وقد حدد جهاز الآثار فيها حتى الآن ثماني وعشرين منطقة أثرية مسوّرة. وان الصلات الوثيقة بين المدينة القديمة والمدينة الحديثة توفر الفرصة التامة لجعل التاريخ السحيق لشمال غرب شبه الجزيرة العربية، مرئياً أمام سكان تيماء وزائريها، بدءا بالمتحف المحلي. لذلك تم تطوير مفهوم الصيانة الدائمة الذي يقوم على مبدأ الانعكاسية عبر استخدام معدات محلية خالية من الإضافات الكيميائية، لإبراز أهمية الإرث الـمعماري الذي كشفته الـحفرياتُ الحديثة.

مناخ ومناظر ونبات

يتميز مناخ تيماء وضواحيها، التي يقل فيها تساقطُ الأمطار عن ٥٠ ملم سنويا، بجفافه الكبير اليوم. وكانت هذه المنطقة الواقعة في المملكة العربية السعودية حاليا، تضم قبل ٣٠ أو٢٠ الف سنة، وكذلك قبل ٩ و٦ آلاف سنة، عددا كبيرا من بحيرات المياه العذبة من الدهر الرابع ومن الدهر البلستوسيني، وقد تشكلت لدى صعود الريح الموسمية نحو الشمال. وبالتالي، ساد مناخ أشد رطوبة في الصحراء الشرقية وفي شبه الجزيرة العربية، في الألف الخامس والألف الرابع قبل الميلاد. وهذا ما يتطابق مع التحاليل التي أجريت في سبخة تيماء، وهي كناية عن منخفض شديد الملوحة يمتد على عدة كيلومترات مربعة قرب الواحة.

١٦. Bawden وEdens وMiller، ١٩٨٠.
١٧. Parr وHarding وDayton، ١٩٧٢.
١٨. أبو دوروك، ١٩٨٦ ؛ أبو دوروك ومراد، ١٩٨٥ و١٩٨٨.
١٩. أبو دوروك، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ١٩٩٦.
٢٠. الحجيري وآل.، ٢٠٠٢، ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ ؛ التيمائي، ٢٠٠٦.
٢١. Eichmann وHausleiter والسعيد ونجم، ٢٠٠٦ ؛ أنظر أيضاً www.dainst.org/index_3258_htlm.

وفي الإمكان اليوم تمييز خمس منظومات بيئية (écosystème) في المنطقة: صحارى صخرية وركامية وصحارى رملية ومنبسطات رملية تتخللها نتؤات صخرية وكثبان رملية وسهول ملحية (نباتات السبخة) ومنظومات الوديان[٢٢].

والتحاليل اللقاحية الأولى لرواسب من سبخة تيماء، التي تشمل تحليل علم النبات الإحاثي لبقايا نباتية وتحاليل للنبات الحالي، تساهم في إعادة تكوين النباتات في العصور القديمة وتطورها، وكذلك في فهم أفضل للظروف المناخية للعهود الجيولوجية القديمة في المنطقة[٢٣].

وعلى هذا الوجه فان التحليل اللقاحي لرواسب السبخة الذي شمل كامل الفترة موضوع الدراسة، أسفر عن وجود نباتاتٍ نموذجية من الصحارى/السهوب والوديان، أمكن تحديد ظهورها، عبر تقنية التأريخ بالكربون الإشعاعي (سي ١٤)، في بداية الألف السادس قبل الميلاد. وفيما لا تضطلع الغابة اليابسة الأوراق اليوم بأي دور في منطقة تيماء، كشفت هذه التحاليل وجود شجرة الفستق وشجرة الميْس (شجرة حرجية للتزيين). وثبت أيضا وجودُ هذه الأنواع في المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية، التي كانت الرياح الموسمية قد بلغتها. ولا تستطيع هذه الأنواع بالنتيجة أن تتطور إلا في ظروف أشد رطوبة من الظروف الموجودة في تيماء. لذلك كان الحد الشمالي لمنظومة الرياح الموسمية يقع إبان العهد الهوليسيني (أحدث عهود الحقبة الرباعية) القديم والمتوسط في أقصى الشمال أكثر من اليوم. وكشفت التحاليل أيضا عن وجود نباتات مزروعة، كشجرة الزيتون (Olea) والكرمة (Vitis) وشجرة التين (Ficus). وإذا كانت هذه النباتات أصلية في تيماء، فهي تدل أيضا على وجود مناخ أكثر رطوبة في العصور السحيقة. فوجود الكرمة في تيماء منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ثبت بالتالي عبر تقنية التأريخ بالكربون الإشعاعي ١٤، مما يندمج بالكامل في إعادة التكوين الأثرية لتطور المدينة. وتشير دراسة المتبقيات النباتية بالتالي إلى وجود أنواع عدة من الحبوب (الشعير والقمح والشوفان والذرة البيضاء) وقرنيات (فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين تشمل الفول والعدس والحمّص)، وكذلك عدد كبير الثمار القشرية ومنها التمر والتوت والرمان والنباتات المزروعة الآنفة الذكر، كالكرمة وشجر الزيتون والتين.

وتحمل معطيات علم النباتات الإحاثية على افتراض وجود نباتات أشد كثافة في تيماء وضواحيها آنذاك. وكانت تلك النباتات تتميز بنسبة مئوية أعلى وسليمة من الأشجار في المنظومات الكثيرة للوديان. ووفرت مؤشراتٍ أخرى أيضاً النقوشُ الحجرية للحيوانات النموذجية في السهول الكثيرة العشب، كالأسود والفهود والنعامات. لذلك قدمت الوديان المحمية النادرة في المنطقة لمحة عن المشهد القديم كما أمكن إعادة تكوينه.

المياه في الواحة

ويكمن أحد المحاور الأساسية للمشروع في دراسة إدارة المياه واستغلالها ووسائل الحماية من الفيضانات في الواحة التي لا تستطيع في الواقع أن تعيش ويستمر وجودها من دون إدارة منظمة للمياه. فبير هداج، احدى الآبار التي يرقى حفرُها على الأرجح إلى العصور القديمة، ويناهز قطرها ٢٠ مترا والتي كانت مياهها تـُجر إلى الواحة للري بواسطة آليةٍ معقدة تجرها جِمالٌ، يشهد اليوم على دور المياه باعتبارها موردا لتيماء. وكانت هذه البئر تـُعتبر واحدا من أكبر الخزانات في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية (الصورة ٢). وثمة آبار أخرى كثيرة معروفة في الواحة، لكنها جميعا، وإلى حد بعيد، أصغر حجما.

والمناطق الملائمة مائياً لإعادة تكوين مورد المياه في العصور القديمة، هي السبخة، أي المنخفض الشديد الملوحة الواقع شمال الواحة، وبساتين النخل ومناطق السكن القديمة[٢٤]. وفي أيامنا هذه، تمتلىء السبخة بالمياه نتيجة هطول كميات كبيرة من الأمطار. ووجود طبقات أحفورية لحيوان بحيْري (يعيش على ضفاف البحيرات) من أوالفِ الملح جزئيا، وتبلغ سماكتها بضعة أمتار، تـُثبتُ وجود بحيرة داخلية هنا في العصور القديمة يرتفع سطحها أكثر من ١٠ أمتار

٢٢. Kürschner، ٢٠٠٩.
٢٣. Neef و Dinies، ٢٠٠٩.
٢٤. Grottker و Wellbrock، ٢٠٠٩.

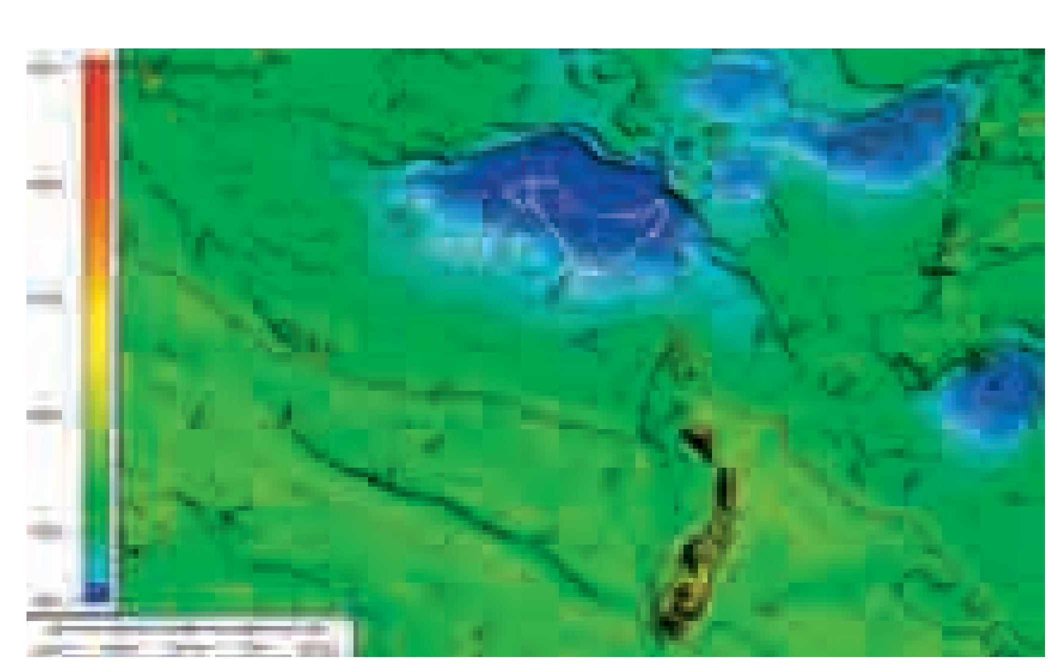


الصورة ٢. بير هداج في فترة هاري سانت جون فيلبي (١٩٥١)

فوق المستوى الراهن. ومن جهة أخرى، تشير عملياتُ تأريخ عبر تقنية الكربون الإشعاعي (سي ١٤) على صلةٍ بإعادة تكوين مناخ العهد الجيولوجي القديم، إلى أن هذه البحيرة – على غرار بحيرات المياه العذبة الأخرى- قد جفت على الأرجح قبل حوالى ستة آلاف سنة، أي قبل أن تستقر أقوام حضرية في الموقع بصورة دائمة. ويمكن أن يكون هذا الجفاف بالتالي عاملا حمل الأقوام على النزوح اليها، بعدما جفّت مياهُ أديم الأرض القابل للإستثمار.

يقع الموقع القديم لتيماء، إلى الأعلى قليلا، جنوب غرب السبخة، في اتجاه جريان مياه أديم الأرض التي تضيع في السبخة (الصورة ٣). وكان تزويد تيماء بالمياه يجري في الأساس عبر الآبار التي سهَّل حفرَها وجودُ تكوينٍ جيولوجي، هو حفرة انخساف تيماء، وقد جعل ممكنا صعود المياه الجوفية الأرتوازية. وكلُّ الآبار الواقعة في نطاق الواحة القديمة، وحتى النبع الوحيد المكتشف حتى الآن في الموقع القديم، كانت تتغذى من تلك المياه.

الصورة ٣. صورة رقمية لطوبوغرافية تيماء وضواحيها.



وتشير آثارُ بئرٍ تقع جنوب غرب الموقع إلى أن نقل المياه كان يتم على ظهور حيوانات النقل، كما كانت الحال أيضا في بير هداج (قصر الرضم الذي يرقى أيضا إلى العصور القديمة المتأخرة يضم بئرا من النوع نفسه). وتقع بئر أخرى إلى الشرق. وكان وجود هاتين البئرَيْن على الأرجح، سببا لاستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي، المتصلة بمنطقة السكن الأساسية عبر أسوار كانت في الوقت نفسه تؤمن الحماية لها. وحـُفظت في المنطقة الشرقية قنواتٌ كانت تتيح ري الأراضي المزروعة.

لقد كان من الممكن أن تشكل مياه سطح الأرض، بعد هطول الأمطار الغزيرة، خطراً على السكان. إلا أن ترسبات عظيمة من الطمي، بارزة في داخل جدار السور، يمكن أن تـُذكـّر بظاهرة الفيضان. وان تأريخاً عبر تقنية الكربون الإشعاعي للبقايا العضوية، التي عـُثر عليها تحت هذه الطبقة من الطمي، يضع هذه الكارثة في نهاية الحقبة النبطية. ورغم استمرار تعذر إعادة تكوين تلك الأحداث بتفاصيلها، يبدو أن تشييد الجزء الأحدث من السور الداخلي هو نتيجة لهذا الفيضان. لكن ذلك يفترض أن الجدار الداخلي يقطع هذه الرواسب، وهذا لم يثبت بعد كلياً من وجهة نظر جغرافية. وتستطيع حفرة يبلغ عرضها ١٢ مترا محفورة في الصلصال الرملي على عمق بضعة أمتار خارج الجدار، استيعاب كميات كبيرة من المياه. وأثبـتت عملية تـنقيب جيوفيزيائية أن هذه الحفرة التي كشفتها الحفرياتُ أيضا، تمتد على طول يناهز ٥٠٠ متر. لـذلك يفـترض أن يكون الركامُ الناجم عن هذه الحفرة، وقد استـُخدم في ردم السور المزدوج الحائط، والاحدث عهداً، المشيـَّد على انقاض بناء سابق، فهذا الاخير والحفرة ينبغي ان يكونا متعاصرين.

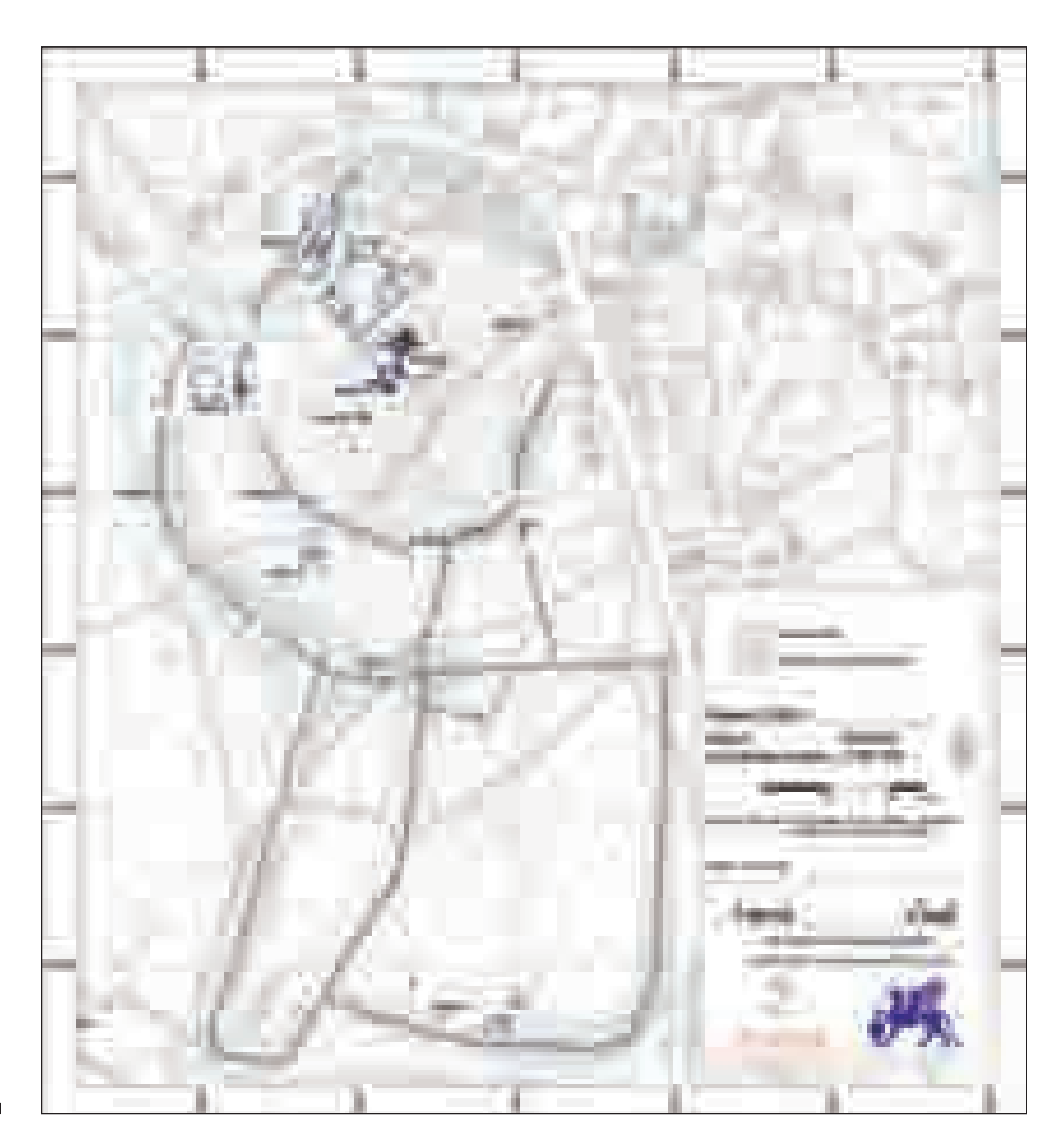
نتائج الحفريات

حسب معلوماتنا الراهنة، تحتل المنطقة المبنية في العصور القديمة، مساحة تناهز ٨٠ هكتاراً، يـُطلق عليها اسم القريةوتقع جنوب بستان النخيل. ويـُحيل إسمُ القرايا إلى المركز القروي القديم الذي لا زالت آثاره من المنازل المبنية من الآجر الخام، ماثلة للعيان على مقربة من الخرائب. إلا أن التوسع المتزايد لمدينة تيماء الحديثة منذ الخمسينيات، أدى إلى البناء على مساحات كانت بوراً، فبات من المتعذر إجراء عمليات تنقيب عن الآثار.

تـُحيط بمنطقة القرية (الصورة ٤) وبستان النخيل، في الغرب والجنوب والشرق، منظومة من الأسوار يناهز طولها الإثني عشر كيلومترا. وإذا كانت هذه الأسوار بلغت في العصور القديمة ارتفاعاً كبيراً، فلا ينطبق هذا الأمرُ في المقابل على جدار دعم آخر يناهز طوله الستة كيلومترات، ويربط الأطراف الخارجية لجدران السور الشمالي- الغربي والشمالي الشرقي بين بستان النخيل والسبخة (أنظر الصورة ٤). وكان هذا الجدار يستخدم لتدار تآكالمساحات المزروعة نحو السبخة. وأثبت فحصُ عينات من التربة أن الرواسب الكائنة إلى جانب هذا الجدار، لا تحتوي على الملح، فيما تحتوي عليه الرواسب الكائنة إلى شمال الجدار نفسه.

وبذلك يكون بستان النخيل والمنطقة الوسطى لمدينة تيماء محاطين بأسوار يبلغ طولها الإجمالي ١٢ كيلومترا وتغطي مساحة تفوق ٩٥٠ هكتاراً. وفي داخل هذا السور، أمكن التعرفُ إلى مجموعات فرعية عبر جدران أخرى.

وأشار علماء الآثار الذين أجروا حفريات في ١٩٧٩م إلى مختلف المجموعات الفرعية هذه التي تحدها جدران، مسمّاة أسوار compounds. وكان مختلف مناطق الحفريات تسمى في البداية بأسماء مواقعه التقليدية، كقصر الحمراء وقصر الرضم والبوجيدي والرجوم وصعصع، أو بأسماء حديثة (صنايع/ المنطقة الصناعية). أما اسم «قصر الأبلق» فكان يعني في السابق الجزء الأوسط من القرية، المؤلف من تلة حجر رملي، وعدّة أمتار من الطبقات الأثرية. ويُشار الى مختلف ورش الحفريات الألمانية- السعودية بالحرفين (A-Z) وهي موجودة كلها، باستثناء ورشة جدار السور (W)



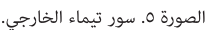
الصورة ٤. خطة المنطقة الوسطى لخرائب تيماء (القرية)

وعمليات الإرجـاس (تحري عمق الطبقات الأرضية) التي أجريت في السبخة (SE)، داخل محيط القرية. وفي ما يتعلق بسكنى أقوام حضريين، أمكن التعرف إلى ست حقب حددتها آثار معمارية (صروح وجدران أسوار ومدافن)، وتعاقبها الطبقاتي:

- فترة الاستيطان ١: حقبة حديثة؛
- فترة الاستيطان ٢: حقبة إسلامية؛
- فترة الاستيطان ٣: العصر الحديدي الحديث/عصور قديمة متأخرة/فترة سابقة للإسلام؛
- فترة الاستيطان ٤: العصر الحديدي القديم؛
- فترة الاستيطان ٥: العصر البرونزي المتوسط والحديث.
- فترة الاستيطان ٦: العصر الحجري الحديث الى العصر البرونزي القديم.

واستـخدمت تقنيات تأريخ نقوشية وأثرية وعلمية من أجل توجيه التسلسل التاريخي المطلق. ويمكن هذه الطريقة أن تشمل حقبة تمتد من العصر الحجري الأخير إلى الحقبة الحديثة.




الصورة ٥. سور تيماء الخارجي.

من العصر الحجري إلى العصر البرونزي

والمؤشرات الأثرية لحقبة السكن السادسة (من العصر الحجري إلى العصر البرونزي القديم)، هي نصال سهام عثُر عليها على سطح الأرض وتتعلق ب «التقليد العربي المزدوج الوجه»[٢٥] (Arabian Bifacial Tradition). أما الأكثر سهولة من حيث تحديد المواضع، فهي آثار إنتاج اللآلىء من العقيق الأحمر بواسطة أدوات من الصوان، شبيهة بأدوات أخرى آتية من أطر نحاسية- حجرية (chalcolithiques) من الشرق الأدنى. ويرقى هذا الإنتاج على الأقل إلى ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، إذ عثُر على مثاقب يتعذر استعمالها في آجُر جدار السور الداخلي، وقد وصلت بالتأكيد إلى القرية في وقت واحد مع التراب الغـضار (الطين اللازب الأخضر) للسبخة. وأمكن تحديد مواقع الإنتاج القديمة هذه على مقربة من السبخة، جراء تراكم المثاقب وقطع لآلىء العقيق.

من جهة أخرى، كانت النقوش الصخرية الكثيرة التي عُثر عليها في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، والمنسوبة إلى تلك الفترة، تؤمّن معلومات حول وسائل العيش في العصر الحجري الأخير. وقد نـقشت فيها، من بين ما نـقش، صور رعاة مع حيواناتهم ومنها الأبقار. وعلى غرار فرضية تطور غالباً ما تُقترح بصدد الصحراء، من الممكن أن نطرح، على سبيل الإفتراض فقط، أن هذه المجموعات الرُحّل تستخدم بحيرات المياه العذبة في صحارى شبه الجزيرة العربية لروي قطعانها، قبل أن تجف تلك البحيرات.

وإذا اعتمدنا على السياق التسلسلي لإعادة تكوين البيئة الملخصة أعلاه، يبدو حاسماً أن في الإمكان أن نحدّد تاريخ تشييد الجدار الكبير للسور الخارجي في تيماء، أو بعض أجزائه على الأقل، في الألف الثالث قبل الميلاد، أي في العصر البرونزي القديم. ويبدو هذا التأريخ معقولا نظراً للنتائج التي تؤمنها طرائق التأريخ الفيزيائي (الإنارة التحفيزية البصرية) (luminescence stimulée optiquement, OSL) لترسيب الرياح التي تراكمت على هذا السور، وكذلك عبر تقنية التأريخ بالكربون الإشعاعي (سي ١٤) للبقايا العضوية الموجودة في هذه الرواسب نفسها[٢٦]. وفي تلك الفترة، شُيدت جدرانُ الأسوار من لبن التراب المجفّف، الذي يقوم على قواعد من بلاط الصلصال الرملي. وكانت تلك الجدران تحوط على ما يبدو بعض أجزاء بستان النخل والمنطقة السكنية الوسطى. وبلغ ارتفاع جدران تلك الحقبة السكنية القديمة ستة أمتار على الأقل (الصورة ٥).

يستند التفريق التسلسلي بين تلك الجدران، حتى الآن، على مواد البناء (لبن التراب المجفّف/ الحجارة)، بمعزل عن الاكتشافات في المحيط الذي يرسمه جدار السور هذا. وتتميز الأجزاء المبنية

٢٥. أنظر في هذا الشأن Uerpmann وPotts وUerpmann، ٢٠٠٩، ص. ٢١٢-٢١٤.
٢٦. Klasen وآل، قيد الطبع.


الصورة ٦. برج داخل القسم الشمالي الغربي من جدار السور.

من الحجارة بنمط بناء متغيّر يعكس على الأرجح تنظيم العمل، وبِكُوىً (أحياناً فتحات نافذة) مرتفعة وضيقة، على مسافات منتظمة لم تـُعرف حتى الآن وظيفتـُها[٢٧]. وخلافاً لآثار السور الخارجي، لم يثبت حتى اليوم أثر لسكن يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد في تيماء. إلا أن فريقا من علماء الآثار برئاسة م. الحجيري عثر في ٢٠٠٣م على أسلحة من البرونز في المنطقة المسماة «منطقة الصناعية». وتتطابق هذه الأسلحة بالضبط مع الفؤوس المثقوبة والخناجر المضلعة التي عثُر عليها حسب المواصفاتّ نفسها في مدافن تـُسمى حربية، عُثر عليها في سوريا والمشرق في نهاية العصر البرونزي القديم وفي بداية العصر البرونزي الأوسط[٢٨]. وعلى رغم أن العثور على هذه الأسلحة حصل في إطار ثانوي صريح، وعلى رغم أنها لا تقدم مزيداً من المعلومات حول معنى وجودها في تيماء، إلا الواحة تشكل مكان الإكتشاف الواقع في أقصى الجنوب لهذه المجموعة من الأغراض، مما يمكن أن يؤكد وجود صلات بين الواحة ومراكز البرونز القديمة والمتوسطة في المشرق وفي سوريا.

وفي ما يتعلق بالحقبة الواقعة بين بداية الألف الثاني قبل الميلاد ونهايته، لم تُتح الاكتشافات الأثرية تحديد شكل الاستيطان في تيماء تحديدا واضحا. وتتناسب هذه الحقبة مع حقبة السكن الخامسة. أثناء تلك الحقبة، كانت المناطق المجاورة (مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين) قد طورت حضارة القصور التي لم يكن لها أثر في تيماء. وخلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد أو بعده، أُنجز السور الخارجي لتيماء بطبقات عليا وملاحق من التربة المجففة. وقد شُيدت هذه الطبقات العليا على الرمل، بالتوازي مع تخطيط السور، كما يشير إلى ذلك تأريخ البقايا العضوية التي عـثر عليها في لبن التراب المجفّف، عبر تقنية الكربون الإشعاعي. وان عمليات تأريخ جديدة عبر تقنية الكربون الإشعاعي، أجريت في برج يقع بالقسم الشمالي الغربي لجدار السور (W٤١)، تدل على أن هذا السور قد استُخدم أيضا ابتداء من العصر البرونزي الحديث (الصورة ٦).

٢٧. Schneider، قيد الطبع
٢٨. Nigro، ٢٠٠٣.

العصر الحديدي

ابتداء من عصر البرونز الحديث وعصر الحديد القديم (القرن الثاني عشر- العاشر/التاسع قبل الميلاد)، عـُثر للمرة الأولى في القرية ، على بقايا أثرية تؤدي وظائف أخرى غير وظائف التحصين أو الحماية من الرمل. وترقى هذه الآثار إلى حقبة الاستيطان الرابعة. في الضاحية الجنوبية الغربية للقسم الشمالي من القرية التي يرسمها جدار السور الخارجي (الورشة O)، يوجد بناية عمومية واحدة على الأقل، تسبقها منطقة واسعة مبلطة ومسورة بجدار ضخم تبلغ سماكته مترين. وتعود



الصورة ٧. مخطط البناء والمدافن التي عـُثر عليها في الورشة O.

هذه الآثار لبناية طويلة مستطيلة (١٢ x ٢٠ مترا)، يحوطها صف واحد على الأقل من الأعمدة. لكن ليس من الممكن مقارنتها بالتمام مع المعابد التي بـنيت في الحقبة نفسها في المناطق المجاورة (من بحر إيجه إلى مصر) (الصورة ٧).

تدل قطع كثيرة لطاسات من الخزف غير الملون على استخدام مألوف للسوائل في هذا المكان، وقد تكون لها علاقة بمآدب طقسية. واستـُخدمت في هذا المكان أيضاً، أقداح وكؤوس من الخزف مزينة بلونين، هما الأسود والأحمر، وتتميز أساساً بمجموعة من صور الطيور وزخارف هندسية (د. المعرض رقم ٨٢). ويستعيد هذا الخزف بعض الزخارف المعروفة حتى الآن بالخزف المسمى « القرية » والذي أرخت بدايته بالمقارنة مع قطع مماثلة آتية من تيماء (فلسطين) بين نهاية القرن الثالث عشر والقرن الثاني عشر قبل الميلاد. إلا أن الخزف الذي عـُثر عليه في الورشة O، يبتعد عن خزف القرية ، مما يتيح الافتراض أنه قد يكون تبدلا محليا جديدا. ولم يعثر على شقف من خزف القرية حتى الآن في تيماء إلا في قطاعات أخرى وبصورة متشتتة.

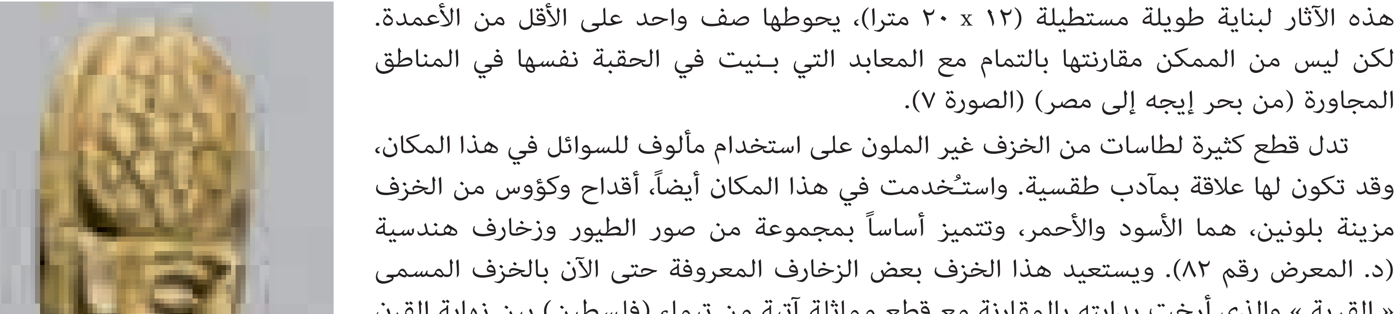
وتتميز بناية الورشة O، فضلاً عن خزفها، بوجود عدد كبير من الأغراض الثمينة المصنوعة من العاج والخشب والعظم والخزف المزخرف، التي عُثر عليها بين الأنقاض المتفحمة. ومن هذه الأغراض، مسكوكات معدنية (tokens) (قطع نقدية معدنية، ربما بيادق للميسر) يمكن مقارنتها بأغراض من الفترة الأشورية الحديثة عـثر عليها في نيمرود[٢٩]، وتعويذات وقطع أوعية كانت تـُستخدم للطلاء، أمكن تأريخ شبائه لها من العصر الحديدي القديم. من جهة أخرى، يشير العثور على مجموعة من التماثيل الصغيرة لآلهة مصرية وعلى جعران (نوع من الخنافس) (الصورة ٨)، إلى وجود صلات وثيقة واضحة على ما يبدو، بين تيماء ومصر منذ تلك الحقبة.

إن نقوشاً مرصعة من عظم وخشب لأوانٍ زُيـِّن بعضٌ منها بزخارف مشقوقة (متناسقة)، هي نموذجية لمنطقة شرق البحر المتوسط.

وان اتساع وترتيب هذا البناء وسوره يحملان على الاعتقاد أنه بناء بالغ الأهمية، رسمي ولا شك، لكن وظيفته لم تتحدد بدقة بعد. كذلك ليس من الممكن القول أيضا هل كان لتجرّع السوائل الطقوسي صلة أم لا بأنشطة دينية؟ رغم أن مخطط البناء يذكّر بمخطط معابد أخرى -من حقب سحيقة- في مناطق أخرى.

وإلى هذه الحقبة نفسها، يرقى ملحق ضيـّق بُني على كثيب يبلغ ارتفاعه عدة أمتار تراكم لصق السور الخارجي (الورشة A). لذلك لم يعد في استطاعة هذا الجدار أن يقوم في تلك الفترة بوظيفة التحصين الأساسية. وعلى غرار الجزء العلوي من الجدار، شُيـِّد هذا الملحق من البلاط المصنوع من الصلصال الرملي. ويتطابق الجدولُ الخزفي الذي عـُثر عليه في هذا الجزء من الجدار، إلى حدٍ بعيد، مع جدول الورشة المجاورة O. من جهة أخرى، يـحيل الوجود المتزايد لعظم الطيور، في هذا المكان خلال مرحلتـَي استخدامه الأساسيتين، إلى نشاطٍ كان يتوخّى تحويل المنتجات الغذائية.

ان مسألة استمرار السكن في تيماء إبان العصر الحديدي الحديث (فترة الاستيطان الثالثة)، يمكن اعتبارها مؤكدة، على رغم أن أي ترسب حديث في وسط الموقع لا يمكن ربطه برواسب العصر الحديدي القديم من حيث الطبقات الجيولوجية. وقد أمكن تأريخ مدافن فقط بين النصف الأول ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد (تلة الصناعية) في تيماء وضواحيها. وفي ما يتعلق بالخزف (د. المعرض رقم ٨٣ الى ٩١)، ما زال قائماً بعضُ عناصر الزينة من العصر الحديدي القديم، ولا ينطبق الأمر على الأحجام نفسها للتقنيات المستخدمة، لكنه يجعل فرضية الاستيطان المستمر أكثر احتمالا من المنقطع الذي طرحه بي. جي. بار (P. J. Parr)[٣٠]. وقد كـُشفت استمرارية الزينة هذه منذ ١٩٧٩م، وهي، من جهة أخرى، التي قادت جي. باودين وسي. إدينز إلى وصف مجموعة الخزف الملون في تيماء بعبارة (Tayma Painted Ware)[٣١]، إلا أنهما أهملا بعض التباينات، بما فيها الوظيفية، بين مختلف المجموعات الخزفية وظروف العثور عليها. وتتألف المدافن في تلك الحقبة من مجموعة من المقصورات الحجرية المستطيلة المتجاورة التي كانت تَجْري فيها عملياتُ دفن جماعية (الصورة ٩).



الصورة ٨. جعران مصري من حجر مطلي (TA ٧٣٥٦)
ظهر ثلاثة أرباعه ، وطوله ١،٨٠ سم

٢٩. أنظر Herrmann وLaidlaw، ٢٠٠٩، ص. ٢١٢، الرقم ٣٢١، a-c، ص. ١٠١ ؛ Initilia، ٢٠٠٩.
٣٠. Parr، ١٩٨٨.
٣١. Bawden وEdens، ١٩٨٨.



الصورة ٩. مجمّع مدافن في طلأ

وعـُثر أيضا من جهة أخرى على مدافن مستديرة أُرفقت بملاحق مستطيلة. واكتـُشف عدد كبير من هذه المدافن في الصناعية، وأيضاً في طلأ جنوب الصناعية في الفترة الأخيرة[٣٢]. وبالإضافة إلى الخزف، أُتيح العثور على تمثال صغير من التربة المشوية الملونة، يمثل جملاً موسوماً بطريقة الحز، ونصبا جنائزياً مزيناً بوجه، سهّل فهماً أفضل للفروقات الاجتماعية الجلية عبر إعداد المدافن. وأسفرت بضع عمليات تأريخ عبر تقنية الكربون الإشعاعي عن استخدام المدافن في طلأ من القرن التاسع إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي الجزء الأوسط من القرية ، عـُثر بين الأنقاض فقط وفي طبقات الردم على الخزف الشبيه بخزف مدافن الصناعية وطلأ. ومن الضروري إذن أن نفترض أن عمليات البناء في تلك الحقبة، باستثناء بعض الآثار النادرة أحياناً، قد دمرتها عملياتٌ بناء جديدة. وبعضُ الآثار الضخمة وحدها لجدار بـُني على أساسات صخرية ومغطاة بمبنى يرقى إلى العصور القديمة المتأخرة، في وسط القرية (الورشة F)، يمكن أن يعود إلى تلك الحقبة. لذلك لا يبقى في الوقت الراهن أيُّ أثر لمبانٍ عامة أو خاصة ترقى إلى حقبة الاتصالات بين تيماء وأشور، بل مدافن فقط، لا يتيح أثاثها إجراء

٣٢. Beuger، قيد الطبع ؛ Lora، Petiti وHausleiter، قيد الطبع.

أي مقارنة مع الثقافة المادية الأشورية، لكنها تتميز في المقابل بِسمات محلية وبالتالي إقليمية. وتكشف شقفٌ خزفية من الصنايع عـُثر عليها في تل الكثيب شمال الخريبة، (دادان القديمة)، وفي تل قادش برنيع (في سيناء)، عن أن لهذا الخزف أيضاً، بُعدا إقليمياً كان مهملاً حتى الآن[٣٣]. وفي بابل، وردت في النصوص أسماءُ بعض الأشخاص الذين أتوا من تيماء[٣٤].

وعلى غرار حقبة الاتصالات مع أشور، لم تـُلاحظ حتى الآن عبر الآثار المعمارية إقامة ملك بابل نبونيد (٥٥٦-٥٣٩ قبل الميلاد) التي استمرت عشر سنوات في تيماء. إلا أن عدة نصوص مسمارية بابلية، ومنسوبة صراحة إلى هذا الملك، قد عـُثر عليها في وسط الموقع. لذلك تجدر الإشارة إلى مسلة مقوسة من نمط بلاد ما بين النهرين (د. المعرض رقم ١٠٠)، وإلى قطعتين من قرص يمكن أن يشكل القاعدة (د. المعرض رقم ١٠١). وخلافاً للإهداء في المسلة الذي يتحدث عن تزيين معابد في بابل ويذكر مردوك أبرز آلهة المدينة ووصيفه زاربانيتو (Zarpanitu)، يشير النقش على الدعامة الشبيهة بالقرص، صراحة وللمرة الأولى بالأحرف المسمارية في تيماء إلى نبونيد بالإسم. وتُظهر المسلة صورة للملك يبدو فيها متجها نحو الرموز الكوكبية للآلهة البابلية: سين (Sin) (القرص والهلال) وشَمَش (Shamash) وعشتار (Ishtar) (النجم)[٣٥]. ويوحي العثور على أجزاء من هذا النص على مقربة مباشرة من مبنى رسمي استـخدم معبداً في عهد سلالة لحيان (الورشة E)، أن هذه الأغراض على علاقة بمبنى سابق استـُخدم معبداً هو أيضاً.

واستمر استخدام هذا المبنى معبدا خلال الفترة الأخمينية على الأرجح. بما ان انقاض مبنى الورشة E، قد انكشفت عن جمجمة ثور شبيهة بالجمجمة المصورة على قطعة من مسلة تيماء. ويمكن هذه الجمجمة أن تقدم بالتالي مؤشراً عن مكان إقامة هذا النصب الذي يتحدث عن دخول الإله (Salm HGM) إلى تيماء[٣٦]. أما شَبَهُ المعبد الذي يرقى إلى تلك الحقبة فمعروف باسم قصر الحمراء. وقد شـيّد على رعـْنٍ (أنف يتقدم الجبل) صخري يرتفع في القسم الغربي من سبخة تيماء، ويبعد حوالى ٢ كلم من القريّة (الصورة ١٠).

فقد عـثر هنا، في إطار بدائي، على مكعّب الحمراء وعلى مسلة الحمراء (د. المعرض الارقام ١٠٢ و١٠٣). ويشكـّل هذان الأثران بمعية أدوات ومقتنيات أخرى، نقطة انطلاق لإعادة تشكيل هذا المجمّع الذي له علاقة بعبادة الإله سلم ردب (Salm RDB) الذي اتخذ له مكاناً فيه. وان صورة عجل وجمجمة ثور على طريقة ثور أبيس (Apis) الظاهرة على مكعب الحمراء (د. المعرض رقم ١٠٢) تستدمج بعض الأشكال المصرية من حيث التصوير. وعـُثر على صورة أخرى مماثلة لثور، إنما من دون قرص شمسي، في معبد القرية. وهذا يكشف من جهة تماسك أيقنة صور الإله سلم في تيماء، لكنه يتيح من جهة أخرى ظهور تمييز في توزيع صور الثور مع القرص الشمسي (قصر الحمراء) أو من دون القرص (معبد القرية). ولا شك في أن أصل «معبد الآلهة الآرامي» المعبود في تيماء، الذي يضم حول آلهة سلم، مهرم (MHRM) وهغم (HGM) وردب (RDB)، أسيما (Asima) وسنغالا (Sengalla)، يحيلنا إلى سوريا[٣٧].

وفي وقت لاحق، فقدت تيماء استقلالها بصورة دائمة، إبان حكم السلالة اللحيانية في دادان (حوالى القرن الرابع - القرن الثاني قبل الميلاد) التي كان مركزها موجودا في واحة الخريبة (العلا اليوم)[٣٨]. وكانت دادان تشكل قوة عظمى في المنطقة خلال الحقبتين الأشورية الجديدة والبابلية الجديدة. ويتحدث عدد كبير من النقوش الصخرية في ضواحي تيماء عن «حروب» بين تيماء ودادان، ومسا ونبايات (Nabayat)[٣٩]. من جهة أخرى، أودع تولماي (TLMY) (Tulmay) ملك لحيان خلال سنوات حكمه الأربع والأربعين، كل عشر سنوات، (العشرون والثلاثون والأربعون من حكمه) نقوشاً في معبد القرية. وإلى هذه الحقبة على الأرجح، ترقى إقامة بضعة تماثيل ذكرية أكبر من المعتاد في الخريبة وفي تيماء (د. المعرض رقم ١٠٧). وبما أن أحد تماثيل الخريبة يحمل نقشا ملكيا، من الممكن أن نستنتج أن التماثيل التي عـثر عليها في تيماء هي أيضا تماثيل ملكية كانت – على غرار دادان - موضوعة في المعبد. وخلافاً لذلك، يـُفترض أن يكون للقاعدة التي عـُثر عليها في معبد القرية والتي يذكر نقشهاً ملكاً من لحيان باسم عـُلَيم سهرو (Ulaym Sahru) (بي. شتاين) (P. Stein)، وظيفة أخرى نظراً إلى حجمها الأصغر.

٣٣. Bernick-Greenberg، ٢٠٠٧، ١٤٠، اللوحة ١١,٢٤، ١١,١٤، ١١,٦ ؛ زهراني، ٢٠٠٧، ص. ٢٢٤-٢٢٥.
٣٤. أنظر Bawden وEdens، ١٩٨٩، ص. ٧٧-٧٨.
٣٥. Eichmann وSchaudig وHausleiter، ٢٠٠٦.
٣٦. Hausleiter، قيد الطبع.
٣٧. Maraqten، ١٩٩٦.
٣٨. أنظر Farès-Drappeau، ٢٠٠٥.
٣٩. حول أهمية التجارة في وسط شبه الجزيرة العربية عبر غرهت في تلك الحقبة، أنظر Bawden وEdens، ١٩٨٩، ص. ٩٢-٩٣.



الصورة ١٠. مخطط قصر الحمراء

وإبان حكم الملك لوذان (Lawdhan) اللحياني، تولى المدعو نتير ٢ مهمة حاكم تيماء، كما يشير إلى ذلك نقش آرامي عثر عليه في ركام الحفرة التي تمتد على طول السور الداخلي. ومع هذا النقش، ظهرت أولى الإشارات إلى تنظيم سياسي وإداري. وإذا كانت الثغرة المذكورة فيه تعود فعلا إلى آثار ممر يقع تحت السور الداخلي النبطي، سيكون ذلك مؤشراً يتيح تأريخ هذا الجدار أقدم من السلالة اللحيانية أو قبلها بقليل. وفي تلك الحقبة، كان السور الخارجي مغطى في الواقع منذ فترة طويلة بكثبان الرمل، لذلك لم يعد في وسعه تأمين وظيفة التحصين المنوطة به تأميناً تاماً. وفي هذا الإطار، بات تضاؤل حجم الموقع خسارة للأهمية السياسية للواحة[٤٠].

والفضاء الواقع في الجانب الآخر من السور الداخلي والذي أنشئت فيه أيضاً خلال العصر الحديدي القديم مبان رسمية تحتوي على أغراض تدل على الهيبة والنفوذ (الورشة O)، لم يعد إذّاك سوى مكان للدفن، أعيد فيه استخدام بعض المسلات الجنائزية التي تحمل الصورة التخطيطية لـوجه وأحيانا نـقش اسـم بالآرامية، لتغطية مقابر (د. المعرض رقم ١٠٥). والأسـماء الواردة على المسلات

٤٠. Hausleiter، ٢٠٠٩.

الجنائزية في تيماء، استخدمت أساساً لدرسة أسماء الأعلام الآرامية، لكنها لم تقدم مؤشرات كافية للتمييز الاجتماعي وبالتالي وصف ملامح المجتمع. وهذه الفئة وحدها من الأغراض أتاحت تمييز التأثيرات الآتية من جنوب شبه الجزيرة العربية في تيماء على الصعيد الأسلوبي والشكلي.

والمبنى الرسمي الذي استخدم معبداً في الورشة E والذي اتّسم بأهمية مميزة جداً في نظر ملوك لحيان (الصورة ١١) يتضمن، في مستواه المعماري الأخير، مراحل مختلفة مقسومة هي نفسها الى عدة أطوار من التشييد. وكان هذا المبنى يتألف في البداية من ردهة واسعة ذات ثلاثة أجنحة تفصل بينها أعمدة. وتحوّل الجزء الجنوبي من المبنى، رواقاً إبان حكم السلالة اللحيانية أو في الحقبة النبطية، فيما قسم جزءه الشمالي إلى خمس غرف. وهذا يمكن أن يعني أن المبنى لم يعد آنذاك يُستخدم معبدا.

في هذه الفترة، ان قطعة نقدية مقلّدة لنقد أثينا (Athéna) ترقى إلى نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد، قد عثِر عليها في عملية ردم، فكانت مؤشراً تاريخياً بالنسبة الى مراحل التشييد الأحدث عهداً[٤١]. وأدخلت على هذا المبنى تعديلات أخرى خلال العصور القديمة المتأخرة، وان قاعة الأعمدة التي كانت مستثناة حتى ذاك الحين، قسمت إلى بضع غرف صغيرة. والاستخدام الأصلي لهذا المبنى بصفته معبدا، يمكن استنتاجه ليس فقط من مخططه وزينته (جدران مملوطة ومدهونة)، بل أيضا من موقعه المرتفع ووجود درج مزدوج على مقربة من المدخل الرئيسي الحديث، حيث كان ينتصب عدد من تماثيل السفينكس (sphinx)[٤٢] على الأرجح. وتشير أحواض وسواقٍ موجهة من داخل المعبد نحو خارجه، إلى استخدام المياه. فهذه الخاصية الصغيرة، وكذلك مفهوم الأعمدة والارضيات، تقدم مقارنات مع قصر الحمراء. فضلاً عن ذلك، يشكل نفق ضيق تحت



الصورة ١١. مخطط مكان التعبد١E-b (الورشة E)

٤١. حول قطعة نقدية مشابهة في قصر الحمراء، أنظر أبو دوروك ومراد، ١٩٨٨، اللوحة. ٢٧.

٤٢. كائن خرافي له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدرها.

الأرض ينطلق من المبنى ويتجه نحو الجنوب الشرقي وموصول ببئر، ميزة فريدة لمعبد القرية. وحفظت إحدى بلاطات تلبيس النفق النقش المكتوب باللغة الآرامية لشخص يدعى نابو- نادين- اهي (Nabu-nadin-ahhi) (بي. شتاين)، وهو اسم يأخذ شكل الأسماء البابلية. ويكشف هذا النفق أيضاً عن مستوى هندسي لحياني.

من النبطيين إلى الإسلام

ان بضعة عناصر للبناء النبطي عثُر عليها في أنقاض معبد القرية (تاج عمود، [الصورة ١٢]) وإناء ذو حدَبة مستديرة وزخارف ثلاثية الأخاديد ووطائد اي الجزء المنخفض من قاعدة عمود زخرفية تذكّر بالأسلوب الهندسي للمعابد والمدافن النبطية)، ونقش للملك أريتاس الرابع (Arétas IV)، تحمل على الإعتقاد بأن الإتصالات بين تيماء ومدائن صالح/؟؟ النبطية كانت أوثق مما تتيح افتراضه حتى الآن الإكتشافات الأثرية في تيماء[٤٣].

وعثر أيضاً في المنطقة السكنية الواقعة جنوب المعبد، وبالتالي بين الأنقاض، على عدد كبير من الأغراض التي ترقى إلى الحقبة النبطية، ومنها قطع نقدية وبضع مباخر منقوشة وبأشكال مختلفة (د. المعرض رقم ١١٠؛ د. المعرض رقم ١٠٩)، وشقف من الخزف المنقوشة هي أيضا، ومنحوتة تمثل نسرا.

وتُحفظ في القرية آثار من الحقبة التالية للعصور القديمة المتأخرة، على مساحة أكبر بكثير[٤٤]. وتمتد جنوب المعبد منطقة سكنية حيث استُخرجت بضعة منازل مربعة تناهز مساحة الواحد منها ١٠٠ متر مربع، والمزودة بأعداد كبيرة من الخزف والأدوات المطبخية تمهيدا لتحويل المنتجات الغذائية (الصورة ١٣).

في تلك الفترة، أعيد تنظيم كامل المنطقة الواقعة حول معبد القرية وفق مخطط معماري. وبعد تشييد جدار من نوع «تمينوس» (temenos) – أي يحدد منفسحاً مكرساً للآلهة - يحوط المعبد مباشرة، شيد جدار سورآخر يمتد حتى الوادي الذي يجتاز الجزء الشمالي من القرايا (أنظر الصورة ٤). وقد فقد هذا المعبد نهائيا وظيفته الأصلية في القرن الثالث على الأرجح. إذّاك ان قطعاً



الصورة ١٢. تاج عمود عثر عليه في تيماء (TA ٩٧٥)

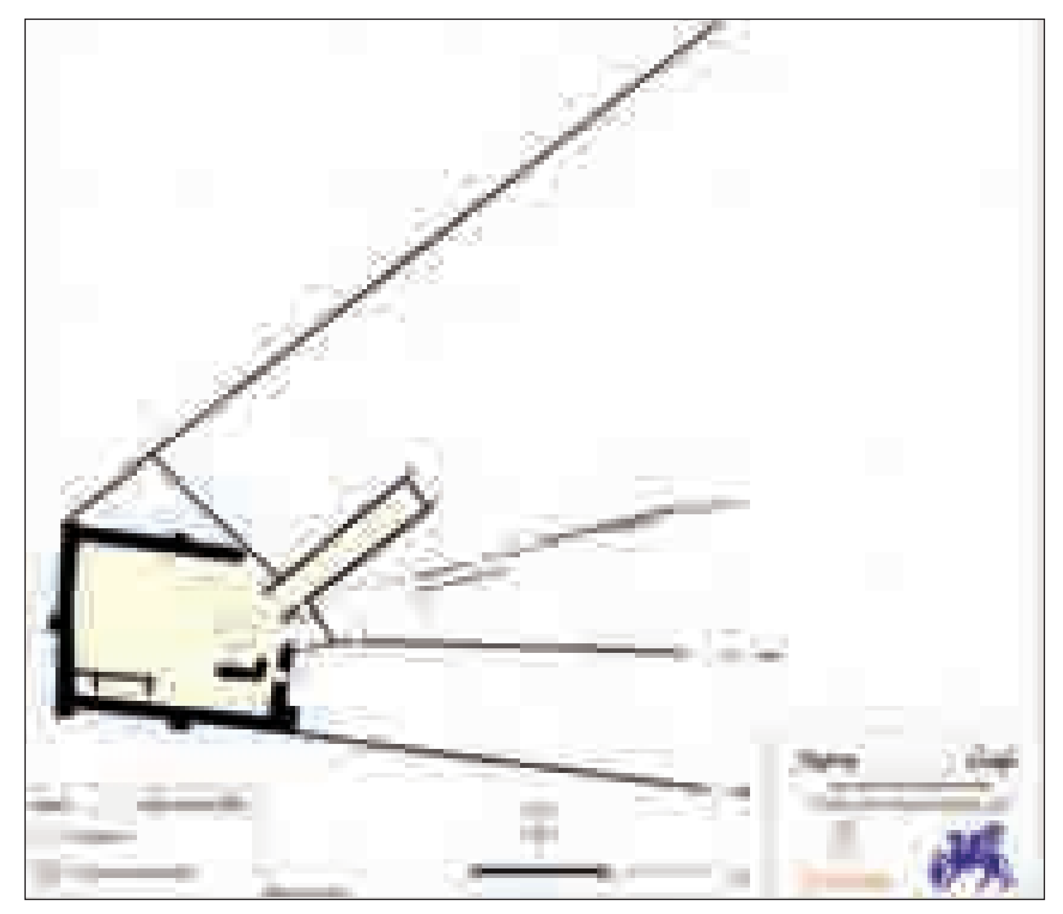
٤٣. في ما يتعلق بالنقشين النبطيين في تيماء، أنظر نعمة، ٢٠٠٩.
٤٤. Eichmann، ٢٠٠٨.

الصورة ١٣. مخطط المنطقة السكنية التي ترقى إلى العصور القديمة المتأخرة (الورشة F)

من تماثيل لحيانية وأعمدة دعم المسجلة باسم تولماي اعيد استخدامها كمعدات بناء، لاقفال الفتحات في الرواق. ونُقل عندئذ المركز الإداري والتمثيلي للموقع نحو الشمال، إلى مجمّع أنيق يتمتع بمواصفات قصر ويمتد على هكتارين تقريباً. وتقسم أفنية واسعة هذا المجمّع الذي لم يُحفظ منه أيُّ عنصر زخرفي. وعمليات التأريخ التي أجريت بواسطة الكربون الإشعاعي تحت مستوى الأساسات وكذلك العلاقات الطبقية القائمة مع المباني الواقعة جنوب معبد القرية لا تتيح تأريخ هذا المجمّع قبل القرن الثاني (١٣٢- ٣٣٥ cal.Ad)[٤٥]. والمصدر الوحيد المكتوب عن تلك الفترة والذي عثُر عليه حتى الآن في تيماء هو بلاطة ضريح على شكل طاولة بمقبضين (*tabula ansata*) ترقى إلى العام ٢٠٣م، وتذكر اسم سيه (Š'yh) زعيم تيماء ومجموعة من الأسماء اليهودية الأخرى[٤٦]. وعلى الرغم من عدم وجود علاقة طبقية بين هذا النقش والمجمّع أو المنطقة السكنية الواقعة جنوب غرب المجمّع، إلا أن هذه الآثارالمعمارية تقدم صورة بالغة الوضوح عن حجم الموقع وأهميته، خصوصا اتساع المباني الرسمية الواقعة في هذه المنطقة والتي ترقى إلى العصور القديمة المتأخرة وتفوق الآثارَ المعمارية من المباني السابقة. ومن الممكن بالتالي أن يرقى قصر الرضم إلى تلك الحقبة. ويقع هذا المجمّع المستطيل الذي وثّقه للمرة الأولى جي. إيتينغ (J. Euting) في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، داخل السور الشمالي الغربي وهو مزود بتحصينات على شكل أبراج (الصورة ١٤).

بين الفترة التي تسبق الإسلام والفترة الإسلامية (اعتبُرت هذه الفترة حقبة استيطان ٢)، من الضروري افتراض استمرارية الاستيطان في تيماء. وداخل القرية ، انتقل مركز الثقل نحو الشمال الغربي والشمال، فيما هُجرت المباني الأقدم الواقعة حول معبد القرية. وتأسست مباني تلك الحقبة المعاصرة تقريبا لبداية الحقبة العباسية، على الرمل، ويتميز تصميمها عن تصميم المباني السابقة للإسلام. وعلى رغم أن ثراء التقليد العربي المتعلق بتيماء، الوارد أعلاه، لا يمكن ربطه مباشرة بنتائج الحفريات، يشهد مجمّع رحب ذو مخطط مربع مساحته ٢٥٠٠ متر مربع (الصورة ٤)، على بعض الأهمية. وهذا المجمّع الذي يضم قاعتين في الزوايا وَصَفّاً من القاعات على جانبه الشمالي، - مكان لإعادة توزيع البضائع بالتأكيد-، وكذلك بضع مجمّعات منتظمة حول فناء مركزي، تضم هي أيضاً مجموعة من القاعات خلف صف من الغرف، وفناء أمامياً، قد شيدت في القرن الثامن الميلادي

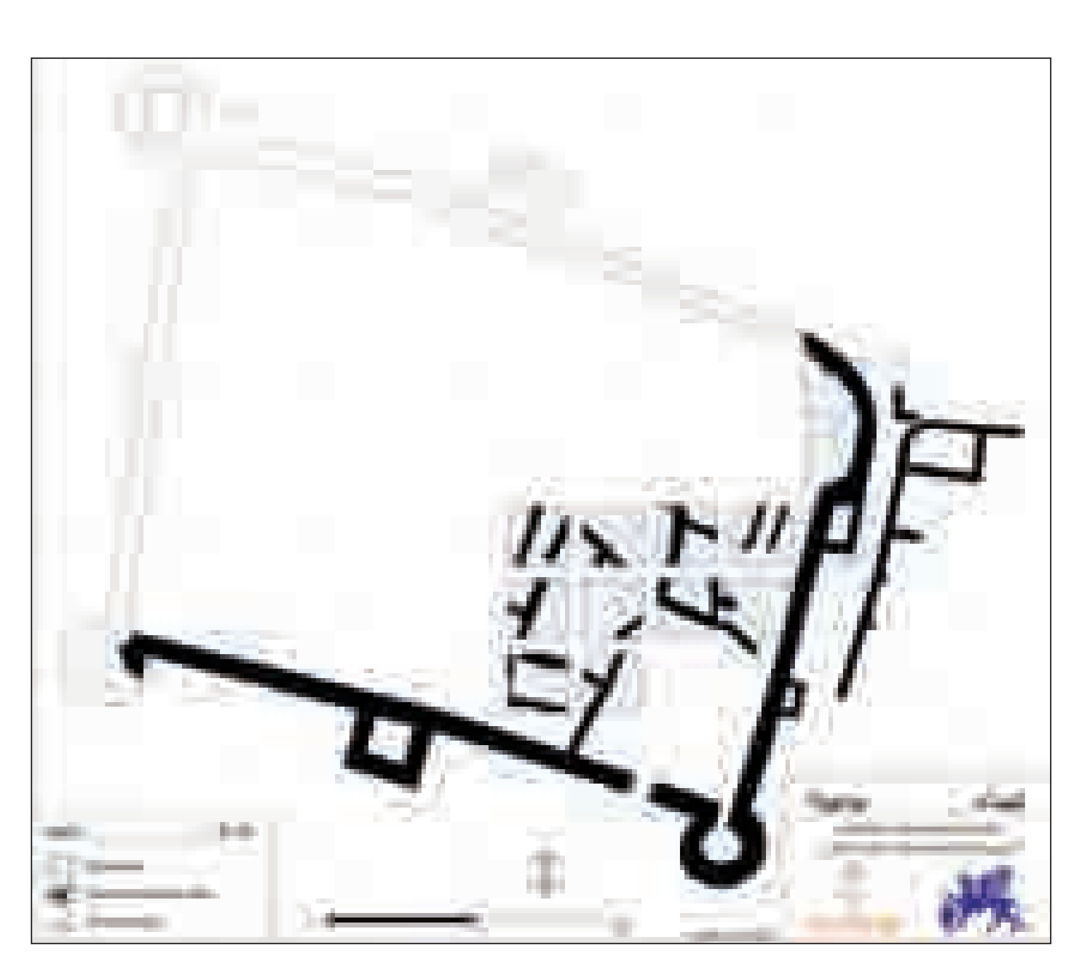
٤٥. تاريخ معياري *Anno Domini* أي بعد الميلاد.
٤٦. النجم وMacdonald، ٢٠٠٩.



الصورة ١٤. مخطط قصر الرضم

أو في القرن التاسع الميلادي أو بعده مباشرة. وإلى هذه الحقبة يرقى أيضا مجمّع واسع النطاق مؤلف من أفنية وصفوف من الغرف، تذكّر أحجامها بالمباني الرسمية. وقد شُيّد هذا المجمّع على الرقعة الضيقة الواقعة بين الوادي في القرية والجزء الكائن إلى الشمال من امتداد السور الخارجي. ولم تـعرف حتى الآن وظيفة هذا المجمّع بمزيد من الدقة. ويذكّر تصميم هذه المباني التي يتقدمها فناء وترقى إلى بداية العصر الإسلامي، ببعض المباني التي اكتـُشفت في تل مبيات Mabiyat جنوب العلا. وإلى الشمال من قصر ؟؟، يتّسِم مجمّع البوجيدي من جهة أخرى بطابع تحصيني (الصورة ١٥). ويتضح من الملاحظات الأولية أن الخزف الذي عـثر عليه فيه يقدم مقارنات مع الخزف الأيوبي أو الفاطمي.

لا يتيح وضع المعلومات الراهن تحديد التاريخ الذي تم فيه التخلي عن السكن في القرية لدى بداية العصر الإسلامي. وتفيد نقوش عربية، أن أضرارا كبيرة لحقت بالمباني القديمة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. والعثور على هذه النقوش في أنقاض معبد القرية القديم، يشير على ما يبدو إلى تدمير المنشآت القديمة لاستخراج معدات البناء منها. ومن الممكن الإفترض أن الموقع انتقل إذّاك إلى المنطقة الحالية للمدينة القديمة، قرب بستان النخيل، وفَقَدَ فيه من جديد عظمته وأهميته. وبالتالي، يرقى مجمّع قصر ابن رمان؟؟ الواقع شرق بير هداج، إلى القرون الوسطى الإسلامية على أبعد تقدير. وفي هذا المجمّع أقام حاكمُ تيماء، قبل أن يوحد المملكة العربية السعودية العاهل عبد العزيز آل السعود (المعروف أيضا باسم ابن سعود). والآثار القديمة لتيماء التي واجهت في أيام امرؤالقيس الظروف المناخية القاسية، قد غطاها الرملُ وأهملت فترة طويلة. وتشهد الأسوار الضخمة على الأهمية القديمة لواحة تيماء التي اختفت منذ آلاف السنين.



الصورة ١٥. مخطط مجمّع البوجيدي المحصّن.

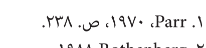
آفاق

تـُثبت المعطيات البيئية والأثرية والنقشية أن واحة تيماء كانت من جهة راسخة الجذور على المستوى المحلي والإقليمي، فيما كانت تشكل من جهة أخرى مكوّناً كاملاً لشبكة العلاقات الدولية والثقافية والاقتصادية للشرق الأدنى. والفكرة التي سادت حتى الآن، وهي أن الواحة لا تشكل سوى موقع هامشي، لم يعد لها أيُ أساس. وعلى رغم الأهمية القصوى التي تمثلها مصادر الألف الأول قبل الميلاد، تثبت البحوث الحديثة، بالإضافة إلى توسيع آفاقنا الأثرية، أن السكن في هذه المنطقة، إبتداءً من الألف الثالث قبل الميلاد على الأرجح، يلقي أضواء جديدة على أهمية هذه الواحة في السياقات الأساسية لحضارة شبه الجزيرة العربية[٤٧].

٤٧. أنظر Robin، ٢٠٠٨، ص. ٢٤٤ : "من تيماء انتقلت الأبجدية في الحجاز (دادان) وفي اليمن (سبأ)، وبطريقة هامشية في بلاد ما بين النهرين السفلى وشرق الجزيرة العربية...".

الخزف في بداية العصر الحديدي

في تيماء، إنّ الخزف الملوّن الآتي من فترات ترقى إلى العصر الحديدي القديم (القرن الثاني عشر- القرن التاسع قبل الميلاد)، يتميَّز بصور طيور وتزاويق هندسية. وقد عـثُر على الجزء الأكبر منه، في مبنى عمومي (الورشة O)، مع كمية كبيرة من الأقداح الصغيرة المصنوعة من مادة حمراء. وأُنتِجَت من هذا الخزف كمياتٌ كبيرة بواسطة دولاب الخزّاف ولم يـُلوَّن القسمُ الأكبر منها. وتتيح عمليات التأريخ عبر تقنية الكربون ١٤، تحديد فترتها الزمنية تحديداً دقيقاً. وتألف شكلُها المهيمن من قِصَعٍ واسعة متقنةِ الصنع من صلصالٍ متوسط النعومة، أزيلت بمهارةٍ شوائبُه (د.المعرض رقم ٨٢). وثبت أيضا وجودُ أشكال أخرى منفردة (قدح على شكل كأس). وقد زيـِّن مظهرُها المغطى بدهان الفخار الواضح، بزخرفة ملونة ببضعة ألوان (البني والأسود والأحمر)، على جوانبها الداخلية والخارجية. وتـُعرف تزاويق هذه الزينة باسم «خزف قريّة الملوّن» الذي تحقق منه وحدده بي. جي. بار (P. J. Parr)[١] في واحة القريّة (الواقعة شمال غرب تبوك). ويتميز هذا الخزف، من بين ميزات أخرى غير حصرية، بتزاويق زخرفية مؤلفة من شريط عريض أحمر دائري يلتف حول الإناء، المحاط هو ذاته بأشرطة سوداء ضيقة. وفوق هذا التزويق، توجد مواضع من الأشرطة العمودية المتجاورة. وثبت وجود «خزف قريّة الملوّن» في موقع تيمناء[٢]، لكنه انتشر لاحقا في فلسطين وحتى في الأردن. وهو يرقى إلى نهاية العصر البرونزي الحديث (القرن الثالث عشر- القرن الثاني عشر قبل الميلاد)، لكنه يتوافر أيضا في طبقات أحدث من بعض المواقع. وكان يـسمى «الخزف المِدْيَنِي». وفي شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ثبت وجوده في جنوب القريّة، بمنطقة البدع وفي العلا / تل الخطيب وفي تيماء[٣].

والسمات المشتركة التي تقرّب خزف تيماء المزيّن برسوم طيور وخزف القريّة من جهة، والفروقات الشكلية أيضا والزخرفة المرسومة وتحديد التواريخ من جهة أخرى، تحمل على الإعتقاد أنه قد يكون استمراراً محلياً لتقليد «خزف قريّة الملوّن». وعُثر أيضا في تيماء على شقف تنتمي إلى القريّة. وينسحب الأمر أيضا على خزف العلا / تل الخطيب الملوّن في شـمال الخريبة / دادان، حيث عـُثر على بعض الـشقف من خـزف «القريّة الملوّن»[٤]. 

A. H.

١. Parr، ١٩٧٠، ص. ٢٣٨.
٢. Rothenberg ١٩٨٨.
٣. أنظر في هذا الكتاب، مقالة Hausleiter، ص. ٢١٩.
٤. الظهراني، ٢٠٠٧، ص. ١٨٤، رقم ٧٧-٧٩، ص. ١٨٦، رقم ٨٢.



٨١. قصعة
النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد
خزف ملوّن
ارتفاع: ٦،٦ سم؛ قطر: ٢٠ سم
تيماء، الصنايع
الرياض، المتحف الوطني، ٩٨١



٨٢- قصعة كبيرة بزخرفة ملونة
القرن الثاني عشر- القرن التاسع قبل الميلاد (العصر الحديدي القديم)
فخار
ارتفاع: ١١،٥ سم؛ قطر: ١٤ سم
تيماء، أعمال تنقيب المانية- سعودية، الورشة O
متحف تيماء، أعمال تنقيب المانية- سعودية، TA ٤٣٠٠

فهرس: Hausleiter، ٢٠٠٦، ص. ١٦٢ وصورة. ٤؛ DAI، ٢٠٠٧، ص. ٣١٢ وصورة. ١٠، ص. ٣١٣.

قصعة كبيرة من الخزف بزخرفة ثنائية اللون مدهونة على الوجهين. وينقص كِسر كثيرة من المرشف؛ وهذا الإناء غير مكتمل. والمرشف مزيّن بشريط أحمر وبعارضات مشكّلة من خطوط حمراء وسوداء على خلفية قِشدية (لون أبيض مائل إلى صفرة). وقد أحاط بالعارضات من الجانبين، خطان أسودان، متوازيان وأفقيان، يفصل بينهما خطٌ أحمر. وطُليت مجموعة ثانية من ثلاثة خطوط مشابهة، اثنين منهما أسودان وواحد أحمر، في أسفل كل جهة، على طرفي الجزء المركزي. وفي خارج القصعة، تقسم مجموعاتٌ من الخطوط الأفقية السوداء والحمراء، المنطقةَ المحددة بسلسلة من المربعات المتماثلة تقريبا، والمملوءة جميعا بخطوط منحرفة سوداء وحمراء. أما في داخل القصعة، فتقسم فضاءَها إلى ثماني خانات، مجموعاتٌ مماثلة من الخطوط الأفقية. وأصغر الخانات الأربع ممتلئة تماماً بعارضات سوداء وحمراء، فيما يشغل كلَ واحدة من الخانات الكبيرة، طيرٌ واحد يميل ناحية اليمين. والطيور مؤسلبة؛ فأجسامها التي تتخذ شكل قطرة، مملوءة بالدهان الأحمر، أما أعناقها الطويلة ورؤوسها المستديرة وأجنحتها وقوائمها المقوّسة، فقد أظهرها بعضُ اللمسات السوداء. وتتشكل التفاصيلُ، كالمناقير والعيون وزخرفة الأجنحة، من نقاط ولمسات حمراء. وتتألف أذيالُ الطيور من مجموعة من الخطوط السوداء والحمراء. A. I.



الخزف في نهاية العصر الحديدي

عـُثر في تيماء على مجموعة أخرى من الخزف الملوّن، ترقى إلى فترة أحدث، لكنها تتميز عن الخزف في العصر الحديدي القديم، إما بالصلصال المستخدم وإما بتقنية الصنع والأشكال والتزاويق. وهي تشكـّل مجموعة أوسع، تتألف من أطباق مخروطية الشكل، مختلفة الأحجام، ومن أقداح واسعة الفتحات، وأقداح على شكل طاسة، يـُشار إليها بعبارة «مجامر»، وأباريق ذات عروة، إلخ. وفضلاً عن صلصال متوسط النعومة وجيد الشَيّ، تتميز هذه المجموعة بصناعة سريعة العطب، وبلونها الأبيض المائل إلى الأبيض الوردي على الشقوق، والمشوية على درجة حرارة متدنية. ودُهنَ القسم الأكبر من الزخرفة باللون الأسمر الداكن (وبالأحمر أيضا في بعض الأحيان)، ويشهد على مجموعة واسعة من التزاويق الهندسية، البسيطة منها والمعقدة، وأحيانا على تزاويق نباتية، ونادراً جداً على تزاويق حيوانية، أُنجزت على دهان واضح يختلف لونه من الأبيض إلى الأسمر البرتقالي. وبسبب مكان العثور عليها في تيماء، اعتـُمدت حديثا تسمية خزف الصنائع[١]، على رغم أن هذه الآنية تمثل عنصرا من «خزف تيماء الملوّن» كما حدده في الثمانينات سي. إيدنز (C. Edens) وجي. باودين (G. Bawden.) ويـُعتبر تحديد تاريخها، أقل دقة من تاريخ خزف تيماء الذي يـُعد تنوعا محليا لخزف القريّة. وإن معطياتُ طريقة الكربون ١٤ المتأتية من مقبرة طلأ جنوب تيماء، حيث عـُثر على كميات كبيرة من هذا الخزف، تشير إلى حقبة يمكن أن تمتد بين القرن التاسع والقرن الخامس قبل الميلاد. لكن الرواسب العضوية التي أخضعت للتحليل، لا تتأتى من إطار أولي لمدافن منهوبة. إلا أن هذه المعطيات يمكن أن تفسر وجود بعض التزاويق عن التنوّع المحلي لخزف القريّة في خزف الصنائع، ومثال ذلك، مجموعة الأشرطة المتقاطعة على الجانب الخارجي للأقداح الكبيرة (د. المعرض رقم ٨٤). وعـُثر أيضا على كِسرة تحمل هذا النوع نفسه من الزخرفة، في مدافن رجوم صعصع جنوب غرب تيماء[٢].

وبذلك يبدو أن مسألة احتمال توقف السكن البشري في تيماء، كما عرضها بي.جي. بار (P. J. Parr)[٣]، بين العصر البرونزي الحديث والعصر الحديدي القديم من جهة، وبين نهاية العصر الحديدي، بالإستناد إلى تأريخ الخزف من جهة ثانية، قد وجدت حلاً من وجهة نظر جي. باودن وسي. إيدنز[٤]. وتؤكد وجهة النظر هذه على فكرة الإستمرارية بما في ذلك على صعيد الثقافة المادية. وقد جاء القسم الأكبر من خزف الصنايع من المدافن، وثبت أيضا وجودُه في طبقات الردم العميقة في وسط موقع تيماء (القريّة). لكن لم يـُعثر فيها حتى الآن على أي أثر لمدفن: فهي بالتالي ردميات ثانوية لم يُعرف سبب وجودها حتى الآن. A. H.

١- الهاشم، ٢٠٠٧.

٢. الهاجري، وal.، ٢٠٠٢، لوحة. ٣-B١٤.

٣. Parr، ١٩٨٨.

٤. Bawden وEdens، ١٩٨٨.

٨٣. قصعة كبيرة مدهونة الزخرفة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ٢٢ سم؛ أقصى القطر: ٣٤ سم
تيماء، الصنائع، المدفن رقم ٤
الرياض، المتحف الوطني، ١٥١

فهرس: أبو دوروك، ١٩٨٩، ص. ١٦ ولوحة a٦ وa١٠ ؛ هاشم، ٢٠٠٧، ص. ١٥٤ وصورة. ٣٧T٥، ص. ١٥٩.

قصعة كبيرة من الخزف عـُثر عليها في زاوية من المدفن رقم ٤ بالصنائع. وانّ هذا الإناء الكبير المخروطي الشكل ذو القاعدة المسطحة، يُعتبر استثنائيا بقياساته. ويمثل هذا الإناء المصنوع من مادة بيضاء محرشفة، جوانب رقيقة إلى حد ما. ويحمل خارجُ القصعة زخرفة غنية مرسومة مؤلفة من تزاويق هندسية، مرتبة في خمس عشرة طبقة أفقية على خلفية بيضاء. وقد زُيـّن المرشفُ بشريط ملوّن. A. I.



٨٤. قصعة عميقة بزخرفة ملونة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ١٣،٥ سم؛ قطر: ١٨ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٣٠

فهرس: هاشم، ٢٠٠٧، ص. ١٥٤، وصورة. T5 ،٣١، ص. ١٥٦.

إن هذه القصعة العميقة، الأسطوانية الشكل تقريبا، من الخزف الملوّن، قد صُنعت من مادة بناء خشنة ومغطاة بأخاديد ناجمة عن الدوران. وفي خارج القصعة، وُضع شريط من الزخارف على شكل X المرسومة بلامبالاة، بين خطين متوازيين أفقيين، وجميعها على خلفية داكنة برتقالية اللون. أما داخلها فمزين بأربعة مثلثات مصنوعة من خطوط متوازية، على خلفية بيضاء أيضا، ومرتبة بالضبط تحت المرشف الملون للإناء. وتمثل هذه القصعة شكلا شبيها بشكل التحفة رقم ٨٦.

A. I.و A. H.



٨٥. كأس صغير بزخرفة ملونة («مجمرة»)
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ٨ سم؛ قطر: ١١ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٠١

إن هذه الكأس الخزفية الصغيرة أو المجمرة، مصنوعة من صلصال متوسط النعومة ويميل إلى الخشونة، ويستند بطنُها المخروطي الشكل، على قاعدة حلقية الشكل ومسطحة وعريضة إلى حد ما. وثُبتت عروة صغيرة قرب الحافة. وتتكوّن الزخرفة الملوّنة خارج الكأس من إفريز من الرسوم الهندسية التي يعلوها خطٌ متموّج يمر بين خطين أفقيين. ولُوِّنَ المرشفُ أيضا. إن شكل هذا الإناء، قريب جدا من شكل الإناء الخزفي في تيماء، رقم ٨٧.

A. I.و A. H.



٨٦. قصعة عميقة بزخرفة ملونة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ٥،٥ سم؛ قطر: ٧ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٠٩

فهرس: هاشم، ٢٠٠٧، ص. ١٤٩، وصورة. T5 ،٢٩، ص. ١٥٥.

قصعة اسطوانية الشكل عميقة من صلصال متوسط النعومة إلى خشونة. وعلى خلفية بيضاء من خارج الإناء، لوِّنت عارضات موضوعة بين خطين أفقيين متوازيين. وزُيِّن المرشفُ بشريط متصل. يشبه شكلُ هذا الإناء شكلَ التحفة رقم ٨٤.

A. I.



٨٧. كأس صغيرة بزخرفة ملونة («مجمرة»)
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ٨ سم؛ قطر: ٩ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٠٣

كأس خزفية صغيرة («مجمرة») بزخرفة ملوّنة. إن هذا الإناء المخروطي المصنوع من صلصال متوسط النعومة، يمثل شكلاً شبيهاً بشكل التحفة رقم ٨٥، وخصوصا عبر القاعدة المسطحة والعروة الصغيرة القريبة من الحافة. وقد زُيِّن خارجُ الإناء بمجموعة من الخطوط الأفقية على خلفية بيضاء؛ ولُوِّن المرشفُ والعروة أيضا.

A. I.

٨٨. قصعة صغيرة عميقة بزخرفة ملونة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ٦،٥ سم؛ قطر: ٨،٥ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥١١

قصعة عميقة مخروطية الشكل إلى حدٍ ما. صُنع هذا الإناء الرقيق الجوانب من صلصال ناعم إلى متوسط النعومة. ويحمل في خارجِه زخرفة داكنة اللون مغراء (تميل إلى الإحمرار) على خلفية تميل إلى البياض. وفي الجزء السفلي، فوق خط أفقي مزدوج، تظهر فؤوسٌ مزدوجة وأشكال هندسية مظللة، يعلوها خط افقي غير منتظم. ويحمل الجزء العلوي أيضا نماذجَ مظللة وخطوطاً أفقية. والمرشف ملوّن أيضاً.

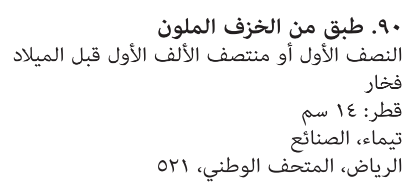
A. I.و A. H.



٨٩. طبق من الخزف الملوّن
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
قطر: ١٩،٥ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٢٤

طبق من الخزف الملوّن، مصنوع من صلصال متوسط الى ناعم، وبزخرفة ملونة. المرشف مزيَّن من الداخل بعارضات متصالبة ملونة بالأحمر الغامق على خلفية بيضاء يحوط بأسفله خطٌ أفقي. وفي القسم الأسفل، تشغل داخلَ الطبق أربعةُ مثلثات مليئة بعارضات ومفصولة بالأذرع الأربع لصليب محفوظ، وتلتقي بالشريط الملون الذي يزين مرشف الطبق. A. I.





٩٠. طبق من الخزف الملون
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
قطر: ١٤ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٢١

فهرس: هاشم، ٢٠٠٧، ص. ١٦٠، وصورة. T5 ٤٠، ص. ١٦١.

طبق من الخزف محدّب الشكل، بزخرفة ملونة، مصنوع من صلصال متوسط النعومة. في داخله صليب مركزي مدهون بلون داكن على خلفية بيضاء ومليء بتزاويق هندسية. ويقسم هذا الصليبُ الطبقَ إلى أربعة قطاعات. يحوط بكل قطاع إطارٌ آخر تؤلّفه مجموعة من الخطوط المائلة من جهة، ومن خطين متوازيين مليئين بمثلثات، من جهة ثانية. وفي داخل هذا الإطار الثاني، ثمة طير فائق الأسلبة، مختلف جدا عن الطيور المرسومة على أوعية من العصر الحديدي القديم. وصُوِّر الطيرُ واقفا على حافة الطبق، وقد مال برأسه نحو الوسط. وزُيِّن شفة الطبق بشريط ملون، مع صفٍ من الخطوط المائلة الصغيرة جدا الموضوعة بالضبط تحت كل طير. وشكل القصعة شبيه بشكل التحفة رقم ٩١. A. I.

٩١. طبق من الخزف الملوّن
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
قطر: ١٤ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٢١

طبق من الخزف المصنوع من صلصال متوسط النعومة الى ناعم، بزخرفة ملونة. ويقسم داخلَ الطبق إلى أربعة قطاعات، صليبٌ مركزي مدهون بلون داكن على خلفية بيضاء ومليء بتزاويق هندسية. ويزيِّن شريطٌ ملوّن شفة الطبق؛ وثمة أربعة مثلثات صغيرة متجهة نحو مركز الطبق، ملونة بالضبط تحت الشفة، في وسط كل قطاع. ويشبه شكلُ الطبق شكلَ التحفة رقم ٩٠. A. I.

الخزف بالمواد اللصيقة

إن بعضُ الآنية الخزفية، اللماعة الصفحة، المصنوعة من صلصال أمغر متوسط النعومة يميل إلى الخشونة، غالباً ما يشكّل زخرفة ملصقة مؤلفة من مادة كلسية بيضاء. وقد تمت قولبةُ هذه المادة في خطوط، تكون أفقية غالباً أو متموجة، محفورة منذ البداية على وجه الخزف. وعلى هذه الزخرفة المسماة «اللصيقة»، ثمة دوائر صغيرة ذات قطر يبلغ ١ إلى ٢ ملم، دُمغت في وقت لاحق، على مسافات منتظمة إلى حد ما. وفي بعض الحالات، تتخذ الأطراف الأكثر سماكة لهذه الخطوط، شكلَ رؤوس افاعٍ. وتتألف أشكالُ الآنية الخزفية المصنوعة من مواد لاصقة من أشكال مقفلة، كالقنينة أو الوعاء الصغير. وعلى غرار خزف الصنايع، عُثر على الخزف اللصيق في مدافن الصنائع وطلاً، ويُعتبر تأريخها في الفترة بين النصف الأول ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد، أمرا ممكنا. وعُثُر أيضا على شقف معزولة في مدافن رجوم صعصع[1]. A. H.

١- التيما- تي، ٢٠٠٤، ص. ١٣١، Nr. ٣.

الخزف غير المزخرف

لا بد من الإشارة إلى أن أهل الإختصاص قد دأبوا على إهمال الخزف غير الملوّن لمصلحة الخزف الملوّن في تيماء. إلا أن أواني من الخزف غير الملوّن قد ثبت وجودها في كل الحقب، سواء في بداية العصر الحديدي أو في نهايته. وبعد اختفاء خزف الصنائع، أي على الأرجح بعد منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تلاشى تقليدُ الخزف الملوّن. أما الخزف المخصص للإستعمال اليومي، من نهاية الألف الأول قبل الميلاد وحتى الحقبة ما قبل الإسلامية، فلم يعد يقدم سوى معالجات سطحية خالية من الزخرفة الملونة. ولم تعد الزخرفة تتألف الا من عدد محدود من النماذج المحفورة. وقد أعاد وينيت (Winnett) وريد (Reed)[1] في كتابهما نشر صور بعض هذه الشقف النموذجية الخشنة الصنع والمنتقاة من الرواسب المعدنية، والتي كانا يطلقان عليها تعبير (Granite Ware). A. H.

١. Winnett و Reed، ١٩٧٠، ص. ١٧٥-١٧٦، صورة. ٨٥.




٩٢. جرة صغيرة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ١٩،٥ سم؛ أقصى القطر: ١١،٥ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٣٣

جرة صغيرة من الخزف ذات بطن كروي وعنق واسع مصنوع من صلصال أمغر متوسط النعومة يميل إلى الخشونة. إن هذا الإناء المصقول الوجه، قد زُخرف بمادة بيضاء ترسم بضعة أشرطة متموجة على بطنه. وفي أعلى البطن المستدير، ان ثلاثة أشرطة أفقية متوازية موضوعة في أسفل العنق، تعلو ثلاثةَ أشرطة متموجة. وطُبعت على الخطوط البيضاء دوائرُ صغيرة. A. I.



٩٣. جرة صغيرة
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
فخار
ارتفاع: ١١ سم؛ قطر: ٧ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٥٤٤

فهرس: هاشم، ٢٠٠٧، ص. ١٤٩، وصورة. T5 ٢٦، ص. ١٥٢.

جرة صغيرة كروية البطن، ومسطحة القاعدة وقصيرة الرقبة، ومصنوعة من مادة خشنة. وقد صُقل وجهها الخارجي، لكن هذا الوعاء لا يحمل أي زخرفة. A. I.

الخزف اللامع الوجه

أسفرت حفريات جديدة أجريت في تيماء، عن ظهور أوانٍ مقفلة، من مختلف ظروف نهاية العصر الحديدي. وقد صنعت تلكَ الأواني من صلصال أحمر اللون، متوسط النعومة ويميل إلى الخشونة، والمنقّى من الرواسب المعدنية، والمشوية على درجة حرارة متدنية. إلا أن توزعها ما زال لا يتيح تأريخها بدقة. فالقنينتان المعروضتان هنا (د. المعرض رقم ٩٤ و٩٥) ليس لهما ناحية مشتركة مع هذه الاواني الا طريقة معالجة الجانب الخارجي. أما شكل الأولى، فقد سبق أن أدرجه س. رشيد[1]، بطريقة صائبة، في سياق التقليد الخزفي لبلدان المشرق في العصر الحديدي، ثم أقام أيضا مقارنات مع بلاد ما بين النهرين. ولا يُعرف مكان العثور على هاتين القنينتين في تيماء، بحيث لا يمكن طرحُ تأريخ تقريبي يرقى إلى القرن السابع قبل الميلاد، إلا على سبيل المقارنة. وقد تكون هذه القناني قطعاً مستوردة. A. H.

١. رشيد، ١٩٧٤.

٩٤. جرة مدهونة بطلاء أحمر
القرن السابع قبل الميلاد تقريباً
فخار
ارتفاع: ٣٤،٥ سم؛ أقصى القطر: ١٦،٥ سم
تيماء
الرياض، المتحف الوطني، ٢١٣٨٦

فهرس: رشيد، ١٩٧٤، ص. ١٦٠-١٦٢ ولوحة. ٣. ١٩.

جرة خزفية بيضوية البطن، ذات عنق طويل وإسطواني. وقد أعيد دهنُ هذا الإناء بطلاء أحمر. A. I.




٩٥. جرة مدهونة بطلاء أحمر
القرن السابع قبل الميلاد تقريباً.
فخار
ارتفاع: ٢٦،٥ سم؛ أقصى القطر: ١٥ سم
تيماء
الرياض، المتحف الوطني، ٤٧٩١

جرة خزفية مستديرة البطن وطويلة العنق. A. I.



٩٦. أساور من محار
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
محار
قطر: بين ٦ و٩ سم
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ٢١٣٨٦

فهرس: أبو دوروك، ١٩٩٦، ص. ٢١ ولوحة. a١ وa١٢.

أسفرت الحملة الثالثة للحفريات في الصنائع، عن العثور بالإجمال على ثماني أساور متشابهة من المحار. وقد صُنع كلُّ سوار بقصّ محارة كبيرة بالعرض. ثم سُحبت أحشاء المحارة، أما أطرافُها المقطعة فصُقلت بعناية. A. I.



٩٧. عقد- سوار ١
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
محار، مادة شبه زجاجية و/أو حجر
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ١٤٧٢

عقد صغير أو سوار مؤلف من لآلئ ومحار مثقوبة. وأكبر العناصر في هذه التشكيلة، هي أربع محارات من أنواع وأحجام مختلفة، ثُقبت من أجل إدخالها في سلك. وتتألف بقيةُ العقد- السوار من لآلئ صغيرة تتخذ شكل أسطوانة مستطيلة وأقراص مستديرة ومسطحة. وقد صُنعت اللآلئ الأسطوانية، ذات اللون المائل إلى الخضرة، من مادة شبيهة بالزجاج أو من الحجر، أما العناصر المستديرة المائلة إلى اللون الأحمر فهي من المحار. A. I.



٩٨. عقد- سوار ٢
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
محار وعرق اللؤلؤ
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ١٥١٤

فهرس: أبو دوروك، ١٩٩٦، ص. ٢١ ولوحة. a١ وb١٢.

عشرة مناجد (ج مِنجَد، حلي مكلل بالفصوص، يُلبس في العنق) بأشكال وأحجام مختلفة، مصنوعة من مواد متنوعة، عثُر عليها خلال الحملة الثالثة للحفريات في الصنائع. وأكبر منجدين مصنوعين من عرق اللؤلؤ، رقيقان جدا لكن شكليهما مختلفان. فأحدُهما بيضوي الشكل مسطح ومستطيل، وقليل التقوّس، وجُعل في أحد طرفيه ثقب للتعليق. والمِنجَد الآخر من عرق اللؤلؤ، مسطح أيضا، لكن شكله أكثر تعقيدا. فهو يتألف من نصف دائرة بطرفين ناتئين، بقي أحدُهما مكسوراً، وهو القريب من القاعدة، والأطول في الأصل. وقد ثُقب ثقبان للتعليق قرب الطرف المستدير للمنجد. وخمسة من المناجد الثمانية المصنوعة من المحار، مستطيلة الشكل؛ وأحدها أقصر وزُوِّد أحد طرفيه بثقب للتعليق. والنموذج الآخر هو أسطوانة قليلة التناسق ومقوسة تقوساً طفيفاً، ومزودة بثقب للتعليق في أحد طرفيها. والمنجد المصنوع من المحار، بيضوي الشكل، صغير، مع مستطيل معلَّق بثقب عروة، وآخر على شكل ثمانية (بالأجنبية)، مع ثقب مركزي للتعليق عند نقطة التقاء الدائرتين الصغيرتين المتجاورتين اللتين تشكلان التحفة. A. I.



٩٩. عقد- سوار ٣
النصف الأول أو منتصف الألف الأول قبل الميلاد
محار، عقيق أحمر، ومادة شبيهة بالزجاج أوحجر
تيماء، الصنائع
الرياض، المتحف الوطني، ١٥٠٨

فهرس: أبو دوروك، ١٩٩٦، ص. ٢١ ولوحة. a١ و b١٣.

عقد صغير أو سوار مؤلف من لآلئ منتظمة ومن مواد مختلفة ومن محارة واحدة مثقوبة. وأكبر اللآلئ الست هي أقراص مسطحة مزودة بثقب مركزي للتعليق، أمكن حفره من خلال كسر طرف محارة كبيرة مخروطية الشكل. ولا يزال الشكل الداخلي الأصلي للمحارة ظاهرا بصورة جزئية على أحد الجوانب. وثمة لؤلؤتان أخريان، إحداهما كروية والثانية مخروطية ثنائية، هما من العقيق الأحمر، واثنتان أخريان أيضا هما من مادة شبيهة بالزجاج تميل إلى اللون الأخضر أو من الحجر وبشكل غير متناسق إلى حدٍ ما. وفي وسط العقد، زُودت محارة كبيرة إلى حد ما، بثقب للتعليق مجعول على أحد الجانبين، قرب أحد الطرفين. A. I.

الحـجـر



١٠٠. نصب مقوّس لنبونيد، ملك بابل
منتصف القرن الرابع قبل الميلاد (عهد نبونيد ملك بابل)
حجر رملي
٥١ x ٥٩ x ١٠-١٢ سم
تيماء، بعثة أثرية المانية- سعودية، ورشة E
أنقاض شرق المعبد E-b١
متحف تيماء، بعثة أثرية المانية- سعودية، TA ٤٨٨

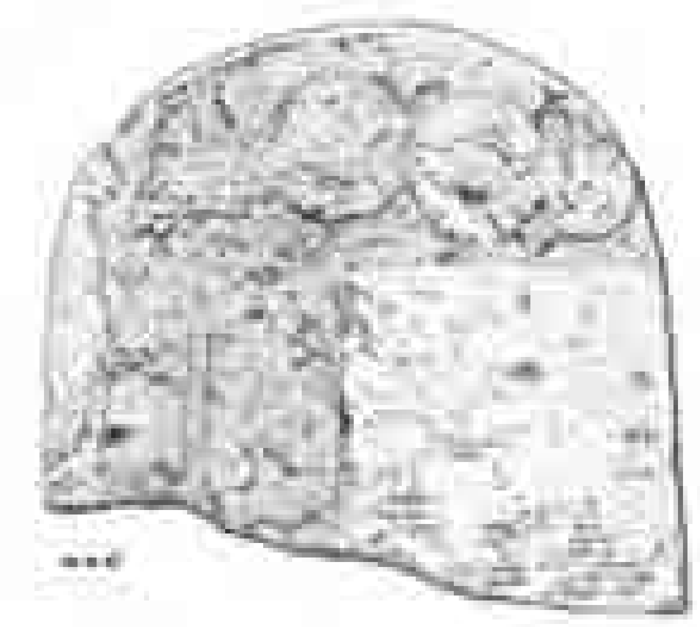
فهرس: التيما- ئي، ٢٠٠٦، ص. ٨٧؛ Eichmann-Schaudig-Hausleiter، ٢٠٠٦؛ Hausleiter، ٢٠٠٨ b-a.

الجزء العلوي وحده من هذا النصب المقوّس قد حـُفظ؛ وكان يـُفترض أن يبلغ طوله ١،٤٠ متر، ويُثبـّت لسانُ تعشيق ركيزتـه على قاعدة. ويمثل الوجه الأمامي شخصيةً ملكية تنظر إلى رموز للآلهة، ونصاً مكتوبا بأحرف مسمارية كانت تغطي بالتأكيد الوجه بكامله. يشغل النص لوحاً يبرز بشكل ناتئ طفيف ويتواصل تحت الشكل المنحوت، وهذا أمر غير مألوف لهذا النوع من النصب.

يتجه الملك نحو اليمين، ويواجه رموزاً إلهية، حسب نمط معتمد لتصوير الملوك في الحقبة الأشورية. وهو يرتدي ثوباً طويلاً وتاجاً. ويمكن رؤية منبت الشَّعر واللحية فقط. وقد تلف القسمُ الأكبر من الصولجان الذي يمسكه بيده. والرموز الكوكبية للقمر (قرص وهلال)، والشمس (الشمس المجنحة) والنجم، تمثل آلهة ما بين النهرين (البابلية)، سين (إله القمر) وشمش (إله الشمس) وعشتار (إلهة الحب والحرب). وقد كـُتب النصّ بحروف مسمارية مألوفة من العصر البابلي الجديد. وهو تكريس بابلي نموذجي يصف، من بين ما يصف، زخرفة معابد بمواد ثمينة، كمجمرة مصنوعة من الذهب. وتعيدنا الآلهة المذكورة إلى بابل حيث «مقعد مردوك وزربانيتو» في معبد إيساغيل.

ووردت أيضا أسماء الآلهة نابو وتاشميتو ونانايا. ويعتبر هذا النص حتى الآن قطعة فريدة، لكنه يمثل تشابهات أسلوبية مع نص نصب نبونيد المسمى نص بابل (لندن، المتحف البريطاني).

وعلى رغم أن اسم الملك غير محفوظ، يتيح شكل هذا النصب ونصه، أن نعزو التحريض على إقامته إلى ملك بابل، نبونيد (٥٥٦-٥٣٩ قبل الميلاد). فقد أقام مقر إقامته في تيماء طوال عشر سنوات من حكمه، في إطار من النزاعات السياسية- الدينية مع كهنة مردوك. وتسببت في تلك النزاعات، رغبتـُه في الإستفادة من تجارة القوافل في الجزيرة العربية. وبالتالي، يتيح هذا الإسناد إعادة تكوين تتمة النص الذي يسرد على ما يبدو، مشاريع الملك في بابل وفي سوريا- قيليقيا وفي شمال شبه الجزيرة العربية وتيماء، وكذلك في معبد أهولهول في حران.



ولدى العثور عليه في ٢٠٠٤، شكّل هذا النص أول نص بالأحرف المسمارية البابلية يـُعثر عليه في تيماء. ومنذ ذلك الحين، عـُثر على أربع قطع أخرى من النص بالأحرف المسمارية على دعائم أخرى (د. المعرض رقم ١٠١). وظهرت تسمية «نبونيد، ملك بابل» أيضا في بعض النقوش الصخرية التيمائية/الثمودية في ضواحي تيماء.

وما عدا تعريف الملك البابلي بنفسه، تشهد هذه النقوش على قبول حضوره في اللغة المحلية، وبذلك تجعل التمايزات الإجتماعية أمرا ملموسا. وكان هذا النصب موجوداً في السابق على الأرجح في وسط مدينة تيماء، بمبنى سابق للمعبد الذي يرقى إلى العصر الحديدي الحديث (القرن الرابع- القرن الثاني قبل الميلاد). والأثر المعروض هنا (د. المعرض رقم ١٠١) قد يكون قطعة من قاعدة النصب.

H. S.و A. H.



١٠١. أثر على شكل قرص يحمل نقشا للملك نبونيد
منتصف القرن الرابع قبل الميلاد (عهد نبونيد، ملك بابل)
صلصال رملي
٤٠ x ١٦ x ٧,٥ سم؛ قطر مرمم: ٨٠ سم تقريباً
تيماء، بعثة أثرية- المانية- سعودية، ورشة E
أنقاض جنوب المعبد E-b١
متحف تيماء، بعثة أثرية المانية- سعودية،
TA ٩٢٠٨ (إلى اليسار) وTA ٣٦٥٦ (إلى اليمين)

فهرس: Schaudig، ٢٠٠١، ص. ٥٣٥ نص ٣,٦ نصب أوروك (مع فهرس).

هاتان القطعتان اللتان تحتويان على بقايا نص مكتوب بالأحرف المسمارية، تنتميان إلى أثر كان في الأصل شبيها بقرص. واستـُخدمت، على الأرجح، مجموعة من الحزوز الصغيرة على الجزء الأعلى، لتثبيتِ تلبيسٍ معدني عليه. وقد كـُتب هذا النص المبتور، بحرف مسماري غير متقعـّر من العهد البابلي الجديد ويعني "صورة/نصب نبونيد، ملك بابل، الملك القدير ...". لذلك يشكل الدليل الأول باللغة المسمارية البابلية على اسم آخر ملك بابلي في تيماء (لتسميات الملك باللغة المحلية، أنظر د. المعرض رقم ١٠٠). ورُسم النص على ما يبدو قبل حفره، كما تشهد على ذلك، آثارُ الرسم على حرف لوغال (الملك). وتوفر هذه التفاصيل عناصر مهمة عن عملية صنع نقش أثري من هذا النوع.

من جهة أخـرى، تفيدنا الإشـارة إلى معـنى "صورة/نصب" عن الوظيفة المحتملة لهذا الأثر. بفضل ثقب محـفور في وسـطه، تمكـّن هذا القرص من تقبـُّل لسان تعشيق نصب الملك (د. المعرض رقم ١٠٠)، ومن أن يكون بذلك قاعدة له. ويعطينا نصبٌ للملك نبونيد، مصدره أوروك/واركا في العراق، لمحة عما يمكن أن يكون نصب محفوظا بالكامل. فقطره الذي يبلغ ٨٠ سنتيمترا، يـُعدّ القرص أوسع بقليل من النصب (حوالى ٦٠ سنتيمترا)، مما يترك من كل ناحية حيـّزا يبلغ ١٠ سنتيمترات. وقد وُضع على الأرجح حجرٌ ملائم الشكل تحت القرص من أجل تأمين تثبيت راسخ للسان تعشيق النصب.

H. S.و A. H.



١٠٢. قاعدة تمثال/مذبح مزيّن بمشاهد شعائرية ("مكعّـب الحمراء")
القرن الخامس- القرن الرابع قبل الميلاد
صلصال رملي
٣٨ x ٣٩ x ٤١ سم
تيماء، قصر الحمراء، القاعة ١
الرياض، المتحف الوطني، ١٠٢١

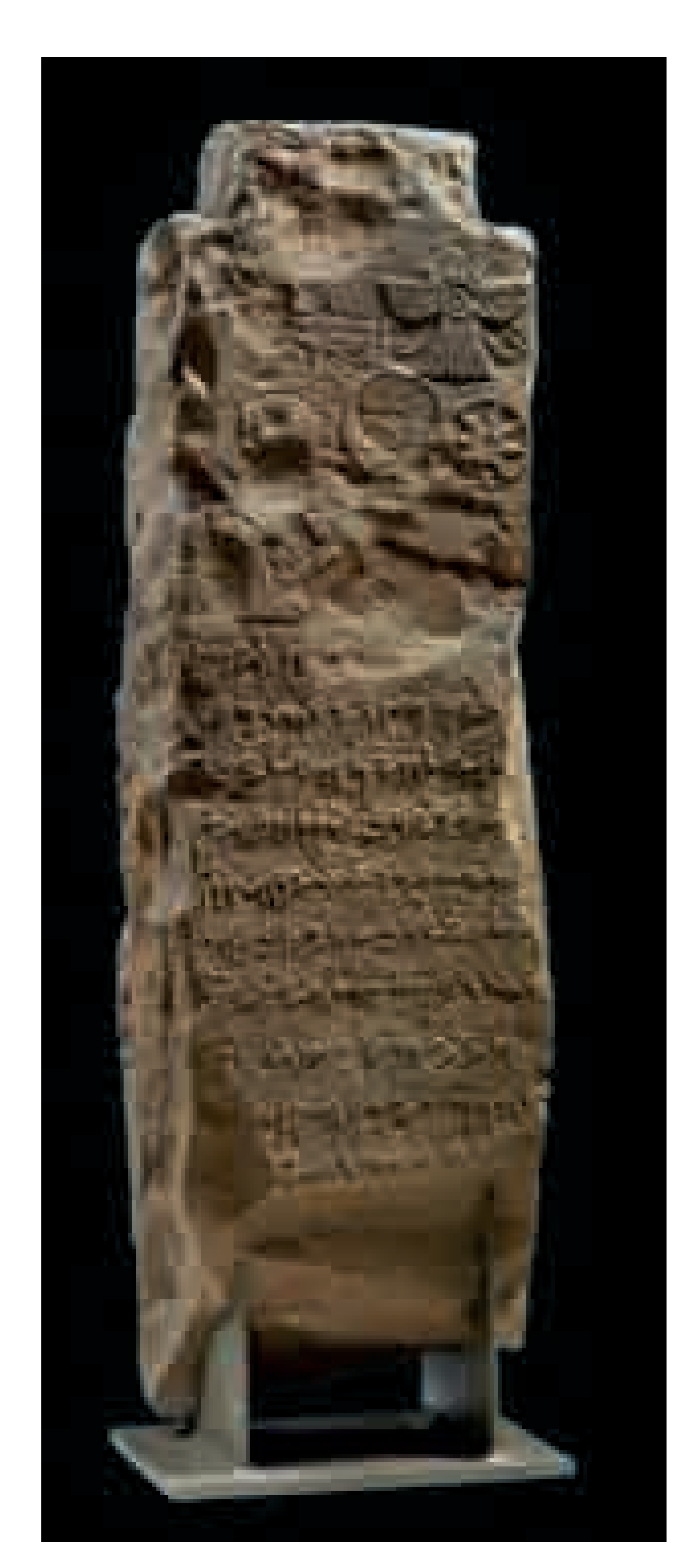
فهرس: Bawden وal.، ١٩٨٠، ص. ٨٣-٨٤؛ أبو دوروك، ١٩٨٦، ص. ٥٧-٦١ ولوحة. ٥٠؛ Dalley، ١٩٨٦، ص. ٨٦-٨٨.

مكعب من الصلصال الرملي زُخرِفَ اثنان متجاوران من جوانبه بمشاهد دينية محفورة حفراً طفيفاً. أعلى الزاوية التي تفصلهما مكسور، لكن الوجوه المنحوتة محفوظة بشكل جيد، على رغم بعض الشوائب الصغيرة. ويشغل وسطَ المشهد إلى جهة اليسار، رأسُ ثور موضوع على مذبح أو منصة مدرَّجة. وقد صُوِّر رأسُ الحيوان من الأمام، مع قرص شمسي بين قَرْنَيْه. يقف كاهن يرتدي جلباباً طويلاً إلى يساره، وتشغل قطعةُ أثاث الجانب الآخر. تملأ ثلاثةُ رموز كوكبية المجالَ المتبقي: قرصٌ شمسي مجنَّح مُتقن، موضوع فوق الكاهن، إلى يسار رأس الثور، فيما حـُفر هلال ونجمة بعشر أذرع إلى يمينه، فوق قطعة الأثاث. وتزيِّن أقراص صغيرة الأطرافَ العليا والجانبية للإطار البارز للمشهد. أما المشهد الثاني، فمؤطـَّر بالطريقة نفسها، لكن الزخرفة بنسق من الزهور والبراعم المؤَسلبة، تزيِّن فقط الطرفَ العلوي وحده. وفي داخل هذا الإطار، يظهر ثور واقف متجه نحو اليسار، قبالة صورة كائن بشري يقدم قرباناً إلى فم الحيوان. وهنا أيضا، وُضع قرص شمسي بين قرنـَي الثور. يعلو قرص كبير مجنـَّح ظهرَ الحيوان، ونـُقشت نجمة بثماني أذرع في الزاوية اليمنى العليا للصورة. ويشغل عقربٌ الزاويةَ العليا اليسرى.

وفـُسـِّر مكعب الحمراء بأنه رمز للاتجاهات التوفيقية بين الأديان في تيماء، على رغم أن استخدام الرموز الأصلية لمختلف نواحي العالم الشرق أوسطي، خلال الألف الأول قبل الميلاد، ليس أمراً نادراً. وعلى جانبي المكعـَّب، تتمحور اللوحة حول الثور المثبت على القرص الشمسي الذي يعيد إلى الذهن الثورَ المصري أبيس. ولا بد من الإشارة إلى وجود رسوم للثور بمعية القرص الشمسي في قصر الحمراء (خلافا لهذه الصور نفسها الخالية من قرص شمسي في معبد القريـَّة). وعلى رغم أن دالي (Dalley)[1] قرن الإله سَ. أَلْم (S. alm) بالقرص (الشمسي) المجنـَّح، تجدر الإشارة إلى تواتر النقوش التي تذكر س. سلم وترافق صور ثور؛ وقد تكون على صلة بـ "جانب" واحد أو أكثر (R/DB, HGM) لهذا الإله[2].

ويشبه تجسيمُ الأطراف غير المنحوتة للمكعـّب أطرافَ صورة إنسان أمام ثور، آتية من معبد E-b١ في وسط تيماء (القريّة)، وقطعةً ناتئة من تيماء تحمل مشهداً أشد تعقيداً، موجودة الآن في متحف اللوفر (د. المعرض رقم ٣١٢)[3].
A. I.و A. H.

١. Dalley (١٩٨٦).
٢. Hausleiter، سيصدر.
٣. أنظر Briquel وChatonnet-Robin، ١٩٩٧.



١٠٣. نصب الحمراء.
القرن الرابع حوالى قبل الميلاد
صلصال رملي
٤٥ x ١٦ x ١٠٢ سم
تيماء، قصر الحمراء، القاعة ١
الرياض، المتحف الوطني، ١٠٢٠

فهرس: Livingstone و al.، ١٩٨٣، ص. ١٠٨-١١١، ١١٣ ولوحة ٩٦؛ Aggoula، ١٩٨٥، ص. ٦٦-٦٨؛ أبو دوروك، ١٩٨٦، ص. ٦١-٦٦ ولوحة ٥٠؛ Cross، ١٩٨٦؛ Beyer وLivingstone، ١٩٨٧، ص. ٢٨٦-٢٨٨؛ Knauf، ١٩٩٠، ص. ٢١٠-٢١١؛ Kottsieper، ٢٠٠١، ص. ١٨٧-١٨٩؛ Schwiderski، ٢٠٠٤، ص. ٤١٢.

نصب مستطيل من الصلصال الرملي فـُقدت قاعدته. وفي قمة النصب، تدعم درجتان جانبيتان، مستطيلاً حجرياً مركزياً ناتئاً. ويحمل أحدُ الجوانب الطويلة نقشا آراميا ناتئاً تعلوه بضعة رموز كوكبية ودينية، بارزة أيضا. وكانت الرموز في الأصل مرتبة على ثلاثة مستويات، إلا أن المستوى الأدنى لحقت به أضرارٌ بالغة، وكذلك الرموز التي تشغل يسار الوجه المزيّن. وفي المقابل، على النصف العلوي الأيمن للوجه، حـُفظت شمس مجنحة متقنة الصنع وعين حورس، حفظاً جيداً، فوق نجمة بثمانية أطراف وهلال. ويقول جي. سبرفسلاج (G. Sperveslage)، إن الطبقة السفلى كانت تحمل ثوراً واقفاً متجهاً نحو اليسار حيث تظهر آثار مجمرة، ويشبه الثيران المرسومة على مكعّب الحمراء (د. المعرض رقم ١٠٢).

وتحت هذه الرموز، حـُفظت عشرة أسطر من نص آرامي، بدا القسم الأكبر منها غير مكتمل. وضاعت نهاية النقش مع قاعدة النصب. وعلى رغم الثغرات والقراءات المتعددة غير الأكيدة، يـُعد النص بالتأكيد نقشاً نذرياً (مختص بالنذر) كـُتب في مناسبة تقديم قرابين وتكريسات قام بها شخص يـُدعى(PSGW SHRW) باسم الإله S. alm (هنا S.LM R/DB)، الإله المحلي الأبرز في تيماء.

وعلى غرار نصب تيماء (متحف اللوفر، AO ١٥٠٥، د. المعرض رقم ٣١١)، ذكـِرَتْ أيضا الإلهتان شنغالا (SNGL) وأسيما (SM') السوريتا الأصل. واسمُ المـُهدي مرتبط بالدائرة الملكية لسلالة لحيان، كما يؤكد ذلك وجودُ لفظة شهرو (SHRW) في اسمه. وورد هذا اللفظ أيضا في اسم ملك على قاعدة معبد E-b١ في القريّة (أنظر ص. ٢٣٤). وحـُفرت إشارات ثمودية في وقت لاحق على أحد أطراف النصب.
A. I.و A. H.



١٠٤. طاولة أو مذبح من حجر
القرن الخامس- القرن الرابع قبل الميلاد
صلصال رملي
٤٠ x ٣٠ x ١٨ سم
تيماء، قصر الحمراء، القاعة ١
متحف تيماء، رقم ١١٥/M/T

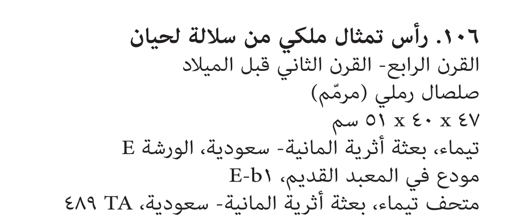
فهرس: أبو دوروك، ١٩٨٦، ص. ٥٦.

طاولة مستطيلة الشكل من الصلصال الرملي الأمغر، على أربع قوائم سميكة. يحمل الجزء العلوي لهذه التحفة على رغم تآكله، آثارا من مستويات مختلفة. والقوائم موصولة بالجوانب الطويلة. ويُحتمل أن تكون هذه التحفة قد استُخدمت، إما طاولة وإما مذبحاً وإما قاعدة، في إطار ديني على الأرجح. A. I و A. H

١٠٥. شاهدة قبر مع رسم تخطيطي لوجه بشري ونقش باللغة الآرامية ("النصب ذو العينين")
القرن الخامس- القرن الرابع قبل الميلاد
صلصال رملي
٢٦ x ١٥ x ٧٢ سم
تيماء، لُقية مُنفردة
متحف تيماء، رقم ١١٩/M/T

فهرس: Livingstone وآل.، ١٩٨٣، ص. ١٠٧ ولوحة. c٩٤؛ Beyer وLivingstone، ١٩٨٧، ص. ٢٨٩؛ Schwiderski، ٢٠٠٤، ص. ٤١٣.

نصب مستطيل مزيّن بوجه مؤسلب ونقش أرامي على أحد الجوانب الطويلة. ورُسمت ملامحُ الوجه داخل لوحة مربعة مجوّفة تعلو النقش. وهو يتألف من أنف بالغ الاسلبة ممثل بمستطيل عامودي، ينطلق منه ملمحان أشد رهافة، مقوسان بشكل طفيف، بمثابة حاجبين. وتحت هذين الملمحين، يمثل العينين شكلان بيضويان؛ وان خطّين محزّزين داخل كُلٍّ من الشكلين البيضويين يفصلان الجفن عن العين. وتحت هذا الوجه البشري المؤسلب، حُفر نقش آرامي من سطرين: "في ذكرى تيم ابن زيد". نعرف عدداً كبيراً من النصب من هذا النوع الآتية من تيماء. وحتى اليوم، عثُر على اثنين فقط اثناء الحفريات الأثرية المنهجية، في مدافن حيث أعيد استخدامها شاهدات قبور. ويمكن تأريخ هذه المدافن من القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد، عندما مارست سلالة لحيان على ما يبدو بعض النفوذ على تيماء. وتشكل هذه النصب المسماة "نصب ذات العيون" حتى اليوم، الدليل الوحيد الجلي على وجود اتصالات ثقافية بين تيماء وشمال غرب الجزيرة العربية وجنوبها حيث تنتشر بكثافة النصب المأتمية من هذا النوع. A. I.و A. H.



١٠٦. رأس تمثال ملكي من سلالة لحيان
القرن الرابع- القرن الثاني قبل الميلاد
صلصال رملي (مرمّم)
٤٧ x ٤٠ x ٥١ سم
تيماء، بعثة أثرية المانية- سعودية، الورشة E
مودع في المعبد القديم، E-b١
متحف تيماء، بعثة أثرية المانية- سعودية، TA ٤٨٩

فهرس: DAI، ٢٠٠٥، ١٤٨، ill. ١٣؛ Hausleiter، ٢٠٠٦، ص. ١٧٩، صورة. ٩؛ Eichmann Hausleiter، النجم والسعيد، قيد الطباعة.

رأس الرجل هذا، الملتحي، يعود الى تمثال عملاق، محفور في كتلة متراصة، يناهز ارتفاعها الأربعة أمتار. ويزدان الحاجبان والعينان والأنف والفم، المحفورة بقوة وواقعية، بسمات معبِّرة. وينسحب الأمرُ نفسه على الأذنين وتصفيفة الشعر المثبت بعُصابة. واحتفظ محجرا العينين بأثر قولبة الحدقتين. وكما تؤكد القطع المحفوظة، كانت التماثيل مكسوة بِوَزرَةٍ ملتفّة حول الخصر، ذات حواشٍ مائلة بلا ثنيات، تنتهي فوق الركبة ويمسك بها حزام مزدوج بشريط متدلٍ. وكان ثوب الجزء العلوي قصير الكمين. والذراع والساعد والأصابع مزينة بأساور وخواتم محفورة. وكما تؤكد آثار التلوين على قطعة من الحزام الذي عـُثر عليه في تيماء (د. المعرض رقم ١٠٧)، كانت هذه التماثيل مدهونة بالكامل أو جزئيا. والملمس المالس لأقفيةِ مختلف قطع الجزء الأسفل من الجسم، يثبت أنها كانت مسندة إلى الحائط، لذلك لم تكن مرئية من هذا الجانب.

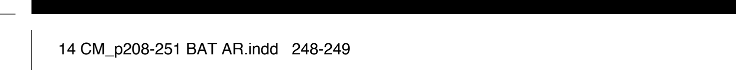
وتتيح المقارنة مع تماثيل آتية من الخريبة/ دادان في واحة العلا الحالية (د.المعرض رقم ١١٢ و١١٣)، التعريف بهذا الرأس على أنه الصورة الملكية لأحد أعضاء سلالة لحيان، إذ أن أحد تماثيل الخريبة يحمل نقش "ملك لحيان". وقد عثر على هذا النوع من التماثيل، للمرة الأولى، جوسن (Jaussen) وسافينياك (Savignac) في الخريبة (التمثالان أ وب)؛ ومنذ ذلك الحين، عـُثر على تماثيل أخرى، كانت منصوبة قرب المعبد عموما، (كذلك في أم دراج) خلال حفريات أجرتها جامعة الملك سعود. وكان سيتمّ العثور أيضاً، في تيماء، على تماثيل من هذا النوع قرب المعبد E-b١ في القريَّة، مركز الموقع. لكن من الضروري ألا نقيم صلة مباشرة بينها وبين ملوك لحيان المذكورين فيها حتى الآن أي تِلمي، عُلَيْم، شهرو (TLMY و‘Ulaym وShahru)، والذين تركوا فيها نقوشهم. وفي نهاية سلالة لحيان، دُمرت هذه التماثيل والنقوش أو فُككت، وذلك على الأرجح أيضا، في العصور القديمة المتأخرة. وقد أودع الرأس في المعبد عمداً عندما فقد المعبد وظيفته. وأعيد استخدام الجزء السفلي من هذه التماثيل كمادةً بناء. فالأيدي وقطع الأذرع والسيقان التي عـُثر عليها، كان القسم الأكبر منها أيضا موضوعاً في الغرفة نفسها من المعبد القديم.

وإلى جانب التجسيد الواقعي للجسم والوجه، توافرت أيضا نماذج تخطيطية، كما تؤكد ذلك قطعة أخرى في تيماء من الملائم مقارنتها مع القطعة الآتية من الخريبة/ دادان (د. المعرض رقم ١١٣). ولم يـُعثر حتى الآن في تيماء، على أي رأس لتمثال ذي أسلوب مستوحى صراحة من جنوب الجزيرة العربية. إلا أن قطعة من تمثال آخر عـُثر عليها فيها، وهي قطعة تمثل يداها تشابهات مع تماثيل ملكية من سلالة لحيان، على رغم أن ثوبها يـُبرز ثنيات واضحة تميزه عن الثوب المالس للتماثيل الأخرى. وإذا ما توافر بعضُ التشابهات مع رؤوس تماثيل مصرية من الحقبة المتأخرة، وكذلك مع تماثيل كلاسيكية، يختلف تنفيذ هذه القطع في شمال غرب الجزيرة العربية على صعيد التفاصيل. وبالمقارنة مع هذه التماثيل الأخيرة، حتى الرؤوس الآتية من تيماء ومن العلا التي تـُعتبر مُقَوْلبة، أنجزت على ما يبدو بطريقة تخطيطية الى حدّ ما. لذلك يمكن الإستنتاج انها استعادات شاملة للغة الأشكال المستخدمة محلياً بطريقة مستقلة. ويشكل رأس آتٍ من عمريت في سوريا، على رغم حجمه الصغير معالجة مماثلة للأذنين وتسريحة الشعر[١].

وإلى جانب هذه التماثيل العملاقة، عـُرفت في تيماء نسخٌ أصغر منها لم يتجاوز ارتفاعها المبدئي ٤٠ سنتيمتراً.

A. H.

١. Lembke، ٢٠٠٤، لوحة d١٨، رقم ١٤٥.





١٠٧. قطعة من تمثال
القرن الرابع- القرن الثاني قبل الميلاد
صلصال رملي
١٢٠ x ٥٧ x ٤٦ سم
تيماء، حفريات المانية- سعودية، الورشة E، أعيد استخدامها في جدار من العصور السحيقة للمعبد القديم E-b١
متحف تيماء، بعثة المانية- سعودية، TA ٢٠٠

فهرس: Eichmann، Haudleiter، النجم، السعيد، ٢٠٠٦، ص. ١١٠-١١١، لوحة b٩,١٤ و ٩,١٥.

هذا الجزء من تمثال ملكي هو من النوع نفسه للرأس الذي قـُدِّم سابقا (د. المعرض رقم ١٠٦). وقد ألبسَ الشخصُ وزرة بسيطة ملتفّة تنتهي فوق الركبة. وكان يـُمسك بالثوب حزامٌ مزدوج يحمل جزؤه المدلـّى على الجانب الأيمن آثارَ اللون الأحمر. ويـُثبت الجانب المالس لظهر التمثال أن التماثيل كانت في الأصل تستند إلى إنشاءات عمودية كالجدران أو الدعائم.

وقد تم التحقق من قطعة مماثلة في تيماء عام ١٩٦٨[١]، وهي محفوظة اليوم في المتحف المحلي. ولا مثيل حتى اليوم لقطعة تمثال بحجم مماثل عـُثر عليها في الفترة الأخيرة. فهو يرتدي ثوباً مغبناً، ممّا يكشف عن وجود أنواع مختلفة من التماثيل البشرية في تيماء إبان حقبة السلالة اللحيانية في دادان.
A. H.

١. Altheim وStiehl، ١٩٧٣، ص. ٢٥١ وصورة. ١١.



١٠٨. حوض بنقش نبطي
القرن الأول قبل الميلاد تقريبا
صلصال رملي
٣١,٥ x ٥٤ x ١٥,٥ سم
تيماء، لُقية مُنفردة
متحف تيماء، رقم ١١٥/M/T

فهرس: Livingstone و al.، ١٩٨٣، ص. ١٠٥-١٠٦ ولوحة b٩٣؛ Aggoula، ١٩٨٥، ص. ٦٥-٦٦؛ Beyer وLivingstone، ١٩٨٧، ص. ٢٩٠-٢٩٢.

لقد نـُحت هذا الحوضُ في كتلة من الصلصال الرملي المائل الى الخضرة. ويبلغ عمقُ مِرْكنه المركزي ١٠ سنتيمترات، أما الجوانب فتبلغ سماكتها ٢،٢٥ سنتيمترا؛ وتظهر على كامل مساحة الحوض آثارُ أدوات. وبما أن الحوض لُقية مُنفردة، لا زالت وظيفته الأصلية مجهولة، إلا أن النقش النبطي المحفور على أحد جوانبه، يشير إلى أن شخصا يـُدعى أهاب قد أهدى الإلهة مـَنـْوَه هذا الحوض. ويتألف النص من سطرين ونصف السطر، وكـُتبت الكلمات بشكل متواصل خالٍ من الفواصل. وجاء في النقش: "حظيرة (حوض؟) أهداه أهاب ... إلى منوه، إلهة الآلهات، من أجل حياة نفسه وأنفس ذريته ..."
A. I.



١٠٩. مجمرة مع نقش نبطي
القرن الأول قبل الميلاد
صلصال رملي
٢٠ x ١٣ x ٤٤ سم
تيماء، لُقية مُنفردة
متحف تيماء، رقم ٣٤١٥

فهرس: Livingstone وal.، ١٩٨٣، ص. ١١١- ١١٢ ولوحة. a٩٧؛ Beyer وLivingstone، ١٩٨٧، ص. ٢٩٢.

مجمرة سليمة كلياً تقريبا، رغم ضياع بضع نواحٍ من سطحها الأصلي بسبب تفتت الصلصال. وهذه المجمرة مستطيلة الشكل، مع قاعدة أوسع بقليل، وهي واحد من الأجزاء الأكثر تضررا. وجسم المجمرة مستقيم نسبيا، لكن جزءها العلوي أوسع. ويحمل ارتفاع المجمرة على الأطراف مثلثيـْن ناتئين يدعمان منطقة وسطى مجوفة على شكل مثلث مقلوب. وتتجاوز قمةُ كل مثلث ناتىء، ارتفاع المجمرة المزخرفة ببضعة خطوط محزّزة. وحـُفر نقش نبطي على واحد من الجوانب الكبرى، وتحديدا تحت المثلثين الناتئين اللذين يزخرفان قمته. وجاء في النص المؤلف من سطرين :"مدفن عبد القتاب، ابن بولان".

وبتكوينها العام، تعتبر هذه المجمرة قريبة من بضع مجامر تيمائية حـُفر أعلاها حفرا طفيفا ولم يـُزيـَّن على غرار أنواع أخرى من المجامر (د. المعرض رقم ١١٠).
A. I.



١١٠. مجمرة
الحقبة النبطية (القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد)
صلصال رملي
ارتفاع: ٤٠ سم؛ قطر ١٥،٥ سم
تيماء، حي سكني جنوب المعبد، أنقاض لقاعة محروقة
متحف تيماء، بعثة المانية- سعودية، رقم TA ٣٤١٥

فهرس: Hausleiter، ٢٠٠٦، ص. ١٦٦ وصورة. ١٢ (نموذج مسجل)؛ DAI، ٢٠٠٧، ص. ٣١٢ وصورة ٩ (ثلاثة نماذج محفوظة بشكل أفضل)

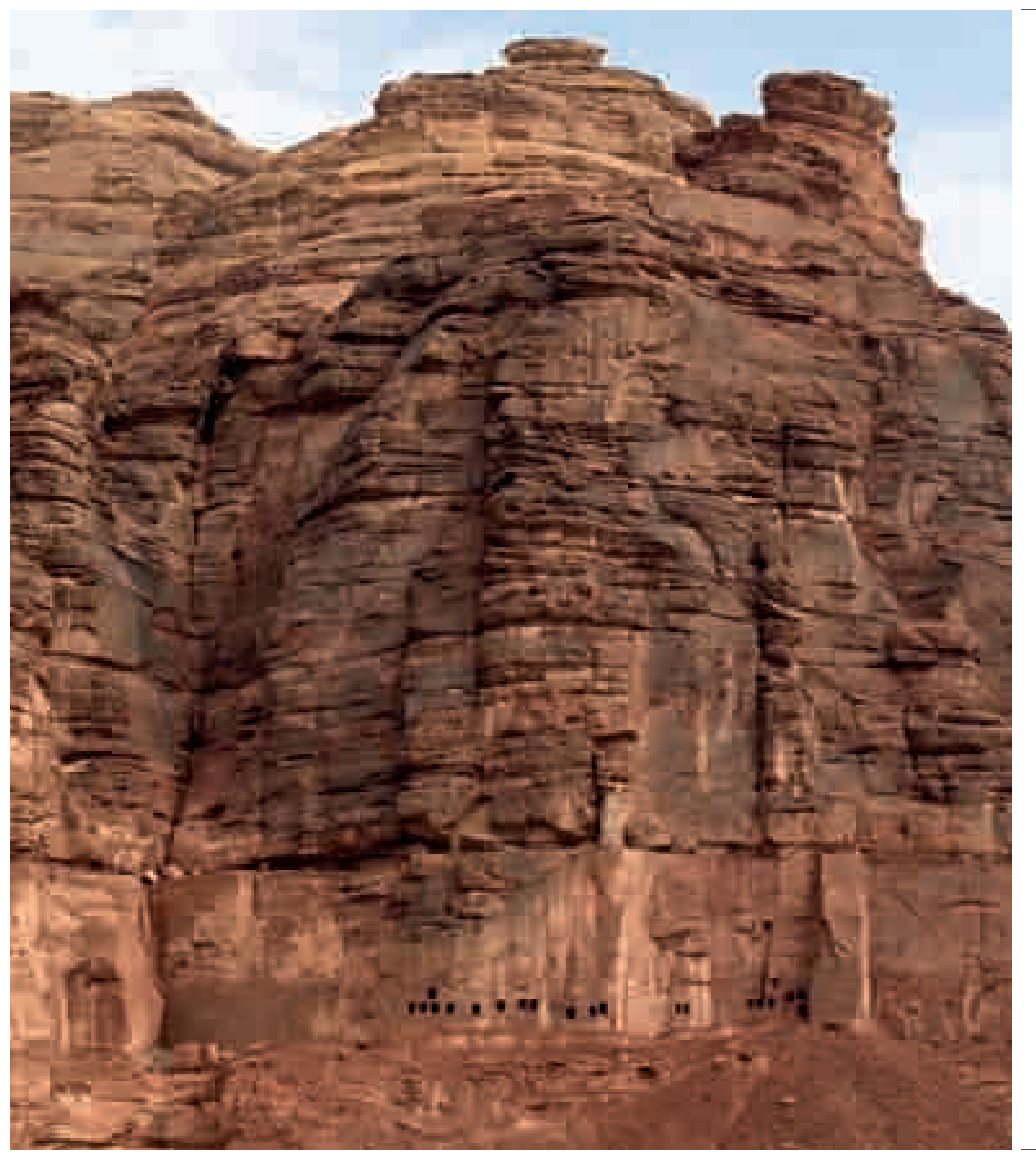
عـُثر على أربع مجامر متشابهة، تحمل إحداها نقشاً نبطياً، بين أنقاض قاعة ترقى إلى الحقبة التي تلي الحقبة النبطية (منتصف أو نهاية القرن الثاني). وتتخذ هذه المجامر شكلا اسطوانيا وتتألف من قاعدة وجسم وجزء علوي. تنفصل القاعدة عن الجسم عبر خطين محزّزين. وتتكوّن القاعدة المرتفعةُ الإرتفاعَ الكافي من قسمين متميزين، يفصلهما، هما أيضا، خطان محزّزان. والجزء السفلي، الأسطواني والأوسع من الجسم، يشكل قائمةَ المجمرة، فيما يربط القسم العلوي النازل، القائمةَ بجسم التحفة، الأضيق من القائمة. والجسم اسطوانة مستقيمة مزودة في وسطها بشريط مزخرف. وتتألف هذه الزخرفة التي يحوط بها خطان مستقيمان متوازيان، من مثلثات صغيرة تفصلها مجموعات من الخطوط العمودية المتوازية. وخلاصة القول، إن شكل المجمرة، يعيد على ما يبدو، إنتاج السِمات المعمارية لعمود (من حيث الشكلُ العام) ولعـَتـَبٍ {عارضة مرتكزة على عمود} (من حيث النموذجُ الزخرفي في الوسط). وقمة المجمرة مربعة، أما وسطها فمسطح تُشرف عليه أربع قمم. وتزين خطوط محزّزة هذا الجزء العلوي عبر فصله عن جسم المجمرة.
A. I.

دادان
(العلا)

أ. د. سعيد بن فايز السعيد

تقع دادان (العلا حالياً) في شمال غرب المملكة العربية السعودية، على خط الطول ٣٧° ٥٥َ ٥٨ً ودائرة العرض ٢٦° ٣٦َ ٢٩ً وسط واد كبير تحيطه سلاسل الجبال من الجهتين الشرقية والغربية، وهو ما يسمى في مصادر الجغرافيين العرب باسم وادي القرى. وقد أشارت المصادر العربية المبكرة إلى وفرة المياه في منطقة العلا، وإلى خصوبة أرضها، وهذان العاملان كانا السبب الرئيس لجذب العناصر البشرية واستقرارها في واحة دادان، ومع مرور الوقت تزايدت أهمية دادان بعد أن أصبحت واحدة من أهم محطات الطريق التجاري القديم (طريق البخور) الذي كانت تتدفق عبره البضائع التجارية من أقصى جنوب بلاد العرب إلى مناطق متفرقة في الجزيرة العربية وإلى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

إن موقع دادان معروف من خلال عدد من الإشارات التاريخية، فقد جاءت أولى الإشارات والرموز التاريخية إلى دادان في نقوش تيماء الثمودية العائدة إلى القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد، حيث الإشارة فيها إلى أن ثمة حرباً وقعت بين تيماء ودادان. أما الإشارة الثانية فقد تكررت في نقش حران البابلي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث الإشارة في نقش نبونيد البابلي إلى ملك دادان (شرو دادان)، وحينئذ كانت دادان، أي من عام ٥٥٣ قبل الميلاد حتى عام ٥٤٣ ق.م.، خاضعة لنفوذ الملك البابلي نبونيد. بينما جاءت الإشارة الثالثة إلى دادن في كتاب العهد القديم، حيث تكرر ذكر دادان، المكان والقبيلة، في عدد من أسفار العهد القديم، فقد جاء في سفر التكوين إشارة إلى تحديد أصل الدادانيين، فتارة يجعلهم ساميين من نسل نبي الله إبراهيم عليه السلام وزوجته قطورة، وتارة أخرى وفي نفس السفر يجعلهم حاميين من نسل كوش. وعلى الرغم من هذا التفاوت في رواية التوراة عن الدادانيين وأصلهم، فإن المهم في روايات التوراة أنها تؤكد أن الدادانيين أمة لها كيانها المنظم آنذاك، وذات دور مهم في الحياة السياسية والاقتصادية لبلدان الشرق القديم. وهذا ما تؤكده رواية التوراة نفسها، ففي سفر حزقيال ثمة إشارة أخرى إلى أن الدادانيين يعملون بنقل البضائع التجارية ويقومون على تسويقها في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط. وفي السفر نفسه يقرن بين الدادانيين والسبئيين الذين أكدت رواية المصادر أنهم كانوا في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد يتولون أعمال نقل البضائع التجارية من مناطقهم في جنوب الجزيرة العربية إلى مناطق متفرقة من العالم القديم. ومن بين أهم المصادر التي تضمنت معلومات تاريخية عن الدادانيين في منطقة العلا ما ذكرته نقوش جنوب الجزيرة العربية (نقوش المسند). فقد تحدثت رواية النقوش المعينية عن دادان والدادانيين في عدة مواضع، من بينها تلك الوثائق التي كتبت على مسلات حجرية نصبت في ساحة معبد رصافم في معين (قرناو قديماً) والتي أشارت إلى دادان الأرض والشعب. وتحدثت



قبور صخرية في جبل دادان (العلا)
تصوير اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silveira)



موقع دادان التاريخي

مضامين هذه النقوش عن قيام مجموعة من أفراد القبائل المعينية بالزواج من نساء دادانيات، تنتمي أصولهن إلى دادان، ولعل المهم في الأمر هنا أن مجموعة هذه الوثائق جاءت ضمن قوائم طويلة سُجل فيها قيام أفراد من القبائل المعينية في جوف اليمن بالزواج من نساء أجنبيات ينتمين إلى أقوام وشعوب متعددة في بلدان الشرق القديم، وفيها جعلت دادن في مصاف الدول والشعوب التي صاهرها المعينيون، مما يشير إلى أن دادان آنذاك كانت تشكل كياناً مستقلاً تربطه علاقات اجتماعية مع قبائل وممالك جنوب الجزيرة العربية. أما المصادر العربية فقد اكتفت إشاراتها بذكر اسم دادن المكان. إذ يقول عنه ياقوت في معجمه ما نصه: "الددان مدينة حسنة كانت في طريق البلقاء من ناحية الحجاز، خربت"، أما ابن شجاع فيذكر دادان اسما لواد متسع يقع جنوب العلا. وفي ضوء رواية المصادر عن دادان والدادانيين، فإن المقاربة فيما بين معطياتها تشير بجلاء إلى أن ثمة مملكة عربية ذكرتها المصادر باسم "مملكة دادان"، وحددت مركز استيطانها في دادان (العلا حاليا). كما أشارت إلى أن سكانها كانوا على درجة عالية من التنظيم السياسي والاجتماعي، مما مكنهم من تأسيس علاقات سياسية واجتماعية مع الأمم والشعوب داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهيأ لهم فرصة للقيام بدور فعال في اقتصاد المنطقة، كما ساهموا مع غيرهم من قبائل جزيرة العرب بنقل البضائع التجارية إلى مناطق الاستهلاك في أسواق الشرق القديم. لقد أفضت هذه الإشارات والرموز التاريخية لدادان الشعب والمكان



بحيرة دادان

إلى لفت أنظار الباحثين، مما أدى إلى أن تحظى دادان منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بعدد من الرحلات والزيارات وأعمال المسح الأثري من قبل بعض الرحالة والباحثين الغربيين والسعوديين. وبرغم كل تلك الرحلات وأعمال المسوح ظلت أغلب المخلفات الآثارية بموقع دادان غير مدروسة علمياً، كما أن بقايا الحاضرة القديمة بها، وفيما عدا الحوض الشهير، لم يكشف عنها في حفريات منهجية، ومن ثم كان الاتفاق بين جامعة الملك سعود من ناحية والهيئة العامة للسياحة والآثار من ناحية أخرى، لاستكمال الكشف الكامل عن السياق التاريخي والحضاري لموقع دادان، فكان توجه قسم الآثار بجامعة الملك سعود للتنقيب العلمي في الموقع. حيث بدأ الموسم الأول في عام ١٤٢٥/ ٢٠٠٤ وتواترت الأعمال الميدانية خلال خمسة مواسم متتالية أسفرت عن الكشف عن أجزاء مهمة من مكونات الموقع الأثري لدادان، وقد تبين أن البقايا الأثرية لهذا الموقع تمتد على مساحة مستطيلة، تبلغ حوالي ٣٠٠م طولاً و٢٠٠ م عرضًا، تتوسطها منطقة المعبد القديم بالموقع. ترجع الأهمية التاريخية للموقع، كما سبق القول، وكنتيجة مباشرة للمخرجات العلمية لحفرية جامعة الملك سعود، إلى مطلع الألف الثاني ق.م (انظر أدناه مبحث الفخار)، وإن كنا لا نعرف كثيراً عن التاريخ السياسي له خلال تلك الفترة وفي بدايات الألف الأول ق.م بيد أنه من المرجح أنه كان مواكباً للوجود الفاعل لمملكة دادان ودورها الحضاري والتجاري الحيوي في منطقة شمال غربي جزيرة العرب بشكل عام. لقد امتد نفوذ مملكة "دادان" إلى كثير من المناطق المجاورة ومنها الحجر(مدائن صالح)، والواقعة على مسافة حوالي ٢٢ كم شمال العلا. وبينما ألقت بعض المصادر الضوء على الدور التجاري الهام، الذي لعبته هذه المملكة، فقد كان الازدياد الكبير في قوة ونفوذ القبائل اللحيانية، وتمكنها من السيطرة على المنطقة مع نهايات القرن السادس ق.م من أهم العوامل التي أدت إلى اضمحلال الدور التاريخي لمملكة دادان وخضوع رعاياها للحكم الجديد. وردت إشارات كثيرة عن اللحيانيين في روايات عديد من الكتاب الكلاسيكيين، كما روى بلينيوس، الذي عاش في القرن الأول الميلادي، أن خليج العقبة الحالي كان يسمى "خليج لحيان"، وهذه دلالة واضحة على اتساع نفوذ اللحيانيين، الذين ُيحتمل امتداد نفوذهم جنوباً حتى النطاق الجغرافي ليثرب القديمة، كما ُعثر بتيماء على مسلة حجرية نقش عليها إسم الملك اللحياني "تلمي" ، فيما يشير إلى امتداد النفوذ اللحياني من دادان إلى منطقة تيماء خلال القرن الثالث ق. م. وشملت التركيبة السكانية لمنطقة دادان بطوناً من قبائل معين قطنت المنطقة خلال فترة السيادة الدادانية ومن بعدها اللحيانية، و كوّنوا جالية تجارية فاعلة ومؤثرة، وحازت هذه الجالية نفوذا كبيراً في البلاط اللحياني. واستمرت سيادة اللحيانيين على دادان لمدة قاربت الخمسة قرون من الزمان، أي حتى مطلع القرن الأول ق.م. وهذا ما يؤكده بعض الدلالات المعمارية بموقع دادان، حيث يستدل منها إلى هجران مفاجئ لموقع دادان بعد انحسار دور مملكة لحيان في مطلع القرن الأول ق.م، مصاحباً فيما يبدو بزلزال عنيف ضرب الموقع آنذاك وأَدى إلى انهيار ملحوظ في كثير من المظاهر المعمارية للموقع.



مركز دادان الديني
تصوير اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silveira)



الدلالات المعمارية لموقع دادان

تمثلت الظاهرة الرئيسة وسط أطلال موقع دادان قبل بدء حفرية جامعة الملك سعود في ذلك الحوض الحجري الضخم، المشهور تقليدياً بإسم «محلب الناقة»، ومحلياً بإسم «الحلوية»، وقد نحت من الحجر باستدارة كاملة، ويبلغ قطره حوالي ٣٧٥ سم وعمقه حوالي ٢١٥ سم، ويتسع الحوض لحوالي ٦٠٠٠ جالون من الماء أو السوائل (ما يقرب من ٢٤٠٠٠ لتر)، وتوجد بداخله ثلاث درجات منحوتة في نفس الكتلة الحجرية، لتسهيل النزول إليه، وتعد دقة استدارة هذا الحوض عملاً هندسياً رائعاً، تمتزج فيه السيمترية بالتناسق. والغرض المرجح لهذا الحوض أن يكون حوض ماء تطهير خاص بالطقوس المتصلة بالمعبد الرئيس بدادان، الذي ربما كُرّس للمعبود اللحياني ذوغيبة. وإضافة إلى ما ينتشر في موقع دادان من التلال الأثرية المشتملة على أساسات وجدران المنازل القديمة بالموقع، فقد عُثر كذلك فوق جبل أم الدرج عند المدخل الجنوبي لوادي ساق، وفي الجهة الشمالية الغربية من دادان مقابل جبل دادان (الخريبة)، على بقايا ثلاث منشآت معمارية دينية، مبنية بكتل من الحجر الرملي الأحمر المحلي المثبتة بالملاط الطيني، ويبلغ طول أحدها حوالي ١٥م وعرضه ما يقرب من ١١م، فضلا عن العثور على خزانين دائريين محفورين في الصخر، ومبطنين بالجص، و عدد من الكوات أو النيشات المنحوتة في الصخر، والمخصصة لوضع تماثيل المعبودات. وخلال العمل الميداني في الخمسة مواسم الأولى كُشف عن العناصر والوحدات المعمارية التفصيلية للمركز الديني الرئيسي في دادان إبان فترة السيادة اللحيانية، وقد بنيت عناصره المعمارية من الحجر الرملي المقطوع من الجبل المحلي. ويضم هذا المجمع الديني المعبد فضلاً عن ملحقات معمارية أخرى متعددة، تشتمل على حوض الماء ومنصات العبادة. يبدو منظور المعبد أنه ذو مخطط مستطيل، تصل أبعاده إلى ١٦م طولاً و٢٠و١٣ م عرضاً، ويتصل بنواة المعبد من جهة الشمال شرفة يقوم سقفها على أربع دعامات حجرية مستطيلة Pillars، كانت أرضيتها تشكل منصة استخدمت على الأرجح لوضع تماثيل بعض ملوك مملكة لحيان عليها، وذلك لضمان مشاركتها في الطقوس وانتفاعها بالتقدمات. ويتصل بالمعبد من جهة الشمال الغربي منصة (أو مصطبة) حجرية مركزية، طولها ٣ م، وعرضها ٥و١ م، يبدو كذلك أنها خصصت لإقامة التماثيل عليها، حيث عثر على مجموعة متميزة منها متساقطة عليها أو بالقرب منها، وصل الارتفاع بعضها إلى حوالي أربعة أمتار،

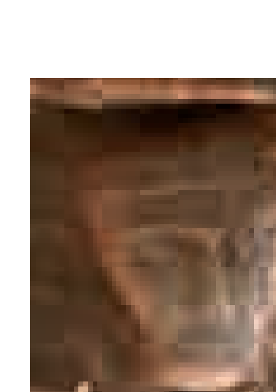
جزء من مجمرة أو من مذبح في نطاقه الاثري
(أنظر د. المعرض رقم ١١٧)

أو أكثر، بينما وجدت في الجوار بعض القواعد الحجرية التي ربما أقيمت هذه التماثيل من فوقها. وتتصل بالمعبد من جهة الشمال ساحة مفتوحة Temenos تضم حوض المياه الشهير السابق الإشارة إليه، وذلك إلى جانب عدد من المنصات الحجرية Platforms، التي استخدمت فيما يبدو لأغراض احتفالية وممارسات نذرية تتصل بالتماثيل التي كانت مقامة في المعبد. ويحيط بالوحدة المعمارية المركزية لـلمجمع الديني من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية مجموعة من الحجرات يفصل بينها ممرات، ونظراً لما عثر فيها من بعض بقايا التماثيل وموائد ومستلزمات القرابين، فمن المرجح أنها كانت مقاصير خصصت لواضع تماثيل بعض المعبودات الثانوية، وربما كذلك لتماثيل عدد من ملوك مملكة لحيان. كشف أثناء التنقيب عن عدد من الأحجار المتساقطة وسط رديم المركز الديني والمتمثلة في عدد من القطع الحجرية على هيئة أعمدة أسطوانية نحت عليها أشكال لوعول بالنحت البارز، وتجدر الإشارة إلى أن رسوم الوعول ذات دلالة فكرية تتعلق بديانة العرب قبل الإسلام، حيث يتخذ شكل الوعل ليرمز إلى أحد المعبودات آنذاك. فضلاً عن ذلك كُشف عن جزء من عامود مضلع. وجزء من تاج عامود، وبعض الحجارة المصقولة عليها نحت متموج لثعبان بعضها استخدم في بناء الجدران أو عتب درج الأبواب والمداخل وبعضها الآخر أعيد استعماله في بناء المصاطب. ولا ريب في أن كثرة استخدام رمز الثعبان على الجدران القائمة أو القطع الحجرية المتساقطة يشير إلى أهمية هذا الرمز في ثقافة سكان دادان القدماء، وقد يكون تعويذة ترمز إلى أحد معبوداتهم آنذاك.

تماثيل في دادان في نطاق التنقيب عنها
(أنظر د. المعرض أرقام ١١١، ١١٢ و١١٣)

فن النحت في دادان

عُثر فوق جبل أم درج على مخلفات العديد من التماثيل اللحيانية وبقايا الآثار الأخرى، مما طرح معه احتمالية وجود ورشة محلية للنحت في هذا الموقع يرجع وجودها إلى حقبة السيادة اللحيانية على المنطقة، خلال الفترة من بداية نهاية القرن السادس وحتى مطلع القرن الأول ق .م. وكان كل من جوسين وسافينياك (Jaussen-Savignac) قد عثرا بجوار موقع حوض الماء الشهير على تمثالين حجريين نحتا بالحجم الطبيعي تقريباً، ينسبان إلي فنون النحت اللحيانية، التي عرفت في حاضرة دادان القديمة، ويعكس نحت هذين التمثالين، كما يرى بعض الباحثين تأثيرات لفنون النحت في مصر القديمة، وإن كان الأصح أنها تأثيرات غير مباشرة، فمن المعروف أن مدرسة التماثيل الإغريقية، في القرنين السابع والسادس ق.م، أحيت التقاليد والأساليب المصرية القديمة في نحت التماثيل، ويتمثل ذلك في الوقفة الصلبة للتمثال وارتداء الوزرة القصيرة، فضلاً عن النظرة الجادة، والتصاق الذراعين بمحاذاة الجانبين، واليدين المقبوضتين، وتقدم القدم اليسرى بخطوة واحدة على القدم اليمنى، وهذا الأسلوب في فن النحت هو الذي انتشر لاحقاً في بلاد الشام وغيرها من مناطق التأثر بالفنون الإغريقية، ومنها إلى شمال الجزيرة العربية. تظهر أوضاع تمثالين من التماثيل اللحيانية موضع الدراسة التي قام بها المزروع ونصيف (Al-Mazroo- Nasif)، ملامح نفس المدرسة السابقة، وإن تعرّف الباحثان على "طابع مدرسة محلية"، سواء في تشكيل خطوط الجسم أو في بعض التفاصيل الأخرى، لا سيما في شكل الوزرة المستطيلة. بينما أظهر تمثال ثالث تأثيرات محلية أكبر من سابقيه، سواء في شكل الوزرة، أو وجود نقش لحياني عليها. كما سبق أن عثر كل من جوسين وسافينياك (Jaussen-Savignac) كذلك على تمثال لحياني آخر شبه كامل في موقع دادان، يحمل أغلب التفاصيل السابقة، مع تغييرات في ملامح الوجه وبخاصة منطقة العينين والحاجبين تظهر تأثيرات من فنون منطقة وادي الرافدين، بما يؤكد على دور منطقة العلا كنقطة التقاء بين حضارات منطقة الشرق القديم أخذاً و عطاءً. وبخلاف هذه التماثيل المختلفة التي يحتفظ بها المتحف الوطني بالرياض أو متحف الآثار والتراث الشعبي بالعلا، فهناك مجموعة أخرى من التماثيل اللحيانية التي نُقلت إمّا إلى إستانبول بتركيا، أو إلى دمشق أثناء مشروع إنشاء سكة حديد الحجاز. كشفت حفريات قسم الآثار بجامعة الملك سعود في الخمسة مواسم الأولى الكثير فيما يتعلق بالنحت اللحياني، سواء فيما يتصل بنظام وأماكن إقامة التماثيل، أو فيما يتعلق بطابع المدرسة المحلية لها، حيث تم الكشف عن العناصر المعمارية التفصيلية للمركز الديني الرئيسي في دادان إبان فترة السيادة اللحيانية، وبما يشمل منصة حجرية مركزية، كانت مقامة في وسط الموقع لإقامة التماثيل عليها، كما عثر على مجموعة هامة للتماثيل اللحيانية، من حيث الكم والكيف معاً، وصل الارتفاع التقديري لبعضها إلى حوالي أربعة أمتار، فضلاً عن عدد كبير من التماثيل وأجزائها التي تتراوح أحجامها حول مرة ونصف من الحجم الطبيعي تقريبا. وتندرج هذه التماثيل تحت الأطر المعروفة لما يمكن أن يسمى المدرسة اللحيانية للنحت، والتي تم الإشارة إلى معالمها وسماتها من قبل، ويلاحظ في هذه المجموعة من التماثيل تزايد الاهتمام بالوزرة القصيرة ذات الطيّة الجانبية، مع حرص الفنان على إبراز العضلات، وتفاصيل أساور المعصم، بينما اتضحت فيها بشكل أكبر تفاصيل



رأس تمثال لحياني
(أنظر د. المعرض رقم ١١٤)


نقش لحياني عُثر عليه في العلا

محلية متعددة أخرى، منها غطاء وعقال الرأس والجنبية في وسط الوزرة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه التماثيل تخص بعض ملوك مملكة لحيان كما سجل صراحة على واحد منها، بينما قد يمثل البعض الآخر تماثيل لمعبودات محلية، أهمها "ذو غيبة" المعبود الرئيس في دادان سيادة مملكة لحيان عليه. وتُذكر هذه التفاصيل ذات الطابع المحلي المعبر عن مدرسة متماثلة للنحت العربي القديم في شمال غربي الجزيرة العربية بما عُثر عليه من تمثال مشابه في تفاصيل الوزرة والجنبية، وآخر يرتدي غطاء رأس مزخرف (شماغ ؟) تحيطه عصابة رأس (عقال ؟) عثرت عليهما البعثة السعودية الألمانية في تيماء خلال العمل في موسميها الثاني والثالث.

النقوش بالقلم الداداني والأقلام العربية القديمة الأخرى

تم تسجيل عدد ١٠٨ مواقع للكتابات القديمة في مختلف مواقع محافظة العلا ومحيطها الجغرافي، والتي تضم أعداداً كثيرة من النقوش الثمودية والدادانية واللحيانية والمعينية والنبطية، ويُعدّ جبل عكمة على مسافة ٣ كم شمال غربي العلا الأرشيف الأول للنقوش اللحيانية، حيث تم نشر١٩٦ نصاً من قبل حسين أبو الحسن (Abu Al-Hassan)، كشفت عن العديد من جوانب الحياة الاقتصادية والتجارية والدينية في مملكة لحيان، وكذلك حدودها الجغرافية، فضلاً عن إشارات متعددة إلى ما يُعرف بـ "الظلل"، وهي العشور من نتاج المزروع كل عام، التي كانت تؤدى من الآهلين إلى معبد ذي غيبة. فضلاً عما أثبتته بعض هذه النقوش من وجود شعيرة الزيارات المقدسة لدى اللحيانيين، مع تفاصيل تتعلق بكافة ممارساتها الطقسية. بينما تم، خلال الحفرية الحديثة لجامعة الملك سعود في موقع دادان، الكشف كذلك عن العديد من النقوش، تُؤرخ من الفترة فيما بين القرنين السادس والثاني ق.م، ومضامينها تلقي أضواء مختلفة على جوانب متعددة من التاريخ الحضاري لمرحلة نهاية مملكة دادان وفترة سيادة المملكة اللحيانية، كما تبين منها وجود ملامح باليوغرافية لقلم داداني متفرد إلى حد ما عن سواه من الخطوط العربية القديمة، فضلاً عن العثور على نقش ملكي هام باسم الملك الداداني (عاصي) يؤرخ من القرن السادس ق.م، ومجموعة من النقوش المكرسة لعمليات تقديم النذور والهبات المختلفة لمعابد دادان، ونصوص تذكارية أخرى يُفهم منها أن المنطقة الدينية الرئيسية في موقع دادان كانت محلاً لزيارات مقدسة وإقامة طقوس نذرية من قبل السكان المحليين والمقيمين، إضافة إلى مجموعة من النقوش تتحدث معطياتها عن القوانين المدنية في دادان. وبوجه عام فإن دراسة هذه النقوش بشكل تفصيلي سوف يكشف عن ازدهار حضاري تمتع به موقع دادان القديمة، يغطي جوانب حياتية ودينية وقانونية متعددة وذلك خلال الفترة الزمنية التي شملت النصف الثاني للألف الأول ق.م.

جزء من خزف

جزء من عمود مضلّع

مقابر جبل دادان (العلا)

يشتمل جبل دادان المطل على الموقع من الجهة الشرقية على مجموعة كبيرة من المقابر الصخرية، التي تتميز بتصميمات وأحجام مختلفة، وأغلب هذه المقابر عبارة عن فجوات مربعة منقورة في واجهة الجبل وبعمق يزيد عن ٢م. وتؤرخ هذه المقابر إجمالاً إلى القرن الخامس ق.م، أي من فترة السيادة اللحيانية على المنطقة، وقد نحتت هذه المقابر على عدة مستويات في الجبل، بينما زينت اثنتان منها فقط بواجهة من أسدين منحوتين، ربما تمييزاً لمقابر بعض من كبار الشخصيات أو الحكام، ويستدل من مضمون أحد النقوش المرافق لهاتين المقبرتين، أن واحدة منها تخص أحد أفراد الجالية المعينية في دادان، والأخرى ترجع إلى الفترة اللحيانية المتأخرة. وقد نحتت بعض هذه المقابر من الداخل على شكل غرفة تتوزع حفرات الدفن في جدرانها أو أسفل أرضيتها، كما توجد بالموقع كذلك مقابر فردية عادية نحتت في أرضية الجبل، بينما دونت على أسطح بعض مقابر (دادان) الصخرية نقوش تحدد هوية أصحابها، كما حددت على واجهة الجبل مساحات خصصت لمقابر أخرى لم يستكمل نحتها، ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى وجود معثورات جنزية في هذه المقابر، منها بقايا عظمية، وبعض لفائف الأكفان، وبقايا خشبية لبعض توابيت الدفن.

أنماط من خزف دادان

الفخار

بدأت دراسة فخار دادان (العلا) من خلال وينت وريد (Winnett - Reed)، وطورت بواسطة (P. Parr)، وبودن(Bawden) الذي نشر دراسة عن فخار موقع خيف الزهرة ووادي المعتدل وهما جزء من موقع دادان، ونشر عبدالعزيز الغزي (Gazi, A.) عدداً من الأبحاث عن فخار دادان، وأجرى عوض الزهراني (A. Zahrani) دراسة


أسد من حجر عُثر عليه في العلا الكاهنان جاوسن وسافينياك (Jaussen et Savignac)، ١٩١٤، أطلس، اللوحة XXXVI، ١

عن فخار تل الكثيب، وقد بينت هذه الدراسات المتخصصة أن فخار دادان يتشابه إلى حد كبير مع فخار موقعي تيماء وقُرية من حيث الشكل والزخرفة، بيد أنه أقل جودة من فخار تيماء وقُرية من حيث المادة والصناعة. لقد أثبتت الدراسة المقارنة أن فخار دادان يعود تاريخه إلى بدايات الألف الثاني ق.م. وهذا ما عززته الأواني والقطع الفخارية المكتشفة في المعبد الرئيس لدادان والمنشآت المعمارية التابعة له خلال مواسم التنقيب الخمسة، حيث كشف عن أجزاء من أوانٍ فخارية تؤرخ إلى مطلع الألف الثاني ق. م. وأجزاء من أوانٍ أخرى تؤرخ إلى الألف الأول ق. م. وعينات من الفخار الروماني والنبطي والبيزنطي. يتميز فخار دادان بأنه مصنوع بالعجلة والقليل منه صنع بواسطة اليد. وعلى الرغم من أن فخار دادان يظهر زخارف أقل من تلك المعروفة في فخار تيما وقرية إلا أنه يحتوي على عناصر زخرفية مرسومة بالألوان كاللون الأسود والبني والأحمر، ويشتمل على عناصر زخرفية نفذت على السطوح الخارجية للأواني وأحياناً على الحواف على هيئة أشكال نباتية وحيوانية وكونية وبيئية. كما تظهر عليه عناصر زخرفة محزوزة ومضافة مثل رسم الثعابين والخطوط المتعرجة والحزوز القصيرة المتوالية والدوائر، وجميعها ذات دلالات رمزية تعكس طبيعة الحياة الفكرية آنذاك.


لآلىء

المعثورات الأخرى

سبق للباحثين الفرنسيين جوسين وسافيناك العثور في أطلال المركز الديني بدادان على ميزاب سطح بناء حجري بشكل الأسد، جاءت ملامحه وتفاصيل فمه وأنيابه متأثرة بفنون النحت الحيثية والآشورية. ومع تواصل التنقيب في الموقع كشف في المعبد نفسه أو في المنشآت المعمارية الملحقة به عن عدد كبير من المواد الأثرية المتعلقة باستخدامات الحيات اليومة والشعائر الدينة في دادان آنذاك، حيث عُثر على مجموعة من المجامر الحجرية بأشكال وأحجام متنوعة، وموائد قرابين، وأجزاء من أحواض قواعدها قرصية الشكل ومستوية وتميزت بسماكة قواعدها وأبدانها، وأوانٍ وقدور الطبخ، وصنج الموازين، ومجموعة من المصنوعات البرونزية ذات الأغراض المختلفة، وأدوات الطحن، والمساحن، وأدوات الزينة المتمثلة بمجموعة من الخرز بأشكال مختلفة بعضها من العقيق أو من الحجر أو من عجينه زجاجية، أو من الصدف. كما عُثر على عدد من المسارج بأحجام وأشكال متنوعة، وكذلك أجزاء من الدمى الفخارية لحيوان الجمل بعضها فاقد الرأس والقوائم، أو أجزاء من البدن أو إحدى القوائم الأمامية أو الخلفية، وعلى البعض منها زخارف ملونة، أو حزوز. ومنها رجل دمية يلاحظ أن عجينتها حمراء، خشنة، ومضاف لها الجير والحجر البركاني الأسود الناعم.


سرجة لها شكل قارب

مملكة لحيان

د. حسين بن علي أبوالحسن

الموقع

اتخذ اللحيانيون من دادان «العلا» عاصمة لهم، وهي تقع في شمال غرب الجزيرة العربية في وادي القرى جنوب شرق حرة عويرض في واد ضيق بين سلسلة من الجبال في الشرق والغرب على خطي طول ٣٦/ ٣٧ وخطي عرض ٢٧/٢٠، وكان لاختيارهم هذا الموقع أهمية إستراتيجية نظرا لوقوعه على الطريق التجاري الرئيس الذي يربط بين حضارات الهند وجنوب الجزيرة العربية في الجنوب وبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر في الشمال، وكان لهذا الطريق الفضل في ازدهار دادان «العلا» خلال عصور ما قبل الإسلام (ابوالحسن١٩٩٧م، ص ٣٢).

وتؤكد المواقع الأثرية المنتشرة في محافظة العلا المتمثلة في مواقع الخريبة وتل الثلة وخيف الزهرة وجبل أم درج ودنن والرزيقية، أن عاصمة مملكة لحيان كانت تمتد في وادي العلا وتحتل المساحة الواقعة بين الجبل الشرقي بمحافظة العلا) الذي ورد ذكره في الكتابات اللحيانية باسم جبل دادان (إلى الجبل الغربي ومن جبل الرزيقية جنوبا إلى جبل عكمة شمالا. أما نفوذ مملكة لحيان فقد إمتد إلى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ووسطها، وقد وصف الكاتب الروماني بلينوس خليج العقبة بالخليج اللحياني وبقيت هذه التسمية مستخدمة إلى القرن الثاني الميلادي (الأنصاري وآخرون ٢٠٠٨م، ص ٩٢)، كما أن انتشار الكتابات اللحيانية في بعض المراكز الحضارية مثل تيماء والفاو وعلى امتداد الطرق التجارية دليل على وجود نفوذ وعلاقات اللحيانيين مع المجتمعات المجاورة.

التاريخ

اعتمد المؤرخون الذين أرخو لمملكة لحيان على الكتابات التي عثر عليها في المنطقة والتي تُعَدُّ المصدر الرئيس لتاريخ لحيان، وأقدم تكوين سياسي نشأ في تلك المنطقة وتحدثت عنه النصوص المكتشفة حتى الآن مملكة سميت «مملكة ددن» أو «مملكة ديدان» وهم عندما سموها بهذا الإسم فإنما اتبعوا صيغة تكررت في نصوص وجدت في العلا وهي صيغة «ملك ددن» وهذا ما حدا بالعلماء المختصين بوضعها من الناحية التاريخية في حوالي القرن السادس قبل الميلاد، كما ورد في النقوش ذكر لمملكة أخرى هي «مملكة لحيان» وهي أيضا صيغة تكررت في نصوص مماثلة ووضعوا بداية لتاريخها بين القرن الخامس والقرن الرابع قبل الميلاد ولكن نهاية هذه المملكة كان محل خلاف بين المؤرخين.

وإذا ما نظرنا إلى تلك الفترة التي نشأت فيها مملكة ديدان نجد أن النمط الشائع في بلاد الشام (وهي قريبة من شمال الحجاز) كان نمط ممالك المدن ضمن الإطار الآرامي ومن هنا فإننا نتصور أن تكون «مملكة ديدان» هي مرحلة أولى من مراحل مملكة لحيان عندما كانت المملكة تنسب إلى مدينة البذرة الأولى في بناء القوة السياسية للدولة الكبرى إذا ما قدر لها البقاء والاستمرار.



ضريح صخري في الاسود
(جرف صخري في الخريبة)

ونورد فيما يلي قائمة بأسماء ملوك لحيان الذين ورد ذكرهم في النقوش التي اكتشفت في العلا وتيماء حسب تسلسلهم الزمني:

١- هنأوس بن شهر
٢- شهر بن هنأوس
٣- تخمي بن لوذان
٤- جشم بن لوذان
٥- جلت قوس
٦- لوذان بن هنأوس
٧- تلمي بن لوذان
٨- مسعود
٩- هنأوس بن تلمي
١٠- تلمي بن هنأوس
١١- عبدان بن هنأوس
١٢- سلحان
١٣- فضج
١٤- متع إل (ابو الحسن ٢٠٠٢م، ٣٢٩)

ومن هنا فإن مملكة لحيان بدأت منذ القرن السادس قبل الميلاد أي بداية مملكة مدينة (ددن) ثم مملكة قبيلة (لحيان) وهي المرحلة التي ظهرت بعدئذ في جميع ممالك الجزيرة العربية جنوبها وشمالها. ونحن بذلك نعتقد أن هذه البداية كانت أيضا بداية لتكوّن الخط اللحياني الذي بدأ بسيطا في المرحلة اللحيانية الأولى (الددنية) ثم تحول إلى المرحلة اللحيانية الثانية (المرحلة اللحيانية الأولى) ثم إلى المرحلة اللحيانية الثالثة (المرحلة اللحيانية الثانية)، وبنو لحيان من القبائل العربية العريقة التي استقرت في شمال الحجاز وذكرهم المؤرخون العرب والباحثون في علم الأنساب، وبعد سقوط مملكة لحيان بمجيء الأنباط إلى المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد انتشر اللحيانيون في مناطق مختلفة من الحجاز حيث ورد ذكرهم فيما بعد بمنطقة الرجيع بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث غزاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوة عرفت بغزوة بني لحيان، ولا يزال اسم قبيلة لحيان موجوداً حتى الوقت الحاضر حيث يقيم جزء منهم جنوب شرق مكة المكرمة (أبوالحسن، ١٩٩٧، ٣٧-٣٨).

نظام الحكم عند اللحيانيين

يعتمد نظام الحكم عند اللحيانيين على النظام الملكي الوراثي تنفرد به أسرة واحدة وقد ينتقل من أسرة إلى أخرى، ويساعد الملك مجلس استشاري عُرف بالنقوش اللحيانية باسم (هجبل) ووصف بأنه عالي الشأن، وتضمنت النقوش اللحيانية التي وجدت في العلا وكذلك النقش النبطي (JS.٣٣) والنقش الآرامي المكتوب على المسلة التي وجدت في قصر الحمراء بتيماء (د. المعرض رقم ١٠٣) أسماء عدد من ملوك لحيان (الأنصاري وآخرون ٢٠٠٨م، ص ٩٣)، حيث كانت بعض النقوش اللحيانية تؤرخ الأحداث التي وردت فيها بسنوات حكم ملوك لحيانيين وهذا دليل على وجود تنظيم سياسي يقوم بالدور التشريعي في المجتمع وكذلك المكانة العالية للملك لدى المجتمع، وكان لبعض الملوك ألقاب تأتي قبل اسم الملك ومن هذه الألقاب (ذ أسلعن) أي ملك الجبال و(ذ منعن) أي صاحب المنعة (أبوالحسن ٢٠٠٢م، ص٣٩، ١٠٣)، وكان الملك هو المهيمن على اقتصاد الدولة فهو المتصرف في الموارد الاقتصادية من زراعة وتجارة ورعي وفرض الزكوات ومتابعة جباياتها (نيلسون، ١٩٢٧، ١٢٧-١٢٨).

الاقتصاد اللحياني

استفاد الاقتصاد اللحياني من الموقع الاستراتيجي الذي تحتله العلا على طريق القوافل التجارية التي كانت تمر عبر بلادهم وكانت تجبى الضرائب والمكوس لقاء الخدمات التي تقدم لأرباب هذه القوافل، كما عمل الحيانيون في نقل التجارة من جنوب الجزيرة العربية إلى المناطق الحضارية في الجزيرة العربية وخارجها في بلاد الرافدين وبلاد الشام، وقدم التجار اللحيانيون نذورهم إلى المعبود اللحياني (ذوغيبة) عن الإبل التي تنقل التجارة، وإلى جانب التجارة عمل اللحيانيون في حرفة الزراعة التي كانت تمثل المورد الأساسي في الاقتصاد اللحياني، حيث أن وفرة المياه و خصوبة التربة ساعدا على قيام نهضة زراعية في منطقة النفوذ اللحياني في ذلك الوقت (ابوالحسن، ١٩٩٧، ٣٩٩)، وقد وصف الجغرافي إراتوستينس منطقة نفوذ لحيان بأنها منطقة تنتج أشجار النخيل وبعض الأشجار الشوكية وأشجار الطرفاء وذلك عند حديثه عن منطقة شمال غرب الجزيرة العربية (يحي، ١٩٧٩، ٢٩٦-٢٩٧)، كما أن الكتابات اللحيانية تضمنت الكثير من المفردات المرتبطة بهذه الحرفة مثل كلمة (خرف) التي تعني ثمار الخريف، و(دثأ) التي تعني ثمار الربيع، و(ثبرت) وهي الأرض الزراعية، و(مو) وهو الماء، وتكرار مثل هذه الألفاظ في النقوش دليل وجود زراعة منظمة عند ذلك المجتمع تبدأ بملكية الأرض ثم زراعتها وسقيها وجني المحصول وتقديم نصيب المعبد من هذا المحصول كما جاء في النقوش، ونظرا لتوفر المراعي في المنطقة المحيطة بالحاضرة التي يقطنها اللحيانيون فقد كان الرعي أحد مقومات الاقتصاد اللحياني (أبوالحسن، ١٩٩٧، ٤٠١).

الديانة

كان المجتمع اللحياني مجتمعاً وثنياً كبقية معظم المجتمعات في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان للدين مكانة كبيرة لديهم ويتضح ذلك من اهتمامهم ببناء المعابد الذي يعد بيت الإله ومن الأعمال التي كان الملوك وعامة الناس يتقربون ببنائها إلى الآلهة، ووجد في العلا (عاصمة اللحيانيين) مجموعة من أماكن العبادة في الخريبة وجبل أم درج ودنن جميعها مخصصة لعبادة المعبود الرئيس للحيانيين «ذو غيبة»، كما وجد معبد في تل الكثيب مخصص لعبادة المعبود الكتبى، وأمدتنا الكتابات اللحيانية التي اكتشفت في منطقة العلا بمعلومات جمة عن الديانة في المجتمع اللحياني ومن خلالها تعرفنا على أسماء عدد من المعبودات اللحيانية وكذلك بعض الطقوس التي كانت تمارس في ذلك الوقت مثل القرابين والنذور التي كان لها المقام الأول في العبادة اللحيانية، ومن الأشياء



مذبح في جبل أم درج
تصوير اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silvera)

التي كانت تقدم للآلهة الزكاة وكانت تسمى طلل، وهي أعشار مفروضة على نتاج الأرض والثروات الأخرى، ونتيجة لهذه التقدمات نجدهم حسب ما ورد في النقوش أنهم مقتنعون تماما بأن المعبود سيرضى عنهم لأنهم آثروه على أنفسهم وقدموا له أثمن الأشياء، ولهذا نجدهم اختتموا معظم النقوش الخاصة بالتقدمات بألفاظ الماء مثل: « فرضيهم، وأسعدهم، وأثابهم»، ومن الشعائر الدينية التي مارسها اللحيانيون شعيرة الحج حيث أشارت نقوشهم خاصة التي وجدت في جبلي عكمة وأم درج إلى أنهم كانوا يحجون لمعبودهم «ذوغيبة» (أبوالحسن، ١٩٩٧، ٣٨٣-٣٩١).

الخط اللحياني

تتكون الأبجدية اللحيانية من ٢٧ حرفا وهي حروف العربية الحالية ما عدا حرف الظاء الذي لم يظهر في الكتابات التي تم اكتشافها حتي الوقت الحاضر، واشتقت الكتابة اللحيانية من كتابات المسند الجنوبي بعد إجراء التعديل والتبديل في أشكال بعض الحروف، واستخدم الخط العمودي أو النقطة للفصل بين الكلمات في الكتابة اللحيانية غير أن بعض الكتاب لم يتقيدوا بهذا، وكتبت معظم النقوش اللحيانية في أسطر متوازية أو شبه متوازية وفي بعض الأحيان يوضع خط أفقي يفصل بين السطر والآخر، وتبدأ الكتابة من اليمين وتتجه إلى اليسار، ويلاحظ أن الكتاب اللحيانيين لم يتقيدوا بهندسة أشكال الحروف كما هو متبع في كتابات المسند الجنوبي، ونتج عن ذلك وجود عدد من الأشكال للحرف الواحد.

ومن أبرز المواقع التي وجدت بها كتابات لحيانية بمنطقة العلا هي الخريبة وجبل عكمة ووادي المعتدل ودنن وأبو عود والرزيقية، إضافة إلى ما كتب على امتداد طرق التجارة المرتبطة بمنطقة العلا.

نهاية مملكة لحيان

يرى أغلب المؤرخين أن نهاية مملكة لحيان كانت في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، وتذكر النصوص التاريخية أن هناك ملكا اسمه مسعود نصب نفسه ملكا على اللحيانيين واستخدم الكتابة النبطية حيث تم الكشف عن ثلاثة نقوش تحمل اسمه، واستخدامه الكتابة النبطية يؤكد أن هذا الملك ليس لحيانيا، وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يشير إلى كونه نبطيا، خاصة وأن ملوك الأنباط يحملون أسماء مثل حارثة، ورب إل، وعبادة، ومالك، ولهذا أجمع المؤرخون على أن مسعودا لم يكن من ملوك الأنباط ولكنه قد يكون مغامرا جاء من منطقة ذات ثقافة نبطية إلى الشمال من ديدان (العلا)، ولعل مسعودا أول من قطف ثمار امتداد نفوذ الأنباط جنوبا، إذ ما لبثوا أن استولو على المنطقة الممتدة من الحجر (مدائن صالح) إلى ديدان (العلا) في نهاية القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد واتخذوا من الحجر (مدائن صالح) عاصمة ثانية لهم بعد البتراء، وسادت حضارتهم في المنطقة حتى سقوط مملكتهم على يد الرومان سنه ١٠٦ ميلادي.

أبرز المواقع اللحيانية

الخريبة

تقع الخريبة في الجهة الشمالية الشرقية من العلا، وتعد من أبرز المواقع الأثرية التي تعود للحضارة اللحيانية وأقدمها، إذ أنها تمثل جزءاً من (ددن) التي كانت عاصمة مملكة ديدان ولحيان ويضم الموقع مجموعة من التلال الأثرية منتشرة في الموقع تم التنقيب في جزء منها (المنطقة الواقعة بالقرب من الحوض الدائري المحفور في الصخر) من قبل بعثة جامعة الملك سعود وكشفت نتائج الحفريات عن منشأة دينية بالإضافة إلى كم كبير من المعثورات من أبرزها التماثيل الآدمية والنقوش الكتابية والمجامر وكسر الأواني الفخارية.

كما يوجد بالخريبة عدد من المقابر المنحوتة في سفح جبل دادان (جبل الخريبة) على ارتفاعات متفاوتة، وتختلف هذه المقابر عن بعضها البعض فمنها ما هو على شكل غرفة منحوتة في الصخر حفر بداخلها مجموعة من المدافن على شكل مستطيلات تتوزع في أرضية الغرفة وجدرانها، وهذا النوع من المقابر يشبه إلى حد ما تلك المقابر الموجودة في الحجر (مدائن صالح) من الداخل إلا أن مقابر الحجر تتميز عنها بدقة النحت وتخطيط المقبرة من الداخل والاهتمام بالعناصر الزخرفية على الواجهة من الخارج، وهذا ما تفتقده مقابر الخريبة، وهناك نوع آخر من المقابر عبارة عن تجويف بشكل متوازي المستطيلات يتسع لجثة شخص واحد، وتتراوح أبعاد هذا النوع من المقابر بين مترين ومترين ونصف طولا، وستين إلى ثمانين سنتيمترا عرضا وسبعين سنتيمترا إلى متر ارتفاعا، كما توجد بعض المقابر على شكل حفرة مستطيلة نحتت في أرضية الجبل تتسع لجثة واحدة. وبعض هذه المقابر تحمل نقوشا كتابية بأسماء أصحابها. وتعد مقبرتي الأسود من أبرز مقابر الخريبة حيث تميزت بنحت أربعة أسود كل أثنين على مقبرة.

عكمة

يطلق اسم عكمة على أحد الجبال الواقعة إلى الشمال من العلا، ويتركز وجود النقوش على ضفتي واد صغير ينحدر من هذا الجبل وكذلك على الصخور المتناثرة في وسط الوادي، ويعد هذا الموقع بمثابة المكتبة التي جمع بها جزء من تاريخ ديدان ولحيان وحضارتها، خاصة ما يتعلق بالأمور الدينية. فقد دون اللحيانيون مجموعة كبيرة من النقوش تميزت بإتقان الخط وجماله، حيث وجدت مجموعة من النقوش المكتوبة بحروف بارزة وأخرى بحروف غائرة وبعض هذه النقوش مؤرخ بسنوات حكم ملوك لحيان، ومن دراسة نقوش جبل عكمة أمكن الكشف عن معلومات كانت غير معروفة عن الاقتصاد والتجارة والخراج والزكاة في مملكة ديدان ولحيان، ومن ذلك أن عبدة المعبود الرئيس للحيانيين «ذو غيبة» كانوا يأتون من أماكن بعيدة مثل عمان في الشمال وبدر في الجنوب ليقدمو الزكاة والقرابين لمعبودهم، وكانت الزكاة والقرابين والنذور تتمثل في الإبل والأغنام والثمار والحبوب والأراضي، كما قدمت نقوش عكمة معلومات عن وظائف لم تكن معروفة مثل قيام كهنة المعبود «ذو غيبة» برحلات لجمع الزكاة وكان الرجل من هؤلاء يسمى « سلحا» والمرأة تسمى «سلحة». إلى جانب ذلك أظهرت النقوش اللحيانية في جبل عكمة أنماطا من اللهجات العربية سلطت الضوء على العديدى من المفردات العربية، إضافة إلى ذلك

المصادر والمراجع العربية:

- **القرآن الكريم.**
- أبو الحسن، حسين بن علي دخيل الله، (١٩٩٧): **قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- أبو الحسن، حسين بن على دخيل الله، (٢٠٠٢): **نقوش لحيانية من منطقة العلا – دراسة تحليلية مقارنة، الرياض**، وكالة الآثار والمتاحف
- الأنصاري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، (د.ت): **لسان العرب**، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف.
- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، (١٩٧٥): «لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية» **مجلة الدارة**، العدد الأول.
- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، (١٩٩٠): «بعض مدن القوافل القديمة في المملكة العربية السعودية» **البتراء ومدن القوافل**، عمان: دائرة الآثار العامة.
- بافقيه، محمد عبدالقادر (وآخرين)، (١٩٨٥): **مختارات من النقوش اليمنية القديمة**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- بستون، أ.ف.ل (وآخرون)، (١٩٨٢): **المعجم السبئي**، بيروت: مكتبة لبنان.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ)، (١٩٥٨): **الاشتقاق**، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الذييب، سليمان بن عبدالرحمن، (١٩٩٨): **نقوش الحجر النبطية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- الروسان، محمود محمد، (١٩٧٨): **القبائل الثمودية والصفوية – دراسة مقارنة**، الرياض: جامعة الملك سعود.
- سيد عبدالمنعم عبدالحليم، (١٩٩٣): **البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة: مجموعة بحوث نشرت في الدوريات العربية** والأوربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- ظاظا، حسن، (١٩٨٤): «المجتمع العربي القديم من خلال اللغة»، **دراسات تاريخ الجزيرة العربية**، الكتاب الثاني، الرياض: جامعة الملك سعود.
- عبدالعليم، مصطفى كمال، (١٩٨٤): «تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني»، **دراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام**، الكتاب الثاني، الرياض: جامعة الملك سعود.
- علي، جواد، (١٩٨٠): **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٣**، بيروت: دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة.
- المعاني، سلطان عبدالله، (١٩٩٩): «التكريس عند العرب القدماء – دراسة في النصوص النقشية»، المنارة، العدد الأول.
- نصيف، عبدالله آدم، (١٤١٣هـ): «نقوش معينية من العلا»، الدارة، العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة، رجب، شعبان، رمضان.



نقش في عكمة، تصوير اومبرتو دا سيلفا (Humberto da Silvera)

توجد رسوم لأشكال آدمية وحيوانية ورسوم لبعض الآلات الموسيقية (سمسميات) والتي يبدو من نحتها أنها تعودة لفترة زمنية أقدم بكثير من النقوش(الأنصاري، ٢٠٠٥، ٢٦-٢٧).

تل الكثيب

موقع تل الكثيب متوسطا بين الخريبة وعكمة على بعد ثلاثة أكيال إلى الشمال الغربي من موقع الخريبة الأثري ويعد امتداداً للخريبة، وهو عبارة عن تل تغطيه الرمال وتنتشر على سطحه كسر لأوانٍ فخارية بعضها عليها زخارف هندسية بالألوان، وكشفت نتائج التنقيب في التل عن أساسات لمنشأة دينية للمعبودٍ اللحياني (الكتبى) ووحدات سكنية بعض جدرانها مبنية من الحجر وبعضها الآخر من الطوب اللبن، كما أن بعض الأرضيات مبلطة بالحجارة المصقولة، كما تم العثور على مجموعة من الدمى بأشكال وأحجام مختلفة وبعض الأواني الفخارية والنقوش الكتابية إضافة إلى بعض العناصر الزخرفية المنحوتة على بعض الحجارة المستخدمة في البناء (الزهر اني، ٢٦٩، ٢٠٠٧-٢٧٥).

الحجر

تقع الحجر على بعد ٢٢ كيلا شمال العلا، وعرفت الحجر الاستقرار السكاني منذ أقدم العصور وذلك لتوفر المقومات الأساسية للاستقرار من مياة وتربة خصبة فضلا عن وقوعها على طريق التجارة، وقد ورد ذكر الحجر في القرآن الكريم، وأكدت النصوص القرآنية أن الحجر كانت مأهولة بالسكان في الألف الثالث قبل الميلاد على أقل تقدير إذ سكنها الثموديون في تلك الفترة.

وشهدت الحجر وجودا لحيانيا في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، فهناك مجموعة من الكتابات اللحيانية في مواقع مختلفة في المنطقة، من أهمها النقوش المكتوبة في قمة جبل إثلب التي كان يرابط عليها المراقبون اللحيانيون لمتابعة حركة القوافل التجارية القادمة من الشمال والشرق، واستمر وجود اللحيانيين في الحجر حتى تغلب عليهم الأنباط واتخذوا من الحجر عاصمة ثانية لهم في الجنوب بعد البتراء، وكان ذلك في مطلع الألف الأول أو قبل ذلك بقليل (الأنصاري، ٢٠٠٥، ٥٦-٥٧).

المصادر والمراجع غير العربية:

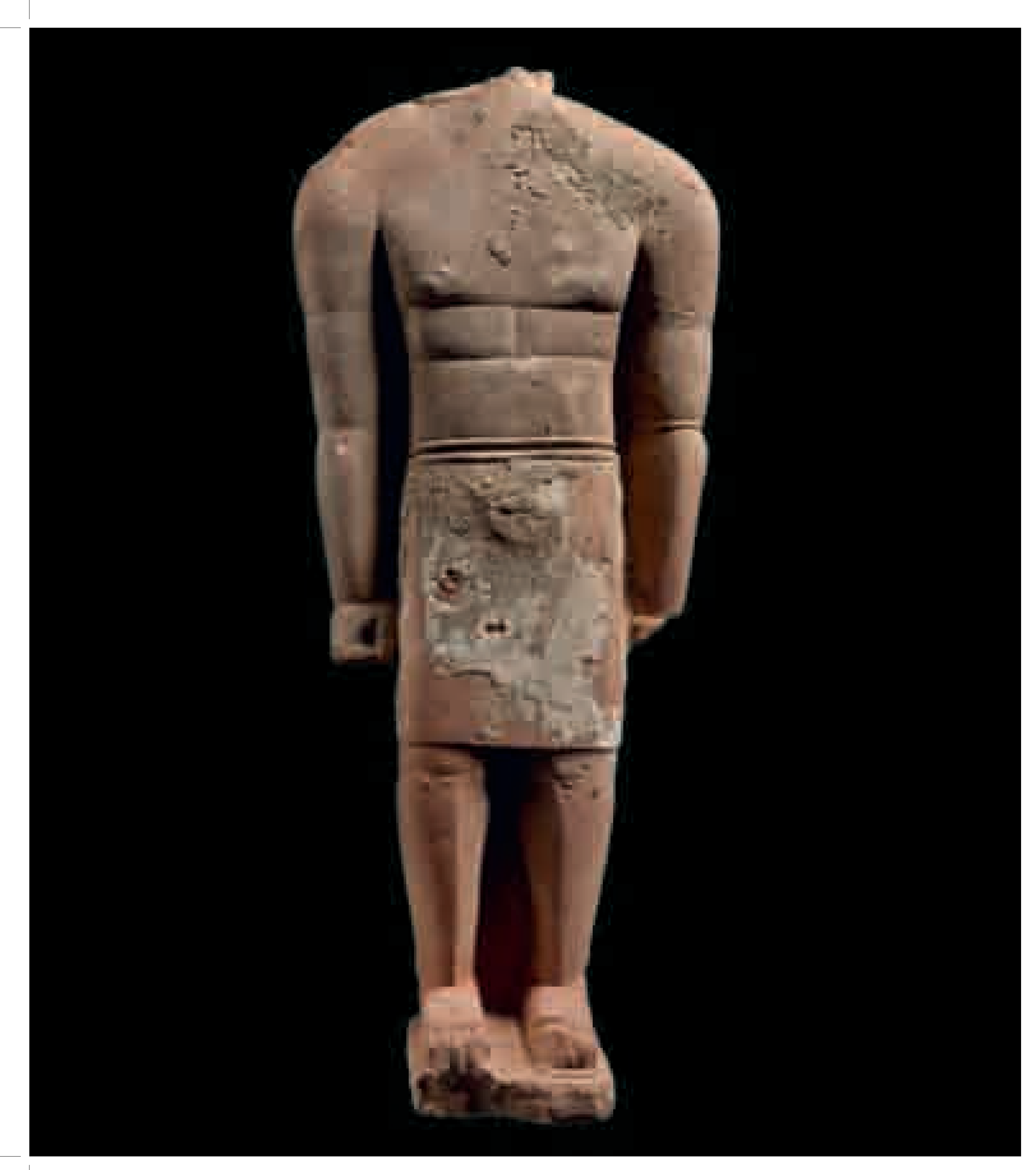
Abdallah, 1975 ; Kamal, 1984 ; Abû al-Hasan, 1997 ; Abû al-Hasan, 2002 ; Jawad, 1980 ; Al-Ansari, 1975 ; Al-Ansari, 1990 ; Al-Ansary, 1966 ; Al-Ansary, 1970, p. 53-60 ; Bafqih *et al.*, 1985 ; Bastoun *et al.*, 1982 ; Cantineau, 1978 ; Caskel, 1954 ; *CIH ; CIS V* ; Coran ; Al-Dhabib, 1998 ; Harding, 1971 ; Ibn Darid, 1958 ; Jaussen et Savignac, 1914-1922 ; Al-Khraysheh, 1986 ; Al-Maani, 1999 ; Nasîf, 1988 ; Nassif, 1413 H. ; *RES ;* Al-Roussan, 1978 ; Al-Said, 1995 ; Abdul Halim, 1993 ; Winnett, 1937 ; Winnett, 1939, p. 3-91 ; Winnett et Reed, 1970 ; Zaza, 1984.

المنحوتات الحجرية

تنتمي هذه المنحوتات الضخمة الثلاث، الحديثة الإكتشاف، إلى مجموعة هامة من تماثيل رجالٍ أُخرجت الى النور في معبد الخُرَيْبَة. قد استدلَّ الراهبان جوسن وسافينياك الى التماثيل الأربعة الأولى إبان رحلتهما الاولى عام ١٩٠٩، وكان تمثالان منها متجزأين جداً. بعد ذاك، أتاحت الحفريات، التي قامت بها بعثة قسم الآثار في جامعة الملك سعود، إكتشافَ ما يزيد على عشر منحوتات مماثلة، البعض منها بالغ الضخامة. وكانت هذه التماثيل مصفوفة على سطيحات، تحت أروقة، بطريقة تسند بها ظهورها الى الجدران، وكُتِب على أحدها إسم ملكٍ لحياني.
ويُرَجَّح أن التماثيل الضخمة الثلاثة المعروضة هنا تمثّل أيضا ملوكاً لحيانيين. ويتخذ كل منهم وضعاً مجابهاً يقابل الناظر، بينما تمتد الذراعان بمحاذاة الجسم وتنقبض اليدان. أما الساقان فهما متوازيتان في مسطح واحد وتثبتهما دعامة خلفية تنتهي دون مستوى الخصر. وإن كانت إحدى المنحوتات (د. المعرض رقم ١١١) كتلية الهيئة ومنحوتة بطريقة غير متقنة بعض الشيء، فإن معالجة الإثنتين الأخريين (د. المعرض رقم ١١٢ ورقم ١١٣) تحاكي الطبيعة وتشهد على مهارة النحّات العالية. يبدو أن أسلوب هذه المنحوتات الضخمة قد تأثر كثيرا، رغم أصالته المبتكرة، بالنحت المصري المعاصر له، وتنوّه بذلك بقايا الألوان المحفوظة. وقد أتاحت عمليات الترميم المجراة في متحف اللوفر إبراز الألوان المذكورة. ان كلَّ الاجزاء العارية من جسمَيْ التمثالين (د. المعرض رقم ١١٢ ورقم ١١٣) مزيّنة بلونٍ أحمرٍ داكن بينما غطّى الطلاء الأبيض إزاريهما. ويبدو أن كامل المنحوتة الثالثة (د. المعرض رقم ١١١) كان مطلياً بطبقةٍ قطرانية النوع تؤمن لها لونا أسود. كما طُلِيَ الرأسان (د. المعرض رقم ١١٤ ورقم ١١٥) بالطلاء القطراني عينه الذي يشكّل اليوم نوعاً من قشرة سميكة متشققة. ويشهد تتالي طبقات الطلاء على أن هذه التماثيل كانت تطلى من جديد بصفة دورية.
كما أتاحت عمليات الترميم في متحف اللوفر إعادة الرأس إلى إحدى المنحوتات (د. المعرض رقم ١١٢) وإعادة القدمين المنتعلتين خفاً إلى أخرى (د. المعرض رقم ١١١).

١١١. تمثال رجل
القرن الـرابع أو الـثالث قبل الميلاد
حجر رمـلي أحمر
٢٥٦ x ٨٠ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢د١٣٤

تمثال آدمي منحوت من الحجر الرملي، أكبر من المقاس الطبيعي، بدون رأس. طُلِيَ الجذع وطُليت القدمان بمسحوق دقيق من القطران الرمادي اللون حتى الحصول على لونٍ أسود داكن. يرتدي الشخص جلباباً يمتد من الخصر إلى الركبتين، مغطى بالطلاء، ومشدوداً إلى الخصر بواسطة حزام مزدوج. الذراعان ممدودتان بمحاذاة الجسم، اليدان مقبوضتان.
أنجز الفنان عملا ثلاثي الأبعاد وحرص على إبراز التفاصيل العضوية في عضلات الجذع والبطن والذراعين والساقين. كما حفر قناةً في الظهر تمثّل العمود الفقري. الساقان متوازيتان وقليلتا التباعد، تربط بينهما دعامة جلية في الأقسام الخلفية من المنحوتة، تهدف إلى تثبيت إرتكاز التمثال وحمايته من الكسر المحتمل جرّاء وجود فرجة بين الساقين. والجدير بالذكر أن قدمي المنحوتة وُجِدَتا بمعزلٍ عن التمثال.
تدفع سِمات التمثال الفنية الى الظن أنه ينتمي إلى طريقة النحت اللحيانية، مع بعض التأثيرات الآتية من سورية ومن مصر القديمة. S. S.





١١٢. تمثال رجل،
مكسور عند مستوًى الركبتين
القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد
حجر رمـلي أحمر
٢٣٠ x ٨٣ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٤د١٣٧ و٤د١٣٦

جزء من تمثال آدمي منحوت من الحجر الرملي. يُرَجَّح أنه يمثّل مَلِكاً لحيانياً. منتصب القامة، ملتـصق الـقدمـيـن، أكبر من المقـاس الطبـيعي. ينقصه الوجه ولا وجود للقسم الأسفل من الساقين. الذراعان ممدودتان بمحاذاة الجسم وملتصقتان به. اليد اليسرى مقبوضة واليد اليمنى مكسورة عند الساعد. الذراع اليسرى مزيّنة بحلية مكوّنة من فص مستدير الشكل. هنالك قناة في الظهر تذكّر بالعمود الفقري. يرتدي الشخص جلباباً قصيراً يمسكه في القسم العلوي حزامٌ مزدوج يحيط بالخصر. صفحة التمثال مصقولة. أبرز الفنان عضلات الساعدين والركبة والجذع والبطن. تم العثور على رأس التمثال مفصولا عن جسمه. ضُرِب الوجه بالمطرقة ولا يـبقى منه سوى الأذنيـن وقسم من العمامة الملفوفة على الرأس.
يشابه أسلوب المنحوتة أسلوب مجموعة من التماثيل الكبيرة والصغيرة المكتشفة أيضا في معبد دادان. وينتمي إلى مدرسة النحت اللحيانية، ذات السمات المحلّية الجليّة الوضوح، ولكنه تعرّض لتـأثيـرات فنية آتية من مصر القديمة أو من سورية. S. S.



١١٣. تمثال رجل
القرن الـرابع أو الـثـالث قبل الميلاد
حجر رمـلي أحمر
٢٣٠ x ٨٠ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٤د١٤٠

تمثال منتصب، أكبر من المقاس الطبيعي، يُرَجَّح أنه يمثـل ملكاً لحيانياً. منحوت من الحجر الأحمر الرملي وهو لا رأس له ولا رقبة ولا يدين ولا قدمين. الذراعان متدّليتان بالجانبين. الذراع اليسرى مزينة بحلية مكوّنة من فص مستدير الشكل. يرتدي الشخص جلباباً قصيراً يمسكه عند الخصر حزامٌ مزدوج ذو عقدتين على الأطراف. وتنتهي إحدى العقد بنتوء يُظهر طرفها العقدة. تحت القدم، يسعنا أن نرى قسما من النعل. صفحة التمثال مصقولة. نجح الفنان في إبراز العناصر العضوية ويظهر ذلك جليا في تمثيل عضلات الجذع والبطن وفي ما تبقى من عضلات الساعدين والساقين. تغطي طبقةٌ من الجص الجلباب. تدفع كافة هذه الميزات الى الظنّ أن المنحوتة تنتمي الى مدرسة النحت اللحيانية، ذات السمات المحلّية الجليّة الوضوح، ولكنها تعرّضت لتأثيرات فـنـية آتية من مصر القديمة أو من سورية. S. S.



١١٤. رأس تمثال
القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
٥٠ x ٣٢ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢د٢٨٥

رأس رجل منحوت في الحجر الرملي. يحتفظ الرأس ببقية حجاب، الجبهة محاطة بعصبة ممثّلة بخط جلي للعيان، يشابه الضفيرة القسم السفلي من الحجاب. الجبين عريض والحاجبان مقوّسان وحسنا الرسم ومتصلان ببعضهما البعض. هنالك حزّ عمودي يوسم الجبين ويتعامد طرفه الأسفل مع نقطة إلتقاء الحاجبين. الذقن عريضة ومستوية ومحزّزة في وسطها. العنق منتفخ عند مستوى الحلق. الرأس مكسور في قسمه الخلفي. تغطي الوجه طبقة من القطران المتفتت في بعض الأماكن.

S. S.

١١٥. رأس تمثال
القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
٥٥ x ٣٠ x ٢٨ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢د٢٧٥

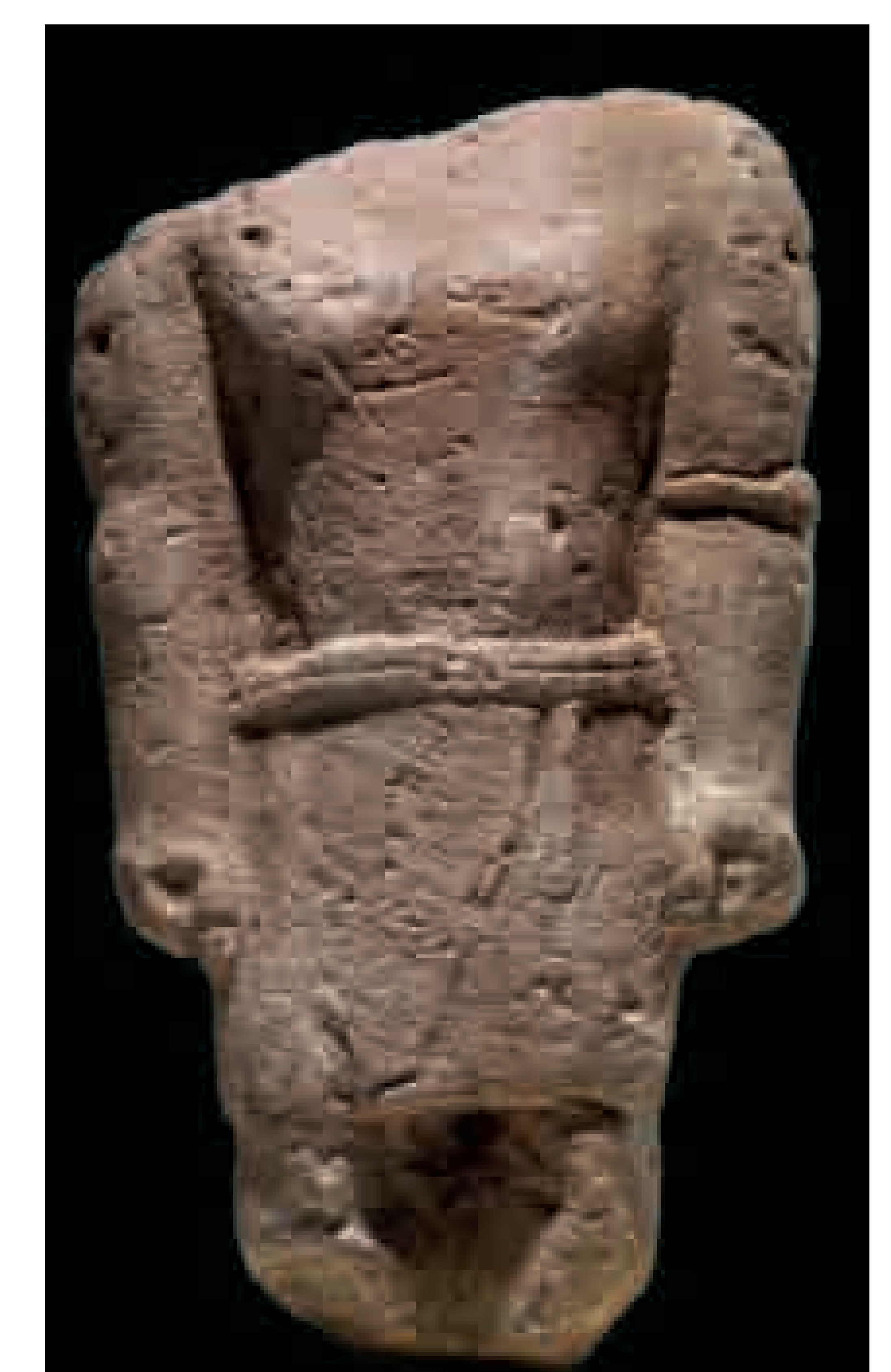
رأس رجل منحوت في الحجر الرملي، أكبر من المقاس الطبيعي. نرى على الرأس بقية حجاب يشكّل قسمه الأسفل خطين متوازيين واضحين يتخذان شكل عُصابة. الجبين عريض والحاجبان حسنا الرسم. العينان محفورتان بشكل لوزي. أما طرف الأنف فهو مكسور. الوجنتان مليئتان، الفم صغير والشفتان كثيفتان. الذقن بارزة ومستديرة. الأذن اليمنى فارقة وتجويفها طويل ومقوّس. يبقى على الرأس قسم من الأذن اليسرى وجزء يسير من الرقبة. الرأس مكسور في قسمه الخلفي. الوجه مغطّى بطبقة من القطران الأسود المتفتّت في عدة أماكن. والجدير بالذكر أن هذا الرأس أُعيد استعماله بمثابة حجر بناء في تشييد جدار.

S. S.

١١٦. جزءٌ من تمثال
بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل الميلاد
حجر كلسي رملي
٤٧ x ٢٥ x ١٣ سم
العُلا
الرياض، المتحف الوطني، ٩٩٩

تمثال من الحجر الرملي، بدون رأس ولا أرجل. إختفى قسم من الكتف اليمنى. يبدي باقي التمثال أن الشخص منتصب، ملتصق الساقين. الذراعان ممدودتان بمحاذاة الجسم. يحيط بالساعد الأيسر حلية ظاهرة للعيان. اليدان مقبوضتان. يرتدي الشخص إزاراً قصيرا ويحيط بخصره حزامٌ مزدوج. إن أعلى الجسم عارٍ، مما ترك للفنان كامل الإمكانيات لرسم عضلات الجذع والبطن والساعدين، كما حفر في الظهر حفرةً غائرة تمثل العمود الفقري. تتيح كافة هذه الميزات الظن أن هذه المنحوتة تنتمي إلى طريقة النحت اللحيانية، ذات السمات المحلّية الجليّة، ولكنها تعرّضت لتأثيرات فنية آتية من مصر القديمة أو من سورية.

S. S.





١١٧. جزء من مذبح أو من مجْمَرَة
القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
الإرتفاع ٤٨ سم؛ القطر ٢٨ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٨٠د٢

نُحِتَت هذه القطعة في الحجر الرملي الاحمر الـمَحَلِّي، ويزيّنها شريطان منقوران نقرا قليل الغور لتمثيل مسيرة حيوانات من فصيلة الماعز. وكانت القطعة إما ساق مذبح أو ساقٍ مجمرة. ويُقَدَّر كامل إرتفاع الأصل بما يتراوح بين ٨٠ سنتيمتر ومتر واحد: ما زلنا نرى مثالا كاملا محفوظا في موقعه في المعبد الموجود على قمة جبل أم درج. وهو مكوّن من ساق أسطوانية تعلوها كتلة متوازية الصفحات حُفِرت صفحتُها العليا حفرا خفيفا: يُخمَّن أن النُّقْرة كانت مُعَدَّة لإستقبال القرابين. F. D.



١١٨. نحت مزيَّن بأسد
بين القرن السادس والرابع قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
٣٣ x ٤٦ x ١٥ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٥د٢

يمثِّل جزء البلاطة هذا لبوةً تُرضِع وليدها. وان الرسم اذ يتضح على أرضيّة ملساء ناعمة، منقورٌ في شكل صفحة منبسطة بارزة مرسومة بطريقة بدائية بعض الشيء. ويلازم صورة الأسد شحنةٌ رمزية عالية: إنه حيوان خطر وكان يُعْتَبَر لذلك بمثابة حارسٍ مريع. ونراه في كافة أنحاء الشرق الأدنى، مُمَثّلاً عند أبواب المعابد والقصور لحراسة مداخلها. في العُلا، هنالك زوجان من الأسود يحرسان قبرين محفورين في جرف الخريبة الصخري. F. D.



١١٩. نقش لحياني
بين القرن الخامس والثاني قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
٢٣ x ١٤ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١د١٦٩

...]Ddn b-N...
...] f-lyrb...
...]f-lbyd

بإستثناء كلمة **ددن**، يصعب تفسير باقي النص. و**ددن** إسم جبل، أي الجبل الذي يُطلق عليه اليوم إسم جبل الخريبة، ونجد في أسفله أهم موقع من الواحة اي جبل أم درج الذي يعلو قمته معبدٌ وبقايا أثرية هامة. ونستنتج من النصوص المنقوشة أن الموقع كان مكانا مرتفعا مخصصا للقيام ببعض الطقوس الدينية.
S. F.

١٢٠. نقش لحياني
بين القرن الخامس والثاني قبل الميلاد
حجر رملي أحمر
٨٦ x ٣٧ x ٣٠ سم
العُلا
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود ٥د٣٣٨

h-Ṣyġ h- =	الحرفي (الصائغ، صانع السهام)
wdq h-m =	قدّم هذا
mṯlt l-ḏ- =	التمثال الصغير إلى
Ġbt f-[r] =	ذو غبات
[ḍyhm]	ليرضى عنهم

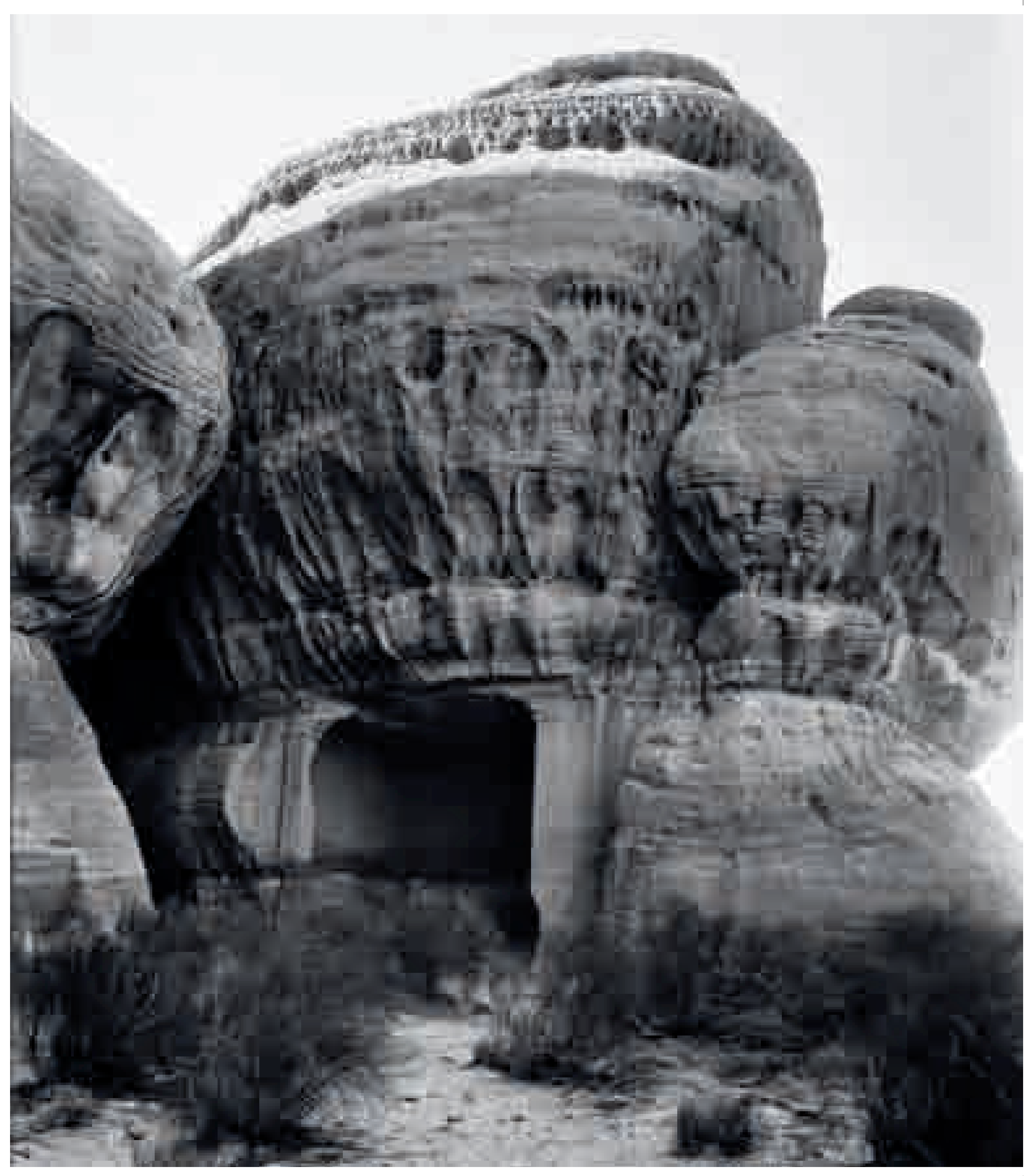
نجهل مصدر هذا النقش إلا أن أسلوب رسمه مطابق لأسلوب عدة نصوص وُجدت في محافظة العلا - الخريبة ١، ويتميّز هذا الأسلوب بحروف ذات زوايا حادة وخطوط مستقيمة، خلافا لنقوش عِكْمة المستديرة بعض الشيء والسريعة الخط. تأتي النصوص د٤٢ و د٤٥ من خربة الخريبة حيث توجد آثار معبد وبقايا سور المدينة القديمة. يتبع النص د٤٢ بنيةً مماثلة لبنية هذا النص *ltṣr bn ʿmr hṣnʿ ʿbd l-mrʾ-h f-rḍy-hʾ* — علتس.ر بن عمر الحرفي صنع لربّه كي يكون راضيا عنه. في النص د٤٥ يتعلّق الأمر بتقديم تمثال صغير بمثابة قربان.
S. F.

١- S. Farès-Drapeau ؛ ٢٠٠٥، 5D، ١٢، ١٧، ٤٢ و ٦٤.



الحِجْر
في بلاد العَرب السعيدة

د. ليلى نعمة، ضيف الله الطلحي، أ. د. فرانسوا فيلنوف



تصوير الكاهنين جوسن وسافينياك للديوان، غرفة المآدب عند مدخل جبل إثلب

على خريطة بطليموس، توجد الحِجْر، وهي مدينة التخوم الجنوبية لبلاد الأنباط، في «بلاد العرب السعيدة»، شأنها شأن اليمن والبلاد العربية الوسطى (يستخدم بطليموس كلمة Arabia للدلالة على البلاد العربية). ولكن قد يتوقع القارئ أن يجدها في «البلاد العربية الصخرية» (Arabia Petrae) تسمية بطليموس للمناطق الصخرية الممتدة من ساحل البحر الأحمر حتى بادية الشام، وهو مصطلح يقف مقابلاً لمصطلح العربية الصحراوية التي تعني المناطق الرملية، إذ أنها تنتمي إليها بتاريخها وبحضارتها المادية. ولا شك أن المسألة تعود إلى وجهة النظر: هل يجب أن نعتبرها بمثابة النقطة القصوى لمجالٍ جغرافي شمالي، موجّه نحو الأردن وسورية والمشرق؟ أم بمثابة النقطة القصوى لمجال جغرافي جنوبي، ميدان البخور والممالك العربية الجنوبية في القرون الأخيرة التي سبقت التأريخ الميلادي: سبأ، معين، قتبان إلخ؟ من وجهة نظر المؤرخين وعلماء الآثار المهتمين بمملكة الأنباط وبالمقاطعات الرومانية الشرقية، تنتمي الحِجْر إلى المجال الجغرافي الذي يضم البتراء والحُمَيْمَة ووادي رَمْ، وهي المواقع النبطية الرئيسة في جنوب الأردن. أما من وجهة نظر المختصين بجنوب الجزيرة العربية فإن الحِجْر لا تنتمي إلى المجموعة الجغرافية التي تضم اليمن وممالكه. والأرجح، كما يحدث ذلك مراراً، أن أفضل وجهات النظر المناسبة لتفهم الموقع هي تلك التي تنظر إليه بمثابة مجال إلتقاء، عند تقاطع نفوذ بلاد العرب الشمالية وبلاد العرب الوسطى.

إن الحِجْر -التي يغلب عليها اليوم اسم مدائن صالح- أقل شهرةً بكثير من البتراء عاصمة الأنباط الموجودة حاليا في الأردن، تخرج الحجر رويداً من النسيان بفضل أعمال الرحالة الغربيين ومن أهمهم تشارلز داوتي الذي قدم مقابرها بصورة متكاملة، ثم الأبوان جوسين وسافيناك اللذان نشرا دراسة متكاملة عن مقابر مدائن صالح، ثم الأبحاث المنهجية التي قامت بها من ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٦م بعثة أثرية فرنسية عقبتها بعثة فرنسية سعودية ابتداءً من عام ٢٠٠٨م [١] وبفضل سياسة الانفتاح السياحي التي حبّذتها السلطات السعودية في السنين الأخيرة. كما يساهم تسجيل الموقع عام ٢٠٠٨م على قائمة اليونسكو للتراث العالمي في رفع شهرته من جديد.

إنتمت هذه المدينة بعض الوقت الى المملكة النبطية، التي كان رئيسها، حوالي ١٦٨ قبل الميلاد، شخصٌ يُدعى الحارثة ويُلَقّب بـ «طاغية العرب» (tyran des arabes)، ثم دخلت بعد ١٠٦م في المقاطعة العربية من الإمبراطورية الرومانية وتبعت أراضيها حدود المملكة المضمومة

١- وُضعت هذه البعثة تحت رعاية المجلس السعودي للآثار والمتاحف، علماً بان شركائهم الآخرين هم : «الشرق» UMR ووحدات البحث التابعة للمركز الوطني (الفرنسي) للأبحاث والعلوم CNRS والمسمّاة «الشرق والبحر المتوسط» Orient et Méditerranée و«آثار الماضي وعلومه» Archéologie et sciences de l'Antiquité مع جامعة باريس الأولى والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى. تؤمن وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في الرياض معظم الميزانية الآتية من الدولة الفرنسية، إلا أن البعثة تتلقى أيضاً مِنَحاً يمنحها كل من مجلس الشيوخ الفرنسي (Sénat) وشركة OTV Ile-de-France وشركة Total. وفازت هذه البعثة عام ٢٠٠٨م بالجائزة الكبرى التي تمنحها مؤسسة Fondation Simone et Cino del Duca.

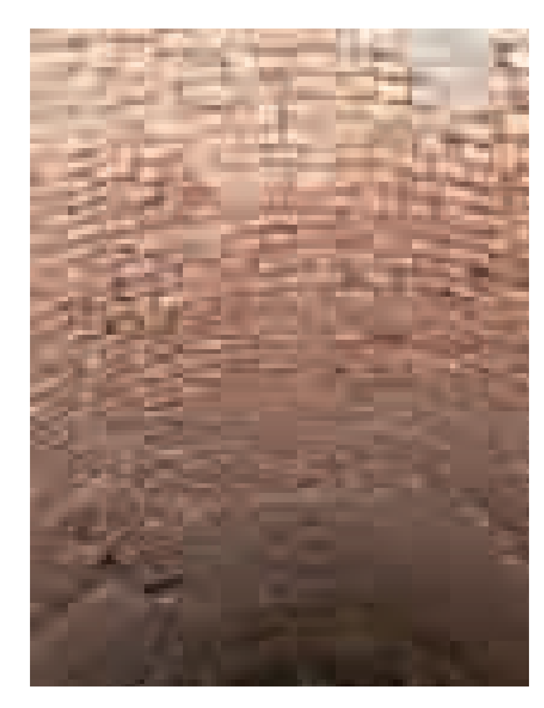
إلى الإمبراطورية. وكانت حدود هذين الكيانين السياسيين المتتاليين مبهمة نوعاً ما في الجنوب، ويبدو أنه بوسعنا أن نحصر مكان الحدود فيما بين الحِجْر وبين ددان القديمة، أي عاصمة مملكة لِحْيان في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، التي توجد على مسافة ٢٠ كم في جنوب الحِجْر. وبالرغم من صعوبة تطبيق مفهوم الحدود هنا، لأنه يفترض خطاً فارقاً لا أثر له في الصحراء، تميل النقوش المكتشفة إلى تبيان أن النقوش النبطية والمخربشات الإغريقية واللاتينية تكاد أن تختفي تماماً من الوجود في جنوب هذه المنطقة البينية.

بقي الموقع قليل الاستكشاف لفترةٍ طويلة بعد إعادة إكتشافه عام ١٨٧٦م على يد المسافر البريطاني شارلز دوتي الذي رافق، أثناء عام ١٨٧٦، قافلة حجّاج قادمة من دمشق ومتجهة نحو مكة. توقف دوتي في الحِجْر ليحرّر عنها وصفاً نشره في كتابه «رحلة في الصحراء العربية »[٢]. ويحوي هذا الكتاب معلومات غير واردة في أي كتاب آخر، ويذكر خاصة اكتشاف دوتي، في قبور الحجر، بعض البخور وبقايا التوابيت والسيور التي قد تشهد على وجود أكفان سابقة مصنوعة من الجلد. ويكاد يقتصر نتاج مسافري القرن التاسع عشر على جَمْع نصوص المنقوشات الكتابية. وأجريت في مطلع القرن العشرين العملية الاستكشافية المهمة الأولى في الموقع، على يد الراهبين الدومينيكيين اللذين أتيا من المدرسة التورانية والاثرية في بيت المقدس، إنطونان جوسن ورفائيل سافينياك. استفاد العالمان بغية إجراء هذه العملية من افتتاح خط الحجاز الحديدي الذي وصل دمشق بالمدينة المنورة، عندما فتحت محطة مدائن صالح أبوابها عام ١٩٠٧م. وبقيت «الرحلة الإستكشافية الأثرية إلى الجزيرة العربية» التي نشر جوسن وسافينياك مجلّدَيْها الأوّلَيْن المكرّسَيْن للحِجْر بين عامي ١٩٠٩م و١٩١٤م، المصدرَ التوثيقي الرئيس للموقع حتى نَشْر الأعمال الفرنسية السعودية الحديثة. ولم توفر الاستكشافات التي أجريت بعد الحرب العالمية الأولى إلا القليل من المعلومات الإضافية عن الحجر، باستثناء بضع مجموعات نقوش[٣] والمعلومات الناتجة عن التقاط كِسَر الخزف على سطح الموقع[٤]. جرت الحفريات الأولى بين ١٩٨٦م حتى١٩٩٠م ثم في سنة ٢٠٠٣م، عن طريق وكالة الآثار والمتاحف (قطاع الآثار والمتاحف) ولكن لم ينجم عنها إلى اليوم سوى بعض التقارير المختصرة.

ويُعرف الموقع بعدة أسماء: حِجْرا، الحِجْر، مدائن صالح. الأول منها هو الاسم القديم الوارد في المصادر الإغريقية واللاتينية، خاصةً منها بْلينوس[٥] وإسطفان البيزنطي[٦]. يشتق اسم Haegra أو Egra مباشرةً من النبطي «حِجْرا». ونجد هذه الأشكال في النقوش النبطية أو اللاتينية في المدينة. والحِجْر هو الاسم العربي الحالي الوارد باكراً في السورة القرآنية التي تُسمّى به. وهو المعادل الدقيق لاسم الموقع النبطي، لأن أل التعريف العربية السابقة للاسم تترجم حرف التعريف «ا» التابع له في النبطي حِجْرا. إلا أن مصدر الاسم غير جلي. ذلك لأن الجذر السامي حجر[٧] قد يدل على عدة معانٍ: «أحاط، دار حول» في اللغة الآرامية، بينما يعني حُجر أو حِجر بالعربية «ما هو محمي، ممنوع، غير مشروع» أو أيضاً ببساطة «السور، الحائط». وهذه هي إحدى الافتراضيات المقترحة مؤخراً لتفسير اسم الموقع: في الصحراء، حيث تبعد المستوطنات عن بعضها البعض، وحيث يفوق البعد أحياناً مئات الكيلومترات، قد يكون أن أدّى وجود السور المميِّز، الذي أحاط بهذه المدينة إبتداءً من القرن الأول الميلادي، إلى توليد اسم مكان يرمز إلى مفهوم الحماية والسور. ولكن تفترض هذه النظرية أن المحلة لم تكن مؤسّسة ومسمّاة قبل ذاك، أو أنها شاهدت إعادة تأسيسها في القرن الأول، وأن اسمها السابق قد تلاشى في النسيان. أما اسم مدائن صالح فهو حديث العهد، والأرجح أنه لم يسبق الفترة العثمانية. وهو يعني مدن صالح، إشارةً إلى القصة المتداولة القائلة ان صالح، وهو نبي سبق الإسلام، حاول دون جدوى أن يجلب لدين التوحيد سكان المنطقة المشركين، وهم الثموديون. يذكر القرآن رَفْضَ أهل ثمود عندما عقروا الناقة التي أتى بها النبي صالح بمثابة آية إلهية. ونتج عن ذلك هلاك كافة سكان المدينة فجأةً بغضب إلهي وليلاً (سورة الأعراف الآيات ٧١-٧٣ وسورة الحجر الآيات ٨٠-٨٤).

٢- Charles Doughty, édition française ١٨٨٨; Voyage dans l›Arabie déserte, ص١٦٨-١٩٢
٣- خاصةً ميليك وستاركي، ١٩٧٠.
٤- بار، هاردنغ ودايتون، ١٩٧٢.
٥- بلينوس القديم، التاريخ الطبيعي، الكتاب ٦، ص١٥٧.
٦- إسطفان البيزنطي، كتاب الشعوب.
٧- تستدعي كتابة الجذر السامي ح ج ر بالحرف اللاتيني استخدام حرف خاص للدلالة على الحاء، ويُعتمد حرف *h* وتحته نقطة.

الصورة ١. في مقدمّة الصورة، جبل الاحمر، وهو أحد الضروس الصخرية الرملية التي نُقِرَت فيها قبور الحِجْر النبطية. في المؤخرة، جبل العُوَيْرِضْ.



الصورة ٢. بئر نبطية محفورة جزئياً في الصخر وجزئياً في الأتربة الرسوبية.

تباعاً للكلام عن اسم الموقع، لنذكر في طريقنا أن موقعَيْ البتراء والحجر وقعا في التباس دام من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين. ذلك أن مترجمي جغرافية الإدريسي (الذي عاش في القرن الثاني عشر)، عندما حضّروا أول نشرة لاتينية لكتابه بعنوان (Geographia Nubiensis) عام ١٦١٩م، كانوا يجهلون اسم موقع الحجر الوارد لدى هذا المؤلف. فلفظوه حَجَرْ، مما يعني الصخر باللغة العربية. وعند ترجمة اللفظ إنتقوا كلمة petra اللاتينية بدلاً من الكلمتين saxum أو rupes التي تدل على المدلول عينه. من جراء ذلك، بدأ من البديهي للمؤلفين اللاحقين أن الموقع الذي وصفه الإدريسي هو البتراء في الأردن بدلاً من الحِجر/حِجرا في الجزيرة العربية. ودام هذه الالتباس حتى ١٨٣٠م على الأقل، لأن ليون دو لابورد قال (مخطئاً)، في كتابه «رحلة في البلاد العربية الصخرية»، أن المسلمين يدعون البتراء «حجر» (مضيفاً أن هذه الأمر يرجع إلى الكتل الصخرية المحيطة بالمدينة).

تبعد الحجر مسافات متساوية -ما يقارب ٣٠٠ كم على خط مستقيم- عن كلٍ من المدينة المنوّرة (يَثْرِب قبل الإسلام) ومن تَبوك. يوجد الموقع في سهلٍ داخلي يمتد عند سفح جبل العُوَيْرِضْ، وهو هضبة بازلتية من جبال الحجاز الشرقية (الرسم ١)[٨]. تتوزع في هذا السهل تضاريس من الصخر الرملي العائد إلى العصر الباليوزوي، متفاوتة الارتفاع والتشكيل، نشأت عن الحت العنيف الذي ساد المنطقة في أواخر عصر الميوسين (بين ١٣ مليون و٥ ملايين سنة قبل اليوم). يعبرها واد يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتكثر النباتات على مجراه. يختلف لون الصخور الرملية في مدائن صالح، فهي بنّية مائلة إلى الحمرة بالنسبة للصخور الكامبرية، وهي أقدمها، أو مائلة إلى البياض بالنسبة للصخور الأردوفيسية، وهي أحدثها. تُسهِّل بُنْيَتُّها الناعمة القطع والحفر في الصخر، إلا أن مقاومتها للحت عالية التفاوت، وقد عانت كثيراً بعضُ طبقات الصخر الرملي من كلٍ من الحت الهوائي ومن الصعود المائي الشعيري المحمّل بالأملاح بالقرب من سطح الأرض.

إن المناخ السائد في منطقة مدائن صالح عالي الجفاف، ولا يفوق معدّل الهطول السنوي ٥٠ مم. إلا أن السهل يستفيد، من وجهة نظر الموارد المائية، من موقعٍ مميّز. لأنه يوجد في ميزاب طبيعي يجمع مياه الإنسياب الآتية من الكتل المحيطة به، ألا وهي جبل العويرض العالي في الغرب ومجموعة من التلال الصخرية الرملية الأقل ارتفاعاً في الشرق[٩]. تغذي هذه الانسيابات طبقة جوفية قريبة من سطح الأرض، توجد اليوم على عمق يقارب ٢٠م ولكنها كانت، بلا ريب، على أقل من ١٠م من السطح في العصور القديمة. لذلك أنشأ الأنباط في الحِجر وسائل استثمار للموارد المائية مختلفة كامل الاختلاف عمّا نجده في البتراء، حيث تعتمد منظومة توفير المياه على جر ماء بعض الينابيع المستديمة وعلى تحصيل مياه الإنسياب. فبالحِجر، لا نجد سوى صهريج واحد تغذيه قناة محفورة في الصخر، وهو مُعَدّ في قطاع الأوابد الدينية خارج السور، ولا يخدم إلا حاجات تلك الأخيرة. في باقي الموقع، في المقاطع التي لا تغطيها الكثبان، أي خاصةً في الغرب وفي الشمال وفي الشمال الغربي، حفر الأنباط عشرات الآبار -ما يقارب مئة وثلاثين- بأقطار تتراوح بين ٤م و٧م قد تصل إلى عمق ٢٠م (الرسم ٢). حُفِرت هذه الآبار في سماكات مختلفة من الأتربة الرسوبية، إلا أن معظم أقسامها السفلية محفور في الصخر الرملي ويتسع نحو الأسفل بطريقة تكبر منطقة التماس بين البئر والطبقة الجوفية. أتاح وجود هذه الآبار تطوير واحة مسقيّة، وأتاح بالتالي انتاج موارد غذائية قادرة على إطعام السكان المحليين، ولربما كانت قادرة على اطعام المسافرين المارين بها. وسهّلت جودة التربة، التي تعرّف عليها الجغرافيون العرب حتى القرن العاشر الميلادي، الشروع بالزراعة فيها.

تشهد البقايا النباتية المكتشفة في الحفريات الأثرية [١٠] عن امكانيات المنطقة زراعياً. نجد فيها الحبوب (الشعير المكتسي وفئات من القمح العاري)، والبقليات (العدس البسلات) العديد من الفواكه (يكثر التمر ولكن يوجد فيها أيضاً التين الزيتون والرمان اللوز العنب وصنف من الفواكه يثمر ثمراً أحمر من فصيلة العنّاب). ينتسب معظم أنواع الفواكه انتساباً صريحاً إلى حوض البحر المتوسط، ويرجع أنها كانت مستوردة باستثناء التمور الموجودة بكثرة. في شأن الحبوب، ان اكتشاف بقايا مواد الحصاد، أي ما يتبقى من مختلف مراحل التنظيف المنفذة هدفاً لعزل الحب عن المواد

٨ - انظر وصف الموقع جغرافياً في ريغو ٢٠٠٦م، في نعمة وأرنو وبسّاك ٢٠٠٦م، ص ص ٥٤-٧٣.

٩ - بالنسبة لموارد مدائن صالح المائية وآبارها، أنظر كوربون ٢٠٠٨.

١٠ - تؤمن شارلين بوشو دراسة البقايا النباتية المرئية، راجع بوشو في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م) ص ص ٢٩٩-٣١١.

الصورة ٣. توزيع الآثار وفق فئاتها على صورة الموقع الفضائية.

قبر أو مجموعة قبور

صرح للعبادة خارج جبل إثلب

الجزء الأبرز ظهوراً من السور

جبل إثلب ونواحيه

منطقة آبار

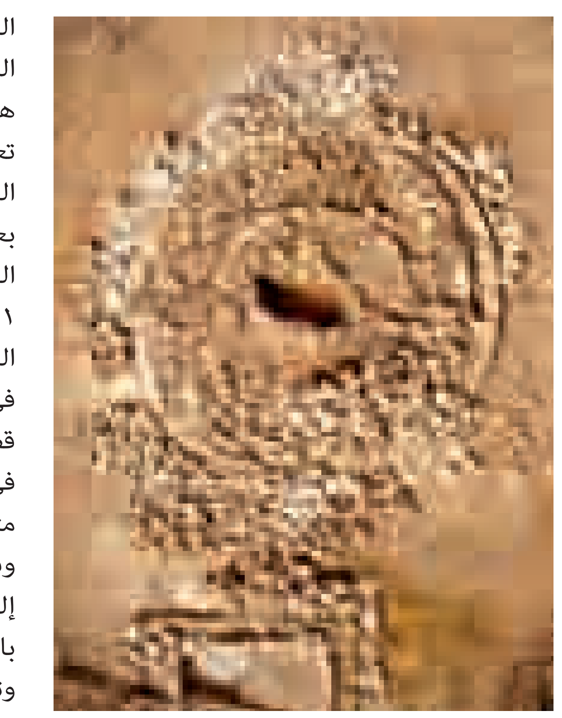
تصوير كويك برْد (QuickBird)، ٢٠٠٢

خرائط: ت. أرنو ول. نعمة

المعنية، أدّى إلى القول إن هذه الفصيلة من النباتات كانت مزروعة محلياً. أما في شأن البقليات، لم يوجد ما يثبت أنها كانت مزروعة محلياً، ولكن يسعنا أن نتخيل أن بعض قطع الأرض كان مكرساً لها. أخيراً، نرجّح زراعة الرمان والزيتون إثر اكتشاف بعض الفحم الخشبي والبذور المنتمية إلى هذه الأنواع.

وخلاصة الأمر إذن، وبالرغم من الظروف المناخية غير المؤاتية، ان الوصول إلى مصادر مائية وافرة نسبياً، الى جانب أراضٍ زراعية كافية من حيث المساحة التحكم بتقنيات الجر الري، أتاحت نمو المدينة وتطورها، إذ نتعرف فيها على قطاعات وظيفية جيدة التمييز (الرسم ٣).

إن أبرز الوظائف هي الوظيفة الجنائزية، ويرجع ذلك إلى ضخامة بقايا أوابدها. أجل، وكما هي البتراء في هذا المجال، أن أكثر البقايا بروزاً فيها هي القبو، وتشكل بقايا المدافن أول ما يشاهده الناظ، فهي توجد في هذا الموقع في حالة أفضل مما هي عليه في العاصمة النبطية. هنالك عدة فئات من القبو: القبور الكبيرة المحفورة في الجروف الصخرية، وبعضها مزود بواجهات متوّجة بصف من الشرّافات؛ القبور اللحدية المستطيلة الشكل المحفورة مباشرةً في الأرض الصخرية؛ وأخيراً التلول (tumuli) المكونة من أكوام حجرية يتراوح قطرها بين ١,٥ م و٣م والتي قد يصل ارتفاعها



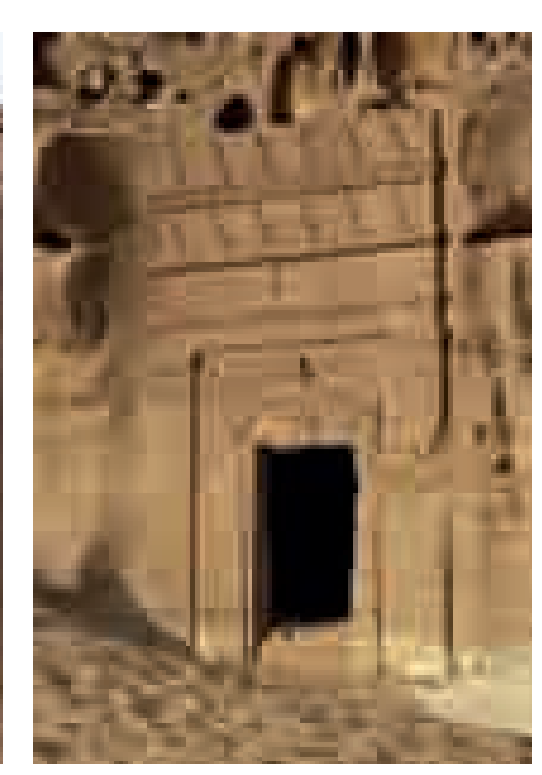
الصورة ٤. صورة جوية للقبر البرجي الذي سبق تنقيبه في أعلى جبل الخريمات

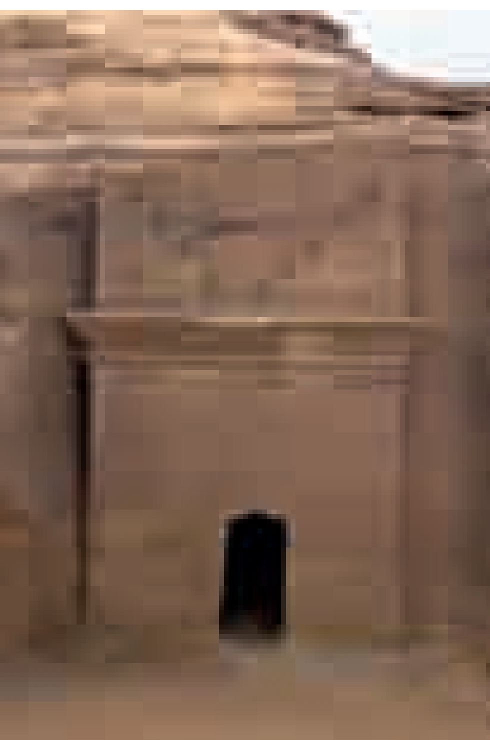
الباقي إلى المت. والتوزيع بسيط بين هذه الفئات: حُفِرت القبور الضخمة في جروف كتل الصخور الرملية التي تحيط بالقسم الأوسط من السهل الذي بُنِيت فيه المدينة المسوّرة. وأديرت واجهة هذه القبور تجاه المدينة قدر الامكان كي يتسنى رؤيتها لأكبر عدد ممكن من الناس ليساهموا في تعظيم العائلة البانية للقب. تحتل بهذه الطريقة عدةُ مقابر كبيرة وبعض الارماس المنفردة كتلَ الصخر الرملي المحيطة بوسط المدينة. بينما تحتل القبورُ اللحدية قممَ تلك الكتل، وقد تحوي بعض الكتل الصخرية مئات القبور اللحدية. وبما أنها كانت مُعَدّة للسكان العاديين، لم تُبْنَ هذه القبور لتصبح معروضة للعيان. يرجّح أن عدد ألفي قبر المحصية في عمليات الاستكشاف منذ ٢٠٠١م ليست إلا عدداً أدنى لهذه الفئة من القبور. وأخيراً، يوجد معظم التلول الجنائزية على أعالي المرتفعات المشقّقة الممتدة غرب الموقع، وهي أبعد من القبور الضخمة المنتمية للفئة الأولى. في عام ٢٠٠٨م تم تنقيب أحد هذه التلول الجنائزية، وكان يظهر قبل الحفر في شكل تلٍ يقارب قطره عشرة أمتار ويزاهي ارتفاعه المتر، ويقع على الهضبة المطلة على القبور رقم (IGN ٩٠-٨١) في قطاع جبل الخريمات. أظهر التنقيب[١١] أن قطر الآبدة يبلغ ٧,٣٠م وأنها مكونة من برجين متداخلين يفصل بينهما مسافة معبأة بالحجارة الكبيرة غير المهذبة (الرسم ٤). البرج الداخلي، وقطره ٣,٩٠م، بُنِيَ بكتل الحجر الرملي الداكن اللون. أما البرج الخارجي فشُيّد بالحجر الرملي المائل إلى البياض. ولم يتسم بالرصف المتناسق سوى الصفحة الخارجية لكل من البرجين. ويوجد القبر بالذات في وسط البرج الداخلي، ويتخذ شكل حفرة شبه مستطيلة تبلغ أبعادها ٠,٧٥ x ١,٩٠م وتحدّها حجارة كبيرة الحجم مرصوفة بشكل شبه عشوائي. وتم نهب التل بأكمله في العصور القديمة. أما تحديد وقت بنائه فيطرح مشكلة عويصة. ينتمي القبر إلى فئة من الأوابد التي يبدو بناؤها أقدم بكثير من القبور النبطية، إلا أن مجموعات العظام الثلاث التي سلمت من النهب، والتي خضعت للتأريخ بقياس الفحم ١٤ فوفّرت تواريخ متراوحة بين القرن الأول قبل الميلاد ومطلع القرن الثالث بعد الميلاد. ولا يستبعد قط أن يكون هذا القبر السابق للعصر النبطي قد أُفْرِغ من محتواه وأُعيد استعماله في العصر النبطي الروماني قبل أن يتعرّض للنهب.

لا تتميز كل القبور الضخمة بواجهة صخرية مزيّنة. يقتصر بعضها على غرفة جنائزية بسيطة مزودة بباب قد يكون إطاره مهذباً أحياناً ولكن ليس دائماً. إلا أننا نحصي في الحِجْر ٨٦ قبراً مزوداً بواجهة (في سبيل المقارنة، نحصي في البتراء أكثر من ٦٠٠ قبر) ويمكن تمييز طراز تلك الواجهات بوضوح. ونميّز بين الفئات التالية :

- قبراً ذا قنطرة، يتألف تاجه من قنطرة بشكل نصف دائرة؛
- إثني عشر قبراً مزوّداً بصفٍ واحد من الشّرافات (وقد تُدعى حزّيّات في بعض النصوص وصفا لشكل حزوزها)، يتكون تاج كل منها من صف شرافات كاملة؛
- أربعة عشر قبراً مزوّداً بصفين من الشرافات، يتكون تاج كل منها من صفَّي شرافات كاملة (الرسم ٥)؛
- ثمانية قبور مزودة بشرافات نصفية (وقد تُدعى أدراجاً في بعض النصوص وصفاً لشكلها)، يتكون تاج كل منها من نِصفَيْ شرّافة متناظرين ويعلو التاجُ شريطاً يتخذ شكل النطاق المصري (الرسم ٦)؛
- أربعة وعشرين قبراً من طراز الحِجْرالأولي١ (proto-Hegra ١) حيث يحيط عِمادان بالواجهة بينما يتكون التاج من درجين متناظرين ويعلو خَرجةً مكونة من عتبة ومن شريط بشكل النطاق المصري (الرسم ٧)؛
- إثني عشر قبراً من طراز الحِجْرالأولي٢ (proto-Hegra ٢) حيث يحيط عِمادان بالواجهة بينما يتكون التاج من درجين متناظرين ويعلو خرجةً مكونة من عتبة ومن إفريز ومن شريط بشكل النطاق المصري، ويتميز هذا الطراز عن السابق بوجود الإفريز الإضافي؛
- أربعة عشر قبراً من طراز الحِجْر، حيث يحيط عِمادان بالواجهة بينما يتكون التاج من درجين متناظرين، وتتميز الواجهة بخَرجتين تفصل بينهما طبقة سطح (الرسم ٨)، وتميّز هذه الطبقة الأخيرة طراز الحِجْر عن طراز الحِجْرالأولي؛

١١- قاد التنقيب و. أبو عزيزة، انظر أبو عزيزة في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م)، ص ص١٨٩-٢٠٣.







(آعلاه، من اليسار الى اليمين)

الصورة ٥. قبر نبطي ذو صفّين من الشرافات على طابقين، IGN ١١٧

الصورة ٦. قبر ذو نصفي شرافات متناظرين (درجين متناظرين)، IGN ١٢٢

الصورة ٧. قبر من طراز الحِجْر الأولي ١، IGN ١١٢

- قبر بدون تاج، يحيط عِمادان بواجهته.

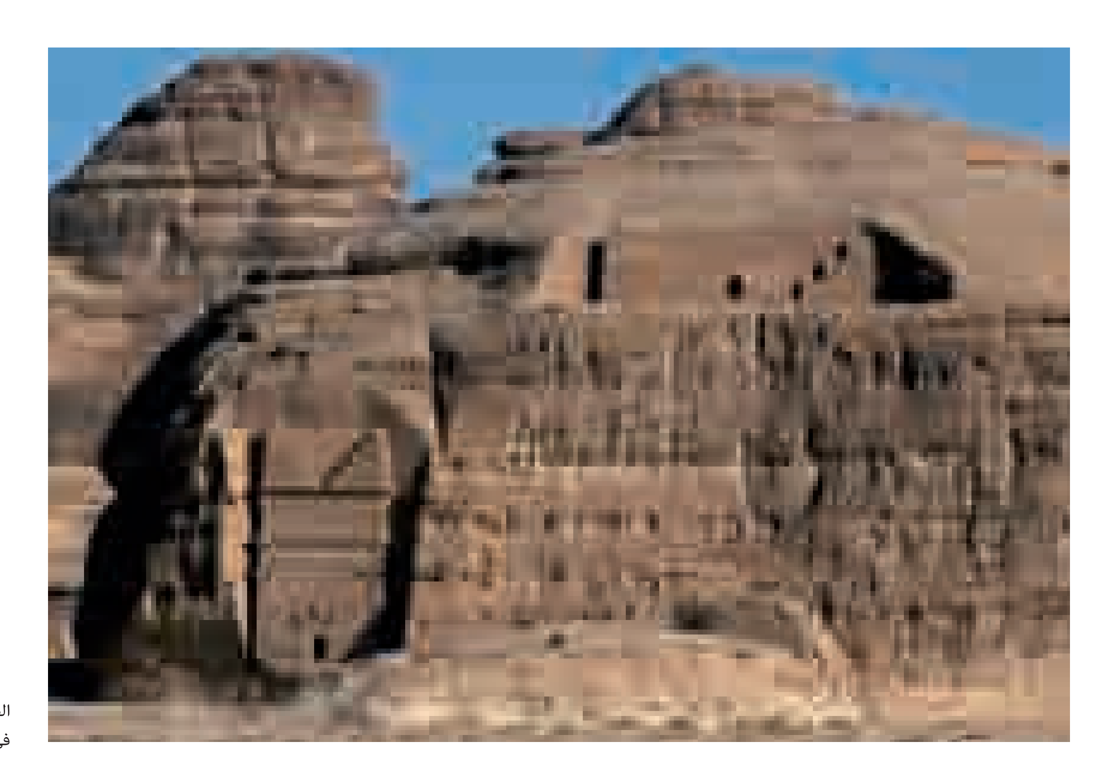
لقد سبق ووصف جوسن وسافينياك قبور الحِجْر بدقة كافية، ولذلك اهتمت خاصةً البعثة الأثرية إلى مدائن صالح بمسحها وقياسها قياساً منهجياً[١٢] (واجهة، مسقط، مقاطع). يَرِد ذِكرُ هذه القبور، في الدراسات القديمة، بتعريفها وفق الأرقام التي أضفاهما عليها جوسن وسافينياك في إطار كل مقبرة. أما اليوم، فتُعرّف هذه القبور، في الموقع وفي الدراسات على السواء، باستخدام الأرقام التي عيّنها لها المعهد الجغرافي الوطني الفرنسي (IGN) عندما عهدت إليه وكالة الآثار والمتاحف (قطاع الآثار والمتاحف)، عام ١٩٧٨م، عدداً من المهمات نذكر منها إعداد خريطة للموقع والتصوير الممساحي (photogrammétrie) لمعظم واجهات القبور. وتعتمد كثيرا الرسوم الممساحية التي تعدّها البعثة الأثرية على الأعمال المذكورة. كما تم وضع أرقام المعهد الجغرافي الوطني الفرنسي على الأوابد عينها ولا تستخدم أي أرقام أخرى للدلالة عليها.

تتفاوت أبعاد القبور تفاوتاً كبيراً: من ٢,٧٠م ارتفاعاً و١,٦٥م عرضاً لأصغر الواجهات (IGN ٣) إلى ٢١,٥٠م ارتفاعاً و١٣,٨٠م عرضاً لأكبر الواجهات المنهية الفريد (IGN ١١٠) وهنالك قبرٌ كان ليفوقها ارتفاعاً، وبكثير، لو إنتهى العمل به. وهو القبر IGN ٤٦ المنحوت في أعلى قسم من الكتلة التي تُدعى قصر البنت، حيث توجد المقبرة الرئيسة: هي أقرب المقابر من مركز المدينة وتلك التي تحوي أعظم مجموعات من القبور (الرسم ٩). وكان هذا القبر، لوإنتهى العمل فيه، ليبلغ ٢٨متراً ارتفاعاً. والجدير بالذكر هو أن القبور النبطية تُحْفر دائماً من أعلى إلى أسفل، بدون استخدام الصقالات الخشبية، ويتم الانتهاء من العمل على كل مرحلة نازلة، التي يحدد طولُ قامة العامل ارتفاعَها، قبل الشروع بالمرحلة التالية. ويفيدنا النص المنقوش في أسفل القسم المنحوت من القبر IGN ٤٦، في جوار تربة الأرض، أن القبر يُحضّر تلبيةً لطلب «الستراتيغوس» أي حاكم المقاطعة النبطي. ويضيف الستراتيغوس أنه قد «تسلّم ملكية هذا المكان»، أي المكان الذي يوجد فيه النص. يتضح إذن، كما تثبت ذلك نصوصٌ منقوشة أخرى ذات فحوى مشابهة، أن أولئك الذين كانوا يطلبون تحضير القبور كانوا يضطرون، قبل استخدام خدمات مجموعة من عمال نحت الصخر، إلى الحصول على سند تمليك جنائزي، والأرجح هو أن سلطات المدينة كانت تسلّم تلك الوثائق.

١٢- قام بالمسح جان بيير برون من ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٣م.



الصورة ٨. قبر من طراز الحِجْر، IGN ٢١

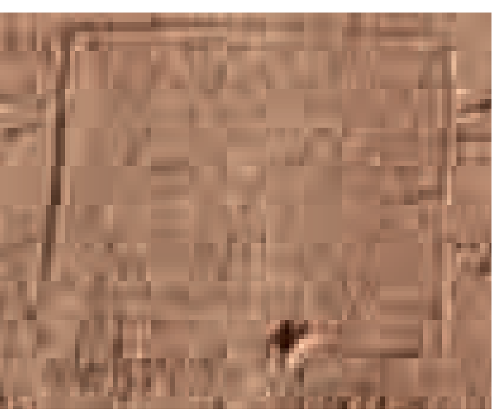


الصورة ٩. القبور IGN ١٧، في اليسار وIGN ٤٦ في اليمين، وهذا الأخير غير منهي الحفر

خلافاً لقبور البتراء، التي تكاد تكون كلها من دون نقوش، توفر لنا قبور الحِجْر ميزةً رفيعة تكمن في أن ما يقارب ثلثها مزود بنصٍ نبطي محفور في إطار، متفاوت التزيين، ومنحوت فوق الباب (الرسم ١٠). تتخذ هذه النقوش طابع الوثائق القانونية الحاملة اسم المالك أو المالكين، وتُسَمّي الأشخاص الذين كانوا سيُلحدون في الغرفة الجنائزية، أو تعرّف بهم، كما تدخل في تفاصيل الأمور الممنوعة. بين أكثر الممنوعات تردداً نجد منع بيع القبر أو رهنه أو تأجيره. كما تحوي النصوص لعنات موجهة إلى من يدخل القبر عنوةً، وتحدد تاريخ القبر بالسنة التي تولى فيها الحكم أحد ملوك الأنباط. ويصحب بعضَ النقوش توقيع أو تواقيع، مَنْ نحتَ القبرَ وعمل عليه، مما أتاح جمع جداول عائلات الحجّارين أو مدارسهم. لم تكن النصوصُ المحفورة على الواجهات، وهي صعبة القراءة من مسالك مرور المشاة، النصوصَ القانونية الأصل. إذ يشير أحدها إلى وجود نسخةٍ أخرى، مكتوبة على مادةٍ مختلفة، محفوظة في أحد معابد المدينة. وتتراوح كافة التواريخ المذكورة في هذه النصوص بين ١ و٧٥ بعد الميلاد.

كان مالكي القبور ذكوراً أو نساءً أو أزواجاً [١٣]،كانوا ينتسبون إلى أعيان المدينة، نجد بينهم العسكريين وكبار الموظفين المدنيين: قَنْطَريون (قائد مئة جندي)، ثلاثة حكام مدنيين حكموا المقاطعة (إيبرخوس)، وحاكمين عسكريين (ستراتيغوس)، وأعضاء عائلات ثلاثة حكام عسكريين، وهنالك طبيبٌ مالك وآخر كاهن. يشهد تحضير الغرف الجنائزية على طابعها الجماعي. إذ يندر أن نلاقي في القبور فجوةً جنائزية واحدة مُعَدّة لجثمانٍ واحد: يتراوح معدل عدد اللحود في كل قبر بين ٦ و٧. وهنالك ثلاث فئات من اللحود: الفجوة الجنائزية، التي يفوق عمقُها عرضَها ويكون محورها الطولاني متعامدا مع الجدار الذي تُجوّف فيه؛ والصندوق الجنائزي، الذي يفوق عرضُه عمقَه والذي يتوازى محورُه والجدارَ الذي يُجوّف فيه؛ والحفرة المستطيلة التي تُحفر مباشرةً في الركيزة الصخرية التي تُكوّن أرضية الغرفة (الرسم ١١). والمرجح هو أن كافة هذه الحفر الجنائزية كانت تُغلق ببلاطات مختومة بالملاط. وباستثناء القليل منها، لم تكن الحجر الجنائزية مليئة وتتوفر فيها الأماكن، على الجدران والأرضية، لحفر المزيد من اللحود. ويندر أن تتخذ الحجرات شكلاً هندسياً تاماً كما أنها غير تامة التعامد مع محور الواجهة. ولا تتعامد جدرانها مع بعضها البعض. بإستثناء العدد القليل من الترتيبات العالية الإتقان، المحفورة في قاع بعض الغرف، والتي يُقَدّر أنها

١٣- على التوالي واحد وعشرون، سبعة وثلاثة، يضاف إليهم مجموعة من الرجال والنساء.



الصورة ١٠. النقش النبطي رقم ١٢ في تعداد جوسن وسافينياك، محفور في إطار ذي ممسكين منقور على واجهة القبر IGN ٢٩

«هذا القبر ضريح بَنَته «وشوح» Wushûh بنت بغرا Bagrat وكاينو Qaynû ونشكويا Nashkûyah بناتها، التيمائيات، لأنفسهن، كل منهن على حدة، ومن أجل أميرات Amîrat وأُرسَنات Usrânat وآل آلات Al'alât، أخواتهن، بنات وشوح المذكورة، ولجميع من يعيشون في كنفهن من رجال ونساء، بغية ان تُلحد فيه وشوح وبناتها، وجميع من يعيشون في كنفهن. وينبغي لوشوح وبناتها، ومن يعيشون في كنفهن من رجال ونساء، ألا يبيعوا ويرهنوا هذا القبر لأي كان، وألا يغيروا فيه شيئاً. ومن يغير المذكور أعلاه، يُجزى (كلمة غير مقروءة) بمئة درهم أريتاسي، والمبلغ نفسه لسيدنا الملك أريتاس Arétas. في شهر أيار، العام ٤٣ من عهد أريتاس، ملك النبطيين الذي يحب شعبه. من صنع هلب آلاهِ Halp'allâhî، نحّات».

أُنجِزت ضمن إطار عملية البناء التي شملت واجهة القبر وغرفته، أُنجِزَت معظم اللحود على التوالي إجابةً لما لزم في أوقاتٍ لاحقة. وجب إذن مبدئياً، عند كل عملية دفن، إعادة فتح القبر وحفر اللحد فيه وفقاً لأبعاد الميت.

أتاح المسح المنهجي لكافة القبور إبراز مرحلتين في استخدام كتل الحِجْر الصخرية. تتميز المرحلة الأولى، وهي أقدمها، بغرفٍ جنائزية حُفِرت بصورةٍ عمودية على الجروف الصخرية، وامتلأ داخلها بالحُفَر اللحدية الأرضية. وتتميّز المرحلة الثانية بالقبور ذات الواجهات النبطية الموصوفة أعلاه. لم تتوصل، للأسف، عمليات التنقيب المنفذة عام ٢٠٠٨م في أحد القبور الذي يُرجّح إنتماؤه للمرحلة الأولى، IGN ١٢٥ (رقم C٤ لدى جوسن وسافينياك)، إلى تحديد تاريخ له. أما عمليات التنقيب التي إبتدأت عام ٢٠٠٨م وتواصلت عام ٢٠٠٩م داخل أحد القبور النبطية النادرة التي لم يسبق تنظيفها بالكامل، فقد كانت أكثر انتاجية [١٤]. يثبت النقش الموجود على واجهة هذا القبر الصغير، IGN ١١٧ (رقم C ١٤ لدى جوسن وسافينياك)، تاريخ ٦١ بعد الميلاد، وهو مزوّد بصفين من الشرافات (الرسم ٥). وكشف التنقيب الذي لم ينته بعد عن كمية كبيرة من الخشب (يُرجح أنها عناصر توابيت) ومن الجلود والأقمشة التي كانت تكفّن الموتى. وثبتت فيه عدة مراحل استخدام، كلها سابقة للإسلام؛ وأقدم هذه المراحل هي مرحلة مالكة القبر المعني. وعلى الأخص، كشفت الدراسة العضوية الفيزيائية للعظام عن وجود ما لا يقل عن أربعة وستين نفراً، بينها ثمانية وثلاثون بالغاً (ثلاثة عشر رجلاً، ثلاث عشرة امرأة، إثنا عشر فرداً مبهم الجنس) يتراوح طولهم بين ١,٤٥م و١,٧١م؛ وستة وعشرين قاصراً تتراوح أعمارهم بين صفر وتسع عشرة سنة. ويقل عدد الأطفال، دون سن الرابعة، عن العدد المرتقب: من الممكن إذن إن تكون هذه الفئة السكانية قد تلقّت طقوساً جنائزية خاصة بها. علاوةً عن ذلك، أثبتت دراسة السمات المنفصلة - وهي التغيرات العضوية غير المَرَضية والتي يمكن مشاهدتها مباشرةً على العظام - وجودَ صِلاتِ قرابة بين الأفراد المدفونين في القبر المعني. وأخيراً شوهدت ظواهر مَرَضية مختلفة، وخاصةً مفصلية على الفَقَرات، وبعض الكسور أيضاً.

لا شك أن الظاهرة الدينية كانت موجودة في الحِجْر. ولكن خلافاً للبتراء، حيث ينتظم حيّز العِبادات الدينية بطريقة طبقية صارمة، حيث نجد بعض الأوابد ذات الطابع الديني (حَرَم، أماكن مزارات، قاعات مآدب، هياكل محفورة في الصخر) في كافة قطاعات الموقع القديم، يتركّز حيّز العِبادات الدينية في الحِجْر أساساً في قطاعٍ واحد من الموقع يُدعى جبل إثْـلِبْ، وقد ينجم ذلك عن حالة معرفتنا حتى الآن للموقع. تنتصب هذه الكتلة الصخرية في شمالي شرقي الموقع، وهي أعلى الكتل إرتفاعاً وأكثرها تشققاً، كما أنها تحوي أكثر القمم تدبيباً. أجل، أننا سجلنا وجود بعض بقايا العمارة الضخمة، وخاصة بعض عناصر الأعمدة، داخل أسوار المدينة وفي ضواحيها، على السفوح التي تنحدر رويداً نحو المدينة من جهة الشرق، إلا أن المباني التي تنتمي إليها هذه العناصر لم تُحدد بعد، كما يبقى علينا أن نكتشف المعبد الذي كانت تُحفَظ فيه «أرشيف» المدينة، وفقاً لما تُعلِمنا به نقوش بعض القبور. لم تكشف لنا الحِجْر، خارج جبل إثْـلِبْ وجواره الجنوبي، إلا القليل اليسير من الأوابد الدينية. ويقتصر ذلك على بعض الأنصاب (أحجار مقدّسة) المرافقة لبعض القبور، وبعض المحاريب ذات الأنصاب المحفورة في الكتل الصخرية الموجودة داخل المدينة، وأخيرا بعض المحاريب المحفورة في عدة نقاط من الموقع، ويبدو أنها غير متصلة بأي بقايا أخرى.

يُدخَل جبل إثْـلِبْ عبر ثـَنيّة ضيقة تُذكـِّر بوادي السيق الشهير في البتراء، رغم صِغَر الثنية في الحِجْر. وتقاطع الثنيّة واد ضيّق منحصر بين ضفتين صخريتين مدرّجتين بعض الأحيان (الرسم ١٢). وأشهر أوابد هذا القطاع محفور عند مدخل الثنيّة، ويشكـّل قاعة مآدب كبيرة مزودة بثلاثة أرائك حجرية، مما يكوّن ما يعرف باسم triclinium في اللغة اللاتينية، ويطلق عليه محليا إسم الديوان (الرسم ١٣). وكانت تعقد فيه الجمعيات الدينية النبطية، في اجتماعات تضم ثلاثة عشر نفراً، نعدّ بينهم موسيقيين إثنين. ويحتلّ عددٌ كبير من المحاريب ذات الأنصاب جدرانَ الثنيّة، ومعها عدد من النقوش. نعلم من أحد هذه النقوش (النقش رقم ٣٩ في جدول جوسن وسافينياك)، أنه كلمة

١٤ - قاد التنقيب كل من ج. ساشيه (مختص بالآثار) ون. دلوبيتال (مختص بعظام الإنسان)؛ أنظر دلوبيتال وساشيه في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م) ص ص ٢٠٥-٢٥٨.



الصورة ١١. الغرفة الجنائزية في القبر IGN ٩ (جوسن وسافينياك A٣).

نرى فيها الفئات الثلاث من لحود قبور الحِجْر:
الفجوات والصناديق، وتتعدد هذه الأخيرة،
واللحد المحفور في أرضية الغرفة، ويُشاهَد في وسط الصورة.



الصورة ١٢. مشهد عام للوادي الذي يعبر جبل إثـلب. على اليمين، في كتلة الصخر الرملي الأحمر، نرى ثلم مجرى القناة في الجرف الصخري، وهي تنقل مياه الإنسياب الحاصلة.

إهداء ديني، عالي الجودة في النقش، محفور فوق نصب قدّمه المقدّم قرباناً إلى الإله «أعرى الذي في بصرى إله رب إل» في سنة ١ من حكم ملكٍ اسمه مالك (الرسم ١٤). بما أن هذا النصب مقدّم إلى إله ذي معبد رئيس موجود في بصرى (جنوب سورية الحالية)، نخمّن أن مقدّم النصب آتٍ من تلك المدينة وأنه كان في الحجر لفترة قصيرة. وتذكر نقوش جبل إثـلب بعض الآلهة الأخرى: شَيْع القوم، أي مرافق القبيلة؛ ذو شَرى، وهو رئيس آلهة الأنباط؛

وخاصةً مار بيتا، أي رب المعبد، وهذه التسمية تدل بلا شك على ذي الشرى.

كشفت عمليات التنقيب التي أجريت عام ٢٠٠٨م في جبل إثـلب [١٥] عن ثلاث قاعات مآدب جديدة: الواحدة صخرية تماما، الثانية كاملة البناء بالحجارة، ويرجّح أن الثالثة مركبة بين صخرية ومبنية. ويمكن أن توجد في جبل إثـلب قاعات مآدب أخرى ما زالت دفينة تحت الرمال، كما يسعنا ان نفترض وجود ترتيبات مادية مؤقتة قديمة في بعض الأماكن الأخرى.

كانت منشآت العبادة في جبل إثلب تستمد المياه من صهريج، وهو عبارة عن غرفة جوفية محفورة في الجرف الصخري، تغذيها قناتان محفورتان في الصخر، تجمع الواحدة منها مياه الأمطار بينما تجر الأخرى مياه سدٍ مشيّد في المَعْلاة.

نستخلص من الأعمال الأخيرة المنفذة في جبل إثـلب النقطتين الرئيستين التاليتين. أولاهما هي أهمية قاعات المآدب والترتيبات المادية المرافقة لها: المحاريب ذات الأنصاب والأحواض. في العديد من الحالات، نجد تواقيع باللغة النبطية، منقوشة في الجدران الصخرية المحيطة، تشهد على مرور الأشخاص الذين عَمَروا هذه الأمكنة. ويدل غياب نصوص التقديم الديني على أن هذه الترتيبات ليست أماكن عبادة بكامل معنى الكلمة: نرجّح أنه بإمكاننا اعتبار جبل إثـلب بمثابة حيٍّ مخصص لجتماعات الجمعيات الدينية، ونجد له مرادفاً معادلاً في البتراء. النقطة الثانية: تبدي عناصر التأريخ المكشوفة في التنقيب، برفقة السَبْر المُجرى في الصهريج والكشف عن قاعات مآدب جديدة، أن أماكن الاجتماع هذه لم تبق قيد الاستعمال إبتداءً من مطلع القرن الثاني الميلادي،

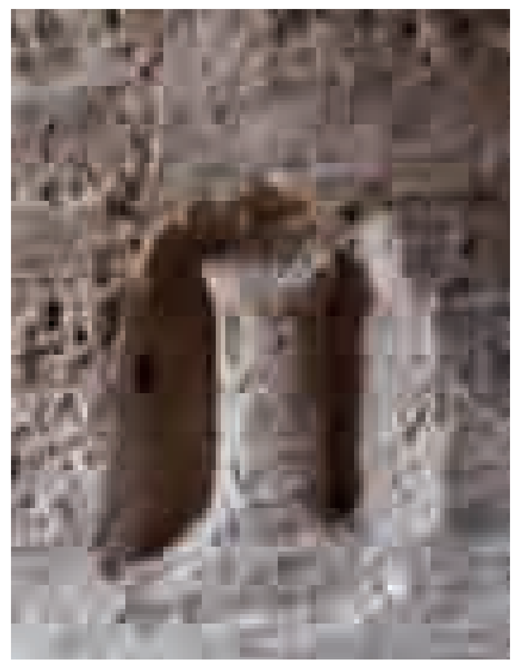
١٥ - قادتها ليلى نعمة؛ انظر نعمة في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م) ص ص٢٥٩-٢٨٢.



الصورة ١٣. غرفة المآدب الكبيرة المحفورة عند مدخل جبل إثلب والمعروفة باسم الديوان.

أي من تاريخٍ أبكر بكثير من التخلي عن باقي الموقع. من الممكن أن هذا التخلي المبكر مرتبطٌ إلزامياً بعملية ضم بلاد الأنباط إلى الإمبراطورية الرومانية وبتأسيس المقاطعة العربية في الإمبراطورية. إذ يمكن أن ينجم هذا الأمر عن قرار منعٍ إتخذته روما إزاء الجمعيات التي كانت تعبّر عن التماسك الإجتماعي ويرجح أن الجمعيات كانت ميدان نقاشٍ سياسي المواضيع، كما يمكن أن يكون هذا المنع على صلة بمنعٍ عام قرّره الإمبراطور تراجانوس بدون أن يخص المنطقة المعنية.

يتجلى أثر الاحتلال الروماني في الحِجْر بعدة ظواهر. أولها وجود نقش على الأقل مؤرخ بتأريخ المقاطعة العربية في الإمبراطورية (الإيبارخية). وثانيها وجود عدة نقوش باللغة الإغريقية، متوزعة في نقاط متفرقة من ضواحي المدينة، والتي كتبها جنود ينتسبون إلى فيالق مساعدة للجيش الروماني، وخاصةً جناح الجتول (ala Getulorum) وهم آتون من شمال الصحراء الإفريقية، وجناح الهجانة (ala dromedariorum) الذي كوّن فرقة متحركة على الجمال. وأخيراً هنالك نقش إغريقي ونقش لاتيني يذكران عناصر تنتسب إلى الفوج الثالث الليبي (legio tertia Cyrenaica) ويشهدان على عَمَله في الحِجْر. إن أول هذين النقشين، وهو إغريقي، وكُشف عنه في سنوات الستينات داخل أحد آبار الحِجْر، يذكر رسّام الفوج. أما الثاني، الذي كُشف عنه عام ٢٠٠٣م أثناء عمليات التنقيب في المدينة، مؤرخ بين ١٧٥ و١٧٧ ميلادية [١٦] (د. المعرض رقم ١٢١)، فيبدي عشرة أسطر جيّدة الحفاظ على العموم. ويذكر أن سور المدينة (vallum) قد مرَ بعملية ترميم نظراً لِقِدَمِه وأن بلدية الحِجْر (civitas) قد تكفّلت بمصاريف الأشغال. مما يثبت إذن أن مدينة الحِجْر كانت، إبان الفترة الرومانية، محاطة بسور. وهل كان السور المذكور موجوداً إبان الفترة النبطية قبل ذاك؟ نعم: أثبتت عمليات التنقيب المنفذة عامي ٢٠٠٨م و٢٠٠٩م على ثلاثة مقاطع من السور المذكور[١٧] (د. المعرض رقم ١٢١) أن هذا الأخير بُني إبان القرن الأول الميلادي. أنشئ هذا السور بالطوب المجفف ويتراوح سمكه بين ١,٥٠م و٣,٨٠م بدون أساسات. ويُرجّح أنه بُني بسرعة وبدون تشديد على تجانس مختلف مقاطعه، على أراضٍ لم تكن خالية تماماً من البناء، كما تشهد على ذلك كِسَرُ



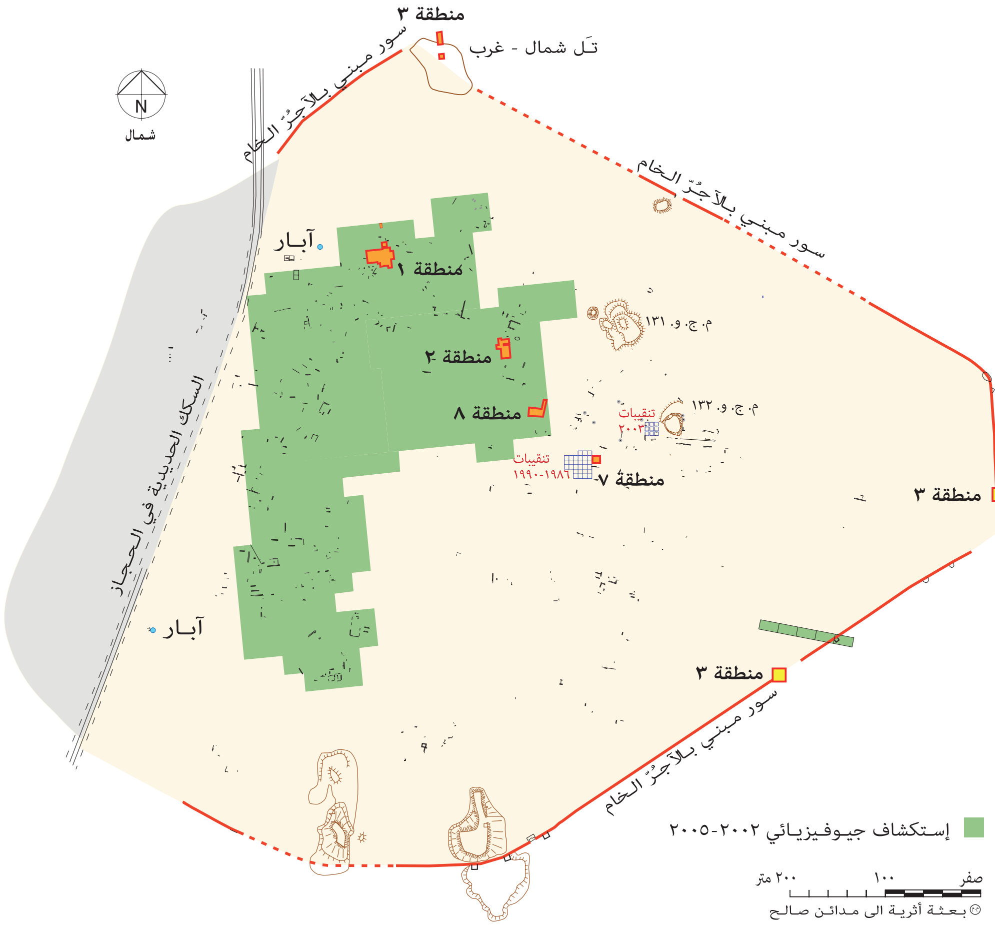
الصورة ١٤. النصب الذي يعلوه النقش رقم ٣٩ من تعداد جوسن وسافينياك ويكرّسه للإله «أعرى الذي في بصرى إله رب إل».

١٦ - الطلحي والديري، ٢٠٠٥م.

١٧ - قادها فرانسوا فيلنوف؛ انظر فيلنوف في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م) ص ص١٥١-١٨٨.



(صفحة مزدوجة سابقة)
غرفة المآدب (الديوان)
عند مدخل جبل إثلب



الصورة ١٥. مخطط مدينة الحِجْر يُبَيّن سورَها ومساقطَ مختلف المناطق المنقّبة.
تم التنقيب في المناطق رقم ١ إلى ٨ عامي ٢٠٠٨م و٢٠٠٩م.

الخزف الصغيرة وقطع الفحم الموجودة في طبقات الرمال الحبيسة تحت السور. ويُرجّح أن الحيّز المدني المُحاط بالسور، وتقارب مساحَتُه ستين هكتاراً، لم يُبن بأكمله في السابق. خضع السور لعدة عمليات ترميم وتسنيد ولكن لا يبدو أنه خدم بصورة عالية التشغيل؛ وعلى كل حال لا تتعدى فترة استعماله القرن الثاني الميلادي.

تحتل المدينة المبنية داخل السور المذكور القسم المركزي من الموقع وتشكـّل سهلاً واسعاً تتوزع فيه بعض الضروس الصخرية الرملية المتفرقة (الرسم ١٥). ويخترقها الوادي الكبير الذي يعبر الموقع في إتجاه مائل، كما يزودها بالماء بئران موجودتان داخل السور. إضافةً لعمليات التنقيب المجراة على طول السور وللتنقيبات التي إبتدأت عام ٢٠٠٩م، بوشر ثلاث عمليات تنقيب داخل المدينة وانجلت عن بعض النتائج في شأن تتابع السكن في الموقع وأشكاله [١٨]. يبدو أننا نستدل على فترتين طويلتين رئيستين للاستيطان في الموقع. لم تترك الأولى، وهي منحصرة في القرن الأول الميلادي، سوى آثار دقيقة، باستثناء القسم الجنوبي من المنطقة٢، حيث يوجد بناءٌ ضخم مشيَّد بالطين المجفف. تبتدئ المرحلة الثانية في القرن الأول الميلادي بتشييد عددٍ كبير من المنازل التي خضعت للعديد من التعديلات المتتالية، وذلك حتى القرن الخامس في المنطقة٢ وحتى القرن السادس في المنطقة١ (الرسم ١٦). اليوم، لا يشهد على الفترة الإسلامية سوى بضع كِسَر خزفية والقليل من الكتابات العربية العائدة للقرنين الأول والثاني من الهجرة النبوية.

١٨- قاد عمليات التنقيب كل من ج. شارلو في المنطقة١ (أنظر شارلو في نعمة والطلحي وفيلنوف ٢٠٠٩م (٢٠١٠م) ص ص٤٧-٨٢) وز.ت. فييما وج. رومر وم، الحجيري في المنطقة٢ (انظر، في المجلّد المذكور، مساهماتهم الموافقة).



الصورة ١٦. المنطقة رقم ٢ بعد حملة التنقيب عام ٢٠٠٩م.
في وسط الصورة، نرى في إتجاهٍ مائل الزقاق الفارق بين مباني الطوب المجفّف العائدة إلى القرن الأول قبل الميلاد والتي هُجِرَت في القرن الأول بعد الميلاد (في يسار الصورة) وبين المبنى الذي تطوّر من القرن الأول الميلادي إلى القرن الرابع الميلادي (في يمين الصورة).

لا شك أن الحِجْر كانت محطة عالية الأهمية على طريق القوافل الصاعدة من جنوبي غربي الجزيرة العربية نحو البتراء والبحر المتوسط. أتاحت فيها الموارد المائية والتربة الزراعية إمكانية العيش لمجموعةٍ سكانية نقدّرها بعدة آلاف نسمة في بيئةٍ غلب عليها الطابع الصحراوي. يشهد وجود عدة ضباطٍ أنباط، ولربما يشهد أيضاً وجود مسؤول عن الإمدادت (épitrope)، مع ضخامة البقايا المحفورة في الصخر، على أهمية الحجر في العهد النبطي وعلى إهتمام عائلة ملوك الأنباط بها، خاصةً إبتداءً من عهد الحارثة الرابع (٩ قبل الميلاد إلى ٤٠ بعد الميلاد). وتشهد الآثار المكشوفة والاثاث المرافق لها على العلاقات مع البتراء وجنوبي الأردن، بلا شك، كما تشهد أيضاً على العلاقات مع جنوبي الجزيرة العربية وجنوبي بلاد الرافدين. إن التواصل الملاحظ في السكن، من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن السادس بعد الميلاد، الظاهر في التنقيبات وفي النقوش، خاصة منها النقوش المكتوبة بالأحرف الانتقالية بين النبطي والعربي، تجعل من الحِجْر موقعاً مميّزاً للدراسة في هذه المنطقة، من الفترة القديمة المتأخرة (من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي) إلى عصر الجاهلية الذي لا نعرف عنه إلا القليل الأقل.

المصادر والمراجع :
كوربون، ٢٠٠٨، ص ص ٤٨-٧٠.
دينتزر، ٢٠٠٩م، ص ص١٤٣-١٩٢ (ص ص ١٥٦-١٧٥ عن الحِجْر).
دوتي، ١٨٨٨م.
جوسن وسافينياك، ١٩٠٩م-١٩٢٢م.
ميليك وستاركي، ١٩٧٠م، ص ص ١٣٩-١٦٣ والصورة ٢٦-٣٣.
النجم وماكدونالد، ٢٠٠٩م، ص ص ٢٠٨-٢١٧.
نعمة، أرنو، بسّاك وغيرهم، ٢٠٠٦م، ص ص ٤١-١٢٤.
نعمة والطلحي وفيلنوف، ٢٠٠٩م.
بار، هاردينغ ودايتون، ١٩٧٢، ص ص ٢٣-٦١.
الطلحي والديري، ٢٠٠٥م، ص ص ٢٠٥-٢١٧.

المصادر والمراجع الأجنبية :
Courbon, 2008, p. 48-70 ; Dentzer, 2009, p. 143-192 (p. 156-175 sur Hégra) ; Doughty, 1888 ; Jaussen et Savignac, 1909-1922 ; Milik et Starcky, 1970, p. 139-163, pl. 26-33 ; Al-Najem et Macdonald, 2009, p. 208-217 ; Nehmé, Arnoux, Bessac *et al.*, 2006, p. 41-124 ; Nehmé, Al-Talhi et Villeneuve, 2009 ; Parr, Harding et Dayton, 1972, p. 23-61 ; Al-Talhi et Al-Daire, 2005, p. 205-217.



١٢١ - نقش لاتيني
١٧٥-١٧٧م
حجر رملي
١١٠,٥ × ٦٠ × ١٢ سم
مدائن صالح - تنقيب د. الطالحي ٢٠٠٣
مدائن صالح، رقم W٢٨/٣٨

المراجع الببليوغرافية: الطالحي والداير (Al-Talhi et Al-Daire)، ٢٠٠٥؛ سبيدل (Speidel)، ٢٠٠٧

( ) الصيغة الكاملة للاختصارات أو الرموز؛ { } حروف غير أكيدة ولكنها مرجحة جداً؛ [ ] حروف مرممة.

Pro salute Imp(eratoris) Ca{esaris M. Au}reli
Antonini Aug(usti) Armeniaci Parth[ic]i Me-
dici Germanici Sarmitici Ma{xim}[i] {v}[al(?)]-
lum vetustate dilabsum civitas {He}-
grenorum suis impendi[s res]{ti}tuit {sub}
Iulio Firmano leg(ato) Au(gusti) pr(o) {pr}(aetore) instan[tib(us)]
operi Pomponio Victore (centurione) leg(ionis) III Cyr(enaicae) et {N}[u]-
misio Clemente collegae eius cu{r}[am]
agente operarum Amro Haianis {pri}-
mo civitatis eorum.

(«لخلاص الإمبراطور قيصر مرقس أوريليوس أنطونينس أوغسطس، المنتصر الاكبر على الأرمن والفرثيين والميديين والجرمانيين والسارمتيين، رممت مدينة الهاجريين، على نفقتها، {السور؟} الذي كان قد انهار نتيجة مرور الزمن، وذلك في عهد يوليوس فيرمانوس، مبعوث أوغسطس الوالي الروماني. وقد أشرف على عملية الترميم كل من بومبونيوس فيكتور، قائد المائة في الحامية القيرينية الثالثة، وزميله نوميسيوس كليمنس، وقد اضطلع بمسؤولية الأعمال عمر بن حيان، رئيس قوم المدينة.»)

جرى اكتشاف هذا الحجر خلال عمليات التنقيب التي جرت داخل أسوار مدينة الحجر، عند سفح تلة الحجر الرملي IGN ١٣٢، على بعد ٢٠٠ متر تقريباً جنوب الجزء الشمالي الشرقي من السور. لم يتم العثور على البلاطة هذه الصخرية في مكانها الأصلي، بل كانت موضوعة على وجهها المنقوش، في مكان أعيد استخدامها فيه كحجر بناء، ربما عدة مرات، في ما يرجح أنه كان وحدة سكنية في أواخر العصور القديمة. توحي قلة سماكة الحجر المنحوت على بلاطة رقيقة مستطيلة الشكل بأن البناء الأصلي حيث كان مركّباً، والذي يشكل موضوع النص المنقوش، كان مبنياً من حجارة صلصالية خام، ولكن ذلك غير أكيد. النص مكتوب باللغة اللاتينية – وهو حدث فريد من نوعه في مدينة الحجر –، ومثير للدهشة إذ أن الغالبية العظمى من نصوص المدينة كتب باللغة النبطية في حين أن بقية النصوص كتبت باللغة اللحيانية أو، في حالات نادرة، باللغة اليونانية. ولكن مشاركة الجيش الروماني في الأعمال المذكورة داخل النص يفسّر استخدام اللغة اللاتينية. الحروف منقوشة بتأنٍّ، حتى ولو كان تأطير النص غير دقيق كلياً، فحروف السطر الأخير أصغر حجماً من غيرها. أمّا اللغة اللاتينية المستخدمة فصحيحة على الرغم من ورود خطأين في النص: dilabsum بدلاً من dilapsum، واستخدام صيغة المضاف collegae بدلاً من صيغة المفعول فيه collega. وهذا ليس النقش اللاتيني الوحيد الذي تم العثور عليه في شبه الجزيرة العربية، ولا الأكثر جنوباً، فقد عُثِر مؤخراً في جزر فرسان السعودية الواقعة جنوب البحر الأحمر على نقشين لاتينيين يعودان إلى النصف الأول من القرن الثاني بعد الميلاد[١]، كما كان قد عثر، في سبعينات القرن العشرين، على جزء من نقش غير مؤرخ ثنائي اللغة مكتوب باللاتينية واليونانية، في براقش شمالي اليمن[٢].

أمّا نص مدينة الحجر، فيمكن تأريخه بدقّة، فالإمبراطور الروماني هو مرقس أوريليوس. يتضح من تلّقبه انه كان قد صار يدعى «سارماتيكوس»، ولن يحمل اللقب الا ابتداءً من مُسْتهلّ العام ١٧٥م. أمّا ابنه كومودوس، الذي أُشرك في الإمبراطورية خلال العام ١٧٧م، فليس مذكوراً في النص. بالتالي، فإن تاريخ النص يعود إلى ما بين العامين ١٧٥ و١٧٧م. وهذا التأريخ يؤدي إلى تقريب هذا النص من نقش مكتوب باللغتين النبطية واليونانية، تم العثور عليه منذ عقود عدة في قرية الروافة الصغيرة الواقعة على بعد ٢٠٠ كلم شمال شرق مدينة الحجر. ويشهد ذلك النقش، في أواسط العقد السادس من القرن الثاني أي في عهد مرقس أوريليوس، على بناء معبد صغير أقامه، تبجيلاً للإمبراطور، مجموعة محلية من قوم الثموديين، وربما تكون هذه المجموعة قد تشكلت بوصفها وحدة تابعة للجيش الروماني[٣]. يبدو إذاً أن روما، في عهد مرقس أوريليوس، سيطرت، أو أعادت السيطرة، عسكرياً على شمال الحجاز، أي على جنوب المقاطعة الرومانية في شبه الجزيرة العربية.

ويبدو أن هذا العمل العسكري جاء بعد فترة من التراخي. وفي الواقع، فإن نقش مدينة الحجر يشهد على ترميم بناء «انهار» نتيجة التقادم. ما هو هذا البناء؟ هنا تكمن الصعوبة الوحيدة في القراءة. فالكلمة التي تشير إليه تبدأ بثلاثة أو أربعة حروف تكاد تستحيل قراءتها، في نهاية السطر الثالث، وتنتهي بالخاتمة -lum الواردة في بداية السطر الرابع. والقراءة الأكثر ترجيحاً هي vallum، «بناء دفاعي» أي أنه سور. ولكن عمليات السبر التي أجريت في العامين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ في أماكن عديدة من السور الذي يعود بناؤه إلى القرن الأول لا تشير إلى أية ترميمات أجريت على السور في القرن الثاني. وفضلاً عن ذلك، فإن الحجر لم يكن موجوداً على السور أو حتى على مقربة منه، بل تم العثور عليه في مكان يعتقد أنه حرم يتكوّن أحد أجزائه من صخور طبيعية، بالإضافة إلى جزء آخر مبني. لذا فلا شيء مؤكّد تماماً: فمن غير المستحيل أن تكون الكلمة الناقصة هي templum، أي «معبد». ومشاركة مجموعة من الجنود في الأعمال لا تتيح فهماً واضحاً في هذا الصدد، إذ أنه لم يكن من النادر، في المقاطعات الرومانية، أن يشارك الجيش في الأعمال المدنية – بما فيها الدينية – بالإضافة إلى الأعمال العسكرية.

ومجموعة الجنود هذه، الخاضعة في تنفيذ الأعمال لسلطة قائدَيْ مئة، هي تابعة للحامية القيرينية الثالثة، أي تلك المنتشرة في شبه الجزيرة العربية. وكان مخيم هذه الحامية قائماً في مدينة بوسترا Bostra، عاصمة المقاطعة الواقعة على مسافة ٩٠٠ كلم شمال مدينة الحجر. وكان عندئذٍ تواجد جنود هذه الحامية معروفاً في مدينة الحجر، بشكل متقطّع وغير مؤرخ، ولكن هذا الإهداء هو أول وثيقة تدلّ على نشاط هام تضطلع به هذه الحامية. ويشير ذلك، من دون شك، إلى تبعية مدينة الحجر للإمبراطورية الرومانية، حتى في نهاية العقد السابع من القرن الثاني، وهو أمر لم يكن مؤكّداً. وقد تأكّد ذلك بشكل تام نتيجة تأريخ النص «في عهد يوليوس فيرمانوس، مبعوث أوغسطس الوالي الروماني»، أي الحاكم (المعنى المضمر: حاكم مقاطعة شبه الجزيرة العربية). وأخيراً، يفيدنا هذا النص معلومات عن المؤسسات القائمة في مدينة الحجر في القرن الثاني الميلادي. فالأعمال تنفـّذها فصيلة من حامية رومانية ولكنها ليس مموّلة (بشكل ربما فرضه حاكم المقاطعة في حال كان البناء المرمم هو السور) بواسطة civitas Hegrenorum، أي ما يجب أن يترجم حرفياً بعبارة «مدينة الحجريين»، بدلاً من أن تكون ممولة بواسطة «القوم» كما كان قد اقترحه الناشرون الأوّلون للنص، بشكل يشوبه قدر كبير من الغموض. فكلمة «مدينة» لا تعني بالضرورة كياناً منظماً على غرار المدن الإغريقية أو الرومانية، وقد أثبتت عمليات التنقيب أن مدينة الحجر لم تكن على الإطلاق منظمة بهذا الشكل على صعيد التنظيم المدني والأثري، كما أنها لم تكن منظمة كذلك من ناحية المؤسسات، كما يبرز في نهاية النقش. ففي الواقع، لم يكن على رأس المدينة قضاة ، كالثنائي duumviri مثلاً، بل رئيس واحد primus civitatis. وهذا اللقب الوارد هنا حسب اللفظ اللاتيني يبدو وكأنه ترجمة حرفية للقب الموازي باللغة النبطية، راش أو ريش، «رئيس»، الذي كان يستعمل للإشارة إلى الحاكم الرئيس في مدينة تيماء (الواقعة على مسافة ١٠٠ كلم شمال شرق مدينة الحجر) في العام ٢٠٣م، وفقاً لما ورد في نقش جرى نشره مؤخراً [٤]، ومن ثَمّ إلى رؤساء مدينتي الحجر وتيماء في العام ٣٥٦م[٥]. أمّا اسم رئيس القوم في مدينة الحجر في الفترة ١٧٥–١٧٧م، أي Amrus Haianis، فهو محلي نبطي، أي عمرو بن حيان.

ان دراسة أسماء الأعلام في مدينة الحجر تُبرز إذن شبه انعدام التأثر باللغتين اليونانية والرومانية، فنحن واثقون الآن أنه، حتى في أواخر القرن الثاني، أي بعد ثلاثة أرباع القرن من ضم المملكة النبطية إلى الإمبراطورية الرومانية، لم يكن رئيس المدينة يحمل اسماً يونانياً أو لاتينياً أو مختلطاً بينهما.

F.V.

١- فيلنوف Villeneuve، ٢٠٠٧، ص. ١٣-٢٧.
٢- كوستا Costa، ١٩٧٧، ص. ٦٩-٧٢.
٣- ميليك Milik، ١٩٧١، ص. ٩٣-١٠١؛ ماكدونالد Macdonald، ١٩٩٥ج.
٤- نجم وماكدونالد Najem & Macdonald، ٢٠٠٩، ص. ٢٠٨-٢١٧.
٥- ستيل Stiehl، ١٩٧٠، ص. ٨٧-٩٠.



١٢٢- قطعة قماش
القرنان الأول والثاني بعد الميلاد
صوف
١٥ × ٢٠ سم
مدائن صالح
متحف العلا، رقم ١٠U

قطعة قماش مثنية متعددة الطبقات، ذات حواش، عثر عليها في أحد قبور مدينة الحجر. وهي مزيّنة بقلادة مربعة الشكل من النسيج الصوفي المتعدد الألوان تتخذ شكلاً بشرياً، وعلى الأرجح أنه شكل رجل ملتحٍ وارد ضمن إطار مزخرف بأشكال حلزونية. وتبدو طبقة النسيج العلياً مكوّنة من درع نسيجي. P.D.P.



١٢٣- قارورة
بين القرنين الثاني والرابع بعد الميلاد
خزف
ارتفاع: ٣٣ سم؛ قطر: ٢٤ سم
مدائن صالح
متحف العلا، رقم ٥٥

ظروف اكتشاف هذه القارورة غير معروفة. وهي كناية عن قارورة ذات بطن كروي الشكل ومضلّع. قعر القارورة محدّب وعنقها قصير، أمّا شفتها فتطول نحو الخارج ويكاد يكون أعلاها مسطحاً. كل من العروتين (المقبض) هي ذات مقطع بيضاوي الشكل ومضلّع، والعروتان مركّبتان في أعلى بطن القارورة. وقد تشوّه شكل العنق والشفة أثناء الشواء، وبات بالتالي فم القارورة بيضائي الشكل أكثر من كونه دائرياً. والعجينة رمادية اللون في الداخل وتميل إلى اللون البرتقالي على مقربة من السطح، تحت طبقة من طلاء خزفي ذي لون أخضر باهت. وتشكل هذه القارورة المستخدمة لنقل السوائل جزءاً من المصنوعات النفعية الناتجة عن مشاغل الخزّافين في مدينة الحجر، ويرجّح أن يعود إنتاجها إلى الحقبة الرومانية أو ما بعدها. F.V.



١٢٤- جرة من العهد النبطي
بداية القرن الأول بعد الميلاد (؟)
خزف
الارتفاع: ٤٩سم؛ القطر الخارجي عند الفم: ٢١ سم
مدائن صالح - عمليات تنقيب البعثة الأثرية الفرنسية السعودية، ٢٠٠٨
متحف العلا، رقم MS١٠٠٦٧_P٠١

المراجع الببليوغرافية: ك. دُوْران وي. جربيه (C. Durand & Y. Gerber)، في الكتاب الصادر عن نعمه والطالحي وفيلنوف (Nehmé, Al-Talhi & Villeneuve)، ٢٠٠٩ [٢٠١٠]، ص. ٢٨٦، والصورة ٣ ص. ٢٩٣.

هذه الجرة الصغيرة التي كانت مستخدمة لحفظ الأغذية (الحبوب؟) إكْتُشفت خلال عمليات التنقيب التي جرت في وحدة سكنية كبيرة. وكانت مدفونة تحت الأرضية المرصوفة جزئياً في إحدى الغرف، كما كانت مغطاة بحجر مسطح موضوع على مستوى سطح الأرضية. وبالقرب منها، تم العثور على جرة أخرى أكبر حجماً كانت، هي أيضاً، مدفونة.

بطن الجرة غير منتظم، وشكله بيضائي غير أنيق ومبتور. القاعدة مسطحة. وَثْنية الفم موجهة قليلاً إلى الداخل. أمّا الشفة فمسطحة بشكل يتيح وضع غطاء مسطح عليها. وتجري تحت الحافة قناة مقعرة. كانت الجرة في الماضي مزوّدة بثلاثة مقابض حلقية الشكل مركّبة في النصف الأعلى من بطنها: ممّا يدل على أن هذا الإناء كان يستخدم في البداية للنقل. ولكن المقابض اختفت، ولا شك أنها أزيلت عندما أعيد استخدام الإناء كجرة تخزين مدفونة.

العجينة المسامية المستعملة بنية اللون فاتحة، وقد أضيفت إليها كتل ضخمة من الكلسيت وبعض المواد السوداء. وتغطي الإناء طبقة داخلية وخارجية من الطلاء الخزفي ذات اللون الأخضر الباهت. وهو مزيّن بثلاثة خطوط متموّجة تكاد تكون متوازية، مكوّنة من نقاط مشرومة الطرف في الجزء الأعلى من البطن؛ ويأتي خط رابع من النوع ذاته لتزيين أعلى الشفة. وفضلاً عن ذلك، تظهر بين آثار المقابض المزالة، ثلاثة أزرار نافرة من الصلصال المشوي. وهذه الأزرار مزينة، هي أيضاً، بمجموعة من النقاط الصغيرة. وهذه الزخرفة كلها، التي من الواضح أنها لم تكن مرئية بعد دفن الجرة، صممت للاستخدام الأول، أي عندما كانت الجرة مستخدمة للنقل. وتشكل هذه الجرة مثالاً على المصنوعات المحلية ذات النفع التي كانت تصنع في مدينة الحجر في العهد النبطي. F.V.



١٢٥- طبق مزخرف بصورة أسد
الحقبة ما بعد الرومانية (؟) [القرن السادس بعد الميلاد؟]
خزف
القطر: ٢٩ سم
مدائن صالح
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٤٦

ظروف اكتشاف هذا الطبق غير معروفة. وهو طبق، أو صحن صغير مقعّر، ذو شفة طويلة أفقية مسحوبة نحو الخارج، ومصنوع من العجينة المائل لونها إلى البرتقالي والمطلية بطلاء خزفي أحمر اللون. داخل الطبق، وهو كناية عن قبة دائرية مقعرة، مزخرف برسم لونه زهري باهت، ومحيطه مخطط باللون الأحمر. ويجسّد الرسم أسداً يسير نحو اليسار، وتبدو إحدى قائمتيه الأماميتين مرفوعة في حين أن ذنبه يعلو جسمه. وعلى الأرجح أن هناك رسماً آخر، لا يمكن رؤيته جيداً، يبرز فوق الأسد وإلى يمينه. وتوحي شفة الطبق وعجينته وطلاؤه الخزفي بأن الطبق هو من المصنوعات شبه الفاخرة التي كانت تنتج في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الرومانية ابتداءً من القرن الثالث الميلادي. ويتيح لنا الرسم وتقنية الزخرفة أن ندرك أن إنتاج هذا الطبق جاء في حقبة متأخرة جداً، تقع في العهد البيزنطي (لا بل في أوائل العهد الأموي)، في منطقة تقع في شمال الشرق الأوسط: مثل أطباق جرش التي اشتهرت بالأخص في شمال ما يعرف اليوم بالأردن، والمصنوعة بشكل رئيسي في منطقة جرش، خلال القرنين السادس والسابع. ويظهر رسم الأسد أيضاً على طبق محفوظ جزئياً تم اكتشافه في جرش ذاتها[1]. من المثير للاهتمام أن نعرف هل قد تم العثور على هذا الطبق، - المحفوظ في المتحف الوطني بالرياض على الرغم من ان اكتشافه لم يتم ضمن إطار عمليات التنقيب العلمية السعودية أو الفرنسية السعودية-، في مدائن صالح أم لا. ولو كانت الحال هذه، فإنه يشكل في الوقت الحاضر الإثبات الوحيد الأكيد على وجود نشاط في مدائن صالح في القرن السادس، أو حتى في القرن السابع. وهو، بـالإضافة إلى ما تقدّم، يشكل برهاناً مثيراً للاهتمام عن عملية استـيراد بعيدة المدى. F.V.

١- أ. أوسكاتشكو A. Uscatescu، La cerámica del macellum de Gerash، مدريد، ١٩٩٦، ص. ٣٣٣، الصورة ٦٣، رقم ٢٧٢، ص. ٨١، الشكل ٣١د؛ بدلاً من راسون وسينيه Rasson & Seigne، «حوض بيزنطي أموي على حرم الإله زوش»، سوريا ٦٦، ١٩٨٩ (ص. ١١٧-١٥١)، الصورة ٨، حيث يظهر الوحش، ذو الحجم الصغير، بعيداً عن وسط الطبق.



١٢٦- تاج عمود نبطي
تاج عمود نصفي أيوني أملس
القرن الأول بعد الميلاد
حجر رملي
الارتفاع: ٢٩ سم؛ العرض الأقصى: ٤١ سم؛ السماكة: ٢٠ سم
مدائن صالح
متحف العلا، U١٢٩/٣٧

المراجع الببليوغرافية: بشأن تيجان العواميد النبطية، أنظر شميدت–كولينه Schmidt–Colinet، ١٩٨٣، ص. ٣٠٧-٣١٢، الكراسة ٦٦-٦٧، مع المراجع السابقة؛ ماكنزي McKenzie، ١٩٩٠، ص. ١١٧ والعدد ٣٢، ص. ١١٨؛ غيرتنر Gärtner، ٢٠٠٣، ص. ١٥٦–١٧٩ (ص. ١٥٩، الصورة ٢٢٢-٣ وص. ١٦٠).

تم العثور على هذه الكتلة ، ليس في موقعها الأصلي، أثناء عمليات التنقيب ذاتها التي أدت إلى العـثور على النقش اللاتيني (د. المعرض رقم ١٢١)، عـلى مـقربة من تلة الحجر الرملي IGN ١٣٢، داخل مدينة الحجر. انه عنصر راكز: الوجه الخلفي مشذّب ومسطح. الجزء الواطي من الكتلة هو عمود نصفي، في حين أن الجزء العالي هو التاج. ونظراً لصغر حجم هذا الحجر، فمن الممكن أنه كان مستخدماً لتتويج أحد الأبواب.

J. D. F.



الحواضر
القديمة التجارية
في قلب شبه الجزيرة العربية

قرية الفاو

أ. د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

(صفحة مزدوجة سابقة)
موقع قرية الفاو،
تصوير Humberto da Silvera

(صفحة اليسار)
أبراج مبنية بالطوب حول الموقع
المجانب للتنقيب، قرية الفاو

تقوم أطلال قرية (الفاو) على أطراف الربع الخالي، وتبعد حوالي ٧٠٠ كيلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة الرياض في المنطقة التي يتداخل فيها وادي الدواسر ويتقاطع مع جبال طويق عند فوهة مجرى قناة تسمى بالفاو.

بدأ الاهتمام بقرية كموقع آثاري في الأربعينات، حينما أشار إليها بعض موظفي شركة أرامكو. ثم في سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م قام بزيارتها كل من: جاك ريكمانز، وكونزاك ريكمانز، وفيليب ليبنز وفيلبي، وفي سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م زارها البرت جام موفدًا من قبل إدارة الآثار والمتاحف، حيث قام بدراسة مجموعة من كتاباتها المنتشرة على سفح جبل طويق المطل على قرية من ناحية الشرق.

وفي سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م بدأ إهتمام جامعة الملك سعود ممثلة في جميعة التاريخ والآثار بقسم التاريخ، التي قامت برحلات إستطلاعية بدأت سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م لدراسة الموقع علميًا وتحديد المنطقة الأثرية. ثم بدأت أعمال التنقيب في موقع قرية منذ عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م لثلاثة مواسم وبعد إنشاء قسم الآثار والمتاحف عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م أنتقل نشاط التنقيب إليه واستمر إلى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. وكان التنقيب في قرية (الفاو) منذ البداية وحتى الموسم العشرين ١٤١٥هـ/١٩٩٥م تحت إشراف الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري.

أشارت الكتابات العربية الجنوبية إلى قرية وسمتها «قرية ذات كهل» وكهل هو معبود قرية الرئيسي. كما تذكر الكتابات العربية الجنوبية أن ملوك سبأ وذي ريدان قد غزوها أكثر من مرة. وهذا يظهر بوضوح في النصوص (جام ٥٧٦، ٦٣٥، ٦٦٠، ٦٦٥) و(ريكمانز ٥٠٩)، وتتراوح تواريخ هذه الكتابات بين نهاية القرن الرابع ق. م، وأوائل القرن الرابع الميلادي. وقد وُصفت قرية (الفاو) من قبل سكانها في كتاباتهم بالجنة (ج ن ت ن) وبقرية طلو (ق ر ي ت/ ط ل و) بمعنى المدينة الحمراء.

عاشت قرية ردحًا من الزمان في زوايا النسيان، حتى لمستها أقدام الآثاريين من جامعة الملك سعود سنة ١٩٧٢م، بعد أن جمعوا معلومات شتى عنها وكان أشهر من نوه عنها جون فيلبي في مقال كتبه عنها في المجلة الملكية الجغرافية بعد أن زارها ومعه آل ريكمانز وليبينز إلى جانب ما كتبه عنها هنري فيلد ضمن بعثة شركة أرامكو لدراسة عصور ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية.

أما في العصر الإسلامي فلم يشر إليها إلا الهمداني في جمل لا تتعدى السطرين في كتابه: صفة جزيرة العرب، أما جورجي زيدان فلم يتحدث عن قرية لكنه أشار إلى أقوام كانوا في نجد يسمون القرويين فمن هم هؤلاء القرويون؟



يحدثنا النقشان (ف ١٥ - ٨٧٠٨٦) أن آل سبي وآل بعيع وآل نتن وآل جبل وهم شعب قرية حفروا بئرًا ومذقنة للمعبود عبط، وهذا يعني أن عبطًا هو أول معبود عُبد في قرية ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن مذقنته أول بناء للعبادة في المنطقة السكنية بل في قرية كلها، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. أما قبل هذه الفترة فقد وجدنا بقايا مواقد على الأرض البكر في أحد المساكن وفي معبد شمس. فهل كان آل سبي ومن معهم من الذين نسبوا أنفسهم إلى قرية هم أول المستوطنين؟ هذا ما تؤكده التنقيبات التي قمنا بها، إذ وُجدوا خلال المرحلة الأولى (أ) أي بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وإذا فحصنا أسماء هذه الأسر فإننا لا نشم رائحة الأسماء الجنوبية. إذ لو كانوا من الجنوب لنسبوا أنفسهم إلى قبائل معروفة بدلاً من أن ينسبوا أنفسهم إلى قرية.

ولنا أن نتساءل من أين أتى هؤلاء القرويون؟ فهل أتوا مما يعرف بالجرهاء (قرية) في شرق الجزيرة لكي يسيطروا على طريق التجارة بين شرق الجزيرة العربية وجنوبها؟دعونا نفكر في هذا الاتجاه دون التزام بما تعودنا عليه من معلومات جمدت في أذهاننا لدرجة أننا أصبحنا لا نقبل سواها بمعنى أن نقبل أن ما يعرف بالجرهاء هو تحريف لقرية فإذا قبلنا هذا ولو على مضض فسوف ننظر إلى هذا الطرح الجديد بروح ذلك العصر الذي يسمح لشرق الجزيرة العربية بالمشاركة في تجارة الجزيرة، ولعل قرية أنموذج واضح للتعايش الاقتصادي بل السلمي في جنوب وسط الجزيرة العربية.

أما المرحلة الأولى (ب) (منتصف القرن الثالث قبل الميلاد) فنشهد فيها الزحف المعيني من جنوب الجزيرة العربية وقد شارك المعينيون القرويين نشاطهم فكان أن بنى مواطن من آل مليح معبد «عثتر ود» (ف ٨ - ٢٩٩) كما سجل مواطن من آل مرن ما قدمه في بيت ود (ف ٨ - ٢٧١) وما قدمه.... من آل مليح (ف ٨ - ٣٢٥) لمعبودات شتى هي: عثتر ذي قبض، وودم شهر، ونكرح شيمان، وعثتر ذي يهرق، وعثتر «بعل حدث» وكل آلهة معين وكهل، قدم هذا المواطن نذره لكل هذه المعبودات وكهل أيضًا وهو الذي يشار إليه للمرة الأولى في نص بقرية.

وإذا كان آل سبي ومن عاصرهم أو جاء معهم انتسبوا إلى قرية فإن المعينيين سموا قرية (بجنة بقرية طلوا) أي (الجنة هي القرية الحمراء) بمعنى أن قرية في تلك الفترة التي نزلها المعينيون أصبحت ذات نخل وخضرة وكأنها جنة وسط الصحراء القاحلة وفي وسط هذه الجنان كانت قرية شامخة بقصورها ذات الطينة الحمراء ولم يكن المعينيون وحدهم بل كان معهم آل سبي والآخرون من عُبَّاد «عبط» بالإضافة إلى حلفائهم في ددان اللحيانيين. نعم كان للحيانيين وجود واضح خلال هذه المرحلة حيث وجدنا منصبة لحيانية (عليها نص لحياني) وشواهد قبور لحيانية.

إذن فنحن أمام ظاهرة جديدة في الجزيرة العربية، هي السوق العربية المشتركة يقودها المعينيون واللحيانيون، فكان للمعينيين السيطرة الاقتصادية في هذه الفترة على قرية طلو، وللحيانيين حق الاتجار والمساهمة في الحركة الاقتصادية، فكذلك كان للحيان في ددان السيطرة الاقتصادية باعتبارها عاصمة لملكهم وللمعينيين حق الاتجار وإنشاء وكالات تجارية فيها.

وفي المرحلة الثانية (أ) برز ضمن عناصر مجتمع قرية عنصر آخر هو عنصر الأحانكة ونقصد به قبيلة حنكين أمرين التي انتشر وجود اسمها بصيغ مختلفة بما في ذلك التفريق بين الذكر والأنثى وتأتي أحيانًا بالجزء الأول من الاسم فقط.

ولعل ما يدعو للتأمل هو: هل أمرين لها صلة بقبيلة أمير التي كانت لها اليد الطولى في المثلث جنوب غرب الربع الخالي؟ أم أن لها صلة بقبيلة مرن المعينية؟ فهل هو حلف بين حنكين وأمير أم بين حنكين ومرن؟ لعل الرأي الأول أقرب إلى الحقيقة لأن النون في آخر أمرين علامة إعراب.

وكان للأحانكة دور كبير بدأ واضحًا في كثير من مظاهر الحياة وخاصة عندما انتعشت الحركة الاقتصادية وبنيت القصور الضخمة والخانات وتحولت واجهات بعض المنازل إلى دكاكين للمشاركة في حركة البيع والشراء ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الأحانكة من جملة القبائل التي كان لها وجود في ددان في الفترة المتأخرة من دولة لحيان. ولكننا بالمقابل نشاهد وجودًا لشعب عربي آخر هو شعب الأنباط الذي اثبت وجوده بما تركه من فخار نبطي يعود للقرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي وبعده كما أن هناك نصوصًا نبطية كتبت بالخط المسند وبالخط النبطي إلى جانب شواهد قبور كتبت بالأسلوب النبطي.

وإن كنا نشعر بأن الجالية النبطية لم تكن على مستوى راق من المعرفة بالكتابة إذ أنه لولا النص بالخط المسند لما استطعنا التعرف على محتوى النص النبطي الذي لا يوازي مضمونه ما جاء في نص المسند.

وفي المرحلة الثانية (ب) منتصف القرن الثاني الميلادي برزت إحدى العناصر المكونة لمجتمع قرية وهم الغلوانيون وقد ظهروا لنا من خلال شواهد القبور ولعل أهمهم بروزًا هو عجل بن هفعم الغلواني إلى جانب ذلك الغلواني الذي دفن ناقته معه في مقبرته ولكننا لا نعرف الكثير عنهم في قرية إلا أننا نشعر أنه ربما كانت لهم صلة بالملك معاوية بن ربيعة.

إذ أن نقش معاوية بن ربيعة (نقش معاوية) جهزه هفعم بن بران. إن نقش معاوية بن ربيعة (الذي يبدو أنه من عائلة يميث) ملك قحطان ومذحج يثير كثيرًا من التساؤلات فنحن لم نجد من قبل ذلك نصًا عن ملك حكم قرية، ولكننا نجد نصوصًا تتحدث عن ملك حضرمي وإشارة إلى عبدي ملك من ملوك سبأ وإلى ملك من ملوك هامير. وحتى نقش معاوية لم يشر إلى أنه ملك لقرية ولكن ملك لقحطان ومذحج ونحن لم نجد ضمن النقوش في القرية ذكراً لقحطان ولا لمذحج فهل كان معاوية مارًا بقرية ومات فيها فدفن بها؟ ولكن بناء مقبرة وكتابة نص يبدو أن عدد أسطره كانت أكثر من مجرد ثلاثة سطور كما أن بناء الغرفة أعلى القبر التي بنيت على النظام الشمالي (النبطي والتدمري) ونحت النصف الأعلى دون رأس لتمثال يبدو من ردائه وكأنه جزء من تمثال لملك روماني يجعلنا نعتقد أننا أمام وجود لملك يحكم قحطان ومذحج في قرية وإن لم يذكر مكان حكمه فيما بقي من النص، ولكن النص كان حريصًا على أن يثبت نسبه على أنه من آل يميث وأنه من قحطان.

وإذا كان الغلوانيون قد وجدناهم يمثلون المرحلة الثانية (ب) فإن معاوية ومن والاه نحسب أنهم كانوا في المرحلة الثانية (ج) وهي نهاية المراحل التاريخية. وهذه المرحلة تبدأ في القرن الثاني الميلادي.

إن النصوص الجنوبية التي تتحدث عن غزو وتدمير وسلب قرية تتحدث عن نظام سياسي جديد فيتحدث النص الملكي لشعرم أوتر (نص بران ٢٠٠١)عن هزيمة لربيعة بن معاوية ذي آل ثور ملك كندة وقحطان وقاعدته «قرية ذات كهل» وها نحن نفاجأ بمسمى جديد لقرية يختلف عن المسمى المعيني. إذ ربطت بمعبودها كهل وكان ملكها الذي يلقب نفسه بملك قحطان ومذحج، أصبح لقب ابنه «ربيعة بن معاوية ذي آل ثور ملك كندة وقحطان» فكيف جاء لقب كندة وكيف جاءت النسبة إلى آل ثور ويأتي اسم ربيعة ذي آل ثور دون النسب إلى معاوية (في نص جام ٦٣٥) وربيعة هذا أيضًا ملك كندة وقحطان. وهذان النصان يؤرخان في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي. إذ أن كلا النصين يتحدثان عن كندة سابقة لقحطان فلماذا أسقط اسم مذحج؟

ثم عندما نصل إلى منتصف القرن الثالث يظهر علينا (نص جام ٢١١٠) يتحدث عن «مالك بن بد» ملكًا على كندة ومذحج وهنا يسقط اسم قحطان ويعود اسم مذحج ثم يأتي (نص جام ٥٧٦) من عهد إلشرح يحضب وأخيه يأزل بين ملكي سبأ وذي ريدان، ليجعل مالك دون نسبته إلى بد ملكًا على كندة فقط ويسقط اسم مذحج أيضًا لتنفرد كندة بالملك. فهل استطاعت كندة أن تسيطر على الوضع السياسي لنواجه بكندة حاكمة لقرية ذات كهل؟

إن النسابين العرب يجعلون كندة ومذحجًا شيئًا واحداً فلمَ لم يضموا إليها قحطان؟ ويبدو حقيقة أن كندة زحف قبلي من جنوب الجزيرة استطاع أن يصبح المتفرد بالحكم في قرية وما حولها خلال القرن الثالث الميلادي ولكننا نفاجأ بنقش امرئ القيس المنذري يشير خلال تعداده القبائل التي مر بها إلى أنه هرب الى مذحج. فهل قابل امرؤ القيس مذحجًا في حدود «قرية ذات كهل» أم في منطقة أخرى بالقرب من نجران؟ على أي حال فإن التسلسل التاريخي لقرية يؤيد اضمحلال قرية نهائيًا في بداية القرن الرابع الميلادي.

أما كندة فقد أضمحل ملكها وصاروا أعرابًا ينضمون إلى الجيوش الزاحفة عبر جنوب الجزيرة العربية ووسطها فها نحن نجدهم في نص مأسل (ريكمانز ٥٠٩-٥١٠)، فالنص ريكمانز ٥٠٩ يعود إلى القرن الخامس الميلادي أما النص ٥١٠ فيعود إلى الربع الأول من القرن السادس الميلادي. كما نجد لهم دورًا فعالاً في نص أبرهة (مريغان)، والذي يعود إلى نهاية القرن السادس الميلادي وكان منهم قادة وجههم في حملة. وتذكر كتب التاريخ العربية وجودًا لكندة في وسط الجزيرة العربية إذ نجد شاعرًا فذًا هو امرؤ القيس الكندي وسلسلة من الملوك الكنديين ولكننا لا نستطيع أن نحدد أماكن وجودها ولا حواضرها سوى الإشارة إلى غمر

ذي كندة المعروف قرب الطائف وسوى الأماكن التي جاءت في شعر الشاعر الضليل امرئ القيس وخاصة في معلقته. كما يبدو وجودهم وعلاقتهم مع الفرس والمناذرة وفي دورهم في دومة الجندل وعلاقتهم بالبيزنطيين.

وعندما ظهر الإسلام كانت كندة الأكرمين ضمن الوفود التي جاءت إلى المدينة المنورة وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم في عام الوفود أما قحطان فلا ذكر لها في هذه الفترة قط منذ القرن الثالث الميلادي.

تنحصر أهمية قرية في موقعها الهام على الطريق التجاري. فقد أظهرت أعمال التنقيب معلومات هامة حول تطور المدينة حيث تبين أنها نمت تدريجيًا من نقطة عبور للقوافل إلى محطة تجارية هامة على الطريق التجاري الممتد من جنوب الجزيرة العربية والمتجهة شمال شرق إلى الخليج العربي وبلاد الرافدين وشمال غرب الى الحجاز وبلاد الشام إلى أن أصبحت مركزًا اقتصاديًا ودينيًا وسياسيًا وثقافيًا في وسط الجزيرة العربية وحاضرة قوية لدولة كندة في مراحلها الأولى.

وعُثر في قرية على عدد كبير من آبار المياه يزيد على مائة وعشرين بئرًا كما أنها تقع على واد يفيض بين فترة وأخرى، واهتم سكان قرية بالزراعة اهتمامًا كبيرًا، فقد حفروا الآبار وشقوا القنوات السطحية التي تجلب المياه إلى داخل المدينة فزرعوا النخيل والكروم وبعض أنواع اللبان والحبوب. كما استعملوا جذوع الأشجار والنخيل في تسقيف منازلهم والأخشاب المحلية والمستوردة لأبوابهم ونوافذهم وأدواتهم المختلفة كالأمشاط وغيرها. كما اهتموا بالثروة الحيوانية كالجمال والأبقار والماعز والضأن والغزلان والوعول. واستغلوا الأسمدة الحيوانية في زراعتهم.

كانت قرية (الفاو) مدينة غير مسورة حيث لم يعثر لها حتى الآن على سور أو ما يدل على وجود سور لها. وهذا يعني أن هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام كانت مدينة تجارية مفتوحة للقوافل التجارية الآتية من الممالك العربية المختلفة، فهي محمية طبيعيًا حيث تشكل المظاهر الجغرافية المحيطة بها وقاية طبيعية لها كجبل طويق من الشرق. إلى جانب أن سكان قرية بنوا بوابات في الجهات الشمالية والغربية والجنوبية.

وقد استخدم سكان قرية في حروبهم الخيل كما يظهر في اللوحات الجدارية وبعض التماثيل النحاسية، وفي دفاعهم استخدموا الرماح والنبال والسيوف.

استعمل سكان قرية في بناء مدينتهم اللبن المربع والمستطيل. كما استعملوا الحجر المنقور والمصقول في الأسس وبناء المقابر. واستخدموا الجبس المخلوط بالرمل والرماد في تبليط الجدران الداخلية للمباني. ودعموا مبانيهم بالأبراج المربعة والمستطيلة. ومن العمائر التي عثر عليها في قرية:

خطة السوق في قرية الفاو

السوق

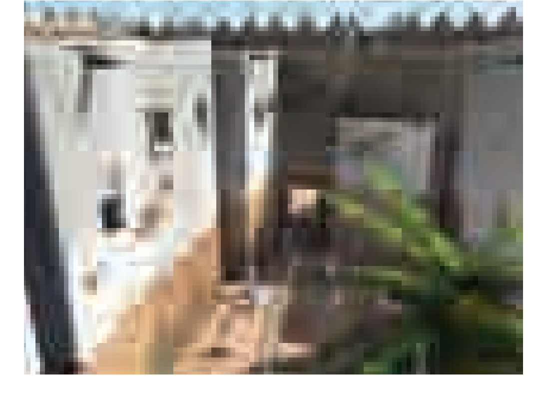
شيد بالقرب من الحافة الغربية للوادي الذي يفصل بين جبل طويق وبين حدود المدينة وشرقي المنطقة السكنية. وهو سوق كبير يبلغ طوله من الغرب إلى الشرق ٣٠,٧٥م ومن الشمال إلى الجنوب ٢٥,٢٠م ويحيط به سور ضخم مكون من ثلاثة أجزاء متلاصقة أوسطها من الحجر الجيري أما الداخلي والخارجي فمن اللبن. ويتكون السوق من ثلاثة طوابق وله سبعة أبراج، أربعة منها في أركان البناء وثلاثة في منتصف أضلاعه الشمالي والجنوبي والشرقي. والمدخل الوحيد للسوق يقع في النصف الجنوبي من الضلع الغربي وهو عبارة عن باب صغير يؤدي إلى ساحة في صدرها بئر عميقة مطوية بالحجر. وتحيط بالساحة الحوانيت والغرف والمستودعات. ويلتصق بالبئر قناء تمتد بمحاذاة الدكاكين الجنوبية في اتجاه باب السوق.

المعابد

اكتشف في قرية (الفاو) ثلاثة معابد ومذبح واحد ففي المنطقة الواقعة إلى الغرب من السوق يوجد معبدان الأول عبارة عن بقايا معبد يبدو أنه كان لأكثر من معبود واحد. فقد وجدت به نصوص مكتوبة بالخط المسند الجنوبي تذكر معبودات مختلفة مثل المعبود الأحور.



السوق



السوق (إعادة تشكيل ثلاثية الأبعاد)

أما المعبد الثاني فقد عكست بقايا البناء المعمارية الصفة الدينية له، كما قدمت المعثورات الدليل الأكيد حول طبيعة هذا البناء باعتباره معبدًا كبيرًا مر بمرحلتين معماريتين، فهو كرس للمعبود سن في المرحلة الأولى والمعبود شمس في المرحلة الثانية. وقد عثر على نصوص منقوشة بالخط المسند على حجارة جيرية تشير إلى مناسبة بناء بيت ومنصبة ومرزح لأسماء معبودات مثل: شمس، وعثتر.

أما المعبد الثالث فهو معبد عثتر ود أو بيت عثتر ود، وقد كُشف عنه في الموسم الثامن بالمنطقة السكنية. ويتميز هذا المعبد عن غيره من المعابد المكتشفة في قرية ببقاياه المعمارية المتكاملة تقريبًا ومخططه المتناسق وبشكل بناء هيكله. كما يتميز بزخارفه المعمارية ونقوشه الكتابية وأهمها الإشارة إلى معبود دولة لحيان «ذو غيبة» ومعثوراته النادرة. وقد عثر أيضًا في غربي المنطقة السكنية على مذبح للمعبود عبط، هذا المذبح مبني من الحجر الكلسي المقطوع قطعًا جيدًا وإلى جانبه في الساحة الكبرى توجد بئر ماء كبيرة بنيت أيضًا للمعبود نفسه وللمعبود كهل.

المقابر

تتميز قرية (الفاو) بتنوع أشكال مقابرها مما يعكس الفترات الحضارية المختلفة التي مرت بها. ويمكن تمييز نوعين من المقابر في قرية هما: المقابر العائلية: وهي عبارة عن مقابر جماعية تعود لأسر وأشخاص ذات مكانة سياسية واجتماعية في المدينة، مثل مقبرة الملك معاوية بن ربيعة، ومقبرة عجل بن هفعم. وتقع هاتان المقبرتان على الطرف الغربي للمدينة. أما مقبرة سعد بن أرش فتقع في منطقة الأبراج. وقد دل اكتشاف هذه المقبرة إلى جانب أحد الأبراج على أنها كانت أضرحة أو أنصبة تميز مواقع المقابر العائلية المنقورة في الصخر بأسفلها، أما المقابر العامة، فهي مقابر لعامة الناس وتقع شمال شرقي المدينة. وهي تشبه المقابر الإسلامية أي عبارة عن مهبط غير منتظم ولا مجصص بعمق ما بين متر واحد إلى خمسة أمتار تنتهي بلحد.

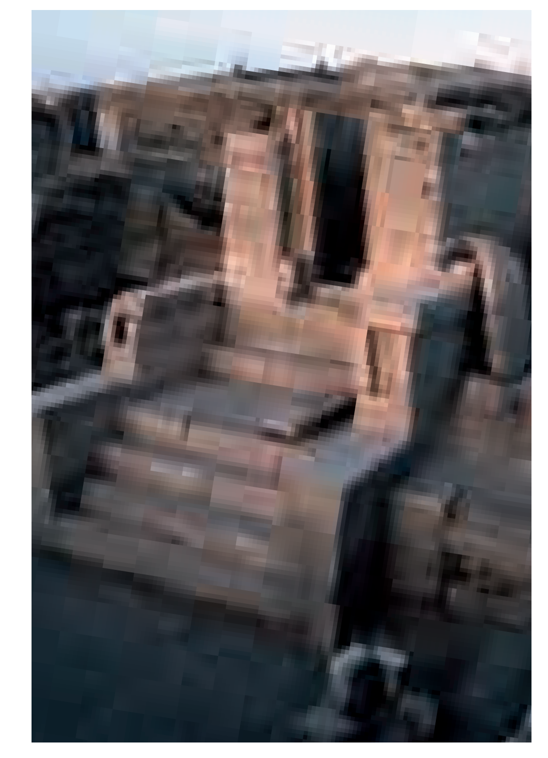
المنطقة السكنية

تعد من أهم معالم قرية (الفاو) فهي تضم عناصر هامة في حياة مجتمع مملكة كندة كما تمثل صورة كاملة للمدينة العربية قبل الإسلام. وقد مرت بثلاث فترات زمنية متعاقبة.

ومن أهم مميزات عمارة قرية (الفاو) وجود أزقة وشوارع بين المنازل، ووجود وحدات سكنية متميزة تتسع غرفها حتى تصل إلى عشرة أمتار طولاً وثلاثة أمتار عرضًا، والاهتمام بالخانات أو الفنادق، والدقة في استقامة المباني وضبط زواياها القائمة، ويصل سُمك بعض الجدران إلى ١٨٠سم، واستخدام عتبات من الحجر بعضها عليه نصوص مكتوبة بالخط المسند مما يدل على أنها منقولة، واستعمال الأخشاب للأبواب والأسقف، وشيوع استعمال الدرج في جميع الوحدات السكنية والاستفادة من بيت الدرج بوضع أحواض الأزيار بها أو استعمال بعضها كأماكن لطحن الحبوب، ومن أهم ما تميزت به بيوت قرية (الفاو) وجود شبكات للمياه النظيفة تخرج من المنازل، وخزانات للفضلات مما يدل على وجود مراحيض في الأدوار العليا.

الكتابات

اهتم سكان قرية (الفاو) بالكتابة اهتمامًا كبيرًا، فهي موجودة على سفوح الجبال وفي السوق والمعبد وعلى اللوحات الفنية وفي المدينة السكنية وعلى شواهد القبور والفخار والمواد الأثرية الأخرى. وقد عبر سكان قرية عن أفكارهم وخواطرهم بالخط المسند الجنوبي الذي أخذ في قرية شكلاً متميزًا عنه في الجنوب. أما لغتهم فكانت مزيجًا بين لغتي الشمال والجنوب. وكانت موضوعات الكتابة مختلفة فمنها الموضوعات الدينية والتجارية بالإضافة إلى الموضوعات المتعلقة بالعلاقات الفردية. فعن طريق الكتابات استطعنا التعرف على أسماء الأعلام والقبائل وبعض المعبودات ومن خلال الكتابات أمكن التعرف على وجود علاقات بين قرية (الفاو) وبعض ممالك الجزيرة العربية مثل الأنباط واللحيانيين. وقد نقلت التجارة معها إلى قرية الخط الآرامي النبطي، حيث عثر على نصوص مكتوبة بالخط المسند والخط النبطي في آن واحد. إضافة إلى وجود



معبد الوادّ، قرية الفاو

مخربشات نبطية في بعض غرف وحدات المنطقة السكنية كذلك عثر على نصوص مكتوبة بلغة عربية شمالية تذكر المعبود اللحياني (ذو غيبة) مما يدل على وجود جالية لحيانية في قرية (الفاو).

الرسوم الجدارية

تضم قرية (الفاو) عددًا كبيرًا من الرسوم الفنية المختلفة. وقد مرت بمراحل أربع، الأولى عندما سجل الفنان على سفوح الجبال رسوم الجمال والهوادج والخيول والأشخاص ومناظر الحروب وحفلات الرقص والنخيل وغير ذلك، وفي المرحلة الثانية رسم الفنان داخل المنازل رسومًا بالحز على ملاط الجدران، وفي الثالثة كلف سكان قرية الفنان برسم مناظر ومشاهد تفصيلية من الحياة اليومية واستخدم فيها اللونين الأسود والأحمر. أما المرحلة الرابعة فتمثلها اللوحات الجدارية الملونة والتي وجدت في بعض وحدات المنطقة السكنية وفي دكان فنان قرية (الفاو) بالسوق. وفي هذه اللوحات يظهر تطور فنان قرية (الفاو) وقدرته العظيمة على الابداع الفني.

التماثيل

عُثر في قرية (الفاو) على مجموعة مهمة من التماثيل أو أجزاء منها. فنجد التماثيل المعدنية والحجرية والطينية والخزفية. فالتماثيل المعدنية هي تماثيل آدمية أو أجزاء لتماثيل آدمية وتماثيل حيوانية. والتماثيل الطينية عبارة عن مجموعة من الدمى الآدمية يبدو أنها كانت تستخدم كدمى للأطفال. أما التماثيل الخزفية فهي قليلة ومنها قطعة من الخزف عليها رسم لوجه إنسان ذي لحية طويلة وعلى رأسه ما يشبه القلنسوة المرتفعة وله جديلتان تغطيان أذنيه.

ومن المواد التي استخدمت في الصناعات المختلفة وعثر عليها في قرية (الفاو):

الخشب

اهتم سكان قرية بالخشب اهتمامًا خاصًا فاستخدموه في المنازل والأسواق والمقابر كتوابيت. ولكن لم يعثر على الكثير من هذه المادة نظرًا لسرعة التلف الذي يصيبها. ألا أنه قد عثر على بعض المعثورات الخشبية كالأمشاط، ووعاء صغير لطحن المواد الخفيفة، ومكيال، وقطعة مستطيلة الشكل عليها دائرتان غائرتان استعملت كقاعدة لكفتي ميزان.

العظم والعاج

استخدمت عظام الجمال بعد تنظيفها في الكتابة عليها بمداد أسود وأحمر بالخط المسند. أما العاج فقد عثر على قطع منه استعملت كأساور وخواتم وأقراط وأدوات زينة وحلي.

المنسوجات

عُثر على قطع منسوجة من الكتان وصوف الأغنام ووبر الجمال. وهذه القطع تمثل أجزاء من ملابس وأجزاء أخرى كانت تزين ظهور الجمال وتغطي الهوادج. فالرسوم الجدارية التي تظهر الصور الآدمية مرتدية ملابس فضفاضة وأردية منمقة، واستخدام بعض الغرف لأغراض النسج، دليل على تقدم صناعة المنسوجات في قرية (الفاو).

المعادن

كشفت التنقيبات الأثرية عن عدد من الأواني المعدنية وتماثيل وأجزاء من تماثيل آدمية وحيوانية. وتمثلت الأواني والقطع المعدنية في القدور والسكاكين والإبر والمخايط وأغماد الخناجر والمفاتيح والمراود ومقابض الأوني والأساور والأوزان والمسارج.

المسكوكات

وهي من أهم معثورات قرية (الفاو) لأن معظمها قد ضرب فيها، وقد عثر عليها في أماكن متفرقة وبعضها وجد على السطح. ومعظم المسكوكات التي عثر عليها ضربت من الفضة. وأهم تلك المسكوكات مجموعة من القطع الفضية والبرونزية تحمل على الوجه اسم كهل معبود كندة وعلى الوجه الآخر شخص واقف أو جالس تحيط به أحرف بالخط المسند.

الحلي

لم يعثر في قرية (الفاو) على الكثير من الحلي. وما وجد منها عبارة عن أساور من المعدن أو الزجاج أو العاج أو العظام. وغالبًا تكون هذه الأساور مزخرفة بزخارف طبيعية جميلة. كذلك عثر على بعض الخواتم الفضية والنحاسية والحديدية وعلى مجموعة كبيرة من الخرز المختلفة الأشكال والأحجام، بالإضافة إلى مجموعة لا بأس بها من الفصوص ومجموعة من المراود النحاسية ودبابيس نحاسية للشعر وإبر نحاسية صغيرة وكبيرة للحياكة، كما عثر على كنز من الذهب في إناء من الفضة لإمرأة تدعى (سودة بنت خالد) كتبت إسمها على شفة الأناء الفضي وتتكون الحلي من حلقات وأزمة وخواتم...ألخ.

الزجاج

لم يعثر في قرية (الفاو) على أواني زجاجية سليمة من الأحجام الكبيرة إلا أن ما عثر عليه من قطع زجاجية ذات أهمية كبيرة في صناعة الزجاج. وقد عثر على بقايا أوانٍ وأساور وأدوات زينة وخواتم وفصوص وخرز زجاجي صنعت بطرق عدة ومتنوعة، وقنينات صغيرة الحجم تستخدم للعطور ومواد التجميل، ولعل من أهم ما عثر عليه كأس مستطيل رسم عليه أشكال فرعونية تعود إلى الفترة المتأخرة من تاريخ مصر.

الحجر

صنعت الأدوات الحجرية من الأحجار المحلية ومن أحجار أخرى مجلوبة من خارج قرية (الفاو) مثل حجر البازلت والحجر الصابوني وغيرهما. ومن أهم الأدوات الحجرية الرحى، وموائد القرابين، والأحواض، والمذابح، وشواهد القبور، والمجامر.

الفخار

عُثر على كميات كبيرة من الفخار اتضح بعد تصنيفه أنه قد صنع إما باليد أو الدولاب أو بالدولاب كليًا. كما أن بعض الكسر الفخارية عليها كتابات بالخط المسند مثل اسم كهل معبود قرية (الفاو)، ويمكن تقسيم فخار قرية بشكل عام إلى فخار خشن، ورقيق ومزجج كالتالي:

الفخار الخشن: يضم مجموعات عديدة منها ما كان للاستعمال اليومي ومنها ما كان لأغراض تجارية أو دينية في المعابد والمقابر. ومن هذه المجموعات القدور والأزيار والجرار والأواني والزمزميات والمصافي وأغطية الأواني.

الفخار الرقيق: ذو عجينة أكثر نعومة ونقاء مما يساعد على تنفيذ الزخارف عليها. وقد عثر في قرية (الفاو) على كمية جيدة من الأواني الفخارية الرقيقة أبرزها تلك الكسر النبطية ذات العجينة الحمراء النقية وهي أجزاء من أطباق صغيرة ورقيقة مزخرفة من الداخل بزخارف ملونة باللونين الأسود والبرتقالي.

الفخار المزجج: وجدت كمية من الفخار المزجج أو الخزف وتمثل أشكالاً لأوانٍ مختلفة كالزهريات والأطباق والأباريق وغيرها. وتختلف الزخارف على هذه الأواني الخزفية حسب اختلاف ذوق الفنان. فهناك زخارف محفورة عبارة عن خطوط رأسية متجاورة. كذلك هناك الزخارف البارزة والتي تمثل عناصر نباتية محورة عن الطبيعة. أما عجائن هذه الأواني فمعظمها ناعمة مصفرة تختلف درجة تماسكها وصلابتها من قطعة إلى أخرى وتغطيها طلاءات زجاجية ملونة يغلب عليها اللونان الأخضر والأزرق.

المصادر والمراجع :

- الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، **قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، جامعة الرياض، الرياض.
- الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، وآخرون، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، **آثار منطقة الرياض، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية**، ١، وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض.
- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وسالم أحمد طيران، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م **قرية الفاو مدينة المعابد (المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور، أبحاث ندوة المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور**، الجوف ذو القعدة ١٤٢٦هـ/ديسمبر ٢٠٠٥م)
- الدائرة للنشر والتوثيق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، **الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية**، الجزء الثاني، المواقع الأثرية، الطبعة الأولى، دار الدائرة للنشر والتوثيق، الرياض.
- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.



١٢٧. العنصر المعماري
القرن الأول قبل الميلاد
حجر كلسي
٥٩ x ١٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣ ف ١٢

1 *...n qbr-hmw Ms^{1}'d G'd^{m} bny D'=*
2 *nm ..wnyn w-h'd-h b-Khl^{m} mn 'f=*
3 *kl^{m} w-s^{1}qt^{m} w-h'd-h m-h'dt …*

١ ... قبرهم مسعود غا دوم ابـن
٢ دعنم ... أوكلوا أمره إلى كاهـلوم ضد أي كاهن
٣ وخادم شعائر وأوكلوا أمره ...

يرقى هذا النقش المكتوب باللغة السبئية إلى القرن الأول قبل الميلاد، وقد طلبه سكان من قرية الفاو وليس معينيون، كما تدل أسماؤهم، (د. المعرض رقم ١٢٨) واسم الإله. وحفُر هذا النقش على عنصر معماري أعيدَ استخدامه في معبد.
C. R.



١٢٨. بَلاطة منقوشة
حوالى القرن الأول قبل الميلاد
حجر كلسي
٦٧ سم x ٤٤ سم x ١٢ سم.
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢ ف ١٢

1 *D'n^{m} bn G'd^{m} d-'l 'hnkt*
2 */w-bn-h Ms^{1}'d w-G'd^{m} bny D'=*
3 *n^{m} bnyw w-hwtr qbr-hmw S^{1}l=*
4 *w^{n} w-h'd-h b-Khl^{m} m-mlk w-s^{2}=*
5 *rym w-mrthnm w-l'n Khl hll*

١ دعنم بن غادوم، من عشيرة الاحنكة
٢ وابناه مسعود وغا دوم، ابنا دعنم
٣ بنوا من الأسُس قبرهم سيلوا- ن
٤ وأوكلوه إلى كاهـلوم في مقابل كل حائز،
٥ مشتر وآخذ رهونات. فليلعن كهل كل مـَن يحوزه

هذا نقش باللغة السبئية، مع بعض الخصائص المحلية. وينتمي مؤلفوه إلى الأحنكيين، أبرز عشيرة في الواحة، الإله المعني، كـهل، هـو كبير آلهة الواحة.
C. R.



١٢٩. نصب ذو عينين
القرن الخامس- القرن الرابع قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي
٣٧ x ٣٦ x ١٦ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، جرد ٣ ف ٣٢

1 *R(t)dt bnt* — ١ راتهيدات بنت
2 *W'l (d)'t* — ٢ وائل من
3 *'l 'l-'ḥnk* — ٣ عشيرة الأحنك
4 *(t)* — ٤ (ت)

(قراءة C. R.)

هذا النصب الجنائزي الذي يرد فيه اسمُ امرأة متوفاة من عشيرة الأحنكيين، تعلوه عينان مستديرتان مشقوقتان. والتشابه مع النصب النبطية، المتأخرة، متأتٍ من خلفية ثقافية مشتركة لكافة أنحاء شبه الجزيرة العربية، وليس من تأثير معيّن لسكان من شمال الجزيرة العربية في جنوبها.
M. C.



١٣٠. نقش جنائزي
أواخر القرن الأول قبل الميلاد
حجر كلسي
٦٠ x ٤٨ x ١٣ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٨٨٧

فهرس: غنيم، ١٩٨٠، ١١؛ الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١٤٦؛ Robin، ١٩٩١ b، ص. ١١٦.

1 *'gl bn Hf'm bn l-'h-h Rbbl bn H=*
2 *f'm qbr w-l-hw w-l-wld-hw w-m=*
3 *r't-h w-wld-hw w-wld wld-hm*
4 *w-ns^{1}y-hm ḥryr dw-'l Ḡlwn f-*
5 *''d-h b-Khl w-Lh w-'tr*
6 *'-s^{2}rq mn 'zz^{m} w-wny^{m} w-*
7 *s^{2}ry^{m} w-mrthn^{m} 'bd^{m}*
8 *bn wks^{1m} 'd-ky tmṭ=*
9 *r '-s^{1}my dm w-l-r=*
10 *ḍ s^{2}'r*

«عجل بن هفعم بنى لشقيقه ربيب < ،> إيل ابن هفعم
< هذا > القبر، كذلك له، ولأولاده، ولز[3]- وجته، ولأولاد(ها)،
ولأحفادها[4]، وزوجاتهم، نبلاء سلالة غالوان. ثم، [5]، عهد به إلى كهل، إلى ولاه وعثر [6]
الشارق على رغم أنف كل متجبر وضعيف، [7]، سواء كان شاريا أو آخذ الرهن، إلى الأبد، [8]
على رغم كل ضرر، طالما أعطت [9] السماء المطر وغطّى العشبُ الأر[10] ض».

هذا النقش الذي يحذر مـَن سيأتي ويلحق الضرر بالقبر العائلي، هو أقدم شاهد على استخدام اللغة العربية، لكن الخط المستخدم من جنوب شبه الجزيرة العربية. وكـُتب نصان آخران من قرية الفاو، تتخللهما فجواتٌ، بلغة عربية قديمة [1]، أما بقية المدونة فمكتوبة بلغة تمزج ما بين تلك المستخدمة في جنوب شبه الجزيرة العربية واللغة العربية.
M. C.

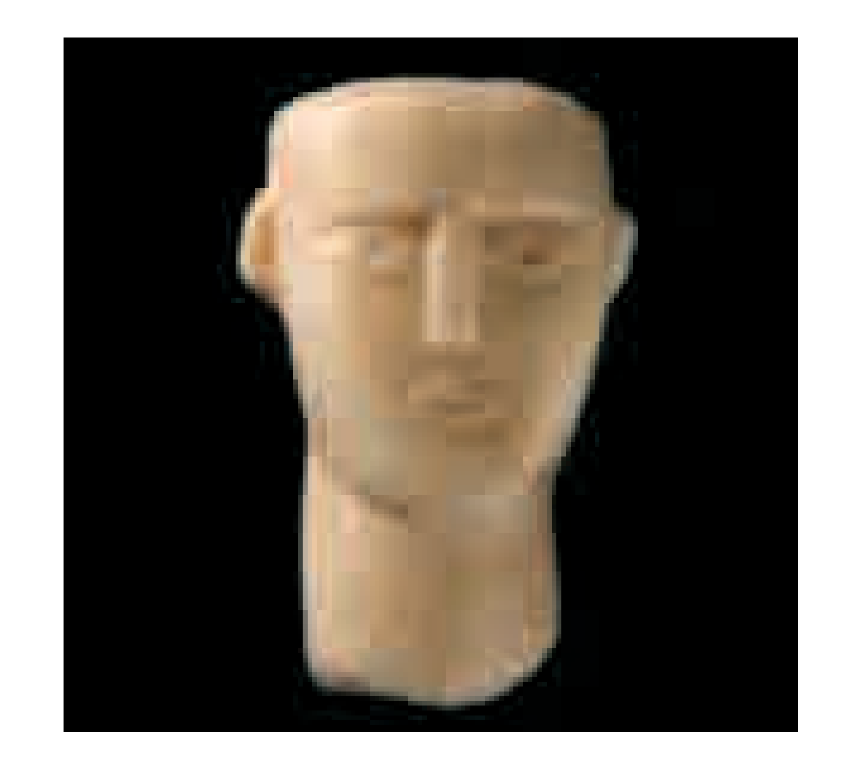
١. Robin، ١٩٩١ b، ص ١١٤-١١٥



١٣١. قطعة من الساكف
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
حجر كلسي
٢١ x ٩٠,٥ x ١٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٥ ف ١٢

نُقشت على هذا النموذج المعماري نقشاً ناتئاً، رسومُ وعول وكؤوس بعروتين ونوافذ موصدة، يعلوها إفريز من رؤوس الوعول المنمنمة. وسبق استخدام نموذج الكأس بعروتين على أحد تيجان أعمدة قصر شبوة، حيث يُقرن برسوم مستوحاة من فنون تدمرية وبارثية [١]. وتُعتبر هذه الزينة مزيجا مدهشا بين التقاليد المحلية والتقاليد اليونانية-الرومانية والشرقية.
M. C.

١- Paris، ١٩٩٧، ص ١١٤



١٣٢. رأس أنثوي (؟)
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
كلسيت- مرمر
٢١ x ١٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٥٠ ف ١١

ينتصب هذا الرأس المستدير على عنق طويل، تتسم ثنيات جلده بخطوط مشقوقة. وتفاصيل الوجه بسيطة: عينان كبيرتان مع حدقة بالغة الوضوح، وأنف مربع الزوايا وشفتان ممتلئتان. وقُلنْسوة الجمجمة ناقصة، لأن الشعر كان يجب أن يُضاف اليها. والحجر الذي غالبا ما استُخدم للنحت هو من الكلسيت-المرمر من أجل نعومة حبته ولونه الأشقر الشفاف. وان المعلومات الواردة في كتاب رحلة عِبر البحر الأحمر(Périple de la mer Érythrée)، المختص بالملاحة اليونانية في القرن الميلادي الأول، أن هذا الحجر المعروف باسم (mwglm)[١] ، كان يُصدّر من مرفأ موزا على البحر الأحمر.
M. C.

١ – Garbini، ١٩٧٤، ص. ٢٩٦.



١٣٣- رأس رجل
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
الكلسيت- المرمر
٢٣ x ١٢ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١ ف ١٠

رؤوس المتوفين المصنوعة من المرمر، منتشرة جدا في جنوب شبه الجزيرة العربية؛ ويُفترض أنها كانت موضوعة على قواعد مكعبة صغيرة أو في كوى محفورة في النصب المأتمية المنقوشة على اسم المتوفى. ولحية هذا الوجه، وعيناه وحاجباه، مرسومة باللون الأسود. وقُلنْسوة الجمجمة ناقصة لأن الشعر قد نُحت على الأرجح بطريقة مختلفة
M. C.

١٣٤. نصُب رجل يحمل سيفا قصيرا
القرن الأول- القرن الثالث بعد الميلاد
الكلسيت- المرمر
٥٧ x٣٠ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٧٠ ف ١٥

يبرز الرسم المستدير الناتىء، على خلفية ملساء؛ شعر هذا الرجل قصير، وشارباه دقيقان مع لحية. ويرتدي جلبابا طويلا مضلعا عموديا، مثبتاً بقطعَتَيْ جلد مستطيلتين، وعلى الحزام يحمل سيفا قصيرا مُغمداً. ويمكن مقارنته بأنصاب الجوف التي ترقى إلى بداية عصرنا، والتي تـُظهر رجالا في أوضاع قتالية ويرتدون الثياب نفسها [١].
M. C.

١- Arbach و Audouin، ٢٠٠٧، رقم ٦٢، ص. ٩٥ ورقم ٥٩، ص. ٩٢؛ Paris، ١٩٩٧، ص. ٢٠٨.



١٣٥. نقش باللغة المعينية
حوالي القرن الثالث - الثاني بعد الميلاد
برونز
١٧,٥ x ١٥,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٦٢ ف ٨

1	*Rgyd bn Qs^{3}m'l*	رجيد بن قسم إل	١
2	*w-Ṣfy^{n} bn Mrd*	وصفيان ابن مرا- د	٢
3	*ḏ-Dbr s^{3}l'y w-s^{1}=*	ذو دبر قد أهدوا وقد- -	٣
4	*qny ʻṯtr ḏ-Qb=*	موا إلى عثتر ذو قبض	٤
5	*ḍ w-Wd^{m} S^{2}hr^{n}/*	وودوم شاهرا- ن	٥
6	*s^{1}qnyt^{n} ḏt '=*	هذه التقدمة	٦
7	*ẖḏ 'ḥly-s^{1}mn/*	المقتطعة من بضائعهم	٧
8	*b-mqs^{3}m b-Gntn*	في سوق الواحة	٨

تخلـّد هذه اللوحة ذكرى تقدمة إلى أبرز إلهيـْن لدى معين. والمؤلفون هم معينيون، كما يشير إلى ذلك اسم قبيلتهم، دبر، التي ثبت وجودها في براقش (اليمن).
C. R.

١٣٦. لوحة منقوشة مزينة بالوعول
حوالي القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول بعد الميلاد
برونز
٦٢ x ٣٤ سم
قرية الفاو، معبد واد
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٠٢ ف ٨

1 *ny Wdʻt ḏ-Mrn 'dm Wd^{m}*
2 *S^{2}hrn s^{3}l' w-s'qny ʻṯtr*
3 *ḏ-Qbḍ w-Wd S^{2}hr(^{n}) w-Nkrḥ S^{2}=*
4 *ym^{n} w-ʻṯtr ḏ-Yhrq w-ʻtṯ=*
5 *r bʻl Ḥdṯ w-kl 'l'lt M=*
6 *ʻn s^{1}qnyt ḏhb^{n} b-Gnt^{n}/*
7 *b-Qryt Ṭlw b-hdyht w-'k=*
8 *rb 'ẖḏ 'ḥly-s^{1}m ns^{2}'-h k-*
9 *Nhr ʻd S^{1}lky w-gb'-h ʻd*
10 *Qryt w-Qrnw f-l tʻs^{1}m 'ḏn*
11 *ḏ-Qbḍ^{m} w-'l'lt^{n} k-ḏ-yktrb-s^{1}m*
12 *w-rṯd 'hl Mr^{n} ḏ-Qbḍ w-'l=*
13 *'lt^{n} 'nfs^{1}-s^{1}m w-'ẖh-s^{1}m w-w=*
14 *ld-s^{1}m w-qny-s^{1}m f-l ys^{1}m'-s^{1}m*

{ينقص سطر واحد}
١ {إ} بن ودعة ذو- مرّان، خدام وادوم
٢ شهران، أهدوا وقدموا إلى عثتر
٣ ذو قبض، واد شهران، ناكراه السـ-
٤ يد، عثتر ذو يحرق وعثتر
٥ سيد حاداث وكل آلهة مـ-
٦ عين تقدمة البرونز في الواحة
٧ في قرية تالاو، مع الهبات والضرائب
٨ المقتطعة من بضائعهم، التي نقلوها إلى
٩ (بلاد) نهر ؟ حتى سلوقية والتي أعادوها إلى
١٠ قرية ومعين. عسى أن تتكرر غالباً حماية
١١ ذو قبضم والآلهة الذين يسددون الضرائب من أجلهم.
١٢ أوكلت عشيرة مران إلى ذو قبض وإلى
١٣ الآلهة أشخاصهم، أخوتهم، أطفالهم
١٤ وممتلكاتهم. عسى ان يستجيبوا لهم ؟

مؤلفو هذا النص الذين ينتمون إلى عشيرة مرّان هم معينيون. وتُلقب هذه العشيرة و«خدام (الإله) وادّوم»، وربّما كان لها فروض خاصة في عبادة هذا الإله المعيني. منطقياً، الإهداء موجه إلى الآلهة الأربعة للمعبد المعيني، وإلى خامس «عثتر سيد حداث» (على الأرجح، عثتر الذي يكرّمه المعينيون في قرية الفاو). وهذا النص غنيٌّ بالمعطيات الجديدة. فهو أول نص يذكر رحلة تجارية معينية نحو الخليج العربي وحوض ما بين النهرين الاسفل (سُمي هنا نهر؟)، وتحديدا نحو سلوقية دجلة (تبعد ٣٥ كلم جنوب شرق بغداد). ويذكر كيف سمي السكان الموقع في العصور القديمة: غناتان، «الواحة». وكانت هذه «الواحة» على ما يبدو، مركز بلد يُدعى قرية تالاو.
C. R.





١٣٧. مجمرة
القرن السادس- القرن الأول قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي
٢٥ x ٩ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢١٨٤

١	*]w f-yd‘ry*	1
٢	*[?]yd Ḍb'*^{m}	2

(قراءة C. R.)

يستند المذبح إلى قاعدة من درجتين يعلوها نقش، الوجوه تزدان بأضلع عمودية عميقة، وأفعى تنتصب على كامل ارتفاع الجذع العمودي وشكل مستطيل بارز الملامح. وعلى الجزء العلوي إفريز من النتؤات المسننة يعلوه نقش. M. C.



١٣٨. مذبح
القرن السادس- القرن الأول قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي
٤٢ x ١٦ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٤ف ١٠

على الموقد، فوق الوعل والنخيل:

١ نمرم	*Nmr*^{m}	1

على الموقد، تحت الوعل والنخيل:

١ سيد ادواران عفان	*(b)'l ‘dwrn ‘f=*	1

على القاعدة:

٢ ابن و {..}نت	*n bn W[.]=*	2
٣ . نت	*.nt/*	3

يبدو أن النقش الأصلي هو النقش في الأعلى (نمرم). والنص في الأسفل (معناه ليس أكيدا) أضيف على ما يبدو في وقت لاحق.

(قراءة C. R.)

هذا المذبح الحجري، مزين على الوجه الآخر بنوافذ موصدة مؤطرة، في الطبقة العليا، رموز كوكبية، وفي الطبقة السفلى وعلٌ قرب شجرة نخيل. M. C.



١٣٩. مذبح
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
حجر كلسي
٢٢,٥ x ١٠,٥ x ١٢ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٥٥ ف ٨

الوجه الأمامي وحده لهذا المذبح يحمل زخرفة. هي نوافذ كاذبة تؤطر القرص والهلال. هذا النوع من المذابح ذي الزخرف الكوكبي، ظهر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، واستخدم مدة طويلة في جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى في أثيوبيا. M. C.



١٤٠. مذبح
القرن الأول بعد الميلاد (؟)
حجر كلسي
٦٤ x ٢٦ x ٢٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف دائرة الآثار،
جامعة الملك سعود، ٤٥ف ١٣

في المربع المجوّف الذي يزيّن جدار الموقد:

١ ديات	*Dyt*	1
٢ إبن تو	*bn Ṯ=*	2
٣ مايلوم	*myl*^{m}	3

على جدار القاعدة:

١ تحما	*Tḥmy*	1
٢ بنت أوس-	*bnt '=*	2
٣ اللات	*ws*^{1}*lt*	3
٤ لكهل	*l-Khl/*	4

المربع المجوّف الذي حـُفر لاستيعاب نص الإهداء، يعطي بالتأكيد اسم الشخصية التي قدّمت المجمرة. والنقش على القاعدة يمكن أن يكون تذكيرا بإعادة استعمال. لكن، بما أن شكل خط النقشين متشابه، فليس متعذرا أن يكونا من الحقبة نفسها: في هذا البلد، استطاع ديات وتحما أن يتحدا لإنجاز التقدمة.

(قراءة C. R.)

هذا المذبح الكبير ذو القاعدة الهرمية، تزيّنُ جزءَه الأعلى زخارفُ هندسية، ورموز كوكبية وأضلاع عمودية. C. R.

١٤١. مذبح
القرن الأول بعد الميلاد (؟)
حجر كلسي
٧٣ x ٢٨ x ٢٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣ ف ١٣

١	*W'l .*	1
٢	*.(h)‘z.*	2
٣	*???*	3

نصٌ متآكل، وقراءته غير أكيدة. ويبدو أن تتمته على القاعدة. C. R.



١٤٢. مجمرة
القرن الرابع بعد الميلاد (؟)
حجر كلسي
١٠ x ١٠ x ١٠ سم
قرية الفاو
الرياض، قسم دائرة الآثار،
جامعة الملك سعود، ٥ ف ١٣

قسط كوستيس
(إسم عطر)
(قراءة C. R.)

هذه المجمرة المكعبة الرباعية الأرجل، مزينة بأشرطة مثلثة، تحمل أسماء عطور على كل وجه. فكلمة libnay تتطابق مع بخورِ نسغِ شجرة boswellia النادرة التي تنمو في جنوب اليمن، وفي جزيرة سوقطرة، وفي القرن الإفريقي وفي الهند. والقَمقم، هو صمغ شجرة المستكى الفستقية التي تنمو في اليمن والتي لا تزال أوراقها تُستخدم في العطارة والطب. ال qust أو costus هو طيب يُصنع من جذر نبتة هندية؛ ويتحدث الكتّاب القدامى أيضا عن نوع عربي (costus)، هو أجود منها.
M. C.



١٤٣. مجمرة مسجلة باسم مهديها
القرن الثالث قبل الميلاد
حجر كلسي
١٣,٥ x ١١ x ١١ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣ ف ٧

A فسل

(قراءة C. R.)

عرفت المجامر المكعبة الصغيرة انتشارا واسعا في الشرق الأوسط، وكانت تُستخدم خلال الطقوس الجنائزية، وفي المعابد المنزلية أيضا. وهذه المجمرة مسجلة باسم مهديها *fsˀl* (فسل)، وهذا أمر غير مألوف، لأنها تُسجل بأسماء العطور عموما. (د. المعرض رقم ١٤٢).
M. C.



١٤٤. مجمرة
حجر كلسي
١٦ x ١٢ x ١٢ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٥٦ ف ٢

- إلى اليمين: أحرف متشابكة لاسم كهل، المؤلف من الأحرف ك هـ - ل ؛
- إلى اليسار: رب (؟)

هذه المجمرة المنحوتة بخشونة تستند على قاعدة هرمية.
C. R.



١٤٥. مجمرة
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
حجر كلسي
١٣ x ٢٩ x ١١,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود ١٠ ف ٢٢

هذه المجمرة المثلثة، غير المنجزة على الأرجح، مزينة بهلالات قمرية وكواكب (كوكب الزهرة على الأرجح)، وهي زخرفة شائعة جدا في رسوم جنوب شبه الجزيرة العربية (د. المعرض رقم ١٣٨، ١٣٩، و١٤٠). هذه الرموز الكوكبية، لم تكن تدل على إله محدد، لأننا نجدها على المذابح أو على منحوتات المذابح المهداة إلى ودّ أو إلى المقه، وعلى الإهداءات إلى الإلهة الشمسية شمس.
M. C.

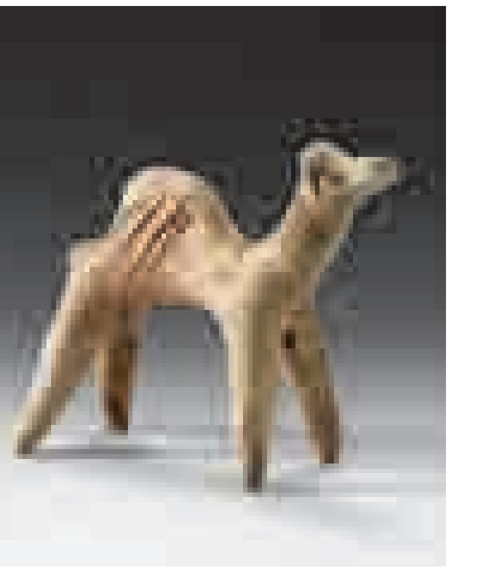


١٤٦. مجمرة
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
١٠ x ٨,٥ x ٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢١٦ ف ٧

المجامر المعدنية كانت من بين المجامر المقدرة كثيرا، لكنها نادرة نسبيا، لأنها كانت تُصهر بالتأكيد عندما يبطل استخدامها. هذه المجمرة تتكوّن من قاعدة مربعة رباعية الأرجل، ومن مبخرة مخرّمة بشكل مثلثاتٍ. وربما يمكننا مقارنتها بمجامر مخرمة ذات غطاء على غرار مجامر وادي دورا [١].
M. C.

١- عقيل و Antonini، ٢٠٠٧، رقم b٢ 11B

تدجين الجمل الذي حصل في بداية الألف الأول قبل الميلاد، أسفر عن تبدلات في الإقتصاد، أتاحت إرسال البخور والأفاويه حتى ضفاف حوض البحر المتوسط. واستطاع الجمل الذي تأقلم مع المناخ الصحراوي، السير مسافات طويلة جدا، من واحة إلى واحة. على رغم المكانة الأساسية التي كان يحتلها الجمل في المجتمع، لم تكن له صلة خاصة بواحد من آلهة جنوب شبه الجزيرة العربية. في المقابل، غالبا ما كانت تُقدم تماثيل صغيرة إلى الآلهة من أجل ازدهار القطيع ورفاهية صاحبه.
M. C.



١٤٧. تمثال صغير لجمل منقوش
القرن الثاني قبل الميلاد- القرن الثاني بعد الميلاد
برونز
ارتفاع: ٨,٩ سم
قرية الفاو، معبد A ٤٠١
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٤٩ ف ٦

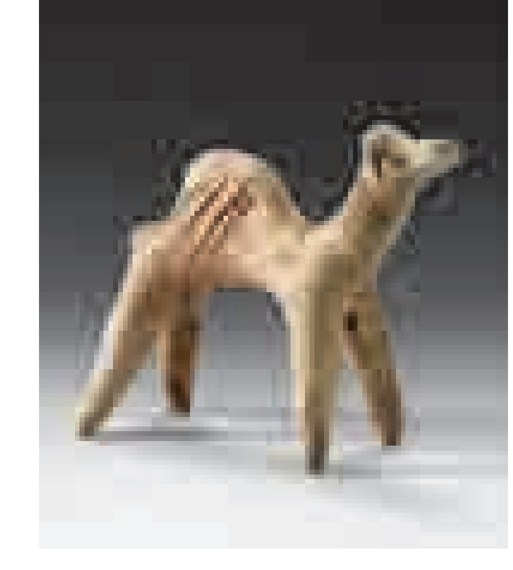
فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١٠٦,١ (يسار).

١	... (أهدى إلى) ذو	*...]ʿd h(qny)-ḏ-*	1
٢	سماو {ي} ...	*S¹mw[y ...]ʾlh*	2

(قراءة C. R.)

في هذا التمثال الصغير ثقبان تحت البطن، مما يوحي بوجود دعامة كانت تتيح تركيزه على قاعدة. ويحمل إهداءً إلى ذو سماوي، الإله الذي كانت تكرّمه خصوصا قبيلة أمير، وبصورة عامة، مربو الجِمال وقادة القوافل. ويشهد على هذه التقوى نقش (متحف اللوفر، AO ٤٦٩٤) [1] يذكر تقدمة جمل من البرونز إلى الإله ذو سماوي.
M. C.

١ – Calvet وRobin، ١٩٩٧، د. المعرض رقم ٩١.



١٤٨. تمثال صغير لجمل
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
صلصال
ارتفاع: ١٥,٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ١١ ف ٢٦

خطوط الشقوق والنقاط على عنق هذا التمثال الصغير ومؤخرته قد توحي بأسرجة أو أيضا برسوم طقسية، كما يحصل حتى يومنا هذا خلال احتفالات في المملكة العربية السعودية واليمن [1].
M. C.

١- Daum و al .، ٢٠٠٠، ص. ١١٩، ١٢ abb.



١٤٩. تمثال صغير لجمل يحمل
جرارا
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
صلصال
١٥ x ٢١ x ١٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣٦ ف ١١

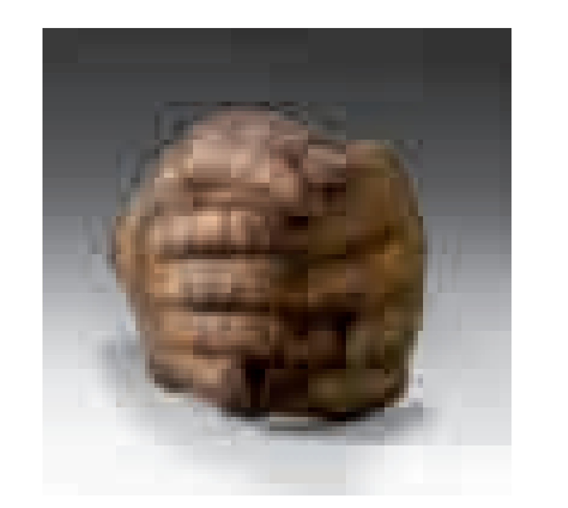
هذا النوع من التماثيل الصغيرة من الصلصال المقولب هو أحد الأشكال الشائعة للوفاء بنذر.
M. C.



١٥٠. تمثال صغير لجمل
القرن الثاني قبل الميلاد- القرن الثاني بعد الميلاد
برونز
١٧ x ٢١ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٦ ف ١١

هذا التمثال الصغير لجمل يحمل زماما، مشغول بمهارة. هذا النوع من الإسراج معروف أيضا على تمثال صغير لناقة [1] وعلى واحد من الرسوم الجدارية في قرية الفاو. ويشهد عدد آخر من التماثيل الصغيرة لجِمال على هذه الممارسة أيضا [2].
M. C.

١ – الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١٠٦. ٢.
٢ – على سبيل المثال، المتحف البريطاني، ١٩٠٧- ١٠- ١٢,٥ = ١٠٢٤٨٠؛ متحف اللوفر، AO ٤٦٠٨؛ و Munich Staatlisches Museum Für Völkerkunde، جرد، رقم ٩٣-٣١٦ ٩٧٢/٩٦٩، ٩٧٥، ٩٧٧، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨٥، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٣، ٩٩٤، ٣٠٤، ٣٩٨.



١٥١. جزء من تمثال: قبضة يد
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد (؟)
برونز مصهور
٢٤ x ١٣ x ١٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٤٠/١٤٩ - ٨٤ ف ٥

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١١٠.

هذه الاجزاء الكثيرة للتماثيل المتأتية، على غرار قبضة، من تمثال كبير الحجم جدا، تثبت وجود مشاغل لصانعي البرونزيات على الأرجح في «قرية». تجدر الإشارة إلى العثور، في مجمل الفضاء الثقافي، جنوب الجزيرة العربية، على تماثيل كبيرة من البرونز بأعداد هامّة. وعلى رغم أنها متجزّأة في أغلب الأحيان، فهي تشهد على مهارة صانعي البرونز المحليين الذين اكتشفوا تقنية صهر خاصة جدا، قبل بضعة قرون من العصر الميلادي، وتقضي إحدى أبرز خصائصها بحفظ النواة في داخل القِطَع. وقد انفتحت هذه المشاغل على تأثيرات آتية من العالم الهلّينستي. وعمل فنانون متجولون يتحدرون من العالم اليوناني- الروماني، بالتعاون أحيانا مع سباكين محليين، كما يثبت ذلك على سبيل المثال، التوقيعُ المزدوج الذي يحمله تمثالان كبيران من البرونز يمثلان ملوك سبأ وذو ريدان (حوالى القرن الثاني- القرن الثالث بعد الميلاد) الموجودان في المتحف الوطني بصنعاء: النحّات يحمل اسما يونانيا، أما اسم السبّاك فمن جنوب الجزيرة العربية. F. D.



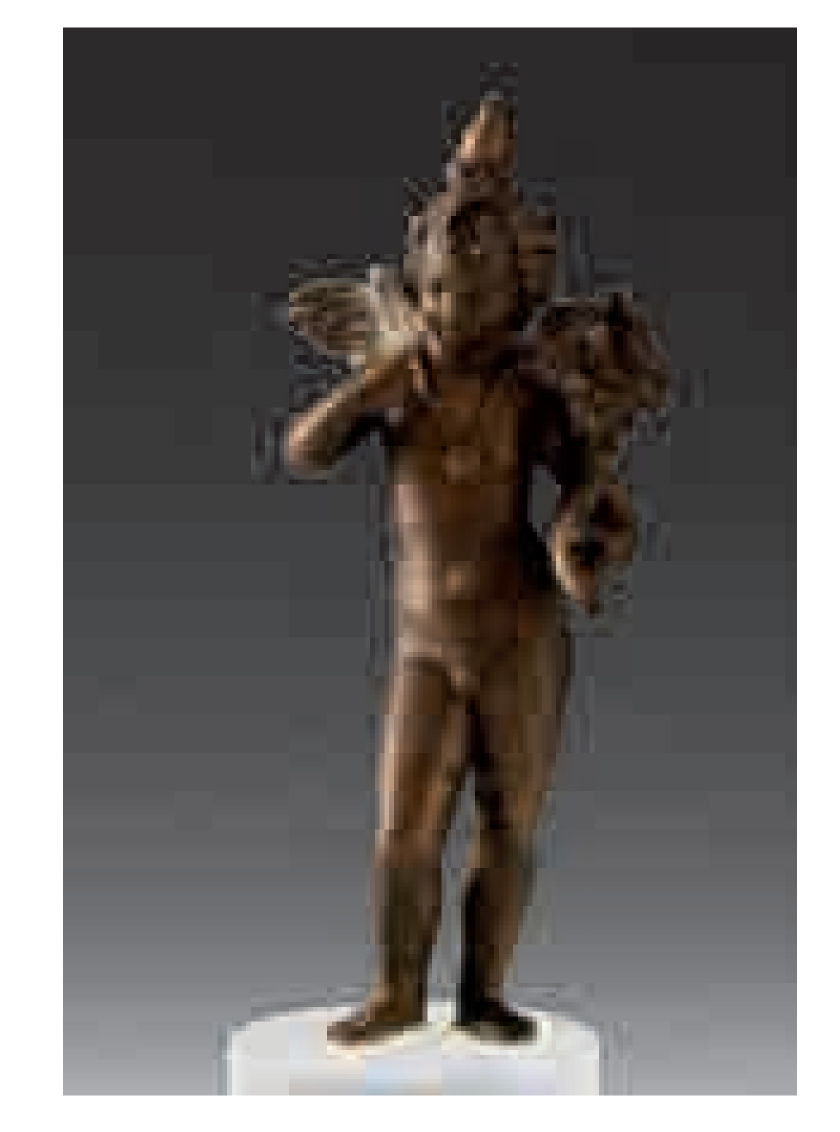


١٥٢. جزء من تمثال :
شعر حيوان (لبدة أسد؟)
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
برونز مصهور
١٨ x ١٠ x ٥,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ١٠٢-١٥٧ ف ٥

١٥٣. رأس رجل
برونز مصهور
ارتفاع: ٤٠ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ١١٩ ف ١٣

تدل قياسات هذا الرأس، الذكري على الأرجح، أنه عائد الى تمثال يفترض أن يكون تقريبا بحجم طبيعيّ. وعلى رغم التهشيم الذي يشوّه الوجه، نلاحظ وجنتين ممتلئتين، وفماً صغيرا مكتنزا، وعينين بحدقتين مجوفتين، وهو أسلوب قريب من التماثيل الهلّينستينية-الرومانية. والشعر الذي تبدو خصلاته شكل فتائل طويلة مرتبة بانتظام على مقدمة الرأس وتمتد لفائف أطول على الرقبة، يشير بالأحرى إلى تسريحة نسائية، أي تسريحة النساء الرومانيات حوالى القرن الأول قبل الميلاد. هذا النوع من التسريحات يذكّر أيضا بتسريحة التماثيل المقدونية المصرية في عهد البطالسة، لكن المعالجة الأصلية للخُصَل، تنمّ عن انتاج في مشغل محلي متأثر بنماذج من النوع اليوناني- الروماني.

وعثُر على رأس قريب جدا منها في غيمان باليمن، محفوظ في المتحف البريطاني (جرد. رقم BM ١٣٦٣٥٩)، وعلى بضعة رؤوس من النوع نفسه، متجزّأة ويا للأسف أو متآكلة جدا، موجودة في متحف صنعاء، وتشهد على وجود مدرسة لصنع التماثيل في تلك الفترة في جنوب شبه الجزيرة العربية تستوحي النماذج الغربية. F. D.



١٥٤. تمثال صغير يمثّل هربوقراط
القرن الثاني-القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
١٢,٤ x ٦,١ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٤٨ ف ٦

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١٠٤ ؛ Parlasca، ١٩٨٧، اللوحة ١١ ؛ عزة علي عقيل وسابينا أنطونيني (Sabina Antonini)، ٢٠٠٧، ص, ١٥٠، رقم: /I Ac٤.

هربوقراط، أو «الطفل حورس»، إله مصري اعتمده اليونانيون منذ الحقبة البطلسية، ثم زادت شعبيته وشهد انتشارا واسعا في الحقبة الرومانية. وعموما ما كان يُعرض بمثابة طفل عارٍ يضع سبابته على فمه، ويعتمر تاجا نباتيا وقبعة (تاج الفراعنة المزدوج) تذكّر بأصوله المصرية. وبالإضافة إلى كل هذه الصفات التقليدية، يحمل تمثال الفاو الصغير قرن الخصب وجناحين وميدالية حول العنق، وهي من خصائص الأطفال الرومان.

M. C.



١٥٥. تمثال هيراكليس
القرن الأول-الثالث بعد الميلاد
برونز
ارتفاع: ٢٥,٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢١٤ف ٧

يمكن التحقق من هوية البطل هيراكليس بفضل جلد النمر والهراوة الملقاة على ذراعه اليسرى. وزاد في حدّة تعبير وجهه ترصيعُ عينيه وفمه نصف المفتوح. وفي الأصل، كان يحمل في يده اليمنى كأسا للشرب، وقد اختفى اليوم. وبفضل هذه الصورة لهيراكليس العاري والملتحي والذي يمسك كأس الشرب، استحق اسمَ هيراكليس- بيباكس (السكير)؛ وهذه الصورة تقرّبه من ديونيسوس وتبرز بذلك مشاركته في مآدب الآلهة، وبالتالي، خلوده. وان نمط هذا التمثال، المنبثق من القوانين التي سَنَّها النحات اليوناني بوليكليتوس، عرف نجاحا باهرا في الحقبتين الهلّنستينية والرومانية، وتخطى انتشار عبادته حدود العالم اليوناني.

M. C.



١٥٦. تمثال هربوقراط
القرن الأول-الثالث بعد الميلاد
ارتفاع: ٣٢ سم؛ أقصى العرض: ٩,٢ سم
برونز
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٠٩ ف ٧

بعض الحروف مقروءة على القاعدة:
]’(Hdrt bn (Z   Hidhdharat   هيدارات ابن (زد) ...

(قراءة .C. R)

هذا التمثال الصغير يختلف عن الرسم التقليدي لهربوقراط (د. المعرض رقم ١٥٤) من حيث تعدّد صفاته. الإله- الطفل المصري الأصل يظهر بمعّية بقرة صغيرة قرناء وشخص صغير مرفوع الذراعين ويرتدي وزرة. ويقف هذا المشهد على قاعدة أسطوانية منقوشة طُبع عليها وجهُ مسخ أسطوري مجنح. ولعلّ هيدارات، مقدِّم التمثال، تقمّص ملامح هذا الشخص الصغير المرفوع الذراع المستعد للقيام بتضحية في إطار عبادة وثنية يونانية- رومانية.

M. C.

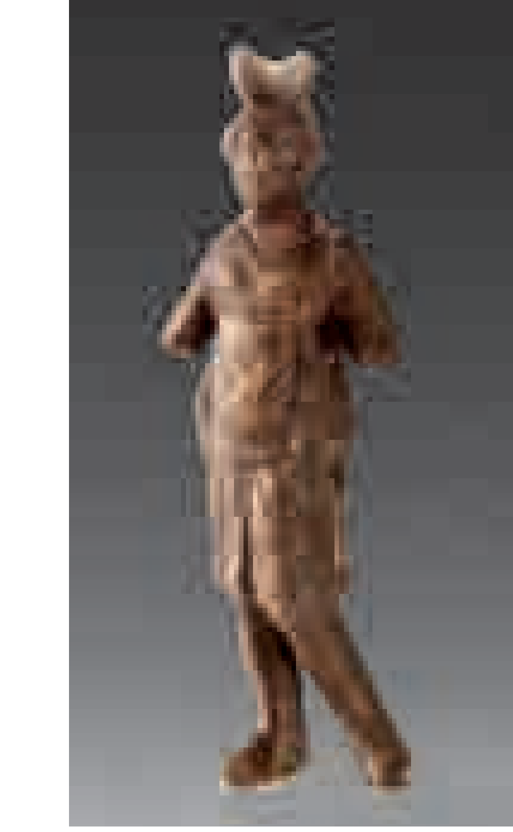


١٥٧. تمثال ذكري صغير
نحو القرن الثالث قبل الميلاد
ارتفاع: ١٥,٥ سم
برونز
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٨٧ ف ٨

١		*Tn…*	*1*
٢	أهدى	*hqny .*	*2*
٣		*(m')..m.*	*3*
٤		*(wy)..*	*4*

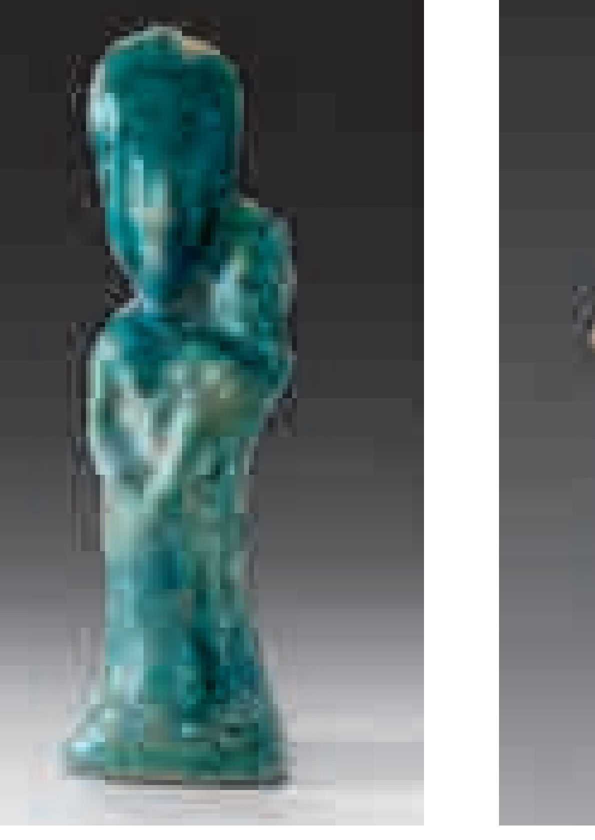
النص الوارد على صدر هذا التمثال الصغير يتألف على ما يظهر من أربعة أسطر. لا يـُقرأ بسهولة. والكلمة الوحيدة الأكيدة نسبيا هي أهدى *Hqny* في السطر الثاني.
(قراءة .C. R)

يمثل هذا التمثال الصغير شخصية ذكرية تلوّح بعصا وكانت تحمل على الأرجح شيئاً في اليد الأخرى. وان وجهه وشعره الكثيف على شكل قلنسوة، مشغولان بدقة؛ يرتدي وزرة طويلة يشدّها حزام معقود عند الخصر.
M. C.



١٥٨. تمثال صغير لأرتميس
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
ارتفاع: ٧,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣٧ ف ١٠

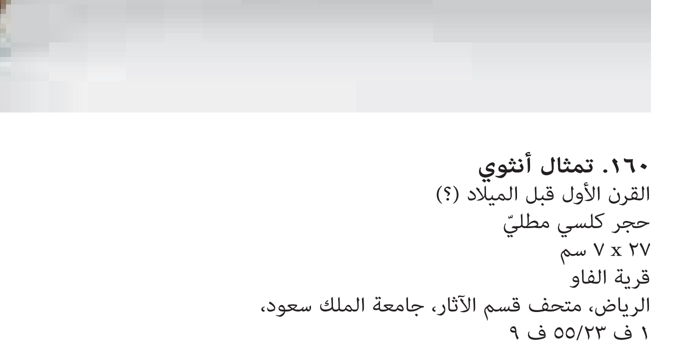
هذا التمثال لأرتميس، الذي يعتمر الهلال، يرتدي زيا تقليديا للصيّادة اليونانية: الخيتون القصير المثنى على الوركين، المحزّم تحت الثديين، والجزمتان الجلديتان المفتوحتان. الساق اليسرى المطوية طيا خفيفا تدل أيضاعلى نموذج يوناني- روماني.
M. C.



١٥٩. تمثال إيزيس- تيشيه
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
خزف مطليّ بلونين ازرق وأخضر
ارتفاع: ٢٥ سم؛ قطر ٨ سم
قرية الفاو، منطقة سكنية
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٤١ ف ٨

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٤/١٢٤.

هذا التمثال الصغير ذو الحجم غير المألوف يمثل امرأة تعتمر تاجا عاليا وتحمل قرن الخصوبة، وهما الخصائص التقليدية لإيزيس- تيشيه، إلهة الحظ المصرية الأصل. وهذا الاستيراد من الحقبة الأمبراطورية كان على الأرجح مخصصا لعبادة منزلية ولا يعني بالضرورة أن عبادة إيزيس قد احتـُفل بها بطريقة رسمية في قرية الفاو.
M. C.



١٦٠. تمثال أنثوي
القرن الأول قبل الميلاد (؟)
حجر كلسي مطليّ
٢٧ x ٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود،
١ ف ٥٥/٢٣ ف ٩

هذا التمثال الأنثوي الصغير الذي يحمل مذبحا دائريا على رأسه هو مزخرف بأحجار كريمة عديدة: جواهر حول غطاء الرأس، وعقد مخمّس الصفوف من اللآلىء وبضعة أزواج من الأساور. ثوبه الطويل مزيّن بأشرطة على الصدر. على مستوى الوركين، نرى أياداً لشخصيات أخرى اختفت اليوم. أرنبة الأنف والوجنتان تتميز بحزوز عميقة، ناجمة عن تشطيبات.

وفي مدفن آخر بقرية الفاو، عـُثر على رأس من النوع نفسه، يحمل هذه المرة مذبحا مربعا على الرأس [١]. ونلاحظ أيضا أن حلى التمثال الكلسي الذي عُثِر عليه في الفاو شبيهة بتلك التي يلبسها تمثال صغير لامرأة من البرونز، تغطي رأسها بمذبح [٢]. لكن المقارنة التي تحمل على الارتباك تأتي من قبر الشوكة في اليمن الذي خرجت منه "سيدة عدالي" الشهيرة [٣]. وهوية هذه الشخصية الأنثوية الغنية بالزينة، والتي تلبس مذبحا على قمة رأسها، ما زالت سرا. هل هي مُهدِيةٌ رفيعة المستوى، كاهنة أو إلهة؟
M. C.

١ - الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١٢٠، رقم ٢.
٢- عزة علي عقيل وسابينا أنطونيني (Sabina Antonini)، ٢٠٠٧، رقم IAal، ص. ١٢٧.
٣- Paris، ١٩٩٧، ص. ١٦٨.

رسوم جدارية



١٦١. جزء من رسم جداري يمثل رأس رجل
القرن الأول-القرن الثاني بعد الميلاد
طلاء أسود وأحمر وأصفر على طلاء أبيض
٥٣ x ٣٦ سم
قرية الفاو، حي سكني (قصر)
الرياض، المتحف الوطني، رقم ٢١٨٢

فهرس: الأنصاري، ١٩٨١، ص. ٢٦-٢٧، ill، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧.

رأس الرجل هذا، ذو الشعر الكثيف المجعد، يتّضِح على خلفية صفراء حيث تنتشر عناقيد العنب. شاربان دقيقان منحنيا الطرفين، يحيطان بالفم، حسب طريقة كانت منتشرة اثناء القرون الأولى للميلاد في جنوب الجزيرة العربية- هذا النمط نفسه من الشاربين موجود مثلاً على تماثيل البرونز لملكي سبأ وذو ريدان (صنعاء، المتحف الوطني). فوق رأسه، شخصان يظهران بشكل أصغر بكثير، هما خادمان على الأرجح، يحملان إكليلا من حبات العنب. وإذا كان الوجه على جهة اليسار قد مُحي تقريبا، يمكن التعرف إلى وجه اليمين، الأوضح، عبر نقش، وهو زكي. هذه القطعة التي تنتمي على الأرجح إلى رسم يمثل مشهد مأدبة، تـُظهر تأثير الرسم الديونيسي الذي ينتشر في كافة أنحاء المشرق حوالى القرن الأول-الثاني بعد الميلاد. يكشف لنا أيضا وجه شخصية بارزة تنتمي إلى نخبة ذلك المجتمع في "قرية" وقد تبنى النماذج الآتية من الشرق الذي اكتسب العادات الهلينستينية لكنه لم يتخل عن هويته المحلية.

C. R. قراءة ، F. D.



١٦٢. جزء من رسم جداري يمثل مشهد مأدبة
القرن الأول- الثاني بعد الميلاد
دهان أسود وأحمر على طلاء أبيض
٥٨ x ٣٢ سم
قرية الفاو (حي سكني، قطاع B ١٧، حفريات ١٩٨٧)
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٠٣ ف ١٢

فهرس: Sterlin، ١٩٨٧، ص. ١٣٧-١٣٨ ؛ Alexander .D، ١٩٩٦ b، ص. ..٤٣

تـُثبت قطعة الرسم هذه أن الزخارف الجدارية كانت مقسومة لوحات؛ وهنا، هي أفاريز مزينة بغصنيات رمادية تحدد بضع مناطق. في الوسط، رجل يرتدي ثيابا فاخرة ممدد على سرير المأدبة، وتاج من الغار موضوع على شعره الطويل. يمسك كأسا بيده اليسرى، وفي اليد الأخرى زمام حصان فاخر الإسراج، ويـُرى رأسه فقط؛ إلى اليمين، خادم يقترب بإبريقه. ويمثل هذا المشهد على ما يبدو، مأدبة جنائزية، ويذكّر الحصان بمرتبة المتوفّى الرفيعة. وإلى اليسار، يظهر جذع امرأة ترتدي ثوبا مثنّى على الطريقة اليونانية- الرومانية ومجموعة عقود. وبسبب التاج والرمانة، رمز الخصوبة، الواضحة للعيان تحتها، صدر اقتراح باعتبارها إلهة، لكنها قد تكون زوجة المتوفى. وإذا كان التفسير الدقيق لهذا المشهد المجزأ يبدو غير ممكن، يفيد رسمه تبني أشكال غريبة من قِبَل سكان "قرية".

F. D.



١٦٣. جزء من رسم جداري يمثل صُوَر البروج الفلكية
القرن الأول- الثالث بعد الميلاد
دهان أسود وأحمر وأصفر على جص أبيض
٥٠ x ٢٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٣٨ ف ٩

إلى اليمين :

]lyn..lṭ w
]d....lḥy

النص غير الكامل لا يفيد شيئا واضحاً مفهوماً.

(قراءة C. R.)

هذا الرسم اللغز يمثل محورا تعلوه نصف دائرة، تخرج منها اشكال حُزَم ؛ حولها تدور صور مختلفة: سنوري مرقط وأسد وعقرب وسنتور (كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس) وهدرة (أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس)؛ إلى اليمين، نلاحظ قرون كبش. وتمثل هذه الحيوانات مجموعة نجوم منسقة في القبة السماوية. وكان سكان بلاد ما بين النهرين، والمصريون واليونانيون والرومان، يعرفون البروج منذ العصور القديمة. وجراء الإتصال بالرومان على الأرجح، تبنى سكان جنوب الجزيرة العربية هذا الفهرس لعلامات البروج. إلا أننا لا نعرف هل هو تنجيم بغية تأسيس مبنى، او تنصيب شخصية رفيعة المستوى، أو هل أن لهذه الاسباب معنى آخر. وتختلف هذه الصورة البروجية عن بعض النماذج النادرة المعروفة في شبه الجزيرة العربية، كتلك الموجودة في ظفار وفي خربة التنور [1].

M. C.

١ – Laffitte ٢٠٠٣، ص، ٧٧-٧٨، ولوحة ٩ و١٠ و١١.





١٦٤. جزء من رسم جداري يمثل منزلا- برجيّ الشكل
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
دهان أسود، وأحمر وأصفر على جص أبيض
٥٩ x ٦٤ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٩ F ٢٢

إلى اليمين، من الأعلى إلى الأسفل

Tym
Mtn

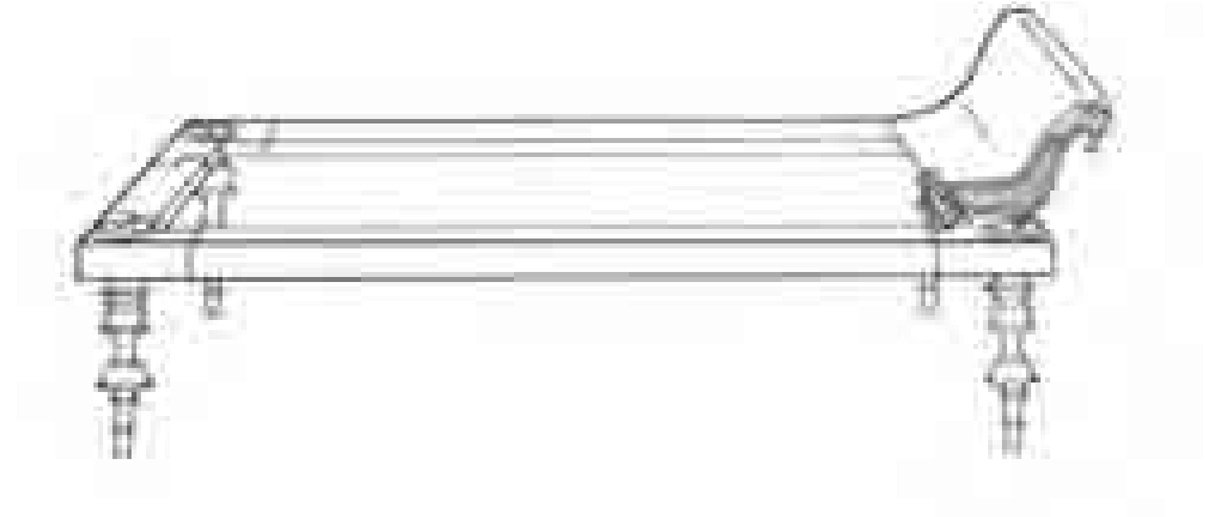
تـُقرأ على الأرجح Tym Mtn "تيم متن"، اسم رجل.

(قراءة C. R.)

بـُني البيت- البرجي الشكل على أساس من الحجر؛ في الطبقة الأرضية ينفتح بابان، يشكل أحدهما إطارا لشخص عارٍ. وقد بـُنيت الطوابق من روافد تشكل أطرا منتظمة، مسدودة بالقرميد الخام أو بطين وملونة بزخارف هندسية حمراء وسوداء. وعلى نوافذ الطابق الثاني تظهر تماثيل نصفية لشخصيات متماثلة جميعا. وتـُوِّج البيت بزينة مسننة تحمل بعض الرموز المنقوشة؛ وقمته محاطة بأربعة وعول كبيرة واثبة. وإحدى وظائف هذه البيوت- الأبراج يمكن أن تكون دفاعية؛ فالفتحات الضيقة جدا تتيح في الواقع التصويب بالقوس عند الضرورة، ويمكن استخدام السطح مركز مراقبة. ولا يزال هذا التقليد الـذي يـقضي ببناء بيوت- على شكل أبـراج مستمراً حتى يومنا هذا في جنوب شبه الجزيرة العربية.

M. C.

١٦٥. إعادة تشكيل سرير مأتمي
بداية القرن الأول بعد الميلاد
قرية الفاو، ضريح سعد إبن مالك (ضريح K٦)



١٦٦. أربع قوائم
برونز مصهور
عرض: ٣٠ سم؛ قطر أقصاه: ١٢،٥ سم؛ (لسان تعشيق: ٣،٦ سم)
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٤٩ ف ١٦

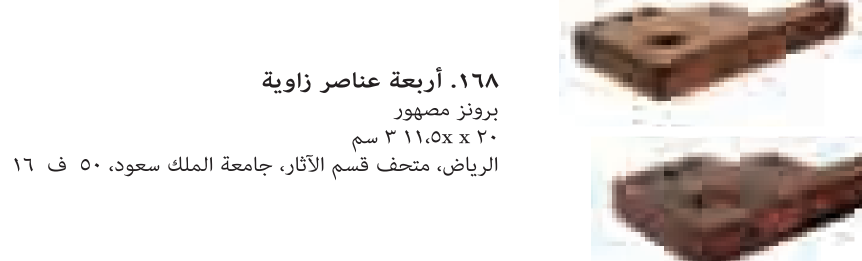




١٦٧. أربع قطع دائرية لانجاز العمل
برونز مصهور
قطر: ٩،٢ سم
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٥١ ف ١٦







١٦٨. أربعة عناصر زاوية
برونز مصهور
٢٠ x ١١،٥x ٣ سم
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٥٠ ف ١٦



١٦٩. قطعة تلبيس من البرونز المذهَب تزيِّن رأس السرير
المعرض، يحوي نسخة منها
٢٩ x ٣ سم
الاصل موجود في الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود،
/٣٨/٤٨ ف ١٦

فهرس: D. Alexander، ١٩٩٦ A، ص. ٥٦، ill ; Alexander، ١٩٩٣.

في احد المدافن المكتشفة في "قرية"، كان المتوفى مُسجّى على سرير فخم من البرونز مصنوع طبقا للأسلوب اليوناني- الروماني. وبالإضافة إلى الأثاث التقليدي للمدفن (خزفيات، أواني حجرية ...)، أمكن جمعُ كل القطع تقريباً التي تؤلف السرير المأتمي هذا، النادر الجودة. فالقوائم الأربع مؤلفة من عناصر مختلفة صُهرت كل على حدة، وصُقلت صقلاً مالساً دقيقاً، ثم لُحمت فيما بينها؛ يسعى شكلُها إلى إعادة إنتاج القوائم الخشبية المتقنة للنماذج الأولى للكلينيات. وإطار السرير، المصنوع من الخشب على الأرجح، جُمع بواسطة أربع قطع زاوية قوية من البرونز، كانت تتيح تثبيته على القوائم. وكانت الأقراص الأربعة الكبيرة المحدبة، موضوعة عليها، مقلدة بذلك العنصر الذي كان في الأصل يتوّج قوائم السرير المصنوع من الخشب المنسّق المتقن. والجزء الاروع، هو "الفولكروم" (*fulcrum*)، أي قطعة التلبيس البرونزية التي كانت تزيِّن جانب المتكأ؛ وكما هي الحال هنا، كان لا يتوافرغالباً سوى نموذج واحد، لأن الجانب المرئي وحده من السرير كان مزخرفاً. وهذا "الفولكروم" مصهور من بضعة عناصر ثم لُحمت فيما بينها، وبعد ذلك طُلِيت بالذهب. ويزين القاعدةَ تمثالٌ نصفي لأرتميس متجه بشكل طفيف نحو اليمن، والجزء الأوسط، المجوّف، كان يُفترض أن يُلبّس، بالعاج، وقد اختفى اليوم؛ وتنتهي القمة برأس فرس، لاي رأس فحل محتدم، مصنوع بدقّة فائقة. وهذه الرسمة تقليدية في الزخرفة المقنّنة جدا لهذا النوع من الأدوات: نلاحظ أن عنق الفرس مكسو بجلد فهد، واستناداً إلى هذا التفصيل، يمكن التعرّف في هذه الزينة إلى موضوع ديونيسي الإيحاء. عندئذ تندمج ارتميس، إلهة الصيد، بإحدى مرافقات ديونيسيوس التي تسمى ميناد.

وزاد "الفولكروم" الذي عثُر عليه في قرية مجموعةَ هذه الزخارف قطعةً عالية الجودة، خرجت على الأرجح من أحد المشاغل المتخصصة فقط بصنع أسرّة كْلينية كانت موجودة في اليونان وروما.

ويشهد هذا السرير الفخم على الذوق الرفيع لنخبة مجتمعية مرفّهة، تبنت في قلب شبه الجزيرة العربية، انماطاً! يونانية- رومانية. ويبدي أيضا اتساع المبادلات التي كانت قائمة مع غرب البحر الأبيض المتوسط وحيويتها.

F. D.

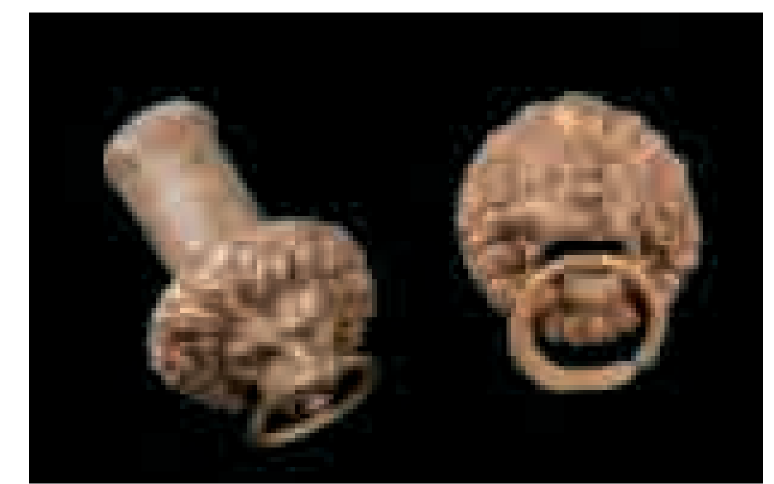


١٧٠. رِجْلُ مَقْعد
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
برونز
١٠ x ٨,٥ x ٤ سم
الرياض، المتحف الوطني، جرد ٢٢٣٥

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ١١٢.

هذا النوع من أرجل المقاعد معروف جدا في العالم الروماني [١]، وقد وفرت مدينة صيدون، في لبنان، نماذج كثيرة يمكن مقارنتها بنموذج قرية الفاو (متحف اللوفر، AGER, Br ٢٥٧٩, Br ٢٥٨٠). الثقبان في الجزء العلوي يتيحان إدخال دسار (مسمار مثنّى). M. C.

١- Boube-Piccot، ١٩٧٥، لوحة ١٧٧، ص. ٢٤٣.



١٧١. مطرقة الباب
القرن الثالث قبل الميلاد
برونز
قطر الرأس ٨,٨ سم، قطرالحلقة ٤,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣٤٧/٣٤٦ ف ١

فهرس: الرشيد، ١٩٧٥، ص. ١٧٣؛ غنيم، صورة ١٣؛ الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٩٣.

هذه المطارق المزينة برأس أسد، كان يُفترض أن تثبّت على الأبواب. هذا النوع من الأدوات التي كانت معروفة في اليونان الشرقية من القرن الخامس قبل الميلاد، شهدت أيضا نجاحا واسعا في العالم الروماني. M. C.



١٧٢. سراج إجاصي الشكل
حوالى القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
٣,٥ x ٩,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، جرد ٢٢٣٧

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٩٢، صورة ١-٢.



١٧٣. سراج
حوالى القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
٢,٥ x ١٤ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٥ ف ١٣



١٧٤. كأس
القرن الثالث بعد الميلاد
فضة مذهبة جزئيا
ارتفاع: ٥ سم، قطر ٧,٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٤ F ١٦

(Qs³)m bn Mlk s²ym (قاسم) ابن مالك دفع إلى التنفيذ

(قراءة .C. R)

يمكن مقارنة هذه الكأس الصغيرة بمجموعة من كؤوس قائمة على أرجل (حجمها أكبر بقليل) وقد انتشرت كثيرا في كل أنحاء الشرق الأوسط ابتداء من القرن الثالث والقرن الرابع، لكن نموذجها قد خرج من مشاغل غربية.

قعر القصعة، من الخارج، مزين بنموذج من بتلات بارزة وبإفريزيْن يعلوهما تذهيبٌ زئبقي: الأول محفور بشكل موجات صغيرة، والثاني يتضمن نجميّات متعاقبة. هذه الزينة مستوحاة من الأسلوب اليوناني- الروماني، لكن صلابة رسم النجميّات خصوصا، ينم عن ذوق يميل في جنوب الجزيرة العربية إلى هندسة الأشكال ويُسفِر عن يد صائغ محلي. ونعثر على هذا النوع نفسه من الورَيْدة المحفورة، على تيجان الأعمدة التي ترقى إلى القرن الرابع تقريبا، والتي عُثر عليها في العاصمة الحميرية ظفار. وعلى غرار كثير من قطع الصياغة، يكشف نقش، مكتوب هنا بلغة جنوب الجزيرة العربية، عن اسم الممول. F. D.



١٧٥. مغرفة
القرن الأول-الثاني بعد الميلاد
فضة مذهبة جزئيا
طول: حوالى ٣٠ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٩ ف ١٦

١٧٦. مصفاة
القرن الأول- الثاني بعد الميلاد
فضة
ارتفاع: ٥،٥ سم، طول ٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٤٥ ف ١٣

ان قصعة المغرفة العميقة نسبياً، مزينة بدائرة بسيطة مذهبة، لكن زخرفة مقبضها الطويل الذي ينتهي برأس وعل رشيق ذي قرون طويلة حَلَقِيّة يجعل منها قطعة مصاغ بالغة الرهافة.

عـُثر على عدد كبير من هذه المغارف، التي صُنع أنفسها من الفضة، أو من البرونز، في مواقع أثرية من الجزيرة العربية، سواء في الشمال الشرقي (البحرين، فيلكة، الهفوف)، أو في الجنوب الشرقي، خصوصاً في الدور، وأيضا في وادي دورة، في اليمن. وعموما ما تجري المقارنة بين كؤوس للشرب ومصفاة. وكانت المغارف في الواقع قطعاً من "أطقم الشرب" هذه، الشرقية المنشأ، لكن استخدامها انتشر حتى العالم اليوناني- الروماني ابـتداء من منتـصف الألف الأول، والتـي لم ينـحسر رواجـها في الشرق المتأثر بالهلّينستينية.

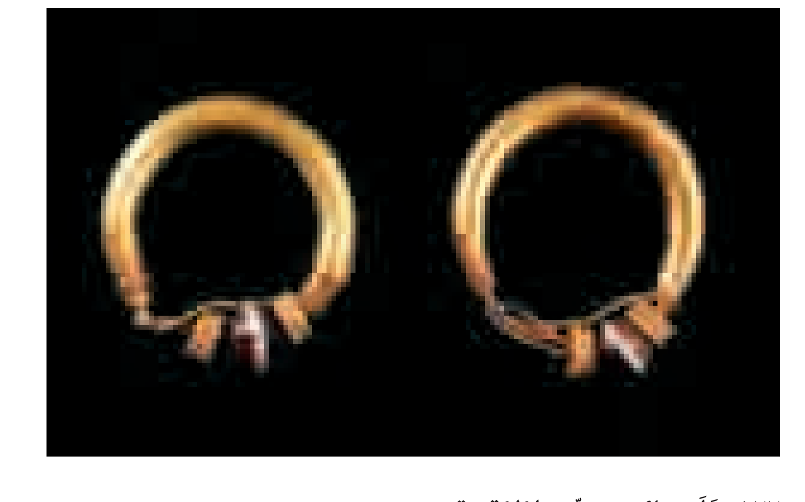
تؤكد الإكتشافات الأثرية أنها كانت مستخدمة أيضا في الجزيرة العربية. كانت تُستعمل خلال المآدب، وتتيح المغرفة غرف الشراب من وعاء كبير: فالمشروبات، سواء كانت خمراً او شراباً مختمراً، مستخرجا من التمر، غالبا ما كانت تحتوي على شوائب، فكان من الضروري تصفيتها قبل استهلاكها.

فالمصفاة المعروضة هنا هي أيضا مصنوعة بعناية فائقة، فالثقوب ترسم أوراق شجر انيقة. وعلى غرار المغرفة، صُنعت على الأرجح في مشغل محلي.

وسياق اكتشاف هذين الشيئين ليس معروفا بعد؛ لكن عـُثر على معظم أطقم الشرب هذه في الجزيرة العربية، ضمن قبور وكانت تـُستخدم على الأرجح خلال مآدب المآتم.

F. D.

مجوهرات



١٧٧. حَلَق دائري مزيّن بلؤلؤة عقيق
ومؤطرة بلآلىء محبّبة
حوالى القرن الأول-الثالث بعد الميلاد
ذهب وعقيق
قطر: ٢,٥ سم
قريةُ الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٦ ف ١٤



١٧٨. لآلىء تُستخدم للفصل بين مختلف عناصر قلادة
حوالى القرن الأول-الثالث بعد الميلاد
ذهب
ارتفاع: حوالى ٠,٥ سم
قريةُ الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٨٢ ف ١٢



١٧٩. لآلىء قرصية مزخرفة بتقطيع على نموذج وردة صغيرة، يُستخدم للفصل بين مختلف عناصر قلادة
حوالى القرن الأول-الثالث بعد الميلاد
ذهب، عجينة زجاج
قطر: حوالى سنتيمتر واحد
قريةُ الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٦٣ ف ١٠

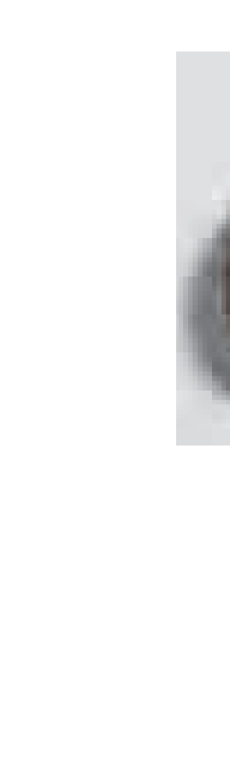
١٨٠. قرط على شكل جرس
حوالى القرن الأول- الثالث بعد الميلاد
ذهب
ارتفاع: ٣,٤ سم؛ قطر ٢ سم
قريةُ الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٧٩ ف ١٢



١٨١. أساور بأسلاك مجدولة
حوالى القرن الأول-القرن الثالث بعد الميلاد
فضة
قطر: ٦-٧،٤ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢١ ف ١٦ و ٧٢ ف ١٢



١٨٢. سوار بأسلاك مجدولة
حوالى القرن الأول-القرن الثالث بعد الميلاد
قطر: ٨،٢-٩،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ١١٨ ف ١٣

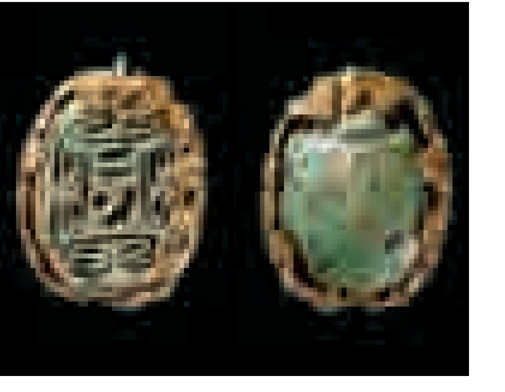


١٨٣. سوار أنبوبي الشكل
حوالى القرن الأول-القرن الثالث بعد الميلاد
قطر: ٤،٢-٥،٢ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٤ ف ١١



١٨٤. تعويذة
الألف الأول قبل الميلاد
خزف، ذهب، حجر كريم (ياقوت)
٣،٨ سم x ١،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٣٥ ف ٨

تعويذات "الإله بس" كانت منتشرة جدا في المجال السوري- الفلسطيني خلال عصر البرونز الحديث وعصر الحديد. وقد وصل هذا الإله المُمَصَّرن إلى قرية الفاو وحُفظ فيها بعناية كبيرة. وهذه التعويذة التي كانت قيمتها بقِدَمها، اتسعت فضائلها السحرية التي تبعد الشرور، جراء ترصيعها بالذهب والياقوت.
M. C.

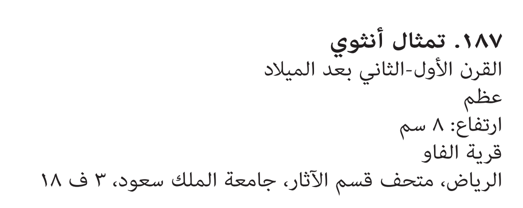

١٨٥. الجُعل
الألف الأول قبل الميلاد
خزف وذهب
ارتفاع: ١،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٢٧

الجعلان المُمَصَّرنة التي حازت شعبية كبيرة في المشرق خلال العصر البرونزي، كانت تعيد إنتاج الحروف الهيروغليفية المصرية وتزخرفها بالنقوش. وقد وصل هذا الشيء المجتلب إلى قرية الفاو بواسطة تاجر لدى عودته من رحلة.
M. C.

١٨٦. مرآة ذات قبضة آدمية الشكل
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
برونز
قطر: ١٦،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٩ ف ١٣

يعكس القرص المزخرف بدوائر متراكزة الضوء بعد صقله؛ يسنده تمثال صغير يمثل امرأة تمسك ثدييها، ممّا يحمل خصوصا على الإعتقاد أنه أداة للزينة. ويمكن مقارنته ببعض المرايا الأخرى المكتشفة في جنوب شبه الجزيرة العربية [1] وفي شرقها، ومنها مرآة عين جاوان ومرآة الدور أيضا [2].
M. C.

١- عزة علي عقيل وSabina Antonini، ٢٠٠٧، ص. ٦٩ - ٧٠.
٢- Mouton، ٢٠٠٨، صورة ٦،٩٢.



١٨٧. تمثال أنثوي
القرن الأول-الثاني بعد الميلاد
عظم
ارتفاع: ٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣ ف ١٨

التماثيل الصغيرة المصنوعة من العظام ظهرت أوّلاً في الشرق الهلينستي والبارثي، ثم شهدت انتشارا واسعا في مصر وفي الجزيرة العربية وحتى في الغرب. هذه التماثيل الصغيرة التي تُسمى أحيانا "دُمى" يمكن أن تكون تعويذات لدرء الشر، ورموزاً للخصوبة، كما يوحي بذلك البطن الناتىء ومثلث العانة البارز. والذراعان الموصولتان بالكتفين كانتا متحركتين.
M. C.



١٨٨. علبة حلى
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
عظم
٤،٧ x ٩ x ٥،٢ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٤ ف ١٧

صفائح هذه العلبة المزخرفة بدوائر منقطة وخطوط، كانت متماسكة فيما بينها بدسر.
M. C.

أوانٍ زجاجية

ان حالة الحفظ الجيدة لمعظم هذه القوارير وهذه الكؤوس، توحي أنها اكتـُشفت في مقابر، حيث وُضعت قرابين لدى أناسٍ متوفين، لكن أوعية من هذا النوع كانت أيضا تـُستخدم في الحياة اليومية. وهذه الأشياء الفاخرة هي جميعا قطع مستوردة من كبرى مراكز التصنيع التي كانت موجودة في بلدان المشرق أو في مصر، وخصوصا في الإسكندرية، والتي كان إنتاجها منتشرا في كل أنحاء العالم الشرقي، حتى بغرام في أفغانستان. والمواقع الأثرية في شمال الجزيرة العربية (البحرين ومليحة وضبة والدور) اسفرت عن نماذج عديدة من هذه المصنوعات الزجاجية الثمينة، فكانت تصل إلى مرافىء الخليج العربي، ومدينة غرها التجارية التي كانت تقيم علاقات تجارية وثيقة مع قرية، وتضطلع على ما يبدو بدور مهم في إعادة توزيع هذه البضائع.

M. C.



١٨٩. كوب مضلـّع
أواخر القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
زجاج مقولب
ارتفاع: ٤,٧ سم؛ قطر ١٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٩٠ف ١٣

هذا النوع من الأكواب، الشائع نسبيا في الحقبة الأوغسطية في كل ولايات الأمبراطورية الرومانية، كان جزءا من آنية المائدة. في ديبه على الساحل الشرقي من خليج عـُمان، عُثرعلى قِطَعٍ من أوانٍ مماثلة، ذات لون أزرق غامق مزين بعروق بيضاء.

F. D.



١٩٠. قصعة
زجاج مقولب
الإرتفاع ٥,٨ سم؛ القطر ١٢,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٠٥ ف ١٣



١٩١. كوب
القرن الأول قبل الميلاد
زجاج مقولب
ارتفاع: ٨ سم؛ قطر ٢١ سم
قرية الفاو
المتحف الوطني، ٢٢٤٢

هذه الكوب الرائع المصنوع من الزجاج الشفاف، مزيّن بمجموعتين من الخطوط المحفورة.

F.D.



١٩٢. جام دقيق الأضلع
القرن الأول بعد الميلاد
زجاج منفوخ
إرتفاع: ١٠,٣ سم؛ قطر ٨,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٤٣



١٩٣. طاسة
القرن الأول بعد الميلاد
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٤,٦ سم؛ قطر ٨,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٤٥ ف ٦١

هذان الوعاءان كانا مستعملين للشرب. استـُوردا على الأرجح من إيطاليا. والقصعة الصغيرة الدقيقة الجوانب نمط شائع جدا في الغرب. واللون الأبيض الكثيف، غير المألوف كثيرا، تم التوصل إليه بإضافة كحلٍ إلى عجينة الزجاج؛ وتتألف الزينة من عروق زرقاء رُسمت على شكل إكليل زهر ونقلت إلى الرخام.

F. D.



١٩٤. خابية
القرن الأول بعد الميلاد
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٤,٦ سم؛ قطر ٣,٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٨٥ ف ٧

هذه الخابية، التي يُفترض أن يكون جسمها من الزجاج العديم اللون، أو يكاد يميل إلى الأزرق، لم تحتفظ إلا باحدى عروتيها الأنيقتين الصغيرتين المزينتين بضلوع من الزجاج الأزرق الغامق. وغالبا ما كان هذا النوع من القوارير يستخدم لحفظ الزيوت المعطرة. F. D.



١٩٥. قارورة عطر
القرن الأول بعد الميلاد
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٣,٣ سم؛ قطر: ٥,٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٧ ف ١٣

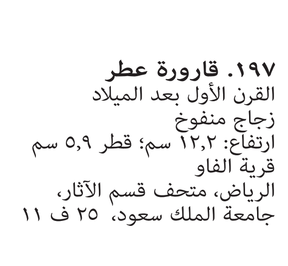
هذه القارورة الصغيرة المصنوعة من الزجاج الأزرق - الأخضر والسميك، مخصصة لحفظ الدهون أو الزيت المعطّر النادر جدا والثمين.
F. D.

١٩٦. قارورة صغيرة كروية البطن
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد (؟)
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٥ سم؛ قطر: ٤,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٣٩

هذه القارورة ذات الرقبة الواسعة تحمل زخرفا مرمريا على شكل إكليل زهر. F. D.







١٩٧. قارورة عطر
القرن الأول بعد الميلاد
زجاج منفوخ
ارتفاع: ١٢,٢ سم؛ قطر ٥,٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٥ ف ١١

هذه الآنية الصغيرة المرهفة، المخصصة لحفظ دهون أو عطور، كان عنقها الطويل يتيح سكبها قطرة قطرة. وقد احتفظت هذه القارورة الثمينة بسدادتها ووصلت من مصر على الأرجح. ولونها الأسمر- المائل إلى الخضرة، المزين بعروق بيضاء لولبية الشكل، كان يقلّد العقيق. F. D.

١٩٨. قارورة بشكل تمرة
نهاية القرن الأول- بداية القرن الثاني بعد الميلاد
زجاج منفوخ بقالب
ارتفاع: ٦,٥ سم؛ قطر ٣,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٤٠

هذه القوارير الصغيرة بلون العنبر، المصنوعة على شكل تمرة جافة، والمخصصة، على غرار آنية العطور، لحفظ المراهم أو العطور، هي إنتاج مميز للمنطقة السورية-الفلسطينية في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني بعد الميلاد. وشهدت انتشارا واسعا في كل أنحاء الشرق الأوسط: عثُر على نماذج منها في بلدان المشرق، وفي بلاد ما بين النهرين وفي منطقة الخليج العربي، البحرين على سبيل المثال.
F. D.

الخزف

ان الخزف الشائع المستخدم لغايات نفعية، يُشكل معظم مجموعات الخزف في قرية الفاو [١]. ويتشكل الباقي من آنية الخزف المطلية، التي غالبا ما كانت تُفضَّل بغية تقديم القرابين في المعابد وجعلها أثاثاً مأتمياً (د. المعرض رقم ١٩٩ إلى ٢٠٢ و٢٠٤). هذا النوع من الخزافة مستورد من منطقة بلاد ما بين النهرين حيث كان يُصنع خلال الحقبة البارثية (١٤٠ قبل الميلاد-٢٢٠ بعد الميلاد)؛ وعثُر أيضا على هذا النوع من الخزف في جزيرة فيلكة، بالبحرين، وفي شبه جزيرة عُمان، حيث انتشرت بكثرة ابتداء من نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وفي جنوب الجزيرة العربية. وفي بداية الحقبة المسيحية، تم تصدير الخزف المطلي حتى سواحل إفريقيا الشرقية والصومال. وأسفر موقع قرية الفاو أيضا عن بعض الشقف الشبيهة بالخزف الدقيق الملون النبطي (د. المعرض رقم ٢٠٦)، وبقصعة صغيرة ملونة تيمائية المصدر أو الإيحاء (د. المعرض رقم ٢٠٨). M. C.

١. أنظر الأنصاري ١٩٨٢، ص. ٦١، ٦٦ و٦٧.





١٩٩. جرّة ذات عروتين إجاصية الشكل
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
خزف مطلي باللون الأسمر- الأخضر
ارتفاع: ٣٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٧٢ ف ٢

٢٠٠. جرّة ذو بطن انسيابيّ بعروة واحدة
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
خزف مطلي بالأخضر الغامق
ارتفاع: ٣١,٥ سم؛ قطر: حوالى ٢٠ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٧٣ ف ٢

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٦٤-١.

٢٠١. جرّة بيضاوي الشكل بعروتين
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
خزف مطلي بالأخضر الغامق
ارتفاع: حوالى ٢٥ سم؛ قطر: ١٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٣٦ ف ١٧

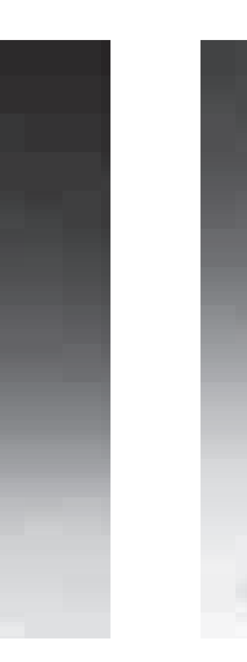


٢٠٢. جرّة بعروتين
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
خزف مطلي باللون الفيروزي
ارتفاع: ٢٣,٣ سم؛ قطر: حوالى ١٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٣ ف ٢٨



٢٠٣. مطرة عدسية الشكل بعروتين
القرن الثاني قبل الميلاد-القرن الثاني بعد الميلاد
خزف مطلي بالأسمر والأزرق
ارتفاع: ٢٦ سم؛ قطر: ٢٠ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٤ ف ٢٢

٢٠٤. طاسة تزينها اوراق الكرمة
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد
خزف مطلي بالأخضر الغامق
ارتفاع: ٦ سم؛ قطر: ٨ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٥٣





٢٠٥. مطرة عدسية الشكل بعروتين
القرن الثاني قبل الميلاد- القرن الثاني بعد الميلاد
خزف
قطر: ٢٠,٤ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٥ ف ١٦



٢٠٦. كوب
القرن الثاني قبل الميلاد- القرن الثاني بعد الميلاد
خزف ملون
ارتفاع: ٥ سم؛ قطر ١٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٥٢ ف ٢٠



٢٠٧. وعاء مخروطي الجذع
القرن الثاني-الأول قبل الميلاد
كلسي
ارتفاع: ١٨,٥ سم؛ قطر ٢٢,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٧٥ ف ٢

فهرس: الأنصاري،١٩٨٢، ص. ٦٢؛ غنيم، ١٩٨٠، صورة ٧؛
Hassel ١٩٩٧، ص. ٢٦٣، صورة ١٢، 1T.

ابتداء من القرن الثاني والأول قبل الميلاد، عرفت الأواني الحجرية ذات العرى الحيوانية الشكل، انتشارا واسعا في كل أنحاء جنوب الجزيرة العربية (شبوة، قطبان؛ حضرموت، نجران) وحتى شرق الجزيرة العربية (مليحة والدور والظهران ...). كانت تـُستخدم لحفظ المواد الغذائية، كالتمر هنا، ودهون التجميل، أو خزانة للنقود. عـُثر على أعداد كبيرة من الأغطية العائدة لهذا النوع من الآنية في قرية الفاو. M. C.

الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٧٣ رقم ٤؛ ص. ٧٤، رقم ٢؛ ص. ٧٥، رقم ٤.



٢٠٨. قصعة
القرن الأول-القرن الثاني بعد الميلاد
خزف ملون
ارتفاع: ٥ سم؛ قطر: ١١,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٩ ف ١٨

نسيج

كشف في موقع قرية الفاو عن كمية كبيرة من اجزاء النسيج المصنوع من وبر الجمل، وصوف الخروف والكتان؛ الرسوم الجدارية (د. المعرض رقم ١٦١، ١٦٢)، تعطي أيضا لمحة عن غنى النسيج المستخدم في قرية الفاو وتنوعه.

وكشفت الحفريات في المنطقة السكنية عن وجود مشغل للنسيج عثُر فيه على المواد الأولية (أكباب الغزل) وعلى مجموعة من الأدوات (قبان وأبر وأمشاط).

M. C.



٢٠٩. جزء من قطعة نسيج مزينة بجذع إنسان
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
صوف (؟) أخضر، برتقالي اللون وأخضر
٩ x ١٠،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٨٢ ف ٨



٢١٠- جزء من قطعة نسيج مزينة بأشرطة للتزويق
القرن الثالث قبل الميلاد-القرن الثالث بعد الميلاد
صوف (؟)
١٠،٥ x ٨،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٩٥ ف ٧



٢١١. جزء من قطعة نسيج ذات تزويق تربيعي
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
نسيج كتان أخضر وأسمر فاتح
٩ x ٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ١٧٩ ف ٧



٢١٢. ثقّالة مغزل
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
حجر
قطر: حوالى ٢،٧ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٢٥١ ف ٧



٢١٣. ثقّالة مغزل
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
خشب
قطر: حوالى ٣ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ١٠١ ف ٩

٢١٤. كبّة غزل نسيج وإبرة
القرن الثالث قبل الميلاد-القرن الثالث بعد الميلاد
صوف، برونز
قطر: حوالى ٥،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٦ ف ١٠









.٢١٥ **.٢١٦**

٢١٥. إبرةٌ ذات عين
القرن الثالث قبل الميلاد- القرن الثالث بعد الميلاد
عظم
طول: حوالى ٨ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٤٨ ف ١٠

٢١٦. إبرةٌ ذات عين
القرن الثالث قبل الميلاد-القرن الثالث بعد الميلاد
برونز
طول: حوالى ١٢،٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٦٩ ف ٢

٢١٧. أوزان بأشكال حيوانية (صفحة اليمين)
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
برونز
١٢ x ١٤,٩ x ٦,٥ سم؛ وزن: ٤ كلغ
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٩٤ ف ٦

فهرس: الأنصاري، ١٩٨٢، ص. ٨٨-٨٩؛ عزة علي عقيل وSabina Antonini، ٢٠٠٧، ص. ٢١٢، رقم ٢ E a ٢.

أ	غوث ابن	*Ḡwṯ (b)=*	*A*
ب	قشامون	*n* Qs^2m^m	*B*

على الوجه أ، ثمة نص آخر (يعود لفترة لاحقة) محفور
(اسم كهل متشابك الأحرف مؤلف من أحرف: ك، هـ - ل)
f'm-bn-'l(w)) أفعم بن علو

(قراءة .C. R)

الوزن المستطيل الشكل على هيئة أسد، يقوم على أربع قوائم. الجوانب الصغيرة حفر عليها رأس أسد وذيله. ونُقش اسم مالكه ويحمل رمز الإله الوطني كهل. وعُثر على وزن مماثل حفر عليه الحرف ك في الجوف، باليمن [1].

M. C.

١. Paris، ١٩٩٧، ص. ١٠٢.

.٢١٨ .٢١٩

٢١٨. وزن على شكل حيوان
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
برونز
٣ x ٤ x ١,٩ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٢٨٥ ف ٥

هذا الوزن الذي يأخذ شكل أسد هو نسخة مصغرة ومبسطة للوزن المحفور (د. المعرض رقم ٢١٧).

M. C.

٢١٩. وزن
حوالى القرن الأول بعد الميلاد
برونز
٣,٦ x ٤ x ٣,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٤٦٥ ف ١



٢٢٠. نقود
القرن الاول - الرابع بعد الميلاد
فضة
قطر: ١ إلى ١,٥ سم
قرية الفاو
الرياض، المتحف الوطني، ٤٩٤٦، ٤٩٤٧، ٤٩٤١ و ٤٩٤٨

في الأعلى، إلى اليسار: عملة من قرية. حول السبب المركزي – شخصية على ما يبدو بذراعين طويليتن مطويتين- نتعرف إلى بعض الحروف السبئية:
S^1'd و *Kh[l]. Kahl* كهل هو الإله الأكبر لقرية

في الأعلى، إلى اليمين:
عملة حميرية باسم تا را ن يا وب (حوالى ٢٠٠-٢٢٠)

في الأسفل، إلى اليسار:
عملة من قرية (؟)، مع شخص يمرّ مرفوع اليدين

في الأسفل، إلى اليمين:
عملة من قرية (؟)، مع شخص واقف مرفوع اليدين

(قراءة .C. R)

نجران وموقع الأخدود

أ. صالح المريح

موقع نجران، تصوير Humberto da Silveira

تقع نجران في جنوب غرب المملكة العربية السعودية على حافة صحراء الربع الخالي، وتعد أحد أقدم المناطق الحضارية على مستوى الجزيرة العربية، وتمتد أصول حضارتها وحسب آخر الاكتشافات الأثرية إلى العصر الحجري القديم الأعلى، حيث عثر الباحثون فيها على آثار حضارة إنسانية تعود إلى أكثر من مليون سنة من الوقت الحاضر، كما عثر الباحثون على أثر بحيرات قديمة جداً تلاشت في العصر الحالي تدل على أن تلك المنطقة الواقعة في أحضان الربع الخالي كان لها أهمية تاريخية ما جعلها نقطة ارتكاز في صراع الممالك العربية القديمة الراغبة في السيطرة على تلك الواحة الخضراء التي يشكل موقعها أهمية اقتصادية بوصفها ممراً رئيسيا لأحد أهم طرق التجارة القديمة.

وفي العصور التاريخية شهدت نجران فترات استيطان متواصلة، تخللها العديد من الأحداث المهمة، حيث كانت نجران بحكم موقعها المجاور لممالك جنوب الجزيرة العربية، تشكل في كثير من الأحيان جزءاً من الصراعات الدائرة بين هذه الممالك، وهذا ما أشار إليه عدد من النقوش الجنوبية التي من أبرزها نقش يعود للملك (كرب أل وتر ٦٢٠-٦٦٠ ق.م) ويذكر أن حملة عسكرية قادها ابنه (يثع أمر بين) على بعض القبائل بنجران وعاصمتها (رجمت) كما ورد في النقش، في حين يذكر نقش آخر يعود للملك (الشرح يحضب) و(بازل بايا بين ١٥-٣٥ ق.م) حملة عسكرية أخرى على نجران صاحبها أعمال نهب وتخريب للمدينة.

التسمية

يرد اسم نجران في الكثير من الروايات التاريخية وكتب الرحالة العرب والأجانب دون تعليل لهذه التسمية، وتذكر بعض الروايات أن نجران خشبة يدور عليها رتاج الباب، وتذكر روايات أخرى أنها سميت كذلك نسبة إلى من نزلها وعمرها وهو شخص يدعي: نجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد أطلق الاسم على الوادي والمدينة معاً، ويبدو أن موقع الأخدود الأثري كما يعرف اليوم، هو المكان الذي كانت تقوم عليه مدينة نجران القديمة التي وردت في نقوش الجزيرة العربية باسم «ن ج ر ن» والتي بدأت في الظهور والارتقاء مع بداية الألف الأول ق.م وأصبحت خلال هذه الفترة من ٢٥٠-٥٠٠ ق.م من أبرز المدن التجارية القديمة على الطريق التجاري القديم.



السكان

كانت قبيلة بني الحارث بن كعب تشكل القبيلة الرئيسية في نجران قبل الإسلام ثم تقاسمت كل من قبيلة بني الحارث وهمدان الاستيطان في نجران، وفيما بعد أصبحت يام من همدان بن زيد تشكل الغالبية العظمى من سكان المنطقة، وتتوزع في كل من وادي نجران وحبونا، وكونت صلة قرابة بين قبيلتي العجمان وآل مرة، أما أفراد قبيلة بني الحارث فقد تضاءل دورهم عما كان في السابق، ومع ذلك لا يزال عدد كبير منهم يعيشون في نجران حتى الآن.

نجران وعصور ما قبل التاريخ

من الدلائل الأثرية على قدم الاستيطان البشري في منطقة نجران ما عثر عليه في (شعيب دحضه) من الأدوات الحجرية، التي يعتقد أنها ترجع للحضارة الإلدوانية (١،٢-١،٨) مليون سنة قبل الوقت الحاضر، وهي مرحلة مبكرة من العصر الحجري القديم وتمثلت أدواتها بالقواطع الحجرية الكبيرة الحجم والمكاشط والشفرات والمطارق والأدوات ذات الوجهين البدائية ومن أهم المواقع في العصر الحجري القديم الأوسط تلك التي وجدت في عرق البير في الربع الخالي، وبئر حما، وتركزت حول المرتفعات المطلة على الوديان، وتميزت أدوات هذه المرحلة بالدقة مثل المثاقب والمسننات والمكاشط ذات الأنصال المستعرضة والطرفية.

وتعد منطقة بئر حما من أبرز الأماكن التي شهدت فترة استيطان على نطاق واسع في العصر الحجري الحديث من (٤٠٠٠-٥٠٠٠ ق. م)، والدلائل فيها كثيرة، ومنها منشآت لمواقد حجرية ومنشآت مستطيلة ونصف دائرة ومنشآت حجرية مخروطية الشكل، كما تكثر الرسوم الصخرية التي أمدتنا بالكثير من المعلومات عن الملابس وأدوات الزينة والأسلحة والمواقد الحجرية والأحواض

نجران قبل الإسلام

تشير الأدلة المستمدة من النقوش السبئية المبكرة إلى أن نجران حظيت بأهمية كبيرة بحلول منتصف الألف الأول ق.م بعد أن فتحها السبئيون، وأن إسم نجران أو نجرن كان يطلق آنذاك على المنطقة وعاصمتها (رجمت).

موقع الأخدود الأثري

يعد موقع الأخدود الأثري نموذجاً للمدن المميزة لحضارة جنوب الجزيرة العربية وهو الموقع الذي كانت تقوم عليه مدينة نجران القديمة التي ورد ذكرها في نقوش جنوب الجزيرة العربية باسم (ن ج ر ن) ويعود تاريخ القلعة أو القصبة التي تشكل العنصر الأبرز في الموقع إلى الفترة الممتدة من ٥٠٠ ق.م إلى منتصف الألف الأول الميلادي، وهي فترة الاستيطان الرئيسية للموقع.

والقلعة أو القصبة عبارة عن مدينة متكاملة مستطيلة الشكل يحيط بها سور بطول ٢٣٥ م يمثل نظام التحصين الذي كان معمولاً به في مدن جنوب الجزيرة العربية يحتوي على نتوءات وتجاويف عشوائية وغير منتظمة بمساحات متفاوتة، ويتميز هذا النظام بان المباني الواقعة على السور تندمج في السور لتشكل جدرانها الخارجية جزءاً من المحيط الدفاعي الخارجي للسور، على أن هذه المباني في الغالب تكون جدرانها أعرض حيث تصل إلى ١٥٠ سم، بينما العرض السائد للمباني الداخلية يتراوح بين ٨٠ سم – ١١٠ سم.

أما داخل السور فتنتشر مجموعة كبيرة من المباني التي تتفاوت حالاتها من حيث درجة تأثير عوامل التعرية والزمن عليها. بنيت الأجزاء السفلية للمباني من كتل حجرية منحوتة على شكل واجهات مستطيلة أو مربعة بأحجام متفاوتة يبلغ طول واجهات بعضها حوالي ٣٥٠ سم، على أن الأجزاء العلوية من هذه المباني على الأرجح كانت مبنية من الطين اللين أو الطوب اللبن وتمثل عدة أدوار، وتحولت حالياً إلى كميات من الرديم حيث يغطي أجزاء كبيرة من جدرانها العديد من المباني والشوارع. ويتمثل أسلوب البناء من خلال صفوف متتالية من الكتل الحجرية التي تتميز بان كل صف منها تتساوى أحجاره من حيث

الارتفاع، وليس بالضرورة أن تتساوى أحجام الصفوف في كل المبنى وإنما لكل صف ارتفاع موحد.

ونظراً لأهمية هذا الموقع من الناحية التاريخية والأثرية، فقد نفذت فيه الهيئة العامة للسياحة والآثار العديد من الأنشطة الأثرية، تمثلت في إجراء حفريات داخل القلعة أسفرت عن نتائج مهمة وفرت معلومات جديدة عن الموقع، كما أسفرت عن اكتشاف مسجد شمال شرق القلعة يعد أقدم مسجد في المنطقة حتى الآن ويعود تاريخه إلى القرن الأول الهجري (السابع/الثامن الميلادي)، ولا تزال أعمال الحفر والتنقيب الأثري مستمرة في الموقع.

الدراسات والأعمال السابقة بموقع الأخدود

ذكر المؤرخون والرحالة العرب نجران والأخدود في معرض كتاباتهم عن البلدان والأماكن في الجزيرة العربية، ففي تاريخ المستبصر (لابن المجاور الجزء الثاني) ورد ذكر نجران وسكانها، وفي معجم البكري ذكر أن مدينة الأخدود أطلال لم يتبق بها شيء سوى مسجد كان قد بناه عمر بن الخطاب، ولعل نيبور ١٧٦٣م أول رحالة غربي يذكر الموقع، ومهما يكن من أمر فان (هاليفي) هو أول رحالة غربي زار الموقع والواحة بالفعل في عام ١٨٧٠م ووصف الأطلال وقام بقراءة المناسيب وكرر ما ذكره البكري من قبل بان مسجد عمر بن الخطاب هو المبنى الوحيد الذي كان لا يزال باقياً.

ولم يحدث أن أُجري بحث منهجي منظم في موقع الأخدود حتى عام ١٩٣٦م حين قام فيلبي بزيارة الموقع، وكان وصفه للموقع دقيقا ومفصلا غير إنه لم ينشر بحثه حتى عام ١٩٥٢م. وقد وصف المنطقة المركزية المسورة بأنها قلعة تغطي مساحتها ١٢ دونماً، تظهر منها مبانٍ تدل على روعة البناء واستمر في وصفه يقول أنه كان يوجد في المنطقة المتاخمة للمدينة الكثير من آثار لقنوات وبحيرات وسدود اصطناعية. وربما كانت المدينة محصورة عند أطرافها بخندق مائي أو مطوقة بقناة تتدفق فيها المياه من نهر يعلوها ثم تمر بانحدار فيها اسفل المدينة.

وعلى أية حال فقد كان لدى فيلبي إحساس بأنها تبدو وكأنها كانت محاطة تماماً بخندق مائي يفصلها جغرافياً عن باقي المدينة.

وفي ديسمبر ١٩٥١م قام فيلبي بإرشاد حملة فيلبي – ريكمانز – ليبنز الاستكشافية في المنطقة، وأعدت هذه الحملة مخططاً مفصلاً بعض الشيء (للقلعة) واستغرق هذا العمل أسبوعين ولم يكتب للمخطط أن ينشر إلا مؤخراً، وعلى الرغم من أن المخطط العام كان دقيقاً ومفصلاً بالنسبة للقلعة ألا أنه كانت تنقصه التفاصيل الداخلية.

ولقد قام كل من «ج. ريكمانز وأ. دايتون» بدراسة موجزة للمعثورات الفخارية المأخوذة من الموقع لكنها تعرضت لخطأ تفسيرها حيث لم يستدل المؤلفان على المكان التي جمعت منه الكسر الفخارية أو ما ألذي كانت تمثله.

وفي صيف عام ١٩٦٨م قام (فان بيك) بعملية مسح محدودة لمنطقة نجران وأوضح الموقع الرئيسي بها وقارنه بالأماكن التي تشابهه في جنوب الجزيرة ولوحظت من قبل وتم استكشافها في حضرموت، ثم قام بتحديد مواقع إضافية جنوب الأخدود.

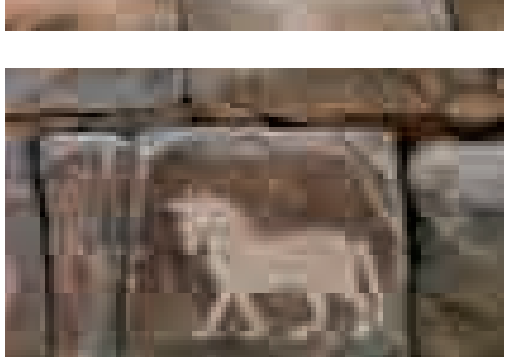
وفي أوائل ربيع عام ١٩٨٠م قامت حملة المسح الشاملة للمملكة بزيارة منطقة نجران وقامت بجمع كسر الفخار من منطقة (القلعة) والمناطق الممتدة المجاورة لها كما قامت الحملة بعملية تنقيب محدودة في داخل القلعة وترجع تواريخ عينات كربون ١٤ التي تم اختيارها أن القلعة استوطنت منذ ٥٠٠ عام قبل الميلاد حتى عام ٢٥٠م كما تم تسجيل المواقع الفرعية بالمنطقة السابق ذكرها وأُعدت لها الخرائط.

بعض المعثورات

أجريت العديد من الحفائر الأثرية بموقع الأخدود ومن أهم المعثورات ما يلي:

الجرار الفخارية

عثر على كسر فخارية كونت بعد ترميمها مجموعة من الجرار كانت تستخدم للتخزين، وهذه الجرار



كُتل مزخرفة، نجران، تصوير Humberto da Silveira

ذات شكل كمثري مصنوعة من عجينة بنية فاتحة اللون تخالطها حجارة صغيرة وتبن لتقويتها، وتظهر آثار أصابع الصانع على الجانبين بالإضافة إلى أنها مصنوعة بواسطة العجلة، وبدرجة حرق جيدة، وقد عثر على هذه المجموعة من الكسر الفخارية في إحدى الغرف بالقرب من عدد من الرّحى مما يفسر أن استخدام جرار الفخار كان لأغراض تخزين بعض المنتجات الزراعية كالقمح والشعير وما شابه ذلك.

الطاسات

عثر على عدد من الطاسات الفخارية المتنوعة من حيث الشكل وطريقة الصناعة أو المواد المضافة إليها.

فهناك طاسات كبيرة الحجم، مصنوعة من عجينة بنية اللون غير نقية يخالطها كسر من الحصى، ولهذه الطاسات قاعدة مستديرة الشكل، أما أبدانها فتبرز للخارج وتنتهي بحافة مستقيمة، وتبدو آثار الطلاء ذي اللون البني الغامق على السطح الداخلي وحول الحافة من الخارج، وهناك طاسات أخرى متوسطة ذات قواعد مقعرة وبدن منتظم وحافة مائلة قليلاً للداخل أو مستقيمة، وهي مصنوعة بواسطة العجلة، وتبدو بعض الطاسات خشنة الملمس وعجينتها غير نقية، وقاعدتها كبيرة وربما كان البدن في بعضها على هيئة بيضاوية وتظهر آثار أصابع الصانع إلى جانب آثار العجلة أحياناً على السطحين الخارجي والداخلي كما أن درجة الحرق جيدة.

الأواني ذات الحافات المتموجة

عثر على أوان متعددة شبه كاملة تمتاز بحافات متموجة، وهذه الأواني مصنوعة من عجينة بنية فاتحة يتراوح سمك البدن فيها بين (٣-٦ ملم) وهي ذات قواعد مقعرة وبدن كمثري، وقد صنعت بواسطة العجلة وحرقها جيد، ونلاحظ آثار طلاء على بعضها في السطح الخارجي أحياناً والداخلي أحياناً أخرى.

الأقداح

عثر على عدد من الأقداح الغير مكتملة، مصنوعة من عجينة ذات لون بني فاتح غير نقية تخالطها كسر صغيرة من الحجر الرملي، وهي ذات قاعدة مسطحة (مستوية) أو مقعرة وبدن منبعج للخارج ثم يضيق باتجاه الحافة المقلوبة للخارج قليلاً وقد صنعت بواسطة العجلة وحرقت حرقاً جيداً.

الأفران الفخارية

عُثر على عدد من الأفران الفخارية من نوع التنور وتتميز بأنها صنعت بالعجلة من عجينة فخارية بنية غامقة تخالطها حجارة صغيرة ومتوسطة الحجم نسبياً.

الأواني المزججة

عُثر على أجزاء من أوانٍ مزججة تمثل أجزءً من جرار متوسطة الحجم وهي مصنوعة من عجينة نقية إلى حد ما صفراء اللون مزججة من الخارج بتزجيج لونه أخضر متأثراً بعوامل التعرية.

أواني الحجر الصابوني

عُثر على أجزاء كثيرة من أواني حجرية متنوعة ومختلفة الأشكال تمثل قدور أقداح وطاسات، وقد صنعت بطريقة النحت ولها مقابض كما يلاحظ أحياناً وجود قطعة معدنية ملتصقة بها عليها أكسدة ذات لون أخضر، وقد عثر على السطح الداخلي لإحدى هذه الكسر على نقش بالقلم المسند فقدت أجزاء منه كما يلاحظ ان بعض هذه الأواني مصقولة صقلاً جيداً وتظهر عليها من الخارج آثار الحرق نتيجة لاستخدامها على النار.

المعادن

عثر على قطع معدنية تمثل مقابض لترميم الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني، وهناك قطع معدنية أخرى تكون أجزاء من أوانٍ نحاسية، بالإضافة إلى أدوات معدنية دقيقة كالإبر والمخارز والسكاكين أو الخناجر، كما عثر على قطعة عبارة عن قضيب من الفضة طوله ٩سم، وسمكه ١سم جاهز للتصنيع وتبدو آثار الطرق على أوجهه الأربعة.

العملات

عثر على عملات برونزية دائرية الشكل مختلفة الأحجام تتراوح أقطارها بين ١-٢ سم تقريباً، وتبين بعد تنظيفها أن عوامل التعرية أثرت عليها مما أدى إلى اختفاء المعالم التي كانت على ظهر العملة ووجهها، كما عثر على العديد من العملات الفضية السبئية والقتبانية والحميرية.

مخطط نجران

الخرز

عُثر على عدد من الخرز، بعضها كروي الشكل مصنوعة من الزجاج وذو لون أسود ودوائر بيضاء، وبعضه مصنوع من أصداف، كما عثر على خرز مصنوع من الفخار ذي اللون الأصفر، وعليه آثار تزجيج.

المصنوعات الخشبية

عُثر على قطع خشبية تمثل أجزاء من أمشاط مزخرفة بخطوط غائرة ومتقاطعة.

الزجاج

عُثر على العديد من الكسر الزجاجية تمثل أجزاء من أبدان وحافات لأوانٍ زجاجية ذات لون أزرق داكن وأخضر فاتح، وعليها من الخارج خطوط متوازية تمثل زخارف.

المباخر

عُثر على مباخر مكتملة مكعبة صغيرة الحجم ذات أربعة قواعد مصنوعة من حجر رمادي اللون، وتبدو آثار كتابات بالخط المسند (ضرو)، والضرو أحد أسماء الطيوب، كما عثر على أجزاء مباخر مصنوعة من الحجر الرملي عليها زخرفة عبارة عن مثلثات ولها أرجل، كما وجدت بالموقع أجزاء من مباخر مصنوعة من الفخار صنعت من عجينة غير نقية، وتبدو آثار أصابع الصانع وعليها طلاء وآثار كتابة بالخط المسند يمكن قراءتها وهي عبارة عن اسم من أسماء الطيوب (رند).

المساحق

عثر على عدد من المساحق مصنوعة من الحجر تختلف في أشكالها وألوانها، فمنها ما هو دائري الشكل ومقعر من الداخل وله مصب، وحافة بارزة تحيط به من الخارج، وهذه الأنواع ذات أرجل بعضها ذو شكل مستطيل.

الرحى

عُثر على الجزء العلوي والسفلي لعدد من الرحى وأحياناً جزء واحد فقط، وهي مصنوعة من حجر رمادي اللون، وقد لوحظ أن بعضها غير مكتمل أو أن الغرض الذي صنعت من أجله لا يتطلب دقة في الصناعة وتتراوح أقطار هذه الرحى بين ٤٠-٥٠ سم تقريبا.

الأحواض الحجرية

عُثر على حوضين حجريين أحدهما لونه رمادي، والآخر يميل للاصفرار مصنوعان بطريقة النحت من الحجر الرملي، ويلاحظ وجود مصب أو مجرى للسوائل على قاعدة الحوض.

أواني الحجر الرخامي

عُثر على كسر أوانٍ مصنوعة من الرخام، ومن المصنوعات الرخامية أيضاً عثر على جزء من إفريز رخامي تظهر عليه خطوطٌ غائرة متوازية بشكل منظم وحوض من المرمر.

النقوش والكتابات

عُثر على نقوش غير مكتملة وأخرى مكتملة أثناء الحفر ومن هذه النقوش ما هو موجود على جدران المباني فعلى أحد أحجار الجدران يوجد نقش ربّما يتحدث عن صاحب المنزل ويعرفنا به كما توجد رسوم منقوشة لحيوانات وزواحف أحدها يصور فرساً وآخر يمثل حيّة أو ثعباناً يتضح رأسه وجزء كبير من جسمه، كما وجدت بالموقع مسلتان بالخط المسند وتجري الآن دراستها ويعتقد أنهما سيكشفان عن معلومات قيمة جدا.

الجهود المبذولة للحفاظ على آثار الأخدود

تقوم الهيئة العامة للسياحة والآثار بالمملكة العربية السعودية بعدد من الأعمال الهادفة في مجملها للحفاظ على آثار الأخدود ومنها :

١- إجراء أعمال مسح وتنقيب وتهيئة في الموقع ؛ ٢- تعيين حراسات للموقع ؛ ٣- الاهتمام بالنشر العلمي لنتائج المسح والتنقيب ؛ ٤- توسعة متحف نجران للآثار بحيث يصبح سبع قاعات بسيناريو وعرض متحفي مميزين ؛ ٥- تطوير مداخل الموقع ؛ ٦- إقامة سياج جديد حول الموقع.

حوض من المرمر، نجران (الرياض، المتحف الوطني، ١٣٢٠)



قصعة متموجة الطرف، نجران

المصادر والمراجع : - **الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، قرية الفاو،** صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، الرياض: جامعة الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ؛ **المواصلات والاتصالات في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام**، وزارة المواصلات، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- **آل مريح، صالح بن محمد، نجران - سلسلة هذه بلادنا**، الطبعة الثالثة، الرياض، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- **علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٩٠م.

- **الوليعي، عبدالله بن ناصر، جيمورفولوجية المملكة العربية السعودية**، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- **البريهي، إبراهيم بن ناصر، الحرف والصناعات في ضوء النقوش بالمسند الجنوبي**، الطبعة الأولى، الرياض، وكالة الآثار والمتاحف ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- **الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

- **الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

البلادي، عاتق بن غيث، بين مكة وحضرموت رحلات ومشاهدات، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

- **الناصر، علي الرويتع، عبدالعزيز، دراسة مبدئية لدرب الفيل**، حول الآثار العربية السعودية- الأطلال العدد ١١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

- **الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان**، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.

الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

حسن، يوسف فضل، الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثاني عشر، مجلة الدارة العدد ٣، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الحوالي، محمد بن علي الأكوع، اليمن الخضراء مهد الحضارة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩١هـ

السعود، عبدالله السعود، استئناس الجمل وطرق التجارة الداخلية، أطلال، العدد ١٤، ١٤١٦هـ

العقيلي، محمد بن أحمد، نجران في أطوار التاريخ، الطبعة الأولى، جدة، ١٤٠٤هـ

المزروع، حميد إبراهيم، دراسة لمشغولات فنية من موقع الأخدود بنجران، أدوماتو، العدد الثالث ١٤٢١هـ.

نـجـران



٢٢١.



٢٢٢.

٢٢١. ميزاب
حوالى الـقرن الـثاني بعد الميلاد
برونز
٩,٥ x ٥٣ x ٧،٥ سم (ارتفاع الأحرف: ٠،٠٥ سم)
نجران
الرياض، المتحف الوطني، ١٣٢٧

نقش:
Symbole *...]qny d̲-S¹mwy ʻdy K'btⁿ ḥfnnhn bn frʻt frʻ-hw*
أهدى إلى ذو السماوي في كع ‹ بتان (الميزابين) مع بواكير الغلال التي قدمها له

(قراءة C. R.)

فهرس: RES ٤٩٣٠، Smith، ١٩٣٧، ص. ١٥٥، لوحة ٤٢.

٢٢٢. رأس أسد وطرف قائمته
حوالى الـقرن الـثاني بعد الميلاد
برونز
٣٢ x ٢٥ x ٢٣ سم
نجران
الرياض، المتحف الوطني، ١٣٢٨

فهرس: Smith، ١٩٣٧، لوحة ٤٢ ؛ Philby، ١٩٣٨، ص. ٤ و١٧؛ عزت علي عقيل وSabina Antonini، ٢٠٠٧، ص. ١٦٨، n° lBal

على رغم أن رأس هذا الأسد الذي يزأر، قريب جدا من النماذج اليونانية-الرومانية في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، تشير عناصرُ كثيرة، سواء كانت أسلوبية أم تقنية، إلى إنه، ولا شك، نتاجُ مشغل محلي. فالعينان المرصعتان، والعُفرة المنحوتة بطريقة مؤسلبة، والشاربان الكثان والحاجبان البارزان، وكذلك الأنبوبان الصغيران المقولبان بالكاد، ليشكلا الأذنين المستديرتين، تذكّر بأسلبة رؤوس الأسود التي عـُثر عليها في جنوب شبه الجزيرة العربية؛ ويشكّل وجود النواة الطينية في داخل هذا الرأس، إحدى المميزات التقنية لسبَّاكي جنوب شبه الجزيرة العربية. ولـُحِم الرأس على الأرجح بجسم ذي حدبة مستديرة أو بارزة جدا، كما يمكن أن توحي بذلك العفرةُ غير المتناسقة. ولا يـُدهشنا ألا نعثر على أي من عناصر الجسم. في الواقع، تتيح تقنية صانعي التماثيل البرونزية في جنوب الجزيرة العربية التي تحتفظ بالنواة الطينية في داخل التماثيل، الإدخار في المادة، إلا أنها تجعل جوانب التماثيل البرونزية بالغة الرقة، وبالتالي، فائقة الهشاشة. وبما أن رأس الأسد هذا قد اكتـُشف بطريقة عرضية في مستهل القرن العشرين، يمكننا الإعتقاد أن قطعا برونزية رقيقة، متآكلة على الأرجح، لم تلفت نظر المكتشفين، وأن بقايا التمثال لم ينتبه إليها أحدٌ وتـُركت في مكانها.
وقد عـُثر على رأس الأسد هذا على الأرجح مع قطعة من طرف قائمة، وكذلك مع النقش، ممّا يوحي أن هذه البقايا تعود إلى الاكتشاف نفسه وتتيح الإفتراض أن «الميزاب» قد يكون ببساطة القاعدة التي كان يربض عليها تمثالُ الأسد.

F. D.

٢٢٣. أكـرة مزيـنة بـأفعى
صـلصال رملي أحـمر بـرتقالي اللـون
قطر: ٢١ سم؛ سماكة ٧ سم
نجران
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٦٨

هذه الأكرة المسطحة التي تمثل حلقات أفعى ملتفة على نفسها، كانت مخصصة على ما يبدو لوضعها تقدمة في أحد المعابد. فقد كان للأفعى قيمة رمزية بالغة الأهمية: ففي معين، كانت رمز الإله واد، أحد أبرز الآلهة التي كان يبتهل إليها قادةُ القوافل.

F. D.



المنطقة الشرقية
والعالم اليوناني - الروماني

نهضة شمال شرق الجزيرة العربية

في الحقبة الهلينستية

أ. د. دانيال تي. بوتس

ربما أن يكون من الصعب بل من المستحيل، تأريخ مواقع أو قِطَع أثرية تعود للحقبة السلوقية (sélucide) أو الحقبة البارثية (parthe) اللتين تـُعدّان تعابير سياسية، يفضـّل عدد كبير من البحاثة استخدام صفة «هلينستي» لكامل الفترة الممتدة بين القرن الرابع قبل الميلاد وبين وصول الساسانيين إلى شمال الجزيرة العربية في القرن الثالث بعد الميلاد. ولا شك في أننا ندين لتلك الفترة بمجموعةٍ من القطع المتميزة (د. المعرض من ٢٢٩ إلى ٢٤٢). لكن عندما نراها للمرة الأولى يحق لنا أن نتساءل عن جذور الثقافة التي أنتجت تحفاً تتسم بهذا القدر من التميـُّز.

رداً على سؤال من هذا النوع، غالباً ما نلتفت إلى الحقبة السابقة، لأننا نتوقع أن نعثر فيها على جذور هذا الازدهار الثقافي. وفي الحالة الراهنة، نواجه صعوبة. ولا جدل فقد عـُثر على قطع أثرية مدهشة ترقى إلى الألف الثالث أو بداية الألف الثاني قبل الميلاد، في تاروت والظهران على الساحل، وفي سبخة الحمام وأم النصي وأم الرمضة، في الـداخل. لكن عـُثـر على قليل من القطع التي ترقى إلى نهاية الألف الثاني أو العصر الحديدي في المنطقة الشرقية، فضلاً عن تلك التي عـُثر عليها بأعداد قليـلة على وجـه الأرض، في جـبل كنـزان أو في منجم الملح قرب واحة الهفوف والظهران[١]. وخلافاً للحفريات في تيماء والخريبة شمال غرب السعودية، التي أتاحت الكشف عن تطور الثقافة المادية المحلية الناجمة في آنٍ معاً عن تطـور خاص وعن حـوافز خـارجية (مصـرية)، أسـفرت الحـفرياتُ في شرق السـعودية حتى اليوم، عن العثور على أعداد ضئيلة من القطع التي تـخوّلنا الـحديث عن استـيطان مـتواصل من الألف الثالث حتى الألف الأول.

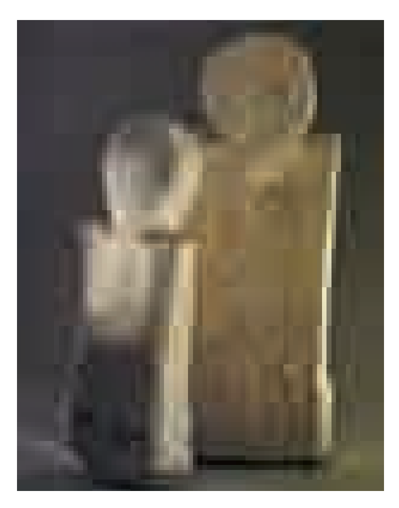
في الواقع من الصعب الـعثور في الـقطع الـمكتشفة حتـى الآن، على دليـل لـوجـود قـومٍ لا تعوزهم الأهمية الضرورية لتحقيق تطور ملموس، في القرون التي سبقت الحقبة الهلينستية. لذلك شهدت المنطقة الشرقية على الأرجح تدفقا للمستوطنين في بداية الحقبة الهلينستية. ولا نعرف هل كانت ظروف مناخية أو بيئية غير مواتية سبباً للانخفاض في عدد السكان الواضح بعد بداية الألف الثاني قبل الميلاد، والذي تلته زيادة للسكان في القرن الرابع قبل الميلاد. لكن من الممكن جداً أن تكون عوامل من هذا النوع قد حفزت مستوطنين جدداً على المجيء والاستقرار في ما كان يـُفترض أن يكون آنذاك منطقة تسكنها أعداد قليلة من الناس. ولا يمكن

(صفحة مزدوجة سابقة)
منظر من واحة، تصوير Humberto da Silvera

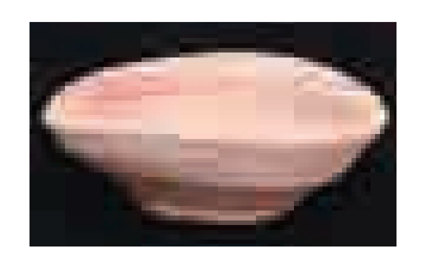
(صفحة اليسار)
نُصب جنائزي، نقش يوناني
المتحف الوطني في الرياض (د. المعرض رقم ٢٢٧)

١- Potts، ١٩٨٩





نُصب من نمط «نيفيش» في مقبرة الحجر بالبحرين





خزف مشترك في ثاج

أن تكون جذور هؤلاء القوم إلا محدودة. فعندما نأخذ في الاعتبار المؤشر الثقافي الأكثر شيوعاً في تلك الفترة، أي الخزف، نلاحظ بوضوح تشابهاتٍ مدهشة بين التقاليد الخزفية في البحرين وفيلكه (الكويت)، وبين تقاليد المنطقة الشرقية في السعودية. وهذا يتيح بالتأكيد طرحَ فرضيةِ تسلل قومٍ من البحرين و/ أو فيلكه، إلى شمال شرق الجزيرة العربية. وتتوفر في الواقع تشابهات واضحة بين بعضٍ من الأشكال الخزفية المميزة للحقبة الهلينستية، وتلك النموذجية للتقليد « فخار دلمون من معبد بربارا » بالبحرين، في الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا يدل كما يبدو على أن ثقافة دلمون كانت الثقافة التي تحدّر منها المستوطنون الذين استوطنوا المنطقة الشرقية في القرن الرابع قبل الميلاد.

يشهد تواجد طقوس جنائزية في تلك الفترة، مماثلة للطقوس في البحرين، على توافر ثقافة مشتركة على ما يبدو. فالمسلتان الجنائزيتان (د. المعرض ارقام ٢٢٥ و٢٢٦) هما جزء من مجموعة مدافن ذات نواويس اكتُشفت في عام ١٩٦٦م في تاروت، على أكمة كان رملها يستثمر لجودته، وهاتان المسلّتان، المصنوعتان بالحصى المرجاني (التسمية العربية: فرش)، تتكوّنان من جذع ومن رأس «مؤسلبين»، وتنتصبان على قاعدة مغروزة في دَكّةٍ من الحجر. وعُثر على مسلات من النوع نفسه في البحرين، بمقابر كرانة والهَجَر وشاكورة، تدل على ما يبدو إلى تقاليد مشتركة. وعثر علماء آثار دنماركيون في البحرين على ثلاث مسلات من هذا النوع حول جثوةٍ ترقى إلى الحقبة الهلينستية، وتحتوي على أوانٍ خزفية مماثلة للأواني التي عُثر عليها في المنطقة الشرقية.

ومن المفيد أن نذكر إن اثنتيْن من مسلات البحرين، على الأقل، تنتميان إلى نوع مسلات تاروت ذاته، تحملان نقوشاً جنائزية باللغة اليونانية، تخلّد ذكرى أشخاص لم تكن أسماؤهم يونانية بل ساميّة. وربما كان أحدهم، أويديزاروس إبن أويزيداروس الأسكندري، مولوداً في مدينة الأسكندرية على بحر إريتريا، أسسها الاسكندر الكبير، وعرُفت ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد باسم سباسينو شاراكس (Spasinou Charax) والواقعة على الأرجح قرب محمرّة أو البصرة. والاسم الثاني هو أبيديستاراس إبن أبدايوس الذي كان إما مدير دفة سفينة أو قبطانا. وحتى لو كانت اليونانية هي اللغة المستخدَمة في النقوش على هذه المسلات، فمن الواضح أن المتوفين الذين تدل المسلّتان على قبورهم لم يكونوا على الأرجح يونانيين.

وإن حملةً حفريات جرت قبل أكثر من ثلاثين عاماً بين أبقيق وحدود الكويت، أتاحت اكتشاف خمسة وستين موقعاً تشهد على استيطان بشري خلال الحقبة الهلينستية، لكن عدد المواقع أكبر بكثير على الأرجح، طالما أن القطاع المحيط بالهفوف، أكبر واحة في شرقي المملكة العربية السعودية، لم تُجرَ فيه حفريات بطريقة منهجية. وفي معظم الحالات، أكدت الاستيطانَ الإنساني مجموعةٌ متناسقة جداً من الخزف – خصوصاً الأواني الخزفية الحمراء - المؤلفة من نماذج دقيقة تبدأ بالأقداح أو القَصَعات وتنتهي بنماذج أخرى غير متقنة مخصصة لطهو الطعام. واكتُشفت مواقع تحتوي على هذا النوع من الخزف على طول الشاطئ من الكويت إلى الظهران، وفي الداخل، حول فدى ويكرب وعين دار والصلال وثاج. وطبقاً للتسلسل الطبقي (علم طبقات الأرض)، عثرت بعثة دنماركية في عام ١٩٦٨م، على هذا النوع من الخزف في ثاج. وأتاح ربطه بأدوات أخرى وضعَ تسلسلٍ زمني، أظهر بوضوح أن هذه المجموعة من الخزف الأحمر تميزّ الحقبة الهلينستية في المنطقة الشرقية.

وتُعدُّ ثاج إلى حدٍّ بعيد، أهم موقع، وبمساحتها البالغة ٨٠ هكتاراً، تُعتبر الأوسع في الحقبة الهلينستية في شرقي الجزيرة العربية[2]. على بعد حوالي ٩٠ كلم من مرفأ الجبيل في وادي المياه على طريق القوافل الذي يربط جنوب العراق بالهفوف وتقع في عمق المنطقة الشرقية. ونجد في الشعر العربي الجاهلي إشاراتٍ إلى ثاج تُثبت أنها كانت آنذاك واحة معروفة بآبارها، وحجارة أطلالها – التي يزعم أن إرام من قبيلة عاد العربية البائدة قبل الإسلام قد اقتلعها- وكانت قديمة جدا بحيث نُسبت إليها أصول شبه أسطورية.

٢- انظر Potts، ١٩٩٠ و١٩٩٣a.

وفي الجزء الجنوبي من الموقع، يحوط أكثرُ من خمس مائة جثوة بقطاع تكثر فيه الأودية، وإلى الشمال توجد سبخة، أي أرض مسطّحة مالحة، تغمرها المياه دورياً. ويحد سورٌ أثري ضخم الجزءَ الأوسط من الموقع الذي كان يحتشد فيه القسم الأكبر من السكان. وهذا السور الذي بُني بالكامل من كتل جيرية منحوتة، يحوط بمساحة ترسم على الأرض شكلا عشوائيا لمتوازي الإضلاع. وتبلغ سماكته ٤،٥٠ أمتار على طوله كله الذي يفوق ٢،٥٠ كلم. أما الجدران فتبلغ على التوالي ٧٢٥ مترا إلى الشمال، و٦٨٥ مترا إلى الجنوب، و٥٣٥ مترا إلى الشرق، و٩٥٠ مترا إلى الغرب. وتُرى بوضوح أبراجاً نصف دائرية يفصل الواحد منها عن الآخر ٤٠ متراً، على طول الجدار الجنوبي، ويبلغ عرضُ كل واحد منها ٤،٥٠ أمتار وسماكته من ٥ إلى ٧ أمتار. وترُى أيضاً دعائمُ صغيرة بطول متر أو مترين، بين الأبراج، وزوّدت كلُّ زاوية ببرج مُعَـيّن (losange) ضخم. وعلى الرغم من أن الصور الجوية دلت على ما يبدو إلى وجود بضع ثغرات في السور، لم يثبت أي منها فتحة تتناسب مع موضع باب. وفي القسم الأوسط من موقع ثاج، تبين بوضوح إنشاءاتٌ حجرية في مختلف المواضع. وأتاحت نتائجُ عمليات السبر الاعتقاد أن جدار السور كان يحد قطاعاً سكنياً بالأساس. واللافتُ أن أقدم الطبقات يشهد على استيطان بشري سابق لبناء جدار السور. لذلك كانت مستوطنة لا يُعرف حجمُها تعيش في هذا الموقع قبل البدء ببناء هذا السور العظيم. ويمكن أن تُساهم الحاجة للإحاطة بمستوطنة كانت موجودة من قبلُ، واتخذت لدى تمددها شكلاً عشوائياً، محاطه بسور لا يبلغ أيٌّ من زواياه ٩٠ درجة.

كان سور ثاج بالتأكيد فريداً من نوعه في شرقي الجزيرة العربية بأبراجه الصغيرة نصف الدائرية، وأبراجه في الزوايا التي تتخذ شكلَ معيَّن. وكما رأينا، فقد انطلقت إعادة تعمير شمال شرقي الجزيرة العربية بالسكان، من البحرين على الأرجح و/ أو من فيلكه، لكن من الصعب أن نعزو تصميم أو أسلوب بناء جدار سور ثاج إلى هذه المنطقة أو تلك. والجدير ذكره أن حصن فيلكه الصغير الذي شيّده اليونانيون بالتأكيد، أقل ضخامة، ولا يتوافر للبحرين شيءٌ يمكن مقارنته بجدار سور مدينة ثاج. إلا أن جانبيْن من هذا البناء، يدلان على مصدَري تأثير شديدَي الاختلاف، -العالم اليوناني وجنوب شبه الجزيرة العربية- يستحقان التعاطي معهما بعناية[3]. فلنبدأ ببحث التأثير اليوناني.

ان فتحُ الملك المقدوني الأسكندر الأكبر وجيوشه آسيا الغربية، عموماً ما يُعتبر تحوُّلاً في تاريخ المنطقة. ولولا هذا الفتح، لما حصلت في الشرق لا «هلينستية» ولا «حقبة هلينستية». فاللغة والثقافة المادية (الخزفيات والمسارح والمعابد، إلخ)، والتقاليد الفكرية (الفلسفة والدين وفن المسرح والأدب)، والعملة وسواها، انتشرت انتشاراً هائلاً في المتوسط وآسيا الوسطى والهند والجزيرة العربية. لكن، وعلى غرار الإمبراطورية البريطانية في الهند أو في مستوطنات أخرى بإفريقيا، لم تنشأ الإمبراطورية المقدونية والإمبراطورية السلوقية التي تلتها في الشرق الأوسط القديم، عبر نقلٍ كثيف للسكان، أي بالتالي عبر نقل أفراد إلى ممالك أجنبية، هم من العرقية اليونانية أو المقدونية، ويتحدرون من شبه الجزيرة الأوروبية أو من جزر بحر إيجه.

وقد أثارت «الخطط الأخيرة» للإسكندر ومشروعه فتح الجزيرة العربية تحليلات لا تُحصى. وسمع الأسكندر بالتأكيد عن ثروات الجزيرة العربية – أي اللُبان والمرّ في منطقتي حضرموت وظفار. فَهيرودوت (Hérodote) هو الذي أبلغ في الواقع قبل بليني (Pline) أن العرب أرسلوا، قبل سقوط الإمبراطورية الأخمينية، ١٠٠٠ تالان (وحدة وزن في اليونان القديمة) (حوالي ٢٥،٥٠ طناً) من اللبان سنوياً إلى ملك فارس. وقد أعد الأسكندر بالتأكيد، على غرار نبونيد، خطة للاستيلاء على هذه الثروة. ومن الممكن جداً أن تكون الحملات البحرية الثلاث التي انطلقت من بابل بقيادة أرشاييس (Archais) وأندروستن (Androsthène) وهيرون (Hiéron)، لاستكشاف سواحل الجزيرة العربية، قد نُظمت تمهيداً للهجوم على جنوب الجزيرة العربية في وقت لاحق. لكن لم تُسفر تلك الحملات عن حملة عسكرية على الرغم من أنها أدت مهماتها الاستكشافية على ما يُرام.

٣- Breton، ١٩٩٤.

ومن وجهة نظر ديموغرافية، يبدو واضحاً أن عدداً قليلاً نسبياً من اليونانيين والمقدونيين قد استقروا في شرق الفرات. وحتى عندما أقام الأسكندر وخلفاؤه مستوطنات عبر إقطاع أراضٍ لجنودٍ قدامى، أو كبّروا هذه المستوطنات، مثل ماغنيزيا أد ماندروم (Magneisa ad Maendrum) في آسيا الوسطى، من خلال إرسال مستوطنين جدد من «المدن الأصل» (villes souches)، بقي ضعيفاً العددُ المطلق للأفراد المتحدرين من الاثنية اليونانية، وأضعفت الزيجاتُ المشتركة بين هؤلاء وبين السكان المحليين «يونانيتَهم» بالتأكيد. ويقول المؤرخ آريان (Arrien) في كتابه (أناباز، Anabase ٧،٢١،٧) الذي يصف فيه الحملات العسكرية للأسكندر، والمؤرخ كينتوس كورتيوس روفوس (Quintus Curtius Rufus) في كتابه (تواريخ، Histoires، ١٠، ٤، ٣)، إن الأسكندر أسكنَ قدامى محاربيه في «الجزيرة العربية»، لكن كل المعلومات تشير إلى أن هذه المستوطنات كانت قد تاخمت جنوب بابل، لذلك لم تكن فعلاً بكل ما للكلمة من معنى في شبه الجزيرة العربية. ويقول بضعة مفسرين، لاسيما إدوارد غلازر (Eduard Glaser) ودبليو.دبليو. تارن (W.W. Tarn)، إن ثلاث مدن يونانية هي شالسيس ولاريس وأرتيوس (Aréthuse, Larisse, Chalcis) التي ورد ذكرها لدى بليني في كتابه التاريخ الطبيعي (Histoire naturelle، ٦، ٣٢، ١٥٩) قد أسسها الأسكندر وخلفاؤه السلوقيون في بقعة تقع بين مصب الفرات ومركز جرها (Gerrha) التجاري في الجزيرة العربية. ويعتبر بعض البحاثة أن هذا المركز الذي يقع في أي حال بالمنطقة الشرقية ليس سوى ثاج.

وعندما نبحث في مؤشرات التأثير اليوناني في ثاج، وبصورة أشمل، في المنطقة الشرقية، يبدو واضحاً أنَّ لا الخزفيات ولا الهندسة المنزلية ولا العادات الجنائزية الموثقة، تتيح بمجموعها التوصل إلى وجود كتيبة يونانية قوية بين السكان. ويتعلق معظمُ الخزفيات من تلك الحقبة بتقليد شمال شرق الجزيرة العربية، الذي يتميز بصنع الخزفيات الحمراء. ويعكس بعضُ الأشكال فقط تأثيراً هلينستياً. وينطبق الأمر نفسُه على التماثيل النسائية (تراكم الدهن على الإليتيْن) (د. المعرض رقم ٢٢٩) غير المتأثرة بالفن اليوناني. ولقد عـُثر في ثاج على بعض الشـَقـَف الخزفية اليونانية اللماعة المستوردة، وقد رُسمت عليها صورٌ سوداء (وحتى شقفة نبطية)، لكن عدداً صغيراً فقط من الصحون المزينة بالأسماك، ذات الميزة الهلينستية، ومن الأقداح المرممة أو الأقداح المقوسة الحواف، تذكّر بالقطع اليونانية المكتشفة في مواضع أخرى من الشرق الأدنى القديم. ومن المؤكد تقريباً أن مصدر القسم الأكبر من الخزفيات المستوردة، المدهونة بالأخضر أو الأبيض، جنوب بلاد ما بين النهرين أو جنوب غرب إيران، كما يمكن أن نفترض، بسبب بساطة الصلة عبر السفن بمرافئ تلك المناطق. كذلك على رغم أن مسلة صغيرة عـُثر عليها في تاروت (د. المعرض رقم ٢٢٧) تحمل نقشاً باللغة اليونانية، فاسمُ الشخص المذكور في النص ساميّ، – حبيب إيل نومت (Habib il Nawmat)، على غرار الأسماء المذكورة على المسلات الجنائزية التي اكتُشِفت في البحرين. وفي عام ١٩٨٨م- ١٩٨٩م، عـُثر على قطع من العملة اليونانية ترقى إلى الحقبة اليونانية، في محافظة الأفلاج بوسط المملكة العربية السعودية، وبتعبير أدقّ، في مستوطنة العيون الصغيرة[٤]، والمبنية بالطوب اللبن المجفّف. ويتضمن مخزونُ القطع التي عُثر عليها في العيون ثلاث عشرة قطعة نقدية من فئة أربعة دراخما (Tétradrachmes) المحفورة عليها صورة الأسكندر والتي سُكـَّت أربع منها في مقدونيا في عام ٣٢٣ – ٣٢٠ قبل الميلاد، وواحدة في بابل سنة ٣١٥ قبل الميلاد وأربعة في أمفيبوليس (Amphipolis) عام ٣٠٠ قبل الميلاد. ولا يمكن إلا أن نفترض أن هذا المخزون قد سقط في العيون بسبب وضع هذه المدينة على طريق رئيس للقوافل التي كانت تعبر وسط الجزيرة العربية.



مجمرة من فخار، ثاج

إلا أن تأثير اليونان في شمال شرقي الجزيرة العربية ربما مُورس على مستوى آخر، لا يتيح الخزفُ ولا العملة تحديده ولا أي غرض آخر صغير الحجم، ويدل جدار سور ثاج على ما يبدو إلى درجة من المعرفة عند البنائين في مجال التحصينات، والنظريات الهلينستية أو اليونانية التي سجلها، على سبيل المثال، فيلون البيزنطي (Philon de Bysance) (حوالي ٢٤٠ قبل الميلاد) في كتابه فن حصار المدن لدى اليونانيين (Poliorcétique des Grecs)[٥]. ونظراً إلى

٤- السعود، ١٩٩٧.

٥- Winter، ١٩٧١.

وجود قادة ومحاربين قدامى يونانيين في جنوب بابل، وحتى ربما في بضع مستوطنات بالمنطقة، فمن الممكن جداً أن تؤثر العلوم النظرية اليونانية، ولاسيما في مجال الهندسة وتشييد التحصينات، على مفهوم وبناء الجدار الكبير لسور ثاج.

ويمكن أن تكون تقنيات البناء وتصميم جدار سور ثاج، قد تأثرت بثقافة أخرى، أي ثقافة جنوب الجزيرة العربية. وخلافاً لبلاد ما بين النهرين، حيث كان نموذج البناء التقليدي يستند إلى استخدام الآجر المشوي أو لَبِن التراب المجفف بأشعة الشمس، كان جنوب الجزيرة العربية يُشيِّد تقليدياً منشآته من الحجارة الكبيرة، وذلك منذ بضعة قرون. وإن بناءَ أقدم التحصينات السبئية الضخمة من الأحجار الكبيرة، في يلاء ومأرب وصرواح (القرن السادس- القرن الخامس قبل الميلاد)، سبق ببضعة قرون تشييد جدار سور ثاج. ومن بين ثلاثين موقعا تقريباً في جنوب الجزيرة العربية، أقيمت فيها جدران ضخمة للأسوار المعروفة القياسات، تجدر الإشارة إلى أن لمأرب وحدها جدارا (٤،٢ كلم) أطول من جدار ثاج. وقد طـُبقت على الأرجح في ثاج النظريةُ اليونانية لبناء التحصينات، التي وصلت من الشمال، وتقنياتُ البناء بالحجر في جنوب الجزيرة العربية، الآتية من الجنوب. وهذا ليس المجال الوحيد الذي يُلاحظ فيه تأثير جنوب الجزيرة في شمال شرقي الجزيرة العربية خلال الحقبة الهلينستية.

والدليلُ، على ذلك مثلاً، هو الإناء الصغير المستعمل للدهون والمصنوع من المرمر على شكل قفير، ويعلوه غطاء مرسوم عليه أسدٌ نائم. وقد عُثر في تاروت على هذا الإناء الذي ينتمي إلى نوع معروف في جنوب الصحراء (انظر G. Burckholder، ١٩٩٤). لكن كان حاسماً العثور في ثاج وعين جاوان والقطيف وأبقيق والحناة على أكثر من ثلاثين نقشاً مكتوباً بالأحرف المستخدمة في جنوب الجزيرة العربية. وهذه النقوش ذات الطابع الجنائزي النموذجي، محفورة مع ذلك على مسلات جنائزية. ومعظمها على النموذج التالي: «نصب تذكاري/ ضريح أو قبر (نفس وقبر nfs wqbr) (الاسم الأول للشخص) ابن (الاسم الثاني للشخص) من المجموعة أ، من المجموعة ب». وقد كُتبت النقوش المسماة «إحسائية» بسبب الاسم الذي يُطلق عادةً باللغة العربية على المنطقة الشرقية، بخطٍ تطور من الخط السبئي جنوب الجزيرة المتضمن بعض الحروف التي تتخذ أشكالا خاصة. لكن اللغة المستخدَمة ليست من جنوب الجزيرة؛ وهي بالتالي لهجة من شمال الجزيرة العربية القديمة. والأسماء الواردة في هذه النصوص ساميّة. وعلى الرغم من أن معظم النقوش الإحسائية قد عُثر عليه خارج إطار الحفريات، يُتيح لنا نقشٌ من هذا النوع لا يخلو من أهمية، تمّ العثور عليه في أوروك جنوب العراق، أن نعرف كيف كانت المسلات موضوعة في الأصل. فمسلة أوروك (سي. إي. أتش ٦٩٩) التي اكتشفها في عام ١٨٥٧م ويليام كينيت لوفتوس (William Kennett Loftus) كانت قائمة في أحد أطراف حجرة للدفن، والنقش متجها نحو الداخل.

كما رأينا أعلاه، أن الجزء الجنوبي من الموقع يُطوّق بأكثرِ من خمس مائة تلٍ ركامي، فإن البعض الآخر يُظهر مواضع الدفن الحجرية البسيطة الموضوعة على الأرض، على شكل أكوام تراب كثيفة، تعلو حجرةً دفن مصنوعة من الحجر المنحوت أو المنحوت قليلاً. وفي بعض هذه الحجرات، عُثر على حلي مميزة وأقنعة جنائزية من الذهب تدل بوضوح على تأثير هلينستي (د. المعرض ارقام ٢٣٦ و٢٣٨ إلى ٢٤٢). وعلى الرغم من أن معظم هذه المدافن لم يُنبش، يحق لنا الاعتقاد أن مسلة تحمل نقشا منصوبةٌ على الأرجح في أحد أطراف بعض منها، كما في أوروك.

وربما ألمح مصدر قديم آخر إلى اللغة التي استُخدمت لكتابة النقوش الإحسائية. ففي الوصف الذي قدمه المؤرخ اليوناني بوليب (٢٠٣- ١٢٠ قبل الميلاد) عن زيارة في ٢٠٥ قبل الميلاد إلى الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث في جرها (ربما ثاج) في المنطقة الشرقية، أشار إلى رسالة طلب فيها سكانُ جرها من الملك أن يمنحهم السلام والحرية إلى الأبد (تواريخ، ١٣، ٩،٤-٥).



ضريح في ثاج، تصوير Humberto da Silvera

وبما أن بوليب أوضح أن الملك استجاب لطلبهم بعد ترجمة الرسالة، يمكن أن نفترض أن النصوص الأحسائية الآنفة الذكر في شمال الجزيرة العربية القديمة، تتيح لنا التعرّف إلى اللغة التي استخدمها سكان جرها لكتابة[٦] الرسالة الموجهة الى الملك السلوقي.

وكتب بوليب أيضاً أن سكان جرها كرّموا أنطيوخوس بهدية – هي على الأرجح ضريبة - تتألف من ٥٠٠ تالان من الفضة و١٠٠٠ تالان من اللـُبان و٢٠٠ تالان من تشكيلة من المر العالي الجودة المعروف باسم ستاكت (stacte). ويُظهر ذكرُ هذه الطيوب بوضوح، كما تؤكد ذلك نصوصُ كُتـّاب قدامى آخرين، أن شمال شرق الجزيرة العربية كان يستفيد في تلك الفترة من وقوعه على طريق القوافل الذي يربط منتجي الطيوب في جنوب الجزيرة العربية بأسواق بابل. لكن ذكر المال الذي قُدِّم إلى الملك ينطوي على أهمية أيضاً. ففي ثاج ومواقع أخرى، مثل موقع منجم الملح وجبل كنزان أو الشعبة قرب الهفوف، عثر جامعوا تحف هواة على آلاف من القطع النقدية على وجه الأرض. وحتى لو لم تكن جميع هذه القطع من الفضة، فهي تتيح الاعتقاد أن الفضة التي قدمها سكان جرها إلى أنطيوخوس كانت قطعاً وليست سبائك.





نـقـد من أبياثـة

وان العملة المحلية في شمال شرق الجزيرة العربية (د. المعرض رقم ٢٢٨) تشكل دليلاً جديداً على التأثير المتزامن لجنوب الجزيرة العربية والعالم اليوناني في هذه المنطقة. وعلى غرار كثيرمن العملات اليونانية الأخرى المسكوكة في أماكن أخرى من الشرق الأوسط القديم، فقد صُمِّم أقدم القطع المكتشفة في المنطقة الشرقية وفق نموذج قطع الأسكندر الأكبر، لأنها كانت على الأرجح تـشتهر بنقاوتها ووزنها الثابت، وبالتالي، تحظى بالمصداقية التامة في أي مكان تـُطرح فيه للتداول. وعلى الوجه الأول للقِطَع المستوحاة من قطع الأسكندر، سُك رأسُ هيراكلس (Héraclès) أو صورة معدّلة للأسكندر غالباً ما يرتدي جلدَ أسد نيمي (Némée)، وعلى الوجه الثاني، سُكّ وجهٌ شبيه بوجه زيوس (Zeus) جالسا. وفي بعض الحالات، يظهر اسم أليكساندرو (Alexandrou) المكتوب بأحرف يونانية، عامودياً على الوجه الثاني للقطعة، خلف رأس زيوس الجالس. وفي حالات أخرى، استـُبدل باسم الأسكندر اسمُ الملك المحلي الذي أمر بسك القِطَع، والمكتوب بأحرف من جنوب الجزيرة العربية أو أحرف آرامية.

٦- حـول السيـاسـة السـلوقية فـي الـمنطقة، انظر Capdetrey، ٢٠٠٧م.

وهذا ما حصل مع قطع أَبياثة (بيت) الذي كـُتب اسمه بأحرف من جنوب الجزيرة العربية. والقِطَع التي عـُثر عليها تُتيح الاعتقاد أن حكمه استمر من حوالي ٢٣٠ إلى ٢٢٠ قبل الميلاد. وعـُثر خارج شرق الجزيرة العربية على قِطَع بأعداد قليلة في فيلكه (الكويت)، ومما يثير الاندهاش البالغ، في سوريا وكذلك في غورديون (Gordion) ومكتبيني (Mektepini) بتركيا. ولقد ظن بعض الباحثين أن توزيع هذه القطع يعكس مسالك الطرق التجارية التي كانت تربط عبر البر شرقَي الجزيرة العربية بالبحر المتوسط، لكن ربما من الممكن طَرْح تفسيرٍ آخر يتسم بمزيد من الدقة. ففي رواية بوليب الآنفة الذكر، من المهم أن نلاحظ أن الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث، بعد ان غادر جرها حيث أعطاه سكانها المال، توجه إلى تيلوس (Tylos) (البحرين)[٧] وإلى شمال سوريا قبل أن يستولي مجدداً على آسيا الصغرى. لذلك يبدو أن من المعقول جداً أن يعكس توزيع قطع أبياثة تحركات جيش أنطيوخوس الثالث، من الجزيرة العربية إلى آسيا الصغرى، بدلاً من ذكر مسالك الطرق التجارية عموما[٨].

وتساءل الباحثون فترة طويلة هل أن الإله الجالس والمسكوك على الوجه الثاني لقِطَع شرقي الجزيرة العربية هو زيوس في الحقيقة. وثمة في الواقع أسباب تحملنا على الشك في ذلك. فعلى بعض القطع من هذا النوع، كـُتب اسمُ الإله شمس بأحرف من جنوب الجزيرة العربية أمام ركبتي «زيوس»؛ وعلى قِطَع أخرى، لا يظهر إلا الحرف الأول من الإسم، شين. لذلك طرح بعضُ الباحثين الفكرة القائلة بضرورة النظر إلى الإله في إطار الجزيرة العربية، ليس باعتباره الإله اليوناني بل باعتباره الإله المحلي، شمس.

وبما أن عدداً ضئيلاً جداً من القطع قد عُثر عليه في إطار حفريات الطبقات الجيولوجية في ثاج، لا تتوافر لنا عن القسم الأكبر منها الذي عـُثر عليه خلال عمليات مسح فوق سطح الأرض، إلا فكرة تقريبية جدا عن تسلسلها التاريخي. لكن من الواضح أنها تغطي على الأرجح بضعة قرون. وتتسم مئات منها بقدر لا بأس به من النمنمة بحيث من الممكن إقامة صلة مع القِطَع الأقدم، القريبة من القطع اليونانية. فالوجه الأول خال من الصور، ويمثل الوجه الثاني نوعاً من مَضَلَّة ذات خطوط أفقية وعمودية، فيما تملأ نقاطٌ بعضَ الفضاءات الفارغة. فهذه الخطوط تتناسب في الواقع مع صورة مُؤَسْلبة للإله الجالس زيوس/شمس - مع العرش والصولجان اللذين يـُلاحظان في الخلفية -، ومع ما يتبقى من الأسطورة التي تدلّ إما على اسم الملك أو اسم شمس. وتتوفر هذه القطع بأنماطٍ عدة تبدأ من فئة الأربعة دراخما الكبيرة وصولا إلى الأوبول (Obole) الصغير ونصف الأوبول. إلا أن مجرد وجودها كان لغزا. فقد تداولها الناسُ فترة وجيزة. وعُثر على بعض منها في أماكن أخرى، في قرية الفاو في المملكة العربية السعودية على سبيل المثال، وفي البحرين وفيلكه، واليمن والإمارات العربية المتحدة (خصوصا في الدور). لكن القسم الأكبر منها استـُخدم في نطاق محلي على ما يبدو. ولا نعرف هل استـُخدمت هذه القِطَع في السوق - فهي في الغالب ليست مصنوعة من الفضة ولا حتى من البرونز، بل من النحاس – أو هل استـُخدمت لدفع رواتب القوات المسلحة كما في مناطق أخرى من العالم في العصور القديمة.

من الصعوبة بمكان أن نحدد نهاية الحقبة الهلينستية بدقة. وكما في بلاد ما بين النهرين وفي جنوب غرب إيران، حيث لم تشهد الثقافة المادية سوى تغيرات طفيفة بين الحقبة السلوقية والحقبة البارثية، نلاحظ في شرق الجزيرة العربية استمراريةً حتى بداية القرن الأول قبل الميلاد، وحتى أطول بقليل[٩]. فإذا ما وجدنا في بعض المدافن – مدفن عين جاوان[١٠] (د. المعرض ارقام ٢٣٨ الى ٢٤٢) أو مثلاً مدافن أخرى بمقابر الظهران– أقداحا أو حلىً رومانية أو مستوحاة من الحضارة الرومانية، فإن مجموعة أنواع الخزفيات الملمّعة المكتشفة – وقد صُنع القسمُ الأكبر منها على الأرجح في جنوب بلاد ما بين النهرين أو في خوزيستان – لا تتبدل في معظمها أبداً.

٧- حول النقوش اليونانية التي عثر عليها في البحرين، انظر، Lombard، Gatier والسيندي، ٢٠٠٢م.
٨- Huth و Potts، ٢٠٠٢م.
٩- لتكوين فكرة عامة عن تاريخ الإستقرار البشري في المنطقة ، انظر Mouton، ٢٠٠٩م.
١٠- انظر Potts ، ١٩٩٣ b.

شمال-شرقي شبه الجزيرة العربية في الحقبة الهلينستية



٢٢٤. نصب جنائزي
حوالى القرن الثالث - القرن الأول قبل الميلاد
كلسي
١٢٨ x ٥٤ x ٢١ سم
ثاج
الدمام، المتحف الإقليمي رقم ٨٢

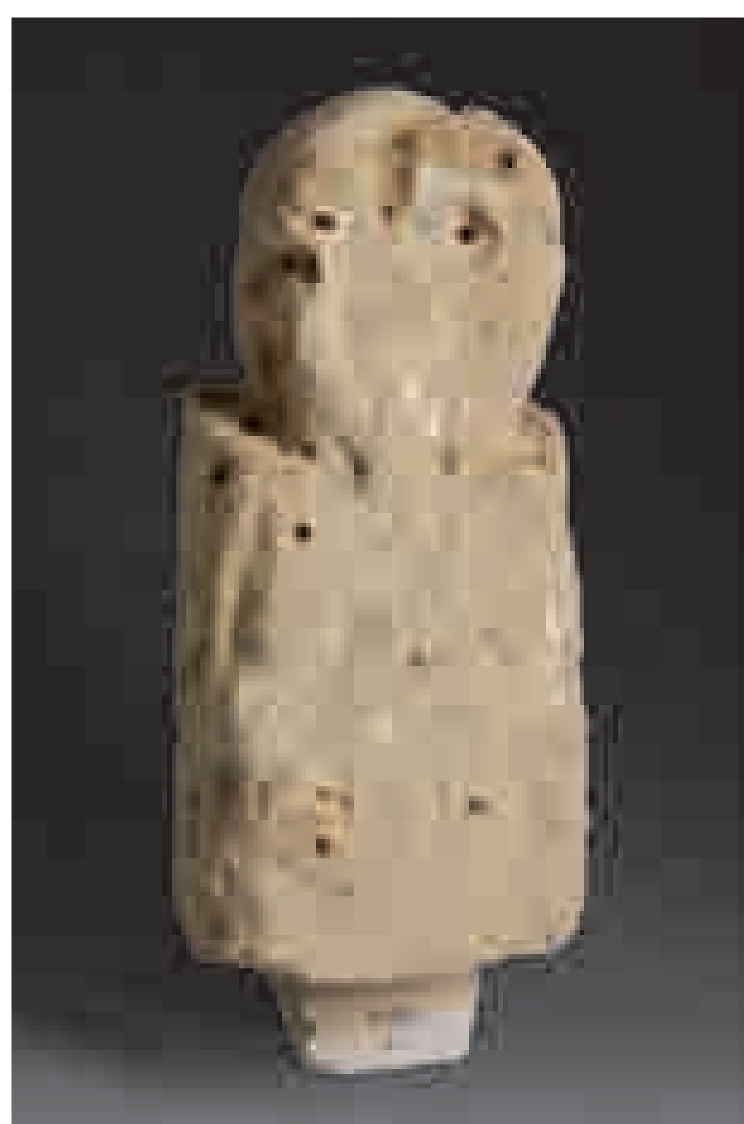
فهرس: مُغـْـفَـل، ١٩٨٢، لوحة ١٢٤ A، ص ١٣٩؛ Ryckmans، ١٩٨٦، ص ٤٠٧- ٤١٨؛ Robin، ١٩٩١، ص. ١١٩، صورة ٢٦.

١	نُصب وقبر	*wgr w-qb*	*1*
٢	غادية بنت	*r Gdyt b*	*2*
٣	مليكة	*nt Mlkt*	*3*
٤	بنت شيبام	*bnt S²bm*	*4*
٥	بنت أهدات	*bnt 'hd*	*5*
٦	من نسب	*t d't'*	*6*
٧	يناخيل	*l Ynh'l*	*7*

(بحسب Robin، ١٩٩١)

نلاحظ أن كـتّـاب العدد القليل من النقوش الحسائية المعروفة حتى اليوم، غالبا ما كانوا نساء. وهنا، يرقى سلفُ المتوفاة حتى الجيل الثالث من خلال الرجوع إلى والدة الجدة. لذلك يـُفترض تحديد بعض الأنساب في المنطقة عبر منظومة البنوّة الأمومية. وكانت أقوام المنطقة الوسطى في الخليج العربي، تدوّن لغتها مستخدمة الأحرف الأبجدية لجنوب الجزيرة العربية، لكن مع بعض الخصائص في شكل الأحرف.

M. C.





٢٢٥. نصب من نوع نيفيش (خليقة)
القرن الثاني - القرن الأول قبل الميلاد
كلسي
٣٧ x ١٤ x ١٣ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٠١٥

فهرس: Potts، ١٩٨٩، صورة ٥٦-٥٧، ص. ٤٨.

٢٢٦. نُصُب من نوع نيفيش
القرن الثاني- القرن الأول قبل الميلاد
كلسي
٥٠،٥ x ١٨،٥ x ٨،٥ سم
تاروت
الرياض، المتحف الوطني، ١٠١٦

فهرس: Potts، ١٩٨٩، صورة ٥٨، ص ٤٩.

هذه النصب العائدة لقبور تتخذ شكل نواويس اكتـُشفت مُدَمَّرة جزئيا[١]، على «جبل جنائزيّ». وكانت تحدد أمكنة القبور وتخلـّد ذكرى المتوفى. وعـُثر على نصب «نيفيش» من النوع نفسه في البحرين[٢].

M. C.

١- لمزيد من الوصف، أنظر Potts، ١٩٨٩، ص. ٤٧.
٢- Paris، ١٩٩٩، د. المعرض رقم ٣٤٧ إلى ٣٥١.



٢٢٧. نُصُب مع نقش باللغة اليونانية
القرن الثالث - القرن الثاني قبل الميلاد
كلسي
٢٩ x ٤٢ x ٩ سم
تاروت، الرفيعة
الرياض، المتحف الوطني، ١٢٨٩

فهرس: Jamme، ١٩٧٠، ص. ١٣٢ وص. ١٣٩، رقم ٦؛ Potts، b١٩٩٠، لوحة III؛ *Habib'il Salut*

هذا النصب المزين بنجمية (زينة بشكل وردة أو نجمة)، يحمل واحدا من النقوش اليونانية النادرة المعروفة حتى اليوم في شرق شبه الجزيرة العربية (النقوش الأخرى مصدرها جزيرة البحرين[١]). لكن هذه الإكتشافات لا تعني أن السواحل الوسطى للخليج العربي كانت، على غرار فيلكة، في أيدي اليونانيين السلوقيين. وقد استُخدمت البحرين وسواحل شرق شبه الجزيرة العربية، على الأرجح، محطات أو مرافئ رسو للسفن السلوقية التي كانت تسيطر على كبرى الطرق التجارية البحرية.

M. C.

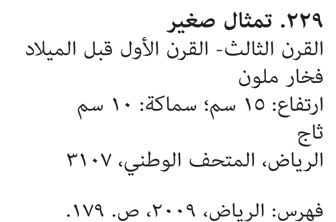
١. Marcillet Jaubert، ١٩٩٠، ص. ٦٦٥-٦٧٣، صورة ١.

٢٢٨. نقود
القرن الأول قبل الميلاد- القرن الأول بعد الميلاد (؟)
برونز
قطر: ما بين ١ و ٢،٥ سم
ثاج
الرياض، المتحف الوطني، ٤٨٨٠، ٤٨٨١، ٤٨٧٦، ٤٨٦٨ و٤١٨٤

هذه القطع النقدية البرونزية الست، التالفة جدا، تنسخ بطريقة غير موفقة العملات الفضية المسكوكة في هغار/جرهاء، التي كانت تقلد العملاتِ المسكوكة باسم الإسكندر في العالم الهلينستي. وعلى الطرف الأيسر للعملة، وسط العمود اليمين، نرى الحرف ش الذي قد يكون الحرف الأول من شمس، الإله شمس.

C. R.





٢٢٩. تمثال صغير
القرن الثالث- القرن الأول قبل الميلاد
فخار ملون
ارتفاع: ١٥ سم؛ سماكة: ١٠ سم
ثاج
الرياض، المتحف الوطني، ٣١٠٧

فهرس: الرياض، ٢٠٠٩، ص. ١٧٩.

كانت ثاج واحدا من أكبر مراكز إنتاج التماثيل الصغيرة من هذا النوع. وكانت هذه التماثيل تـُصدّر إلى كل أنحاء شرق شبه الجزيرة العربية، كالدور[١] ومليحة وقلعة البحرين وحتى نجران[٢]. إلا أننا لا نعرف المعنى الديني لهذه التماثيل الصغيرة الثقيلة الردفين (تراكم الدهن على الإلية ونحوها) ذات الرؤوس التي بالكاد رُسمت خطوطها العريضة.

M. C.

١. Daems، ٢٠٠٤، ص. ٩٤، صورة ٢.
٢- Zarins et al.، ١٩٨٣، لوحة ٢٧-١٨، ١٩.



٢٣٠. جرة
القرن الثالث- القرن الأول قبل الميلاد (الحقبة السلوقية)
خزف
ارتفاع: ١٨ سم؛ الحد الأقصى للقطر: ١٩ سم
ثاج
الرياض، المتحف الوطني، ٧٨١

هذه الجرة المصنوعة من الخزف الخشن، اتخذت لونا أبيض ناجما عن هـفوة في الشواء، كما يؤكد ذلك شكلـُها المخسوف. وضم الموقعُ أعدادا وفيرة من الأقداح والجرار والآنية المحلية الصنع التي تحتاج إلى شواء. وكانت مزيجا من الخزف الناعم المستورد من سلوقية، ومن الخزف المطلي السلوقي-البارثي أو من الخزف الملمّع بالطلاء الأسود اليوناني. وعـُثر فيه أيضا على عروة إبريق من رودوس تحمل دمغة مؤرخة بين ٢٥٠ و٢٢٥ قبل الميلاد.

M. C.

ثاج ومملكة الجرهاء

د. عوض بن علي السبالي الزهراني

مقدمة

شهدت الجزيرة العربية خلال الألف الأول قبل الميلاد والقرون الميلادية الأولى قيام حضارات المدن، وساعد في ازدهارها الموقع الاستراتيجي المميز للجزيرة بين حضارات العالم القديم، ونشأت بذلك ممالك عدة في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية اصطلح على تسميتها بفترة الممالك العربية الوسيطة، ومنها مملكة الجرهاء في الجزء الشمالي الشرقي. ومن خلال ما يتوفر في المصادر التاريخية والأدلة الأثرية يمكن التعرف على الدور الحضاري والازدهار الذي عاشته تلك المملكة إلى جانب الممالك الاخرى في الجزيرة العربية.

حاول العلماء التعرف على تلك المملكة من خلال عاصمتها الجرهاء التي وردت في المصادر والخرائط القديمة، إلا أنه لم يتفق على موقع بعينه من المواقع الأثرية الموجودة على امتداد أراضي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية الواقعة على طول الساحل الغربي للخليج العربي أو في الأراضي الداخلية. ومن المتوقع أن يساهم العثور على مدينة الجرهاء المفقودة في إثراء التاريخ الإنساني بمعلومات مهمة عن مدينة أسهمت بالكثير في صنع حضارة كانت نبراساً يحتذى به. فعلى أنقاض حضارة دلمون بزغ فجر جديد بنشوء حضارة الجرهاء التي ملأت بشهرتها أسماع الممالك والدول القديمة. لقد كان قاطنوها ينعمون بغنىً واسع ورغدٍ من العيش على حد قول المؤرخين. بيد أن مصدر تلك الثروة في ذلك الزمان لم يكن الذهب الأسود بطبيعة الحال بل همة الجرهائيين، ونهوضهم بأعباء الوساطة العالمية في التجارة والملاحة والنقل.

قناع من ذهب، ثاج (د. المعرض رقم ٢٣١)

أهمية مدينة الجرهاء

تُصنف الجرهاء على أنها واحدة من عدة مدن مفقودة في جزيرة العرب كأرم ذات العماد وعُبار، والعثور عليها أو على معالمها لا يزال طموح المهتمين والباحثين والمؤرخين كما ذكر ونشر عنها من مواضيع مشوقة بأقلام الكتاب الكلاسكيين، وبالبحث في النصوص التاريخية والكتابات القديمة يتضح أن مملكة الجرهاء قد وجدت وسادت بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد في منطقة الخليج العربي مابين شاطئ نصف القمر وميناء العقير جنوباً، وأن مدينة الجرهاء كان لها أهمية استراتيجية قصوى كمحطة تفريغ وإعادة شحن للبضائع المتجهة إلى بلاد الرافدين ومدن آسيا الصغرى، وأنها كانت مركزاً حضارياً على درجة كبيرة من الأهمية وقد وصل تجارها الذين يعملون بتجارة البخور وغيرها من الكماليات حتى بابل والبتراء وبلاد العطور في جنوب الجزيرة العربية، وكانت ثرواتها تضارع ثروة تجارة السبئيين، ومن وصف المؤرخين نجد أن الجرهائيين كانوا وسطاء التجارة بين السبئيين، والهنود، وبلاد الرافدين والغرب اليوناني، ولأن مدينتهم كانت المدينة السوق الرئيسي في شرقي الجزيرة العربية.



لقد سيطر الجرهائيون في تجارة اللبان والمر والعطور والتمور والبخور والأعشاب الطبية المنتجة من عمان وحضرموت. وكانت الجرهاء أيضاً محطة إعادة تصدير لمنتوجات الهند من توابل وعاج وبخور وزيادةً على ذالك الحرير الصيني المستورد من آسيا. فمن أبواب الجرهاء خرجت القوافل تتلكأ بسير الوئيد متجهةً إلى بلاد الشام فكان خط سير القوافل المحملة بالسلع المترفة يتجه بعد الجرهاء إلى الجبيل ثم إلى بلاد الرافدين أو غرباً عبر الصمان إلى مدائن صالح فبصرى فالبتراء ففلسطين فمدن أوروبا. ومن دون منازع أستطاع الجرهائيون التحكم والسيطرة التامة على هذه الرحلات البرية.

علاوة على ما يتمتع به الجرهائيون من خبرة فائقة ومعلومات جمة في فن الملاحة البحرية وفهم أسرار الرياح الموسمية، حيث قاموا بتشييد السفن الشراعية ونقل بضائعهم عبر البحار من الهند والخليج العربي قاصدين بلاد الرافديين "بابل". كما استطاعوا اكتشاف أهم مغاصات اللؤلؤ في الخليج فكانت بذلك مصدراً آخر لرزقهم. وفرضوا المكوس والتعاريف الجمركية على التجارة التي تعبر من بلادهم وتقدم لها الحماية والدلالة للوصول إلى مبتغاها وبذلك استطاع الجرهائيون أن يلعبوا دوراً مهماً في التبادل التجاري والنقل البري والبحري فحققوا بذلك عائدات مالية ضخمة.

موقع مدينة الجرهاء

لا تزال التكهنات والآراء المختلفة تحير الباحثين وعلماء الآثار حول تحديد المكان الذي قامت عليه مدينة الجرهاء، ويذكر الرحالة تشيزمان الذي أبدى إهتماما واضحا في البحث عن تلك المدينة المفقودة في كتابه شبه الجزيرة العربية المجهولة أن موقع الخرائب في أبي زهمول بميناء العقير هو تماما موقع الجرهاء الذي أشار إليه بطليموس. وتعد جغرافية سترابو أغنى مصدر معلوماتي عن الجرهاء على الاطلاق. ويرد منها أن المدينة حين ذاك تقع على بعد ٢٤٠٠ استديم (٢٧٦ - ٣٣٦ ميلاً بالاستيديوم اليوناني أو الرماني) من تْريدون. ويذكر سترابو أيضاً أن الكلدانيين المنفيين استوطنوا الجرهاء، وأن المنازل مشيدة «بالحجر الملحي»؛ وأن المدينة بمساحة ٢٠٠ استديم (٢٣ - ٢٨ ميلاً) من البحر، وهذا مثير للتساؤل، لأن سترابو هو الوحيد الذي يقول أن الجرهاء في اليابسة، كما أخبرنا بأن الجرهائيين كانوا يمارسون تجارة البحر بالاضافة إلى تجارة القوافل، وكانت تزين منازلهم المجوهرات، فكانوا أغنياء جداً.

وذكر سترابو عن أرتمدورس : ((وقد اتضح من تحركات السبئيين والجرهائيين انهم كانوا من أغنى الولايات جميعا، وكانت لديهم معدات وأدوات كثيرة من الذهب والفضة مثل الأسرة والحوامل ثلاثية الأرجل والأوعية، فضلا عن أواني الشراب، والمنازل باهظة التكاليف المطعمة أبوابها وأسقفها بالعاج والذهب والفضة، كما شوهدت مجموعة من الفضيات والأحجار الكريمة)).

غير أن الأوصاف التي ذكرها سترابو في جغرافيته ترجح أن موقع ثاج الأثري هو الأقرب لأن يكون الجرهاء المفقودة وليس العقير.

بعض النصوص التي أوردها المؤرخون في وصف مدينة الجرهاء

جاء أول وصف طوبغرافي للجرهاء ضمن فقرة أخرى من معجم سترابو الذي أخذ عن اراتوثينس (٢٧٦-١٩٦ ق.م) على الوجه التالي: ((يستطيع الإنسان أن يصل الى (الجرهاء) بعد مسيرة ٢٤٠٠ ستيديا (٢٥٠ ميل)) على طول ساحل الجزيرة العربية حيث تقع هذه المدينة على خليج عميق ويسكنها الكلدانيون، وكذلك المنفيون من بابل. وبأرض هذه المدينة أملاح كما يعيش الناس في منازل مشيدة من الملح، الأمر الذي يعرض ألواح الملح للذوبان نتيجة لاستمرار الحرارة المحرقة لأشعة الشمس، وبالتالي سقوط هذه المنازل. ويعمد الناس الى رش المنازل بالماء لتظل الجدران متماسكة. وتبعد المدينة ٢٠٠ ستيديا عن ساحل البحر، وكانت تحركات الجرهائيين بطريق البر في معظم الأجزاء وذلك أثناء اشتغالهم بتجارة العطور.

((إن مدينة الجرهاء، بخليجها، يمتد محيطها ٥ أميال، وتضم أبراجا مربعة من كتل الملح. وتوجد منطقة اتنة على بعد ٥٠ ميلا من الساحل وفي الجهة المقابلة لها وعلى نفس البعد من الساحل توجد جزيرة تيروس الشهيرة بلآلئها المتعددة)).

كما ذكر استرابو « Strabo » نقلاً عن المؤرخ اليوناني ارتيمدورس Artemidorus ٢٧٦ -١٩٠ ق.م. المعلومات التاليه: الجرهاء مدينه تقع على ساحل الخليج العربي على بعد ما يقارب ٦٠ ميلاً إلى الغرب من جزيرة دلمون (البحرين). ويسكنها أقوام من الكلدانيين العرب، والمنفييون من بابل وبأرض هذه



مخطط مدينة ثاج

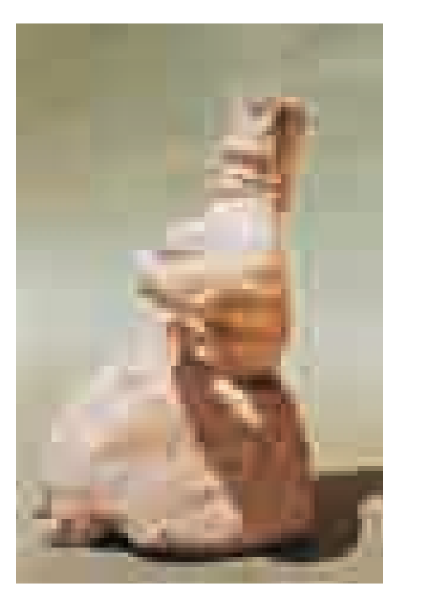
المدينة أملاح "سباخ"، كما كان الناس يعيشون في منازل صنعت من أعمدة وجدران ملحية ويعمد الناس إلى رش هذه الجدران بالماء لتظل هذه الجدران متماسكة وأطلق عليها مدينة الجدران البيضاء. وقال أنهم أغنى العرب يقتنون الرياش الفاخرة ويتمتعون بكل أسباب الرخاء والترف بما في ذلك آنية الذهب والفضة والفرش الثمينة ويجملون جدران منازلهم بالذهب والعاج والجمان والأحجار الكريمة. كما ذكر المؤرخ بليني « Pliny » ٧٩-٢٢م معلومات مشابهه وأضاف أن مدينة الجرهاء بلغت مساحتها ما يقارب الخمسة أميال وأن بها أبراجاً مشيدة من الملح.

وفي هذا السياق نشير إلى أن "ثاج" تقع في شمال شرق المملكة العربية السعودية على بعد ٩٥ كم من ساحل الخليج العربي وعلى أطراف منطقة وادي المياه، حيث تتوافر مياه عذبة وتحتوي على آبار كثيرة، وعلى دروب القوافل البرية المحلية والعالمية (درب الكنهري ودرب الجمل) بين جنوب الجزيرة العربية وجنوب الدولة البابلية مرورا بنجران وقرية الفاو واليمامة وهجر، ولثاج منفذ آخر على الخليج العربي في موقع الدفي الأثري شمال مدينة الجبيل تنقل منه البضائع الى تيلوس أو الى رأس الخليج العربي شمالا وإلى أكاروس ومن ثم الى بابل والفرات الأعلى بأرض العراق واستنادا إلى حجم المدينة المحصنة ومدافنها وفخارياتها ونقوشها الحسائية وعملاتها البرونزية نستطيع القول أنها كانت من أهم المدن البرية في محيط المناطق المجاورة وأحد أقوى المواقع المرشحة لموقع جرهاء.





حُلي من ضريح في ثاج



تمثال أنثوي صغير، ثاج

وتشير المعلومات التاريخية والأثرية إلى أن الاستيطان في منطقة ثاج يعود إلى العصور الحجرية، ولم تحدد الدراسات العصر الذي تنتمي إليه الدلائل التي عثر عليها، كما أن هناك دلائل تشير إلى أن منطقة الخليج والتي تعتبر ثاج جزءاً منها كانت مندمجة تماماً وعلى صلة بالدولة الآشورية المتأخرة والبابلية الحديثة، وكانت ترتبط معها بعلاقات كبيرة أما بالنسبة للفترة اللاحقة والتي تعرف بشكل عام باسم الفترة الإخمينية الممتدة من سقوط الدولة البابلية الثانية وحتى ظهور الإسكندر الأكبر في الشرق عام ٣٣٢ ق.م تقريباً، فالدلائل تشير إلى ان هناك استيطاناً في ثاج نفسها وفي منطقة الخليج بشكل عام وجنوب الجزيرة العربية، فإذا كان الاستيطان في شرق الجزيرة العربية مزدهراً وكان في جنوبها كذلك، فلابد من التقاء الشطرين، والأدلة الأثرية تفيد أن ذلك الالتقاء تم عبر الطرق البرية التي كانت ثاج مركزها الرئيسي في شرق المملكة العربية السعودية.

وازدهر الاستيطان في ثاج خلال الفترة الهللنستية التي تمتد من ظهور الإسكندر الأكبر في الشرق عام ٣٣٢ ق.م تقريباً وحتى القرن الأول الميلادي، ويشار الى ان الاكتشافات التي جرت في ثاج أسفرت عن دلائل كثيرة تتعلّق بهذه الفترة الزمنية وأن ثاج كانت على علاقة وروابط كبيرة مع المراكز الحضارية التي نشأت وازدهرت آنذاك. واستمر الاستيطان خلال الفترة البارثية المتأخرة والساسانية التي تمتد من القرن الأول الميلادي تقريباً وحتى القضاء على الدولة الساسانية عام ٦٤٠ ميلادي، وعثر على دلائل في موقع ثاج والمراكز الحضارية المجاورة لها تؤكد الاستيطان خلال تلك الفترة، وكان لابد لها من التأثير والتأثر، وقد عثر على طرز متشابهة تدل على قيام علاقات بين ثاج وتلك المستوطنات على الخليج العربي أو المراكز التجارية التي استمر الاستيطان فيها خلال تلك الفترة على الطرق التجارية ذات العلاقة بثاج.

وقد شهدت ثاج في العصر الحديث زيارات عدة من قبل المهتمين الذين أشاروا إلى أهميتها، مما شجع الباحثين على القيام بأعمال التنقيب والبحث في موقعها، وذلك لكشف ما تحتويه من آثار بغية تحديد هويتها التاريخية وفتراتها الاستيطانية، ولا تزال المنطقة في حاجة ماسة إلى مزيد من أعمال التنقيب ودراسة المعثورات دراسة علمية دقيقة للوصول إلى نتائج أفضل.

وقد دلت أعمال المسح الذي تم في الموقع على أن السور الأثري يعتبر من أهم الظواهر الأثرية التي يمكن مشاهدتها من على سطح الموقع، ويبلغ مجموع أطواله من الداخل ٥٣٥ م تقريباً، ويتراوح سمك السور ما بين ٤م-٤،٩٥م، وتتصل بالسور بعض الوحدات السكنية من الداخل، ويوجد في كل ركن من أركان السور برج، حيث يمكن ملاحظة البرج الجنوبي الشرقي والبرج الجنوبي الغربي بوضوح، بينما يتعذر ملاحظة البرج الشمالي الشرقي والبرج الشمالي الغربي، والأبراج المشار إليها مبنية من الأحجار وتشترك مع السور من الخارج، ولا يوجد بوابة أو مدخل واضح يمكن تمييزه في أي ضلع من الأضلاع الأربعة، ويمكن ملاحظة الضلع الشمالي للسور الأثري في السبخة، ويوجد في المنطقة داخل السور تلال أثرية يمكن رؤية سطوح جدران وحداتها السكنية بوضوح من على السطح، بالإضافة إلى إمكانية ملاحظة ممرات يتراوح عرضها ما بين ٥-٦م تقريباً، وهي عبارة عن شوارع للمدينة دخل السور الأثري. وفي الجهة الجنوبية والشرقية توجد تلال يمكن رؤية سطوح أساسات وحداتها السكنية بوضوح من على السطح وتمثل قصوراً أو وحدات معمارية تخدم شعائر تعبدية أو اجتماعية.

وعلى بعد حوالي ١كم من ثاج في الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية توجد تلال ركامية ذات قمم مستديرة تنتشر على مساحة كبيرة يمكن مقارنتها بتلال المدافن في كل من الظهران والبحرين.

ويبدو أن سكان ثاج قد امتهنوا صناعة الأواني الفخارية، حيث توحي تلال النفايات التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية والجهة الشرقية خارج السور الأثري بذلك استدلالاً بكميات الرماد الكبيرة ووجود كميات من أجزاء الأواني الفخارية التي تغير شكلها قبل أن تجف أو أثناء شوائها، مما جعل الصانع يستغني عنها ويلقيها في تلك التلال، وهذه الظاهرة تؤكد قيام صناعة للفخار في ثاج وأن هناك أفراناً خاصة بتلك الصناعة، ولعل أعمالاً مستقبلية في الموقع تكشف لنا شيئاً من هذا.

ويوجد في ثاج عدد من الآبار القديمة بعضها داخل السور والبعض الآخر خارجه، بنيت من حجارة مشابهة لأحجار البناء في المنطقة السكنية الواقعة داخل السور الأثري.

الأعمال الميدانية بالموقع

يعتبر العمل الذي قامت به البعثة الدنماركية عام ١٩٦٨م أول الأعمال الميدانية على الإطلاق، وكان هدف البعثة تحديد العمر الزمني للاستيطان في ثاج. وتوصلت البعثة من خلال أعمال التنقيب والدراسة المقارنة

للمخلفات الفخارية إلى إمكانية تمييز فترتين معماريتين على الأقل في الموقع، ورأت أنه من الممكن تأريخ الموقع الفترة مابين ٣٠٠ ق. م حتى ١٠٠ م (Bibby، ١٩٧٣: ١٠-٢٨).

وفي عام ١٩٨٢م قام فريق من الإدارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف بإجراء مسح للبقايا الأثرية على سطح الموقع، وقدم الفريق عدة توصيات من بينها أهمية القيام بأعمال التنقيب في التلال الأثرية داخل السور الأثري وخارجه (إدارة الآثار والمتاحف، ١٩٨٢م : غير منشور).

وبناء على التوصيات التي قدمها فريق المسح عام ١٩٨٢م قامت الإدارة بإجراء أول تنقيبات لها في الموقع عام ١٩٨٣ م بالتعاون مع فريق من ألمانيا الغربية برئاسة دانيال بوتس من جامعة فري، وذلك لتحقيق الهدف الذي سعت البعثة الدنمركية إلى تحقيقه من قبل، ونتج عن ذلك العمل تحديد خمس مراحل استيطانية (قزدر وآخرون، ١٤٠٤ : ٤٩ ـ ٩٥). كما قامت الإدارة بمواصلة أعمال التنقيب عام ١٩٨٤ م ولكن لم تختلف نتائجها عن سابقتها وأرخ الموقع من القرن الخامس ق. م وحتى القرن الرابع الميلادي، كما أعطت نتائج التحليل بواسطة كربون " ١٤ " المشع تواريخ مختلفة أعلاها ٥٦٥ ق.م +، ـ ١٥٠ وأدناها : ١٠٥ ق.م +، ـ ١٦٠ (إسكوبي وأبو العلا، ١٩٨٥ : ٣٧ ـ ٥٣). وهو تاريخ يقتصر على المواضع التي أخذت منها العينات.

ومما تقدم نلاحظ أن الموقع شهد في العصر الحديث زيارات عدة من قبل الرحالة والهواة من المسؤولين الرسميين من الأجانب والعرب الذين أشاروا إلى أهمية ثاج مما شجع الباحثين على القيام بأعمال التنقيب والبحث وذلك لكشف ما تحتويه من آثار بغية تحديد هويتها التاريخية وفتراتها الاستيطانية، ولم تتفق تلك الدراسات في النتيجة، ولا تزال المنطقة في حاجة ماسة إلى مزيد من أعمال التنقيب ودراسة المعثورات دراسة علمية دقيقة للوصول إلى نتائج أفضل.

وفي عام ١٤١٤ هـ قام عوض الزهراني بتنفيذ عدد من المجسات الإختبارية في أماكن مختارة من الموقع لتنفيذ متطلبات الحصول على درجة الماجستير من قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب ونتج عن ذلك وجود مرحلتين استيطانيتين تم تأريخ الأولى بالفترة مابين القرن السادس وحتى القرن الأول قبل الميلاد والثانية بالفترة ما بين القرن الأول وحتى الخامس الميلادي استناداً إلى المعثورات المتنوعة التي عثر عليها.

وفي عام ١٤١٩ هـ قام فريق من وكالة الآثار والمتاحف بإجراء حفرية إنقاذية نتج عنها العثور على مدفن لفتاة ووجد معها بعض التماثيل واللقى الفخارية والحلي وأرخت بفترة القرن الأول والثاني الميلادي.

وواصلت الإدارة عملها في الموقع ونشرت نتائج أعمالها في حولية أطلال بعددها السادس عشر وحتى التاسع عشر على التوالي (الحشاش وآخرون، ١٤٢١هـ ـ ١٤٢٧هـ).

وتدل مساحة المنطقة السكنية الواقعة داخل السور الأثري وخارجه، وكذلك المساحة الكبيرة التي تشغلها تلال المدافن، إلى جانب الآبار الكثيرة على أنه كان هناك تجمع سكاني كبير في ثاج، مما يشير إلى أن سكانه قد امتهنوا إلى جانب التجارة، بعض النشاطات الأخرى، ومنها الزراعة، فقد حفروا بعض الآبار خارج المنطقة السكنية المسورة، خصوصاً في الجهتين الشرقية والجنوبية، وربما استغلت المساحات الموجودة في تلك الجهتين لأغراض الزراعة. ولم يكن النشاط التجاري هو المهنة الوحيدة لسكان ثاج، بل أن بعضهم عمل في الصناعة، كصناعة الأواني الفخارية التي راجت تجارتها في ذلك الوقت. وتمثل المعثورات مزيجاً حضارياً ناتجاً عن تأثيرات الحضارات المجاورة لها، والتي تربطها معها علاقات تجارية، كحضارات جنوب الجزيرة العربية ووسطها، وشمالها الغربي، وجنوبها الشرقي، والحضارة السلوقية، والساسانية وغيرها.

وتشير الدلائل الأثرية، كالعملات والدمي الفخارية والمباخر إلى نواحٍ دينية كانت موجودة في ثاج، تؤكد أن السكان قد تعبدوا للمعبود " شمس " وربما القمر والزهرة، وأنهم قدّموا لها القرابين والهدايا، وحرقوا البخور لها في المعابد، مما يؤكد وجود معابد في ثاج لم يتم الكشف عنها بعد.

الخلاصة

أن الجرهاء مدينة حقيقية وكانت لها أهمية أستراتيجية كنقطة وصل وعبور للقوافل، وكانت تتميز بما يلي:
• كانت المحرك الاقتصادي لمنطقة الخليج العربي حوالي ٣٠٠ سنه قبل الميلاد • كان لها أهميه إستراتيجية قصوى كهمزة وصل للقوافل البرية والبحرية • خبرة وحنكة الجرهائيين بفنون الملاحة البحرية وفهم حركة الرياح الموسمية بوّأتهم منزلة متقدمة في التجارة البحرية مابين الهند وبلاد الرافدين • موقع المدينة وخبرة ساكنوها من الكلدانيين العرب والنازحين من بابل مكّناها من فرض المكوس والتعاريف الجمركية مما زاد في أثراء اقتصادها • موقع ثاج الأثري بالمنطقة الشرقية بالمملكة هو أقرب المواقع لتحديد المكان الذي كان فيه مدينة الجرهاء عاصمة الجرهائيين.

المراجع العربية :

- بوتس، دانيال، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م،
ثاج في ضوء الأبحاث الحديثة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، الأطلال، ٧ : ٦٩-٨٠.
- جروم، ن، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م،
الجرهاء، مدينة مفقودة بالجزيرة العربية، الأطلال، ٦ : ٩٥-١٠٥.
- الحشاش، عبد الحميد وآخرون، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م،
تقرير حفرية ثاج (تل الزاير) لموسم ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، الأطلال، ١٦ : ٣٧-٦٥.
- زارينس، يوريس، ١٩٧٨م،
أواني الحجر الصابوني بمتحف الرياض، الأطلال، ٢ : ٧٥-١٠٩.
- زارينس، يوريس وآخرون، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
تقرير مبدئي عن حفرية جنوب الظهران / المدفن (٢٠٨-٩١)،
الموسم الأول ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، الأطلال، ٨ : ٢٥-٤٤.
- الزهراني، عوض السبالي، ١٤١٦هـ
" ثاج دراسة أثرية ميدانية " كلية الآداب، جامعة الملك سعود، رسالة ماجستير غير منشورة.
- فيدال، ف. س، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م،
العثور على ضريح من عهد الجاهلية في المنطقة الشرقية، المنهل، ١٧ : ٥٤٦-٥٥٣.
- قزدر، محمد صالح وآخرون، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م،
تقرير عن أعمال ونتائج الموسم الأول لحفرية ثاج، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، الأطلال، ٨ : ٤٩-٩٦.
- المغنم، علي وبرونوفروليش، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
تقرير مبدئي عن حفرية جنوب الظهران – الموسم الثاني، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، الأطلال، ٩ : ١١-٣٦.
ـ المغنم، علي،١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م،
جواثى ومسجدهاـ دراسة توثيقية حضارية آثارية، وكالة الاثار والمتاحف، الرياض.
- النعيم، نوره عبد الله، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م،
الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، الرياض : دار الشواف.
- هاشم، سيد أنيس، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م،
الأشكال الفنية الفخارية في ثاج، الرياض : الإدارة العامة للآثار والمتاحف.
- وكالة الآثار والمتاحف، ٢٠٠٣/١٤٢٣م
آثار المنطقة الشرقية، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية، الرياض.

المراجع الاجنبية :

- Beeston , A. F.L. 1979,
Nemara and Faw. BSOAS, 42: 1-6.
- Day , F , E. 1950,
Historcal Notes on the Ain Jawan Pottery. In : R. Leb. Bowen, 1950, PP. 64-67.
- Jamme, A.1966,
Sabaean and Hassaean Inscriptions from Saudi Arabia. SS, 23,
Rome :Universita Di Roma.
- Lapp, P. W. 1963,
Observations on the pottery of thaj. BASOR, 172: 20 -22.
- Morkholm, O. 1979,
New Coin Finds from Failaka : KUML, 1979 : 219-236.
- Morkholm, O. 1981.
New Coin Finds from Failaka : KUML, 1980 : 230- 236.
- Potts, D. T. 1984,
Thaj and the Location of Gerrha, PSAS, 14:78 – 91.
- Potts, D. T. 1990,
The Arabian Gulf in Antiquity, 2 Vols., Oxford: calrendon Press.
- Ryckmans, G. 1950.
Repertoire D›epigraphie Semitique, Vol. VII, Academie des Inscriptions et Belles – Lettres. Paris.
- Zarins, J. etal. 1984,
Excavations at Dhahran South- the Tumuli Field (208-92) 1403/1983; a Preliminary Report. Atlal, 8: 9-25.

مدفن ثـاج

د. كلير ريلر ونبيل الشيخ

اثناء صيف ١٩٩٨، ان فريقاً من علماء الآثار السعوديين ينتمي الى المتحف الإقليمي في الدمام، باشر التنقيب في جُثوة كبيرة، مكوّنة من الرماد والكِسر الفخارية، على تخوم قرية ثاج الحالية، خارج أسوار المدينة القديمة. وسرعان ما ظهرت فتحة في الخندق، فكشفت عن وجود حجرة جنائزية كانت بلاطات غطائها مكسورة. وقد ظن الفريق أن هذا القبر نُهب على غرار معظم القبور الأخرى، فاعترته خيبةُ أمل. لكن العلماء الذين سحبوا قطع البلاطة المكسورة، عثروا على قناع من الذهب اللماع (د. المعرض رقم ٢٣١)، ثم على عقود (د. المعرض رقم ٢٣٤ و٢٣٥) وعلى لآليء من الذهب وتلبيسات من الذهب وقرابين جنائزية أخرى ثمينة.

كانت طفلة صغيرة (تناهز السادسة من عمرها) دُفنت مثل أميرة (صورة ١). فقد سُجّيت على سرير مـأتمي من الخشب، مغطى بغلاف من الرصاص والبرونز، مزين بتزاويق ذات أسلوب متوسطي؛ وانّ أربعةً تماثيل صغيرة لامرأة مصنوعة بأسلوب كلاسيكي (د. المعرض رقم ٢٣٦)، تشكّل أقدامَ هذا السرير. وكانت الطفلة المُمَدّدة على ظهرها محاطة بتلبيسات دائرية من الذهب (د. المعرض رقم ٢٣٧)، حُفرت على بعض منها صورةُ زوش (اله الآلهة عند الاغريق). وعثر علماء الآثار على خاتمين من الذهب، مرصعين بياقوت أحمر محفور. ويظهر على إحداهما جانبٌ من وجه شخص يعتمر خوذة، وقد تكون الآخرى الإلهة أرتميس. يغطي قناع من الذهب يمثل وجها بسيط الملامح، وجهَ الفتاة الصغيرة. وهي تضع في أعلى الرأس، ثلاثَ عُصابات من الذهب، وحول العنق، عقديْن من الذهب، مزينين بالياقوت واللآليء والفيروز (لأحدهما نَوْط يتدلّى منه حجر جَزْعٍ يمثل وجهاً)، وعقداً يتألف من ثماني عشرة حبة لؤلؤ من الذهب. في جانبي رأسها قرطان من الذهب؛ وإلى يسارها، سواران من الذهب المُصْمَت (د. المعرض رقم ٢٣٢) ؛ وعلى صدرها، قُفاز من الذهب (د. المعرض رقم ٢٣٣)، وعلى وسطها حزام من الذهب. وكانت محاطة بما يفوق المائتي زر محدّب من الذهب، بحجمين مختلفين. وعُثر تحت الجثة على ثلاثة آنية معدنية، تشكّل كتلة واحدة متآكلة، وإلى يمين الرأس، على قدح معدني صغير بلا غطاء.

وتدل صورتا زوش وأرتميس، ونماذج زخرفية أخرى، على أن هذا المدفن يرقى إلى حوالى ألفي سنة، أي إلى الحقبة الهلينستية. ففي تلك الحقبة، كان شبه الجزيرة العربية متصلا بالعالم المتوسطي، عبر كبرى الطرق التجارية. وكان بخور جنوب الجزيرة العربية يعبر هذه الطرق التي كان أحدُها يمر بمدينة ثاج. وقد تكون هذه التجارة المزدهرة مصدر الثراء الذي أتاح وضع تُحَفٍ تتسم بهذا القدر من الترف في هذا المدفن.

وكان المثوى مبنيا من كتل كلسية ومغطى بسبع بلاطات، وأرضيته مطلية بالجص الأبيض، ويبلغ طوله ٢,١ مترين وعرضه متراً واحداً وعمقه ١,٢٥ متر، يتجه نحو الشمال الغربي، ورأس الطفلة إلى ناحية الجنوب. وان الـجثوة التي تغطي الـمثوى (ارتفاعها ٥,٧٠ أمتار، وقطرها ٥٥ مترا)، كانت تتألف من الرماد وكسر فخارية وتماثيل صغيرة من الطين المشوي ومجامر مكسورة، وتعـطي الإنطـباع بأنها مشكَّلة من بـقايا الخـزف الآتي من فرن، كما أكـدت ذلك حـفرياتٌ في وقت لاحق.

وأطلق على الموقع اسم تل الزاير، تخليدا لذكرى المدير السابق للمتحف الإقليمي في الدمام وليد الزاير، الذي كان يتولى إدارة التنقيب، وتوفي في حادث سيارة مأسوي، لدى تنفيذها.

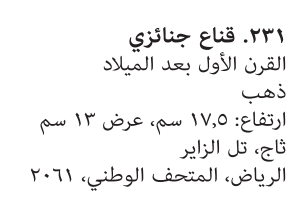
ويؤكد هذا الإكتشاف المميز الإهتمام الكبير الذي أولته العائلة الثرية لهذه الطفلة لدى دفنها. وكانت تلك التقاليد والعادات متأثرة جداً بمعتقدات العالم القديم ورموزه، وذلك حتى في الصحراء العربية.



مدفن ثاج لدى فتحه

مدفن ثاج

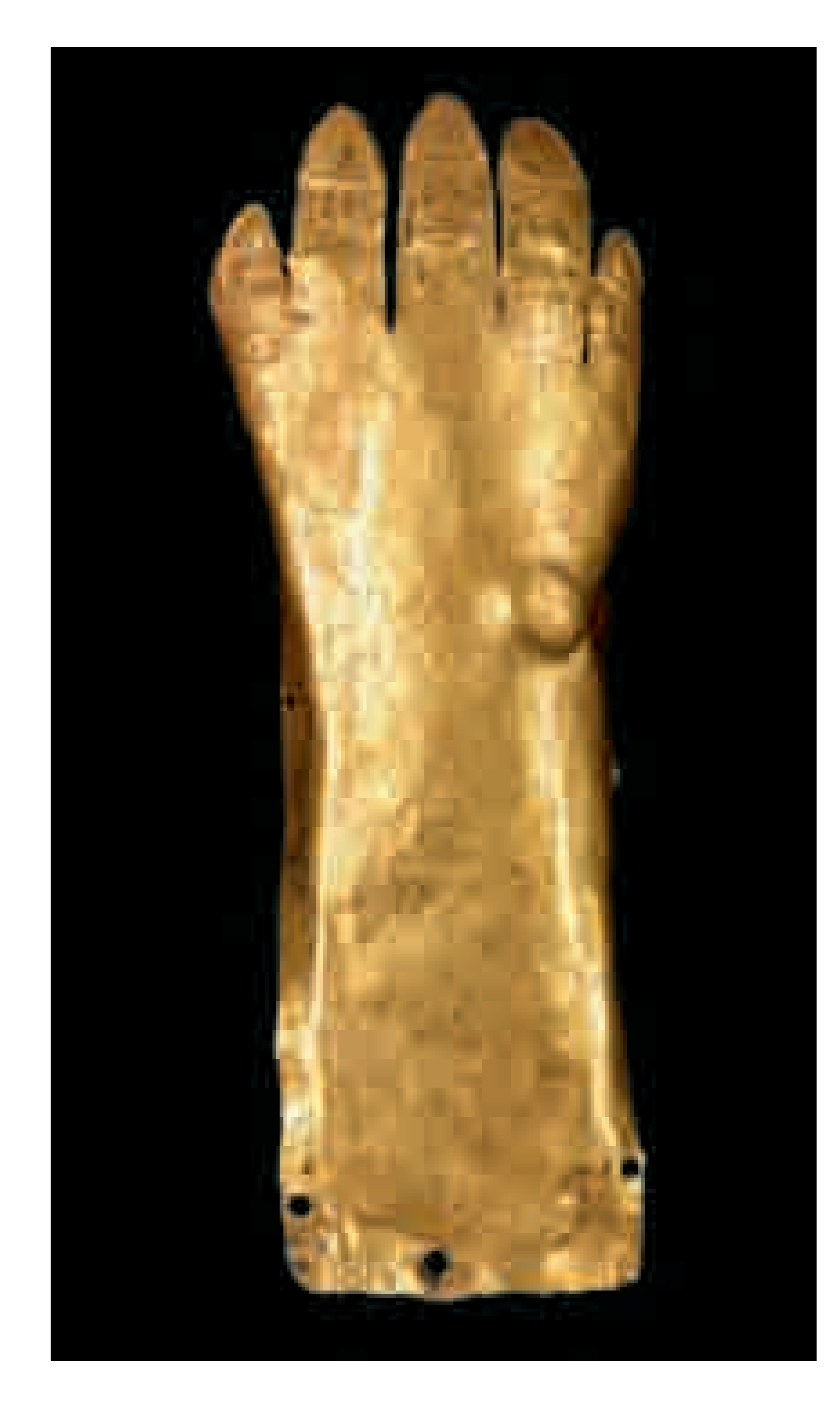




٢٣١. قناع جنائزي
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب
ارتفاع: ١٧,٥ سم، عرض ١٣ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٦١

٢٣٢. أساور
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب
الحد الأدنى للقطر: ٤ سم؛ الحد الأقصى للقطر ٥,٥ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٦٧





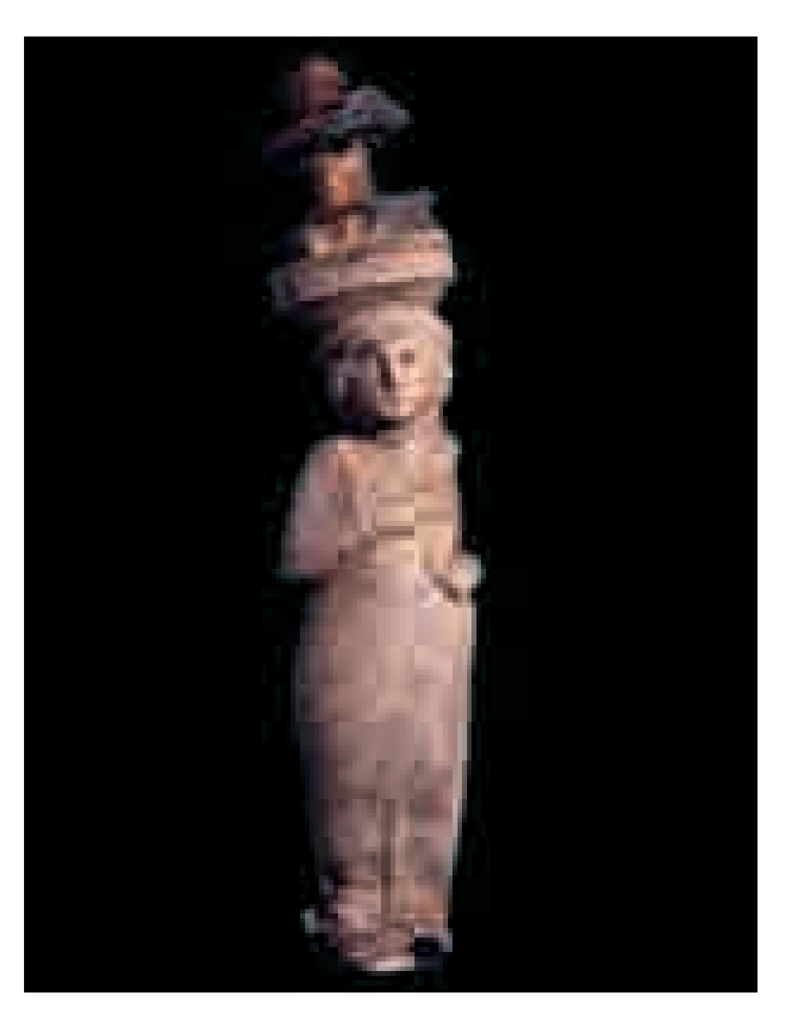
٢٣٣. قفّاز
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب
طول: ١٥ سم؛ عرض ٤,٥ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٦٣



٢٣٤. عقد بشكل نَوْط يتدلّى منه حجر جَزْع
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب ولؤلؤ خالص وياقوت وفيروز
طول: ٣٨,٥ سم؛ قطر قرص: ٥ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٥٩



٢٣٥. عقد
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب ولؤلؤ خالص وياقوت وفيروز
طول: ٢٢,٥ سم
ثاج، تل الزاير
المتحف الوطني، ٢٠٦٢



٢٣٦. قدم سرير آدمية الشكل
القرن الأول بعد الميلاد
قار وحديد ورصاص
ارتفاع: ٤٦ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠٨٨



٢٣٧. تلبيسات كفن أو ثوب
القرن الأول بعد الميلاد
ذهب
قطر: حوالى ٣,٥ سم
ثاج، تل الزاير
الرياض، المتحف الوطني، ٧/٢٥٣٤ و٢/٢٥٣٤

موقع عين جاوان الأثري

د. عبدالله بن سعود السعود

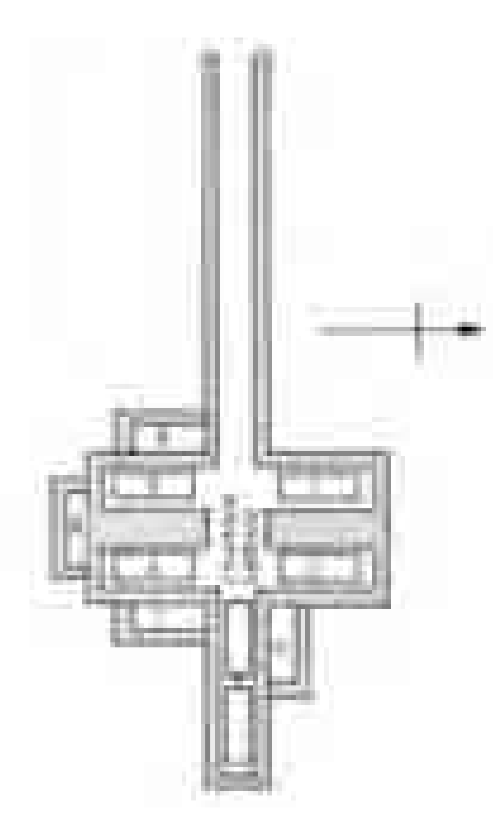
عقد، القرن الثاني بعد الميلاد، قبر عين جاوان
(د. المعرض رقم ٢٣٨)

تقع عين جاوان في الركن الشمالي الغربي من خليج تاروت على مسافة ٣ أكيال عن الساحل أقصى شمال مدينة القطيف، وإلى جنوب شرقي مدينة صفوى بنحو ٦أكيال، بطرف سبخة متصلة بالساحل، غرب مدينة رحيمة (رأس تنورة) على خط طول ٧٧. َ٥٨ ُ٤٩، ودائرة عرض ٤٤١ ُ٢٦. َ٤٢. ويكثر في الموقع الهضاب الصخرية التي تشكل ظاهرة طبيعية ملحوظة ويعد موقع عين جاوان من أكبر المواقع الأثرية في المملكة حيث تقدر مساحته الإجمالية بحوالي ٢٠٠هكتار؛ ونظراً لكبر مساحة الموقع وأهميته بوصفه نقطة قريبة من ساحل البحر يرجح أن الموقع ربما كان مستوطنة بلبانة (Bilbana) التي رسمت في خريطة بطليموس، بينما ذكر الموقع في المصادر العربية باسم الجونين أوالجونان.

يتكون الموقع من مستوطنة أثرية واسعة، يظهر فوق سطحها بقايا رؤوس جدران مبنية بالحجارة الجيرية والطين ومغطاة بطبقة لياسة جصية بيضاء .في حين ينتشر بالموقع سلسلة من المدافن التلالية، وهي مدافن تتسم بصغر حجمها قياساً بمثيلاتها في موقع مدافن الظهران وعين السيح بالمنطقة الشرقية. وتعود قصة اكتشاف الموقع إلى عام ١٩٤٣م إبان الحرب العالمية الثانية حين اتخذت شركة أرامكو السعودية من أراضي الموقع مقلعاً لدفن ساحل ميناء رأس تنورة، وفي أثناء عمل الجرافات عثر العمال على مبان غامضة مدفونة تحت الرمال.

في عام ١٩٤٥م عثرت شركة أرامكو في جاوان على نقش بالخط المسند الجنوبي تكسرت أطرافه بالمعاول قبل معرفته، وقد اتضح بأنه قبر لامرأة يقال لها جشم بنت عمرة (عمره) بن تحيـو من أسـرة عور (آل عور) من قبيلة شدب، وقد أفتتح النقش عبارة (نفس وقبر). وفي عام ١٩٥٠م نشر ليونارد بوين (Leb. Bowen) دراسة عن فخار عين جاوان بعنوان:
The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan. Bulletin of The American Schools of Oriental Resarch, Supplementary Studies، ٧- ٩. ١٩٥٠. وهي دراسة جيدة وتحتوي على معلومات لا تتوفر في غيرها حيث أنها جمعت نتائج الدراسات السابقة عليها في موضع واحد. وهي تشتمل على بحثين مستقلين، أحدهما يتعلق بدراسة تاريخية لفخار موقع جاوان كتبها الباحث فردريك ماتسون F. R. Matson وهو أشهر من كتب في هذا المجال ونشرها بعنوان : . TechnoIogicaI Notes on The Ain Jawan Pottery. In R Leb Bowen ١٩٥٠ , PP . ٥٧ – ٦٣ . أماّ الدراسة الثانية فقد قامت بها الباحثة دايا F E . Daya ونشرتها بعنوان: Historical Notes on Ain Jawan Pottery . In R . ١٩٥٠، PP . ٦٤ – ٦٧ . Leb Bowen وتدور أيضا حول تاريخ المجموعات الفخارية التي عثر عليها بالمنطقة الشرقية بما فيها عين جاوان. والمتمعن في تلك الدراسة يجد أنها الأولى من نوعها بخصوص مادة الفخار من المنطقة الشرقية. ولا تزال الوحيدة فيما يخص مستوطنة عين جاوان وتحتوي على معلومات تاريخية واقتصادية ذات صلة بحركة التجارة في بداية الألف الأولى الميلادية.

في٢٢ مارس عام ١٩٥٢م قامت شركة أرامكو بتكليف عالم الآثار فردريك شمد فيدال بالكشف العملي عن الموقع الذي استمر زهاء ٢٢ شهراً. وقد قام الباحث بالتنقيب في الموقع حيث عثر بطريق المصادفة على مقبرة (ضريح) المعروف حاليا بضريح جاوان، والذي يمكن وصفه كما يلي:


مخطط قبر عين جاوان

المبنى الذي أزيح عنه التراب عبارة عن ضريح يتكون من قاعة كبيرة (أبعادها على وجه التقريب ٢٥× ٧٥ قدما) وفي وسط هذا الضريح قاعة مستطيلة يؤدى إليها ممر طويل من الجهة الغربية. وتفضي هذه القاعة إلى خمس غرف: أحداها في الجهة الشرقية، واثنتان في كل من الجهة الجنوبية والشمالية وهنالك مدفن واحد في كل من الغرف الأربع الأخيرة بينما يوجد في الغرفة الشرقية مدفنان.. وعلى المحيط الخارجي أربعة توابيت أخرى يستند بناؤها على جدار الجزء الرئيسِ من البناء، والضريح مشيد بالحجر الكلسي المحلى المطلي بالحجر من الخارج، أمّا واجهات الجدران من الداخل فتتألف من حجارة كلسية مستطيلة اعتني بقصها واستعمل القليل من الطين في تثبيتها دون أن أي لياسة. أما المدافن الداخلية فقد كانت بادئ الأمر مغطاة بمربعات كلسية مكسوة بالجص. ثم تعاقبت على هذا الغطاء بالتناوب طبقات أخرى من الحجارة الصغيرة والجص بغية اخفاء هذه المدافن. وأما المدافن الخارجية فقد غطيت بمربعات كلسية كسيت بالجص. وقد نهب ما في داخل الضريح وعبث بمحتوياته إلى حد كبير منذ زمن بعيد، ولا يستبعد أن يكون ذلك قد جرى بعد بضع سنوات من إتمامه. إلى ذلك قامت جماعة مجهولة في الفترة ما بين تاريخ الاكتشاف الأخير وبين بدء أعمال الحفر، بهدم طرف الكهف الشرقي وأن كانت لم تسبب ضررا بالغا للبنية الأثرية ولقد كانت أعمال الحفر داخل الضريح محبطة للعزيمة إلى حد كبير وذلك نظراً لما كان عليه الضريح من فوضى. فلقد عثر على عظام ما يقرب من تسعين هيكلا عظميا مبعثرة، وعلى قطع صغيرة من الزجاج والفخار العادي والمصقول، وعلى سكين دقيقة صغيرة من البرونز وعلى عدة خرزات من الزجاج والحجر. ولقد دل داخل الضريح أنه بني ليتسع لستة أشخاص، وأنه كان قد نهب، وأنه استعمل فيما بعد مستودعا لدفن عظام الموتى. وبعض العظام والزجاج كان قد احرق إلا أن البينة التي توفرت لا يمكن الجزم فيما إذا كان ذلك قد تم تمشيا مع الطقوس الدينية أو كان احتراقا عفويا. وجاوان قريبة جداً من البحر وواقعة تحت تأثير حركات المد والجزر الشديدة وحجرها الكلسي مسامي تماما وهكذا فقد كانت الآثار في بيئة رطبة واستلزم ذلك أن يزاح عنها التراب ببطء شديد. وكانت السطوح المبتلة التي يزاح عنها التراب تترك مكشوفة عدة أسابيع لتجف.

ورغبة في معرفة التسلسل الطبقي للرابية وإلى شكل بناء الضريح من الخارج فقد قام الفريق بحفر خندق حول المبنى وأزيح التراب عن التوابيت الأربعة الأخرى دون أي مساس بها. وظلت هذه التوابيت سليمة إلى أن تم حفر الخندق ببلوغ الطبقة الصخرية وقيست جميعاً ورسمت وصورت. ويستنتج من أربطة الأغطية أن المدافن الخارجية تم ختمها في وقت واحد تقريباً مع إتمام الضريح الرئيسِي. ولقد شيدت التوابيت الثلاثة الجنوبية من الصخر وأبعادها واحدة على وجه التقريب. أما الشمالي فقد كان أضيق قليلا كما كان جانب منه منحوتا في الصخر.

وقد حوى التابوت الشمالي هيكل فتاة تبلغ من العمر ٦ سنوات تقريباً، وأما التوابيت الثلاثة الجنوبية فقد حوى كل منها هيكلاً لذكر بالغ، وقد دفنت الجثث الثلاث داخل توابيت من الخشب أغلقت بمسامير حديدية.

وقد تم العثور على بعض من اللقى الأثرية في الأضرحة الأربعة الخارجية كانت على النحو التالي:

- **المدفن الجنوبي الغربي:** كان رأس الهيكل العظمي في الطرف الجنوبي، ومع أن بقايا التابوت الخشبي كانت في حال أمكن معه معرفة شكله العام إلا أن يد البلى كانت قد أصابتها وخلفتها أشبه شيء بالمسحوق الناعم، وأما العظام فقد نالها الكثير من الضرر. والأثر الوحيد الذي عثر عليه كان حلقة ذهبية صغيرة يزين بها الشعر.

- **المدفن الجنوبي:** كان رأس الهيكل في الطرف الغربي، وطرف التابوت العلوي محدب الشكل. والأدوات التي عثر عليها كانت عبارة عن حلقتين ذهبيتين صغيرتين ومتساويتين في الحجم، يزين بهما الشعر، وسيف حديدي في حالة غير جيدة، وهذا السيف عريض يشبه في شكله ورقة الشجر وكان ممددا إلى جانب الهيكل من الجهة اليسرى، أما غمده فكان من الخشب وكان له غطاء من الجلد، وأما مقبضه فكان في الأصل من العاج وثبت بالصمغ الحيواني.

- **المدفن الجنوبي الشرقي:** كان رأس الهيكل في الطرف الشمالي، وكانت إحدى المربعات الحجرية التي تغطي هذا الضريح قد سقطت في الحفرة ونتيجة لذلك فقد كان رفات الميت الذي يرقد فيها أسوأ حالاً من جميع المدفونين. والأثر الوحيد الذي عثر عليه هو سيف حديدي من النوع الطويل الضيق العرض، وقد وجد إلى جانب الهيكل من الناحية اليسرى وكان مكسّراً إلى ثماني قطع، وقد ترك الزمن أثره على هذا السيف فخلف فيه انحناءة ظاهرة إلى الأمام. وأما الغمد فكان من الخشب كما كان له غطاء من الجلد، ويبدو أن المقبض كان قد صنع من الخشب أيضاً، وقد ثبت خشب الغمد وجلده إلى بعضهما بطوق برونزي ضيق.

- **المدفن الشمالي الشرقي:** كان رأس الهيكل في الطرف الغربي، ورغم أن جميع المربعات الحجرية التي كانت تغطي هذا الضريح بقيت في مكانها، إلا أن الضريح عانى الأمرين بسبب رشح الماء الى داخله وما نفذ إليه من الصلصال، ولقد كانت البقايا بكاملها مغطاة بطبقة سمكها ١٢ سم من الصلصال المبلل الثقيل. ووجدت بقايا لتابوت، كما عثر على تمثالين صغيرين كان علو كل منهما ٩ بوصات تقريباً وكان أحدهما مصنوعا من الجص وما تزال عليه بقايا طلاء أحمر، و له قاعدة مربعة. ويمثل هذا التمثال امرأة مرتدية كامل ملابسها، ذراعها اليمنى منحنية عند المرفق ومنطوية فوق صدرها والذراع اليسرى تتدلى في استرخاء على جانب الجسد، أما الرأس فلا وجود له. أما التمثال الثاني فكان من المرمر، وتظهر عليه من آثار طلاء أزرق ولم يحافظ عليه كما ينبغي؛ فالرأس والذراعان والصدر والجزء السفلي من الساقين لم يعثر لها على أثر.


ضريح جاوان

النتائج وتحديد تاريخ بناء الضريح:

لما لم يكن هنالك تسلسل طبقي أو كتابي على درجة معقولة من الوضوح، ونظراً لعدم وجود قطع من العملة أو نقوش من داخل المدافن، فقد اعتمد في الدرجة الأولى على المواد المنشورة ومواد المتاحف والدراسات المقارنة، وعلى ما تكشف على سطح أرض جاوان من ملتقطات سطحية، لتساعد في تحديد تاريخ بناء الضريح وأنه لمن المؤسف أن يكون لصوص القبور القدماء هنا قاموا بنهب محتويات الضريح الرئيسِ فقضوا على أفضل بينة تاريخية. أما أقوى الأدلة التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد تاريخ بناء ضريح جاوان فهي تلك المأخوذة من المواد التي وجدت داخل المدافن.

على أنه يمكن القول أن تاريخ الضريح يعود إلى القرن الأول الميلادي تقريباً، وهناك ما يبرر الافتراض بأن هذا الضريح كان ضريح أسرة ذات شأن دأبت على التجارة وركوب البحار، وربما صيد اللؤلؤ والزراعة أيضاً. ولا شك في أنهم كانوا على اتصال بالهند والعالمين الهلليني والبارثي في الغرب والشمال أيضاً.

وحاليا يعرض جزء من الآثار المكتشفة في المتحف الوطني بالرياض. وهناك العديد من الدراسات التي نشرت عن ضريح عين جاوان منها كتاب للدكتور/ دانيال بوتس (Potts D.) بعنوان « مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية» حيث قام بدراسة عملات عين جاوان مع عملات أخرى من شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وهو تمثال لأفروديت أو فينوس من نوع كان شائعاً جداً في الشرق الأدنى القديم خاصة في العصر الهلينستي. وهنالك تمثال ثالث منحوت من العاج متآكل. وقد عثر في الضريح أيضاً على طاسة برونزية ومرآة تآكلتا تآكلا بالغاً، وقد كشفت الدراسة المجهرية أن المرآة كانت قد حليت بيد عاجية. أما المجوهرات فكانت عبارة عن حلقتين من الذهب فوق الكتف اليسرى ربما كان القصد منهما أن تمسكا العباءة أو ما يشابهها من اللباس، وكذلك أربع حلقات من الذهب يحلى بها الشعر.

وبالإضافة إلى ذلك فقد عثر على طوق مزدوج من العقيق، وعلى طقم أقراط دقيق الصنع يتألف من الأقراط ذاتها والعقيق الذي يرصعها، وحلية على شكل مزهرية تتدلى من سلسلة ومصنوعة من الذهب واللؤلؤ، وسلسلة دقيقة مجدولة تصل القرطين وتنعقد تحت الذقن. وحليت السلسلة بالقرب من نقلة الاتصال ببعض من العقيق يشبه الدمعة في شكله. ولم تحتفظ حبات اللؤلؤ بشكلها إلا أنه أمكن تمييزها بالاستناد إلى المسحوق الأبيض الساقط منها، وقد دل مكان الحبات التي عثر عليها على أن الفتاة كانت تلبس عقداً مصنوعا من أحجار مختلفة؛ العقيق البجادي، والعقيق الأحمر، والحجر الكريم الأزرق، والعقيق اليماني، واللؤلؤ، وبضع حبات ذهبية صغيرة مختلفة الأشكال منها البصلي والحلقي والأسطواني والصولجاني. وبالإضافة إلى الحلي فقد أحتوى الضريح على قطعة من ضلع حيوان ربما استعملت كأداة للتجميل. وهنالك قطع صغيرة جداً من معدن أرجواني اللون يمكن أن تكون فتات خواتم أبلاها الزمن.

- **الفخار:** لقد عثر في الموقع على مجموعات من الفخار المتنوع والمتميز والذي يعود أكثره إلى الفترة الهلينستية منه الفخار المطلي، وغير المطلي، والمزجج، وكذلك الأواني الحجرية.

- **العملات:** تم الكشف عن مجموعة من العملات تعود إلى الفترة الهلينستية، وكلها ملتقطات سطحية، وأغلبها ذات سك محلي بالمنطقة، والبعض منها ممّا كان متداولا في الشرق الأدنى القديم.

- **النقوش:** تم الكشف عن بعض من النقوش الكتابية بالخط المسند الحسائي، ومنها ما كشفه العمال المشتغلون في عام ١٩٤٥م عن نقش جنائزي وقد تكسرت بعض أجزائه وهو دليل قوي على وجود مدافن بالموقع، وكذلك وجد نقش جنائزي آخر تمت قراءته على النحو التالي:

شاهد وقبر غثم بنت
عمرت بن تحيو من
العشيرة عور
من القبيلة شوذب

في عام ١٩٧٧م قام فريق أثري من الإدارة العامة للآثاروالمتاحف السعودية وبمشاركة فريق من جامعة هارفارد الأمريكية بتنفيذ المرحلة الثانية للمسح الأثري الشامل للمنطقة الشرقية، ونتج عن ذلك المسح كتابة تقرير أثري بعنوان: "التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشرقية ١٩٧٧م" نشر في مجلة أطلال، العدد الثاني ١٩٧٨م، ص ص ٧ _ ٢٩. ومن ضمن المناطق التي تم مسحها جاوان وقد أعطي له رقم (٢٠٨-١٢٩).

في عام ١٩٨٤م نشرت السيدة / مارني جولدنج مقالاً بعنوان: «ملتقطات من مستوطنات عصور ما قبل الإسلام بشرق الجزيرة العربية» مجلة أطلال، العدد الثامن - ص ص: ١٥٩ - ١٦٤. وقد أشارت فيها الى عين جاوان وبعض من آثارها.

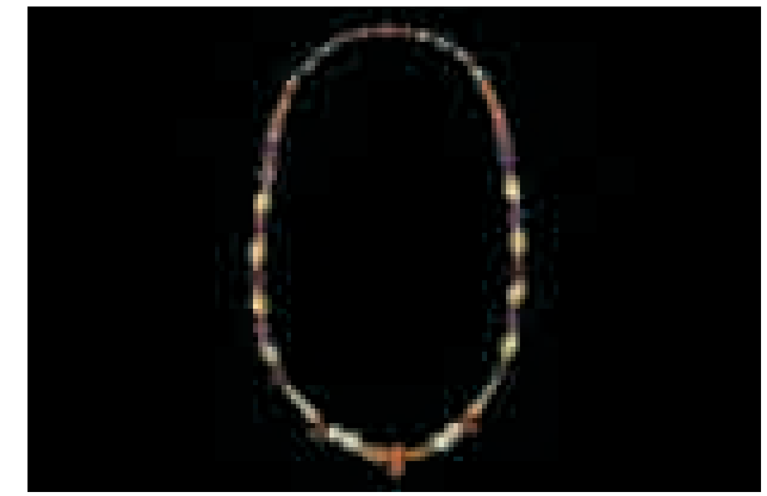
المراجع العربية :

١- بوتس، دانيال «مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية «ترجمة الدكتور : صباح عبود جاسم - ١٩٩٨م.
٢- الجاسر، حمد
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية– المنطقة الشرقية (البحرين قديماً) القسم الأول-، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٣- جولدنج ، مارني
«ملتقطات من مستوطنات عصور ما قبل الإسلام بشرق الجزيرة العربية « مجلة أطلال، العدد الثامن ١٩٨٤م.
٤- المغنم، علي ،وآخرون
التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشرقية عام١٩٧٧م « مجلة أطلال، العدد لثاني، ١٩٧٨ م.

المراجع الاجنبية :

The Early Arabian Necropolis Of Ain Jawan. Bulletin Of The American Schools Of Oriental Resarch, Supplementary Studies, 7- 9. 1950.

قبر عين جاوان



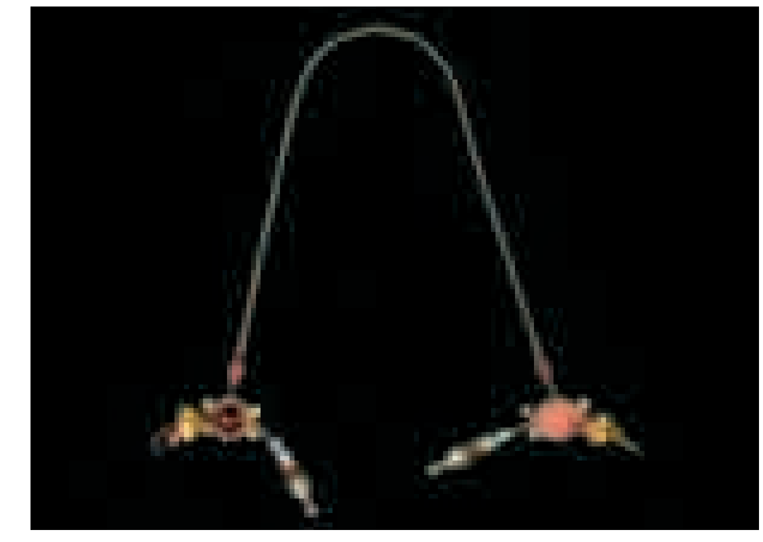
٢٣٨. عقد
القرن الثاني بعد الميلاد
ذهب وعقيق وجَمَست وعقيق أحمر ولؤلؤ
قطر: ٩- ١٥ سم
قبر عين جاوان
الرياض، المتحف الوطني، ١٣٠٩

فهرس: الرشيد، ١٩٧٥، ص. ١٤٣ أسفل. Potts، ١٩٨٤، ص. ٢١-٣٠، ص. ٢٨؛ صورة ١٠.



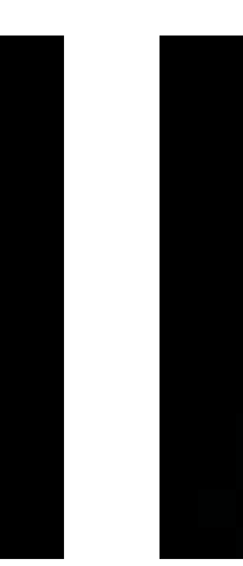
٢٣٩. مـنجَد دائري، حجر كريم صواني على شكل قطرة من الحجر النفيس
القرن الثاني بعد الميلاد
ذهب وحجر
قطر: ٢,٢ سم
قبر عين جاوان
الرياض، المتحف الوطني، ١٣١٢

فهرس: الرشيد، ١٩٧٥، ص. ١٤٣ أسفل؛ Potts، ١٩٨٤، ص. ٢١-٣٠، ص. ٢٨، صورة ١٠.



٢٤٠. حلية الرأس
القرن الثاني بعد الميلاد
ذهب ولؤلؤ وحجر نفيس
طول: ٤١,٥ سم
قبر عين جاوان
الرياض، المتحف الوطني، ١٣١١

فهرس: الرشيد، ١٩٧٥، ص. ١٤٣ أسفل؛ Potts، ١٩٨٤، ص. ٢٨، صورة ١٠.



٢٤١. طوق مجدول
القرن الثاني بعد الميلاد
ذهب
قطر: حوالى ١٢ سم
قبر عين جاوان
الرياض، المتحف الوطني، ١٣١٢

٢٤٢. أقراط
القرن الثاني بعد الميلاد
ذهب
قطر: ١,٥-٤ سم
قبر عين جاوان
الرياض، المتحف الوطني
٢/١٣١٠؛ ٣/١٣١٣؛٢/١٣١٥؛ ٢/١٣١٤؛٢/١٣١٧.



مقدمة
للفترة الإسلامية

الجزيرة العربية والمدن المقدسة

في القرون الوسطى

د. جوليان لوازو

(الصفحتان ٤٠٤-٤٠٥)
وصول المحمل الى مكة المكرمة
تصوير Halldjian، ١٩٠٨

(صفحة اليسار)
خريطة شبه الجزيرة العربية، ابن حوقل، صورة الارض
باريس، المكتبة الفرنسية الوطنية، Arabe، صفحة ٤ v°

جزيرة العرب. هكذا كانت تُسمّى شبهُ الجزيرة المترامية الأطراف، مهدُ الإسلام، في الجغرافيا الإمبراطورية التي وُضعت في دواوين بغداد في القرنين التاسع والعاشر، أو رُسمت طبقاً للمسالك التي تملأ العالمَ الإسلامي. قال الرحالة الفارسي ابن حوقل في مستهل كتابه «المسالك والممالك» (أنجز في العام ٩٨٨م)، « فابتدأتُ بديار العرب لأن القِبلة بها ومكة فيها، وهي أمُّ القرى وبلد العرب وأوطانهم التي لم يُشركهم في سكناها غيرهم». فهي إذاً جزيرة بما أن البحر والصحراء يفصلانها عن بقية أنحاء العالم، لكنهما لا يمنعان الوصول إليها، شرطَ تحديد المسالك المؤدية إليها بعناية فائقة. وقد سُميت جزيرةَ العرب لأنهم وحدهم أفلحوا في جعل إقامتهم فيها دائمة، ولأن من دواعي الافتخار لديهم أنهم بعث رسولَ الله بين ظهرانيهم. وبعد منحها هذا التعريف، تُفهم الجزيرة العربية من دون اليمن، على أنها الأرض التي نشأت عليها الحضارة المستوطِنة الشاخصة نحو المحيط. لكنها تبسُط أراضيها نحو الشمال حتى تلامس، في الشمال الغربي، البلدانَ الغنية لسوريا، وفي الشرقي، وادي الفرات حيث تبدأ أرضُ سواد العراق - إلى ما بعد الحدود التي رسمتها لها غيابيا إتفاقاتُ سايكس- بيكو في العام ١٩١٦م.

طرق العبور

إلا أن عزلة شبه الجزيرة العربية في القرون الوسطى، الملموسة في عالم يشهد تحركا كثيفا شبيها بذلك الذي يشهده عالم الإسلام، ليست عزلةً مطلقة كما يبدو. فالبحر الذي يغمرها من ثلاث جهات، ويأخذ على خرائط الجغرافيين شكلاً مألوفاً هو شكل عصفور، يرسخ وحدتها على إيقاع العالم.

ففي الخليج حيث بلغ ازدهارُ التجارة البحرية الكبيرة مبلغاً متناسقاً مع حجمَ الطلب الضخم الواضح منذ أصبحت بغداد عاصمةَ إمبراطورية في العام ٧٦٢م، لا تستطيع السواحل المقفرة لشبه الجزيرة أن تنافس مرافىء بلاد فارس: سيراف ثم قيس ابتداء من القرن الحادي عشر، وهرمز بعد ثلاثة قرون، التي بسطت سيطرتها آنذاك على سواحل عُمان ثم مرفأ صحار. أما في البحر الأحمر، فإن مرافئ الساحل الغربي للجزيرة العربية (الحجاز) تستفيد من منافع التجارة المزدهرة في المحيط

الهندي، الذي وصله بعدن تجارُ اليمن: من الجنوب إلى الشمال، جدة، مرفأ مكة، الذي لا تستطيع السفن الكبيرة اجتيازه من دون التعرّض للغرق، والجار مرفأ المدينة الذي تربطه سفن متواضعة تُبحر حتى خليجَيْ العقبة وقلزم (السويس). وتتسم العلاقات بكثافتها على جانبَي البحر الأحمر: مع الحبشة التي جاء منها، بقدْر انتشار الإسلام فيها، عددٌ كبير من العبيد ومن معتنقي الدين الإسلامي؛ وبخاصّة مع مصر، التي يُمكن بلوغها خصوصا عبر مرفأ عيذاب الذي تأتي منه الحبوبُ، الضروريةُ جدا التي كان يؤمنها وادي النيل الأعلى لمكة والمدينة. وعلى رغم الأخطار الرهيبة للملاحة، وكان حجاج بيت الله الحرام لدى إبحارهم من عيذاب إلى جدة، يتلون (دعاء البحر) للإمام المغربي الشاذلي (المتوفى في ١٢٦٠م)، كان ركوب البحر للسفر من الحجاز إلى عـُمان أسرع وآمن من مسالك شبه الجزيرة العربية.

ولم تكن هذه المسالك كثيرة العدد، لكنها كانت معروفة جداً. فمحطاتها الواضحة كما يجب خوفاً من ان يتيه المسافرون في الصحراء، لم تتغير بين القرن التاسع، حينما وُضِع مؤلف المسالك والممالك لخدمة موظفي الإمبراطورية، وبين القرن الرابع عشر عندما سلكها الرحالةُ المغربي إبن بطوطة.

ومن العراق، يغادر الطريق الرئيسي وادي الفرات إلى الكوفة ويبلغ المدينة سيراً على الأقدام في غضون عشرين يوما، يمر فيما يناهز الثلاثين محطة: وأبرز تلك المحطات يقع في منتصف الطريق من بغداد إلى مكة، في الفيض، كبرى نواحي نجد الهضبة الكبيرة في وسط شبه الجزيرة التي تتسم بطيب مناخها الرائع، والشهيرة بقلعتها التي كان يقيم فيها بالقرن التاسع «مراقبو الطرق».

لكن من الممكن أيضا التوجه من البصرة إلى المدينة عبر طريق أقصر بقليل. من سوريا، فإن الطريق الرئيسي الذي ينطلق من دمشق، يلج الصحراء من قلعة كيراك ويقود إلى المدينة عبر عشرين محطة، وهو أشد خطورة من محطات طريق العراق، وخصوصا بين تبوك والعلا حيث تذكّر نقوشٌ على الصخور المسافرين بأن آخرين في هذه المواضع قد عانوا من العطش. وينطلق طريق آخر من سوريا إلى الرقة على الفرات، لكن يبدو أن القوافل كانت تسلكه فقط في فترات متقطعة. ومن مصر، فإن الطريق الوحيد للذين يريدون تفادي مخاطر اجتياز البحر الأحمر، يقود مباشرة إلى مكة، بعد أن يغادر القاهرة وتقطعه سيناء ويمتد على طول الساحل ابتداء من العقبة. وتحتاج القافلة إلى خمسة وثلاثين يوما، أو السير حوالي أربع مائة وخمسين ساعة تقريباً من السير على الأقدام، لاجتياز هذا الطريق الطويل المؤلف من ثلاثين محطة، تعتريها المشقاتُ خصوصا بين الأزلم والحوراء حيث غالبا ما تنضب الآبار. لكن نقل البريد على الخيل يحتاج إلى أقل من عشرين يوماً. ومذ رسّخ المقاتلون اللاتينيون في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، أقدامهم في العقبة، وتوقفت القوافل عن سلوك ذلك الطريق، حتى أعيد فتحـُه على إثر حملات سلطان مصر الظاهر بيبرس (١٢٦٠م- ١٢٧٧م). ومن اليمن أخيراً، يقود طريقان إلى مكة: الأول وهو الأطول الذي يستغرق ثلاثين يوما، يسلك من عدن سهل تهامة الساحلي الشاسع، أما الثاني، الأقصر، فيعبر سفوح الجبال.

فهذه المسالك الرئيسية تتجه نحو المدينة ومكة، اللتين تبعد الواحدة منهما عن الأخرى مسير عشرة أيام. ودروب الحج هذه، التي تدأب على سلوكها القوافلُ، والشهيرة بينابيعها المتدفقة، آمنُ على الرغم من مخاطرها من بعضَ الدروب الأخرى المألوفة، كالدرب بين عـُمان والبحرين أو بين البحرين والعراق. وعلى خرائط الجغرافيين الذين يرون في الجبال الهيكل العظمي للأرض و«الإشارة الجلية لمقاصد الله» (أ.ميكل)، فإن الوصف الدقيق للحجاز يـُثبت مكة حتى في وسط شبه الجزيرة باعتبارها عقدة مواصلات تتحكم فيها بالكامل. فالجبال في المملكة العربية السعودية هي الأرض الأولى التي خُلقت، كما يُذكـَر بذلك في جدة قبرُ الجدة حواء وقبرُ آدم على قمة جبل أبي قبيس الذي يشرف على مكة.



الإمبراطورية العباسية في القرن التاسع

هيلين داڤيد (Hélène David)، ٢٠١٠

على أطراف الأمبراطورية

إنّ شبه الجزيرة، مهد الإسلام والفتوحات العربية سُرعان ما انكفأت إلى هوامش التاريخ الذي صنعته. فالمدينة المنوّرة التي كانت العاصمة الأولى، هجرها الولاةُ منذ خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦٥٦م- ٦٦١م) ولا تحتفظ من تفوقها الوجيز سوى بنفوذ مدرسة الفقه الإسلامي فيها. ومكة التي أضرمتها مرة أخيرة ثورةُ ابن الزبير، بات الحجُ مُسوّغ وجودها الوحيد. لكن الحجاز ما زال جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية، وحتى مستهل القرن التاسع الميلادي، كان الخلفاء يقومون بتأدية فريضة الحج ويقودونه شخصيا: فالخليفة العباسي المنصور (٧٥٤م- ٧٧٤م) ذهب إلى الحج خمس مرات، وكان من حسن طالعه أنه تُوفيّ وَوُرِيَ الثرى هناك؛ أما حفيده هارون الرشيد (٧٨٦م- ٨٠٩م) فقد حجَ إلى الأماكن المقدسة تسع مرات. وكان الحجاز الذي تولى حكمـَه رجالٌ ثقات (ولي العهد المفترض أو أحد أشقاء الخليفة)، يستفيد من علاقات منتظمة مع العراق. وأولتْ زبيدة، زوجة هارون الرشيد، الواسعة النفوذ، الحجَّ اهتماماً شخصياً، فخصصت أموالا طائلة للطريق الممتدة من الكوفة إلى المدينة. فأن الأحواضُ الكثيرة لجمع مياه المطر، المتناثرة على طول طريق الحج، كحوض الشقوق الوسيع بحيث يتمكن الحجاج من الاستحمام فيه، قد خلّدت ذكراها حيةً طوال حقبة القرون الوسطى وإلى اليوم.

لكن الجزيرة العربية كانت أرضا ملائمة لكل أنواع التمرد على الخليفة في بغداد، فأمّنت بفضل الصحراء وبـُعـْد المسافة ملاذاً منيعاً. ففي عـُمان، أن الخوارجُ الذين أعلنوا منذ العام ٦٥٧م انشقاقهم باسم إسلام متشدد ينادي بالمساواة، حصلوا على استقلالهم، رُغْم الحملة العباسية في العام ٧٥٢م، وحافظوا عليه طوال أربعة قرون. والشيعة بخاصّة الموجودة في كل صقع تقريباً، على أهبة الاستعداد للمطالبة بحقوق هذا أو ذاك من الذين يمتوّن بصلة إلى ذرية النبي، عبر علي وفاطمة رضي الله عنهما، والمتفرقين في كل أنحاء شبه الجزيرة. في نهاية القرن التاسع، باتت الجزيرة العربية موطناً للشيعة الإسماعيليين الذين ينادون بذرية من الأئمة وقد انتصرت دعوتهم في شمال إفريقيا ومصر، فتمثلت بالفاطميين. وفي البحرين، ترك التمرد الإسماعيلي الذي قام به «القرامطة» بصماتـِه على ساحل الخليج، وابتز قوافل الحجاج الآتية من العراق عندما كان لا يمنعها من المرور. وفي العام ٩٣٠م، قام القرامطة بضربة محكمة فاستولوا على مكة في عز موسم الحج، وتناثر القتلى، واقتلعوا الحجر الأسود الذي لم يـُعِدْه المتمردون إلى موضعه إلا في العام ٩٥١م. وتعطّل الحجُ عشر سنين في المدينة المقدسة.

وتشهد الأحداث المأسوية في الحجاز على اضطرابات واسعة النطاق. فقد تصدعت الإمبراطورية العباسية، واضطرّ الخليفة في بغداد - الذي غالبا ما بات مجرداً من أي سلطة فعلية - بإن يُنيب عنه في الأقاليم ولاةً كانوا على عجلة من أمرهم لإقامة دولهم. وفي العام ٩٣٥م، عهد الخليفة الراضي إلى والي مصر محمد بن طغج مهمة تأمين الحماية لمكة والمدينة. ونجم عن القرار نتائجُ بالغة الأهمية إذ بررته الإستراتيجية للأهراء المصرية في تموين المدينتين المقدستين غير القادرتين وحدهما على تأمين حاجات الحجاج. فقد أسس في الواقع طوال ستة قرون، للدور المحوري لمصر في حماية الحج وادعاءات والي مصر بالسيطرة على الحجاز، والتي سيعيد العثمانيون المطالبة بها في العام ١٥١٧م. وان غزوَ الجيوش الفاطمية مصرَ في العام ٩٦٩م وفّر على الفور للخليفة الإسماعيلي المنافس للخليفة العباسي في بغداد، الفرصةَ لتأكيد ادعاءاته أمام الأمة الإسلامية: فقد باتت الكسوة المزينة باسم الخليفة والتي تـُلبس الكعبة بها خلال مواسم الحج، لا تحمل اللون الأسود الخاص بالعباسيين بل اللون الأبيض الخاص بأتباع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

انغلاق وحكم ذاتي سياسي

أوجد النجاحُ الذي أحرزه الخليفة الفاطمي الشيعي، في شبه الجزيرة العربية، ظروفاً سياسية جديدة أشد تلاؤماً مع مطالب أتباع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، من دون أن يعني ذلك إقامة سلطة مركزية فيها. وشهدت تلك السنوات المضطربة، نشوء إمارات صغيرة تتولى حكمـَها أسرٌ من الأشراف أو من ذرية النبي سواء في مكة (عام ٩٦٨م) وفي المدينة (عام ٩٧٠م تقريبا) وكذلك في نواحٍ أخرى من الحجاز، كينبـُع على سبيل المثال. ففي مكة، إنحدر الأمراء من ذرية الحسن، الابنَ البكر لعلي وفاطمة رضي الله عنهما، ونادوا بإسلام شيعي زيدي نرى نفوذه الواضح في اليمن المجاور.

وفي المدينة، إنحدروا من ذرية الحسين، الشقيق الأصغر للحسن، ونادوا بالشيعة الإمامية التي تميزهم أيضاً عن أنصار الفاطميين في القاهرة. وعلى رغم وصاية مصر في الواقع، بقي أمراء المدينتين المقدستين مستقلين، وُتذكر أسماؤهم في الخطب كل يوم جمعة، إلى جانب اسم الخليفة. ثم أن أفول القوة الفاطمية وتجديد السلطات السنية في كافة أنحاء الشرق ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر، لم يؤثرا على الوجود الرسمي للمذهب الشيعي في مكة والمدينة، وقد امتد هذا الوجود حتى المناداة على الصلاة. وطوال ألف سنة تقريباً، إلى أن ضمّ ابن سعود الحجاز في العام ١٩٢٧م، لن تؤثر الاضطرابات في العالم إلا تأثيرا جانبيا على هذا النظام من الحكم الذاتي المحلي الذي يترجمُ بعبارات سياسية ودينية انغلاق المدينتين المقدستين.

وفي القرون الوسطى، ترافق استمرارُ الإمارات في الحجاز مع اضطراب داخلي كبير، نتيجة الصراعات الدائمة بين الطامحين الكـُثـُر إلى الإمارة – في المدينة، تعاقب ستة وثلاثون شريفاً بين ١٢٤٩م و١٢٩٥م، وقد تولى عدد كبير منهم الحكم مرات عدة- ومع التنافس المزمن بين مكة والمدينة. وفي القرن الثالث عشر، غالباً ما حصلت المدينة المنوّرة على تأييد والي مصر ضد محاولات الهيمنة التي قامت بها مكة بدعم من سلطان اليمن. لكن سلطة أمير المدينة لم يـُعترف بها خارج أسوار المدينة، فيما امتدت سلطة منافسه إلى مدينتي ينبع والطائف المتجاورتين، وإلى مرفأ جدة الغني وإلى جزء من سهل تهامة الساحلي. والعائدات الطائلة التي كان يتمتع بها الأميران، تفسـِّر في آنٍ واحد، صراعاتِ الزمر التي تمزق مدينتيهما وحرصهما على المحافظة على الحكم الذاتي. ومنذ العام ١٠٧٦م، فرض أمير المدينة المنوّرة ضريبة على الحجاج الذين اختاروا القيام في مدينته بـ زيارة الرسول، وهو سلوك تقيّ سيشهد انتشاره ازدياداً في القرون الوسطى. أما نظيره في مكة، ففرض من جهته على الحجاج الآتين من المغرب العربي ومن مصر، ضريبة تؤمن مزيداً

من المكاسب. ويقول الإدريسي (حوالى عام ١١٥٧م) إن الحجاج المتوجهين إلى جدة من مرفأ العذيب المصري، كان يتعين عليهم تقديم الدليل على يـُسرهم وتأمين النفقات. ومنذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي، كانت مسألة إلغاء هذه الضريبة والتعويض عنها، مدار مفاوضات تتجدد من سنة إلى أخرى بين أمير مكة والعاهل الذي كان ينوي، سواء من مصر أو سوريا أو العراق أو اليمن، بَسْط حمايته على الحجاج. والمعروف أن صلاح الدين حصد في العام ١١٧٧م، شهرة واسعة، على غرار الوزير الفاطمي ابن رزيق قبله بسنوات، بإسقاطه المكوس التي كانت تـُفرض على حجاج مصر، لكنها سرعان ما أعيدت.

وتوفرت من حيث الإيراد الضريبي لأمير مكة مواردُ أخرى. يروي التجيبي الذي وصل إلى جدة في العام ١٢٩٧م كيف كان يتعين على كل حاج تسليم السلطات ربع مؤونته من الحبوب، ودفع مكْس على البضائع التي يـُحتمل أن يكون قد جلبها معه، وأخيراً دفعُ رسم آخر حتى يتمكن من استئجار مطية للذهاب إلى مكة. وكان يشهد موسم الحج صفقات تجارية كثيفة تبلغ ذروتها أثناء رمي الجِمار في مـِنى خارج المدينة المقدسة، وهي طريقة على غرار طرق أخرى يعتمدها الحجاجُ لتمويل رحلتهم، مستفيدين من التقاء الناس الآتين من جميع أنحاء العالم الإسلامي فيها. لكن أمير مكة يقتطع خصوصاً حصته من تجارة التوابل التي تمر بجدة، عبر تجار الكريم – موسم الملاحة من حزيران/يونيو إلى تشرين الأول/أكتوبر، بين عدن ومصر.

ورواج هذه التجارة التي درت أرباحاً طائلة في القرن الرابع عشر، وتحولت عن الخليج، فيما كان العراق الخاضع للهيمنة المغولية غارقا في الفوضى، لم يؤدِ إلى إثراء الأشراف فقط. فقد لفت من جديد نظر الدول الكبرى في المنطقة، تمهيداً لمزيد من السيطرة على الحجاز، وساهم في جعل مكة مجدداً موضوع تنافس رمزي من أجل الزعامة على الأمة الإسلامية جمعاء.

الحَرَمان الشريفان زينة الإسلام

لا ينفصل وضع مكة المكرمة عن المدينة المنورة نظراً لكونهما مدينتين للحج. فـ الحرم يحوطه سورُه بعناية وتحميه محظورات تصد عنه العالم الدنيوي: ويحتاج المرءُ إلى مسيرة يوم حتى يـُنهي التجوال في حرم مكة؛ وحرمُ المدينة يبدأ قبل خمسة كيلومترات من أسوار المدينة. وَتقاسَمَ هذا الامتياز موقعان آخران فقط في القرون الوسطى، ولو على مساحات أضيق بالتأكيد، هما القدس والخليل في فلسطين. وعلى سبيل المجاز، فإن قدسَ الأقداس الذي يشغل قلبَ هذين الموقعين يـُسمى أيضا الحرم. فحرم مكة يضم بيت الله، الكعبة، وحرم المدينة الحجرةَ النبوية الشريفة حيث مثوى الرسول. ولقد اتخذ هذان الموقعان المقدسان شكليهما في القرن الثامن الميلادي، ولم يتغير فيهما الشيء الكثير ما عدا التفاصيل، قبل إعادة بنائهما في الخمسينات.

وقد بنى الخليفةُ الأموي الوليد مسجدَ الرسول في المدينة بين ٧٠٧م و٧٠٩م،: فالحرفيون السوريون والمصريون الذين كان القسم الأكبر منهم مسيحيين، كـَسـَوه بالفسيفساء الفخمة، الشبيهة بالفسيفساء التي تزيـِّن حتى اليوم المسجد الأموي في دمشق الذي بـُني تلبية لامر العاهل نفسه. ولم تقاوم تلك الفسيفساء والمنمنمات والنقوش الحريقيـْن اللذين التهما المسجد، في ١٢٥٦م و١٤٨١م، مما استوجب إعادة بنائه كما كان. فحجرة النبي، الصغيرة الحجم، التي تضم أيضا ضريحـَي الخليفتين الأولين، ويخدمها حصرا خصيانٌ أثيوبيون، تحتل واحدة من زوايا قاعة الصلاة: يأتي الحجيج للتبرك بالجثة الطاهرة، قبالة المسمار الفضي بالحائط الذي يدل إلى موضع هامة النبي. وان جمال الدين الإصفهاني، وزير عاهل الموصل، والقيّم على الأماكن المقدسة،

في عام ١١٥٠م، قد حصل على امتيازيْن بعد وفاته: الأول تأدية فريضة الحج إلى مكة بنعش مصنوع من خشب أبواب الكعبة التي أمر باستبدالها، والثاني، دفنه في حرم المدينة، وتتيح له فتحةٌ في ضريحه التأملَ حتى يوم القيامة في حجرة النبي. ويضم المسجد أيضا فضلاً عن كنز الحجرة الذي أثرته هبات المؤمنين الثمينة، مجموعات الفن الإسلامي من كافة أنحاء العالم.

أما مسجد مكة الذي كان فناءً بسيطاً يفصل في الأصل الكعبة عن بيوت المدينة، قد تحول مسجداً بإضافة أروقة إلى جهاته الأربع. وهذا التغييـّر الذي باشره الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بن مروان، وتابعه الخليفة العباسي المنصور، أنجزه ابنـُه الخليفة المهدي بين عامي ٧٧٧م و ٧٨٣م، الذي أمر بتوسيع الحرم بحيث تتوسطه الكعبة. واستـُقدمت من سوريا ومن مصر (معبد أخميم)، أعمدة الرخام وقطع الفسيفساء التي كانت التواقيع عليها مقروءة بعد قرنين. وغالبا ما يكون المسجد الواقع في (بطن مكة) ضحية السيول التي تجتاح المدينة. ويُروى إن الحجاج اضطـُروا في بعض السنوات إلى القيام بالطواف سباحةً. كذلك دائما ما رُمِمّت زينة الكعبة، وتنافس الولاة على تغيير أبوابها المصنوعة من الخشب الثمين المغطى بصفائح الذهب أو الفضة وصُنْـع مفاتيحها. إلا أن هيئة المعبد المكعب لم تتغير منذ ٦٩٣م. فقد احترم القيـِّمون الورعون أمنية الإمام مالك بن أنس (توفي في ٧٩٥م) الذي قال للخليفة المهدي :«أتركوا بيت الله عزّ وجل على ما هو عليه حتى لا يصبح لعبة بيد الملوك والخلفاء، يبني هذا ويهدم هذا فتذهب هيبتـُه من صدور الناس».

لكن الكعبة التي تـُفتح أمام الحجاج في ساعات محددة، أمنت حيـِّزا للمعنى السياسي لا يـُستهان به: فقد عـُلقت عليها سعفٌ زمنَ الفتوحات، كوصية الخليفة هارون الرشيد في وقت لاحق. وابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، عُلق عدد كبير من القرارات على جدرانها أو حـُفرت على أعمدة الأروقة المحيطة باسم أمير الحجاز وغالباً لمحاولة إلغاء المكوس التي فرضتها على مكة السلطاتُ المحلية. وفي العام ١٤٠٠م، التهم حريقٌ الكعبة التي أعيد تصليحها بالوسائل المتواضعة في الحجاز على صعيد معدات البناء.

مـكة الـمكرمة لم تـكن قط مدينة كبيرة- فالـرحالة الإيـطالي لـودوفـيـكو دي فـارتيما (Ludovico di Varthema) الذي زارها في العام ١٥٠٣م قدّر عدد بيوتها بستة آلاف (٣٠ ألف نسمة على الأرجح؟)- وقد أُنشئ فيها بصورة تدريجية، عددٌ كبير من التجهيزات والمؤسسات، لتلبية الحاجات الخاصة بموسم الحج، وتعظيم المنزلة الخاصة لـ مكة المكرمة والإشادة بورع حُماتِها الأسخياء. وأقيم فيها مستشفيان (ماريستان) لمعالجة المرضى، الأول بإيعاز من الخليفة العباسي «المنتصر» في العام ١٢٣١م، والثاني بأمر من شعبان سلطان القاهرة بعد قرن ونصف القرن. ومنذ بداية القرن الحادي عشر، كثر أيضا الرباط لإيواء الحجاج المعوزين، ولاسيما المجاورون الذين يأتون للإقامة الدائمة قرب الحرم. وقد أحصي حوالي الستين رباطاً في أواخر القرن الخامس عشر. والرباط في مكة، الذي غالباً ما يبنيه أثرياء وغالباً النساء، وليس الحكام، يستقبل مواطني مؤسسيه في المقام الأول. فالنظام الداخلي لـ رباط الأبرقوحي الذي بـُني في العام ١٣٦٩ باسم سلطان شيراز لإقامة عشرة ضيوف من إيران، كان ينص صراحةً على استبعاد الحجاج الآتين من الهند. وفي القرن الخامس عشر، وفّر الازدهار الاستثنائي لمرفأ جدة لكبارَ تجار مكة الوسائل للمساهمة بدورهم في استضافة الحجاج.

لكن التنافس الأبرز دارت وقائعه في مجال أخر، أعني المدرسة المخصصة لتدريس العلوم الفقهية والعلوم التابعة، وهي مؤسسة جوهرية لحركة الإصلاح السني التي اجتازت العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر. وتأسيس مدرسة في مكة، على أن تكون قرب جدار الحرم نفسه، هو الوسيلة المضمونة لترسيخ وجاهةٍ... لدى السـُّنة. وفي هذا المجال، كان سلاطين اليمن الرسوليين، ألمع القيّمين على المدن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فيما كانوا يسعون

مشكاة من قيتباي مُهداة الى حرم المدينة
أثينا، متحف Benaki، BE 13040

إلى إقامة إقطاعيتهم في الحجاز: فمن المنصور عمر في العام ١٢٤٣م إلى الأفضل عباس في العام ١٣٦٧م، شيـَّد الأربعة الأُوَل من السلاطين الستة مدارس تحمل أسماءهم في الوسط الرمزي لمكة. وفي القرن الخامس عشر، أسفر بروز قوة حكام الهند الإسلامية وتكثـُّف تجارة التوابل، عن تأسيس ثلاث مدارس: باسم سلاطين البنغال عام ١٤١٠م، وغولبارغا (Gulbarga) (في ديكان Deccan) عام ١٤٢٧م، وكامباي (Cambay) (في غوجارات) عام ١٤٦١. وفي المقابل، كان لافتا غيابُ سلاطين المماليك في القاهرة، الذين بذخوا في بناء مدن مصر وسوريا، حتى أسس السلطان الأشرف قيتباي في العام ١٤٨٠ و١٤٨٤، مدرسة ورباطا في كل واحدة من المدينتين المقدستين. وتوافرت لأقوى حكام الإسلام حجج أخرى للتذرع بها دفاعاً عن الإسلام وإعلاء شأنه: فبالإضافة إلى الجهاد ضد المشركين المغول واللاتين، كان ثمة حماية الحج والسيادة المطلقة على الأماكن المقدسة.



شهادة حج (لفيفة)، في القرن الخامس عشر،
لندن، المكتبة البريطانية، Add. MS 27566

مؤسسة الحج الكبرى

أقيمت مؤسسة اقتصادية حقيقية للحج في القرون الوسطى، تُعنى ببلدان الانطلاق كما بمدن الحجاز، وتستقطب قسماً جوهرياً من نشاط بدو شبه الجزيرة، الذين كانوا في آن معاً، قطّاع طرق ومزودي الحجاج بالمطايا والقوت.

يدوم موسمُ الحج حوالي ثلاثة أشهر من السنة القمرية، ويمكن أن يحل حسب السنوات في الصيف كما في الشتاء، فيما تتركز الاحتفالات الجماعية طوال خمسة أيام فقط، بين الثامن والثاني عشر من شهر ذي الحجة. والضرورة الملحة لتكون فريضة الحج صحيحة، أي الوقوف في اليوم التاسع من الشهر أمام جبل الرحمة في وادي عرفة، تفترض التقيّد الصارم بمواعيد الرحلة. فعادة ما تغادر قافلة مصر بركة الحاج أو جب عمير، شمال القاهرة يوم ١٦ من شهر شوال؛ وابتداء من العام ١٣٤٠م، بات الانطلاق في ٢٤، بحيث لا يصل الحجاج إلا في اليوم الأول من شهر الحج، بعد سفرٍ حوالي خمسة أسابيع، فلا يُضطرون إلى تكبّد نفقات إقامة طويلة في مكة. إلا أن بعض الحجاج كانوا يختارون الانطلاق قبل ثلاثة أشهر، مع قافلة شهر رجب، بحيث يقيمون أطول فترة ممكنة في جوار الحرم، ويؤدون العمرة، إبان شهر رمضان المبارك، ثم يتوجهون أخيراً إلى المدينة المنورّة لزيارة ضريح النبي – عبادة تؤدى أحياناً بعد الحج في طريق العودة.

وكانت أربع قوافل كبرى تنقل الحجاج إلى المدينتين المقدستين: قافلة اليمن التي كان ينضم إليها في عدن الحجاجُ الحبشيون؛ وقافلة العراق التي كانت تضم في الكوفة، بالإضافة إلى الحجاج العراقيين، حجاجَ إيران وآسيا الوسطى؛ وقافلة سوريا التي كانت تجمع في دمشق الحجاجَ السوريين وحجاج الأناضول، وكانت تحل عند الضرورة محل القافلة العراقية عندما كانت تمنعها الاضطرابات في البلاد - سنة كل ثلاث سنوات بين عامي ١٣٣٠م و١٤٣٠م؛ وأخيراً، قافلة مصر التي كانت تجمع في القاهرة الحجاجَ المصريين وحجاج المغرب وتكرور (إفريقيا جنوب الصحراء)، وتلتقي في العقبة قرب البحر الأحمر، قافلةَ غزة وحجاجَ فلسطين. إلا أن الحجاج الذين يتجمعون في قوافلَ، كانوا يحرصون على ملازمة مواطنيهم، في قافلة مميزة:

ففي العام ١٣٢١م شهد الحج على الأرجح أكبر تدفق وازدحام في القرون الوسطى، إذ خيّمت ثلاثون قافلة في اليوم التاسع من الشهر في وادي عرفة. لكن من الصعب معرفة عدد الحجاج بدقة، ما عدا بعض السنوات التي تُعتبر استثنائية. ففي العام ١٢٧٩م، بلغ عدد الحجاج أربعين ألفاً على الأرجح في القافلة المصرية، والعدد نفسه في قافلتي العراق وسوريا مجتمعتين .

إن إقبال الحجاج الذي كان يضاعف على الأقل عدد سكان مكة، يفترض قدرة لوجستية تتجاوز بأشواط الوسائل المتاحة لدى السلطات المحلية. وكانت بعضُ محطات طريق الحج – الأزلم على طريق مصر، وفيض على طريق العراق- مناسبة لأسواق كبيرة يزودها البدو بالمشتقات والمنتجات الحيوانية. وكان تجار سوريون مسيحيون ينزلون إلى العلا التي تبعد مسافة ثلاثة أيام مشياً عن المدينة لبيع بضائعهم. لكن الحج لم يصبح ممكناً إلا بتوريد القمح المصري سنويا الذي يُفرّغ في ميناء ينبع أو يُنقل بواسطة قافلة الحجاج نفسها، التي كان يُضمّ إليها من أجل هذه الغاية مفرزة من مائة جمل. وفي طريق العودة، كانت قافلة تموين تنتظر الحجاج أحياناً في العقبة. وكانت هذه الترتيبات اللوجستية الباهظة التكاليف، تستند إلى مؤسسات خيرية دائمة، أو الأوقاف التي منح حكامُ مصر من خلالها، منذ القرن العاشر، المدينتين المقدستين منتجات الأراضي الزراعية في وادي النيل. وعلى صعيد فردي، أسس عدد كبير من سلاطين مصر كالظاهر برقوق (١٣٨٢م-١٣٩٩م) أوقافاً لتزويد الحجاج المعوزين بكِراء مطية وثمن الماء طوال الرحلة.

محمل وتوابل أو كيف أخضعت الحجاز

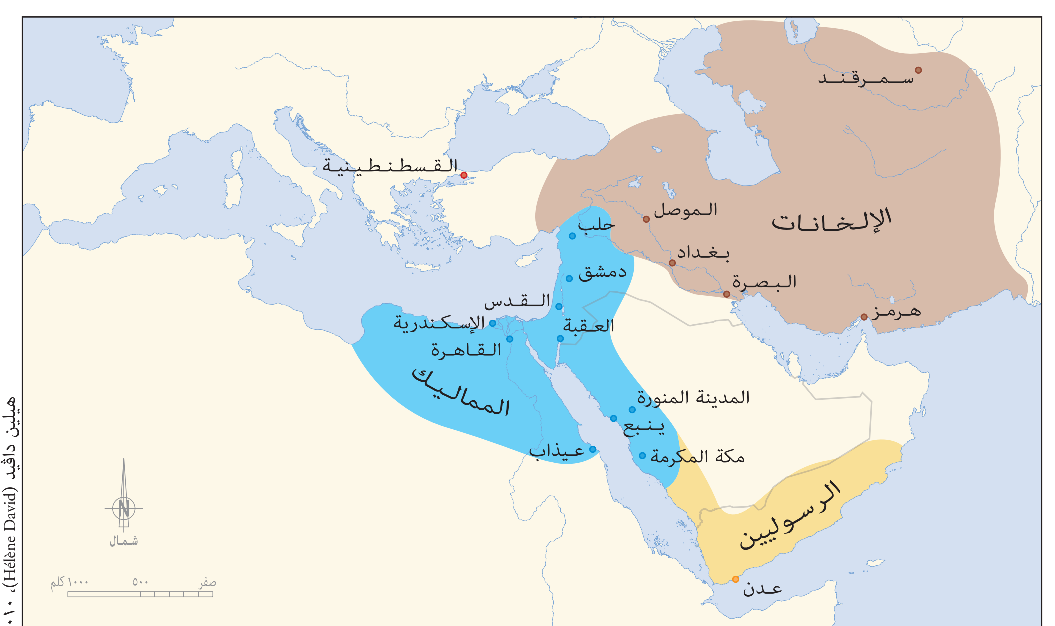
وهكذا أعطت الغلالُ المصرية على هذا الوجه، سيدَ القاهرة وسيلة كبرى للتأثير على شؤون الحجاز. وقد أدرك صلاح الدين ذلك ادراكاً عميقاً فكان أول مَن طالب، في صراع النفوذ الذي كان يخوضه مع الخليفة العباسي الناصر، بلقب خادم الحرمين الشريفين، في مدونة تؤرخ بعام ١١٩١م. وادعى بعضُ ذريته، السلاطينُ الأيوبيون، أنهم حماة أو أصحاب الحرم، لمجابهة طموحات الرسوليين في اليمن، الذين تدخلت جيوشـُهم مراراً في مكة بين عامي ١٢٣٢م و١٢٥٤م. لكن سقوط الخلافة العباسية التي سحقها المغول في بغداد عام ١٢٥٨م، وهزيمة هؤلاء أمام جيوش مصر عام ١٢٦٠م، وأخيرا عودة السلطة الشرعية والدينية للخلافة في القاهرة عام ١٢٦٢م، أعطت السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي باتت سلطته معترفا بها من وادي النيل إلى وادي الفرات، نفوذا لا سابق له. وفي العام ١٢٦٦م، سلـّم بيبرس أميرَ الحج الذي كان يقود القافلة المصرية محـْمَلاً فارغاً متقن التطريز ليتقدم الحجاج حتى وصولهم إلى مكة. وبذلك نشأ تقليد المحمل الذي استمر زهاء سبعة قرون.

وكان المحمل، رمزُ الحماية التي ينوي سلطان القاهرة تقديمها للحج، أداةً لوضع الحجاز تحت الوصاية التدريجية. وكانت القافلة المصرية التي يتقدمها محملٌ ثمين، تنقل في الواقع معها براءةَ التعيين والخـُلعة والعمامة، التي كانت بمثابة تثبيت لشريف مكة ونظيره شريف المدينة في منصبيهما. وكان يتعين عليهما لدى استقبالهما الموكب، لثم خـِف الجمل الذي كان ينقل المحمل، تعبيراً عن الطاعة والخضوع. ونازع دولةَ المماليك في القاهرة أيضاً حتى منتصف القرن الرابع عشر، سلاطينُ اليمن، وبدرجة أقل الحكامُ المغول في العراق، فأرسلوا في بعض السنوات محملهم الخاص وكسوة جديدة للكعبة. لكن سلطان مصر الناصر محمد (١٣١١م- ١٣٤١م)، بات يتولى بنفسه حل نزاعات الخلافة التي كانت تعصف بإمارتـَي الحجاز ولم يتردد في تأدية فريضة الحج بنفسه ثلاث مرات.

وتخطى إلحاقُ الحجاز بالسلطنة المملوكية عتبة حاسمة في القرن الخامس عشر. فمُنِح شريف مكة لقب "نائب السلطان" - الشبيه باللقب الذي كان يحمله الحكامُ المماليك في أقاليم سوريا-، مع سلطة على كافة أنحاء الحجاز، ولكنه كان حبراً على ورق. أما حامل اللقب حسن ابن عجلان فكان أميراً من ١٣٩٥م إلى ١٤٢٦م، وقد تمتع بوضع مكـّنه من التصرف تصرفَ حاكم حقيقي، وساهم أكثر من أيٍ من أسلافه في تحسين مدينته.

لكن القافلة المصرية عام ١٤٢٤م وصلت مع مفرزة من المماليك الذين جاءوا لإقامة حامية دائمة في مكة. وفي السنة نفسها، لم تقبل القاهرة تحويل طريق التوابل – إذ بات أصحابُ السفن الهندية يفضلون إرسال هذه السلع الغذائية الثمينة من مرافئ غرب الهند مباشرة إلى جدة متجنبين مرفأ عدن والضريبة التي كان يفرضها سلاطين اليمن.

وفي العام ١٤٢٥، أرسل السلطان المملوكي برسباي مراقباً مالياً ليجبي ضريبة على البضائع التي تفرغ في ميناء جدة. وكان يعود كل سنة. والوصول الحتمي للقافلة المصرية، ومجيء هذا المندوب الكبير للسلطان الذي كان يضطلع بدور أمير الحج، ووجود حامية نظامية في مكة والمدينة، والرهان الكبير على الضرائب الطائلة التي تجبى من تجارة التوابل في مرفأ جدة، شكلت في القرن الخامس عشر الميلادي أسباباً كافية كي تقوّض الحكم الـذاتي للإشراف على الحـجاز، الذي كان يـعود إلى خمس مائة سنة مضت.



هيلين دافيد (Hélène David)، ٢٠١٠

سلطنة المماليك وجيرانها حوالى ١٣٠٠

خاتمة: شبه الجزيرة تواجه خطر البرتغاليين

إن التسوية التي أرساها سلاطين القاهرة بصعوبة في الحجاز، تناثرت أشلاء في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، حين أنجزت السفن البرتغالية دورتها حول أفريقيا. وهدد البرتغاليون الذين رسوا عام ١٥٠٠م في مضيق باب المندب بقطع تجارة التوابل إلى الأبد، وأيقظوا في النفوس شبح رينو دو شاتيون (Renaud de Châtillon) القائد الحربي الصليبي الذي هتك في العام ١١٨٢م حرمة البحر الأحمر، ونهب مرافىء الحجاز وهدد الحرمين الشريفين. وللمرة الأولى منذ تسلـّم المماليك سدة الحكم في العام ١٢٥٠م، منع السلطان رسمياً عام ١٥٠٦م انطلاق قوافل الحج من القاهرة ومن دمشق، بسبب تمرد أمراء الخليص في ينبع وقبائل البدو في الحجاز. وترنح الحكمُ المملوكي.

وغداة الهزيمة التي مـُني بها الأسطول المصري أمام السفن البرتغالية، قبالة مرفا ديو (Diu) الهندي في العام ١٥٠٩، عمد السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١م- ١٥١٦م) إلى تعزيز الدفاعات الساحلية على البحر الأحمر: فبالإضافة إلى مرفأ تور في سيناء، تولى حمايةَ جدة سورٌ عظيم؛ وأعيد ترميم أو تشييد خانات القوافل المحصنة للمرة الأولى في عجرود والسويس ونخل والعقبة والمويلح والأزلم. وبذلك بات طريق الحج المصري بكامله ينعم بالحماية. لكن البرتغاليين أخفقوا عام ١٥١٣م في الاستيلاء على عدن، فصـُدَّ الخطر فترة وجيزة.

إلا أن الغوري لقي حتفه عام ١٥١٦م في معركة مرج دابق شمال سوريا البعيد عن البحر الأحمر. وان الهيمنة المملوكية في الحجاز، مع رموزها وممارساتها، وقوافل القمح المصري وحماية الحجاج، وإرسال المحمل والكسوة الجديدة للكعبة، سقطت ثمرة ناضجة في يدي السلطان سليم العثماني. وبات شبه الجزيرة العربية ومدينتاها المقدستان، طوال أربعة قرون، واحدة من اللآليء الكثيرة التي تزيـّن تاج سيد اسطنبول.

المصادر والمراجع :
بهرنز، أبو سيف (Behrens-Abouseif)، ١٩٩٩، ص. ١٢٩-١٤٨؛
شارل- دومينيك (Charles-Dominique)، ١٩٩٥؛
غودفروي-ديمومبينز (Gaudefroy-Demombynes)، ١٩٥٤، ص. ٥- ٢١ ؛ الهواري وويت (El-Hawary et Wiet)، ١٩٨٥ ؛
جومييه (Jomier)، ١٩٥٣ ؛ ميكيل (Miquel)، ١٩٦٧-١٩٨٨ ؛
مورتل (Mortel)، ١٩٩١، ص. ٦٣- ٧٨ ؛ مورتل، ١٩٩٨، ص. ٢٩- ٥٠ ؛ فاليه (Vallet)، ٢٠٠٩، ص. ٣٢٥- ٣٢٨.



٢٤٣. نقش بصدد شقّ طريق
٣٠٤ H/٩١٦-٩١٧
حجر البزلت
٥٠ x ٤٤ x ١٠ سم
عـُثر عليه في مهد الذهب (الحجاز)
الرياض، المتحف الوطني، ٨٩٩

فهرس: Miles، ١٩٥٤، ص. ٤٧٧؛ الأنصاري، ١٩٦٩، ص. ٥١ و٥٩؛ الرشيد، ١٩٨٠، ص. ٢٦-٢٧؛ الفعار، ١٩٨٤، ص. ٢٣٦-٢٤٧؛ الهواري وWiet، ١٩٨٥، ص. ٨٠؛ Washington، n,d.، « kufi ٩»

بسم الله الرحمن الرحيم
امر عبد الله
جعفر الامام المقتدر بالله امير
المومنين اطال الله بقاه ابو...
الحسن علي بن عيسى اذ ادام الله عز
ه بعماره طريقي الجاده لحاج بيت الله
لما رجا من جزيل ثواب الله و
حرر؟ على يدي القاضي محمد بن مو
سى اعزه الله وتولاه بز؟
ال.. احمد بن عبد العزيز
ومصعب بن جعفر الزبير
في سنة أربع وثلاثمائه

على غرار النصب الجنائزية من حجر البزلت، حـُفر هذا النقش على كتلة غير سوية وغير مقصّبة، ثم تكيّف معها. وعلى رغم بعض العناصر المؤسلبة (تمديد بعض الحروف وتدويرها، أواخر الكلمات مفتوحة ومائلة، ومدُّ الياء الراجعة، وجعل اللام ألف على شكل قلب)، تـُعتبر الكتابة منتظمة بطريقة لا تتسم بالدقة، والسطر الأساسي للكتابة غير مستقيم استقامة تامة. وهو مع ذلك نقش باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله ووزيره الحسن علي بن عيسى؛ وهو يخلـِّد ذكرى شق طريق للحج، أشرف عليه القاضي محمد بن موسى، وتولاه أحمد ابن عبد العزيز ال {؟} ومصعب بن جعفر الزبير، في سنة ٣٠٤ هجري/٩١٦-٩١٧. وكـُتب التاريخ في السطر الأخير بطريقة مختلفة عن بقية النقش: فقد بدا ابيض اللون على شريط محفور. ويُثبت هذا النص حرص الخلفاء العباسيين على الإهتمام بالطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة وصيانتها.
C. J.



٢٤٤. نقش لاعادة بناء باسم السلطان المملوكي فرج بن برقوق
على الأرجح في عام ٨٠٤ هجري/١٤٠٢
رخام منحوت
٦٢ x ٤٣,٥ x ٢٨,٥ سم
الحرم المكي
الرياض، المتحف الوطني، ٨

فهرس: غير مطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم
امر بعمارة هذا الباب الشريف وثلث الحرم لما احترق في سنة
[...] مولانا السلطان الملك الناصر فرج
ابن السلطان [الملك] الظاهر أبو سعيد برقوق [أعزّ الله أنصاره]
[على يد الراجى عفو ربّه] بيسق أمير اخور [...]

إن أجزاء النص الموضوعة بين قوسين هي عمليات ترميم لفقرات غير مقروءة، بسبب تآكلها الشديد. وعبر الإستعانة بعدد كبير من النقوش المنحوتة على الرخام باسم السلطان فرج والتي كانت موجودة في الحرم، أجرى الترميم في بداية القرن العشرين حسن الهواري[1] (لا يُعرف مكانُ وجودها في الوقت الراهن، ولا يتطابق أي مكان بالضبط على ما يبدو مع هذا المكان). يخلـّد هذا النقش إعادة بناء قسم من الحرم المكي، بأمرٍ من السلطان المـملوكـي فرج (١٣٩٩-١٤١٢) وإشراف القائد الكبـيـر (أمير أخور) بيسق. وهذه واحدة من عمليات الترميم العديدة التي أجريت في الحرم على امتداد قرون. وتفيد المصادر أن الحرم تعرّض في ٨٠٢ هجري/١٤٠٠، لضربتين قاسيتين، أولاهما فيضان خطر، كما كان يحصل له بصورة منتظمة، نظراً إلى موقعه في منخفض وعند ملتقى جَرَيان سيول الجبال المجاورة؛ وبعد بضعة أشهر، اجتاح حريق الجانب الغربي للحرم وجزءاً من جانبه الشمالي، وهذا ما يتناسب مع الإشارة إلى ثلث الحرم المذكور في النقش. وسرعان ما أجريت أعمالُ التصليح بإدارة الأمير بيسق الذي كان يستعد للإنطلاق على رأس قافلة الحجاج المصريين. وانتهت التصليحات في ٨٠٤ هجري/١٤٠٢، باستثناء سقف الأروقة الذي أنجز بعد ثلاث سنوات لدى إرسال الخشب من آسيا الصغرى والطائف.

وان السلاطين المماليك الذين كانوا يتشبثون بامتيازاتهم التي تجعل منهم خـَدَمَة الأماكن المقدسة، حرصوا على ترميمها وزخرفتها. وقليلة هي الآثار الباقية حتى اليوم من أعمال الخير هذه، باستثناء الشمعدانات التي أودعها في وقف حرم المدينة السلطانُ قيتباي (محفوظة اليوم في متحف الفن الإسلامي في القاهرة، وفي متحف بيناكي للفن الإسلامي في إثينا، أنظر صورة ص. ٤١٣)، ومفاتيح مخصصة للكعبة، كالمفتاح المحفوظ في متحف اللوفر، باسم السلطان فرج نفسه (د. المعرض رقم ٣١٣).
C. J.

١. الهواري، وWiet، ١٩٨٥، ص. ١٩٣-١٩٦.

أنظر أيضا الموجز ٣١٣، ص. ٥٦٤



طُرق الحج

الطريق المصرية
الطريق السورية
الطريق العراقية (درب زبيدة)
الطريق اليمنية
طرق أخرى

درب زبيدة :
طريق الحج
من الكوفة إلى مكة

أ. د. سعد بن عبدالعزيز الراشد

مقدمة

مع بزوغ فجر الإسلام في مكة المكرمة، وظهور المدينة المنورة أول عاصمة سياسية ودينية للمسلمين، بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها، بدأت الطرق والمسالك تنمو وتزدهر في مختلف أرجاء جزيرة العرب. فالطرق التجارية التي كانت عامرة في فترة ما قبل الإسلام وترتبط بالحواضر العربية في العراق وبلاد الشام واليمن ومصر والخليج العربي، عاودت ازدهارها بعد انكماشها فترة من الزمن.

وكان لانتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، في مصر والشام والعراق وفارس وشمال إفريقيا، أثره الكبير في ظهور طرق جديدة تربط الحواضر الإسلامية بعضها ببعض من جهة، وتتصل بالمدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة من جهة أخرى، وازدهار الحياة الاقتصادية والعمرانية في عدد من الحواضر والمدن، ومن أهمها جدة و عثّر وصنعاء و زبيد وتعز والبحرين واليمامة.

وفي ظل دولة الإسلام- ومنذ بداية عهدها- أصبح الحج وعلى مر العصور عنصراً أساساً في نهوض طرق التجارة والحج، وأخذ خلفاء الدولة على عواتقهم الاهتمام بتلك الطرق وتعهدها بالإصلاح من النواحي الإدارية والهندسية وتزويدها بالمرافق والخدمات.

وتعد فترة الخلافة الراشدة هي البداية الحقيقية لنهضة الطرق والمسالك في داخل الجزيرة وخارجها. ولعل أهم طريق وأكثرها شهرة وطئته أقدام البشر والدواب هو الطريق الذي سار عليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الطريق الذي يربط بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وبعد فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة الشريفة زادت أهمية الطريق، وتعددت الطرق والمسالك بين المدينتين المقدستين، ومنها الطريق الشرقي والطريق السلطاني والطريق الساحلي. واشتهر منذ صدر الإسلام طريقان رئيسيان يربطان الحجاز وجنوب الجزيرة العربية بمصر والشام وهما : الطريق الساحلي الذي يمتد إلى ساحل أيلة على البحر الأحمر (خليج العقبة) والذي عرف بطريق «المُعْرقة» والطريق البري المسمى «طريق التبوكية» الذي يمر بمنطقة تبوك، وهذا الطريق سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك المشهورة في التاريخ الإسلامي.

وبعد عامين من تولي الصحابي عمر بن الخطاب الخلافة، توجهت جيوش المسلمين إلى العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص، وسلكت الطريق المتجه للحيرة والذي عرف فيما بعد باسم «درب زبيدة». وفي طريقها إلى القادسية توقفت جيوش سعد بن أبي وقاص عدة أشهر في عدد من مناهل المياه والمراعي على هذا الطريق وهي: الثعلبية وزرود والشرف والعذيب ثم القادسية، وزادت شهرة هذه المواضع لاحقا، وأصبحت من المحطات الرئيسية على طريق الحج من العراق إلى مكة.

(صفحة ٤٢٠-٤٢١)
حجاج على الطريق بين جدة ومكة المكرمة.
تصوير محمد علي افندي سعودي، ١٩٠٧-١٩٠٨

(صفحة ٤٢٢)
قصر تبوك وينبوعه، مارس ١٩٠٧.
تصوير P. Jaussen

(صفحة ٤٢٣)
خـريطـة عـامة لـطرُق الـحـج

(صفحة اليسار)
خـريطـة الـطـريـق العـراقـيـة



وقد ضاعف الخلفاء المسلمون اهتمامهم بطرق المواصلات مع بداية تكوين الدولة الإسلامية. فعلى سبيل المثال عندما توجه الخليفة عمر بن الخطاب إلى مكة المكرمة من المدينة قاصدا العمرة في ١٧هـ (٦٣٨م) طلب منه أصحاب المياه – أي الذين يبيعون المياه – أن يأذن لهم بإنشاء استراحات على طول الطريق بين المدينة ومكة، فأذن لهم الخليفة عمر رضي الله عنه، ولكنه اشترط عليهم أن يجد كل من سلك هذا الطريق المأوى المناسب والماء وقال لهم:» ابن السبيل أحق بالظل «. كما اتخذ عمر بن الخطاب دارا بالمدينة وجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه المسافرون، كما وضع عمر بن الخطاب التسهيلات اللازمة على الطريق من المدينة إلى مكة لإمداد المحتاجين بما يحتاجونه من ماء و زاد وراحلة، وغيرهم ممن يطلبون المساعدة في سفرهم.

وهكذا أرسى الخليفة عمر بن الخطاب المفاهيم الأساسية القوية للاهتمام بالطرق وعمارتها والتخفيف من عناء المسافرين والمنقطعين منهم على هذه الطرق أو من الوافدين القادمين من الحواضر الإسلامية إلى مكة والمدينة.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) تحسنت الأحوال الاقتصادية للدولة الإسلامية، وتوسعت حواضرها عمارة وتخطيطا وسكاناً، وأصبحت الطرق المرتبطة بين العواصم والمدن الكبرى أكثر حركة ونشاطاً.

وفي سنة ٢٩ هـ (٦٤٩م) أمر الخليفة عثمان بن عفان بحفر الآبار والعيون والبرك والمنشآت البنائية في عدد من المنازل على امتداد الطريق من البصرة إلى مكة، وغرست أشجار النخيل والحدائق على هذا الطريق. وأمر عثمان بن عفان بحفر العيون وتسبيلها في مدينة فيد التاريخية وهي أشهر محطة على طريق الكوفة إلى مكة المكرمة، وأشرف على هذه الأعمال الهندسية عدد من ذوي الخبرة من الصحابة ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز وأبو موسي الأشعري. و كانت المرأة في ذلك العصر المبكر تخرج في سفرها على دابتها من البصرة وهي تجد الظل والماء والأسواق على امتداد الطريق حتى تصل إلى مكة.

وبقيام الدولة الأموية واتساع رقعة الدولة الإسلامية وظهور حواضر إسلامية جديدة ازداد الاهتمام بالطرق، كما ظهرت طرق جديدة رئيسية وفرعية داخل الجزيرة العربية وخارجها، وتولى خلفاء بني أمية تسهيل تلك الطرق وتعهدها بالرعاية وتوفير المرافق والخدمات عليها، لتمكين الحجاج والتجار وغيرهم من السفر بيسر وسهولة. ويعد عصر الخليفة عبد الملك بن مروان عصراً جديداً في البناء والتشييد والتطوير لمرافق الدولة الإسلامية والاهتمام بالمدن العربية الإسلامية وربطها بطرق مواصلات متطورة مزودة بالمرافق والخدمات كافة.

ولعل الكشف عن أحجار المسافة المكتوبة والنصوص التأسيسية لإنشاء الطرق وإقامة مرافق المياه في فلسطين والشام والجزيرة العربية، في عهد عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من الخلفاء، خير دليل على الازدهار الحضاري لطرق المواصلات، بالإضافة إلى بداية الحركة العمرانية، الدينية والمدنية، في دمشق وبيت المقدس وفي الحرمين الشريفين وفي غيرها من مدن الإسلام.

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك بن مروان الخلافة (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) كتب إلى عمر بن عبد العزيز، واليه على المدينة، يأمره بـ «تسهيل الثنايا و حفر الآبار» بالمدينة، وكتب بذلك أيضاً إلى الولاة في البلدان لتنفيذ هذه الأعمال في ولاياتهم. وهذا يعني أن توجيهات الخليفة الوليد كانت شاملة لكافة أرجاء دولة الخلافة من حيث التركيز والاهتمام بالطرق وتسهيلها وعمارتها.

وسار عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة على نهج الوليد بن عبد الملك في الاهتمام بطرق المواصلات وتوفير الخدمات والمرافق فيها. فقد وجه الولاة بإنشاء الخانات وتوفير الراحة لكل مسافر لمدة يوم وليلة ولمن به علّة، وتوفير الرعاية والراحة للمنقطعين وتقديم الطعام لهم ولدوابهم حتى يصلوا إلى بلدانهم.

ويعد هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) من بين أوائل الخلفاء الأمويين الذين كان لهم اهتمام بإنشاء القصور المزودة بالحدائق الغناء والمياه الوفيرة. ومن أجل راحة المسافرين والحجاج والمعتمرين أنشأ خزانات المياه وحفَرَ القنوات والآبار على امتداد طريق الحج من الشام إلى مكة، واشتهرت منشآته بروعتها وبجمالها الأخاذ، ولا يزال بعضها قائماً حتى اليوم في سوريا وفلسطين والأردن.

وعندما قامت الدولة العباسية، كانت طرق التجارة والحج الرئيسية قد انتظم عقدها، حيث ارتبطت الجزيرة العربية والمدينتان المقدستان (مكة المكرمة والمدينة المنورة) مع باقي الحواضر والأقاليم في العالم الإسلامي. ومن أهم تلك الطرق : طريق الحج من الكوفة • طريق الحج من البصرة • طريق الحج العماني • طريق الحج اليمني الساحلي • طريق الحج اليمني الداخلي • طريق الحج المصري • طريق الحج الشامي.

وتتصل هذه الطرق بعضها ببعض في نقاط رئيسية أو بواسطة طرق فرعية. وقد لقيت هذه الطرق عناية فائقة من الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان والتجار ومن محبي الخير.

وقد أقيمت على تلك الطرق المحطات والمنازل والمرافق الأساسية من برك وآبار وعيون وقنوات وسدود وخانات ومساجد وأسواق وغيرها. وعلى امتداد الطرق بنيت الأعلام والمنارات وحددت عليها الأميال التي توضح المسافات ومسارات تلك الطرق وتفرعاتها. واستمرت هذه الطرق في حالة جيدة من الاستعمال على مر العصور الإسلامية وحتى بداية ظهور وسائل النقل العصرية. واندثرت معالم تلك الطرق تدريجيا بسبب الأحوال المناخية والسياسية والاقتصادية وهجرة السكان من المناطق التي كانت تجتازها تلك الطرق.

وحفظت لنا المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية معلومات مهمة عن هذه الطرق ساعدت الباحثين في تحقيق المواقع الأثرية والمعالم الحضارية الباقية عليها.

وقد شكلت طرق التجارة والحج مصدرا مهما للدراسات الأثرية والحضارية وأثمرت جهود الهيئات والمؤسسات البحثية والباحثين من رصد وتوثيق معالم تلك الطرق وحمايتها والمحافظة عليها.

طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة (درب زبيدة) :

يعتبر طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة من أشهر طرق التجارة والحج على مر العصور الإسلامية. وعرف هذا الطريق واشتهر باسم «درب زبيدة» نسبة إلى زبيدة بنت جعفر زوجة الخليفة هارون الرشيد (توفي سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م). وللسيدة زبيدة أعمال كثيرة في إقامة المنشآت العديدة على هذا الطريق، ومن أهم وأشهر أعمالها الخيرية، حفرها عين زبيدة لتوفير المياه لسكان مكة والمشاعر الحرام ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

وطريق الكوفة - مكة من الطرق المعروفة قبل العصر الإسلامي، حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت عليه مدينة الكوفة في سنة ١٤هـ/٦٣٥م. وكانت القوافل التجارية من مكة والمدينة ووسط الجزيرة العربية تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق. وانتظم استخدام الطريق بعد فتح العراق وانتشار الإسلام في المشرق الإسلامي، وتحولت مناهل المياه وأماكن الرعي والتعدين الواقعة علي امتداد الطريق إلى محطات ومنازل رئيسية للحجاج والمعتمرين وأصحاب التجارات وعابري السبيل. وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلفاء الراشدين وحتى العصر الأموي. وبانتقال مركز الخلافة من العاصمة دمشق في الشام إلى العراق أصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة بغداد والحرمين الشريفين وبقية أنحاء الجزيرة العربية وحتى اليمن ومنها إلى إفريقيا، وبذلك يمتد التواصل بين بلاد المشرق حتى إفريقيا غرباً.

وقد أعطى خلفاء بني العباس جلّ اهتمامهم بتأمين طرق المواصلات في أرجاء دولة الخلافة، ولكن طريق الكوفة – مكة كان يعد من أهم الطرق التي حظيت بعناية خاصة من الخلفاء ومن أشهرهم: أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد. وأضاف من جاء بعدهم من الخلفاء إنشاءات جديدة وصيانة المنشآت القديمة على الطريق بكامل تفرعاته. كما كان للأمراء والوزراء والقادة والوجهاء إصلاحات أخرى كثيرة على الطريق. وسجل المؤرخون المسلمون بعض إصلاحات خلفاء بني العباس،كما رصد الجغرافيون مسار الطريق من بغداد إلى الكوفة ومنه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ورصدوا أيضا المحطات والمنازل التي كانت قائمة في العصور الإسلامية المبكرة، بالإضافة إلى ذكر تفرعات الطريق الأخرى المتجهة إلى مكة أو إلى المدينة، أو تلك التي تربط طريق الكوفة مع طرق أخرى من خارج الجزيرة العربية.

وفي ضوء المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية، نجد أن طريق الحج من العراق (درب زبيدة) خططَ مساره بطريقة علمية وهندسية متقنة، حيث حددت اتجاهاته، وأقيمت على امتداده المحطات والمنازل والاستراحات، ورصفت أرضية الطريق بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة، ونظف الطريق من الجلاميد الصخرية والعوائق في المناطق الوعرة والمرتفعات الجبلية. كما زود الطريق بأسلوب هندسي ونظام دقيق بتوزيع المنشآت المائية من سدود وآبار وبرك وعيون وقنوات. ووضعت على مساره بطريق حسابية موزونة الأعلام والمنارات والأميال (أحجار المسافة) والصوى والمشاعل والمواقد، ليهتدي بها المسافرون ليلاً ونهاراً.

ومن الإشارات المهمة التي وردت في المصادر التاريخية نذكر الآتي:

ففي حوادث سنة ١٣٤هـ/٧٥١م أن أبا العباس السفاح «ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال». وفي العام ١٦١هـ/٧٧٧م أمر المهدي العباسي ببناء قصور على طريق مكة أوسع من القصور التي كان بناها



مَعْلم إرشادي على الطريق العراقية

أبو العباس السفاح في المنطقة الواقعة من الطريق بين القادسية وزبالة. كما أمر المهدي بالإبقاء على المنازل التي أنشأها أبو جعفر المنصور على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا والآبار وعين أحد كبار الشخصيات في بلاط الخلافة ليكون وزيراً ومشرفا على الطريق. وذكرت المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية أعمال الخلفاء والأمراء والوزراء على هذا الطريق، وكان للعديد منهم أملاك وقصور خاصة بهم ينزلونها عند سفرهم إلى مكة والمدينة سواء لحج أو عمرة أو غير ذلك.وعلى سبيل ذلك تذكر المصادر أن الخليفة هارون الرشيد أدى فريضة الحج تسع مرات خلال فترة خلافته (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، وبهذا يكون قد قطع في رحلاته بين بغداد ومكة ما يقارب من (٥٦٩٨ ميلاً) أي حوالي (٩٦٨٦,٦ أكيال)، وكان الرشيد في بعض رحلاته يحج ماشياً. أما الخليفة المأمون الذي كان شغوفا بالعلوم المختلفة وتطويرها فقد وجه المهندسين لوضع قياسات دقيقة للطريق بين بغداد ومكة. وأجرى الخليفة الواثق إصلاحات شاملة للطريق ومرافقه المتعددة ومنها البرك والأحواض والقنوات والأعلام والمواقيد وغيرها. وكان لطريق الحج من الكوفة عمال (ولاة) يشرفون على الطريق ويتعهدونه بالصيانة والإعمار أولاً بأول.

وقد رصد الجغرافيون والرحالة المسلمون محطات الطريق ومنازله بين الكوفة ومكة، فبلغت سبعاً وعشرين محطة رئيسية، وسبعة وعشرين منزلاً (أي محطة ثانوية) وهي محطة استراحة تقام على مسافة محددة بين كل محطتين رئيسيتين، هذا عدا المنازل والمرافق الأخرى المقامة على امتداد الطريق. كما رصد الجغرافيون كذلك المحطات والمنازل على الطرق المتفرعة من الطريق الرئيسي لدرب زبيدة. ويلتقي أحد فروع طريق البصرة مع طريق الكوفة في معدن النقرة، ويتفرع الطريق من ذلك المكان إلى مكة جنوباً أو إلى المدينة غرباً. كما يلتقي طريق الحج البصري الرئيسي مع درب زبيدة بالقرب من مكة المكرمة عند ميقات ذات عرق.

وتجمع المصادر التاريخية والجغرافية المبكرة، أن طريق الكوفة – مكة (درب زبيدة) بلغ أوج ازدهاره في العصر العباسي المبكر، وشعر المسافرون على الطريق والقادمون من أقصى المشرق الإسلامي بالأمن والطمأنينة. ولهذا يقول المؤرخ ابن كثير : «كانت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها». ولكن الطريق وغيره من الطرق الرئيسية والفرعية، تعرض في فترات متعاقبة لهجمات القبائل، وذلك بسبب الخلل في الأمن ولم يكن باستطاعة الحجاج والمسافرين اجتياز الطريق الرئيسي أو أي من فروعه إلا بتوفر رعاية وحماية عسكرية من عاصمة الخلافة. وقد تعطل الطريق بشكل كبير بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ولم يعد الطريق مستخدما إلا في فترات متقطعة. وبالتدريج اندثرت معظم محطات الطريق وتقلصت المحطات والمنازل إلى أطلال دارسة، وبقيت بعض الآبار والبرك صالحة للإستعمال ولكن الغالبية العظمى منها غطتها الرمال مع مرور الزمن.

وعلى الصعيد الأثري، فقد أجرى الدكتور سعد الراشد دراسة موسعة وشاملة لطريق الكوفة – مكة «درب زبيدة»، وشملت الدراسة المواقع الأثرية على الطريق والمنشآت المائية وآثار الرصف والتمهيد ومواقع أعلام الطريق. وتم العثور على عدد من أحجار المسافة (الأميال المكتوبة) التي تحدد المسافات بقياس وحدات (البريد) و(الميل) و(الفرسخ). وعثر على شواهد أثرية توضح إصلاحات الخليفة المهدي العباسي وأعمال الصيانة والتجديد التي تمت في عهد الخليفة المقتدر بالله. وتشكل الأعلام التي لا تزال آثارها باقية دلالة واضحة على تحديد مسار الطريق وفروعه.

وقد بنيت الأعلام بالحجارة على شكل أبراج دائرية في معظمها، وترتفع على سطح الأرض حوالي ثلاثة أمتار، محددة حيث المسافة بين العلم والآخر حوالي الميل (٢ كم تقريباً) وتقترب الأعلام بعضها من بعض في بعض الأماكن بحوالي نصف الميل (١ كم تقريبا)، كما أن الأعلام تزداد بالقرب من المحطات الرئيسية التي تتجمع فيها الطرق أو تتفرع إلى جهات أخرى، أو بالقرب من مواضع الآبار والبرك، ويمكن مشاهدة عشرات الأعلام على امتداد الطريق وقد تساقط البعض منها على أشكال أكوام حجرية.

وكشفت الدراسات وأعمال المسوحات والحفريات الأثرية عن أنماط من القصور والتحصينات والمنازل والمساكن والمساجد في عدد من المواقع الأثرية التي كانت محطات رئيسية على الطريق. وكانت هذه المواقع عبارة عن مدن وقرى تخدم سكان تلك المناطق وقوافل الحجاج والتجارة والمسافرين، ويتوفر لهم فيها ما يحتاجونه من مأكل ومشرب وملبس وأعلاف للدواب، كما أن الكثير منها كانت تشكل أسواقاً عامرة بالمنتجات الزراعية والحيوانية والصناعات المتنوعة.

ومن أشهر المواقع الأثرية والتي كانت تمثل مدنا ومحطات رئيسية كبيرة نذكر:
زبالة، والثعلبية، وفيد، وسميراء، والنقرة، والربذة، ومعدن بني سليم. وأثمرت الكشوفات الأثرية في مدينة فيد التاريخية عن شبكة متطورة من الآبار والعيون والقنوات، والبرك. وفيها مظاهر معمارية متنوعة تتركز في تشييد القصور المحصنة والمنازل والدور والمساجد والطرقات لمدينة عربية كبيرة الحجم. وتم الكشف عن أنماط متنوعة من المعثورات واللقى الأثرية للأواني الفخارية والخزفية والزجاجية والأدوات المعدنية والحجرية والمسكوكات وهذه المكتشفات تتوافق مع المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية والجغرافية وكتابات الرحالة المسلمين عن هذه المدينة التي كانت من أقدم المدن الإسلامية في قلب الجزيرة العربية والتي كانت أيضا تشكل محطة رئيسية في منتصف طريق «درب زبيدة» بين الكوفة ومكة المكرمة.

أما موقع «الربذة» الأثري، فقد أجريت فيه حفريات أثرية شاملة استمرت لأكثر من عشرين عاماً كشفت التنقيبات الأثرية في الموقع عن المسجد الجامع ومسجد المدينة السكنية، ووحدات بنائية للمنازل الكبيرة والقصور، وأسواق ومواقع للتصنيع ومخازن وأحواض وخزانات المياه الأرضية. وتشكل المكتشفات الأثرية في الربذة من القطع والأواني الخزفية والفخارية والزجاجية والمعدنية والحلي وأدوات الزينة والمسكوكات والنقوش، مصدرا مهماً للدارسين والباحثين لكون الربذة واحدة من المدن المبكرة في الإسلام، وكانت الربذة بالإضافة لكونها مدينة ومحطة رئيسية في النقطة التي تحدد ثلث الطريق من الكوفة فقد كانت أيضا حمىً لإبل الصدقة وخيل المسلمين. وقد استمرت الحياة في الربذة من بداية عصر صدر الإسلام وحتى سنة ٣١٩هـ/ ٩١٧م، حيث خربت ورحل عنها أهلها.

وقد أوضحت الدراسات الأثرية أن المنشآت المعمارية على طريق حج الكوفة- مكة تمثل نمطاً معمارياً فريداً للعمارة الإسلامية المبكرة في جزيرة العرب. ويتمثل ذلك في أسلوب التخطيط المعماري والوظائف المختلفة. كما تميزت المباني بسماكة الجدران وأبراج الحماية. وزودت الوحدات البنائية للمنازل والدور السكنية، كما هو الحال في الربذة، بخزانات لحفظ مياه الشرب تحت مستوى أرضيات الغرف والساحات والممرات. كما أن العديد من المحطات كانت تشتمل على الأسواق والحمامات العامة وغير ذلك من المرافق الأخرى.

أما بالنسبة لبرك المياه فقد أوضحت الدراسات التوثيقية أن البرك والأحواض حفرت وبنيت على امتداد الطريق على مسافات متفاوتة ومحددة، بعضها بالقرب من المحطات والمنازل والبعض الآخر في أماكن نائية عنها. ولا تزال معظم تلك البرك واضحة للعيان بمعالمها وتفاصيلها المعمارية الدقيقة وبعضها الآخر قد طمرتها الرمال. وتتنوع مساحات البرك وأشكالها، حيث صمم بعضها بشكل دائري، وبعضها الآخر بني بشكل رباعي ومستطيل التخطيط. وزودت البرك بأحواض ترسيب (مصافٍ)، ودعمت جدران البرك من الداخل بأكتاف نصف دائرية أو نصف مربعة، للحفاظ عليها من ضغط مياه السيول التي تصب بداخلها، كما أن بعض البرك صممت بحيث تكون جدرانها الداخلية مدرجة بكاملها. وزودت البرك بقنوات وسدود، تجلب إليها مياه الإمطار والسيول من الأودية المجاورة لها. ويدل بناء هذه البرك على براعة المسلمين الأوائل في العمارة والخبرة الجيدة في إقامة الإنشاءات المائية.

وبالنسبة لتخطيط مسار طريق «درب زبيدة» وتفرعاته، فقد تمكن المهندسون من تحديد مساراته بشكل مستقيم في معظم أجزائه، ويجتاز أراضي سهلية مستوية ومناطق وعرة وخشنة وصحاري كثيفة مقفرة حتى يصل إلى جبال الحجاز ذات التضاريس الصعبة والتي تخترقها الأودية الضيقة والعميقة. وقد تم تسهيل الطريق بقطع الممرات بين الثنايا والجبال، وتم حماية مسار الطريق بجدران مرتفعة على جانبيه، ووضعت مدرجات عريضة في مواضع الصعود والنزول في المناطق الجبلية الوعرة. وقد برع المهندسون في رسم الطريق بتفادي مساقط السيول الجارفة. وتدل آثار التمهيد والرصف على خبرة المهندسين المسلمين في تحديد الطرق ورسمها بأساليب هندسية دقيقة.

ويصل طول الطريق الرئيسي لدرب زبيدة من الكوفة إلى مكة المكرمة الى حوالى (٧٥١) ميلاً، أي حوالي (١٢٧٦,٧) اكيال، حوالي (١٣٤) ميلاً، حوالي (٢٢٧,٨) اكيال في العراق، وباقي الطريق يمتد في الأراضي السعودية من محطة العقبة شمالاً وحتى مكة المكرمة بمسافة (٦١٧) ميلاً، حوالي (١٠٤٨,٩) اكيال. وتوضح المعثورات الفخارية والخزفية والزجاجية والمسكوكات والكتابات والنقوش مراحل استخدام الطريق على مر العصور الإسلامية. وقد عثر على أعداد كبيرة من النقوش الإسلامية في مواضع متفرقة على امتداد الطريق وفروعه مثل مواقع: الربذة، ومعدن بني سلم، وذات عرق وعلى مشارف مكة المكرمة والمدينة المنورة وفي مناطق الحناكية والصويدرة والسوارقية وحاذة وصفينة. ويمتد تاريخ هذه النقوش المؤرخ منها وغير المؤرخ من القرن الأول حتى القرن الثالث الهجري.

المصادر والمراجع المختارة :

- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، تحقيق محمد عبد العال الحيني، القاهرة، ١٩٦١م.
- إبن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة إبن بطوطة، (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق المنتصر الكتاني، جزءان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- إبن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني، رحلة إبن جبير، (دار التراث)، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- الحربي، إبراهيم بن إسحاق إبراهيم الإمام، كتاب " المناسك" وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، (دار اليمامة)، الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، تحقيق (دي حوية - M.J.De Geoge)، ليدن، ١٨٩٢م.
- الراشد، سعد بن عبد العزيز. درب زبيدة :طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة " دراسة تاريخية وحضارية أثرية"، (دار الوطن للنشر والإعلام)، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ************ الربذة : صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية، (جامعة الملك سعود،الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦.
- ************ دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة، (مؤسسة الحزيمي للتجارة والتوكيلات)، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- المقدسي، محمد ابن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق (دي حوية - M.J.De Goeje)، ليدن، ١٩٠٦م.
- الطبري، أبو محمد محمد بن جرير تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٠ أجزاء، (دارالمعارف)، القاهرة، ١٩٧٩م.
- إبن كثير، أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية، ١٤ جزءا، (مكتبة المعارف)، بيروت (مكتبة النصر)، الرياض، (١٩٧٩-١٩٨٠م).

المصادر غير العربية :

- Al-Rashid, Saad A. The Pilgrim Road from Kufa to Mecca, (Riyad University Libraries), Riyadh, 1980.
- Al-Hawas Fahad," The Archaeological And Architectural Remains of The Ancient City of Faid in The Province of Hail, Saudi Arabia", Ph. D. Thesis, University of Southampton, School of Huminities-Archaeology. October, 2003.

٢٤٥. نـُصبة الأميال
نهاية القرن الثامن ؟
صوّان أو بـَزَلت
٥٠ x ٤٢ x ١٣ سم
درب زبيدة
الرياض، المتحف الوطني، ١٣٥٦

فهرس: الرشيد، ١٩٨٠، رقم ٢، ص. ٣٣٥-٣٣٦؛ الرشيد، ١٩٩٢، ص. ١٣٨-١٤٣؛ Elad، ١٩٩٩، ص. ٣٣-٣٨؛ بيطار، ٢٠٠٣، ص. ٣٦-٣٩؛ «Kufi 1» Washington, n.d.,

ميل من
البريد
وهو على ا
ثنين وستين
بريد من
الكوفة

هذه النـُصبة التي اكتـُشفت على درب زبيدة الشهير – أي طريق الحج الذي كان يربط الكوفة في العراق، بمكة - تؤكد هي أيضا الإهتمام الذي أولاه أوائل الخلفاء العباسيين لشق هذه الطريق وتزويدها بالمنافع والمرافق، وإقامة الأميال (أحجار المسافة) والأعلام عليها. واستخدمه أيضا نظامُ البريد الذي استحدثه معاوية، مؤسس الخلافة الأموية. وتدل هذه النـُصبة على مسافة ٦٢ بريدا من مدينة الكوفة، وكان البريد يـُقدّر بحوالى ٢٠ كلم. وهي تنتمي إلى مجموعة خمسة أنصاب من هذا النوع، مشظاة إلى حدٍ ما. وقد عـُثر عليها على طول درب زبيدة: الأولى منها تذكر الخليفة العباسي، المهدي، وتشير اثنتان إلى مسافة من الكوفة، وأخرى من مكة. أما النـُصبة الأخيرة فقد كشفت النقابَ عنها أعمالُ التنقيب في الربذة. والكتابةُ المزوَّاة ُبخطوط واضحة وعميقة، وشديدة التناسق، والتي تستخدم المَشْقَ، (مدُ الخطوط الأفقية لبعض الأحرف)، تمثـّل شكلا متطورا للنقوش الأموية، كنقوش نصب الأميال في خلافة عبد الملك، المكتشفة في فلسطين، والتي تدل على الطريق من دمشق إلى القدس.

C. J.

قصة اكتشاف الربذة

المدينة الإسلامية المبكرة

أ. د. سعد بن عبد العزيز الراشد

جرة كبيرة مزخرفة تحت طبقة من طلاء الخزف، القرن السابع - العاشر، د. المعرض رقم ٢٤٧

يمكن القول أن الربذة تستحق أن يكتب عنها قصص عديدة، لا قصة واحدة، وقد يكون لدينا المبرر الكافي للتدليل على ذلك، فالربذة ارتبطت تاريخياً بعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وعصر الخلفاء الراشدين، وامتداداً بالفترة الأموية وحتى منتصف الخلافة العباسية. ولم تكن الربذة مجهولة الاسم والموقع في العصر الجاهلي، فقد قال عنها بعض الجغرافيين الأوائل أنها من القرى القديمة في الجاهلية.

وفي العصر الإسلامي اعتبرت الربذة واحدة من أهم المحطات الرئيسية على طريق التجارة والحج، الذي ربط مكة المكرمة والمدينة المنورة بالعراق والمشرق الإسلامي.

واشتهرت الربذة بأنها من أحسن الأماكن الصالحة لرعي الإبل والخيل فكانت منطقة محميَة (حمى) لدولة الإسلام من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ونظّم حماها إدارياً الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرضها تنبت أنواعا من الشجيرات والنباتات، وتبقى خضراء معشبة طوال العام.

وقد أوضحت الدراسات أن الغطاء النباتي في حمى الربذة، يصل إلى أكثر من خمسين نوعا، ومن أنواعه الرمث والحمض والسمر والسلم والسيال والطلح، وهذه الأنواع من النباتات تمد الإبل والخيول بطاقة غذائية عالية ومن أهمها نبات الحمض الذي يغطي سهل الحمى، فقد قيل إنه « إذا عقد البعير شحماً بالربذة سوفر عليه سفرتان لا تنقصان شحمه».

وكان لحمى الربذة ولاة يُعيّنون من قبل الخلفاء أنفسهم، لرعايته وحمايته والمحافظة عليه، والإشراف على دواب الدولة الإسلامية من جمال وخيول، وملاحظة تكاثرها وتدريبها حتى تصبح جاهزة للجهاد.

ونظرا لأهمية موقع الربذة وفضائها الواسع ونقطة تلاقي الأودية والشعاب فيها وملتقى الطرق، فقد شهدت المنطقة نشاطاً كبيراً في عصر الخلفاء الراشدين خاصة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فعسكر بها الخليفة علي بن أبي طالب فترة من الوقت في سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) حينما كان يجمع عدته تمهيدا للسير نحو البصرة، ونهج نفس الشيء الحسن بن علي عندما خرج من مكة المكرمة في طريقه نحو الكوفة سنة ٦٠هـ (٦٧٩م)، وقد نزلها المرقع بن ثمامة الأسدي، الذي كان أحد أعوان الحسين بعد حادثة كربلاء، وبقي فيها حتى وفاة الخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٤هـ (٦٨٣م) حيث غادرها بعد ذلك إلى الكوفة.

ولا يذكر اسم الربذة إلا ويذكر معها الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي اختارها للسكنى في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٠هـ (٦٥١-٦٥٢م)، وعندما قدم إليها أبو ذر، بنى فيها سكنه ومسجده، وخلال إقامته بالربذة كان يتردد على المدينة حسب ما أوصاه به الخليفة عثمان، وقد توفي أبو ذر في الربذة

سنة ٣٢هـ (٦٥٣م)، وتولى أمر غسله والصلاة عليه ودفنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومعه جماعة وصل عددهم زهاء ستة عشر رجلا، كانوا قادمين في قافلة من العراق إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. ويبدو أن وجود أبا ذر الغفاري بالربذة وغيره من الصحابة استهوى الكثير من الناس- رجالا ونساء – لزيارة الربذة إما طلباً لرواية حديث أو التأكد من صحته، أو أخذ المزيد من العلم فيها. فيذكر أن جسرة بنت دجاجة العامرية روت عن أبي ذر سماعاً عن عائشة... وقد اعتمرت نحواً من أربعين عمرة ورأت أبا ذر بالربذة. ولعلنا نؤكد على نقطة مهمة وهي أن نزوح أبي ذر الغفاري إلى الربذة واختيارها سكنا له لم يكونا صدفة، ولم يكن بسبب نفيه من المدينة في عهد عثمان حسب روايات بعض المؤرخين، فقصة إسلامه المبكر تدل على أن أبا ذر الغفاري وقومه من بني غفار، كانوا يسيطرون على ملتقى طرق التجارة إلى الشام، وتذكر الروايات التاريخية أن أبا ذر بعد إسلامه وخروجه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتى إلى المسجد الحرام وصرخ بأعلى صوته انه يشهد أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله، فقام إليه القوم فضربوه فأكب عليه العباس وقال لهم «ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن غفار طريق تجاركم إلى الشام» أو أنه قال: «ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار» ومن الروايات التي تؤكد صلة أبي ذر الغفاري بالربذة أنه كان يحدث بالمسجد النبوي وأنه وقف مرة بباب المسجد يقول «أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الرَّبذي...».

وفي ضوء هذه الروايات وسياق إسلام أبي ذر، نستنتج أن الرّبذة كانت الموطن الأصلي لهذا الصحابي الجليل وقومه من بني غفار، قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم : «غفار غفر الله لها !

وأسلم سالمها الله «وأبو ذر الغفاري أول من حيا النبي بتحية الإسلام وهذا الصحابي هو صاحب القصة المشهورة في غزوة تبوك وما قاله النبي صلى الله عليه وسلم فيه « يرحم الله أبا ذر!

يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». وورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «ما أقلت الغبراء، ولا أضلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر». وقد نكتفي بهذه الإلماحات عن أبي ذر الغفاري ومكانته بين الصحابة وصلته بالربذة.

ولعلنا نشير أيضا إلى أن الربذة سكنها عدد من الشخصيات التاريخية وبعضهم مات فيها، ومنهم عتبة بن غزوان الذي اختط البصرة زمن عمر بن الخطاب، فقد مات بالربذة سنة ١٧هـ والصحابي محمد بن مسلمة ابن سلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة، أحد من شهد معركة بدر وباقي المواقع الحربية، فقد اعتزل الفتنة زمن عثمان بن عفان وسكن الربذة بضع سنين ومات بالمدينة سنة ٤٣هـ وممن سكن الربذة الصحابي سلمة بن الأكوع الذي تزوج فيها وأنجب أولاداً وتوفي بالمدينة سنة ٧٤هـ ويُنسب إلى الربذة عدد من رواة الحديث ومنهم من استهوى السكنى فيها، ومن هؤلاء على سبيل المثال موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي وأخواه محمد وعبد الله، وقد توفي موسى ودفن بالربذة سنة ١٥٣هـ وكان إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير بن العوام يأتي الربذة كثيرا ويقيم فيها ويتّجر بها، وقد توفي إبراهيم بالمدينة المنورة سنة ٢٣٠هـ أما يحيى بن أكثم، قاضي القضاة زمن الخليفة المتوكل، فقد توفي بالربذة سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م)، وقد أشارت المصادر إلى أن عالم النحو الشهير يحيى بن زياد المعروف بالفراء، مات في طريق مكة (أو في طريق الحج) سنة ٢٠٧هـ وقد بينت مجموعة النقوش المنحوتة على واجهة صخرية في جبل سنام القريب من الربذة أنّ اسم يحيى بن زياد يتكرر في تلك النقوش. والفرّاء هو صاحب المقولة الشهيرة « أموت وفي نفسي شيء من حتى».

وكانت الربذة من الأماكن المحببة لنفوس الأمراء والخلفاء من بني العباس للاستراحة والإقامة فيها، ومن هؤلاء أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد. وقد أجرى أولئك الكثير من الإصلاحات والمشاريع الخيرية على طرق الحج بين العراق والحرمين الشريفين، وحذا حذوهم في تقديم الأعمال الخيرية، الأمراء والوزراء والقادة والتجار. وكان لسيدات البلاط العباسي أعمال مماثلة وفي مقدمتهن السيدة زبيدة بنت جعفر، زوجة الخليفة هارون الرشيد، التي بذلت العطاء وأنفقت الأموال في سبيل بناء المنازل والدور، وحفر الآبار وتشييد البرك على امتداد طريق الحج، وبذلك عرف باسم «درب زبيدة»، وختمت السيدة زبيدة أعمالها الجليلة بعمارة «عين زبيدة» خدمة لحجاج بيت الله الحرام والمعتمرين والسكان على حد سواء، ولا تزال آثار عيون زبيدة، بخرزاتها وقنواتها المحفورة في باطن الأرض أوالمبنية على حواف الجبال، باقية حتى اليوم.



منظر جوي عام للموقع، أثناء الحفريات

وفي ضوء المعلومات المتناثرة عند الجغرافيين والرحالة المسلمين عن الربذة، أنها كانت من أحسن المنازل على طريق الحج. وقد بلغت الربذة مجدها في العصر العباسي المبكر، عندما حج الخليفة هارون الرشيد تسع مرات خلال فترة خلافته، (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، وكان يصل إليها عبر طريق يربط الربذة بالمدينة المنورة مباشرة، وفي ذلك الوقت كانت القافلة الواحدة للحجاج القادمين من العراق والمشرق الإسلامي تصل إلى أكثر من عشرين ألف من الجمال، وكان الحجاج يقصدون مكة أفراداً أوجماعات، وكان هارون الرشيد عندما يحج يشايعه في طريقه الوزراء والقواد وأمراء الأجناد والعلماء والفقهاء والجنود والعساكر، وكانت أخبار الأمصار والبلدان تأتيه، في كل منزل ينزله، على النجائب من مسيرة ثمانية أيام ويأتيه الجواب من يومه من مسيرة شهر ونحوه على أجنحة الحمام.

وفي تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الإسلام كان طريق الحج (درب زبيدة) ومحطاته ومنازله واستراحاته يشهد حركة بشرية نشطة لاتنقطع، وتزداد في مواسم الحج، وشكل الطريق شرياناً حيوياً ومورداً اقتصادياً للبادية والحاضرة والمستقرين في البلدات والقرى البعيدة والقريبة، فقد كانوا يجلبون مصنوعاتهم اليدوية ومنتجاتهم الزراعية والأعلاف والخيول والدواب لمقايضتها أو بيعها على الحجاج والتجار على حد سواء. وكانت الربذة واحدة من أهم البلدات على طريق الحج خاصة وأن حمى الربذة بعد عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨- ١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) لم يعد مقتصرا على إبل وخيل الدولة الإسلامية، بل أصبح مشاعاً بين الناس لرعي دوابهم. ولعل أهم ما كان يحتاجه آلاف الحجاج والمسافرين والمقيمين هو الماء، عصب الحياة، للإنسان والحيوان والنبات، فكانت الربذة تشكل مستودعا لحفظ المياه، بسبب المرافق المائية المتوفرة فيها من آبار وبرك، وخزانات المياه التي أسست داخل منازل الربذة والتي بينتها أعمال الحفائر الأثرية.

إن الأحوال المعيشية في وسط الجزيرة العربية والحجاز، بدأت تتغير للأسوأ بسبب الفتن التي تسارعت على الدولة العباسية و خروج الفرق والطوائف على سلطة الدولة وتمرد بعض القبائل. فقد ثار عدد من القبائل في وسط الجزيرة، بسبب عوامل اقتصادية ومطامع للسلطة، فأدت تلك الفتن إلى زعزعة الأمن والاستقرار، وإلحاق الأذى والقتل للحجاج من نساء ورجال وأطفال وشيوخ وقتل للدواب، وتخريب المنشئات المائية، وإرباك قوافل الحجيج من الوصول إلى الحرمين الشريفين وتعطيل فريضة الحج. وبالرغم من جهود خلفاء بني العباس في بسط سلطة الدولة وإعادة الطمأنينة والإستقرار للحرمين الشريفين، إلا أن فتن القبائل ظلت مستمرة في فترات متقطعة على مدى قرون. وفي هذا الخضم من الإرباك الذي كانت تحدثه القبائل برزت فتنة كبرى كادت أن تقوض أركان

الخلافة العباسية، وهي فتنة القرامطة التي ظهرت مع نهاية القرن الثالث الهجري (بداية العاشر الميلادي) فقد سيطر القرامطة على مناطق شاسعة في شرق وشمال الجزيرة العربية، وكانت هجماتهم على محطات ومنازل طريق الحج تتسم بالشراسة وعدم الرحمة بالإنسان والحيوان، فقد كانوا ينفذون حملات خاطفة على قوافل الحجيج، فيأخذون أحمال البضائع الثمينة، وأمتعة الحجاج والأرزاق وخزائن الخلافة، وفي كل حادثة يقدمون عليها يقومون بقتل الحجاج دون رحمة أو شفقة ويتتبعون الناجين منهم فيجهزون عليهم وفي أحيان كثيرة يتركون الحجاج على أوضاعهم ليلقوا مصيرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس وتتصيدهم الوحوش الكاسرة. وكانوا يلجأون إلى ردم الآبار والبرك بالجيف والتراب والحجارة.

وبلغ القرامطة ذروة سطوتهم في ٨ ذي الحجة ٣١٧هـ (١٢ يناير ٩٣٠م) عندما اجتاحوا مكة المكرمة واستباحوها قتلاً وتشريداً ونهباً، واقتلاعهم للحجر الأسود وتعرية الكعبة الشريفة من كسوتها وقلع بابها. وبعد عامين (٣١٩هـ/٩٣٢م) كانت نهاية الربذة على أيدي القرامطة بعد أن تعرضت للخراب والدمار من القبائل العربية، فأجبروا أهلها على الرحيل وخربت البلدة. وبهذا يسدل الستار على مدينة إسلامية كانت من أحسن المدن على طريق الحج. وقد أصابت الدهشة الجغرافي محمد بن أحمد المقدسي حينما وقف على أطلال الربذة بعد سنوات من تخريبها فوصفها بقوله : «ماء زعاق وموقع خراب».

وهكذا انتهت قصة مدينة بقيت عامرة زهاء ثلاثة قرون وزيادة، وربما استمرت مورداً للمياه وموطناً للرعي، لكن مسار طريق الحج تحول عنها، ولم يقدم لنا المؤرخون والجغرافيون وأصحاب الطبقات وصفا لهذه البلدة قبل خرابها وكأنهم تركوا هذه المهمة للآثاريين ليكتشفوا أسرار هذه المدينة ومعالمها المعمارية ومرافقها والشواهد الحضارية فيها.

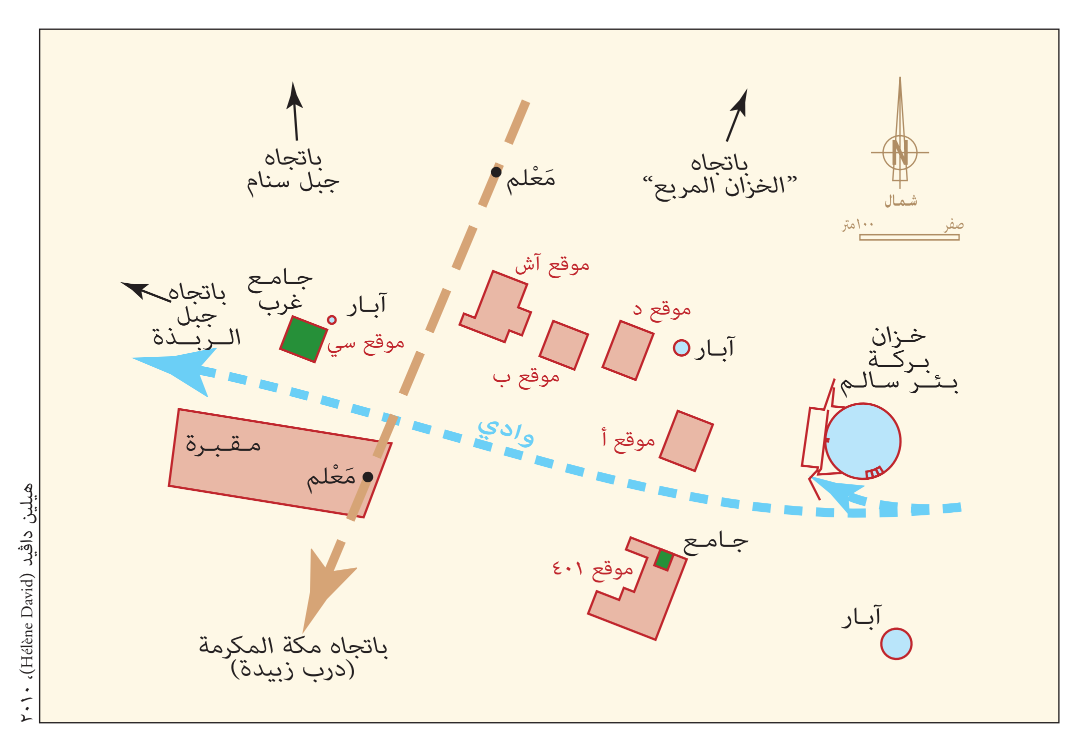
وظلت الربذة على مدى قرون وحتى عهد قريب، معروفة (اسماً) ومجهولة موضعاً.

وكان الرحالة والجغرافي محمد بن عبد الله بن بليهد (ت: ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م) أول من حاول التعريف بحمى الربذة وتحقيق موقعها غير أن الحظ لم يكن حليفه في تحديد موقع الربذة فقد قال : «والربذة لم تعرف في هذا العهد إلا أن تكون (الحناكية) أو قريبة منها». وهذا الاستنتاج سبب مزيداً من الحيرة للباحثين. كان موقع الربذة موضع اهتمام الباحث (سعد الراشد) في عام (١٣٨٩هـ-١٣٩٠هـ (١٩٧١-١٩٧٢م) عندما بدأ في إعداد دراسة شاملة للتحضير للدكتوراه عن آثار ومعالم طريق الحج من العراق إلى مكة المكرمة (درب زبيدة). فعكف على دراسة المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية لطريق الحج، واستخلصتُ منها معلوماتٍ مهمةً، ساعدتني في تنفيذ أول رحلة ميدانية تتبعت فيها معظم المسارات وفروعها على امتداد مسافة تزيد على ١٤٠٠ كيل، استمرت رحلة البحث بشكل متواصل خلال الفترة من (١ربيع الثاني - ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ الموافق ١٤ مايو إلى ١١ يونيو عام ١٩٧٣م).

وجاءت النتائج التي توصل إليها الباحث عن الربذة متوافقة ومتقاربة مع استنتاجات الشيخ حمد الجاسر، الذي نشر بحثاً في مجلة العرب بعنوان «الربذة: تحديد موقعها»، كما دون عدد من أصحاب المعاجم السعوديين معلومات مفيدة عن الربذة على نفس النهج الذي سار عليه الشيخ حمد الجاسر ومنهم : محمد بن ناصر العبودي وسعد بن جنيدل وعاتق البلادي. وجاءت استنتاجات الجاسر بقوله: «أرى أن موقع الربذة (يقصد المدينة لا الحمى) فيما بين بركة أبى سليم وبين بئر النفازي، بل لا أستبعد أن هذه البئر كانت من آبار الربذة، وقد تكون البئر التي كانت تعرف قديما باسم بئر أبي ذر الغفاري فحُرِّف الاسم ».

ولمزيد من البحث الميداني وجمع المعلومات عن موقع الربذة والمنطقة المحيطة بها، وارتباطها بطريق الحج (درب زبيدة)، تم تنظيم رحلة علمية، استطلاعية مركزة على جزء من طريق درب زبيدة شمل مواقع أثرية ومعالم عديدة للطريق ومنها المكان الذي تقع فيه (بركة أبو سليم) والموسومة بهذا الاسم على خرائط المملكة الطبيعية والجغرافية، كما تم حصر المعالم الطبيعية وامتداد الغطاء النباتي للمنطقة، وبالتالي توصل الباحث (سعد الراشد) إلى قناعة بأن الربذة هي في المكان الذي تقع فيه البركة المشار إليها والمواقع الأثرية الأخرى الباقية حول المكان أو على امتداد درب زبيدة وكذلك المعالم الطبيعية، وهذه المنطقة هي الموضع الحقيقي الذي نشأت فيه مدينة الربذة، وبهذا اتضح من الدراسات أن الربذة تقع إلى الشرق من المدينة المنورة بميلٍ نحو الجنوب بمسافة تقدر بحوالي ٢٠٠ كيل، على حافة جبال الحجاز الغربية على خط عرض ٢٤ْ ٤٠ وخطّ الطول ٤١ْ- ١٨، ويبعد عنها خط القصيم - مدينة المنورة شمالا بحوالي ٧٠ كيلا، وإلى الجنوب منها بمسافة ١٥٠ كيلا مهد الذهب (معدن بني سليم قديما).

لقد مهدت الدراسات الأولية عن موقع الربذة للبدء في أعمال البحث والتنقيب والكشف عن حضارة هذه المدينة من جهة، ومن جهة أخرى تدريب طلاب قسم الآثار والمتاحف، على أعمال التنقيب تحت إشراف أساتذة



هيلين داڤيد (Hélène David)، ٢٠١٠

المخطط العام للموقع

مختصين، وقد بدأ الموسم الأول للحفريات الأثرية خلال الفترة من (٧ جمادى الثانية إلى ٦ رجب ١٣٩٩هـ الموافق ٣- مايو ١٩٧٩م). كانت الرؤية الشخصية للباحث الدكتور سعد الراشد في اختيار موقع الربذة لأعمال التنقيب والبحث الأثري مبنية على الآتي:

١- صلة المكان بالبدايات الأولى للتاريخ الإسلامي وارتباطه بأوائل الصحابة.

٢- أن المنطقة المحيطة، أرض رعوية تتبع الدولة الإسلامية الناشئة، لتربية الإبل والخيول وتكاثرها وتهيئتها للجهاد وغيره، فقد أشارت المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يحمل على الجهاد في سبيل الله على أربعين ألف بعير في العام الواحد من حمى الربذة.

٣- أن الربذة نشأت في حقبة زمنية متتابعة : العصر الإسلامي المبكر، والفترة الأموية وحتى عصرها الذهبي في مجد الخلافة العباسية المبكر، ثم أصابها ما أصابها من التخريب والتدمير أدى إلى هجرها وأصبحت أثرا بعد عين.

٤- من خلال النصوص التاريخية والجغرافية استنتجنا أن الموقع الأثري سيقدم لنا دلائل مفيدة عن الحضارة الإسلامية من ناحية التخطيط المعماري والمنشآت الهندسية والمرافق المنزلية والصناعات المتعددة الفخارية والخزفية والمصنوعات الحجرية والزجاجية والأدوات المعدنية والحلي وأدوات الزينة والكتابات والنقوش والمسكوكات وغيرها مما صنع في الربذة أو جلب من حواضر الدولة الإسلامية القريبة والبعيدة.

٥- كان أملنا أن نتائج الكشف الأثري في الربذة ستقدم دلائل مترابطة تصحح الكثير من المفاهيم عن العمارة الإسلامية المبكرة والصناعات المتعددة والشواهد الأثرية المكتوبة خاصة أن الحواضر الإسلامية الأولى لم تقدم لنا نتائج مترابطة مع مسيرة التاريخ الإسلامي بسبب التغيرات المتسارعة لتلك الحواضر مثل البصرة والكوفة وبغداد وسامراء أو حتى مدينة الحيرة التي كان لها وجود في فترة ما قبل الإسلام.

٦- أن أعمال التنقيبات الأثرية التي تمت في المواقع الإسلامية في العراق والشام، خلال الفترات الاستعمارية وما واكبها من تأويلات في تفسير هوية الحضارة الإسلامية وجذورها وضعت أمامنا الكثير من الإشكاليات المعرفية.

لقد جاءت نتائج الكشوفات الأثرية في الربذة ولله الحمد مهمة للغاية، فقد أمدتنا الحفائر الأثرية وعلى مدى خمسة وعشرين موسماً بمعلومات وفيرة عن أسلوب تخطيطها والعناصر المعمارية فيها واللقى الأثرية للأواني الفخارية والخزفية والحجرية والمعدنية والمسكوكات والكتابات والحلي وأدوات الزينة وغير ذلك من الآثار.

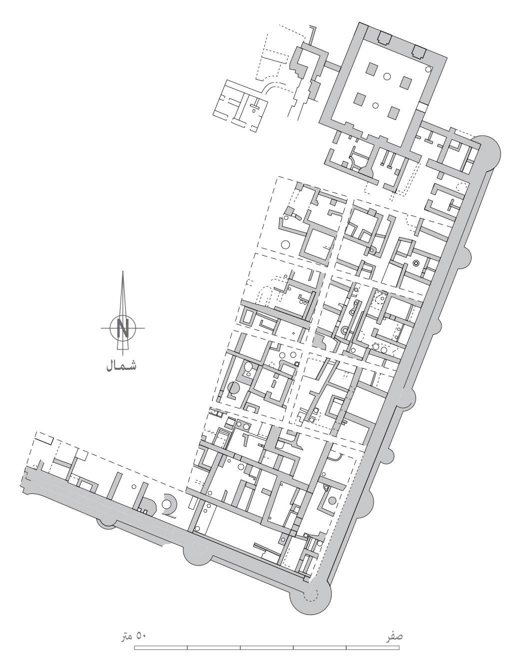

منظر الموقع ٤٠١

لقد تركز الاستقرار البشري لمدينة الربذة في منطقة، مستطيلة الشكل، تمتد من الشرق إلى الغرب، ولم تكن تبرز أي آثار شاخصة من أطلال المدينة، سوى تلول أثرية غير واضحة المعالم، ومن أبرز الآثار المشاهدة في الجزء الشرقي من الموقع احدى برك درب زبيدة،

وهي بركة دائرية الشكل يصل قطرها إلى ٦٥ مترا وعمقها ٤،٧٠ أمتار ولها مصفاة (حوض ترسيب) مستطيلة الشكل بمساحة ٥٥ x ١٧ مترا وبعمق ٣،١٥ أمتار. وإلى الشمال منها بحوالي الكيلين بركة أخرى مربعة الشكل ٢٦ x ٢٦ مترا، وكلتا البركتين تتميزان بهندسة معمارية بديعة. كذلك تم تحديد مقبرة المدينة القديمة في الجزء الجنوبي الغربي منها، ومن خلال مساحة المقبرة اتضح أن الربذة لم تكن صغيرة في حجمها.

بدأت أعمال الموسم الأول للحفائر الأثرية باختيار ثلاثة مواقع أسميناها:(أ، ب، ج)، ومع استمرارية أعمال التنقيب أضفنا موقعين آخرين هما(د، هـ) وتيمنا بمطلع القرن الخامس عشر للهجرة فقد وقع الإختيار على تل أثري كبير الحجم أطلق عليه مسمى (٤٠١)، ثم توالت أعمال التنقيبات حتى اكتمال الموسم الخامس والعشرين للعام ١٤٢٣هـ-١٤٢٤هـ، وتم خلال هذه المواسم الكشف عن بقايا المنشآت البنائية والظواهر المعمارية المتنوعة والتي تشكلت من آثار المساجد والمنازل والقصور المحاطة بأسوار وجدران سميكة المدعمة بأبراج دائرية ونصف دائرية من الخارج وعلى المداخل، ومرافق الخدمات من خزانات مياه محفورة ومبنية تحت أرضيات الغرف والتنانير والأفران المخصصة للطبخ والتصنيع وخزائن الحبوب وقنوات المجاري وغير ذلك من المرافق. وخلال أعمال التنقيبات الأثرية تم التركيز على تكوين رؤية للمنشآت المستقلة وترابطها مع المباني المجاورة فظهرت لنا صورة واضحة وجلية عن النسيج المعماري للربذة وعناصرها الهندسية والزخرفية وطبيعة المواد المستخدمة في البناء.

ويمكن تلخيص أبرز المكتشفات المعمارية والمرافق والمعثورات الأثرية المتنوعة حسب الآتي :



مخطط الموقع ٤٠١

القصور والمنازل

تميزت قصور ومنازل الربذة بأسلوب معماري ونسيج هندسي مميز، فهي رباعية التخطيط، ومتعامدة مع القبلة، وبنيت أساسات الجدران فيها بحجارة غير منحوته وغير متساوية الأحجام، وترتفع الأساسات أحياناً عن مستوى الأرضيات إلى أقل من المتر، وتتباين الجدران الحجرية من حيث السماكة حسب حجم المبنى، فيصل عرض الجدار من متر إلى مترين بالنسبة للأسوار الخارجية والجدران الرئيسية داخل كل مبنى، أما العناصر الداخلية للغرف والمرافق فتقل فيها سماكة الأساسات الجدارية. وبالنسبة للجدران التي تعتمد عليها السقوف فجميعها بنيت باللبن، وقد عمل البناؤون على تقوية الأسوار والجدران الخارجية بأبراج دائرية ونصف دائرية على المداخل والزوايا الخارجية لكل مبنى، وعلى امتداد الجدران وفقا لطول كل جدار، وظهر لنا وجود أنواع من جذوع الأشجار مثبتة عليها بشكل عرضي على بعض الأسوار والجدران وخاصة على المداخل، ويبدو أن المواد الخشبية هذه وضعت بهدف الحد من حدوث شروخ في الجدران في حالات التمدد وتكون مقاومة عند وقوع زلازل، خاصة أن منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية وبلاد الشام تعرضت لحوادث الزلازل في فترات ما قبل الإسلام وبعده.

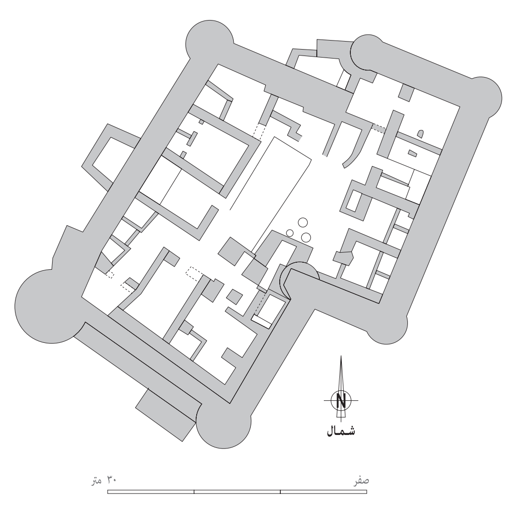
وبنيت الغرف الداخلية على شكل وحدات يجمعها فناء داخلي أو ساحة، وفيها مرافق الخدمات من أفران للطبخ ومستودعات حفظ المياه ومخازن الحبوب وغير ذلك من المرافق الخدمية. وتتراوح مساحات الغرف للقصور والمنازل في أغلب الأحوال حوالي: ٢،٣٠ x ٢،٣٠ م.

وتغطي الجدران من الداخل طبقة جصية ناعمة، وعثرعلى بعض زخارف هندسية ورسوم ملونة، ومن الاكتشافات المهمة لوحة جصية ملونة عليها شريط كتابي يشتمل على جزء من البسملة وبداية آية الكرسي في سورة البقرة (د. المعرض رقم ٢٤٦).

وتدل هذه العناصر الزخرفية على أن مباني الربذة على درجة من الثراء الفني والزخرفي و يذكرنا هذا الثراء بالمنشآت المعمارية الإسلامية المبكرة في بلاد الشام والعراق. وقد أمكن تمييز عدد من القصور ومنها المبنى (أ) الواقع في شرق الربذة وله بوابة شمالية يحميه برج في الركن الشمالي الشرقي وهو سداسي الأضلاع ويبدو أنه من دورين وزود بسلم يلتف حوله. ومن القصور الأخرى أو المنازل الكبيرة مبنى (ب) وهو عبارة عن كتلة معمارية ذات تصميم مميز على شكل حدْوتي فرس متداخلتين وغير متساويتين، وتتكون جدران المبنى من سبعة أضلاع مدعومة بسبعة أبراج ركنية، والمبنى أيضا مزود بالمقومات الأساسية للمرافق الخدمية. ويشكل المبنيان (د) و(هـ) نمطين معماريين يبرز النشاط الحيوي لسكان الربذة، فالمبنى الأول يدل على أنه سوق المدينة، فالظواهر المعمارية في هذا النسيج المعماري تشتمل على عشرات من خزانات المياه المتقاربة وأفران الطبخ والمواقد لتحضير الأطعمة ومستودعات حفظ الحبوب وأماكن صهر بعض أنواع المعادن، فقد عُثِر على بعض القطع التالفة

من قوارير وأنابيب وبوتقات عليها علامات الصهر. أما الكتلة المعمارية الأخرى فهي عبارة عن منزل رئيسي رباعي الشكل مدعم بأربعة أبراج ركنية وتتصل به وحدات معمارية تمتد شمالا وجنوبا وغربا.

وكشفت أعمال التنقيب حول المبنيين عن وجود امتدادات بنائية ترتبط بهما وتتكون من وحدات سكنية ومرافق خدمات متعددة. ويعد موقع (٤٠١) أكبر وحدة سكنية فهو يشكل أحد أحياء الربذة في جزئها الجنوبي ويفصله عن المدينة أحد فروع وادي الربذة الذي يتجه من الشرق إلى الغرب. وتتميز هذه المنطقة بتكاملها وكبر حجمها. فقد أنشئت داخل سور ضخم رباعي الشكل تمتد أضلاعه إلى حوالي ٦٩ x ٥٧م، ويصل عرض السور إلى حوالي ٢,٢٠م، ودُعِّم السور بأبراج دائرية في الزوايا، ونصف دائرية على امتداد أضلاع السور، ويصل نصف القطر في بعض الأبراج إلى حوالي ٢,٢٥م. وتقع البوابة الرئيسية لهذا المجمع السكني في منتصف الضلع الشمالي وتؤدي إلى ساحة وسطية. وقد أنشئت الغرف السكنية على شكل وحدات متقابلة من الجهة الشرقية والغربية مع وجود وحدات متظاهرة معها ويتفاوت عدد الغرف في كل وحدة سكنية، وتصل أبعاد الغرف إلى ٣ x ٣م، وبين هذه الوحدات ممرات و طرق ضيقة وساحات صغيرة استغلت جميعها للمنافع اليومية والصناعات واستغلت الأرضيات لحفر تجاويف لردم النفايات وتبليطها مرة أخرى. ويتضح من النسيج المعماري لهذه الوحدة السكنية الكبيرة أو الحي السكني أنه متكامل الخدمات بوجود مستودعات حفظ المياه تحت مستوى الطبقة البائية ووجود أفران الطبخ والصناعات وتأمين هذه الوحدة الكبيرة بحفر بئر للمياه في الطرف الجنوبي الغربي للسور ووجود مسجد في الجهة الجنوبية من المجمع.



مخطط الموقع «ب»

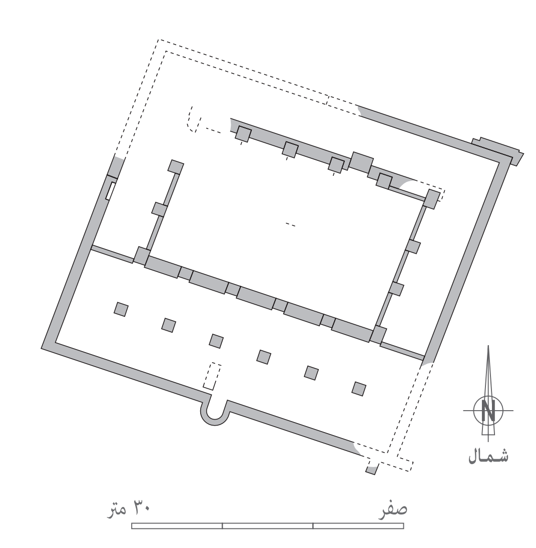
مساجد الربذة

أبرزت الحفائر الأثرية الكشف عن مسجدين رئيسيين وهما :

أ- المسجد الجامع

وهذا المسجد كشف عنه في الجهة الغربية من الربذة، ولعل هذا المسجد هو مسجد أبي ذر الغفاري الذي اختطه بنفسه عندما قدم للربذة، وقد ذكرت المصادر أن بالربذة مسجدين أحدهما مسجد أبي ذر. ويتميز هذا المسجد بتخطيط معماري متطور، فمساحته تصل الى حوالي ٢٢،٧٥ x ٢٠،١٥م، ويتكون من رواقين أماميين يتقدمهما محراب مجوف وله ثلاثة أروقة، شرقي وغربي وجنوبي، وتوجد ساحة وسطية مكشوفة بطول ٩ x ١٦ مترًا، ويوجد بناء مستطيل الشكل يمتد من جدار القبلة باتجاه الرواق الأمامي بطول ٧٠ سم x ١٧٠م، ونتوقع أن يكون هذا التكوين المعماري قاعدة لمنبر المسجد، وقد أمكن تمييز عدد ٢١ قاعدة حجرية كانت تحمل سقف المسجد. وقد تبين لنا أثناء الكشف الأثري لجدران وأعمدة المسجد وتفاصيله المعمارية أن المسجد كانت أرضيته مفروشة بالحصى وتتجدد الفرشة بين وقت وآخر كما أن جدران المسجد كانت تحمل طبقة جصية وأن المسجد فيما يظهر أنه بني بكامله بالحجارة حيث لم نجد أي أثر لكتل طينية أو لبن وأن الركام الذي كان يغطي الموقع هو كتل حجرية، وتصل المساحة الإجمالية للمسجد الى حوالي (٤٥٩م^2) وتصل المساحة الداخلية الى حوالي (٣٨٠م^2) وهذه المساحة كافية لاستيعاب ما يقارب ستمائة مصلٍّ. ومما يميز هذا المسجد أنه بني في مكان متطرف من المدينة السكنية وبالقرب منه واحدة من الآبار الرئيسية في الربذة والتي لاتزال باقية حتى اليوم. ولم نتمكن من معرفة مكان مئذنة المسجد ونتوقع أن تكون قد تهدمت في المكان المنخفض بين المسجد والبئر. وكان مسجد الربذة منذ بنائه ملتقى للعلماء والمحدّثين الذين يقصدونه من كل مكان، خاصة أن الربذة مدينة إسلامية مبكرة وموقعها مميز على طريق الحج. ففي ترجمة لمحمد بن كعب بن سليم القرظي المدني (توفي سنة ١٠٨هـ) أنه:

«كان لمحمد بن كعب جلساء من أعلم الناس بالتفسير، وكانوا مجتمعين في مسجد الربذة، فأصابتهم زلزلة، فسقط عليهم المسجد، فماتوا جميعا تحته». و محمد بن كعب قيل عنه أنه «كان من أوعية العلم» وأنه «كان من أئمة التفسير» و «كان ثقة عالما كثير الحديث ورعاً.» فهذه المعلومة مع غيرها من الأدلة والقرائن تساعدنا على التحديد الدقيق للمرحلة التاريخية لمدينة الربذة وأهمية مسجدها في العصور الإسلامية المبكرة.



مخطط الجامع غرباً

مسجد المنطقة السكنية

هذا المسجد تم اكتشافه في المنطقة السكنية (٤٠١) ويختلف في تخطيطه عن المسجد الجامع، ومساحته (١٢،٣٠ x ١٠،٣٠ م) وله محراب مجوف مربع الشكل، ويتميز المسجد رغم صغر مساحته بسماكة جدرانه وله أربع

قواعد أعمدة سميكة، مربعة الشكل كانت تحمل سقفًا نصف مقبب (مقوس). ويظهر من خلال الكسر الجصية المتساقطة أن جدران المسجد كانت مغطاة بطبقة جصية عليها تلوين زخرف. ومن النسيج المعماري للمباني المتصلة بالمسجد يتبين أن المسجد كان له أربعة أبواب صغيرة، ويحاذي الباب الغربي كتلة بنائية ربما كانت قاعدة لمئذنة المسجد. وفي ضوء التخطيط المعماري لهذه المنطقة السكنية من الربذة فإن هذا المسجد لم يكن مخصصا لغيرها من السكان وعابري سبيل. ونتوقع أن يكون في الربذة مساجد أخري قد اندثرت وضاعت معالمها مع الزمن وسبب توقعنا هو كثافة الوحدات السكنية وتنوعها وترابط النسيج المعماري بعضه ببعض وبالتالي فإن سكان الربذة والقادمين إليها كانوا بأعداد كثيرة.

المنشئات المائية

اعتمدت مدينة الربذة على مياه الأمطار والسيول، والآبار التي وصل عددها الى ما يزيد عن إثنتي عشرة بئرا حفرت في النطاق العمراني للمدينة، واستفاد سكان الربذة من البركتين المجاورتين لها وهما من برك طريق الحج (درب زبيدة) بالإضافة إلى البرك الأخرى على امتداد الطريق وكذلك الآبار الأخرى المحفورة في محيط الربذة وتجمعات المياه في الينابيع والتجاويف الصخرية والأحواض الطبيعية.

لكن أبرز ما تتميز به الربذة هو تصميم مستودعات لحفظ المياه (خزانات) بنيت تحت مستوى أرضيات الغرف والساحات الداخلية والممرات وفي كل الوحدات السكنية، وبنيت هذه الخزانات بطريقة هندسية بديعة، فيصل متوسط عمق الخزان الواحد حوالي المترين تحت مستوى الأرضيات وبنفس الطول، وقد استخدمت الحجارة في بناء الجدران وغطيت بطبقة جصية قوية، وسقفت الخزانات بجنادل حجرية مستطيلة ومحكمة الإغلاق، وكل خزان زود بفتحة علوية لها رقبة عليها غطاء حجري.

وتملأ هذه الخزانات بالمياه بإحدي طريقتين : الأولى بواسطة أنابيب حجرية أو فخارية صممت بطريقة فنية لتمرير مياه الأمطار الساقطة على أسطح المنازل إلى داخل الخزانات، والطريقة الثانية فيما يبدو بنقل المياه مباشرة من البرك والآبار لهذه الخزانات عند الحاجة أو في غير مواسم الأمطار.

إن تصميم مستودعات حفظ المياه بهذا الأسلوب الهندسي ضمن للربذة الطمأنينة والأمان بتوفير المياه النقية وبوسائل متنوعة، فالماء عصب الحياة للإنسان والحيوان ومادة أساسية لتحضير الأطعمة والصناعات وأغراض أخرى عديدة. لقد تم الكشف عن عدد كبير من خزانات المياه، بعضها على شكل مجموعات، والبعض الآخر إما خزان واحد أو خزّانان متقاربان، زود بعضها بأنابيب فخارية أو جصية تمتد على أحقّة الخزانات لتوزيع المياه بينها، وبعض الخزانات زود بخزانات ترسيب (صفايات) قبل دخول المياه للخزانات الرئيسية.


منظر جوي للخزانات

وقد وصل عدد الخزانات المكتشفة لما يقارب من مائتي خزان. وقد حرص سكان الربذة على الاستفادة من هذه الخزانات في جميع الفترات والمراحل البنائية للمدينة، فقد اكتشف بعضها تحت مستوى فترات سكنية مبكرة بقيت مستخدمة في الفترات السكنية اللاحقة، وهذا في حد ذاته يعد فطنة وقدرة هندسية فائقة وخبرة فريدة لدى الأوائل من المهندسين المسلمين. وجاءت هذه التقنية المتطورة لحفظ المياه نتيجة لتزايد أعداد قوافل الحجيج فقد كانت القافلة الواحدة تتراوح بين ١٥ و٢٠ ألفًا من الإبل، وكانت تصل قيمة راوية الماء في أوقات الجدب والفتن إلى دينار.

اللّقى والمكتشفات الأثرية

تعددت المكتشفات واللُقى الأثرية خلال أعمال التنقيبات الأثرية وأعمال المسوحات في المنطقة المحيطة بالربذة. وتعد الكتابات والنقوش الصخرية على المرتفعات والنتوءات الصخرية من الدلائل الأثرية المهمة على الاستقرار السكاني بالربذة أو القادمين إليها فمنها ما عثر عليه في جبل سنام أحد المعالم الجغرافية المهمة شمال الربذة ومن أهم الأسماء التي نوهنا بها في بداية هذه الورقة العالم الشهير يحيى بن زياد المعروف بالفراء الذي توفي بالربذة سنة 207 هـ وهناك نقوش تم اكتشافها في جبل الربذة إلى الغرب من المدينة السكنية التي اشتملت على أدعية مأثورة بطلب المغفرة والرحمة للأشخاص الواردة أسماؤهم في تلك النقوش ومن أسماء الشخصيات: عبد الله بن خباب (حباب) وكريم بن حطاب، وعثر على واجهة صخرية في جبل الربذة الجنوبي نقش عليه اسم شخص يدعى دريد بن عبد ربه. وعثر على كتابات منقورة على النتوءات الصخرية المتاخمة للمنطقة السكنية من الجهة الشمالية الغربية وتتضمن أسماء: سعد بن زيد، حباب بن زيد ومحمد بن نافع وغيرهم. ووجدت نصوص كتابية محفورة على الطبقة الجصية في بعض الجدران ولكنها غير مكتملة. وعثر في مقبرة المدينة على شواهد

حجرية لمن توفي ودفن بالربذة من رجال ونساء. ومنها شاهدان حجريان لشخصية نسائية ذكرت باسم (أم عاصم بنت عبد الله) ولعل عاصم هذا هو:عاصم بن عمر بن الخطاب (أبو عمرو المدني) الذي توفي بالربذة كما ذكرنا سابقا سنة ٧٠ هـ. وتم العثور على نصوص كتابية على ألواح العظام وهي عبارة عن إيصالات تجارية وعلى بعضها أسماء للمكاييل والموازين كالمد والكيلة والرطل والمكوك، وتم العثور على كسر فخارية وخزفية عليها بقايا كتابات متطورة من الفترة العباسية ويبدو أن الجرار التي عليها نصوص كتابية كانت معدة من قبل الخلفاء وأمراء بني العباس لسقاية الحجاج والمسافرين طلبا لثواب الله.


درهم (نقد من فضة)، عُثر عليه في الربذة

أما المعثورات التي تم اكتشافها خلال أعمال التنقيب فهي كثيرة ومتنوعة، ونجملها حسب الآتي:

المسكوكات
الأواني الفخارية والخزفية
الصناعات المعدنية
الأدوات الخشبية والعاج
الزجاج
الحلي وأدوات الزينة
الأدوات والأواني الحجرية

ومن الدراسات المبدئية لهذه المعثورات تبين لنا أن الربذة كانت على درجة عالية من الحيوية من حيث تنوع الصناعات وبالأخص الأدوات الفخارية والخزفية والحجرية والزجاجية، فقد تم العثور على أوان كاملة من الجرار والأطباق والأكواب والقوارير، أما الكسر من مختلف الأواني فهي كثيرة ومتنوعة، وعليها عناصر زخرفية بديعة تدل على دقة الصناعات وخبرة الصناع ومقدرتهم وملكتهم في الحرف والصناعات، وقد أعطتنا هذه المكتشفات دلالة واضحة عن الفترة الزمنية التي شهدتها الربذة خلال ثلاثة قرون وأكثر من تاريخها، ومن هذه المعثورات ما هو مصنوع محليا في الربذة ذاتها، وتأتي القطع النقدية المكتشفة لتعطي دلالة واضحة على الثراء الاقتصادي للربذة فقد عثر على دنانير ذهبية ودراهم نحاسية وفلوس نحاسية عليها أسماء الخلفاء والوزراء، تحمل عددا من مدن الضرب الإسلامية مثل مكة والكوفة وبلخ وكرمان ومدينة السلام.

وتتراوح السنوات التي تعود لها المسكوكات المكتشفة إلى عصر صدر الإسلام وإلى الفترة الأموية والخلافة العباسية في عصورها الزاهية، ومن الخلفاء التي وردت أسماؤهم على النقود المكتشفة أو تتوافق تواريخ سك العملة مع فترات حكمهم الخلفاء : الوليد بن عبد الملك، وأبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد والمعتضد بالله وغيرهم.

الخلاصة

وفي ضوء هذا العرض الموجز عن مدينة الربذة وآثارها المعمارية ومكتشفاتها المتنوعة نستخلص أن هذه المدينة كانت من الحواضر الإسلامية الكبيرة في قلب جزيرة العرب، وشكلت مركزاً اقتصادياً وثقافياً مهماً ومحطة رئيسية على طريق الحج. ومما يجعل الموقع الأثري لهذه المدينة مهما ومميزا هو أن الربذة بعد خرابها في عام ٣١٩ هـ (٩٣٢م)، ارتحل عنها سكانها ولم تعد منازلها وقصورها ومرافقها مستخدمة، فهذه الفترة التاريخية التي اتصفت بخلل الأمن وتعدد الفتن كانت بداية لمرحلة هجرات القبائل العربية إلى خارج الجزيرة، كما أن طرقاً فرعية استخدمت بدلاً من الطريق الرئيسي للحج، ولم تعد الربذة من المحطات التي تقصدها قوافل الحجيج، وربما بقيت الآبار والبرك مستخدمة على مدي قرون من قبل أبناء البادية وعابري السبيل.

وإذا كانت الربذة قد انتهت كمدينة إسلامية فإن آثارها أمدتنا بمعلومات وفيرة عن الحضارة الإسلامية المبكرة في قلب الجزيرة العربية، كما أن التراث المعماري للربذة يوضح لنا صورة جلية نستدل من خلالها على طبيعة الحضارة الإسلامية بمفهومها الشامل في العصر الإسلامي المبكر في الجزيرة العربية عامة والحجاز ووسط الجزيرة العربية على وجه الخصوص.

المصادر والمراجع :

- الجاسر، «حمى الربذة في كتب المتقدمين»، العرب، مجلد (١-٥) ، (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).
- إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، تحقيق (دي حوية - M. J. De Goeje) ، ليدن، ١٨٩٤م.
- إبن رستة، أبو علي أحمد بن عمر، كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق (دي حوية –M. J. De Goeje)، (ليدن، ١٨٩٢م).
- الراشد، سعد بن عبد العزيز، الربذة : صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية، (جامعة الملك سعود)، (الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- الراشد، سعد بن عبد العزيز، درب زبيدة : طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة «دراسة تاريخية وحضارية أثرية»، (دار الوطن للنشر والإعلام)، (الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق (دي حوية وآخرون - M. J. De Goeje et al)، ١٥ جزءًا، (ليدن، ١٨٧٩-١٩٠٣م).
- المقدسي، شمس الدين عبد الله بن محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق (دي حوية - M. J. De Goeje)، (ليدن، ١٩٠٦م).
- ياقوت، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ٥ أجزاء، (بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٨م).

الربذة

يمكن ربط مجموع الآثار التي اكتُشفت في حفريات الربذة، والمعروضة هنا، ببدايات الحقبة الإسلامية، بين القرن السابع والقرن العاشر. وبعد تنحية بعض الانماط المعروفة، يصعب تحديد تاريخ دقيق، ما لم تُجرَ دراسة واضحة عن الطبقات الجيولوجية. وفي استطاعتنا تقريب هذه الإكتشافات من تلك التي عـُثر عليها في كبرى مواقع الشرق الأوسط، والتي أتاحت تحديد مميزات الإنتاجات المادية لهذه الحقبة الإسلامية الأولى، أي سامراء وسوس وسيراف [1]. وتشهد المواد المكتشفة في الربذة، على استيراد بعض المنتجات العراقية التي حملها التجارُ والحجاجُ، إلى شبه الجزيرة العربية. وهذا ينسحب على الخزف المزخرف بالدهان: جرار كبيرة مدهونة بالأزرق الفيروزي (د. المعرض رقم ٢٤٧)، الموجودة على الأقل منذ القرن السابع وحتى القرن العاشر، والمصدَّرة مع محتوياتها إلى كافة أنحاء الشرق الأوسط وحتى الهند وجنوب شرق آسيا؛ كما ينسحب على «الخزفيات» المزخرفة باللون الأزرق الكوبلت أو الأخضر النحاسي (د. المعرض رقم ٢٥٢ إلى ٢٥٤)، وزخرفات بالأوكسيدات المعدنية المتعددة الألوان والأحادية اللون (د. المعرض رقم ٢٤٨ إلى ٢٥١)، وزخرفات صينية الإيحاء مقولبة بمهارة تحت دهان أخضر (د. المعرض رقم ٢٥٦)؛ وان وجودها في سامراء (عاصمة الخلافة العباسية بين ٨٣٦ و٨٨٣) يتيح تأريخها في القرن التاسع. وتُقارَن المكتشفات الزجاجية (د. المعرض رقم ٢٦٠ إلى ٢٦٨) أيضا، من حيث أشكالـُها وزخارفـُها، بمكتشفات المواقع المذكورة أعلاه (لا بد أن نضيف أيضا على سبيل المراجع، الفسطاط ونيسابور وعدداً من المواقع الأخرى في الشرق الأوسط حتى إيران). إلا أن آثار أفران صانعي الزجاج التي عـُثر عليها في الربذة، في الموقع أ، تـقدم دليلاً على إنتاج محلي، بفضل الإستعانة على الأرجح بحرفيين أتوا من العراق. ومن الممكن أيضا قيام صناعة تعدينية صغيرة داخل المدينة الواقعة في محيط منجمي. فالأدوات البسيطة المصنوعة من المعدن، والموجودة هنا، (د. المعرض رقم ٢٦٩ إلى ٢٧٢)، تجدر مقارنتها بالإكتشافات التي حصلت في أم الوليد (الأردن) والتي يمكن تأريخها بالقرن الثامن. ويظهر عنصر من التصفيح الخشبي المحفور (د. المعرض رقم ٢٧٥) زخرفة نباتية دقيقة، ذات أوراق مستديرة صغيرة، تذكِّر باكتشافات مشابهة مصنوعة من الخشب أو من العاج في العصر الأموي. ويبقى ان الزخارف الملونة المستخرجة من الربذة فريدة من نوعها. ولا يمكن أبداً مقارنتها إلا ببعض أجزاء الزخرف الهندسي التي عـُثر عليها في القصر المعروف باسم دار الخلافة في سامرّاء. ويمكننا الإفتراض أن الزينة التصويرية لم تكن موجودة فيها، خلافا لتلك الموجودة في سامراء، في إطار مترف مختلف جداً.

وان المواد، التي فضلاً عن النشاط المحلي وتدفق الحجاج، في مكان بعيد عن مراكز السلطة، لا تتضمن أدوات فاخرة جداً، لكنها توفر الوثائق بصدد الحياة اليومية في هذه المحطة على الطريق العراقية: آنية مطبخية وتخزين وأدوات تحضير وقياس، وأدوات مختلفة ووثائق مكتوبة على صلة بالإقتصاد. وعلى غرار عدد كبير من المواقع في الشرق الادنى والشرق الأوسط، اكتُشف عدد من السُرُج والمجامر المصنوعة من الحجر المالس، التي غالبا ما تُنسب إلى اليمن، والتي كانت تُصنع على ما يبدو أيضا في مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية [2].

C. J.

١- حول المسألة المختصة بالخزف المدهون في الحقبة العباسية، أنظر Northedge، ١٩٩٧، ص. ٢١٣- ٢٢٣.
٢- في منطقة الحوراء والطائف خصوصا، أنظر Whitcomb، ١٩٩٨، ص. ٤٠٧- ٤٠٩؛ كسناوي، ١٩٨٢، ص. ٧٤.



٢٤٦. قطعة من زخرفة جدارية
القرن التاسع ؟
طلاء مدهون
٤٨ x ١٨٥ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٣٩٩

فهرس: غير منشور

هذا نموذج من نوع الزخرفة الجدارية، المصنوعة من طبقة سميكة من الطلاء الأسود والأحمر والأصفر الأمغر، الذي كان يكسو داخل بعض المباني، المدنية أو الدينية، والمكتشفة في الربذة. وما لدينا هنا، هو نقش بالخط المسمى الكوفي (المزوّى)، الموجود بين شريطين أفقيين يتخذان شكل سلسلة وحبل، ويتوجان كتابةً هندسيةَ الزخرفةِ، وتفعيلة أفقية من المربعات على الطرف. والنقش ذو صبغة دينية، هو البسملة التي تتلوها الشهادة. ونوع خطه بسيط وواضح، بأحرف ذات ذيول عمودية مستقيمة جداً. ويتيح شكلُ الأحرف نسبتـَها إلى الحقبة العباسية.
C. J.



٢٤٧. جرة كبيرة
القرن السابع - العاشر
خزف صلصالي، زخرفة محزّزة، مدموغة ومُحكمة تحت الدهان
ارتفاع: ٦٦ سم؛ قطر ٤٥ سم تقريبا
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، د. ر.

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة ٩٩ و١٠٠، ص. ٥٨.





٢٤٨. كأس بحافة متعددة القُويسات
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة على الدهان بالأوكسيدات المعدنية المتعددة الألوان
ارتفاع: ٤٫٣ سم؛ قطر: ١٤ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٩٤

فهرس: غير منشور



٢٤٩. كأس ذات قوّاع بري
أواخر القرن التاسع - القرن العاشر
خزف صلصالي، زخرفة على الدهان بالأوكسيدات المعدنية الأحادية اللون
ارتفاع: ٤ سم؛ قطر: ١٢ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٨-١٢٣

فهرس: غير منشور



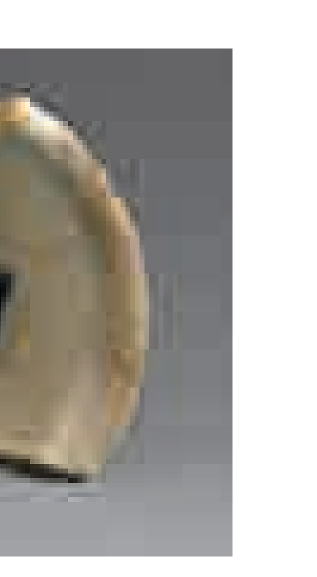
٢٥٠. كِسرة كأس
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة على الدهان بالأوكسيدات المعدنية المتعددة الألوان
طول: ١٧ سم؛ عرض: ١٠٫٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٦-١٨

فهرس: غير منشور



٢٥١. إناء مائدة مصغّر
نهاية القرن التاسع - القرن العاشر
خزف صلصالي، زخرفة على الدهان بالأوكسيدات المعدنية الأحادية اللون
ارتفاع: ١٫٤ سم؛ طول: ٦٫٣ سم؛ عرض: ٤٫٢ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٣-٥٥

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ٩٦، ص. ٥٨.



٢٥٢. كأس مسجل
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة مرسومة على الدهان بأكسيد الكوبلت
ارتفاع: ٣٫١ سم؛ قطر ٨٫٥ سم
كتابة: بركة
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٣٣٠

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٠٢، ص. ٥٩.

٢٥٣. كوب صغير ذو زخرفة مُحَوْجزة
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة مرسومة ولمسات دِهان
ارتفاع: ٧ سم؛ قطر ٨ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٣٤٩

فهرس: غير منشور



٢٥٤. قدح
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة من سيلان الدهان
ارتفاع: ١٣٫٨ سم؛ أقصى القطر: ١٦٫٧ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٣١٧

فهرس: غير منشور



٢٥٥. إناء
القرن السابع - القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة دهان
ارتفاع: ١١٫٥ سم؛ أقصى القطر: ١٠ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٢٥-١

فهرس: غير منشور



٢٥٦. كسرة كوب صغير
القرن التاسع
خزف صلصالي، زخرفة مقولبة تحت الدهان
ارتفاع: ٢,٩ سم؛ طول: ٦ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، H ٣٧ R ٦

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ٨٩، ص. ٥٧.



٢٥٧. إناء بثلاث عرى
القرن السابع - القرن العاشر
خزف صلصالي، زخرفة ناتئة
ارتفاع: ١٧,٤ سم؛ أقصى القطر: ١٨,٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ١٦-٩

فهرس: غير منشور

٢٥٨. مجمرة
القرن السابع - القرن العاشر
حجر طري منحوت
ارتفاع: ٥,٦ سم؛ طول: ٢٣ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٨-١٠٢

فهرس: غير منشور





٢٥٩. طبق
القرن السابع - القرن العاشر
حجر طري منحوت، زخرفة محفورة
قطر: ١٦ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٨-١٠٣

فهرس: غير منشور



٢٦٠. قنينة
القرن الثامن - القرن العاشر
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٢٢ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٧-٩٦

فهرس: غير منشور

٢٦١. قارورة
القرن التاسع - القرن العاشر
زجاج منفوخ
ارتفاع: ١٣ سم؛ قطر.قاعدة: ٣ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ٤-١٠٢

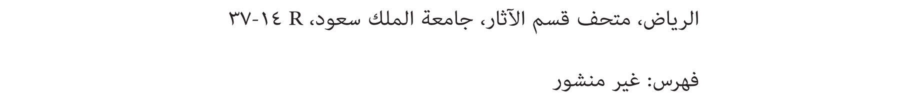
فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٥٠، ص ٧٥



٢٦٢. قدح
القرن التاسع - القرن العاشر
زجاج منفوخ، زخرفة مدموغة
ارتفاع: ٨,٥ سم؛ قطر: ٨ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٨٩

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٤٣، ص. ٧٣.

٢٦٣. قارورة
القرن الثامن - القرن العاشر
زجاج منفوخ، زخرفة وعروتان ملصقة
ارتفاع: ٩,٢ سم؛ قطر: ٥,٧ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، R ١٤-٣٧



فهرس: غير منشور



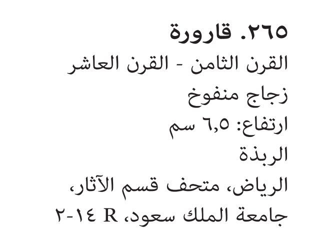
٢٦٤. قارورة
القرن الثامن - القرن العاشر
زجاج منفوخ
ارتفاع: ١١,٥ سم؛ أقصى القطر: ٨,٥ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٢٩٣

فهرس: غير منشور



٢٦٥. قارورة
القرن الثامن - القرن العاشر
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٦,٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ١٤-٢

فهرس: غير منشور



٢٦٦. قارورة
القرن السابع - القرن العاشر
زجاج منفوخ في قالب
ارتفاع: ٨ سم؛ قطر: ٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ١٨-١١

فهرس: غير منشور



٢٦٧. قارورة «ضرسية»
القرن التاسع
زجاج منفوخ في قالب
ارتفاع: ٦ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ١٠٠-٦

فهرس: الراشد: ١٩٨٦، صورة. ١٣٦، ص. ٧١.



٢٦٨. إناء صيدليّ
القرن السابع - القرن العاشر
زجاج منفوخ
ارتفاع: ٥ سم؛ قطر مفتوح: ٤,٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ١٩-٢١

فهرس: غير منشور

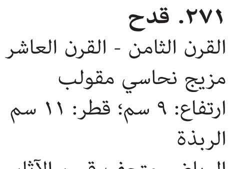
٢٦٩. كأس صغير ذو عنق ساكب
القرن الثامن - القرن العاشر
طول: ١١ سم
الربذة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٣٦٣

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٢٤، ص. ٦٨.









٢٧٠. مجمرة
القرن الثامن - القرن العاشر
مزيج نحاسي مقولب
٣ x ٥,٧ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ٥-١٣٢

فهرس: غير منشور

٢٧١. قدح
القرن الثامن - القرن العاشر
مزيج نحاسي مقولب
ارتفاع: ٩ سم؛ قطر: ١١ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، د. ر.

فهرس: غير منشور

٢٧٢. قارورة وأنبوبة
القرن الثامن - القرن العاشر
مزيج نحاسي مقولب
ارتفاع: ٢,٨ سم؛ قطر: ٣,٣ سم؛ طول الأنبوبة: ٦ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ٥-١٣٢ وR ٥-١٦٢

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٢٧، ص. ٦٨.



٢٧٣. صندوقة ميزان
القرن الثامن - القرن العاشر
خشب محفور
طول: ١٦,٤ سم؛ عرض: ٧,٨ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ٧-١١٦

فهرس: غير منشور







٢٧٤. أوستراكون
القرن الثامن - القرن العاشر
عظم، حبر داكن
ارتفاع: ٣٠ سم تقريبا
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، ٥ R ١

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٧٧، ص. ٨٩.

يقدم النقش لائحة تفيد عن كميات ومكاييل (حمل، مكوك ومد) يمكن أن تتعلّق بالحبوب.

٢٧٥. عنصر تصفيح
القرن الثامن - القرن التاسع
خشب محفور
طول ٢٢ سم؛ عرض: ٤,٦ سم؛ سماكة: ٠,٥ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ٢-٤٢٩

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٦٣، ص. ٨٢.

٢٧٦. تمثال صغير (رأس دمية؟)
القرن الثامن - القرن العاشر
عظم منحوت، زخرفة ملونة
ارتفاع: ٥,٣ سم
الربذة
الرياض، متحف قسم الآثار،
جامعة الملك سعود، R ٦-٦٤

فهرس: الراشد، ١٩٨٦، صورة. ١٦٧، ص. ٨٢.

طريق الحج الشامي

د. حياة بنت عبدالله الكلابي

خريطة طريق الشام

نال طريق الحج الشامي اهتماماً خاصاً من قبل الحكام المسلمين عبر جميع العصور، وقد اختلفت درجة هذا الاهتمام من عصر إلى آخر، ومن حاكم إلى آخر، كما شهدت منازله ومساراته تعديلات كثيرة تبعاً للأحداث التاريخية، والظروف السياسية والاقتصادية والبيئة المتغيرة التي عرفتها المناطق التي يسير فيها داخل الجزيرة العربية وخارجها، ويمكن تقسيم تاريخ هذا الطريق، والأحداث التي شهدها إلى خمس مراحل هي على الترتيب:

- المرحلة الأولى: طريق الحج الشامي خلال الفترة الإسلامية المبكرة.
- المرحلة الثانية: طريق الحج الشامي خلال فترة الوجود الصليبي في جنوب الأردن.
- المرحلة الثالثة: طريق الحج الشامي في العصرين الأيوبي والمملوكي.
- المرحلة الرابعة: طريق الحج الشامي خلال العصر العثماني.

المرحلة الأولى: طريق الحج الشامي خلال الفترة الإسلامية المبكرة

تمتد هذه المرحلة من الفتح الإسلامي لبلاد الشام حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وتغطي عصر الخلفاء الراشدين وعصر بين أمية، وجزءاً كبيراً من العصرين العباسي والفاطمي، وفي بداية تلك المرحلة سارت على الطريق جيوش الفتح الإسلامي المتجهة إلى بلاد الشام، فسلك جيش أسامة في عهد أبي بكرﷺ طريق الشام، ومر على ذي المروة ووادي القرى. كما سلكت طريق الشام الرئيسة المسماة التبوكية ثلاثة من الجيوش الأربعة التي أرسلها أبو بكر ﷺ لفتح بلاد الشام، وهي: جيش يزيد بن أبي سفيان، وجيش أبي عبيدة عامر بن الجراح، وجيش شرحبيل بن حسنة، حيث سارت تلك الجيوش شرقاً تجاه البلقاء، أما الجيش الرابع الذي كان يقوده عمرو بن العاص فقد اتجه إلى أيلة ومنها إلى فلسطين، كما سلك طريق التبوكية عمر بن الخطاب ﷺ سنة سبع عشرة للهجرة، فخرج من المدينة يريد الشام حتى بلغ سرغ – التي تسمى المدورة في الوقت الحاضر – وتقع إلى الشمال من تبوك، فلما بلغها أتاه أمراء الأجناد وأخبروه بأمر الطاعون الذي أصاب الشام، وأشاروا عليه بالرجوع، فرجع إلى المدين بعد أن استشار الناس، ورجع عمال الأجناد إلى أعمالهم. وخلال عصر الخلفاء الراشدين شهد طريق الحج الشامي أول عمارة على مساره، حين أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ ابن عريض بعمارة عين تبوك وطيها حتى لا تطمرها الرمال، لأنها كانت تنطمُّ في كل وقت، وفي عهد عمر بن الخطاب ﷺ سارت على الطريق القوافل الأولى للحجاج الشاميين.





(في المقابل)
حجاج على طريق مكة المكرمة، صورة مقتطفة من مخطوطة مقامات الحريري، بغداد، ١٢٣٧، باريس، المكتبة الوطنية، Arabe ٥٨٤٧، ص. ٩٤ v°

وتشير المصادر إلى أسماء عدد من منازل الطريق ومحطاته في ثنايا الأحداث التي شهدها عصر الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما مثل ذي المروة وذي خشب ووادي القرى والسقيا وتبوك.

وخلال العصر الأموي شهد طريق الحج الشامي فترته الذهبية الأولى حين أصبح الطريق الذي يربط مكة والمدينة العاصمتين الدينيتين بدمشق العاصمة السياسية للدولة الإسلامية، وقد سار معاوية بن أبي سفيان ﷺ خلال خلافته ثلاث مرات على هذا الطريق: مرتين هندما حج في عامي ٤٤، ٥٠هـ والثالثة عندما اعتمر في سنة ٥٦هـ.

وعندما استقرت الأوضاع لبني أمية زاد اهتمام خلفائهم بطريق الحج الشامي، حيث قام الوليد بن عبدالملك بالكثير من الإصلاحات على الطريق فأرسل إلى واليه على المدينة عمر بن عبدالعزيز يأمره بتسهيل الطرقات وحفر الآبار. كما قام عمر بن عبدالعزيز في عهد الوليد ببناء عدد من المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ في طريقه إلى تبوك، فبنى مسجد تبوك بالحَجَر والقَصَّة (مونة الجص)، وهو من مساجد الطريق المهمة، ويذكر الطبري أن أهل الشام يرون الوليد بن عبدالملك من أفضل خلفائهم، لأسباب ذكرها، ومنها أنه وضع المنال على الطرقات، ويضيف ابن الفقيه الهمذاني أن الوليد بن عبدالملك أول من حفر آبار المياه في طريق مكة إلى الشام.

كما نال طريق الحج الشامي رعاية خاصة من الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك، ويذكر المسعودي أن هشام بن عبدالملك اتخذ القُنِيّ والبرك بطريق مكة.

وبعد تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد وسقوط دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس، اهتم الخلفاء العباسيون الأوائل بالطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن العراق الرئيسة: الكوفة، والبصرة، وبغداد، ولم تشر المصادر إلى عمارة قاب بها أي منهم لطريق الحج الشامي، غير أن محطات الطريق في تلك الفترة ومنازله كانت مدناً عامرة ومأهولة، وقد وردت أوصافها في كتب الجغرافيين المسلمين، ومعلومات عن مراحل الطريق والمسافات الفاصلة بين منازلة. وتعد مؤلفات المسالك والممالك لابن خرداذبة، والمناسك للحربي، والبلدان لليعقوبي، أولى المصادر التي تحدثت عن منازل الطريق في القرن الثالث الهجري (٩م)، وتليها مؤلفات الأعلاق النفسية لابن رسته، والخراج لقدامة بن جعفر، وصفة جزيرة العرب للهمداني، وترد فيها معلومات عن منازل الطريف في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع.

وبقيام الدولة الفاطمية أصبح للعباسيين منافسون في رعاية شؤون الحرمين، والطرق المؤدية إليهما، حيث خُطِبَ للخليفة الفاطمي المعز لدين الله في مكة سنة ٣٥٨هـ وفي المدينة سنة ٣٥٩هـ. غير أن الأمر في الحجاز لم يستقر للفاطميين على الدوام مما دفعهم إلى التدخل بالقوة أكثر من مرة لفرض نفوذهم، كما فعلوا الأمر نفسه في بلاد الشام. وفي طريق الحج الشامي ثار عليهم في سنة ٣٧٨هـ حاكم وادي القرى حازم بن أبي حازم الطائي، الذي كان يسيطر على أكثر من نصف مسار الطريق، فبعث له الخليفة جيشاً أخمد ثورته وقضى عليه، وقد أعتمد الفاطميون فيما بعد على بني الجراح الطائيين أصحاب الرملة في ضبط الأمن على طريق الحج الشامي، وخصوصاً في الجزء الواقع بين دمشق ووادي القرى، في الوقت الذي كانت فيه طرق الحج القادمة من العراق تعاني انفلاتاً أمنياً أجبر قافلة الحج العراقية الرسمية على العودة من الحجاز في بعض السنوات مع حجاج الشام على طريقهم.

وخلال فترة رعاية الفاطميين لطريق الحج الشامي، سار على مسار الطريق وكتب عنه عدد من الجغرافيين والرحالة منهم: المقدسي صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرف الأقاليم، والإصطخري مؤلف كتاب مسالك الممالك، وابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض، وتوفر كتاباتهم معلومات عن بعض مدن الطريق ومحطاته المهمة الواقعة في الجزيرة العربية.

المرحلة الثانية: طريق الحج الشامي في فترة الوجود الصليبي

أثر وجود الصليبيون في قلعة الكرك بجنوب الأردن سلباً على حركة قوافل الحجاج على طريق الحج الشامي ابتداءً من اقرن الخامس الهجري (١١م)، حيث كان الصليبيون يهاجمون قوافل الحجاج مما اضطر كثيراً منهم إلى السفر إلى العراق ومرافقة حجاجه بدلاً من السير على الطريق الشامي الواقع تحت تهديد الصليبيين.

وقد ساعد وصول نور الدين محمد زنكي إلى سدة الحكم في دمشق على تحسين الأمن على الطريق بخاصة بعد أن أدى فريضة الحج سنة ٥٥٦هـ/١١٦٦م، غير أن الخطر الصليبي على قوافل الحج الشامي لم يزل إلا بعد استعادة قلعة الكرك سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م في عهد صلاح الدين الأيوبي.

المرحلة الثالثة: طريق الحج الشامي في العصرين الأيوبي والمملوكي

وتمتد هذه المرحلة قرابة ثلاثة قرون ٧-٩هـ/١٣-١٥م وخلالها تغير مسار الطريق في جزئه الأخير بين العلا والمدينة المنورة، حيث أصبح يمر على زمردة وهدية كما شهد الطريق خلال هذه المرحلة إصلاحات وإنشاءات كثيرة من أبرزها إنشاء بركة في محطة المعظم وهي أكبر بركة على طريق الحج الشامي في الجزيرة العربية، وقد أمر بإنشائها الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي سنة ٦١١هـ/١٢١٥م، ويتوفر أوصاف كثير لمسار الطريق في كتابات الرحالة الحجاج الذين ساروا على الطريق في العصري المملوكي مثل ابن بطوطة الذي حج سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، وأبن طولون.

المرحلة الرابعة: طريق الحج الشامي في العصر العثماني

قد شهد الطريق خلال الفترة العثمانية إصلاحات كثيرة فور دخول الحجاز تحت سلطة الحدود العثمانية حيث أنشئت مجموعة من القلاع على مساره مثل قلعة ذات حاج وقلعة تبوك وقلعة الأخضر في عهد السلطان سليمان القانوني وقلاع أخرى في كل محطة من المحطات في فترات لاحقة، واستمر الطريق في استخدام مساره السابق بين دمشق إلى العلا، واستخدام المسار الجديد بعد العلا، الذي يمر على قلعة الفقير ثم سهل المطران ثم قلعة زمرد ثم البئر الجديدة ثم هدية ثم إسطبل عنتر ثم الطلحتين ثم آبار نصيف ثم الحفيرة، وعندما نفذت سكة الحجيج بين دمشق والمدينة المنورة في عهد السلطان عبدالحميد مدت على هذا المسار نفسه.

الإطار الجغرافي لطريق الحج الشامي:

كان حجاج الشام ومن رافقهم من حجاج البلاد المجاورة يرحلون من دمشق باتجاه الجنوب، ويعبرون منطقة منبسطة إلى أن يصلوا إلى بلدة الكسوة، أولى منازل الطريق بعد دمشق، وقد ذكرت الكسوة عند بعض الجغرافيين المسلمين الأوائل وقدرت المسافة بينها وبين دمشق باثني عشر ميلاً، كما ذكرت في كتابات الرحالة الحجاج الذين كتبوا عن الطريق خلال العصور الإسلامية الوسيطة والمتأخرة، كابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، والموسوي في القرن الحادي عشر.

وفي الكسوة كان يجتمع شمل الركب، ثم يواصل الحجاج مسيرتهم نحو الجنوب إلى أن يصلوا إلى الصنمين – إحدى قرى حوران، وهي محطة رئيسة للطرق منذ الفترة الإسلامية المبكرة. وبعد الصنمين يتجه الطريق نحو الجنوب الشرقي، ويواصل مسيرته في بلاد حوران، ويمر على بصرى – المدينة الرئيسه في بلاد حوران، وفي بصرى بركة كبيرة لطريق الحج تتزود منها قوافل الحجاج بالماء، ثم تواصل مسيرتها نحو أذرعات التي تعرف اليوم باسم درعا، وقد اشار الحربي إلى أذرعات كإحدى منازل الطريق في القرن الثالث الهجري، وتبعد درعا ١٢٣ كيلاً عن دمشق.

وخلال العصور المتأخرة زاد عدد المحطات عن الجزء السوري من طريق الحج الشامي، فأصبحت على هذا النحو/ دمشق، الكسوة، خان دنون، غباغب، صنمين، شيخ مسكين، المزيريب، ثم درعا، وهي آخر محطات الطريق الرئيسة في الأراضي السورية.

ثم يبدأ الجزء الأردني من طريق الحج الشامي، وأولى محطاته خان المفرق، ومنها يتجه الحجاج جنوباً إلى الزرقاء على طريق مباشرة، أو مروراً بجرش وعمان. والزرقاء إحدى منازل الطريق الشامي منذ بداية استخدامه، وقد عدها الحربي في القرن الثالث الهجري منزلة رئيسة للطريق بعد أذرعات، وبعد الزرقاء يدخل الطريق في منطقة صحراوية؛ حيث أن مسار الطريق منذ خروجه من دمشق وحتى وصلوه الزرقاء يسير عبر أحراج تتوفر فيها المياه.

وكان الحجاج خلال الفترة الإسلامية المبكرة يمرون بالقسطل بعد خروجهم من الزرقاء، ثم الحفير، وهو اسم وادٍ تقع عليه بلدة القطرانة، ثم معان، ثم سرغ، وهي آخر محطات الطريق في جزئه الأردني. أما في العصور الوسيطة (العصرين الأيوبي والمملوكي) فقد تعددت منازل الطريق بين الزرقاء، ومعان، وتغيرت

بعض مسمياتها حيث أصبح الطريق يمر بعد الزرقاء على زيزياء، والقطرانة، والكراك، إلى أن يصل إلى معان ثم يمر على عقبة الصوان، ثم سرغ التي تُعرف الآن باسم المدورة.

وخلال العصر العثماني أصبحت منازل الطريق في جزئة الأردني على النحو التالي: المفرق، الزرقاء، خان الزبيب، البلقاء، القطرانة، الحسا، عنيزة، معان، بطن الغول، المدورة.

وعلى هذا الجزء الأردني آثار كثيرة للطريق يعود معظمها إلى الفترة العثمانية، وأبرز هذه الآثار: قلعة القطرانة وبجانبها بركة ماء كبيرة، وقلعة الحسا، وقلعة عنيزة، وقلعة معان، وقلعة المدورة.

وتبلغ مسافة الطريق في الأراضي الأردنية ٤٣٤ كيلاً من المفرق إلى المدورة وبعد المدورة يتجه الطريق جنوباً، ثم يميل قليلاً نحو الشرق، ويعبر قاع الشطية، ثم يصعد منطقة مرتفعة إلى أن يصل إلى حالة عمار، وهي اولى منازل الطريق في الأراضي السعودية.

مسار الطريق في الأراضي السعودية

حالة عمار:

يعبر طريق الحج الشامي بعد المدورة خط الحدود السعودية الأردنية، ويتجه صوب حالة عمار، ويسير في أراضٍ مرتفعة صعوداً حتى يصلها. وحالة عمار أرض تعبرها الطريق منذ القدم، عرفت بهذا الاسم في المصادر الجغرافية، ولم تكن منزلاً رئيساً للطريق خلال العصور الإسلامية المبكرة، وعدها ياقوت موضعاً ببلاد بلقين بين المدينة والشام، وسماها بعض الرحالة في العصور الإسلامية المتأخرة زلاقات عمار، لكثرة وجود الأحجار الرملية في أرضها، وهي أحجار تنزلق عليها أخفاف الإبل، وفي حالة عمار علم لطريق الحج، مبني على شكل عمود يقوم على قاعدة بيضوية، ويرى د. علي الغبان أن تاريخ بناء هذا العلم قد يعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة، ويستبعد أن يكون من الفترة المتأخرة أيضاً.

وخلال العصور الإسلامية المتأخرة أصبحت حالة عمار منزلاً متوسطاً للطريق بين المدورة وذات الحاج، كما أنشئت لها محطة سكة حديد الحجاز.

ذات حاج:

بعد حالة عمار يعبر مسار الطريق منطقة وسط الشعثاء التي تعد جزءاً من هضبة حسمي، ويسير في أرض منبسطة تعطيها رقائق الصخور الرملية مسافة ١٣كم حتى يصل إلى ذات حاج، وهي محطة للطريق في قاع وادٍ يعرف بهذا الاسم، وحاج اسم لنبات كان ينمو في هذه الأرض، لذا سميت بذات الحاج، ووردت بهذا الاسم في شعر جميل بثينة الذي عاش في العصر الأموي وعدها من منازل طريق الشام، ثم حرف اسمها إلى ذات الحاج في العصور الإسلامية الوسيطة والمتأخرة نسبة إلى قوافل الحجاج التي تمر بها.

وقد أنشئت على مياهها بركة للحجاج، جددت في العصر العثماني وأضيفت عليها قلعة في عصر السلطان سليمان القانوني.

تبوك:

تبوك هي المحطة التالية لذات حاج على مسار الطريق،وهي محطة رئيسة وإليها نسب الطريق في العصور الإسلامية المبكرة فعرف بالتبوكية، وتبعد تبوك عن حالة عمارة مسافة ٨٠كم تقريباً، يعبر خلالها الطريق قاعاً واسعاً عرف بقاع البسيطة أو وادي بلدح أو قاع الصغير، وقد عدت هذه المسافة مرحلة واحدة في كتابات الرحالة الحجاج على الرغم من أنها تزيد عن مسافة المرحلة، وتبوك واحة قديمة ذكرت في المصادر اليونانية، وكانت في الفترة الإسلامية المبكرة قرية لبني سعد من عذرة، واشتهرت في المصادر بغزوة تبوك حين سار إليها رسول الله ﷺ بجيش العُسرة في السنة التاسعة للهجرة للقاء الروم.

وفي تبوك فجر رسول الله ﷺ عيناً، وصلى في موضع بها أُقيمَ فيه مسجدٌ لا يزال بالمكان وينسب إليه ﷺ، وحول هذا المسجد والعين نشأت بلدة لطيفة وصفها الإصطخري في القرن الرابع الهجري بقوله: ((حصن بنه عين ونخيل)). كما وصفها الإدريسي في القرن السادس وذكر أنها: ((مدينة في نحو طريق الشام ولها حصن يضيف بها وشرب أهليه من عين فوارة وبها نخل كثير))، وكان الحجاج ينزلون على عين تبوك

ويغتسلون ويتزودون بالمياه والأقوات للمراحل التالية، وقد طويت عين تبوك في عند الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، ثم أقيمت علها برك في العصور الإسلامية التالية، كما أضيفت بالموقع قلعة في عصر السلطان سليمان القانوني.

الأخضر/المحدثة:

تذكر المصادر الجغرافية موضع المحدثة كمحطة رئيسة للطريق بعد تبوك، وتجعلها على بعد مرحلة منها.

ويرى د. الغبان أن المحدثة تقع في وادي الأخضر حيث يوجد موقع أثري لبلدة إسلامية مبكرة، والأخضر وادٍ معروف مر به الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك، وفي هذا الوادي بئر كانت مصدر الماء الوحيد لقوافل الحجاج عبر جميع العصور، وقد أنشئت حول البئر برك عدة خلال العصر المملوكي، ثم جددت في العصر العثماني وزيد في عددها، كما أقيمت على البئر قلعة في عصر السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ٩٣٨هـ؛ لم يتبق منها في الوقت الحاضر إلا أساساتها.

وتقع الأخضر على بعد ٦٨ كم جنوب شرقي مدينة تبوك، وقد قدرت المسافة بينهما مرحلة واحدة عنه الجغرافيين القدامى، إلا أنها اعتبرت أكثر من ذلك في كتابات الرحالة الحجاج بدءاً من القرن السابع الهجري، فابن شجاع الدمشقي الذي حج سنة ٦٢٣هـ جعلها مرحلتين: الأولى ومسافتها ٢٨ كم من تبوك إلى وادي الطلح، والثانية من وادي الطلح إلى الأخيضر، وأما ابن طولون الذي حج سنة ٩٢٩هـ فقد جعلها ثلاث مراحل: الأولى من تبوك إلى وادي الأثل الذي يعرف اليوم باسم الأثيلي، والثانية من وادي الأثل إلى مغاير القلندرية ومسافتها ٢٤ كم، والثالثة من معاير القلندرية إلى الأخيضر ومسافتها ١٦ كم.

من الأخضر (المحدثة) إلى الأقرع:

يتفق الجغرافيون المسلمون الذين عددوا منازل طريق الحج الشامي خلال الفترة الإسلامية المبكرة على أن الأقرع المحطة الأولى للطريق بعد المحدثة في اتجاه السائر إلى الحجر، ومن هؤلاء ابن خرداذبة والحربي وابن رسته وقدامة بن جعفر، وتقع الاقرع على بعد ١٥٠كم إلى الجنوب من المحدثة، وهي مسافة تزيد عن المرحلة الواحدة، وقد جعلت مرحلتين في كتابات الرحالة الحجاج خلال القرنين السابع والثامن للهجرة، فظهرت محطة أسفل الحاكة، التي تعرف أيضاً باسم المعظم، كمحطة متوسطة بين الأخضر، حيث تقع المحدثة، والأقرع. وخلال العصر العثماني زادت منازل الطريق على هذه المسافة لتصبح ستة منازل على النحو التالي: الأخضر، ثم الأسدة في وادي الصاني، ثم بركة المعظم، ثم الجنيب أو ظهر الحمراء التي عرفت أيضاً بالدار الحمراء وتعرف اليوم باسم البريكة، ثم قروش الرز، ثم الأقرع الذي حمل أيضاً أسماء عدة منها الأقارع والأقيرع، واهم هذه المنازل المعظم التي ظهرت على الطريق بدءاً من العصر الأيوبي حين أنشأ، سنة ٦١١هـ الملك الأيوبي المعظم شريف الدين عيسى ابن الملك العادل ابن أيوب بركة بالقرب من أسفل الحاكة اشتهرت باسم بركة المعظم، ثم أصبح مكانها يعرف باسم المعظم، وفي المعظم بركة مربعة وهي أكبر بركة على طريق الحج الشامي، وقلعة عثمانية بنيت سنة ١٠٣١هـ في عهد السلطان عثمان الثاني، ومبانٍ لسكة حديد الحجاز.

أما الجنيب، ويعرف اليوم باسم ((أم جنيبة)). فهو ممسك طبيعي للمياه، ومورد مجانب لمسار الطريق، يقع على بعد ١٠كم إلى الشمال من البريكة، وأول من عده مرودأ للطريق ابن فضل الله العمري في القرن الثامن الهجري، وأما الداء الحمراء التي تعرف اليوم باسم البريكة فقد اشتهرت خلال العصر العثماني، وفيها بركة للحجاج ربما يعود تاريخ بنائها إلى ما قبل ذلك العصر، ثم أضيفت على البركة قلعة في العصر العثماني على يد عثمان باشا سن ١١٦٧هـ/١٧٥٤م.

وأما الأقرع، أقدم المحطات ذكراً على الطريق، فلا آثار مبنية فيه سوى محطة صغيرة لسكة حديد الحجاز تعرف باسم المطلع، والأقرع عبارة عن منطقة واسعة بها تكوينات جبلية متناثرة بينها مماسك طبيعية للمياه كانت تنزل عليها قوافل الحجاج.

وعلى الرغم من تغير مسميات المنازل وأعدادها بين الأخضر والأقرع فإن مسار الطريق ظل ثابتاً عبر جميع العصور، وقد كان هذا الجزء من أصعب أجزاء الطريق على الحجاج لقلة مياهه، واعـتماد توفرها على سقوط الأمطار.



حصن الأخضر، ١٩٠٧، تصوير P. Savignac، (الى اليمين، مخيم للجيش العثماني المنصرف الى شق خط الحجاز الحديدي.

من الأقرع إلى الحجر:

يذكر الجغرافيون المسلمون الأوائل منزلاً متوسطاً للطريق بين الأقرع والحجر يسمونه الجنينة، على الرغم من أن المسافة بينهما لا تزيد كثيراً عن المرحلة الواحدة ويقسم الحجاج المتأخرون بدءاً من القرن العاشر الهجري هذه المسافة نفسها إلى ثلاث مراحل هي: الأقرع – جبل الطاق الذي يعرف اليوم باسم أبو طاقة ومسافتها ١٥كم، ثم أبو طاقة – المبرك الذي عرف أيضاً باسم مبرك الناقة أو الشق ومسافتها ١٢كم، ثم المبرك – الحجر ومسافتها ٢٥كم. والشق يبعد بضعة كيلومترات إلى الشمال من المبرك، وهو ممر جبلي يجتازه مسار الطريق ليصل في فضاء الحج، وأما الطاق فهو جبل رملي فيه مفتحة تشبه الطاقة ولذلك يسمى أبو طاقة، وأما الحجر المكان المعروف كان منزلاً رئيساً لطريق الحج الشامي، وكان الحجاج ينزلون على البئر التي تعرف ببئر الناقة نسبة إلى ناقة النبي صالح عليه السلام، وتقع في وسط الواحة بعيدًا عن الأضرحة المنحوتة في التكوينات الجبلية التي تملأ المكان.

وعلى البئر أضيفت بركة وقلعة ويعود تاريخ القلعة إلى العصر العثماني، وقد بنيت على يد حاكم دمشق أسعد باشا ب العظم سنة (١١٥٦-١١٧٠هـ)، وبالقرب من القلعة مجموعة مبانٍ لسكة حديد الحجاز، أحداها ورشة لصيانة القطارات.

منازل الطريق في وادي القرى:

وادي القرى هو الوادي الذي يُعرف اليوم بوادي العلا، ويبدأ من الحجر (مدائن صالح) ويسير باتجاه الجنوب إلى أن يصب في وادي الجزل عند بلدة السقيا التي تعرف اليوم باسم الخشيبة، وبهذا الوادي كانت تقع بلدات وقرى يمر بها طريق الحج الشامي طوال فترات التاريخ الإسلامي ومنها: العلا، قرح (مدينة وادي القرى الرئيسة).

وقد اختلف الباحثون في تحقيق موقع قرح حيث يرى د. عبدالله نصيف أن المابيات، وهي موقع أثري لمدينة إسلامية تقع إلى الجنوب من العلا على مقربة من قرية مغيرة، هو موقع مدينة قرح التي كانت عاصمة لناحية وادي القرى في الفترة الإسلامية المبكرة. في حين يرى حمد الجاسر أن قرح تقع في موقع الخريبة القرى الواقع بالقرب من العلا، وأن المابيات يحتمل أن تكون مدينة الرحبة إحدى مدن وادي القرى، ويؤيد د. الغبان في أطروحته للدكتوراه القول بأن قرح تقع في المابيات، أما الرحبة فيرى أنها تقع على وادي الجزل في المكان المعروف باسم الكتيفة، حيث يوجد موقع أثري لبلدة من الفترة الإسلامية وتدعم الأدلة الأثرية التي تم جمعها من خلال المسوحات وأعمال الحفر التي تمت في موقع المابيات الرأي القائل بأن المابيات هي موقع مدينة قرح.

من الحجر إلى المابيات:

كان لطريق الحج الشامي خلال القرون الهجرية الأولى مساران، الأول منهما: المسار الشرقي ويعرف باسم درب الحاج، كما يسمى أيضاً أبو زريبة، ويتجه هذا المسار نحو الجنوب الشرقي فيعبر بعد الحجر قاع المعتدل، ثم يدخل في سهل محفوف بالجبال حتى يخرج إلى قاع رم، ثم يجتاز هذا القاع إلى قرح (المابيات). والثاني: المسار الأوسط ويمكن تسميته بطريق العلا، وهو يسير بعد الحجر باتجاه العذيب، ثم يتجه إلى علا وبعدها يسير في وادي العلا حتى يصل إلى قرح (المابيات). ويبدو أن المسار الأول (درب الحاج) هو الأكثر استخداماً من قبل الحجاج خلال الفترة الإسلامية المبكرة، حيث توجد على هذا المسار أعداد كبيرة من النقوش التذكارية التي خلفها الحجاج، ويمكن تأريخها بالفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن الرابع الهجري، وأحدهما مؤرخ بعام ٢٤ للهجرة (نقش زهير). وهذا المسار هو الأقصر لأنه يسلك طريقاً مباشرًا بين الحجر وقرح دون المرور على العلا، وتبلغ مسافة هذا المسار ٢٤كم ـ أما طريق العلا الذي يمر على العذيب فتبلغ مسافته ٣٧كم، وكان بدوره مستخدماً منذ بداية القرن الأول الهجري، فقد قيل أن رسول الله ﷺ صلى في موقع مسجد العظام بالعلا وهو في طريقه إلى تبوك، واستمر استخدام هذا المسار الثاني طوال فترات التاريخ الإسلامي، فقد عرفت العلا كمنزلة مهمة على هذا المسار في رواية برجع تاريخها إلى العصر الأموي، ثم أصبحت منذ القرن السابع للهجرة المدينة الأولى بناحية وادي القرى والبلدات التي كانت مأهولة في الفترة الإسلامية المبكرة، وقد مر بالعلا ابن شجاع الدمشقي سنة ٦٢٣هـ وذكر أن الحجاج يودعون بها أمتعتهم، كما وصفها ابن بطوطة عندما مر بها سنة ٧٢٦هـ وذكر أنها قرية كبيرة يقيم بها الحجاج يتزودون ويغتسلون يودعون أفضل زادهم، ولا تزال البلدة القديمة قائمة، وقد هجرت في الوقت الحاضر.

من وادي القرى إلى المدينة المنورة:

كان لطريق الحج الشامي بين وادي القرى والمدينة المنورة مساران.

المسار الأول القديم:

وكان مستخدماً خلال الفترة الإسلامية المبكرة: من القرن الأول الهجري إلى القرن السادس وهذا المسار يسير بعد قرح (مدينة وادي القرى) مع مجرى الوادي حتى يصل إلى السقيا، وتقع في نقطة التقائه بوادي الجزل ويعرف موقعها اليوم باسم الخشيبة، وكانت مدينة لقبيلة بلي، وبها يلتقي طريق الحج الشامي وطريق الحج المصري الداخلي، وقد ذكر المقدسي أن النخيل متصلة من قرح إليها.

وبعد السقيا يتجه الطريق نحو الرحبة التي تذكر المصادر أنها تقع على وادي الجزل إلى الشمال من ذي المروة، ويرى د. الغبان أن موقعها يسمى اليوم الكتيفة، حيث يوجد في منطقة رحبة وواسعة موقع أثري لبلدة إسلامية على الضفة الغربية لوادي الجزل، وبين موقع مدينة ذي المروة ومدينة السقيا. وتبلغ المسافة بين الخشيبة والكتيفة ٤٠كم، وفي ضوء ذلك يمكن تقدير المسافة بين السقيا والرحبة بمرحلة واحدة.

ويذكر د. الغبان أن حجاج الشام كان بإمكانهم التوجه مباشرة من قرح (مدينة وادي القرى) إلى الرحبة عبر طريق أخرى مباشرة تبلغ مسافتها ٤٠كم، أي مرحلة واحدة دون المرور على السقيا، وهي الطريق التي تربط اليوم قرية مغيرة بقرية الكتيفة، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن خرداذبة وابن رستة اللذان جعلا الرحبة المحطة التالية لطريق الحج الشامي بعد وادي القرى باتجاه المدينة.

وبعد الرحبة يتجه الطريق إلى ذي المروة، وهي مدينة كانت مشهورة في الفترة الإسلامية المبكرة، وتقع آثارها بالقرب من نقطة التقاء وادي الجزل بوادي الحمض في منطقة أم زرب على مقربة من قرية بدائع الظليعة، وكانت من مدن جهينة ثم أصبحت سكناً لآل جعفر بن أبي طالب، وقد وصفها المقدسي في القرن الربع الهجري بأنها بلد حصين كثير النخل.

وتلي ذوي المروة ذي مر في ترتيب منازل الطريق، ويرى د. الغبان أنها تقع على وادي الحمض في موقع «أبا الحلو»، على بعد ٦٣كم من ذي المروة، حيث توجد أساسات لبناء أثري من الفترة الإسلامية المبكرة.

أما المنزلة التالية للطريق في ترتيب الجغرافيين المسلمين فتعرف بالسويداء، ويرى د. الغبان أنها تقع في الموقع المعرف بإسطبل عنتر الذي ينتشر ي الحجر الحري الأسود، ويعلل ذلك بأن أسم المكان ربما اشتق من صفة تضاريسه، ويبعد إسطبل عنتر ٤٧كم، عن أبا الحلو.

وتلي منزلة السوداء منزلة ذي خشب، وهي المنزلة الأخيرة قبل المدينة المنورة، وتقع بالقرب من قرية المليليح على بعد ٦٠كم إلى الشمال من المدين، وتسمى في الوقت الحاضر وادي المندسة، وكان بها في العصر الأموي منازل لغير واحد من الأعيان، وقصر لمروان بن الحكم، وبها نزل بنو أمية لما أُخرجوا إلى الشام قبل وقعة الحرة؛ وبالمندسة اليوم أطلال لخمسة قصور تعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة.

المسار الثاني الجديد:

بدأ استخدامه خلال القرن السادس الهجري بعد اندثار المدن التي كانت قائمة على المسار القديم، ويمر هذا المسار الأحدث بعد العلا على المابيات ثم يتجه صوب سهل المطران ويمر بعد ذبك على منطقة زمرد، ثم الصورة ثم هدية، التي كانت إحدى المنازل المهمة لهذا المسار، وبعد هدية يتجه المسار نحو إسطبل عنتر، وقبل وصولها يتقاطع مع المسار القديم في موقع أبي النعم، ثم يمر الطريق على الفحلتين، ثم آبار نصيف، ثم الحفيرة، ثم يصل إلى المدينة.

وحظي هذا المسار بعناية خاصة خلال العصر العثماني، فأنشئت في معظم محطاته قلاع وبرك وآبار لخدمة قوافل الحجاج، كما مدت عليه سكة حديد الحجاز في مطلع القرن العشرين، وقد سجلت كتابات الرحالة الحجاج أوصافاً لهذا المسار ومنازله بدءاً من القرن السابع الهجري ومن هؤلاء ابن شجاع الدمشقي الذي حج سنة ٦٢٣هـ وابـن رشيد الأنـدلسي الذي سـار على الـطريق سنة ٦٨٤هـ وابن بطوطة الذي سار عليه سنة ٧٢٦هـ.

وتجدر الإشارة في نهاية الحديث عن الإطار الجغرافي إلى أن هذا الإطار الجغرافي الذي تم عرضه يغطي كامل المسار الرئيس لطريق الحج الشامي، أما الإطار الجغرافي لموضوع هذا الكتاب فيقتصر على جزء الطريق الواقع داخل الأراضي السعودية من حالة عمار إلى المدينة المنورة.

المصادر والمراجع :

- **الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري (ت بعد ٩٧٦هـ)**
الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٤٠٣هـ.
- **الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ)**
معجم البلدان، طبعة مصورة، دار صادر، بيروت: ١٩٨٦م.
- **السمهودي، نور الدين علي (ت ٩١١هـ)**
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- **المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله (ت ٣٨٠هـ)**
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٠٨هـ.
- **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)**
الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، القاهرة: ١٩٥٥م.
- **الأنصاري، عبدالرحمن، وأبو الحسن حسين:**
العلا ومدائن صالح (حضارة مدينتين)، دار القوافل، الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- **الجاسر، حمد**
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – شمال المملكة، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٣٩٧هـ.
أشهر رحلات الحج – ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، ط١، منتشورات دار الرفاعي، الرياض: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
في شمال غرب الجزيرة العربية، ط٢، دار اليمامة، الرياض: ١٤١٠هـ.
- **العجيمي، هشام**
«**قلعة تبوك**»، مجلة جامعة أم القرى، السنة الأولى، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ.
- **غبان، علي بن إبراهيم:**
النقوش العثمانية الباقية على عمائر طريقي الحج الشامي والمصري في شمال غرب المملكة العربية، أعمال المؤتمر الثاني لمدونة الآثار العثمانية في العالم، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والملعومات، زغوان – تونس: ١٩٨٨م، ص ٢٠١، ٢٤٢.
شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة – مدخل عام –، مطبعة سفير، الرياض: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- **الكلابي، حياة بنت عبدالله:**
النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية (من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- **نصيف، عبدالله:**
العلا دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي، ط١، بدون دار نشر، الرياض: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- **بني يونس، مأمون أصلان**
قافلة الحج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٨م، ط١، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، ودار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن: ٢٠٠٠م.

المراجع الأجنبية :

- **Doughty, ch.**
Documents epigraphiques recueillis dans le Nord de l'Arabie, ed Académie dec Inscrptions et Belles Lettes, Paris, 1884.
- **Ghabban, Ali**
«Introduction à l'étude archéologique des deux routes syrienne et égyptienne de pélérinage au Nord-Ouest de 1'Arabie Saoudite» رسالة دكتوراة، غير منشورة نوقشت بجامعة بروفانس، ابريل ١٩٨٨م.
- **Huber, Charles**
Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884), Paris Imprimerie Nationale, MDCCC VCL.
- **Jaussen et Savignac**
Mission archéologique en Arabie, vol.II Paris, 1909.
- **Nasif, Abdullah Adam**
Al Ula, an Historical and Archeological Survey With Special Reference to its Irrigation System, King Saud University Press, Riyadh, 1988.

المابيات

مدينة قرح الإسلامية بمحافظة العلا

د. عبدالله بن إبراهيم العمير

منظر عام للموقع

تقع المابيات بين العلا شمالاً ومطران جنوباً، على خط الطول ٦ً، ٣٨° شرقاً ودائرة العرض ٣٠ً، ٢٦° شمالاً في منطقة المدينة المنورة. وبجوار المابيات على بعد بضعة أكيال جنوباً تقع بلدة مغيرة بمزارعها المعتمدة على الآبار.

وتعرف مدينة قرح (المابيات) خلال فترة ما قبل الإسلام على أنها سوق تجارية مشهورة، وعدت من أسواق العرب المعروفة في الجاهلية[١] وبلغت درجة عالية من النمو والازدهار في العصر الإسلامي، حتى وصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بأنها المدينة الثانية في الحجاز بعد مكة[٢]. ووصفها الأصطخري (معبرًا عنها بوادي القرى) بأنها المدينة الرابعة بعد مكة والمدينة واليمامة[٣]. واستمرت كذلك إلى أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ثم اختفت واختفى اسمها واسم وادي القرى كلياً حتى من الذاكرة عند سكان المنطقة. علماً أن ياقوت الذي كان حديث العهد بنهاية مدينة وادي القرى وهجرها (عاش من ٥٧٤ - ٦٢٦هـ/ ١١٧٨ - ١٢٢٩م) أشار بأن مبانيها كانت في أيامه ما زالت ظاهرة ولكنها خرائب ومياهها جارية تتدفق لا ينتفع بها أحد[٤].

الدراسات الأثرية للموقع

يعرف هذا الموقع عند أهل العلا اليوم بالمابيات ويحتل مساحة قدرها ٦٤٠ ألف متر مربع وهي أرض فضاء خالية من السكان يحيط بها بقايا سور متعرج له ثلاث بوابات، ويتصل بالسور تل مرتفع بنيت على قمته قلعة. وقد كشفت الحفريات التي قامت بها الإدارة العامة للآثار عام ١٤٠٤هـ عن نقود متنوعة منها نصف دينار يحمل اسم العزيز بالله الفاطمي. كما كشف عن بعض الوحدات السكنية من ضمنها منزل سجل عليه اسم صاحبه بعبارة «بيت سليمان بن محمد ابن سليمان بن محمد» على حجر وجد في أسفل سارية مبنية من الطوب المحروق.

وقد استهل قسم الآثار بكلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود أعمال التنقيب في الموقع عام ١٤٢٥هـ في الجزء الشمالي من المنطقة، وذلك وفق الأهداف التي رسمت له. وقد لوحظ أثناء سير أعمال التنقيب أن التباين الملحوظ على سطح المنطقة المحفورة يظهر كذلك في عمق المربعات. إذ تبين أن الجزء المرتفع المحاذي للسور، هو من بقايا السور نفسه، حيث كسر الطوب اللبن، وما تراكم عليها من الرمال والأحجار وبقايا النباتات ونحوها. كما تبين أن المربعات الواقعة بين السور والتلال المرتفعة جنوباً منها خالية من الظواهر المعمارية المترابطة. وتدل مكوناتها المتمثلة بطبقات من الرمل الخشن والروبة الناعمة التي تتشكل جراء جرف مياه السيول، على أن هذا المكان المنخفض نسبياً، ربما كان فضاءً مفتوحاً؛ كأن يكون ساحة بينية أو شارعاً نافذاً. ومما يلاحظ أن الحفر في هذا الحيز تجاوز المترين. أما المنطقة المرتفعة التي تمثل المظهر الثالث من موقع التنقيب فتحتوي على العديد من الظواهر الأثرية المعمارية وغير المعمارية، إلى جانب العديد من العناصر المرتبطة بالوحدات السكنية وساكنيها.

١- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب، دمشق، ١٩٦٠م، ص ١٩٤.
٢- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، لدين، ١٩٠٦، ص ٨٤ - ٨٤.
٣- الاصطخري، المسالك والممالك، ط٢، تحقيق دي جويه، ليدن، ١٩٢٧م، ص ١٩
٤- ياقوت، ص ٣٣٨..

ويمكن التعريف بأبرز مواد البناء المستخدمة في العناصر المعمارية في الموقع، وذلك على النحو التالي:

١- الطين: تبين أن الطين المستخدم في بناء العناصر والوحدات المعمارية في الموقع من النوع الجيد. ويبدو من خلال لونه وصلابته أنه يجلب من مكان واحد، لعله ضفاف الوادي الذي تقع عليه المدينة. ويعد الطين مادة البناء الأساسية المستخدمة في الموقع، فمنها يعد الطوب اللبن المخلوط بالتبن وذلك لبناء الجدران الداخلية والأسوار الخارجية. ومن هذه المادة تعد المونة الرابطة بين الجدران المشيدة من الطوب، والجدران المشيدة بالمداميك الحجرية. كما تستخدم في رصف أرضيات الوحدات والمرافق السكنية، إلى جانب الأعتاب السفلية للمداخل والدرج ونحوها، وكذلك في كسوة الواجهات الجدارية بطبقة سميكة منه.

٢ - بلاطات الآجر: تمكن السكان المحليون من تحويل مادة الطين إلى بلاطات من الآجر، وذلك بعد تشكيلها بقوالب مختلفة الأشكال والمقاسات. فمنها بلاطات مربعة ملساء ظهرت بمقاسات ثلاث: كبيرة (٢٥سم × ٢٥سم) ومتوسطة (٢٠سم × ٢٠سم) وصغيرة؛ وتستخدم في رصف الأرضيات والوحدات وربما أسطحها وكذلك الأجزاء السفلية من الجدران. ومن هذه البلاطات المربعة نمط تحتوي واجهته على عناصر زخرفية (هندسية أو نباتية) بارزة، أي مطبوعة بقالب موحد لجهة كونها مادة طريئة قبل وصولها إلى مرحلة الشوي، ويستخدم هذا النمط في كسوة وتجميل الواجهات الجدارية. والواقع أنه لم يعثر سوى على مجموعة قليلة من هذه البلاطات المزخرفة بين أنقاض الجدران، أي لم تكتشف في مواقعها الأصلية في الواجهات الجدارية، ولعل شكلها الجميل تسبب في الإغراء بنقلها خارج الموقع لإعادة استخدامها. كما اكتشف نوع آخر ثلاثي الأضلاع؛ أي على هيئة مثلث متساوي الساقين، في حين يظهر ضلعه الثالث الأقصر منحنياً غير مستقيم. وذلك لأن هذا النوع يستخدم خصيصاً لتشييد الأعمدة الأسطوانية، وقد يستخدم في عناصر أخرى كما هو الحال في الدعامات الملحقة بسور المدينة.

٣ - الأحجار: تستند معظم الجدران على أساسات مبنية من مداميك حجرية متينة. غالبية هذه الأحجار من النوع الرملي الأحمر، ومنها جرانيتية سوداء أو فحمية اللون، وفي حالات قليلة تظهر أحجار بازلتية أو نارية. وتجلب الأحجار بأنواعها من المقالع أو المحاجر الموجودة في الجبال القريبة من المدينة، لاسيما تلك الواقعة في الجهة الشمالية والشمالية الشرقية منها. وتستخدم هذه الأحجار بالإضافة إلى أساسات الجدران، في الأعتاب السفلية والعلوية للمداخل، وفي الدعامات الداخلية وفي المواقد ومواقع تصريف المياه داخلياً وخارجياً. ومما يلاحظ أن جميع الأحجار المكتشفة في هذا الموقع غشيم غير مشذبة، وهذا يعني أنها في الغالب تلتقط من الجبال تلقائياً، وفي حال قطعها في المحاجر فإنها لا تهذب وتحال إلى كتل ذات أضلاع هندسية، كما هو الحال في أحجار الخريبة (ددان) أو مدينة العلا الإسلامية.

٤ - الجص: تم العثور على عدد غير قليل من أرضيات الوحدات المكسوة بطبقة جصية يتراوح سمكها بين ١,٥سم و٢,٥ سم. كما تبين أن هذه المادة تستخدم في كسوة الأجزاء السفلية الداخلية من جدران الوحدات والمرافق السكنية، وكذلك في بناء مداخل بعض الحجرات. وقد لوحظ أن مادة الجص المستخدمة صلبة وخالية من الشوائب؛ ويبدو أن مادتها الخام الأساسية تجلب من الكثُب الواقعة في الجهتين الجنوبية والجنوبية الشرقية من الموقع.

٥ - الأخشاب: خلال مراحل التنقيب التي نفذت في المربعات التي ظهرت فيها جدران تشكل فيما بينها وحدات سكنية، عثر على نماذج، أو بالأحرى عينات عديدة لعوارض خشبية متنوعة. بعضها ذات مقطع سميك تناسب وظيفتها المتمثلة بتسقيف الحجرات، وبعضها الآخر أقل سمكاً، ولعله مما يستخدم لعمل الأوتاد والعوارض الخشبية ونحوها. كما عثر على بعض الحفر الدائرية الصغيرة في منتصف إحدى الوحدات وبداخلها بقايا لقطع خشبية، ويبدو أن هذه مما يستخدم لحمل الظلات والعرائش المنزلية.

الوحدات والمرافق المعمارية

كشفت أعمال التنقيب عن العديد من تفاصيل العناصر المعمارية التي تشكل فيما بينها مجموعة من الوحدات والمرافق المعمارية. بعض مكونات هذه الوحدات واضحة المعالم ويمكن تتبعها والتعرف عليها، من قبيل كيفية ارتباط الجدران وعلاقتها ببعض، وكذا اتجاهات الوحدات، ومساحاتها، ومداخلها ونحو ذلك. إلا أنه لا تزال هناك تفاصيل معمارية يصعب تحديد ماهيتها ووظيفتها في الوقت الراهن. ذلك أن محدودية المكان المحفور، وتراكم المراحل السكنية، بالإضافة إلى وجود الفواصل بين المربعات تحول دون الخروج بتصور واضح وتفسير مقنع لما يتم الكشف عنه. وللتعرف على مزيد من التفاصيل المعمارية، سيتم عرضها على النحو التالي:

سور المدينة: كشفت أعمال التنقيب في المربعات (Y1, X1, W1) عن جزء من سور المدينة يمتد من الشرق إلى الغرب. وقد بني السور بمداميك من الطوب اللبن (٢٠سم × ٥٠سم) مع مونة طينية رابطة. واجهة السور الخارجية خالية من الكسوة الطينية الجدارية المعهودة، أما واجهته الداخلية فمكسوة بطبقة طينية تعلوها في الأجزاء السفلية طبقة جصية رقيقة. وخلال أعمال التنقيب تم النزول بعمق تجاوز ٢,٥م، علماً أن وجه السور لم يكن ظاهراً للعيان

في الحيز الذي تم تنقيبه، وهذا بخلاف أجزاء أخرى من السور لا تزال شاخصة واضحة التفاصيل. ومما يلفت الانتباه أنه عند الوصول إلى الأرض البكر تبين أن السور لا يستند على مداميك حجرية، بل يقوم مباشرة على مداميك من الطوب اللبن. وعلى الرغم من سمكه الضخم الذي يصل إلى ١,٥م إلا أنه مزود من الداخل بدعامات مستطيلة مشيدة من بلاطات الآجر والطين. ويلاحظ أن الدعامات المكتشفة متماثلة في الحجم تقريباً، إذ يبلغ طولها ٩٠ سم في حين يصل عرضها إلى ٧٠ سم.

تجدر الإشارة إلى أن وصلة السور التي تم الكشف عنها والتي يبلغ طولها حوالي ١٥م زودت فريق العمل بمعلومات جيدة عن شكل السور ومواد بنائه وعمقه، ونحو ذلك، إلا أنه لا يزال من المبكر الخروج بتصور واضح عن خفاياه. حيث إن هذه الوصلة خلقت بعض التساؤلات التي تنتظر الإجابة عنها، لاسيما ما يتعلق بالدعامات الداخلية، وعدم وجود أساسات حجرية يستند عليها، ونحو ذلك. ويمكن القول في هذا الصدد إنه خلال معاينة الدعامات المكتشفة تبين أنها مشيدة في فترة متأخرة عن فترة بناء السور نفسه، بدليل عدم تداخل مواد بناء الدعامات (بلاطات الآجر) مع مواد بناء السور (الطوب اللبن)، بل إن هذه الدعامات تستند على واجه السور داخلياً وغير متلاحمة معها. كما أن بلاطات الآجر المستخدمة في تشييد هذه الدعامات هي من النوع المثلث المتساوي الساقين مع استدارة الضلع الثالث، أي أنها مخصصة لتشييد الأعمدة الأسطوانية، وليس لعناصر معمارية أخرى. وهذا يعني أن هذا النوع كان متوفرًا وقت بنائها، ولم تعد لها البلاطات الملائمة والتي يفترض أن تكون من النوع المربع. ثم هل من الممكن أن يلجأ المعماري إلى دعم سور ضخم يصل سمكه إلى ١,٥٠م وارتفاعه قد يتجاوز ٤م (حسب بقاياه الشاخصة) بهذه الدعامات الصغيرة نسبياً (٧٠سم ×٩٠سم). وبذلك لا يمكن الجزم - في الوقت الراهن - بالوظيفة الدقيقة لهذه الدعامات، لاسيما أن ارتفاعها الحالي لا يتجاوز ٧٠سم مقابل ارتفاع السور الذي يبلغ ٢,٥م. ولعل الكشف عن مزيد من امتداد السور يبين الوظيفة الحقيقية لهذا العنصر المعماري. فإذا استمرت بالظهور على نفس الوتيرة فلا شك من كونها دعامات للسور، وإلا فهي ذات وظيفة إنشائية لعناصر معمارية داخلية.

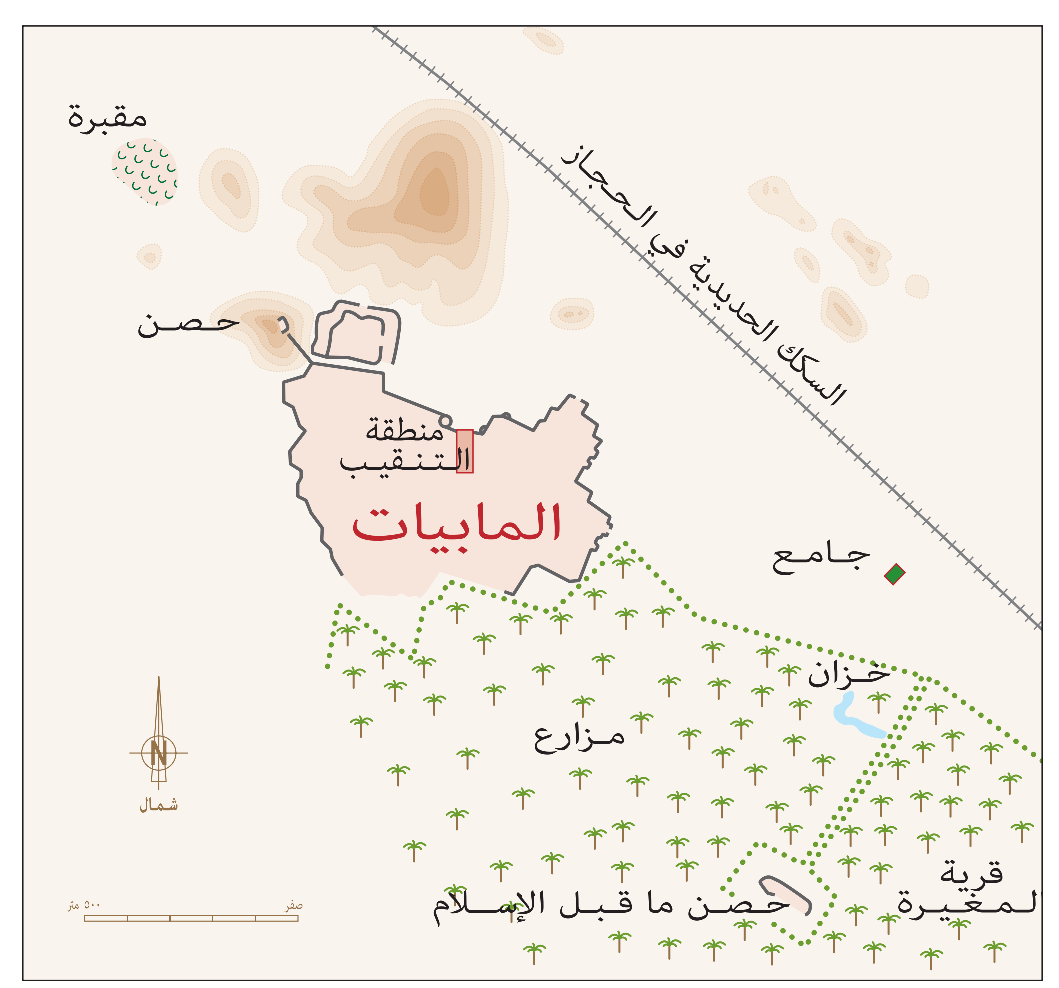
منظر عام لوحدة سكن

الدرج: ضمن العناصر المعمارية المكتشفة في المربع (Y 5) درج (سلم) ظهر في الزاوية الشمالية الشرقية منه بعرض ٧٠سم. العتبة (الزلفة) الأولى اكتشفت على عمق ٢٠ سم من سطح الأرض، وتوالى ظهور الزلف الأربع بنفس العمق حتى أرضية الوحدة التابعة لها بعمق ٨٠ سم. مادة بناء الدرج هي الطوب اللبن مع مونة طينية، بالإضافة إلى كسوة جصية لم يبق منها سوى عينة طفيفة في العتبة العلوية. وظيفة هذا الدرج إما أن يكون للنزول إلى وحدة سكنية فهو بذلك (درج هابط)، أو أن يكون للصعود لمستوى علوي، أي أنه (درج صاعد).

الأرضيات: ظهرت خلال أعمال التنقيب الأثري في الموقع عن ثلاثة أنواع من الأرضيات، التي جرت العادة أن تقف عندها أعمال الحفر، ما لم يستدعي الأمر التعمق فيها لتحقيق أهداف معينة. النوع الأول عبارة عن أرضية طينية صلبة مدكوكة؛ وقد ظهرت في المربعات المحاذية لسور المدينة (W1, X1, W2, X2, W3). النوع الثاني عبارة عن أرضيات طينية مدكوكة تعلوها طبقة جصية صلبة نقية؛ وقد ظهرت في عدد من الوحدات السكنية التي اكتشفت في المربعات (W5, 6, 7, X 5, 6, 7). ويلاحظ أن هذا النوع من الأرضيات المجصصة تظهر في وحدات تحتوي أوجه جدرانها من الداخل على طبقة جصية صلبة متماسكة. النوع الثالث عبارة عن أرضية طينية تكسوها بلاطات الآجر المربعة الشكل، وقد تغطى هذه البلاطات بطبقة رقيقة من الجص؛ وهذا النوع ظهر في المربعات (W8, 9, 10 ; X8, 9, 10 ; Y8, 9, 10). وقد لوحظ أن بعض بلاطات الأرضيات قد نزعت من أماكنها، وذلك بهدف استخدامها في مواقع أخرى، كما في المربعات (W, 9, 10 : X 9, 10).

التنانير: تم الكشف في هذا الموقع عن عدة تنانير في مربعات متجاورة هي (W7, 8, ; Y9, 10). وتتماثل هذه التنانير إلى حد كبير من حيث مادة الصناعة وهي الفخار البني، وكذلك من حث الحجم حيث يبلغ عمقها٤٠سم وقطر فوهاتها يتراوح بين ٤٥ و٥٠سم. كما تتماثل من حيث الموقع، الذي تشغله داخل الوحدة، إذ تبين أنها تحتل دائماً زاوية داخلية؛ أي أن التنور يكون محصورًا بين جدارين لحمايته من ناحية، ولتنحيته عن المادة وعدم المضايقة من ناحية أخرى. كما أنها تظهر في الوقت نفسه مرتفعة عن مستوى أرضية الوحدة الموجودة داخلها بحوالي ٥٠ سم، ولعل ذلك مما يسهل استخدامها المتمثل في عمل أرغفة الخبز على وجه الخصوص، وربما لتحضير غيرها من أنواع الطعام.

يجدر التنويه من ناحية إلى أن جميع التنانير المكتشفة لا تزال تحتفظ ببقايا الوقود (الفحم) داخلها، كما أن جدرانها من الخارج محاطة بكمية ليست قليلة من الرماد من جميع الجوانب، ولعل ذلك مما يزيد في تماسكها ويحفظ الحرارة المنبعثة منها. ومن ناحية أخرى تبين أن هذه التنانير مصنوعة بالدولاب (العجلة) خارج مواقعها، على غرار صناعة أزيار وجرار الماء الكبيرة، ثم تثبت في مواضعها المعدة لها.



مخطط الموقع

الطبقات الأثرية

تبين خلال أعمال التنقيب في مربعات هذا الموقع أن الطبقات الأثرية بشكل عام متباينة وغير متجانسة، إلا أن المربعات كلما كانت متجاورة كلما كانت مكونات طبقاتها قريبة التجانس. وقد لوحظ أن المربعات القريبة من سور المدينة تتشكل ترسباتها من التربة النقية، وكذلك من الروبة المتراكمة جراء جرف السيول للأتربة والغبار والعوالق التي تتراكم على هيئة طبقات أو صفائح غير سميكة، وقد يتخلل هذه الطبقات كسر صغيرة من الخزف والفخار والأحجار والمواد العضوية ونحوها. وعند معاينة أحد المقاطع الرأسية لهذه الطبقات يتضح أنها غير متعددة، بل متشابهة من حيث التكوين؛ ولذلك لا تعطي قراءة ذات أهمية للمحيط الذي توجد به.

أما تلك المربعات التي تحتل منتصف المنطقة المحفورة وكذلك المربعات الواقعة في نهاية المنطقة (10-Y5, 10-X5, 10-W5)، فهي تحتوي على طبقات أثرية متعددة ومتفاوتة من حيث التكوين. إذ تتكون الطبقة السطحية التي يبلغ سمكها حوالي ٢٠سم من ترسبات رملية مغبرة، وتكون في الغالب غير منتظمة، وذلك جراء الدهس الآدمي والحيواني، وما يعتريها من تقلبات مستمرة. وبالرغم من أنها تحتوي على معثورات خزفية وفخارية وزجاجية، ونحوها، إلا أنها تكون إما مهشمة أو متأثرة بالعوامل المناخية نظراً لقربها من سطح الأرض المكشوف.

بعد إزالة الطبقة السطحية تبدأ الظواهر الأثرية بالظهور، سواء كانت ظواهر معمارية، أو طبقات أثرية ذات خصائص مستقرة، يمكن تتبعها والتمييز بينها. ولعل أبرز ما يميز الطبقات المتتابعة في هذا الموقع هي تلك الترسبات المتشكلة من بقايا المواد العضوية، لاسيما التي ذات الطبيعة النباتية، نظراً لكون المدينة تحيط بها مساحات شاسعة ذات غطاء نباتي مؤثر؛ وهي إما بيئة صحراوية، أو زراعية. كذلك بعد استخدام الوحدات السكنية؛ وتمثل هذا النوع كميات الرماد والفحم والعظام وحطب الوقود والنفايات وغيرها. وتظل هذه الترسبات المتراكمة، بغض النظر عن مكوناتها وسمكها وتاريخ تشكلها، المادة الأقل بالنسبة لمواد البناء (رديم الطين والطوب والأحجار والحصى والرمل ونحوها)؛ حيث أن هذه تشكل النسبة الكبرى من الطبقات الأثرية المتراكمة.

والواقع أن طبيعة وخصائص هذه الترسبات تعطي مؤشرات دالة تمكن المنقب من تفسير الظواهر وقراءتها وتحليلها، ومن ثم ربطها بالمحيط المعماري السكني المتصلة به. إذ تبين - على سبيل المثال - أنه كلما كثرت كمية الرماد حول بعض الجدران وقرب مستوى الأرضيات، كلما دل على قرب اكتشاف التنانير، وهذا بدوره يعني أن الفراغ المحفور هو خاص بموضع للطبخ؛ كما هو الحال في الفراغات المكتشفة في المربعات (W 7, 8 ; Y 9, 10). ومثل ذلك عندما تزداد كمية الفحم، وتكون على هيئة ظاهرة سميكة ومنتشرة، فإن الأمر يدل إلى وجود حريق، لاسيما عندما يتضح أن الجدران الحجرية والطينية قد تأثرت به فعلاً، كما هو الحال في المربعات (W8, X8).

المعثورات

خلال أعمال التنقيب عثر الفريق العلمي على مجموعة من المعثورات الأثرية، منها:

أ – المعثورات الخزفية (الفخار المزجج) والفخارية (الفخار العادي): وتعد هذه من أكثر المواد الأثرية انتشاراً في الموقع. وقد درست هذه المعثورات دراسة أولية تمهيدا لبناء هيكل وإطار تاريخي وزمني لتطور وتسلسل الفخار الإسلامي بالموقع. وقد ضم الخزف أنواعاً من الخزف الإسلامي الأحادي اللون (الأزرق والأخضر) وهو أكثر الأنواع شيوعاً في موقع المابيات، ثم الخزف ذو البريق المعدني والخزف المبقع والمقلم والخزف القصديري الأبيض والخزف المطلي بألوان متعددة الخزف وذلك المرسوم تحت الطلاء والقليل من البورسلين الصيني. وتشير الدراسة المبدئية إلى أن أغلب الفخار والخزف الذي عثر عليه في الطبقات الأثرية يعود إلى فترات تمتد من منتصف القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري، ولا يستبعد وجود أدلة تعود إلى العصر الأموي المبكر. وتشير الدراسة الإحصائية الأولية لقلة المعثورات الفخارية والخزفية التي تعود لمنتصف القرن الثاني الهجري وزيادة ملحوظة بلغت أوجها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وما لبثت أن بدأت في الاضمحلال خلال نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري.

ب – المعثورات الزجاجية: من خلال فرز الكسر الزجاجية التي عثر عليها في هذا الموقع تبين أن هناك كمًا كبيرًا من الكسر الزجاجية، وهي مصنعة من مواد خام متنوعة يدخل في تركيبها عناصر معدنية وكيميائية، بنسب مختلفة تعطي بالتالي ألوانًا متباينة منها الأخضر والأبيض والأزرق بدرجاتها المختلفة. كما تبين من خلال فحص الكسر الزجاجية مثل (قواعد وأعناق ومقابض الأواني والقناني وأبدانها) أن معظمها مصنعة محلياً، لاسيما تلك القطع ذات الأبدان الكروية أو البيضاوية الشكل. وقد تم العثور على نماذج غير قليلة لا تزال تحتفظ بآثار الأنبوب المستخدم في عملية النفخ وفي المقابل فإن القطع الصغيرة الحجم أو المُصْمَتة كلياً مثل الخرز بأنواعه ومماسك الأغطية الزجاجية منفذة يدوياً أو بأسلوب القطع البارد. وتمثل نماذج القطع الزجاجية أنواعاً مختلفة من المصنوعات مثل القناني بأنواعها المختلفة البيضاوية والكروية والأقداح بأشكالها وأحجامها المختلفة. وقد تم التعرف على عدة أنواع من مكونات هذه المصنوعات.

خلال معاينة الكسر الزجاجية تبين أن معظم أسطح القطع ملساء وخالية من العناصر الزخرفية، إلاّ أن هناك نماذج معبرة يمكن من خلالها الخروج برؤية واضحة عن أساليب زخرفة الزجاج وعناصرها التجميلية، وذلك على النحو التالي:

١ - الزخارف بالقالب ٢ - الزخرفة بأسلوب الحز (الخدش) ٣ - الزخرفة بالتلوين.
٤ - الزخرفة بالحبال (الخيوط) الزجاجية المضافة. ٥ - الزخرفة بأسلوب الختم (الطبع).

جـ - المعثورات المعدنية : تم العثور في هذا الموقع على مجموعة من القطع المعدنية المصنعة من الحديد أو البرونز أو النحاس. ويلاحظ أن جميع القطع تكسوها - حالياً - طبقة متفاوتة السمك من أكسيد الحديد لونها بني داكن وطبقة النحاس الأخضر أو بهما معاً.

د - الصنج والمسكوكات: تم في هذا الموقع العثور على صنجة واحدة، وعدد من المسكوكات الإسلامية، ويغلب على هذه المسكوكات أنها لفلوس سكت من النحاس أو البرونز، وهي مطموسة المعالم تماماً، ولا يتضح من مضامينها أدنى حرف، مما يصعب معه تحديد تواريخ سكها ولكن نظراً لارتباطها بحفرية معلومة الفترات التاريخية واستناداً إلى ما تم العثور عليه من مسكوكات في الحفريات التي قامت بها وكالة الآثار والمتاحف بالموقع، فإنه يمكننا إعادة تاريخ هذه المسكوكات إلى ما بين القرنين الرابع والسادس والهجريين.

أما فيما يتعلق بالصنجة الوحيدة التي تم العثور عليها فإنها عبارة عن قطعة ذات شكل مستطيل (١٤×١٨مم)، سمكها ٦مم. سطحها الخارجي تكسوه طبقة سميكة من صدأ الحديد البني اللون. شكلها الحالي لا يساعد على التعرف على وظيفتها. إلا أنه لا يستبعد أن تكون عبارة عن ثقل خاص بمعرفة أوزان الأشياء الطفيفة، لاسيما المسكوكات المتداولة في ذلك العهد (القرن الثالث حتى الخامس الهجري).





كِسَر خزفية ذات زخرف محفور وبقع من دهان الخزف، القرن العاشر - الحادي عشر، عُثر عليها في المابيات



جزء من غطاء زجاجي زخرفه برنيق معدني، نهاية القرن العاشر، عُثر عليه في المابيات

المصادر والمراجع :

- الأفغاني، سعيد، **أسواق العرب**، دمشق، ١٩٦٠م.
- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٢، ليدن، ١٩٠٦م.
- الاصطخري، **المسالك والممالك**، ط٢، تحقيق دي جويه، ليدن، ١٩٢٧م.
- الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٤، بيروت، ١٩٧٩م.
- تصيف، محمد عبدالله صالح، **العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي**، الرياض، ١٤١٦هـ.
- إبراهيم، محمد؛ الطلحي، ضيف الله، وآخرون، **أطلال، العدد ٩**، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض، ١٩٨٥م.
- العمير، عبدالله إبراهيم، وآخرون، **حفرية مدينة قرح (المابيات) الإسلامية بمحافظة العلا**، أطلال، العدد ١٩، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض، ١٤٢٧هـ.

28 p452-459 BAT AR.indd 456-457 06/08/10 10:25

المابيات



٢٧٧. صفيحة تلبيس
القرن التاسع- القرن العاشر ؟
فخار مقولب
٢٣ x ١٧ x ٤٫٥ سم
المابيات
الرياض، المتحف الوطني، ٢٣٨٥

فهرس: إبراهيم، الطلحي وal.، ١٩٨٥، لوحة ١٠٨؛
العمير وal.، ٢٠٠٦، لوحة ١٠- ٢.





٢٧٨. قطعة تلبيس
القرن التاسع- القرن العاشر؟
فخار مقولب
المابيات
الرياض، المتحف الوطني، ٨٥٢

فهرس: غير منشور

٢٧٩. كأس بزخرفة متلألئة
القرن العاشر
خزف صلصالي، زخرفة بالأكسيدات الفلزية
على دهان مكثَّف
قاعدة: ٨٫٥ سم
المابيات
الرياض، المتحف الوطني، ١٠٣٤

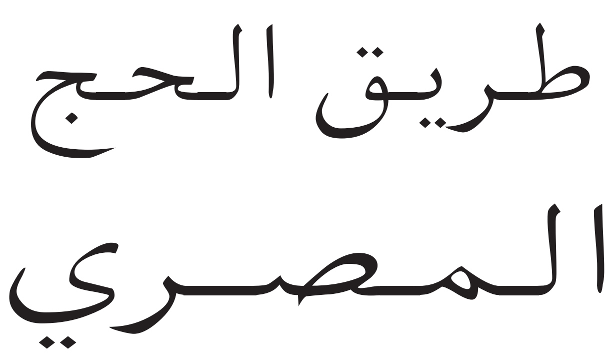
فهرس: إبراهيم، الطلحي وal.، ١٩٨٥، لوحة ١٠١- ١٦
ولوحة ١١١.

٢٨٠. عنصر مجمرة (؟)
القرن الثامن- القرن العاشر
مزيج نحاسي مقولب، زخرفة مخرَّمة
ارتفاع: ٩ سم؛ قطر: ٢٠ سم
المابيات
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٧٣ 2M

فهرس: غير منشور

٢٨١. قنديل على شكل نجمة
القرن الثامن- القرن العاشر
حجر طري منحوت
ارتفاع: ٤ سم؛ قطر: ٢٢ سم
المابيات
الرياض، متحف قسم الآثار، جامعة الملك سعود، ٧٣ 2M

فهرس: العمير وal.، ٢٠٠٦، لوحة. ١٠-١٩ d.



أ. د. علي بن إبراهيم الغَبَّان

خريطة الطريق المصرية

محطة لطريق الحج المصري في الجزيرة العربية، وبعد أيلة كانت قوافل الحجاج تمر على حقل، ثم الشرف، ثم مدين (مغائر شعيب – البدع). وكان لحجاج مصر في العصور الإسلامية المبكرة بعد رحيلهم من مدين طريقان: أحدهما داخلي، والآخر ساحلي، فأما الطريق الداخلي فيتجه (جنوباً بشرق) ويمر على شغب، ثم بدا، ثم على عدد من المنازل حتى يصل إلى منطقة وادي القرى، حيث يلتقي في السُقْيَا (الخشيبة) بطريق الحج الشامي، ليسير معه إلى المدينة. وأما الطريق الساحلي فيسلك بعد مدين ساحل البحر الأحمر، ويمر على عدد من المنازل، أهمها: عينونا، ثم النبك (المويلح)، ثم ضباء، ثم العويند، ثم الحوراء، ثم الأحساء (مغيرة – نبط)، ثم ينبع، ثم الجار، ومن الجار يتجه إلى مكة المكرمة مروراً بالجحفة، ثم خليص، ثم عسفان وإلى المدينة مروراً ببدر. وكان الطريق الداخلي هو الأكثر استخداماً خلال القرنين الهجريين الأول والثاني (٧، ٨م)، وخلال القرن الثالث زاد استخدام الطريق الساحلي، حتى انتهى الأمر إلى ترك استخدام الطريق الداخلي في تاريخ لاحق. واستمر سفر الحجاج على الطريق الساحلي حتى منتصف القرن الهجري الخامس (١١م)، ثم تحولوا إلى السفر بحراً عبر عيذاب، بسبب الشدة العظمى، في بادئ الأمر، التي شهدتها مصر في نهاية العصر الفاطمي، وما نتج عنها من عجز الفاطميين عن دفع نفقات الطريق، ثم بسبب احتلال الصليبيين لأيلة، أهم محطة على الطريق، ومعبره الوحيد إلى الجزيرة العربية، وقد امتدت فترة توقف استخدام الطريق البري الساحلي قرابة قرنين من الزمان، وتركت آثاراً سيئة على عمارة الطريق، وعلى الاستيطان في شمال الحجاز. ولم تعد حركة الحجاج إلى الطريق الساحلي إلا في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، حين أبطل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سفر الحجاج عبر عيذاب، وأرسل كسوة الكعبة وقافلة الحج الرسمية بطريق البر. ومنذ ذلك التاريخ، وطوال العصرين المملوكي والعثماني كانت قوافل حجاج مصر ومن رافقهم تتجمع في بركة الحاج القريبة من القاهرة، ثم تسير على طرب السويس، مروراً بالبويب، وعجرود، ثم تعبر شبه جزيرة سيناء في المنطقة الفاصلة بين رأس خليج السويس ورأس خليج العقبة، وتمر على عدد من المنازل أهمها المنصرف، ونخل، وبئر القريص، وعرقوب البغلة، وسطح العقبة. ثم تهبط نقب العقبة فتصل إلى عقبة أيلة في اليوم التاسع لرحيلها من القاهرة. ثم ترحل قوافل الحجاج من عقبة أيلة، وتمر تباعاً على حقل، ثم عقبة ظهر الحمار، ثم الشرف، ثم تصل إلى مغائر شعيب. وبعد مغائر شعيب تسير باتجاه الجنوب الغربي حتى تصل إلى عينونا، ثم تسير بموازاة ساحل البحر وتمر على عدد من المنازل، أهمها: المصلى (شرمة)، وتريم، والنبك (المويلح)، ووداي الغال (وادي القسطل)، وضباء، والأزلم، وبركة عنتر، وقلعة الوجه، وبين النهدين، ووادي العرجا، وبركة أكرى وبئر القروي، والحوراء، ونبط، ووادي النار، والوعرات السبع، والدهناء، وواسط، ثم تصل إلى بدر. ثم ترحل من بدر وتمر على رابغ، ثم خليص، ثم عسفان، ثم تصل إلى مكة المكرمة، بعد أن تكون قد قضت شهراً كاملاً على الطريق بين القاهرة ومكة المكرمة.

وظل الطريق البري الساحلي في خدمة قوافل الحجاج المصريين ومن رافقهم حتى سنة ١٣٠١هـ تاريخ مرور آخر قافلة رسمية للحج على الطريق البري، وبعد هذا التاريخ عاد الحجاج المصريون مرة أخرى إلى السفر بحراً من السويس إلى جدة في السفن البخارية والشراعية. وبذلك يكون الطريق المصري قد مر خلال تاريخه بأربع مراحل، هي على الترتيب:

المرحلة الأولى: وتمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م)، وكان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية، أحدهما داخلي والآخر ساحلي.

المرحلة الثانية: (مرحلة طريق عيذاب) وتمتد من عام نيف وأربعين وأربعمائة إلى عام ستة وستين وستمائة هجرية، وخلال هذه المرحلة توقف استخدام الطريق البري الذي يمر بشمال الحجاز، وكان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوص، ثم يسافرون بالقوافل إلى عيذاب، ثم يعبرون البحر إلى جدة.

المرحلة الثالثة: وهي أطول مرحلة في تاريخ الطريق، وتمتد من سنة ٦٦٧هـ إلى سنة ١٣٠١هـ وتشمل العصرين المملوكي والعثماني، وخلال هذه المرحلة من تاريخ الطريق عاد الحجاج إلى استخدام الطريق البري الساحلي الذي يمر بشمال الحجاز.

المرحلة الرابعة: وتبدأ مع بداية القرن الرابع عشر (٢٠م)، وتشمل نهاية العصر العثماني وفترة حكم الأشراف وعهد المملكة العربية السعودية، وخلال هذه المرحلة توقف الحجاج مرة أخرى عن استخدام الطريق البري وأصبحوا يسافرون بالقطار في بداية الأمر إلى السويس ومنها يركبون السفن إلى جدة.

وفي ما يلي نستعرض الآثار الباقية في المملكة العربية السعودية على مسارات طريق الحج المصري.

أولاً : الآثار الإسلامية المبكرة على طريق الحج المصري

نال طريق الحج المصري بمساريه الداخلي والساحلي عناية الحكام المسلمين في العصور الإسلامية المبكرة، وبخاصة حكام مصر الذين أقاموا عليه البرك وحفروا الآبار، ومهّدوا العقبات الصعبة، وبنوا المساجد في بعض محطاته، وقد أشارت المصادر إلى القليل من هذه المنشآت مثل تمهيد عقبة أيلة وتنظيفها من الحجارة على يد فاتن مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، والآبار السبعة التي حفرت في مكان نزول الحجاج بوادي ضباء، وخان العشيرة بينبع الذي ليس له نظير على حد قول المقدسي، ومساجد بدر التي بناها ملوك مصر، وبركة خليص وقناتها، وتوجد اليوم على الطريق المصري بعض الآثار التي ترجع إلى تلك الفترة المبكرة وبخاصة على مسار الطريق الداخلي، مثل البركة المبنية على الطريق في عين النابع الواقعة بالقرب من شغب، وبركة بدا، وآبار بلاطة الواقعة بين بدا والخشيبة. كما توجد على هذا المسار الداخلي مئات من النقوش العربية المبكرة أهمها تلك المنقوشة على صخور شهيبة بدا الشمالية.

أما الآثار الإسلامية المبكرة على مسار طريق الحج المصري الساحلي فقليلة جداً، وتقتصر على بعض النقوش العربية المبكرة، وبعض البرك الملحقة بمدن المنطقة التي كانت محطات للطريق في تلك الفترة كبركة مدين وبركة الجار. وقلة آثار الفترة المبكرة على الطريق الساحلي ترجع في اعتقادنا إلى الإصلاحات والإضافات التي نفذت في محطات هذا الطريق، أثناء استخدامه في العصرين المملوكي والعثماني.

كما تجدر الإشارة إلى أن النقوش العربية المبكرة قليلة على المسار الساحلي لهذا الطريق، بسبب عدم توافر الصخور المناسبة للكتابة في سهل تهامة الساحلي. وما وجد منها عثر عليه في بعض مناهل الطريق الواقعة في أودية تحيط بها الجبال كنجع بني مر، وحفائر العرجاء الواقعة جنوب الوجه، ووادي فاطمة والجموم.

ثانياً : آثار العصور الإسلامية المتأخرة على طريق الحج المصري

أما آثار العصور الإسلامية المتأخرة، الباقية على أجزاء الطريق المصري المارة بشمال الحجاز فتوجد على المسار الساحلي فقط، وجمعيها ترجع إلى العصرين المملوكي والعثماني وسنستعرضها فيما يلي:

بركة البدع وتوابعها (مدين، مغائر شعيب)

توجد بمدين، التي غلب عليها اسم مغاير شعيب خلال العصرين المملوكي والعثماني بركة وساقية أنشئتا في العصر المملوكي، وذلك بالإضافة إلى البركة القديمة المتصلة بموقع الملقطة الأثري، التي يرجع تاريخها إلى العصور الإسلامية المبكرة. والبركة المملوكية بنيت على مقربة من بئر السعدني، وهي بئر قديمة محفورة في الصخر، اشتهرت في المصادر الإسلامية باسم بئر موسى. وتصل بين البركة والبئر قناة طويلة تنتهي من جهة الغرب بحوض تصب فيه ساقية مبنية بالآجر، وتدار بالدواب لترفع الماء من البئر، وقد وصف الجزيري هذا المورد في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري فقال: ((والمغارة بالجبل يتحصل بها الماء من الأمطار، وكان موردها في القديم للوفد بئرا بساقية وفسقية، وطبقة بقبة، ورأيت المقار سفلياً متسماً، وبه منفذ صغير ثان من جانب الساقية، والساقية بالطوب الأحمر، وبئرها واسعة المقدار، ولها حظير مبني بالآجر، وبالساقية بيت لخزن التبن ومحل للسواقي، وتجاه ذلك بناء بالآجر شبه مسجد، ويظهر له أنه كان مسقفاً، فإني رأيت بصدره سلماً لطيفاً معقودًا يصعد منه إلى سطحه، وللساقية مجراة بالأرض طويلة، من الحجر النحتي الأبيض، تصب في فسقية كبرى ...))، ((ورأيت في البناء عدداً من التواريخ المنقوشة في ألواح من الحجر، قرأت في بعضها اسم السلطان قايتباي، ويظهر لي أنه جدد بابها، وتاريخاً داخلاً عن الأول، يظهر لي أنه نقش في نيف وثماني مئة، فإني جهدت لبيان المكتوب فيه فغلبتني رثاثته لقدمه، ولم أفسر منه سوى: إنشاء مولانا المقام الشريف السلطان، ولعله برسباي ...)). وهذا المورد شهد عمارات عدة في العصر المملوكي، أقدمها تمت في عهد السلطان محمد بن قلاوون (٦٩٨ – ٧٤١هـ)، على يد الأمير الكبير المقدم الحاج آل ملك الجوكندار، ثم أصلح في عهد السلطان برسباي (٨٢٥ – ٨٤١هـ)، حين أرسل الأمير شاهين الطويل إلى طريق الحجاز لإصلاح المياه فيما بين القاهرة ومكة، ثم أصلح في عهد السلطان قايتباي الذي مر على هذا المورد عندما حج في سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م. وقد بطل استخدام هذا المورد في العصر العثماني، واستعيض عنه بحفائر بدع حلوة (آبار قصيرة العمق)، كانت تحفر في بطن وادي عفال، ولذا غلب اسم البدع بعد ذلك على الواحة.

آثار عينونا: توجد بعينونا مواقع أثرية كثيرة بعضها يعود تاريخه إلى عصور ما قبل الإسلام، وبعضها الأخرى من العصور الإسلامية. وتقتصر آثار العصور الإسلامية المتأخرة بها على موقعين، هما: مناخ قافلة الحجاج في رحلة الذهاب، ويقع على أرض واسعة مرتفعة عن بطن الوادي، وأطلال قرية صغيرة قريبة من مجرى العين تعرف في المصادر بحدرة عيون القصب، وهي محطة الحجاج في رحلة الإياب، وكانت بعينونا في العصرين المملوكي والعثماني قبور عليها قباب وشواهد.

آثار تريم: تقع تريم على بعد ٣٠كم جنوب عينونا، وبها مواقع أثرية قديمة، وموقع لمحطة طريق الحج يقع على أرض مرتفعة قريبة من مجرى العين، فيه بركة كبيرة بنيت على الأرجح خلال العصر العثماني، وحول هذه البركة توجد أرض واسعة جمعت الحجارة الصغيرة من على سطحها، لكي تكون صالحة للاستخدام لقافلة الحجاج.

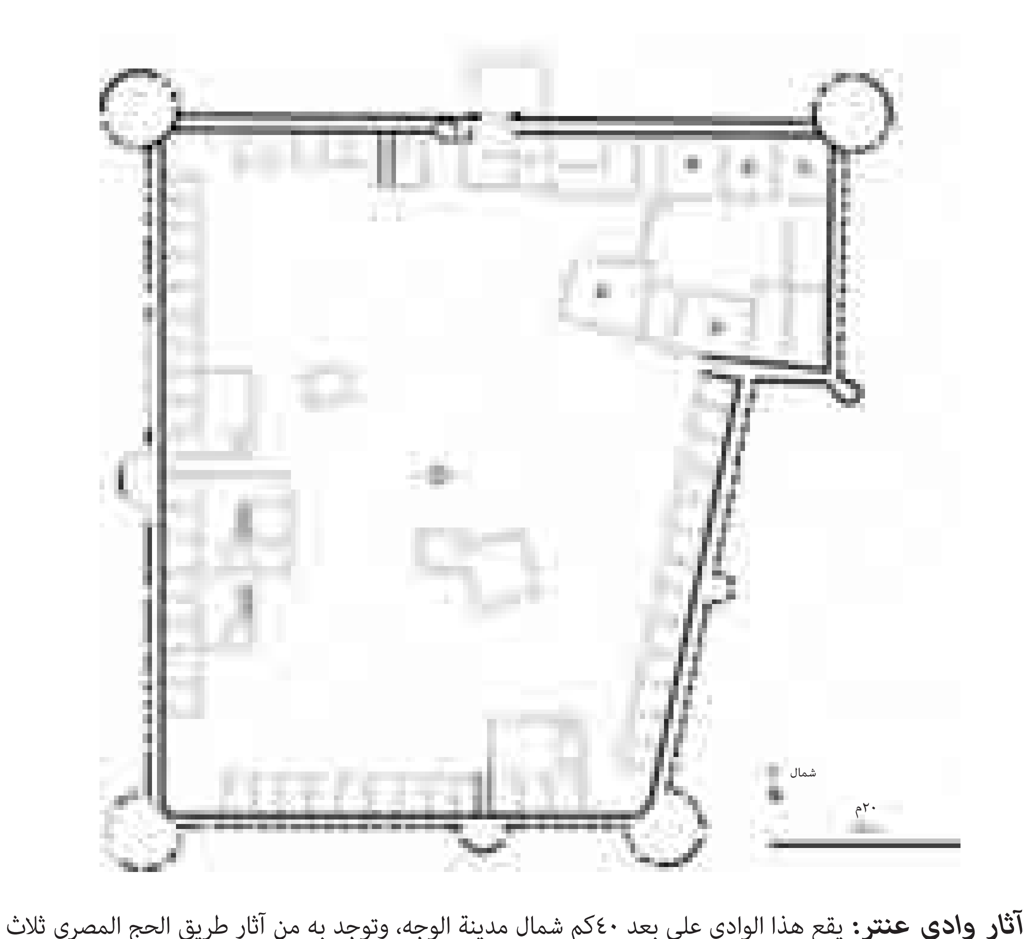
آثار المويلح: المويلح إحدى المحطات الرئيسة لطريق الحج المصري خلال العصرين المملوكي والعثماني، وبها من آثار العصر المملوكي بئران تقعان في الناحية الشمالية من الواحة، أمر بحفرهما الأمير الحاج آل ملك الجوكندار في عصر السلطان محمد بن قلاوون (٦٩٣-٦٩٤هـ ٦٩٨-٧٠٨هـ)، ثم أصلحهما السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م)، أما آثار العصر العثماني بالمويلح فأكثر عدداً، وأهمها قلعة المويلح التي بنيت في عهد السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م بأمر من علي باشا الحاكم العثماني لمصر، وقد أشرف على بنائها الأمير قيت بن عبدالله الداودي، وبنى معها أربعة آبار جديدة، واحدة في فناء القلعة وثلاث في بطن الوادي إحداهن على نفقة أمير الحج المصري لعام ٩٦٧هـ عثمان بن أزدمر باشا. وتعرف هذه البئر ببئر الورَّادة، ولا تزال باقية بوادي المويلح قرب مزرعة الأستاذ حسين درويش. ويوجد على هذه البئر نقش تأسيسي مؤرخ بسنة ٩٦٧هـ كما يوجد فوق مدخل قلعة المويلح حجر تأسيسي مؤرخ بسنة ٩٦٨هـ. وقلعة المويلح أكبر قلعة على طرق الحج بالمملكة العربية السعودية، إذ يبلغ طول أحد أضلاعها ١٠٩م، وهو الضلع الشمالي الذي يقع فيه المدخل. وبداخل القلعة فناء كبير يتوسطه مسجد بجانبه بئر، وتحيط بالفناء من جميع الجهات وحدات معمارية كثيرة بعضها استخدم سكناً لقائد القلعة ووكيلها وموظفيها وللجنود، والبعض الآخر كان مخازن لأقوات الحجاج وودائعهم وما يرسل إليهم من تموين برسم الملاقاة في طريق العودة، وفي نهاية العصر العثماني أصبحت وكالة هذه القلعة في يد الأشراف المويلحيين الذين اشتهروا باسم آل الوكيل.

آثار وادي الغال: يقع هذا الوادي بين ضباء والمويلح، وبه بئران قديمتان مطويتان بالحجر الجيري المنظم، هما الباقيتان من ثلاث آبار حفرت في بداية القرن الثاني عشر الهجري (١٨م)، على نفقة فاعل خير مصري اسمه إبراهيم الفكاري، ويعرف هذا الوادي في مصادر العصرين المملوكي والعثماني باسم وادي القسطل، والقسطل هو نبات الحنظل.

آثار وادي الهاشة: ويقع شمال مدينة ضباء، على بعد ١كم فقط، وبه آبار تركية قديمة مطوية بالحجر الجيري المنظم، إحداها عرفت في مصادر العصر العثماني باسم بئر الدُويدار.

آثار وادي ضباء: توجد في أعلى وادي ضباء نقوش كوفية يرجع تاريخها إلى القرنين الهجريين الثاني والثالث وفي منزل الحاج بهذا الوادي توجد أربع آبار مطوية بالحجر الجيري المنظم، ثلاث منها قديمة حفرت في القرن الحادي عشر الحجري (١٧م) تعرف محليًّا باسم الآبار السلطانية، أما البئر الرابعة فقد قامت بحفرها وبنائها في منتصف القرن الماضي أسرة آل سحلة من سكان ضباء، وتشير المصارد إلى بركة كانت مبنية بهذا الوادي إلى جوار الآبار السلطانية برسم خدمة الطريق، ولم يبق من هذه البركة في الوقت الحاضر أي آثر، وفي الطرف الجنوبي الغربي للوادي كانت توجد بركة أخرى صغيرة، عرفت في الوثائق باسم الفسقية، وتقع بالقرب من موقع ضريح الشيخ البغدادي إلى الغرب من بستان الشيخ على حامد غبان، وابن عمه مسلم موسى غبان، وإلى الجنوب من بستان الشامي. وقد أزيلت هذه الفسقية مع ضريح الشيخ البغدادي في بداية القرن العشرين الميلادي، والجدير بالذكر أن وادي ضباء كانت به في بداية القرن الخامس الهجري سبع آبار عذبة.

آثار الأزنم (الأزلم): وادي الأزنم كان من أهم المحطات على طريق الحج المصري خلال العصرين المملوكي والعثماني، ويقع على بعد ٤٠كم جنوب مدينة ضباء، وبه بقايا خان بني للمرة الأولى في عصر السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، ثم أعيد بناؤه في عصر السلطان المملوكي قانصوه الغوري سنة ٩١٦هـ ويطلق على هذا الخان في بعض المصادر اسم برج الأزلم أو قلعة الأزنم، ولقلعة الأزنم مسقط مربع الشكل طول ضلعه من الخارج ٣٩,٩٠م، ولها أبراج مثمنة افتراضاً في كل ركن من أركانها، ويبلغ ارتفاع جدرانها الخارجية سبعة أمتار في المتوسط، وكانت تعلوها شرفات حجرية. وقلعة الأزنم مبنية بالحجر الجيري المنظم، ومبناها ينحرف عن الاتجاهات الأصلية، ويقع مدخل القلعة في ضلعها الشمالي الشرقي المواجه لمسار طريق الحج، وهو يفضي عبر ممر مسقوف بقبو متقاطع إلى فناء القلعة، وعلى هذا الفناء تفتح جميع الوحدات الداخلية التي تضمها القلعة، حيث توجد على كل من الضلعين الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي ستة حواصل عبارة عن حجرات مستطيلة مسقوفة بأقبية نصف دائرية، وقد قسمت حواصل كل ضلع إلى مجموعتين يفصل بينهما مطلع ترابي يُمكِّن من الصعود إلى أعلى الحواصل، ويتصل هذا المطلع بدرج ذي اتجاهين يصعد إلى ممشى علوي عرضه ٨٠سم، يدور على القلعة، ويمكن استخدام صفوف المزاغل الموزعة في هذا المستوى، أما في الضلع الجنوبي الغربي فيوجد إيوان كبير مسقوف بأقبية متقاطعة، يفتح على الفناء ببائكة مكونة من ثلاثة عقود مذببة.



مخطط حصن المويلح

آثار وادي عنتر: يقع هذا الوادي على بعد ٤٠كم شمال مدينة الوجه، وتوجد به من آثار طريق الحج المصري ثلاث آبار سلطانية، وبركتان مبنيتان بالحجر الجيري، ويعود تاريخ بناء هذه الآبار والبرك إلى بداية القرن الثاني عشر الهجري (١٨م). وفي مصب هذا الوادي على ساحل البحر يوجد الموقع الأثري لمدينة العويند التي سبق الحديث عنها.

آثار وادي الزريب بالوجه: يقع هذا الوادي شرق مدينة الوجه، وبه كانت تنزل قوافل الحجاج المصريين ومن رافقهم، وتوجد اليوم بهذا الوادي ست عشرة بئراً سلطانية كانت تؤمن الماء اللازم لإرواء قوافل الحجاج.

كما توجد في أعلى الوادي قلعة تركية كبيرة أنشئت في عصر السلطان أحمد الأول سنة ١٠٢٦هـ لحفظ الأمن بمنزلة الحجاج، ولخزن ودائعهم وأقواتهم، ويوجد على مدخل القلعة نقش تأسيسي يؤرخ لبنائها.

ومسقط قلعة الزريب مستطيل الشكل إذ يبلغ طول كل ضلع من ضلعيها الشمالي والجنوبي ٥١,٣٠م، وطول كل ضلع من ضلعيها الشرقي والغربي ٥٥,٣٠م. كما أن لها برجاً على شكل ثلاثة أرباع الدائرة في كل ركن من أركانها الأربعة، أما مدخلها فيقع في ضلعها الغربي، وتتكون القلعة من الداخل من مجموعة من الحجرات تحيط بفناء القلعة الأوسط، حيث يوجد على الضلع الجنوبي للفناء أربع حجرات كبيرة ومصلى صغير، ويوجد على الضلع الشرقي وحدتان سكنيتان تتكون كل منهما من أكثر من حجرة واحدة، وفي الجهة الشمالية للفناء يوجد بئر القلعة، ومسجدها الرئيس وسبع حجرات صغيرة متجاورة لكل منها باب مستقل، وربما استخدمت هذه الحجرات سكناً للجنود، وعلى الضلع الغربي للفناء توجد ثلاث حجرات أخرى، وكتلة المدخل، وبقايا مئذنة، وقد زودت جدران القلعة بالمزاغل، كما زودت أبراجها بفتحات كبيرة للمدافع.

ويلتصق بالضلع الشمالي لهذه القلعة من الخارج، ثلاث برك: الوسطى أنشأها أمير الحج المصري رضوان بك الفقاري، الذي تولى إمارة الحج المصري في الفترة من ١٠٣٨هـ إلى ١٠٦٥هـ والبركتان الجانبيتان من إنشاء مولاه غيطاس، الذي تولَّى إمارة الحج المصري سنة ١٠٦٨هـ.

آثار النهدين: والنهدان جبلان صغيران يفصل بينهما ممر ضيق يمر عبره مسار طريق الحج المصري، ويقع النهدان على مقربة من وادي العرجا، وتوجد في ممر النهدين آثار تمهيد وتسوية لمسار طريق الحج، كما يلاحظ وجود كسر فخارية من أنواع الفخار العثماني المتأخر.

آثار وادي العرجا: يقع وادي العرجا على بعد ٢٥كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة الوجه، وكانت به آبار سلطانية عثمانية دفنتها السيول الأخيرة، كما توجد بالوادي صخور عليها كتابات تذكارية كوفية مبكرة، وأخرى بالخط النسخي من عمل الحجاج، وفي أعلى وادي العرجا توجد مستوطنات تعدينية قديمة وآثار مناجم.

آثار أكرا (بركة أكرا): تقع أكرا على بعد ٤٥كم جنوب شرقي مدينة الوجه، وبها بركة وبئر لطريق الحج المصري

المصادر العربية :
- **الإدريسي، أبو عبدالله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤-١١٦٥م)**
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة مصورة، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٩هـ
- **ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)**
تحفة النظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، رحلة ابن بطوطة، طبعة دار إحياء العلوم، بيروت: ١٩٨٧م
- **البلوي، خالد بت عيسى (حج سنة ٧٣٧هـ)**
تاج المفرق في تحلية أهل المشرق، تحقيق الحسن السائح، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، بدون تاريخ.
- **الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري (ت بعد ٩٧٦هـ/١٥٦٩م)**
الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **الخياري، إبراهيم بن عبدالرحمن (ت ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م)**
تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق الدكتور رجاء محمود السامرائي، نشر وزارة الثقافة العراقية ودار الرشيد، بغداد: ١٩٨٠م، الجزء الثالث.
- **الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر (ت ١١٢٩هـ/١٧١٧م)**
الرحلة الناصرية، طبعة فاس: ١٣٢٠هـ
- **السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)**
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث، بيروت: ١٩٨١م.
- **المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ)**
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- **النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل (ت ١١٤٣هـ/١٧٣١م)**
الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، طبعة مصورة بدون تحقيق عن مخطوطة دار الكتب، تقديم وإعداد د. أحمد بن عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٨٦م.
- **اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)**
تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: ١٩٨٨م.
كتاب البلدان، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م

يعود تاريخ إنشائهما إلى العصر العثماني، وقد ذكرت أكرا في المصادر الجغرافية العربية باعتبارها منزلاً من منازل طريق الحج المصري الساحلي، ومفيضًا لوادي أضم (الحمض) في البحر الأحمر، كما ذكرت في كتب الرحالة الحجاج الذي وصفوا طريق الحج المصري خلال العصرين المملوكي والعثماني كابن فضل الله العمري، والجزيري، والنابلسي. وفي عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م قمت بحفر مجسات أثرية في موقع القصير الذي يبعد ١٠كم إلى الغرب من أكرا وعثرت على بقايا مستوطنة ساحلية يعود تاريخها إلى العصر النبطي، وطريق ترابي مردوم يصل هذه المستوطنة بميناء كركمة، وأعلنت حينها عن اكتشافي لميناء أكرا كومي النبطي، الذي كان ميناءً للحجر (مدائن صالح)، ذكر في المصادر الكلاسيكية التي تحدثت عن شمال غرب الجزيرة العربية في القرن الأول قبل الميلاد، ومن هذا الميناء عادت إلى مصر عام ٢٥/٢٤ قبل الميلاد الحملة الفاشلة للقائد الروماني إيليوس غالوس.

بئر العمارة: وهي عبارة عن بئر مطوية تقع على ساحل البحر، على بعد ٥١كم جنوب أكرا.

آثار الحوراء: كانت الحوراء مدينة من المدن الإسلامية المبكرة بالمنطقة، وتقع آثارها على بعد ١٠كم إلى الشمال من مدينة أملج، وقد اندثرت مدينة الحوراء خلال القرن السادس الهجري (١٢م)، ولكن اسمها استمر يطلق خلال العصرين المملوكي والعثماني على منزل قوافل الحجاج بهذا المكان. ويقع هذا المنزل في بساتين النخيل الواقعة على ساحل البحر إلى الجنوب من موقع الحوراء الأثري، وكانت به حفائر مياه سطحية تنزل عليها قوافل الحجاج، وقد أنشأت بلدية أملج مؤخراً منتزهاً عاماً في هذا المكان.

آثار الخنقة: الخنقة عبارة عن ممر على مسار طريق الحجر المصري، (يتراوح عرضه ما بين ٦-١٠م)، محصور بين جدارين حجريين متوازيين، وإلى جوار هذا الممر يوجد مبنى مثلث الشكل، عبارة عن علم من أعلام الطريق، وتقع آثار الخنقة على بعد ١٤كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة أملج.

آثار وادي نبط: يقع وادي نبط جنوب شرق مدينة أملج على بعد ٥٤كم، وتوجد به أربع آبار سلطانية، وبقايا بركة، وآبار هذا الوادي أصلحت عدة مرات خلال العصرين المملوكي والعثماني.

آثار الطريق بين نبط وينبع النخل: في المنطقة الواقعة بين نبط وينبع، وهي مسافة تقارب التسعين كيلومتراً توجد آثار لمنشآت معمارية أقيمت على الطريق خلال العصر العثماني، وأهم هذه الآثار:

- مجموعة من الوحدات المعمارية المبنية بالحجر في موقع المقارح الشمالي والجنوبي (٢٠كم جنوب شرق نبط). - بركة صغيرة، وقناة في موقع الخاروط (٥٠كم جنوب شرق نبط). - بركة دائرية، ومجموعة من الوحدات المعمارية عند مسيل وادي الأسلة (نحو ٦٠كم جنوب شرق نبط). - ثلاث آبار مطوية، ومبنى من الحجر، وممر على مسار الطريق محصور بين جدارين متوازيين، وتقع هذه الآثار في عوادي عويص (٧٠كم جنوب شرق نبط).

ويبدو أن بعض الآثار الباقية على مسار طريق الحج المصري بين نبط وينبع من عمل رضوان بك الفقاري أمير الحج المصري في العصر العثماني الذي بنى البركة الوسطى الملاصقة للضلع الشمالي لقلعة الزريب بالوجه، والذي تولى إمارة الحج المصري لفترة طويلة امتدت من ١٠٣٨هـ - ١٠٦٥هـ فقد أشار الرشيدي في حسن الصفا والابتهاج إلى إصلاحات قام بها الأمير رضوان على هذا الجزء من الطريق، حيث قام ((بتنظيف الطريق من الأوعار، لاسيما الوعرات السبع)) التي تقع بين نبط وينبع، ((وكانت تلك الوعرات قبل ذلك مجهدة للحجيج وموجعة للجمال والرجال)).

آثار ينبع النخل: تقع محطة الطريق المصري في قرية البركة إحدى قرى ينبع النخل، وبها موضع مسجد العشيرة، قال الجزيري وهو من أهل القرن العاشر الهجري (١٦م): ((ومسجد العشيرة معروف ببطن ينبع في وروده وصدوره))، كما توجد بينبع النخل نقوش كوفية مبكرة على صخور الجبال بالقرب من قرية سويقة.

آثار بدر: بدر من المحطات المشهورة على الطريق المصري، وقد اشتهرت بالآثار الإسلامية المتعلقة بغزوة بدر كمسجد العريش (مسجد الغمامة)، الذي وقف فيه الرسولﷺ، يدعو ربه بالنصر يوم بدر، وكمقبرة شهداء بدر، والعدوتين، وتوجد ببدر في الوقت الحاضر نقوش تذكارية وتأسيسية تشير إلى ما أنشأه بها الحكام المسلمون من المباني برسم خدمة الحجاج، كما توجد بالموقع بقايا قنوات لعين بدر القديمة، وبقايا البركة التي أمر ببنائها السلطان المملوكي قانصوه الغوري، ومسجد السوق الذي بناه الشريف أبو نمي بن بركات في القرن العاشر الهجري (١٦م)، بالإضافة إلى بقايا بلدة بدر القديمة.

آثار الطريق بين بدر ومكة: على الطريق بين بدر ومكة توجد آثار لطريق الحج المصري، ويرجع تاريخ أكثرها إلى العصرين المملوكي والعثماني، وأهم هذه الآثار: • السبيل الأول ويقع على بعد ٢كم جنوب مفرق الرايس، وقد قامت ببنائه خناثة بنت سلطان المغرب محمد بن عبدالله بن إسماعيل (١١٧١-١٢٠٤هـ/١٧٥٧-١٧٩٠م) حسبما ذكر ابن عبدالسلام الدرعي الذي مر بهذا السبيل سنة ١٢١١هـ/١٧٩٧م.• سبيل محسن ويقع إلى الشرق من الطريق المعبد على بعد ٥كم من مفرق الرايس، وأول من أشار إلى وجود هذا السبيل على الطريق محمد بن زين العابدين البكري المتوفي سنة ١٠٢٨هـ • بئر الشريف أبو نمي بمستورة. • بقايا قلعة في رابغ. • آبار القضيمة. • برك خليص. وكانت خليص من المحطات المهمة على الطريق المصري، وقد قام بعمارة عينها وبركها عدد من سلاطين المماليك والعثمانيين، وتوجد بخليص في منزل الحاج قلعة وعين ماء وقناة وثلاث برك.

آثار الجموم: توجد بمنطقة الجموم آثار كثيرة من برك ومساجد قديمة، وبعضها يرجع إلى العصور الإسلامية المبكرة.

مخطط حصن الزريب

المراجع العربية :
- **الجاسر، حمد**
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – شمال المملكة، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٣٩٧هـ
ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي، الطبعة الأولى، دار الرفاعي، الرياض: ١٤٠٢هـ
مقتطفات من رحلة العياشي، منشورات دار الرفاعي، الرياض: ١٤٠٤هـ
- **الدقن، السيد محمد**
سكة حديد الحجاز الحميدية، الطبعة الأولى، مطبعة الجبلاوي، القاهرة: ١٩٨٥م
- **غبان، علي إبراهيم علي حامد:**
شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مطبعة سفير، الرياض: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- **المنجد، صلاح الدين**
ولاة دمشق في العصر العثماني، دمشق: ١٩٤٩م

المراجع غير العربية :
- **Barbir, Karl**
101-Ottoman Rule in Damuascus 17081758-, ed. Princeton University Press. New-Jersey, Princeton.
- **Jaussen et Savignac**
Mission archeologique en Arabie, vol.II Paris, 1909.
- **Nasif, Abdullah Adam**
Al Ula, an Historical and Archeological Survey With Special Reference to its Irrigation System, King Saud University Press, Riyadh, 1988.

الحوراء





٢٨٢. ساكفٌ محفور*
معجون المرمر، زخرفة منحوتة
طول: ١٢٠ سم
الحوراء
الرياض، المتحف الوطني، الحوراء، ١٦

فهرس: Thesaurus، رقم ١٥٧٨٤؛ حامد، ١٩٨٨، ص. ٣٤٨؛ Whitcomb، ١٩٨٨، ص. ٤٠٦.

* (ساكف : أعلى الباب الذي يقابل العتبة)

تـُعدّ الحوراء من بين مراحل طريق الحج الذي كانت تسلكه القوافل المصرية، على امتداد سواحل البحر الأحمر. وقد أتاح التنقيبُ في الموقع استخراج آثارِ هندسةٍ معمارية، وأعدادٍ كبيرة من قطع خزفٍ تعود إلى الحقبة الإسلامية. إن هذا الساكفُ المحفور، الذي يعلو دعائمَ مزوَّقة برسوم نباتية مؤسلبة، كان يزيـِّن باب أحد المساكن. وهو نقش ذو طابع ديني، وبمزيد من الدقة، هو جزء قصير من آية الكرسي الشهيرة (القرآن، ٢،٢٥٥). وعادةً ما تـُستخدم هذه الآية سواء على الآثار أو على التحف. ولا يزال تأريخ آثار الحوراء يـُسبب إشكالية. فقد طـُرح في البداية تاريخ مبكـِّر (الحقبة العباسية). ونسب عالـِمُ الآثار دي. وايتكومب (D. Whitcomb) هذا الساكفَ إلى القرن الثاني عشر-الثالث عشر، ورأى فيه تأثيرا من مصر الفاطمية. إلا إن هذه الكتابة المتمددة تأخذ شكلا ضامرا في الجزء العلوي من الأحرف، وتجد شباهـَها (ج. شبيه) إلتي تثير الدهشة، في أقصى شرق أرض الإسلام، في مستهل القرن الثاني عشر (خصوصا في نقوش قصر مسعود الثالث في غزنة، أفغانستان). وكانت النماذج النقشية تنتشر على جانب من السرعة، وفي أغلب الاحيان من الشرق الى الغرب.
C. J.

طريق الحج اليمني الأعلى

(النجدي) بين صنعاء ومكة المكرمة

أ. د. محمد بن عبدالرحمن راشد الثنيان

خريطة الطريق اليمنية

تعبر أراضي جنوب الجزيرة العربية وغربيها مسارات عدة من دروب الحج التي تصل حجاج وزوار بلاد اليمن بالأماكن المقدسة. وأدى مرور قوافل الحجيج في ذهابها وإيابها عبر هذه الأراضي منذ العصور الإسلامية المبكرة إلى بروز حركة تجارية انعكست، بطبيعة الحال، على نمو الاقتصاد المحلي وتوسع السكان في نشاطاتهم العمرانية وتطور قرى ومدن المنطقة وتخطيطها. تشير المعلومات المصدرية المبكرة إلى وجود ثلاثة مسارات رئيسة على الأقل لهذه الطرق، من أبرزها ما يلي:

إلى جانب توفر شبكة من الدروب البرية التي وصلت المدن الرئيسة في اليمن بالأماكن المقدسة، توفر لحجاج بلاد اليمن، أيضا، شبكة من المسارات البحرية ربطت الموانىء اليمنية (مثل: عدن، حردة، الأهواب) بالأماكن المقدسة عن طريق ميناء السرين والليث وجدة.

وبصفة عامة، كانت بلاد اليمن تتصل بالأماكن المقدسة بأكثر من طريق، ومن أبرز هذه الدروب ما يلي:

١. الدروب الساحلية: • أ. الطريق الساحلي الرئيس. • ب. الطريق الساحلي التهامي (السلطاني).

٢. المسارات البحرية: • أ. مسار ما بين ميناء الحديدة وميناء جدة مرورًا بميناء السرين. • ب. مسار ما بين ميناء عدن وميناء جدة مرورًا ببعض مراسي البحر الأحمر.

٣. الدروب البرية الداخلية: • أ. طريق الحج القديم الواصل ما بين صنعاء ومكة المكرمة عن طريق حلي العليا (درب الصدور).

• ب. طرق الحج ما بين منطقة حضرموت ومكة المكرمة مرورًا بنجران، أو صعدة، أو عدن. • ج. طرق الحج ما بين عدن ومكة المكرمة مرورًا بصنعاء. • د. طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الذي يصل صنعاء بمكة المكرمة. • هـ. طريق الحج ما بين صعدة ومكة المكرمة مرورًا بسلسلة جبال السروات ومدينة الطائف.

يُعد **طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الواصل بين مدينة صنعاء ومكة المكرمة** من أشهر هذه الدروب تاريخيّاً وحضارياً، وفيما يلي نبذة مختصرة عن هذا الدرب: **طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الواصل بين مدينة صنعاء ومكة المكرمة:**

يُعَدُّ الشاعر اليمني أحمد بن عيسى الرداعي (عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع للميلاد) من أوائل من وصفوا مسار الطريق، وما يقع عليه من مرافق ومنافع عامة وخاصة ؛ عن طريق نظمه لأبيات شعرية تكون في مجملها أرجوزته المعروفة باسم «أرجوزة الحج»، أو ما يُعرف بـ« الرداعية» وذلك خلال رحلته لتأدية فريضة الحج من مدينته رداع في اليمن إلى مكة المكرمة مروراً بصنعاء وصعدة. وكتدليل على المكانة العلمية الكبيرة لهذه الأرجوزة عند الجغرافي الهمداني، فقد أحال إليها القارىء في العديد من أعماله المنشورة، ووصف محتويات أرجوزة الحج للرداعي، بقوله: «هذه الأرجوزة فريدة في فنها (...)، ولا نعلم أحداً وصف من جزيرة العرب مسافة أربعة وعشرين يوماً بشعر طبع ونشر بصفة الأبل والفلوات سوى أحمد بن عيسى الرداعي رحمه لله». أما الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت: ما بين ٣٥٠-٣٦٠ للهجرة/٩٦١-٩٧٠ للميلاد) فيأتي في المرتبة الثانية بشأن قيمة كتاباته العلمية المتصلة بهذا الطريق.

وتتصف المعلومات العلمية الواردة عند الإمام أبو إسحاق الحربي (ت:٢٨٥هـ/٨٩٨م) أنها معلومات مكملة ومؤكدة لما ورد عند الرداعي في أرجوزته، بجانب أن معلوماته زودتنا بإضافات مجزية خاصة في تسميته للمناهل الصغيرة الحجم الواقعة في المسافات الفاصلة بين محطات الطريق الرئيسة.

وما يتعلق ببقية كتابات الجغرافيين العرب المسلمين الأوائل، مثل: ابن خرداذبة، (ت: بعد ٢٧٢هـ/٨٨٥م)، وقدامة بن جعفر (ت: بين ٣١٠هـ و ٣٣٧هـ/٩٠٨م و ٩٤٨م)، وابن حوقل (ت: في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، والمقدسي (ت: حوالي عام ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، والأدريسي (ت: حوالي عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م)، وابن المجاور (ت: بعد عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م) وغيرهم من العلماء العرب المسلمين، فتتسم بالإيجاز الوصفي لمراحل الطريق ومحطاته ومناهله.

هيلين داڤيد (Hélène David) ٢٠١٠

مقارنة ببعض دروب الحج الأخرى في الجزيرة العربية، لم يسبق في أي وقتٍ من الأوقات إخضاع هذا الطريق بأكمله للاستكشافات من قبل الرحالة العرب المسلمين الأوائل أو الغربيين؛ ويستثنى من هذا التعميم نتائج ترحال الحاج عبد الله فلبي الذي قام به عام ١٩٣٢ للميلاد، وبين عامي ١٩٣٦-١٩٣٧ للميلاد في مناطق الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية. وهذه الرحلات أمدتنا بمعلومات مختصرة ومتناثرة في ثنايا كتاباته حول أجزاء محددة للقسم من مسار طريق الحج الواقع في أراضي المملكة العربية السعودية.

أما المهندس تويتشل، فقد لمح عام ١٩٤٠م لقسم محدد من الطريق خلال قيامه بوضع مخطط لطريق أسفلتي كان يُزمع إنشاؤه آنذاك بين مدينتي أبها ونجران.

تنبثق الأهمية التاريخية والحضارية لهذا الطريق بمكوناته المادية الآثارية من منافع ومرافق مختلفة كونه من الدروب التجارية القديمة التي استخدمت قبل ظهور الإسلام خاصة في فعاليات تجارة العرب القديمة ؛ وكان يربط حواضر الجزيرة العربية الجنوبية بالأطراف الشمالية للجزيرة.

ومن المحتمل أن تأريخ بداية استخدامات هذا الدرب وتطوره يقع في بداية الألف الأول قبل الميلاد وهي الفترة التاريخية التي شهدت الزيارة الشهيرة للملكة بلقيس إلى الملك سليمان. وقد حمل هذا الحدث التاريخي تحولاً مفصليًا في عالم تطور الطرق العربية البرية القديمة واستخداماتها في عالم تنظيم القوافل التجارية. وعليه، فمن المحتمل أن هذا الطريق ليس إلا الدرب ذاته الذي كان يعرف في الكتابات الكلاسيكية القديمة باسم «درب البخور» وذلك بناءً على آثاره المادية عامة.

وعندما أضحى الميزان التجاري في متناول يد المجتمع المكي، شهد هذا الطريق نشاطات تجارة قريش المشهورة تاريخياً والمتمثلة في رحلتي الشتاء والصيف. وتزامنًا مع ظهور الإسلام بدأت هذه التجارة بالاضمحلال، وطرأ تغير كبير في ماهية الدروب البرية قاطبة ووظائفها العملية، إذ حلت قوافل الحج القادمة من جنوب الجزيرة العربية محل القوافل التجارية، وبذلك أصبح مسار طريق التجارة القديم من أبرز الطرق الموصلة للأماكن المقدسة.

خلال العقود الأولى من توطيد دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، تشير الكتابات التاريخية المبكرة إلى استخدام مسار هذا الطريق من قبل بعض الجيوش والسرايا الإسلامية المتجهة من منطقة الحجاز إلى المناطق الواقعة إلى الجنوب والجنوب الشرقي من مكة المكرمة، أو تلك الجيوش والسرايا المتجهة نحو الأطراف الشمالية من بلاد اليمن. ومن أبرز هذه الحملات والسرايا العسكرية الإسلامية ما يلي:

(١). سرية عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في العام ٩هـ/٦٣٠م.
(٢). سرية قطبة بن عامر في العام ١٠هـ/٦٣١م.
(٣). سرية خالد بن الوليد في العام ١٠هـ/٦٣١م.
(٤). جيش المهاجر بن أبي أمية في العام ١١هـ/٦٣٢-٦٣٣م.
(٥). جيش بسر بن أبي أرطأة العامري في العام ٤٠هـ/٦٦٠م.
(٦). جيش عبد الملك بن محمد السعدي في العام ١٣٠هـ/٧٤٨م.

كما شهدت أجزاء محددة من الطريق بعض تلك الصدامات العسكرية وذلك نتيجة لبعض الأزمات والنزاعات السياسية، ومنها: أزمة معن الشيباني مع عمر الغالبي في العام ١٤٢هـ/٧٦٠م، وأزمة إبراهيم العلوي مع إسحاق العباسي في العام ٢٠٠هـ/٨١٥م.

تشير المسوحات والدراسات الأثرية الأخيرة إلى وقوع قسمٍ كبيرٍ من مسار هذا الطريق ضمن أراضي الحدود الإدارية لمنطقة عسير؛ ويمتد هذا المسار لمسافة تصل لحوالي ٣٦٠كم ويقع عليه حوالي خمسة وسبعين موقعاً؛ ويشتمل الطريق على بقايا مادية أثرية، قديمة وإسلامية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: **١.** تمهيد وتحديد وتكثيف مسار الطريق ذاته في الأراضي السهلة كصحراء ظهر في بلاد خثعم وصحراء ركبة بالقرب من الطائف. • **٢.** رصف مسار الطريق وتمهيده وتسويته وتعنيبه عند تخلخل مساره للمناطق الوعرة والأراضي الجبلية كعقبة محذا النعال، وأقاوية، والمنضج (المصلولة) في بلاد وادعة؛ وعقبات الشفشف في بلاد عبيدة قحطان الواقعة إلى الجنوب الشرقي من خميس مشيط. • **٣.** مصادر المياه ومنشآتها، على جانب مناهل الطريق ومنازله. • **٤.** مواقع المحطات الرئيسة والثانوية. • **٥.** المساجد والمصليات (المساجد الصغيرة). • **٦.** النقوش والكتابات الصخرية العربية الإسلامية المبكرة، إلى جانب النقوش والكتابات العربية القديمة (ثمودي)، والرسومات الصخرية الآدمية والحيوانية. • **٧.** أعلام الطريق كالأميال الحجرية (أحجار المسافة)، وأبراج المراقبة، والرجوم.

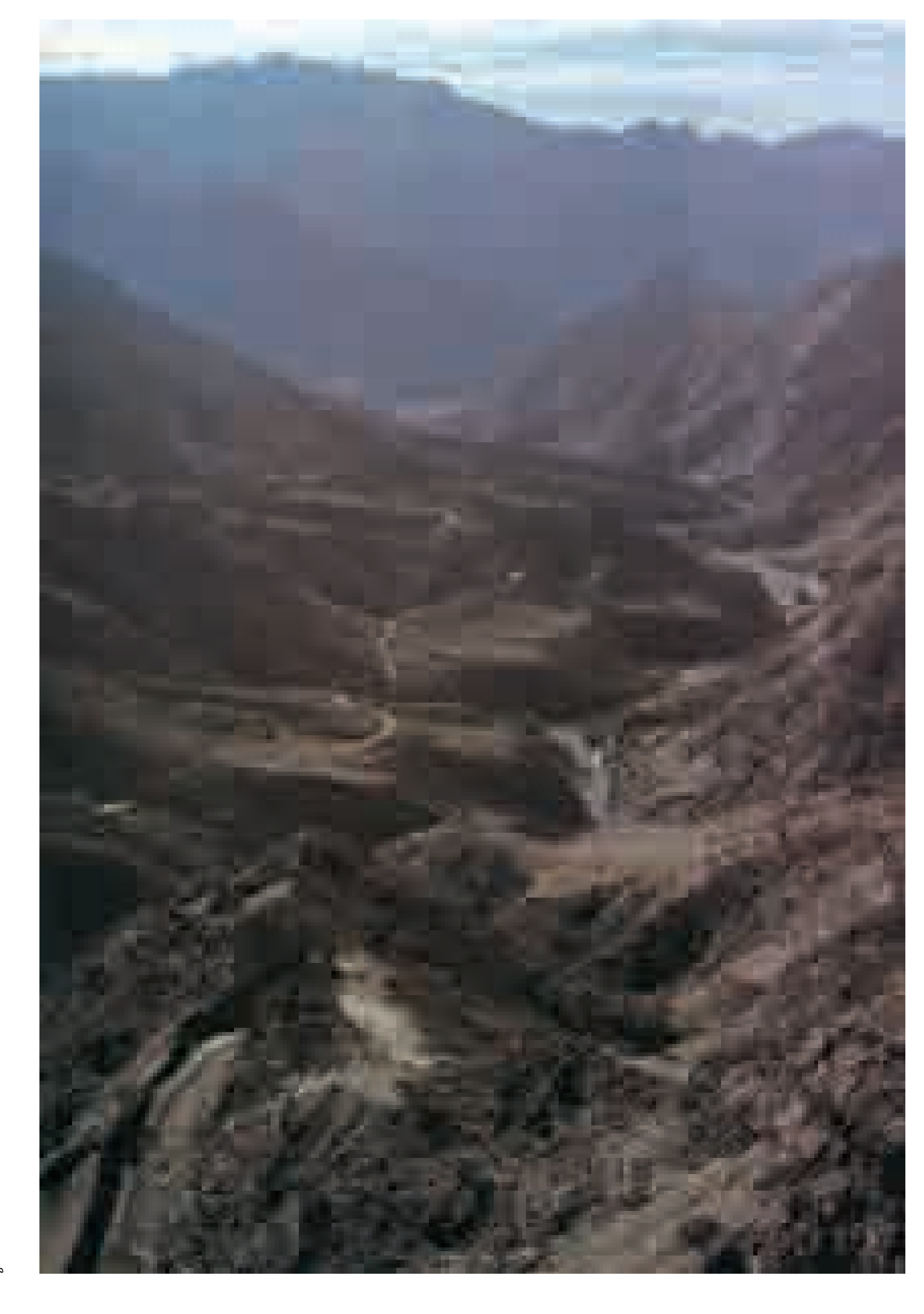
المسار الجغرافي للطريق:

جغرافيّاً، يُعد وادي شعوب، الواقع في شمال مدينة صنعاء، النقطة الرئيسة والرسمية المعتبرة للبداية الرسمية الفعلية لمسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي)، بينما النقطة الجغرافية لنهاية مسار الطريق-حسب ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل- فهي جبل المناقب وعقبته الواقع بالقرب من الميقات الحالي والمسمى السيل الكبير.

يقع القسم السعودي للطريق ما بين خط طول ٠٠ ٤٠- ٣٠ ٤٣، وعرض ٣٠ ٢١-٣١ ١٧؛ وتقدر المسافة الإجمالية لهذا القسم – بخطّ مستقيم- بحوالي ٨٠٠ كم. بدءًا من الحدود السعودية-اليمنية يأخذ مسار الدرب تدريجيًا الإتجاه الشمالي الغربي حتى يقترب المسار من وادي السيل الكبير، مخترقًا طوبوغرافية متباينة التضاريس. ومن أصعب هذه التضاريس على سبيل المثال لا الحصر: الجزء الجنوبي-الجنوبي الشرقي من سلسلة جبال السروات، منطقة حرة البقوم. وبالعكس، فإن مسار الطريق يجتاز بعض التضاريس غير الوعرة كصحراء القاعة، صحراء ظهر، وصحراء ركبة.

يخترق مسار الطريق الجزء الشرقي والشمال الشرقي من أراضي منطقة عسير وهو ما يسمى في يومنا هذا ببادية غامد؛ بدءاً من وصول مسار الطريق إلى ريع القريحاء، وانتهاءً بخروج مسار الطريق من وادي بيدة (أبيدة) من ثم وادي تربة، مروراً بمواضع عدة واقعة في المنطقة، منها: أجرب (جرب)، وحرة نجد (حرة البقوم).

ويمتد مسار الطريق بشكل متعرج، ويتراوح عرضه ما بين ٣- ٨م تقريباً؛ وتظهر آثاره تارة وتختفي تارة أخرى. أما وضوح وبيان ظهور مسار الطريق فيوجد خلال اختراق الطريق لأراضي حرة نجد (حرة البقوم)، الذي يُعَدُّ أنموذجاً مثالياً لعمارة الدروب القديمة في الجزيرة العربية. فمسار الطريق في هذه المنطقة يظهر مرصوفاً بالكامل مع وجود تحديد لضفتيه بواسطة جدران غير مرتفعة (أكتاف جانبية)، عملت جميع هذه الأعمال البنائية الهندسية على الطريق باستخدام الأحجار البركانية المحلية. وبجانب وجود آثار وبقايا لمسار الطريق ذاته المرصوف رصفاً جيداً خاصة في المنطقة الحرية التي تتسم بوعورة تضاريسها، وبالتالي صعوبة السفر والترحال خلالها، تتصل بالطريق في هذه المنطقة معالم جغرافية قديمة لم تزل تحتفظ بأسمائها التاريخية إلى يومنا هذا، من أبرزها حسب تسلسلها الجغرافي (من الشرق-الشمال الشرقي باتجاه الشمال الغربي): وادي ذراع (كراع الجنوبي)، شعيب الثنية، الرفضة (الرفغة)، وادي يراح، وادي كرا، منطقة الشريانة، وادي كركر، كراع الشمالي،



منظر من جبال عسير

وادي أبيدة (بيدة)، وادي تربة. وعلى امتداد مسار الطريق اكتشف مواقع أثرية، منها:محطة القريحاء،ومحطة جرب، ومحطة كرا؛ وبعض البقايا الأثرية المعمارية كالدوائر الحجرية وبقايا لمبانٍ، وميل حجري في وادي (شعيب) السليم بالقرب من منطقة الدحلة.

المسارات التفريعية للطريق:

يُعد طريق الحج السروي من أبرز المسارات المتفرعة من المسار الرئيس لطريق الحج اليمني الأعلى (النجدي). وهذا الدرب التفريعي يتفرع من المسار الرئيس لطريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) عند وصول الدرب الأخير إلى مدينة صعدة اليمنية؛ ويصل الطريق السروي مدينة صعدة بمكة المكرمة مروراً بالطائف عن طريق مرور مسار الدرب عبر أعالي سلسلة جبال السروات، ومن ضمنها ما يقع في أراضي منطقة

الباحة (سلسلة سراة منطقة الباحة). ومن أهم قرى منطقة الباحة التي كانت تمثل محطات تجارية حيوية على الدرب السروي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) قريتان: الأولى قرية الكِبَسَة، الواقعة تحت قمة جبل شدا الأعلى بتهامة غامد والمشهورة بزراعة البن؛ أما القرية (أو المحطة) الثانية فهي مَدَر الواقعة في وادي الشعب اليماني جنوب شرقي الرميضة على مسافة تبلغ حوالي ٢٠كم.

ويضيف الرحالة السويسري بوركهارت، الذي زار مكة المكرمة عام ١٨١٤م،القرى التالية: مَشْنِيَّة والأزاهرة ورغدان، لكونها محطات على طريق الحج السروي وفقاً للمعلومات التي تلقاها من بعض حجاج اليمن أنفسهم.

يبدو أن هذا الطريق نفسه كان مستخدماً في بداية القرن العشرين الميلادي وسمى آنذاك (بالسكة السلطانية). وتظهر بعض محطات مسار الطريق ومنازله في القائمة التي وضعها كورنوليس لأسماء المواضع الواقعة على الطريق (رقم : ٥) الذي يربط أبها بالطائف، ومنها: عقبة الظفير، والباحة، والرمادة، ورهوة البرة، وشبرقة، والمندق، وعقبة عصيدان.

وبالرغم من اختراق مسار الدرب ومروره من خلال تضاريس جبلية وعرة المسلك، إلا أن المصادر الجغرافية المبكرة تشير إلى خصوبة هذه الأراضي ووفرة مياهها ووجود وفرة بالأطعمة المتمثلة بالمخازن الأرضية، التي تحفر في الأرض ويطلق عليها محليًا اسم (المدافن) المليئة بالحبوب للاستهلاك الآدمي والحيواني. ومن أبرز الجغرافيين والرحالة المسلمين المبكرين الذين تحدثوا عن هذا الدرب -وربما يكون الوحيد من بينهم- ابن المجاور (نهاية القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر للميلاد)؛ بينما يعد بوركهارت الرحالة الغربي الوحيد الذي قام بوصف وتحديد محطات الطريق السروي ومنازله معتمداً على معلومات شخصية حصل عليها من حجاج بلاد اليمن الذين سلكوا هذا الدرب في رحلة ذهابهم إلى مكة المكرمة وإيابهم منها. ويأتي بعده، السير كنهان كورنوليس الذي حدد، تقريبًا، في وقته جميع مسارات الطرق ومحطاتها العاملة في جنوب الجزيرة العربية وغربيها.

المشاركون في إصلاحات وتطوير المنافع والمرافق الواقعة على مسار الطريق:

باستثناء طبيعة الأعمال الاصلاحية والتطويرية التي قام بتنفيذها القائد الزيادي الحسين بن سلامة (ت ٤٠٢هـ/١٠١١م)، فإن المصادر التاريخية المتاحة لنا بالوقت الحاضر لا تشير بالتفصيل إلى الأعمال الأخرى التي تمت على الطريق. كما لا تتوفر معلومات تفيدنا عن الإصلاحات أو الإنشاءات خلال العصر الأموي، وربما أن هذا الغياب المعلوماتي ناتج عن شبه العزلة السياسية لبلاد اليمن آنذاك عن المسرح السياسي.

يُعد الخليفة العباسي المهدي بن المنصور (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) من أوائل الخلفاء وربما الخليفة الوحيد الذي شارك في عمارة طريق الحج اليمني، فقد قام بإصدار أوامره بتأسيس خدمة البريد مابين بلاد الحجاز وبلاد اليمن. ويُروى أن هذا العمل نفذ بسبب القلاقل السياسية في اليمن ؛ واشتمل تأسيس خدمة البريد على إنشاء منافع ومرافق على امتداد مسار الدرب كسكن لصاحب البريد ونصب الأميال الحجرية (أحجار المسافة) في مراحل محددة من الطريق، إلى جانب إنشاء أبراج للمراقبة والحراسة بهدف الحفاظ على امن وسلامة السالكين لهذا الطريق.

وخلال ولاية الوالي العباسي بصنعاء محمد بن خالد البرمكي (١٨٣-١٨٤هـ/٧٩٩-٨٠٠م) قام الوالي بتنفيذ أعمالٍ واصلاحات داخل مدينة صنعاء وخارجها بالرغم من قصر مدة ولايته. وبسبب اصراره على تطوير منافع ومرافق طريق الحج اليمني والحفاظ عل امن وسلامة سالكيه، أمر بتنفيذ بعض الإجراءات التي تمثلت في ترميم واصلاح مسار الطريق وصيانة موارده المائية. وقد لخص المؤرخ الرازي أعمال البرمكي بقوله : «وكانت صدقته يتأدى بها إليهم (أهل صنعاء) ويصلح بها سبلهم إلى مكة».

أما الأمير والقائد الزيادي الحسين بن سلامة (٤٠٢هـ/١٠١١م) فحالما انتهى من اكماله لتأسيس مدينتي الكدراء والمعقر وتشييد سورٍ محصّنٍ حول عاصمته مدينة زبيد، اتجه نحو تطوير دروب الحج اليمنية وشملها بالمنافع والمرافق الخاصة. فتشير المصادر التاريخية الى أن الحسين بن سلامة صاغ مشروعًا ضخمًا بقصد الارتقاء بالدروب البرية اليمنية ومن هذه الإصلاحات تعمير المساجد والجوامع بمنارات عالية، وحفر الآبار المطوية وغير المطوية، وتشييد برك المياه في أغلب محطات الطريق. كما أنه أمر بنصب الأميال الحجرية (أحجار المسافة) على امتداد مسارات جميع الطرق الواصلة بلاد اليمن بالأماكن المقدسة موضحة المسافة بوحدة الميل العربي القديم والفرسخ.

أما الملكة أروى بنت أحمد الصليحي (ت: ٥٣٢هـ/١١٣٨م) فقامت بإنشاء بعض الاستراحات والخانات كخان ضين (مرامل) الواقع على مسار الطريق مابين صنعاء وصعدة.

المصادر (المناهل) المائية على امتداد الطريق:

تنتشر بعض المصادر المائية على امتداد مسار الطريق، ومن أبرز هذه المصادر المائية ما يلي :

(١). آبار القاعة: القاعة عبارة عن ارض مستوية مغطاة بالحصباء البركانية، تقع إلى الشمال الشرقي من خميس مشيط بمسافة تبلغ حوالي ٥٠كم ،وتنتشر في نواحيها معالم جغرافية مشهورة كجبل أم القصص، وجبل أُعيبل، وجبل قرن القاعة ؛ ولهذا السهل ومعالمه الجغرافية ذكر عند الهمداني عندما تعرض لوصف طريق الحج اليمني. يشتمل الحد الجنوبي من سهل القاعة على مجموعة من الآبار القديمة المطوية المعروفة محلياً باسم آبار الحفائر الذي يصل عددها إلى خمس آبار؛ وهذه الآبار واقعة عند تقاطع خط الطول ٣٠٦ً،٠٣َ –٤٣ْ شرقاً ودائرة العرض ٢١٩َ ،٢٩َ – ١٨ْ شمالاً؛ ويحد موقع الآبار من الشمال وادي الغول ووادي وطاط، ومن الشرق وادي وطاط ووادي الخليج، بينما يحدها من الجنوب وادي الغول وجبل قرين القاعة ومن الغرب وادي الغول ووادي حافش. أدت هذه الآبار دورها كمحطة من محطات طريق الحج اليمني، ولا يزال بعضها في حيز الاستخدام حتى يومنا هذا.

(٢). أبار كُتنة (كتنة القاع): تقع كتنة إلى الشمال الغربي من مدينة يعرى الحديثة، وذلك على الضفة الجنوبية الغربية من وادي ريع الخليج الواقع في الجنوب-الشرقي من صحراء (قاع) القاعة، عند تقاطع خط الطول ٩٣٥ً،٠٤َ،٤٣ْ شرقاً ودائرة العرض ٧٥٥ً،٣١َ،١٨ْ شمالاً. وصفت كتنة (كتنة القاع) في الكتابات الجغرافية المبكرة بأنها قرية ذات حجم كبير وتشتمل على عدة آبار، وتعد من مناهل طريق الحج اليمني الأعلى. يتميز الموقع بتوفر أشجار الأثل والطلح والنخيل في أنحائه، كما يشتمل المحيط الجغرافي للموقع على كتل ضخمة من الأحجار الرملية المنفذ على بعض سطوحها بعض الكتابات والنقوش والمخربشات العربية الإسلامية المبكرة التي تتسم بعدم وضوح حروفها بالتمام. لا يزال الاسم التاريخي للموقع يطلق على أحد آبارها المتهدم جزئياً؛ و يبلغ قطر فوهته حوالي ٣م، بينما عمقه يصل إلى حوالي ٨ أمتار. كما يشتمل الموقع ذاته، إضافة إلى الآبار، على ثلاثة أفران (تنانير) وأساسات بنائية لوحدات معمارية، وتتناثر الأحجار المختلفة الأشكال والأحجام وكسر لأواني فخارية إسلامية على أرضيات هذه الوحدات المعمارية. وعُثر في المحيط الجغرافي للموقع على رسومات صخرية وكتابات إسلامية مبكرة.

(٣). نبع (عين) البردان: يقع نبع (عين) البردان على الضفة الغربية من وادي شجع المخترق لأراضي سهل الحماد بمنطقة ظهران



نـقش صـخري قـديم بـمحاذاة الـطريق الـيمنية

الجنوب، بالقرب من مسار طريق الحج اليمني الأعلى(النجدي)، بين خطي طول ٠٠َ ٤٤ْ –٣٠َ ٤٣ْ شرقاً ودائرتي عرض ٠٠َ ١٨ْ –٣٠َ ١٧ْ شمالاً. ورد ذكر البردان عند الشاعر أحمد بن عيسى الرداعي في أرجوزة الحج، ووصفه بغزارة مياهه وأنه منهل من مناهل طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الذي يصل مدينة صنعاء بمكة المكرمة. يشتمل الموقع حالياً على غيل بنبع مائي مستديم يكوّن مستنقعاً مائياً دائم الجريان، يحيط بموقع النبع المائي كتل حجرية تتسم أسطحها بالنعومة، وبعض الأشجار دائمة الخضرة.

(٤). غيل المبرح : تبعد منطقة المبرح الجبلية مسافة تقدر بحوالي ١كم إلى الشمال من الخط المُعبّد (المسفلت) الذي يربط مدينة ظهران الجنوب بمحافظة سراة عبيدة، بين خطي طول ٠٠َ ٤٤ْ –٣٠َ ٤٣ْ شرقاً ودائرتي عرض ٠٠َ ١٨ْ –٣٠َ ١٧ْ شمالاً. يحد منطقة المبرح من الجنوب جبل القهرة الرابض على الضفة الغربية لوادي المبرح، وجبل أقاوية الواقع على الضفة الشرقية للوادي، وعقبة ووادي أقاوية. أما من الجهة الشرقية فيحدها بالتسلسل من الجنوب إلى الشمال، جبل أقاوية، ومن ثم سلسلة جبال المحجر المتصلة بسلسلة جبال الحرشة، ومن ثم سلسلة جبال بني نظار. أما من الحدود الغربية فتشرف على امتداد الوادي منطقة المحاجر، وهي المنطقة التي تفصل بين المبرح والطريق العام الأسفلتي الذي يربط مدينة ظهران الجنوب بسراة عبيدة. يعد الشاعر أحمد بن عيسى الرداعي (من أصحاب القرن الثالث الهجري/العاشر الميلادي) من أقدم مَنْ ذكر المبرح وغيلها بوجه خاص في أرجوزته، وأشار إلى وقوعهما على مسار طريق الحج اليمني الأعلى خلال رحلة ذهابه وإيابه من مسقط رأسه مدينة رداع في اليمن إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج. يشتمل موقع المبرح حالياً على غيل مائي دارس تحف بموقعه أشجار النخيل المكتظة، ومجموعة من الرسومات الصخرية، الآدمية والحيوانية، والكتابات العربية القديمة والنقوش العربية الإسلامية المبكرة، أحدها مؤرخ في سنة ٩٨ للهجرة (٧١٦-٧١٧م)؛ وجميع هذه الآثار الخطية والرسومات الصخرية نفذت على صخور الجبل المطل على المبرح من الجهة الشرقية. كما يحوي الموقع نفسه على آثار لرصف وتسوية (تمهيد) مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي).

(٥). منهل جَرَب (أُجْرب): تقع جرب (أو أُجرب) في الجانب الشرقي من الحدود الإدارية لمنطقة الباحة، وإلى الشمال الشرقي من مدينة العقيق بمسافة تصل إلى حوالى ٤٥كم؛ عند تقاطع خط الطول ٤٩َ ٤١ْ شرقاً ودائرة العرض ٢٨َ ٢٠ْ شمالاً. ينفرد الجغرافي الهمداني والشاعر اليمني الرداعي بذكرهما لموقع جرب (أو أجرب) وتحديدهما لـه على أنه أحد مناهل طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي)، ووجود بئر فيه؛ أما بقية الجغرافيين العرب المسلمين المبكرين، كالحربي على سبيل المثال، فيوردون اسم المحطة فقط ووقوعها على الطريق بدون تفاصيل تذكر. جرب (أو أجرب) عبارة عن وادٍ من أودية العقيق (عقيق بادية غامد)، ورافدٍ من روافد وادي رنية، يشتمل على مناهل مائية قديمة تتمثل في بعض الآبار، وهو من المناهل القديمة الواقعة على طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الذي يصل مدينة صنعاء بمكة المكرمة. يجتاز مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) منهل جرب متجهاً صوب حرة البقوم (حرة نجد)؛ ويقع بجانب مسار الطريق آبار حدثت ورممت وأصلحت، وربما كانت هذه الآبار هي الموارد والمناهل القديمة المشار إليها في كتب المتقدمين. تحتفظ الآن قرية حديثة بالاسم التاريخي القديم وتعد قاعدة لبادية جرب، وهي تابعة إدارياً لمدينة العقيق.

(٦). بئر رنوم (ابن سرار): تقع بئر رنوم (ابن سرار) إلى الجنوب الشرقي من مدينة بيشة بمسافة تصل إلى حوالي ٥٥كم، بين خطي طول ٠٠َ ٤٣ْ –٣٠َ ٤٢ْ شرقاً ودائرتي عرض ٠٠َ ٢٠ْ –٣٠َ ١٩ْ شمالاً. ويبدو أن بئر رنوم إكتسبت إسمها من اسم الوادي الوارد له ذكر عند الهجري في وصفه لواديي بيشة وترج؛ وصف الهمداني مياه بئر رنوم بالغزارة والعمق وذلك أثناء تعليقه على أبيات الرداعي الوصفية للموقع ذاته من الرحالة الذين توقفوا عند هذه البئر ووصفها كل من فؤاد حمزة عام ١٩٣٤م والحاج عبد الله فلبي عام ١٩٣٦م. يحتوي الموقع حالياً على بئرٍ لم تزل تُعرف محلياً باسم بئر ابن سرار أو باسم بئر الفيل، أما الوادي فلا يزال يحتفظ بالاسم القديم؛ حفر البئر بوسط الوادي الذي تنتشر في جنباته الكثير من الأشجار مستديمة الخضرة. كما تشتمل الصخور البركانية المحيطة بالموقع على عددٍ من النقوش الصخرية العربية الإسلامية المبكرة غير المؤرخة، إلى جانب وجود مجموعة من الرسوم القبلية القديمة.

(٧). منهل الثجة (العرجة): يقع موقع الثجة (العرجة) بجانب قرن السويداء جنوبي مركز العرقين بمسافة ٨كم وبينها وبين مركز سروم الفيض حوالي ١٤كم، عند تقاطع خط الطول ٠٩٤ً،١٩َ ،٤٣ْ شرقاً ودائرة العرض ٩٧٠ً ،١٢َ ،١٨ْ شمالاً، ويحده من الشمال وادي تقارى ومن الشرق

هضاب مهدي، بينما يحد الموقع من الجنوب والغرب أطراف وادي مراغ. تعد الثجة من ضمن محطات البريد الواقعة على طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) ومناهله المائية؛ وورد لها ذكر في بعض كتابات الجغرافيين العرب المسلمين الأوائل إذ وُصِفَت على أنها من محطات البريد الواقعة على مسار الدرب، والمشتملة على بئر غزيرة الماء وعادة ما تتوقف القوافل عند منهلها في طريقها للأماكن المقدسة. يشتمل الموقع حاليًاً على بئر، تُدعى بئر الثجة (العرجة)، واقعة على الضفة الجنوبية لوادي العرج، وذلك إلى الشمال من جبل الجميلان المشهور في أراضي بني عبيدة من قبيلة قحطان. والبئر محفورة حفراً غير عميق، وجدرانها الداخلية مطوية بالحجارة المهذبة المحلية؛ ويبلغ عمقها حوالي ٦ أمتار، بينما فوهتها فيبلغ قطرها حوالي ٤م. ويوجد بالقرب من البئر بعض الأحجار الجرانيتية المنحوتة على هيئة أحواض لحفظ المياه المجلوبة من البئر. وبالقرب من موقع البئر يوجد جزء من مسار طريق الحج اليمني مرصوف بالحجارة المحلية.

المساجد والمصليات (المساجد الصغيرة):

تشتمل محطات ومنازل الطريق على عدد من المساجد والمصليات الصغيرة، ومن أشهرها، وربما أقدمها، مسجد خالد الواقع في منطقة الثويلة. تقع منطقة الثويلة إلى الجنوب الشرقي من مدينة ظهران الجنوب، بين خطي الطول َ٠٠ ْ٤٤ –َ٣٠ ْ٤٣ شرقاً ودائرتي العرض َ٣٠ ْ١٧ –َ٠٠ ْ١٧ شمالاً؛ وتخترق هذه المنطقة سلسلة جبال قهرة الذئاب حيث يقع في سفحها مسجد تاريخي يدعى مسجد خالد، وذلك على الضفة الشمالية الشرقية من وادي عمدان الذي يخترق سهل العصيدة. كما يخترق الجانب الشمالي الغربي من محيط موقع المسجد مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) القادم من مدينة صنعاء.

يعد مسجد خالد من المساجد الأثرية بالمنطقة؛ ولم يورد أحد من الجغرافيين المسلمين المبكرين ذكرًا لهذا المسجد ما عدا ما أورده الجغرافي الهمداني والشاعر الرداعي في أرجوزته ؛ وقد وصفه الأول بقوله "ومسجد خالد تحت الثويلة عليه حوَاء بلا سقف".

يقع المسجد ذاته تحت سفح سلسلة جبال قهرة الذئاب، وذلك على الضفة الشمالية الشرقية من وادي عمدان الذي يخترق سهل العصيدة. ويخترق الجانب الشمالي الغربي من محيط موقع المسجد مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) القادم من مدينة صنعاء.

يشتمل المسجد على مساحة مستطيلة تبلغ أبعادها حوالي ٢١م × ١٥,٥م، وقد تم تحديدها بمدماك واحد من الأحجار البركانية المحلية غير المهذبة؛ والمسجد غير مسقف طبقاً لوصف الهمداني لحالته آنذاك.

النقوش والكتابات الصخرية:

على امتداد مسار الطريق كشف عن مجاميع من النقوش والكتابات الصخرية الإسلامية المبكرة، من أبرز هذه الآثار الخطية ما يلي:

أولاً: الأميال الحجرية:

عُثر على ضفة مسار الطريق، عند مروره من خلال صحراء ظهر الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينتي بيشة وتبالة بمسافة تصل إلى حوالي ٣٥كم، على ميلين حجريين من أحجار المسافة.

وجد الميل الحجري الأول في وادي القضيف؛ ويشتمل القسم العلوي من الميل على سطرين نفذا بالخط الكوفي (الحجازي) البسيط يوضحان المسافة بوحدة الميل العربي القديم (١ميل=٢كم). وهذا الميل الحجري عبارة عن جلمود صخري، إسطواني الشكل ،جسمه شبه مهذب يبلغ طوله حوالي ١,٨م وعرضه يتراوح ما بين ٠,٥٤- ٠,٢٣م.

أما الميل الحجري الثاني فكشف عنه في وادي شعبة الخيل الواقع إلى الشمال الغربي من موقع الميل الحجري الأول بمسافة تصل إلى حوالي ٣٠كم. يتضمن الجزء العلوي من الميل سطرين كتبا بالخط الكوفي البسيط (الحجازي) ويشيران إلى المسافة بوحدة الميل العربي القديم، أيضاً. يبلغ طول هذا الميل حوالي ١,٩م وعرضه يتراوح ما بين ٠,٥٥م و٠,٤م.

ثانياً: النقوش الصخرية المؤرخة :

أبرزت الأعمال الأثرية، الميداني منها والبحثي، وجود عدد من النقوش الصخرية المؤرخة المنفذة على الواجهات الصخرية القريبة من مسار الطريق؛ ومن أبكر هذه النقوش ما عثر عليه في منطقة المبرح بالقرب من مدينة ظهران الجنوب، المؤرخ سنة ٩٨ للهجرة (٧١٦-٧١٧م)، ونصه كما يلي: **١.** رحمة الله • **٢.** علي ثابت بن أ • **٣.** بي تميم صانع • **٤.** الجرار وعلى أهله • **٥.** أجمعين أمين رب
• **٦.** العالمين وكتب • **٧.** ثابت يوم السبت • **٨.** في عشر ليالٍ خلون من • **٩.** جمادى الآخرة • **١٠.** سنة ثمان وتسعين

إلى جانب ما سبق ذكره، عُثر أيضاً على مجموعة أخرى من النقوش الإسلامية الصخرية المؤرخة في مواقع متفرقة من المنطقة، ومنها ما يلي:
أ. نقش صخري مؤرخ سنة ١٤١هـ(٧٥٨م) كشف عنه على صفحات هضبة أم الرحي الواقعة بالقرب من مدينة تبالة بمحافظة بيشة.
ب. نقش صخري مؤرخ سنة ٢٢٦هـ(٨٤٠م) وجد على الواجهة الصخرية لهضبة أم وقر الواقعة بالقرب من مدينة تبالة بمحافظة بيشة.
ج. نقشان صخريان مؤرخان في سنة ٢٤٠هـ(٨٥٤م) كُشِفَ عنهما على الواجهة الصخرية لهضبة أم وقر بالقرب من مدينة تبالة بمحافظة بيشة.
د. نقش مؤرخ سنة ٣٢٧هـ (٩٣٨م) عُثر عليه بموقع الحديقة بالقرب من وادي واعر في محافظة بيشة.

ثالثاً:النقوش الصخرية غير المؤرخة :

تُشكل الكتابات والنقوش الصخرية الإسلامية غير المؤرخة نسبة كبيرة من مجموع ما كشف عنه من آثار خطية؛ ويظهر أن أغلب ما عثر عليه من نقوش صخرية غير مؤرخة نفذ على الواجهات الصخرية المحاذية لمسار الطريق. وتوزعت هذه النقوش في مواقع محددة على الطريق وذلك بالقرب من المحطات والمناهل المائية، ومن أبرزها ما يلي:

أ. نقوش جبال قهرة العنز، وجبل الراكبة، وجبل وادي عمدان، وعقبة العرقة، ووادي جوال، وعقبة المنضج، وعقبة المبرح، ووادي إثلة. وجميع هذه المواقع تقع إلى الشرق، والشمال الشرقي من مدينة ظهران الجنوب.

ب. نقوش عقبة المضابية، وجبل أم القصص، وكتنة؛ وتقع هذه المواقع إلى الجنوب من مدينة يعرى.

ج. نقوش قرية بنات حرب (قرية المعدن)، ووادي رنوم (بئر ابن سرار)، وتبالة، ووادي أضر، ووادي القضيف، ووادي الخايع؛ وهذه مواقع واقعة إلى الشمال والجنوب من مدينة بيشة (محافظة بيشة).



أسـاسـات جـامـع بمـحـاذاة الـطـريق فـي عـسير

ومن أبرز النقوش في هذه المجموعة، تاريخياً، نقشان غير مؤرخين عثر عليهما في عقبة المنضج (المصلولة) الواقعة بالقرب من مدينة ظهران الجنوب؛ وهذان النقشان هما:

نقش يعود للأمير اليُعفري محمد بن يُعفر بن عبد الرحمن الحوالي الذي حكم الدولة اليعفرية باليمن (٢٣٢-٣٨٧هـ/٨٤٧-٩٩٧م) من سنة ٢٥٨هـ(٨٧١-٨٧٢م) حتى مقتله على يد ابنه إبراهيم سنة ٢٦٩هـ(٨٨٢-٨٨٣م)، ونصه يُقرأ كما يلي:
١. اللهم **٢.** اغفر **٣.** لمحمد **٤.** بن يعفر **٥.** كتبهما **٦.** .قا **٧.** .سم

أما النقش الثاني فيعود للأمير إبراهيم بن محمد بن يعفر بن عبد الرحمن الحوالي الذي تولى زمام حكم الدولة اليعفرية بعد مقتل والده؛ واستمر حاكماً حتى مقتله حوالي عام ٢٨٥هـ(٨٩٨م)، ونص النقش يُقرأ كما يلي :
١. بسم الله الرحمن **٢.** الرحيم اقر الله **٣.** الأمير إبراهيم بن **٤.** محمد بن يعفر وأهداه **٥.** وأمتع به وكتب **٦.** قاسم

الأعمال الهندسية على الطريق:

نفذت أعمال هندسية في غاية الدقة والروعة كالرصف والتكثيف والتعتيب والتمهيد في أجزاء محددة من مسار الطريق، خاصة عند اجتيازه للتضاريس الوعرة كالعقبات الجبلية أو المناطق البركانية الحرية. ومن أهم المناطق التي نفذت بها تلك الأعمال الهندسية ولم تزل باقية حتى الوقت الراهن مايلي :

(١). حرة نجد (حرة البقوم):

تقع حرة نجد (حرة البقوم) إلى الشمال الغربي من منهل جرب (أجرب) بمسافة تصل إلى حوالي ١٠كم؛ ويحد الحرة من الشمال وادي إيهار ووادي تربة، بينما يحدها من الجنوب وادي جرب ووادي رنية، أما من الجهة الشرقية فيحد الحرة جبل بارز يسمى رأفة، ومن جهة الغرب تحدها واحة العقيق وجبال شعير، بين خطي الطول َ٠٠ ْ٤٢ -َ٣٠ ْ٤١ شرقاً ودائرتي العرض َ٠٠ ْ٢١ -َ١٥ ْ٢٠ شمالاً.

يطلق على حرة البقوم في الجغرافية العربية الإسلامية اسم حرة نجد أو حرة بني هلال بن عامر أو حرة النُّواصف؛ وقد أورد الهمداني في تعليقه على أبيات أرجوزة الحج للرداعي ذكراً لها وأسماها حرة نجد، بينما أطلق الجغرافي الهجري عليها اسم حرة بني هلال عند حديثه عن حِرار العرب، ووصفها بأنها: "معترضة من أسفل سقف الطود إلى مهب الشمال، ومن الشرق إلى الغرب شطر ذلك".

وبخصوص الرحالة الغربيين فقد قدم الرحالة عبدالله فلبي خلال تجواله بالمنطقة في الثلاثينيات الميلادية وصفاً لحرة البقوم خاصة ما يتعلق بطبيعة تضاريسها الصعبة، ولكن يبدو أنه لم يستطع اجتياز أراضيها لصعوبة المسالك من خلالها.

تحتل أراضي الحرة المساحة الواقعة ما بين وادي رنية ووادي تربة، ويخترق جسم الحرة من جهته الجنوبية الشرقية المسار المرصوف لطريق الحج اليمني الأعلى القادم من صنعاء والمتجه نحو مكة المكرمة. كما تشتمل الحرة على عدة أودية وشعاب لها ذكر عند المتقدمين، يجتازها مسار الطريق المذكور، منها: وادي كرا، وادي ذراع (كراع)، ووادي الرفضة (الرفغة)، ووادي كركر. كما تشتمل هذه الحرة على محطة كَرَا (كرا الحائط) التي تقع عند تقاطع خط الطول َ٤١ ْ٤١ شرقاً ودائرة العرض َ٣٩ ْ٢٠ شمالاً، على ضفاف وادي كرا المشهور الذي يخترق حرة نجد (حرة البقوم)؛ ويُعَدُّ هذا الوادي من أعظم الأودية وأطولها الواقعة في بادية غامد، وتصب فيه كل الأودية الواقعة بين وادي العقيق ووادي تربة بما فيها وادي العقيق نفسه.

لوادي كرا ومحطته -التي كانت أيضاً مقراً لصاحب البريد في العصر العباسي- ذكر عند الهمداني، فقد أورد الاسم مقصوراً (كَرَى)، كما أورده الشاعر اليمني الرداعي في أرجوزة الحج التي يصف بها طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) من صنعاء إلى مكة المكرمة. وقال الهمداني في وصف كرا ما يلي: "وادٍ في الحرة عميق فيه نخل وماء، وهو من مغاوض الحمير ينزل إليه بعقبة، ويصعد عنه بأخرى". أما أبو علي الهجري فقد استطرد في وصف الوادي وتحديده، ومن ضمن ما ذكر: "وللضباب واد يقال له كراء، هو واد رغيب في علياء دار بني هلال، يفلق الحرة، دونه منها أربعة أميال، ووراءه مثلها، وهو كثير النخل جداً، ليس بينه وبين الطائف إلا ليلتان يطؤه حجاج اليمن، وبينه وبين تبالة ثلاث مراحل، وبينه وبين مكة خمس مراحل". وقد كرر البكري في معجمه المعلومات نفسها التي ذكرها الهجري.

يبدو أن قرية الحائط (كرا الحائط) حلت محل موقع محطة الحاج اليمني التاريخية بوادي كرا، وعند موقع هذه القرية الصغيرة يقترب مسار طريق الحج اليمني ليقطع الوادي عبر عقبة حرّية مبلطة بصخور الحرة؛ يخرج مسار الطريق نفسه من بطن الوادي بواسطة عقبة حرّية أخرى مبلطة ومجدرة بالصخور المحلية. توجد عدة آبار مرممة والكثير من أشجار النخيل في بطن الوادي، وذلك بالقرب من القرية ومسار الطريق.

(٢). كراع الحرة الجنوبي:

يقع كراع الحرة الجنوبي عند التقاء مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) بالطرف الجنوبي من حرة البقوم (حرة نجد) إلى الشمال الغربي من قرية جرب (أجرب) بمسافة تصل إلى حوالي ١٠ كم، عند تقاطع خط الطول َ٥٧ ْ٤١ شرقاً ودائرة العرض َ٢٩ ْ٢٠ شمالاً.

أورد الشاعر اليمني أحمد بن عيسى الرداعي أثناء رحلته إلى مكة المكرمة اسم هذا الموضع في أرجوزته للحج؛ وعلق الهمداني على ذلك بقوله إن كراع هو مدخل (أو بوابة) الحرة المسواة من العوائق الطبيعية بهدف تسهيل المرور من خلاله. هذا، و يقصد بلفظة كُراع الطرف القصي من الجبل أو الحرة، أو عُنق الحرة الممتد، على حد قول الأصمعي.

يحوي موقع كراع الحرة الجنوبي، الذي هو عبارة عن مدخل مسار طريق الحج إلى جسم الحرة، على مسار مستوٍ للطريق غير مرصوف بطول يصل إلى حوالي ٢٠٠م وعرض بمعدل ٨م تقريباً؛ يظهر الطريق بوضوح في هذه المنطقة وذلك بوجود أكتافه الجانبية المتوازية المعمولة من الحجارة المحلية. وحالما يلتقي مسار الطريق بجسم الحرة تصبح أرضية المسار مرصوفة ومقسمة إلى أجزاء متساوية مفصولة عن بعضها بعتبات عرضية ناتئة قليلاً عن مستوى أرضية مسار الطريق؛ كما تصبح الأكتاف الجانبية على الطريق أكثر ارتفاعاً ومبنية من مدماكين حجريين أو أكثر.

(٣). كراع الحرة الشمالي :

يقع كراع الحرة الشمالي عند تقاطع خط الطول َ٢٨ ْ٤١ شرقاً ودائرة العرض ْ٥٢ ْ٢٠ شمالاً وذلك حينما يخرج مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) من منطقة ساسِد بمنطقة الحرة، ويقترب من الطرف الجنوبي الغربي لوادي إيهار الذي يحيط بحرة البقوم من جهتها الشمالية.

يخترق الطريق منطقة ساسد الواقعة بالطرف الشمالي الغربي من الحرة؛ ويشتمل كراع الحرة الشمالي، الذي يمثل للذاهب نحو مكة المكرمة البوابة الشمالية الغربية لحرة نجد (حرة البقوم)، على مسارين مرصوفين ومكتفين لطريق الحج اليمني بطول يصل إلى حوالي ١٠٠م وعرض بمعدل ٦م تقريباً لكل مسار، كما تشتمل أرضية مسار الطريق على عتبات بنيت بصورة عرضية ومستواها يبرز قليلاً عن مستوى سطح المسار. وحالما يصل مسار الطريق إلى الضفة الجنوبية من وادي إيهار تتلاشى معالمه البنائية.

(٤). المنضج (المصلولة):

موقع المنضج (المصلولة) عبارة عن منطقة جبلية وعرة التضاريس لحدٍ ما تتخللها أودية كبيرة وسحيقة، يقع إلى الشمال الغربي من مدينة ظهران الجنوب بمسافة تصل إلى حوالي ١٢كم ،بين خطي طول َ٠٠ ْ٤٤ – َ٣٠ ٣ ْ٤٣ شرقاً ودائرتي عرض َ٠٠ ١٨ ْ – َ٣٠ ١٧ ْ شمالاً.

أشار العديد من الجغرافيين المسلمين المبكرين إلى وقوع المنضج، أو المصلولة كما تعرف محلياً، على مسار طريق الحج اليمني؛ وتاريخياً شهد الموقع ذاته بعض المواجهات العسكرية التي حدثت بين الوالي العباسي باليمن معن بن زائدة (١٤٢-١٥١هـ/٧٦٠-٧٦٩م) وعمر بن زيد الغالبي، ومقتل الأخير في هذه المواجهة مما أثار الزعيم الخولاني بمدينة صعدة محمد بن أبان بمواجهة الوالي عسكرياً.

يخترق هذه المنطقة الجبلية مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) ،إذ يمتد من خلالها لمسافة تصل لحوالي ٢كم، ويتضمن هذا المسار على أجزاء مرصوفة ومكتفة الجانبين؛ وقد عمل الطريق بصورة فنية دقيقة إذ صمم على شكل تعرجات، ويوجد على ضفتي الطريق العديد من أبراج المراقبة الدائرية الشكل، كما تتشح بعض صفحات الصخور المطلة على مسار الطريق ببعض الكتابات العربية الإسلامية المبكرة، من أهمها نقشان غير مؤرخين يعودان للأميرين محمد بن يعفر وابنه إبراهيم بن محمد بن يعفر، وهما من حكام الدولة اليُعفرية التي حكمت وسط بلاد اليمن (٢٣٢-٣٨٧هـ/٨٤٧-٩٩٧م).

الحواضر الإسلامية القديمة على الطريق :

يقع على مسار الطريق عدد من الحواضر الإسلامية القديمة التي أدت أدوارها التاريخية والحضارية، ومن هذه الحواضر التي عملت بمثابة محطات للطريق ما يلي :

(١). بيشة :

تعد بيشة حالياً من كبريات المدن العصرية في جنوب غرب المملكة العربية السعودية، على خط الطول َ٣٠ ْ٤٢ شرقاً ودائرة العرض َ٠٠ ْ٢٠ شمالاً. شكلت قرية نمران نواة المدينة الحديثة، ومع مرور السنين نمت هذه القرية واتصل نسيجها العمراني مع قرى الروشن المجاورة لها، مثل: قرية روشن النغيلة، وقرية روشن بني سلول؛ وأدى هذا الاتصال العمراني الى ان تصبح مجتمعة نواة المدينة الحديثة المعاصرة وقلبها.

انضوت منطقة بيشة تحت لواء الدولة الإسلامية سلماً عندما وفد ت بعض وفود قبائل المنطقة، ومنها وفد قبيلة باهلة وقبيلة وائلة وقبيلة بجيلة وقبيلة خثعم، على الرسول (ص) في السنة التاسعة للهجرة وأعلنت إسلامها، وبعث معهم الرسول (ص) رسائل إلى أقوامهم.

مختارات من المصادر والمراجع :

(أ).المصادر :

البكري الأندلسي، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،حققه وضبطه وشرحه وفهرسه مصطفى السقا، القاهرة: مكتبة الخانجى، ط٣.

البكري، أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز،**كتاب الممالك والمسالك،** تحقيق ودراسة عبدالله يوسف الغنيم، ط١، الكويت، دار السلاسل للطباعة والنشر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، **فتوح البلدان،** حققه وشرحه وعلق على حواشيه وأعد فهارسه وقدم له عبدالله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطباع، بيروت: منشورات مؤسسة المعارف.

الحربي، إبراهيم بن إسحاق، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة،** تحقيق حمد الجاسر، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١.

الحموي، ياقوت بن عبدالله، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، **معجم البلدان، بيروت:** دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر.

ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، ب. ت، **كتاب صورة الأرض،** القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبدالله، **كتاب المسالك والممالك،** تحقيق: دى غوية، ليدن، ١٨٨٩م.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله، **كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،** جزاءن، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

ابن سعد، محمد، ب. ت، **الطبقات الكبرى** (٩ مجلدات)، بيروت: دار صادر.

الأصفهاني، الحسن بن عبدالله، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، **بلاد العرب،** تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح العلي، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ب. ت، **تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)،** اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيروت: بيت الأفكار الدولية.

قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة،** تحقيق: دى غوية، ليدن، ١٨٨٩م.

ابن المجاور، يوسف بن يعقوب بن محمد، **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز:المسمَّاة تأريخ المستبصر،** اعتنى بتصحيحها أوسكر لوفغرين، ط٢، بيروت، منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد، **كتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،** تحقيق دى غوية، ط٢، ليدن، ١٩٠٦م.

ابن منظور، محمد بن مكرم **لسان العرب،** بيروت: دار صادر،١٣٠٠هـ تاريخ المقدمة بقلم الناشر أحمد فارس صاحب الجوائب).

الهجري، أبو علي، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، **أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع،** بقلم حمد الجاسر، الرياض.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، **صفة جزيرة العرب،** تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب إبن واضح، **كتاب البلدان،** وضع حواشيه محمد أمين ضنّاوي، ط١، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

أدت مدينة بيشة دورها التاريخي والحضاري لكونها محطة رئيسة واقعة على مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) الواصل بين مدينة صنعاء ومكة المكرمة؛ وقد وصفت بأنها قرية كبيرة كثيفة السكان وافرة المياه خصبة التربة، تنتشر في ربوعها بساتين النخيل وواقعة في مجرى الوادي المسماة باسمه.

ولبيشة شهرة أخرى في العصر الإسلامي أيضاً، لكونها دار ضرب للسكة الإسلامية، فقد وصل إلى أيدينا مما سك فيها درهم عباسي منسوب إلى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، وسك فيها أيضاً أحد الدنانير المنسوبة إلى الخليفة الطائع العباسي (٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٤-٩٩١م).

(٢). تبالة:

تقع مدينة تبالة إلى الشمال من مدينة بيشة بمسافة تصل إلى حوالي ٣٥كم، عند تقاطع خط الطول ً٤٠٦، َ١٣، ْ٤٢ شرقاً ودائرة العرض ً٢٥٢ ،َ٠٠ ،ْ٢٠ شمالاً.

أشار معظم الجغرافيين المسلمين المبكرين إلى تبالة ؛ وغالباً ما أرتبط مسماها قبل الإسلام بصنم ذي الخلصة (المسمى- أيضا- الكعبة اليمانية)، وإسلامياً أرتبط خلال العصر الأموي بوجه خاص باسم القائد الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي الذي نصب والياً عليها بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٣-٨٦هـ/٦٩٢-٧٠٥م)، وإليها تنسب مقولته المشهورة حول صغر شأنها.

انضوت مدينة تبالة تحت لواء الدولة الإسلامية على أثر إرسال الرسول (ص) سرية إلى المنطقة بقيادة قطبة بن عامر في السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م)؛ كما شهدت أراضي تبالة ومدينة بيشة المجاورة لها بعض التمرد من قبل عناصر محدودة من قبيلة خثعم إلا أنه سرعان ما تم إخمادها على يد الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي (رضي الله عنه) في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢-٦٣٣م)؛ وفي ما بعد، شهدت الأراضي نفسها المصادمات العسكرية بين القوات الأموية وفلول المؤيدين لعبد الله بن يحيى الكندي (طالب الحق) صاحب المذهب الأباضي.

رصدت كتابات الجغرافيين العرب المسلمين الأوائل أهمية تبالة ودورها كمحطة للحجاج والمعتمرين الرائحين الى مكة المكرمة والغادين منها على مسار درب الحج اليمني الأعلى (النجدي)؛ كما أوردت هذه الكتابات في مجملها معلومات علمية تتضمن وصوفات جغرافية لتبالة بكونها قرية عظيمة، واقعة في سفح تل، كثيفة السكان ومشتملة على منبر وبساتين وأشجار النخيل وعيون جارية وآبار وغيل؛ أما الهمداني فبجانب إبراز دورها كمحطة يلتقي عندها طريق الحج الحضرمي الأسفل مع الطريق اليمني الأعلى، فإنه يضيف لوصفه أنّ تبالة كانت قرية للتجار سكنتها بطون من قبيلة قريش و كانت نهاية المدينة وخرابها على أيدي أهل البادية، مع عدم تبيانه للأسباب الكامنة وراء هذا العمل التخريبي للمدينة.

واستناداً لنتائج المسوحات الأثرية الأخيرة في المنطقة فإن تبالة كانت من المراكز الصناعية بجزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، إذ عثر على مواقع مناجم للتعدين بالقرب منها مشتملة على أفران الصهر وبقايا لخبث المعادن. ومن هذه المواقع: منجم الصدأ، ومناجم المنازل، ومناجم الوقبة، ومنجم العبلة.

تشتمل مدينة تبالة الحالية على قصر أثري يطلق عليه قصر الثغر؛ وهو مربع الشكل ذو أسوار ضخمة ويتخلله أبراج ركنية شبه دائرية. وبالقرب من هذا القصر توجد أيضاً وحدات معمارية أخرى تابعة للقصر ربما تكون مسجداً للقصر وما يتبعه من مرافق ومنافع.

(٣). بنات حرب (قرية المعدن)

تقع أطلال قرية بنات حرب الأثرية إلى الجنوب الغربي من مدينة صمخ بمسافة تصل إلى حوالي ٤٠كم، عند تقاطع خط الطول َ٠٠ ْ٤٣ شرقاً ودائرة العرض َ٤٥ ْ١٩ شمالاً؛ وذلك على الضفة الجنوبية من واديها الذي يحمل الاسم نفسه، كما تعرف هذه القرية محلياً باسم قرية المعدن.

أورد أغلب الجغرافيين المسلمين المبكرين في كتاباتهم اسم بنات حرب كمحطة رئيسة واقعة على مسار طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي)؛ ووصفت بكبر حجمها و كثافة سكانها ووفرة المياه في آبارها ونبعها، وشهرتها أيضاً بوجود الذهب في أنحائها. يشتمل الموقع على أطلال لعددٍ من الوحدات السكنية يصل عددها الى حوالي عشرين وحدة، وجميعها مشيّد بالحجارة المحلية.

(٤). جُرَش :

تقع جرش على الضفة الغربية لوادي بيشة، إلى الجنوب الشرقي من مدينة خميس مشيط بمسافة تصل إلى حوالي ٢٥كم، عند خط الطول َ٥٥ ْ٤٢ شرقاً ودائرة العرض َ٠٥ ْ١٨ شمالاً.

تعد جرش من أمهات المراكز التجارية والصناعية القديمة في حضارة جنوب الجزيرة العربية، واشتهرت بصناعة الجلود المدبوغة. وكانت مصنوعاتها تضاهي تلك التي كانت تصنع في كل من مدينتي الطائف وصعدة. وبجانب هذه المصنوعات، فقد كانت جرش بمثابة مركز عسكري تقدم بعض التدريبات على الأسلحة العسكرية؛ فيذكر أن أهل الطائف بعثوا خلال حصارهم في السنة الثامنة للهجرة (٦٢٨م) لجرش كل من عروة بن مسعود وغيلان بن سلامة ليتلقيا تدريبات على استخدام المنجنيق والعرادة والدبابة.

فتحت مدينة جرش المحصنة في السنة العاشرة للهجرة (٦٣١م) بدون سفك دماء بعد حصار دام قرابة الشهر، وتم تعيين فاتحها صُرَد بن عبد الله الأزدي والياً عليها. أصبحت مدينة جرش، بعد انتشار الإسلام، مركزاً لعلوم الحديث وخرج منها أناس كثر اشتهروا برواية الأحاديث النبوية وتناقل السنة النبوية وحفظها.

إضافة إلى مكانة مدينة جرش اقتصادياً وعسكرياً، قبل ظهور الإسلام وبعده ؛ فقد أدت المدينة دورها الحضاري وأصبحت من المحطات الرئيسة على طريق الحج الواصل بين عدن ومكة المكرمة، وخدمت أيضاً الحجاج القادمين من بلاد اليمن عبر طريق الحج اليمني الأعلى (النجدي) بسبب قربها المكاني لمسار هذا الدرب.

يشتمل الموقع الحالي لمدينة جرش القديمة على أساسات حجرية وبعض الأطلال المعمارية؛ وتم العثور في الموقع على عدد من الأنماط الفخارية القديمة والإسلامية. ومن أبرز ما عثر عليه من معثورات إسلامية، ما يلي: مصنوعات من الحجر الصابوني العادية والمزخرفة، وكسر لأوانٍ فخارية مطلية باللون الأزرق، والمزخرف بطريقة الترشيش، وهو أحد الأنواع الشائعة خلال العصر العباسي. كما دلت التحريات والدراسات الأثرية الأخيرة إلى وجود ثماني طبقات استيطانية في الموقع، فالطبقات الثلاث السفلية تعود إلى بداية القرن الأول الميلادي، والطبقة الرابعة ترجع إلى عام ٢٨٠م، بينما الطبقة الخامسة فترجع لعام ٥١٠م، والطبقة السادسة إلى عام ٦٦٠م. أما الطبقتان التاليتان، السابعة والثامنة، فتعودان إلى عام ١٠٣٠م

(ب). المراجع :

ابن بليهد، محمد بن عبدالله، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار،** راجعه وضبطه وكتب بعض هوامشه محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ط٣.

بندقجي، حسين حمزة، ١٤٠٠هـ **أطلس المملكة العربية السعودية،** دار جامعة أكسفورد للطباعة والنشر، بريطانيا.

الثنيان، محمد بن عبدالرحمن راشد، **رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة للعلامة إسماعيل جغمان (١٢١٢- ١٢٥٦هـ/١٧٩٧- ١٨٤٠م): دراسة وتعليق، "كتاب الدارة"، ٢٠٠٥م.**

الجاسر، حمد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة،** القسم الأول، الرياض: منشورات دار اليمامة.

الحارثي، ناصر بن علي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، **النقوش العربية المبكرة بمنطقة الطائف،** ط١، الطائف.

حميد الله، محمد، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة،** ط٦ (بيروت: دار النفائس).

الدائرة الإعلامية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، **الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: الآثار،** ج١، الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق، ط١.

الدائرة الإعلامية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، **الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: المواقع الأثرية،** ج٢، الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق، ط١.

الراشد، سعد بن عبدالعزيز، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، **درب زبيدة: طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة (دراسة تاريخية وحضارية أثرية)،** الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ط١.

الراشد، سعد بن عبدالعزيز، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، **كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق،** الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.

الزيلعي، أحمد بن عمر؛ الزهراني، عبدالله بن سالم؛ المزروع، حميد بن إبراهيم؛ العمري، عبدالعزيز بن منسي؛ السلوك، محمد بن علي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، **آثار منطقة عسير: سلسلة آثار المملكة العربية السعودية**، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف.

الغبان، علي بن إبراهيم، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، **الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة: مدخل عام،** الرياض، ط١.

(ج). الرسائل العلمية :

الكلابي، حياة بنت عبدالله بن حسين، ١٤٢٣- ١٤٢٤هـ، **"النقوش الإسلامية المبكرة على درب الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية"،** رسالة دكتوراة غير منشورة مقدمة لقسم الآثار والمتاحف، بإشراف أ.د. أحمد إبن عمر الزيلعي.

(د). المقالات :

الثنيان، محمد بن عبدالرحمن، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، "نقش غيل المنضج (المبرح) الإسلامي المؤرخ في سنة ٩٨هـ (٧١٦- ٧١٧ م): محافظة ظهران الجنوب- المملكة العربية السعودية"، **أدوماتو،** العدد التاسع.

الراشد، سعد بن عبدالعزيز "أربعة أحجار ميلية من العصر العباسي: دراسة وتحقيق"، **العصور،** مج٥، ج١، لندن: ١٩٩٠م، ص ص١٢٣-١٤٢.

الراشد، سعد بن عبدالعزيز "نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدرة"، **الدارة،** ع٤، السنة الرابعة عشرة، عدد رجب ١٤١٢هـ/ يناير ١٩٩١م.

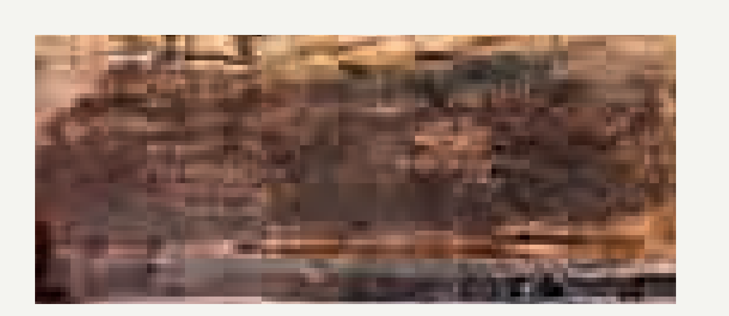
السلوك، محمد بن علي؛ النفيسة، عبدالعزيز؛ المزيني، فهد؛ العتيق، فهد؛ عسيري، رياض؛ العتيبي، عبد الله؛ الرشيد، فيصل؛ الحربي، جزاء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، **"مسح درب التجارة القديم** (درب الحج اليمني الأعلى-النجدي-): الموسم الرابع ١٤٢١هـ"، **أطلال،** ع١٨، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم، ص ص١١١-١٢٦.

الكتابات والنقوش العربية الإسلامية على الأحجار في المملكة العربية السعودية

أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي

يطلق لفظ « الخط» على صور الحروف ورسومها وأشكالها التي تتكون منها الكتابة الدالة على الكلمات المسموعة والمعبّرة عما في النفس البشرية، وهي -على حد قول ابن خلدون-ثاني مراتب الدلالة اللغوية، وإحدى خواص الإنسان التي تميزه عن الحيوان، وهي صناعة شريفة[١]، يتضح ذلك من قول الله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾[٢]، أما وسيلة الكتابة المتعارف عليها فهي القلم الذي أقسم به الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله ﴿ ن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[٣] وقوله عز وجل مخاطباً نبيه الكريم ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾[٤] ومن هنا تأتي أهمية الخط العربي الإسلامي التي لا يختلف عليها اثنان، فهو الذي دُوّن به الوحي حين نزوله على المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبه خُطّت المصاحف والأسانيد النبوية، وسائر العلوم العربية. وبه أُنجزت المعاملات اليومية في دواوين الخلافة الإسلامية منذ بواكير تعريبها.

ومن المهم ذكره أن الخط العربي يُعَدّ من أرقى الفنون الإسلامية، بل هو الفن الإسلامي الخالص دون منازع لكونه لم يتأثر بغيره من الفنون العالمية التي سبقته. وإذا كانت بعض مدن الحجاز قد عرفت نوعاً من الكتابة العربية قبل الإسلام فإن الخط العربي الإسلامي لم يُعرف بها إلا مع ظهور الإسلام. وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم القراءة والكتابة لأبناء الصحابة رضوان الله عليهم، من ذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم جعل تعليم عشرة من صبيان المدينة المنورة القراءة والكتابة كافياً لإطلاق سراح من لم يستطع فداء نفسه بالمال من أسرى بدر[٥]. وقد اشتهر من الخط العربي الإسلامي في تلك الفترة «الخط المكي»، «والخط المدني»، وكلاهما خط «لين»، وخصائصهما واحدة، ولا تفرق بينهما إلا بالنسبة إلى المكان سواء كان مكة أو المدينة، وما عدا ذلك فهما خط حجازي خالص له شهرته في المصادر التي أوصلته إلينا، وعلى رأسها ابن النديم في كتابه الفهرست الذي يصفه بقوله: «فأما المكي والمدني، ففي ألفاته



نقش زهير، بتاريخ ٢٤هـ/ ٦٤٥م

تعويج إلى يَمنة اليد وأعلى الأصابع، وفي شكله انضجاع يسير»[٦]، ثم أورد مثالاً على صفة ذلك الخط الذي كان سائداً ومعروفاً في تلك الفترة.

وحينما انطلق المسلمون الفاتحون إلى ما جاورهم من البلاد في العراق والشام ومصر حملوا معهم خط الحجاز إلى تلك البلاد المفتوحة، ونشروه فيها، فابتكرت الكوفة التي أسست في عام ١٧هـ/٦٣٨م نوعاً جديداً من الخط يغلب عليه اليبوسة والزوايا الخطية عرف باسم الخط الكوفي، ومنها صُدّر إلى مختلف الحواضر الإسلامية - حينذاك - ومنها مكة المكرمة التي عملت على تجويده وتطويره والبروز فيه، بل وتصديره إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي.

وقد أُستخدم الخط الكوفي في الكتابة التذكارية، وكتابة المصاحف قبل ظهور خط النسخ وخط الثلث والخط الفارسي المعروف باسم «النستعليق»، وسواها من الخطوط الأخرى غير الخط الكوفي، ومنها خط الرقعة، والديواني، والديواني الجلي والإجازة، والطومار، والخط المغربي، وعشرات المسميات التي تطلق على الخطوط العربية الإسلامية بحسب ما تنسب إليه، فمنها ما ينسب إلى الأماكن، ومنها ما ينسب إلى الأشخاص، أو إلى الأسماء على الوظائف، أو الورق الذي يكتب عليه ومساحته، أو تجويد الخط وأشكاله وأسلوب كتابته وزخرفته[٧].

ويهمنا من الخط العربي الإسلامي في هذه العجالة القصيرة تلك النماذج المنقوشة على الأحجار، وبصورة خاصة ما اكتشف منها على تراب المملكة العربية السعودية، فالمملكة العربية السعودية قطر واسع، مساحته شاسعة، وتضاريسه متنوعة، تسلكها كثير من طرق الحج والتجارة الدولية، وبعض طرق القوافل الداخلية، وما يتفرع منها من مسالك ودروب محلية، وعلى هذه الطرق وحولها يقع العديد من القرى والمدن الرئيسية، والمراكز التجارية، والموارد المائية، والمحطات التي يستريح فيها المسافرون من عناء السفر، ويتزودون منها بما يحتاجونه من المياه والأزواد حينما يواصلون رحلتهم إلى الجهة أو الجهات التي يقصدونها. ونتيجة لهذه الحركة الطويلة من الأسفار والحل والترحال، ولطول فترات الاستيطان البشري في مدن هذه البلاد التاريخية ومراكزها التجارية أمكن اكتشاف أعداد هائلة من الكتابات العربية الإسلامية المنقوشة على الأحجار في مختلف أنحاء المملكة العربية السعودية. ويمكن تقسيم هذه المكتشفات من الكتابة على الأحجار إلى ثلاثة أقسام هي:

النقوش الصخرية:

ويقصد بها تلك النقوش والمخربشات المتناثرة على الصخور التي كتبها أصحابها بأنفسهم، أو بإملائها على من كتبها من أصحابهم ومرافقيهم في السفر أو في الرعي، وهي في الغالب لم تكتب لخدمة غرض محدد كما هو الحال في النقوش الجنائزية أو النقوش التأسيسية، وإنما كتبت لإبراز مهارات من كتبها، وأيضاً للذكرى، أو للترفيه عن النفس من تدوين بعض الآيات القرآنية، والأدعية المأثورة، وبعض الأبيات الشعرية المرواة



نقش الخليفة معاوية، سد وادي الخنق قرب المدينة المنورة

لشعراء مشهورين من شعراء الجاهلية والإسلام، بالإضافة إلى بعض الأحداث المحلية الصغيرة، وبعض الأسماء المتعارف عليها في محيط البيئة أو الوسط الذي نقشت فيه هذه الكتابات.

وعلى الرغم من تلقائية تلك النصوص، وربما عدم أهميتها عند من نقشها أو خطها بيمينه سوى ما ذكر من إبراز مهارة كاتبيها في النقش على الصخر، وتدوين اسم الواحد منهم، واسم معارفه، وما يجول بنفسه من تـوارد خـواطر، إلا أن بعضها كان على جانب كبير من الأهمية من حيث حفظه لبعض الأسماء المحلية، والأبيات الشعرية القديمة، والأدعية المأثورة، وما تظهره من سمات الخط العربي في زمانها، وأساليب تنفيذه، ومراحل تطوره، ويكفي ما في النقوش الصخرية من أهمية أنها قدمت للمعرفة الإنسانية أقدم نقش إسلامي مؤرخ في سنة ٢٤هـ/٦٤٤-٦٤٥م هو نقش زهير المسجل لدى اليونسكو في قائمة التراث الإنسان[٨]، بعد أن كان التعويل في النقوش المؤرخة على نقش أسوان المؤرخ في ٣١هـ/٦٥١-٦٥٢م[٩]. كذلك قدمت النقوش الصخرية المكتشفة في المملكة العربية السعودية نماذج جميلة التنفيذ، واضحة الحروف، جيدة التنسيق، خالية من التنقيط، ولو أن القليل منها وجد منقوطاً، وهو ما يمكن اعتباره دليلاً مادياً على أن هذه النصوص عرفت النَّقْط قبل عصر ناصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر بفترة ليست بالقصيرة [١٠].

ويكثر انتشار هذا النوع من النقوش الصخرية على جوانب طرق الحج المؤدية إلى مكة المكرمة، وخصوصاً طرق الحج الشامي، وطريق الحج العراقي، وطريق الحج اليمني الداخلي، كذلك أثمرت جهود المسح الأثري الشامل للمملكة العربية السعودية الذي قامت به وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف (حالياً وزارة التربية والتعليم)، ثم مواصلة تلك الجهود بعد أن أصبحت الآثار قطاعاً من قطاعات الهيئة العامة للسياحة والآثار، بالإضافة إلى جهود بعض الباحثين والدارسين السعوديين في الجامعات السعودية وقطاع الآثار والمتاحف أثمرت تلك الجهود كلها عن اكتشافات مذهلة من النقوش الصخرية المتناثرة في محيط مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف، وفي سلاسل الجبال الممتدة في مناطق الباحة وعسير ونجران، وما يتصل بهذه المناطق شرقاً وغرباً حتى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن.

النقوش التأسيسية:

وهذه ليست في غزارة النقوش الصخرية السابقة الذكر، أو النقوش الجنائزية أو الشاهدية الآتي ذكرها، فما عثر عليه منها قليل جداً، ويتمثل في النصوص التأسيسية التي عثر عليها منقوشة على المنشآت المعمارية الأثرية، وخصوصاً السدود والآبار القديمة، وبعض الأبنية التاريخية، وقليل مما اكتشف من علامات الطرق، ومراسيم توسعتها وحمايتها، وتعود قلة النصوص التأسيسية إلى أن كثيراً من المباني قد أزيلت أو تهدمت مع تقادم الزمن، وتوالي الزيادات والتوسعات كما في الحرمين الشريفين، وبعض المساجد التاريخية في مكة والمدينة وجدة والطائف وعشم وغيرها من مدن المملكة العربية السعودية، ومن أمثلة النقوش التأسيسية وأقدمها تلك التي وجدت على بعض السدود التاريخية في الطائف والمدينة المنورة، ومنها سدان يعودان إلى عصر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) أحدهما في الطائف والآخر في المدينة، بالإضافة إلى نصوص تأسيسية على سدود أخرى متأخرة نسبياً. كذلك وجدت بعض اللوحات التأسيسية في بعض القلاع التاريخية على طريقي الحاج المصري والشامي، وفي بعض المساجد والأبنية التاريخية في مكة وجدة والمدينة والطائف وعشم، إلى جانب أعداد غير قليلة من العمائر السكنية والدينية المنتشرة في أنحاء مختلفة من المملكة العربية السعودية، وإن كانت تواريخ بعض ما تحمله من نصوص تأسيسية متأخرة نسبياً.

ويمكن أن يلحق بالنقوش التأسيسية الأحجار الميلية المنقوشة، وهي التي تحدد المسافات على طرق الحج إلى مكة المكرمة بالفراسخ والبرد والأميال. وقد عثر على عدد قليل منها على طريق الحج العراقي، وطريق الحج اليمني الأعلى. ويحتفظ المتحف الوطني بالرياض بنقش كوفي يمكن أن يعدّ من النصوص التأسيسية مؤرخ في سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، ويتضمن مرسوماً صادراً من الخليفة المقتدر العباسي (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) بخصوص عمارة طريق الحج العراقي إلى مكة المكرمة، وهو الطريق أو الجادة المعروفة باسم درب زبيدة وقد عثر عليه عالم الجولوجيا ك. توتشيل في منطقة مهد الذهب على الطريق نفسه، ونشره جورج مايلز في عام ١٩٥٤م، وأعيد نشره بعد ذلك عدة مرات [١١].

٣- النقوش الشاهدية:

تعدّ النقوش الشاهدية أو الكتابات على شواهد القبور من أجمل الكتابات المنقوشة على الأحجار؛ لكونها تصنع خصيصاً لخدمة غرض محدد، وتحمل مضامين يجري اختيارها بعناية فائقة، ويقوم بتنفيذها على بلاطة الشاهد في الغالب خطاطون ماهرون ومحترفون يبذلون جلّ عنايتهم في رسم الحروف وزخرفتها وتجميل بلاطة الشاهد وتحليتها بعناصر نباتية وهندسية فائقة الجودة بحيث جعلت هذا النوع من الكتابات يتفوق على ما سواه من الكتابات الأخرى المنقوشة على الأحجار.

وعلى الرغم من أن شواهد القبور المكتشفة في المملكة العربية السعودية أخذت تنقش منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بنماذج من الخط اللين، وبصورة خاصة خط النسخ، وخط الثلث فإن السيادة ظلت للخط الكوفي طوال القرون الخمسة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة.

ولا غرو، فالخط الكوفي هو من أجمل ما خُطّت به نقوش القرون الخمسة المذكورة، وهو ينسب -كما قدمنا- إلى مدينة الكوفة بالعراق التي أُسست في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧هـ/٦٣٨م، وأصبحت من العواصم الإسلامية الشهيرة في خارج جزيرة العرب، وإليها يعود الفضل في تطوير الخط الحجازي المعروف باللين إلى نوع آخر يغلب عليه اليبوسة والتشكيل الهندسي هو الخط الكوفي، ومنها صُدّر إلى مختلف حواضر العالم الإسلامي بما في ذلك مكة المكرمة، وسائر الحواضر الإسلامية في الجزيرة العربية، ثم تحسن وتطور مع الزمن، واشتهر منه ثلاثة أنواع من الخطوط بحسب تقسيمها على أساس زخرفي بحت هي: الخط الكوفي البسيط، وهو الذي لا يلحق حروفه أي نوع من التوريق أو التزهير، ثم الخط الكوفي المورق، وهو الذي تلحق حروفه زخارف قوامها أغصان نباتية ولولبيات ووريقات متعددة البتلات أو الفصوص، ثم الخط الكوفي المزهر، وهو الذي ينقش على أرضية نباتية إلى جانب ما يتصف به من خصائص الخط الكوفي المورق السابقة الذكر، بالاضافة إلى أقسام خطية زخرفية أخرى أقل شيوعاً في النقوش الشاهدية بالمملكة العربية السعودية من الأقسام الثلاثة السابقة، ومنها الخط الكوفي المضفر أو المضفور، والخط الكوفي الهندسي أو ذو الأشكال الهندسية. وقد أُستخدم الخط الكوفي في كتابة المصاحف قبل ظهور الكتابة النسخية وخط الثلث، وكذلك أُستخدم في الكتابة على المواد الصلبة، ومنها الأحجار، وخصوصاً شواهد القبور التي يحتفظ منها العالم الإسلامي عامة، والمملكة العربية السعودية خاصة بالآلاف، وبعض تلك الشواهد المكتشفة على تراب المملكة العربية السعودية تمثل تحفاً فنية أُعتني بتجويد خطها وزخرفتها فجاءت آية في حسن الخط والعناية به، وكذلك في مجال الزخارف وتجويدها وتنميقها سواء تلك التي تجّمل الحروف وتزّينها أو التي تحيط بالنصوص المنقوشة على شواهد القبور على هيئة إطارات زخرفية رائعة.

وأكثر الأمكنة التي تنسب إليها النقوش الشاهدية في المملكة العربية السعودية، هي مكة المكرمة، فهي في عداد الأمكنة التي توصف بأنها مكتبة العالم في هذا النوع من النقوش، ومن أكثر الحواضر الإسلامية تجويداً للكتابة الشاهدية على الأحجار، ومقبرتها المسماة مقبرة المعلاة من أشهر وأقدم المقابر في العالم الإسلامي، ومن أقدم ما عَرَفَ تقليد الكتابة الشاهدية على قبورها - في حدود علمي- حيث احتفظت قبور تلك المقبرة بنماذج مبكرة من الكتابة الكوفية، ثم بنماذج كوفية أخرى متدرجة في البكور، ثم أحدث نسبياً حتى ظهور خط النسخ وخط الثلث وغيرهما من الخطوط العربية الإسلامية حتى العصر العثماني.

يلي مكة من حيث شيوع الكتابة الكوفية الشاهدية على مقابرها مدينة عشم الإسلامية الواقعة على بعد ٣٠٠كلم إلى الجنوب من مكة المكرمة بما في ذلك المواقع الأثرية الداخلة في محيطها أو مخلافها المسمى باسمها: مخلاف عشم، ومنها مَسْعُوْدَة والنَّصَائب والعَضْدَاء والأَحْسَبَة الجنوبية، ثم السِّرَّيْن وحَمْدانة على بعد ٢٠٠كلم إلى الجنوب من مكة أيضاً، فالخُلُف والخَلِيْف بمنطقة الباحة حالياً، فمدينة الطائف على بعد ٧٠ كلم إلى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة، فالمدينة المنورة ومحيطها، بالإضافة إلى وجود نماذج أخرى متفرقة من شواهد القبور المنقوشة عُثر عليها في منطقة جازان، ومنطقة عسير، ومنطقة نجران، والمنطقة الشرقية وغيرها .



مَعْلم عسكري باسم الخليفة العباسي المهدي (٧٧٥-٧٨٥) وباسم وزيره.
جدة، مركز الملك عبدالعزيز، رقم ٣٣

وتتميز النقوش الشاهدية في المملكة العربية السعودية بأنها تغطي جميع مراحل تطور الخط العربي الإسلامي على شواهد القبور، فمنها ما يعود إلى بواكير القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ثم مروراً بجميع القرون والمراحل التاريخية التي مرت بها جزيرة العرب حتى العصر العثماني، كذلك تتميز بأنها تجمع بين جميع الظواهر الزخرفية المتصلة بتجويد الخط وزخرفته وتحليته وتجميله من بسيط إلى مورق ومشجر ومضفور وذي أشكال وسمات هندسية. وأيضاً تجميل إطارات بعض الشواهد وفضاءاتها الخارجية بزخارف نباتية وهندسية، فضلاً عن أشكالها التي جاءت في كثير منها على هيئة محاريب وعقود معمارية يمكن أن تكون في زمانها دليلاً حياً على تطور العمارة، وأساليب البناء في المدن التي نقشت فيها.

وفيما عدا الشواهد التي جُلبت من مقبرة المعلاة، التي تختلف طريقة الدفن فيها عن غيرها من المقابر الأخرى، ولاسيما الصحراوية منها، فإن معظم الشواهد المكتشفة في مقابر عشم والسرين والخلف والخليف وسواها وجدت منصوبة على قبور أصحابها، ووجد لمعظم القبور فيها شاهدان: أحدهما عند الرأس، والآخر عند القدم، وبعض القبور لها ثلاثة شواهد ينصب الشاهد الثالث منها في وسط القبر.

ومن بين النقوش الشاهدية المكتشفة في المملكة العربية السعودية وجدت أعداد كبيرة تحمل تواريخ وفيات أصحابها بالسنة فقط، أو بالشهر والسنة، وبعضها أكثر تفصيلاً في كتابة تاريخ المتوفى باليوم أو بالليلة إلى جانب الشهر والسنة وذلك تبعاً لاتساع المساحة المعدة للكتابة في الشاهد الواحد، وخصوصاً تلك التي يُنقش فيها تاريخ الوفاة. كذلك تختلف المضامين من شاهد إلى آخر بحسب سعة المساحة أيضاً، فبعضها ذو مضامين كثيرة ومتنوعة، وبعضها أقل من ذلك، وتدور أغلب المضامين حول البسملة التي يُسْتَهل بها الشاهد، ثم آية أو أكثر من آيات القرآن الكريم، أو دعاء مأثور، أو بهما معاً، ثم اسم صاحب الشاهد، والتَرَحُّم عليه، والدعاء له، وتاريخ الوفاة - إن وجد. وبعض الشواهد يكون من بين مضامينها أشعار من عيون الشعر القديم والإسلامي، وأيضاً بعض ما قيل في شخص المتوفى من مرثيات، إلى جانب بعض أشعار الإنشاد والابتهالات.

وقد لوحظ أن كثيراً من مضامين الشواهد بالمملكة العربية السعودية لها قيمة تاريخية عالية، فقد أمكن من خلال دراسة النسبة أو الانتساب إلى القبائل أو البلدان أو الحرف معرفة التركيبة السكانية لكل بلدة بما في ذلك معرفة الأسر المحلية والوافدة، وكذا معرفة المهن والحرف التي اشتغل بها السكان، ومعرفة طبقة الحكام ورجال الدولة، والعلماء، والغرباء الذين توفوا في مكة المكرمة، أو في الطريق إليها. ومن الأدلة القليلة أيضاً في مضامين النقوش الشاهدية بالمملكة العربية السعودية ما يفيد بمعرفة سبب وفاة بعض الأشخاص، وما إذا كان قد توفي الواحد منهم مبطوناً أو مقتولاً أو غيلة.

وتتميز النقوش الشاهدية المكتشفة بالمملكة العربية السعودية بأن كثيراً منها ممهور باسم الخطاط الذي نقشه، بحيث إن كل نقاش من أولئك النقاشين شكل مدرسة أو طريقة خاصة به في الخط والزخرفة الخطية، ولهذا يحلو لبعض الدارسين تصنيف بعض النقوش الشاهدية إلى مدارس تبعاً للنقاش الذي أسس تلك المدرسة، ثم مُتَابِعِيْه من أبنائه وأقربائه وتلامذته. فعُرِفَت مدرسة مبارك المكي، ومدرسة محمد بن الطفيل، ومدرسة أحمد الحفار، ومدرسة أحمد بن الحسين، ومدرسة علي بن موسى ومدرسة ابن أبي حرمي المكي وغيرها.

وبعض أعمال هؤلاء الخطاطين وجدت سبيلها إلى خارج أوطانها حيث عُثر على نقوش شاهدية مكية في مصر تحمل اسم مبارك المكي، وأخرى في جزيرة دهلك تحمل اسم عبدالرحمن بن أبي حرمي المكي، وأسماء بعض أقاربه الخطاطين مما يدعو إلى الاعتقاد بأن مكة كانت تُصَدِّر الكتابات الشاهدية إلى خارج حدودها على افتراض أن الحجاج الذين يأتون إلى مكة لأداء فريضة الحج والعمرة كانوا يطلبون من الخطاطين أو النقاشين المكيين المحترفين صناعة ما يحتاجون إليه من شواهد قبور منقوشة لأقربائهم المتوفين في بلدانهم التي يعودون إليها محملين بما صنعوا لهم من نقوش شاهدية في مكة لينصبوها على قبورهم في أمكنة دفنهم [١٢].

وهكذا يتضح أن جبال المملكة العربية السعودية، وشعابها، وأطراف أوديتها وصخورها الناتئة والمتناثرة في صحاريها المترامية الأطراف تزخر بأعداد كبيرة ومتنوعة من المخربشات والنقوش الصخرية التي كبتها السكان المحليون، وبعض المارة من المسافرين عبر طرق الحج والتجارة التي تعتورها من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها. كذلك يوجد بالمملكة العربية السعودية أعداد أقل من سابقاتها من الكتابات التأسيسية على بعض السدود التاريخية والمنشآت المعمارية الباقية، وبعض علامات الطرق ومراسيم إصلاحها وحماياتها، وأيضاً تحتفظ المملكة في متاحفها ومقابرها الإسلامية بأعداد كبيرة ومهمة من شواهد القبور المنقوشة بالخط الكوفي وبخطوط أخرى منها النسخ والثلث ونحوهما، وهي تشتمل على مضامين ذات قيمة تاريخية بالنسبة لدارسي التاريخ المحلي للمدن والمناطق التي توجد فيها. يضاف إلى ذلك أن عدداً لا بأس به من الكتابات الشاهدية في المملكة العربية السعودية جاء ممهورًا أو مذيلاً بأسماء الخطاطين أو النقاشين الذين نفذوه، وهذه ميزة تكاد تنفرد بها النقوش الشاهدية في المملكة العربية السعودية، وخصوصاً في مكة المكرمة.

المصادر والمراجع :

١- ابن خلدون، عبدالرحمن؛ **مقدمة ابن خلدون**، (القاهرة: المكتبة التجارية، د.ت)، ص ٤١٧.

٢- الآية ٢٨ من سورة العنكبوت.

٣- الآيتان ١، ٢ من سورة القلم.

٤- الآيتان ٤، ٣ من سورة العلق.

٥- حمودة، محمد عباس، **دراسات في علم الكتابات العربية** (القاهرة: مكتبة غريب، د. ت)، ص ٤٣-٤٤.

٦- ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب الوراق؛ **الفهرست**، ط٣، (دار المسيرة ١٩٨٨م)، ص ٩.

٧- لمزيد من المعلومات عن أسماء هذه الخطوط التي تعدّ بالعشرات وعن ما تنسب إليه انظر: **الخط العربي من خلال المخطوطات**، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ)، ص٢١-٢٤. البهنسي، عفيف؛ **فن الخط العربي**، (دمشق: ١٩٩٩)، ص ٥٤-٥٩.

٨- اكتشفه الأستاذ الدكتور علي إبراهيم غبان، أستاذ الآثار الإسلامية بقسم الآثار والمتاحف جامعة الملك سعود سابقاً، وحالياً نائب الأمين العام للهيئة العامة للسياحة والآثار للآثار والمتاحف.

٩- جمعة، إبراهيم؛ دراسة **في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة**، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص ١٣١ ورقم الشاهد في المتحف الإسلامي بالقاهرة، ١٥٠٨/٣٠.

١٠- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، **نقوش إسلامية مختارة من مكة المكرمة** (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ٦.

١١- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، **درب زبيدة**، الرياض، ط١، دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٥٧.

١٢- الزيلعي، أحمد بن عمر، «الخطاط المكي عبدالرحمن بن أبي حرمي» في كتاب: **دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية**، تحرير أحمد بن عمر الزيلعي وآخرين، الرياض: جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، سلسلة ٢، ص ٢٤٦-٢٥٨.



الحرمان الشريفان
مكة والمدينه

شواهد مقبرة المعلاه في مكة المكرمة

د. كارين جوفين

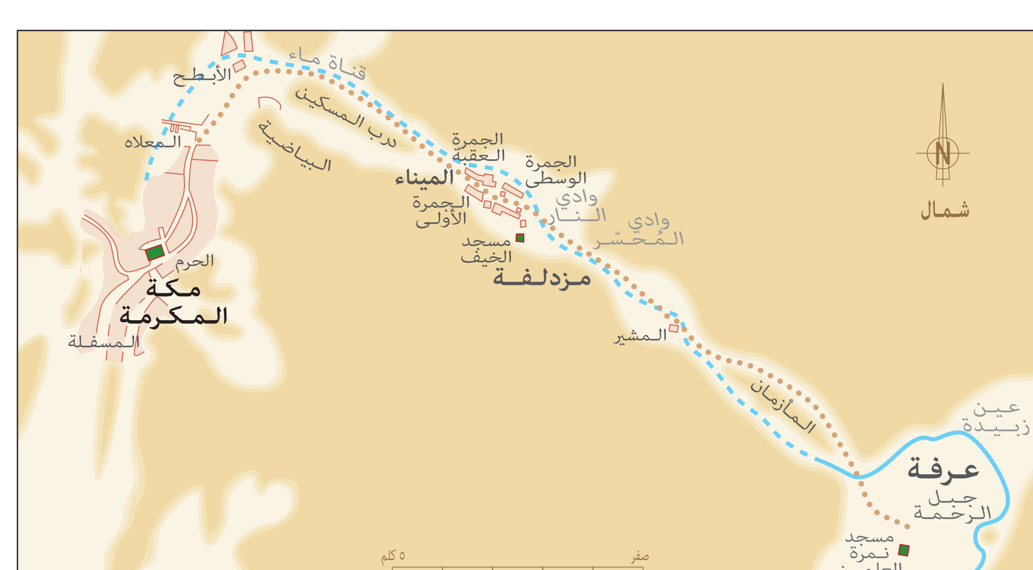
(الصفحة المزدوجة السابقة)
منظر المسجد الحرام بمكة المكرمة (الكعبة في الوسط)
تصوير ميرزا، ١٨٩٠

(صفحة اليسار)
الصورة ١. مقبرة المعلا، رسم من مخطوطة «فتوح الحرمين» ١٥٧٧.
باريس، المكتبة الوطنية الفرنسية، S. P. ١٥١٤، ص. ٢٢

تشكل شواهد مقبرة المعلاه [١]، القائمة في وادي الحجون شمال مكة، أحد أهم الكنوز التراثية في المملكة العربية السعودية.

وتضم هذه المقبرة أضرحة العديد من أعلام الإسلام في أوائله وقد أصبح، معلماً يـزوره الـحجاج على هامش فريضة الحج، وقد تعرّضت لأضرار جسيمة خلال القرن العشرين، نتيجة للتوسع العمراني والأعمال الضخمة التي شهدتها المدينة المقدّسة.

وبفضل عدد قليل جداً من الصور الفوتوغرافية القديمة النادرة وبعض الرسوم التقريبية الواردة في المخطوطات (الصورتان ١ و ٣)، بالإضافة إلى ما تناقلته ألسن الرحالة والحجاج، يمكن رسم صورة لمكان المقابر حيث تتجاور قبور بسيطة معلّمة بحجر واحد أو اثنين (عند رأس المتوفى وقدميه) [٢]، مع أضرحة فخمة مكوّنة من مبان صغيرة تعلوها القبب كانت موجودة في الماضي.



الصورة ٢. مخطط ارباض مكة

١- تلفظ أحياناً المُعَلّى.
٢- لا تتضمن المجموعة المنشورة سوى مثال واحد عن شاهدين «توأمين» : الراشد، ٢٠٠٤م، الرقمان ٣٩٤ و٤٩٣، مؤرختان ٣١٢هـ/٩٢٤م.

القبور: نظرياً وعملياً

هذه النصب التذكارية والبلاطات الحجرية - المنتشرة في كافة أنحاء العالم الإسلامية - كانت تشكل خرقاً لقواعد الزهد الإسلامي التي كانت سارية في البداية، والتي أشار إليها الحديث النبوي الشريف بمبدأ تسوية القبور أي عدم تمييزها عن محيطها بأية علامة أو بأي هيكل عمراني.

وقد أثارت الأضرحة المقببة بالأخص استياءً عاماً لدى العلماء من كافة المذاهب، ممّا دفع أحياناً ببعض المسلمين إلى تدميرها، كما حصل في مكة وفي مقبرة البقيع في المدينة المنوّرة. فمجرد تزيين هذه النصب بنقوش مخطوطة، أو باسم المتوفى أو حتى بآيات قرآنية، هو أمر مشجوب من الناحية النظرية.

ولكن من الواضح أن الجانب العملي لم يلتزم قط بهذه القيود، ممّا يتيح لنا اليوم جمع معلومات ثمينة حول الكتابات القديمة وحول العادات والتقاليد البشرية والتاريخية، كما تتيح لنا هذه الشواهد القديمة التأمل في الموت، إذ أنها تدعو إلى الرأفة الإلهية والآخِرة.

وفي حين أنه قد يبدو من غير المجدي أو حتى من غير المستساغ وضع العلامات المميّزة على القبور أو ذكر أسماء المتوفين على شواهد قبورهم، فإن زيارة الأضرحة كانت مجازة، لا بل مستحبة استناداً إلى الحديث النبوي الشريف: «نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، وتضيف بعض المراجع «فإنها تذكر بالآخرة». وبناء على ما ورد في الحديث الشريف وفي تفسيرات الفقهاء، سنّةً كانوا أم شيعة، فإن زيارة الأضرحة تتيح التبصّر والتأمل باليوم الآخر، كما أنها تتيح في الوقت ذاته تسكين فؤاد المؤمن [٣]. أجل، فإن مقبرة المعلاه ذُكرت على أنها مكان يستحق الزيارة [٤] في العديد من أخبار الرحّالة وخبراء الجغرافية والمؤرخين، ومنهم الأزرقي (القرن التاسع) والهراوي (توفي في ١٢١٥م) وابن جبير (توفي في ١٢١٧م) وياقوت (توفي في ١٢٢٩م) وحتى ابن بطوطة (القرن الرابع عشر).

وقد كُرِّس لهذه المقبرة دليلان في بداية القرن الخامس عشر، أثناء فترة شهدت فيها المقبرة توسّعاً هائلاً، وتضّمنا سجلاً للشواهد الخاصة بعدد من الأعلام: وقد وضع الدليل الأول [٥] عالم اللغة مجد الدين الشيرازي، المسمّى الفيروزآبادي (١٣٢٨-١٤١٤/١٣٢٩)؛ فيما يتضمن الثاني ٢٢ شاهداً إضافياً جمعها جمال الدين الشيبي، وهو أحد أفراد العائلة المكية الشهيرة، سدنة الكعبة الشريفة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم [٦]. ويحمل كتابه هذا عنوان «الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة باب المعلاه» [٧].

وان مورداً آخر تتوفر فيه معارف إضافية بشأن شواهد مقبرة المعلاه وذلك في تاريخ مكة بقلم تقي الدين الفاسي المكي المالكي (١٣٧٣-١٤٢٨) بعنوان (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين)، ويتضمن هذا الكتاب سيرة عدد من الأعلام بالاستناد إلى النقوش الواردة على شواهد أضرحتهم.

وإلى جانب هذه الإشارات المنصوصة الثمينة، فإن مجموع الشواهد الحجرية المحفوظة من مقبرة المعلاه، والتي جرى نشرها في كتاب على نطاق واسع في العام ٢٠٠٤م بإشراف سعد الراشد، يشتمل على قرابة ستمائة نقش يعود تاريخها إلى ما بين القرنين التاسع والسادس عشر [٨]. وبفضل هذا العمل الجبار في مجال التدوين والقراءة، يتسع أمامنا ميدان واسع يتيح دراسة البيانات الواردة في تلك النقوش.

٣- للمسائل المتصلة بشرعية القبور وزيارتها، أنظر سورديل-تومين Sourdel-Thomine، «قبر»، EI٢، المجلد الرابع، ليد Leyde، ١٩٧٨، ص. ٣٦٧-٣٧٠، وبالأخص دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤، المجلد الثاني، ص. ١٣ وما يليها.

٤- إحدى شواهد مقبرة المعلاه تتوجه إلى المارين كما يلي: «إذا زرت المعلاه وقبورها...» الراشد، ٢٠٠٤م، الرقم ٣٤٦ب، مؤرخة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م.

٥- إثارة الحجون إلى زيارة الحجون، مخطوطة محفوظة في القاهرة، شولِر Schöller، ٢٠٠٤، ص. ٣٠٤، رقم ٦٠-٦١.

٦- مولود ومتوفى في مكة (١٣٧٧-١٤٣٣)، بعد أن درس الشريعة في بغداد وشيراز وزبيد، كلف بوظيفة حراسة باب الكعبة ومن ثم وظيفة ناظر الحرم، وشغل أيضاً منصب قاض شافعي وكتب تاريخ مكة . مدفون في مقبرة المعلاه. أنظر دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤، المجلد الثاني، ص. ٣٠٥.

٧- مخطوطة محفوظة في برلين (المكتبة العامة، Ms ٦١٢٤)؛ أنظر دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤، المجلد الثاني، ص. ٣٠٧.

٨- للاستكمال بواسطة الفعر، ١٩٨٤م؛ الراشد، ١٩٩٣م؛ الحارثي، ٢٠٠٥م؛ RCEA، الأعداد ٣٥٠٧ و٣٤٧٩ و٣٥٢١ و٣٦٣١ و٣٧٩٤ و٣٩٥٦.



الصورة ٣. صورة شمسية قديمة لمقبرة المعلا. تصوير صادق باي، حوالى ١٨٨٠، باريس، مكتبة المعهد الفرنسي، مجموعة شْلومبرجيه

هويات المتوفين

إن شواهد المعلاه، مع استثناء واحد أو اثنين، تذكر دائماً اسم المتوفى وتشكل بالتالي مادة لدراسة أسماء الأعلام [٩].

فالاسم العربي يتكوّن عادة من الاسم، يليه النسب: «ابن/ابنة ....»، ويتضمن على وجه العموم ما لا يقل عن جيلين اثنين. ويمكن إطالة ذكر النسب إذا كان المتوفى من ذريّة شهيرة النسب – ذرية الرسول، أو صحابة الرسول، أو أفراد سلالة حاكمة أو نسل عريق من رجال الدين.

ويمكن ذكر النساء بصيغة كنية «أم فلان [اسم الابن البكر]» وقد شهد القرن الثاني عشر بروز الصفات والألقاب الفخرية التي جاءت تطيل اسم المتوفى.

ويمكن للأسماء أن تكشف أيضاً عن النسبة الجغرافية أو الاثنية أو العشائرية، وتذكر الشواهد ما لا يقل عن خمسين مدينة ومنطقة، ممّا يبرز التدفّق الهائل من الحجاج والباعة الذين أمّوا الحجاز من كافة أقطار العالم الإسلامي، من إسبانيا إلى الهند، مع الإشارة إلى أن إيران ممثلة تمثيلاً ممتازاً. ومن بين الإشارات إلى العشائر والقبائل، نذكر ما يلي: الهاشمي (من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم، د. المعرض رقم ٢٨٨)، والتميمي (من كبرى قبائل وسط الجزيرة العربية)؛ شمّر (تحالف قبائل شمال الجزيرة)؛ المخزومي (من كبرى العشائر المكية)؛ اللخمي (قبيلة حطّت

٩- فيما يخص الاسم العربي، أنظر سوبليت Sublet، ١٩٩١م.

رحالها في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية)؛ والغسّاني (قبيلة حطت رحالها في الشمال الغربي). وتشتمل الشواهد أحياناً على معلومات عن مهنة المتوفى: ويبدو أن مهنة الصراف أو الصيرفي ومهنة العطار، اللتين أتى ذكرهما مراراً وتكراراً، كانتا تشكلان نشاطاً مزدهراً ومربحاً في مكة. وقد أتت الشواهد الأخرى على ذكر عدد من المهن ومنها الدهان، والبزّاز، والحريري، والصيقلي، والخراز. وتتصل مهن أخرى بأنشطة ذات طابع فكري مثل الورّاق، والمعلم، والكاتب. ولا عجب في أن غالبية الإشارات هي ذات صلة بالتجار (تاجر، خواجه)، وبالأخص، ابتداءً من القرن الثاني عشر، ورد ذكر وظائف مرتبطة بالعلوم الدينية مثل الفقيه والإمام والمفتي والقاضي وقاضي القضاة وشيخ الحرمين وناظر الحرم الشريف. وإلى جانب الأعلام الدينيين، نحتفظ بالشواهد الخاصة بالشخصيات ذات النسب العالي، مثل ذرية علي، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصهره، وعمر بن الخطاب، من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وثاني الخلفاء الراشدين (د. المعرض رقم ٢٩١ و ٢٨٨)، والعباس (بن عبد المطّلب)، وهو عم الرسول (د. المعرض رقم ٢٩٠). ونذكر أيضاً، من بين الشواهد التي أشار إليها كل من الفاسي والشيبي، تلك العائدة إلى امرأة لها صلة بالخليفة العباسي المستظهر بالله (١٠٩٤–١١١٨م) [١٠]، وإحدى الأميرات اليمنيات [١١]، وأحد الأمراء الفاطميين [١٢]، بالإضافة إلى تاجر ومالك سفن إيراني ثري (نوخذ) [١٣]، وهو الشيخ عبد القاسم بن رامشت، الذي اشتهر بكونه مؤسس إحدى المدارس الصوفية في مكة [١٤].

مضمون الشواهد

يأتي اسم المتوفى في وسط صيغة اختلفت باختلاف الحقبات وبناء على الطلبات الخاصة. وتبدأ الشواهد دائماً بالبسملة أي «باسم الله الرحمن الرحيم». وعلى وجه العموم، فإن الشواهد القديمة تتضمن، بعد البسملة، عبارات الثناء، أي عبارات تحية النبي محمد صلى الله عليه وسلم (د. المعرض رقم ٢٨٦ و٢٨٨)، كما تتضمن أحياناً عبارة الشهادة أي «لا إله إلاّ الله ...». وفي القرون الأولى للهجرة، كانت الشواهد تتضمن، في الكثير من الأحيان، المقاطع القرآنية التالية: سورة الإخلاص (١١٢) التالي نصها «قل هو اللّه أحد اللّه الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لّه كفوًا أحد» (د. المعرض رقم ٢٨٧ و٢٩٢ و٢٩٥). وسورة الأحزاب، الآية ٢١ التالي نصها: «لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً» (د. المعرض رقم ٢٩١). وسورة البقرة، الآية ٢٥٦ (II التالي نصها: «اللّه لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم لّه ما في السّماوات وما في الأرض من ذا الّذي يشفع عنده إلاّ بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء وسع كرسيّه السّماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم» (د. المعرض رقم ٢٩٠ و٢٩٨)؛ وسورة الواقعة، الآيتان ٤٩ و٥٠ التالي نصهما: «قل إنّ الأوّلين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم مّعلوم» (د. المعرض رقم ٢٨٥ و٢٨٨ و٢٨٩). وبعد ذلك، نشهد تنويعاً في النصوص القرآنية، ومن بينها سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و٢٧ التالي نصهما: «كلّ من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام» (د. المعرض رقم ٢٩٤ و٢٩٩)؛ وسورة النساء، الآية ١٠٠ التالي نصها: «[...] ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه وكان اللّه غفوراً رحيماً» (د. المعرض رقم ٢٩٧)؛ أو سورة القمر، الآيتان ٥٤ و٥٥ التالي نصهما: «إنّ المتّقين في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مّقتدر» (د. المعرض رقم ٢٩٥).

ويَردُ اسم المتوفى على الشاهد ضمن صيغ عديدة، وإحدى أكثر الصيغ شيوعاً في القرون الأولى وردت على شواهد غير مؤرخة وهي التالية: «اجعل [اسم المتوفى] من الفائزين/من أصحاب محمد في الجنة/بين ذويه». ومن النصوص الأقل شيوعاً ما يلي: «اغفر له». وفي فترة لاحقة، اختفت هذه العبارات لتنتشر مكانها الصيغة التالية: «هذا قبر ...»، ويشار فيها إلى تاريخ الوفاة بعبارة «توفي في...». وتشير الشواهد المؤرخة، فضلاً

١٠- RCEA ، المجلد الثامن، العدد ٣٠١٧، الشيبي، الصحيفة ٢٧٦.

١١- المرجع السابق، العدد ٣١٥٦، الشيبي، الصحيفة ١٣أ.

١٢- دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤م، المجلد الثاني، رقم ١٢٥، ص. ٤٧٥.

١٣- RCEA، المجلد الثامن، العدد ٣٠٩٩، الشيبي، الصحيفة ٢٧؛ دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤م، المجلد الثاني، ص. ٤٧٤.

١٤- مورتل Mortel، ١٩٩٨م، ص. ٣٣–٣٤.

عن السنة الهجرية، إلى يوم وشهر الوفاة، ويتزامن عدد كبير من هذه الوفيات مع فترات الحج. فوفاة الحاج أثناء أداء فريضة الحج ودفنه على مقربة من الحرم هما بالطبع أمر يغبطه عليه المؤمنون. ويحمل أحد الشواهد إشارة إلى شيخ توفي في عرفة، أثناء أدائه للموقف (د. المعرض رقم ٢٩٧)، وهذا أيضاً ما كان يسعى إليه الورعون الذين اختاروا البقاء في جوار الحرم ويشار إليهم بلفظة المجاورون [١٥]. ويشير شاهد قبر إحدى النساء إلى أنها توفيت في الحُسَيْب (اليمن) خلال شهر رمضان ٥٤٦هـ/١١٥١م وأن رفاتها نقلت إلى مكة حيث دفنت في مقبرة المعلاه أثناء شهر الحج في السنة التالية [١٦]. من حيث المبدأ، من المحظور إعادة فتح قبر ما لدفن جثة جديدة فيه. بيد أن هناك حالتين على الأقل تم فيهما دفن أب مع ولده. وفي إحدى الحالتين، وافت المنية الابن بعد سنة من وفاة أبيه [١٧]، في حين أن الحالة الثانية لا تشير سوى إلى تاريخ وفاة الابنة (د. المعرض رقم ٢٩٤).

وعلى وجه العموم، فإن شواهد القرون الأولى كانت تختم بعبارة «آمين، رب العالمين»، أو «ليرحمه الله» أو إحدى عبارات الصلاة والسلام على النبي. وفي وقت لاحق، باتت الشواهد تختتم فجأة بتاريخ الوفاة فقط أو، في بعض الحالات النادرة، برسالة موجّهة إلى الزائر (د. المعرض رقم ٢٩٩). وابتداءً من القرن الثاني عشر، أضيفت مقاطع شعرية حول موضوع الموت والفرقة والخلاص إلى نص الشاهدة لتعكس الثقافة الأدبية لدى نخبة المكيين (البند ٢٩٥ من الفهرس).

الخطوط والزخارف

من جانب آخر، تتميّز شواهد مقبرة المعلاه بجودة خطوطها وتنوّعها. وتتكوّن كلها من حجر النسيفة (البازلت) المتوافر في الجبال المحيطة والمستخدم لتشييد الأبنية في مكة. وهذه الكتل الصخرية الفائقة الصلابة لم تخضع لأي تشذيب بغية جعلها أكثر انتظاماً؛ بل استخدمت كما هي، وقد اضطر النحّات إلى تكييف خطه مع سطح الحجر – غير السوي أحياناً – الموضوع تحت تصرفه. وللأسباب ذاتها، فإن نحت النقوش جاء نافراً خفيفاً للغاية: إمّا منقوشاً ببساطة (ويبدو أن هذه هي التقنية الأقدم)، وإمّا نافراً على خلفية منقّطة. ولا شك في أن التقنيتين تعايشتا معاً، ولكن تقنية النقوش البارزة هي التي سادت في القرنين العاشر والحادي عشر.

وكما هي الحال بالنسبة إلى تاريخ نسخ أقدم المخطوطات القرآنية، فإن أولى الشواهد لم تأتِ على ذكر تاريخ نقشها. وقد يكون من السهل اعتبار أن المخطوطات الأبسط والتي يبرز فيها نقص المهارة تعود إلى القرنين الثامن والتاسع. ولكن ينبغي أيضاً أن نراعي إمكانيات أسرة المتوفى ومكانتها الاجتماعية.

وأول التواريخ الواردة على إحدى شواهد مقبرة المعلاه يعود إلى العام ٣٠٤هـ/٩١٦م [١٨]. وتعود عدة شواهد أخرى إلى حقبات مختلفة من القرن العاشر. وينبغي النظر إلى أمثلة أخرى خارج مكة للعثور على مراجع تاريخية أقدم: بالأخص في عشم، الواقعة على بعد ٣٠٠ كلم جنوب مكة، حيث تعود ثلاثة نقوش منشورة إلى تواريخ سابقة [١٩] وهي ٢٦٢هـ/٨٧٥-٨٧٦م، و٢٨٥ هـ/٨٩٨م، ومن ثم ٢٨٩هـ/٩٠٢م. وتمتاز هذه الشواهد، بالإضافة إلى ما تقدّم، بكونها تحمل تواقيع خطاطيها. وقد اكتشفت أمثلة عن كتابات أكثر قدماً بعد على أسطح صخرية في أماكن مختلفة من المملكة العربية السعودية، ويعود تاريخها إلى القرنين السابع والثامن [٢٠]. ولا شك أن إجراء مقارنات معمّقة بين هذه البيانات المختلفة قد يتيح تحديداً أدق للتسلسل الزمني للشواهد التي عثر عليها في مقبرة المعلاه. بيد أنه يمكننا منذ الآن، أن نحاول تحديد مجموعات مختلفة من الخطوط، استناداً إلى شكل بعض الحروف أو الزخارف المرتبطة بها. وتنطوي بعض الشواهد غير المؤرخة، التي تبدو وكأنها الأقدم، على خطّ (نقش) غليظ نسبياً [٢١]؛ في حين تتميّز شواهد أخرى بخطوط

١٥- الراشد، ٢٠٠٤م، رقم ٥٨٦: شاهد مجاور. أنظر أيضاً شاهد في متحف اللوفر (MAO ١٢٢٤) لقبر تاجر مجاور، منشورة في بيطار، ٢٠٠٣م، رقم ٤٨، ص. ١٢٦–١٣٠.

١٦- شاهد ذكرها الشيبي؛ أنظر دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤، المجلد الثاني، رقم ١٢٦، ص. ٤٧٥–٤٧٦.

١٧- الراشد، ٢٠٠٤م، رقم ٤٦٤.

١٨- المرجع السابق، رقم ٢٠١. نقش آخر، رقم ٥٨٥ب، يحمل التاريخ ٢٦٥هـ/٨٧٩م، ولكنه ذو طابع مجزّأ، لا يتضمن اسماً ونصه غير اعتيادي، يشكل مشكلة.

١٩- الزيلعي، ٢٠٠٠م، الأرقام ٢ إلى ٤، ص. ٢٤٧–٢٥٠.

٢٠- أنظر بالأخص غروهمان Grohmann، ١٩٦٢م؛ الراشد، ١٩٩٥م؛ كاواتوكو، ٢٠٠٥م.

٢١- الراشد، ٢٠٠٤م، الرقم ١٧٧أ، لا تأتي على ذكر المتوفى؛ قد يعود تاريخها إلى القرن الثامن.



الصورة ٤. شهادة حجّ، مؤرّخة في ٥٩٤ هـ/١١٩٨.
إسطنبول، TIEM، ٤٧٥٢

أنيقة، وبتقطيع منتظم جداً للكلمات، وحتى باستخدام تقنية مشق الحروف (أي تمديدها)، ممّا يعيد إلى الذاكرة المخطوطات اليدوية القرآنية [٢٢]. وثمة مجموعة أولى واضحة المعالم من الخطوط (د. المعرض رقم ٢٨٤ و٢٨٨)، وهي نادرة نسبياً في مجموعة النقوش الموجودة بمقبرة المعلاه، تمتاز بكتابة رفيعة، وباعتماد الرأس المفتوح لحرف العين المتوسطة، والأحرف النهائية المشدوقة الملويّة الى الداخل، وبشكل «مؤسلب» جداً لكلمة «الله» والتصنّع في معالجة بعض حروف الياء، إذ يبدأ حرف الياء في نهاية الكلمات أحياناً بعطفة ثلاثية النصوص، وتنتهي بخط عائد قد يصل إلى الكلمة السابقة في الجملة. وتمتاز هذه المجموعة، فضلاً عمّا تقدم، بزخرفة وافرة نسبياً ولكنها أنيقة يطغى عليها شكل ورقة متعددة الفصوص تشبه السعفة. ويمكن اعتبار هذا الخط المزوّى والمزيّن بزهرات والأنيق يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع، بالمقارنة مع شواهد عشم [٢٣]. وتشتق مجموعة ثانية (د. المعرض رقم ٢٩١ و٢٩٢) عن المجموعة السابقة بحيث أنها تتسم بالخصائص ذاتها ولكن من دون التصنّع في تشكيل حرف الياء النهائي ومع إدخال عقفة جديدة على بعض الحروف؛ وفضلاً عن ذلك، فإن التزويق النباتي أقل بهرجة مع تفضيل واضح لأنصاف السعف. وتأتي مجموعة ثالثة لتجمع بين عدد كبير من الشواهد التي يعود تاريخها إلى القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر. إنها تتسم بزخرفة أكثر رزانة وبإطار مستقيم الخطوط قد يأخذ شكل لوحة ذات مقبضين وهو يحيط بنصوص مكتوبة بخط بسيط مزوّى يمتاز بقدر من الرتابة وبخطوط عمودية متواضعة (د. المعرض رقم ٢٨٩ و٢٩٠). ويعكس عدد من الشواهد، التي يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر، تطور الخط المزوّى – الذي يدعى عموماً بالخط الكوفي أو، وفقاً للتسمية الحديثة، «الخط العباسي القديم [٢٤]» – بعد إخضاعه لتجارب جديدة. وتجدر الإشارة إلى أنه، حتى ولو كانت بعض الخطوط قد استخدمت أيضاً في المخطوطات، فإن شواهد مقبرة المعلاه والخطوط المنقوشة على وجه العموم، عرفت تطوراً خاصاً بها. وبالتالي، فإنها تجهل كلياً الخط المسمى «الكوفي الشرقي» أو «الأسلوب الجديد [٢٥]» الذي برز في المخطوطات الصادرة في القرنين العاشر والحادي عشر. وخلافاً لذلك يُلاحظ بعضُ الأمثلة من الخط المزوّى المزخرف بالأزهار، ذو دوائر محيطة معقّدة؛ وفي بعض الشواهد، نرى أن خطوط الكتابة تتداخل فيما بينها فيتيه فيها نظر القارئ (د. المعرض رقم ٢٩٣). والتسلسل الزمني لهذه الشواهد محدد بشكل جيد وواضح إذ أنها تشتمل على تواريخ تتراوح بين العام ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، والعام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م [٢٦]، ويبدو أنها تتلاءم مع آخر الطرازات المنتشرة في مصر إبان العصر الفاطمي. ولن تنتهي عملية تليين أشكال الحروف سوى في القرن الثاني عشر مع بروز الخط المشبك. وبعد تلمسات أولى (د. المعرض رقم ٢٩٤) لم تنجح في الابتعاد كلياً عن الطريقة المعتمدة في الماضي، شهدت نهاية القرن الثاني عشر تثبيت خط نسخي دقيق. وصحب هذا التغيير ممارسة انتشرت حتى في مجال المخطوطات القرآنية، والوثائق الرسمية أو حتى شهادات الحج المعاصرة [٢٧] (الصورة ٤)، أي اعتماد نمطٍ خطّي انطوى على تغيير حجم الحروف وثخانتها، ممّا أتاح خرق الرتابة وإضفاء طابع ملطّف على النقوش. ويقوم هذا النمط على أساس إدخال اسم المتوفى على النصوص. وفي النهاية، سعى هذا النمط إلى توسيع استخدام التشكيلات والحركات، التي كانت غائبة أو شبه غائبة حتى ذلك الوقت.

وهذه الشواهد، التي تعود إلى نهاية القرن الثاني عشر والربع الأول من القرن الثالث عشر – بالإضافة إلى بضعة أمثلة وردت في أوقات لاحقة (د. المعرض رقم ٢٩٨) –، راحت تستخدم، هي أيضاً، نمطاً زخرفياً جديداً انطوى على إطار مستطيل تندرج في داخله مشكاة ذات قوس غير مكتمل مزخرف الزوايا، في وسطها مصباح معلق ويحيط بها أحياناً شمعدانان صغيران. ويجب بالطبع فهم هذه الزخرفة على أنها محراب، ولا شك أنها تلميح إلى الآية ٣٥ من سورة النور التي تبدأ كالتالي: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح». وانتشرت هذه الزخارف خلال الحقبة ذاتها في إيران، حيث برزت على لوحات من الخزف؛ كما أنها برزت أيضاً على شواهد مصرية تعود إلى نهاية القرن الثاني عشر [٢٨]. ويترأس شهادات الحج المعاصرة رسم لمحراب مشابه يعلو قمة جبل الرحمة في عرفة، وهو المكان الذي تنفذ فيه شعائر الموقف، أي وقوف المؤمن في حضرة الله [٢٩] (الصورة ٤). وأخيراً،

٢٢- المرجع السابق، الرقمان ٨٧ و١٠١.
٢٣- تضاف إليهما الشاهدتان الرخاميتان في متحف الفن الإسلامي في القاهرة، وتحملان توقيع الخطاط «المكي» وهما مؤرختان في عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م.
٢٤- ديروش Déroche، ١٩٩٢م، ص. ٣٤–٤٧.
٢٥- المرجع السابق، ص. ١٣٢–١٣٧.
٢٦- أنظر شنايدر Schneider، ١٩٨٣، بالأخص الأرقام ١٦٧ و١٨٧ و١٩٥ و١٩٨، لأمثلة مشابهة.
٢٧- أكسوي وميلستاين Aksoy et Milstein، ٢٠٠٠م، الصحيفة ٢.
٢٨- فييت Wiet، ١٩٣٩م، رقم ٢٣٤١، المجلد السادس، ص. ٢٠١.
٢٩-أكسوي وميلستاين Aksoy et Milstein، ٢٠٠٠م، الصحيفة ٧–٨، ص. ١٢٥–١٢٦.



الصورة ٥. شهادة حجّ يظهر فيها جبل عرفة،
منتصف القرن الثالث عشر، إسطنبول، TIEM، ٤٧٢٤

تضم شواهد مقبرة المعلاه المحفوظة حوالي عشرين شاهداً تعود إلى حقبة متأخرة، ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر. وندرة هذه الشواهد النسبية تثير التساؤلات: فهل في هذه الندرة مؤشر الى تغيير في العادات الجنائزية أم أنها نتيجة لخيار صريح أو لمصادفات تاريخية مرتبطة بعملية حفظ هذه الشواهد؟ وتصح الملاحظة ذاتها بالنسبة الى مصر والمشرق العربي ككل. إذ لوحظ في تلك الفترة – على الأقل بالنسبة إلى الأحبار – انتشار أضرحة لم تستطع مقاومة مرور الزمن كسابقاتها أو أنها تعرّضت للتدمير نتيجة لأسباب دينية. وإن إحدى الشواهد المثيرة للاهتمام، تلك التي تمّ العثور عليها في المعلاه، والتي تعود إلى عهد المماليك، إذ إنها مؤرخة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، تتضمن إشارة إلى القبة التي كانت تعلوها [٣٠]. أمّا بالنسبة إلى طريقة عرض النقوش، فإنها تكمّل أحياناً ما كان سائداً في الحقبات السابقة، ولكن ضمن إطار مقوّس الشكل، وتبنى في الغالب وفق سجلات واضحة المعالم (د. المعرض رقم ٢٩٩). وتتفاوت فيها جودة الكتابات والنقوش، وهي تعكس التطور العام لطرق نقش الكتابات التي كانت سارية في تلك الفترة: استخدام الخط الثلث، وتمديد النتوءات

٣٠- الراشد، ٢٠٠٤م، رقم ٣٠٨.

العمودية وتضخيم سماكة الحروف. وان مثالاً رائعاً يعود إلى فترة لاحقة (د. المعرض رقم ٣٠٠) يأتي ليشهد على إجادة رائعة لفن الخط وعلى انتشار حرية جديدة انبثقت فجأة من شريان كان يهدد بالنضوب.

مصنع الشواهد: نقّاشو مكة

إن فحص مجموع شواهد مقبرة المعلاه يتيح أخيراً إبداء عدد من الملاحظات بشأن صناعتها. فيمكننا أولاً أن نلاحظ ممارسة عرضية انطوت على إعادة استخدام شواهد قديمة لنقش كتابات جديدة على ظهرها (د. المعرض رقم ٢٨٥ و٢٩٤ و٣٠٠)؛ وقد ترتبط هذه الممارسة بطبيعة الحجر البازلتي المستخدم، فهذا الحجر صلب للغاية ويصعب على المرء أن يرتاد الجبال المحيطة بغية الحصول عليه. وتشير حالتان إلى فارق لا يقل عن قرن كامل من الزمن بين الاستخدامين [٣١]. وفضلاً عن ذلك، فإن أحد الأمثلة يطلعنا على كيفية عمل خطاط النحت، كما أنه يأتي ببرهان على أن الشواهد كانت توضع أحياناً في مكانها من دون أن تستكمل نحتها [٣٢]: ففي نهاية النص، تم رسم الحروف بواسطة نقش طفيف ولكن هذه الحروف لم تُنحت كلياً من طريق التوتيد كما هي الحال بالنسبة إلى بقية النص. وإلى جانب ذلك، يتيح لنا نقشان [٣٣] آخران أن نستشف إجراءات محتملة تتعلّق بطلب العمل وتنفيذه: فقد جرى نحت كامل النص – بما فيه اسم المتوفى –، باستثناء تاريخ الوفاة الذي أضيف في أسفل الشاهد أو في مطلعها بشكل أقل اتقاناً وبواسطة نقش بسيط. ويشير ذلك إلى أن الشواهد كانت تجهّز قبل وفاة الشخص المعني، إمّا بناء على طلب المتوفى أو أفراد عائلته، لينقش عليها تاريخ الوفاة سريعاً عند دفن المتوفى.

لا شك أن أعمال نقّاشي مكة كانت مزدهرة نتيجة لرغبة الكثير من المؤمنين في أن يدفنوا على مقربة من الحرم، ولاسيما خلال فترة الحج التي كانت تشهد وصول جحافل من الحجاج الآتين من كافة أقطار العالم الإسلامي، والذين كانوا يتعرضون في رحلتهم هذه إلى عناء جسدي مرهق. ومن النادر أن نجد توقيع النقّاش على شواهد مكة: وقد وقّع أحدهم، ويدعى ابراهيم، على شاهد يعود إلى نهاية القرن التاسع أو إلى القرن العاشر (د. المعرض رقم ٢٩٢). وبالنسبة إلى الفترات اللاحقة، عثرنا على إشارتين تعودان إلى شخص يدعى «محمد» نُقشتا على شاهدتين من النمط ذاته، وتحمل إحداهما تاريخ ٨٢٤هـ/١٤٢١م. وفي المقابل، شهدت نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر تكاثر التواقيع على مجموعة من الشواهد المزخرفة بشكل محراب. وتعود هذه التواقيع إلى فردين من العائلة ذاتها وهما العم عبد الرحمن بن أبي حرمي المكي [٣٤]، وابن أخيه محمد بن بركات. وهما ينتميان إلى سلالة عريقة من النقّاشين اكتشف وجودها م. شنايدر (M. Schneider) خلال دراسته لشواهد جزر دهلق [٣٥]. وفي الواقع، فقد ظهر اسما النقّاشين المذكورين وأسماء كل من الوالد «عبد الرحمن محمد بن أبي حرمي» وولديه يحيى ومحمد، على عدد من الشواهد الموجودة في دهلق (كبير) أو التي نسبه م. شنايدر [٣٦] إلى دهلق، وقد عزا هذا الأخير النشاط المرتبط بالشواهد إلى الجزيرة المذكورة [٣٧]، وذلك في وقت لم يكن قد تمّ فيه نشر نصوص شواهد مقبرة المعلاه. وذكر الكاتب أنّ أولئك النقّاشين كانوا يعملون «أيضاً» في مكة. بيد أن نسبتهم، وبالأخص الكم الهائل من الشواهد التي تحمل تواقيعهم في مكة، تدفعنا بوضوح إلى التشكيك في تأكيد م. شنايدر. ومن البديهي أن مجموع أعمال هذه العائلة يستحق الذكر: فمن خلال المنشورات المختلفة، يتضح أن هذه الأسرة نفـّذت ما قدره ٢٣ شاهد قبر، منها إحدى عشرة شاهد نفـّذها عبد الرحمن، وست شواهد نفّذها ابن أخيه محمد، في حين أن ثلاث شواهد تحمل توقيعيهما معاً [٣٨]. وتمتد فترة نشاط هذين النقاشين بين العامين ٥٦٣هـ/١١٦٨م و٦٢٠هـ/١٢٢٠م. ومن بين شواهد مقبرة المعلاه التي تحمل توقيع محمد بن بركات، هناك شاهد [٣٩] يعود إلى أحد أفراد عائلتهم، وهو شاب يدعى «محمد بن صالح بن أبي حرمي»، ويشار إليه على أنه من أفراد بني عطار؛ ويشير النقّاش إلى نفسه باسم «محمد بن بركات بن أبي حرمي العطار»؛ فهل كانوا متحدرين من عائلة عطارين، وهي مهنة ازدهرت كثيراً في مكة تلبية لاحتياجات الحجاج والحرم؟

٣١- المرجع السابق، الرقمان ١٥٢أ/ب و٥١٩أ/ب (بفارق ستة وثلاثين عاماً).
٣٢- المرجع السابق، الرقم ١٥١.
٣٣- المرجع السابق، الرقمان ٣٦٥ و٣٩٤.
٣٤- أبي حرمي المكي: ويعني «من الحرم، المكي».
٣٥- شنايدر Schneider، ١٩٨٣م.
٣٦- عددها الإجمالي : ١١.
٣٧- شنايدر Schneider، ١٩٨٣م، ص. ٧٨.
٣٨- فضلاً عن تلك التي نشرها شنايدر Schneider، أنظر الراشد، ٢٠٠٤م، الأرقام ٢٦٦ و٤٥٣ و٥٠٧ و٥٥٦؛ RCEA، الأرقام ٣٤٧٩ و٣٥٢١ و٣٦٣١ و٣٩٥٦؛ شاهد ذكرها الفاسي (دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤م، المجلد الثاني، الرقم ١٣٥، ص. ٤٨٠–٤٨١)؛ جزء من شاهدة محفوظ في متحف اللوفر (بيطار، م٢٠٠٣، رقم ٥٠، ص. ١٣٥)؛ شاهدة محفوظة في المتحف البريطاني (بيطار، م٢٠٠٣، الشكل ٥٠، ص. ١٣٧)؛ وأخيراً شاهدة غير مذكورة من قبل (البند ؟؟ من الفهرس). قد تنسب إليهم أيضاً شواهد أخرى غير موقعة بناء على مقارنة الأساليب.
٣٩- الراشد، ٢٠٠٤م، رقم ٥٥٦ (مؤرخة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م)، ذكرها الفاسي (دِييم وشولِر Diem et Schöller، ٢٠٠٤، المجلد الثاني، رقم ١٣٨، ص. ٤٨٢–٤٨٣).

ونستشفّ من أسماء المتوفين وصفاتهم أن عائلة أبي حرمي كانت تعمل لدى نخبة سكان المدينة المقدّسة أو ضواحيها، من علماء الدين، وعائلة الشرفاء الحسنيين، وأفراد السلالة الحاكمة في دهلق.

ولكن عبد الرحمن بن أبي حرمي المكي لم يكن يكتفي بنحت الشواهد فحسب، بل إن سمعته – أو ربما غياب المنافسين في مدينة تفتقر بشكل هائل إلى الحرفيين المهرة، وفقاً لما ورد في المصادر المرجعية – أتاحت له اجتذاب طلبات أعمال من أنواع أخرى. وهكذا، فقد نفـّذ في مكة خمس لوحات منحوتة استذكاراً لبناء حوض في عرفة [٤٠]، ومدرسة مظفر الدين [٤١]، ومبنيين اثنين آخرين [٤٢]. وجاء طلب اللوحتين الأوليين من أحد أعلام المدينة الأمير الكبير مظفر الدين الككبري، صاحب إربيل في شمال العراق، بين العامين ١١٩٠هـ و١٢٢٣هـ [٤٣] وذلك باسم الخليفة العباسي الناصر. ويمكن الربط بين هذا الطلب وبين بلاطة صخرية محفوظة في متحف بغداد، ولكنها أتت من مسجد الإمام ابراهيم في الموصل [٤٤] (الصورة ٦). وهذه البلاطة، التي تعود إلى نهاية القرن الحادي عشر بحسب ما تحمله من نقوش [٤٥]، تشتهر بكونها أقدم رسم لحرم مكة. ولكن سمات الخط المستخدم فيها، ولاسيما التوقيع الذي تحمله – عبد الرحمن بن أبي حرمي المكي –، والذي لم يؤخذ قط في الحسبان فيما مضى [٤٦]، يدفعاننا إلى أنّ ننسبها إلى بداية القرن الثالث عشر في مكة. ولكن كيف وصلت هذه البلاطة إلى الموصل ولماذا؟ من غير المرجح أن يكون النقّاش قد انتقل للسكن في الموصل. في الواقع، يسهل أن نتخيّل أن الككبري، صاحب إربيل – القريبة جداً من الموصل –، قد طلبها من أحد النقّاشين المكيين الذين كانوا قد عملوا لديه في الماضي، أي عبد الرحمن. وشمل الطلب رسماً للحرم، وهو أمر لم يسبق للنحات أن نفـّذه من قبل، ولكن الحرم كان في متناول يده: إذ أنه استنسخه عن شهادات الحج الصادرة في تلك الحقبة [٤٧].

ولكن ما وراء طلب من هذا النوع؟ كان الككبري مشهوراً بورعه وتقواه، كما يشهد له ما نفـّذه من أعمال في مكة وفي مدينته إربيل [٤٨]. ربما كان يستجيب لطلب أحد الأعلام ذوي الصلة بمسجد الموصل المذكور، أو لربما كان يرغب في إعادة تذكار من مكة، لا بل ذخيرة من أرض الحجاز المقدّسة. ويعيدنا ذلك إلى مسألة انتقال هذه الشواهد الرمسيّة إلى مناطق واقعة خارج مكة. فقد تم العثور على إحداها في عدن باليمن، وارتبطت شواهد أخرى بجزيرة دهلق، في حين تمّ العثور على بعضها الآخر في قُوس الواقعة في الصعيد المصري. وكانت هذه الأماكن الثلاثة نقاط هامة جداً على طريق قوافل البضائع والأشخاص المتجهة إلى الأماكن المقدسة. وكان «صغارُ ملوك [٤٩]» دهلق يطلبون من مشاهير النقّاشين المكيين تنفيذ شواهد رمزية من الطراز الحديث لسلالاتهم، ولا شك أن قيمة هذه الشواهد كانت تزداد وتتقدّس نظراً لمصدر المواد الأولية المستخدمة فيها.

أيًّا كان الأمر، فإن نسل أبي حرمي المكي اندثر سريعاً بعد العام ١٢٣٠هـ. فقد تزامنت فترة النشاط الطويلة والشديدة التي قضاها عبد الرحمن مع موجة لا تقل شدة عن قيام المؤسسات الدينية في مكة [٥٠]، ولا شك أن هذه الموجة تعزى إلى «النهضة السنية» التي وسمت القرن الثاني عشر.

تهدف هذه اللمحة السريعة، وغير الكاملة من دون شك، إلى تسليط الضوء على أهمية الشواهد الرمزية في مقبرة المعلاه، وعلى المصدر الغزير من المعلومات الذي يتيحها نشر هذه الشواهد لأصحاب الفضول والباحثين على حد سواء. ولم يخطئ الفاسي[٥١] في تقديره أنها تشكل جزءاً هاماً من ذاكرة المدينة المقدّسة، وهو فضاء صغير ضمن الفضاء الإسلامي الوسيع. وتشير شاهدة قبر أحد التجار الإيرانيين إلى النص الفريد التالي: «نيشابوري النسب، مقيم في بلخ، مولود في مكة ليلة البدر الجديد في شهر شعبان من العام ١٥[٣]هـ/٢٧[٩]م، وقد غادر هذه الدنيا في الليلة الرابعة، قبل اثني عشر يوماً من نهاية شهر رمضان عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م.» لا شك أن عمره الطويل الاستثنائي – مئة عام هجري – كان يستحق الذكر. وتتضمن هذه العبارات القليلة خلاصة مركزة عن حياة هذا التاجر: فبين ليلة بدر وليلة مقدّسة من شهر رمضان، حياة كاملة قضاها يتاجر على طرق القوافل حتى خوراسان، مولود ومتوفى في مكة.



الصورة ٦. بلاطة رُسم عليها المسجد الحرام بمكة المكرمة، بتوقيع عبدالرحمن ابي حرمي المكي، بغداد، المتحف الوطني

٤٠- RCEA، المجلد التاسع، الرقمان ٣٥٠٧ و٣٥٠٨؛ الفعر، ١٩٨٤م، الرقمان ٥٨ و٥٩، ص. ٣١٠–٣١٨ (مؤرخة ٥٩٤هـ/١١٩٧–١١٩٨م).
٤١- الفعر، ١٩٨٤م، الرقم ٦١، ص. ٣٢٣–٣٢٨ (مؤرخة ٦٠٥هـ/١٢٠٨–١٢٠٩م).
٤٢- المرجع السابق، الرقم ٦٢، ص. ٣٢٩–٣٣٢ (مؤرخة ٦١٤هـ/١٢١٧–١٢١٨م)، وRCEA، المجلد التاسع، رقم ٤٠٤٢ (مؤرخة ٦٢٠هـ/١٢٢٠م).
٤٣- كاهن Cahen، «Begteginides»، EI٢، المجلد الأول، ليد Leyde، ١٩٦٠م، ص. ١١٩٥.
٤٤- جرد: العين ١١٤٩م؛ يذكر النقش مسجداً بناه الأمير ابراهيم الجراحي والتربة المجاورة له.
٤٥- أنظر ستريكا Strika، م١٩٧٧ و١٩٧٩م؛ ومذكورة أيضاً على أنها كذلك في غرابار Grabar، ١٩٨٥م، الرقم ٣، ص. ٦.
٤٦- بواسطة ستريكا Strika، في كافة الأحوال؛ موسوعة علم الكتابة العربية (الرقم ٢٦٧٨٢) تشير إلى أنه تمت قراءتها في منشور عراقي: سلمان، ١٩٧٥م، ص. ٥٢.
٤٧- أكسوي وميلستاين Aksoy et Milstein، ٢٠٠٠م، الشكل ٣، ص. ١١١.
٤٨- حيث أسس للاحتفال بتذكارات المولد النبوي الشريف، أنظر الرقم ٤٢. وقد طلب أيضاً تشييد منبر مسجد الحنابلة في دمشق.
٤٩- فييت Wiet، ١٩٥٢م، ص. ٨٩–٩٥.
٥٠- مورتل Mortel، ١٩٩٧م و١٩٩٨م.
٥١- أنظر أعلاه، في بداية النص.



٢٨٣. شاهدة قبر حسة بنت موسى بن سلام
القرن التاسع
حجر البزلت
٤٠ x ١٨ سم
مجهولة المصدر
الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية،
رقم ٣١٤٨٧٩

فهرس: غير منشور

بسم الله الرحمن ا
[لرحيم اللهمّ صـ[لّى]
على محمّد عبد
ك و رسولك و
[ا]غفر لحسة بنت م[و]
سى بن سلام م ...
... من ذنبها ...
ما بأخر أمين رب ألعا
لمين

شاهدة قبر مقتضبة: البسملة، الصلاة والسلام على النبي، اسم المتوفاة، ودعاء أخير («أمين، رب العالمين»). ويتميز الخط، الذي يتسم بالبساطة والنمنمة في آن معاً، بحروف النون الواسعة التي تشكّل حلقة. C. J.



٢٨٤. شاهدة قبر أم عبدالله
القرن التاسع
حجر البزلت
٦٩ x ٣١ سم
مجهولة المصدر
الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية،
رقم ٣١٤٧١٦

فهرس: غير منشور

بسم الله
الرحمن الرحيم
قل يا عبادى ٱلّذين
أسرفوا على نفسهم لا
تقنطوا من رحمة الله إنّ الله
يغفر الذنوب جميعاً إنّه
*هـو الغفور الرحيم اللهم
أجعل أم عبد الله أم و
لد أزهر بن عبد الغفار
من...جنات النعيم

* القرآن، ٣٩، ٥٣

إن بساطة النص تميِّز القرون الأولى: البسملة، آية قرآنية، اسم المتوفاة، حسب صيغة «إجعل {الإسم} من جنات النعيم». والمتوفاة تُدعى «أم عبدالله أم ولد أزهر بن عبد الغفار»، ما يعني «أم عبدالله، والدة الطفل أزهر بن عبد الغفار»، الذي لم يتضح اسمه الأول. وتعبير «أم ولد» يدل على ان هذه المرأة كانت في الرقّ فأنجبت الطفل أزهر من سيدها، فحصلت بذلك على وضع اجتماعي جديد. C. J.



٢٨٥. شاهدة قبر الغالية بنت عبد الجبار،
بن العلا
القرن التاسع
حجر البزلت
٦٩ x ٤٥ x ١٣ سم
مكة، مقبرة المعلاه
الرياض، المتحف الوطني، رقم ٤٩٧ A

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ١٢٦-١٣٠؛ الرشيد، ٢٠٠٢، ص. ٣٦-٣٧؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤٩٧ A، ص. ٥٤٢.

بسم الله الرحمن
الرحيم اللهمّ إذا
جمعت الأوّلين و الآخرين
لميقات يوم معلوم* فأ
جعل الغالية إبنت عبد
الجبّار بن العلا من رفقاء
محمّد فى جنّات النعيم
آمين آمين ربّ
العالمين

* القرآن، **٥٦،** ٤٩-٥٠

الشاهدة مكتوبة على الشكل التالي: البسملة، آية قرآنية، إدراج اسم المتوفاة حسب صيغة «فاجعل {اسم} من رفقاء محمد في جنات النعيم»، دعاء أخير. وتضفي الكتابة الجميلة والمزخرفة على الشاهدة لمسة أنثوية. ثم أعيد استخدام الشاهدة بالمقلوب (رأسا على عقب)، على قبر رجل دين توفي في ١٢٧٥. C. J.

٢٨٦. شاهدة قبر عباس بن عبدالله،
بن محمد، بن ناصح
القرن التاسع
حجر البزلت
٦١ x ٣٥ x ١١ سم
مكة، مقبرة المعلاه
الرياض، المتحف الوطني، رقم ٤٥١

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ٣٤٤-٣٤٧؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤٥١، ص. ٤٩٦.

بسم الله الر
حمن الرحيم
اللهمّ صلّى
على محمّد النبي وا
جعل عبّاس بن عبد
الله بن محمّد بن ناصح
لوالديه ذخرا و نجاة
من النار

تشهد الزخرفة والكتابة المرهفتين، على أن الرقة ليست حكرا على المرأة في مكة ... وشاهدة القبر هذه شبيهة بالسابقة، ما عدا الآية القرآنية.
C. J.





٢٨٧. شاهدة قبر أم عبد الرحمن،
بنت عيسى، بن عمرو الفارسي
القرن لتاسع
حجر البزلت
٦٧ x ٣٥ x ١٥ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ١٥٥

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ١٩٣-١٩٦؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ١٥٥، ص. ١٨٧.

بسم الله
الرحمن الرحيم
قل هو الله أحد الله
الصمد لم يلد و لم
يولد و لم يكن له كفؤ
ا أحد* اللهمّ إذا
جمعت الأوّلين و الآخر
ين لميقات يوم معلوم** فا
جعل أمّ عبد الرحمن
إبنت عيسى بن عمروا
لفارسى من رفقاء محمّد
فى جنات النعيم آمين

* القرآن، **١١٢**
* القرآن، **٥٦**، ٤٩-٥٠

تحتوي هذه الشاهدة على عناصر مميِزة للقرون الأولى: نوع الخط والزخرفات، الواضحة للعيان في الشاهدة - البسملة، آيات قرآنية وإدراج اسم المتوفاة. وهنا أيضا، لم تـُذكر هذه المرأة باسمها الأول، إنما من خلال وضعها أماً (أم) ابن، ومن خلال نسب الأب؛ فنسبتها (الفارسي)، تشير إلى أصلها الإيراني (من فارس، منطقة في جنوب غرب إيران). C. J.

٢٨٨. شاهدة قبر أبو القاسم نوفل
بن محمد، بن نوفل الهاشمي
القرن التاسع
حجر البزلت
٨٨ x ٤٨ x ٢٠ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٤٥٧

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ١٧٤-١٧٨؛ الرشيد، ٢٠٠٢، ص. ٦٤-٦٥؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤٥٧، ص. ٥.

بسم الله الر
حمن الرحيم
اللهمّ صلّى على
محمّد و على آل محمّد
و إذا جمعت الأوّلين
و الآخرين لميقات
يوم معلوم* فاجعل أبا
القاسم نوفل بن محمّد
بن نوفل الهاشمى من العا
ئذين الآمنين الذين لا خو
ف عليهم و لا هم يحزنو
ن و تفضل عليه برحمة منك
و معغرة يا [أ]رحم الراحمين

* القرآن، **٥٦**، ٤٩-٥٠

حول دائرة القوس (القرآن، **١١٢**) :

بسم اللّه الرحمن الرحيم قل هو اللّه أحد اللّه
الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد

أنجزت هذه الشاهدة التي تتسم بزخرفة منمنمة، من اجل أحد أعضاء بني هاشم الذين ينتسبون إلى ذرية الرسول، من ناحية علي، ابنِ عمه وصهره (لم يخلـّف الرسول وارثاً ذكراً)، وابنه الحسن. وكان هؤلاء الأحفاد يتمتعون بنفوذ مميز، ومارسوا السلطة، مبدئياً على الأقل، في المدينة المقدسة، من القرن العاشر حتى بداية القرن العشرين. C. J.



٢٨٩. شاهدة قبر أحمد بن محمد بن جعفر، بن نوح
القرن العاشر
٤٨ x ٤٥ x ١٤ سم
حجر البزلت
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٤٦٧

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٤، ص. ٥١٢، رقم ٤٦٧.

بسم الله الرحمن الر
حيم اللهمّ صلّى على
محمّد و على آل محمّد
اللهمّ إذا جمعت الأوّ
لين و الآخرين لميقات
يوم معلوم* فأجعل
أحمد بن محمّد بن
جعفر بن نوح لوالد
يه ستراً و حجاب من
النار آمين

القرآن، ٥٦، ٤٩-٥٠

إن بساطة الإطار والكتابة، المنحوتة في سبيل الإحتياط، على خلفية منقّطة، تؤكد أن هذه الشاهدة ترقى إلى القرن العاشر. ولا زالت الصياغة تتسم بالبساطة: البسملة، والصلاة على محمد وآله، آية قرآنية، ليكون {الإسم} «لوالديه ستراً وحجاباً من النار»
C. J.

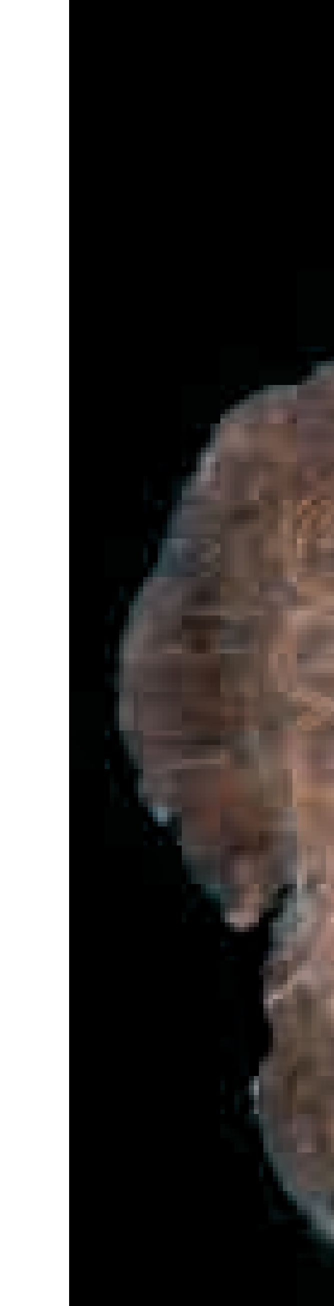
٢٩٠. شاهدة قبر أسماء بنت أحمد
القرن العاشر
حجر البزلت
٨١ x ٥٢ x ٩ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٢٦٠

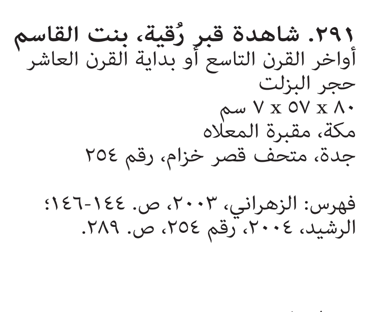
فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ٢٨٦-٢٩٠؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٢٦٠، ص. ٢٩٥.

بسم الله الرحمن الرحيم اللّه
لا إله إلا هو الحيّ القيّوم لا تأ
خذه سنة و لا نوم له ما في السمو
ات و ما في الأرض من ذا الذ
ي يشفع عنده إلا بإذنه
يعلم ما بين أيديهم و ما
خلفهم و لا يحيطون بشيء
من علمه لا بما شاء وسع كر
سيه السموات و الأرض
و لا يؤده حفظهما و
هو العلى العظيم* هذا قبر
أسماء بنت أحمد بن عليّ بن
داؤد بن جعفر بن سليمان
بن عليّ بن عبد الله بن العبا
س بن عبد المطلب ر
ضى الله عنهما

* القرآن، ٢، ٢٥٥

هنا أيضا، تكشف شاهدةُ القبر عن وضع امرأة تنتمي إلى عائلة عريقة: أسماء، بنت أحمد، بن علي، بن داود، بن جعفر، بن سليمان، بن علي، بن عبدالله، بن العباس، بن عبد المطلب، أي من نسل العباس، عم النبي، وسلف الخلفاء العباسيين الذين حكموا آنذاك الأمبراطورية الإسلامية.
C. J.





٢٩١. شاهدة قبر رُقية، بنت القاسم
أواخر القرن التاسع أو بداية القرن العاشر
حجر البزلت
٨٠ x ٥٧ x ٧ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٢٥٤

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ١٤٤-١٤٦؛
الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٢٥٤، ص. ٢٨٩.

بسم
الله الرحمن الرحيم
لقد كان لكم فى رسو
ل الله أسوة حسنة لمن
كان يرجوا الله و اليوم
الآخر و ذكر الله كثيرًا*
هذا قبر رقية بنت القسم
بن إبراهيم بن إسمعيل بن إبرهيم
بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن
أبى طالب رحمة الله عليها
و رضوانه و ألحقها الله
بجدّها محمّد و سلفها آمين

* القرآن، ٣٣، ٢١

هذه الشاهدة المتواضعة الشكل، تقدّم بالتفصيل النسب العريق للمتوفاة، التي تتحدر من نسل علي، ابن عم الرسول وصهره، عبر ابنه الحسن؛ وقد أثبتت بذلك تسعة أجيال: رقية، هي بنت القاسم، بن إبرهيم، بن إسمعيل، بن إبرهيم، بن الحسن، بن الحسن، بن علي، بن أبي طالب. وكان عدد كبير من ذرية علي، يقيمون في مكة، وقد دُفنوا في مقبرة المعلاه. وكانت إحدى بنات النبي محمد من زوجته الأولى خديجة، تدعى رُقية.
C. J.

٢٩٢. شاهدة قبر محمد، بن العباس، بن محمد، بن عتبة، بن الحسن
نهاية القرن التاسع- بداية القرن العاشر
حجر البزلت
٧٥ x ٣١ x ٣٣ سم
موقّعة :«كتب إبراهيم»
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ١٩٤

فهرس: الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ١٦٥-١٦٨؛ الرشيد، ٢٠٠٢، ص. ٦٦-٦٧؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ١٩٤، ص. ٢٢٧.

فوق القوس، توقيع الحِرَفي (الخطاط):

كتب إبراهيم

بسم الله
الرحمن الرحيم
قل هو الله أحد
الله الصمد لم يلد
و لم يولد و لم يكن
له كفؤا أحد* اللهمّ
إذا جمعت الأوّ
لين و الآخرين لميقا
ت يوم معلوم** فا
جعل محمّد بن العبّا
س بن محمّد بن
عتبة بن الحسن
من رفقاء محمّد فى
جنات النعيم يا
[أ]رحمن الراحمين آمين
ربّ العالمين

* القرآن، ١١٢
* القرآن، ٥٦، ٤٩-٥٠

ان هذا النقش الذي لا تنطوي صيغتُه على خصائص محددة (البسملة، آيات قرآنية مألوفة، اسم المتوفي، والدعاء الأخير)، يتميّز بجمال خطه الدقيق وتناسقه، وتوقيع صانعه (الخطاط و/أو النحات)، فهو فريد بين شواهد القرون الأولى في مكة.
C. J.





٢٩٣. شاهدة قبر علي، بن أبي الرضا، بن جعفر، بن القاسم، بن الأشج العيدي،
٢٠ جـمادى الآخرة، ٤٧٨ هجري/ ١٣ اكتوبر ١٠٨٥
حجر البزلت
٦٦ x ٤٢ سم
مكة، مقبرة المعلاه
متحف مكة المكرمة للآثار والتراث، رقم ٧٠

فهرس: الحارثي، ٢٠٠٥، رقم ٧٠، ص. ٨٤.

بسم الله الرحمن الريم
الله لا إله إلا هو ليجمعنكم
إلى يوم القيامة لا ريب فيه و من
أصدق من الله حديثاَ
هذا قبر علي ابن أبي الرضا ابن
جعفر ابن القاسم ابن الأشج
العيدي
توفي في يوم الأحد لعشر ليال
بقين من جمادى الآخرة من
سنة ثمان و سبعين و
أربعمائة
رحمه الله و غفر له و لوالديه
و لكافة المسلمين و صلى الله على محمد
النبي و آله و سلّم

ان هذه الكتابة المزوّاة المتطورة، المعقدة الرسم، تشهد على بحوث زخرفية جديدة في القرن الحادي عشر. وينبسط النص الأكثر تطوراً، وفق التالي: البسملة، الشهادة، دعاء تقيّ، اسم المتوفي و«هذا قبر ... توفي ...»، دعاء ليرحمه الله وسلام وصلاة على محمد وآله.
C. J.

٢٩٤. شاهدة قبر والد وابنته
منتصف ذو الحجة، ٥١١ هجري/ابريل ١١١٨
حجر البزلت
٦٦ x ٤٥ x ٦ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم B ٢٥١

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٢، ص. ٨٢-٨٣؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم B ٢٥١، ص. ٢٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم
كلّ من عليها فان و يبقى وجه
ربّك ذو الجلال و الإكرام*
هذا قبر راجح بن يحيى إبن
حسن بن أحمد إبن عبد
الله السديدى (الشديدى) الحسنى
و دفنت عليه إبنته منيفة إبنت
راجح بن يحيى توفّيت يوم النصف
من شهر الحجّة في سنة إحدى
عشر و خمسمائة رحمهما الله
و ألحقهما بنبيّهما محمّد صلّى
الله عليه و آله

* القرآن، ٥٥، ٢٦-٢٧

بعد البسملة وآية قرآنية، يوضح النص ما يلي: «هذا قبر راجح بن يحيى بن حسن بن أحمد بن عبدالله السديدي (الشديدي) الحسني. ودفنت عليه ابنته منيفة ... توفيت في منتصف شهر ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، رحمهما الله ...». يُظهر الخط تطوراً واضحاً نحو الأسطر المرنة التي مهدت الطريق للخط النسخي. ويتضمن الوجه الثاني شاهدة أقدم، باسم شخص يُدعى محمد بن الحارث، ويمكن أن ترقى إلى القرن العاشر.
C. J.





٢٩٥. شاهدة قبر يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أبو الفتح
٥ شعبان ٥٩٥ هجري/٢ يونيو ١١٩٩
حجر البزلت
٧٦ x ٤٢ x ٢٠ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٤١١ A-B

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤١١ B، ص. ٤٥١.

لقد أعيد استخدامُ هذه الشاهدة: فعلى وجهها الثاني ثمة شاهدة قبر أقدم، يمكن تأريخها بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر، باسم المدعو علي الذي كان عطّاراً. وعلى رغم أن الشاهدة لا تحمل توقيعاً، يربطها أسلوبُ الكتابة وزخرفة مشكاة المحراب، بإنتاج أبي حرمي المكي. وقد يفيد هذا الاستشهاد الشعري أن الشاب أندلسي الأصل، الا اذا تأكد انتشار هذا الشعر في الأوساط المثقفة بالحجاز.

C. J.، حسب J. Chabbi وع. شيخ موسي [٢]

على طرفي السراج:
الصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي وعلى آله

على محيط القوس (القرآن، **١١٢**):

قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد

ثم قصيدة رثاء على البحر الخفيف:

متن النص:
(القرآن، **٥٤**، ٥٤)

بسم الله الرحمن الرحيم
إنّ المتقين في جنّات و نهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر
أيّها العادلون بالله مهلا لا تلحوا فلست أقبل عدلا
لو أتاكم من القضاء ما أتاني لغدا الدمع منكم مستهلا
قصمتني نوائب الدهر حتى تركتني النوح و الحزن أهلا
فرقت بيننا و بين الأحبّاء أنا بالموت منهم كنت أوّلا
فمن بعدهم ألذّ بعيش أترى من بقربهم أتسلا
موت يا موت لم تدع لي خدنا أتسلا به و لم تبق خلا
[...] موت يا موت قد عيشى كبدى من فراق
و لقد أودع التراب جمالا و كمالا طرفا و عقلا
قف بنا في القبور كل من كان ذو جمال و نبلا
أهل ودي و صفوتي هل أطقتم بعد ... الشباب.... حملا
رحمه الله و السلام عليه و سقا قبره من المزن هطلا
هذا قبر الشابّ المفارق الأهل
و الأحباب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أبى الفتح
توفّى يوم الأربعاء الخامس من شعبان سنة خمس و تسعين و خمسمائة

الجوانب، قصيدة لإمام المذهب المالكي في الفيرة بإسبانيا، إبن أبي زمنين [١] :

على الجوانب:

الموت في كلّ يوم ينشر الكفن و نحن فى غفلة عما يراد بنا ÷
لا تطمئن إلى الدنيا و بهجتها و لواتشحت من اثوابها الحسنا /
أين الأحبّة و الجيران ما فعلوا أين الذين هم كانوا لنا سكناً ÷
سقاهم الموت كأسا غير صافية و قصيرتهم الأطباق الثرى رهنا

١. إبن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإلبيري، المولود سنة ٣٢٤ هجري/٩٣٥-٩٣٦ ميلادي، والمتوفي سنة ٣٩٩ هجري/١٠٠٨ ميلادي، هو فقيه مالكي ومتصوف، له مؤلفات منها كتاب المواعظ والنصائح المنظومة والمهذب في اختصار شرح إبن قرين للموطأ؛ وهو شاعر. وقد نقل هذه الأبياتِ عددٌ من المؤلفين، بفروقات طفيفة جدا. أنظر الذهبي، ١٩٩٦، ص. ١٨٨-١٨٩.

٢. أوجه شكري الجزيل إلى كل من Gabriel Martinez-Gros وJacqueline Chabbi وعبدالله شيخ- موسى، الذين قد تفضلوا وانكبوا على هذا النقش. وترجم النصَ العربي، J. Chabbi وع. شيخ- موسي اللذان زوداني أيضاً بالمعلومات عن ابن زمنين. وهما يستحقان هذا التنويه.

٢٩٦. شاهدة قبر الفقيه جمال الدين أبي عبدالله محمد
الخميس ١٠ جمادى الأولى ٥٩٢ هجري/١١ ابريل ١١٩٦
حجر البزلت
٨٤ x ٣٨,٥ x ٢٢,٥سم
بتوقيع: «عبد الرحمن وابن أخيه محمد»
مكة، مقبرة المعلاه
الرياض، المتحف الوطني، رقم ٦٦٦

فهرس: غير مطبوع

في الإطار الداخلي، ابتداء من الأسفل إلى اليمين: القرآن، **٤١**، ٣٠-٣٢.
في الإطار الخارجي، ابتداء من الأسفل إلى اليمين: القرآن، **٣٩**، ٧٢- ٧٥.
من جانبَيْ القوس المتعدد القويسات:

[...]عمل عبد الرحمن و ابن اخيه محمد عفى الله عنهما و عز

في الوسط:

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى على نبيه محمد
و ما جعلنا لبشرٍ من قبلك الجلد
فان مت فهم الخالدون* و الذين
جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
و ان الله لمع المحسنين**
هذا قبر الامام الفقيه
العالم العابد الزاهد الورع
جمال الدين ابي عبد الله محمد
بن عبد الله بن الفتوح بن محمد
المكناسي المحاصي امام المالكية بحرم الشريف توفي
يوم الخميس العاشر من جمادى الاولى من سنة اثن و تسعين و خمسمائة رحمه الله[...]

* القرآن: **٢١**، ٣٤-٣٥
* القرآن: ٢٩، **٦٩**

أضيفت شاهدةُ القبر الفريدة هذه إلى مجموعة النقوش التي أنجزها عبد الرحمن أبي حرمي المكي وآخرون من أفراد أسرته. فزينتها تتسم بدقتها الفائقة والأنيقة، وتنتمي إلى مجموعة ثانوية من إنتاجهم وقد استخدموا فيها شرائط عريضة مثلثة الخيطيات للإطارات، وقوساً بصلي الشكل. وتنتمي إلى هذه القوس أيضا، شاهدةٌ محفوظة في المتحف البريطاني، قريبة جداً من هذه الشاهدة [١]. وتُسهب هذه الشاهدة في استخدام آيات قرآنية، تتلاءم مع ظروف وفاة فقيه. وفي ما يشكل دليلاً على الإتجاه الذي ساد القرن الثاني عشر، ألحقت باسم المتوفى مجموعة من النعوت والإيضاحات المتعلقة بوظيفته: «الإمام الفقيه، العالِم، العابد (لله)، الورع، جمال الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن الفتوح بن محمد المكناسي (من مكناس، في المغرب)، إمام المالكية بالحرم الشريف». لذلك فهو شخصية دينية مرموقة في مكة، وامام الصلاة لأتباع المذهب المالكي، أحد المذاهب السنية الأربعة، السائدة خصوصاً في بلاد المغرب العربي. واسم هذه الشخصية هو محمد، أما «جمال الدين» فهو نوع من اللقب، كما بدأ يستخدمه كبارُ رجال الدين مقلدين بذلك رجالات النخبة من عسكريين ومدنيين.
C. J.

١. بيطار، ٢٠٠٣، صورة ٥٠، ص. ١٣٧.



٢٩٧. شاهدة قبر الشيخ أبو بكر، بن محمد، بن إبراهيم الطبري
٨ ذو الحجة ٦١٣ هجري/١٨ مارس ١٢١٧ ميلادي
حجر البزلت
٤٢ x ٣٧ x ٧ سم
توقيع من عبد الرحمن بن أبي حرمي
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٤٥٣

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٢، ص. ٨٦-٨٧؛ الزهراني، ٢٠٠٣، ص. ٣٥٧-٣٦٤؛ الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤٥٣، ص. ٤٩٨.

لا إله إلا الله و الحمد لله
بسم الله الرحمن الرحيم
و من يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله و رسوله ثمّ يدركه
الموت فقد وقع أجره على الله و كان الله غفورا رحيماً *
هذا قبر الشيخ الصالح الموفق السعيد
أبو بكر بن محمّد بن إبراهيم الطبرى توفي بعرفة
بالموقف يوم الثامن من ذى الحجة من سنة ثلاثة عشر و ستمائة
و هو محرم رحمه الله رحمة واسعة و جميع المسـ[ـلمين]
و صلّى الله على محمّد و على الله و سلّم

* **القرآن: ٤ ، ١٠٠**

على الإطار الاسفل (توقيع):

عمل عبد الرحمن بن أبى حرمى عفى الله عنه و عن جميع المسلمين و المسلمات آمين
و صلى الله على رسوله سيّدنا محمّد و على آله

تشغل شاهدة القبر هذه مكانة مميزة، فقد ورد ذكرُها في كتابين يرقيان إلى القرن الخامس عشر. الأول هو دليل لمقبرة المعلاه الذي وضعه الشايبي، والثاني هو تاريخ مكة للفاسي (أنظر ص. ٤٩٢). ويقدم لنا هذان الكتابان معلوماتٍ إضافية عن نشاط هذا الشخص الذي كان قاضياً ومفتياً. فهو يتحذر من طبريستان في شمال غرب إيران، وهاجر إلى مكة في ١١٧٠. أسس سلالة من القضاة الشافعيين في المدينة المقدسة، وكان أشهرهم ابن حفيده أحمد (١٢١٨- ١٢٩٥) [١]. ويـُعدّ شكلُ الشاهدة، المحفورة في إطار رصيعة دائرية، أمراً نادراً جداً، مستوحى على ما يبدو من زخرفات المخطوطات القرآنية، كالإشارات على هوامش صفحاتها التي تدل على ترصيد عدد الآيات؛ وثمة شاهدتان أخريان معروفتان، هما نقش تأسيسي يحمل أيضاً توقيع عبد الرحمن بن أبي حرمي، ومحفوظ في متحف مكة المكرمة للآثار [٢]، وشاهدة قبر مكسورة من دهلك، للنقـّاش نفسه على الأرجح [٣].
C. J.

١. أنظر Bauden، «الطبري»، EI٢، مجلد.١٠، Leyde، ١٩٩٨، ص. ١٦-١٧.
٢. أنظر الفعر، ١٩٨٤، ص. ٣٢٢-٣٢٨، وص. ٤١١ و٤٣٣.
٣. Schneider، ١٩٨٣، رقم ٢٣٣، لوحة CXXXIII B.



٢٩٨. شاهدة قبر الشيخ عفيف الله بن عبدالله، بن علي، بن سليمان، بن عـرفة الـمكي
٧٦٧ هجري/١٣٦٥-١٣٦٦
حجر البزلت
٥٠ x ٥٧ x ٢٢ سم
الرياض، المتحف الوطني، ٦٠٢

فهرس، واشنطن، «نسخ ٠٣»

متن النص:

بسم الله الرحمن الرحيم
يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان
وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها
أبدا إن الله عنده أجر عظيم
هذا قبر الفقير إلى الله تعالى
المتعترف بذنبه التائب إلى ربه أبو الفقراء
والمساكين واليتامى والمنقطعين الشيخ عفيف الله بن
عبد الله بن على بن سليمان بن عرفه المكي
توفى إلى رحمة الله تعالى يوم "السادس" من
سنة سبعه وستين وسبع مايه

في إفريز الإطار: القرآن، ٢، ٢٥٥

تنسحب شاهدة القبر هذه، على رغم قِـدَمِـها، في سياق استـمرارية إبـداعات نـهاية القـرن الثالث عشر. وتذكـّر زخرفةُ العارضات الركنية للقوس، بالمشربيات. وتجمع الشاهدة بين فقرات قرآنية ونسب المتوفى الذي أضيفت إليه نعوتٌ ورعة: «الفقير إلى الله، المعترف بذنبه، الـتائب إلى ربـه، أبو الـفقراء والـمساكين واليتامى...»
C. J.



٢٩٩. شاهدة قبر عبد العزيز، بن يوسف، بن عبد العزيز السلطاني
٦ جمادى الثانية، ٨٤٤ هجري/ ٢ نوفمبر ١٤٤٠
حجر البزلت
٩٤ x ٣٨ x ١٠ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٣٥٠

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٣٥٠، ص. ٣٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم
كلّ من عليها فان و يبقى وجه ربّك ذو الجلال
و الإكرام* هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفو ربّه
عبد العزيز بن يوسف بن عبد العزيز السلطانى
توفّى إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد ستّ جمادى الآخر
سنة أربع و اربعين و ثمانمائة و لسان حاله يقول
قفا على قبرى أن جزتما [برفقة] طيبة صالحة
و أذكرانى بجميل الثناء و أقرو لي سورة الفاتحة

القرآن، ٥٥، ٢٦-٢٧

يـُعد شكلُ القوس المكسور للمساحة المحفورة صدىً لشواهد القرن الثاني عشر- الثالث عشر، فيما تتبنى الكتابة، حسب الأماكن، طابعاً فخماً خاصاً بالحقبة المملوكية. وبعد البسملة والآية القرآنية، تسمي الشاهدةُ المتوفى «الراجي عفو ربه» وتحدد تاريخ الوفاة، ثم تخلص إلى مخاطبة المارّة، طالبة منهم تذكّر المتوفى وتلاوة الفاتحة على قبره. C. J.

٣٠٠. شاهدة قبر التاجر نظام الدين محمود السلطان الكيلاني
شهر رجب {٩} هجري/ أغسطس ١٥٤٨
حجر البزلت
٧٦ x ٣٧ x ١٢ سم
مكة، مقبرة المعلاه
جدة، متحف قصر خزام، رقم ٤٠١ A-B

فهرس: الرشيد، ٢٠٠٤، رقم ٤٠١ B، ص. ٤٤٠.

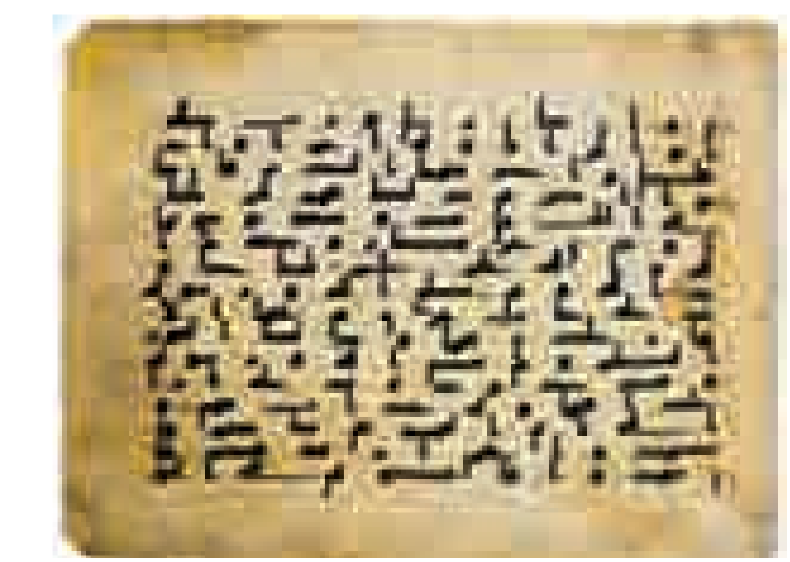
هو
الباقى و كلّ شىء هالك
و ما الدهر إلا هكذا
فاصطبر له أحباب دعوة
الحقّ الصدر المحترم الوجيه
المحسن الخواجا نظام الدين
محمود السلطان الكيلانى
نزيل مكّة الشرفة تغمّده بالرحمة
يوم الجمعة [عشرة] رجب سنة خمسة و خمسينب...

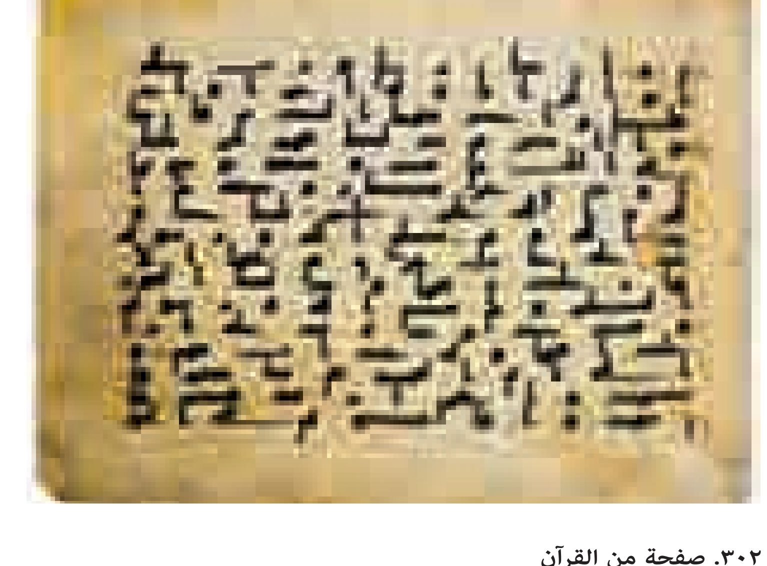
إن الخط البالغ الاتقان، الى جانب بعض الحروف التي تخرج بطريقة مدروسة من الإطار المتعدد التقويسات، وكذلك الصيغة الأصلية، «هو الباقي» يعكس، على ما يبدو، التأثير العثماني، ويتيح استعادة رقم المئات الوارد في التاريخ الذي اصبح غير مقروء. ويتألف النص من صيَغ وجيزة بما فيها اسم المتوفى، يليه تاريخ الوفاة. ويعطي من جهة أخرى صفة هذه الشخص الذي كان خواجا. إن هذه اللفظة التي نقرأها في المصادر ابتداء من القرن الخامس عشر، تشير على ما يبدو إلى التجار الأثرياء على صعيد التجارة في الشرق، وغالباً ما يكونون من تجار الرقيق. وكانت نسبة كبيرة بينهم من اصل ايراني؛ وهذا ما ينطبق على هذا التاجر الذي تدل نسبتـُه «الكيلاني» أنه جاء من جيلان، في شمال غرب إيران. وربما ينتمي إلى مجموعة (سلالة؟) من الخواجات الذين يحملون النسبة إياها، واستقروا في مكة منذ بداية القرن الخامس عشر [١].

وهذه الشاهدة معاد استخدامها. فالوجه الآخر للشاهدة يفيد أنها كانت شاهدة قبر (شملا) المتوفى في ١١٢٩، إبن الأمير فوليطة بن القاسم، شريف مكة آنذاك.
C. J.

١. Mortel، ١٩٩٤.







٣٠٢. صفحة من القرآن
القرن العاشر
حبر على الرقّ
١٩,٤ x ٢٥,٢ سم
١٦ سطراً في الصفحة
سورة النساء، ١٢-١٩
مجهولة المصدر
الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٥٨٠
(مخطوطة مقدمة إلى الملك فهد)



٣٠٣. القرآن
تركيا، القرن السادس عشر
حبر وذهب على ورق
تركيا
الرياض، المتحف الوطني، ٢

إن هذه النماذج الثلاثة للمخطوطات القرآنية، توضح التطورات التي لحقت بالخط وتشكّل رديفاً لنقوش الشواهد المأتمية. فمنذ بدايات الإسلام، استأثرت الكتابات القرآنية باهتمام خاص، شمل وضع معايير الخط وحجم الحروف والبحث عن جماليةٍ وضخامة بالغة وإيقاع على مساحة الكتابة. وتكشف مخطوطات القرنين التاسع والعاشر عن تفضيل للبعد الأفقي، «على الطريقة الإيطالية». وغالبا ما تُضفى على قدسية النص وإتقان المخطوطة، فخامة مستمدة من الحبر المذهّب (د. المعرض رقم ٣٠١). وكان الخطاطون في القرنين التاسع والعاشر، يفضلون، سواء للمخطوطات القرآنية أو للنقوش، خطاً مزوّى، يسمى الخط الكوفي، ذو سطرٍ اوسط افقيّ تماماً. وفي المقابل، تُعدّ التطورات الزخرفية لهذه الكتابة واستخدام العناصر النباتية، من خصائص النقوش على الحجر، وهي ليست موجودة في المخطوطات. ويمكن أن يكون الإخراج مهوّىً جداً أو أشد تكدساً، كما على الورقة المنجزة بالحبر الأسمر (د. المعرض رقم ٣٠٢)، حيث تميل السطور المضغوطة إلى الإختلاط، بعضها بالبعض الآخر. ويظهر فيها ترقيمُ إشاراتِ الحركات التي تميِّز بين الأحرف (سِمات دقيقة صغيرة) وحروف العلة (نقاط ملونة)، التي تظهر بشكل غير مكتمل.

فابتداء من القرن الثاني عشر، اعتمدت المخطوطات القرآنية في الواقع حرفاً أشد مرونة، مدوّرا، يسمى خطاً سريعاً. وتُعتبر مخطوطة من القرن السادس عشر (د. المعرض رقم ٣٠٣) شاهداً على ذلك. نجد فيها التآلف بين الحبر الداكن والذهب، وقد أظهرت جمالَه، لمساتٌ زرقاء وحمراء. إن حركات ضبط اللفظ محددة بدقة، للحؤول دون وقوع أي خطأ في القراءة. وأمّن الديمومةَ إخراجٌ مرتب بعناية، ومركَّبٌ على وتيرة أشرطة تضم حروفاً كبيرة، تتناقض مع متن النص المكتوب بحروف صغيرة، وفق طريقة غالباً ما نجدها في الشواهد المأتمية ابتداءً من القرن الثاني عشر. C. J.

٣٠١. ثلاث صفحات مزدوجة من القرآن
القرن التاسع
حبر وذهب على الرقّ
١٤,٥ x ٤٠ سم (الورقة المزدوجة)
خمسة أسطر في الصفحة
مجهولة المصدر
الرياض، المتحف الوطني، د. ر.

الأماكن المقدّسة في الحجاز

في عهد العثمانيين

أ. د. جيل فاينشتاين

خادم الحرمين الشريفين

بعد انهيار الإمبراطورية العباسية، استقلت مدينتا الحجاز المقدّستان، أي مكة والمدينة، وباتتا تخضعان لسلطة سلالتين من الأشراف، أي من ذرية الرسول. ونظراً لموقعهما الفريد في صلب الديانة الإسلامية، اجتذبت المدينتان المقدّستان أعداداً كبيرة من الناس، ولاسيما بمناسبة موسم الحج السنوي الكبير، ولكنهما لم تكونا قادرتين على تأمين احتياجاتهما أو الدفاع عن نفسهما بنفسهما، وذلك نظراً لما كانتا تعانيانه من نقص في الموارد. فكانتا بالتالي مضطرتين إلى طلب الحماية من الدولة المسلمة الأكثر قدرة على سدِّ عَوَزِهما. ودار التنافس بين الدول الإسلامية، وكانت المساعدة المقدّمة للحرمين الشريفين تؤول إلى منح صلاحيات رمزية كانت تضع الجهة المستفيدة منها في المرتبة الأولى بين الأقطاب المسلمين. وبعد تفوق سلاطين المماليك على منافسيهم والذين كانوا يسيطرون على الحكم في مصر وسوريا، محققين النصر للإسلام بدحر الصليبيين النصارى والمغول الملحدين، استطاعوا ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر، فرضَ نوع من السيادة الإقطاعية على الحجاز. وبالتالي، فقد لقّبوا أنفسهم بلقب (أخذوه عن سلالة الدولة الأيوبية) وهو «خادم الحرمين الشريفين» الذي أضفى عليهم نوعاً من التفوق السيادي على غيرهم من المسلمين. وهكذا، فقد شهد عصر المماليك وضعَ وتحديدَ الحقوق والواجبات المرتبطة بهذا المنصب الذي يبدو متواضعاً من حيث المظهر، ولكنه في الواقع من أكثر المناصب هيبة ووقاراً. ولطالما كانت هذه الحقوق والواجبات مختلطة بشكل يصعب معه التمييز بينها، إذ أن الواجبات – مهما تكن وطأتها وكلفتها – كانت بمثابة امتيازات يتم الدفاع عنها بغيرة. وهكذا، فإن المماليك تفوقوا على سواهم من الحكام المسلمين بفضل مساهمتهم في الصدقات المخصصة للفقراء بمكة. وكان المال الذي يدفعونه لهذا الغرض يعرف باسم الصرّة. وفضلاً عن ذلك، كانوا مسؤولين كل سنة عن توفير الكسوة، أي الستائر الخارجية السوداء، المزخرفة بالنقوش، والمستخدمة لتغطية جدران الكعبة في مكة. وكان اسم السلطان المملوكي الحاكم يذكر في الأماكن المقدّسة أثناء خطبة صلاة الجمعة. وأخيراً، بناءً على ابتكار جاء بمبادرة يبدو أنها تعود إلى السلطان بيبرس، تم تزويد كافة قوافل الحجاج المتجهة إلى مكة بما يسمى «الـمَحمَل» (تلفظ «مَحمِل» أو «مِحمِل» لدى العثمانيين). وكان هذا المحمل، مرفقاً بالراية، يشكل علامة ملك البلاد التي أتت منها القافلة. ويعطي مثالٌ يعود



منظر باحة جامع المدينة، تصوير صادق باي، حوالى ١٨٨٠، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز

إلى بداية القرن السادس عشر، محفوظ حالياً في قصر توبكابي في اسطنبول، فكرةً ملموسة عن هذا النوع من المقصورات المحمولة على ظهور الجمال: ويتكوّن المحمل من مكعّب مستطيل الشكل يبلغ ارتفاعه ١,٥٠ متر ويعلوه هرم ارتفاعه ١,٧٥ متر، ويغطي الهيكلَ بكامله قطعةٌ من الحرير تنوّع لونها مع مرور الزمن. وكان سلطان المماليك يرسل محملين كل عام، نظراً لانطلاق قافلتين من الإقليمين التابعين له، أي القاهرة ودمشق. ولدى وصول هذين المحملين إلى مكة، ونظراً لكونهما يخصان خادم الحرمين الشريفين، فإنهما كانا يتمتعان بالأولوية على محامل الحكام الآخرين خلال مراسم الحج. وفضلاً عمّا تقدّم، فإن المحمل الآتي من القاهرة كان يتمتع بالأولوية على ذاك الآتي من بلاد الشام. ومع مرور الزمن، في القرن الخامس عشر، بدأت السلالات الإسلامية الصاعدة تشكّك بهذا التفوق المملوكي، مثل السلالة التيمورية وسلالة آق قوينلو، وبالطبع السلالة العثمانية.

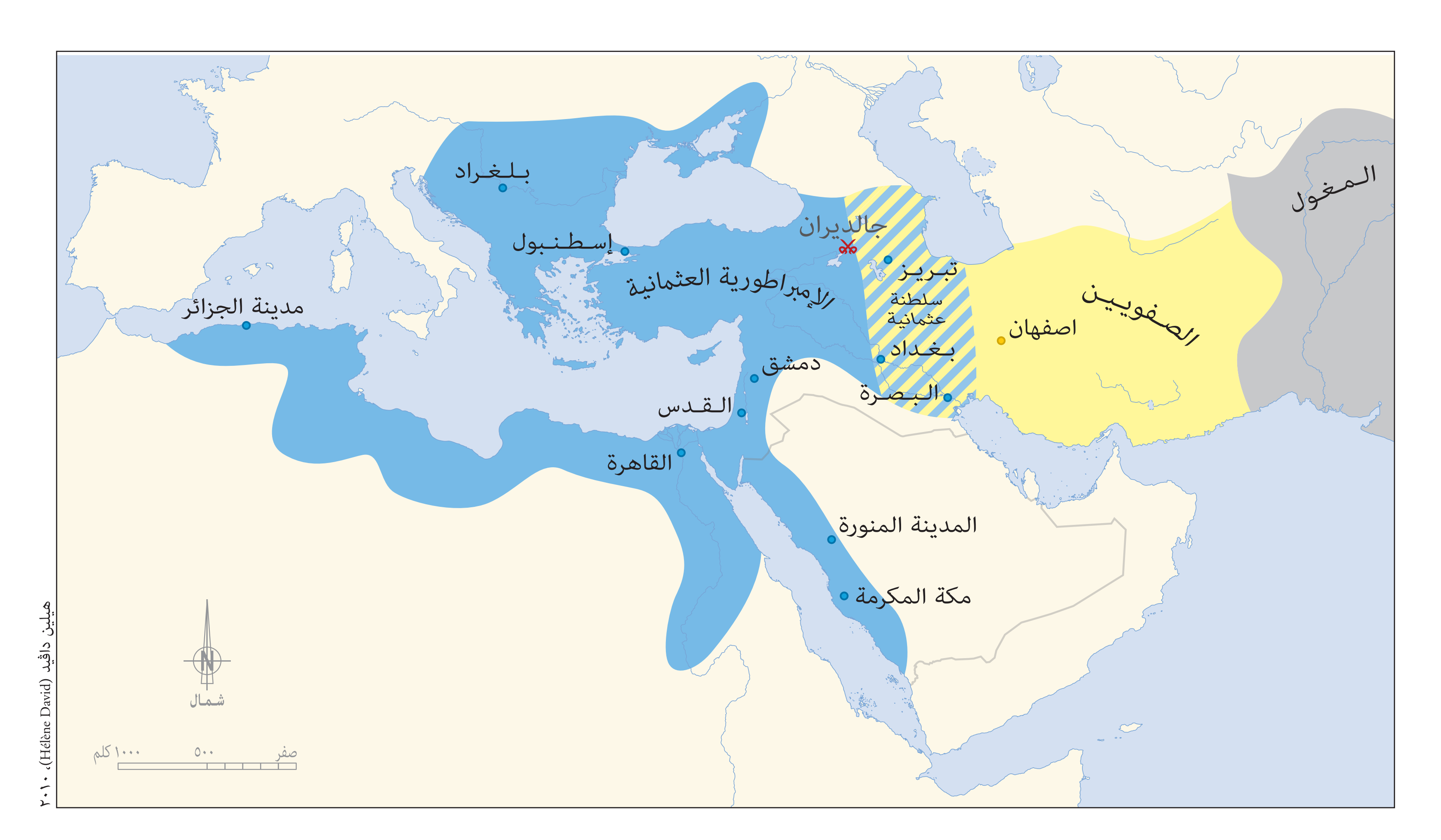
ولكن، في بداية الأمر، كان العثمانيون، ذوو الأصول الغامضة الآتون من شمال غرب آسيا الصغرى، لا يكنون سوى الإجلال والتقدير لأسلافهم. وغداة فتح القسطنطينية في العام ١٤٥٣م، لا شك أن السلطان العثماني محمد الثاني تبجّح عند إعلانه النصر إلى السلطان المملوكي بأنه «الذي يتكفل بمشقّة تجهيز أولئك الذين يعملون على إحياء الجهاد» ولكنه أعرب في الوقت ذاته عن احترامه لمراسله المكلّف بمهمة أكثر قداسة: «التكليف الموروث من أبيه وأسلافه ليعيد مجدداً إحياء مراسم الحج إلى مكة».

بيد أن تعدد ما حققه محمد الثاني من نجاحات عزز ثقته بنفسه وطموحاته، فأضحى أكثر عدائية إزاء المماليك، فنازعهم النفوذ في شرق الأناضول وطالب بالتدخل، هو أيضاً، في مناطق النفوذ المخصصة لهم، أي على حلبة الأماكن المقدسة حيث كل عمل يأتيه المرء يشكل رمزاً. واستناداً إلى ما زعمه الراوية سعد الدين، فإن أحد أسباب الخلاف مع المماليك الذي بدأت تشهده السنوات الأخيرة من عهد محمد الثاني يعود إلى رفض المماليك السماح للسلطان العثماني بالمشاركة في أعمال تصليح وصيانة مجاري المياه في مكة.

وفي حكم السلطان التالي، بايزيد الثاني، نشبت بين السلطنتين حرب طويلة وغير واضحة المعالم (١٤٨٥م-١٤٩١م) بشأن السيطرة على قيليقية. بيد أن تبدلاً على الصعيد الكونيّ بأسره أدى، بعد فترة قصيرة، إلى قلب الموازين وأعاد فتح الطريق مؤقتاً نحو التضامن الإسلامي بين المتخاصمين، إذ اضطر المماليك إلى مواجهة التحدّي الناشئ عن التوسع البرتغالي في المحيط الهندي، على قاب قوسين من سواحل البحر الأحمر. ولم يؤدّ فتح البرتغاليين للطريق البحري إلى تقويض حاجة قوافل تجارة التوابل وغيرها من المواد الغذائية المستوردة من الشرق الأقصى إلى المرور بمنطقة الشرق الأوسط فحسب، بل عرّض أيضاً الأماكن المقدّسة إلى خطر الهجوم من جانب الكفرة. فقاد سلطان المماليك قنصوه الغوري انتفاضة حقيقية عملت على تعزيز الدفاعات حول جدة وجهّز أسطولاً بحرياً دحر البرتغاليين في آذار/مارس ١٥٠٨م.

ولكن هذا النجاح لم يتمكن طويلاً من إخفاء نقاط ضعف حكم المماليك، لاسيما في المجال البحري، إزاء خطر من هذا القبيل. عندئذ، وعلى الرغم من العداء القائم بينهما، قدّم السلطان العثماني بايزيد الثاني المساعدة التامة والكاملة للعاهل المملوكي. فوفّر له كميات كبيرة ممّا كان في حاجة ماسة إليه من مواد وخبراء – بيد أن هذا الكَرَم ربما لم يكن متجرّداً، وما زال المؤرخون غير متفقين على تفسيره. وواصل السلطان سليم الأول، الخلف المقدام لبايزيد، تعزيز هذا التعاون قبل أن يطرأ على موقفه تغيّر جذري. فبعد أن هزم الشاه إسماعيل، حاكم الشيعة في بلاد فارس، نتيجة نزاع ديني وإقليمي على حدٍّ سواء في موقعة جلدران عام ١٥١٤م، انقلب سليم الأول على المماليك في حملة ضخمة دامت سنتين (١٥١٦م-١٥١٧م) وغيّرت وجه الشرق الأوسط.

ولتبرير اعتدائه هذا، احتج سليم بوجود تواطؤ بين المماليك وبين الملحدين الفرس. غير أن ذلك لا يبدل الواقع القائل بأن الحرب الضارية التي شنها كانت ضدّ شعوب سنية أصيلة وبأنه، بفضل هذا الانتهاك الصارخ للشريعة الإسلامية، استطاع نتيجة مفارقات تاريخية أن يحصد فوائد مادية ورمزية هائلة أدّت إلى تبديل عميق في موقع العثمانيين داخل العالم الإسلامي.



خريطة الإمبراطورية العثمانية في القرن السابع عشر

من المماليك إلى العثمانيين

كان سليم يظن أن نصره على المماليك يجعل منه، بحكم الواقع، خادم الحرمين الشريفين، ويمنحه كافة الحقوق المرتبطة باللقب. وقد أعرب عن موقفه هذا فور تحقيقه للنصر في مرج دابق شمال حلب في ٢٤ آب/أغسطس ١٥١٦م، بينما كان لا يسيطر سوى على سوريا وبينما كان المماليك، على الرغم من مقتل سلطانهم قنصوه الغوري، لا يزالون يقاومون بقيادة ابن أخيه، طومان باي، الذي تولّى زمام الأمور في مصر. وفي التاريخ المحدد جرياً على العادة، أرسل سليم إلى مكة كسوة – وهي كناية عن ستارة مزخرفة بشريط من النقوش، «تحمل اسم السلطان وأسلافه» (بن طولون). ورغم عدم تمكنه من إرسالها من القاهرة، حسبما جرت العادة، لأن القاهرة كانت ما زالت خارج قبضته، فقد أرسلها من دمشق، بالإضافة إلى محمل مغطى بديباج من الكفة – أي من قماش عثماني إذن – وراية كانت هي أيضاً عثمانية. من جانبه، قام طومان باي، الذي كان لا يزال الحاكم المملوكي الشرعي، بإرسال كسوة أخرى ومحمل آخر من القاهرة، ولكن مع بعض التأخير. في ظل هذه الظروف، استلم شريف مكة، لفترة الحج في العام الهجري ٩٢٢ (١٥٢٢م)، محملاً عثمانياً من دمشق («محمل رومي» كما أشار إليه الراوية قطب الدين) ومحملاً مملوكياً من القاهرة، بالإضافة إلى كسوة عثمانية انطلقت من الشام وأخرى مملوكية أرسلت من القاهرة. وبالنسبة للمحملين، فمن المعروف أن الشريف، الذي كان حريصاً على عدم الانجراف وراء أي من العاهلين المتصارعين، وضعهما إلى جانبي مدرسة قايتباي في مكة، ولكن لا أحد يعرف ما الذي فعله بالكسوتين.

وتوضّحت معالم الأمور كلياً بعد مرور بضعة شهور، أي بعد أن فتح سليم الأول القاهرة وقضى كلياً على دولة المماليك، إثر معركة الريدانية (٢٣ كانون الثاني/يناير ١٥١٧م). وبعد ذلك بفترة قصيرة، أضاف سليم لقب «خادم الحرمين الشريفين» إلى مجموعة الألقاب العائدة له في خطب الجمعة في مساجد القاهرة، كما أمر باستعماله، منذ ذلك الحين، في كافة الظروف.

وإنّ شريف مكة، من جهته، أي بركات الثاني بن محمد بن بركات، وجد نفسه ملزماً بالاعتراف بالأمر الواقع، بعد أن كان قد حافظ على حياد حَذِر. بيد أنه انتظر حلول شهر تموز/يوليه ١٥١٧م ليعلن مبايعته الرسمية عن طريق إرسال ابنه موفداً رسمياً إلى بلاط المنتصر. واستقبل سليم الموفد الرسمي على جزيرة روضة، بالمقربة من مقياس النيل. ووفقاً لأحكام الاتفاق، بناء على أقوال المؤرخ المصري ابن إياس، فإن سليم فوّض الشريف، أمير مكة، «بالقيادة العسكرية للمدينة، وأقر بصلاحياته المطلقة في المدينة وأناط به المسؤوليات التامة فيما يخص إدارة الأسواق. وهكذا، فقد عامله بعدل تام، وفقاً لأقوال المؤرخ، ممّا زاد من هيبة الشريف بركات بشكل فريد إذ أن الاستقبال الذي لقيه ابنه اتسم بقدر كبير من الحفاوة [1].»

ابتداءً من ذلك الوقت، وبعد مائتين وخمس وثلاثين سنة من السيادة المملوكية، أُرسيت السيادة العثمانية على الأماكن المقدّسة لمدة أربعة قرون. وحافظ الشريف على استقلاليته، وأقام علاقات مباشرة مع كافة الدول المسلمة غير السلطنة العثمانية وتلقّى منها التبرعات. بيد أن تعيينه وإقصاءه كانا يجريان على يد سلاطين اسطنبول. وكانت أسماء أولئك تذكر في خطب أئمة مساجد مكة المكرمة. وكان قضاة عثمانيون حنفيون يعيَّنون في محاكم المدينتين المقدّستين حيث كان لهم حق الصدارة على قضاة المدارس السنية الأخرى.

كما كان قضاة عثمانيون معيّنين في مدن أخرى من الحجاز: جدة وينبع والعلا. وكانت منطقة جدة مكوّنة من سنجق، أي من مدينة هي مقر السنجق بيه العثماني. وفي وقت لاحق، أوكلت إلى هذا الأخير مهمة شيخ الحرم في جدة، وذلك لتعزيز سلطته إزاء الشريف. وكان السنجق مرتبطاً بإقليم مصر (إيالة مصر). وبما أن جدة أُدمجت ضمن سلطنة تجتازها تيارات تجارية نشطة جداً، فقد استطاعت جني عائدات جمركية هامة تُرك جزء منها للشريف.

وهكذا، فإن حملات العامين ١٥١٦م-١٥١٧م أحدثت توسعاً هائلاً في الشرق الأوسط، لسلطنة كانت مُقْتَصرةً حتى ذلك الوقت على الأناضول وأوروبا الشرقية. واستكمل سليمان القانوني فرض سيطرة العثمانيين على بلاد العرب عن طريق ضم العراق واليمن وجزء من المغرب العربي. نتيجة لذلك، لم تعد السلطنة العثمانية مجرد «سلطنة الروم»، أي السلطنة الحدودية القائمة على أراضٍ رومية سابقة، بل أضحت خليفة السلطنات المسلمة الماضية ذات الوقار والهيبة.

ولكن، على الصعيد الديني، كما سبق وأشرنا، لم تؤدِّ مآثر سليم سوى إلى إكسابه لقب خادم الحرمين الشريفين فحسب، وليس لقب الخليفة، كما زعم فيما بعد، وفي أوضاع سنعاود النظر إليها فيما يلي.

القوافل والمحامل

استمرت المحامل تنطلق كل سنة مع قوافل الحجاج من دمشق ومن القاهرة، باسم السلطان العثماني. وعلى الرغم من أن السلطان نفسه لم يشارك شخصياً في أي من رحلات الحج، إلاّ أنه كان ممثلاً فيها بصفته هذه. وبقي العثمانيون يحتكرون إرسال المحامل إلاّ في فترة معيّنة وجيزة شهدت إرسال كبار مغول الهند هذه المحامل في زمن «أكبر»، في أواخر القرن السادس عشر. ولكن ألوان الستائر التي غطت هذه المحامل الخشبية تغيّرت من اللون الأصفر المستخدم في زمن المماليك إلى اللونين الأحمر القرمزي والأخضر. وفضلاً عن ذلك، فإن الكريات الذهبية المركّبة على أطراف المحامل ازدادت قيمة في عهدِ العثمانيين، في أوج مجدهم وثروتهم. ولكن ما وردنا من أخبار على ألسن المسافرين الغربيين المارين بالقاهرة ودمشق خلال تطواف المواكب التحضيرية لانطلاق القوافل، ينمّ عن حصول تطور آخر وهو أن المحامل (ولاسيما الكسوات المخصصة لتبقى على احتكاك بالكعبة طوال عام كامل، والحبال المستخدمة لتثبيتها)، بمجرد أنها ستذهب إلى مكة وتشارك في مراسم الحج، لم تعد رموزاً سياسية كما كانت الحال في الماضي، بل أضحت موضع ورع ديني استثنائي أكسبها قدرات تفوق الطبيعة. وتبريراً لهذا الورع، انتشر الاعتقاد – الخاطئ طبعاً – بأنها تتضمن نسخة ثمينة جداً من القرآن.

١. ابن إياس، ١٩٦٠م، ص ١٨٨.

محمل السلطان العثماني عبدالعزيز للعام ١٨٧٤،
متحف توبكابي، ١٣١٩/٢٤، ١٣٥١/٢٤-١٣٦٦

وأدّى الفتح العثماني لليمن، في عهد سليمان القانوني، إلى ظهور قافلة ثالثة من الحجاج الخاضعين للسلطة العثمانية، وبالتالي، إلى إرسال محمل ثالث إلى الكعبة باسم سلطان اسطنبول. ولكن هذه المحامل اليمنية لم ترسل سوى في الفترة الممتدة بين العامين ١٥٤٣م و١٦٣٠م، نظراً لعدم الاستقرار النسبي الذي عرفته الهيمنة العثمانية على ذلك البلد. ولكن ذلك لم يمنع صناعة اللوحات الخزفية المنفّذة في كوتاهيا عام ١٦٦٦م والمركّبة في ثلاثة أماكن مختلفة من قصر توبكابي والتي تعبّر – تعبيراً نظرياً في تلك الحقبة من الزمن – عن انّ المحامل الثلاثة عائدة إلى سيد تلك الأماكن.

وعلى العكس من ذلك، فإن الفتح العثماني لبغداد، في العام ١٥٣٤م، لم يؤد إلى إعادة إرسال محمل «عراقي» باسم السلطان العثماني، كما كانت الحال في عهد الإلخانات (المغول) الذين اعتنقوا الإسلام، والجلائريين والآق قوينلو. على أن أحد الأوامر الصادرة عن «بايلر باي» البصرة في آذار/مارس ١٥٦٥م يذكر القيام، في غداة غزو العثمانيين لتلك المدينة في العام ١٥٤٦م، بإنشاء قافلة لم تكن قائمة على أساس إحدى القافلتين الكبريين الرسميتين، بل كانت تؤم مباشرة مكة المكرمة التي تقع على مسيرة عشرين يوماً فقط من البصرة.

ولكن، نظراً لكون هذه القافلة الجديدة لم تحظ حتى ذلك الوقت بموافقة السلطان حسب الأصول، فإن شريف مكة فرض الإتاوة على أفرادها. وبالتالي فقد رُفعت الشكاوى إلى السلطان (سليمان القانوني) وطالب سكان البصرة بإضفاء الطابع الرسمي على تلك القافلة الرابعة. بيد



طواف امين السر، محفورة
تمثل اللوحة العامة للإمبراطورية العثمانية
للفنان موراجيا دوهسون، طبعة باريس عام
١٧٨٧، مجلد ٢، لوحة ٤٧، باريس، مكتبة فرنسا
الوطنية، أرسونال

أن سليمان، الذي كان على الأرجح حريصاً على عدم تحمل مسؤولية قافلة إضافية، ردّ على تلك المطالب برفض تام إذ قال: «إرادتي ليست، منذ فتح السلطنة العثمانية للبصرة، أن ينطلق محمل من تلك المدينة إلى الكعبة الجليلة، ولا أن تنطلق قافلة منها لأداء فريضة الحج [٢]». وكذلك الأمر، فإن الكسوة، التي كانت قد أصبحت إحدى الهبات الصادرة عن السلطان العثماني، استمرت تنطلق من القاهرة، حيث كانت تحاك في القلعة بواسطة حرفيين من الأقباط.

وأضيفت إليها أيضاً زركشات جديدة مصنوعة من المخمل المطرّز ومن النسيج الحريري، المخصصين هما أيضاً للكعبة، وقد كانت هذه الهبات كلها مجموعة، بحسب مزاعم الرحالة جان تيفنو (١٦٥٧م)، ضمن ما يشار إليه بتسمية «سترة محمد». كما جرت العادة أيضاً على إرسال كسوة أخرى لتغطية قبر النبي في المدينة المنورة، وكانت هذه الكسوة ترسل مع قافلة الشام.

خدمة الأماكن المقدّسة

كانت هذه القافلة الدمشقية التي اكتسبت خلال العهد العثماني أهمية أكبر، من أهمية قافلة القاهرة التي كانت في الماضي أكبر شأناً، هي التي تنقل الصرة، أي تبرعات السلطان العثماني إلى الأماكن المقدّسة. وبحسب ما أفاد به المترجم الأرميني مرادغيا دوهسون، فإن انطلاق الصرة من اسطنبول كان يشكل الفرصة لإقامة احتفال يتم خلاله إخراج محملين اثنين مركّبين على ظهر جملين من القصر وانضمامهما إلى موكب الصرة. بيد أن هذين المحملين الاسطنبوليين ما كانا يجتازان البوسفور، بل كان يجري تفكيكهما قبل عبور المضيق، من أجل إعادتهما إلى القصر. ويبدو أن هذه الشعائر لا تعود إلى ما قبل عهد السلطان عبد الحميد الأول، في نهاية القرن الثامن عشر.

وكان نقل النقود التي يخصصها السلطان لما يشار إليه بلفظة «فقراء» المدينتين المقدستين (وهو وصف مجازيّ أكثر منه واقعي اجتماعي إذ أن التبرعات كانت ترسل إلى أمير الأشراف وغيره من الشخصيات البارزة في المنطقة)، على ظهر البغال عبر الأناضول، يثير بالطبع مشاكل أمنية خطيرة: وكانت السلطات المحلية مجنّدة ومسؤولة عن عملية النقل هذه. فضلاً عن أن السلطة المركزية كان يعود إليها مهمة الترخيص بأي تعديل يطرأ على طريق القافلة.

لدى الوصول إلى مكة، كان صاحب المقام المكلف بنقل تبرعات السلطان، والمشار إليه بلقب أمين الصرة، – وهو شرف عظيم إلى جانب كونه عبئاً مكلفاً نتيجة المصاريف المترتبة عليه – يسلم أمير مكة «الكتاب المهيب» الوارد من السلطان، قبل أن يخرج السجلات ويبدأ عملية توزيع التبرعات تحت إشراف الشريف والقاضي الحنفي في مكة. وكان الحفاظ على السجلات وإعطاء كل صاحب حق حقه من شبه المستحيلات، وتبرز الوثائق المتوفرة كمية العقبات والمطبات التي كان أمين الصرة يواجهها في معرض إتمامه لمهمته [٣].

وما أُجريت بعد دراسة كمية متسلسلة بشأن الصرة العثمانية، وأثرها على ثروات السلطنة. ويسع هذه الدراسة أن تستند إلى الأرشيف الاسطنبولية التي لم تتم الاستفادة منها بعد، مثل السجلات الستة والأربعين المحفوظة في حافظة مقاطعة الحرمين (١٤٧٩-١٨٦٣). غير أنها ستصطدم، كغيرها من الدراسات الكمية المتعلقة بالعثمانيين، بحالات انفصام في التوثيق وكذلك بحالات التباس عادية في البيانات المتوفرة: فما هي بالضبط المصروفات المعنية؟ وما هو مصدر تمويلها، علماً بأن المصادر عديدة ومتنوعة؟

وإذا قمنا بجمع البيانات المتفرقة المتوفرة حالياً، نلاحظ أن التبرعات العثمانية إلى الأماكن المقدّسة، على الرغم من أنها بدأت في أواخر القرن الرابع عشر (نتيجة لـ«منزلة» هذه السلالة الصاعدة مثلها مثل أي سلطة إسلامية أخرى)، فإنها شهدت تصاعداً هائلاً ابتداءً من مرحلة غزو مصر: فعلى كل أمير مسلم أن يرسل تبرعاته إلى الأماكن المقدّسة، ولكن خادم الحرمين يلزم نفسه بتقديم تبرعات تفوق تبرعات الأمراء الآخرين. ويكون خادم الحرمين ملزماً، كما سبق ورأينا، بتوفير الإمدادات الغذائية للمدينتين المقدّستين وسكانهما وحجاجهما. وكان يقوم بذلك مستخدماً منتجات الحبوب المصرية، فيأخذ جزءاً من محاصيل الأوقاف القائمة في تلك البلاد، ومن محاصيل الممتلكات

٢. محفوظات رئاسة المجلس، اسطنبول، مهمة دفتري، المجلد السادس، الوثيقة رقم ٧٦١

٣. على سبيل المثال، مهمة دفتري، المجلد الثالث، الوثيقة رقم ١١٨٧

العائدة إلى العرش في مصر، أو عن طريق شراء المؤن بواسطة أموال مأخوذة من ميزانية المقاطعة. ويتكفل خادم الحرمين الشريفين أيضاً بمهمة صيانة المباني والطرق في كلا المدينتين المقدّستين وتجميلهما. ونظراً لكون القوانين الحضرية العثمانية المعروفة لا تتعلق سوى باسطنبول أو بمكة المكرمة، فإن ذلك يبرز مدى الأهمية التي كان السلاطين يولونها إلى المدينة المقدسة. وبالتالي، فإن قرون الهيمنة العثمانية شهدت التنفيذ المتتالي للأعمال، التي كانت في الغالب ضخمة ومكلفة. وتواصل ترميم المسجد الكبير في مكة، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، في عهد كل من سليم الثاني ومراد الثالث وأحمد الأول (في عهد هذا الأخير، كان مهندس مسجد اسطنبول الأزرق، محمد آغا، هو المكلف بهذه المهمة). وفي وقت سابق، كان سليمان القانوني قد أمر بإعادة بناء المئذنتين العائدتين إلى العهد العباسي، كما أضاف إليها مئذنة سابعة. وفي عهد كل من سليم الثاني ومراد الثالث، أعيد بالكامل تجديد الرواق الذي تعلوه القبب المحيطة بالمسجد الكبير. وفي بداية القرن السابع عشر، في عهد محمد الأول، بدأ تنفيذ الترميمات اللازمة للكعبة، مع تقوية المبنى بحزام من الحديد المزخرف بالذهب والفضة. واستُعيض عن الميزاب القديم المصنوع من الفضة، والمحفوظ في أقبية قصر توبكابي، بقناة أخرى مصنوعة من الذهب. وإلى ذلك، فقد أعيدت زخرفة ثلاث من العواميد القائمة داخل الكعبة باستخدام الذهب والفضة. وبعد فترة قصيرة، في عهد مراد الرابع (١٦٢٣م-١٦٤٠م)، استهلت أعمال إعادة بناء الكعبة، بالتشاور مع الشريف ومع أبرز شخصيات مكة المكرمة. وأوكلت إدارة هذه الأعمال إلى قائد مملوكي سابق أضحى ممثلاً للدولة العثمانية، وهو رضوان بيه.

ما زالت مكة حتى اليوم تضم عدداً ضئيلاً جداً من المنشآت العثمانية، في حين أن المدينة المنوّرة تضم عدداً أكبر بقليل من هذه المنشآت مع العلم أنها لا تعود إلى ما قبل القرنين التاسع عشر والعشرين. وإلى جانب العديد من المساجد المشيّدة في وقت متأخر ومحطة العنبرية للقطارات (١٩٠٨م)، نذكر الحرم الشريف، الذي أُعيد بناؤه في عهد عبد المجيد، في العام ١٨٤٩م.

حماية الحجاج

منذ البداية، كانت تولى أهمية مماثلة للمهمة الموكلة إلى خادم الحرمين الشريفين وهي ضمان حسن سير الحج السنوي بفضل السهر على أمن الطرقات وتنظيم انتقال قوافل الحجاج. وتميّز العثمانيون عن أسلافهم المماليك في تنفيذهم لمهمة الحماية هذه، ليس فقط من حيث ضخامة وتنوع الوسائل المستخدمة في ذلك، بل من حيث البعد الجيوسياسي المخصص لهذه العملية. فنظراً لكون سلطة دولة المماليك مركّزة في منطقة الشرق الأوسط، فإنهم لم يعالجوا مسألة الحماية هذه سوى من منظور مقصور على المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم؛ وقد تركّز اهتمام أولئك المعنيين «بمملكة مصر والشام والحجاز» على ضمان أمن الحجاج في المناطق الواقعة بين دمشق ومصر من جهة وبين الحجاز من جهة أخرى. ولما كان التوسع العثماني قد بلغ ذروته، إذ غطت الأقاليم العثمانية مناطق واقعة في قارات ثلاث، فقد أدى ذلك إلى توسيع وتنويع ملموسين في طريقة التعامل مع هذا الأمر. ونتج عن ذلك تصور أوسع بكثير لمفهوم «طرق الحج» وما قد يؤثر على هذه الطرق من نزاعات وعقبات متنوعة. ومنذ ذلك الوقت، لم تعد السلطنة تكترث فقط لما يحصل بين الشام والقاهرة من جهة وبين الحجاز من جهة أخرى، بل باتت تركّز أيضاً على ما يحصل على الطرقات التي توصل المسلمين من بلادهم إلى نقطتي انطلاق القافلتين، أي أن حماية الحجاج أسفرت عن سياسة ذات امتداد عالمي. وقد وجب الانتظار خمسين عاماً بعد اكتساب سليم الأول للقب خادم الحرمين الشريفين، قبل رؤية سلطان عثماني، - وهو بالمناسبة سليم الثاني- يقوم في بداية عهده، أي ما بين العامين ١٥٦٧م و١٥٧٢م، بوضع واجبات هذه المهمة ضمن إطار مشاريع سياسة وعسكرية تثير الدهشة نظراً لأهدافها الرؤيوية، وقد تميزت هذه المشاريع بعدم الواقعية، ممّا أدى إلى فشلها. ونشير هنا إلى مشروع تمت الإشارة إليه في أحد الأوامر الصادرة في كانون الثاني/يناير ١٥٦٨م، والمتعلق بحفر قناة

في برزخ السويس، ممّا يتيح للبحرية العثمانية الإبحار لمحاربة السفن البرتغالية التي تقطع طريق الوصول إلى البحر الأحمر أمام الحجاج المسلمين الهنود، وللتخلص، في الوقت ذاته، من الزيديين الشيعة القاطنين في اليمن الذين يشكلون خطراً على الأماكن المقدسة[٤]؛ أو أيضاً بعثة «أسترخان» التي قامت، في العام ١٥٦٩م، بمحاولة فاشلة لحفر قناة بين نهري الدون والفولغا، والتي يعود السبب – الرسمي على الأقل – وراءها إلى السماح لحجاج آسيا الوسطى بالوصول إلى الحجاز من دون المرور بإيران الشيعية.

وكان السبب الرسمي، أو الحجة الرسمية، لعدد آخر من المشاريع – مثل مشروع غزو قبرص مثلاً – يعود إلى ضمان أمن الحجاج. وبالإضافة إلى المخاطر المنتشرة والتي يصعب التحكم بها المحدقة بالحجاج قبل الوصول إلى نقطتي انطلاق القافلتين في كل من دمشق والقاهرة، كان هناك خطر أكثر وضوحاً يتحمل السلطان العثماني المسؤولية المباشرة عنه، وهو خطر غارات البدو في البوادي التي تفصل الحجاز عن مصر وسوريا. وقد ازدادت تلك المخاطر، ابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر، جرّاء التحدّي الناشئ عن انتشار الدعوة الإصلاحية في شبه الجزيرة العربية.

المسائل المرتبطة بأمن كل من القافلتين وتنظيمهما كانت تقع على عاتق رئيس كل من القافلتين ويشار إليه باسم أمير الحج. وكان أمراء الحج، في بداية العهد العثماني، من الوجهاء المحليين ذوي الثروة والنفوذ، والذين لهم روابط عائلية مع قبائل الصحراء. وفي الفترات اللاحقة، أوكلت هذه المهمة إلى ضباط في الجيش العثماني. وابتداءً من بداية القرن الثامن عشر، نظراً لتفاقم الوضع الأمني، قام الحكام أنفسهم، باشوات مصر وسوريا، بترأس قوافل الحج.

وغارات النهب المتكررة التي تعرضت لها القوافل كانت تعزى إلى الثروات الهائلة التي كان ينقلها الحجاج، سواء في طريق الذهاب إلى الحج أو طريق الإياب منه، بالإضافة إلى أمتعتهم الشخصية. وكان الحج يؤدي، في الواقع، إلى تحوّل المدينتين المقدستين، بشكل مؤقت على الأقل، إلى مراكز تبادلات تجارية بين الشرقين الأوسط والأقصى، سواء بالنسبة إلى كبار التجار أو بالنسبة إلى صغار البائعين الجوالين.

وكانت تدابير حماية عديدة تستخدم لمواجهة مخاطر الهجمات، بقدر متفاوت من النجاح، ومنها تحييد القبائل بموجب اتفاقات يتم التفاوض بشأنها، أو «تسليح» القوافل، أو بناء الحصون على الطرقات المعتمدة... واستخدمت الحصون العثمانية المنشأة على طول طرق القوافل في الصحراء كقواعد لقمع الهجمات المحتملة وكمحطات مبيت مرحلية – يشار إليها بعبارة «خانات القوافل» – للحجاج والتجار على حدٍّ سواء.

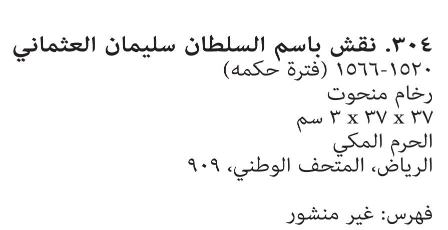
وبعد أن أمّن سلاطين اسطنبول حماية الحجاج، التي استندت إليها مصداقيتهم وهيبتهم، طوال عدة قرون من الزمن بصفتهم خدّام الحرمين الشريفين، فقد مارسوها في القرنين التاسع عشر والعشرين بصفتهم الخلفاء. وفي الواقع، منذ إبرام معاهدة كوتشوك كاينرجه، عام ١٧٧٤م، تم الاعتراف، وفقاً للقانون الدولي، بالسلطان العثماني على أنه "خليفة المسلمين الأعظم"، على الرغم من أن العثمانيين كانوا قد منحوا أنفسهم هذا اللقب ولو على أساس شكلي واسمي، وهو لقب أضيف إلى التسمية الأصلية للخلافة، ليجعل من حامله قائداً روحياً لجميع المسلمين.. وفي الفترة ذاتها، بدأت تبرز الأسطورة القائلة بأن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة تنازل عن حقوقه لصالح سليم الأول وخلفائه. وقد حاول السلاطين العثمانيون الاستفادة سياسياً من هذا اللقب، الذي أوردوه في دستورهم لعام ١٨٧٦م، سواءً داخل السلطنة أو خارجها. ويصح ذلك بالأخص بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني الذي قام، في نهاية عهده في العام ١٩٠٠م، بإطلاق العمل على بناء خط الحجاز للسكك الحديدية الذي يربط بين الشام والمدينتين المقدّستين، محققاً بذلك على ما يبدو أحد أحلامه القديمة. وكما لاحظ فرانسوا جورجون، فقد كانت تلك وسيلة لتعزيز الوجود العثماني في منطقة متنازع عليها وطريقة حديثة لضمان مهمة التزمت بها السلالة منذ القدم وهي: "خدمة الحرمين الشريفين".

٤. مهمة دفتري، المجلد السابع، الوثيقة رقم ٧٢١، ١٧ كانون الثاني/يناير ١٥٦٨م.

المصادر والمراجع :

باكيه-كرول(Bacqué-Grammont et Kroell)، ١٩٨٨م.
بربير(Barbir)، ١٩٨٠م.
كاركارادك (Carcaradec)، ١٩٨١م.
فاروقي، ١٩٩٤م.
جورجون (Georgeon)، ٢٠٠٣م.
ابن إياس، ١٩٦٠م.
جوميه (Jomier)، ١٩٥٣م.
لاوست (Laoust)، ١٩٥٢م.
لويس (Lewis)، ١٩٧٨م.
أوهسن (Ohsson)، ٢٠٠١م.
تيولان وآخرون، (.Theolin et al)، ٢٠٠٢م.
فاينشتاين (Veinstein) ، ٢٠٠٦م.

منظر المدينة، محفورة تمثل اللوحة العامة للإمبراطورية العثمانية للفنان موراد جيا دوهسون، طبعة باريس عام ١٧٨٧، مجلد ٢، لوحة ٥٣، باريس، مكتبة فرنسا الوطنية، أرسونال



٣٠٤. نقش باسم السلطان سليمان العثماني
١٥٢٠-١٥٦٦ (فترة حكمه)
رخام منحوت
٣٧ x ٣٧ x ٣ سم
الحرم المكي
الرياض، المتحف الوطني، ٩٠٩

فهرس: غير منشور

عزّ لمولانا
السلطان الملك المظفر سليمان خان
عزّ نصره

لا يقدم هذا النقش أي إشارة عن تاريخه ولا معلومات دقيقة عن منشأه. هل كان موضوعا في مكان ما بالحرم المكي، أو على صرح آخر في المدينة؟ وان جي. ويت (G. Wiet)، في حواشيه غير المنشورة حول النقوش في الحرم المكي، يتحدث عن نقشين من ثلاثة أسطر شبيهة بهذا النقش، لكنه لم يحدد شكل الرصيعة.

وكان هذان النقشان موجودين على الباب المسمى باب السلام وعلى الباب المسمى باب الوداع [١]. وقد يكون أحدهما.

في أي حال، يستعيد هذا النقش نوع الشعار الكتابي الذي كان سائدا أيام آخر السلاطين المماليك، قيتباي (١٤٦٨- ١٤٩٦) وقانصو الغوري (١٥٠١-١٥١٦). فهو ينسخ في آنٍ معا، صيغهم وترتيبها: ثمة ثلاثة مستويات، أحدها مركزي أكثر تطوراً، محصور في دائرة، حتى الزخرفة النباتية للركنيات [٢].

إلا أن الكتابة تثبت تطوراً نوعياً للخط العثماني: إيقاع ضيق لذيول الأحرف الطويلة العمودية، وذِنابات مشكَّلة، واستبعاد حروف النون استبعاداً منهجياً في الجزء الأعلى لسطح الكتابة.

وهذه الإستعادة الرمزية لعنصر بصري يـُقرَن تقليديا بآخر المماليك، تؤكد العزم على التموضع في سياق استمرارية السلالة التي تولـّت رعاية العتبات المقدسة طوال قرنين ونصف القرن.

وثمة نماذج أخرى معروفة عن هذه «الإستعادة»، منها الشعار والزخرفة «المستوحيان من التراث المملوكي» لمجموعة القوباني (بلاد القوابن) مصطفى باشا في غيبزي (Gebze) قرب اسطنبول (١٥٢٣) وشعار سليمان في مستشفى ديفريغي (Divrigi)، وحتى قطعة من نطاق الكعبة باسم السلطان سليم (١٥٦٦- ١٥٧٤) محفوظة في متحف توبكابي (Topkapi) [٣].

وتظهر جليةً رغبةُ سليمان في التنافس مع الذكرى الحيـّة الباقية للأعمال الخيرية التي أداها المماليك، خصوصاً ما قام بها في مكة قيتباي الذي استمر نفوذه إلى القرن السادس عشر. وهكذا حمل اثنان من ذرية بني قتادة المتحدرين من سلالة النبي وأشراف المدينة المقدسة، اسم قيتباي في القرن السادس عشر [٤]. وهو أيضا الملك الوحيد الذي أُطلق اسمـُه على احد أبواب الحرم: باب قيتباي.

وقد حرص سليمان على ترك بصمته في مكة، فأعاد بناء مئذنتين للحرم وأضاف واحدة جديدة؛ وأسس أيضا مدرسة للمذاهب الأربعة السنية، وتكيـّة لتقديم الوجبات الشعبية المجانية للفقراء وأمر بإعادة بناء قناة عرفات.

C. J.

١. Thesaurus، رقم ١٤٦٩٩ و٢٥١٩٥.
٢. أنظر على سبيل المثال، Atil، ١٩٨١، رقم ١٠١ و١١٠.
٣. Tazjân، ١٩٩٦، رقم ٢٨، ص. ٨٩-٩٠.
٤. شقيق الشريف بركات بن محمد وحفيده (كما يفيد نصب نـُشر في البشاء ١٩٧٩، ص. ١١٨-١٢٠، وZambaur، ١٩٢٧، ص. ٢٢).





حجاج حول باب الكعبة، تصوير فيلبي، ١٩٣٧

٣٠٥. باب الكعبة
تركيا على الأرجح، ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥-١٦٣٦
تكسية بأوراق الفضة، المطروقة والمحفورة والمذهبة على الخشب
٣٤٢ x ١٨٢ سم
الرياض، المتحف الوطني، ١٣٥٥

فهرس: غير منشور

بسم الله الرحمن الرحيم و قل ربّ ادخلنى مدخل صدق
و اخرجنى مخرج صدق و اجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً
قد شرف بتجديد هذا الباب الشريف من له بسقت العناية من ربّ الهداية

مولانا السلطان مراد خان بن احمد خان بن محمّد خان
بن مراد خان بن سليمان خان آل عثمان ادام الله نصره
و ابّد سلطنته من يده في سنة الف وخمس و اربعين

(القرآن، **١٧**، ٨٠)

في السنة ١٠٤٥ [١]

تحت النقش الأساسي، في الإطار المزخرف فوق الهالة:
الشهادة

لا مثيل لمصراعي الباب، سواء من حيث منشأهما أو من حيث زخرفتـُهما. فالتركيبة العامة مع هالتها المركزية الكبيرة، المتعددة القويسات، والمتمددة عبر دلايتين من الحواشي المهدّبة، تتبع نموذجاً منتشراً لفنون الكتاب والسجاد. وينسحب ذلك أيضاً على الزخرفة النباتية المحفورة بدقة مدهشة، وعلى الشبكة المتراصة من الجذوع، والسعيفات والأوراق والزهور، المستمدة من أسلوب ساز. ويتسم الخشبُ من الخلف بوضوحه، والزخرفةُ بتنظيمها ستَ خانات ذات شبكة هندسية تحدها قضبان محزوزة، وموزونة أفقياً بثلاثة أشرطة من المعدن المخرم ذات الزخرفة الكتابية. وتحمل جودةُ العمل هذه على الإفتراض أنه مصنوع في اسطنبول، وربما في مشاغل القصر السلطاني. وتشير المصادر إلى غياب اليد العاملة والحرفيين في منطقة الحجاز. وإبان حكم سليمان، كان الحرفيون يـُستقدَمون من مصر وسوريا واليمن، لإنجاز عمليات التشييد والتجديد [٢]. لكننا لا نجد هذا النوع من التركيبة العامة مع هالتها المركزية، على الأبواب العثمانية. إلا أنه في المقابل معروف في مصر إبان الحقبة المملوكية: وقد يكون ممكناً أن يحفظ هذا الترتيب ذكرى باب سابق للحرم المكي. وتشهد على الميل إلى المحافظة التي تبنتها زخرفةُ الأماكن المقدسة، الستائرُ التي كانت تحجب الباب. وتـُعرض في متحف توبكابي [٣] نماذج منها ترقى إلى ما بين القرن السادس عشر والسابع عشر. ونجد على هذه الستائر الآية القرآنية نفسها كتلك الموجودة على المصراعين، والموضوعة أيضاً على الباب المسمى باب السلام [٤].

إن زخرفة تكسية باب الكعبة بالذهب أو الفضة ظهرت في وقت مبكر، منذ العصر الأموي، كما تشهد على ذلك المصادر [٥]. وقد ذكرتْ عملياتٌ تجديد أخرى للتكسية أو للمصاريع بخشب الساج الشديد الصلابة، أيام الخلفاء العباسيين: المهدي (٧٧٥-٧٨٥) والأمين (٨٠٩- ٨١٣) والمعتضد (٨٩٢-٩٠٢) [٦].

وان الإسباني ابن عبد ربه [٧] في نهاية القرن التاسع، والفارسي نصير خسرو، في نهاية القرن العاشر، وضعا وصفاً دقيقاً عن الباب يبدو حتى الآن شبيهاً للباب المعروض هنا. ويقول نصير خسرو «هذا الباب من خشب الساج وهو من مصراعين. وقد غُطيت درفتا الباب ووطيدتُه بالنقوش والدوائر والزخارف العربية من الفضة المذهبة {...} وثُبتت حلقتان كبيرتان من الفضة أرسلتا من غزنة على المقرعة {...} ووضعتا في الأعلى بحيث لا يمكن أن تطالهما الأيدي. ووُضعت في الأسفل حلقتان أخريان من الفضة أيضا، أصغر حجماً، بحيث يمكن إمساكهما. ويُستخدم قفل كبير من الفضة يمر عبر هذه الحلقات، لإقفال هذا الباب [٨]».

يصف إبن جبير اقامة باب جديد من خشب الدلب المغطى بالفضة المذهبة، أيام الخليفة العباسي المكتفي في عام ٥٥٠ هجري/١١٥٩ ميلادي [٩]. وطوال القرون الأولى، لم تتوانَ المصادرُ عن الإشارة إلى الأضرار التي لحقت بباب الكعبة وتلبيسه، جراء الفيضانات وتلف التذهيب الناجم عن الدعك بأيدي الحجاج، والاضطرابات العامة وجشع السلطات المحلية. ثم أتت تبدلاتُ الحكم لمصلحة الرسوليين في اليمن الذين أمروا، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بصنع باب جديد من خشب الأبنوس المغطى بالفضة؛ وفي بداية ١٣٣٠، استبدله السلطان المملوكي الناصر محمد [١٠] الحريص على تمييز حضوره بصفته خادماً للعتبات المقدسة حيال تابعيه اليمنيين. وأجري تجديد آخر أيام السلطان المملوكي مؤيد شيخ في ٨١٦ هـ/ ١٤١٤ ميلادي[١١]. وأيام العثمانيين، أرسل مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) المهَل (ذهب وفضة) الضرورية لإعادة تذهيب الباب.

وأجريت عملية تجديد كبيرة للكعبة إبان حكم أحمد الأول، في مستهل القرن السابع عشر، لكن المصادر لا تعطي إيضاحات كافية عن احتمال تعديل الباب. وبعد فترة قصيرة، أيام خلفه مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، حصل فيضان كبير في ١٠٣٩ هجري/١٦٣٠ ميلادي، أضعف كثيراً الكعبة التي كانت منهكة. فقد وصلت المياه إلى مفتاح قفل الباب. وبعد استشارة السلطات الدينية التي أبدت في السابق تحفظات كثيرة، اتخذ مراد الرابع قرار البدء بأعمال الترميم. وتحت إشراف حاكم مصر محمد باشا ورئيسه المملوكي رضوان بك، أزيل المبنى (الذي كان بادىء بدء مغطى بحجاب) وأعيد بناؤه حجراً حجراً [١٢]. ويؤخذ من المصادر إعادة تثبيت الباب الفضي، المحاط بعمودين صغيرين، ولا تتحدث عن صنع باب جديد. كذلك يرقى النقشُ على المصراعين الموجودين هنا، بالخط الشديد التأنق والمعقَّد، والمزخرف بعناصر نباتية دقيقة، إلى ١٦٣٥-١٦٣٦، أي إلى ما بعد أعمال الترميم هذه.

في أي حال، لم يُستبدل هذا الباب حتى القرن العشرين. وتُظهره صورة التقطها الإنكليزي سان جون. ب. فيلبي (St. J.B. Philby) في ١٩٣٧ (أنظر ص. ٥٣٦) أنه ما زال في مكانه، مغلقاً بقفل مزود بوتد طويل. وبعد عشر سنوات، يتبين من صورة التقطها محمد حلمي [١٣] ان الباب استُبدل بباب آخر، ذي زخرفة مختلفة، ما زال حتى اليوم يقفل الكعبة، معلنا بذلك تولي سلالة جديدة من خدام الحرمين الشريفين.

C. J.

١. أشكر للبروفسور لودفيك كالوس (Ludvik Kalus - EPHE) مساعدته في قراءة الفقرتين الصعبتين وترجمتهما.
٢. Göyünç، ١٩٧٩، ص. ١٧٨.
٣. Tazjân، ١٩٩٦، رقم ١ إلى ١١.
٤. الهواري وWiet، ص. ٢٨.
٥. المرجع نفسه، ص. ٣٥.
٦. المرجع نفسه، ١٩٨٥، ص. ٦٦، ٦٨، ٧٧. وتذكر أيضا إرسال أقفال.
٧. الهواري وWiet، ١٩٨٥، ص. ٧٨.
٨. نصير خسرو، ورد لدى الهواري وWeit، ١٩٨٣، ص. ٩١.
٩. الهواري وWiet، ١٩٨٥، ص. ٩٩-١٠٠.
١٠. المرجع نفسه، ص. ١٤٨.
١١. المرجع نفسه، ٢٠١.
١٢. وصف أعمال الترميم هذه Evlia Celebi الذي زار مكة في ١٦٧١-١٦٧٢، وسهيلي أفندي في كتابه *Târikh-i Mecque-i mükerrime (Risâle)*، مراجع أوردها فاروقي، ١٩٩٤، ص. ١١٣-١١٥. أنظر أيضا أيوب صبري، ٢٠٠٤، t.I، ص. ٤٤٩ وما يليها.
١٣. باريس، ٢٠٠٥، ص. ٩٢-٩٣.

٣٠٦. أقفال باسم السلطان العثماني أحمد الأول
١٦٠٣-١٦١٧ (فترة حكمه)
٢٤ x ١٢ x ٤ سم
فضة، زخرفة محفورة
حجرة في حرم المدينة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٠١٣

فهرس: غير مطبوع

الوجه أ

اللهم يا مفتاح الابواب
يا فتّاح/ افتح /هو الفتّاح
السلطان احمد خان ابن سلطان
محمّد خان لازالت سلطنته و ايّد دولته
نصر من الله و فتح قريب
يا محمّد شريف المسلمين
الله محمّد/ ابو بكر عمر

الوجه ب:

بسم الله الرحمن الرحيم انّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله
افتاح علينا خير الباب
لا اله الا الله
محمّد رسول الله
عثمان علي/ حسن حسين

(القرآن، ٤٨، ١-٢)

٣٠٧. مزلاج باسم السلطان العثماني أحمد الأول
١٦٠٣-١٦١٧ (فترة حكمه)
فضة مذهبة، زخرفة محفورة
٢٣ x ١٨ x ٢٫٥سم
حجرة في حرم المدينة
الرياض، المتحف الوطني، T/٢/٣٠٠٣٥

فهرس: غير منشور

براي روضة/ شدّ قفل مجدّد/ بعهد دولت / سلطان احمد/...

جـُدد هذا المزلاج المخصص للروضة، أيام حكم السلطان أحمد/.... [١]

صـُنعت عناصر القـِفالة هذه في اسطنبول على الأرجح، كما هو مذكور على قفل باسم السلطان مراد الثالث، يرقى إلى عام ١٠٠٢ هجري/١٥٩٣-١٥٩٤ ميلادي، ومحفوظ في متحف توبكابي ساراي [٢]. وغالبا ما تـُنسب بلا تمييز المفاتيح والأقفال المحفوظة، إلى الحرم المكي، وخصوصاً إلى الكعبة. لكن يبدو أن في الإمكان ان تُنسب مفاتيح وأقفال إلى حرم المدينة. وفي هذه الأماكن المقدسة والمكرمة منذ القـِدَم، تجلى الميلُ إلى المحافظة عبر ديمومة الأشكال والزخارف. فالأقفال الطويلة الوتد، كانت مخصصة لباب الكعبة. ويبدو أيضا أن نوعاً آخر من الأقفال، كالقفل الموجود هنا (د. المعرض رقم ٣٠٦)، المستطيل الشكل والمكتـَّل، قد حـُفظ في حرم المدينة. وتتيح تأكيد ذلك الإشارة إلى منشأ هاتين القطعتين باسم أحمد الأول. فالنماذج الأولى المحفوظة لهذا النوع من الأقفال، ترقى إلى عهد بايزيد الثاني، ومؤرخة في عام ٩١٥ هجري/ ١٥٠٩ ميلادي [٣]. وهي تحمل إشارة غير مألوفة :«بي محمد وحرمه» («قرب محمد وحرمه»، لكن جي. سوردل- تومين (J. Sourdel-Thomine) يترجمها كالتالي :«من محمد وعائلته» التي يمكن أن توحي أنها مرسلة إلى المدينة. ويبدو أن هذه الأقفال ما زالت مزدوجة (يمتلك متحف الرياض نموذجاً توأماً لقفلين رقم ٣٠١٣)، لأنها كانت مخصصة لبابـَي الحجرة – أي الغرفة التي تضم ضريح النبي-، على غرار المزاليج من النوع الموجود في متحف الرياض والموجود هنا (د. المعرض رقم ٣٠٧). وتعزز هذا القولَ صورةٌ التقطها محمد حلمي في ١٩٤٧وتظهر أحد الأبواب المسيَّجة للحجرة مع مزلاج وقفل لا يزالان في مكانيهما [٤].

ويتضمن المزلاج المعروض هنا، عدا عن زخرفة زهرية من أسلوب ساز، نقشا باللغة الفارسية يوضح أنه مخصص للروضة، أي لمنطقة حرم المدينة، القريبة من ضريح النبي؛ في الحقبة العثمانية، كان هذا التعبير يعني، الحرم بأكمله [٥]. ولا بد من الإشارة إلى الإستخدام غير المألوف للغة أخرى غير العربية في إطار الأماكن المقدسة، وقد استـُخدمت الفارسية لغة للثقافة الرفيعة في البلاط العثماني.

C. J.

١. أشكر للبروفسور لودفيك كالوس مساعدته في قراءة هذا النقش.
٢. يلماز، رقم ٢٩، ص. ٧٧.
٣. Sourdel-Thomine، ١٩٧١، رقم ١٤-١٥.
٤. Paris، ٢٠٠٥، ص. ١١٨.
٥. يذكر نقشٌ على مزلاج شبيه إلى حد، باسم السلطان مراد الثالث، ويرقى إلى عام ١٠٠٢ هجري/ ١٥٩٣-١٥٩٤، الروضةَ أيضا؛ أنظر يلماز، ١٩٩٣، رقم ٣٠، ص. ٨٠.



٣٠٨. مجمرة باسم والدة السلطان مراد الرابع
تركيا، ١٠٥٩ هجري/ ١٦٤٩
مزيج من الحديد، زخرفة مُدَمْشَقة بالذهب والفضة (؟)
ارتفاع: ١٤ سم؛ أقصى العرض: ٣٨ سم
حجرة حرم المدينة
الرياض، المتحف الوطني، ٢٩٩٩

فهرس: غير منشور

يبدو من الصعب إيجاد مثيل لهذه المجمرة التي تُعدّ تحفة مهداة الى حرم المدينة. فزخرفتها الدقيقة من الجذوع المزهرة، الموزعة على كل من وجيهات القاعدة ذات الزوايا العشر، تذكّر بزخرفة بعض المنسوجات العثمانية. إن تزويقاتٌ زهرية من النفحة نفسها، لكنها تتسم بمزيد من البساطة، تزيّن، على سبيل المثال، حافة معدنية مائلة محفوظة في متحف وان توبكابي سراي [١]. الحرفيُ الذي كان يعمل على الأرجح في اسطنبول، قد وقّعَ تحفته برصيعة صغيرة تحت قاعدة القبضة: «صنع عثمان».

وفوق الزخرفة الزهرية ينساب شريط مُتكتّم محفور بنقش بسيط، يفيد أن هذه التحفة قد أنجزت بناء على طلب «فاليد سلطان غازي» («والدة السلطان غازي»). ويتيح التاريخُ المحدد في النقش القول إنها والدة السلطان مراد الرابع. فهذا السلطان الذي يرقى إلى فترة حكمه تجديدُ الكعبة (د. المعرض رقم ٣٠٥)، أتخذ لقب غازي (المقاتل على الحدود) بعد حملاته في بولندا في ١٥٩٦. وان ذكرُ والدة مراد الرابع، مهبيكير (Mahpeyker)، - وقد سميـت ايـضاً قوسيـم- (Kösem)، بقي حياً في الاذهان بصفتها أقدر ملكة / أم عثمانية [٢]. كانت زوجة السلطان أحمد الأول الذي أنجبت منه عدداً كبيراً من الأولاد، وتبوأت الوصاية على العرش ثلاث مرات، في ١٦٢٣ و١٦٤٠ و١٦٤٨، وعاشت حتى ١٦٥١، إبان حكم حفيدها محمد الرابع.

وكانت أمهات السلاطين، خصوصاً بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر، يتمتعن بسلطة حقيقية ويشاركن في تكوين صورة السلالة وترسيخ انتشارها، عبر الأعمال الخيرية النشطة، سواء في العاصمة، اسطنبول، أو في العتبات المقدسة. فالمصادر العثمانية تذكر مبرة قوسيم في مكة والمدينة [٣]: تأمين المياه للحجاج، وتوزيع الملبوسات سنوياً على فقراء المدينتين وعلى الحجاج المعوزين، وتلاوات القرآن، وأعطيات توزّع على أحفاد الرسول، كانت تُضاف إليها تقدمةُ تحف ثمينة مخصصة لخدمة الأماكن المقدسة، كهذه المجمرة على سبيل المثال. C. J.

١. TSM ١٤٤٥/١، Aydin، ٢٠٠٧، ص. ١١٨.
٢. Pierce، ١٩٩٣، ص. ١٠٥، ص. ٢٠٨-٢٠٩.
٣. أنظر Cavid Baysun «Kosem Walide»، في EL ٢، ١٩٨٦، t. V، ص. ٢٧٠-٢٧١.

إن شكل المشكاة، ولا سيما قرصُها (الجزء العلوي الذي يتلقى الشمع الذائب) الحلَـقي، وكذلك تقنية التُمبك (سبيكة من نحاس وزنك)، هي من خصائص الحقبة العثمانية (القرن السادس عشر- القرن السابع عشر). وقد حـُفر نقشٌ على الكتف، يحدد مقصد هذه التحفة، بعد آية قرآنية (٣٥/٢٤) غالبا ما تـُقرن بأدوات الإنارة (كالقناديل الزجاجية المملوكية المزخرفة والمذهبة). وكـُتب في هذا النقش، إن المشكاة قد أودعت في وقف المدينة بـ «الحرم النبوي» ووُضعت في الروضة، بناء على أمر «المالك القادر سليمان الوزير» [١]. وأُدرجت طغرتـُه (نوع من الختم يحتوي على الرسم المنمنم لاسم شخصية كبيرة) على قاعدة المشكاة. وان هذا الوجيه العثماني الخصي، المعروف أيضاً باسم خادم سليمان باشا [٢]، كان حاكما على مصر بين ١٥٢٥ و١٥٣٨، وقاد بضع حملات عسكرية. وفي ١٥٣٨، شن هجوما على البرتغاليين في الهند. ولدى عودته إلى اسطنبول، عـُين وزيرا ثانياً، وقدّم على الأرجح هذه المشكاة هبة إلى حرم المدينة في هذه المناسبة. ويمتلك متحف الفن الإسلامي في القاهرة مشكاتين قدمهما سليمان باشا إلى المسجد الذي شيده في قلعة القاهرة [٣]؛ وهما تحملان التاريخ نفسه الذي تحمله مشكاةُ المدينة، وتزيـّن بطنيهما طغرة مشابهة. ونشير من جهة ثانية إلى مشكاة أخرى نمط تُمبك، وقد عـُرضت للبيع بالمزاد العلني، وينص نقشـُها على أنها أودعت في وقف المدينة، وتتضمن ثـَبْتـَاً بالتواريخ يفيد أنها ترقى إلى ١٥٦٦، سنة اعتلاء السلطان سليم الثاني العرش [٤].
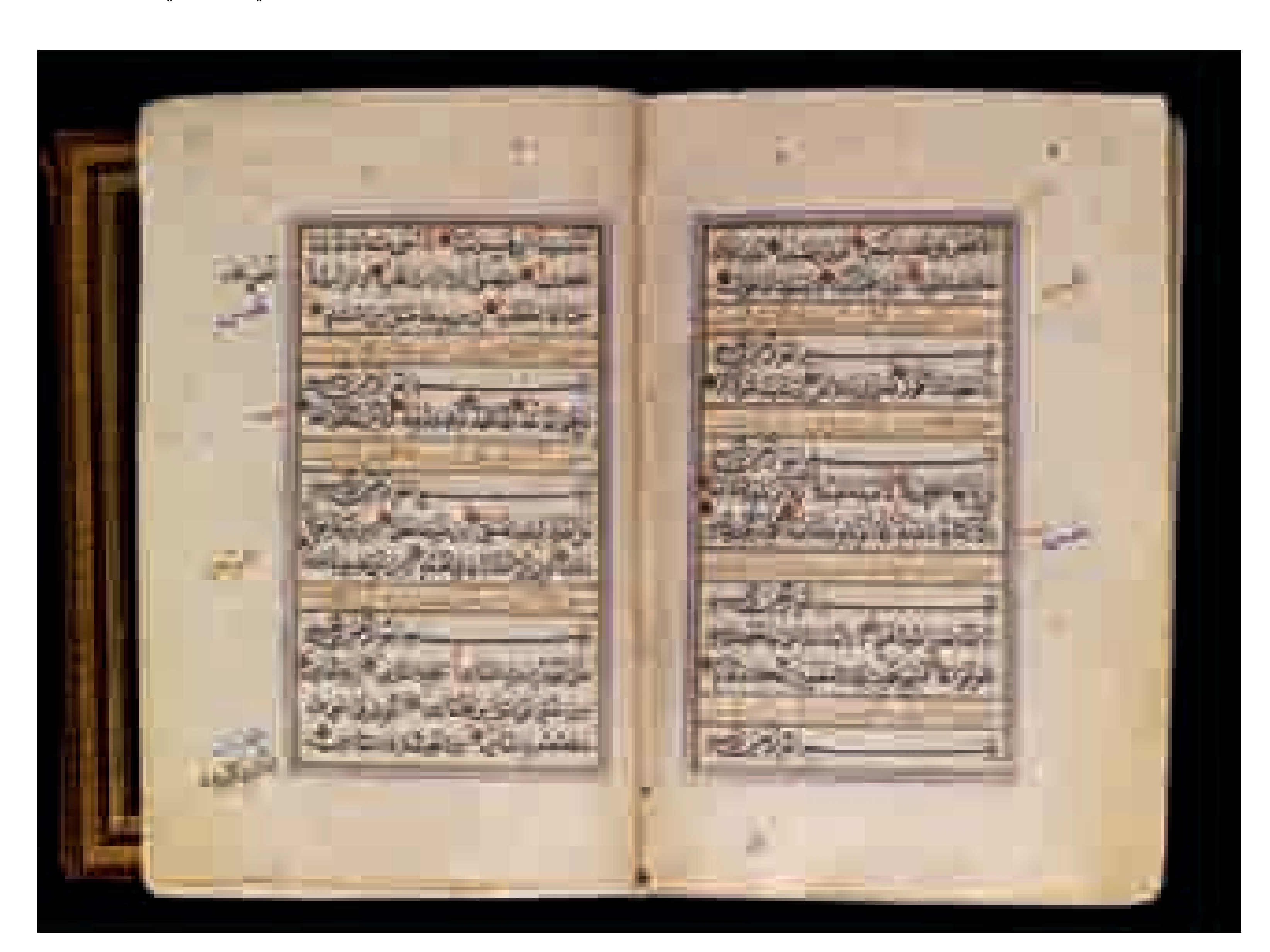
وكان وهبُ الأدوات والأغراض الثمينة لحرمَي مكة والمدينة واجباً على السلاطين العثمانيين، الذين كان يقتدي بهم أعيانـُهم أحيانا. وتحتفظ الوثائق العثمانية (Haremeyn Defterleri) بآثار تلك المبرات: فالإشارات الأولى ترقى إلى نهاية القرن الخامس عشر، لكنها تزداد بالتأكيد في القرون التالية [٥]. فبالإضافة إلى الأستار المخصصة للكعبة وضريح النبي، أرسلتْ إلى المدينة ومكة، شموعٌ ومشاكي وقناديلُ لإضاءة الحرمين. ومن أثمن الاشياء التي أرسلت، المزراب (من الذهب أو من الفضة) وأدوات تطويق الحجر الأسود، المخصصة للكعبة، وقطع أثاث، مثل زينةٍ استثنائية لقرآن من الفضة المرصعة بالذهب. وقدم هذه القطع إلى الكعبة أحمد الأول، وهي محفوظة في متحف توبكابي [٦]. ومن أجل حرم المدينة، أمر مراد الثالث (١٥٤٦-١٥٩٥) بصنع صندوق فاخر من الذهب مخصص لحفظ بُردة النبي [٧]. C. J.

١. المشكاة الثانية التي تشكل رديف هذه، محفوظة في مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة.
٢. Orhonlu، «Khadîm Süleymân Pasha» El ٢، مجلد ٤، ص. ٩٣٤-٩٣٥.
٣. Wiet، ١٩٣٢، رقم ٤٣٩٥ و٤٣٩٦، ص. ١١٨-١٢٠، لوحة ٣٥.
٤. Sotheby's، لندن، ١١ اكتوبر ١٩٨٩، *Islamic Works of Art*، *Textiles* و *Carpets* ، Lot ١٤٥
٥. أنظر Göyünç، ١٩٧٩.
٦. Esil، ١٩٧٣، ص. ١٧٣، صورة. ٩٠.
٧. م.س.، ص. ١٢٥، صورة. ٧٢.



٣٠٩. مشكاة
نحاس مذهـَّب (تُمبك) زخرف منحوت
ارتفاع: ٩٦ سم
حرم المدينة
المدينة، مكتبة الملك عبد العزيز، s.n

فهرس: غير منشور



٣١٠. القرآن
منسوخ في مكة في ٩٧٦ هجري/١٥٦٨، على يد علي بن سلطان محمد الهروي
حبر وذهب على ورق
١٦ x ١١سم؛ ٣٠٣ f
الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

فهرس: الرياض، ١٩٨٦، رقم ١٤٨، ص. ٢٢٩.

إن هذا القرآن المتقن، الصغير الحجم والمتواضع الهيئة، يشكـِّل نموذجاً عن إنتاج المخطوطات في مكة، التي نعرف منها عدداً كبيراً ابتداء من القرن السادس عشر: مخطوطات قرآنية، أو تتطرق بصورة أشمل، إلى المجال الديني، أما الشأن الأدبي فنادر. ويضفي مكانُ إنتاجها، بالتأكيد، قيمة إضافية، يـُجلـُّها الحجاجُ. فالكاتب الذي أنجز هذه النسخة، (نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي)، كان عالِـماً، ومؤلفاً لعدد كبير من الكتب، ومجوِّداً للقرآن ذائع الصيت في مكة، حيث عاش (على رغم تحدره من الحيرة) ومات في ١٠١٤ هجري/١٥٦٨ ميلادي[١]. وكان يـُنجز نسخة واحدة من القرآن في السنة، ويتيح بيعها تأمين معيشته.

وبمعزل عن زخرفة صفحة البداية المزدوجة، يتسم الإخراج باعتداله الشديد. وحـُددت مساحة النص بخيوط ذهبية وزرقاء. والآيات المنسوخة بخط دقيق، تفصل بعضَها عن البعض الآخر، وريداتٌ مذهبة، وخـُطت عناوين السُور بحبر الذهب. وعلى الهامش، كـُتبت تعليمات لعدّ الآيات والقراءة. C. J.

١. أشهر كتبه هو الحزب الأعظم، وهو مجموعة من الأدعية المستخرجة من الحديث، ومقسم سبعة أجزاء حتى يمكن تلاوته في غضون أسبوع، حسب طريقة قريبة من كتاب دلائل الخيرات للجزولي.

انظر ايضاً الشواهد رقم ٣١٤، ٣٢١ و٣٢٢، الصفحات ٥٦٥ و٥٧٤ الى ٥٧٦

رسمات مساجد مكة والمدينه في العهد العثماني :

من المبسّط المساحي إلى الرسم المنظور

د. شارلوت موري

الحَرَمان، هذا هو التعبير المصطلح التقليدي الذي كان يُستخدم للدلالة على المنطقة المشرَّفَة المحيطة بالمدينتين المقدّستين في الجزيرة العربية وبحرميهما على التوالي: المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة. انتزع عام ١٥١٧م السلطان سليم الأول (١٥١٢م-١٥٢٠م) من آخر سلاطين العثمانيين الوظيفة المبَجَّلة المعروفة بلَقَب خادم الحرمين، وأرسِيَتْ عليه وعلى خَلَفه، منذ ذلك الحين، مهمَّةُ الحفاظ على الحرمين ومدينتيهما وعلى طرق الحج التي تقود إليهما. إن الحج إلى مكّة فرضٌ على كل مسلم يستطيع إلى ذلك سبيلاً (بالإمكانيات المالية والصحية)، أما زيارة قبر النبي فهي سُنَّة مُحَبَّذة. ولذلك كان الكثير من الحُجَّاجُ الذين يُؤَدّون فريضة الحج يُكمِلون سفرهم إلى مكة بزيارةٍ إلى المدينة.

في مطلع الحكم العثماني على المدينتين المقدَّستين، والذي قُدِّرَ له أن يبقى أربعة قرون، كان المسجد الحرام والمسجد النبوي قد اكتسبا هيئةً وأبعاداً لم تغيّرها إلا قليلاً أعمالُ الترميم والتجميل التي تم تنفيذها تحت رعاية عدة أشخاص من سلالة آل عثمان. لم يكن بالإمكان تحقيق أي تعديلٍ على أحد هذين البنائين بدون استشارة الهيئات الدينية المحلية والحصول على موافقتها. وجرى التقليد على منع كافة التعديلات الجسيمة، وخصوصاً بالنسبة للمنشآت التي باتت لا يَمَسُّ بها أحد من جراء ارتباطها بأحداثٍ ترويها قصص الأنبياء. تنقل إلينا رسمات المسجدين المحقّقة طوال العهد العثماني، والمثبتة على العديد من المواد، الشهادةَ على ديمومة الأشكال المذكورة.

وهذه الرسمات، المنفذة وفق أنماط تصويرية، تنخرط في سلك التطوّر العام للفنون التشكيلية في الإمبراطورية العثمانية وتثبت التأثير التدريجي لوسائل أو نماذج تصويرية أوربية [1]. إلا أن هذه المجموعة الخاصة تجد ما يوحّدها في ضرورة الإجابة لوظيفةٍ ممساحية وفي ضرورة تفضيل القراءة المفيدة للصورة بالرغم من تطورات الأساليب الفنية. سواء كانت هذه الرسمات إسقاطات مستوية، غير مُتّسمة بتوجيهٍ يغلب عليها، وتجمع جنباً إلى جنب عناصر المخطّطات وعناصر صور الواجهات، أم أشارت بصيغةٍ تميل إلى التوهيم كمنظور الفارس، أم جمعت أيضاً وسائل خَلَطت معتمدات تصوير مختلفة، كان يُفرضُ على هذه الصور أن تُعلِمَ الناظر، ولربما كان يستعد للحج، وأن تساعده في عملية تحديد مواقع الأماكن والمنشآت على مسلكٍ سيَسلكه فعلاً أم خيالياً.

الصورة ١. حرم مكة، رسم بالألوان مقتطف من مخطوطة «فتوح الحرمين» نسخ صالح مُذهِّب، نقش مقام ابراهيم مهداة الى ناظر الحرمين الشريفين. القرن السادس عشر. باريس، مكتبة فرنسا الوطنية، فارسي ٢٣٧، ص ٢١ r

١- في شأن صُوَر الحرمين في الفن الإسلامي، انظر محمد علي ١٩٩٦م و١٩٩٩م. في شأن صور الأماكن المقدّسة في العهد العثماني، انظر تَنِنْدو ١٩٨٣م.

المسجد الحرام في العهد العثماني

لا يشبه مسجد مكّة أي مسجدٍ آخر. فهو ليس بقاعةٍ مسقوفة بل يتكوّن من ساحةٍ مقدّسة مفتوحة على السماء. أُحيط المسجد بسورٍ منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) وأُعيد توسيعه عدة مرات فاكتسب، منذ عهد الخليفة العباسي المُقْتَدِر (٩٠٨-٩٣٢م) الأبعاد التي كنّا ما زلنا نعرفها له في القرن التاسع عشر (انظر مخطط علي بيه) (د. المعرض رقم ٣٢١). يحوي هذا الفناء العريض عدة أماكن تنوء بالذكريات، دمغتها منذ قرون عديدة منشآتٌ معمارية تَكَفَّل بصيانتها وبإعادة ترميمها ملوكُ الإسلام [٢]. إن الكعبة، وهي بناء مكعب تواجه أركانُه الجهات الأربع الأصل، أعظم تلك المنشآت وتقوم مقام الصميم من الورع الاسلامي. ثبتت أبعادها الحالية كما ثبت مخطّطها في عهد الحاكم الأموي الحَجّاج بن يوسف في أواخر القرن السابع الميلادي. ويتجه نحوها كل مسلم عند وقت الصلاة ويتلاقى عندها الحجّاج قبل الطواف حولها سبع مرات.

وفق التقليد الإسلامي، مرّت الكعبة بعدة عملياتٍ أعادت بناءها، ويخص التقليد منها عملية بناء إبراهيم بمساعدة إبنه إسماعيل. ويُعَرِّف الإسلامُ إبراهيمَ بكونه نبيّاً. في ذلك الحين، كانت الكعبة أقل ارتفاعاً من اليوم، كما كانت بدون سقف. وعندما رفع النبي إبراهيم آخر صفوف مداميكها، اضطرّ لأن يصعد على صخرةٍ قريبة، وانطبع قدمه على تلك الصخرة التي وُضعت، فيما بعد، أمام الكعبة ودُعيت «مقام إبراهيم». وكان يقيها في العهد العثماني بناءٌ صغير تعلوه قبة. وهنالك مكانان آخران يرتبطان بقصة إسماعيل وأمه هاجر، خادمة إبراهيم وزوجته سارة. ويدل تعبير الحِجْر على المكان الذي استقرا فيه ومكثا حتى مماتهما، ويشير إلى حدود ذلك المكان جدارٌ قليل الارتفاع، يتخذ شكلاً نصف دائري، يمتد بين ركن الكعبة الشمالي وركنها الغربي، ويُدعى الحَطيم [٣]. عاد إبراهيم إلى سورية، واكتشفت هاجر وابنها إسماعيل عيناً تروي عطشهما في مكّة، وهي زمزم التي لا تزال تنبع إلى اليوم في شمالي شرقي الكعبة ويُنسب إليها العديدُ من البركات. في العهد العثماني، كانت الناس تنالُ ماءَ عين زمزم عن طريق بئرٍ مسقوفة.

تُكوِّن الكعبة، إلى جانب مقام إبراهيم والحِجْر وبئر زمزم، نواة المسجد الحرام الرمزية، وقد أُضيفت إليها منشآت وظيفية أخرى كما أُضيفت أيضاً بعض العناصر غير الثابتة التي زالت اليوم. كان الحُجّاج يطوفون على ص ص مبلّطة دائرية تدعى «الطواف»، يحدّها عددٌ من الأعمدة المتساوية التباعد، وكان الحُجّاج يدخلونها مارين تحت عقدٍ حجري يسمّى باب بني شيبة.

كان يحفّ بالمطاف عدة مبانٍ يدعى كلٌ منها مقام وخُصِّصَ لأئمة كلٍ من المذاهب السنّية الأربعة. وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) أصبح مقام المذهب الحنفي، وهو مذهب السلطنة العثمانية، كُشكاً مفتوحاً ذا طابقين، في شمالي غربي الكعبة. أما في جنوبها الغربي وفي جنوبها الشرقي، فكان كلٌ من المقام المالكي والحنبلي كُشكاً صغيراً ذي طابق واحد وطابعٍ أقل أبّهة. وكان مقام المذهب الشافعي، وهو مذهب أهل مكة، موجوداً فوق بئر زمزم. ويبدو أن مظهر هذه المقامات لم يتغيّر إلا قليلاً بين القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين الميلاديين، بالرغم من عمليات الترميم العديدة، ويسهل التعرّف عليها في رسمات العهد العثماني. كما وُجِدَت عناصرُ أثاث أخرى في باحة المسجد، نذكر منها سلّماً متحركاً يتيح الوصول إلى باب الكعبة العالي، في الأيام التي كان يُفتحُ فيها الباب المذكور، ومنبراً وساعةً شمسية (ميزان الشمس) وبعض المماشي المبلّطة.

لربما كان أكبر تغيير في هيئة الحرم هو تغطية الأروقة بصفوفٍ من القباب المرتكزة على أعمدة من المرمر، وشُرِع العمل بها في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م-١٥٧٤م) وانتهى في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م). وتظهر عادةً هذه التغيّرات في رسمات النصف الثاني من القرن السادس عشر، كما تظهر إضافةُ مدرسةٍ جديدة أسَّسَها سليمان القانوني لتعليم المذاهب السنّية الأربعة، وشُيِّدت بلصق سور المسجد الحرام بالقرب من ركنه الشمالي. وكانت تُفتح أبواب المسجد، المعروفة بأسماء مختلفة، بفتحات فردية أو متعددة، ويبدو أن عدد الفتحات

٢- في شأن تاريخ المبنيين في العهد العثماني، انظر صبري باشا ١٨٨٣م و١٨٨٦م؛ رِفْعَتْ باشا ١٩٣٥؛ غولر ٢٠٠٢م. في شأن تعديلات القرن العشرين، انظر كردي، (بدون تاريخ).

٣- لفترة طويلة، كان هذا الحيّز النصف دائري داخلاً في مخطط الكعبة، التي لم تكن دائماً مكعّبة. وتم تشييد الجدار القصير في أيام النبي محمد، قليلاً قبل نزول الوحي عليه.

تبدّل مع الزمن، ولا تتفق المصادر تمام الاتفاق في هذا الصدد. وكان المسجد يتميّز، علاوةً عن ذلك، بسبع مآذن، سبقت ستّاً منها العهد العثماني: واحدة في كل زاوية من زوايا السور، وخامسة في الشمال الشرقي ارتباطاً بالمدرسة التي بناها السلطان المملوكي قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦م)، والأخريان في الطرف الشمالي الغربي، الواحدة بجانب المدرسة التي بناها السلطان سليمان والثانية في زاوية الزيادة، أي توسِعة المسجد.

المدينة: المسجد النبوي في العهد العثماني

تطوّر مسجد المدينة في موقع مسجد الرسول محمد، وكان يوجد في غرب منزله الذي أصبح، بعد مماته عام ٦٣٢م، مكان دفن رفاته. ودُفِن كلٌ من أبو بكر الصدّيق (٦٣٢م-٦٣٤م) وعمر بن الخطاب (٦٣٤م-٦٤٤م)، الخليفتان الأول والثاني، في جوار محمد. وأُدخِلَت قبورُ محمد وأبو بكر وعمر فى القسم الشرقي من مُصلّى المسجد النبوي منذ العهد الأموي وبقيت داخله في كافة عمليات التوسعة التالية عبر القرون. لم تتغيّر نسبة أبعاد هذا المسجد طوال القرون العثمانية الثلاثة الأولى. ولم يشاهد المسجد توسعةً عثمانية جديرة بالذكر إلا في عهد السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩م-١٨٦١م) الذي أدخل العديد من الإصلاحات على الدولة العثمانية.

يتخذ مسجد المدينة شكل المسجد «العربي»، أي أن سقفه مرفوع على أعمدة، ويتقدّمُ صحنٌ سماويٌ المُصَلّى المسقوف بينما تحيط الأروقةُ بالصحن. ويتميّز المصلّى بعدة محاريب، وهي الفجوات المحفورة في جدار القبلة للدلالة على جهة الصلاة، نذكر منها المحراب المنسوب للرسول، وهو أقدمها وشُيِّدَ في العهد الأموي، ومحراب المذهب الحنفي، وهو المذهب الأول في الدولة العثمانية. كان هذا المحراب الأخير موجوداً في العهد المملوكي وتم تجديده في مطلع عهد السلطان سليمان (٩٣٨هجرية/١٥٣١م-١٥٣٢ ميلادية). لم ينج منبرُ الرسول من الحرائق العديدة التي اندلعت في المسجد وأعيد بناؤه عدة مرات في مكانه الأصل. وقدّم السلطان مراد الثالث إلى المسجد منبرا جديداً من المرمر، ولا يزال موجوداً إلى اليوم في المسجد الحالي. في المدينة المنوّرة، اكتسب المنبرُ معنىً جديداً يتعدى وظيفته العملية: وفق العُرف التقليدي، إن البقعة المنحصرة بين منبر الرسول وقبره مكانٌ مميَّز ومبارك، يُدعى «الروضة»، وتكتسب الصلاة فيه ثواباً خاصاً. وبما أن المنبر والقبر يعرِّفان نواة المسجد روحانياً، وَجَبَ رسمُهما في كافة الرسمات الممثّلة للمسجد النبوي، وحتى أبسطها. أما السُّطَيْحة المستطيلة المرفوعة على بعض الأعمدة (المحفل، الدكة، المكبرية) والمخصصة لمؤذّني المسجد ومكبّريه، فكثيراً ما نراها في الرسمات بالرغم من كون شُحنتها الرمزية أدنى من السابقة.

في عهد الخليفة الأموي الوليد الأول (٧٠٥م-٧١٥م)، أُحيطت الحُجْرةُ التي حَوَت القبور بحائطٍ يحدّ حيِّزاً مخمَّس الأضلاع، بغية تفادي الالتباس بين القبر وبين الكعبة. ثم عُزِلَ الحائطُ المذكور عن المـُصلّى بواسطة مصبّعات معدنية تشكـّل اليوم شكلاً مستطيلاً بين أعمدة القسم المعني من المـُصلّى. وزاد في عظمة هذا المكان قبةٌ رُفِعت فوق القبر، شُيِّدت أولاً بالخشب ثم بالحجارة. من جرّاء ذلك، كثيراً ما نرى رسم القبر في شكل ضريحٍ مستطيل الشكل تعلوه قبةٌ منفصلة عن المـُصلّى، وليس هذا التصوير مطابقاً للحقيقة. أثناء أعمال الترميم المجراة في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م-١٨٣٩م)، أعيد بناء القبة وطُلِيَت باللون الأخضر لأول مرة (١٢٢٨م هجرية/١٨١٣ ميلادية)، ولا نزال نراها بهذا الشكل واللون، مما أضفى عليها تسمية «القبة الخضراء». ولا يفوت رسمات القرن التاسع عشر تسجيل تغيير المظهر المذكور. قبل ذاك، كثيراً ما كانت القبة تُصَوّر محاطةً باللَّهب، تمثيلاً للتعبير الشائع «قبة النور». لنذكر أيضاً، بين العناصر الكثيرة التمثيل في الرسم، قماش الديباج ذا الأشرطة المسنّنة الذي كان يغطي الحُجْرة، والحيّز الفارق بين الحجرة وبين الستارة القصيرة الارتفاع أمامها، الذي يقال إنه مكان قبر فاطمة ابنة النبي محمد من زوجته الأولى خديجة.

يفتح المصلّى شمالاً على صحنٍ محاطٍ بأروقة. في العهد العثماني، كان يحوي هذا الصحن حديقةً مغلقةً ينبت فيها النخل، في مكان الحديقة المنسوبة إلى فاطمة. بالقرب منها، كان هنالك بئرٌ وبناءٌ صغير مزوّد بقبة يحوي زيت الإنارة والمصابيح المرفوعة. وكان المسجد يُدْخَل من أربعة أبواب رئيسة، موجودة منذ العهد الأموي: في الشرق، باب السلام المفتوح في جوار جدار القبلة، ويدخل منه الحُجّاج، وباب النساء؛ في الغرب، باب جبريل وباب الرحمة (أو باب المطر). وكان المسجد يتميّز بخمس مآذن، أضيفت إحداها في عهد السلطان سليمان.

الرسمات المساحية بالمنظور المفتوح دَوَراناً

في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان معظم رسمات المسجدين عبارة عن اسقاطات مسطحة مساحية تتطلب قراءتُها اللجوء إلى عدة مَحاوِر نَظَر. وبما أن هذه الرسمات عديمة العمق الفراغي، فإنها كانت تؤدي دور رسمٍ أولي يحدّد المواقع أو الأمكنة. والعناصر مرسومة فيه بالإسقاط العمودي أو الأفقي، وتكملها عادةً كلماتٌ مفسِّرة تشير إلى فحوى الرسم. وتتخذ الكلمات والإسقاطات الأفقية اتجاهات مختلفة. يجب عندئذٍ إدارة الرسم لتفهّمه، أو يجب أن يغيّر الناظرُ مكانَه بالنسبة للرسم كي يواجه محاور قراءة الرسم واحداً بعد الآخر. ولا يحافظ نمط التصوير المعني على الإدراك الحسي للمبنى، بل يقدّم نظرةً مجرّدةً عنه. ويؤدي إلى توليد إحساس فتحِ ما كان مطوياً، في عدة جهات، ويفرض على النظر أو على جسم الناظر، أن يرافق عمليات الفتح المذكورة. يجمع أسلوب التصوير هذا، المعروف باسم المنظور المفتوح (perspective rabattue)، عدة وجهات نظر (خلافاً لرسم المنظور الهندسي الأحادي البؤرة المعرَّف رياضياً في عهد النهضة الأوربية Renaissance) ويقدّم نظرةً مجرّدةً عن الغرض الذي يصوّره.

غير أن المنظور المفتوح المعني يتيح إمكانية تمثيل وجهات رمزية كما يتيح دمجها في الصورة حيثما يتطلب الأمر ذلك. عند تصوير مسجد مكّة، يتيح هذا الأسلوب تصوير سقوف مقامات المذاهب السنّية الأربعة، فيجمع اتجاهاتها في الوسط تجاه الكعبة، مشيرا بذلك إلى اتجاه المصلّي المسلم ولاتجاه الإمام الذي يؤمّ الصلاة من كلٍ من هذه الأبنية الأربعة. ويُعَمَّم هذا الاتجاه الرمزي ليشملَ عناصر أخرى من الصحن، فتظهر وكأنها مُسْتَقْطَبَة مغنطيسيا تجاه الكعبة [٤]. علاوةً عن ذلك، تشابه حركة الدوران الذي يفرضه تعدّدُ محاور النظر على الناظر، للرؤية المتتالية، الحركةَ الذهنية والعينية التي يقوم بها الحاج عند طوافه حول المبنى المقدّس: تفترض حركةُ النظر حركةً في الحيّز الفراغي، تسبق مَنْسِك الطواف الذي ينتمي إلى مناسك الحج الإجبارية في الحيّز المصوّر في الرسم.

ويظهر أسلوب التصوير هذا في صفحات رُسِمَت على مواد مختلفة حُضِّرَت في إطار تأدية واجب الحج أو في سبيل الدعوة لتأديته: على شهادات الحج، وأدلاّء الحج ورسائل وصف رحلة الحج، وعلى ألواحٍ خزفية مقدّمة إجابةً لِنُذْرٍ ومثبتة في أماكن العبادة. يرجع أصل هذه الصور إلى تقاليد ظهرت في القرون الوسطى، نجد أقدمَها في مجموعة صورٍ مرسومة على شهادات حج تعود إلى أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر الميلاديين [٥]. وتتميّز الصور المساحية العثمانية العهد عن الصور الأقدم منها بتصويرها الأوابد في حالتها المزامنة للرسم.

نجد إحدى أوائل الصور المؤرخة في مخطوطةٍ أُعِدّت لخزينة السلطان سليمان القانوني، كما يُذكر ذلك في نص الإهداء. ويتخذ هذا النص، الموجّه إلى السلطان، شكل قصيدةٍ طويلة محرّرة باللغة التركية الشرقية (جاغاتاي) تحت عنوان «صِفات الحرمين». حُرِّرَ النص عام ١٥٢١م، أي بعد وقت وجيز من ارتقاء سليمان كرسي الحكم فأصبح «خادم الحرمين [٦]» الجديد. وتشهد صورة الحرم المكي على حالته في آخر عهد المماليك، فتظهر فيه جلياً مدرسةُ قايتباي ومئذنتُها التي بُنِيَت أربعين عاما قبل ذاك، وبالرغم من كونها مبنية خارج سور المسجد لصقاً بجداره الشمالي الشرقي، تظهر المدرسة في هذا الرسم وكأنها مبنية داخل الصحن. ولا تغطي القبابُ أروقة الصحن، ولا يُبدي بعدُ مقامُ المذهب الحنفي طابقين اثنين. أما مسجد المدينة المنوّرة، فلا يزدان إلا بأربع مآذن.

٤- ويُرَجَّح أن الاستقطاب المذكور إرثٌ ينتسب إلى مخططات الجغرافيا المقدَّسة. تتوزع مختلف مناطق العالم بطريقة أحادية المركز حول دائرة مركزية تحوي، على الأقل، الكعبة كما تحوي في الكثير من الأحيان العناصر الرمزية الموجودة في المسجد الحرام والموجَّهة تجاه الكعبة. وفي بعض الرسمات القليلة العدد تظهر صورة الحرم في وسط هذه الرسمات الرمزية، انظر مونيخ ١٩٨٢م رقم ٤٦.

٥- أَقْسُويْ ومِلشتاين ٢٠٠٠م. بالنسبة للقرون الوسطى، توفر لنا لوحة حجرية منصوبة في الموصل مثالاً نادراً عن الرسم على مواد تختلف عن لفائف الحج. للاطلاع على مناقشة تاريخ النصب المعني، انظر ك.جوفان في هذا الدليل (ص ٤٩٩).

٦- يبدو أن هذا النص لم يُحْفَظ إلا في نسخة واحدة في مكتبة مدينة منيسا؛ انظر إصفهاني ٢٠٠٥م ص ص ١٣-١٤.



الصورة ٢. مسجد المدينة، رسم بالألوان مقتطف من «صفات الحرمين»، حوالى ١٥٢١، المكتبة البلدية في مدينة مانيزا (تركيا)

في المُصلّى، يشير الرسم إلى صفوف الأعمدة بصفوف الأقواس التي يعلو بعضها فوق بعض. ونتعرّف بسهولة فيه على موضع القبر المحاط بالمصبّعات، كما نرى محراب الرسول على يسار المنبر. وفي وقتٍ لاحق، زُوِّدَ رسمُ المنبر بقبعةٍ مخروطية الشكل مميّزة للمنابر العثمانية. علاوة عن ذلك، نرى الحجرةَ وضريحَ فاطمة (؟) مغلَّفَين بأقمشة سوداء ذات أشرطة مسنّنة، وذهبت دقة الرسم إلى تفصيل النص المخطوط عليها.

يسعنا أن نذكر، بين الصور المرسومة حوالي منتصف القرن السادس عشر، وثيقتين محفوظتين في متحف طوب قبو (Topkapi). أولاهما رسالة شكر (تشكّر نامه) تزيّنها صور الأماكن المقدّسة



الصورة ٣. مسجد المدينة، رسم بالألوان مقتطف من «صفات الحرمين»، حوالى ١٥٢١، المكتبة البلدية في مدينة مانيزا (تركيا)

في منطقة مكـّة والمدينة، أرسلتها السلطات المحلّية إلى السلطان سليمان. تتخذ هذه الوثيقة شكل لفيفة ورقية غنية بالصور الملوّنة وتُبرز أعمالَ ترميم منظومة جرّ المياه التي مَوَّلَها السلطان سليمان [٧]. أما الوثيقة الثانية فهي شهادة حج، في شكل اللفيفة، تشهد على إتمام الحج عن الأمير المتوفي شاه زادة محمد، الذي توفي عام ١٥٤٣م وحجّ عنه إلى الحرمين شخصٌ آخر [٨].

إن أكبر مجموعة من الصور العثمانية العهد، المرسومة وفق أسلوب المنظور المفتوح دَوَرانا، تتكوّن من النسخ المصوّرة العديدة عن كتاب «فتوح الحرمين [٩]»، وهو نص شعري محرَّر باللغة

٧- متحف طوب قبو (المحفوظات E ٧٧٥٠). تتتخذ الرسالة شكل اللفيفة ولم يتم نشرها إلا حديثاً: إسطنبول ٢٠٠٨م ص ص ٢٠٤-٢٠٦ و٢٣٥.

٨- لنشرٍ كامل لصور هذه اللفيفة، انظر إسين ١٩٨٤م.

٩- في شأن الدورة التصويرية الواردة في هذه المخطوطات، انظر ملشتاين ٢٠٠٦؛ للنشرة الحديثة للنص الفارسي، انظر لاري ١٩٦٨م.

الفارسية يصف مناسِكَ الحج وأشكال الأماكن المقدّسة في الجزيرة العربية (الصورة ١، د. المعرض رقم ٣١٥ و٣١٦). أتمّ بعض الأدباء، الآتين من المناطق الفارسية اللسان والقاطنين في مكـّة، نَسْخَ عددٍ من هذه المخطوطات في غضون القرنين السادس عشر والسابع عشر. ويظهر أن الصور رُسمت في مكـّة أيضاً قبل أن يشتريها وينصرف بها بعض الحُجّاج الأثرياء. نَسَخَ شخصٌ آتٍ من البَدَخْشان، وهي منطقة تنقسم اليوم بين أفغانستان وبين طجيقستان، حيث تغلب اللغة الفارسية، إحدى المخطوطتين المعروضتين هنا. ويذكر نص التقديم أنه انتهى من نسخها أمام الحجر الأسود المثبت في الكعبة [١٠]. وأُعيد نسخ هذا النص ورُسمت له الصور حتى القرن التاسع عشر، وتقتَبِـسُ الصور المتأخرة أسلوبَها من تقاليد مخطوطات القرن السادس عشر.

ونرى النزعة المحافظة عينها في شهادات الحج المحرَّرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بما فيها الشهادات التي استخدمت وسائل الطبع الحجري [١١] الحديثة العهد. في أواسط القرن التاسع عشر، شاهد المكتشف البريطاني رِتشارد فرانسِس بورتن (١٨٢١-١٨٩٠م) توالي عمليات انتاج هذا النمط من الصور المبسَّطة قائلاً: «تكوِّن هذه الصورُ مزيجاً شرقياً مميزاً من المخطَّط الأرضي ومن رسم الواجهات، المرسومة بقلم الرصاص والحبر، والمزوّدة بألمع الألوان [١٢]». وفق روايته لسفره في الجزيرة العربية، تَخَصَّصَ بعضُ الهنود المقيمين في مكـّة بإنجاز هذا النمط من الصور التي كان يعود بها الحُجّاج إلى بلادهم تثبيتاً لذكرياتهم.

كما تمّ تزيين كتب أخرى بصور مماثلة، لم تخضع بعد لعملية جرد عِلْمية كاملة. علاوةً عن الكتب التي تقص رحلة الحج، نجد نصوصاً عن تاريخ المدينتين المقدّستين وكتباً تعدِّدُ حسناتها، كما نجد كتب الجغرافيا. نذكر، بين الكتب المزودة عموما بالصور، كتابي تأريخ من مطلع القرن السابع عشر، حرَّرهما باللغة التركية العثمانية محمد عاشق: «أخبار مكة» و «اختصار الخُلاصة» [١٣]. في النسخ التي اطلعنا عليها، تُميِّزُ الصورُ، التي تماثل في أسلوبها صورَ «فتوح الحرمين»، بكونها منفَّذة باستخدام ألوانٍ أدنى جودة. ويبدو من هذا الفارق في التنفيذ أن مخطوطات فتوح الحرمين المصوَّرة تنتمي إلى فئةٍ من المخطوطات الأدبية أغنى وأثمن من الأخرى.

كما تظهر الصور المرسومة وفق أسلوب المنظور المفتوح دَوَرانا، ابتداءً من القرن السابع عشر، على لوحاتٍ وألواح خزفية أُنتِجَت في مشاغل إزنيق أو مشاغل قطاهيا وأُعِدَّت لتزيين أماكن العبادة. وتشهد هذه الصور على أحد أوائل أشكال انتشار صور الحرمين على الصعيد العام وعدم اقتصارها على الصعيد الخاص. غَلَتْ عملية شراء المخطوطات أو شهادات الحج المزيّنة والمصوّرة ولم تكُن في مُتَناول الجميع. وبالفعل، خَلَتْ من الصور معظم دلائل الحج وكتبه وغيرها من المؤلفات المهتمة بتاريخ المدينتين المقدّستين وبحسناتهما. كما اتّسَمَت شهاداتُ الحج بصفات مماثلة. واقتصرت الشهادات المُصوَّرة، المُنفَّذة إبان العهد الأيوبي، على أعضاء العائلة الحاكمة أو على بعض الأشراف. استناداً إلى نصوصٍ لَحِقَت فترةَ القرون الوسطى، يذكر بعض الأخصائيين أن هذه الشهادات كانت تُعلَّقُ في المساجد؛ ونجد حينئذٍ في هذه الظاهرة أولى إثباتات العرض العام لصور الأماكن المقدّسة في أماكن العبادة، ولكن على مادةٍ أقصر عمراً من الخزف [١٤].

كانت الصور الخزفية تُثبتُ عادةً على جدار القبلة، بمقربةٍ من المحراب أو داخله، واختلف شكلها من اللوحة البسيطة المربّعة أو المستطيلة إلى مجموعات لوحات تغطي كامل ص ص المحراب. وتظهرُ هذه الصورُ بمظهرَ الإشارة المتمِّمة للإشارة المجرَّدة الدالة على جهة الصلاة (تجاه مكة والكعبة) التي يشير إليها المحراب بالذات. ويبدو أن هذا التذكير البَصَري بالمكان الذي تُوَجَّه نحوَه الصلاة ابتداعٌ ظهر في العهد العثماني، لأن الرسم الوحيد الوارد في المحاريب السابقة كان يقتصر على صورة مصباحٍ، يرمز للنور الإلهي ويصوّر بَصَرياً آية النور (سورة النور **٢٤** الآيات ٣٤-٣٥). وتؤدي صور الأماكن المقدسة أيضاً دور الدافع إلى الحج، وتقوّي النصوصُ المكتوبة دعوتَها، سواء كانت قرآنية أم مختارات شعرية فارسية أو تركية عثمانية (لنذكر هنا أن صور المدينة المنوّرة أقل بكثير من صور مكـّة وأنها ترافق دائماً تلك الأخيرة) [١٥].

١٠- انظر دليل المعرض رقم .S.P ١٣٨٩.

١١- نذكر بين النسخ المؤرّخة: باريس ٢٠٠٧م رقم ٧٢ (مؤرخ ١٧٧٨م)؛ لندن، سوذبيز «المخطوطات والصور الصغيرة الشرقية» ٢٦ أبريل ١٩٩٠م، الحصة رقم ١١٢ (مؤرخ ١٧٨٧م)؛ في شأن نسخة مطبوعة على الحجر في منتصف القرن التاسع عشر، انظر وِتْكام ٢٠٠٩م، الصورة ٧.

١٢- نبذة مأخوذة عن فيشر وفيشر ١٩٨٢م ص ٤١.

١٣- بين النسخ المصورة، راجع المخطوطات التالية: برتفنيال ٨٦٧ (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)؛ جلبي عبدالله افندي ٢٤٩ (١١٠٢هـ/١٦٩٠م)؛ خالد افندي ٥٩١ (١١٠٥هـ/١٦٩٣م)؛ في المكتبة السليمانية، إسطنبول، والإضافي التركي ١٠٨١ في المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس.

١٤- أَقْسُويْ وملشتاين ٢٠٠٠ ص ١٠٣ والملاحظة ٦.

١٥- إن ألواح الخزف ومجموعات الألواح التي تمثل مسجد المدينة المنوّرة والتي مازالت مثبتة في مكانها الأصل لا توجد لوحدها بل ترافق دائماً صور المسجد الحرام، بينما تكثر الحالات المعاكسة.

تَظهر الصور على الخزف في القرن السابع عشر، ويعود أقدمها إلى عام ١٦٤٠م [١٦]. يبدي بعض الصور اسم الشخص الذي قدّمها، إلا أن ظروفَ التقديم غير مذكورة. هل يُجيبُ تقديمُها نـذْراً بعد تحقيق الحج، أم هو مجرّدُ هبةٍ للمسجد، تهدف إلى التذكير باسم المقدِّم وإلى جلب دعاء المؤمنين له بالثواب؟ نجد أحد أكمل النصوص على لوحةٍ موجودةٍ حالياً في ممر الدعامة اليمنى من الحيّز المنحني في صدر كنيسة أيا صوفيا في إسطنبول. تم تنفيذ هذه اللوحة إجابةً لطلب شخص من إزنيق، إلا أن النص لا يحدد ظروف الأمر ويكتفي بطلب دعاء المارّ لجلب الثواب على مقدِّم اللوحة. هنالك مجموعةٌ من اللوحات تنتمي بشكلها العمودي إلى صفحات المخطوطات التي تقتبس منها بعض الأفكار. ويكمن الفارق في إضافة رقعةٍ علويةٍ مستطيلة تورد نصاً من القرآن (د. المعرض رقم ٣١٧ و٣١٨)، أو تورد أحياناً الشهادة بالتوحيد. إضافةً إلى هذه المجموعة العالية التجانس، نجد بعض اللوحات الأقل إتقاناً، وهي مستطيلة الشكل أو مربَّعته. كثيراً ما تخلو هذه الصور من رسم الأروقة، وتقتصر على عناصر الساحة. وقد نجد في الصورة مئذنتين متطابقتين تحيطان بالقسم الأوسط من الساحة. وقد نجد في غيرها من الصور كافة المآذنَ موجَّهةً تجاه وسط الساحة، مما يشدِّد الحركة الدَوَرانية المذكورة أعلاه [١٧].

مقابل هذه الصور المُخْـتَـزَلة، هنالك مجموعة أخرى تلجأ إلى أسلوب المنظور المفتوح دَوَراناً وتتكوّن من ألواح تفوق أبعادُها المترين وتغطي كامل فجوة المحراب أو قسماً من جدار المصلّى. نجد أشهرها محفوظة في قسم الحريم من قصر طوب قبو في إسطنبول، في مصلّى الوالدة سلطان (أي والدة السلطان)، وفي مسجد الخدّام السود (المخصيين) وفي مدرسة الأمراء [١٨]. ونجد فيها، بالقرب من الصور الكبيرة الممثّلة لمساجد مكّة والمدينة، صورة جبل عَـرَفـة، وهو نقطة انطلاق مجمل احتفالات الحج (انظر الصورة المرافقة لنص فاينشتاين) [١٩].

إدخال البعد الفراغي الثالث وتقليل عدد اتجاهات القراءة

إن غَـلَـبَ وجود الصور ذات المنظور المساحي في مطلع الفترة العثمانية، تُبدي بعض صور الحرمين، منذ القرن السادس عشر، إدخال أساليب تدل على الحيّز الفراغي. بالرغم من التصوير العامودي لسور الأوابد، الذي لم يكن قد تطوّر بعدُ لرسم البعد الثالث، نرى بوادر إدخال البعد الثالث في معالجة المباني الموجودة في الساحة أو نراها في رسم أقواس الأروقة. ويخفّ طابع تعدّد اتجاهات الصورة، كما تضعف ظاهرة فتح الصورة دَوَرانا فيتوقف استخدامها بطريقة منهجية. ويختفي اتجاه القراءة الذي كان يستدعي قَلْبَ الصورة رأساً على عقب أو يتطلّب النظر إليها بإدارة الرأس نحو الأسفل. ويختار المُصوِّر ألا يرسم الرواق الشمالي الشرقي رأساً على عقب فيبدي للناظر، عوضاً عن ذلك، ص ص جدارِ السور الخارجي. فيُقلَبُ إذن جانبُ المَبْنى المذكور. بطريقةٍ مماثلة، لا تُدارُ في هذا الأسلوب مباني مقامات المذاهب الأربعة نحو الكعبة بل تتجلّس قياماً، مما يحدث تغييراً مرئيا لأن الرسم يستغني عن الإشارة الرمزية لمعنى الاتجاه بعدما روعِيَ الاصطلاح المذكور حتى ذلك الحين. كما أن معظم الكلمات المفسِّرة الواردة في الرسم أصبح أفقياً وواكب نزعة تقليل عدد اتجاهات النظر والقراءة. إلا أن توحيد الرسم لم يتحقق بعد ولن يتحقق ذلك إلا بإعتماد نقطة نظر الفارس (perspective cavalière)، إنطلاقا من القرن الثامن عشر، أوإعتماد وجهة نظر الإسقاط المتوازي المقياسي (projection isométrique) أو وجهة نظر المنظور الهندسي (perspective géométrique) لرسم الآبدتين.

إن الرسمات التي تتخلى عن الإشارة الرمزية لمعنى الاتجاه وتميل إلى تقليل عدد وجهات النظر تبقى قليلة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ثم تكثر في القرن الثامن عشر، وهي الفترة التي تنتشر فيها أيضا الرسمات من منظور الفارس. لنتفحص هنا الرسمات الواردة في نسخة من فتوح الحرمين تعود إلى نهاية القرن السادس عشر(الصورة ٤) [٢٠]. إن صور هذه المخطوطة عالية

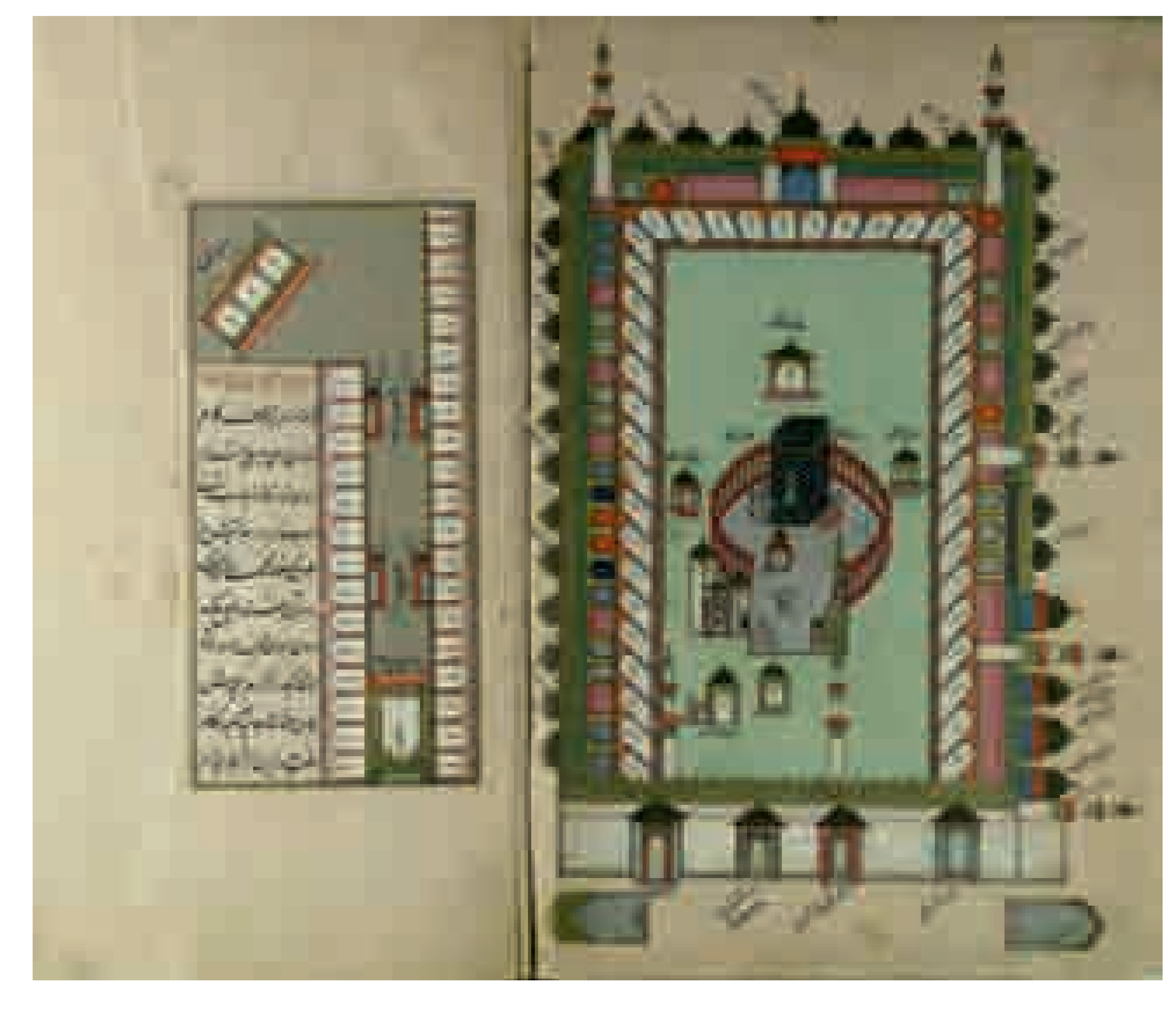
١٦- إركن ١٩٧١م رقم ٥.

١٧- انظر إردمان ١٩٥٩م المجموعات ب و ج، إركن ١٩٧١م، المجموعات ٢ و٣.

١٨- لسور المسجد الحرام انظر إردمان ١٩٥٩م، المجموعة ب؛ إركن ١٩٧١م، المجموعة ٥.

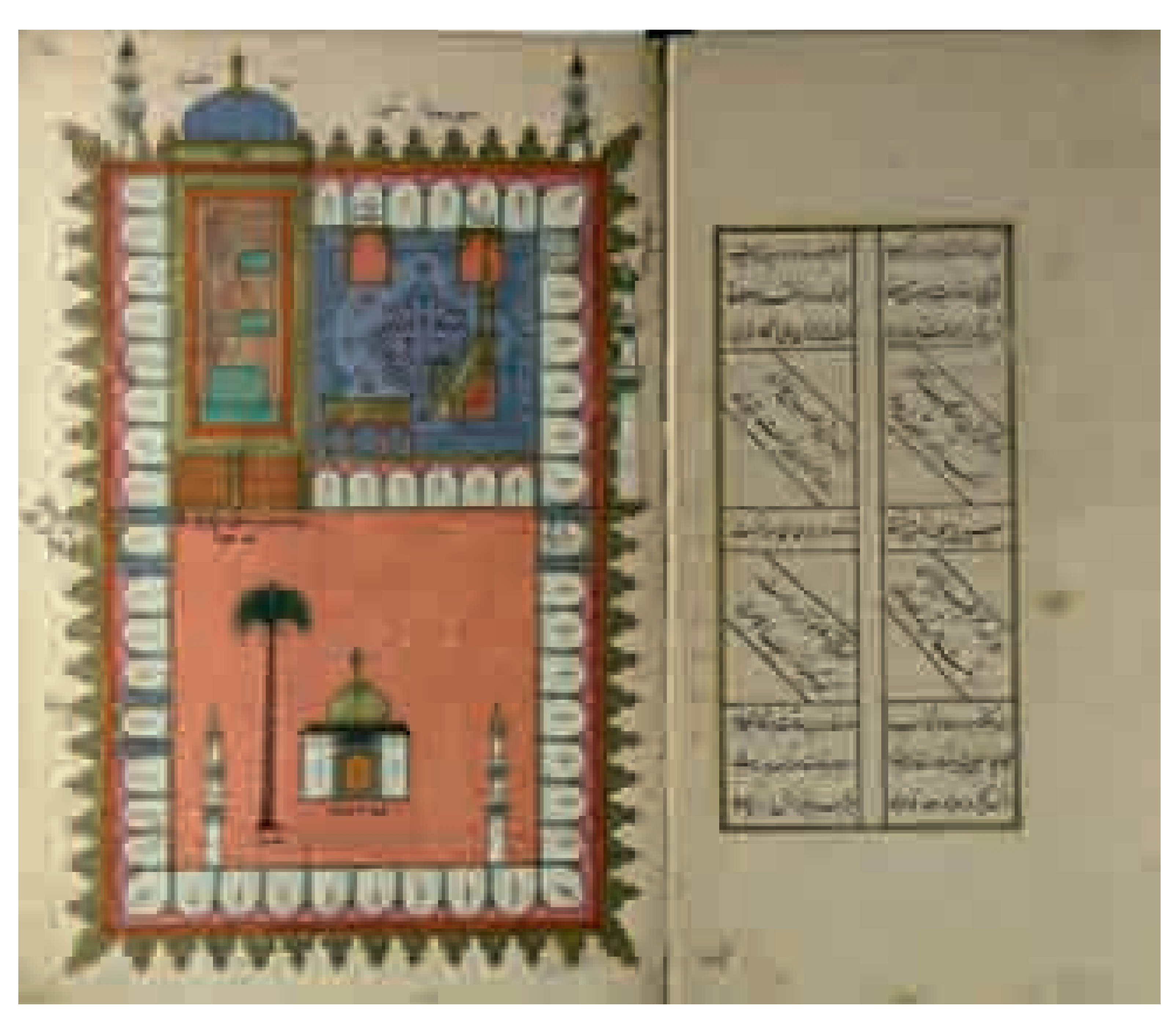
١٩- في مصلّى الوالدة سلطان وفي مسجد الخصيان السود. وأعيد تثبيت صورة أخرى لجبل عَـرَفة، في تاريخ مجهول، في ممر الحريم المدعو «الطريق الذهبي»، إلا أن موقعه الأصل مجهول.

٢٠- نور عثمانية ١٨٧٠م، نسخ غلام علي هذه المخطوطة في مكة. قد يشير التقديم إلى تاريخ ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م-١٥٩٨م. يظهر هذا الاسم في نصوص تقديم مخطوطتين أخريين من فتوح الحرمين المنسوختين في مكة: لندن، كريستيز، فن العالمين الإسلامي والهندي، ٦ أكتوبر ٢٠٠٩م، الحصة ٢٢١ (٦٥(٩)هـ/١٥٥٧م-١٥٥٨م)؛ الرياض ١٩٨٥م، رقم ٥٢ (يونيو ١٥٨٢م). إن افترضنا أن الناسخ هو الشخص نفسه فإن فترة عمله قد طالت.



الصورة ٤. حرم مكة، مخطوطة «فتوح الحرمين»، نسخ غلام علي في مكة، ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧-١٥٩٨، إسطنبول، نوروسمانيا، ١٨٧٠

الإتقان وتُـقَارَن بمنتجات المشغل السلطاني (نـقـاش خـانـه) في إسطنبول. إن كلاً من التدقيق في رسم التفاصيل، وسعة تنوّع الألوان، وجودة المواد الملوّنة، والإدخال الخفيف للبعد الحيّزي الثالث، والميل إلى تقليل عدد وجهات النظر، يُبعِدُ هذه المخطوطة عن التبسيط والمسح المألوفين في الرسمات التي نراها عادةً في نُسَخ فتوح الحرمين. في صورة المسجد الحرام، تُبرِز خطوطٌ قليلة الانحراف في رسم أعمدة الأروقة الجانبية وفي الرواق الأعلى هيئةً عامة تشبه هيئة صندوق، ويتهيأ للناظر أنه ينظر من أعلى إلى ساحة المسجد. إلا أن هذا العمق العامودي يناقض التلاصق المباشر بين الرسمات الجَبهية الممثّلة لجدران سور المسجد، التي نراها مرسومة كالواجهات المفتوحة دَوَرانا إلى الخارج. أما عناصر الساحة فهي كلّها مرتكزةٌ على سطرٍ أفقي ومجلّسة. ولكننا عندما ننظر، على اليمين، إلى النصوص المفسِّرة للأبواب، تتطلّب قراءتُها إدارةَ الص ص ربع دورة نحو اليسار كي



الصورة ٥. مسجد المدينة، مخطوطة «فتوح الحرمين»، نسخ غلام علي في مكة، ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧-١٥٩٨، إسطنبول، نوروسمانيا، ١٨٧٠

يتسنى لنا أن نقرأها، وهذا ما يذكّر بأساليب الرسم السابقة. أما الكعبة والأعمدة المحيطة بالمطاف، والحطيم، ومقاما المذهبين الحنفي والحنبلي، وسلّم المنبر، وبئر زمزم، فرُسِمت بأبعادها الثلاثة، لا بالرسم الجبهي أو بالمقطع العرضي. ويضاف هذا البعد الفراغي الثالث الأفقي، المائل إلى هيئة المنظور الهندسي، إلى العمق العامودي الناتج عن وجهة النظر من أعلى إلى أسفل.

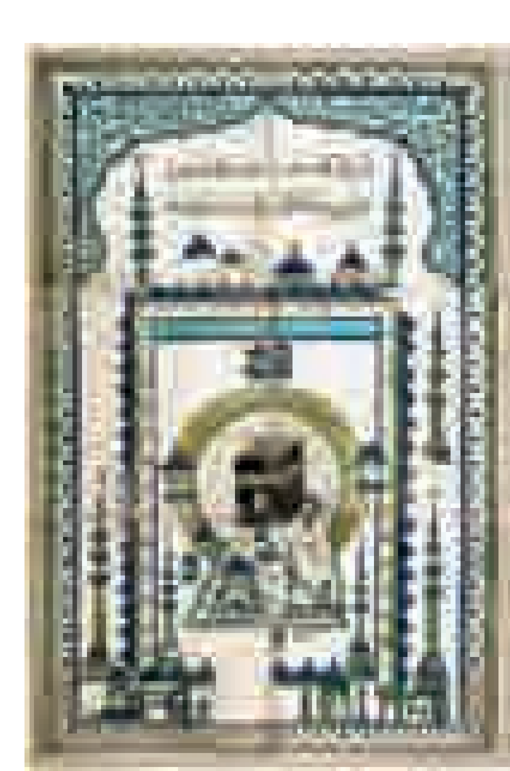
في المخطوطة عينها، لم يُطبَّق إدخالُ البعد الفراغي الثالث، والميلُ إلى توحيد وجهات النظر، على صورة المسجد النبوي (الصورة ٥)، حيث بقيت أروقته الخارجية مفتوحةً إلى الجهات الأربع. وتتميّز هذه الصورة عن غيرها من الإسقاطات المساحية بدقتها العالية في التنفيذ وبعدد محدود من التفاصيل المرسومة بأبعادها الثلاثة: ألا وهي محرابا المصلّى وسلّم المنبر.

وان عمليات إدخال البعد الثالث بالنظر من أعلى، والتخلي عن الرسمات الجبهية لبعض العناصر، نجدها في رسمات أخرى واردة في بعض المخطوطات واللوحات الجدارية (fresques murales) والخزف [٢١]. بالرغم من ذلك كله، لم ينتشر استخدام المنظور من أعلى إلا قليلاً، ويشار عادةً إلى البعد الثالث باستخدام الخطوط المنحرفة على الأشياء المصوّرة بأبعادها الثلاثة. يضاف إلى ذلك الإقلال من وجهات القراءة، يرفقه انعكاس اتجاه الرواق الشمالي الشرقي وتجليس كافة عناصر الساحة. نشاهد هذا التطور في الرسم على مجموعة من اللوحات الخزفية المنتجة في النصف الثاني من القرن السابع عشر [٢٢]، حيث يبدو رسم مسجد مكة، ويحفظ متحف اللوفر نموذجا منها (الصورة ٦). اختفت هنا حركة الدوران للرسمات المسطحة المذكورة أعلاه: لأن كافة العناصر الموجودة في ساحة المسجد الحرام كما المآذن ترتكز على خطٍ أفقي، بينما رُسِمت الكعبةُ بأبعادها الثلاثة. أما الأروقة المحيطة بالساحة ففُتِحَت نحو الخارج وإلى أعلى، باستثناء الرواق السفلي (الشمالي الشرقي) فاستُبْدِل برسمٍ لجدار السور. ونجد أمام هذا الأخير عدداً من العناصر المرسومة بالرسم الجبهي أو بأبعادها الثلاثة لتشكّل ما يذكّر بصورة غير واضحة كامل الوضوح، بمختلف المباني المجاورة وبالمسعى. كان المسعى آنذاك عبارة عن مسلكٍ في الهواء الطلق، يمر أمام الجدار المذكور ويربط بين أكَمَتي الصفا والمروة. وكان يتوّج كلاً من الأكَمَتين المذكورتين ملجأ يفتح أولهما بثلاثة أقواس ويفتح الثاني بقوس واحد. وكان الحاج يسلك المسعى سبع مرات (السعي) تذكيراً ببحث هاجر عن الماء، وكان يرملُ (يسرع في المشي) على قسمٍ من المسعى تدل عليه أربع ركائز خضراء. تدل هذه الإشارةُ إلى المسعى، إلى جانب صورة جبل عَرَفة، الذي يظهر في شكل تلّةٍ صغيرة في أعلى الرسم، وصورة خيمة الحاج، على استهداف جمع عدة مراحل من الحج في صورةٍ واحدة. وسنرى أن هذه النزعة ستقوى بالتالي أثناء القرن الثامن عشر في رسمات منظور الفارس. خلافاً للمُتَوقّع، لا تكتسب هذه الصورة صحةً عند مقارنتها برسم المنظور المفتوح، وذلك بالرغم من هيئتها التي تبدو أقل تبسيطاً. إذ يتضح أن هذا الرسم يناقض، في العديد من تفاصيله، المصادر الأدبية المتوفرة ويتجلى أنه أقل دقةً، بالنسبة للحقيقة، من بعض الإسقاطات المسطحة: إن مواقع عناصر الساحة فيه عشوائية، ولا توافق مقاماتُ المذاهبِ الأربعة وصف الكتب.

كما نشاهد تقليل عدد محاور القراءة وإدخال العناصر الثلاثية الأبعاد في صور مخطوطات كتاب «دلائل الخيرات». يتكوّن هذا الكتاب الشائع آنذاك، وحرّره الصوفي المغربي الجزولي في القرن الخامس عشر، من مجموعة أدْعِيَة تبجّل النبي محمد، يسبقُها تعدادُ أسماء الله الحُسنى ووصفٌ لحَسَنات قبر الرسول. وكثيراً ما كان يضاف إلى هذا المقطع من الكتاب صورٌ متفاوتة التعقيد: رسمات مبسّطة للقبر ولمنبر المدينة المنورة، رسم كامل المسجد، صور مركّبة لمساجد مكة والمدينة (د. المعرض رقم ٣١٩)، قد يضاف إليها أيضاً صورة الحرم الشريف في بيت المقدس. ينتمي إلى الفئة التي ذكرناها عدةُ صورٍ في مخطوطات نُسِخَت في القرن الثامن عشر وفي مطلع القرن التاسع عشر [٢٣]: قُلِبَت فيها الأروقة السفلى، وصُوِّرت فيها بعض العناصر بأبعادها الثلاثة، وتظهر فيها بعض أساليب رسم تدوير الأجسام (effets de modelé). ولكن يتردد الكثير منها في تجليس كافة العناصر المبنيّة في ساحة المسجد الحرام، ليفضِّل الحفاظ على الإشارة الرمزية لمعنى الاتجاه. إذ تبقى مقامات المذاهب السنيّة، بالرغم من رسمها بأبعادها الثلاثة، موجهةً تجاه الكعبة. أخيراً، قد تُكمِلُ الإشارةُ إلى مراحل أخرى من الحج، وإلى بعض عناصر تضاريس المنطقة، رسمَ الحرمين، مما يُفسِح إطارَ التصوير، على غرار صور منظور الفارس المزامنة لهذه الصور.

منظور الفارس وتوسيع الإطار

بينما تتابع رسمات الإسقاط المساحي ديمومتها في سياق خاص بها، وبينما تكثر أساليب رسم أخرى موازية، يتميّز القرن الثامن عشر بانتشار صور الحرمين برسم منظور الفارس. نجدها

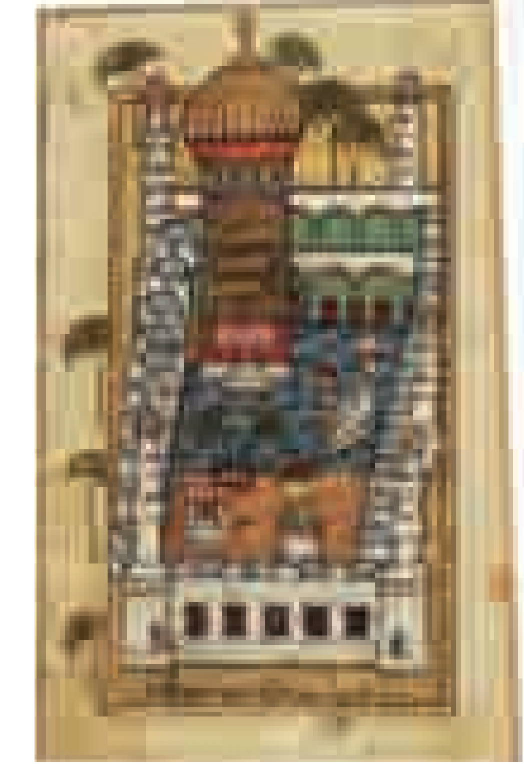


الصورة ٦. حرم مكة، صفيحة من خزف ازنيك، القرن السابع عشر، باريس، متحف اللوڤر، قطاع الفنون الإسلامية، OA ٥٥٨/٣٩١٩

٢١- في مخطوطة مؤرخة من عهد مراد الثالث، بعنوان جواهر الغرائب، للمؤرخ جنّابي، نجد صورة المسجد الحرام، انظر بورتلاند ١٩٧٩م ص ٣٤. في سفري حصار، غربي الأناضول، هنالك لوحة جدارية تزين جدار القبلة في مسجد خزنة دار، تعيد استعمال مبدأ التصوير المذكور للحرمين المصورين جنبا لجنب؛ انظر ديلافر ١٩٧٠م. قد ترجع هذه اللوحة إلى أواخر القرن السابع عشر أو مطلع الثامن عشر. من أجل نموذج مرسوم على الخزف، انظر اللوحة المثبتة على الدعامة الشمالية الغربية في جامع الوالدة الجديد، إسطنبول، إردمان ١٩٥٩م، رقم ١٣ وإركن ١٩٧١م رقم ٢٩.

٢٢- تحفظ الصور الأخرى المماثلة لهذه في تركيا وفي اليونان: متحف بناكي رقم ١٢٤؛ متحف الفنون التركية والإسلامية رقم ٨٣٠. انظر إردمان ١٩٥٩م المجموعة ب الرقم ٤-٥ وإركن ١٩٧١م الرقم ٢٠-٢١. تقارن هذه الألواح الثلاثة (كل منها مكون من ٦ ألواح) بلوح أكبر منها محفوظ في مسجد قسطمونو. يرجع هذا اللوح، الذي يزين جدار القبلة، إلى ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م، مما يتيح تأريخ هذه المجموعة تأريخاً نسبياً. انظر إركن ١٩٧١م المجموعة ٤ ويَمان ١٩٩٦م.

٢٣- لنذكر هنا، بين النسخ العديدة: إسطنبول، مكتبة السليمانية، خالد افندي ٦٩ (١١٦٥هـ/١٧٥١م)؛ مكتبة شستر بيتي T٤٦٣ (١٧٩٨)، لندن، سوذبيز، «المخطوطات والصور الصغيرة الشرقية» ١١ أكتوبر ١٩٨٢، الحصة ٢٣٦ (١٢٤٣هـ/١٨٢٧م)؛ الكويت ١٩٩٧ ص ١٢ (١٢٢٧هـ/١٨١٢م)؛ باريس، دروو، كلود بواجيرار، فنون الشرق، ٢٥ سبتمبر ١٩٩٧م الحصة ١٦٣.



الصورة ٧. حرم المدينة،
رسم بالألوان من مخطوطة «دلائل الخيرات»
بتوقيع Levni، بداية القرن الثامن عشر،
مجموعة خاصة

في المخطوطات المتعلقة بالحج أو ذات الفحوى الدينية، وعلى الألواح الخزفية البسيطة أو المركّبة، ثم على اللوحات الجدارية، وعلى الأدوات المستخدمة في الدلالة على جهة الصلاة، وتدعى قبلة نومه باللغة الفارسية، وفي أعلى لوحات حِلْيَة النبي، وهي نصوص أدبية تعدد صفات النبي الجسمية. ولا يبدو أنها مستخدمة في لفائف الحج، التي تحافظ على تقاليد الإسقاط المساحي.

على غرار هذه الأخيرة، تؤمن صورُ منظور الفارس (perspective cavalière)، التي تعطي مركزاً مرموقاً لنقطة نظر عالية، امتيازَ الحفاظ على نظرةٍ تشمل كاملَ الأوابد المصوّرة. بالنسبة للمسجد الحرام في مكة، الذي تظهر عناصره للعيان في الساحة، يؤدي أسلوب الرسم هذا دوراً مثالياً. يسع منظور الفارس أن يشملها كلها في نظرة واحدة، مولداً صورة أكثر توهيماً شبيهة بحقيقة الإحساس [٢٤]. إلا أن الأمر مختلف بالنسبة لمسجد المدينة المنورة، حيث يوجد داخل المصلّى قسمٌ من عناصره المشحونة بالطابع القدسي. وفي سبيل مهمة الحفاظ على هذه العناصر مرئية، وَجَبَ تعديلُ الحقيقة، وبالتالي يُنْزَعُ عادةً سقفُ المصلّى برفقة عددٍ من الأعمدة كي يتمكّن الناظر من رؤية المنبر والمحاريب والقبر ودكّة المؤذن إلخ. وبما أن توهيم الصورة لا يتوافق عادةً مع وظيفة تأشير الصورة، وَجَبَ الخيارُ في العديد من الحالات: إما تحافظ الصورةُ على وظيفتها الإعلامية متخليّةً عن بعض سمات الحقيقة الحِسِّيّة، أو تبقى ملازمةً للحقيقة فتتخلى عن بعض العلامات البصرية. ونضرب عن ذلك مثل القبور الثلاثة داخل الحجرة، إذ يمكن التخلي عن رسمها لكسب صورة المبنى المحاط بالمصبّعات، وهو لا يبدي للعيان شيئاً من داخله ويبقى أكثر موافقةً للحقيقة.

ونرى أحد الأمثلة الباكرة عن منظور الفارس في صورة المسجد النبوي الموجودة في نسخة من دلائل الخيرات (الصورة ٧) [٢٥]، بتوقيع ليفني (Levni المتوفى عام ١٧٣٢م). ولا شك أن ظهور أسلوب الرسم المذكور سبق هذه المخطوطة. وتبدي الصورةُ المسجد من نقطة نظر مرتفعة موجودة في مقدمتها. ولا يرتسم السور المستطيل فيها عامودياً بل وفق البعد الثالث، تابعاً خطين منحرفين متوازيين. أما جدار القبلة والقبر فلا يظهر لهما سماكة ورُسِما (رسم الواجهة). ويتميّز الصحن عن المصلّى بمجرّد اختلاف اللون: أرضية صفراء منقّطة بالأحمر للصحن، أرضية زرقاء ذات أشكال لوزية حمراء للمصلّى، وهذه الألوان مألوفة في نمط رسم الرسام المذكور.

يرتفع المنبر برسم المنظور الهندسي في قاعةٍ خاليةٍ من الأعمدة وتظهر القبور وكأنها تطفو في الهواء خلف المصبّعات التي تفصلها عن الناظر. يجب أن نقارن هذه المحاولة غير الماهرة لإضفاء البعد الثالث على المسجد بتطوّر التصوير العثماني في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣م-١٧١٠م)، وكان ليفني يحاول تجديد هذا الفن. وتُجاور في هذه المحاولة أساليبُ التزيين والألوانُ الزاهية، الخاصة بالتصوير العثماني التقليدي، أساليبَ رسم تدوير الأجسام واللعبَ بالضوء والظلّ (clair-obscur) هدفاً للتجديد.

في القرن الثامن عشر، أدى اعتماد منظور الفارس إلى الإكثار من توسيع إطار التصوير، الذي يتعدى حدود المسجد، فيظهر المسجدان عندئذٍ في بيئتهما المدينية والطبيعية. تحاول هذه الصور أن تحافظ على قيمتها التأشيرية وأن تقتبس، في الوقت عينه، طاقة توهيم منظور الفارس. وقد تحوي هذه المناظر مجموعة المراحل المرتبطة بمناسك الحج، كما يسعها أن تضم أماكن أخرى يزورها الحُجّاج على هامش الحج لارتباطها ببعض أحداث السيرة النبوية: الصفا والمروة، مِنى (موقع رَجْم الجَمَرات ونَحْر الضحايا)، سهل عَرَفَة وجَبَلُه، جبل أبو قُبَيْس (مكان مرتبط بمعجزة انشقاق القمر أمام محمد)، جبل ثور (عندما هاجر النبي محمد وأبو بكر إلى المدينة، اختبئوا في غار في هذا الجبل)، مقبرة البَقيع (جبّانة المدينة حيث توجد قبور العديد من الصحابة)، إلخ.

تشبه هذه الصور الواسعة الإطار الصور الإجمالية (vedute) التي انتشرت في تلك الفترة داخل المنازل العثمانية. إذ يشاهد القرن الثامن عشر تكاثر صور العمارة والمناظر الموهمة بالحقيقة،

٢٤- نجد أسلوب التصوير المذكور قبل العهد العثماني في الصور المرافقة لنص المعراج، أي إسراء الرسول ليلا من مكة إلى القدس. لا يؤدي المسجد فيها الدور الرئيس بل دور عنصر من عناصر الحدث. يمتطي الرسول فرسه ويطير فوق المسجد الحرام فنرى هذا الأخير من نقطة نظر عالية. انظر إتنغهاوزن ١٩٣٤ الرسم ١٣. في شأن صور المعراج، انظر جروبر ٢٠٠٥ ص ص ٢٥٥-٢٦٣.

٢٥- باريس، دْرُوو، مكتب تاجان، يجب البحث عن العنوان، ١٠ أبريل ١٩٩٧م، الحصة ٩٥.



الصورة ٨. قبلانوما، تركيا، ١٧٣٨، النبدقية،
متحف «سيڤيكو كورّير»، .M ٣٤٣٩٤-٣٤٧٥٥

وكانت دائما خالية من الأشخاص. تتفاوت أساليب تنفيذ الصور وسرعان ما اعتمدت هذه الوسائلُ التزيينية أساليبَ توهيم التصوير الغربي بطرق مختلفة.

نرى مراحل هذا الإدخال التدريجي القليل التجانس في عدد من رسمات الحرمين بمنظور الفارس، وتتميّز فيها نزعتان كبيرتان على الأقل [٢٦]. تنظر الأولى إلى الإطار المديني والطبيعي فترسمه كعِدّة وحدات متتابعة (أوابد، عناصر المكان الطبيعي) منفصلة عن بعضها البعض وتشير إليها بكلمات مفسِّرة. وتحافظ هذه الفئة من رسمات منظور الفارس على قيمة جغرافية عالية، وتؤدي العناصر المبعثرة في الصورة، المرسومة بأبعادها الثلاثة، دوراً مماثلاً لدور العناصر المتجاورة في الإسقاطات المسطحة. إلا أن نقطة النظر العالية تتيح توحيد الصورة وتضفي عليها اتجاهاً غالباً. ويكبر، من جراء توسيع الإطار، عدد مختلف العناصر التي يجب عندئذ تحديد موقعها، ويُرسَم معظمها بالأبعاد الثلاثة. وتُقرأ النصوص المفسِّرة أفقيا أو في اتجاه قليل الانحراف، بينما لا تتعدد محاولات رسم الظل وتدوير الأجسام. وتنتمي إلى هذه المجموعة، على سبيل المثال، سلسلة من أدوات قبلة نومه المنتجة حوالي ١٧٣٨م (الصورة ٨) [٢٧]. تتوزع فيها، حول سور المسجد الحرام، الذي يتوسع في البعد الثالث، بين عناصر رمزية تدل على المنظر الطبيعي برسم بقعات الحشائش وبعض الشجيرات، عناصرُ مختلفة، تتوّج بعضُ مبانيها أكَمات الصفا والمروة، ومساجدُ الخَيف ومزدلفة، وجبالُ قُبَيس والنور وعَرَفة. على غرار ما نراه في ساحة المسجد، يجمع هذا المنظر بين العناصر المعالجة بأبعادها الثلاث (الكعبة، وصفوف الأعمدة، والمقامات الأربعة، والمساجد المذكورة) وبين العناصر المرسومة بالإسقاط الجبهي (المنبر، المبنَيَيْن المُقَبَّبَين).

نشاهد مبدأ الجمع جنباً إلى جنب، في الفترة عينها، على ألواح الخزف أو على اللوحات الجدارية المنفّذة في المنازل الخاصة، ويستمر وجودها طوال القرن الثامن عشر. تتفاوت في هذه الرسمات درجة تجميع العناصر، كما تختلف جودة رسم تدوير الأجسام، ويستمر وجود النصوص المفسِّرة الموزّعة في الرسم [٢٨].

كما تنتشر فئة أخرى من رسمات منظور الفارس، أكثر توهيماً بالحقيقة، فتبتعد بالمزيد عن أساليب الرسم السابقة، مهملةً الوظيفة الإعلامية ومفضّلةً وظيفة توحيد الحيّز الفراغي والمعالجة القريبة من الحقيقة. ويتحسّن فيها التحكم بالمنظور الجوي (perspective aérienne) كما يتحسن دمج الأوابد في بيئتها الطبيعية، ونرى فيها المزيد من البحث عن رسم تدوير الأجسام واستخدام المنظور الجوي. وتُرسَم فيها العناصر منهجيا بأبعادها الثلاثة. لا تحوي عادةً هذه الصورُ نصوصاً تفسيرية، مما يدل على تغيّر وظيفة الصورة حيث تمّحي منها تدريجياً الوظيفة التأشيرية. في هذه الصور المنفّذة برسم منظور الفارس، يوحي رسم المنازل ذات الأسطحة المبطّحة الملتصقة ببعضها البعض بشبكة المدينة حول الحرمين. ويضاف إليها رسم بعض المباني العامة كالخانات أو المساجد الصغيرة، كما نجد سور المدينة المنوّرة ومقبرة البقيع. تنتمي إلى هذه الفئة نسخة دلائل الخيرات المعروضة في المعرض (د. المعرض رقم ٣١٩). رغم ذلك، وإرثاً عن أساليب الرسم السابقة، نرى أن مصلّى مسجد المدينة يظل مرسوما بدون سقف وكأنه في الهواء الطلق.

تكوّن هذه الفئة من رسم منظور الفارس المرحلة الأخيرة التي تسبق، إبان القرن التاسع عشر، تطوّرَ صورٍ جديدة يسعنا أن ننعتها حقيقةً بصفة الموهمة أو المقلّدة. تستخدم هذه الأخيرة المنظور الجوي بطريقةٍ تزداد حذقاً، لتصل أخيرا إلى المنظور الهندسي الذي يميّز نقطة تلاقٍ وحيدة غير جوية. كما نشاهد أوائل ظهور الأشخاص في الرسم، وكان ذلك نادراً في السابق [٢٩]. في هذه المرحلة، نقترب من الوقت الذي ظهر فيه التصوير الشمسي فجأةً، مما غيَّرَ بشكل جذري دورَ الصورة في البلاد الإسلامية. وتتطلب دراسة هذه المرحلة الأخيرة من التطور، التي حضَّرت الناظر للصورة المقلِّدة الشمسية، تطويلاً يتعدى إطار هذا البحث وسنتوقف هنا في الكلام عن تطور تصوير الحرمين، وتحتاج معالجةُ مجموعةَ صورهما العديدة إلى دراسة بحد ذاتها وإلى تحليل توليفي لم يقم به أحد.

٢٦- للقيام بتحليل منطقي لاختلاف أساليب التصوير المذكورة، ولتطورها بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، يجب إتمام عملية جرد كاملة لكافة الصور التي تزيّن المنازل الخاصة في المدن الكبيرة في الولايات العثمانية وفي المباني الدينية. بين الصور المنشورة، انظر أريك ١٩٧٣م (مساجد الأناضول)؛ موري ١٩٨٣م اللوحات ٢٤-٤٩-٥٠ (قصر ست وسيلة وقصر علي كتخدا في القاهرة؛ القرن الثامن عشر)؛ فِيبِر ٢٠٠٣ ص ١٦٤؛ فِيبِر ٢٠٠٩م الجزء ١، ص ص ٣٢٢-٣٢٥-٣٨٤-٤٤٥-٤٤٩ وجزء ٢، ص ص ١٨-٤٩٨ (منازل دمشق)؛ قويولو ١٩٩٤م.

٢٧- إسطنبول ٢٠٠٨م ص ص ١٢٦-١٢٧ و٢٢٤؛ لندن، كريستيز، الفنون والمخطوطات الإسلامية ١٤ أكتوبر ٢٠٠٣م الحصة ٤٠؛ لندن، بنهامز، أعمال فنية إسلامية وهندية، ٢٤ أبريل ٢٠٠٢م الحصة ٣٨٠؛ إرتغ وغرابار، ١٩٩٣م ص ٨٩.

٢٨- للأمثلة على الخزف انظر إركن ١٩٧١م، الرقم ٢٦-٢٧-٣١.

٢٩- انظر، في متحف قصر طوب قبو، سلسلة من الصور المرسومة على العاج، تظهر فيها ساحات الحرمين بالمنظور البؤري ونرى بعض الأشخاص واقفين فيها. هذه الصور مؤرخة من منتصف القرن التاسع عشر، انظر إسطنبول ٢٠٠٨م ص ص ١٢٨-١٢٩-٢٢٤-٢٢٥. نجد أحد الأمثلة النادرة السابقة للقرن التاسع عشر في نسخة من فتوح الحرمين محفوظة في لايدن، انظر وِتْكام ٢٠٠٩م الرسم ٣ و٩. يبدو أن الأشخاص المصوَّرين في رسمات الحرمين ليسوا حجاجاً بل بعض كبار موظفي الدولة العثمانية، الموكلين بصيانة المباني أو يؤدون خدمتهم فيها.

نشأة المملكة العربية السعودية



المملكة العربية السعودية

الدكتور فهد بن عبدالله السماري

(الصفحة المزدوجة السابقة)
جيوش عبدالعزيز في المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة، تصوير النقيب شكسبير في ١٩١٠-١٩١١

(صفحة اليسار)
الملك عبدالعزيز في الرياض، عائداً من صلاة الجمعة، تصوير De Gaury، ١٩٣٩



تعود أسرة آل سعود المالكة في جذورها الى قبيلة بني حنيفة المعروفة بتاريخها الطويل في الجزيرة العربية، وخاصة في وسطها حيث أنشأت دولتها على أطراف وادي حنيفة ومنطقة العارض.

ويقدر المؤرخون بداية نزول بني حنيفة في قلب الجزيرة العربية أو مايسمى باليمامة في القرن الخامس الميلادي تقريباً. وبعد ظهور الاسلام وانتشاره دخل جزء كبير من بني حنيفة في الاسلام وشاركوا في فتوحات الدولة الاسلامية.

وفي القرن التاسع الميلادي تفرق بنو حنيفة في أنحاء الجزيرة العربية بسبب الظروف السياسية التي عاشتها المنطقة.

وفي عام ١٤٤٦م انتقل جد اسرة آل سعود، مانع المريدي، ومعه أسرته وعشيرته من موطن استقراره شرقي الجزيرة العربية الى قلب الجزيرة العربية، وتحديدا في منطقة وادي حنيفة حيث كانت قبيلته تستقر منذ قرون. ولقد وفد مانع الى منطقة العارض بدعوة من ابن عمه، ابن درع، الذي أقطعه موضعي «المليبيد» و«غصيبة» والتي تكونت منها فيما بعد ماعرف باسم «الدرعية» عاصمة الدولة السعودية الأولى.

تطور حكم هذه الأسرة في هذه المنطقة الى أن أصبحت امارة قوية في الدرعية.

وفي عام ١٧٢٥م تولى هذه الامارة الأمير محمد بن سعود الذي تمكن من تقويتها ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها وتحسين علاقاته بالامارات المجاورة. واشتهرت هذه الإمارة في عهده بالاستقلالية والاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي. وفي عام ١٧٤٤م تحولت هذه الامارة الصغيرة الى دولة واسعة النفوذ بعد الاتفاق الذي تم بين الامير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب لنشر الدعوة الاصلاحية وتأسيس الدولة السعودية الأولى.

الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤ـ ١٨١٨م)

كانت منطقة الجزيرة العربية في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي تعيش في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي وانتشار البدع والخرافات، ولقد وصف المؤرخون تلك الحالة السياسية والاجتماعية في المنطقة بالتفكك وانعدام الأمن وكثرة الإمارات المتناثرة والمتناحرة وضعف الحالة الدينية. ولذلك

ظهرت حركة الاصلاح والدعوة الى الدين الصحيح والتخلص من تلك البدع على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وناصرها الامام محمد بن سعود، أمير الدرعية، الذي كان يتمتع بمكانة سياسية جيدة في امارته الصغيرة.

ففي عام ١٧٤٤م تأسست الدولة السعودية الأولى عندما تم اللقاء التاريخي في الدرعية بين أميرها الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب وتبايعا على أن يعملا في سبيل الدعوة الإصلاحية واصلاح الأوضاع الدينية وبناء دولة تقيم الدين الصحيح في المنطقة.

وتمكن أئمة الدولة السعودية الأولى من توحيد معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ونقلها إلى عهد جديد اتسم بالاستقرار وانتشار الأمن وتأسيس دولة واحدة. وازدهرت المعارف والنواحي العلمية والاقتصادية، وأنشئ العديد من المؤسسات والنظم الإدارية، وأصبحت الدولة السعودية الأولى تتمتع بمكانة سياسية عظيمة نتيجة لقوتها واتساع رقعتها الجغرافية، وسياسة حكامها المتزنة، وخدمة المجتمع والرقي بمستواه الحضاري.

ونتيجة لاتساع الدولة السعودية وسيطرتها على مناطق شاسعة في الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة التي انضوت تحت لواء الدولة السعودية بعد ان كانت تحت النفوذ العثماني، ولأهمية هذه الأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بالعمل على استعادتها من الدولة السعودية واستقر الرأي على تكليف واليها في مصر محمد علي للقيام بالمهمة.

ونتيجة للعديد من الحملات العسكرية الكثيفة التي قام بها محمد علي وابناؤه ضد الدولة السعودية تمكنت الدولة العثمانية من انهاء الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية في عام ١٨١٨م، واعدام آخر أئمتها الامام عبدالله بن سعود في اسطنبول.

وجاء حكام الدولة السعودية الأولى كالآتي :

- الإمام محمد بن سعود بن مقرن ١٧٤٤-١٧٦٥م
- الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود ١٧٦٥-١٨٠٣م
- الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود ١٨٠٣-١٨١٤م
- الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود ١٨١٤-١٨١٨م

الدولة السعودية الثانية ١٨٢٤ـ ١٨٩١م

وعلى رغم الدمار والخراب الذي خلفته قوات محمد علي بقيادة إبراهيم باشا في وسط الجزيرة العربية، وهدمها الدرعية وتدمير الكثير من البلدان، وإشاعة الخوف والدمار في نواحي الجزيرة العربية، إلا أنها لم تتمكن من القضاء على مقومات الدولة السعودية في المنطقة، حيث ظل الأهالي في البادية والحاضرة على ولائهم لأسرة آل سعود التي أسست الدولة السعودية الأولى، وتقديرهم لمعاملتهم وقيادتهم الحكيمة، ومناصرتهم للدعوة السلفية، فلم يمض عامان من نهاية الدولة السعودية الأولى إلا وعاد القادة من آل سعود إلى الظهور من جديد لإعادة تكوين الدولة السعودية. وكانت أولى محاولاتهم عام ١٨٢٠م عندما حاول الإمام مشاري بن سعود إعادة الحكم السعودي في الدرعية لكنها لم تدم إلا مدة قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر، ثم تلتها محاولة ناجحة قادها الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود في عام ١٨٢٤م أدت إلى تأسيس الدولة السعودية الثانية وعاصمتها الرياض.

واستمرت الدولة السعودية الثانية على الأسس والركائز ذاتها التي قامت عليها الدولة السعودية الأولى من حيث اعتمادها على الإسلام، ونشر الأمن والاستقرار. وامتد نفوذها إلى منطقة واسعة الا انها لم تكن بحجم امتداد نفوذ الدولة السعودية الأولى.

وفي عام ١٨٩١م غادر الإمام عبدالرحمن بن فيصل بن تركي، آخر أئمة الدولة السعودية الثانية العاصمة الرياض مع أسرته وابنه الأمير عبدالعزيز إثر حدوث الخلافات بين اخويه عبدالله وسعود، وانتهاء حكم آل سعود وسيطرة محمد بن رشيد حاكم حائل على الرياض. واستقرت أسرة الامام عبدالرحمن في الكويت، وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية.



باب من خشب مطلي، نجد، آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ٢٥٥ x ١٢٤سم، الرياض، المتحف الوطني، ٢١٠٨

وجاء حكام الدولة السعودية الثانية كالآتي :

- الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود ١٨٢٤- ١٨٣٤م
- الإمام فيصل بن تركي ١٨٣٤ـ١٨٣٨م/ ١٨٤٣- ١٨٦٥م
- الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي١٨٦٥- ١٨٧١م/ ١٨٧٦- ١٨٨٧م
- الإمام سعود بن فيصل بن تركي ١٨٧١- ١٨٧٥م
- الإمام عبدالرحمن بن فيصل بن تركي ١٨٧٥- ١٨٧٦م/١٨٨٩-١٨٩١م

المملكة العربية السعودية ١٩٠٢

وفي الخامس عشر من شهر يناير ١٩٠٢م تمكن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود من استرداد الرياض والعودة بأسرته إليها لكي يبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ الدولة السعودية. ويعد هذا الحدث التاريخي نقطة تحول كبيرة في تاريخ المنطقة نظراً لما أدى إليه من قيام دولة سعودية حديثة تمكنت من توحيد معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية، وتحقيق إنجازات حضارية واسعة في شتى المجالات.

ولقد توفرت للملك عبدالعزيز الصفات القيادية العظيمة التي مكنته من حمل مسؤولية تأسيس دولة حديثة كانت المنطقة في أمس الحاجة إليها، فقد عرف عن الملك عبدالعزيز تمسكه بالدين وشجاعته وفروسيته وكرمه العظيم، وحنكته السياسية ووعيه بأحداث التاريخ.

ويعد استرداد الرياض من أعظم الأحداث التاريخية التي ظهرت فيها علامات قوة الشخصية وحسن القيادة لدى الملك عبدالعزيز والخبرة التي اكتسبها بنفسه، حيث تمكن من اقتحام قلعة المصمك في الرياض بعدد قليل من الرجال دون احداث أي ايذاء لعامة الناس. وبعد استرداد الرياض واصل الملك عبدالعزيز كفاحه مدة تزيد على ثلاثين عاماً من أجل توحيد البلاد، وتمكن من ضم العديد من المناطق واعادة توحيدها في ما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية التي أعلن عن تأسيسها الرسمي في عام ١٩٣٢م.

وأصبحت المملكة العربية السعودية ذات مكانة خاصة في المحيط الاقليمي والعربي والاسلامي والدولي نتيجة لسياستها المتزنة ومواقفها الحكيمة. وبعد اكتشاف النفط في أراضيها في عام ١٩٣٨م قامت المملكة باستخدام هذه الثروة الطبيعية لتحديث البلاد وتطوير مواردها البشرية وتاسيس بنى تحتية عديدة. كما تمكنت من استخدام سياسة معتدلة في تسويق هذه الثروة الوطنية المهمة. كما أسس الملك عبدالعزيز لجميع الجوانب التنموية والحضارية في البلاد مثل التعليم والصناعة والتجارة والادارة والجيش وبناء المدن وغيرها.

وفي التاسع من شهر نوفمبر عام ١٩٥٣م توفي الملك عبدالعزيز في الطائف ودفن في الرياض لينهي مرحلة التأسيس في تاريخ المملكة العربية السعودية. وخلفه في الحكم ابنه الأكبر الأمير سعود بن عبدالعزيز.

الملك سعود بن عبدالعزيز ١٩٥٣م – ١٩٦٤م

تولى الحكم بعد وفاة والده الملك عبدالعزيز في عام ١٩٥٣م، وشهدت المملكة في عهده استكمال البناء ومسيرة التطور في شتى الجوانب. ومن سمات عهده القيام بالعديد من الزيارات الداخلية لمناطق المملكة والتعرف على حاجاتها واحتياجات المواطنين. كما قام بالعديد من الزيارات الخارجية لتدعيم علاقات المملكة الدولية. وانطلقت في عهده العديد من المشروعات العمرانية وتوسعة الحرمين الشريفين وإنشاء المطارات والمستشفيات والمدارس والطرق الحديثة وغيرها من مجالات التنمية، واعتنى بصفة خاصة بالتعليم فأنشأ وزارة خاصة به. كما حظي تعليم المرأة باهتمامه وانشأ ادارة خاصة به. وكان لسياسته الخارجية الأثر الكبير في تدعيم مكانة المملكة سياسيا وتجنيبها تكتلات سياسية وأحلاف كانت تدعو الى سياسات ضيقة.

وفي عام ١٩٦٤م تنازل الملك سعود عن الحكم نتيجة لمرضه وتولى الأمير فيصل بن عبدالعزيز، ولي عهده، الحكم.

الملك فيصل بن عبدالعزيز ١٩٦٤ – ١٩٧٥م

شهدت المملكة العربية السعودية في عهد الملك فيصل العديد من التطورات في مجالات متعددة في البناء والسياسة الخارجية. ولقد عرف الملك فيصل بدعم ومناصرة حركة التضامن الاسلامي لمواجهة التكتلات والمد الشيوعي آنذاك. كما عرف الملك فيصل بمواقفه السياسية الثابتة خاصة في حرب أكتوبر ١٩٧٣م حيث قرر باتفاق مع القادة العرب بوقف ضخ النفط للدول المتحالفة مع اسرائيل من أجل استعادة الأراضي العربية من الاحتلال. وشهدت المملكة في عهده الكثير من التطورات في المجالات الاقتصادية والصناعية والادارية وغيرها. كما حظي التعليم باهتمامه وزاد في دعمه وتطويره بشكل لافت للنظر. وقام الملك فيصل بدعم تأسيس منظمة المؤتمر الاسلامي والعديد من المنظمات الاقليمية الأخرى.

وفي عام ١٩٧٥م توفي الملك فيصل بعد أن استشهد على يد ابن اخيه وخلفه في الحكم ولي عهده الأمير خالد بن عبدالعزيز.

الملك خالد بن عبدالعزيز ١٩٧٥- ١٩٨٢م

اتسم عهد الملك خالد بن عبدالعزيز بالرخاء الاقتصادي الذي أسهم في رقي البلاد والمواطنين في شتى الميادين. فالتعليم شهد نقلة كبيرة في عهده – رحمه الله – حيث أسست جامعتا الملك فيصل بالدمام وأم القرى بمكة المكرمة، كما حدثت في عهده الطفرة الاقتصادية الشاملة التي استفاد منها المجتمع السعودي.

وشهدت الصناعة في عهده تطوراً جديداً تمثل في دعم القطاعات الصناعية، وإنشاء المصانع، وتأسيس وزارة الصناعة والكهرباء، والهيئة الملكية للجبيل وينبع لتواكب ذلك التطور الكبير. وعرف الملك خالد بجهوده في احلال السلام بين الشعوب وخاصة الدول العربية والاسلامية حيث عقد القمة الاسلامية الثالثة في مكة المكرمة في عام ١٩٨١م وكان شعارها توحيد الصفوف ونبذ الخلافات. كما اسهم في تأسيس مجلس التعاون لدول الخليج العربي في عام ١٩٨١م.

توفي الملك خالد بن عبدالعزيز في الرياض في عام ١٩٨٢م وخلفه في الحكم أخوه وولي عهده الأمير فهد بن عبدالعزيز.

الملك فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين الشريفين)١٩٨٢-٢٠٠٥م

شهد عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز إنجازات حضارية عظيمة انعكست في تقدم البلاد وازدهار الحياة فيها، فقد حدثت في عهده أضخم توسعة تاريخية للحرمين الشريفين، ووصلت المستويات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية في المملكة العربية السعودية إلى أرقى درجاتها. كما اتسمت السياسة الخارجية السعودية في عهده بالفاعلية والواقعية وإيجاد الحلول المناسبة لأهم القضايا العربية والإسلامية والدولية. وتعد مبادرات السلام التي أطلقها وخاصة مبادرة فاس للسلام من أبرز المحطات السعودية في الاسهام في تحقيق السلام في المنطقة. وعرف الملك فهد بحكمته وقدرته على تجاوز الأزمات، وكان لاسهامه الفاعل في حل النزاع اللبناني الأثر الكبير حيث اتفقت الأطراف اللبنانية على السلام وتم توقيع اتفاق الطائف في عام ١٩٨٩م نتيجة لجهوده.

ومن أبرز الإنجازات التاريخية في عهده: صدور النظام الأساسي للحكم، ونظام مجلس الشورى ونظام المناطق في عام ١٩٩٢م التي تعد تطورا اصلاحيا مهما في البنية الادارية والمؤسسية في المملكة.

توفي الملك فهد بن عبدالعزيز في عام ٢٠٠٥م وخلفه في الحكم أخاه وولي عهده الأمير عبدالله بن عبدالعزيز.

الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود (خادم الحرمين الشريفين) ٢٠٠٥م

أسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز في تعزيز موقع المملكة ومكانتها الداخلية والدولية عن طريق سياسة الاصلاح والفاعلية السياسية. فلقد شهدت البلاد منذ توليه نقلة كبيرة في مجال الاصلاح وتصحيح أوضاع التعليم والقضاء والاقتصاد والشؤون الاجتماعية، كما أرسى برامج كبيرة للقضاء على الفقر ونشر التنمية في أنحاء البلاد وتعزيز الشفافية والعدل والمساواة بين الجميع. ومن انجازاته تأسيس مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني لبث روح الحوار بين فئات المجتمع السعودي ومناقشة القضايا الوطنية بكل شفافية. كما شمل الحوار الذي أرساه الملك عبدالله الحوار مع الأديان. كما اهتم بالارتقاء بالتعليم من خلال مشروعه الوطني الكبير لاصلاح التعليم العام وتكثيف مجالات الابتعاث للدراسة خارج البلاد وتأسيس الجامعات التي وصلت الى ٢٢ جامعة حكومية بعد أن كانت ثماني جامعات فقط. ويأتي تاسيس جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية انجازاً جديداً حيث تم انشاؤها على أحدث المواصفات العصرية.

ولقد عرف الملك عبدالله بتنمية الثقافة الوطنية حيث رعى واسس المهرجان الوطني للثقافة والتراث منذ عام ١٩٨٥م وانشا مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. وحظيت المرأة السعودية في عهده بالاهتمام والتمكين ومعالجة أوضاعها. ومن جهوده البارزة مكافحة الارهاب والوقوف بكل حزم ضده وضد انتشاره، وبادر باقتراح انشاء مركز عالمي لمكافحة الارهاب.

الملك عبدالعزيز
(ابن سعود)
١٨٧٦-١٩٥٣م

الدكتور فهد بن عبدالله السماري

صورة شخص الملك عبدالعزيز في سن الرابعة والثلاثين، بالكويت سنة ١٩١٠، تصوير النقيب شكسبير

ولد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بالرياض في عام ١٨٧٦م ونشأ في كنف والداه الذي اهتم بتربيته وتعليمه، وتلقى تعليمه على يد عدد من العلماء في مدينة الرياض. وينتسب الملك عبدالعزيز إلى أسلافه من بني حنيفة من قبائل بكر بن وائل الذين كانوا يسكنون منطقة اليمامة في وسط الجزيرة العربية منذ ما قبل الإسلام، ولما ظهر الإسلام اعتنقوه وانضووا تحت لوائه فظهر منهم العلماء ورجالات الدولة الاسلامية.

استثمر عبدالعزيز وقت صباه في تعلم الفروسية وركوب الخيل وامتطاء النياق وفن المعارك. ووطن نفسه على العيش بين رمال الصحراء وجبالها وحوَّل حياة التنقل مع والده بين مضارب البادية إلى شكل مهم من أشكال التعلم والدراسة الذاتية التي صاغت جوانب كثيرة من شخصيته وخبرته.

كما تعود عبدالعزيز على الحياة القاسية وخَبَر ما في الصحراء من أحوال وظروف، وتعلم الكثير من فنون الحركة والانتقال والصيد ومواجهة المعضلات.

عرف عبدالعزيز ما تخبئه الرمال والصحاري من مشقة، وما تتطلبه من صبر وشجاعة، شجاعة مع الذات، وشجاعة مع الآخرين، وخصوصاً شجاعة القرار السليم البعيد عن الانتصار لطموحات ضيقة. بهذه الخبرة والنشأة أصبح عبدالعزيز قادراً على إدارة الأمور وتولي المسؤوليات رغم صغر سنه.

شهد عبدالعزيز في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي الكثير من الأحداث التي عايشتها الدولة السعودية الثانية وانتهت بسبب الخلافات العائلية مما أدى الى انتقال الملك عبدالعزيز مع والديه وأسرته من الرياض الى الكويت ليكون مغتربا بها عدة سنوات. ومنذ اليوم الأول لعبدالعزيز في الكويت وهو يتهيأ لاسترداد الرياض واستعادة الحكم فيها وتأسيس الدولة السعودية وتوحيد أجزائها. ويذكر لنا حافظ وهبة أن أصدقاءه في الكويت الذين عاصروا الملك عبدالعزيز قالوا له إن جلالته كان يفوقهم نشاطاً وذكاءً، وأنه كان يتزعمهم في الألعاب المألوفة في سنه، وأنه كان يميل دائماً إلى سماع تاريخ جده الإمام فيصل بن تركي وبطولاته.

وعندما سأل كريم ثابت - صحفي مصري- جلالته قائلاً: إن المؤلفين الأجانب قالوا إن المدة التي قضاها في الكويت كانت بمثابة مدرسة له، قال جلالته: لا، ولكن التجارب هي التي علمتني بعد ذلك. وقال: «لقد كانت الحياة مدرستي».



كان عبدالعزيز قارئاً للتاريخ وواعياً أحداثه، وكان مؤمناً بمبادئ الإسلام وتطبيق الشرع وإقامة العدل والأمن والسلام والاستقرار، خرج من الرياض في صباه وهو يحمل معه مسؤولية عظيمة تجسدت في ذاكرته خلال سنوات البعد عن موطنه.

وبدأ عبدالعزيز يستعد للعودة إلى الرياض وهو الشيء الذي تحقق بعد حوالي عشر سنوات منذ خروجه منها، ليعلن عن تحقيق المسؤولية التي قررها لنفسه، تلك المسؤولية التي ترجمت ذاتها في توحيد المملكة العربية السعودية وتأسيسها كدولة عصرية ومحورية ترتبط في أساسها بالدولة السعودية التي بدأت في قلب الجزيرة العربية منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وبأسرته التي تعود في أصولها وتاريخها الى هذه المنطقة منذ ما قبل الاسلام.

وفي عام ١٩٠١م حاول الملك عبدالعزيز استرداد الرياض، وكاد أن يحقق مرامه إلا أن وصول رسول والده الذي جاء بأنباء هزيمة الشيخ مبارك الصباح، أمير الكويت، في معركة على بعد حوالي الاربعمائة كيلاً عن الرياض في القصيم دفعه إلى أن يفك الحصار عن قلعة المصمك ويغادر الرياض وهو عازم على الرجوع إليها مرة أخرى.

وخلال أشهر قليلة تحرك عبدالعزيز بعدد قليل من رجاله الأوفياء نحو الرياض لاستردادها تدفعه الرغبة الشديدة في إعادة تأسيس الدولة السعودية.

وفي الطريق إلى الرياض شرع الملك عبدالعزيز في تطبيق إستراتيجية الصحراء وما تعلمه من خبرات في شبابه وما قرأه عن تاريخ أجداده وأسلافه، حيث اتصل بقبائل المنطقة وجمع حوله حوالي ألف وأربع مئة مقاتل من أبناء عدد من قبائل المنطقة، وقادهم في غارات مفاجئة غنم منها من كان معه ولكنه لم يحصل على شيء لنفسه؛ لأن ذلك لم يكن هدفه أو مرامه.

وبعد أشهر من التحركات والمحاولات لتكثيف عدد رجاله بدأت الضغوط تنهال عليه من الشرق والشمال. فقد تحرك ابن رشيد ونبه الدولة العثمانية إلى خطورة تحركات عبدالعزيز التي هزت أرجاء نجد والأحساء، فقام المتصرف العثماني بالأحساء بتحذير القبائل في المنطقة من مساعدة عبدالعزيز، وتفرق من كان حوله وأصبح مع رجاله القليلين الذين خرجوا معه من الكويت ومعهم قلة التحقوا به بعد ذلك، وكان عددهم ثلاثة وستين رجلاً.

بدأ عبدالعزيز يفكر في المرحلة التالية، ووجد أن عدد مؤيديه انحسر والدولة العثمانية قد ضيقت عليه ومنعت من كان معه من التمون من الأحساء، ووجه والده إليه طلباً للعودة والتخلي عن مهمته خوفاً عليه بعد سماع أخبار الضغوط وتحركات الدولة العثمانية في المنطقة ؛ هنا ظهرت خبرة عبدالعزيز وقراءته للتاريخ، فقرر الاختفاء عن أنظار الناس بعد مرحلة كانت شهرته فيها على لسان معظم أهالي المنطقة نتيجة لانتصاراته وتحركاته المتعددة بين القبائل وسكان القرى.

اختار عبدالعزيز رمال الربع الخالي وفيافيها رغم صعوبتها وقسوتها، مما يدل على شجاعته وشجاعة رجاله وعزيمتهم القوية إلاّ أنه أدرك أن هذا المكان لن يكون في مقدور أحد أن يصل إليه أو يتحمل العيش فيه لقسوته وصعوبته.

ولكن عبدالعزيز ورجاله واصلوا البقاء في هذه الأرض الخشنة حوالي خمسين يوماً كانت كفيلة بأن تجعل الأعداء يعتقدون أن عبدالعزيز قد غادر المنطقة وتخلى عن مرامه وقصده.

بدأ عبدالعزيز وهو في هذه الرمال القاسية التخطيط للمرحلة القادمة التي عدها مرحلة حاسمة، فتحرك ورجاله في أوائل شهر يناير ١٩٠٢م بسرية تامة، واقتصر سيرهم في الليل ومبيتهم في النهار حتى لا ترصدهم عيون الأعداء.

وأخذ عبدالعزيز يفكر في الطريقة التي سوف يسترد بها الرياض محققاً أهدافه التي تؤكد على عدم اللجوء إلى القوة التي تؤذي الآخرين وهم ليسوا طرفاً في مواجهته.



رداء الملك عبدالعزيز

لذا قرر عبدالعزيز تحقيق مرامه بالحيلة، وتوجه نحو الرياض برجاله ودخلها ليلاً وهدفه بيت حاكم المدينة الا أنه تبين له أن الحاكم كان يتحصن في قلعة المصمك في قلب الرياض. غير عبدالعزيز خطته في الحال، وأخذ يرقب بوابة القلعة إلى أن خرج الحاكم مع ظهور النهار وبدأت المواجهة المحدودة حيث تمكن من القضاء عليه واسترداد الحكم في المدينة.

ولبست الرياض في اليوم الخامس عشر من شهر يناير ١٩٠٢م حلتها الجديدة التي ازدانت بقيادة جديدة، وأصبحت مقراً للنبض الفاعل لمرحلة توحيد البلاد وبنائها وتأسيس دولة سيصبح لها شأنها ومكانتها. فخاض عبدالعزيز ورجاله معركة ضد الانقسام والخوف والظلم والتشرذم وعدم الاستقرار والجهل.

ورغم أن هذه المرحلة شهدت الكثير من المواجهات العسكرية الداخلية بغرض توحيد البلاد، الا أن شخصية الملك عبدالعزيز اسهمت في تطور الأحداث وظهور النتائج الايجابية. ومن أبرز سمات شخصيته الحسم وقوة اتخاذ القرار، وفي الوقت نفسه العفو عن أعدائه اذا ظفر بهم، واحترامه للمبادىء الانسانية في أي مواجهة. وكان يقدم مبادرة السلم قبل الحرب، ويتخذ قرار الحصار بدلاً من الهجوم الشامل خشية تعرض غير المحاربين للقتل أو الأذى. وكان أيضا يقوم بتوسيط البعض وارسال الرسائل للأطراف الأخرى بغية الاستسلام ورمي السلاح لحماية أنفسهم ومن معهم من أجل الوصول الى مجتمع موحد يقوم على دولة راسخة وحديثة.

لذا امتزجت في شخصيته الخبرة والنبوغ والوعي بالتاريخ والصفات الحميدة مما مكنه من تحقيق ما حققه في فترة كانت مليئة بالأحداث والإنجازات والصعوبات والتحديات.

وخلال فترة تزيد على الثلاثين عاماً قام عبدالعزيز ورجاله بخوض العديد من المعارك العسكرية والسياسية من أجل توحيد المملكة العربية السعودية في قلب الجزيرة العربية وشمالها وشرقها وغربها.

وفي التاسع عشر من شهر سبتمبر ١٩٣٢م، صدر الأمر الملكي بالإعلان عن توحيد البلاد وتسميتها باسم «المملكة العربية السعودية»، واعلان يومها الوطني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٣٢م.

وبانتهاء مرحلة التوحيد وتحقيق مرام الملك عبدالعزيز في تأسيس دولة موحدة تقوم على مبادئ إسلامية ونشر الأمن والاستقرار، زاد نشاط المرحلة الأخرى التي بدأت متزامنة مع بداية التوحيد وهي مرحلة البناء.

فقد واصل الملك عبدالعزيز مسيرة البناء والتطور وإرساء دعائم الدولة إدارياً ومالياً وحضارياً، وذلك بمتابعة جلالته المباشرة واهتمامه المستمر.

من سمات عهد الملك عبدالعزيز البناء الذي اشتمل على الكثير من الجوانب المهمة باعتبار أن المنطقة لم تكن في الماضي متقدمة في تلك الجوانب. فقد نجح الملك عبدالعزيز في تطوير البناء الاداري للدولة واصلاح ماهو موجود من منظور حديث. كما تمكن من احداث نقلة نوعية كبيرة وبارزة في مجال التعليم حيث قدم ولأول مرة التعليم المنظم وانشاء المدارس التعليمية على أحدث النظم التربوية، كما تمكن من تطوير وسائل النقل والمواصلات في البلاد التي كانت تقوم على وسائل قديمة وتغيرت لتشمل السيّارة والقطار والطائرة. ومن انجازات الملك عبدالعزيز أيضا تطوير الجوانب الاقتصادية والتجارية والانفتاح على الاقتصاد العالمي وسن الأنظمة والاجراءات التي تكفل الحقوق وتنظم العلاقة الاقتصادية بين الناس. ومن الجوانب المهمة أيضا التي شهدتها المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز التطور الاجتماعي الشامل الذي تمكن من نقل الانسان السعودي الى مجتمع حديث.

وفي الوقت الذي انشغل فيه الملك عبدالعزيز بتوحيد البلاد لم يتوقف عن بناء الدولة وتطويرها.

فقد ظهر مشروع توطين البادية وتأسيس أعظم مشروع في التحول الاجتماعي في المنطقة في ظلِ ظروف صعبة وإمكانات محدودة جداً. فقد نتج عن هذا المشروع الاجتماعي العظيم اصلاح بنية المجتمع القبلي في الجزيرة العربية الذي كان قائما على الترحال والتنقل والتأثير في استقرار المنطقة وممارسات السلب والنهب وعدم الأمن، بحيث أصبحت هذه القبائل نتيجة لهذا المشروع



سيف الملك عبدالعزيز

مستقرة في مستوطنات زراعية واجتماعية تقوم على اساس المكان والارتباط به وترك التنقل، والعيش في ظل دولة حديثة. لذا أدى هذا المشروع الى الغاء عنصر مهم من عناصر اللا استقرار في المنطقة وهو ترحال القبائل التي اصبحت من الأدوات المساندة في توحيد البلاد وبنائها جنباً الى جنب مع أبناء الحاضرة في القرى والمدن.

كما أسس الملك عبدالعزيز الإدارات والمؤسسات وبعض الوزارات وأصدر النظم المتعلقة بها لتصبح إطاراً مناسباً لإنجاز البناء الحضاري للدولة الحديثة.

ومن السمات التي تميز بها الملك عبدالعزيز تمسكه بالعقيدة الإسلامية ودفاعه عنها وإيمانه القوي بربه وتطبيق شريعة الله عز وجل في نواحي الحياة كافة دون تشدد أو خروج عن المنهج الوسط للاسلام.

يمكن القول بأن الملك عبدالعزيز استطاع أن يؤسس دولة حديثة في ظروف صعبة جدا من منطلق رؤيته الحكيمة ووعيه لأهمية التحديث بما لايتعارض مع مبادئه وتقاليد مجتمعه. لقد صاغ الملك عبدالعزيز مشروعه الحضاري العظيم لبناء دولة سعودية حديثة تسهم في المجتمع الدولي والمجتمع الداخلي والاقليمي. وتميز هذا المشروع الكبير أيضا بأنه كان شاملا لجوانب كثيرة في الجوانب التنظيمية والميدانية والبنى التحتية.

أشار الأستاذ عباس محمود العقاد الذي قضى ثلاثة أيام مع الملك عبدالعزيز في البحرِ، وهو يرافق جلالته في اليخت المتجه إلى مصر لزيارتها رسمياً عام ١٩٤٦م بدعوة مِنَ الملك فاروق، إلى بعضِ ملامح شخصية جلالته في إحدى مقالاته التي تعبر عن بساطته وعفويته قائلاً : «والملك عبدالعزيز محدث طلق الحديث يرسل أحاديثه على السجية بغير كلفة ويعرب عن رأيه الصريح بغيرِ مداراة».

وعبر أيضاً عبدالرحمن عزام عن الشيء نفسه قائلاً: «ويمتاز الملك عبدالعزيز فوق خصال الشجاعة والكرم والعقل بتبسطه في الحديث وعدم التكلف فيه، والمؤانسة لزائرِه، وهو لذلك يترك أثراً عميقاً في نفس زواره».

كما عبر جميل مردم وزير سوريا المفوض في مصر والمملكة العربية السعودية أثناء لقائه بجلالته في مصر عن إعجابه بمنهج الملك عبدالعزيز في أعماله، وقال: إن ما يمتاز بِهِ جلالته الدقة في جميع أعماله ومحافظته المدهشة على المواعيد فيمكن للمرء في كل وقت أن يعرف ماذا يصنع الملك.

ورغم حجم مسؤوليات عبدالعزيز في إدارة البلاد والاهتمام بشؤونها، فإنه لم ينشغل عن تربية أبنائه وتعليمهم. فقد كان جلالته يهتم بشكلٍ مباشر بأحوال أبنائه ويتابع بدقة شؤونهم الدراسيّة والعائلية. كان بالنسبة لأسرته المربي والموجه، ويحرص على جلوسهم معه ومؤانستهم خاصة النساء والصغار. وكان يستعين بأخته الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الفيصل لمعرفة احتياجات ومطالب المرأة في البلاد ومساعدة المحتاجات وأسرهن.

وللملك عبدالعزيز منهج متميز في إدارة البلاد واختيار رجاله لتولي شؤون الادارة في أنحاء البلاد. فقد كان يقوم بتوجيههم وإبلاغهم بالمبادئ التي ينبغي عليهم أتباعها عند تولي شؤون الناس، وذلك حرصاً منه على رعاية مصالح العامة والتأكد من عدم التعرض لحقوقهم وتحقيق الواجبات المتعلقة بهم وتحقيق العدل عند النظر في قضاياهم ومشكلاتهم، وبحث احتياجاتهم ومتطلباتهم.

وكان من سياسته تأليف هيئات خاصة من عدة أشخاص ثقاة ليتولوا التفتيش والتدقيق في أمور الناس وكيفية تعامل الأمراء والمسؤولين معهم ومع قضاياهم واحتياجاتهم. وتتضح الملامح الرئيسة لهذه السياسة وهذا المنهج في إحدى رسائل جلالته التي وجهها إلى المسؤولين عن إحدى هيئات التفتيش التي عينها لتؤدي واجبها قائلاً: «عزمنا على إرسال هيئة لأجل النظر في أمور البلاد ومصالح الحكومة... وعمدناهم ينظرون في أحوال الرعية وما يؤمن راحتهم ويستخبرون من الرعايا عن حالتهم وعن معاملة جميع الأمراء والمأمورين معهم سواء مأمورين إداريين أو ماليين أو حكام شرعيين، فما كان من المعاملة الحسنة وتبرئ الذمة تريح الرعية فيشكر العامل بها، وما كان منه مضرة للرعية في حالهم ومالهم وأغراضهم، فسيرفعون لنا أمر ذلك ونحن إن شاء الله نجري ما يلزم في ما يرضي الله ويبري الذمة وتستريح به الرعية وكونوا آمنين واثقين بالله وحده ونعطيكم على ذلك أمان الله وحده».

ويؤكد عبدالعزيز نبض الحرص وعمق الاهتمام بمواطنيه فيقول: «إذا اطلعنا ولو بعد حين على أن أحداً مظلوم وجارٍ عليه شيء يغضب الله ويضره فيكون جميع أعيانكم والرؤساء منكم مسئولين عنهم وعليهم اللوم والعتاب إذا لم يبينوا للهيئة ما هو واقع على الرعية وسنجازيهم بالجزاء اللازم».

الحج وخدمة المسلمين كانا أيضاً وقبل أي شيء آخر في مقدمة اهتمامات عبدالعزيز خلال حياته، حيث كان يحرص على أن يتم أداء المناسك في يسر وسهولة، ويشرف بنفسه على أمور الحج في كل عام ويتابع تقديم الخدمات وتوفير مياه الشرب والمساكن، وتوسعة الحرمين الشريفين وتزويدهما بمظلات لوقاية المسلمين من الشمس أثناء أدائهم المناسك.

كان عبدالعزيز رجل سياسة بارعاً، ومفاوضاً ناجحاً استطاع أن يحقق ما يريد لصالح بلاده ومبادئه رغم قوة الآخرين المحيطين ببلاده من القوى الأجنبية، وتمرسهم التاريخي في الدبلوماسية والسياسة. بنى عبدالعزيز سياسته الخارجية منذ بدأ التأسيس على مبادئ واضحة، وأهداف نبيلة تتعلق بحماية الدولة السعودية وإسهامها في السياسة الدولية لخدمة القضايا العربية والإسلامية والدولية والإنسانية بدون التدخل في شؤون الآخرين.

ونتيجة لهذه السياسة الواضحة والمتميزة نجح عبدالعزيز في تجاوز الأزمات الدولية دون تعريض بلاده وشعبه لويلاتها مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية. كما نجح في تأسيس علاقات الصداقة والتعاون المشترك مع العديد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة على حد سواء.

ولتحقيق ذلك قام عبدالعزيز بعدد من الزيارات واللقاءات الرسمية مع عدد من الدبلوماسيين الممثلين للقوى المحلية والخارجية المسيطرة على أجزاء من المنطقة المحيطة به، وذلك لحماية مصالح الدولة السعودية الناشئة. ومن هذه الزيارات المهمة تلك الزيارة التي قام بها عبدالعزيز إلى البصرة عام ١٩١٦م والتقى فيها السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني بالعراق، وعدداً من الدبلوماسيين البريطانيين.

ونجح عبدالعزيز أثناء تلك الزيارة في التعرف على أوضاع المنطقة، وإيضاح موقفه السياسي الثابت تجاه الحرب العالمية الأولى وعدم رغبته في دخول بلاده إلى جانب أي طرف فيها عن طريق المساندة أو إتاحة المجال أمام تلك القوى لاستغلال الأراضي السعودية لأي غرض ذي علاقة بالحرب.

وفي عام١٩٣٠م التقى عبدالعزيز على ظهر المدرعة البريطانية لوين في مياه خليج البصرة، الملك فيصل، ملك العراق، الذي شارك إلى جانب السيد همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق آنذاك، في حل المشكلات الحدودية بين نجد والعراق.

ولقد سجلت عدسات التصوير الفوتوغرافية أحداث هاتين الزيارتين، ومحورهما الرئيس الملك عبدالعزيز.

تمكن الملك عبدالعزيز من توقيع عدد من الاتفاقيات المهمة مع عدد من الدول المهمة منها مثلا معاهدة جدة مع بريطانيا في عام ١٩٢٧م، ومعاهدة الصداقة مع ألمانيا في عام ١٩٢٩م، ومعاهدة الجزيرة مع فرنسا في عام ١٩٣١م، ومعاهدة الصداقة مع ايطاليا في عام ١٩٣٢م، ومعاهدة الصداقة مع الصين في عام ١٩٤٦م، ومعاهدة مع الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٣٣م.

وكانت المملكة العربية السعودية سباقة للانضمام الى عدد من الهيئات والاتفاقيات الدولية في عهد الملك عبدالعزيز مثل اتفاقية باريس الصحية في عام ١٩٢٦م، ومعاهدة تحريم الحرب (كيلوج بريان) في عام ١٩٣١م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، قرر كل من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فرانكلين روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني، ونستون تشرشل إثر انتهائهما من اجتماع يالطا الذي حسم فيه الكثير من المسائل الدولية المترتبة على الحرب العالمية الثانية، مقابلة الملك عبدالعزيز نتيجة لمكانته وموقعة المهم في العالم العربي، ولسياسته المتزنة والثابتة التي حققت له الاحترام والثقة.

وتم اللقاء الأول بين الملك عبدالعزيز وروزفلت على ظهر الطراد الأمريكي «كوينسي» في البحيرات المرة بمصر، واللقاء الثاني بين عبدالعزيز وتشرشل في الفيوم بمصر وذلك في عام ١٩٤٥م.

وأثبتت محاضر هذين الاجتماعين المهمين قوة سياسة الملك عبدالعزيز ومواقفه الرصينة التي عبرت عن نبض العالمين العربي والإسلامي قبل أن تعبر عن النبض السعودي.

وفي العام نفسه ١٩٤٥م أصبحت المملكة العربية السعودية من أوائل الدول التي قامت بالتوقيع على ميثاق هيئة الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو، لتصبح دولة فاعلة ومؤثرة في الساحة السياسية الدولية.

وامتدت سياسة عبدالعزيز الخارجية المتزنة لتصل إلى تهذيب مشروع جامعة الدول العربية والتخلص من المشروعات الوحدوية المزعومة ذات المصالح الضيقة.

ووصل الملك عبدالعزيز إلى مصر في عام ١٩٤٦م في زيارة رسمية استغرقت أثني عشر يوماً، بناءً على دعوة الملك فاروق.

وكانت تلك الزيارة بمثابة احتفال رسمي كبير شارك فيه أبناء الشعب المصري كافة، تقديراً للشخصية العربية البارزة التي قدمت للأمة العربية والإسلامية إنجازاً عظيماً تمثل في تأسيس دولة عربية قوية امتد عطاؤها إلى أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وأصبحت تتمتع بمكانة دولية كبيرة وتقف مع قضايا الاستقلال العربي بكل صلابة وحكمة.

تلقب عبدالعزيز في عهده إضافة إلى لقب «الإمام» بعدد من الألقاب السياسية خلال مراحل تكوين الدولة:

- «أمير نجد ورئيس عشائرها» عام (١٩٠٢م).
- «سلطان نجد» عام (١٩٢١م).
- «سلطان نجد وملحقاتها» عام (١٩٢٢م).
- «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها» عام (١٩٢٦م)
- «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها» عام (١٩٢٧م).
- «ملك المملكة العربية السعودية» عام (١٩٣٢م).

وفي اليوم التاسع من شهر نوفمبر عام ١٩٥٣م، انتقل الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود إلى مثواه الأخير، بعد رحلة طويلة من العمل المتواصل نتج عنها تأسيس دولة قوية ثابتة الأركان، وتوحيد أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية ليصبح سكانها شعباً واحداً. وخلفه في الحكم ابنه الأكبر الملك سعود بن عبدالعزيز (١٩٥٣-١٩٦٤م) ثم ابنه الملك فيصل (١٩٦٤-١٩٧٥م) ثم ابنه الملك خالد (١٩٧٥-١٩٨٢م) ثم الملك فهد (١٩٨٢-٢٠٠٥م) ثم الملك الحالي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله (٢٠٠٥م-).

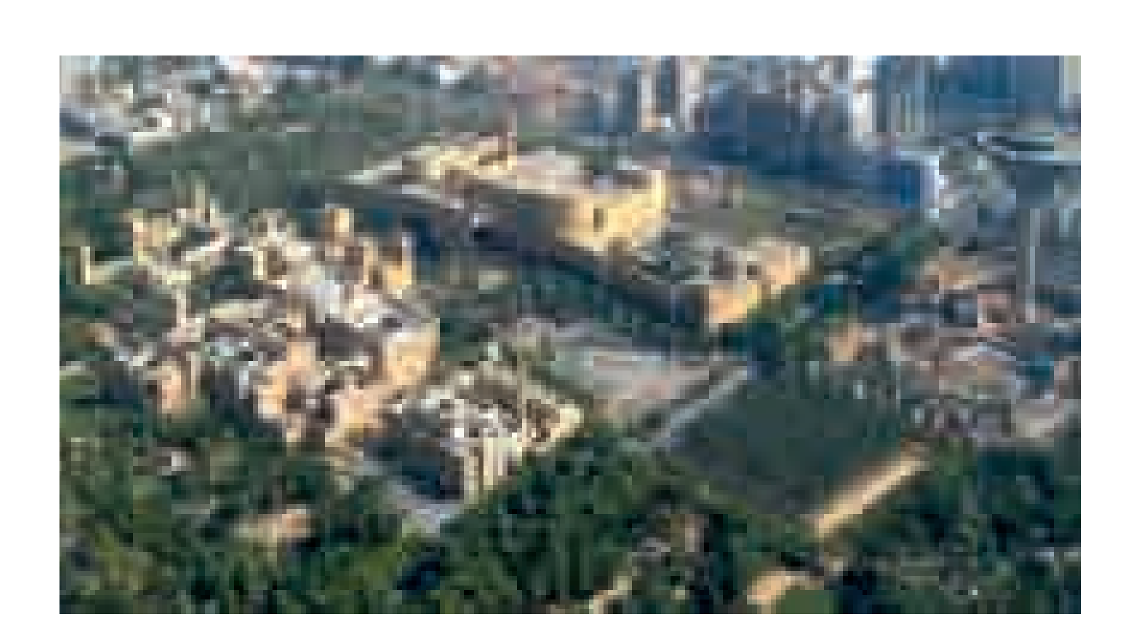
وتظل شخصية عبدالعزيز شامخة بإنجازاتها وشيمها العظيمة، ومصدراً للفخر والإعجاب والتأمل لما تركته من بصمات عميقة في تاريخ أرض الجزيرة العربية التي شهدت تطوراً حضارياً لم تشهده من قبل. وسوف تظل هذه الشخصية التاريخية نبراساً للباحثين والدارسين والسياسيين، من أجل التعرف على مكامنها الغنية التي جعلتها في قمة الشموخ الإنساني.

المتحف الوطني بالرياض

أ. د. علي بن إبراهيم الغبّان

أنشئ المتحف الوطني في إطار مشروع مركز الملك عبدالعزيز التاريخي بمناسبة مرور مائة عام هجرية على تأسيس المملكة العربية السعودية، وتم افتتاحه بتاريخ ١٤١٩/١٠/٦هـ الموافق ١٩٩٩/١/٢٣م.

تولت الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بتوجيه وإشراف مباشر من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض رئيس إدارة الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض تنفيذ المتحف وإدارة فريق العمل الذي ضم عدداً من المكاتب الاستشارية العالمية المتخصصة، وفريق من المختصين من جامعات المملكة تولوا جوانب البحث العلمي ووضع محتوى العروض المتحفية، وفريق من وكالة الآثار والمتاحف عمل على تهيئة مواد العرض.



الرياض، المتحف الوطني

يقع المتحف بحي المربع في قلب مدينة الرياض، وقد اختير موقعه لقيمته التاريخية حيث يضم قصر المربع الذي كان مقراً لديوان الملك عبدالعزيز – رحمه الله- إضافة إلى مجموعة من المباني التراثية المهمة.

يتكون مركز الملك عبدالعزيز التاريخي بالإضافة إلى المتحف الوطني من:

- دارة الملك عبدالعزيز.
- قصر المربع.
- جامع الملك عبدالعزيز.
- فرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة.
- قاعة الملك عبدالعزيز للمحاضرات.
- مكاتب وكالة الآثار والمتاحف.
- المباني التراثية.
- المنتزه العام ويحوي سبع حدائق رئيسة إضافة إلى الساحات العامة والميادين.
- برج المياه وحديقة الوطن المتصلة به.
- قصر الحمراء.

يمثل مركز الملك عبدالعزيز التاريخي واجهة حضارية وثقافية مهمة في قلب مدينة الرياض ونقطة جذب سياحي رئيسة لتعدد مرافقه وكونه امتداداً للتطوير الحضري بمنطقة وسط المدينة، ولذا فإن المتحف الوطني يستفيد فائدة كبيرة من وجوده ضمن هذا المجمع الثقافي والحضاري الكبير. يشكل المتحف الوطني أكبر عنصر معماري بين عناصر مركز الملك عبدالعزيز التاريخي حيث تبلغ مساحته الإجمالية (٢٨,٠٠٠م٢)، وتمثل هذه المساحة قاعات العرض المتحفي والمكاتب الإدارية والخدمية والمستودعات.



رسم المتحف الوطني

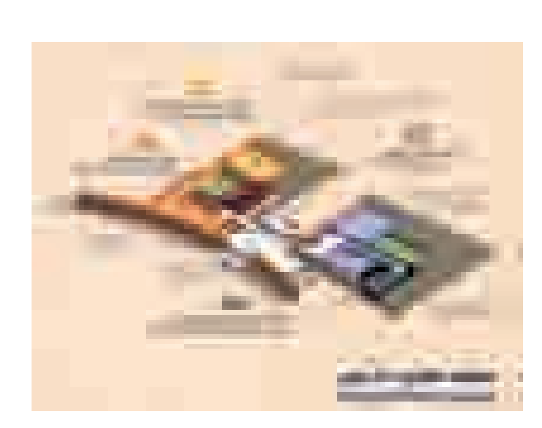
تتوزع قاعات العرض في المتحف الوطني في الطابقين الأرضي والأول وتحوي معروضات متنوعة من القطع الأثرية والوثائق والمخطوطات ولوحات العرض بالإضافة إلى استخدام وسائل العرض المتعددة وأفلام المحاكاة وكذلك الأفلام الوثائقية والعلمية.

يمتاز المتحف الوطني بتكامل معروضاته وتقديم موضوع متسلسل عن بيئة المملكة العربية السعودية وتاريخها وحضارتها منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث، كما تنفرد كل قاعة من قاعاته الرئيسة بتقديم عرض موضوعي مستقل ومتكامل.

يتكون المتحف الوطني من ثماني قاعات رئيسة، وقاعتين للعروض الزائرة والمؤقتة، وهي مرتبة ضمن تسلسل تاريخي متتابع ووفق تصميم معماري يراعي ترتيبها الزمني، ويقدم للزائر بيئات معمارية مختلفة تساهم في استمتاع الزائر بجولته وتحد من الأثر السلبي لتكرار الأشكال المعمارية في قاعات المتحف.

القاعات الثماني الرئيسة بالمتحف هي على الترتيب:

- **قاعة الإنسان والكون**: وتشمل أربعة مواضيع، منها نشأة الكون والأرض، والعوامل الطبيعية المؤثرة في تشكيل سطح الأرض الذي نعيش عليه، في حين يتعرّف الزائر على الأحافير وبعض العيّنات التي تعود إلى ملايين السنين ضمن الموضوع الثاني، وتُشكّل البيئات الطبيعيّة المختلفة في المملكة العربية السعودية الموضوع الثالث، أما الموضوع الأخير فهو مخصص لأقدم الآثار المكتشفة عن حضارة الإنسان في الجزيرة العربية في الأزمنة الغابرة.
- **قاعة الممالك العربية القديمة**: وتتكوّن من ثلاثة أجنحة تستعرض الفترة الممتدة من الألف السادسة قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد، شاملةً للحضارات القديمة التي نشأت في أرض الجزيرة، والممالك العربية الوسيطة والمتأخرة.
- **قاعة العصر الجاهلي**: وهي تُمثّل الفترة التي سبقت ظهور الإسلام والمعروفة بالعصر الجاهلي، حيث يتعرّف الزائر على أنماط الحياة الدينيّة والاجتماعية والسياسيّة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، مع استعراض لأهم مدن تلك الفترة.
- **قاعة البعثة النبويّة**: تتناول العهد المكّي من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يبدأ موضوعها بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته، مع استعراض لأبرز أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من نزول الوحي عليه في غار (حراء) إلى هجرته إلى المدينة المنوّرة، ورغم صغر هذه القاعة إلا أن تصميمها يوحي للزائر بعظم هذه المرحلة وأهمية رحلة الهجرة كنقطة تحول أساسية في تاريخ الإسلام.
- **قاعة الإسلام والجزيرة العربية**: تستعرض أبرز أحداث العهد المدني من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى وفاته صلى الله عليه وسلم، ثم عهد الخلفاء الراشدين، تليها الدولة الأمويّة، ثم الدولة العبّاسيّة، فالعهد المملوكي، وتُخْتَم القاعة بالعهد العثماني، وتقدم القاعة معلومات قيمة عن أبرز معالم الحضارة الإسلامية في البناء والعمارة والخط العربي والعلوم النظرية والطبيعية.
- **قاعة الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية**: تتكون القاعة من جناحين الأول خاص بالدولة السعودية الأولى، وأهمّ أحداثها، ويستعرض الجناح الثاني تاريخ الدولة السعودية الثانية.
- **قاعة توحيد المملكة**: تبدأ باستعادة الملك عبدالعزيز للرياض، في الخامس من شوّال ١٣١٩هـ (١٥ يناير ١٩٠١م) معلنة قيام الدولة السعودية الحديثة، وتمتاز القاعة بتصميمها الدائري حيث تظهر في محيطها الخارجي مناطق المملكة مرتّبة حسب دخولها تحت لواء الدولة الفتيّة، وفي وسط القاعة يُعرض فيلم وثائقي يحكي ملحمة توحيد المملكة.
- **قاعة الحج والحرمين الشريفين**: تستعرض تاريخ الحرم المكي والحرم النبوّي وتطوّرهما المعماري في العهود الإسلاميّة المتعاقبة، ويُمثّل التطور العمراني للحرمين الشريفين في عهد الدولة السعوديّة ورعايتها للحج موضوعاً أساسيّاً في هذه القاعة، وتضم كذلك معروضات شيقة تتعلق بمشاعر الحجّ المقدسة، وطرق الحجّ ومرافقه القديمة وعرض لأشهر رحلات الحجّ.





مخططات المتحف الوطني في الرياض

المصادر والمراجع الأجنبية

نظراً لكونها باللغة الإنجليزية
فهي واردة طبقاً للتسلسل الأبجدي
في اللغة المذكورة
ابتداءً من الصفحة ٥٩٠ الى الصفحة ٥٧٨.

المصادر والمراجع العربية

Abdul Halim, 1993
سيد عبدالمنعم عبدالحليم، (١٩٩٣):
البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة: مجموعة بحوث نشرت في الدرويات العربية والأوربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

Abû Al-Hasan, 1997
أبو الحسن، حسين بن علي دخيل الله، (١٩٩٧):
قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

Abû Al-Hasan, 2002
أبو الحسن، حسين بن على دخيل الله، (٢٠٠٢):
نقوش لحيانية من منطقة العلا – دراسة تحليلية مقارنة، الرياض، وكالة الآثار والمتاحف.

Al-Afghânî
الأفغاني، سعيد،
أسواق العرب، دمشق، ١٩٦٠م.

89-Al-'Ajîmî 1409H./ 1988
العجيمي، هشام
"**قلعة تبوك**"، مجلة جامعة أم القرى، السنة الأولى، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ .

Al-Ansari, 1969
الأنصاري،
عبد القدوس، **بين التاريخ والاثار**، بيروت، ١٩٦٩م.

Al-Ansari, 1975
الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، (١٩٧٥):
"لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية"
مجلة الدارة، العدد الأول.

Al-Ansârî 1423H./ 2002
الأنصاري، عبدالرحمن، وأبو الحسن حسين:
العلا ومدائن صالح (حضارة مدينتين)، دار القوافل، الرياض: ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م.

Al-Ansari, 2008
الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وسالم أحمد طيران، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م
قرية الفاو مدينة المعابد (المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور، أبحاث ندوة المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور، الجوف ذو القعدة ١٤٢٦هـ/ديسمبر ٢٠٠٥م).

Al-Athâr, 1420H/ 2000
الدائرة الإعلامية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، **الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: الآثار**، ج١، الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق.

Bafqih et al., 1985
بافقيه، محمد عبدالقادر (وآخرين)، (١٩٨٥):
مختارات من النقوش اليمنية القديمة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

Al-Bahnasî, 1999
البهنسي، عفيف؛
فن الخط العربي، دمشق: ١٩٩٩.

Al-Bakrî, Masâlik
البكري الأندلسي، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز،
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،حققه وضبطه وشرحه وفهرسه مصطفى السقا، القاهرة: مكتبة الخانجى، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

Al-Bakrî, Mu'jâm
البكري، أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز،
كتاب الممالك والمسالك، تحقيق ودراسة عبدالله يوسف الغنيم، ط١، الكويت، دار السلاسل للطباعة والنشر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

Al-Balâdhurî
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر،
فتوح البلدان، حققه وشرحه وعلق على حواشيه وأعد فهارسه وقدم له عبدالله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطباع، بيروت: منشورات مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

Al-Balawî
البلوي، خالد بن عيسى،
تاج المفرق في تحلية أهل المشرق،تحقيق الحسن السائح، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، بدون تاريخ.

Banî Yûnis 2000
بني يونس، مأمون أصلان
قافلة الحج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٨م، ط١، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، ودار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن: ٢٠٠٠م.

Bastoun et al., 1982
بستون، أ.ف.ل (وآخرون)، (١٩٨٢):
المعجم السبئي، بيروت: مكتبة لبنان.

Bunduqjî 1400H/ 1980
بندقجي، حسين حمزة،
أطلس المملكة العربية السعودية، دار جامعة أكسفورد للطباعة والنشر، بريطانيا، ١٤٠٠هـ .

Al-Daqan 1985
الدقن، السيد محمد
سكة حديد الحجاز الحميدية، الطبعة الأولى، مطبعة الجبلاوي، القاهرة: ١٩٨٥م.

Al-Dar'î
الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر
الرحلة الناصرية، طبعة فاس: ١٣٢٠هـ .

Al-Dhabib, 1998
الذييب، سليمان بن عبدالرحمن، (١٩٩٨):
نقوش الحجر النبطية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

Al-Dhahabî, 1996
الذهبي،
سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ١٩٩٦م

Al-Fa'r, 1984
الفعر، محمد فهد عبد الله،
تطور الكتابات و النقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

Al-Ghabban, 1414 H./1993
الغبان، علي بن إبراهيم:
شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مطبعة سفير، الرياض: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

Al-Ghabban, 1988 b
الغبان، علي بن إبراهيم:
النقوش العثمانية الباقية على عمائر طريقي الحج الشامي والمصري في شمال غرب المملكة العربية، أعمال المؤتمر الثاني لمدونة الآثار العثمانية في العالم، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والملعومات، زغوان – تونس: ١٩٨٨م.

Al-Ghazi, 1992
عبدالعزيز بن سعود الغزي،
«**تأريخ وتأصيل فخار أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي في شمال غربي المملكة العربية السعودية**» المجلد الثامن، الجزء الأول، ١٩٩٢م، ص ٧.

Al-Ghazi, 1995
عبدالعزيز بن سعود الغزي،
دراسات فخار مدين خلال ثلاثة وعشرين عاماً، عالم الكتب، المجلد السادس عشر، العدد الخامس، الربيعان ١٤١٦هـ/ سبتمبر – أكتوبر ١٩٩٥م، ص ٤٤٧ – ٤٥٢

Al-Ghazi, 2005 a
عبدالعزيز بن سعود الغزي،
دراسة مقارنة لزخارف زبدية نادرة من مدافن الصناعية في تيماء
مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، العدد الثامن عشر، العدد الأول، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، المجلد ١٨، ص ١٥١-١٨٤.
تشخيص وتاريخ فخار شمالي غربي المملكة العربية السعودية المزخرف بالألوان في ضوء الاكتشافات الحديثة.

Al-Ghazi, 2005 b
سلسلة مداولات اللقاء العلمي السنوي للجمعية-٦، الكويت: دولة الكويت ١١-١٢ ربيع الأول ١٤٢٦هـ/ ٢٠-٢١ أبريل ٢٠٠٥م، ص ١٠٥-١٥٥.

Al-Hamdânî, 1977
الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب،
صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

Al-Harbî
الحربي، إبراهيم بن إسحاق إبراهيم الإمام،
كتاب « المناسك» وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

Al-Hârithî 1415H./1994
الحارثي، ناصر بن علي،
النقوش العربية المبكرة بمنطقة الطائف، ط١، الطائف، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

Al-Hârithî, 2005
الحارثي، ناصر بن علي،
احجار شاهدية من متحف الاثار والتراث بمكة المكرمة، الرياض، ١٤٢٦ه/٢٠٠٥م.

Al-Hijrî
الهجري، أبو علي،
أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، بقلم حمد الجاسر، الرياض، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

Humayd Allâh, 1407H./1987
حميد الله، محمد،
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٦ بيروت: دار النفائس، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

Ibn Battûta
إبن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي،
رحلة إبن بطوطة، (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق المنتصر الكتاني، جزءان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

Ibn Bulayhid 1399H/1979
ابن بليهد، محمد بن عبدالله،
صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، راجعه وضبطه وكتب بعض هوامشه محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ط٣١٣٩٩، هـ/ ١٩٧٩م.

Ibn Hawqal
ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي،
كتاب صورة الأرض، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ب. ت.

Ibn Jubayr
إبن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني،
رحلة إبن جبير، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

Ibn Kathîr
إبن كثير، أبو الفداء الحافظ،
البداية والنهاية، ١٤ جزءا، مكتبة المعارف، بيروت (مكتبة النصر)، الرياض، ١٩٧٩-١٩٨٠م.

Ibn Khurradadhbih
إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله،
المسالك والممالك، تحقيق (M. J. De Goege)، ليدن، ١٨٩٢م.

Ibn Manzûr
ابن منظور، محمد بن مكرم،
لسان العرب، بيروت:
دار صادر، تاريخ المقدمة بقلم الناشر أحمد فارس صاحب الجوائب، ١٣٠٠هـ.

Ibn al-Mujâwir
ابن المجاور، يوسف بن يعقوب بن محمد،
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز: المسمَّاة تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحها أوسكر لوفغرين، ط٢، بيروت، منشورات المدينة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

Ibn al-Nadîm
ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب الوراق؛
الفهرست، ط٣، دار المسيرة ١٩٨٨م

Ibn Rustah
إبن رستة، أبو علي أحمد بن عمر،
كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق (M. J. De Goeje)، ليدن، ١٨٩٢م.

Ibn Sa'd
ابن سعد، محمد، ب. ت،
الطبقات الكبرى (٩ مجلدات)، بيروت: دار صادر.

Al-Idrîsî
الإدريسي، أبو عبدالله
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة مصورة، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٩هـ .

Al-Isfahânî
الأصفهاني، الحسن بن عبدالله،
بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح العلي، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١، ١٣٨٧هـ /١٩٦٨م.

Al-Istakhrî
الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي،
المسالك والممالك، تحقيق محمد عبد العال الحيني، القاهرة، ١٩٦١م.

Jam'a, s. d.
جمعة، إبراهيم؛
دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة، القاهرة: دار الفكر العربي، د .ت.

Al-Jâsir 1386H./ 1967
الجاسر، حمد،
« حمى الربذة في كتب المتقدمين »،
العرب، مجلد (١-٥) ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

١٩٧٧ /١٣٩٧H Al-Jâsir
الجاسر، حمد،
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – شمال المملكة، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٣٩٧هـ

٨٢-١٩٨١ /.١٤٠٢H Al-Jâsir
الجاسر، حمد،
أشهر رحلات الحج – **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي**، ط١، منتشورات دار الرفاعي، الرياض: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.ـ

٨٤-١٩٨٣ /.١٤٠٤H Al-Jâsir
الجاسر، حمد،
مقتطفات من رحلة العياشي، منشورات دار الرفاعي، الرياض: ١٤٠٤هـ .

Al-Jasser, 1979
الجاسر, حمد،
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – المنطقة الشرقية (البحرين قديماً) القسم الأول - ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

Al-Jazîrî
الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري،
الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

Jawad, 1980
علي، جواد، (١٩٨٠):
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة.

Kamal, 1984
عبدالعليم، مصطفى كمال، (١٩٨٤):
"تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني"، **دراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام**، الكتاب الثاني، الرياض: جامعة الملك سعود.

***Khatt* 1406H./ 1985-86**
الخط العربي من خلال المخطوطات، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ .

Al-Kilâbî 1424H.
الكلابي، حياة بنت عبدالله بن حسين، ١٤٢٣- ١٤٢٤هـ
«**النقوش الإسلامية المبكرة على درب الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية**»، رسالة دكتوراة غير منشورة مقدمة لقسم الآثار والمتاحف، بإشراف أ.د. أحمد إبن عمر الزيلعي.

Al-Kilâbî 1430H./2009
الكلابي، حياة بنت عبدالله:
النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية (من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

Al-Khiyârî
الخياري، إبراهيم بن عبدالرحمن
تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق الدكتور رجاء محمود السامرائي، نشر وزارة الثقافة العراقية ودار الرشيد، بغداد: ١٩٨٠م، الجزء الثالث.

Al-Maqrîzî
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي،
الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، القاهرة: ١٩٥٥م

Al-Mawâqi' al-athariya, 1420H./2000
الدائرة الإعلامية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م،
الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: المواقع الأثرية، ج٢، الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق.

Al-Munjid 1949
المنجد، صلاح الدين،
ولاة دمشق في العصر العثماني، دمشق: ١٩٤٩م

Al-Muqaddasî
المقدسي، محمد ابن أحمد،
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق (M. J. De Goeje)، ليدن، ١٩٠٦م.

Al-Nâbulsî
النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل،
الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، طبعة مصورة بدون تحقيق عن مخطوطة دار الكتب، تقديم وإعداد د. أحمد بن عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٨٦م.

Nasîf, 1413 H./1992
نصيف، عبدالله:
العلا دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي، ط١، بدون دار نشر، الرياض: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

Qudâma
قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي،
نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، تحقيق: دى غوية، ليدن، ١٨٨٩م.

Al-Rashid 1406H./1986
الراشد، سعد،
الربذة : **صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية**، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦.

Al-Rashid 1990
الراشد، سعد بن عبدالعزيز،
"أربعة أحجار ميلية من العصر العباسي: دراسة وتحقيق"، **العصور**، مج٥، ج١، لندن: ١٩٩٠م.

Al-Rashid 1412H./1991
الراشد، سعد بن عبدالعزيز،
«نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدرة»، **الدارة**، ع٤، السنة الرابعة عشرة، عدد رجب ١٤١٢هـ/ يناير ١٩٩١م.

Al-Rashid 1414H./1993
الراشد، سعد بن عبد العزيز،
درب زبيدة : طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة «دراسة تاريخية وحضارية أثرية»، دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

Al-Rashid 1416H./ 1995
الراشد، سعد بن عبدالعزيز، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م،
كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.

Al-Rashid 1421H./ 2000
الراشد، سعد بن عبدالعزيز،
دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة، مؤسسة الحزيمي للتجارة والتوكيلات، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

Al-Rashid, 1423H./ 2002
الراشد، سعد بن عبدالعزيز،
نقوش إسلامية مختارة من مكة المكرمة، الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

Al-Rashid, 2004
الراشد، سعد بن عبد العزيز،
احجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

Al-Roussan, 1978
الروسان، محمود محمد، (١٩٧٨):
القبائل الثمودية والصفوية – دراسة مقارنة، الرياض: جامعة الملك سعود.

Al-Said, 2000
السعيد، سعيد،
حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، دراسة في تاريخ العرب القديم، الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

Al-Said, 2002
السعيد، سعيد،
زوجات المعينين الاجنبيات في ضوء نصوص جديدة، أدوماتو، ٢٢٤١هـ/٢٠٠٢م.

Al-Samhûdî
السمهودي، نور الدين علي،
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث، بيروت: ١٩٨١م.

Silsilat âthâr al-mamlaka al-'arabiyya al-sa'ûdiyya, 2003
وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣/٢٠٠٣م آثار المنطقة الشرقية، **سلسلة آثار المملكة العربية السعودية**، الرياض.

Al-Sulûk et al. 1426H./2005
السلوك، محمد بن علي؛ النفيسة، عبدالعزيز؛ المزيني، فهد؛ العتيق، فهد؛ عسيري، رياض؛ العتيبي، عبد الله؛
الرشيد، فيصل؛ الحربي، جزاء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،
"**مسح درب التجارة القديم** (درب الحج اليمني الأعلى-النجدي-): الموسم الرابع ١٤٢١هـ"، **أطلال**، ع١٨، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم، ص ص١١١-١٢٦.

al-Tabarî
الطبري، أبو محمد محمد بن جرير،
تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،١٠ أجزاء، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

Tazjân, 1996
تزجان، خوليا،
استار الحرمين الشريفين، استانبول ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

Al-Thanayân, 1424H./ 2004
الثنيان، محمد بن عبدالرحمن، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م،
«نقش غيل المنضج (المبرح) الإسلامي المؤرخ في سنة ٩٨هـ (٧١٦-٧١٧ م): محافظة ظهران الجنوب- المملكة العربية السعودية»، **أدوماتو**، العدد التاسع.

Al-Thanayan, 2005
الثنيان، محمد بن عبدالرحمن راشد،
رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة للعلامة إسماعيل جغمان (١٢١٢- ١٢٥٦هـ/١٧٩٧- ١٨٤٠م): **دراسة وتعليق، كتاب الدارة**، ٢٠٠٥م.

Al-'Umayr 2006
العمير، عبدالله إبراهيم، وآخرون،
حفرية مدينة قرح (المابيات) الإسلامية بمحافظة العلا، أطلال، Atlal العدد ١٩، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض، ١٤٢٧هـ.

Al-Ya'qûbî
اليعقوبي، أحمد بن واضح،
تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: ١٩٨٨م.
كتاب البلدان، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م.

Yâqût
ياقوت، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي،
معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٨م.

Yâqût
الحموي، ياقوت بن عبدالله،
معجم البلدان، طبعة مصورة، دار صادر، بيروت: ١٩٨٦م.

Yilmâz, 1993
يلماز، طرجان،
الكعبة المشرفة، دراسة اثرية لمجموعة اقفالها ومفاتيحها المحفوظة في متحف طوب قاببباستانبول، استانبول، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

Al-Zahrânî, 2003
الزهراني، عبد الرحمن،
كتابات إسلامية من مكة المكرمة ق ١-٧هـ/ ٨-١٣ م، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

Al-Zahrânî, 2007
الزهراني، عوض،
تل الكثيب بالعلا: دراسة آثارية مقارنة، الرياض: وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

Al-Zayla'î, 1423H./2003
الزيلعي، أحمد بن عمر؛
الزهراني، عبدالله بن سالم؛ المزروع، حميد بن إبراهيم؛ العمري، عبدالعزيز بن منسي؛ السلوك، محمد بن علي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م،
آثار منطقة عسير: سلسلة آثار المملكة العربية السعودية، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف.

Zaza, 1984
ظاظا، حسن، (١٩٨٤):
"المجتمع العربي القديم من خالل اللغة"، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الريـاض:
جامعة الملك سعود.

Al-Said 2002
See the bibliography in Arabic.

Al-Said 2009
S. F. Al-Said, "Eine neu entdeckte Erwähnung des Königs Nabonid in den thamudischen Inschriften", *Zeitschrift für Orient-Archäologie*, 2, 2009, pp. 358–63.

Saleh 1973
A. A. Saleh, "An Open Question on Intermediaries in the Incense Trade During Pharaonic Times", *Orientalia*, 42, 1973, pp. 370–82.

Salles 1988
J.-F. Salles (ed.), *L'Arabie et ses mers bordières*, t. I, *Itinéraires et voisinages : séminaire de recherche, 1985-1986*, Travaux de la Maison de l'Orient, 16, Lyon, Maison de l'Orient méditerranéen, 1988.

Salles 1996
J.-F. Salles, "Al-'Ula-Dédan. Recherches récentes", *Topoi*, 6/2, 1996, pp. 564–607.

Salman *et al.* 1975
I. Salman, U. Al-Naqshabandi and N. Al-Totonchi, *Arabic Texts in the Iraq Museum*, Baghdad, 1975 (in Arabic).

Al-Samhudi
See the bibliography in Arabic.

Sanlaville 1992
P. Sanlaville, "Changements climatiques dans la péninsule Arabique durant le Pléistocène supérieur et l'Holocène", *Paléorient*, 18/1, 1992, pp. 5–26.

Sanlaville 2000
P. Sanlaville, *Le Moyen-Orient arabe. Le milieu et l'homme*, Paris, Armand Colin, 2000.

Sartre 1996
M. Sartre, "La Mission en Arabie des Pères A. Jaussen and R. Savignac : historique et bilan scientifique", *Topoi*, 6/2, 1996, pp. 533–52.

Sass 2005
B. Sass, *The Alphabet at the Turn of the Millenium. The West Semitic Alphabet ca. 1150-850 BCE. The Antiquity of the Arabian, Greek and Phrygian Alphabets*, Journal of the Institute of Archaeology of Tel Aviv University, Occasional Publications, 4, Tel-Aviv, University of Tel-Aviv, The Sonia and Marco Nadler Institute of Archaeology, 2005.

Al-Saud 1997
A. S. Al-Saud, *Central Arabia during the Hellenistic Period*, Riyadh, 1997.

Sauvaget 1947
J. Sauvaget, *La Mosquée omeyyade de Médine*, Paris, 1947.

Al-Sayari and Zötl 1978
S. S. Al-Sayari and J. G. Zötl (ed.), *Quaternary Period in Saudi Arabia*, vol. I, Vienna, New York, Springer-Verlag, 1978.

Schaudig 2001
H. Schaudig, *Die Inschriften Nabonids von Babylon und Kyros' des Großen samt den in ihrem Umfeld entstandenen Tendenzschriften. Textausgabe und Grammatik*, Alter Orient und Altes Testament, 256, Münster, 2001.

Schiettecatte and Robin 2009
J. Schiettecatte and C. Robin (ed.), *L'Arabie à la veille de l'Islam. Bilan clinique. Actes de la table ronde tenue au Collège de France, les 28 et 29 août 2006*, Orient et Méditerranée, 3, Paris, De Boccard, 2009.

Schmidt-Colinet 1983
A. Schmidt-Colinet, "Dorisierende nabatäische Kapitelle", *Damaszener Mitteilungen*, vol. 1, 1983, pp. 307–12, pl. 66–67.

Schneider 1983
M. Schneider, *Stèles funéraires musulmanes des îles Dahlak (mer Rouge)*, Cairo, 1983.

Schneider (forthcoming)
P. Schneider, "On the Organization and Building Techniques of the Large Walls of Tayma", in R. Eichmann, A. Hausleiter, M. Al-Najem and S. F. Al-Said, "Tayma – Autumn 2004 and Spring 2005, 2nd Report on the Joint Saudi-Arabian–German Archaeological Project", *Atlal*, 20, forthcoming.

Schwiderski 2004
D. Schwiderski (ed.), *Die alt- und reichsaramäischen Inschriften / The Old and Imperial Aramaic Inscriptions*, Berlin, New York, 2004.

Selz 1989
G. Selz, "Ein neuer altsumerischer Brief aus dem Vorderasiatischen Museum zu Berlin", *Altorientalische Forschungen*, 16, 1989, pp. 380–82.

Sevim 1975
İ. Sevim, "Abdurrahman Hibri'nin Menasik-i Mesalik'i", *Tarih Enstitüsü Dergisi*, 6, 1975, pp. 111–28.

Sevim 1976
İ. Sevim, "Abdurrahman Hibri'nin Menasik-i Mesalik'i", *Tarih Dergisi*, 30, 1976, pp. 55–72.

Sevim 1978
İ. Sevim, "enasik-i Mesalik'i", *Tarih Dergisi*, 31, 1978, pp. 147–62.

Shahid 1971
I. Shahid, *The Martyrs of Najran. New Documents*, Subsidia hagiographica, 49, Brussels, Société des bollandistes, 1971.

***Silsilat athar al-mamlaka al-'arabiyya al-sa'ūdiyya* 2003**
See bibliography in Arabic.

Sima 1999
A. Sima, *Die lihyanischen Inschriften von al-'Udayb (Saudi-Arabien)*, Epigraphische Forschungen auf der Arabischen Halbinsel, 1, Rahden/Westf., Verlag Marie Leidorf, 1999.

Simon 1970
R. Simon, "Hums et Îlâf, ou commerce sans guerre (sur la genèse et le caractère du commerce de La Mecque)", *Acta Orientalia Academiae scientiarum Hungaricae*, 23, 1970, pp. 205–32 (reprinted in *Recherches sur la jeunesse de l'islam*, Budapest Oriental Studies, Budapest, 1979).

Simon 1989
R. Simon, *Meccan Trade and Islam. Problems of Origin and Structure*, Bibliotheca Orientalis Hungarica, 32, Budapest, Akadémiai Kiadó, 1989.

Sourdel 1968
D. and J. Sourdel, *La Civilisation de l'islam classique*, Paris, 1968 (pocket ed. without illustrations, 1983).

Sourdel-Thomine 1971
J. Sourdel-Thomine, "Clefs et serrures de la Ka'ba. Notes d'épigraphie arabe", *Revue des études islamiques*, special ed. 3, Paris, 1971.

Speidel 2007
M. Speidel, "Ausserhalb des Reiches? Zu neuen lateinischen Inschriften aus Saudi-Arabien und zur Ausdehnung der römischen Herrschaft am Roten Meer", *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik*, 163, 2007, pp. 296–306.

Steimer-Herbet *et al.* 2007
T. Steimer-Herbet *et al.*, "Rites and Funerary Practices at Rawk during the Fourth Millennium B.C. (Wadi 'Idim, Yemen)", *PSAS*, 37, 2007, pp. 281–94.

Stein (forthcoming)
P. Stein, "Eine neuerliche Annäherung an die reichsaramäische, Kultstele' von Tayma", in *Tayma*, vol. I, forthcoming.

Steinkeller 2006
P. Steinkeller, "New Light on Marhaši and its Contacts with Makkan and Babylonia", *Journal of Magan Studies*, 1, 2006, pp. 1–17.

Stierlin 1987
H. Stierlin, *Cités du désert*, Fribourg, 1987.

Strika 1976
V. Strika, "A Ka'bah Picture in the Iraq Museum", *Sumer*, 32, 1976, pp. 195–201.

Strika 1979
V. Strika, "A Ka'ba Picture from Mosul", in *Masadir Tarikh al-Jazira al-'Arabiyya/Sources for the History of Arabia: Proceedings of the First International Symposium on Studies in the History of Arabia, 23rd-28th April 1977*, Riyadh, 1399 H./1979, pp. 145–48, pl. 73.

Sublet 1991
J. Sublet, *Le Voile du nom. Essai sur le nom propre arabe*, Paris, 1991.

Al-Suluk *et al.* 1426 H./2005
See the bibliography in Arabic.

al-Tabari
See the bibliography in Arabic.

Tadmor 1994
H. Tadmor, *The Inscriptions of Tiglath-Pileser III King of Assyria. Critical Edition, with Introductions, Translations and Commentary*, Jerusalem, The Israel Academy of Sciences and Humanities, 1994.

Al-Taimā'i 2006
M.H. al-Taimā'i, *Mantiqat rujum-sa'sa' bi-tayma*, Riyadh, 2006.

Al-Talhi and Al-Daire 2005
D. Al-Talhi and Mohammad Al-Daire, "Roman Presence in the Desert: a New Inscription from Hegra", *Chiron*, 35, 2005, pp. 205–17.

Tamisier 1840
M. Tamisier, *Voyage en Arabie. Séjour dans le Hedjaz. Campagne d'Assir. Accompagné d'une carte*, Paris, L. Desessart, 1840, 2 vols.

Tanındı 1983
Z. Tanındı, "Islam resminde kutsal kent ve yöre tasvirleri", *Journal of Turkish Studies*, 7, 1983, pp. 407–37.

Tardieu 1992
M. Tardieu, "L'arrivée des manichéens à al-Hira", in P. Canivet and J.-P. Rey-Coquais (ed.), *La Syrie de Byzance à l'Islam VII^e-VIII^e siècles, Actes du Colloque international, Lyon, Maison de l'Orient méditerranéen, Paris, Institut du Monde arabe, 11-15 septembre 1990*, Damascus, French Institute of Damascus, 1992, pp. 15–24.

Tardieu 1994
M. Tardieu, "L'Arabie du Nord-Est d'après les documents manichéens", *Studia Iranica*, 23, 1994, pp. 59–75.

Tarragon 1999
J.-M. de Tarragon, "Les Dominicains en Arabie", in Paris, 1999, pp. 11–25.

Tazjan 1996
See the bibliography in Arabic.

Al-Thanaya 1424 H./2004
See the bibliography in Arabic.

Al-Thanayan 2005
See the bibliography in Arabic.

Theolin *et al.* 2002
S. Theolin *et al.*, *The Torch of the Empire: Ignatius Mouradgea d'Ohsson and the Tableau Général of the Ottoman Empire in the 18th Century*, Istanbul, 2002.

Thesaurus
L. Kalus, (ed.), *Thesaurus d'épigraphie islamique*, 9th ed., Paris, Geneva, 2009.

Thévenot 1665
J. de Thévenot, *Relation d'un voyage fait au Levant, dans laquelle il est curieusement traité des Estats Sujets au Grand Seigneur, de Mœurs, Religions, Forces, Gouvernemens, Politiques, Langues et coustumes des Habitants de ce grand Empires […]*, Paris, L. Bilaine, 1665.

Uerpmann, Potts and Uerpmann 2009
H. P. Uerpmann, D. T. Potts, M. Uerpmann, "Holocene (Re-)Occupation of Eastern Arabia", in Petraglia and Rose, 2009, pp. 205–14.

Al-'Umayr 2006
See the bibliography in Arabic.

Valencia 2008
Three Empires of Islam: Istanbul, Isfahan, Delhi. Masterpieces of the Louvre Collection, exhibition catalogue, Valencia, Fondation Bancaja, 2008.

Vallet 2009
É. Vallet, "1424. Les navires de Calicut se détournent d'Aden au profit de Djedda", in P. Boucheron (ed.), *Histoire du monde au XV^e siècle*, coordinated by J. Loiseau, P. Monnet and Y. Potin, Paris, Fayard, 2009, pp. 325–28.

Van Berchem 1904
M. Van Berchem, "Notes d'archéologie arabe. Étude sur les cuivres damasquinés et les verres émaillés. Inscriptions, marques, armoiries", *Arts asiatiques*, series 10, t. III, 1904, pp. 5–96.

Van de Mieroop 2007
M. Van de Mieroop, *The Eastern Mediterranean in the Age of Ramesses II*, Oxford, Blackwell Publishing, 2007.

Van den Branden and Philby 1956
A. Van den Branden and H. St J. B. Philby, *Les Textes thamoudéens de Philby*, t. I-II, Bibliothèque du Muséon, 39 and 41, Louvain-la-Neuve, Université catholique de Louvain, Institut orientaliste, 1956.

Varthema 1888
L. di Varthema, *Les Voyages de Ludovico di Varthema*, trad. J. Balarin de Raconis, published and annotated by C. Schefer, Paris, E. Leroux, 1888.

Veinstein 2006
G. Veinstein, "La question du califat ottoman", in P.-J. Luizard (ed.), *Le Choc colonial et l'islam. Les politiques religieuses des puissances coloniales en terres d'islam*, Paris, La Découverte, 2006, pp. 451–68.

Villeneuve, Phillips and Facey 2004
F. Villeneuve, C. Phillips and W. Facey, "Une inscription latine de l'archipel Farasân (sud de la mer Rouge) et son contexte archéologique et historique", *Arabia*, 2, 2004, pp. 143–90, figs. 63–67 (pp. 229–32).

Ward 1972
W. A. Ward, "The Shasu "Bedouin": Notes on a Recent Publication", *JESHO*, 15, 1972, pp. 35–60.

Washington 1982
The Heritage of Islam: Patterns and Precision, the Arts and Sciences of Islam, exhibition catalogue,Washington D.C., National Committee to Honor the Fourteenth Centennial of Islam, 1982.

Washington (n.d.)
Written in Stone. Inscriptions from the National Museum of Saudi Arabia, online exhibition: http://www.mnh.si.edu/epigraphy/, Washington D.C., Smithsonian National Museum of Natural History.

Watt 1953
W. M. Watt, *Muhammad at Mecca*, Oxford, London, 1953.

Watt 1956
W. M. Watt, *Muhammad at Medina*, Oxford, London, 1956.

Weber 2003
S. Weber, "Images of Imagined Worlds. Self-Image and Worldview in Late Ottoman Wall Paintings of Damascus", in *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire*, Beiruter Texte und Studien, Beirut, 88, 2003, pp. 145–77.

Weber 2009
S. Weber, *Damascus, Ottoman Modernity and Urban Transformation (1808-1918)*, Proceedings of the Danish Institute, 6 Damascus, 2009.

Wellbrock and Grottker 2009
K. Wellbrock and M. Grottker, "Vorläufige Ergebnisse der hydrologischen Untersuchungen in Tayma, Qurayyah und Dumat al-Jandal", paper presented at the workshop *Neue Forschungen in Tayma – Projektgespräch 2009, 7–8. 12.*, Berlin, 2009.

Whalen and Schatte 1997
N. Whalen and D. W. Schatte, "Pleistocene Sites in Southern Yemen", *AAE*, 8, 1997, pp. 1–10.

Whalen, Sindi, Wahida, Siraj-Ali 1983
N. Whale, H. Sindi, G. Wahida, J.S. Siraj-Ali, "Excavations of Acheulean sites near Saffaqah in Ad-Dawadmi 1402–1982", *Atlal*, 1983, vol. 7, pp. 9–21.

Whitcomb 1998
D. Whitcomb, "Out of Arabia: Early Islamic Aqaba in its Regional Context", *Colloque international d'archéologie islamique, IFAO, 1993*, J. P. Gayraud (ed.), Cairo, 1998, pp. 403–18.

Wiet 1939
G. Wiet, *Catalogue général du musée Arabe du Caire. Stèles funéraires*, t. VI, Cairo, 1939.

Wiet 1952
G. Wiet, "Roitelets de Dahlak", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, t. XXXIV, 1952, pp. 89–95.

Winnett 1937
F. V. Winnett, *A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions.* University of Toronto Studies, Oriental Series, 3, Toronto, University of Toronto Press, 1937.

Winnett 1939
F. V. Winnett, "The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia", *BASOR*, 73, February 1939, pp. 3–9.

Winnett 1946
F. V. Winnett, "A Himyarite Inscription from the Persian Gulf Region", *BASOR*, 102, April 1946, p. 2.

Winnett and Reed 1970
F. V. Winnett and W. L. Reed, *Ancient Records from North Arabia, Near and Middle East Series.* 6, Toronto, University of Toronto Press, 1970.

Winter 1971
F. E. Winter, *Greek Fortifications*, Toronto, University of Toronto Press, 1971.

Witkam 2007
J. J. Witkam, "The Battle of Images. Mekka vs. Medina in the Iconography of the Manuscripts of al-Jazuli's *Dalā'il al-Khayrat*", in *Theoretical Approaches to the Transmission and Edition of Oriental Manuscripts*, Beiruter Texte und Studien, 111, 2007, pp. 67–82.

Witkam 2009
J. J. Witkam, "Images of Makkah and Madinah in an Islamic Prayer Book", *Hadeeth al-Dar*, 30, 2009, pp. 27–32.

Al-Wohaibi 1973
A. Al-Wohaibi, *The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers, 800-1150*, Beirut, 1973.

Wooley 1934
C. L. Wooley, *Ur Excavations II: the Royal Cemetery*, London, Trustees of the Two Museums, 1934.

Wooley 1956
C. L. Wooley, *Ur Excavations IV: the Early Periods,* Philadelphia, British Museum, University Museum, 1956.

Wooley and Litt 1974
C. L. Wooley and D. Litt, *Ur Excavations VI: the Buildings of the 3rd Dynasty*, Philadelphia, University of Pennsylvania, 1974.

Yaman 1996
Z. Yaman, "Küre Hoca emseddin Camii'nde Kabe Tasvirli Çini Pano", *Prof. Dr. erare Yetkin Anısına Çini Yazıları*, Istanbul, 1996, pp. 187–96.

Al-Ya'qubi
See the bibliography in Arabic.

Yaqut
See the bibliography in Arabic.

Yilmaz 1993
See the bibliography in Arabic.

Al-Zahrani 2003
See the bibliography in Arabic.

Al-Zahrani 2007
See the bibliography in Arabic.

Zambaur 1927
E. K. M. von Zambaur, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hanover, 1927.

Zarins 1978
J. Zarins, "Steatite Vessels in the Riyadh Museum", *Atlal*, 2, 1978, pp. 65–93.

Zarins 1982
J. Zarins, "Early Rock Art of Saudi Arabia", *Archaeology*, 35/6, 1982, pp. 20–27.

Zarins 1989 a
J. Zarins, "Ancient Egypt and the Red Sea Trade: the Case for Obsidian in the Predynastic and Archaic Periods", in A. Leonard, Jr. and B. B. Williams (ed.), *Essays in Ancient Civilization Presented to Helene J. Kantor*, Chicago, 1989, pp. 339–68.

Zarins 1989 b
J. Zarins, "Eastern Saudi Arabia and External Relations: Selected Ceramic, Steatite and Textual Evidence: 3500–1900 B.C.", in K. Frifelt and P. Sørensen (ed.), *South Asian Archaeology 1985*, Curzon Press, 1989, pp. 74–103.

Zarins 1990
J. Zarins, "Obsidian and the Red Sea Trade: Prehistoric Aspects", in M. Taddei and P. Callieri (ed.), *South Asian Archaeology Conference Roma 1987*, Istituto Italiano per il Medio ed Estremo Oriente, 1990, pp. 507–41.

Zarins, Kabawi and Murad 1983
J. Zarins, A. Kabawi and A. Murad, "Preliminary Report on the Najran/Ukhdud Survey and Excavations (1402/1982)", *Atlal*, 7, 1983, pp. 22–40.

Zarins, Murad and Al-Yaish 1981
J. Zarins, A. Murad and Kh. Al-Yaish, "The Second Preliminary Report on the Southern Province", *Atlal*, 5, 1981, pp. 9–42.

Al-Zayla'i 2000
A. Al-Zayla'i, "Calligraphy and Calligraphers in 'Am-Saudi Arabia, 2nd–5th/8th–11th Centuries", *PSAS*, 30, 2000, p. 243–55.

Al-Zayla'i 1423 H./2003
See the bibliography in Arabic.

Zaza 1984
See the bibliography in Arabic.

Zutterman 2004
C. Zutterman, "The Softstone Vessels from Qarn Bint Sa'ud, Abu Dhabi (UAE)", *AAE*, 2004, 15, pp. 105–14.

Parr 1996
P. J. Parr, "Further Reflections on Late Second Millennium Settlement in North West Arabia", in J. D. Seger (ed.), *Retrieving the Past: Essays on Archaeological Research and Methodology in Honor of Gus W. Van Beek*, Winona Lake, 1996, pp. 213–18.

Parr, Harding and Dayton 1970
P. J. Parr, G. L. Harding and J. E. Dayton, "Preliminary Survey in North-West Arabia, 1968.1", *Bulletin of the Institute of Archaeology*, 8–9, 1970, pp. 193–242.

Parr, Harding and Dayton 1972
P J. Parr, G. L. Harding and J. E. Dayton, "Preliminary Survey in North-West Arabia, 1968", *Bulletin of the Institute of Archaeology*, 10, 1972, pp. 23–61.

Patrich 1990
J. Patrich, *The Formation of Nabatean Art. Prohibition of a Graven Image among the Nabateans*, Jerusalem, The Magnes Press, The Hebrew University, Leiden, Brill, 1990.

Payne 1983
E. J. Payne, "The Midianite Arc in Joshua and Judges", in J. F. A. Sawyer and D. J. A. Clines (ed.), *Midian, Moab and Edom*, Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, Sheffield, 1983, pp. 163–72.

Peters 1988
F. E. Peters, "The Commerce of Mecca before Islam", in F. Kazemi and R. D. McChesney (ed.), *A Way Prepared: Essays in Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder*, New York, London, 1988, pp. 3–26.

Petit-Maire, Carbonel, Reyss, Sanlaville, Abed, Bourrouilh, Fontugne and Yasin 2010 (in press)
N. Petit-Maire, P. Carbonel, J.-L. Reyss, P. Sanlaville, A. Abed, R. Bourrouilh, M. Fontugne and S. Yasin, "A Vast Eemian Palaeolake in Southern Jordan (29º N)", in *Global and Planetary Change*, Elsevier, forthcoming.

Petraglia 2003
M. D. Petraglia, "The Lower Paleolithic of the Arabian Peninsula: Occupations, Adaptations, and Dispersals", *Journal of World Prehistory*, 17/2, 2003, pp. 141–78.

Petraglia and Rose 2009
M. D. Petraglia and J. I. Rose (ed.), *The Evolution of Human Populations in Arabia. Paleoenvironments, Prehistory and Genetics*, Vertebrate Paleobiology and Paleoanthropology Series, Dordrecht, Heidelberg, London and New York, Springer, 2009.

Petrie *et al.* 2005
C. A. Petrie, A. Asgari Chaverdi and M. Seyedin, "From Anshan to Dilmun and Magan: the Spatial and Temporal Distribution of Kaftari and Kaftari-Related Ceramic Vessels", *Iran*, 43, 2005, pp. 49–86.

Philby 1957
H. St J. B. Philby, *The Land of Midian*, London, E. Bean Ltd., 1957.

Philby 1995
H. St J. B. Philby, "The Lost Ruins of Qurayyah", *The Journal of The Royal Asiatic Society*, CXVII, part 4, 1995, pp. 248–59.

Phillips 1997
J. Phillips, "Punt and Aksum: Egypt and the Horn of Africa", *Journal of African History*, 38, 1997, pp. 423–57.

Pierce 1993
L. P. Pierce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, New York, 1993.

Piesinger 1983
C. M. Piesinger, *Legacy of Dilmun. The Roots of Ancient Maritime Trade in Eastern Coastal Arabia in the 4th/3rd Millenniums B.C.*, unpublished Ph.D. thesis, University of Wisconsin, Michigan, 1983.

Pirenne 1958
J. Pirenne, *À la découverte de l'Arabie, cinq siècles de science et d'aventure*, Paris, Le Livre contemporain, 1958.

Porada 1962
E. Porada, *Alt-Iran*. Baden-Baden 1962.

Portland 1979
Turkish Treasures from the Collection of Edwin Binney, 3rd, exhibition catalogue, Portland Art Museum, 1979.

Potts 1984
D. T. Potts, "Northeastern Arabia. From the Seleucids to the Earliest Caliphs", *Expedition*, vol. 26, no. 3, 1984, pp. 21–30.

Potts 1986
D. T. Potts, "Eastern Arabia and the Oman Peninsula during the Late Fourth and Early Third Millennium B.C.", in U. Finkbeiner and W. Röllig (ed.), *Gamdat Nasr, Period or Regional Style?*, Weisbaden, L. Reichert, 1986, pp. 121–70.

Potts 1988
D. T. Potts, "Trans-Arabian Routes of the Preislamic Period", in Salles, 1988, pp. 127–62.

Potts 1989
D. T. Potts, *Miscellanea Hasaitica*, CNI Publications, 9, The Carsten Niebuhr Institute of Ancient Near Eastern Studies, Copenhagen, University of Copenhagen, Museum Tusculanum Press, 1989.

Potts 1990 a
D. T. Potts, *The Arabian Gulf in Antiquity.* vol. I, *From Prehistory to the Fall of the Achaemenid Empire*, Oxford, Clarendon Press, 1990.

Potts 1990 b
D. T. Potts, *The Arabian Gulf in Antiquity*, vol. II, *From Alexander the Great to the Coming of Islam*, Oxford, Clarendon Press, 1990.

Potts 1991 a
D. T. Potts, *The Pre-Islamic Coinage of Eastern Arabia, with an Appendix by Rémy Boucharlat and Monique Drieux*, CNI Publications, 14, The Carsten Niebuhr Institute of Ancient Near Eastern Studies, Copenhagen, University of Copenhagen, Museum Tusculanum Press, 1991.

Potts 1991 b
D. T. Potts, "Tayma and the Assyrian Empire", *AAE*, 2, 1991, pp. 10–23.

Potts 1993 a
D. T. Potts, "The Sequence and Chronology of Thaj", in U. Finkbeiner (ed.), *Materialien zur Archäologie der Seleukiden- und Partherzeit im südlichen Babylonien und im Golfgebiet*, Tübingen, 1993, pp. 87–110.

Potts 1993 b
D. T. Potts, "The Sequence and Chronology of Ain Jawan", in U. Finkbeiner (ed.), *Materialien zur Archäologie der Seleukiden- und Partherzeit im südlichen Babylonien und im Golfgebiet*, Tübingen, 1993, pp. 111–26.

Potts 1994
D. T. Potts, *Supplement to: the Pre-Islamic Coinage of Eastern Arabia*, CNI Publications, 16, The Carsten Niebuhr Institute of Ancient Near Eastern Studies, Copenhagen, University of Copenhagen, Museum Tusculanum Press, 1994.

Potts 2001
D. T. Potts, *Excavations at Tepe Yahya, Iran, 1967–1975: the Third Millennium*, contributions by H. Pittman and P. Kohl, Bulletin of the American School of Prehistoric Research, 45, Cambridge, Peabody Museum Press, 2001.

Potts 2005
D. T. Potts, "In the Beginning: Marhashi and the Origins of Magan's Ceramic Industry in the Third Millennium B.C.", *AAE*, 16, 2005, pp. 67–78.

Potts 2007
D. T. Potts, "The Mukarrib and his Beads: Karib'il Watar's Assyrian Diplomacy in the Early 7th Century B.C.", *Isimu*, 6, 2003, pp. 197–206.

Potts 2009
D. T. Potts, "The Archaeology and Early History of the Persian Gulf", in L. G. Potter (ed.), *The Persian Gulf in History*, New York, 2009, pp. 27–56.

Potts, Mughannum, Frye and Sanders 1978
D. T. Potts, A. S. Mughannum, J. Frye and D. Sanders, "Preliminary Report on the Second Phase of the Eastern Province Survey 1397/1977", *Atlal*, 2, 1978, pp. 7–27.

Pouillon 2008
F. Pouillon (ed.), *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, Paris, 2008.

Prat 2008
S. Prat, "La première sortie d'Afrique", in J.-P. Bocquel-Appel (ed.), *La Paléodémographie – 99,99 % de l'histoire de la démographie des hommes ou la démographie de la préhistoire*, Paris, Errance, 2008, pp. 34–44.

Prémare 2002
A.-L. de Prémare, *Les Fondations de l'Islam, entre écriture et histoire*, Paris, 2002.

Prémare 2004
A.-L. de Prémare, *Aux origines du Coran. Questions d'hier, approches d'aujourd'hui*, Paris, 2004.

Pritchard 1974
J. B. Pritchard (ed.), *Salomon and Sheba*, London, Phaidon, 1974.

Puech 1998
É. Puech, "Inscriptions araméennes du golfe : Failaka, Qala'at al-Bahreïn et Mulayha", *Transeuphratène*, 16, 1998, pp. 31–55.

Qudama
See the bibliography in Arabic.

Quebec 2008
Les Arts et la vie : le Louvre à Québec, exhibition catalogue, Quebec, National Museum of Fine Arts of Quebec, 2008.

Quran
The Koran Interpreted, trans. Arthur J. Arberry, London, New York, 1955.

Al-Rashid 1970
S. A. Al-Rashid, "Eine Frühdynastische Statue von der Insel Tarut im Persischen Gulf", in *Gesellschaften im Alten Zweistromland und in den angrenzenden Gebeiten*, 18th International Archaeological Conference, Munich, 1970, pp. 159–66.

Al-Rashid 1974
S. A. Al-Rashid, "Einige Denkmäler aus Tēmā und der babylonische Einfluss", *Baghdader Mitteilungen*, 7, 1974, pp. 155–65.

Al-Rashid 1975
S. A. Al-Rashid (ed.), *An Introduction to Saudi Arabian Antiquities*, Riyadh, Ministry of Education, Antiquities and Museums, 1975 (2nd ed. updated in 1999).

Al-Rashid 1980
S. A. Al-Rashid, *Darb Zubaydah. The Pilgrim Road from Kufa to Mecca*, Riyadh, 1980.

Al-Rashid 1986
S. A. Al-Rashid, *Al-Rabadhah. A Portrait of Early Islamic Civilisation in Saudi Arabia*, Riyadh, 1986.

Al-Rashid, 1406 H./1986
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid 1990
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid, 1412 H./1991
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid 1992
S. A. Al-Rashid, "A New 'Abbasid Milestone from Al-Rabadha in Saudi Arabia", *AAE*, 3, 1992, pp. 138–43.

Al-Rashid, 1414 H./1993
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid, 1416 H./1995
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid, 1421 H./2000
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid, 1423 H./2002
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid 2004
See the bibliography in Arabic.

Al-Rashid 2005
S. A. Al-Rashid, "The Development of Archaeology in Saudi Arabia", *PSAS*, 35, 2005, pp. 207–14.

RCEA
Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, vol. 1–16, Cairo, 1932–64 and 1982, 1991.

Reade 1998
J. Reade, "Assyrian Illustrations of Arabs", in C. Philips, D. Potts and S. Searight (ed.), *Arabia and its Neighbours. Essays on the Prehistorical and Historical Developments*, Abiel II, Turnhout, Brepols, 1998, pp. 221–32.

Renan 1884
E. Renan, *Documents épigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie par M. Ch. Doughty, Académie des inscriptions et belles-lettres*, Paris, Imprimerie nationale, 1884.

Renda 1977
G. Renda, *Batılaşma Döneminde Türk Resim Sanatı 1700-1850*, Ankara, 1977.

RES
Répertoire d'épigraphie sémitique.

Retsö 1991
J. Retsö, "Road from South Arabia", *Orientalia Suecana*, 40, 1991, pp. 187–219.

Retsö 2003
J. Retsö, *The Arabs in Antiquity. Their History from the Assyrians to the Umayyads*, London, New York, Routledge, Curzon, 2003.

Reynolds 2003
F. Reynolds, *The Babylonian Correspondence of Esarhaddon and Letters to Assurbanipal and Sin-šarru-iškun from Northern and Central Babylonia*, Helsinki, Helsinki University Press, 2003.

Rif'at Pasha 1935
Î. Rif'at Pasha, *Mir'atü'l-haremeyn er-rıhlati'l-hicaziyye ve'l-hac*, Cairo, 1353 H./1935.

Riyadh 1985
The Unity of Islamic Art, exhibition catalogue, King Faysal Centre, Riyadh, 1985.

Riyadh 1986
Arabic Calligraphy in Manuscripts, exhibition catalogue, Riyadh, King Faysal Centre, 1986.

Riyadh 2006
Chefs-d'œuvre de la collection des arts de l'Islam du musée du Louvre, Riyadh, National Museum, 2006.

Riyadh 2009
Unity within Cultural Diversity, exhibition catalogue, Riyadh, 2009.

Robin 1974
Ch. Robin, "Monnaies provenant de l'Arabie du Nord-Est", *Semitica*, 24, 1974, pp. 83–125.

Robin 1991 a
C. Robin (ed.), *L'Arabie antique de Karib'il à Mahomet. Nouvelles données sur l'histoire des Arabes grâce aux inscriptions, REMMM*, 61, 1991/3.

Robin 1991 b
C. Robin, 1991, "Les plus anciens monuments de la langue arabe", in Robin, 1991 a., pp. 113–26.

Robin 2001 a
C. Robin, ""La caravane yéménite et syrienne" dans une inscription de l'Arabie méridionale antique", in B. Halff, F. Sanagustin, M. Sironval and J. Sublet et F. Sanagustin (ed.), *L'Orient au cœur, en l'honneur d'André Miquel*, Maison de l'Orient méditerranéen, collection "Orient-Méditerranée", Paris, Maisonneuve et Larose, 2001, pp. 206–17.

Robin 2001 b
C. Robin, "Les 'Filles de Dieu' de Saba' à La Mecque : réflexions sur l'agencement des panthéons dans l'Arabie ancienne", *Semitica*, 50, 2001, pp. 113–92.

Robin 2003
C. Robin, "Le judaïsme de Himyar", *Arabia*, 1, 2003, pp. 97–172.

Robin 2004
C. Robin, "Himyar et Israël", *CRAI*, 2004, pp. 831–906.

Robin 2005
C. Robin, "Himyar, des inscriptions aux traditions", *Jerusalem Studies on Arabic and Islam*, 30, 2005, pp. 1–51.

Robin 2006
C. Robin, "La réforme de l'écriture arabe à l'époque du califat médinois", *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, 59, 2006, pp. 157–202.

Robin 2008 a
C. Robin, "Les Arabes des "Romains", des Perses et de Himyar (IIIe-VIe s. è. chr.)", *Semitica et Classica*, 1, 2008, pp. 167–202.

Robin 2008 b
C. Robin, "La lecture et l'interpretation de l'abécédaire Ra's Shamra 88.2215. La preuve par l'Arabie?", in C. Roche (ed.), *D'Ougarit à Jérusalem : recueil d'études épigraphiques et archéologiques offert à Pierre Bordreuil*, Orient et Méditerranée, 2, Paris, De Boccard, 2008, pp. 233–44.

Robin and Vogt 1997
C. Robin and B. Vogt (ed.), *Yémen, au pays de la reine de Saba*, exhibition catalogue, Paris, Institut du monde arabe, Flammarion, 1997.

Rothenberg 1972
B. Rothenberg, *Timna*, London, Thames and Hudson, 1972.

Rothenberg and Glass 1983
B. Rothenberg and J. Glass, "The Midianite Pottery", in J. F. A. Sawyer and D. J. A. Clines (ed.), *Midian, Moab and Edom*, Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, Sheffield, 1983, pp. 65–125.

Al-Roussan 1978
See the bibliography in Arabic.

Rubin 1986
Uri Rubin, "The Ka'ba: Aspects of its Ritual Functions and Position in Pre-Islamic and Early Islamic Times", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 13, 1986, pp. 97–131 (reprinted in F. E. Peters [ed.], *The Arabs and Arabia on the Eve of Islam*, The Formation of the Classical Islamic World, 3, Aldershot, Ashgate Variorum, 1999, pp. 313–47).

Ryckmans 1947
G. Ryckmans, "Les religions arabes préislamiques", in M. Gorce and R. Mortier (ed.), *Histoire générale des religions*, IV, Paris, A. Quillet, 1947, pp. 307–32 and 526–34.

Ryckmans 1951
G. Ryckmans, *Les Religions arabes préislamiques*, Bibliothèque du Muséon, 26, Louvain-la-Neuve, Université catholique de Louvain, Institut orientaliste, 1951 (2nd ed.).

Ryckmans 1952
G. Ryckmans, "Trois mois de prospection épigraphique et archéologique en Arabie", *CRAI*, vol. 96, no. 3, 1952, pp. 501–10.

Ryckmans 1956
J. Ryckmans, *La Persécution des chrétiens himyarites au sixième siècle*, Publications de l'Institut historique et archéologique néerlandais de Stamboul, I, Istanbul, Nederlands Historisch-archaeologisch Instituut in het Nabije Oosten, 1956.

Ryckmans 1964
J. Ryckmans, "Le christianisme en Arabie du Sud préislamique", *Atti del Convegno internazionale sul tema: L'Oriente cristiano nella storia della Civiltà, Roma, 31 marzo-3 aprile 1963*, Accademia nazionale dei Lincei, Problemi attuali di scienza e di cultura, Quaderno 62, Rome, Accademia nazionale dei Lincei, 1964, pp. 413–54.

Ryckmans 1981
J. Ryckmans, "L'ordre des lettres de l'alphabet sud-sémitique. Contribution à la question de l'origine de l'écriture alphabétique", *L'Antiquité classique*, L, 1981, pp. 698–706.

Ryckmans 1985
J. Ryckmans, "L'ordre alphabétique sud-sémitique et ses origines", in *Mélanges linguistiques offerts à Maxime Rodinson par ses élèves, ses collègues et ses amis*, édités par C. Robin, Reports by the Groupe linguistique d'études chamito-sémitiques (GLECS), supplement 12, Paris, Geuthner, 1985, pp. 343–59.

Ryckmans 1986 a
J. Ryckmans, "A Three Generations' Matrilineal Genealogy in a Hasaean Inscription: Matrilineal Ancestry in Pre-Islamic Arabia", in Al-Khalifa and Rice, 1986, pp. 407–17.

Ryckmans 1986 b
J. Ryckmans, "Une écriture minuscule sud-arabe antique récemment découverte", in H. L. J. Vanstiphout, K. Jongeling, F. Leemhuis and G. J. Reinink (ed.), *Scripta signa vocis, studies about scripts, scriptures, scribes and languages in the Near East, presented to J. H. Hospers by his pupils, colleagues and friends*, Groningen, E. Forsten, 1986, pp. 185–99.

Ryckmans 1987
J. Ryckmans, "Les rapports de dépendance entre les récits hagiographiques relatifs à la persécution des Himyarites", *Le Muséon*, 100, 1987, pp. 297–305.

Ryckmans 1988
J. Ryckmans, "Données nouvelles sur l'histoire ancienne de l'alphabet", *Académie royale des sciences d'outre-mer, Bulletin des séances*, 34, 1988-2, pp. 219–31.

Ryckmans 1989
J. Ryckmans, "A Confrontation of the Main Hagiographic Accounts of the Najran Persecution", in M. M. Ibrahim (ed.), *Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul: Symposium at Yarmouk University, December 8–11, 1984*, Yarmouk University Publications, Institute of Archaeology and Anthropology Series, 2, Wiesbaden, Harrassowitz, 1989, pp. 113–33.

Ryckmans, Müller and Abdallah 1994
J Ryckmans, W. W. Müller and Y. M. Abdallah, *Textes du Yémen antique inscrits sur bois*, Publications de l'Institut orientaliste de Louvain, 43, Louvain-la-Neuve, Université catholique de Louvain, Institut orientaliste, 1994 (Arabic title of the translation: *Nuqûsh khashabiyya qadima min al-Yaman*).

Sabri Pasha 1883
E. Sabri Pasha, *Mi'rāt-ı Mekke*, Istanbul, 1301 H./1883.

Sabri Pasha 1886
E. Sabri Pasha, *Mi'rāt-ı Medine*, Istanbul, 1304 H./1886.

Al-Said 1995
S. F. Al-Said, *Die Personennamen der minaischen Inschriften, Eine etymologische und lexikalische Studie im Breich der simitischen Sprachen*, Wiesbaden, 1995.

Al-Said 2000
See the bibliography in Arabic.

Lippens 1956
P. Lippens, *Expédition en Arabie centrale*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1956.

Liverani 1992
M. Liverani, "Early Caravan Trade between South-Arabia and Mesopotamia", *Yemen. Studi archeologici, storici e filologici sull'Arabia meridionale*, 1, Rome, ISMEO, 1992, pp. 111–15.

Livingstone *et al.* 1983
A. Livingstone, B. Spaie, M. Ibrahim, M. Kamal and S. Taimani, "Taima: Recent Soundings and New Inscribed Material", *Atlal*, 7, 1983, pp. 102–16.

London 2002
London, *Queen of Sheba: Treasures from Ancient Yemen*, London, The British Museum Press, 2002.

Lora, Petiti and Hausleiter (forthcoming)
S. Lora, E. Petiti and A. Hausleiter, "Burial Contexts at Tayma, NW Arabia – Archaeological and Anthropological Data", in L. Weeks (ed.), *Death, Burial and the Transition to the Afterlife in Arabia and Adjacent Regions. Proceedings of the Society for Arabian Studies Biennial Conference 2008*, London, forthcoming.

Lozachmeur and Briquel-Chatonnet (in press)
H. Lozachmeur and F. Briquel-Chatonnet, "Charles Huber und Julius Euting in Arabien nach französischen, auch heute noch nicht veröffentlichten Dokumenten", *Anabases,* 12, 2010, forthcoming.

Luukko and Van Buylaere 2002
M. Luukko and G. Van Buylaere, *The Political Correspondence of Esarhaddon*, Helsinki, Helsinki University Press, 2002.

Al-Maani 1999
A. Al-Maani, "La consécration chez les anciens Arabes – Étude de manuscrits", *Al-Manara*, no. 1, 1999.

McAuliffe 2001–2006
J. D. McAuliffe, *The Encyclopedia of the Qur'an*, Leiden, London, Boston, Brill, 2001–06.

Macdonald 1986
M. C. A. Macdonald, "ABCs and Letter Order in Ancient North Arabian", *PSAS*, 16, 1986, pp. 101–68.

Macdonald 1994
M. C. A. Macdonald, "A Dated Nabataean Inscription from Southern Arabia", in N. Nebes (ed.), *Arabia Felix. Beiträge zur Sprache und Kultur des vorislamischen Arabien. Festschrift Walter W. Müller zum 60. Geburtstag*, Wiesbaden, Harrassowitz, 1994, pp. 132–41.

Macdonald 1995 a
M. C. A. Macdonald, "North Arabia in the First Millennium BCE", in J. M. Sasson (ed.), *Civilizations of the Ancient Near East*, vol. II. New York, Scribners, 1995, pp. 1351, 1355–69.

Macdonald 1995 b
M. C. A. Macdonald, "Safaïtique", in *Encyclopédie de l'Islam*, VIII, 1995 (new ed.), pp. 785–87.

Macdonald 1995c
M. C. A. Macdonald, "Quelques réflexions sur les Saracènes, l'inscription de Rawwafa et l'armée romaine", in H. Lozachmeur (ed.), *Présence arabe dans le Croissant fertile avant l'Hégire*, Paris, 1995, pp. 93–101.

Macdonald 1997
M. C. A. Macdonald, "Trade Routes and Trade Goods at the Northern End of the 'Incense Road' in the First Millenium B.C.", in Avanzini, 1997, pp. 333–49.

Macdonald 2000
M. C. A. Macdonald, "Reflections on the Linguistic Map of Pre-Islamic Arabia", *AAE*, 11, 2000, pp. 28–79.

Macdonald 2004
M. C. A. Macdonald, "Ancient North Arabian", in R. D. Woodard (ed.), *The Cambridge Encyclopaedia of the World's Ancient Languages*, Cambridge, Cambridge University Press, 2004, pp. 488–533.

Macdonald 2008
M. C. A. Macdonald, "Old Arabic (Epigraphic)", in K. Versteeg (ed.), *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, vol. III, Leiden, Brill, 2008 [2007], pp. 464–77.

Macdonald 2009
M. C. A. Macdonald, *Literacy and Identity in Pre-Islamic Arabia*, Variorum Collected Studies, 906, Farnham, Ashgate, 2009.

Macdonald and King 2000
M. C. A. Macdonald and G. M. H. King, "Thamoudique", in *Encyclopédie de l'Islam*, X, livraison 171-172, 2000 (new ed.), pp. 467–69.

Madjidzadeh 2003
Y. Madjidzadeh, *Jiroft, the Earliest Oriental Civilization*, Ministry of Culture and Islamic Orientation, Research Body for Cultural Heritage and Tourism, 2003.

Al-Maqrizi
See the bibliography in Arabic.

Maraqten 1996
M. Maraqten, "The Aramaic Pantheon of Tayma", *AAE*, 7, 1996, pp. 17–31.

Marchesi 2004
G. Marchesi, "Who Was Buried in the Royal Tombs of Ur? The Epigraphic and Textual Data", *Orientalia*, 73, 2004, pp. 153–97.

Marcillet Jaubert 1990
J. Marcillet Jaubert, "Stèle funéraire du musée de Bahrein", *Syria*, 1990, pp. 665–73.

Marek 1993
C. Marek, "Die Expedition des Aelius Gallus nach Arabien im Jahre 25 v. Chr.", *Chiron*, 23, 1993, pp. 121–56.

Margueron 2004
J.C. Margueron, *Mari : Métropole de l'Euphrate,* 2004, Picard/ErC.

Masry 1974
A. H. Masry, *Prehistory in Northeastern Arabia. The Problem of Interregional Interaction,* Miami, Field Research Projects, 1974.

Masry 1997
A. H. Masry, *Prehistory in Northeastern Arabia. The Problem of Interregional Interaction*, London, P. Kegan, 1997 (republished by Masry, 1974).

***Al-Mawaqi' al-athariya*, 1420H./ 2000**
See the bibliography in Arabic.

Mazar 1985
E. Mazar, "Edomite Pottery at the End of the Iron Age", *Israel Exploration Journal*, 35, 1985, pp. 252–53.

McClure 1976
H. A. McClure, "Radiocarbon Chronology of Late Quaternary Lakes in the Arabian Desert", *Nature*, 263, 1976, pp. 755–56.

McClure and Al-Shaikh 1993
H. A. McClure and N. Al-Shaikh, "Palaeogeography of an 'Ubaid Archaeological Site, Saudi Arabia", *AAE*, 4, 1993, pp. 107–25.

McKenzie 1990
J. S. McKenzie, "The Architecture of Petra, British Academy Monographs", *Archaeology*, 1, Oxford, Oxford University Press, 1990, p. 117 and n. 32, p. 118.

Ménoret 2003
P. Ménoret, *L'Énigme saoudienne. Les Saoudiens et le monde, 1744-2003*, Paris, 2003.

Mery, Phillips and Calvet 1998
S. Mery, C. Phillips and Y. Calvet, "Dilmun Pottery in Mesopotamia and Magan from the End of the 3rd and Beginning of the 2nd millennium B.C.", in C. Philips, D. Potts and S. Searight (ed.), *Arabia and its Neighbours. Essays on the Prehistorical and Historical Developments*, Abiel II, Turnhout, Brepols, 1998, pp. 165–80.

Migeon 1903
G. Migeon,"L'exposition des arts musulmans au musée des Arts décoratifs", *Les Arts*, no. 16, 1903.

Migeon 1922
G. Migeon, *L'Orient musulman*, vol. 1, *Sculptures, bois sculptés, ivoires, bronzes, armes, cuivres, tapis et tissus, miniatures*, Paris, Musée du Louvre, 1922.

Migeon, Van Berchem and Huart 1903
G. Migeon, M. Van Berchem, M. Huart, *Exposition des Arts musulmans. Catalogue descriptif*, Paris, 1903.

Miles 1954
G. Miles, "Ali b. 'Isa's Pilgrim Road: an Inscription of the Year 304 H. (916–917 A.D.)", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, t. XXXVI, 1954, pp. 479–81.

Milik and Starcky 1970
J. T. Milik and J. Starcky, "Nabataean, Palmyrene, and Hebrew Inscriptions", in Winnett and Reed, 1970, pp. 139–63, pl. 26–33.

Milstein 2006
R. Milstein, "*Futuh-i Haramayn*. Sixteenth-Century Illustrations of the Hajj Route", in *Mamluks and Ottomans. Studies in Honour of Michael Winter*, London, 2006.

Miquel 1967–88
A. Miquel, *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e^ siècle*, Paris, Mouton, EPHE, EHESS, 1967–88, 4 vols.

Miroschedji 1973
P. de Miroschedji, *Vases et objets en stéatite susiens du musée du Louvre*, Notes of the French archaeological delegation in Iran, 3, 1973.

Mollat and Desanges 1988
M. Mollat and J. Desanges, *Les Routes millénaires*, collection "Origines", Paris, Nathan, 1988.

Morabia 1993
A. Morabia, *Le Gihâd dans l'Islam médiéval*, Paris, 1993.

Morlin 2006
I. Morlin, "Images pittoresques, texte 'romanesque': la représentation de l'indigène dans le *Voyage* du chevalier d'Arvieux (Paris, André Cailleau, 1717)", *Études littéraires*, vol. 37, no. 3, 2006, pp. 15–36.

Morony 1995
M. Morony, "Sâsânides", in *Encyclopédie de l'Islam*, IX, Leiden, 1995, pp. 73–87.

Mortel 1991
R. T. Mortel, "The Origins and Early History of the Husaynide Amirate of Madina to the End of the Ayyubid Period", *Studia Islamica*, 74, 1991, pp. 63–78.

Mortel 1994
R. T. Mortel, "The Mercantile Community of Mecca during the Late Mamluk Period", *Journal of the Royal Asiatic Society*, Third Series, 4, 1994, pp. 15–35.

Mortel 1998
R. T. Mortel, "*Ribats* in Mecca during the Medieval Period: a Descriptive Study Based on Literary Sources", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 61, 1998, pp. 29–50.

Mouton 2008
M. Mouton, *La Péninsule d'Oman de la fin de l'âge du fer au début de la période sassanide*, BAR International Series, Oxford, Archaeopress, 2008.

Mouton 2009
M. Mouton, "The Settlement Patterns of North-Eastern and South-Eastern Arabia in Late Antiquity", *AAE*, 20, 2009, pp. 185–207.

Al-Muaikel 1994
K. I. Al-Muaikel, *Study of the Archaeology of the Jawf Region*, Riyadh, King Fahd National Library, 1994.

Al-Mughannam and Warwick 1986
A. S. Al-Mughannam and J. Warwick, "Excavations of the Dhahran Burials Mounds, 3rd Season", *Atlal*, 10, 1986, pp. 9–27.

Muhammad Ali 1996
A. R. Muhammad Ali, *Al-Masjid al-harâm bi Makka al-mukarama wa rusumuhu fi al-fann al-islami*, Cairo, 1996.

Muhammad Ali 1999
A. R. Muhammad Ali, *Al-Masjid al-nabawi bi al-madina al-munawara wa rusumuhu fi al-fann al-islami*, Cairo, 1999.

Muhly 1984
J. Muhly, "Timna and King Solomon", *Bibliotheca Orientalis*, XLI, nos 3–4, 1984, pp. 279–80.

Müller 1889
D. H. Müller, *Epigraphische Denkmäler aus Arabien (nach Abklatschen und Copien des Herrn Prof. Dr. Julius Euting in Strassburg)*, Vienna, 1889.

Müller 1978
W. W. Müller, *Weihrauch. Ein arabisches Produkt und seine Bedeutung in der Antike*, extract from the *Realencyclopädie* by Pauly-Wissowa, Supplement-Band XV, col. 700-77, Munich, A. Druckenmüller Verlag, 1978.

Müller and Al-Said 2002
W. W. Müller and S. F. Al-Said, "Der babylonische König Nabonid in taymanischen Inschriften", *Neue Beiträge zur Semitistik. Erstes Arbeitstreffen der Arbeitsgemeinschaft Semitistik in der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft vom 11. bis 13. September 2000 an der Friedrich-Schiller-Universität Jena*, Wiesbaden, Harrassowitz, 2002, pp. 105–22.

Munich 1982
Das Buch im Orient. Handschriften und kostbare Drucke aus zwei Jahrtausenden, exhibition catalogue, Munich, Bayerische Staatsbibliothek, 1982.

Al-Munjid 1949
See the bibliography in Arabic.

Al-Muqaddasi
See the bibliography in Arabic.

Al-Nabulsi
See the bibliography in Arabic.

Al-Najem and Macdonald 2009
M. H. Al-Najem and M. C. A. Macdonald, "A New Nabataean Inscription from Tayma", *AAE*, 20, 2009, pp. 208–17.

Nasif 1413 H./1992
See the bibliography in Arabic.

Nasif 1988
A. A. Nasif, *Al-Ula Historical and Archeological Survey with Special Reference to the Irrigation System*, Riyadh, University of King Saud, 1988.

Nehmé 2004
L. Nehmé, "Explorations récentes et nouvelles pistes de recherche dans l'ancienne Hégra des Nabatéens, moderne al-Hijr/ Mada'in Saleh, Arabie du Nord-Ouest", *CRAI*, 2004, pp. 631–82.

Nehmé 2005
L. Nehmé, "Towards an Understanding of the Urban Space of Mada'in Saleh, Ancient Hegra, through Epigraphic Évidence", *PSAS*, 35, 2005, pp. 155–75.

Nehmé 2005–06
L. Nehmé, "Inscriptions vues et revues à Madā'in Sâlih", *Arabia*, 3, 2005–06, pp. 179–225 [text], 345–56 [figs].

Nehmé 2009
L. Nehmé, "Central and Secondary Places in North-Western Arabia during the Nabataean Period", paper presented at the international workshop *Central Places in Arabia during the Hellenistic and Roman Periods – Common Trends and Different Developments*, Berlin, 3–5 December, 2009.

Nehmé, Arnoux, Bessac *et al.* 2006
L. Nehmé, Th. Arnoux, J.-Cl. Bessac, J.-P. Braun, J.-M. Dentzer, A. Kermorvant, I. Sachet and L. Tholbecq, with a contribution by J.-B. Rigot, "Mission archéologique de Madā'in Sâlih (Arabie saoudite) : recherches menées de 2001 à 2003 dans l'ancienne Hijrâ des Nabatéens", *AAE*, 17, 2006, pp. 41–124.

Nehmé, Al-Talhi and Villeneuve 2009
L. Nehmé, D. Al-Talhi and F. Villeneuve (ed.), *Hegra I. Report on the First Excavation Season at Mada'in Saleh, Saudia Arabia, 2008*, Riyadh, 2009 [2010].

Newby 1986
G. D. Newby, "The *Sirah* as a Source for Arabian Jewish History: Problems and Perspectives", *Jerusalem Studies on Arabic and Islam*, 7, 1986, pp. 121–38.

Newby 1988
G. D. Newby, *A History of the Jews of Arabia, From Ancient Times to Their Eclipse Under Islam*, Studies in Comparative Religion, Columbia, South Carolina, University of South Carolina Press, 1988.

Newton and Zarins 2000
L. S. Newton and J. Zarins, "Aspects of the Bronze Age in Southern Arabia: the Pictorial Landscape and its Relation to Economic and Socio-Political Status", *AAE*, 11, 2000, pp. 154–79.

New York 2003
J. Aruz (ed.) *Art of the First Cities: the Third Millennium B.C. from the Mediterranean to the Indus*, exhibition catalogue, New York, The Metropolitan Museum of Art, 2003.

Nicholson 2005
J. Nicholson, *The Hejaz Railway*, London, 2005.

Niebuhr 1773–76
C. Niebuhr, *Description de l'Arabie. D'après les observations et recherches faites dans le pays même*, Amsterdam, S. J. Baalde, Utrecht, J. Van Schoonhoven, 1773–76 (revised and corrected in 1779).

Nigro 2003
L. Nigro, "L'ascia fenestrata e il pugnale venato: due tipologie di armi d'apparato dell'età del Bronzo in Palestina", *Bollettino dei monumenti, musei e gallerie pontificie*, 23, 2003, pp. 7–42.

Noja 1979
S. Noja, "Testimonianze epigrafiche di Giudei nell'Arabia settentrionale", *Bibbia e Oriente*, 21, 1979, pp. 283–316.

Northedge 1997
A. Northedge, "Les origines de la céramique à glaçure polychrome dans le monde islamique", *La Céramique médiévale en Méditerranée, Actes du VI^e^ Congrès de l'AIECM2, Aix-en-Provence, 13-18 novembre 1995*, Aix-en-Provence, 1997, pp. 213–23.

Oates *et al.* 1977
Oates *et al.*, "Seafearing Merchant of Ur", *Antiquity*, 6, 1977, pp. 221–34.

Ochsenwald 1980
W. Ochsenwald, *The Hijaz Railroad*, Charlottesville, University Press of Virginia, 1980.

Ohsson 1787–89
I. M. d'Ohsson, *Tableau général de l'Empire othoman*, Paris, 1787–89 (reprinted, Istanbul, Isis, 2001).

Olinder 1927
G. Olinder, *The Kings of Kinda of the Family of Akil al-Murar*, Lund, 1927.

Paret 1977
R. Paret, *Der Koran: Kommentar und Konkordanz*, Stuttgart, 1977.

Paris 1971
Arts de l'Islam des origines à 1700 dans les collections publiques françaises, exhibition catalogue, Paris, Orangerie des Tuileries, 1971.

Paris 1977
L'Islam dans les collections nationales, exhibition catalogue, Paris, Grand Palais, 1977.

Paris 1983
Le Prince en terre d'Islam, exhibition catalogue, Paris, Palais de Tokyo, 1983.

Paris 1985
De la Bible à nos jours : trois mille ans d'art, exhibition catalogue, Salon des indépendants, Grand Palais, Paris, 1985.

Paris 1999 a
Photographies d'Arabie. Hedjaz, 1907-1917, exhibition catalogue, Paris, Institut du monde arabe, Riyadh, al-Turath, 1999.

Paris 1999 b
P. Lombard (ed.) *Bahreïn, la civilisation des deux mers : de Dilmoun à Tylos*, exhibition catalogue, Paris, Institut du monde arabe et Éditions SNZ, 1999.

Paris 2005
Photographies anciennes de La Mecque et de Médine, 1880-1947, exhibition catalogue, Paris, Institut du monde arabe, 2005.

Paris 2007
S. Makariou (ed.), *Chefs-d'œuvre islamiques de l'Aga Khan Museum*, exhibition catalogue, Paris, Musée du Louvre, 2007.

Parlasca 1987
K. Parlasca, "Bemerkungen zu den archäologischen Beziehungen zwischen Südarabien und dem griechisch-römischen Kulturkreis", in Fahd, 1987.

Parr 1969
P. J. Parr, "Exploration archéologique du Hedjaz de Madian", *Revue biblique*, 76, 1969, pp. 390–93.

Parr 1979
P. J. Parr, "Archaeological Sources for the Early History of North-West Arabia", in A. A. Ansary *et al.* (ed.), *Sources for the History of Arabia*, Riyadh, University of King Saud, 1979, pp. 37–44.

Parr 1982
P. J. Parr, "Contacts between North West Arabia and Jordan in the Late Bronze and Iron Age", in A. Hadidi (ed.), *Studies in the History and Archaeology of Jordan,* vol. 1, Amman, Department of Antiquities, 1982, pp. 127–33.

Parr 1984
P. J. Parr, "The Present State of Archaeological Research in the Arabian Peninsula; Achievements of the Past, and Problems for the Future", in A. A. Ansary *et al.* (ed.), *Pre-Islamic Arabia*, vol. 2, Riyadh, University of King Saud, 1984, pp. 34–54.

Parr 1987
P. J. Parr, "Aspects of the Archaeology of North-West Arabia in the First Millenium B.C.", in Fahd, 1987, pp. 39–66.

Parr 1988
P. J. Parr, "The Pottery of the Late Second Millennium B.C. from North West Arabia and its Historical Implications", in D. T. Potts (ed.), *Araby the Blest. Studies in Arabian Archaeology*, Copenhagen, Museum Tusculanum Press, 1988, pp. 73–90.

Parr 1992
P. J. Parr, "Qurayya", *Anchor Bible Dictionary*, 5, 1992, pp. 594–96.

Dictionnaire Universel Contenant Tout ce qui fait connoitre les Peuples de l'Orient, The Hague, 1697.

Herrmann and Laidlaw 2009
G. Herrmann and S. Laidlaw, *Ivories from Nimrud IV: Ivories from the North West Palace (1845–1992)*, London, 2009.

Al-Hijri
See the bibliography in Arabic.

Hirschfeld 2006
Y. Hirschfeld, "The Crisis of the Sixth Century: Climatic Change, Natural Disasters and the Plague", *Mediterranean Archaeology and Archaeometry*, 6, 2006, pp. 19–32.

Horsefield 1983
G. Horsefield, H. Angles and N. Gluck, "Prehistoric Rock-Drawings in Transjordan", *Journal of Near Eastern Archaeology*, vol. IX, 1983, no. 1, pp. 8–17.

Howe 1950
B. Howe, "Two Groups of Rock Engravings from the Hijaz", *Journal of Near Eastern Studies*, vol. IX, no. 1, January 1950, pp. 8–17.

Hoyland 2001
R. G. Hoyland, *Arabia and the Arabs from Bronze Age to the Coming of Islam*, London, New York, Routledge, 2001.

Huber 1884
C.-A. Huber, "Voyage dans l'Arabie centrale", *Bulletin de la Société de géographie*, 1884, pp. 289–363, 468–531.

Huber 1891
C.-A. Huber, *Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884)*, Paris, Imprimerie nationale, 1891 (published posthumously by E. Renan, Barbier de Ménard and C. Maunoir).

Huckle 2003
M. Huckle, "A Unique Soft-Stone Tri-Compartmentalised Vessel (Probably from Wa'ab 4, in the Wadi al-Qawr, Ras al-Khaimah, U.A.E.)", *AAE*, 14, 2003, pp. 58–62.

Humayd Allah 1407 H./1987
See the bibliography in Arabic.

Huth and Potts 2002
M. Huth and D. T. Potts, "Antiochus in Arabia", *American Journal of Numismatics*, 2nd series, 14, 2002, pp. 73–81.

Ibn Battuta
See the bibliography in Arabic.

Ibn Bulayhid 1399 H./1979
See the bibliography in Arabic.

Ibn Darid 1958
Ibn Darid, Abou Bakr Mohamed bin Al-Hassan, *La Dérivation*, research by Abdel Salam Haroun, Cairo, Librairie al-Khanji, 1958.

Ibn Habib 1972
Ibn Habib, M, *Al-Muhabbar*, 1972.

Ibn Hawqal
See the bibliography in Arabic.

Ibn Iyas 1960
Ibn Iyas, *Journal d'un bourgeois du Caire, chronique d'Ibn Iyas*, trans. G. Wiet, t. II, Paris, 1960.

Ibn Jubayr
See the bibliography in Arabic.

Ibn Kathir
See the bibliography in Arabic.

Ibn Khaldun 1958
Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, trans. F. Rosenthal, New York, Pantheon, 1958.

Ibn Khurradadhbih
See the bibliography in Arabic.

Ibn Manzur
See the bibliography in Arabic.

Ibn al-Mujawir
See the bibliography in Arabic.

Ibn al-Nadim
See the bibliography in Arabic.

Ibn Rustah
See the bibliography in Arabic.

Ibn Sa'd
See the bibliography in Arabic.

Ibrahim, al-Talhi 1985
Ibrahim, al-Talhi *et al.*, "A Preliminary Report on the First Season of Excavation at al-Mabiyat. An Early Islamic Site in the Northern Hijaz", *Atlal*, 9, 1985, pp. 109–25.

Al-Idrisi
See the bibliography in Arabic.

Al-Isfahani
See the bibliography in Arabic.

Al-Istakhri
See the bibliography in Arabic.

Ingraham *et al.* 1981
M. L. Ingraham, T. D. Johnson, B. Rihani et I. Shatla, "Preliminary Report on a Reconnaissance Survey of the NW Province", *Atlal*, 5, 1981, pp. 59–84.

Inizan 1988
M.-L. Inizan (ed.), *Préhistoire à Qatar*, Paris, ERC, 1988.

Inizan and Rachad 2007
M.-L. Inizan and M. Rachad (ed.), *Art rupestre et peuplements préhistoriques au Yémen*, San'a', CEFAS, 2007.

Intilia 2009
A. Intilia, "Ivories from Excavations in Area O", paper presented at the workshop *Neue Forschungen in Tayma – Projektgespräch 2009, 7–8. 12.*, Berlin, 2009.

Ippolitoni-Strika 1986
F. Ippolitoni-Strika, "The Tarut Statue: a Peripherical Contribution to the Knowledge of Early Mesopotamian Plastic Art", in Al-Khalifa and Rice, 1986, pp. 311–24.

Isfahani 2005
A. M. el-Isfahani, *Sifatu'l Harameyn (Dil ozellikleri metin dizin)*, Ankara, 2005, pp. 13–14.

Istanbul 2008
Imperial Surre, exhibition catalogue, Istanbul, Museum of the Palace of Topkapı, 2008.

Jacobs and Macdonald 2009
B. Jacobs and M. C. A. Macdonald, "Felszeichnung eines Reites aus der Umgebung von Taymā'", *Zeitschrift für Orient-Archäologie*, 2, 2009, pp. 364–76.

Jado and Zötl 1984
A. R. Jado and J. G. Zötl (ed.), *Quaternary Period in Saudi Arabia*, vol. II, Vienna, New York, Springer-Verlag, 1984.

Jam'a, (n.d.)
See the bibliography in Arabic.

Jameson 1968
S. Jameson, "Chronology of the Campaigns of Aelius Gallus and C. Petronius", *Journal of Roman Studies*, 58, 1968, pp. 71–84.

Jamme 1970
A. Jamme, "The Pre-Islamic Inscriptions of the Riyadh Museum", *Oriens Antiquus*, 9, 1970, pp. 115–39.

Al-Jasir 1386 H./1967
See the bibliography in Arabic.

Al-Jasir 1397 H./1977
See the bibliography in Arabic.

Al-Jasir 1402 H./1981–82
See the bibliography in Arabic.

Al-Jasir 1404 H./1983–84
See the bibliography in Arabic.

Jasmin 2005
M. Jasmin, "Les conditions d'émergence de la route de l'encens à la fin du IIe millénaire avant notre ère", *Syria*, 82, 2005, pp. 49–62.

Al-Jasser 1979
See the bibliography in Arabic.

Al-Jaziri
See the bibliography in Arabic.

Jaussen and Savignac 1909
A. Jaussen and R. Savignac, *Mission archéologique en Arabie*, t. I, *Mars-mai 1907. De Jérusalem au Hedjaz, Médain-Saleh*, Paris, E. Leroux, 1909 (republished Cairo, Institut français d'archéologie orientale, 1997).

Jaussen and Savignac 1914
A. Jaussen and R. Savignac, *Mission archéologique en Arabie*, t. II, *El-'Ela, d'Hégra à Teïma, Harrah de Tebouk*, and *Atlas*, Paris, Librairie P. Geuthner, 1914 (republished Cairo, Institut français d'archéologie orientale, 1997).

Jawad 1980
See the bibliography in Arabic.

Jazim and Leclercq-Neveu 2001
M. Jazim and B. Leclercq-Neveu, "L'organisation des caravanes au Yémen selon al-Hamdani (Xe siècle)", *Chroniques yéménites*, 9, 2001.

Al-Jodi and Ghazi 1995
Al-Jodi and S. Ghazi, *Wasum al ibl und ba'ad al-Qabail*, Kitab al-Riyadh, 14, Riyadh, Al-Yamamah Publishers, 1995.

Jomard 1823
E.-F. Jomard, *Notice géographique sur le pays de Nedj ou Arabie centrale, accompagné d'une carte*, Paris, printed Rignoux, 1823.

Jomier 1953
J. Jomier, *Le Mahmal et la caravane égyptienne des pèlerins de La Mecque (XIIIe-XXe siècle)*, Cairo, Institut français d'archéologie orientale, 1953.

Kalsbeek and London 1987
J. Kalsbeek and G. London, "A Late Second Millennium BC. Potting Puzzle", *BASOR*, 1987, pp. 47–56.

Kamal 1984
See the bibliography in Arabic.

Kapel 1967
H. Kapel, *Atlas of the Stone-Age Cultures of Qatar. Reports of the Danish Archaeological Expedition to the Arabian Gulf*, Aarhus, University Press, 1967.

Kawatoko 2005
M. Kawatoko, "Archaeological Survey of Najran and Madinah 2002", *Atlal*, 18, 2005, pp. 45–59.

Kennedy 1997
H. Kennedy, "From Oral Tradition to Written Record in Arabic Genealogy", *Arabica*, 44, 1997, pp. 531–44.

Kennet 2005
D. Kennet, "On the Eve of Islam: Archaeological Evidence from Eastern Arabia", *Antiquity*, 79, 2005, pp. 107–18.

Kennet 2007
D. Kennet, "The Decline of Eastern Arabia in the Sasanian Period", *AAE*, 18, 2007, pp. 86–122.

Khalidi 2009
L. Khalidi, "Holocene Obsidian Exchange in the Red Sea Region", in Petraglia and Rose, 2009, pp. 279–91.

Al-Khalifa and Rice 1986
H. A. Al-Khalifa and M. Rice (ed.), *Bahrain through the Ages. The Archaeology*, London, KPI, 1986.

Khan 1985
M. Khan, "Rock Art and Epigraphic Survey of Northwestern Saudi Arabia", *Atlal*, 9, 1985.

Khan 1988 a
M. Khan, "Rock Art and Epigraphic Survey of Northern Saudi Arabia", *Atlal*, 11, 1988, pp. 61–75.

Khan 1988 b
M. Khan, "Schematization and Form in the Rock Art of Northern Saudi Arabia", *Atlal*, 11, 1988, p.95–99.

Khan 1990
M. Khan, "Art and Religion: Sacred Images of Prehistoric Metaphysical World", *Atlal*, 12, 1990, pp. 55–57.

Khan 1991 a
M. Khan, "Female Profile Figures from Wadi Damm, NW Saudi Arabia", *Atlal*, 13, 1991,

Khan 1991 b
M. Khan, "Recent Rock Art and Epigraphic Investigations in Saudi Arabia", *PSAS*, 21, 1991, pp. 113–22.

Khan 1993 a
M. Khan, "Origin of Urbanism in Saudi Arabia", *Seminar on Urbanism*, Kenya, 1993.

Khan 1993 b
M. Khan, *Origin and Evolution of Ancient Arabian Inscriptions*, Riyadh, Ministry of Education, 1993 (English/Arabic).

Khan 1993 c
M. Khan, *Prehistoric Rock Art of Northern Saudi Arabia*, Ph.D. thesis (in English and Arabic), University of Southampton, United Kingdom, Riyadh, Ministry of Education, Department of Antiquities and Museums, 1993.

Khan 1996
M. Khan, "Rock Art Research in the Arabian Peninsula, Levant and Anatolia", in P. Bahn and A. Fossati (ed.), *News of the World I*, Oxbow Publications, vol. LXXII, 1996, pp. 95–103.

Khan 1998
M. Khan, "A Critical Review of Rock Art Studies in Saudi Arabia", *East and West*, vol. XLVIII, no. 3, 1998, pp. 427–37.

Khan 1999
M. Khan, "Human Figures in the Rock Art of Saudi Arabia", *Publications of the International Rock Art Congress*, Ripon, 1999.

Khan 2000 a
M. Khan, *Wusum. The Tribal Symbols of Saudi Arabia*, Riyadh, Ministry of Education, 2000 (English/Arabic).

Khan 2000 b
M. Khan, "Bir Himma – The Center of Prehistoric Art and Culture", *Admatu*, 6, 2000.

Khan 2004–05
M. Khan, "Jubbah – The Most Prominent Rock Art Site of Saudi Arabia", *Indo-Koko-Kenkyu*, 26, 2004–05, pp. 63–72.

Khan 2007 a
M. Khan, "Sacred Images of Metaphysical World-Perspective of Prehistoric Religion in Arabia", in *XXII Valcamonica Symposium 2007. Rock Art in the Frame of the Cultural Heritage of Humankind*, 2007.

Khan 2007 b
M. Khan, *Rock Art of Saudi Across Twelve Thousand Years*, Riyadh, Ministry of Education of Saudi Arabia, 2007.

Khan 2008
M. Khan, *Rock Art Studies (How to Study Rock Art)*, Riyadh, Ministry of Education of Saudi Arabia, 2008.

Khan, Kabawi and Al-Zahrani 1986
M. Khan, A. Kabawi and A. Al-Zahrani, "Preliminary Report on the Second Phase of Rock Art and Epigraphic Survey of Northern Saudi Arabia", *Atlal*, 10, 1986, pp. 82–93.

***Khatt* 1406 H./1985–86**
See the bibliography in Arabic.

Al-Khraysheh 1986
F. Al-Khraysheh, *Die Personennamen in den nabatäischen Inschriften des Corpus inscriptionum semiticarum*, Marburg, 1986.

Kienast and Volk 1995
B. Kienast and K. Volk, *Die sumerischen und akkadischen Briefe des III. Jahrtausends aus der Zeit vor der III. Dynastie von Ur*, Stuttgart, 1995.

Al-Kilabi 1424 H.
See the bibliography in Arabic.

Al-Kilabi 1430 H./2009
See the bibliography in Arabic.

King 1980
G. R. D. King, "Some Christian Wall-Mosaics in Pre-Islamic Arabia", *PSAS*, 10, 1980, pp. 37–43.

Kirkbride 1969
D. Kirkbride, "Ancient Arabian Ancestor Idols", *Archaeology*, 22/2-3, 1969, pp. 116–121, 188–95.

Al-Khiyari
See the bibliography in Arabic.

Kjaerum 1986
P. Kjaerum, "The Dilmun Seals as Evidence of Long Distance Relations in the Early Second Millennium B.C.", in Al-Khalifa and Rice, 1986, pp. 269–77.

Klasen *et al.* (forthcoming)
N. Klasen, M. Engel, H. Brückner, R. Eichmann, A. Hausleiter, M. Al-Najem et S. F. Al-Said, "Optically Dating the City Wall System of Ancient Tayma (NW Saudi Arabia)", *Quaternary Geochronology*, forthcoming.

Knauf 1988
E. A. Knauf, *Midian Untersuchungen zur Geschichte Palaestinas und Nordarabiens am Ende des 2 Jahrtausands v. Chr.*, Wiesbaden, Harrassowitz, 1988.

Knauf 1990
E. A. Knauf, "The Persian Administration in Arabia", *Transeuphratène*, 2, 1990, pp. 201–17.

Koenig 1971
J. Koenig, *Le Site de al-Jaw dans l'ancien pays de Madian*, Paris, Geuthner, 1971.

Kohl 1974
P. L. Kohl, "Seeds of Upheaval: the production of chlorite at Tepe Yahya and an analysis of commodity production and trade in Southwest Asia in the mid-third millennium". Ph.D. thesis, Harvard University, 1974.

Kohl 2004
P. L. Kohl "Chloritgefäße und andere steinerne Behältnisse und ihr Austausch im Gebiet des iranischen Zentral-Plateaus und jenseits davon". In exhibition catalogue *Persiens Antike Pracht. Bergbau, Handwerk, Archäologie*. Bochum 2004.

Korotayev, Klimenko and Proussakov 1999
A. Korotayev, V. Klimenko and D. Proussakov, "Origins of Islam: Political-Anthropological and Environmental Context", *Acta Orientalia Academiae scientiarum Hungaricae*, 52, 1999, pp. 243–76.

Kottsieper 2001
I. Kottsieper, "Aramäische und phönizische Texte", in O. Kaiser (ed.), *Texte aus der Umwelt des Alten Testaments, Ergänzungslieferung*, Gütersloh, 2001, pp. 176–202.

Kurdi (n.d.)
O. A. M. A. Kurdi, *The Holy Ka'bah and the Two Holy Mosques, Construction and History*, n.d.

Kürschner 2009
H. Kürschner, "Tayma-Oase und Umgebung – Eine erste Bestandsaufnahme der Flora, Vegetation, natürlichen Ressourcen und Florengeschichte", paper presented at the workshop *Neue Forschungen in Tayma – Projektgespräch 2009, 7–8. 12.*, Berlin, 2009.

Kuwait 1997
The Harmony of Letters, Islamic Calligraphy from Tareq rajab Museum, Kuwait, 1997.

Laffitte 2003
R. Laffitte, "Sur le zodiaque sudarabique", *Arabia*, 1, 2003, pp. 77–87.

Lamberg-Karlovsky 1988
C. C. Lamberg-Karlovsky, "The 'Intercultural Style' Vessels", *Iranica antiqua*, 23, 1988, p.45–95.

Lamberg-Karlovsky and Wight Beale 1986
C. C. Lamberg-Karlovsky and T. Wight Beale, *Excavations at Tepe Yahya, Iran, 1967–1975: the Early Periods*, Cambridge, 1986.

Lammens 1911
H. Lammens, "La république marchande de La Mecque, en l'an 600 de notre ère", *Institut égyptien*, *Bulletin*, 5th series, t. IV, Alexandria, 1911, pp. 23–54 (study reprinted and developed in *La Mecque à la veille de l'hégire*, Beirut, 1924).

Langfeldt 1994
J. Langfeldt, "Recently Discovered Early Christian Monuments in North-Eastern Arabia", *AAE*, 5, 1994, pp. 32–60.

Laoust 1952
H. Laoust, *Les Gouverneurs de Damas sous les Mamelouks et les premiers Ottomans (658-1156/1260-1744). Traduction des Annales d'Ibn Tûlûn et d'Ibn Gum'a*, Damascus, 1952.

Lari 1968
M. al-Din Lari, *Futuh al-haramayn*, Intisharat-i Ittila'at, Teheran, 1346 H./1968.

La Roque 1716
J. de La Roque, *Voyage de l'Arabie Heureuse par l'océan oriental, fait par les Français pour la première fois dans les années 1708, 1709 et 1710. Avec la relation particulière d'un voyage du port de Moka à la cour du roi d'Yémen, dans la seconde expédition des années 1711, 1712 et 1713. Un mémoire concernant l'arbre et le fruit du café*, Amsterdam, Stenhouwer and Uytwerf, 1716.

Leakey 1971
M. D. Leakey, *Excavations in Bed I and II, 1960–63*, *Olduvai Gorge*, vol. 3, Cambridge, Cambridge University Press, 1971.

LeBaron Bowen 1950
R. LeBaron Bowen Jr., "The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan. A Pre-Islamic and Early Islamic Site on the Persian Gulf", *BASOR, Supplementary Studies*, 7–9, 1950.

Le Blanc 1648
V. Le Blanc, *Les Voyages fameux du sieur Vincent Le Blanc, marseillais, qu'il a faits depuis l'aage de douze ans jusques à soixante, aux quatre parties du monde […] rédigez fidellement sur ses Mémoires […], par Pierre Bergeron, Parisien. À Paris, chez Gervais Clousier du Palais, sur les degrez de la saincte chapelle*, Paris, 1648 (repub. 1649, 1658).

Lemaire 1993
A. Lemaire, "Les inscriptions araméennes anciennes de Teima. Sur les pistes de Teima", in *Présence arabe dans le Croissant fertile avant l'hégire : Actes de la table ronde internationale organisée par l'Unité de recherche associée 1062 du CNRS, "Études sémitiques", au Collège de France, le 13 novembre 1993*, texts assembled by H. Lozachmeur, Paris, Éditions Recherches sur les civilisations, 1995, pp. 59–72.

Levine 2000
B. A. Levine, *Numbers 21-36: a New Translation with Introduction and Commentary*, New York, Yale University Press, 2000.

Lewis 1978
B. Lewis, "Khadim al-Haramayn", *Encyclopédie de l'Islam*, IV, Leiden, 1978 (2nd ed.), pp. 932–33.

Lézine, Saliège, Robert *et al.* 1998
A.-M. Lézine, J.-F. Saliège, C. Robert *et al.*, "Holocene Lakes from Ramlat as-Sabatayn (Yemen) Illustrate the Impact of Monsoon Activity in Southern Arabia", *Quaternary Research*, 50, 1998, pp. 290–99.

Lindemeyer and Martin 1993
E. Lindemeyer and L. Martin, *Uruk: Kleinfunde*, vol. 3. Mainz, 1993.

Diem and Schöller 2004
W. Diem and M. Schöller, *The Living and the Dead in Islam: Studies in Arabic Epitaphs*, Wiesbaden, 2004.

Dilaver 1970
S. Dilaver, "Osmanlı Sanatında kabe tasvirli bir fresk", *Belleten*, 34, 1970, pp. 255–57.

Dinies and Neef 2009
M. Dinies and R. Neef, "Zur Vegetationsgeschichte Taymas. Erste pollenanalytische Ergebnisse und Makrorestuntersuchungen", paper presented at the workshop *Neue Forschungen in Tayma – Projektgespräch 2009, 7–8. 12.*, Berlin, 2009.

Donner 1981
F. M. Donner, *The Early Islamic Conquests*, Princeton, Princeton University Press, 1981.

Dossin 1970
G. Dossin, "Archive de Sumu-Iamam, roi de Mari", *Revue d'assyriologie et d'archéologie orientale*, 64, 1970, pp. 17–44.

Doughty 1888
C. Doughty, *Travels in Arabia Deserta*, Cambridge, Cambridge University Press, 1888, 2 vol. (1st ed.; republished under the title *Passages from Arabia Deserta selected by Edward Garnett*, London, Jonathan Cape, 1921, with an introduction by T. E. Lawrence; French ed. *Voyage dans l'Arabie Déserte*, trad. J.-C. Reverdy, Paris, Karthala, 2002).

Drewes 1986
A. J. Drewes, "Lihyân et Lihyânites, I. Épigraphie", in *Encyclopédie de l'Islam*, V, 1986 (new ed.), pp. 767–69.

During Caspers 1994
E. C. L. During Caspers, "Further Evidence for 'Central Asian' Materials from the Arabian Gulf", *JESHO*, 37, no. 1, 1994, pp. 33–53.

Edens 1982
C. Edens, "Towards a Definition of the Western Ar-Rub' al-Khali 'Neolithic'", *Atlal*, 6, 1982, pp. 109–23.

Edens and Bawden 1989
C. Edens and G. Bawden, "History of Tayma and Hejazi Trade during the First Millenium B.C.", *JESHO*, 32, no. 1, 1989, pp. 48–103.

Eichmann 2009
R. Eichmann, "Archaeological Evidence of the Pre-Islamic Period (4th to 6th cent. A.D.) at Tayma", in Schiettecatte and Robin, 2009, pp. 55–69.

Eichmann, Hausleiter, Al-Najem and Al-Said 2006
R. Eichmann, A. Hausleiter, M. Al-Najem and S. F. Al-Said, "Tayma – Spring 2004, Report on the Joint Saudi Arabian-German Archaeological Project", *Atlal*, 19, 2006, pp. 91–116.

Eichmann, Hausleiter, Al-Najem and Al-Said (forthcoming)
R. Eichmann, A. Hausleiter, M. Al-Najem et S. F. Al-Said, "Tayma – Autumn 2004 and Spring 2005 – 2nd Report on the Joint Saudi-Arabian-German Archaeological Project", *Atlal*, 20, forthcoming.

Eichmann, Schaudig and Hausleiter 2006
R. Eichmann, H. Schaudig and A. Hausleiter, "Archaeology and Epigraphy at Tayma (Saudi-Arabia)", *AAE*, 17, 2006, pp. 163–76.

Elad 1999
A. Elad, "The Southern Golan in the Early Muslim Period. The Significance of Two Newly Discovered Milestones of 'Abd al-Malik", *Der Islam*, 76, 1999, pp. 33–88.

Eph'al 1982
I. Eph'al, *The Ancient Arabs. Nomads on the Borders of the Fertile Crescent, 9th–5th Centuries B.C.*, Jerusalem, The Magnes Press, The Hebrew University, Leiden, E. J. Brill, 1982.

Erdmann 1959
K. Erdmann, "Ka'bah Fliesen", *Ars Orientalis*, III, 1959, pp. 192–97.

Erken 1971
S. Erken, "ri", *Vakıflar*, IX, Ankara, 1971, pp. 297–320.

Ertug and Grabar 1993
A. Ertug and O. Grabar, *In Pursuit of Excellence, Works of Art from the Museum of Turkish and Islamic Arts*, Istanbul, 1993.

Esin 1984
E. Esin, "Un manuscript illustré représentant les sanctuaires de La Mecque et Médine et le dôme du miradj à l'époque des sultans turcs Selim et Suleyman I[er] (H. 922–74/1516–66)", in *Les Provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane*, Tunis, 1984, pp. 175–90.

Ettinghausen 1934
R. Ettinghausen, "Die bildliche Darstellung der Ka'ba im islamischen Kulturkreis", *ZDMG*, LXXXVII, 1934, pp. 111–37.

Euting 1885
J. Euting, *Nabataïsche Inschriften aus Arabien*, Berlin, G. Reimer, 1885.

Euting 1914
J. Euting, *Tagebuch einer Reise nach Inner-Arabien. Zweiter Theil*, E. Littmann, Leipzig, 1914.

***Evliya Çelebi* 1935**
Evliya çelebi seyahatnamesi: Anadolu, Suriye, Hicaz, Ankara, 1935.

Eyyüp Sabri 2004
Eyyüp Sabri, *Mir'at al-Haramayn*, 1883–1889 (republished Cairo, 2004).

Fabietti 1988
U. Fabietti, "The Role Played by the Organization of the 'Hums' in the Evolution of Political Ideas in Pre-Islamic Mecca", *PSAS*, 21, 1988, pp. 25–33 (reprinted in F. E. Peters [ed.], *The Arabs and Arabia on the Eve of Islam*, The Formation of the Classical Islamic World, 3, Aldershot, Ashgate Variorum, 1999, pp. 348–56).

Fahd 1987
T. Fahd (ed.), *L'Arabie préislamique et son environnement historique et culturel. Actes du Colloque de Strasbourg, 24-27 juin 1987*, Strasbourg, Université des Sciences humaines, Travaux du Centre de recherche sur le Proche-Orient et la Grèce antiques, 10, Leiden, Brill, 1989.

Al-Fa'r 1984
See the bibliography in Arabic.

Farès-Drappeau 2000
S. Farès-Drappeau, "RR. PP. A. Jaussen et R. Savignac – Mission archéologique en Arabie (Publication de la Société des fouilles archéologiques), 3 tomes […], Cairo (Institut Français d'Archéologie Orientale), 1997 (2nd ed.)", *REMMM*, nos. 89–90, July 2000, pp. 325–30.

Farès-Drappeau 2005
S. Farès-Drappeau, *Dédan et Lihyân. Histoire des Arabes aux confins des pouvoirs perse et hellénistique (IV[e]-II[e] s. avant l'ère chrétienne)*, Travaux de la Maison de l'Orient et de la Méditerranée, 42, Lyon, 2005.

Faroqhi 1994
S. Faroqhi, *Pilgrims and Sultans. The Hajj Under the Ottomans*, London, New York, 1994.

Faure 1987
P. Faure, *Parfums et aromates dans l'Antiquité*, Paris, Fayard, 1987.

Field 1952
H. Field, "Camel Brands and Graffiti from Iraq, Syria, Jordan, Iran and Saudi Arabia", *Journal of American Oriental Research*, supplement no. 15, vol. LXXII, 1952, no. 154, pp. 1–41.

Field 1971
H. Field, *Contribution to the Anthropology of Saudi Arabia*, Miami, Field Research Project, 1971.

Fisher and Fisher 1982
C. G. Fisher and A. Fisher, "Illustrations of Mecca and Medina in Islamic Manuscripts", *Islamic art from Michigan Collection*, East Lansing, Michigan, 1982, pp. 40–47.

Fisher and Membery 1998
M. Fisher and D. A. Membery, "Climate of the Arabian Peninsula", in S. A. Ghazanfar and M. Fisher (ed.), *Vegetation of the Arabian Peninsula*, Geobotany, 25, London, Kluver Academic Publishers, 1998, pp. 5–38.

Fleitmann, Burns, Mangini *et al.* 2007
D. Fleitmann, S. J. Burns, A. Mangini *et al.*, "Holocene ITCZ and Indian Monsoon Dynamics Recorded in Stalagmites from Oman and Yemen (Socotra)", *Quaternary Science Reviews*, 26, 2007, pp. 170–88.

Frahm 1997
E. Frahm, *Einleitung in die Sanherib-Inschriften*, Horn, 1997.

Frahm 1999
E. Frahm, "Perlen von den Rändern der Welt", in K. Van Lerberghe and G. Voet (ed.), *Languages and Cultures in Contact: at the Crossroads of Civilizations in the Syro-Mesopotamian Realm*, Leuven, 1999, pp. 79–99.

Frame 1992
G. Frame, *Babylonia 689-627 B.C.: a Political History*, Leiden, 1992.

Frankfurt 1985
Türkische Kunst und Kultur aus osmanischer Zeit, exhibition catalogue, Frankfurt, Museum für Kunsthandwerk, 1985.

Frohlich and Mughannum 1985
B. Frohlich and A. Mughannum, "Excavations of the Dhahran Burial Mounds 1404/1984", *Atlal*, 9, 1985, pp. 9–40.

Gadd 1958
C. J. Gadd, "The Harran Inscriptions of Nabonidus", *Anatolian Studies*, VIII, 1958, pp. 35–92 and pl. I–XVI.

Gagé 1950
J. Gagé (ed.), *Res gestæ divi Augusti, ex monumentis Ancyrano et Antiocheno latinis, Ancyrano et Apolloniensi græcis*, Strasbourg, Publications of the Faculty of Literature of the University of Strasbourg, Textes d'études, 5, Paris, 1950.

Gajda 1996
I. Gajda, "Hujr b. 'Amr roi de Kinda et l'établissement de la domination himyarite en Arabie centrale", *PSAS*, 26, 1996, pp. 65–73 and pl. I.

Galland 1704–17
A. Galland, *Les Mille et Une Nuits, contes arabes traduits en français*, Paris, chez la veuve de Claude Barbin, 1704–17, 12 vols.

Galter 1993
H. D. Galter, "'… an der Grenze der Länder im Westen'. Saba' in den assyrischen Königsinschriften", in A. Gingrich, S. Haas, G. Paleczek and T. Fillitz, *Studies in Oriental Culture and History, Festschrift for Walter Dostal*, Frankfurt, Peter Lang, 1993, pp. 29–40.

Garbini 1974
G. Garbini, "Note di epigrafia sabea II", *AION*, 34 (N.S. XXIV), 1974, pp. 291–99.

Garrard and Stanley Price 1981
A. N. Garrard and N. P. Stanley Price, "Environment and Settlement during the Upper Pleistocene and Holocene at Jubbah in the Great Nafud, North Arabia", *Atlal*, 5, 1981, pp. 137–56.

Gärtner 2003
J. Gärtner, "Architektonische Elemente und Skulptur der Nabatäer", in E. Netzer, *Nabatäische Architektur, Sonderbände der Antiken Welt, Zaberns Bildbände zur Archäologie*, Mayence, Philipp von Zabern, 2003, pp. 156–79.

Gatier, Lombard and Al-Sindi 2002
P.-L. Gatier, P. Lombard and K. M. Al-Sindi, "Greek Inscriptions from Bahrain", *AAE*, 13, 2002, pp. 223–33.

Gaudefroy-Demombynes 1954
M. Gaudefroy-Demombynes, "Le voile de la Ka'ba", *Studia Islamica*, 2, 1954, pp. 5–21.

Gazdar, Potts and Livingstone 1984
M. S. Gazdar, D. T. Potts and A. Livingstone, "Excavations at Thaj", *Atlal*, 8, 1984, pp. 55–108.

Georgeon 2003
F. Georgeon, *Abdulhamid II. Le sultan calife*, Paris, Fayard, 2003.

Gerardi 1992
P. Gerardi, "The Arab Campaigns of Aššurbanipal: Scribal Reconstruction of the Past", *State Archives of Assyria Bulletin*, 6/2, 1992, pp. 67–103.

Al-Ghabban 1988 a
A. I. Al-Ghabban, *Introduction à l'étude archéologique des deux routes syrienne et égyptienne de pèlerinage au nord-ouest de l'Arabie saoudite*, Ph.D. thesis in press, Aix-en-Provence, University of Aix-en-Provence, 1988.

Al-Ghabban 1988 b
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghabban 1414 H./1993
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghabban 2008
A. I. Al-Ghabban, "L'influence de Babylone à Tayma et dans sa région à la lumière des découvertes archéologiques récentes", in B. André-Salvini (ed.), *Babylone*, Paris, 2008, pp. 231–32.

Al-Ghazi 1992
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghazi 1995
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghazi 2000
A. A. ibn Saoud Al-Ghazi, "Dating and ascertaining the origins of al-Ula painted pottery", *Atlal*, 15, 1420 H./2000, pp. 179–91.

Al-Ghazi 2005 a
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghazi 2005 b
See the bibliography in Arabic.

Al-Ghazi 2007
A. A. ibn Saoud Al-Ghazi, "Nouvelle collection de céramique en provenance du djebel al-Khariba à al-'Ula", Périodique roi Abdel Aziz, no. 3, 1427 H./2007, pp. 83–111.

Ghoneim 1980
W. Ghoneim, "Qaryat (al-Faw)", *Archiv Für Orientforschung*, vol. XXVII, 1980.

Gil 1984
M. Gil, "The Origin of the Jews of Yathrib", in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 4, 1984, pp. 203–24 (reprinted in F. E. Peters [ed.], *The Arabs and Arabia on the Eve of Islam*, collection "The Formation of the Classical Islamic World", vol. 3, Variorum, Ashgate, 8, 1998, pp. 145–66).

Giveon 1971
R. Giveon, *Les Bédouins shosou des documents égyptiens*, Leiden, 1971.

Golding 1974
M. Golding, "Evidence for Pre-Seleucid Occupation in Eastern Arabia", *PSAS*, 4, 1974, pp. 19–32.

Golding 1984
M. Golding, "Artefacts from Later Pre-Islamic Occupation in Eastern Arabia", *Atlal*, 8, 1984, pp. 159–64.

Göyünç 1979
N. Göyünç, "Some Documents Concerning the Ka'ba in the 16th Century", *Masadir Tarikh al-Jazira al-'Arabiyya / Sources for the History of Arabia: Proceedings of the First International Symposium on Studies in the History of Arabia, 23rd–28th April 1977*, Riyadh, 1399 H./1979, pp. 177–81.

Grabar 1985
O. Grabar, "Upon Reading al-Azraqi", *Muqarnas*, 3, 1985, pp. 1–7.

Graf 1990
D. F. Graf, "Arabia during Achaemenid Times", in H. Sancisi-Weerdenburg and A. Kuhrt (ed.), *Achaemenid History IV, Proceedings of the Groningen 1986 Achaemenid History Workshop*, Leiden, 1990, pp. 131–48.

Grohmann 1962
A. Grohmann, *Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie, II[e] partie, Textes épigraphiques, t. 1, Arabic Inscriptions*, Louvain, 1962.

Groom 1981
N. Groom, *Frankincense and Myrrh. A Study of the Arabian Incense Trade*, London, Longman, Beirut, Librairie du Liban, 1981.

Gruber 2005
C. Gruber, *The Prophet Muhammad's Ascension (Mi'raj) in Islamic Art and Literature, 1300–1600*, Ph.D. thesis, Philadelphia, University of Pennsylvania, 2005.

Gubel and Overlaet 2007
É. Gubel and B. Overlaet, *De Gilgamesh à Zénobie. Trésors de l'Antiquité. Proche-Orient et Iran*, Brussels, MRAH, Fonds Mercator, 2007.

Güler 2002
M. Güler, *Osmanlı Devlet'inde Haremeyn Vakıfları (XVI.-XVII. Yüzyıllar)*, Istanbul, 2002.

Al-Hajiri 2006
M. Al-Hajiri, "Brief Preliminary Report on the Excavations at the Industrial Site in Tayma", *Atlal*, 19, 2006, pp. 21–26.

Al-Hajiri *et al.* 2002
M. Al-Hajiri, Y. Hussain, M. Al-Mutlag, J. Al-Jurdid, S. Al-Rodhain and N. Shaiks, "Tayma Excavation, Rujoum Sasa, First Season 1418 A.H./1997 A.D.", *Atlal*, 17, 2002, pp. 23–25.

Al-Hajiri *et al.* 2005
M. Al-Hajiri, M. Al-Mutlaq, A. Hashim, S. Al-Shama'n, S. Al-Najem, S. Al-Helwa, S. Al-Radhiyan, "Archaeological Excavations at the Site of Rajoom Sa'sa' – Tayma (Second Season 1421 H./2000 A.D.)", *Atlal*, 18, 2005, pp. 23–27.

Hakemi 1997
A. Hakemi, "Kerman: the Original Place of Production of Chlorite Stone Objects in the 3rd Millenium B.C.", *East and West*, vol. XLVII, nos. 1–4, 1997, pp. 11–40.

Al-Hamdani 1977
See the bibliography in Arabic.

Hamed 1988
A. I. Hamed, *Introduction à l'étude archéologique des deux routes syrienne et égyptienne de pèlerinage au nord-ouest de l'Arabie saoudite*, unpublished Ph.D. thesis, University of Aix-en-Provence, 1988.

Hamilton 1993
A. Hamilton, *L'Europe et le monde arabe. Cinq siècles de livres des lettrés et voyageurs européens choisis dans les bibliothèques de l'Arcadian Group*, exhibition catalogue, Paris, Institut du monde arabe, 1993.

Al-Harbi
See the bibliography in Arabic.

Harding 1971
G. L. Harding, *An Index and Concordance of Pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions,* Toronto, University of Toronto Press, 1971.

Al-Harithi 1415H./ 1994
See the bibliography in Arabic.

Al-Harithi 2005
See the bibliography in Arabic.

Harmand, DeGusta, Slimak *et al.* 2009
S. Harmand, D. DeGusta, L. Slimak *et al.*, "Nouveaux sites paléolithiques anciens en république de Djibouti : bilan préliminaire de prospections récentes dans le bassin du Gobaad, Afar central", *Comptes rendus Palevol*, 8, no. 5, 2009, pp. 481–92.

Hashim 2007
S. A. Hashim, *Pre-Islamic Ceramics in Saudi Arabia*, Riyadh, Ministry of Education, Department of Antiquities and Museums, 2007.

Hassell 1997
J. Hassell, "Alabaster Beehive-Shaped Vessels from Arabian Peninsula", *AAE*, vol. 8, no. 2, 1997.

Hausleiter 2006
A. Hausleiter, "Tayma, North-West Arabia. The Context of Archaeological Research", in Y. Gong and Y. Chen (ed.), *Special Issue of Oriental Studies. A Collection of Papers on Ancient Civilizations of Western Asia, Asia Minor and North Africa*, Beijing, 2006, pp. 158–80.

Hausleiter 2009
A. Hausleiter, "Tayma during the Hellenistic and Nabataean periods", paper presented at the international workshop *Central Places in Arabia during the Hellenistic and Roman Periods – Common Trends and Different Developments*, Berlin, 3–5 December 2009.

Hausleiter (forthcoming)
A. Hausleiter, "Divine Representations at Taymā'", in C. Robin and I. Sachet (ed.), *Proceedings of the Table ronde "Dieux et déesses d'Arabie : images et représentations, Collège de France, site d'Ulm, Paris, 1 et 2 octobre 2007"*, Paris, forthcoming.

El-Hawary and Wiet 1985
H. M. El-Hawary and G. Wiet, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum*, 4th part, *Arabie. Inscriptions et monuments de La Mecque, Haram et Ka'ba*, I, fasc. 1, revised by N. Elisséeff, Cairo, Institut français d'archéologie orientale, 1985.

Al-Hawas 2003
F. Al-Hawas, *The Archaeological and Architectural Remains of the Ancient City of Faid in the Province of Hail, Saudi Arabia*, unpublished Ph.D. thesis, University of Southampton, 2003.

Hawting 1999
G. R. Hawting, *The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam. From Polemic to History*, Cambridge Studies in Islamic Civilization, Cambridge, Cambridge University Press, 1999.

Hayajneh 2001 a
H. Hayajneh, "Der babylonische König Nabonid und der *RBSRS* in einigen neu publizierten frühnordarabischen Inschriften aus Tayma", *Acta Orientalia*, 62, 2001, pp. 22–64.

Hayajneh 2001 b
H. Hayajneh, "First Evidence of Nabonidus in the Ancient North Arabian Inscriptions from the Region of Tayma", *PSAS*, 31, 2001, pp. 81–95.

Healey 1993
J. F. Healey, "The Nabataean Tomb Inscriptions of Mada'in Saleh", *Journal of Semitic Studies*, supplement 1, Oxford, Oxford University Press (on behalf of the University of Manchester), 1993.

Herbelot 1697
B. d'Herbelot, *Bibliothèque Orientale ou*

Museum. Collection of Epigraphic and Archaeological Artifacts from al-Jawf Sites. Part II, San'a', UNESCO-SFD, 2007.

Arif al-Munir 1971
Arif al-Munir, *The Hejaz Railway and The Muslim Pilgrimage*, trad. J. Landau, Detroit, 1971.

Arnaud 1845
Th.-J. Arnaud, "Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale, entrepris en 1843", *Journal asiatique*, 4e série, V, 1845, pp. 208–45, 309–435.

Arvieux 1717
L. d'Arvieux, *Voyage fait par ordre du roy Louis XIV dans la Palestine vers le grand Émir, Chef des Princes Arabes du Désert, connus sous le nom de Bédoüins, ou d'Arabes scénites, qui se disent la vraïe postérité d'Ismaël, fils d'Abraham*, Paris, 1717 (ed. by La Roque).

Arvieux 1735
L. d'Arvieux, *Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la Porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres échelles du Levant, contenant ses voyages à Constantinople, dans l'Asie, la Syrie, la Palestine, l'Égypte et la Barbarie, recueillis de ses Mémoires originaux et mis en ordre par le R. P. Jean-Baptiste Labat*, 1735.

Atasoy and Raby 1989
N. Atasoy and J. Raby, *Iznik*, London, 1989.

***Al-Athar*, 1420 H./2000**
See the bibliography in Arabic.

Atil 1963
E. Atil, *La Mecque, ville bénie, Médine, ville radieuse*, Paris, 1963.

Atil 1981
E. Atil, *Renaissance of Islam. Art of the Mamluks*, Washington D.C., Smithsonian Institution, 1981.

Avanzini 1997
A. Avanzini (ed.), *Profumi d'Arabia. Atti del convegno a cura di Alessandra Avanzini*, Saggi di storia antica, 11, Rome, "L'Erma" di Bretschneider, 1997.

Aydın 2007
H. Aydın, *Sultanların Silahları*, Istanbul, 2007.

Bacqué-Grammont and Kroell 1988
J.-L. Bacqué-Grammont and A. Kroell, *Mamelouks, Ottomans et Portugais en mer Rouge. L'affaire de Djedda en 1517*, supplement to *Annales islamologiques*, Cairo, 1988.

Bafqih *et al.* 1985
See the bibliography in Arabic.

Bagg (forthcoming)
A. M. Bagg, "Untersuchungen zu den 'arabischen' Toponymen und zur Rezeption der 'Araber' in den historischen Quellen der Assyrer", in *Tayma*, vol. I.

Al-Bahnasi 1999
See the bibliography in Arabic.

Bahrain 1994
A Selection of Abdul Latif Jassim Kanoo's Collection of Islamic Art, exhibition catalogue, Bahrain, Manama, 1994.

Bailey, Alsharekh, Flemming *et al.* 2007
G. Bailey, A. Alsharekh, N. Flemming *et al.*, "Coastal Prehistory in the Southern Red Sea Basin, Underwater Archaeology, and the Rasan Islands", *PSAS*, 37, 2007, pp. 1–16.

Baker 1995
P. Baker, *Islamic Textiles*, London, 1995.

Al-Bakri, *Masalik*
See the bibliography in Arabic.

Al-Bakri, *Mu'jam*
See the bibliography in Arabic.

Al-Baladhuri
See the bibliography in Arabic.

Al-Balawi
See the bibliography in Arabic.

Bani Yunis 2000
See the bibliography in Arabic.

Barbir 1980
K. Barbir, *Ottoman Rule in Damascus 1708-1758*, Princeton (New Jersey), Princeton University Press, 1980.

Al-Basha 1979
H. Al-Basha, "Ahamiyyat shawahid al-qubûr ka masdar fi al-'asr al-islami", in *Masadir Tarikh al-Jazira al-'Arabiyya/Sources for the History of Arabia: Proceedings of the First International Symposium on Studies in the History of Arabia, 23rd-28th April 1977*, Riyadh, 1399 H./1979.

Bastoun *et al.* 1982
See the bibliography in Arabic.

Bawden 1983
G. Bawden, "Painted Pottery of Tayma and Problems of Cultural Chronology in Northwest Arabia", in J. F. A. Sawyer and D. J. A. Clines (ed.), *Midian, Moab and Edom*, Journal for the Study of the Old Testament Supplement Series, 24, Sheffield, 1983, pp. 37–53.

Bawden and Edens 1988
G. Bawden and C. Edens, "Tayma Painted Ware and the Hejaz Iron Age Ceramic Tradition", *Levant*, 20, 1988, pp. 197–213.

Bawden, Edens and Miller 1980
G. Bawden, C. Edens and R. Miller, "Preliminary Archaeological Investigations at Tayma", *Atlal*, 4, 1980, pp. 69–106.

Beaulieu 1989
P.-A. Beaulieu, *The Reign of Nabonidus, King of Babylonia, 556–539 B.C.*, Yale Near Eastern Researches, 10, New Haven, London, Yale University Press, 1989.

Bednarik 1994
R. G. Bednarik, "The Pleistocene Art of Asia", *Journal of World Prehistory*, vol. VIII, part 4, 1994; pp. 351–75.

Bednarik and Khan 2002
R. G. Bednarik and M. Khan, "The Saudi Arabian Rock Art Mission of November 2001", *Atlal*, 17, 2002, pp. 75–99.

Bednarik and Khan 2005
R. G. Bednarik and M. Khan, "Scientific Studies of Saudi Arabian Rock Art", *Rock Art Research*, vol. XXII, no. 1, 2005, pp. 49–81.

Beeston 1982
A. F. L. Beeston, "Languages of Pre-Islamic Arabia", in *Études de linguistique arabe, Arabica*, vol. 28, nos 2–3, 1982, pp. 178–86.

Behrens-Abouseif 1999
D. Behrens-Abouseif, "Qaytbay's Madrasahs in the Holy Cities and the Evolution of Haram Architecture", *Mamluk Studies Review*, 3, 1999, pp. 129–48.

Beirut 1974
Art islamique dans les collections libanaises, exhibition catalogue, Beirut, Nicolas Sursock Museum, 1974.

Benton 1996
J. Benton, *Excavations at Al Sufouh: a Third Millenium Site in the Emirate of Dubai*, Abiel I, Turnhout, Brepols, 1996.

Berger 1884
P. Berger, "Nouvelles inscriptions de Médaïn Saleh", *CRAI*, 1884, pp. 377–93.

Bernick-Greenberg 2007
H. Bernick-Greenberg, "The Ceramic Assemblages and the Wheel-Made Pottery Typology", in R. Cohen and H. Bernick-Greenberg, *Excavations at Kadesh Barnea (Tell el-Qudeirat), 1976–1982*, Israel Antiquities Authority Reports, 34, Jerusalem, 2007, pp. 131–85.

Beuger (forthcoming)
A. Beuger, "Salvage Excavations at the Burial Site of Tala' (Area S)", in R. Eichmann, A. Hausleiter, M. Al-Najem and S. F. Al-Said, "Tayma – Autumn 2004 and Spring 2005, 2nd Report on the Joint Saudi-Arabian–German archaeological project", *Atlal*, 20, forthcoming.

Beyer and Livingstone 1987
K. Beyer and A. Livingstone, "Die neuesten aramäischen Inschriften aus Taima", *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 137, 1987, pp. 285–96.

Bibby 1973
T. G. Bibby, *Preliminary Survey in East Arabia, 1968*, Jutland Archaeological Society Publications vol. XII 1973

Bidwell 1976
R. Bidwell, *Travellers in Arabia*, London, 1976.

Bittar 2003
T. Bittar, *Pierres et stucs épigraphiés. Musée du Louvre, département des Arts de l'Islam*, Paris, 2003.

Blochet 1928
E. Blochet, *Bibliothèque nationale. Catalogue des manuscrits persans*, t. III, Paris, 1928.

Boivin and Fuller 2009
N. Boivin and D. Q. Fuller, "Shell Middens, Ships and Seeds: Exploring Coastal Subsistence, Maritime Trade and the Dispersal of Domesticates in and around the Ancient Arabian Peninsula", *Journal of World Prehistory*, 22, 2009, pp. 113–80.

Boling 1975
R. G. Boling, *Judges: Introduction, Translation and Commentary*, Garden City, 1975.

Boube-Piccot 1975
C. Boube-Piccot, *Les Bronzes antiques du Maroc*, Études et travaux d'archéologie marocaine 5, 1975.

Bowersock 1996
G. W. Bowersock, "Exploration in North-West Arabia after Jaussen-Savignac", *Topoi*, 6/2, 1996, pp. 553–63.

Breton 1994
J.-F. Breton, *Les Fortifications d'Arabie méridionale du VIIe au Ier siècle avant notre ère*, Mayence, 1994.

Briggs 2009
A. Briggs, *Ancient Midian in the Late Bronze to Early Iron Ages: Historical and Archaeological Perspectives*, Sydney, unpublished M.A. thesis, 2009.

Briquel-Chatonnet and Fauveaud-Brassaud 2008
F. Briquel-Chatonnet and C. Fauveaud-Brassaud, "*Ad majorem scientiae fructum.* Le *Corpus inscriptionum semiticarum* dans les correspondances conservées à l'Institut de France", in C. Bonnet and V. Krings (ed.), *S'écrire et écrire dans l'Antiquité. L'apport des correspondances à l'histoire des travaux scientifiques*, Grenoble, Éditions Jérôme Millon, 2008, pp. 215–28.

Briquel-Chatonnet and Robin 1997
F. Briquel-Chatonnet and C. Robin, "Objets d'Arabie Nord-Ouest (autres objets d'Arabie), nos 199–204", in Y. Calvet and C. Robin (ed.), *Arabie Heureuse, Arabie Déserte. Les antiquités arabiques du musée du Louvre*, Paris, 1997, pp. 260–64.

Brock 1999
S. Brock, "Syriac Writers from Beth Qatraye", *Aram*, 11–12, 1999–2000, pp. 85–96.

Buhl and Bosworth 1999
M. L. Buhl and C. F. Bosworth, "Tayma", in *Encyclopedia of Islam (2nd edition)*, Leiden, 1999, pp. 430–31.

Bunduqji 1400 H./1980
See the bibliography in Arabic.

Burkholder 1971
Grace Burkholder,1971 "Steatite carving from Saudi Arabia" in "Some Results of the Third International Conference on Asian Archaeology in Bahrain", *Artibus Asiae*, vol. 33, no. 4 (1971), pp. 306–22.

Burkholder 1984
G. Burkholder, *An Arabian Collection: Artifacts from the Eastern Province*, Boulder City (Nevada), GB Publications, 1984.

Callot 1990
O. Callot, "Les monnaies dites 'arabes' dans le nord du golfe Arabo-Persique à la fin du IIIe siècle avant notre ère", in *Failaka. Fouilles françaises 1986–1988*, Y. Calvet and J. Gachet (ed.), Travaux de la Maison de l'Orient, 18, Lyon, Maison de l'Orient, Paris, distributed by Boccard, 1990, pp. 221–40.

Calvet and Robin 1997
Y. Calvet and Ch. Robin, *Arabie Heureuse, Arabie Déserte. Les antiquités arabiques du musée du Louvre*, Notes and documents des Musées de France, 31, Paris, Réunion des musées nationaux, 1997.

Cantineau 1978
J. Cantineau, *Le Nabatéen*, Paris, E. Leroux, 1978, 2 vols.

Capdetrey 2007
L. Capdetrey, *Le Pouvoir séleucide. Territoire, administration, finances d'un royaume hellénistique (312-129 avant J.-C.)*, Rennes, 2007.

Carcaradec 1981
M. de Carcaradec, "Les *mahmils* du palais de Topkapı", *Turcica*, 13, 1981.

Carter 2006
R. Carter, "Boats Remains and Maritime Trade in the Persian Gulf during 6th and 5th millennium B.C.", *Antiquity*, 80, no. 307, 2006, pp. 52–63.

Caskel 1954
W. Caskel, *Lihyan und Lihyanisch*, Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, Geisteswissenschaften, 4, Cologne, Opladen, Westdeutscher Verlag, 1954.

Caskel 1966
W. Caskel, *Jamharat an-nasab. Das genealogische Werk des Hisham ibn Muhammad al-Kalbi*, Leiden, Brill, 1966, 2 vols.

Caussin de Perceval 1847
A. P. Caussin de Perceval, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, pendant l'époque de Mahomet, et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane*, t. I-III, Paris, Firmin-Didot, 1847–1848 (reprinted by Graz, Akademische Druck- u. Verlagsanstalt, 1967).

Cavigneaux and Khalil Ismail 1990
A. Cavigneaux and B. Khalil Ismail, "Die Statthalter von Suhu und Mari im 8. Jh. v. Chr.", *Baghdader Mitteilungen*, 21, 1990, pp. 231–456.

Chabbi 1997
J. Chabbi, *Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet*, Paris, 1997 (reprint in progress, CNRS).

Chabbi 2008
J. Chabbi, *Le Coran décrypté. Figures bibliques en Arabie*, Paris, 2008.

Chabot 1902
J.-B. Chabot (ed.), *Synodicon orientale, ou Recueil de synodes nestoriens*, Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale et autres bibliothèques, publiés par l'Académie des inscriptions et belles-lettres, 37, Paris, Imprimerie nationale, 1902.

Chambéry 1970
Arts de l'islam, exhibition catalogue, Chambéry, musées d'Art et d'Histoire, 1970.

Charles-Dominique 1995
P. Charles-Dominique (trad.), *Voyageurs arabes*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1995.

CIH
Corpus inscriptionum semiticarum. Pars quarta, inscriptiones himyariticas et sabaeas continens, t. I-III, Paris, 1889, 1911, 1929.

CIS V
Corpus inscriptionum semiticarum. Pars quinta, inscriptiones saracenicas continens, t. I, Paris, C. Klincksieck, 1951.

Clarke 1979
C. Clarke, "Rock Art at Jubbah, Northern Saudi Arabia", *PSAS*, 9, 1979, p. 80.

Cleuziou 1988
S. Cleuziou, "Dilmoun-Arabie en marge de C. M. Piesinger: 'The Legacy of Dilmun'", in Salles, 1988, pp. 27–58.

Cleuziou and Vogt 1985
S. Cleuziou and B. Vogt, "Tomb A at Hili North (U.A.E.) and its Material Connections to Southeast Iran and the Greater Indus Valley", in J. Schotsmans and M. Taddei (ed.), *South Asian Archaeology 1983*, Naples, Istituto Universitario Orientale, Dipartimento di Studi Asiatici, Series Minor XXIII, 1985, pp. 249–77.

Conti Rossini 1910
C. Conti Rossini, "Un documento sul cristianesimo nello Iemen ai tempi del re Sharahbil Yakkuf", in *Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei*, Classe di Scienze morali, storiche e filologiche, Serie V, vol. XIV, 1910, pp. 705–50.

Contini 2003
R. Contini, "La lingua del Bêt Qatrayê", in *Mélanges David Cohen. Études sur le langage, les langues, les dialectes, les littératures, offertes par ses élèves, ses collègues, ses amis, présentés à l'occasion de son quatre-vingtième anniversaire*, texts assembled and edited byJ. Lentin and A. Lonnet, Paris, Maisonneuve et Larose, 2003, pp. 173–81.

Courbon 2008
P. Courbon, "Les puits nabatéens de Mada'in Saleh", *AAE*, 19, 2008, pp. 48–70.

Crassard 2008
R. Crassard, *La Préhistoire du Yémen. Diffusions et diversités locales, à travers l'étude d'industries lithiques du Hadramawt*, BAR International Series 1842, Oxford, Archaeopress, 2008.

Crawford and al-Sindi 1996
H. Crawford, K. al-Sindi, "A 'Hut potin the National Museum, Bahrain", *AAE*, vol. 7, issue 2 (November 1996), pp. 140–42.

Crone 1987
P. Crone, *Meccan Trade and the Rise of Islam*, Oxford, Basil Blackwell, 1987.

Cross 1986
F. M. Cross, "A New Aramaic Stele from Taima", *Catholic Biblical Quarterly*, 49, 1986, pp. 387–94.

Cuvigny and Robin 1996
H. Cuvigny and C. Robin, "Des Kinaidokolpites dans un ostracon grec du désert oriental (Égypte)", *Topoi*, 6, 1996, pp. 697–720.

Daems 2004
A. Daems, "The Terracotta Figurines from Ed-Dur (Umm al-Qaiwain, U.A.E.): the Human Representations", *AAE*, 15, 2004, pp. 92–104.

***DAI* 2005**
"Jahresbericht 2004 des Deutschen Archäologischen Instituts", *Archäologischer Anzeiger*, 2005, pp. 121–297.

***DAI* 2007**
"Jahresbericht 2006 des Deutschen Archäologischen Instituts", *Archäologischer Anzeiger*, 2007, pp. 135–401.

Dalley 1986
S. Dalley, "The God Salmu and the Winged Disk", *Iraq*, 48, 1986, pp. 85–101.

Al-Daqan 1985
See the bibliography in Arabic.

Al-Dar'i
See the bibliography in Arabic.

Daum, Müller, Nebes and Raunig 2000
W. Daum, W. W. Müller, N. Nebes and W. Raunig (ed.), *Im Land der Königin von Saba'. Kunstschätze aus dem antiken Jemen*, Munich, Staatliches Museum für Völkerkunde, 2000.

David 1990
H. David 1990, "La vaisselle de chlorite" in *Failaka. Fouilles françaises 1986-1988*, Y. Calvet and J. Gachet (ed.), Travaux de la Maison de l'Orient, 18, Lyon, Maison de l'Orient, Paris, distributed by Boccard, 1990, pp. 141–47.

David 1996
H. David, "Styles and evolution: soft stone vessels during the Bronze Age in Oman peninsula", *PSAS*, vol. 26, 1996, pp. 31–46.

Dayton 1972
J. Dayton, "Midianite and Edomite Pottery", *Proceedings of the Fifth Seminar for Arabian Studies*, 5, 1972, pp. 25–38.

Delagnes and Roche 2005
A. Delagnes and H. Roche, "Late Pliocene Hominid Knapping Skills: the Case of Lokalalei 2C, West Turkana, Kenya", *Journal of Human Evolution*, 48, 2005, pp. 435–72.

Delougaz 1952
P. Delougaz, *Pottery from the Diyala Region*, OIP, vol. 63, Chicago, University of Chicago Press, 1952.

De Maigret 1997
A. de Maigret, "The Frankincense Road from Najran to Ma'an: a Hypothetical Itinerary", in Avanzini, 1997, pp. 315–31.

De Maigret 1999
A. de Maigret, "The Arab Nomadic People and the Cultural Interface between the 'Fertile Crescent' and 'Arabia Felix'", *AAE*, 10, 1999, pp. 220–24.

De Maigret 2003
A. de Maigret, "La route caravanière de l'encens dans l'Arabie préislamique, éléments d'information sur son itinéraire et sa chronologie", *Chroniques yéménites*, 11, 2003.

Dentzer 2009
J.-M. Dentzer, "Espace urbain et environnement dans les villes nabatéennes de Pétra, Hégra et Bosra", in F. Dumasy and F. Queyrel (ed.), *Archéologie et environnement dans la Méditerranée antique*, Geneva, Droz, 2009, pp. 143–92 (pp. 156–75 on Hegra).

Déroche 1992
F. Déroche, *The Abbasid Tradition. Qur'ans of the 8th to the 10th Centuries AD. The Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art*, I, London, 1992.

Déroche 2009
F. Déroche, *Le Coran*, Paris, 2009.

Derricourt 2005
R. Derricourt, "Getting 'Out of Africa': Sea Crossings, Land Crossings and Culture Hominin Migrations", *Journal of World Archaeology*, 19, 2005, pp. 119–32.

Detoraki and Beaucamp 2007
M. Detoraki (ed.) and J. Beaucamp (trad.), *Le Martyre de saint Aréthas et de ses compagnons (BHG 166)*, appendix on the oriental versions by A. Binggeli, Collège de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance, Monographies, 27, *Le Massacre de Najran*, 1, Paris, Association des amis du Centre d'histoire et civilisation de Byzance, 2007.

Al-Dhabib 1998
See the bibliography in Arabic.

al-Dhahabi 1996
See the bibliography in Arabic.

Dickson 1949
H. R. P. Dickson, *The Arab and the Desert.* London, George Allen and Unwin, 1949.

المصادر والمراجع الأجنبية

Abbreviations

AAE: Arabian Archaeology and Epigraphy.

AION: Annali dell'Istituto Orientale di Napoli.

BAR: British Archaeological Reports.

BASOR: Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

CRAI: Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres.

CT: Cuneiform Texts from Babylonian Tablets.

DAI: Deutsches Archäologisches Institut.

EI2: Encyclopaedia of Islam, 2nd Edition

ESHO: Journal of the Economic and Social History of the Orient.

OIP: The University of Chicago Oriental Institute Publications.

PSAS: *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.*

REMMM: Revue du monde musulman et de la Méditerranée.

SAA: State Archives of Assyria.

ZDMG: Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

Abdallah 1975
Y. Abdallah, *Die Personennamen in al-Hamdani's al-Iklil und ihre Parallelen in den südarabischen Inschriften*, Tübingen, University of Tübingen, 1975.

Abdul Halim 1993
See the bibliography in Arabic.

Abdul Nayeem 2000
M. Abdul Nayeem, *The Rock Art of Arabia, Saudi Arabia, Oman, Qatar, The Emirates and Yemen*, Hyderabad, Hyderabad Publishers, 2000.

Abu Al-Hasan 1997
See the bibliography in Arabic.

Abu Al-Hasan 2002
See the bibliography in Arabic.

Abu Duruk 1986
H. I. Abu Duruk, *Introduction to the Archaeology of Tayma*, Riyadh, 1986.

Abu Duruk 1989
H. I. Abu Duruk, "A Preliminary Report on the Industrial Site Excavation at Tayma, First Season 1408 H./1987 A.D.", *Atlal*, 12, 1410 H./1989, pp. 9–19.

Abu Duruk 1990
H. I. Abu Duruk, "A Preliminary Report on the Industrial Site Excavations at Tayma, Second Season 1410 H./1989 A.D.", *Atlal*, 13, 1411 H./1990, pp. 9–19.

Abu Duruk 1996
H. I. Abu Duruk, "A Preliminary Report on the Industrial Site Excavation at Tayma, Third Season 1411 H./1990 A.D.", *Atlal*, 14, 1996, pp. 11–24.

Abu Duruk 2000
H. I. Abu Duruk, "A Preliminary Report on the Excavation and Finds of the First Islamic Site Al-Bejidi in Tayma 1412 A.H./1992 A.D.", *Atlal*, 15, 2000, pp. 1–33.

Abu Duruk and Murad 1985
H. I. Abu Duruk and A. al-Jawad Murad, "Preliminary Report on Qasr Al-Hamra Excavations, Tayma, Second Season 1404/1984", *Atlal*, 9, 1985, pp. 55–64.

Abu Duruk and Murad 1988
H. I. Abu Duruk and A. al-Jawad Murad, "Preliminary Report on Qasr Al-Hamra Excavation, Tayma, Fourth (Last) Season 1406/1986", *Atlal*, 11, 1988, pp. 29–36.

Al-Afghani
See the bibliography in Arabic.

Aggoula 1985
B. Aggoula, "Studia Aramaica II", *Syria*, 62, 1985, pp. 61–76.

Al-'Ajimi 1409H./ 1988–89
See the bibliography in Arabic.

Aksoy and Milstein 2000
Ş. Aksoy and R. Milstein, "A Collection of Thirteenth-Century Illustrated Hajj Certificates", *M. Ugur Derman Festschrift*, Istanbul, 2000, pp. 73–134.

Alexander 1993
D. Alexander, *Furusiyya*, II, Riyadh, 1993.

Alexander 1996 a
D. Alexander, *Furusiyya,* vol. 1, King Abdulaziz Public Library, 1996.

Alexander 1996 b
D. Alexander, *Furusiyya*, vol. 2, King Abdulaziz Public Library, 1996.

Ali Bey 1814
Ali Bey el Abbassi, *Voyages d'Ali-Bey el Abbassi (Domingo Badia y Leyblich) en Afrique et en Asie : pendant les années 1803, 1804, 1805, 1806 et 1807 (rédigé par Roquefort)*, Paris, 1814.

Alsharekh 2006
A. Alsharekh, *The Archaeology of Central Saudi Arabia: Investigations of Lithic Artefacts and Stone Structures in Northeast Riyadh*, Riyadh, Ministry of Education, Department of Antiquities and Museums, 2006.

Amiet 1986
P. Amiet, *L'Âge des échanges inter-iraniens, 3500-1700 avant J.-C.*, Paris, Réunion des musées nationaux, 1986.

Anati 1968 a
E. Anati, *Rock-Art in Central Arabia*, vol. 1, *The "Oval-Headed" People of Arabia* (*Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie, Ire partie, Géographie et archéologie, t. 3*), Bibliothèque du Muséon, 50, Louvain-la-Neuve, Université catholique de Louvain, Institut orientaliste, 1968.

Anati 1968 b
E. Anati, *Rock-Art in Central Arabia*, vol. 2, part. I, *Fat-Tailed Sheep in Arabia*; part. II, *The Realistic-Dynamic Style of Rock-Art in the Jabal Qara* (*Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie, Ire partie, Géographie et archéologie, t. 3*), Bibliothèque du Muséon, 50, Louvain-la-Neuve, Université catholique de Louvain, Institut orientaliste, 1968.

Anati 1972
E. Anati, *Rock-Art in Central Arabia*, vol. 3 (*Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie*), Publications de l'Institut orientaliste de Louvain, 4, Louvain, Institut orientaliste, 1972.

Anati 1974
E. Anati, *Rock-Art in Central Arabia*, vol. 4 (*Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie*), Publications de l'Institut orientaliste de Louvain, 6, Louvain, Institut orientaliste, 1974.

Anati 1999
E. Anati, "The Rock Art of the Negev Desert", *Near Eastern Archaeology*, vol. LXII, no. 1, March 1999, pp. 22–34.

Andrević 1986
A. K. Andrević, "Turkish Tiles and Pottery in Yugoslavia", in *First International Congress on Turkish Tiles and Ceramics (Kütahya 6-11 VII 1986)*, 1986, pp. 25–31.

Al-Ankary 2001
K. Al-Ankary, *La Péninsule Arabique dans les cartes européennes anciennes. Fin XVe-début XIXe siècle (collection Khaled Al Ankary)*, Paris, Institut du monde arabe, 2001.

Anonymous 1982
Anonymous, "News and Events", *Atlal*, 6, 1982, pp. 139–41.

Al-Ansari 1966
A. T. Al-Ansari, *A Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names*, unpublished Ph.D. thesis, University of Leeds, 1966.

Al-Ansari 1969
See the bibliography in Arabic.

Al-Ansari 1970
A. T. Al-Ansari, "The Chronology of Lihyan", *Bulletin of the Faculty of Arts*, Riyadh, University of Riyadh I, 1970, pp. 53–60.

Al-Ansari 1975
See the bibliography in Arabic.

Al-Ansari 1982
A. T. Al-Ansari, *Qaryat al-Fau. A Portrait of Pre-Islamic Civilisation in Saudi Arabia*, Riyadh, University of Riyadh, 1982.

Al-Ansari 1990
A. T. Al-Ansari, "Quelques anciennes cités caravanières du royaume d'Arabie saoudite", in *Pétra et les cités caravanières*, Amman, General Direction of Archaeological Monuments, 1990.

Al-Ansari 1999
A. T. Al-Ansari, "Une mission archéologique au pays des Arabes", in Paris, 1999, pp. 35–37.

Al-Ansari 1423H./ 2002
See the bibliography in Arabic.

Al-Ansari 2008
See the bibliography in Arabic.

Al-Ansari, Aboul Fadl Jamal Eddine Mohamed bin Makram
Al-Ansari, Aboul Fadl Jamal Eddine Mohamed bin Makram, *Lisan al-Arab*, research by Abdulallah Al-Kabir *et al.*, Dar Al-Maaref.

Antonini 2001
S. Antonini, *La Statuaria sudarabica in pietra* (*Repertorio iconografico sudarabico*, 1), Paris, Rome, 2001.

Anville 1751
J.-B. Bourguignon d'Anville, *Première Partie de la carte d'Asie, contenant la Turquie, l'Arabie, La Perse […]. Publiée sous les auspices de Monseigneur le Duc d'Orléans, premier prince du sang, 1751*, Paris, 1751.

Anville 1771
J.-B. Bourguignon d'Anville, *Atlas général*, Paris, 1771.

Aqil' 1993
A. 'Ali Aqil', *Les Bijoux d'Arabie méridionale à la période préislamique*, Ph.D. thesis in archaeology, Paris, Université de Paris I Panthéon-Sorbonne (ed. J.-M. Dentzer), 1993.

Aqil' and Antonini 2007
A. 'Ali Aqil' and S. Antonini, *Bronzi sudarabici di periodo pre-islamico*, Paris, De Boccard, Rome, ISIAO, 2007.

Arbach and Audouin 2007
M. Arbach and R. Audouin, *Sana'a National*

مصادر الصور الفوتوغرافية

أثـيـنـا
متحف بناكي، ص. ٤٠٥

بـرليـن
DAI Orient-Abteilung، ص ص. ٢١٨، ٢١٩، ٢٣١، ٢٤٢ ؛
DAI Orient-Abteilung، أ. بوجير، ص. ٢٠٦ (أعلى) ؛
DAI Orient-Abteilung، م. كوسان، ص. ٢٠٥ ؛
DAI Orient-Abteilung، ر. إيشمان، ص. ٢٠٢ ؛
DAI Orient-Abteilung، أ. هاوسليتر، ص. ٢٠٢ ؛
DAI Orient-Abteilung، أ. إنتيليا، ص. ٢٠٠ ؛
Vorderasiatishes Museum، ص. ١٦٨

بـروكليـن
متحف بروكليـن، ص. ٩٨

الـقـاهـرة
٢٠٠٩ فريد كيومجي وروبير غراهام، ص ص. ٤١٢-٤١٣

إسـطنبـول
مكتبة نوريوعثمانيه، ص ص. ٥٤٩، ٥٥٠ ؛
متحف قصر توبكابي، ص ص. ٤٩٠، ٤٩١، ٥٢١

الـقـدس
المدرسة الفرنسية التوراتية وعلم الآثار، ص ص. ٤٤، ٥٣، ٢٧٦، ٤٤٩

لـنـدن
٢٠٠٦ منشورات العصور القديمة، ص ١٦٦ (أسفل) ؛
دافيد رامسي مجموعة خرائط تاريخية، ص. ٤٩ ؛
رويال جيوغرافيك سوسيتيه، ص ص. ٣٩٤-٣٩٥، ٥٣٠، ٥٥٦، ٥٧١ ؛
١٩٩٧ ستايسي إنترناسيونال ووليم فاساي، ص. ٤١ ؛
١٩٩٣ ستايسي إنترناسيونال وتييري موجير، ص ص. ١٥٤، ٤٧١ ؛
المكتبة البريطانية، ص ص. ٤٠٧، ٤٠٤-٤٠٥ ؛
إدارة المتحف البريطاني، ص ص. ٧٠، ٧٣، ٧٩

مـانيسا
المكتبة البلدية، ص ص. ٥٤٥، ٥٤٦

نـيويـورك
متحف المتروبوليتان للفن/ تصوير بول لاشنوير، ص. ١٦٧ ؛
متحف المتروبوليتان للفن / تصوير بروس وايت، ص. ١٨١

بـاريـس
المكتبة الوطنية الفرنسية (BNF)، ص ص، ٤٤٥، ٤٨٤، ٥٢٢-٥٢٣، ٥٢٧، ٥٤٠، ٥٥٢ ؛
هيلين داڤيد، ص ص. ٢٨-٢٩، ٨٣، ١٠٠، ١٣٣، ١٣٧، ١٥٦، ٣٩٦، ٤٠٩، ٤١٤، ٤٤٢، ٤٦٠، ٤٦٨، ٥١٩ ؛
ج. يـوتينـغ، ص، ٥١ ؛
البعثة الأثرية في مدائن صالح، ص ص. ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣ ؛
٢٠١٠ متحف اللوفر/ تييري أوليفيه، الغلاف ٤، ص ص. ٢٤٩، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٤٩٦، ٥٠٧، ٥١١، ٥١٣ ؛

تصوير غابيل أبيكاسيس : ص، ٣٤ ؛
تصوير بياتريس اندريه سالفيني : ص. ٣٩ ؛
تصوير فرانسواز ديمانج : ص. ٢٦٠ ؛
تصوير مارسيل ديولافوا : ص. ١٠٥ ؛
تصوير فيليب مايار، ص. ٣٦٦ (أعلى) ؛
تصوير وزارة الشؤون الخارجية والاوروبية، ص. ٧ ؛
تصوير ليلى نعمه، ص. ١١٥ ؛
تصوير اتـحاد الـمتاحف الـوطنية (RMN) (المعهد الفرنسي)/ جيـرار بـلو، ص. ١٠٣، ٤٨٧ ؛
تصوير اتحاد المتاحف الوطنية (RMN)/ كريستيان لاريو، ص. ٨٧ ؛
تصوير (RMN)/ دانيال لوبيه، ص. ١٦٥ ؛
تصوير (RMN)/ فرانك روكس، ص ص. ١٢٠، ١٢٤، ١٨٠ (أعلى) ؛
فرانسوا فيلنوف (رسم) : ص. ١٢٥ ؛
تييري رونارد، ص ص. ٤٦٤، ٤٦٥

الـريـاض
مكتبة الملك عبدالعزيز الوطنية، ص. ٥١٦ ؛
مكتبة الملك فهد الوطنية، ص ص. ٤٩٤، ٤٩٥ ؛
مركز الملك فيصل للأبحاث والعلوم الإسلامية، ص. ٥١٤، ٥٣٩ ؛
٢٠١٠ أومبرتو دا سيلفيرا : صورة الغلاف، ص ص. ٣٢-٣٣، ١٢٦-١٢٧، ١٤٨، ١٦٠-١٦١، ١٩٨-١٩٩، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٨٩، ٢٩٠-٢٩١، ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦٢-٣٦٣، ٣٧٠، ٣٧٩ ؛
مجيد خان، ص ص، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥ ؛
الهيئة السعودية للسياحة والآثار، ٩٠، ١٠٨، ١١٦-١١٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢ (أعلى)، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠-٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٥٩ (أعلى)، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤١٠-٤١١، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٨، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٢، ٥١٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٣٦-٥٣٧ ؛
محمد بـابـلّي : ٥٤، ٥٨-٥٩، ٦٢-٦٣، ٦٦-٦٧، ٦٩، ٨٠، ٩٩، ١٢٢-١٢٣، ١٣٠-١٣١، ٢٥٤ ؛
سعيد ف. السعيد، ص. ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨ ؛ SCTA / يونيسكو : ص. ٣٨

فـينيسيـا
متحف سيفيكو كورير، ص. ٥٥٣

واشنطن
مكتبة الكونغرس قسم الجغرافيا والخرائط، ص، ٤٧

الحقوق محفوظة:
ص ص. ٧٧، ٨٨، ٩٤، ١٠٧، ١٣٦، ١٤٠، ١٨٠ (أسفل)، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٥، ٢٥٩، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٧٠، ٣٩٠، ٣٩١، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٥، ٤٧٣، ٤٧٥.

هذا الكتاب مطبوع على ورقٍ
يراعي ظروف البيئة
صُنع أرجوويغينز غرافيك (Arjowiggins Graphic)
سَتِمَتْ غْرين (Satimat green) ١٥٠غ للغلاف
والصفحات الداخلية

سَتِمَتْ غْرين، هو ورق صقيل، أبيض، ونصف داكن
٦٠٪ توليفي، مكفول (FSC)، من أخشاب خليطة (SGS-COC-٠٠٣١٦١)

ان متحف اللوڤر، إذ يختار طبع هذا الكتاب
على سَتِمَتْ غْرين، وهو ورق مصنوع
من ٦٠٪ من ألياف، ومكفول (FSC) أخشاب خليطة،
قد أتاح توفير:
طاقة تعادل ٨٦٨ ٣٣ ك. و./س
٨٣٩٠ ٣٤ لتر ماء
٦٧٨ ٤ كلغ من ثاني أوكسيد الكربون، اي ما يوازي مسافة ٩٣٢ ٣٤ كلم
تجتازها بسيارة أوروبية متوسطة،
٧٨٢ ١٣ كلغ تُرمى في القمامة.

SATIMAT GREEN

الإيداع القانوني: سبتمبر ٢٠١٠
مطبوع في إيطاليا (المجموعة الأوروبية)

الحفر الضوئي في Quat'Coul (مدينة تولوز، فرنسا)
طبع Grafiche Marini Villorba (إيطاليا) في شهر سبتمبر ٢٠١٠